المجلد 109

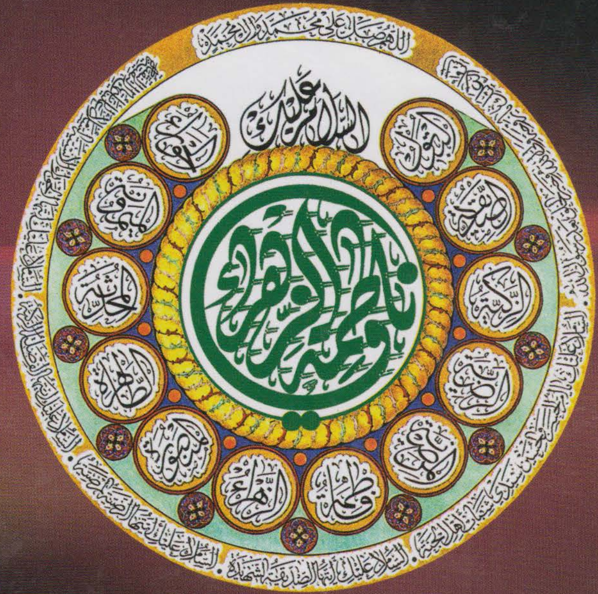
2



موسوعة فصلية تعنى بالآثار والتراث تصدرها أكاديمية الكوفة في هولندا
السنة السابعة والعشرون / 2015م - المجلد 109

صاحبها ورئيس تحريرها
محمّد سعيد الطريحي

فاطمة الزهراء ع
سيدة النساء





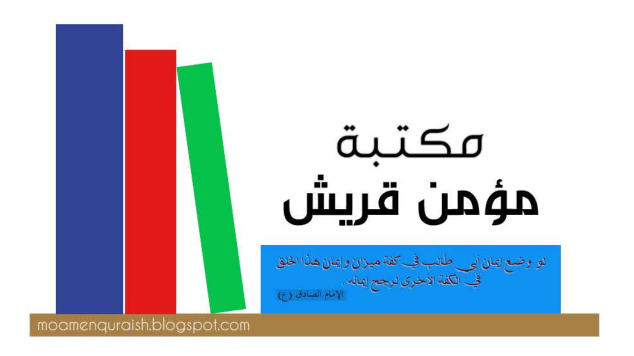
مؤتمرات الزهراء الدولية
القسم الثاني

فاطمة الزهراء ع سيدة النساء

2

مؤتمرات الزهراء الدولية

القسم الثاني





المجمع العلمي الفاطمي

تعنى بالفكر و الثقافة و البحث العلمي ، و رعاية المواهب ، و تكريم المبدعين والأعلام المتميزين ، ممن خدموا الانسانية وامنوا بالحوار والتسامح و التعاون البشري.



الإهداء

أهـدي الكتـاب إلى الـنبي الهـادي وإلى الوصـــي وآلـــه الأمجـــادِ

وإليـك يـا فخـر العـوالم فـاطم أم الأئمـــة علَّـــة الإيجـــادِ

وإلى البتولـة مـريم مَـنْ أنْجَبَـت بمـــشيئةِ الله المـــسيح الفـــادي

فَضلٌ لبضعة (أحمد) لا ينْقَضي بـــاقٍ مـــدى الأزمـــان والآمـــادِ

نـــورٌ لـــسيدة النـــساء بطيِّـــه نـــور النبـــوة بَـــانَ لِلوُفَّـــادِ

يـا عِتْرَةَ الزهـراء مـا لـي غيركـم أنـــتم أهيـــل محـــبتي ووِدادي

يـــا آل بيـــت المـــصطفى بـــوِلاكُمُ نيـل المُنَـى يـا كعبـة القُـصَّادِ

لا أرتجـــي إلاَّ القبـــول وســـيلة تـشفي غليـل حـشاشتي وفـؤادي

M. S. Schrijveer
AMSTERDAM: CONCERT-GEBOUW



موسوعة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

الكوفة
Kufa Academy



هولندا



KUFA ACADEMY
P.O.Box 1113
3260 AC Oud-beijerland - The Netherlands
e-mail: mawsem7@gmail.com
www.almawsem.org



مسجلة لدى المكتبة الملكية لاهاي : ISSN: 978-90-823280-3-5

جميع الحقوق محفوظة

فهرس

❖ فاطمة الزهراء (ع) من وفاة الرسول (ص) حتى وفاتها (ع)
.... د. الشيخ محمد حسين علي الصغير ٩
❖ أسرار أسماء الزهراء (ع) .... الشيخ رسول عبد السادة ٨٢
❖ التحولات الاجتماعية في خطبة السيدة فاطمة الزهراء (ع)
.... د. أحمد علي حنيحن الشريفي ٨٧
❖ خطبتا الزهراء (ع) دراسة في البعد التداولي (في ضوء أفعال الكلام)
.... خالد حويِّر الشمس ٩٠
❖ التقابل الدلاليّ في خطبتَيْ السيّدة فاطمة الزهراء (ع):
(دراسة تحليلية) .... د. زينب عبد الحسين السلطاني
.... م. م. معالي هاشم أبوالمعالي ١٠٤
❖ خطبة السيدة الزهراء (ع) في نساء المهاجرين والأنصار
(دراسة وتحقيق) .... م. م زينب عبد الله كاظم الموسوي ... ١٢٠
❖ الملحق: تحقيق نص خطبة السيدة الزهراء (ع)
في نساء المُهاجِرينَ وَالأنْصار ١٤٠
❖ الإيحاء والتصوير في خطبة الزهراء (ع) (دراسة في البنى الأسلوبية)
.... د. جنان محمد مهدي..................... ١٤٦
❖ خطبة الزهراء (ع) في المسجد النبوي الشريف (لما منعت فدكا)
.... د. حسن عبد المجيد عباس الشاعر.. ١٥٨
❖ خطبة الزهراء (ع) ثورة الحق ومعجزة الاحتجاج
.... د. حسن كاظم أسد الخفاجي ١٧٣
❖ خطبة الزهراء (ع) الكبرى: دراسة بلاغيّة
.... د. حسين لفته حافظ ١٨٩
❖ خطبة الزهراء (ع) في المسجد النبوي الشريف (لما منعت فدكا):
(دراسة في المدلول النصيّ) .... د. حيدر كريم كاظم الجمّالي ١٩٨
❖ البنى التركيبية في خطبة السيّدة الزهراء (ع)
.... د. حيدر عبد الزهرة التميمي ٢٣٠
❖ بنية الحجاج من منظور لسانيات الخطاب في خطبة الزهراء (ع)
.... د. فاطمة كريم رسن.................... ٢٤٨

❖ أسلوبية البناء في خطبة الزهراء (ع) الخطبة الكبرى مثالاً
أ. م. د. عواد كاظم لفتة الغزي - أ. م. د. علي حسين جلود الزيدي ٢٧٢
❖ آيات الوعيد في خطبة الزهراء (ع). د. عدي جواد الحجار ٢٧٩
❖ مظاهر من التماسك النصّي في خطبة الزهراء (ع) الفدكيّة
.... أ. م. د مجيد مطشر العامر
.... أ. م. د كاظم فاخر الخفاجي ٢٩٧
❖ المرجعيات القرآنية النصية وأثرها في بناء النص الخطابي: (خطب السيدة الزهراء (ع) إنموذجاً) ...... د. مجيد مطشر العامر ٣٠٦
❖ البنى الصرفيّة في خطبة السيّدة الزهراء (ع)
.... د. بان صالح مهدي الخفاجي........ ٣١٥
❖ التفاعل النصّي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع)
.... د. محمد قاسم لعيبي ٣٢٩
❖ أثر القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع): دراسة في ضوء مصادر الخطابة في العصر الإسلامي ...... أحمد حسن صاحب الموسوي ٣٤٣
❖ الجملة العربيّة في الخطبة الفدكيّة (التركيب والدلالات)
.... أ. م. د حيدر جبار عيدان ٣٥٩
❖ السيدة فاطمة الزهراء (ع) ينبوع الثقافة الإنسانية المتعددة الأبعاد
.... د. محمد جميل قلندر ٣٩٤
❖ حقيقة مصحف فاطمة .... الشيخ محمد جواد مغنية............ ٤٠١
❖ تجليات النصرة الإلهية للزهراء المرضية
.... السيد مرتضى الشيرازي ٤٠٤
❖ إضاءات حول مكانة السيدة الزهراء (ع) في التراث البحراني
.... أ. وسام السبع ٤١١
❖ توثيق شعر السيّدة فاطمة الزّهراء (ع)
.... د. عادل لعيبي سلمان الربيعي....... ٤٣٧
❖ في ذكرى الزهراء (ع) .... حسن عبد الحسين المسقطي اللواتي .. ٤٦٤
❖ السر الإلهي يتجلّى في بضعة النبي الأعظم محمد (ص)
.... د. زينب محمد عيسى.............. ٤٦٨
❖ الفتح والبشرى في مناقب الزهراء. تأليف: السيِّد محمّد الجفري
.... تحقيق: محمد سعيد الطريحي ٤٨١

❖ الدرةَ اليتيمة في بعض فضائل السيدة العظيمة
............تأليف الشيخ عبدالله المير غني الحنفي المكي
.... تحقيق محمد سعيد الطريحي ٥٠١
❖ الثغور الباسمة في فضائل السيدة فاطمة (ع)
.... تأليف الحافظ جلال الدين السيوطي
.... تحقيق محمد سعيد الطريحي ٥٠٧
❖ الزهراء (ع) ريحانة الرسول ونفسه وروحه التي بين جنبيه
.... يوسف كتاني ٥٢٩
❖ تزويج فاطمة (ع) برواية الإمام محمد الباقر (ع) ٥٣١
❖ فاطمة الزهراء (ع) .... محمد رضا الكتبي............ ٥٣٥
❖ فاطمة الزهراء............ سيف الدين زيد الكيلاني ٥٤٠
❖ رسائل نادرة: رسالة في صداق السيدة فاطمة الزهراء (رض)
للشيخ صبغة الله بن محمد غوث المدرسي (رحمه الله) ٥٤٢
❖ فخر النساء فاطمة............ خليل رشيد ٥٤٧
❖ السيدة فاطمة الزهراء .... عبد السلام الشاذلي القوصي ... ٥٥٧
❖ فاطمة الزهراء............ عارف النكدي ٥٦١
❖ بيت فاطمة .... الشيخ محمد جواد مغنية ٥٧٣
❖ فدك وسيدة نساء العالمين (ع) .... د. حمود عبد المجيد بهية ٥٧٦
❖ بيلوغرافيا السيرة الفاطمية: مطالعة في الدراسات الإسلامية
حول فاطمة الزهراء (ع) .... أ. محمد نوري
.... ترجمة: محمد عبد الرزاق............ ٥٩٦
❖ دراسة فلسفية لبعض جوانب كونية السيدة الزهراء (ع)
.... د. محمد عبد اللاوي ٦٠٥
❖ بلاغة الزهراء (ع) في كلمات الأعلام والدراسات العلمية
.... د. عبد الله حسن آل درويش القطيفي ... ٦٠٩
❖ القديسة فاطمة سيدة السماء نقطة للتلاقي الإسلامي - المسيحي
.... محمد سعيد الطريحي............ ٦٣٥
❖ فاطمة الزهراء لـ: د. محمد إقبال. ترجمة أ. محمد حسن الأعظمي
.... و أ. الصاوي شعلان ٦٣٩

❖ الزهراء .... خليل شقير ٦٤٠
❖ الزهراء .... هاشم أبو الحسن الأمين ٦٤١
❖ فاطمة الزهراء .... علي محمد الحائري ٦٤٣
❖ القصيدة الفاطمية ٦٤٤
❖ الزهراء .... محمد رضا القزويني ٦٤٥
❖ مناجاة الزهراء ..... السيد محمد الشحومي الحسني الإدريسي .. ٦٤٧
❖ في الميلاد الفاطمي: عندما تخلع الصمت الحروف
.... عباس الشيخ مرتضى عياد ٦٤٨
❖ فاطمُ بضعتي .... عبد الحسين حمد ٦٥٠
❖ زفاف الشمسِ للقمرِ .... حسين صادق ٦٥٠

أمَ السيدةَ الزهراء (ع) السيدة خديجة الكبرى (رض)

❖ خديجة بنت خويلد الصِّديقة الكبرى
.... محمد خليفة التونسي ٦٥٢
❖ أم الزهراء.. أعظم النساء خديجة (رض)
.... عبد المقصود حبيب ٦٦٤
❖ مدرسة الرسول السيدة خديجة «أم المؤمنين (رض)»
.... عبد المنعم حمادة ٦٦٩
❖ من مناقب السيدة خديجة الكبرى . عبد المنعم محمد عمر ٦٧٩
❖ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد .. أ. عبد الحميد العبادي ٦٨٥
❖ خديجة بنت خويلد .... نعمت عامر ٦٩٢
❖ على قبر خديجة أم المؤمنين ..... عزيز أباظة ٦٩٣
❖ خديجة الكبرى .... الشيخ سلمان الانباري ٦٩٥
❖ دار خديجة أم خويلد .... إبراهيم رفعت باشا ٧٠١
❖ السيدة خديحة أم نساء العالمين . عبد العزيز كاظم البهادلي ٧٠٤
❖ البَقيع في الشعر العربي .... إعداد محمد سعيد الطريحي ٧١٧
❖ البقيع ومشاهد المدينة المنورة ... عبد الرحيم بن حسن بن حربي ٧٥٧
❖ من موسم إلى موسم: القبس الروحي الفاطمي ٨٠٨
بعض الأعمال المنشورة لصاحب موسوعة "الموسم" محمد سعيد الطريحي ... ٨١٠

فاطمة الزهراء
من وفاة الرسول (ص) إلى وفاتها (ع)

د. الشيخ محمد حسين علي الصغير

كان انفتاحُ الزهراء (ع) على هموم الأمة مؤشّراً رسالياً فذّاً، وحقَّ لها أن تنفتح؛ لأنّها الوريث الشرعي لنبيّ هذه الأمّة، والوريث الروحي لتراث هذا الدين الخالد.

ولم يكن انفتاح الزهراء المثالي اعتباطاً بل كان ضرورياً ضرورة تفرضها مرحلة الانحراف عن خطّ أهل البيت.. ولم يكن صادراً عن عواطف وإيحاءات أسرية.. إنّه اصطفاف تاريخي موحّد ووقوف إلى جنب أمير المؤمنين لدى انحسار عصر النبوة، وقيام مرجعية الصحابة في الدولة الفتية.

وكان هذا الانفتاح المنظّم انعطافاً فوقياً في حياة الزهراء بإزاء كشف الحقائق، ومجابهة الأحداث.. وذلك امتداد طبيعي للدور الرسالي المبرمج الذي نهضت به في ظروفٍ خطيرة جدّاً.. إذ استلهمت واقع الإسلام مرتبطاً بقيادة أهل البيت في ظلّ تأكيدات الرسول الأعظم عليه باعتبارهم الممثلين الحقيقيين للوصاية والقيمومة على الإسلام.

وحينما أبصرت الزهراء خضمّ النزعات الجادة في إطفاء جذوة هذه الشعلة.. نهدت بحزمٍ وعزم لصدِّ هذا الاعتداء السافر.. وردّ تلك الاتجاهات المغلّفة بطريقتها الخاصة بالانفتاح على الأحداث لمتابعتها، والمقاومة السلمية حيناً، والمقاومة الهادفة حيناً آخر.. ونريد بالمقاومة الاحتجاج والمناظرة وصراحة القول بحيث لا تأخذها في الحقّ لومة لائم.

وكانت الزهراء في الصميم من مشكلات العصر، والعمق من إشكاليات الفترة الزمنية الجديدة، وهي تراها طارئة على الأفق الإسلامي.. فحدبت في محاولة شجاعة تدرأ المشكلات و تهذيب الإشكاليات بزخم تعبوي حاشد من الأدلة والبراهين والحجج؛ لترسيخ مبدا القيادة بإمامة اهل البيت، وخلافتهم للرسول الأعظم (ص).. وكان علمها بأصول الدين.. وتبحرها في معالم الشريعة، وتلقيها تفسير القرآن وعلومه من أبيها وبعلها.. كان حرياً بأن يجعلها في مصافّ الوعي الرسالي أوّلاً بأوّل.. وهي تتدارسها حيناً.. وترويها شفاهاً حيناً آخر.. وتكتبها بعض الأحايين.. وكانت تلك الإفاضات التشريعية التي تلقتها بجوار رسول الله (ص) زائراً لها أو عائداً أو مشتاقاً قد أخذتها عن أبيها مباشرةً وعن زوجها مشافهةً دون وساطة، أو عِبْر رواية عن أحد.. وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فالزهراء - إذن أحد روافد الشريعة الغراء دون مكابرة.. وسيتضح فيما بعد مدى تمرّسها العريق بأصول الدين وأحكام الشريعة في ضوء خطبها وحجاجها وانفتاحها العلمي بحيث لم يستطع أحد المجابهة في الردّ عليها إلاّ جزافاً، ولا الاعتراض إلاّ مغالطة.

وقد تحمّلت الزهراء سيلاً من الرزايا والمحن بإزاء انفتاحها على الأمّة لبيان الرأي الجريء في التحديّات المعاصرة لها، وكابدت الآلام النفسية والأمراض الجسدية جرّاء ذلك.. وتعرّضت لسطوة الاعتداء الأثيم كما سترى ذلك بموقعه ولكنّها قامت بما ينبغي لها أن تقوم به في سبيل ترصين الأسس القويمة لمبدأ الإمامة في الإسلام، وهو هدفها المركزي.

يقول الشهيد السيّد محمد باقر الحكيم: ((لقد قامت الزهراء بدور يمكن أن نقول فيه: لولا وقوفها في ذلك اليوم إلى جانب أمير المؤمنين (ع) لكان من الممكن أن تخفى الإمامة على الأجيال التي جاءت بعد عليّ (ع) وتتشوّه وتتغيّر.. ولولا إكمالها دور علي (ع) في ذلك اليوم لكان من الممكن اختفاء هذه الحقيقة على كلّ المسلمين.. ويبقى المسلمون في ضلالٍ وبُعدٍ عن الواقع الذي جاء به رسول الله (ص).

لقد كان للزهراء الدور العظيم في حفظ الإسلام والحقائق الإسلامية، والمنهج والمذهب الصحيح الذي توارثناه عن أئمة أهل البيت (ع).

وهذا الدور شبيه بدور الإمام الحسين (ع) بتضحيته وفدائه، والذي أكملته العقيلة زينب (ع)، ولولا هذا التكامل في الأدوار بين الحسين وزينب (ع) لم يحفظ الدين ولم يبق))[1].

وقد لحظت الزهراء (ع) أنّ خطّاً جديداً قد فاجأ المسلمين باجتهاداته الخاصة بنظر يخالف الخطّ الذي ينبغي أن يكون تنفيذاً لأوامر رسول الله (ص) في إرساء قواعد خلافته في النصّ على صاحبها في مواطن كثيرة كان أبرزها يوم الغدير بعد حجّة الوداع في الثامن عشر من ذي الحجة قبل وفاته بسبعين يوماً بالضبط.

وقد انساق وراء هذا الاتجاه المعاكس جمهور المسلمين رهباً ورغباً.. بتفصيلات ليس هذا موقع بحثها.

وقد ثبت قلّةٌ من المسلمين الأبرار على الخطّ النبوي المستقيم، وكانوا يمثلون النخبة الصادقة، من المهاجرين بخاصة، وبني هاشم بعامة، وبعض الأنصار.. وقد أنكر قسمٌ منهم مجريات هذا الحدث المأساوي في استبعاد أهل البيت (ع) عن القيادة.. ولكن نكيرهم كان صرخةً في وادٍ.

وفي حمأة هذا المناخ الساخن كان انفتاح الزهراء على الأمّة.. إلقاءً للحجّة.. ومحاذرة على مسيرة الإسلام من الانحراف. انفتحت على المهاجرين والأنصار وهم الملأ.. قصدتهم في عقر دارهم.. وتحدّثت إليهم برباطة جأشٍ، وقوّة بصيرة، وبلاغة لسان.. فلم يغيّروا شيئاً.. واعتذروا بسبق البيعة، ونفاذ الأمر.. إلاّ عصابة قليلة ستتجلّى مواقفهم الجريئة فيما بعد.

وكان هذا التحرّك من الزهراء (ع) تحرُّكاً إيجابياً بوعيٍ رسالي، استجابة لغيرة قصوى على مصير الأمة.. وحميّة مثلى على الدين من التآكل.. ولم يكن نابعاً من تعبير

---

(١) محمد باقر الحكيم، الزهراء.. أهداف.. مواقف... نتائج: ٤٢، وما بعدها، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، مطبعة الستر الطاهرة، النجف الأشرف، ٢٠٠٦م.

عاطفي نحو أمير المؤمنين (ع)، فهي أكبر من الازدواجية في المعايير.. ولكنّه التكليف الشرعي حتّى الإنذار.

وانفتاح الزهراء هذا على جملةٍ من المهاجرين والأنصار لم يتعدّ الميزان في وضع الأمور بنصابها.. ولكنّها منيت من ذلك بالخيبة الآنية بعد تجربة هؤلاء، واختبارهم عملياً.. وإن ظفرت بالنصر المستقبلي في إيقاظ المشاعر فيما بعد، وقد صوّرت هذه الخيبة لنساء المهاجرين والأنصار اللاتي تفقدنها عند اشتداد المرض بها كما سيأتي.

وقد ثبت للزهراء (ع) أنّ القضية أمرٌ دبّر بليل، ولم يكن عفوياً.. وتكفّلت بإعداده قيادة منظمّة، ودرسته من ثناياه كافة.. مُقدّمةً أطروحة بديلة عن قيادة أهل البيت (ع) في ظلّ وقائع مشهودة سبقت حدث السقيفة.. وكانت جذور ذلك ممتدة إلى العهد القريب.. ويمكن إجمال هذا الإعداد بنقاطٍ شرّق بها المؤرّخون وغرّبوا، وأهمّها:

١ ـ إنكار بيعة الغدير بدلالتها على الولاية الإلهية.. وتفسيرها بمنظورٍ بعيد عن النصّ القرآني في إرادته الوحيدة.

٢ ـ التنكر الصريح لحديث الثقلين المتواتر عن النبي بعشرات الطرق «إنّي مخلّفٌ فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلُّوا بعدي: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»[١].

٣ ـ تأويل آية التطهير، وجعلها مختصّة بنساء النبي خلافاً للسُّنّة العملية في حديث الكساء المتواتر.. ومجانبة لسياق النصّ في ضمائره المذكّرة.

٤ ـ تصاعد موجة النفاق بالمدينة المنوّرة في استهداف أهل البيت (ع)، ومعالم الدين الحنيف.

٥ ـ التآمر على رسول الله (ص) والإيقاع به لدى عودته من غزوة تبوك.. وقذف راحلته بالدباب.. ومحاولة دحرجته بالوادي.. وإسرار النبيّ بأسماء هذه الجماعة لحذيفة بن اليمان حتّى سمي صاحب سرّ رسول الله[٢].

٦ ـ تخلّف كبار الصحابة عن الالتحاق بجيش أسامة، وروي أنّه (ص) قال: «أنفذوا جيش أسامة.. لعن الله من تخلّف عن جيش أسامة»[٣].

٧ ـ رزية يوم الخميس، حينما أمر النبي (ص) عند وفاته بكتف ودواة؛ ليكتب شيئاً: «هلمُّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده أبداً».

وقد رفضوا ذلك.. وقالوا: حسبنا كتاب الله! ورموا النبي (ص) بالهجر تارةً.. وبالوجع تارة أخرى[٤].

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢٧/٣٤، ابن الأثير، جامع الأصول: ١٨٧/١.

(٢) ظ: تمام الواقعة في المجلسي، بحار الأنوار: ٢٤٧/٢.

(٣) المرجع السابق: ٢٨/١٠٧.

(٤) البخاري، صحيح البخاري: ٣٧/١، ومسلم، صحيح مسلم: ٧٦/٥.

٨ - تغلغل الفكر الجاهلي القائل: بكون القضية قضية ملك لا نبوة! كما قال أبو سفيان للعباس عمّ النبي: «يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس: ويحك إنّها النبوة»[1].

وكان هذا قرب فتح مكة.. والنبي في طريقه إليها.

وكان هذا المفهوم يمثل خطراً صريحاً على الإسلام.. وقد روّج له رعيلٌ من المنافقين، ومسلمة الفتح، والسائرون بركابهم، والناس قريبو عهد بالجاهلية.. ولمّا يتغلغل الدين الجديد ويترسّخ في القلوب.

كلّ هذه الإشكاليات كانت نصب عيني الزهراء (ع).. ولكنّها سارت بقضيّتها قدماً على هذا الوجه، ولولا ذلك لبقيت قضية الإمامة غير واضحة المعالم.. ولكنّ الزهراء ابنة أبيها.. وأمّ أبيها.

وقد ذهب عمر بن الخطاب (رض) غير مذهب الزهراء (ع) فرأى أنّ ما أقدمت عليه السقيفة هو الصواب، فقال لابن عبّاس ما رواه الطبري (ت ٣١٠هـ): «.. فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت».

فطلب ابن عباس الكلام فأذن له، فقال في معرض الردّ عليه: «أمّا قولك: اختارت قريش لنفسها فأصابت ووفقت، فلو أنّ قريشاً اختارت لنفسها حيث اختار الله عزّ وجل لكان الصواب بيدها، غير مردود ولا محسود.. وكان ذلك محاججة طويلة اكتفينا منها بموضع الشاهد»[2].

ومع كلّ هذا الاتجاه المعاكس لاتجاه رسول الله (ص) في المواقف كلّها.. فقد ربطت القضية بالحسّ القبلي لدى قريش.. بينما ربطت الزهراء ذلك بالمنظور الإلهي.. وفرقٌ بين الأمرين.

ولم يكن انفتاح الزهراء على القوم بمعزلٍ عن قيادة أمير المؤمنين ورأيه.. فما كانت لتعدو إشارته.. ولا لتخالف أمره.. بل هما مشتركان في هذا التخطيط الحضاري في الإنكار السلمي، ومقابلة القرار القرشي بالردّ الحاسم، والرفض الصارخ.

واكتفى أمير المؤمنين (ع) للظروف الخاصة والمحيطة به.. اكتفى بانفتاح الزهراء بهذا المنطق الذي أفلج القوم.. فلاذوا بالصمت حيناً.. وبالاعتذار حيناً آخر.. والقعود عن المجابهة وهو الأمر الواقع الذي كان.

ولم يشأ الإمام علي (ع) أن يناضل عن حقّه بالسّيف.. ولا أن يتذرّع بقتال القوم.. والإسلام بعد في فجره، ورأى أنّ الصبر هو الأحرى به ملتزماً بوصية رسول الله (ص) بالإغماض ولو إلى حين عن حقّه دون الدُّخول في هرجٍ ومرج، ولا أول له ولا آخر، وقال الإمام

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٢/٢١.

(٢) ظ: الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ٢٨٩/٢.

كلمته المشهورة: «والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليّ خاصة»[1].

وهكذا كان.. فقد نهد الإمام بوظيفة مثالية في الهدوء والسكينة والإعراض عن القتال الدامي والنضال المسلّح حفاظاً على وحدة المسلمين.

ولقد حمّلت الزهراء بأسلوبها الرصين في الخطاب والإبلاغ الطبقة المهادنة والواعية مسؤولية ضياع الخلافة.. وهم بمشهد ومسمع.. بين صامتٍ لا حراك به، ومتوثبٍ لا يقدر على شيء، ومتفرّجٍ مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء.. والمنطق للعنف والقوة.. وعليٌّ آثر الصبر والتحمّل.. فالدين جديد.. والانفلات منه محتمل لدى الناس.

ونشير هنا أنّ الولاية الإلهية لا تعني تسلّم زمام الحكم.. والإمام هو الإمام المفترض الطاعة حكم أو لم يحكم.. وكان اكتفاء الإمام علي (ع) بما قدّمته الزهراء (ع) دليلاً على حنكته السياسية وقيادته الفذّة.

ولم يكن لغير الزهراء (ع) الحراك السياسي الفاعل بهذا المستوى من المجابهة التي تعدّ مقاومة فعلية لقرار السقيفة.. وكانت قادرة أن تعبّر عن رأيها صراحة دون تلميح.. وقد أهلتها مكانتها المرموقة في المجتمع أن تتصدّى لكشف الزيف والدجل والابتزاز.. وكانت خطبتها الشهيرة في المسجد النبوي.. ومخاطبتها للمهاجرين والأنصار.. واستقبالها لجمهرة من نساء أهل المدينة، وخطبتها البليغة فيهن.. ومحادثة الرجال والنساء في القضية الأصل.. كان لكلِّ ذلك معنى الاستمرارية في التصدّي المتنوّع لمؤتمر السقيفة..

وقد يشكّل ذلك نقطة انطلاقٍ محورية في فتح باب الجهاد قولاً وعملاً.. مما كان ينبغي أن يقوم به زعماء المهاجرين والأنصار.. ولكنّهم لم يفعلوا ذلك لعوامل يطول شرحها.. ولكنّ الزهراء (ع) وقفت وجهاً لوجه أمام مسؤوليتها الرسالية.. وتجرّعت جرّاء ذلك الغصص والآلام والهجوم على الدار.. وكان إفراز التناقضات قد أدّى إلى استشهادها المبكّر في ريعان الشباب.. بيدَ أنّها انتصرت انتصاراً ساحقاً مستقبلياً.. فظلامتها قد انحسرت عن تعرية التاريخ الرسمي لأجيالنا.. وصوتها المدوّي النابض قد شقّ طريقه إلى القلوب.. فبقدر انفتاحها على الأمّة كان انفتاح الأمّة لها من الأعماق.. ونريد بذلك الأمّة الواعية التي تستلهم قيم الرسالة بنفوسٍ مطمئنة، وهي تنظر بموضوعية إلى ملحمة الزهراء الخالدة.. فتثبت على المبدأ صلابةً وأصالة.

خطبة الزهراء في المسجد النبوي:

من نافلة القول التأكيد على مقدرة الزهراء البيانية.. والتحدّث عن بلاغتها في فصل الخطاب.. فهي ابنة أفصح من نطق بالضاد، وهي زوج من فتق البيان على ألسنة العرب..

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة للإمام علي: ٦/١٦٦.

تمرّست بلاغة القول في البيت النبوي.. فكانت تحكي عذوبة منطق الرسول الأعظم (ص)، ورصانة تعبير الإمام علي (ع).. ولا أطيل بذلك أكثر من هذا.

وبين يدي البحث «خطبة الزهراء» في المسجد النبوي على رؤوس الأشهاد احتجاجاً على أبي بكر (رض) في شؤون الخلافة وقضايا الإرث، وسهم ذوي القربى والنحلة.. وهي الخطبة الغراء التي أوردتها الأسانيد المعتبرة، وتناقلتها كتب الثقات، واشتملت عليها روايات القدامى، ويرويها بنو هاشم ويعلّمونها أبناءهم.. ونوردها برواية ابن أبي طيفور (ت ٢٨٠ هـ)، قال أغلب المؤرّخين عن عائشة أمّ المؤمنين وسواها:

لمّا سمعت فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فدكاً والإرث، وسهم ذوي القربى، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمّةٍ من حفدتها ونساء قومها.. تطأ ذيولها.. ما تخرم من مشية رسول الله (ص) شيئاً، فدخلت عليه وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة فجلست، ثمّ أنّت أنّةً أجهش لها القوم بالبكاء، فارتجّ المجلس ثمّ أمهلت هنيهة حتّى إذا سكنَ نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله أبيها (ص) فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها، وقالت:

«الحمدلله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نِعَمٍ ابتداها، وسبوغ آلاءٍ أسداها، وتمام نعم والاها، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتهم بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنارَ في التفكّر معقولها؛ الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته، وحياشاً لهم إلى جنّته، وأشهد أن أبي محمداً (ص) عبده ورسوله، اختاره وأنتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله بمآل الأمور، وإحاطةً بحوادث الدّهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأنار الله تعالى بأبي محمد (ص) ظُلَمَها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلا عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم، ثمّ قبضه إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد (ص) عن تعب هذه الدار

في راحة قد حفّ بالملائكة والأبرار، ورضوان الربّ الغفار، ومجاورة الملك الجبار صلّى الله على أبي نبيّه وأمينه على وحيه وصفيّه، وخيرته من الخلق ورضيه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثمّ التفت الزهراء (ع) إلى أهل المجلس، وقالت:

أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حقّ له فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقيّة استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلّية ظواهره، مغتبطٌ به أشياعه، قائدٌ إلى رضوان الله أتباعه، مؤدٍّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنوّرة، وعزائمه المفسّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماءً للرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السّخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

وأطيعوا الله فيما أمركم به، ونهاكم عنه فـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

أيُّها الناس: اعلموا إنّي فاطمة، وأبي محمد (ص) أقولُ عوداً وبدءاً، ولا أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل إلا شططاً، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[3]. فإنّ تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه، فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسّر الأصنام، وينكت الهام، حتّى انهزم الجمع وولّوا الدبر، وحتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقائق الشياطين، وطاح وشيظ

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

(٣) سورة التوبة: ١٢٨.

النفاق، وانحلّت عقدة الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص، في نفرٍ من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرةٍ من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القِدّ، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد (ص) بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[1]، أو نجم قرن للشياطين، أو فقرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفي حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله (ص) سيّداً في أولياء الله، مشمّراً ناصحاً، مجدّاً كادحاً، وأنتم في بلهنية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدوائر، وتتوكّفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرُّون من القتال، فلمّا اختار الله لنبيّه (ص) دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبر، إبتداراً زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون، وهذا كتاب الله بين أظهركم: أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون، أم بغيره تحكمون ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾[3]. ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[4].

ثمّ لم تلبثوا إلاّ ريثما تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء نور الدين الجلي، وإهماد سنن النبي الصفي، تسرّون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله في الخَمَر والضرّاء، ونصبرُ منكم على مثل حزّ المدى، ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[5].

أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته. ويا أيّها المسلمون أأُغلب على إرثي؟.

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

(٢) سورة التوبة: ٤٩.

(٣) سورة الكهف: ٥٠.

(٤) سورة آل عمران: ٨٥.

(٥) سورة المائدة: ٥٠.

صور تذكارية من مؤتمرات الزهراء (ع)
النجف الأشرف (٢٠١٢ ـ ٢٠١٣م)



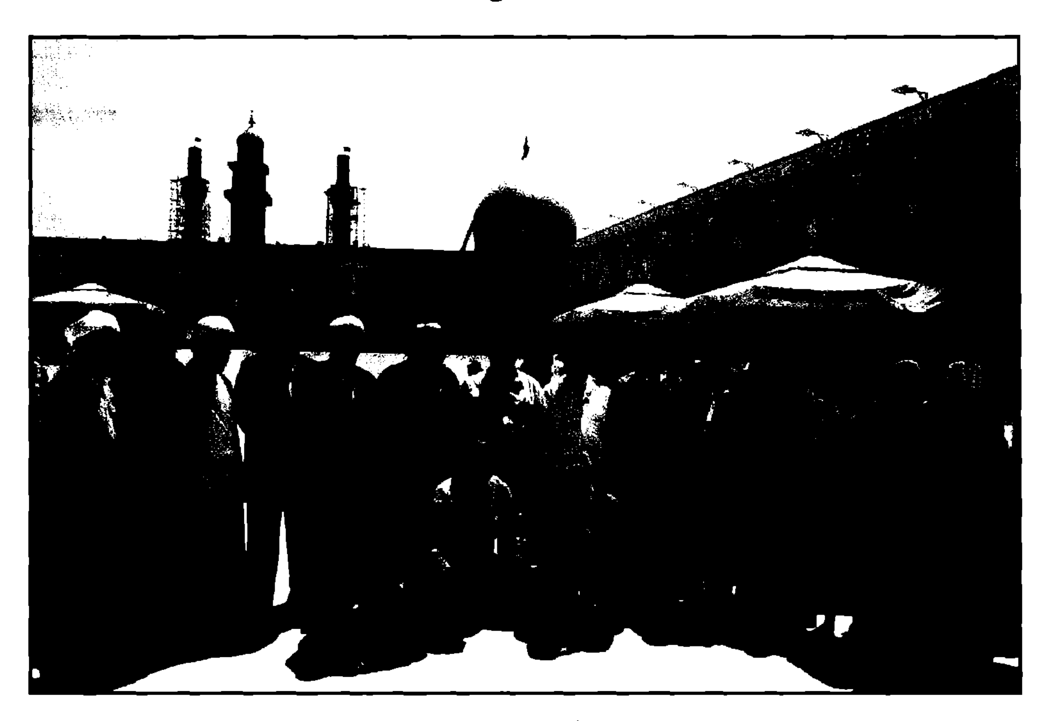
محمد سعيد الطريحي يلقي التوصيات والبيان الختامي.



عدد من الباحثين خلال مناقشة التوصيات.



زيارة الشهيد عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (ع)
والد الشهيد إدريس الأول (ع) بين الكوفة والحلة.



عدد من الضيوف في صحن مسجد الكوفة المعظم.

يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[١].

وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا (ع) ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٢].

وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٣].

إيهاً بني قيلة تريد الأنصار أأهضم تراث أبي، وأنتم بمرأى منّي ومسمع، ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدّة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجُنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحمّلتم الكدّ والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، فلا نبرح وتبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتّى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدّين، فأنّى حرتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقوم ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤].

ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة، ونجوتم من الضيق بالسّعة، فمججتم ما وعيتم، ووسعتم الذي تسوّغتم فـ ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٥].

ألا وقد قلت ما قلت على معرفةٍ مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنّها فيضة النفس، وبثّة الصدر، ونفثة الغيظ، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دَبِرة الظهر، نقبة الخفّ، باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٦].

وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[٧][٨].

---

(١) سورة النمل: ١٦.

(٢) سورة مريم: ٥ ـ ٦.

(٣) سورة الأنفال: ٧٥.

(٤) سورة التوبة: ١٣.

(٥) سورة إبراهيم: ٨.

(٦) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٧) سورة هود: ١٢١، ١٢٢.

(٨) ابن طيفور (ت ٢٨٠هـ)، بلاغات النساء، بيروت، ١٩٧٢م.

فأجابها أبو بكر بقوله: (يا ابنة رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً وعقاباً عظيماً، فإن عزوناهُ وجدناهُ أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الإخلاء، آثره على كلّ حميم، وساعده في كلّ أمرٍ جسيم، لا يحبّكم إلاّ كلّ سعيد، ولا يبغضكم إلاّ كلّ شقيّ، فأنتم عترة رسول الله (ص) الطيّبون، والخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقّك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله (ص) ولا عملت إلاّ بإذنه، وإنّ الرائد لا يكذب أهله، فإنّي أشهد الله وكفى به شهيداً، أنّي سمعتُ رسول الله (ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً ولا فضّة، ولا داراً ولا عقاراً، وإنّما نورّث الكتاب والحكمة، والعلم والنبوة، وما لنا من طعمة فلوليّ الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه).

وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل به المسلمون، ويجاهدون الكفار، ويجادلون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين لم أنفرد به وحدي، ولم أستبد بما كان الرأي فيه عندي وهذه حالي ومالي هي لك، وبين يديك، لا تزوى عنك، ولا تدخر دونك، وأنت سيّدة أمّة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا يدفع مالك من فضلك، ولا يوضع من فرعك وأصلك، وحكمك نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أنّي أخالف في ذلك أباك (ص).

فقالت الزهراء (ع): سبحان الله ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره، ويقتفي سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً وعدلاً وناطقاً فصلاً يقول: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾[1]. ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾[2]. فبيّن عزّ وجل فيما وزّع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظّ الذكران والأناث، ما أزاح علّة المبطلين، وأزال التظنّي والشبهات في الغابرين، كلاّ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[3].

وقال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾[4].

وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[5].

وزعتمتم أن لا حظوة لي، ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي (ص) أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان، أولست أنا وأبي من أهل ملّةٍ واحدة، أم أنتم

---

(١) سورة مريم: ٦.

(٢) سورة النمل: ١٦.

(٣) سورة يوسف: ١٨.

(٤) سورة النساء: ١١.

(٥) سورة البقرة: ١٨٠.

أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي، فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[1]. ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[2].

ثمّ رنت بطرفها نحو الأنصار، وقالت:

يا معشر الفتية، وأعضاد الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقّي، والسِنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: المرءُ يحفظ في ولده، سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوّة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد فخطبٌ جليل، استوسع وهنه، واشتهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصيبته، وكسف الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأديلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جلّ ثناؤه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة، ولقبله ما حلّت بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[3].

فقال أبو بكر: صدق الله وصدق رسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة، وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، لا أبعد صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلّدوني ما تقلّدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر، ولا مستبدٍ، ولا مستأثر، وهم بذلك شهود.

فالتفت فاطمة (ع) إلى الناس، وقالت: معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفصل القبيح الخاسر، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[4]. كلاّ بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم لبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشرّ ما منه اعتضتم، لتجدُنّ والله محمله ثقيلاً، وغِبّه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراء الضراء، وبدا لكم من ربّكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون.

ثمّ عطفت الزهراء على قبر أبيها (ص) وأنشدت:

قد كان بعدكَ أنباءٌ وهنبثةٌ	لو كنت شاهدها لم تكثرِ الخُطَبُ
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلُها	واختلَّ قومك فاشهدهم ولا تغبِ

---

(١) سورة الأنعام: ٦٧.

(٢) سورة الزمر: ٤٠.

(٣) سورة محمد: ٢٤.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.

قال صاحب بلاغات النساء عن راوي الخطبة: فما رأينا يوماً كان أكثر باكياً، ولا باكية من ذلك اليوم.

قال السيّد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ)، والشيخ الأكبر أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، ثمّ انكفأت وأمير المؤمنين يتوقّع رجوعها إليه، ويتطلّع طلوعها عليه، فلمّا استقرّت بها الدار عتبت على أمير المؤمنين بكلامٍ شجيّ، قالت في آخره:

ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً.. ويلاي في كلّ شارقٍ، وويلاي في كلّ غارب، مات العمد، ووهت العضد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربّي.

فقال لها أمير المؤمنين (ع): لا ويل لك، بل الويل لشانئك، نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة، وبقية النبوة، فما ونيت عن ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنتِ تريدين البلغة فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعد لك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي.

فقالت الزهراء (ع): حسبي الله وأمسكت.

تقييم خطبة الزهراء:

في لغة النقد الأدبي معلمان بارزان هما: التقويم، والتقييم.. والتقويم عملية نقدية تعنى ببيان جيّد القول من رديئه.. والتقييم إظهار قيمة النصّ الأدبي، وفنّ القول..

وخطبة الزهراء الغراء التي أثبتناها في المبحث السابق ظاهرة بلاغية تغني عن الإطراء.. فهي تفرغ عن فصاحة أبيها (ص) في البيان، وتفصح عن لغة بعلها (ع) في الأداء.. ولها منها عليها شواهد في أرقى فنون البلاغة؛ وحسبها الشاهد القرآني في كلّ مقطع من مقاطعها.. ترصيناً للحجة، واستيعاباً للبرهان.. والآيات القرآنية المترادفة في سياق الخطبة تتراصف نسقاً، وتتواءم انسجاماً، حتّى طبقت المفصل، وحققت الهدف.. وإنّي لأعجب حقّاً.. ولغيري أن يعجب أيضاً من تسلسل الأفكار في ثناياها فكراً إثر فكر.. وطرح القضايا بتوءدة واستيعاب.. والتنقل من الخطاب للغيبة.. ومن الغيبة للمتكلّم، وبالعكس مع صحّة التعبير، ودقة الإرادة، ووضع النقاط على الحروف.

ولا أطيل عليك في تقييم هذه الخطبة الغرّاء.. ولست سادراً في استقصاء آراء القدامى والمحدثين من الكتاب وأرباب الصناعة، في قوّة أسرها، ونصاعة بيانها، وجمال أسلوبها، وأصالة محتوياتها، وافتنانها بأساليب التعبير الأخاذ.. فذلك أمرٌ مفروغ عنه.. واستقراؤها يثبت صحة ما نقول.

وما أكثر من علّق على هذه الخطبة.. وما أكثر من شرحها.. وما أكثر من تناول لغتها.. وما أكثر من درس البلاغة العربية في ضوء فقراتها تطبيقاً.. ولكنّني أكتفي بما حبّره الأستاذ سليمان كتاني في كتابه الرائق (فاطمة الزهراء / وَتَر في غمد) الحائز على الجائزة الأولى لأحسن كتاب في الزهراء من قبل جماعة العلماء في النجف الأشرف عام ١٩٦٨، وفق قرار لجنة التحكيم برئاسة الإمام المصلح الشيخ مرتضى آل ياسين (قدس سره).

والأستاذ كتاني وهو من أعزّ أصدقائي كاتب مسيحي محايد.. درس حياة الزهراء بعمق.. وحلل المجتمع العربي بوعي.. وقدّم دراسته عن الزهراء بموضوعية.. وعلّق على خطبتها في المسجد النبوي بلطف وعناية.. وأظهر من قيمتها الفنية بقلمه الساحر الرقيق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فقال: (لم تكن على عهد فاطمة أية لاقطة صوتية تسجّل الكلمة التي تفوّهت بها أمام أبي بكر الصديق، وكذلك لم تكن هناك أية لاقطة [ضوئية] تعكس عنها الإشارة التي كانت تبدر عنها، وهي تلقي ذلك الخطاب، حتّى لم تكن تلك اللواقط من الحروف الطائعة تنساق ملتقطة بالفكر تضبطه في إطارها.

لم يتم تسجيل الصوت ولا تسجيل الصورة لا صوت فاطمة بكلماته المتقطعة ونبراته المتدفقة، ولا صورتها بعينها الحزينة وقدّها الناحل، ولم يتم أيضاً لا تسجيل الأثر الذي تركته على جمهور ساحة المسجد، ولا تسجيل إذن أبي بكر الصديق بعد سماعها خفقة التنديد.. كانت آلة العصر في ذلك الحين هي ذاتها تفعل تعبيراً عن شوق الإنسان في حاجته إليها.

إنّ هذا الشوق كان منفتح القلب والعين والأذن أمام فاطمة الزهراء في وجودها ذلك الحين، وفي كلّ وجودها. لذلك انسكبت في وجدان التاريخ [تسجيلاً] حفظته واعية الخواطر، وتلقّطت به حافظة القلوب، وتناقلته أشواق الأسانيد: تعبيراً عن أنّ الرأي العام في مجتمع الإنسان هو حقيقته الماثلة سفي مكشوفها ومستورها على السواء.

ولم تكن فاطمة وحدها التي تتكلّم في ذلك الحين أنّ الملايين في الجزيرة العربية كانوا يتكلّمون ولم يصل إلينا سوى النزر اليسير من التساجيل عنهم، إلاّ إنّ فاطمة كانت وحدها تتكلّم؟

إنّ الذين تكلّموا في الجزيرة العربية قد تمّ لنا تسجيل ما قالوا وصل إلينا ـ كلّ الصحيح مما قالوا لم يكذب الرأي العام فيهم؛ فقد صوّروه وعكسوه.

إنّ اللون السياسي الذي انصبغ به الخطّان العريضان في ذلك الحين، عيّن في كلّ واحد منهما: اسم القائد / عيّن الشكل / وعيّن الفكر / وعيّن أيضاً صفات الإرث.

ولكن الإرث الوحيد الذي ضاعوا عنه هو وحده كان كفيلاً لهم بتحقيق الثروة نفروا عنه إذ كان الأولى أن ينفروا إليه إنّ هذا الإرث كان محصوراً في تلك الوحدة المنوّرة بالحقّ والهداية، ولقد قالت فاطمة في خطابها؟: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾[1].

إنّ في الانقلاب على الأعقاب رجعة إلى ماضي الجزيرة في تفككها وتشتتها في عدم لحمتها وفي عدم تحقيقها لقد وحدتها الكلمة الصائبة، وجمعتها الفكرة الكبيرة، لقد رسمت لها الأهداف.. لقد طبعت أمامها المثل، لقد تحقق لها البرهان، ولقد دفعت ذلك من دمها فما بالها وقد مات نبيها العظيم تنقلب على أعقابها.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

ولا تزال الأجيال حتّى اليوم تتلهى بغربلة خطاب فاهت به الزهراء: في هل أنّ كلماته خرجت بالفعل من ثناياها، أم أنّ عبقرياً آخر نحلته عبقريته إليها؟.

وفاطمة الزهراء كانت لوناً بارزاً في الخطّ الثاني.. كانت نصف الرجل الذي حمل راية الخطّ الإمام علي فهي معه في العمل والمنهج.

إنّ العبرة في تفسير ما قالت الزهراء تكمن في قولها إنذاراً! والعبرة في أنّ الخلافة لم تقبل الإنذار.

والعبرة كلّ العبرة في أنّ أجيال الإسلام لم تدرس حتّى اليوم خطاب الزهراء، وهي ضائعة بين أن تسنده إلى فاطمة، أو أن تسنده إلى مقحم.. طباق آخر على كلّ ما وجّه إلى الإمام علي في نهج البلاغة إسناداً إليه أم إقحاماً عليه؟.

والعبرة في أنّ خطاب الزهراء جاء يرزم قوّة التعبير عن ذلك الرأي العام الذي اهتاج وهو يترنّح للواقع ليعود فيتكون ثورة على كلّ ما هو خروج عن خطوط الحقّ والعدالة.

ومنذ ذلك الحين تكوّنت نواة المعارضة مطالبة بتركيز الخلافة على محورها الصادق، ومنذ ذلك الحين والخلافة لا ترتبط بمصير حتّى تتقطع حيال ذلك المصير.

ومنذ ذلك الحين والسيف العربي لا يرتوي من دماء أبنائه، ومعظم الخلفاء لا يرتوون من شربة الدم؛ صرفاً أو ممزوجاً بالخمور والفجور؛ أكان ذلك مع الحجّاج أم مع السّفاح، أكان مع الوليد أم مع الأمين بن الرشيد.

ومنذ ذلك الحين والخلافة تدور بها العواصف والزعازع، من مكّة إلى يثرب، ومن يثرب إلى الكوفة إلى الشام إلى بغداد إلى خراسان إلى مصر إلى القيروان إلى بلاد الترك.

ومن تفسيخ إلى تفسيخ من الراشدين إلى الأمويين؛ فالعباسيين، والفاطميين، والأيوبيين، والمماليك، والمغول.

قد تكون في هذا كلّ القساوة في تحميل الخلافة الأولى هذا الحبل الطويل من المسؤوليات الجسام! ولكن أيّ طريق طويل لا يقاس بالخطوة الأولى؟ وأيّة دولة من دول العالم يتجسّم الحقد فيها كما تجسّم على يد الحجّاج بن يوسف، وبقي لها شيءٌ من كيان؟ كيف يربو الولاء من صدور حفدة مائة وعشرين ألف قتيل حصدها سيف طاغية تثبيتاً لكرسي خلافة؟ وكيف لا يكون الحقد وليد الحقد، وقبور بني أميّة تنبش لتجلد فيها الرمم... وكيف ينمو حنين الإنسان إلى وطنه، وبغداد تحمل شارات التعسّف والظلم جماجم معلّقة في الهواء فوق جسور دجلة والفرات تدليلاً على عظمة البطش، وهيبة السلطان.

لعمري إنّ رسالة الإمام علي إلى الأشتر تشهد للرجل الكبير بصدق نظرته وحصافة رأيه.. تلك الدماء ذاتها مهدورة بغير حلّها جبلت من طينها فيما بعد جماجم الغزاة شأن جنكيزخان وتيمورلنك، أجل هو ذاته تيمورلنك الذي بنى في بغداد بجماجم البغداديين مائة وعشرين برجاً!.

أجل إنّ الخلافة يكون مجوراً عليها إذا حملت جريرة عدّة أجيال، ولكنّها كانت مسؤولة كخلافة الرسالة سوف تتخطّى المكان والزمان عمّن مدّ نظرها إلى مثل هذه الأبعاد وهي مسؤولة على الأقل عن تثبيت قدم العدالة التي ما تزال قريبة من منابعها.

إنّ الخطوة الأولى قرّرتها السقيفة، وكان فيها ذلك الإعوجاج، ولن يقاس درس طويل بخطوة معوّجة.

ولم يكن الإعوجاج من المتطلبين أمجاد الحكم أكثر مما كان من الحبل الطويل المشدود على خصور القبائل ذلك الشعب الذي كان معوّجاً، وما صرف الجهد النبوي إلاّ ليقوّم اعوجاجه.

كيف تبحث قضية الخلافة بأمانة وإخلاص إن لم يتحرّر الباحث من الهوى؟ ولكن الذين تزاحموا على كرسي الخلافة بين أن يثبت متيناً، وبين أن ينهار رهناً بحروف اسمه: إمّا أن يكون خلافة أو يكون حكماً، والخلافة كانت استكمال خطّ واستمرار نهج، والحكم كان لوناً سياسياً وصولياً.

إنّ الحكم في الجزيرة العربية في خطّه الماضي لم يكن درجة في سلّم حضاري إنّ الرسالة الجديدة هي التي نقضت هذا الحكم في مجال تحضير مادة جديدة يستقيم فيها الحكم، تلك المادة هي الوجبة الروحية التي يكتمل بها رشد الإنسان في الجزيرة حتّى يتوصّل إلى حقيقة الحكم.

تلك الحقيقة كان يعرفها النبي، وكان يعرفها أشدّ الناس اختلاطاً بالنبي، لهذا كان النبي أكثر تشديداً على استكمال نمو الرسالة بتسليمها إلى الذي يدرك الكنه العميق هنا كانت تبرز الإشارة بوضوح إلى علي.

كان المقصود بإسناد الخلافة إلى علي، خلافة بالمعنى الصحيح، أكثر منها حكماً مؤقّتاً خلافة لرسالة تتمم تحضير الوجبة الكبيرة ليأكل منها كلّ الذين هم بحاجة إلى اكتمال الرشد.

في أيّ وقت يكتمل الرشد؟ إنّ ذلك يكون رهناً بالسلسلة الطويلة في اكتمال نضجها وبث إشعاعاتها وهذا كان على ما يظهر قصد الرسالة.

لم يكن هذا العرض تقييماً تقليدياً لخطبة الزهراء.. ولا قالباً شعرياً يستوحي الخيال في سرد الثناء والمديح.. ولكنّه كان يجري مجرى فلسفة الخطبة في صميم الأحداث سياسياً واجتماعياً وروحياً.. وما توقعته الزهراء من الانزلاق الخطير في متاهات تتحمّل نكساتها الأمة جيلاً بعد جيل.. وكان من نتائجها إضاعة الفرصة في إحكام روح الخلافة.. لا استثمار مكاسب الحكم في سلطة قبلية أو لغة بدوية، أو مسحة أرستقراطية.. فما لهذا كانت الرسالة.. ولا به جاءت النبوة.

إنّ ثقافة الغلبة والاستيلاء على الحكم صاحبته هشاشة الالتزام بمبادئ الذين الجديد في جزيرة العرب. ومن هنا نشأت التناقضات الفجّة في سفك الدّماء وانقسام الأمة.. وطمع

الغزاة وتفكك الدولة.. وإضاعة الفرصة أمام عملاق الفكر الإسلامي الإمام علي (ع) في بسط نفوذ كلمة الله في الأرض.. ولو كان الأمر بيد قائد سفينة هذه الأمّة لأوصلها بأمان إلى مرفأ الحضارة العالمية.

ذلك هو ما دعا الزهراء أن تتحدّث في هذه الخطبة عن التوقعات المستقبلية، وقد حدثت.. وهو ما دعاها إلى هذا الموقف الصلب في المحاسبة.. وهو ما قادها لإعلان المقاومة بهذا السيل المنحدر من الاحتجاجات مفردة مفردة، وهو ما حدا بها إلى تتبع مفاصل القضية جزءاً جزءاً.. وكانت من ذلك بين أمرين: إمّا أن تقوّم هذا الأود والاعوجاج بإرجاع الحقّ إلى نصابه.. وإمّا أن تؤدّي وظيفتها الرسالية كما تؤمن هي بها.. شاء القوم أم أبوا.. رضوا أم سخطوا.

ولهذا فقد كان من تخطيط الزهراء أن تتدرّج في النكير من الأدنى إلى الأعلى.. وأن تلقي الحجة إثر الحجة بعد أن بلغ السيل الزُّبى.. وأصبحت أحلام القوم المبيّنة حقائق على صعيد الواقع.. فلم يكن في مقدورها أن تضرب صفحاً من كلّ هذه التجاوزات.. ولم يكن في حسبانها أن يبلغ التخلّي عن المبادئ الثابتة إلى هذا الحدّ.. فلم يكن لها أن تغضّ طرفاً عن الانحراف.. والانحراف ينبغي أن يقوّم في أول نبوغه ونزوغه.. ولدى فجر أولياته مهما تطاول.. إما إذا تفرعن واشمخر كان التصدي له مصطدماً بالعقبات.. وليس من السهل السيطرة على الأمر وقد أبرم إبراماً.. ولكنّ الزهراء نظرت وقدّرت وفكّرت فرأت أنّ الأمر قد أبرم من دون رأي المسلمين وأهل البيت أسبقهم.. ولا استناد على مأثور نبوي، أو نصّ قرآني.. ولا بإزاء سابقة تحتذى في حياة جزيرة العرب.

وقد يقال والحالة هذه: إن على الزهراء أن تخلد للسكينة فقد تجاوز الحدّ المدى.. ربما يقال هذا.. وقد يردّ بأنّ الزهراء (ع) في همومها الكبيرة ليست كبقية النساء.. فهي ابنة صاحب الرسالة، وهي زوج صاحب الولاية.. وقد أرّقها من شأن الولاية ما كان يؤرّقها من شأن الرسالة.

وكانت عصمة الزهراء بالدليل وبالفعل تخوّلها أن تتجاذب هذا الصراع القيادي، وتقول كلمتها فيه ببصيرة نافذة.. وقد قالت الكلمة في خطبة عصماء أذهلت الجمع، فكانت كالصاعقة فيما حاججت به أفلجت القوم.. ولمّا لم تجد لذلك أذناً واعية بدأت تستنجد الهمم، وتستصرخ الضمائر.. وما كان ذلك لشأنٍ من شؤون الدّنيا.. بل في مبدأ أساسي من مبادئ الدين الجديد متمثلاً في ظاهرة تجحد تارة.. ويتغاضى عنها تارة.. ويعترف بها أحياناً.. وهي واجبة عند قومٍ، ومستحبّة عند آخرين.. إنّها الخلافة كما يقولون! والإمامة كما نقول.. بل هي الولاية الإلهية كما ترى الزهراء، ونرى عين رؤيتها.

وما مطالبة الزهراء بفدك إلاّ ذريعة لهذا المدخل الصعب! فالروايات في شأن فدك لها صيغها المختلفة بين العرض وبين الأخذ والرد حتّى بين المعنيين بالفصل في الموضوع.

وما يدرينا فلعلّ للزهراء عدّة مواقف يؤكّد قسم منها على الحقّ المتواضع في فدك لتأتي من خلاله على الهدف الأكبر؟ فقد روي «أن الزهراء (ع) بلغها أنّ أبا بكر قبض فدكاً.. فخرجت في نساء من بني هاشم حتّى دخلت على أبي بكر.. فقالت: يا أبا بكر تريد

أن تأخذ منّي أرضاً جعلها رسول الله (ص) وتصدّق بها عليّ من الوجيف الذي لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركاب؟ أما كان قال رسول الله (ص): المرء يحفظ في ولده؟ وقد علمت أنّه (ص) لم يترك لولده شيئاً غيرها؟.

فلمّا سمع أبو بكر مقالتها والنسوة معها، دعا بدواة ليكتب به لها.. فدخل عمر فقال: يا خليفة رسول الله (ص) لا تكتب لها حتّى تقيم البينة بما تدّعي! فقالت فاطمة: نعم أقيم البينة، قال: من؟ قالت: علي وأمّ أيمن! فقال عمر: لا تقبل شهادة امرأة أعجمية لا تفصح! وأمّا عليّ فيجرّ النار إلى نفسه[1].

وفي الشافي للمرتضى (قدس سره) أنّ أبا بكر (رض) كتب لها كتاباً بفدك.. فأخذ عمر الكتاب، وبصق فيه ومحاه»[2].

في ظلّ هذه الرواية أوشكت الزهراء (ع) أن تحقّق الجزء الأول من المهمة.. وكان لعمر (رض) رأيٌ آخر.. إذ لم يشأ الاستجابة للزهراء في شيءٍ ما! لئلا يفتح عليه بابٌ لا يسدّ من مطالب سيّدة النساء (ع) فقد نظر إلى الموضوع بعمق.. وهو يقرأ ما بين السطور.. فقرر إغلاق الباب، وأحكم رتاجه!..

ولكنّ الزهراء لم تصمت.. ولم تتردد ولم تعبأ بإجراءات الخلافة.. وظلّت تستغيث ولا تغاث.. ولكنّها أوقدت شعلة الوعي وهاجة.. وقدحت زند الاحتجاج وارياً.

فدك والإرث وسهم ذوي القربى:

لم تكن المطالبة بفدك تمثل هدفاً مركزياً لدى الزهراء (ع).. تسعى إليه كمغنم مادي يدرُّ عليها من وارداته.. ولم تشأ كسباً اقتصادياً يحقق لها مصدراً مادياً ضخماً أو اعتيادياً.. ولكنّها سيّرت ذلك جزءاً من الاحتجاج السياسي ضدّ السلطة، ونظرت بمعيارٍ مزدوج مشروع في تسجيل مظلوميتها من وجهين يكون الأول منهما مدخلاً إلى الثاني وهو الأهم!:

الوجه الأول: يتمثل بتصفية فدك والميراث وسهم ذوي القربى.. مما هو لها قطعاً في النحلة والنصّ القرآني.

الوجه الثاني: يتمثل بالقضية الكبرى.. وهو النصّ على استخلاف علي (ع) من قبل رسول الله (ص) في عدّة مواطن. وأنّه صاحب الإمامة والولاية وحده.. للنصّ في ضوء ما يتمتّع به من خصائص: السابقة في الإسلام.. الجهاد في سبيل الله.. التضحية والفداء بين يدي رسول

---

(١) سليمان كتاني / فاطمة الزهراء.. وَتَرٌ في غمد: ١٣٩ ـ ١٤٤، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣م.

(٢) ظ: المجلسي، بحار الأنوار: ٣٠٢/٢٨.

الله.. كونه أعلم الأمة.. وأقضاها.. ظواهر العصمة التكوينية.. وسوى ذلك من المؤهلات في المنهج والسلوك والمبدأ والأقدمية والعدالة المجمع عليها باصطفاف إسلامي.

إذن هنالك للزهراء هدف أرفع ذو أبعاد رسالية محدّدة.. ولم يكن هدفاً هامشياً ذا بعد اقتصادي!.

وكانت الزهراء بهذا أحصف رأياً.. وأقوى شكيمة.. وأمضى عزيمة في تفكيرها الإنساني بمصير الرسالة ليس غير.. وتطبيق أحكامها كما رسمها رسول الله (ص).. واستمرارية أدائها نقياً خالصاً على الوجه الأكمل.. لهذا كلّه نعتبر ما أثارته الزهراء بالمطالبة بحقوقها وحقوق بني هاشم بوابة الحديث عن الحقّ الإلهي في المنصب الإلهي.. ويؤيّد هذا المنحى من الاعتقاد الجازم عندنا ما أبقاه لنا التاريخ من شذرات تؤكّد هذا المعنى.. لا سيّما في محاورة جرت بين الإمام الكاظم موسى بن جعفر (ع) وبين حاكم عصره هارون الرشيد. فقد ألح هارون الرشيد بإلحافٍ على الإمام الكاظم (ع) بالقبول في ردّ فدك إليه.. وجرى الحوار الآتي:

قال الإمام موسى بن جعفر: يا أمير لا آخذها إلاّ بحدودها!.

قال الرشيد: وما حدودها؟.

قال الإمام: إن حدّدتها لم تردّها!.

قال الرشيد: بحقّ جدّك إلاّ فعلت.

قال الإمام: أمّا الحدّ الأول فعدن!.

فتغيّر وجه الرشيد، وقال: هيه؟.

قال الإمام: والحدّ الثاني سمرقند!.

فأربد وجه الرشيد! وقال: هيه؟.

قال الإمام: والحدّ الثالث إفريقية!.

فاسوّد وجه الرشيد! وقال: هيه؟.

قال الإمام: والرابع سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية!.

قال الرشيد: فلم يبقَ لنا شيء فتحوّل إلى مجلسي.

قال الإمام موسى بن جعفر (ع): قد أعلمتك أنّي إن حددتها لم تردّها!. فعند ذلك عزم الرشيد على قتل الإمام[1].

وإذا صحّت هذه الرواية بهذا الشكل؛ فإن الإمام الكاظم (ع) قد أبان الحقيقة في إهابها الذي ترفل به.. ناظراً إلى مسألة فدك باعتبارها قضية قيادية لا أرضاً زراعية.. وهو يصرّح أنّها طريق للمطالبة بموقع الإمامة وواقعها.. وذلك يبسط النفوذ القيادي والإداري

---

(١) ظ: السيد المرتضى، الشافي في الإمامة: ٤٠٨.

والسياسي على هذه الدول الكبرى للعالم الإسلامي آنذاك.. لا امتلاك تلك الأراضي الواسعة.. بل المراد حكمها كما أراد الله تعالى.. وأنّ الحكم فيها للإمام نفسه لا لهارون الرشيد!.

هذه الإرادة التي قصدها الإمام الكاظم (ع) هي التي غيّرت معادلة الرشيد في حساباته التي أراد بها التقرُّب إلى الإمام بهدف سياسي يوحي بأنّه أعطى زعيم بني هاشم وإمامهم ما طالبوا به.. ولكن لم يحصل له ما أراد.. فأربد وجهه تارة.. واسودّ تارة أخرى.. وعرف جازماً أن لا سلطان له مع هذا العرض.. إذ لم يبق له ما يملك في أرضه فيما يزعم حتّى خاطب السّحابة في السّماء: (أين ما تمطرين ففي أرضي.. أو ففي ملكي).

وبعد هذا فليس أمامه إن صدق فيما قال: إلاّ أن يتحوّل من مجلسه في دست الحكم، وإدارة الدولة للإمام الذي أعلمه مسبقاً أنّ لو حدّد له فدكاً فسوف لا يردّها عليه.

وفهم الرشيد من هذا أنّ الأصل هو الإمام لا الأرض! حينذاك عزم على قتل الإمام الكاظم (ع) ونفّذ ذلك.

هكذا يجب أن ينظر إلى موضوع فدك والإرث وسهم ذوي القربى.. وهو موضوع شائك في نظر قوم.. والواضح في نظر قوم آخرين! فكيف كانت البداية؟.

البداية متعدّدة الأبعاد وعريضة الجوانب، عرضها التاريخ والمؤرّخون وعلماء الكلام ورجال الحديث بصورٍ شتّى؛ ولكن المؤدّى واحد! وسوف لن أطيل في تفصيلات ذلك، بل أعرض منه جزءاً من النماذج الموثقة لا أكثر ولا أقل.

١ - فعن محمد بن إسحاق بأسانيده قال: (لمّا فرغ رسول الله (ص) من خيبر.. قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله (ص) فصالحوه على النصف من (فدك) فقدمت عليه رسلهم بخيبر، أو بالطريق، أو بعد رجوعه إلى المدينة.. فقبل ذلك منهم.

وكانت فدك لرسول الله (ص) خالصة له.. لأنّه لم يوجف عليها بخيلٍ ولا ركاب)[1].

٢ - ولمّا نزل قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[2].

أورد السيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ) ما رواه أبو سعيد الخدري وسواه من الصحابة «فأعطى رسول الله (ص) فاطمة (ع) فدكاً، هذا ما رواه أبو سعيد الخدري وسواه[3]. وتسلّمتها الزهراء (ع)! ووضعت يدها عليها في حياة رسول الله (ص) فعادت خالصةً لها.. فيها عمّالها.. وبها الفلاّحون عياناً.. والمسلمون كلّهم شهود على ذلك، بما فيهم الشيخان أبو بكر وعمر».

٣ - حتّى إذا استخلف الأول منهما استولى عليها بخبرِ آحاد يرويه وحده، كما روى خبر آحاد الإرث وحده.

(١) ظ: الكليني، الكافي: ٥٤٣/١، الزمخشري، ربيع الأبرار: ٢١٥/١، ابن شهراشوب، المناقب: ٤٢٥/٣، المجلسي، البحار: ١٤٤/٤٨، وانظر مصادره.

(٢) سورة الإسراء: ٢٦.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة للإمام علي (ع): ٢١٠/١٦.

وكان لهذا الاستيلاء المفاجئ أثره الرهيب عند سيّدة النساء، فقد كان قراراً ارتجالياً لم يخضع للأناة والدراسة.. لا في التخطيط له.. ولكن بتبعاته التي سعّرت جذوة الخلاف بين المسلمين.. إذ ليس الغرض بما فيها هو الأرض.. فهو فرع القصة.. وهناك الأصل.. وهو خلافة رسول الله.

٤ ـ وبدأت مطالبة الزهراء (ع) بفدك على عدّة وجوه تروى، صورها شتّى ونتائجها واحدة، وقد تجري معها قضيّة الإرث لتنتهي بالنحلة، فقد أورد ابن أبي الحديد عن أبي بكر الجواهري.. بسند يصححه محاورةً جرت بين الزهراء وأبي بكر على هذا النحو:

«دخلت فاطمة على أبي بكر بعدما استخلف، فسألته ميراثها من أبيها.. فمنعها.. فقالت له: لئن مُتَّ من كان يرثك؟ قال أبو بكر: ولدي وأهلي!.

قالت الزهراء: فَلِمَ ورثت أنتَ رسول الله (ص) دون ولده وأهله، فقال: فما فعلتُ يا بنت رسول الله (ص)! قالت الزهراء: بلى، إنّك عمدت إلى فدك.. وكانت صافية لرسول الله (ص) فأخذتها، وعمدت إلى ما أنزل الله من السّماء فرفعته (فدفعته) عنّا!.

فقال أبو بكر: يا بنت رسول الله (ص) لم أفعل! حدّثني رسول الله (ص) أنّ الله تعالى يطعم النبيّ (ص) ما كان حيّاً.. فإذا قبضه الله إليه رفعت.

فقالت الزهراء: أنت ورسول الله أعلم.. ما أنا بسائلتك بعد مجلسي.. ثمّ انصرفت»[1].

والذي يحقّق في سياق الموضوع يجد أنّ الزهراء (ع) عرفت من لحن الخطاب بل من تصريحه أن أبا بكر قاطع باستملاك فدك، فقالت بهذه الرواية: ما أنا بسائلتك بعد مجلسي بينما يروي ابن أبي الحديد عن أبي بكر الجوهري نفسه بسنده الذي يصحّحه عن أنس بن مالك، خلاف هذا كما سترى.

٥ ـ قال ابن أبي الحديد: «واعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبا بكر كان في أمرين: في الميراث والنحلة! وقد وجدت في الحديث: أنّها نازعت في أمرٍ ثالث وهو سهم ذوي القربى».

قال أبو بكر الجوهري يروي عن أنس بن مالك، قال:

«إنّ فاطمة أتت أبا بكر فقالت: لقد علمت الذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات، وما أفاء (الله) علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى.. ثمّ قرأت عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[2].

فقال لها أبو بكر: بأبي وأمّي ووالدٍ ولدك. السمع والطاعة لكتاب الله، ولحقّ رسول الله (ص) وحقّ قرابته، وأنا أقرأ من كتاب الله الذي تقرئين منه.. ولم يبلغ علمي منه أنّ هذا السّهم من الخمس يسلّم إليكم كاملاً!.

قالت: أفلك هو ولأقربائك؟.

---

(١) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٥.

(٢) سورة الأنفال: ٤١.

قال: لا بل أنفق عليكم منه، وأصرف الباقي في مصالح المسلمين!.

قالت الزهراء: ليس هذا هكم الله تعالى...[1].

وأضاف أبو بكر الجواهري بسنده عن عروة، قال: أرادت فاطمة أبا بكر على فدك وسهم ذوي القربى، فأبى عليها وجعلها في مال الله»[2].

وروى أبو بكر الجوهري نفسه بسنده عن الحسن بن محمد بن (الحسن) بن علي بن أبي طالب:

«أنّ أبا بكر منع فاطمة وبني هاشم سهم ذوي القربى، وجعله في سبيل الله في السلاح والكراع»[3].

٦ ـ ويبدو أنّ الزهراء (ع) قد أنحت باللائمة على الأنصار بخاصة لأنّهم بايعوا رسول الله (ص) على أن يحاموا عنه، وعن آله، وأن يفدوه بأنفسهم؛ لذا توجّهت للأنصار، وهم (بنو قيلة) وخصتّهم بهذا الاستنهاض والعتاب الصارخ: (إيهاً بني قيلة! اضم تراث أبي، وأنتم بمرأى ومسمع، تبلغكم الدعوة، ويشملكم الصوت، وفيكم العدّة والعدد، ولكم الدار والجنن، وأنتم الالى نخبة الله التي انتخب، وخيرته التي اختار).

فلمّا تكلّمت الزهراء بما كلّمتهم، قال لها أبو بكر: (يا خيرة النساء وابنة خيرة الآباء.. والله ما عدوت رأي رسول الله (ص) وما عملت إلاّ بأمره.. ومنعها فدكاً)[4].

٧ ـ وكان مما خاطبت به الزهراء أبا بكر قولها له: «من يرثك إذا مُتَّ؟ قال: ولدي وأهلي..، قالت الزهراء له: فما لك ترث رسول الله (ص) دوننا؟».

قال أبو بكر: يا ابنة رسول الله، ما ورّث أبوك داراً، ولا مالاً، ولا ذهباً، ولا فضّة!.

قالت الزهراء (ع): بلى، سهم الله الذي جعله لنا، وصار فيئنا الذي بيدك!.

فروى لها أبو بكر خبر آحاد يرويه وحده قائلاً: (سمعت رسول الله (ص) يقول: إنّما هي طعمة أطعمناها الله، فإذا متُّ كانت بين المسلمين)[5].

٨ ـ ويبدو في جملة من الروايات الصحيحة أنّ أبا بكر قد كتب كتاباً بفدك للزهراء بعد الإشهاد لها بذلك من قبل أمير المؤمنين (ع).

هذا الخبر روي متقارباً بوجوه مختلفة لفظاً.. متحدّة معنًى.. وبطرق كثيرة، منها ما أسند إلى أمير المؤمنين الإمام علي (ع) إنّه قال: «جاءت فاطمة إلى أبي بكر وقالت: إنّ أبي أعطاني فدكاً، وعليّ وأم أيمن يشهدان.

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة: ٢٣٣/١٦.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة: ٢٣٠/١٦ ـ ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٠/١٦ ـ ٢٣١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٠/١٦ ـ ٢٣١.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢١٠/١٦ ـ ٢١٤.

فقال: ما كنتِ لتقولي على أبيك إلاّ الحقّ؛ قد أعطيتكها! ودعا بصحيفة من أدم فكتب لها فيها؛ فخرجت، فلقيت عمر؛ فقال: من أين جئت يا فاطمة؟.

قالت: جئت من عند أبي بكر.. أخبرته أنّ رسول الله (ص) أعطاني فدك؛ وأنّ علياً وأمّ أيمن يشهدان، فأعطانيها وكتب لي بها، فأخذ عمر منها الكتاب، ثمّ رجع إلى أبي بكر.. فقال: أعطيت فاطمة فدك، وكتبت بها لها؟ قال: نعم، فقال عمر: إنّ علياً يجرّ إلى نفسه، وأم أيمن امرأة.. وبصق في الكتاب فمحاه.. وخرّقه»[1].

وفي هذا النصّ ثلاث ظواهر لها دلالتها:

الأولى: أنّ أبا بكر جعل لعمر حقّ النقض (الفيتو) إذ نقض كتابه للزهراء ومحاهُ وخرّقه.

الثانية: أنّ عمر يتحدّث عن علي (ع) بأنّه يجرّ إلى نفسه.. وكأنّه لم يسمع قول رسول الله «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع علي».

الثالثة: أنّ عمر قد استهان بأبي بكر والزهراء معاً.. فقد بصق في الكتاب، وهو صكٌّ من أبي بكر، وهو حقٌّ للزهراء (ع)، وما اكتفى بذلك حتّى محاهُ وخرّقه!.

ويؤكّد هذا الخبر ما روي عن أبي عبد الله الإمام الصادق (ع) أنّه قال.. «إنّ أبا بكر كتب لها كتاباً بردّ فدك إليها، فلقيها عمر، فقال: يا بنت محمد! ما هذا الكتاب الذي معك؟ قالت: كتابٌ كتب لي أبو بكر بردّ فدك! فقال: هلمّيه إليّ! فأبت أن تدفعه إليه! ثمّ أخذ الكتاب فخرّقه»[2].

٩ ـ كان أمير المؤمنين الإمام علي (ع).. دقيق النظر، بعيد مرمى الطرف، جعل مصلحة الإسلام العليا في الحفاظ على الظاهر على الأقل فوق كلّ الاعتبارات الذاتية والاجتماعية والأسرية.. وحينما آلت الخلافة إليه بشكلها الرسمي لم يعرض لما قرّره أبو بكر وعمر في سهم ذوي القربى فضلاً عن فدك.. فقد روى أبو بكر الجوهري بسند يصححه عن محمد بن إسحاق، قال:

«سألتُ أبا جعفر محمد بن علي (ع) (الإمام محمد الباقر) قلت: أرأيت علياً حين ولي العراق، وما ولي من أمر الناس.. كيف صنع في سهم ذوي القربى؟.

قال: سلك بهم طريق أبي بكر وعمر!.

قلتُ: وكيف؟ ولِمَ؟ وأنتم تقولون ما تقولون؟.

قال: والله ما كان أهله يعني أمير المؤمنين يصدرون إلاّ عن رأيه، فقلت: فما منعه؟ قال: كان يكره أن يُدّعى عليه مخالفة أبي بكر وعمر»[3].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢١٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٧٤.

(٣) المفيد، الاختصاص: ١٨٥، المجلسي، البحار: ٢٩/١٩٢.

١٠ - هذا في سهم ذوي القربى.. أمّا في النحلة فهي ثابتة تاريخياً وشرعياً، ووضع اليد بعدّة طرق وأسانيد صحيحة، كما رأيت!!.

وقد طولبت الزهراء بالشهود والبينة على دعواها، بينما أخذ أمير المؤمنين بالنحلة: سيف رسول الله! وعمامة رسول الله.. وبغلة رسول الله.. فما طالبه أحد بإثبات ذلك حتّى قال المرتضى متعجباً: «ومن العجائب أن تدّعي فاطمة فدك نحلةً، وتستشهد على قولها أمير المؤمنين وغيره! فلا يصغى إلى قولها.. ويترك السيف والبغلة والعمامة في يد أمير المؤمنين (ع) على سبيل النحلة بغير بينة ظهرت.. ولا شهادةٍ قامت»[1].

ولا كبير أمرٍ في تعليل ذلك.. فإنّ النحلة للزهراء وهي فدك ذات نخيل وبساتين.. وربّما أفاد منها الإمام علي في تقوية جبهة المعارضة بإمدادها مالياً فيما يفكّرون به! ولم يفكّروا بالمعنى الاعتباري في شرف نحلة أمير المؤمنين (ع) بالسّيف والعمامة والبغلة.. وأنّه نفس رسول الله (ص)، لهُ ما له.. وأنّ سيفه هو سيفه، وعمامته عمامته!.

١١ ـ وأمّا مسألة الإرث.. فكتاب الله ناطقٌ بها، وآياته صادعة تخترق الأسماع.. وحسبنا كتاب الله الذي اكتفوا به دون السّنة.. وكلّ قولٍ يعارض محكمات القرآن نضربُ به عرض الجدار! فهو إمّا ضعيف السند! وإمّا لا أصل له في متنه.. أيّ أنّه منحول أو موضوع! أو كلاهما.. وآيات الإرث في القرآن أشهر من أن تذكر.. وأوضح من أن تعلّل.. وما علمنا من تخصيص لعامّها.. إلاّ في موارد نصّ عليها الفقهاء.. وقد استشهدت بها الزهراء وكفى.

وأمّا تخصيص الكتاب بخبر الواحد.. فلا يستند إليه لا فنّاً، ولا صناعة عند علماء الحديث.. لأنّ خبر الواحد إن لم يحتمل فيه الكذب والأشباه ظنّي الإفادة.. والقرآن العظيم قطعي الدلالة.. ولا يعدل عن المقطوع به إلى المظنون.

وبتعبير أوضح: إنّ القرآن معلوم الصدور قطعاً.. وإنّ خبر الواحد مظنون الصدور، ولا يمكن أن نعدل عن العلم إلى الظنّ.. ولا يترك المعلوم بالمظنون، وعلى هذا فلا يخصص خبر الواحد عموم القرآن.. ولا يقتدر مطلقه.

قال السيد المرتضى قدّس سرُّه: وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجري هذا المجرى، لأنّ المعلوم لا يخصُّ إلاّ بمعلوم، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة لم يجز أن يخرج عنها بأمرٍ مظنون. وهذا الكلام مبنيٌّ على أنّ التخصيص الصحيح للكتاب والسنة المقطوع بها، لا يقع بأخبار الآحاد، وهو المذهب الصحيح[2].

على أنّ مضمار هذا البحث وإن بحث كلامياً هو علم الأصول، وللكلاميين الحق بالاستدلال به في مجال المحاججة العلمية.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٣٢/١٦، وانظر مصادره.

(٢) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٣.

١٢ - وكان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) موضوعياً في هذا الملحظ.. وناقداً خبيراً غير متّهم، لأنّه ليس من أولياء أهل البيت (ع)، وقد أورد برسالته (العباسية) تفصيلاً لهذا الأمر في منع أبي بكر الزهراء ميراثها ونحلتها وسوى ذلك، فقال: فلمّا منعها ميراثها، وبخسها حقّها واعتدى عليها، وجنح في أمرها، وعاينت الهضم وأيست من النزوع، ووجدت مسّ الضعف وقلّة الناصر، قالت لأبي بكر: والله لا أكلّمك أبداً، قال: والله لا أهجركِ أبداً. فإن يكن ترك النكير فيهم على أبي بكر دليلاً على صواب طلبها.. وأدنى ما يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت وحاشاها وتذكيرها ما نسيت، وصرفها عن الخطأ، ورفع قدرها عن النداء، وأن تقول هجراً، أو تجور عادلاً، وتقطع واصلاً، فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعاً، فقد تكافأت الأمور، واستوت الأسباب والرجوع إلى أصل حكم الله في المواريث أولى بنا وبكم، وأوجب علينا وعليكم...

فإن قالوا: فكيف يظنّ بأبي بكر ظلمها والتعدّي عليها؟ وكلّما ازدادت فاطمة (ع) غلظةً ازداد ليناً ورقّة.. ثمّ يتحمّل منها هذا القول الغليظ والكلام الشديد في دار الخلافة، وبحضرة قريش والصحابة؛ مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتنزيه، وما يجب لها من الرفعة والهيبة، ثمّ لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً أو متقرّباً كلام المعظّم لحقّها، المكبر لمقامها، الصائن لوجهها، المتحنّن عليها:

فما أحدٌ أعزّ عليّ منك فقراً.. ولا أحبّ إلي منك غنى، ولكنّي سمعت رسول الله يقول: إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناهُ صدقة.

قيل لهم: ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم، والسلامة من الجور، وقد يبلغ من فكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً للخصومة معتاداً أن يظهر كلام المظلوم، وذلّة المنتصف، وحدب الوامق ومقة المحقّ[1].

وقد قدّم الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وهو من رواة الدرجة الأولى باعتباره أقرب المؤرخين للحدث هذه المقارنة السليمة في دعوى الزهراء ومنع أبي بكر.. وأكد على الرجوع إلى كتاب الله مع تكافؤ الفرص، واستواء الأسباب في عدم الإنكار على الخصمين المتنازعين في حجج كلّ منهما.

وأبان أنّ المعتدي قد يبدو كالحمل الوديع براءة.. والظالم كالمظلوم المنتصف.. ما يبلغه فكر الظالم، ودهاء الماكر... الخ.

١٣ - يقول ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ):

(وقلتُ لمتكلّم من متكلّمي الإمامية يعرف بعلي بن تقي من بلدة النيل: وهل كانت فدك إلاّ نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير؟ فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلة جدّاً، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل).

---

(١) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٠.

وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلاّ أن لا يتقوى عليٌّ بحاصلها وغلّتها على المنازعة في الخلافة!.

ولهذا أتبعا ذلك بمنع فاطمة وعليّ وسائر بني هاشم وبني عبد المطلب حقّهم من الخمس!؟.

فإنّ الفقير الذي لا مال له نصف همّته، ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرياسة[١].

وهذا الرأي كما ترى عرض وجه الموضوع جلياً.. والوجه الآخر واضحاً ونكتفي بهذه الظواهر والعوامل في قضية فدك نخلةً وأصلاً وموضوعاً للجدل والخصام والاحتجاج.. لنقف على وجه آخر من الموضوع.

وبغية أن يتكامل الموضوع من وجهين: وجه الحقّ والمجادلة فيه.. ووجه مصير فدك في مسيرتها التاريخية.. لتكون الرؤية متكاملة.. في تقلّبات الأجيال والحكّام والملوك فيها من الاحتجان تارةً، والردّ بها إلى ذويها تارةً أخرى.. والمنع والعطاء بإيجاز معمّق.

سبق القول إنّ أمير المؤمنين (ع) لدى تولّيه الخلافة لم يعرض لفدك.. لا من قريب ولا من بعيد، وكذلك الحال في سهم ذوي القربى، وإنّما أجراهما على ما كان عليه أبو بكر وعمر (رض) فلم يشأ الإمام علي (ع) أن يتّسع الخرق في مخالفة الشّيخين.. وكذلك الحال في خلافة الإمام الحسن (ع) في تلك الحقبة القصيرة.

فلمّا احتجن معاوية بن أبي سفيان الخلافة لنفسه.. وجعلها ملكاً عضوضاً.. تحت طائلة نقض العهود والمواثيق، والكذب في المواعيد، والغدر بكلّ ما عاهد عليه الحسن بن علي (ع)[٢].

واستولى على فدك فأقطعها طريد رسول الله (مروان بن الحكم) ثلثاً.. وأقطع عمرو بن عثمان بن عفّان ثلثها الثاني، وأقطع ولده الفاسق الفاجر يزيد ثلثها الأخير.

كان ذلك بعد استشهاد الإمام الحسن (ع) عام خمسين للهجرة.. وبقيت بأيدي هؤلاء يتداولونها بالتناوب.. وهذا يؤيّد كون فدك كانت واسعة مترامية الأطراف في نخيلها وبساتينها.. وهو ما يفسّر لنا حدب الخلفاء من الأمويين والعباسيين على اقتطاعها حيناً.. وإرجاعها لأهلها حيناً آخر.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد ظلّت فدك بيد الأمويين.. حتّى عادت خالصة لمروان بن الحكم.. وقد وهبها لولده عبد العزيز.. فوهبها عبد العزيز لابنه عمر بن عبد العزيز.. فلما ولي

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، الرسالة العباسية: ٢٢، تحقيق: حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٥٢ هـ، المرتضى، الشافي: ٢٢٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٦. وما بعدها. (٢) ظ: تفصيل ذلك في كتابنا الإمام الحسن رائد التخطيط الرسالي، رؤية معاصرة في قيادته الإستراتيجية، مؤسسة العارف، بيروت، ٢٠٠٢ م، ضمن (موسوعة أهل البيت الحضارية) للمؤلف.

الخلافة بين (٩٩ - ١٠١ هـ).. كانت أول ظلامة ردّ على العلويين. وأترك الكلام من هنا إلى أبي بكر الجوهري في إيجاز موضوع فدك، قال:

فدعا يعني عمر بن عبد العزيز الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)، وقيل: بل دعا علي بن الحسين زين العابدين فردّها عليه.

وكانت بيد أولاد فاطمة (ع) مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز فلمّا ولي يزيد بن عاتكة قبضها منهم.. فصارت في أيدي بني مروان حتّى انتقلت الخلافة (الملك) إلى بني العباس.

فلما ولي أبو العباس السّفاح ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن.. ثمّ قبضها أبو جعفر (المنصور) لما حدث من بني حسن ما حدث.. ثم ردّها ابنه المهدي على ولد فاطمة (ع)، ثمّ قبضها موسى بن المهدي وأخوه هارون.. فلم تزل في أيديهم حتّى ولي المأمون، فردّها إلى الفاطميين... فلم تزل في أيديهم حتّى كان في أيام المتوكل، فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار.. وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله (ص) بيده، فكان بنو فاطمة يأخذون تمرها، فإذا قدم الحجاج أهدوا لهم من ذلك التمر.. فيصلونهم فيصير إليهم من ذلك مال جزيل.

فصرم[1] عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر.. وجه رجلاً يقال له (بشران بن أبي أمية الثقفي إلى المدينة فصرمه.. ثمّ عاد إلى البصرة ففلج[2].

هذه هي مسيرة فدك في التاريخ.. تؤخذ وتغتصب ويتداولوها أبناء الطلقاء من أمويين وعباسيين!.

أرأيت تعاقب الأيدي عليها؟ أرأيت تلاقفها بين اللصوص؟ أرأيت تكالب الملوك وأبناء الملوك على فدك باسم الخلافة؟ أرأيت كيف جذّت وقطعت واجتثت النخلات المباركة، التي غرسها رسول الله (ص) بيده الكريمة؟ لئلا يشبع جائع، أو يرفه محروم، أو يتمتع بائسٌ إلى حين.

ولك أن تنظر جذ النخل، وأصرمه واسترح!.

لا تبقي أثراً لفدك.. ففدك صوت الظلامة الصارخ! ولعلّه السرّ السّرمدي في كلّ هذه الإجراءات الصارمة والمصادرات المتتابعة من قبل سلاطين الجور!.

ودع عنك أمرّ هذه النخلات في فدك كثيرة أو قليلة فإنّها كانت دون أدنى شكّ رمزَ ما جرى على الزهراء (ع) من مصائب.. وهي تحكي تهميش دور أهل البيت في قيادة الأمّة.

ولمّا كانت مصادرة فدك من الشهرة بمكان.. فقد عادت موئل إنعاش روح النضال ضدّ التسلّط الرسمي.. وعنوان الحركة الدائبة في مجابهة التحدّي بالتحدّي الأكبر.. ومقابلة الابتزاز اللامسؤول بالصوت الرافض عبر العصور والأجيال حتّى اليوم.

---

(١) صرم: جذه وقطعه.

(٢) أبو بكر الجوهري، السقيفة، أورده ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢١٦/١٦.

دعوى الزهراء:

هذا بحثٌ كلامي ذو مشكلات متناقضة الأطاريح.. تتأقلم بين الإفراط والتفريط.. وتتقلَّب بين النقض والإبرام.. وتتراوح بين التأكيد والاستبعاد.. وتتمثل بين الإقرار والإنكار.

وقد يصعب على الباحث ضبط الرؤية دون حسّاسية.. ومعالجة الموضوع دون إثارة.. إلاّ أنّي أرجو بعرضه متجرّداً أن لا أثير حفيظة المتطرفين في جحدهم له، ولا تساؤل الآخرين ممن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.. ولا إشكاليات اللاهثين وراء الشتم والسباب.. عسى أن أجد طريقاً وسطاً بين ذلك كلّه.. وأحسب أنّ التوفيق سوف يحالفني إن شاء الله تعالى ببركة الزهراء وأبيها وبعلها وبنيها صلوات الله عليهم أجمعين.. مع مراعاة الموقع الأخلاقي في المسؤولية أمام الضمير والواقع الإسلامي الذي بعثرته الأهواء، ودعوات التضليل المبرمج في الفضائيات ومواقع الإنترنيت المتخبطة في دياجير الظلام، والابتعاد عن حضيرة الدين الحنيف، داعين إلى وحدة المسلمين في ظلّ الشهادتين: (أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله)، وهذا هو التوحيد الداعي إلى وحدة الكلمة وجمع الشّمل.

ونرى وبكلّ صراحة أنّ الذي يفرّق بين أهل القبلة على أساسٍ مذهبي، أو عرقي، أو طائفي، أو قومي، أو سلطوي، أو فئوي، أو سياسي.. هو أعرق الناس خيانة للإسلام، وأشدّ أعداء محمد وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان.

وبما أنّ السلف الصالح من العلماء والكلاميين قد ابتكروا علم الكلام وفن الاحتجاج والجدل بدافع نصرة عقائدهم.. ولم يلمهم أحد على ذلك: لأنّ العقيدة تنبع من صميم الإنسانية، ولا تفرض بالقوة.. ولا تحارب بالتهويل والإدعاءات الباطلة.. ولا تصدّ بالتطرّف الديني والتهجّم الرخيص.. وبدعاوى التكفير والبدع والضلال؛ فإنّي أطرح هذا الموضوع بكثيرٍ من الشفافية والدبلوماسية.. بعد أن تناولوه بكثيرٍ من الشدّة والعنف.

وينبغي للتفكير الحرّ أن يعلن واثقاً بأنّ المسلمين: كتابهم واحد.. وقبلتهم واحدة.. ودينهم واحد في صلاته وصومه وحجه وزكاته وخمسه.. وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وفي سائر العبادات والمعاملات والإيقاعات والقصاص والإرث وسواها، وإن حصل الاختلاف في بعض الفروع.. فأمامنا قول أحمد شوقي:

واختلاف الرأي لا يفسدُ للودّ قضيّهْ

وما هذه الأحداث الدموية بين طوائف المسلمين في كلّ من باكستان وأفغانستان واليمن والعراق وسوريا وإفريقيا.. وفي جملة من بلدان شرق آسيا إلاّ بذرة من بذور الشرّ التي غرستها في أراضيهم الدعوات المتطرفة بوحي من الاستعمار العالمي، ومن ورائه (إسرائيل).

إنّ القرآن ليشجب الاعتداء على الجنس البشري.. فكيف بالاعتداء الدموي على المسلمين، والله يقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[1].

أين نحن اليوم من قيم الإسلام، ومثل القرآن؟ أهكذا تسفك الدّماء بلا حرمة.. وتنتهك الأعراض دون مبرّر؟ أيهجم على المساجد والجوامع ودور العبادة وأولياء أهل البيت (ع) بالتفجير والمفخخات والإبادة الجماعية؟ ألا رشيد في القوم؟ ألا قائل: هذا يصلّي لربّه في مسجده.. وهذا يعبد سالله في جامع ما وذلك يتقرّب إلى الله تعالى بإحياء الشعائر الدينية ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[2].

إنّه التخطيط الاستعماري للسياسة العالمية التي شاءت ومنذ مائة عام أن تطبّق مبدأ (فرّق تسد) وهكذا كان! فقد أوقدوا الفتنة بين الشعوب الإسلامية.. وأبرزوا ذلك في إشعال العنف الطائفي.. فمتى يستيقظ المسلمون من هذه الغفوة المدمّرة.. واليد الاستعمارية التي تجرّ بلاد الإسلام إلى كوارث من شريعة الغاب.. وانتكاسات بشرية يتحدّث عنها لدى الهنود الحمر قبل اكتشاف الدنيا الجديدة: أميركا!.

ومهما يكن من أمرٍ.. فإنّ دعوى الزهراء.. تتلخص بنقاطٍ ثلاث:

١ - النحلة ٢ - الميراث ٣ - سهم ذوي القربى.

وما كان للزهراء أن تتحدّث بالمطالبة في هذا بإلحاف كما رأيت في الخطبة في المسجد النبوي وسواها.. لو لم تكن واثقة تمام الثقة.. ومتيقنة عين اليقين.. بشرعية ما ادّعت.. وموضوعية ما طرحت.. والزهراء لها وظيفتها القيادية فيما تقرّر.. ولها تكليفها الإسلامي فيما تناظر وتحاور.. ولها ممارستها المتفوّقة بسبر الأحكام الإلهية ومعرفة دلالتها في ضوء القرآن والسنة.

وأبو بكر (رض) ليس بالرجل الذي يجهل هذا الموروث الديني لدى الزهراء (ع) وهو يعتقد بنفسه جازماً أنها ربيبة العقيدة بكلّ معاني الكلمة.. والعاملة على ترسيخ أسسها في الضمائر.. وتطبيق مفردات الشرع بحذافيرها.. بالتعاون الرسالي مع أمير المؤمنين (ع) قائد الحملات الجهادية في مشاهد رسول الله (ص)، وحامل رايته العظمى في الغزوات والحروب والمعارك...

وأبو بكر قد وعى هذا وذاك بدقّةٍ متناهية.. وقد حضر نفسه مجريات الأحداث كافة.. وقد انتشرت أنباؤها في الحضيرة الإسلامية انتشار النار في الحطب الجزل...

وهو أعلم الناس في عصره بموقع علي والزهراء (ع) من الإسلام والكتاب والسنّة.. والسابقية إلى الإيمان!.

ومراعاة لهذا العلم الذي يدركه إدراكاً جيّداً.. كان عليه أدبياً أن تسمح نفسه بإعطاء الزهراء ما طالبت به.. وإرضاءها بكلّ صورة مع قطعه بصحّة دعواها، وصدق حديثها.. وهو بمنصب الخليفة المطاع والسلطان المطلق.. وللسلطان أن يهب ما يشاء لمن يشاء،

---

(١) سورة المائدة: ٣٢.

(٢) سورة الحج: ٣٢.

وأن يعطي ما يشاء لمن يشاء.. كما أعطى ووهب وأجزل لغير بنت نبيينا محمد (ص) إذ كان لا يعتقد أحقيتها الشرعية! ولكن كيف المصير مع النصوص القرآنية الجمّة التي أوردتها الزهراء.. وقاعدة وضع اليد.. وقاعدة التصرّف عياناً وبعلم المسلمين.. والشهود بكلّ ذلك: وفي طليعتهم أمير المؤمنين (ع).

ولكنّ أبا بكر (رض) كان أذكى من أن يسجل على نفسه الاستجابة لدعوى الزهراء.. فلو تطامن وأذعن لهذا الحقّ المشروع، لطالبته الزهراء بالحق المشروع الأعظم.. وهو التخلّي عن الخلافة! يقول ابن أبي الحديد المعتزلي (٦٥٦ هـ):

(وسألتُ علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم: قلت: فلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً.. وهي عنده صادقة؟ فتبسّم: ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً، مع ناموسه وحرمته، وقلّة دعابته! قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً.. وادّعت لزوجها الخلافة.. وزعزعته عن مقامه! ولم يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء.. لأنّه قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان: من غير حاجةٍ إلى بيّنة، ولا شهود.

وهذا كلام صحيح: وإن أخرجه مخرج الدعابة والهزل)[1].

وقد عقّب على هذا ابن أبي الحديد نفسه لدى مناقشته للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وللسيّد المرتضى في الموضوع، وقال:

(لقد كان التكرّم ورعاية رسول الله (ص) وحفظ عهده.. يقتضي أن تعوّض ابنته بشيءٍ يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فدك.. وتسلّم إليها تطييباً لقلبها.. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه)[2].

وما أبداه ابن أبي الحديد في هذا التعقيب مخالفٌ لما علّق به على رأي علي بن الفارقي بقوله: (وهذا كلام صحيح)، فإن كان كلام الفارقي صحيحاً.. فكلام ابن أبي الحديد غير صحيح، وذلك أنّ ابن الفارقي أجاب عن سؤاله: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلِم لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً.. وهي عنده صادقة؟

فالفارقي تبعاً لأبي بكر يرى أنّها صادقة، وابن أبي الحديد تبعاً لابن الفارقي يرى أنّها صادقة! ويرى ذلك كلاماً صحيحاً.. ثمّ يناقض نفسه ويعتبر فدكاً للمسلمين.. ومن التكرم ورعاية حقّ رسول الله (ص) أن تعوّض ابنته بشيءٍ يرضيها تطييباً لقلبها! وهنا نجده يسرّ حسواً في ارتغاء! فبينا يعتبرها صادقة.. فهي مالكة فدك إذن.. وإذا به يريد من أبي بكر تطييب قلبها.. وهذا من قبيل تهدأة الخواطر بالأشدّ، وتضميد الجراح بالأنكى.. وهو بذلك كالأعرابي حينما يهذّ الشعر هذّاً.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٨٤.

ولقد استدلّ السّيد المرتضى أنّ الزهراء (ع) ما ادّعت من نحل فدك غلاً ما كانت مصيبة فيه.. وإن مانِعها ومطالبها بالبينة متعنّت.. لأنّها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة: لأنّها كانت معصومة من الغلط، مأموناً منها فعل القبيح: ومن هذه صفته لا يحتاج - فيما يدّعيه إلى شهادة وبيّنة.

صدق الزهراء:

من الثوابت التي لا تحتاج إلى كبير عناء (صدق الزهراء) (ع) واستقراء ذلك تاريخياً وإسلامياً يشكّل حقيقة ناصعة لا يناقش في أصالتها.. الزهراء (ع) صادقة في شتّى ميادين الحياة.. وفي الحقل الإسلامي بخاصة، حتّى عاد صدى انتشار هذه الحقيقة مدوّياً في الآفاق.. يبدو بشفافية صافية لا تزيّد فيها ولا إضافة.

هنالك نصّان متقاربان في الدلالة الاجتماعية تؤكّدهما أمّ المؤمنين عائشة (رض) بهالةٍ من الدّقة والتحديد. فتقول:

١ - «ما رأيتُ أحداً أصدق لهجةً من فاطمة.. إلاّ أن يكون الذي ولدها»(١).

٢ - «ما رأيت أحداً أصدق لهجة من فاطمة غير أبيها».

والنصّان ينطقان بكون الزهراء (ع) أصدق العالمين حصراً.. والذي أصدق منها هو أبوها رسول الله (ص) خاتم النبيين، وأصدق العالمين.

وهذا ما ترويه كتب الجمهور عن عائشة.. وإذا كان القول صادراً عن عائشة (رض) فإنّها غير متّهمة بالتعصب للزهراء (ع) أوّلاً. وإذا كانت عائشة هي التي تقرّر هذه الحقيقة فأوّل العارفين بذلك ثانياً أبوها أبو بكر (رض)، وإذا كان الأمر كذلك؛ وهو كذلك.. فلم يكن جديراً بأبي بكر (رض) أن يطلب من الزهراء الإشهاد في دعواها تارةً، وبالبيّنة تارةً أخرى.. مع علمه يقيناً بصدقها.. وللحاكم أن يحكم بعلمه دون إشهادٍ أو بيّنة.. وأبو بكر هو القائل للزهراء (ع) بعد خطبتها في المسجد النبوي: (صدقت يا بنت رسول الله).

وهناك أحداثٌ معاصرة لحقبة الزهراء التاريخية لها أهميّتها الموضوعية.. تؤيّد الأخذ بمجرد قول الزهراء وحده دون بينة او إشهاد، فكيف بوجودهما معا!.

وأبرز هذه الأحداث التصاقاً بالموضوع:

١ - شهادة خزيمة بن ثابت الأنصاري وحده للنبيّ (ص) وإمضاء النبي لتلك الشهادة حتّى سميّ خزيمة ذا الشّهادتين.. فعادله هذا فيما بعد إسماً يعرف به، وهو: (خزيمة ذو الشهادتين).

وأمر ذلك فيما روي متواتراً: أنّ أعرابياً نازع الرسول الأعظم (ص) في ناقة.. فقال (ص): «هذه لي، وقد خرجت لك عن ثمنها. فقال الأعرابي: من يشهد لك بذلك؟ فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد بذلك!.

---

(١) ظ، السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٥.

فقال النبيّ (ص): من أين علمت بذلك؟ وما حضرت ذلك! قال خزيمة: لا، ولكن علمت ذلك من حيث علمت أنك رسول الله! فقال رسول الله (ص): قد أجزتُ شهادتك، وجعلتها شهادتين، فسميّ ذا الشهادتين»[1].

وعقّب السيّد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ) على ذلك بقوله: وهذه القصة شبيهة لقصّة فاطمة (ع) لأنّ خزيمة اكتفى في العلم بأنّ الناقة له (ص) وشهد بذلك من حيث علم أنّه رسول الله.. ولا يقول إلاّ حقّاً.. وأمضى النبيّ (ص) ذلك له من حيث لم يحضر الابتياع والثمن! فقد كان يجب على من علم أن فاطمة (ع) لا تقول إلاّ حقّاً، أن لا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة.

هذا وقد روي أنّ أبا بكر لما شهد أمير المؤمنين (ع).. كتب بتسليم فدك إليها.. فاعترض عمر قضيّته.. وخرّق ما كتب[2].

وعلمُ أبي بكرٍ (رض) بصدق الزهراء (ع) لا يدانيه ريبٌ، فطالما قال لها عند المحاججة: صدقتِ يا ابنة رسول الله! وعلمه هذا مقدّمٌ على البيّنة.. باعتبار غلبة الظنّ على الشهادة.. والعلم أرقى من البيّنة! وهو منه إقرار.. فكما لا يحتاج مع العلم إلى بيّنة فهو كذلك لا يحتاج مع الإقرار إلى بينة.. لأنّ الإقرار سيّد الأدلة كما يقول فقهاء القانون.

٢ ـ هناك شهادة لأمير المؤمنين الإمام علي (ع) بصدق أبي ذرّ (رض).. تجري هذا المجرى من الوقائع، وذلك عندما روى أبو ذرّ (رض) عند عثمان (رض) عن النبي (ص) أنّه قال: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، ودينه دَخَلاً».

فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟ قالوا: لا.

فقال عثمان: ويلك يا أبا ذرّ أتكذب على رسول الله؟.

فقال أبو ذرّ: أم تدرون أني صدقت؟ قالوا: لا، والله ما ندري!.

فقال عثمان: ادعوا لي علياً، فلمّا جاء؛ قال عثمان لأبي ذرّ: أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي: أسمعت هذا من رسول الله (ص) قال: لا، وقد صدق أبو ذرّ!. فقال: كيف عرفت صدقه؟ فقال أمير المؤمنين (ع) سمعتُ رسول الله يقول: «ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة.. أصدق من أبي ذرّ».

فقال من حضر: أمّا هذا فسمعناه كلّنا من رسول الله.

---

(١) ظ. ابن عبر البر، الاستيعاب: ٧٥١/٢، طبعة حيدر آباد الدكن، والهيثمي، مجمع الزوائد ٢٠١/٩، وأبو نعيم، حلية الأولياء: ٤١، مطبعة السعادة، القاهرة، والحاكم النيسابوري، المستدرك: ١٦٠/٢، طبعة حيدر آباد.

(٢) ظ. السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٥، وانظر أسانيده المعتبرة عند الجمهور.

فقال أبو ذرّ: أحدّثكم أني سمعت هذا من رسول الله (ص) فتتهموني؟ ما كنتُ أظنّ أن أعيش حتّى أسمع هذا من أصحاب محمد (ص)[١].

ومن خلال هذا الحدث والحديث معاً نجد أمير المؤمنين (ع) قاطعاً بصدق أبي ذرّ وصدق روايته، لعلمه بكون أبي ذر صادقاً استناداً إلى الحديث الشريف سماعاً من النبيّ (ص) مباشرة.. وهذا ما ينطق بأرقى مراتب صدق أبي ذرّ دون شكّ.. ولا يحتاج معه إلى ضمائم أخرى لتصديق ما رواه لعثمان في بني أبي العاص.. فشهادة النبيّ (ص) لا تعادلها شهادة، أو رواية!.

وعوداً على بدء فإنّ عائشة (رض) لا تكتفي بما قالت سابقاً.. بل أضافت إليه خصائص الزهراء المشابهة لخصائص أبيها فقالت: (ما رأيت أحداً كان أشبه سمتاً وهدياً، ودلاً، وحديثاً، وكلاماً برسول الله (ص) من فاطمة كرم الله وجهها)[٢].

فهي تضيف إلى الصدق شمائل رسول الله الخَلقية والخُلقية والنفسية؛ فالسمت في الهيبة والوقار، والهدى في الحركة والسكون.. والدلّ في الحيثية والكيفية والهوية.. والحديث في الصدق ونبرات الصوت.. والكلام في البلاغة والأداء والتبليغ.

هذه الخصائص التي أشارت إليها أمّ المؤمنين تشارك الزهراء فيها أباها رسول الله (ص) تكوينياً.

والبحث في إطاره الإثباتي ليس بحاجةٍ إلى تأكيد هذه الصفات: لأنّها كالشمس في رائعة النهار تدلّ بذاتها على ذاتها، وبأنوارها على أطوارها.

أمّا صدق اللهجة عند الزهراء فهو من المسلّمات الأولية لدى الإمامية، وعند الجمهور.. بل هو في الذروة العليا لأبرز مصاديق الصدق والتصديق في مفهومه العام.. فضلاً على المفهوم الخاص، فحسبها أنّها الصادقة الصدّيقة وكفى.

وهذا الملحظ في ضوء موازينها الموضوعية يدعم فعلاً بنصوص القرآن الكريم.. فكونها من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.. نصّ على صدقها: لأنّ الآية في سياق الحديث عن العصمة.. والصدق من مصاديق العصمة دون ريب، والقرآن نصٌّ، ولا اجتهاد في مقابل النص.

ويدعم هذا بالسنة القطعية الصدور البالغة حدّ التواتر في السعة والانتشار والرواية.. وهذا ظاهر الدلالة بالسيرة الذاتية للزهراء (ع) إذ لم يسجّل لها أعداؤها زللاً في قول.. ولا شططاً في حديث، فضلاً عن أوليائها.. فهي صادقة ومصدّقة إجماعاً باصطفاف وقائع الأحداث العريضة في عصرها.. الناطقة بعفّة اللسان وصدق اللهجة.. وذلك من الثوابت.. والثوابت لا تتحوّل.. وعلى هذا تكون كلّ دعوى صادرة عن الزهراء دعوى صادقة بامتياز..

---

(١) المصدر نفسه: ٢٣٥، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٧٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٥٨/٨، وانظر مصادره وأسانيده.

فالأدلّة قد سبقتها.. وقرائن الحال قد تقدّمتها.. والنتائج السليمة تبنى على المقدمات السليمة.. وهذا ما يقرّره العقل البشري المتنوّر.. ويؤيّده علماء المنطق الأرسطي.

فإذا أضفنا إلى هذا عصمة الزهراء في كلّ جزئية وكليّة.. قادنا البحث في عصمتها إلى القول بصدقها قطعاً..

وآية التطهير صادعة بقصر الإرادة الإلهية من وجهين:

الأول: قصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير.

الثاني: قصر هذه الإرادة بأهل البيت خاصة.

والإرادة في الآية مطلقة غير محدودة.. وبذلك تتعيّن عصمتهم (ع)، والمراد والله العالم إزالة كلّ آثار الرجس.. ويقابله التطهير الشامل، وذلك جارٍ في القول والعمل.. والصدق قولٌ وعمل.

وهنا نجد الآية قد قابلت إذهاب الرجس بإثبات التطهير، قال السيّد الطباطبائي قدّس سرُّه في هذا المحور:

(إنّ الله سبحانه تستمرّ إرادته أن يخصّكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل، وأثر العمل السيء عنكم أهل البيت.. وإيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم هو: العصمة)[1].

وإذا زاوجنا بين النصّ القرآني في آية واحدة تطبق المفصل في الأداء.. وقد جمعت أروع فنون البلاغة بالعربية في التعبير والمعنى الإيحائي.. إذا زاوجنا بين هذا وبين السّنة القطعية الصدور.. وأكتفي بحديث واحد متواتر روي عنه (ص) بعشرات الطرق الصحيحة وعشرات الأسانيد الموثقة: «فاطمة بضعة منّي.. من آذاها فقد آذاني.. ومن آذاني فقد آذى الله عزّ وجل»[2].

قال السيد المرتضى معقّباً على الحديث الشريف:

(وهذا يدلُّ على عصمتها يعني الزهراء (ع) لأنّها لو كانت ممن تقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذياً له على كلّ حال.. بل كان متى فعل المستحق من ذمّها، أو إقامة الحدّ عليها، وأنّ كان الفعل تقتضيه ساراً له ومطيعاً.. على أننا لا نحتاج أن ننبّه في هذا الموضع على الدلالة على عصمتها.. بل يكفي في هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادعته.. وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين.. لأنّ أحداً لا يشكُّ أنّها لم تدعِ ما ادّعته كاذبة.. وليس بعد أن لا تكون كاذبة إلاّ أن تكون صادقة.. وإنّما اختلفوا في هل يجب مع العلم بصدقها تسليم ما ادعته بغير بيّنة، أم لا يجب ذلك)[3].

---

(١) أبو داود، السنن: ٧٦٦/٢، والترمذي ن السنن: ٧٠٠/٥، والاستيعاب: ٧٥١/٢.

(٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢١٣/١٦.

(٣) المرتضى، الشافي: ٢٣٥، والطبري، دلائل الإمامة: ٤٥، والمجلسي، بحار الأنوار: ١٧٠/٤٣، وانظر مصادرهم.

وصدق الزهراء وحركية عصمتها يمكن للبحث أن يأطّره بما هو أشمل دلالة.. بحيث تتهاوى الولائج الدفينة.. وتتهافت الدعاوى المضادة في ضوء ما روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) بقوله: «وإنّما سمّيت فاطمة لأنّ الخلق فطموا عن معرفتها»[١].

وتعبير الإمام هذا يوحي بالاستقصاء الشامل في عدم معرفتها من قبل الكائنات.. لتقاصرها عن إدراك كنهها بتفصيلاته المركبة من مجموعة الامتيازات النوعية لدى الزهراء مقترنة بالألطاف الإلهية اللامتناهية في العطاء والإمداد الغيبي.

وهذا يجرّنا إلى التحقيق العلمي المجرّد في الأصل من دعوى الزهراء الذي جعلت من فدك مدخلاً له في الاحتجاج والتصدّي.

دعوى الزهراء.. رسالية لا مالية:

قد يقال بأنّ الزهراء (ع) قد كفّت عن المنازعة والمشاحنة بعد أن روى أبو بكر (رض) متردّداً أو متسامحاً على لسان النبي (ص): (نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه صدقة).

وقد علمت علماً يقينياً أنّ القوم قد أجمعوا عليه والأخذ به لئلا يفتح عليهم باب لا سبيل إلى غلقه.. إلاّ إنّ الزهراء لم تسلّم لهذا الأمر.. ولا خضعت لبوارقه (لكنّها انصرفت مغضبة.. متظلّمة.. متألمة، والأمر في غضبها وسخطها أجلى من أن يخفى على منصف.. فقد رواه أكثر الرواة الذين لا يتّهمون بتشيّع.. ولا عصبية فيه من كلامها في تلك الحال. وبعد انصرافها عن مقام المنازعة والمطالبة ما يدلُّ على ما ذكرناه من سخطها وغضبها)[٢].

وقد بذل السيّد المرتضى قصارى جهده في التحقيق بأصل الدعوى وفرعها حين أوردها عن طريقين:

الطريق الأول، قال فيه، وفي سنده:

«أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، قال: حدّثني محمد بن أحمد الكاتب، قال: حدّثني أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي، قال: حدّثني الزيادي، قال: حدّثنا الشرقي بن القطامي عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثنا صالح بن كيسان، عن عروة، عن عائشة (رض) قالت: (لمّا بلغ فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فدك.. لاثت خمارها على رأسها.. واشتملت بجلبابها.. وأقلبت في لمّةٍ من حفدتها). (اتفقا من هنا).

الطريق الثاني، قال المرتضى:

وأخبرنا المرزباني، قال: حدّثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي، قال حدّثنا أبو العيناء بن القاسم اليماني، قال: حدّثنا ابن عائشة، قال: (لمّا قبض رسول الله (ص) أقبلت فاطمة إلى

---

(١) المرتضى. الشافي: ٢٣٥، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٧٣/١٦.

(٢) المجلسي. بحار الأنوار: ٥٨/٤٢، وانظر مصادره وأسانيده.

السيد المرتضى. الشافي: ٢٣٠.

أبي بكر في لمّة من حفدتها، ثمّ اجتمعت الروايتان من ههنا، ونساء قومها.. تطأ ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص) حتى دخلت على أبي بكر، وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة فجلست، ثمّ أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، وارتجّ المجلس ثمّ أمهلت هنيهة.. حتّى إذا سكنَ نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت كلامها بالحمد لله عز وجل، والثناء عليه، والصلاة على رسول الله (ص) ثم قالت: «﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[1]. فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ... المشركين.. ضارباً ثبجهم.. يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة.. آخذاً بأكظام[2] المشركين، يهشّم الأصنام، ويفلق الهام، حتّى انهزم الجمع وولّوا الدبر.. وحتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين[3]، وتمّت كلمة الإخلاص، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[4]، نهزة الطامع.. ومذقة الشارب.. وقبسة العجلان.. وموطأ الأقدام، تشربون الطرق[5].. وتقتاتون القدّ.. أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، حتّى أنقذكم الله برسوله (ص) بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[6]. حتى يطأ صماخها بأخمصه[7]، ويطفئ عادية لهبها بحدّه، مكدوداً في ذات الله، وأنتم في رفاهية فاكهون آمنون[8].

وإلى هنا تنتهي رواية أبي العيناء لجزء من الخطبة عن ابن عائشة.

وأمّا رواية عروة عن عائشة.. فزاد بعدها ما يأتي:

«حتّى إذا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه، ظهرت حسيكة النفاق[9]، وسمل جلباب الدين[10]، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الآفكين، وهدر فنيق المبطلين[11]، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين،

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) الاكظام: جمع كظم بفتح الأول والثاني: مخرج النفس من الحلق.

(٣) شقاشق: جمع شقشقة، وهي الوبد الذي يخرج من فم البعير عند هديره.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٥) الطرق: الماء المختلط ببول الابل والحمير.

(٦) سورة المائدة: ٦٤.

(٧) الصماخ: الهام، وهو الرأس من الجسد.

(٨) المرتضى، الشافي: ٢٣٠، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٤٩.

(٩) الحسيكة: ما تحسكه الدابة: اي تقضمه.

(١٠) سمل الثوب: خلق وبلي.

(١١) الفنيق: الفحل من الابل.

ولقربه متلاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً[1]، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، إنّما زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[2].

فهيهات وأنّى بكم، وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم: زواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة، أرغبة عنه تريدون؟ أم لغيره تحكمون ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[3]. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4].

ثمّ لم تلبثوا إلاّ ريثما تسكن نفرتها، تسرّون حسواً في إرتغاء، ونصبرُ منكم على مثل حزّ المُدى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[5].

والتفت إلى أبكر (رض) متسائلةً ومحتجّة: أترث أباك ولا أرث أبي؟.. فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون[6].

ثم انكفأت إلى قبر أبيها (ص) وقالت:

قد كان بعدكَ انباءٌ وهنبثةٌ   لو كنت شاهدها لم تكثرِ الخطُبُ

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلَها   واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغبِ

وها أنت ترى الخطبة برواية أبي العيناء عن ابن عائشة.. لا تذكر النحلة لا من قريب، ولا من بعيد، ولم تعرض لسهم ذوي القربى: بلى في نهايتها عرضت للإرث وحده.. إنكاراً لمخالفته النصّ القرآني: ظاهراً وواقعاً، وحجيّة ظواهر الكتاب تؤيّد ما ذهبت إليه الزهراء، ولا يعدل عن ظاهره الكتاب إلاّ بقرينة صارفة.. وليس هناك ما يمنع إرادة الإرث بمصطلحه الشرعي الدقيق.

والقضية المركزية الأولى في هذه الخطبة أو ما ذكر منها في الأقل التأكيد على جهاد النبي (ص)، وجهاد الوصي (ع).. هذا الجهاد الذي لا يجهله في عصره أدنى الناس إدراكاً.. فكيف بمن شاهدوه عياناً.. وهو جهاد مشترك بين النبي وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما بمفردات ضخمة ذات عمقٍ مكثّف مضغوط مراعاةً لمقتضى الحال في الإيجاز.

---

(١) أحمشه: أغضبه، والنار قوّاها بالحطب.

(٢) سورة التوبة: ٤٩.

(٣) سورة الكهف: ٥٠.

(٤) سورة آل عمران: ٨٥.

(٥) سورة المائدة: ٥٠.

(٦) المرتضى، الشافي: ٢٣١ ـ وما بعدها، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

وقد كشفت الزهراء (ع) صفحة أخرى أنّ أمير المؤمنين (ع) كان إلى جنب الرسول الأعظم (ص) في الشدائد والمهمّات الصعبة دون سواه.. فأين أنتم عن هذا؟!

وأما ما زاده عروة عن عائشة أمّ المؤمنين (رض) في روايته.. فيشير إلى ما أحدثه الانقلاب بعد وفاة النبي (ص) من إنكفاء على العقب.. وإهدار لسنوات الكفاح الدامي دون مسوّغ تشريعي تحقيقاً للإيعاد الإلهي بقوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[1].

مما شكّل عدّة ظواهر سلبية يمكن للبحث تسليط الضوء على أشدّها خطورة، وأعظمها انتكاسة في الحقل الاجتماعي في المدينة المنورة من جهة.. وفي حركات الردّة بزعامة الأسود العنسي وسواه ممن ادّعى النبوة من جهة ثانية.. وفي التشكيك بنبوة محمد (ص) لدى الأعراب وأهل البوادي ثالثاً.. وفي الانفلات الأخلاقي والتطاول على أهل البيت في ملحظٍ آخر.. مما يعدّ بمجموعة خرقاً لتعليمات السماء.. ذلك ما أفرز النقاط الرئيسة الآتية:

١ - بروز ظاهرة النفاق مستطيراً في المدينة المنوّرة.

٢ - عودة الاختلاف والبغضاء والمشاحنة بين المسلمين بأسوأ مما كان عليه قبل الإسلام وصيرورة الأخوان أعداءً.

٣ - تصريح الزهراء (ع) في متغيّرات الأحداث إلى ما اخلولق من لباسِ الدين والتقوى حتّى عادا من الأسمال البالية.

٤ - تطاول الغاوين بالمنطق الفاضح.. ونبوغ الخاملين في الأفق الجديد.. وهدير المبطلين متعالياً بين الصفوف.

٥ - تطلّع الشيطان برأسه صارخاً بهم، فاستجابوا لدعوته مهطعين.. واستنهضهم فأسرعوا إليه خفافاً، وهذا ما تراهُ الزهراء بحقّ عملاً ضدّ الإسلام على قدمٍ وساق.

٦ - وبهذا كلّه.. ونتيجة له.. فقد تمادى الاعتداء بالظلم والجور والهضم والاغتصاب.. فوسموا غير إبلهم، ووردوا غير موردهم.

٧ - والأفظع من هذا أنّ ما حدث، وعهد القوم برسول الله قريب.. ومصابه بعد لم ينجبر.. والجرح ينزف دماً! اتقاءً للفتنة فيما زعموا.. إلاّ أنهم في الفتنة سقطوا.

٨ - وفنّدت الزهراء (ع) بحديثها المتوازن جملة الاعتداءات المناقضة لدعواها مستندة على القرآن الكريم، وهو بين أيديهم.. بيّن الزواجر.. لائح الشواهد.. واضح الأوامر!.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

٩ - هذا ما دعا الزهراء (ع) أن تتوجه باستفهام إنكاري عن سبب استبدال أحكام القرآن.. فبئس البدل.. والله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[1].

١٠ - وكان الختام أن بيّنت الظلامة بأصلها السياسي والديني لأهل البيت (ع) فكان وقعها على مثل حزّ السكاكين.

هذا الاختزال المعمّق في هذه الخطوط العشرة مثّلت لك قضية لها ظاهر بسيط.. ولها واقع بعيد المدى في الأخذ والردّ والجذب والشدّ، وهي تتناول بالتعريض والتصريح والنقد والتجريح هفوات الحركة الانقلابية المضادّة لسيرورة قيادة أهل البيت (ع) للأمة.. وتعرّي شبكة التضافر على عقوق المبادئ العليا بالانقضاض على الحكم من أجل الحكم!

ذلك ما كانت تعاني منه الزهراء أولاً وبالذات.. وتلك هي ظلامتها الكبرى.. وكان أبو بكر على مستوى سياسي عالٍ.. فلم يعرض لشيء مما ذكرته به الزهراء من المؤامرة والظلامة الحقيقية.. وإنّما تجاهل هذا الأمر تجاهل العارف الجاحد.. وابتعد عنه مسافات شاسعة جداً.. واقتصر على الجزء الأخير من خطابها.. لذلك أمسكت الزهراء ولم تردّ عليه.. فهي تتحدّث بشيء.. وهو يدفع بشيء آخر.. ترك المَعْلَم البارز في أصل الموضوع إلى مَعْلَم ثانوي فيه.. وعلمت الزهراء ما عليه القوم، ولم ترد عليه.. وخرجت غضبى ساخطة.

وقد روى علماء الجمهور والإمامية جواب أبي بكر لها على خطبتها: قالوا: (فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي، وقال:

يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء.. والله ما عدوت رأي رسول الله (ص) ولا عملت إلاّ بإذنه، وإنّ الرائد لا يكذب أهله.. وإنّي أشهد الله وكفى بالله شهيداً، أنّي سمعتُ رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً، ولا فضّة، ولا داراً، ولا عقاراً، وإنّما نورّث الكتاب والحكمة، والنبوة)[2].

فامتنعت الزهراء (ع) عن جوابه.. وخرجت غضبى.

وعقّب السيد المرتضى على هذه الخطبة في معرض الردّ على القاضي عبد الجبار المعتزلي قائلاً:

(وقد روي هذا الكلام على هذا الوجه من طرق مختلفة، ووجوه كثيرة، فمن أرادها أخذها من مواضعها، فكيف يدّعي أنّها (ع) كفّت راضية؟ وأمسكت قانعة؟)[3].

(١) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٥٢/١٦.

(٣) المرتضى، الشافي: ١٣١.

وإذا كان الحديث الذي رواه أبو بكر يمنع وراثة الذهب والفضة والدار والعقار.. فإنّه لا يمنع وراثة الكتاب والحكمة والنبوة! على ما ادّعى.. ولا نبي بعد رسول الله.. وأمير المؤمنين منه (ص) بمنزلة هارون من موسى «إلاّ أنّه لا نبي بعدي».

فما معنى هذه المنزلة إن لم يورث علياً الكتاب والحكمة والإمامة؟ وما معنى الحديث به منه (ص) لدى استخلاف علي على المدينة.. ألاّ يرشّحه هذا وحده للخلافة؟.

وقد يقال بأنّ كلام الزهراء موضوع أو مصنوع.. بمعنى أنّه منتحل على الزهراء (ع) ولا أصل له.. وهذا مرفوض جملة وتفصيلاً.. لأنّ فيه تشكيكاً بالروايات المتواترة، وتكذيباً لآلاف الأخبار الصحيحة.. لا بدليل بل على جهة الاستبعاد.

وقد نبّه السيّد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) قبل ألف عام على هذا الملحظ، وقال فيما روي له (ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) كلام فاطمة (ع) عند منع أبي بكر إيّاها فدك.. وقلت له: إنّ هؤلاء يزعمون أنّه مصنوع.. وأنّه من كلام أبي العيناء.. لأنّ الكلام منسوق البلاغة[1]. فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يرونه عن آبائهم، يعلّمونه أولادهم، وقد حدّثني به أبي عن جدّي يبلغ به فاطمة (ع) على هذه الحكاية، وقد رواه مشايخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدُّ أبي العيناء.

وقد حدّث الحسين بن علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر عن أبيه يعني الإمام الحسن بن أمير المؤمنين هذا الكلام)[2].

ولا عجب بعد هذا أن يقول التاريخ غير الشيعي كلمته الأخيرة على لسان ابن أبي الحديد المعتزلي:

(وحينما منعت الزهراء: الإرث والنحلة وسهم ذوي القربى، وأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً.. فوجدت من ذلك على أبي بكر.. وهجرته.. فلم تكلّمه حتّى توفيت.

الزهراء.. ومنصب الولاية الإلهية:

التزمت الزهراء (ع) في أصول احتجاجها الصادق أن تسعى جاهدة إلى إعادة الحق إلى نصابه في قضية كبرى تتمثل بأولوية (المنصب الإلهي) بعد الرسول الأعظم. وهو ما يسمّى عند الإمامية بـ «الإمامة» وعند الجمهور (الخلافة) وكلاهما يفرغ عن معنًى واحد في النتيجة.. وهي عند الإمامية لا تتوافر إلاّ بشروط.. وعند الجمهور بشروطٍ أخرى، تلتقي في وجهٍ، وتفترق في وجوه.. وليس هذا مورد بحثها.. فلها حديثها الخاص بها عند علماء العقيدة والكلام.. وقد بحثت بلا مزيدٍ عليه.. فما تنازل الإمامية عن شروطهم.. وما تنازل الجمهور عنها إلاّ لماماً.

---

(١) انظر إلى هؤلاء! كيف ينسبون إلى أبي العيناء بلاغة الكلام، وينفون البلاغة عن الزهراء بنت محمد بن عبد الله رسول ربّ العالمين، القائل (أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش).

(٢) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٢.

وأقبلت الزهراء (ع) في دلائلها تترى.. واستقرأت وقائع الأحداث من خلال تصوّر القرآن والسنة في البرهان.. وجادلت السلطة في كبريات الإشكاليات الماثلة دون جزئياتها التي لا تستأثر باهتمامها الهادف.

وما كانت الزهراء لتريد من منازلتها الجريئة لأبي بكر (رض) أن تظفر بمالٍ تتسع من خلاله بحياةٍ فارهة حاشاها عن هذا ولم تكن تحاول السعي إلى غنيمة مادية تتباهى بثرائها، ولا تستهوي بفدك نحلةً تعدّها لمكاره الدهر!.

إذن ما المراد من هذه الثورة الغاضبة في مجابهة السلطان؟ أجل.. إنّه الهدف الأرقى الذي تختفي كلّ زخارف الدنيا عنده، وتعطف كلّ معالم الدين في موكبه.. علماً بأنّه ليس ميداناً للمنازلة لتحرز به قصب السبق.. ولا ساحة قتالٍ لتظفر بها بغنائم حرب.. ولا تريد بإثارته سفك الدماء ولا كثرة الجرحى، ولا اقتطاف الرؤوس!. بل تسعى الزهراء من وراء هذا الهدف إلى إخماد الفتنة قبيل أوارها.. والقضاء على الفرقة أول ميلادها.. والحفاظ على مقدرات الإسلام وقدراته قبل بدادها وشتاتها..

وقد كانت الزهراء بمستوى الحدث وموقع المسؤولية!. تريد أن يتسنّم أبو الحسن (ع) صهوتها، ويتسلّم قيادتها.. ويرفع لواءها.. ويمسك بزمام الأمر. كما سيتضح هذا في خطابها عند عيادة نساء المهاجرين والأنصار في مرضها الذي توفيت فيه، والتي سنقف عندها محللين ومعلقين في موقعه من البحث.

وما كانت في خطبتها التي سنأتي عليها لتتحدث عن فدك.. ولا كان أمير المؤمنين ليتحدّث عن ذلك لدى تسلّمه الحكم بعد ربع قرن من الزمان.. وكان شأن الزهراء (ع) في ذلك شأن أمير المؤمنين حينما قال:

(بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء.. فشحّت عليها نفوس قوم، وسخت نفوس قومٍ آخرين، ونعم الحكم الله، وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانّها في غير جدث تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسدّ فرجها التراب المتراكم.. وإنّما هي نفسي اروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق)[1].

ونظرة الزهراء (ع) لفدك لا تعدو نظرة أمير المؤمنين (ع) ولكنّها مفتاح النكير لتجاهل منزلة أمير المؤمنين الوريث الشرعي لرسالة السماء.. ليس لأنّ علياً زوجها.. بل لأنّه أول القوم إسلاماً.. وأقدمهم إيماناً.. وأسبقهم إلى الدين والهجرة.. ثبت إذ فرّوا.. وصمد إذ تطايروا رعباً وفزعا.. حتّى قام الإسلام بسيفه وجهاده.. وهو صاحب الوصية في أهل البيت.. وهو بعد وليد البيت: وهي سمة لا مثيل لها، لم يسبقه إليها الأولون، ولا ينالها الآخرون، وفوق هذا كلّه:

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٢.

فقد نشأ في ظلال النبي (ص) وإلى جنبه وفي بيته.. وهو أخوه عند المؤاخاة.. وهو وزيره في مؤتة.. وهو خليفته في (غدير خم)، و، و.. الخ.

أمّا كفايته السياسية فهو الحاذق الخبير بتصريف شؤون الدولة بعدله وكياسته.. والعالم المتفرّد بأمور الدين.

ومن كانت هذه خصائصه ومميزاته: فهو في نظر سيدة النساء: القائد المحنّك.. والمؤهل ربّانياً لمنصب الولاية الإلهية.. ولو تولاّها لفتحت السماء بركاتها عليهم من الجهات الربع بالخيرات، والبركات كما هو مضمون قول أبي ذرّ، ولحملهم على المحجة البيضاء، كما قال عمر (رض).

وما كان عزل أمير المؤمنين (ع) عن القيادة العليا، وإعلان مرجعية الصحابة، مستنداً إلى نصّ قانوني، أو شرعي، أو اجتماعي، ولكنّها إثرة قريش حتّى قال عمر (رض): (يأبى الله أن يجمع لكم النبوة والإمامة يا بني هاشم).

وإذا كان الأمر كذلك: لماذا قرّر عمر نفسه أن يكون عليٌّ سادس ستةٍ في الشورى.. فبينا هو ينفي إرادة الله بجمع النبوة والإمامة في بني هاشم.. وإذا به يوصي لعلي (ع) أن يكون أحد الستة أولي الشورى؟ ولكنّهم استبدلوا وبدّلوا وقدّموا، وأخروا كما شاءوا...

فصكّتهم الزهراء (ع) بالقرآن صادعاً:

﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

وتريد الزهراء بهذا الاستشهاد البليغ أن تقف عند مسألة مهمة في قيادة الأمة في ضوء ما صرّح به القرآن في نوعي الهداية على نحوين: هداية بالأصالة، وهداية بالعارض، وسيأتي الحديث عن ذلك عند دراسة خطبة الزهراء في نساء المهاجرين والأنصار في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

والخلاصة يرى البحث أنّ ما أثارته الزهراء متظلّمة وهو حقّ كان أمراً ذرائعياً لتأكيد الظلامة الكبرى في مسألة الولاية الإلهية.. وكان هذا معلماً عقلائياً من معالم التدرّج بإثبات الحقّ الهضيم.. وإن سلكت فيه ذلك المسلك الرفيع بالمطالبة.. لأنّ الاحتجاج عليه هو الاظهر، والإفصاح عنه هو المنظور إليه.

وفي ضوء ما تقدّم رأت الزهراء (ع) أن تتصدر المعارضة في ظلّ مشاهد القوم الانقلابية.. وكانت هذه المعارضة سلمية.. انطلاقاً من وظيفتها الشرعية تجاه الأمة والإسلام.. ❖

---

(١) سورة يونس: ٣٥.

ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠٨/١٦.

أسـرار أسـماء الزهراء (عليها السلام)

الشيخ رسول عبد السادة

علة تسميتها فاطمة:

لأن الله فطم من أحبها عن النار.

❖ عن أبي هريرة: قال علي (عليه السلام): إنما سُميت فاطمة لأن الله فطم من أحبها عن النار[١].

❖ عن جابر الأنصاري قال النبي (صلى الله عليه وآله): إنما سميت ابنتي فاطمة لأن الله فطمها وفطم محبيها عن النار[٢].

❖ عن محمد بن مسلم الثقفي، قال: سمعت آبا جعفر (عليه السلام) يقول: لفاطمة عليها السلام وقفة على باب جهنم، فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كل رجل مؤمن أو كافر فيؤمر بمحب قد كثرت ذنوبه إلى النار فتقرأ فاطمة بين عينيه محباً فتقول: إلهي وسيدي سميتني فاطمة وفطمت بي من تولاني وتولى ذريتي من النار ووعدك الحق وأنت لا تخلف الميعاد فيقول الله عز وجل: صدقت يا فاطمة إني سميتك فاطمة وفطمت بك من أحبك وتولاك وأحب ذريتك وتولاهم من النار ووعدي الحق وأنا لا اخلف الميعاد وإنما أمرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فاشفعك وليتبين ملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي فمن قرأت بين عينيه مؤمناً فخذي بيده وأدخليه الجنة[٣].

فطمت من الشر:

❖ الصادق (عليه السلام): تدري أي شيء تفسير فاطمة قال: فطمت من الشر ويقال إنما سميت فاطمة لأنها فطمت عن الطمث[٤].

فطمها الله بالعلم وعن الطمث.

❖ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: لما ولدت فاطمة عليها السلام أوحى الله عزّ وجلّ إلى ملك فانطلق به لسان محمد صلى الله عليه واله فسماها فاطمة ثم قال: إني فطمتك بالعلم وفطمتك عن الطمث ثم قال أبو جعفر (عليه السلام): والله لقد فطمها الله تبارك وتعالى بالعلم وعن الطمث بالميثاق[٥].

---

(١) علل الشرايع ١٧٨/١.

(٢) بشارة المصطفى ١٩٨، بحار الأنوار ٦٨ / ١٣٢.

(٣) علل الشرايع ١٧٩/١.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١١٠/٣.

(٥) مصباح الأنوار ٢٢٧، الكافي ١/ ٤٦، علل الشرايع ١٧٩، بحار الأنوار٤٣ / ١٣ح٩.

لأن الخلق فطموا عن معرفتها.

❖ عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنه قال: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) الليلة فاطمة والقدر الله فمن عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر، وإنما سميت فاطمة لأن الخلق فطموا عن معرفتها[١].

لأنها فطمت طمعهم:

❖ عبدالله بن الحسن بن حسن قال: قال أبو الحسن (عليه السلام): لم سميت فاطمة فاطمة؟ قلت: فرقا بينه وبين الأسماء قال: إن ذلك لمن الأسماء ولكن الاسم الذي سميت به أن الله تبارك وتعالى علم ما كان قبل كونه فعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتزوج في الأحياء وأنهم يطمعون في وراثة هذا الأمر من قبله فلما ولدت فاطمة سماها الله تبارك وتعالى فاطمة لما أخرج منها وجعل في ولدها ففطمهم عما طمعوا فبهذا سميت فاطمة لأنها فطمت طمعهم ومعنى فطمت قطعت[٢].

علة تسميتها بالزهراء:

لأن الله خلقها من نور عظمته.

❖ عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قلت: لم سميت فاطمة الزهراء زهراء فقال: لان الله عزّ وجلّ خلقها من نور عظمته فلما أشرقت أضاءت السماوات والأرض بنورها وغشيت أبصار الملائكة وخرت الملائكة الله ساجدين وقالوا: إلهنا وسيدنا ما هذا النور فأوحى الله إليهم هذا نور من نوري وأسكنته في سمائي خلقته من عظمتي أخرجه من صلب نبي من أنبيائي أفضله على جميع الأنبياء واخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمري يهدون إلى حقي وأجعلهم خلفائي في أرضي بعد انقضاء وحيي[٣].

أزهرت المشارق والمغارب بإيجادها:

❖ عن عبدالله ابن مسعود أنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فسلمت، وقلت: يا رسول الله أرني الحق أنظر إليه عيانا. فقال: يا ابن مسعود لج المخدع، فانظر ماذا ترى. قال: فدخلت فإذا علي بن أبي طالب (عليه السلام) راكعاً وساجداً وهو يخشع في ركوعه وسجوده وهو يقول (اللهم بحق محمد نبيك إلا ما غفرت للمذنبين من شيعتي) فخرجت لأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك فوجدته راكعاً وساجداً وهو

---

(١) تفسير فرات ٥٨١ح ٧٤٧، بحار الأنوار ٤٢ / ٦٥ح ٥٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٣/١٣.

(٣) دلائل الإمامة ١٤٩ ح٦٠، كشف الغمة ١/ ٤٦٤، مصابيح الأنوار ٢٢٣، علل الشرايع ١/ ١٧٩، بحار الأنوار ٤٣ / ١٢ح٥.

يخشع في ركوعه وسجوده ويقول (اللهم بحق علي وليك إلا ما غفرت للمذنبين من أمتي). فأخذني الهلع، فأوجز صلى الله عليه وآله في صلاته وقال: يا ابن مسعود أكفر بعد إيمان. فقلت: لا وعيشك يا رسول الله، غير أني نظرت إلى علي وهو يسأل الله تعالى بجاهك، ونظرت إليك وأنت تسأل الله تعالى بجاهه، فلا أعلم أيكما أوجه عند الله تعالى من الآخر. فقال: يا ابن مسعود إن الله خلقني وخلق عليا والحسن والحسين (عليهم السلام) من نور قدسه، فلما أراد أن ينشئ الصنعة فتق نوري وخلق منه السماوات والأرض، وأنا والله أجل من السماوات والأرض وفتق نور علي وخلق منه العرش والكرسي، وعلي والله أجل من العرش والكرسي وفتق نور الحسن وخلق منه الحور العين والملائكة، والحسن والله أجل من الحور العين والملائكة. وفتق نور الحسين وخلق منه اللوح والقلم، والحسين والله أجل من اللوح والقلم، فعند ذلك أظلمت المشارق والمغارب. فضجت الملائكة ونادت: إلهنا وسيدنا بحق الأشباح التي خلقتها إلا ما فرجت عنا هذه الظلمة. فعند ذلك تكلم الله بكلمة أخرى، فخلق منها روحا، فاحتمل النور الروح، فخلق منه الزهراء فاطمة فأقامها أمام العرش، فأزهرت المشارق والمغارب، فلأجل: خلقه. ذلك سميت الزهراء. يا ابن مسعود إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لي ولعلي: أدخلا الجنة من أحبكما وألقيا في النار من أبغضكما[1].

لأنها تزهر بالنور.

❖ عن إبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام) يا ابن رسول الله لم سميت الزهراء زهراء؟ فقال: لأنها تزهر لأمير المؤمنين (عليه السلام) في النهار ثلاث مرات بالنور، كان يزهر نور وجهها صلاة الغداة والناس في فراشهم فيدخل بياض ذلك النور إلى حجراتهم بالمدينة فتبيض حيطانهم فيعجبون من ذلك فيأتون النبي (صلى الله عليه وآله) يسألونه عما رأوا فيرسلهم إلى منزل فاطمة عليها السلام فيأتون منزلها فيرونها قاعدة في محرابها تصلي والنور يسطع من محرابها من وجهها فيعلمون أن الذي رأوه كان من نور فاطمة فإذا انتصف النهار وترتبت للصلاة زهر نور وجهها عليها السلام بالصفرة؛ فتدخل الصفرة في حجرات الناس فتصفر ثيابهم وألوانهم فيأتون النبي صلى الله عليه واله فيسألونه عمار أو أفيرسلهم إلى منزل فاطمة عليها السلام فيرونها قائمة في محرابها وقد زهر نور وجهها - صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها - بالصفرة فيعلمون أن الذي رأوا كان من نور وجهها فإذا كان آخر النهار وغربت الشمس احمر وجه فاطمة فأشرق وجهها بالحمرة فرحاً وشكراً لله عزّ وجلّ فكان تدخل حمرة وجهها حجرات القوم وتحمر حيطانهم فيعجبون من ذلك ويأتون النبي صلى الله عليه واله ويسألونه عن ذلك فيرسلهم إلى منزل فاطمة فيرونها جالسة تسبح الله وتمجده ونور وجهها يزهر بالحمرة فيعلمون أن الذي رأوا كان من نور وجه فاطمة (عليها السلام) فلم يزل

---

(١) بحار الأنوار ٣٦/ ٧٣، تأويل الآيات ٢/ ٦١١.

ذلك النور في وجهها حتى ولد الحسين (عليه السلام) فهو يتقلب في وجوهنا إلى يوم القيامة في الأئمة منا أهل البيت إمام بعد إمام[١].

زهّرت السماوات عند خلقها.

❖ عن سلمان الفارسي - ره - قال: كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وآله في المسجد إذ دخل العباس بن عبد المطلب فسلم فرد النبي صلى الله عليه وآله ورحب به فقال: يا رسول الله بما فضل الله علينا أهل البيت علي بن أبي طالب والمعادن واحدة، فقال النبي صلى الله عليه واله: إذن أخبرك يا عم إن الله خلقني وخلق عليا ولا سماء ولا أرض ولا جنة ولا نار ولا لوح ولا قلم. فلما أراد الله عزّ وجلّ بدو خلقنا تكلم بكلمة فكانت نورا ثم تكلم كلمة ثانية فكانت روحاً فمزج فيما بينهما واعتدلا فخلقني وعليا منهما ثم فتق من نوري نور العرش فأنا أجل من العرش ثم فتق من نور علي نور السماوات فعلي أجل من السماوات ثم فتق من نور الحسن نور الشمس ومن نور الحسين نور القمر فهما أجل من الشمس والقمر وكانت الملائكة تسبح الله تعالى وتقول في تسبيحها: سبوح قدوس من أنوار ما أكرمها على الله تعالى، فلما أراد الله تعالى أن يبلوا الملائكة أرسل عليهم سحابا من ظلمه وكانت الملائكة لا تنظر أولها من آخرها ولا آخرها من أولها فقالت الملائكة: إلهنا وسيدنا منذ خلقتنا ما رأينا مثل ما نحن فيه فنسألك بحق هذه الأنوار إلا ما كشفت عنا فقال الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي لأفعلن فخلق نور فاطمة الزهراء عليها السلام يومئذ كالقنديل وعلقه في قرط العرش فزهرت السماوات السبع والأرضون السبع، من أجل ذلك سميت فاطمة الزهراء. وكانت الملائكة تسبح الله وتقدسه فقال الله: وعزتي وجلالي لأجعلن ثواب تسبيحكم وتقديسكم إلى يوم القيامة لمحبي هذه المرأة وأبيها وبعلها، وبنيها قال سلمان: فخرج العباس فلقيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) فضمه إلى صدره وقبل مابين عينيه، وقال: بأبي عترة المصطفى من أهل بيت ما أكرمكم على الله تعالى[٢].

تعدد أسماؤها (عليها السلام):

تسعة أسماء عند الله:

❖ قال أبو عبدالله (عليه السلام): لفاطمة عليها السلام تسعة أسماء عند الله عزّ وجلّ فاطمة، والصديقة والمباركة، والطاهرة، والزكية، والراضية، والمرضية، والمحدثة، والزهراء ثم قال (عليه السلام): أتدري أي شيء تفسير فاطمة؟ قلت: أخبرني يا سيدي قال: فطمت من الشر قال: ثم قال: لولا أن أمير المؤمنين (عليه السلام) تزوجها لما كان لها كفو إلى يوم القيامة على وجه الأرض آدم فمن دونه[٣].

---

(١) علل الشرايع ١ / ١٨٠ح ٢، بحار الأنوار ٤٣ / ١١ح٢.

(٢) عيون المعجزات ٤٦.

(٣) بحار الأنوار ١٠/ ٥.

الطاهرة:

- عن أبي جعفر، عن آبائه (عليهم السلام) قال: إنما سميت فاطمة بنت محمد الطاهرة، لطهارتها من كل دنس، وطهارتها من كل رفث، وما رأت قط يوماً حمرة ولا نفاساً[١].

حوراء إنسية:

❖ عن أبي عبدالله، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خلق نور فاطمة (عليها السلام) قبل أن يخلق الأرض والسماء فقال بعض الناس: يا نبي الله فليست هي إنسية؟ فقال: فاطمة حوراء إنسية قالوا: يا نبي الله وكيف هي حوراء إنسية؟ قال: خلقها الله عزّ وجلّ من نوره قبل أن يخلق آدم إذ كانت الأرواح فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم عرضت على آدم. قيل يا نبي الله وأين كانت فاطمة؟ قال: كانت في حقة تحت ساق العرش، قالوا: يا نبي الله فما كان طعامها؟ قال: التسبيح والتقديس والتهليل والتحميد، فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم وأخرجني من صلبه وأحب الله عزّ وجلّ أن يخرجها من صلبي جعلها تفاحة في الجنة وأتاني بها جبرائيل (عليه السلام) فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا محمد! قلت: وعليك السلام ورحمة الله حبيبي جبرائيل، فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام قلت: منه السلام وإليه يعود السلام قال: يا محمد إن هذه تفاحة أهداها الله عزّ وجلّ إليك من الجنة. فأخذتها وضممتها إلى صدري، قال: يا محمد يقول الله جل جلاله كلها ففلقتها فرأيت نوراً ساطعاً وفزعت منه فقال: يا محمد مالك لا تأكل كلها ولا تخف فان ذلك النور للمنصورة في السماء وهي في الأرض فاطمة قلت: حبيبي جبرائيل ولم سميت في السماء المنصورة وفي الأرض فاطمة؟ قال: سميت في الأرض فاطمة لأنها فطمت شيعتها من النار وفطم أعداؤها عن حبها وهي في السماء المنصورة وذلك قول الله عزّ وجلّ (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء) يعني نصر فاطمة لمحبيها[٢].

كناها.

❖ كناها أم الحسن وأم الحسين وأم المحسن وأم الأئمة وأم أبيها وأسماؤها على ما ذكره أبو جعفر القمي: فاطمة، البتول، الحصان، الحرة السيدة، العذراء، الزهراء، الحوراء، المباركة، الطاهرة، الزكية، الراضية المرضية، المحدثة، مريم الكبرى، الصديقة الكبرى، ويقال لها في السماء النورية السماوية، الحانية[٣]. ❖

---

(١) بحار الانوار ٤٣/ ١٩.

(٢) تفسير فرات ٣٢١/ ح٤٢٥. معاني الأخبار ٣٧٧ح ٥٣. بحار الأنوار ٤٣/ ١٨ح ١٧. تفسير البرهان ٣/ ٢٥٨ ح٦.

(٣) بحار الأنوار ٤٣/ ١٦.

التحولات الاجتماعية في خطبة السيدة فاطمة الزهراء (ع)

د. أحمد علي حنيحن الشريفي
جامعة ذي قار - كلية الآداب - قسم اللغة العربية

يعد الفكر الاجتماعي من المبادئ الأساسية التي تنظم الأفكار والعقائد للمجتمعات فهو الطبيعة الغالبة لنمط من الأفكار التي يتبناها المجتمع أو الجماعة أو هو ذلك الجزء من الفكر المتعلق بإدارة شؤون المؤسسات وتنظيم الأنشطة الاجتماعية[١]، للمجتمع الذي يحوي على جملة من الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية الذي يهدف إلى علم العمران البشري كون الإنسان من أفضل المخلوقات التي كرمها الله تعالى (وفضله على خلقه واسجد له ملائكته وحمله أمانته واستخلفه في أرضه لغاية رسمها جل شأنه فلم يخلقه عبثاً ولم يتركه سدى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٦) فهناك حق وباطل، وهدف الخلق وغايته أن يقذف بالحق على الباطل فيزهقه، والإنسان من دون المخلوقات هو المطالب بممارسة هذا العمل، وهو المعد ليكون اليد التي يقذف الله بالحق على الباطل بها)[٢]، فالتحولات الاجتماعية التي يريدها الإسلام من الإنسان في هذه الحياة هو خلق نمطا جديدا للفكر الاجتماع ورسم الهدف الذي يسمو به وبمجتمعه ويصوغ نظاماً اجتماعياً متكاملاً. فالتغيير أو التحول هو تحول يحدث في التنظيم الاجتماعي سواء في تركيبه أم بنائه أم في وظائفه[٣]، ويذهب روس roos إلى آن التحول الاجتماعي هو التعديلات التي تحدث في المعاني والقيم التي تنتشر في المجتمع أو بين بعض جماعاته الفردية[٤]، فعملية التحول في المجتمع حركة طبيعية وضرورية تفرض بناء الهيكل المناسب لذلك المحتمع على وفق ما رسمه القرآن الكريم والإسلام العظيم، فالتحولات التي لمسناها في خطبة الزهراء (ع) هي عبارة عن جملة من المفاهيم والمبادئ التربوية المستنبطة من الشريعة الإسلامية في بيان المعيار الإنساني والتعامل مع ما رسم له من طريق في التحرر من استلاب نفسه وتمكينه من أداء وظائفه، والملاحظ إن خطبة السيدة الزهراء (ع) قد تضمنت موضوعات ذات اتجاهات وأهداف مختلفة ومتنوعة وهذا ما انمازت به المرأة العربية في أن تجعل لوجودها وحركتها تميزاً فاق ما كانت عليه المرأة في المجتمعات والأمم الأخرى، فالقيم الاجتماعية هي نظام من الضغوط الاجتماعية لتوجيه السلوك والأفكار والتصورات لتأول هذا السلوك وإعطائه معنى وتبريراً معيناً، أو هو مبدأ مجرد عام للسلوك يشعر الجماعة نحوه بالاعتبار الانفعالي القوي ويوفر لهم مستوى للحكم على الأهداف والأفعال[٥]، والملاحظ أن خطبة السيدة الزهراء(ع) قد بنيت على مرتكزات إسلامية متأصلة

من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد مثلت في خطبتها انعكاساً لحقبة تاريخية بين (الذات المغايرة) و(الند المقابل) فضلاً عن بيانها عن الذات والآخر في التصارع والتباعد عن المنهج الذي رسمه الإسلام على يد نبيه الأكرم محمد(ص) في بناء المجتمع المتكامل ذي المبادئ والقوانين المتعلقة بالسلوك الإنساني للأشخاص والجماعات والنظم الاجتماعية، قضية الإصلاح في المنظور الديني تعتبر أساساً لرقي الحياة الإنسانية، طالما البشرية بحاجة إلى الهدى والاستقامة والتكامل، ولولا ذلك لعاش الإنسان تائهاً ضائعاً.

إن الإصلاح لا يقتصر على بعد واحد بل يشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، كما هو واضح في القرآن الكريم وسوف نتعرض إلى ذلك فيما بعد، وبالرغم من أن شعار الإصلاح يحظى بهذه الأهمية ويعكس الروح الايجابية للدين وقيمومة للحياة، نجد أن هناك تيارات مختلفة تعارض هذا المفهوم وتحاول أن تضفي عليه صبغة المثالية والروحانية الخاصة في مقابل الواقعية وبعبارة إن الدين مهيمن على روح الإنسان وبنائه الداخلي وليس له علاقة بالدساتير والأنظمة الواقعية والحياتية. فالتنمية هي عملية نمو إرادي مخطط له يكون الوصول إليه عن طريق إجراءات وتدابير معينة تتمثل ببرامج وخطط وسياسات هدفها تحقيق معدلات معينة من النمو.

كما تعرف التنمية بأنها تغيير يقوم به الإنسان للانتقال من مجتمع تقليدي إلى مجتمع متقدم يلاءم حاجاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

أما تعريف الإجرائي لمفهوم التنمية فهو عملية ديناميكية ومستمرة تهدف إلى النهوض بالقطاعات المختلفة ذات التماس المباشر بحياة الإنسان من خلال التخطيط السليم المستند إلى سياسات نابعة من أيدلوجية المجتمع ومن دراسة الحاجات الحقيقية لأفراد ذلك المجتمع، لذلك تعد التنمية من الركائز الأساسية في بناء المجتمع المتكامل وإثبات الهوية فما كان للبشرية أن تحرز ما أحرزته من التقدم في مضمار الحضارة لو لم يكن لها فكراً تنموياً ناضجاً كما يمكن القول بأن التنمية هي الجهود المنظمة التي تبذل وفق تخطيط مرسوم للتنسيق بين الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة في وسط اجتماعي معين بقصد تحقيق مستويات أعلى للدخل القومي والدخول الفردية ومستويات أعلى للمعيشة والحياة الاجتماعية في نواحيها المختلفة كالتعليم، والصحة، والأسرة والشباب.... ومن ثم الوصول إلى تحقيق أعلى مستوى ممكن من الرفاهية الاجتماعية.

فقد جاءت أنماط التنمية الاجتماعية في فكر السيدة الزهراء (ع) على وفق ما يلي:

١ - ترسخ الانتساب للبيت النبوي الشريف حتى تكون عملية التنمية ذات شرعية ومشروعية إلهية.

٢ - بيان دور العقل في بناء المجتمع المتكامل من خلال وصاياه لتلاميذه وأصحابه.

٣ - الحث على مكارم الأخلاق في بناء المجتمع.

٤ - بيان صفات العالم وعلاقته في بناء المجتمع.
٥ - واجبات المسلم المتعلم.
٦ - بيان قيمة العمل.
٧ - في الجانب الاقتصادي، تناول التحذير من الكسل، والإخلاص في العمل.
٨ - في الجانب الاجتماعي تناول الإصلاح بين الناس –الجوار – التراحم والتعاطف.
٩ - العلم والعمل.
١٠ - المسؤولية الفردية والجماعية.
١١ - دور الفكرة الدينية في تركيب الحضارة.

وعلى هذا الأساس فإن معنى التنمية قد عبرت عنه تقارير الأمم المتحدة على أنه العملية المرسومة لخلق ظروف التقدم الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع ككل معتمدة على إسهام المجتمع المحلي إسهاماً ايجابياً. كما يمكن القول بان التنمية هي الجهود المنظمة التي تبذل وفق تخطيط مرسوم للتنسيق بين الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة في وسط اجتماعي معين بقصد تحقيق مستويات أعلى للدخل القومي والدخول الفردية ومستويات أعلى للمعيشة والحياة الاجتماعية في نواحيها المختلفة كالتعليم، والصحة، والأسرة والشباب.... ومن ثم الوصول إلى تحقيق أعلى مستوى ممكن من الرفاهية الاجتماعية.

التنمية:

أولاً: التنمية الاقتصادية
ثانياً: التنمية الاجتماعية
ثالثاً: التنمية البشرية
رابعاً: التنمية المستدامة

إن السمة العامة لعصر للسيدة الزهراء (عليها السلام) هي التلون والتنوع في ادوار ومواقف الأحداث والمعطيات الفكرية والسياسية، حيث حفلت حياتها (عليها السلام) بمواقف ورؤى أنتجت لنا صورة واقعية عملية عن السبل السياسية التي انتهجتها السيدة الزهراء (عليها السلام) في حركتها التي أرادت بها إعادة الأمة إلى الطريق الصحيح والأمثل في ممارسة الدور الحضاري في الحياة والتي يمكن الاستفادة منها في واقعنا المعاصر.

الهوامش:

١. موسوعة علم الاجتماع: ٤٨٩
٢. الأزمة الفكرية ومناهج التغيير: ٨
٣. علم الاجتماع الحضري والمدن العصرية: ٢٣
٤. قاموس علم الاجتماع: ١٣
٥. م.ن. ❖

خطبتا الزهراء (ع)
دراسة في البعد التداولي
(في ضوء أفعال الكلام)

✍ خالد حويّر الشمس(*)

ديباجة البحث:

كلام السيدة الزهراء أو خطابها لا يشك في مقاصده ودلالته ووضوحهما، فقد ثبت عن طريق الروايات نصاً وتفسيراً له لاسيما عن ذريتها المعصومين، إذ بتقدم الزمن وتحديث المناهج العلمية ينبغي تحيين ذلك النص وبيان مقاصده من كل الزوايا ليثْبُت ما أقرته منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا، وليتضح مدى صمود تلك المقاصد من خلال المناهج الوافدة إلينا أو على وفق النظرية العربية القديمة إن شاء الدارس في اختصاص اللسانيات.

يبدو أن النصية أو الجمالية في كلامها لم تأت للزخرفة والزينة والتفاخر وإنما لمخاطبة ذهن المتلقي والتعاون معه للتوصل إلى ما شاءت إيصاله من المقاصد. استحسنتُ الوقوف على بعض مقاصد خطبتيها عن طريق المنهج التداولي في إحدى مرتكزاته، وإن كنت أميل لدراسة البعد التداولي بصورته المتطورة أي الأفعال الكلامية ومبادئ الخطاب ولسانيات الحجاج، إلا أن إعداد البحث وتذوق حلاوته قادني إلى التوسع في نظرية الأفعال الكلامية وسيأتي بعونه تعالى إكمال المرتكزين التداوليين فيما بعد بإذن الله.

طبيعة تفصيل البحث جاءت بالتعريف بالسيدة باختصار، والكلام على التداولية في الجهاز المفاهيمي وطبيعة العمل اللغوي الأوستيني ولدى سيرل أيضاً، ومن ثم الانتقال إلى الميدان التطبيقي في الخطبتين على أربعة محاور الأول بتطويره شروط الملائمة والانجاز. والثاني بتقسيم الفعل الكلامي إلى أربعة أركان مع التعديل البسيط. والثالث بجعله الفعل الكلامي نوعين المباشر وغير المباشر. والمحور الرابع بتصنيفه للأفعال الكلامية الأصناف الخمسة.

وقبل الختام أود التنبيه على أني اطلعت على الخطبتين في المصادر القديمة وهي: علل الشرائع للشيخ الصدوق: ٢٤٨/١. من لا يحضره الفقيه: ٥٦٧/٣. دلائل الإمامة لابن جرير الطبري: ١١٤. وبحار الأنوار: ١٥٨/٤٣. وكلما أشرت في الحاشية إلى الخطبة فأنت مخير بالرجوع إلى أي واحد من هذه الكتب مع لحاظ الفارق البسيط في بعض الألفاظ.

(*) جامعة ذي قار كلية الآداب.

ترجمة الزهراء (ع):

هي فاطمة[١] بنت محمد بن عبد الله (ص) سميت بهذا الاسم بحسب حديث النبي (إنما سميت فاطمة لان الله قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة)، ولها ألقاب كثيرة الزهراء والبتول الطاهرة والحوراء والعذراء والنورية والصابرة والسليمة وغير ذلك. تسلسلها الرابع بين أخواتها، أمها خديجة بنت خويلد، ولدت في السنة الثانية من مبعث النبي، وقيل تزوجت علي بن أبي طالب(ع) وكان عمرها الشريف اثني عشر عاماً، وقيل في الخامسة عشرة وقيل في الثامنة عشرة.

كانت طبيعة حياتها بين السعادة والحزَن، (أمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها لها بخاصة كبراهن زينب التي كانت لها بمثابة أم صغيرة)[٢]. وقد اكتملت سعادتها بزواجها من الإمام علي بن أبي طالب وميلاد ولديها سيدي شباب أهل الجنة.

أما ابتعاث الحزن ونقض السعادة فجاء من مصائب المناوئين للإسلام ولرسوله وللإمامة من السفهاء.

منزلتها عالية عند الله تعالى على وفق الحجج الآتية:

- إن الرسول شملها برعايته الكريمة رعاية خاصة، فضلاً عن أنها بنت النبوة والرسالة.
- قد حدَّث بها النبي أحاديث كثيرة تدلل على رفعتها ومن ذلك: (فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ويُغضبني ما يُغضبها، وعبد الله هذا بضعة من فاطمة بضعة رسول الله).
- زواجها من علي بن أبي طالب وصي رسول الله وولي الله فقد روي عن الإمام الصادق: (لولا أن الله خلق أمير المؤمنين ما كان لفاطمة كفؤ على ظهر الأرض آدم فمن دونه)[٣].

طبيعة الخطبتين:

انمازت الخطبتان بكونهما قيلتا ارتجالاً، ومن عادة الخطاب الارتجالي أن لا يكون متسقاً أو متناسقاً، لكن الرواة عندما سجلوا بأمانة ذينك الخطبتين وجدناهما في غاية الكمال الكويبي من شخصها الفذ (ع).

كانت الخطبتان مفتتحتين بالحمد والثناء على المولى تعالى ومن ثمَّ التشهد والصلاة والتسليم على النبي. والعلامة أو الإشارة الكامنة وراء فعلها هذا الإعراب عن أدبها وأخلاقها العالية وعدم استهانتها بالمهاجرين والأنصار الذين كانوا حول أبي بكر عندما جاءته غاضبة لاغتصابه حقها، وكان دليلاً على حصافتها وعدم إرباكها واضطرابها.

في الخطبتين سمات تعبيرية أهلتُهما لان تكونا نصين قيِّمين من ضمن جواهر التراث الإمامي ولعل الموضع يطول لو سردنا تلك السمات كلها إلا أني سأكتفي بذكر بعض منها. فمنها (الإحالة) أو ما عرف بعود الضمير فله حضور بارز ومنه في مستهل كلامها عن القرآن الكريم، فذكرته مرة واحدة، وأخذت تحيل عليه بالضمير الهاء والضمير المستتر (كتاب

الله بينة بصائره وآيه، منكشفة سرائره وبرهانه، متجلية ظواهره، مُديم للبرية استماعه قائد إلى الرضوان إتباعه).

هذا وفي النص نفسه خصلة لغوية بينة هي المحاذاة أو التوازي في التعبيرات فضلاً عن السجع بـ (الهاء)، والتزام اسم الفاعل (مُديم، قائد).

ثم يوجد في النص محذوفات كثيرة خذ على سبيل التمثيل حذف الجملة في كلامها في (ولما اختار الله له دار أنبيائه ومأو أصفيائه ظهرت حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين واخلق ثوبه ونحل عظمه) فقد حذفَت جملة (اختار الله لد دار أنبيائه) التي من المفترض أن تقع سابقة للجمل بعدها التي تبتدأ بـ (سمل، واخلق) لكن لتوفر الدليل الكافي تم الحذف.

وفي النص تحضر سمة (التغريب) أي استعمال الغريب من الألفاظ مثل (حسيكة) وغيرها كثير حتى صارت ظاهرة ملحوظة في الخطبتين، وهذا يدلل على مدى الفصاحة والتربية اللغوية التي كانت تحفل بها السيدة الزهراء. وهذا يتماشى مع مكمن الإبداع الأدبي لدى النقاد العرب أمثال الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وعبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ.

ومن الخصائص الأخر الإطناب بغية تحقيق المعنى في نفس المتلقي وهو أبو بكر بقصد عسى أن يثيب إلى رشده ويتراجع عن قراره في الجمل الأخيرة من هذا النص: (فاحمدوا الله الذي بعظمته ونوره ابتغى من في السموات ومن في الأرض إليه الوسيلة، فنحن وسيلته في خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجة غيبه، وورثة أنبيائه).

ومن سماتها الأخرى القرآنية فيها بنوعيها المباشرة وغير المباشرة. وسمي الأول الاقتباس المباشر أو التناص بالاجترار ومثاله حينما أمر أبو قحافة برد فدك إليها وكتب كتابا وأخذته وسارت فإذا بعمر أخذه منه ومزقه فقالت: (أتقولون مات محمد فخطب جليل، استوسع وهيه،... وأضيع الحريم، وأذيلت الحرمة بموت محمد، فتلك نازلة أعلن بها كتاب الله في أفنيتكم ممساكم ومصبحكم هتافاً. ولقبل ما خلت له أنبياء الله ورسله (وما محمد ألا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم خاسرين))[٤]

أما غير المباشر فيسمى بالتناص بالامتصاص أو بالحوار ولعل الغالب عليها الامتصاص أي استعمال النص القرآني بطريقة التغيير الحذ مثلاً نح (ألا وقد قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وبثة الصدر، ومعذرة الحجة، فدونكم فاحتقبوها، دبرة الظهر، ناقبة الخف، باقية العار، موسومة بشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممدة)[٥].

التداولية في الجهاز المفاهيمي وتطبيقاتها في خطبتي السيدة:

التداولية ترجمة للمصطلح (Pragmatics) لها تعريفات كثيرة وأقدم تعريف لها هو على يد (موريس) المذكي الأول لجذوتها: (التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقات بين

العلامات، ومستعملي هذه العلامات)[٦]، ويمكن تصنيف هذا التعريف تصنيفا سيميائيا مائلا إلى عَلاَقة الدال بالمدلول ومغرقا فيها. وعرفها (آن ماري ديير) و(فرانسوا ريكاناتي): (دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية)[٧]. والتطويق اللغوي أو اللساني باد في هذا التعريف لكن لم نلحظ التواصلية فيه كما نلحظها في التعريف الآتي على يد (ريشة فرانسيس جاك) بقوله: (تتطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معاً)[٨]. فقد جمع اللسانية والاجتماعية بغية التواصل. ونجد بغيتنا في تعريف آخر لا يفترق عن تعريف فرانسيس جاك سوى الوضوح ويكون له عضد ويدلل على اشتهاره والتزامه من لدن الدارسين (هي دراسة اللغة التي تركز الانتباه على المستعملين وسياق استعمال اللغة بدلا من التركيز على المرجع - عَلاَقة العلامة بما تحيل إليه أي عَلاَقة الدال بالمدلول - أو قواعد النحو أي عَلاَقة العلامات فيما بينها في التركيب النحوي)[٩].

بدا العمل في التداولية منذ تصنيف موريس ١٩٣٨م الثلاثي: النحو والدلالة والتداولية، والتداولية معناها عَلاَقة التراكيب أو اللغة بمستعمليها، وهكذا تعاقبت الحقب العلمية اللسانية إلى وصل الأمر إلى خمسينيات القرن العشرين المنصرم فبرز اتجاه نظرية أفعال الكلام على يد أوستين بفعل السأم من البحث الفلسفي الميتافيزيقي وبروز الفلسفة التحليلية التي ترى أن من مهام الفلسفة دراسة اللغة للتوصل إلى الحقائق أو المعاني، فكان (أوستين) طرح نظريته في محاضرات وصلت إلى اثنتي عشرة محاضرة طبعت بعد وفاته عام ١٩٦٠م على شكل كتاب بعنوان (نظرية أفعال الكلام العامة) وقامت نظرية أوستين على التمييز بين الجمل الوصفية الخبرية التي تحتمل الصدق والكذب، وبين الجمل الإنشائية التي لا تحتمل الصدق والكذب وإنما تحتمل النجاح والفشل[١٠] وسط شروط اقرها تتعلق بالقصد والمقام وإن لم يراع المقام يكون قطع الاعتبار به اخذ بالمتكلم والسامع إلى الشطط في صلاحية الاستعمال[١١].

واقر في مجمل نظريته أركان العملية لكلامية بحيث أصبحت لديه ثلاثة: هي (فعل القول)· الألفاظ والتراكيب والأصوات و(الفعل المضمن في القول): المحتوى القضوي أو الدلالة. (والفعل الناتج عن القول): التأثيري.

ولنضرب مثالا لتتضح الصورة فإذا قلنا: (الجو بارد) في حال كانت النافذة مفتوحة:

فعل القول: الألفاظ المتكون منها هذا الكلام وهي المبتدأ والخبر والمكون من أصوات تناسقت ودلت على معنى وضعي أو طريقة أداء الملفوظ من حيث التنغيم وإشباع الحركات. أما الفعل المتضمن في القول أو المحتوى القضوي هو عدم تحمل البرودة لأنني لم ارتد ملابسا كافية. فكان الفعل الناتج عن القول هو تقديرك للموقف وغلقك للنافذة نتيجة اقتناعك.

وصنف الأفعال الكلامية منطلقاً من الألفاظ إلى خمسة أصناف هي: الحكميات: ما يصدر من حكم نحو: يتهم، يعين. والإنفاذيات: مالها عَلاَقة بممارسة الأحكام والقوانين

نحو: يقهر، يأمر. والوعديات: والغاية منها أن يلزم المتكلم نفسه بانجاز فعل معين نحو أتعهد، التزم. والسلوكيات: ردة فعل تجاه الآخرين، نحو: سامح، شكر، اعتذر. والتبيينات: أي الإيضاح والعرض أو التبرير في وجهة النظر أو الرأي، نحو: اعترض، لاحظ.

فجاء تأسيس سيرل للأفعال الكلامية منطلقاً من سابقه أوستين (الا أن سيرل وجه بعض الانتقادات الرامية إلى وجود بعض النقائص في دراسات أوستين للأفعال اللغوية، التي لم تبن على أصول واضحة، بالإضافة إلى وجود بعض التداخل بين مجموعات الأفعال اللغوية، نظراً لعدم وضوح الأساس الذي قسم من خلاله هذه الأفعال. وكذلك فان جهود أوستن في هذا المجال كانت موجهة نحو دراسة الألفاظ وليس الأفعال؛ أي دراسة لفظ الفعل وليس الفعل منجزا بكل ما يحمله من حركة ومادية)[١٢].

ويمكن استجلاء خطوات سيرل مع لحاظ التعديل على نظرية نظيره بأربعة محاور الأول بتطويره شروط الملائمة والانجاز. والثاني بتقسيم الفعل الكلامي إلى أربعة أركان مع التعديل البسيط. والثالث بجعله الفعل الكلامي نوعين المباشر وغير المباشر. والمحور الرابع بتصنيفه للأفعال الكلامية الأصناف الخمسة. يتخلل هذا العرض مقاربة كلام السيدة على وفق هذه النظرية الكلامية لسبر أغوار مقاصدها ودلالات كلامها وتسجيل الحقائق التي أرادت أن تقرها في خطبتها. اعترافا أو انطلاقاً من أن لمقولات هذه النظرية أثراً في تحليل النص، يقول عنه الدكتور نبيل أيوب: (وللبراغماتية دور فعال في تحليل الخطاب: إذ تسهم في فهم قصدية التواصل مستعينة بمفاهيم أفعال الكلام التي قال بها الباحث الانكليزي (جون أوستين))[١٣].

ونستهل المقاربة الإنجازية لخطبتي السيدة بتوافر شروط الملاءمة في إنجاح الفعل الكلامي، فقد اشترط أوستين ظروفاً سماها شروط الملائمة وطور سيرل تلك الشروط، ورأوا إذا تحققت تلك الشروط في الفعل الإنجازي الكلامي كان موفقا وناجحا، وإذا لم تتحقق فلن يلمس الهدف الذي من أجله تم النُطق، وسنبحث عن هذه الشروط في الخطبتين وأولها[١٤]: شرط المحتوى القضوي. ومعناه أن في كل فعل انجازي يتحتم وجود قضية يعبر عنها المتكلم الإنجازي. وقد يتوفر في خطبتي الزهراء محتوى قضوي عام جاء من أجله النص هو الحط من شأن المبتغين من الإسلام والمغتصبين حقه والناكثين وعوده والنائلين من ذرية رسول الله، أما المحتويات القضوية الفرعية فهي موجودة بكثرة في الخطبتين ومنه ما نقف عليه في نصها (ما الذي نقموا من أبي حسن؟ نقموا والله منه شدة وطأته ونكال وقعته، ونكير سيفه، وتبحره في كتاب الله، وتنمره في ذات الله)[١٥].

يتضح المحتوى القضوي نيلهم من أبي الحسن وحسدهم له لكونه الرجل المثال الشجاع العالم بكتاب الله. ومن الممكن القول إن المحتويات القضوية الأخرى تتآزر كلها وتدخل في عَلاقة العموم والخصوص مع المحتوى القضوي العام في الخطبتين.

أما الشرط الثاني من شروط الملائمة فهو الشرط التمهيدي ويُحقق إذا كان المتكلم أو المتلقي قادرين على إنجاز الفعل. ويكون واضحاً هذا تماماً في قول السيدة عندما توصي المتلقي (فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وانتم مسلمون، ولا تتولوا مدبرين، وأطيعوه فيما أمركم ونهاكم)[١٦]. وقد يكون من الضروري الحكم على تحقق ذلك لأنها الزهراء، ويكفينا دليلاً أن الدافع على تأليف الخطبتين هو تحقق هذه الشريطة في ذاتها، أي: تحقق التقوى والإسلام وطاعة المولى تعالى فيما أمرها به ونهاها عنه. أما المتلقي أياً كان بالإمكان تحقيق ذلك في نفسه وبذا هي تدعوه إلى تقوى الله والائتمار بأمره والنهي عما نهى عنه.

ويدخل في الشرط التمهيدي: أن لا يكون واضحاً لكل من المتلقي أو المتكلم أن المتلقي سينجز الفعل المطلوب في المجرى الاعتيادي للأفعال، ومثال هذا الشرط أن السيدة لم تكن تتوقع من المخاطبين أن يتمسكوا أو يعيدوا تمسكهم بالقرآن لذا بدأت بالعتب عليهم (لله فيكم عهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم) ثم استمرت بالتعريف بالقرآن لتعطي كلامها بعداً تداولياً هو بغية التأثير عليهم من خلال بيان رسالته فقالت: (كتاب الله بينة بصائره، وآية منكشفة سرائره، وبرهان فينا متجلية ظواهره، مديم للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان اتباعه، ومؤد إلى النجاة أشياعه، فيه تبيان حجج الله المنورة...)[١٧].

واشترط أوستين وسيرل شرطاً ثالثاً يقوم على (الإخلاص) لدى المتكلم، فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع.

ومعالم الاعتقاد والإخلاص كثيرة في الخطبة متمثلة باعتقادها بالقرآن وبمكانته في بناء وتكامل الإنسان وهذا ما نجده في استهلال الخطبة، وكذلك الاعتقاد برسالة النبي وبكون آل النبي وسيلته (فنحن وسيلته في خلقه ونحن آل رسوله ونحن حجة غيبه وورثة أنبيائه)[١٨]. وكذلك اعتقادها بفضل الرسول على المهاجرين والأنصار (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها بنبيه تعبدون الأصنام وتستقسمون بالأزلام مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقبسة العجلان وموطئ الأقدام، تشربون الرنق، وتقتاتون القِدة...)[١٩]. واعتقادها بميراث أبيها (أيها معشر المسلمين أأبتز ارث أبي، يا ابن أبي قحافة؟ أبى الله (عز وجل) أن ترث أباك ولا ارث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريا)[٢٠].

وغير ذلك من الاعتقادات التي أخلصت لها من خلال الاحتجاج بالقرآن وبالأساليب اللغوية الكثيرة الاستفهام والتعجب وغير ذلك.

كل تلك الشروط الثلاثة يترتب عليها أمر رابع هو كيفية الانجاز أو التأثير لحصاد ثمار الانجاز وهذا ما يعد بمثابة الشرط الرابع وسمي بـ (الشرط الأساسي) ويتلخص بحثِّ المتلقي على إنجاز فعل معين. وقد حثت السيدة في خطبتيها المتلقي كثيراً وقد صادفنا أسلوب الأمر (اتقوا الله)، وقد لجأت إلى أسلوب التحذير (هذا والعهد قريب، والكلم رحيب،

والجرح لما يندمل، فهيهات منكم، وأين بكم، وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، زواجره لائحة، ... فبئس للظالمين بدلا ...)[٢١]. وكذلك تمثلت استراتيجيات الحث بطريق الاحتجاج بالقرآن الكريم ومنها في إقناع المتلقي أبي قحافة بميراث الأنبياء السابقين (أيها معشر المسلمين، أأبتز ارث أبي يابن أبي قحافة.... إذ يقول الله عز وجل: (وورث سليمان داوود) ومع ما قص من خبر يحيى وزكريا إذ يقول: (رب فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا)[٢٢]. ولم يغب أسلوب الاستفهام عن مسارات التأثير ومنه ما وجهته إلى أبي قحافة أيضاً (فزعمتم أن لاحظ لي، ولا أرث من أبي! أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثون؟)[٢٣].

وتبنى (سيرل) تقسيما للأفعال الإنجازية بتعديل طفيف لما أرساه (أوستين) عند تقسيمه الفعل الكلامي على ثلاثة جوانب هي الفعل اللفظي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري.

إلا أن (سيرل) وجه انتقاده لها التقسيم بحجة عدم التمييز بين الفعل اللفظي والفعل الإنجازي في بعض العمليات الخطابية خذ قوله: (إن نطق ألفاظ تعبر عن معنى معين كالوعد مثلاً في (اعتزم فعل كذا) هو أداء لفعل لفظي معين ـ كما يرى أوستين ـ ونطق ألفاظ إنجازية تعبر عن غرض انجازي معين كالوعد كما في قولي: (اعد بأنني اعتزم فعل كذا) هو أداء لفعل انجازي معين: ويلاحظ مما سبق أن الغرض من الفعل الإنجازي وهو الوعد كما في المثال الثاني جزء ترادف مع معنى الفعل اللفظي وهو الوعد أيضاً في المثال الثاني، إذا فلا يوجد لدينا فعلان مختلفان هنا، بل اسمان مختلفان لفعل واحد بعينه: ومن ثمَّ لم يكن الفصل الذي قدمه سيرل للأفعال شاملاً دقيقاً، بل اعتراه التدخل والتشابه)[٢٤].

فعدل (سيرل) التقسيم وجعل العملية الكلامية مكونة من أربعة أقسام: الأول: لفظي أو نطقي الأصوات والمعجم والنحو. والثاني: سماه (الفعل القضوي): ويعني المرجع أو المحور الذي يدور حوله الحديث. والثالث الفعل الإنجازي: وهو الدلالة في النص وهذا موجود لدى (أوستين) أيضاً. والرابع (الفعل التأثيري). النتيجة المترتبة على الانجاز وقد يكون أو لا يكون، إذ (لا يهتم سيرل إلا بالأعمال المتضمنة في القول. فلقد شك في وجود أعمال تأثير بالقول ولم يحفل بحق على سبيل المثال بالأعمال القولية)[٢٥].

ولنتعقب هذا التقسيم الرباعي في كلام السيدة بغية الوقوف على دلالاته من هذا الطريق فهي تقول: (هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين! إلا هلم فاسمع؟! وما عشت أراك الدهر عجبا! وإن تعجب فعجب قولهم! ليت شعري إلى أي إسناد استندوا؟! والى أي عماد اعتمدوا؟! وبأي عروة تمسكوا؟ وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا)[٢٦].

فالفعل الأول اللفظي لعله قد يكون واضحاً من المكونات المعجمية والنحوية في النص، الأسماء والأفعال وأيقونة المضاف والمضاف إليه والجناسات وتنغيمات صاعدة وهابطة

بالاستفهام والتعجب. أما الفعل القضوي أو المحور الذي يدور حوله النص فهو الزيغ الذي عاشه الناس بعد وفاة رسول الله وعدم تمييزهم النهج الحق من غيره في اختيارهم. وكان مؤدى ذلك المحتوى القضوي بإنجازية العرض (إلا هلم فاسمع) التعجب (وما عشت أراك الدهر عجباً) والاستفهام الصريح بالاسم (أي). أما القسم الرابع فيبقى رهين المتلقي مع أنه ترجح التأثير فيه فاستدعت تلك الخطوات لإقناعه.

ومن يتطلع بإمعان إلى جهود (سيرل) سيقف على إمضائه بتقسيم الفعل الكلامي أو الإنجازي إلى نوعين المباشر وغير المباشر.

يكون هذا التقسيم في الأفعال اللغوية بحسب طبيعة المعنى، فإذا حصلنا عليه مباشرة من الصيغة التركيبية فهو (المباشر) نحو: اقرأ القرآن. وإذا حصلنا عليه بطريقة غير مباشرة دون استدعاء الصورة التركيبية فهو المعنى (غير المباشر)[٢٧] نحو: القرآن كتاب مفيد، ففي الجملة هذه معنى إخباريا على وجه الجزم، لكن في الوقت نفسه دعوات إلى التمسك بالقرآن وقراءته من دون التصريح بهذا المعنى ويعد الاشتغال على هذا المعنى في صميم العمل التداولي.

في التوصيف الذي عملنا عليه في الخطبتين تجد النطاقين من الأفعال المباشر وهو الغالب على الخطبتين والسر في ذلك لان الخصم واضح ومفضوح وعبرتها مختنقة بصدرها فأرادت التنفيس عن همها وحرقتها بأسرع طريقة مباشرة، موجهة إلى الجمهور العام أولاً في سياق استفهامها عن ظلمها: (يا معشر النقيبة وحضنة الإسلام ما هذه الغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله (ص) يقول المرء يحفظ في ولده)[٢٨].

ومن أنماطها الاستعمالية المباشرة لأفعال الإنجاز ما خصت به طائفة معينة من المتخاطبين المقلدين عندما احتج أبو بكر بان الناس قلدوه والذنب ذنبهم: (معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوبكم أقفالها؟ كلا بل ارن على قلوبكم بما أسأتم من أعمالكم)[٢٩].

ومن استعمالاتها المباشرة الأخرى مع لهجتها ومباشرتها في طور ردها على أبي بكر عندما رد عليها وادعى أن الأنبياء لا يورثون بحسب ما سمعه من الرسول فقال: (كلا بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون)[٣٠].

وشكلت الأفعال الكلامية غير المباشرة حضوراً مقلاً بالنسبة للمباشر للأسباب التي ذكرت، ومنه عندما قارنت بين حال الإمام علي وحال الجمهور فظاهر النص الإخبار ويفهم منه التوبيخ والذم فتقول: (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه... وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال وتفرون من القتال)[٣١].

ولـو انعطـف الحـديث علـى أصنـاف الأفعـال الكلاميـة في الخطبـتين بحـسب مـا أقـره (سيرل) تجدها جزءاً من التوظيف الخطابي في إيصال مقاصدها:

أ ـ **التقريرات**: (والغرض منها تحمل المتكلم مسؤولية صدق القضية المعبر عنها. وتتميز التقريرات بان اتجاه المطابقة يكون اتجاها من القول إلى العالم أي أن يكون القول مطابقاً للوقائع والأحداث الموجودة في العالم الخارجي. كما تتميز التقريرات بصدورها عن حالة نفسية عبر عنها بالاعتقاد)[٣٢].

ولعل هذا الصنف ومواصفاته مما ينطبق أو يتوفر بكثرة في الخطبتين لكون السيدة فاح صدقها ومسؤوليتها عن كل كلمة قالتها في ذلك الظرف فطابقت أقوالها ما كان جارياً آنذاك في ضوء حالتها النفسية، فأنتجت فعلاً كلامياً قررت فيه مقررات عدة أو وصفت أفكار عدة ومنه في الحديث عن فضائل القرآن أو عن هدفه في فرض الإيمان والعبادات الأخر فتقول: (ففرض الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيها عن الكبر، والزكاة زيادة في الرزق)[٣٣].

فالمعنى الأولي أو الصريح أن القرآن فرض الإيمان والصلاة والصيام والزكاة لغايات ذكرتها، وهذا يستلزم حواريا التمسك به والإقبال عليه.

ب ـ **الطلبيات**: التوجيهية يكثر من استعمالها الفرد في كل حين وفي كل مفاصل الحياة (وغرضها محاولة جعل المخاطب يقوم بعمل ما. والمتكلم في هذه الحالة يريد أو يرغب في تحقيق وضع في المستقبل يكون فيه العالم الخارجي مطابقا لكلماته)[٣٤].

وقد أكثرت السيدة من التوجيه والطلب، أي لتجعل كلامها يطابق العالم المؤول إليه فيما بعد، ومنه التوجيه بالتقوى في شأن القرآن بعد إن ذكرت الحِسَان التي جاء بها النص القرآني الكريم كما ذكرت منها في التقريرات، ومنها أيضاً أنه استن العدل تسكينا للقلوب والإمامة لما من الفرقة وبر الوالدين برا من السخط إلى أن تصل إلى مرحلة التوجيه وبصيغة الأمر فتقول: (فاتقوا الله حق تقاته فيما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه)[٣٥].

ثم تعود (ع) وتوجه المتلقين منها بطريقة أخرى هي طريقة النهي فتقول: (فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وانتم مسلمون، ولا تتولوا مدبرين)[٣٦].

ينضاف إلى تلك الطلبيات الطلب الدال ضمنيا على التذكير بان النبي كم كان مغيرا للبشر في وقت بداية الرسالة، والإرشاد نحو الطريق القويم والسلوك الحسن بترك فدك وإرجاعها إلى مستحقيها ومالكيها من باب أنها بنت رسول الله فتقول: (أنا فاطمة وأبي محمد، أقولها عوداً على بدء، وما أقول إذ أقول سرفاً ولا شططاً (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) أن تعزوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون

رجالكم، بلغ النذارة صادعاً بالرسالة، ناكباً عن سنن المشركين، ضارباً لاثباجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة)[٣٧].

ج ـ **الوعديات**: وتعني (إجبار المتكلم على فعل شيء مستقبلاً، دون أن يكون هذا الإجبار ضروريا)[٣٨]. وقد ورد الوعيد في كلام السيدة كثيرا بغية التأثير على نفسية المتكلم والتراجع عن موقفه غير المبرر فتقول: (هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، ... زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنى تؤفكون... بئس للظالمين بدلا، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين...)[٣٩].

د ـ **الإفصاحات**: تسمى هذه الأفعال السلوكيات والمعبرات، و(تختص بمجموعة مبعثرة من الأفعال لا يمكن حصر أطرافها بسهولة، ولكنها تندرج تحت باب السلوك والأعراف المجتمعية، وأمثلتها الاعتذارات والتهاني والتعازي والقسم... كما أنها تتضمن مفهوم ردود الأفعال على سلوك الآخرين)[٤٠].

ولعلك واجد هذا بوضوح في الخطبتين، إذ تعد كلها بمثابة ردة فعل أو سلوك من السيدة تجاه الأفعال التي قام بها المناوئين للإسلام وللعترة الطاهرة. وقد تبلور ذلك بسلوكها أو قولها لنساء المهاجرين والأنصار حينما سألنها عن حالها فأجابت: (أصبحت والله عائفة لدنياكم، قالية[٤١] لرجالكم، لفظتهم قبل أن عجمتهم، وشنئتهم بعد أن سبرتهم، فقبحا لفلول الحد، وخور القناة، وخطل الرأي، وبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون)[٤٢].

وبتحليل النص المنجز من السيدة لا يعني أنها كانت متمسكة بالدنيا، ومحبة للرجال. وإنما المراد بذلك أنها ما زالت محبة للدنيا التي توصلها للآخرة ومازالت محبة وغير باغضة للرجال المؤمنين في الله، لكنها صار من سلوكها تجاه أهل الدنيا من الظلمة الذين ينظرون إليها أنها دار قرار وملك وتمليك وزينة وهي المنتهى صار من سلوكها أن تكون عائفة لهم غير متمسكة بهم كما أنها مبغضة لأولئك الرجال من المهاجرين والأنصار الذين لم ينصروا دين الله ورسوله.

هـ ـ **التصريحات**: (وهي أفعال يتغير العالم بعد النطق بها وتتضمن أغلب الأفعال الشعائرية التي أوردها (أوستين) في البداية كأمثلة على الإنجازيات. وهي تتطلب بصورة خاصة مؤسسات غير لغوية تحدد قواعد استعمالها مثل محكمة أو لجنة أو مسجد أو كتب أصول السلوك)[٤٣]. والنماذج التي يؤدّى بها هذا الفعل نحو فصل، استقال، اقسم، عين، ويترتب عليها تغيير العالم بالفعل.

وقد حضرت في خطبتي السيدة ومنها في قولها فلما اختار الله عز وجل له دار أنبيائه ومأوى أصفيائه، ظهرت حسيكة النفاق، وانسمل جلباب الدين، واخلق ثوبه، ونحل عظمه، وأودت رمته، وظهر نابغ، ونبغ خامل، ونطق كاظم، وهدر فنيق الباطل يخطل في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من معرسه صارخاً بكم)[٤٤].

جاء التصريح في كلام السيدة أو المحتوى الإنجازي أن بعد بعثة النبي تغيرت معالم حياتكم وتغير الوضع من حال إلى حال من الصفاء إلى النفاق، وانصبغ ثوب الدين وأصبح لديكم الدين هامشياً وتسيد عليكم أناس هم ليس أهلا لذلك لأنهم أتباع الشيطان، فهذا تضجر منها لما هم عليه من أمر.

حاصل ما ذكرناه في أصناف أفعال الكلام أن السيدة ترمي من خلالها الحديث عن الموضوع الذي أرقها كثيراً وأشغلها وهو واقع المسلمين بعد رسول الله وفعلتهم المشينة تجاه (فدك) فأشعلت كل ما تملك من جذوات النور لوصف الواقع والطموح لتغييره من خلال التقرير والوعد والتذكير بالمثوى الأخير.

ثمار البحث:

- إن الخطبة بكل قواها النصية ومحاورها في الأفعال الكلامية وقرآنيتها جاءت ردة فعل على مغتصبي حقها، فلجأت إلى الجماليات اللغوية مع الروح الغاضبة الساخرة الموجهة المتوعدة المهددة لهؤلاء القوم بغية النيل من أذهانهم وإقناعهم بإرجاع فدك.
- إن المتلقي في هذه الرسالة على نوعين خاص وعام، الخاص: تمثل بأبي بكر، والعام: على نوعين أيضاً، متلق آني من جمهور الأنصار والمهاجرين الحافين بابي بكر، ومتلق مستقبلي تمثل بي وبك أيها القارئ في عصرنا الحاضر والعصور التالي له لذا يستوجب في كل مرحلة وعصر تحيين كلامها لاكتشاف أسراره.
- حملت الخطبتان بعداً تربوياً للعبد وعلاقته بالمولى تعالى من خلال الإلحاح على الأفعال الكلامية المتمثلة بالطلب والوعديات المباشرة وغير المباشرة.
- إن المنهج التداولي لديه القدرة على سبر أغوار الدلالات والمقاصد التي ضمنتها السيدة خطبتيها، فكانت مقاصد متنوعة منها الوعظ والإرشاد والتذكير بمرتكزات الدين الإسلامي القائم على التعلق بالقرآن لأنه سبيل وهداية نحو النور واتباع سنن النبي والإمامة، فضلاً عن ذم الدنيا وذم المتمسكين بها.

وجرى ذلك من خلال النسق المضمر أي التحدي والذم ورفع الشأن والتمسك بالقرآن، أحقية علي وأولاده بقيادة الأمة، ولم الشمل عن طريق الإمامة، وهذا ما عرف بـ (الفعل اللغوي غير المباشر)، ولا يتجلى ذلك بوضوح ما لم تتم الإحاطة بظروف الخطبتين ومقامهما

ويحتاج إلى آليات لغوية ومعجمية إذا تذكرنا أنها مالت لاستعمال الغريب من الألفاظ والمهمل في وقتنا الحالي، وكذلك تحتاج إلى خبرة بالتأويلات النحوية إذ إنها أحالت وحذفت وكررت فانماز كلامها بالانشراخات اللغوية ما يحتاج إلى كفاية نحوية لردم الهوة في النص وإستكناه القصد.

- إن خطبتا السيدة ذات بعدين الأول إعلاني والآخر ثقافي، إعلاني أعلنت عن حقيقتين الأولى مظلومية أهل البيت وغربة القرآن والإسلام. والثانية تجاسر أهل الظلم على القرآن والإسلام والرسول. والبعد الثاني ثقافي يتمثل بتغيير جهة الإنسان نحو الوعي والمنهاجية الذي تصحح مسار الفرد ليصل إلى مرحلة التسامي والتكامل عن طريق استذكار آي القرآن والعمل بها.
- حاولت السيدة الاستعانة بكل الأفعال الإنجازية لإيصال مقاصدها فوصفت الحال وطلبت منهم العزوف عنه وإن لم يعزفوا فقد توعدتهم بأردأ المهالك والمصير ثم تعهدت على نفسها أن لا تنثني أمام الجمع الباطل وأعلنت عما في داخلها من حسرات ومن طبيعتهم التي كانوا عليها لتسجل حقيقتهم على مدى الزمن.

إحالات البحث:

(١) ينظر ترجمتها: سيرة المصطفى (هاشم معروف الحسني) ٢٢٢ وما بعدها، و: أعلام الهداية(أحمد بن عاشور): ١٣/الجزء بكامله يعد ترجمة للزهراء.

(٢) سيرة الأئمة الاثني عشر: ١/٦٥.

(٣) تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، (الشيخ الطوسي): ٧/٤٧٠.

(٤) الخطبة.

(٥) الخطبة.

(٦) المقاربة التداولية (فرانسوز ارمينكو): ٨.

(٧) نفسه: والصحيفة نفسها

(٨) نفسه: والصحيفة نفسها.

(٩) في التداولية إشكالية المصطلح بين المفهوم والترجمة والتعريب (الدكتور عيد بلبع) بحث في مجلة الأقلام العدد: ٥، ٢٠٠٨م: ٢٢ ــ ٢٣. وينظر ما يقرب من هذا التعريف: مفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المتولات المعرفية ولدى علماء العربية لمنال النجار)، بحث منشور ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، بإشراف الدكتور حافظ إسماعيلي علوي: ٦٩.

(١٠) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة (جون آوستين): ١٢ — ٢٢.

(١١) ينظر: نفسه: ٢٣ — ٧٠.

(١٢) المدارس اللسانية المعاصرة (الدكتور نعمان بوقرة): ١٩٤.

(١٣) النقد النصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات: ٢٤٠.

(١٤) ذكرت تلك الشروط بالتفصيل في كتاب: في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي (الدكتور علي حجي الصراف) وقد اعتمدت عليه: ٥٢ — ٥٣.

(١٥) الخطبة.

(١٦) الخطبة.

(١٧) الخطبة.

(١٨) الخطبة.

(١٩) الخطبة.

(٢٠) الخطبة.

(٢١) الخطبة.

(٢٢) الخطبة.

(٢٣) الخطبة.

(٢٤) في البراجماتية: ٥٤ والنص منقول من نظرية الأفعال الكلامية هاشم الطباطبائي: ١٢ - ١٤.

(٢٥) التداولية اليوم علم جديد في التواصل (آن روبول وجاك موشلار): ٣٣.

(٢٦) الخطبة.

(٢٧) ينظر: الخطاب اللساني العربي (الدكتور عيسى أزاييط): ١٧٠/٢.

(٢٨) الخطبة.

(٢٩) الخطبة.

(٣٠) الخطبة.

(٣١) الخطبة.

(٣٢) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية (الدكتور خالد ميلاد): ٥٠٥.

(٣٣) الخطبة.

(٣٤) نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي: ١٢٥.

(٣٥) الخطبة.

(٣٦) الخطبة.

(٣٧) الخطبة.

(٣٨) الخطاب اللساني العربي: ٢١٠/٢.

(٣٩) الخطبة.

(٤٠) في البراجماتية الأفعال الإنجازية: ٤٨.

(٤١) مبغضة والقلى: أشد البغض ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني: ٦٨٢.

(٤٢) الخطبة.

(٤٣) نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي: ١٢٦.

(٤٤) الخطبة.

مصادر البحث:

- الاحتجاج، تأليف أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، تحقيق: محمد باقر الخرسان، مطبعة النعمان في النجف، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- أعلام الهداية، تأليف أبن عاشور، ط١، دار الأمير للطباعة والنشر، الخضراء للطباعة والنشر، بيروت - لبنان. ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
- الإنشاء في العربية بين التراكيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، تأليف الدكتور خالد ميلاد، ط١، المؤسسة العربية للتوزيع، وجامعة منوبة، كلية الآداب منوبة، تونس، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تأليف الشيخ محمد باقر المجلسي، ط٢، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تأليف آن روبول وجاك موشلار، ترجمة الدكتور سيف الدين دغفوس والدكتور محمد الشيباني، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.
- تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، تأليف الشيخ أبي جعفر الطوسي ت ٤٦٠هـ، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، ١٣٦٥.
- الخطاب اللساني العربي، تأليف الدكتور عيسى أزاييط، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد – الأردن، ٢٠١٢م.
- دلائل الامامة، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري من أعلام القرن الخامس، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، قم – إيران، ط١، ١٤١٣ه.ق.
- سيرة الأئمة الاثني عشر، تأليف هاشم معروف الحسني، الناشر ذوي القربى، ط٢، قم - إيران، ١٤٣٠.
- سيرة المصطفى نظرة جديدة، تأليف هاشم معروف الحسني، د. ط، دار الكوخ للطباعة والنشر.
- علل الشرائع، تأليف الشيخ الصدوق ت ٣٨١هـ، د.ط، منشورات المكتبة الحيدرية في النجف، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
- في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، تأليف الدكتور علي حجي الصراف، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- في التداولية إشكالية المصطلح بين المفهوم والترجمة والتعريب، تأليف الدكتور عيد بلبع بحث في مجلة الاقلام العدد: ٥، ٢٠٠٨م.
- المدارس اللسانية المعاصرة، تأليف الدكتور نعمان بوقرة، د.ط، مكتبة الآداب، القاهرة — مصر، ٢٠٠٣م.
- مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ، تحقيق: صفوان عدنان داوود، مركز طليعة النور، ط٢، قم - إيران.
- مفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العربية، تأليف منال النجار، بحث منشور ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، بإشراف الدكتور حافظ إسماعيلي علوي، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد – الأردن، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- المقاربة التداولية، تأليف فرانسواز ارمينكو، ترجمة الدكتور سعيد علوش، د.ط، مركز الإنماء القومي، ١٩٨٦م.
- من لا يحضره الفقيه، تأليف الشيخ الصدوق ت٣٨١هـ، تحقيق: علي أكبر غفاري، ط٢، ١٣٦٣ش - ١٤٠٤ق، منشورات جماعة المدرسين في قم.
- نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، تأليف جون لانكشو أوستين، ترجمة: عبد القادر قينيني ط٢، إفريقيا الشرق، المغرب ٢٠٠٨م.
- نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي، تأليف هشام عبد الله خليفة، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ٢٠٠٧م.
- النقد النصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات، تأليف الدكتور نبيل ايوب، ط١، لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ٢٠١١م. ❖

التقابل الدلاليّ في خطبتَيْ السيّدة فاطمة الزهراء (ع) (دراسة تحليلية)

د. زينب عبد الحسين السلطاني(*)

م. م. معالي هاشم أبو المعالي(**)

مدخل:

عُرِفت اللغة العربية بأنّها لغة حيّة وذلك بفعل النماء والتطور الحاصل في حياة المجتمعات، إذ عدّت العربية من أغنى اللغات وأثراها في أصول الألفاظ؛ نتيجة للعوامل التي أُتيحت لها فساعدت على زيادة مفرداتها وتنوع أساليبها ودلالاتها واتساع طرائق استعمالها[١]. فكان من بين الطرائق والوسائل التي تعمل على رفد اللغة بفيض من المفردات والدلالات والأساليب ما سُمّي بـ (التقابل الدلاليّ) بين الألفاظ والتراكيب فضلاً عن الظواهر الدلالية الأخرى أمثال (المشترك اللفظيّ والتضادّ والترادف والفروق الدلالية والتغيّر الدلاليّ بتخصيص دلالة لفظة ما وإعمامها).

وعلى الرغم من أنّ (التقابل الدلاليّ) مصطلح ظهر في العصر الحديث، لا يعني ذلك أنّ علماءنا اللغويين القدماء لم يتنبّهوا عليه كظاهرة، بل كان لهذه الظاهرة جذورٌ عندهم وكانوا مدركين لها، فعُرِفت لديهم قديماً بألفاظ مختلفة ومصطلحات متعددة تنضوي تحت هذا المفهوم المعروف في عصرنا الحاضر بـ(التقابل الدلاليّ)، إذ كانوا يعبّرون عنها بـ(ضدّ، نقيض، خلاف، عكس، طباق، مقابلة). فأُريد بالتقابل عندهم "أن يضادّ لفظ لفظاً آخر أو يناقضه، أو يغايره بالمخالفة"[٢].

والتقابل أسلوب تعبيريّ يقوم على أساس مبدأ التضادّ بين المعاني والألفاظ والأفكار والصور من أجل غايات فكرية وبلاغية، وهي طريقة في أداء المعاني وإبراز تضادّها وتناقضها[٣].

(*) جامعة بغداد، كلية التربية للبنات قسم اللغة العربية.

(**) جامعة كربلاء، كلية العلوم الإسلامية قسم أصول الفقه.

(١) دراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح ٣٢٨.

(٢) التقابل الدلالي في القرآن الكريم: منال الصفار ١ - ٢.

(٣) بلاغة التقابل: أبو شعيب الساوري ١. (بحث).

وقد سمّاه البلاغيون (المطابقة) و(المقابلة)، وكلّ منهما فنّ من فنون البلاغة العربية، وقد جعلوا لهذين الفنّين تعريفات متعددة منها: أنّ المطابقة هي "الجمع بين الشيء وضدّه في جزء من الرسالة أو الخطبة... مثل الجمع بين السواد والبياض، والليل والنهار، والحرّ والبرد"[١]، وأنّ المقابلة هي "إيراد الكلام ثمّ مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة"[٢]. فالفرق بينهما - كما يراه البلاغيّون - من حيث إنّ مفهوم (المطابقة) لا يكون إلاّ بين الأضداد، على حين اتّسع مفهوم (المقابلة) ليكون بالأضداد وبغيرها[٣]، أي يتضمّن أشكال التناقض والتضادّ والتعاكس والاختلاف.

وهذا التفاوت بينهما كميّ لا يبعد التقابل عن الطباق ولا يخرجه عن المقابلة، إذ إنّهما يندرجان تحت بنية دلالية واحدة هي التضاد الدلاليّ الذي يكون بين عناصر التركيب سواء كانت ثنائية أو ثلاثية، ذلك التقابل الذي لا يقتصر على التضادّ بين مفردات اللغة وإنما يتعدّاها إلى السياق.[٤]

ولذا اتّخذ التقابل أنواعاً عدّة منها[٥]: كثرة وروده في اللغة بين المفردات، نحو: التقابل الحاصل بين الأسماء كـ(الطاعة والمعصية)، أو بين الأفعال أو حدثين نحو: (يهدي) و(يضلّ) أو بين الأسماء والأفعال كما في التقابل بين: (الجهر) و(تكتمون)، ومنها: التقابل بين الجمل والتراكيب كأنْ يكون التقابل بين فعلَيْن وفاعليْهما على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾(الليل: ١ - ٢) أو بين فعلين ومفعوليهما كما في قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾(الأنفال: ٨).

ومن أنواعه أيضاً أنّه يكون بين موقفين متضادّين؛ أو بين مشهدين متناقضين.وهذه الأنواع من التقابلات بين الألفاظ المفردة والتراكيب والمواقف، لا تخرج عن أن تكون من قبيل ما يسمّى بـ(التقابل الظاهر)، أو(التقابل الخفيّ)[٦]. فأمّا **الأوّل** فيكون التقابل فيه سهل الفهم لا لبس فيه، على نحو التقابل بين الليل والنهار، والذلّ والعزّ والحياة والموت[٧]. وقد شاع هذا

---

(١) الصناعتين: أبو هلال العسكريّ ٣١٦.

(٢) الصناعتين ٣٤٦.

(٣) ينظر: تحرير التحبير: ابن أبي الإصبع ١٧٩، والمثل السائر: ابن الأثير ٢/ ٢٨٠، والبرهان في علوم القرآن: الزركشي ٣/ ٤٥٨، والبحث الدلاليّ في إرشاد العقل السليم ١٦٧.

(٤) بلاغة التقابل ٢.

(٥) التقابل الدلاليّ في القرآن الكريم ٢٤ وما بعدها، وينظر: ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية: عبد الكريم العبيدي ٨٣.

(٦) ينظر: ظاهرة التقابل الدلاليّ في اللغة العربيّة ٩٧.

(٧) ينظر: ظاهرة التقابل الدلاليّ ٩٧، والتقابل الدلاليّ في القرآن الكريم ٤.

النمط في اللغة العربيّة، ولاسيّما في الأسلوب القرآنيّ. وأمّا الآخر فهو التقابل المعنويّ أو الخفيّ: فيكون التقابل فيه ضمنياً بين معاني الألفاظ، وذلك بوجود صلات تقارب وتواشج بين المتقابلات[١]. واتسم هذا النمط بغموض الدلالة، وصعوبة تحديد معانيه بدقّة: فهو "بحاجة إلى إعمال الفكر وإمعان النظر: كي تتوصّل إليه، وتكشف عن أبعاده الدلاليّة في النصوص من خلال تركيبها وسياقها"[٢].

وقد كان للتقابل الدلاليّ بنوعيه الظاهر والخفيّ حضورٌ جليٌّ في خطبتي السيدة فاطمة الزهراء (ع)، سواء كان بين المفردات من الألفاظ أو بين التراكيب وبين المواقف والصور. فقد كان من صور التقابل في كلامها: اللفظيّ الظاهر الذي لا يحتاج إلى بيان وتوضيح كما في التقابل بين (البسط، والقبض)، و(النطق، والخرس)، و(سعيد، وشقيّ)، وما إلى ذلك، ومنه ما فيه المعنويّ الخفيّ الذي يصعب تحديده لتأدية المعاني بصورة دقيقة: لكون التقابل فيه بين معاني الألفاظ، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقبل الولوج في دراسة العلاقات التقابلية في كلامها عليها سلام الله وتحديدها لابدّ من الوقوف عند ما يعنيه التقابل في اللغة والاصطلاح. وقد شملت هذه الدراسة أربعة محاور هي:

أولاً - التقابل الدلاليّ في اللغة والاصطلاح:

أما **معناه في اللغة** فقد وردت للفظة (التقابل) أو (المقابلة) في المعجمات العربية بمعانٍ لغوية مختلفة **منها: التلقاء، والمواجهة**، فقد قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ): "والقِبَل: الطاقة، تقول: لا قِبَل لهم. وفي معنى آخر هو التلقاء، تقول: لقيته قِبَلاً، أي مواجهة"[٣]، ويقال: تقابل القوم: أي استقبل بعضهم بعضاً ولقي كلٌّ منهم الآخر[٤]. **ومنها: التعادل والتكافؤ**. فيقال: "وزَنَهُ عادَله وقابَلَه"[٥]. **وقد يراد به: الضمّ**، "إذا ضممت شيئاً إلى شيء قلت قابلته به" فالتقابل في اللغة: مواجهة الشيء للشيء، والمعادلة على أساس التكافؤ بين الأشياء، والتقابل بمعنى: التعادل.

وقد ذكر الراغب الأصفهاني المصطلحات الّتي تندرج ضمن مفهوم (التقابل) وهي: التناقض والتضادّ والتعاكس والاختلاف، وقد جعل مصطلح (الضدّ) من المتقابلات، وأنّ

---

(١) التقابل الدلاليّ في القرآن الكريم ٤.

(٢) ظاهرة التقابل الدلاليّ ١٠٥.

(٣) العين٥/١٦٦ (قبل)، وينظر: المقاييس في اللغة: أحمد بن فارس ٨٧٢ (قبل)، والمعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون٢/٧١٢ (قبل).

(٤) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة: ابن سيدة ٦/٢٦٣، والمعجم الوسيط ٢/٧١٢.

(٥) لسان العرب: ابن منظور ١٧/٢٣٩ (وزن).

الشيئين المتقابلين هما شيئان مختلفان من الذات، فضلاً عن أنّ كلّ واحد قبالة الآخر، ولا يجتمعان في وقت واحد على الإطلاق، وهذه الأشياء هي: "الضدّان كالبياض والسواد، والمتناقضان كالضعف والنصف، والوجود والعدم، كالبصر والعمى، والموجبة والسالبة في الأخبار نحو: كلّ إنسان ها هنا، وليس كلّ إنسان ههنا"[١].

وأما **معناه في الاصطلاح** فهو "وجود لفظتين تحمل إحداهما عكس المعنى الذي تحمله الأخرى، مثل: الخير والشر، والنور والظلمة، والحب والكراهية، والصغير والكبير، وفوق وتحت، ويأخذ ويعطي، ويضحك ويبكي"[٢].

ثانياً ـ التقابل بين المفردات:

يكثر هذا النوع من التقابل في اللغة، وقد كثر وروده ـ أيضاً ـ في خطب السيدة فاطمة الزهراء (ع) إذ حفلت خطبها (ع) بهذا الأسلوب الدلاليّ بوصفه أحد أساليب الكلام المتّبعة لدى العرب، ولاسيّما التقابلات بين الأسماء المفردة. فمن ذلك ورود التقابل بين (الثواب والعقاب)، و(الطاعة والمعصية) فيقولها (ع): (... **ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته ذيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم إلى جنته)**[٣]. فحديثها ـ هنا ـ سلام الله عليها عن فلسفة التوحيد الدالّة عليها كلمة التوحيد لله سبحانه وتعالى بعد حمده والثناء عليه، فقد أشارت إلى عمق هذا المعنى من خلال تبيانها للناس أنّه جلّ وعلا لم يُرِد منهم أن يطيعوه من دون أساس لهذه الطاعة، إنما تفضّل الخالق سبحانه وتعالى عليهم "بأن قدّم لهم في الدنيا رسالة وقانوناً، ليكون الثواب والعقاب على أساس إطاعة القانون أو مخالفته"[٤].

وإيراد التقابل هنا في خطبتها (ع) بين (الثواب والعقاب) لم يكن اعتباطاً إنما كان عن درايةٍ وعلمٍ منها سلام الله عليها لما لهذا الأسلوب من أثرٍ في بيان المعنى المراد إيصاله وهو تنبيه القوم وتذكيرهم بأنّ طاعة الله في شرائعه تُستَعْقَب بالثواب الجزيل والنعم الدائمة، وأنّ معصيته جلّ وعلا يعقبها عقاب.

والثواب في اللغة: من الأجر والجزاء في الخير والشرّ[٥]، وقد غلب استعماله في الخير[٦] بدليل قوله تعالى ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٢٩٣ (ضدّ).

(٢) ظاهرة التقابل في علم الدلالة: د. أحمد الجنابي ١٥ (بحث).

(٣) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء: محمّد علي الأنصاريّ ٣٩٨.

(٤) الزهراء القدوة: السيد محمد حسين فضل الله ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٥) ينظر: المقاييس في اللغة ١٨٩ (ثوب)، والمفردات في غريب القرآن ٨٣ (ثوب).

(٦) المفردات في غريب القرآن ٨٣.

ٱلثَّوَابِ ﴾[(١)]، وقد ذكر ذلك أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) إذ قال: إنّ "الثواب قد شهر في الجزاء على الحسنات"[(٢)]. أما (العقاب) فهو من عقب يعقُبُ، أي "كلّ شيء يعقب شيئاً فهو عقيبه... ويقال: استعقب فلان من فعله خيراً أو شراً، واستعقب من أمره ندماً"[(٣)]، وقد سمّي بذلك: لأنّ الفاعل يستحقّه عقيب فعله، وهو (التلوّ) يقال: عقب الثاني الأول إذا تلاه، وعقب الليل النهار[(٤)]. فالعقاب جزاء عمل الشرّ ويأتي عقب العمل به، وعاقبة كلّ شيء هي آخره، وإطلاق لفظ (عاقبة) اختص بالثواب، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

فيُلحظ ممّا تقدّم أنّ التقابل الأصل والأساس هو بين (الطاعة والمعصية) وهو المؤدّي إلى التقابل الفرعيّ بين لفظتي (الثواب والعقاب). فهذا التقابل ارتبط بالتقابل السابق: وذلك من حيث إنّ (الطاعة) تعدّ أساساً لـ(الثواب) الذي يكون عقباً لها، وأنّ (العقاب) يعقب (المعصية)، فضلاً عن وجود تقابل ضمنيّ معنويّ آخر قد بُني على التقابل الأول وتفرّع عنه: وهو قولها المتقدّم (ع) **(ذيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم إلى جنّته)**، فـ(ذيادة) تعني: المنع والكفّ، يقال: ذاد الراعي إبله من الماء: أي أبعدها ومنعها، أما (حياشة) فمعناها إتيان الشيء من جوانبه وجمعه، والمعنى الذي أرادته السيدة أنّ في طاعة العباد لله منعاً لهم وإبعاداً عن نقمته جلّ وعلا المؤدّية إلى النار، وسوقاً لهم إلى جنّته: ولعلّ التعبير بذلك "لنفور الناس بطباعهم عمّا يوجب دخول الجنة، كالصيد النفور الذي يجمع بنحو الحياشة"[(٥)]. فاتباع ما أمر الخالق به وطاعته سيوصل إلى الثواب الجزيل المتمثّل بالجنة، وأنّ في معصيته وصولاً حتمياً إلى العقاب الكبير من لدنه عزّ وجلّ والمتمثّل في النار.

وهذا ما يسمّى في الوقت الحاضر بالتقابل التشجيريّ، وهو النمط الذي يعتمد (تقنية التشجير)[(٦)] في دلالات الألفاظ، وهو بناء يحتمل دلالات تقوم على أساس التقابل المتفرّع الموحي بدلالات تبعيّة لأصول ثابتة[(٧)]. ويؤتى به لتوكيد المعنى في الكلام، إذ يعمد المتكلّم إليه عندما يصف "وصفا ما ثم يفرع منه وصفا آخر يزيد الموصوف توكيدا"[(٨)]. ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط الآتي:

---

(١) (آل عمران: ١٩٥).

(٢) الفروق اللغوية ١٩٧.

(٣) المقاييس في اللغة ٦٧٥ ـ ٦٧٦ (عقب).

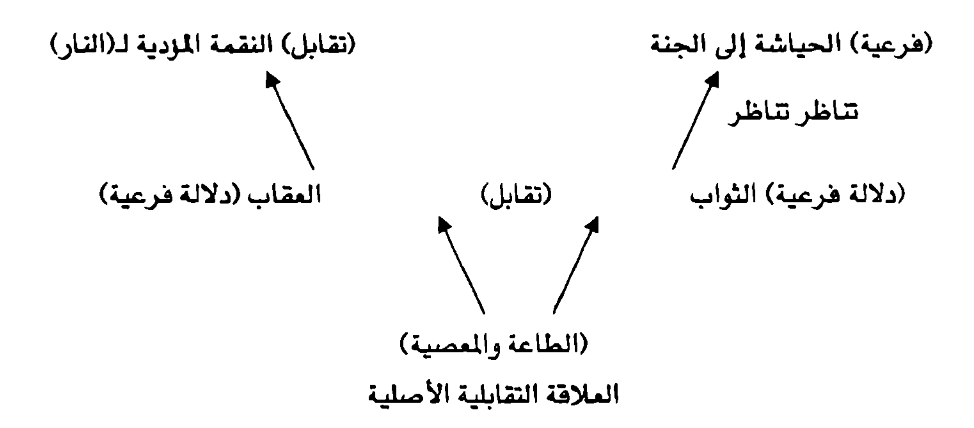
(٤) الفروق اللغوية ١٩٩.

(٥) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء (ع) ٤٢١.

(٦) التقابل الدلاليّ التشجيريّ في القرآن الكريم: د. علاء جبر محمد ٤.

(٧) التقابل الدلاليّ التشجيريّ ٤.

(٨) معجم المصطلحات البلاغية: د. أحمد مطلوب: ٢٩٦.



وتجدر الإشارة إلى أنّ استعمال (الثواب) دون (الأجر) في ذلك السياق كانفي غاية الدقّة، إذ إنّ هناك فرقاً دلالياً بين (الثواب) و(الأجر). فـ (الثواب) "من الله تعالى نعيم يقع...على جهة المكافأة على الحقوق"[١]، على حين إنّ (الأجر) " يكون قبل الفعل المأجور عليه، والشاهد أنّك تقول: ما أعمل حتى آخذ أجري ولا تقول: لا أعمل حتى آخذ ثوابي"[٢]. فدلالة (الأجر) أعمّ من دلالة (الثواب) وأشمل، فقد تأتي بمعنى الثواب أي: استحقاق الأجر المعنويّ بعد العمل: كالذي في قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يوسف: ٥٧)، وقد تكون دلالته للأجر الدنيويّ الذي يستحقّ على عمله ثمناً معيناً: نحو قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص/٢٥). فكان الانتقاء للألفاظ دقيقاً سليماً لتنبّهها (ع) على أنّ استعمال (الثواب) في ذلك الموضع أقوى معنىً وأكثر اتساقاً وتناسباً مع السياق الوارد في الخطبة إذ الحديث في (الحثّ على طاعة الله وعدم معصية أوامره ومخالفة تشريعاته المنزلة على النبي (ص).

وبالمثل استعمال لفظة (العقاب) مقابل الثواب من دون (العذاب)، إذ إنّ هناك غاية دلالية مفادها أنّ العقاب يستحقّه الفاعل – كما ذكر آنفاً - عقيْب الفعل، على حين يكون العذاب لمستحقٍ له وغير مستحقٍ[٣]. ولذا استعملَتْ السيدة لفظة (العقاب): لأنّه حاشا لله أن يعذّب مَنْ لا يستحق العذاب.

فانسجام التقابل بين (الثواب) و(العقاب) وتوافقه من حيث إنّهما يشتركان في أصل معنوي واحد يجمعهما: وهو: التلو في الوقوع، بعبارة أخرى إنّ كلاً من الثواب والعقاب يقعان بعد العمل بالطاعة أو المعصية: وهما متقابلان أيضاً.

---

(١) الفروق اللغوية ١٩٧.

(٢) الفروق اللغوية ١٩٦.

(٣) الفروق اللغوية ١٩٩.

ومثل ذلك ما ورد في الخطبة الثانية عندما اجتمعت إليها نساء الأنصار والمهاجرين من هذا النوع من التقابل كالذي بين (السرّ) و(الإعلان)، وذلك في قولها (ع) في وصف زوجها أبي الحسن (ع) بأنه: **(لا يكْلِمُ خِشاشُه ولا يَكِلُّ سائره ولا يَمَلُّ راكبه ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً روياً، تطفح ضفتاه ولا يَتَرَنَّق جانباه ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً وإعلاناً)**[١]، وفي موضع آخر خاطبت القوم إذ قالت: **(وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام)**[٢]. والإسرار خلاف الإعلان[٣]، ولكن قد تأتي لفظة(الإسرار) بمعنى (الإظهار) كما في قوله تعالى ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ﴾ (سبأ/٣٣) بمعنى: كتموها أو أظهروها[٤]: إذ إنّ"الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يُفضى إليه بالسرّ وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره، فإذا[٥] قولهم: أسررت إلى فلان يقتضي من وجهِ الإظهار، ومن وجهِ الإخفاء"[٦].

فلاستعمال السيدة الزهراء (ع) لفظتي (الإسرار) و(الإعلان) بعلاقةٍ تقابلية أثرٌ واضحٌ في إبراز المعنى الذي أرادت إيصاله للسامعين، إذ استعملت لفظة (الإعلان) بعد (الإسرار)؛ لإدراكها أنّ اللفظة الأخيرة لها معنيان متضادّان هما (الكتمان والإظهار)، ولو لم تأتِ (ع) بلفظة (الإعلان) واقتصرت على الإسرار من دون الإتيان باللفظ المقابل، لما تحدّد المعنى المراد، ولاحتمل تأويلاً آخر؛ إذ كان حديثها (ع) مع المسلمين من (الأنصار والمهاجرين) في معرض العتاب والتوبيخ: لإخفائهم كلمة الحقّ والإيمان وتركهم العمل بها بعد أن أعلنوها وأقرّوا بها على حياة أبيها النبيّ الأكرم (ص)[٧]. فلذلك الاستعمال التقابليّ السليم بين دلالات الألفاظ أثرٌ بيّنٌ في تحديد الدلالة المطلوبة وهي إخفاء الأمر وكتمانه وتركه بعد إعلانه وإجهاره والإقرار به مسبقاً.

ومثل ذلك ورود الكثير من التقابلات اللفظية بين المفردات في خطبة السيدة الزهراء (ع) لا يتّسع المقام لذكرها أجمع: فمنها[٨]. التقابل بين (الليل، والصبح)، و(نساؤكم، ورجالكم)، و(الراحة، والتعب)، و(الضعف، والاستحكام)، و(ممساكم، ومصبحكم)، و(النكوص، والإقدام)، و(عود، وبدء)، و(اللعب، والجد)، و(الصادق، والكاذب)، و(الزاهد، والراغب)، و(الأدنى، والأبعد)، و(الغدر، والوفاء) ما إلى ذلك.

---

(١) خطبة الزهراء في بيتها ٣١ ـ ٣٢.

(٢) اللمعة البيضاء ٦٧٠، وخطبة الزهراء (ع) في المسجد ٢٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن ٢٢٨ (سرر).

(٤) ينظر: التضادّ في القرآن الكريم: محمد نور الدين المنجد ١٥٣ – ١٥٤.

(٥) الصحيح في قوله (فإذا): فإنّ.

(٦) المفردات في غريب القرآن ٢٢٨ (سرر).

(٧) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء ٦٧٨.

(٨) ينظر: خطبتي الزهراء (ع) في المسجد وفي بيتها ٥ ـ ٣٢.

ثالثاً ـ التقابل الدلاليّ بين التراكيب:

يتحدّد هذا التقابل من خلال مقابلة عناصر بنائية لغوية، وتراكيب تعتمد على علاقات منطقية تقع في إطاري التضادّ أو المخالفة، وهذه العلاقات بطبيعة الحال لا تقف وحدها فاعلة في البنية التقابلية وإنما ينضاف إليها رصيد كبير من المعاني والمدلولات التي تنتجها عناصر البنية التقابلية (الدوال)[1].

ومن خلال شبكة العلاقات التي تربط الألفاظ بمدلولاتها، وبما يجاورها في السياقين القبلي والبعدي في البنية التركيبية تنتج العلاقات التقابلية بين موقفين أو اتجاهين، وقد تضمّن ذلك نوعين في خطب السيدة الزهراء (ع) هما:

أ ـ التقابل الدلاليّ بين المواقف:

لهذا النمط من التقابل الدلاليّ فاعليّة وقدرة كبيرتان على إبراز المواقف المتعاكسة والمتناقضة من خلال دلالات الجمل والتراكيب الناتجة عن المادة اللغوية (الدالات) والمنبثقة من المستوى المعنوي أو المضمون العام، وهذه الدلالات الناتجة ليست هي المعاني التي يكشف عنها المستوى السطحي للسياق، وإنما هي المعاني العميقة المختفية وراءه[2]، "وإنما الصنعة والحذق، والنظر الذي يلطف ويدقّ في أن تُجْمَع أعناق المتنافرات والمتباينات في ربقة واحدة، وتعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة، وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضل عمل إلا لأنّهما يحتاجان من دقّة الفكر، ولطف النظر، ونفاذ الخاطر ما لا يحتاج إليه غيرهما"[3]. وغالباً ما يقع هذا النوع في نطاق الجوانب العقيدية والفكرية والقيم الدينية الإسلامية وما يضادّها ويقابلها من قيم جاهليّة ضالّة[4].

ومثال التقابل بين المواقف المتضادّة، التقابل بين (أهل الحق، وأهل الباطل) الذين أشارت إليهما(ع) في كلامها لقبيلتي المهاجرين والأنصار: (**... فأنّى حُرْتُم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم...ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم مَنْ هو أحقّ بالبسط والقبض، وخلوتم بالدَّعة ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم ودسعتم الذي سوَّغتم...**)[5]. فهي سلام الله عليها وجدت نفسها ملزمة بمخاطبتهم وإلقاء الحجّة عليهم كونها صاحبة قضية عقيدية حيوية

---

(١) العلامة والعلامية (دراسة في اللغة والأدب): د. محمد عبد المطّلب ٤٧.

(٢) التقابل الدلاليّ: د. فايز القرعان ١٠ (بحث).

(٣) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجانيّ ١٤٨.

(٤) التقابل الدلاليّ في القرآن الكريم ١٤٩ ـ ١٦١.

(٥) خطبة الزهراء ٣١.

كبرى، وليس في موضع المحاباة ومداراة العلاقات الإنسانية التي تفضي إلى السكوت عن قيل الحقّ. فلم يكن خطابها ليكلّم فرداً معيناً وإنما خاطبت موقفاً واتجاهاً ورأياً: لأنها أحسّت (سلام الله عليها) " أنّ مسألة الخلافة ليست مسألة عليّ (ع)، بل إنّها مسألة الأمة والرسالة، وكانت تشعر أنّها مسؤولة أن تحمي الأمة، وأن تحمي الرسالة: ولذلك اندفعت في أوّل موقف خطابي لها إلى المسجد، لتتحدّث للمسلمين عن الإسلام، وعن أسرار الإسلام، وعن الواقع الذي عاشه المسلمون"[1] وكان هذا هو الموضوع الحقيقيّ لخلافها مع القوم[2].

ونحن هنا بإزاء صنفين من الناس متضادّين في موقفهما ومتقابلين لا يمكن الفصل بينهما: لتلازمهما إلى الحدّ الذي إن ذكرت أحدهما انساق الطرف الآخر إلى الذهن، الأمر الذي يسهم في تجلية المعنى وبلورته وتعميق دلالته. وهي ـ هنا ـ (ع) أجرت مقابلة بين موقفين متضادّين هما: (الإيمان، والإشراك)، وذلك في قولها (وأشركتم بعد الايمان)، فضلاً عن إجرائها مقابلة أخرى بما ينتج عنهما من دلالات فرعية ومعانٍ خفية مجرّدة تجسدت في الموقفين الآتيين:

أحدهما ـ موقف الحقّ المتجسّد بالذين تدبّروا القرآن وعملوا به، وتبعوا الرسول الأعظم (ص) بكلّ ما جاء به من تعاليم القرآن، فلم يعرض عن كتاب الله سبحانه لا ظاهراً ولا باطناً، وهو العبد المخلص لله سبحانه وتعالى الذي قال فيه الرسول الكريم (ص): **(عليٌّ مع الحق والحقّ مع عليٍّ حيثما دار دار معه الحقّ)**[3]، وهم يعلمون ذلك، ولكن السيدة أرادت تذكيرهم بنبيّهم وصفاته (ص)، وهو تنبيهٌ لهم وتأكيدٌ إنْ كانوا يؤمنون به فمن باب أولى أن يتّخذوه قدوة لهم وأسوة فيطيعوه.

والآخر – الموقف الباطل المتمثل بالسكوت عن قولة الحقّ في مسألة الخلافة، وهو موقف المخالفين والصادّين عن العمل بالقرآن والسنّة، فهم ممّن لم يقتفوا أثره (عليه الصلاة والسلام وعلى آله)، وأخلّوا في العمل ببعض أحكامه. وأخلدوا إلى الراحة الدنيوية وإيثارها على الراحة الأخروية، فتركوا الأفضل لهم في دينهم وأخراهم وأتبعوا المفضول عزوفاً عن الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ وخروجاً عن طاعته (ع) في مقاتلة أعداء الدين مع أنّه يتميّز بشدة بأسه ووطأته وقلّة مبالاته لحتفه، ونكال وقعته وتنمّره في ذات الله[4]. وهي سلام الله عليها أوّل مَنْ نهضت للدفاع عن حقّ الولاية المسلوب، وذلك بوسائل مختلفة منها: خطابها الصارخ

---

(١) الزهراء القدوة ٢٤٠.

(٢) فاطمة الزهراء (ع) المرآة النموذجية في الإسلام: إبراهيم الأميني ١٥٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري ٣/١٣٤رقم الحديث (٤٦٢٩)، وسنن الترمذيّ ٥/٢٩٧، رقم الحديث (٣٧٩٨).

(٤) اللمعة البيضاء ٦٨٠.

بعمق المظلومية، ووقوفها قبالة الظالمين[١]، إذ قالت: **(معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية إلى الفعل الخاسر، أفلا تتدبّرون القرآن ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢]؟ كلاّ بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم فأخذ بسمعكم وأبصاركم ولبئس ما تأولتم وساء ما به أشرتم، وشرّ ما منه اغتصبتم)**[٣].

فيلحظ – هنا ـ أنّها (ع) استعانت بالقرائن السياقية من لفظية وعقلية، فمن أمثلة استعانتها بالدلالة اللفظية السياقية ما أوردت من الأدلّة القرآنية الكثيرة كحجّة دامغة عليهم في إثبات قضيتها، ومثالها إيرادها قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء/٢٢٧)، وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة/١٣).

ومن استدلالاتها العقلية ما تقدّم من إيرادها قول الله عزّ وجلّ: **(أفلا تتدبّرون؟)** إذ كثيراً ما استعانت بتحكيم العقل لإدراكها أهمية الموضوع في إثبات الأحقية لمَنْ أفنى عمره في طاعة الله سبحانه، الذي هو من القضايا العقيدية الأساس؛ ولذا أرادت أنْ تبيّن أنّ هذه الطائفة التي ابتعدت عن التدبّر والتفكّر قد غطّاها صدأ القلوب وغلب عليها حتى اسودّت قلوبهم: نتيجة إصرارهم على ارتكاب الذنوب والمعاصي وتسويفهم التوبة مما جعلهم في اعتياد للكفر وإلفة له، وغفلة عن عواقبه فهم لا يعقلون ما ينفعهم ولا يدركون ما يضرّهم[٤].

ب ـ التقابل الدلالي الصوريّ:

يرتبط التقابل الصوري بالأساليب البلاغية ولاسيما تلك التي تتكئ على تقنيات المشابهة، والاستعارة، والمجاز، والكناية، فتعمل على توسيع أفق التلقّي وتنشيط الخيال، وشحن الصورة ورفدها فنياً، فضلاً عن خاصية التركيب التي تجلو العلاقة بين الضدّين بشكل أعمق عبر عملية التقابل الصوريّ الذي يعدّ قوة خلاقة داخل النسيج التصويري، ولاسيما من خلال اندغام المتنافرات والمتناقضات، وتمحورها حول الأطراف المتقابلة المتعاكسة ليجعل الصورة أكثر عمقاً وثراءً[٥].

واتّخذت السيدة الزهراء (ع) من أسلوب التقابل الصوريّ وسيلة أساسية لبيان ما تبغي إيصاله للسامعين عبر الأزمان: لإثبات أمر دينيّ وقضية رسالية من القضايا التي عُنيَ بها

---

(١) ظلامات فاطمة الزهراء: عبد الكريم العقيليّ ٢٩٩.

(٢) (محمد: ٢٤).

(٣) اللمعة البيضاء ٦٩٤، وخطبة الزهراء ٣٥.

(٤) ينظر: الكشاف: الزمخشريّ ٧٢٢/٤، ومجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسيّ ٦٨٩/١٠.

(٥) ثنائية التقابل الصوريّ بين المؤمن والكافر: د. وسن عبد المنعم ٢٤٨.

الإسلام، وبلّغ بها الرسول الكريم (ص) وقد صدّت عنها النفوس وتركتها غفلةً أو عمداً. فمن ذلك: التقابل الظاهر بين (الذنابى – القوادم)، و(العَجُز– والكاهل). والتقابل المعنويّ في المقابلة بين (الهادين إلى الحقّ)، و(غير الهادين للحقّ) الضالّين. جاء في قولها سلام الله عليها (...**ليت شعري إلى أي سنادٍ استندوا؟ وعلى أيّ عماد اعتمدوا؟**

وبأيّ عروة تمسكوا؟ وعلى آية ذرية أقدموا واحتنكوا؟ لبئس المولى ولبئس العشير وبئس للظالمين بدلاً، استبدلوا والله الذنابى بالقوادم، والعَجُز بالكاهل فرغماً لمعاطس قوم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[1] ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾[2] ويحهم ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[3]...)[4] فـ(احتنكوا) في اللغة: من استئصال الشيء وقد جاء في الذكر الحكيم على لسان إبليس (لعنه الله): ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (الإسراء: ٦٢)، أي: أغويهم جميعاً مثلما يستأصل الشيء إلاّ القليل منهم[5].

و(القوادم) في اللغة: مقاديم الريش[6]، فيقال: قادمة الجناح، وقادمة الرحل، وكلّ " ذلك يُعتبر فيه معنى التقدّم "[7] أما (الذنابى): الأتباع وأصلها مؤخّر كلّ شيء، ومؤخّر الدوابّ[8]. والعَجْز معناه أيضاً مؤخّر الشيء ويدلّ على الضعف[9]، وهو ضدّ القدرة[10]، ودلّت لفظة (الكاهل) على القوة في الشيء، فالكاهل في اللغة (مابين الكتفين، وقد سمّي بذلك لقوّته)[11] و(المعاطس): الأنوف[12].

فأجرت (ع) - في معرض الذمّ للقوم الظالمين وسوء استبدالهم - علاقة تقابلية قائمة على أساس علاقتين تشبيهيّتين هما: **(المقدَّم في الإيمان، والمتأخِّر فيه)** وذلك بأن شبّهت (أتقى الناس) الذي هو كتاب الله الناطق ومن المقرّبين للرسول (ص) بـ (مقاديم جناح الطائر) أي:

---

(١) (الكهف: ١٠٤).

(٢) (البقرة: ١٢).

(٣) (يونس: ٣٥).

(٤) خطبة الزهراء ٢٣.

(٥) المقاييس في اللغة ٢٨٦ (حنك).

(٦) المقاييس في اللغة ٨٧٨ (قدم).

(٧) المفردات في غريب القرآن ٣٩٧ (قدم).

(٨) ينظر: المقاييس ٣٨٩ (ذنب)، والمفردات في غريب القرآن ١٨١ (ذنب).

(٩) المقاييس ٧٣٩ (عجز).

(١٠) المفردات في غريب القرآن ٣٢٢ (عجز).

(١١) المقاييس ٩١٢ (كهل).

(١٢) المقاييس ٧٨٨ (عطس).

الجزء الأساس الأكبر الذي يستند عليه ركيزة في الطيران، والمعنى أنّه كان في مقدّمة القوم وأقدمهم إيماناً وتقاةً وأكثرهم علماً، فاستبدلوه واتّبعوا (الذنابى) أي: مَنْ كان متأخراً عنه بكلّ ذلك، فجعلوهم في المقدّمة والصدارة في تولية الأمور. **والتشبيه الآخر بين (القويّ، والضعيف)**، وذلك بأنْ عزفوا عمّن كان قوياً شديد المراس على أعداء الدين من المشركين، **(لا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويُخمِدُ لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله... لا تأخذه في الله لومة لائم)** تاركين إيّاه إلى اتباع الأضعف والأقلّ اقتداراً في مواجهة الأعداء. وقد خاطبتهم (ع) قائلة: **(وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوكّفون الأخبار، وتَنْكصون عند النّزال، وتفرّون من القتال)**[1].

فاستطاعت (ع) إيصال الحقيقة للآخرين عن طريق إقامتها العلاقة التقابلية على أساس تشبيه الأمر المعقول بما هو محسوس لتجسيد المعنى المراد وتقريبه عن طريق المحسوسات.إذ إنّ تمثيل المعنى المجرّد واقترانه بما هو محسوس يكون أكثر وقعاً ورسوخاً في النفس[2]: فهو الذي " يُلحَق فيه... المجهول بالمعلوم، والخفيّ بالجليّ، والناقص بالكامل ... "[3].

ومن التقابلات التي بُنِيت على أساس صوريّ استعاريّ، تلك التي جرت بين (النور) المتمثل برسالة الإسلام الذي حملها أبوها (ص)، و(الظلمات) المتمثلة بالعبادات الضالّة للأمم المتعددة. فقد جاء في كلامها سلام الله عليها عن الغاية من ابتعاث أبيها (صلوات الله عليه وآله): لمحاجة القوم، إذ قالت: **(ابتعثه الله إتماماً لأمره وعزيمة على إمضاء حكمه وإنفاذاً لمقادير رحمته فرأى الأمم فرقاً في أديانها عكفاً على نيرانها عابدة لأوثانها منكرة لله مع عرفانها فأنار الله بأبي محمد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلّى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم)**[4].

فكلامها هذا سلام الله عليها يحفل بلغة صورية لها كثافتها المعنوية العالية، ولعلّ ما يفسّر ذلك أنّ" طبيعة التغيّر الاجتماعي الهائل: وهو الدخول إلى دين الإسلام يفرض انتخاب لغة عميقة الدلالة، مكثّفة، مكتنزة بما هو ثرّ وثريّ من المعاني المختلفة، وهو ما يضطلع به العنصر الصوريّ"[5]، فقد كان الناس يعيشون في ظلمة الجهل وعبودية الهوى وما نتج عنهما

---

(١) خطبة الزهراء (ع) ١٣.

(٢) أساليب البيان في القرآن: السيد جعفر الحسيني ٦٥.

(٣) علم البيان دراسة تأريخيّة فنّيّة في أصول البلاغة العربيّة: د. بدويّ طبانة ١٠٠.

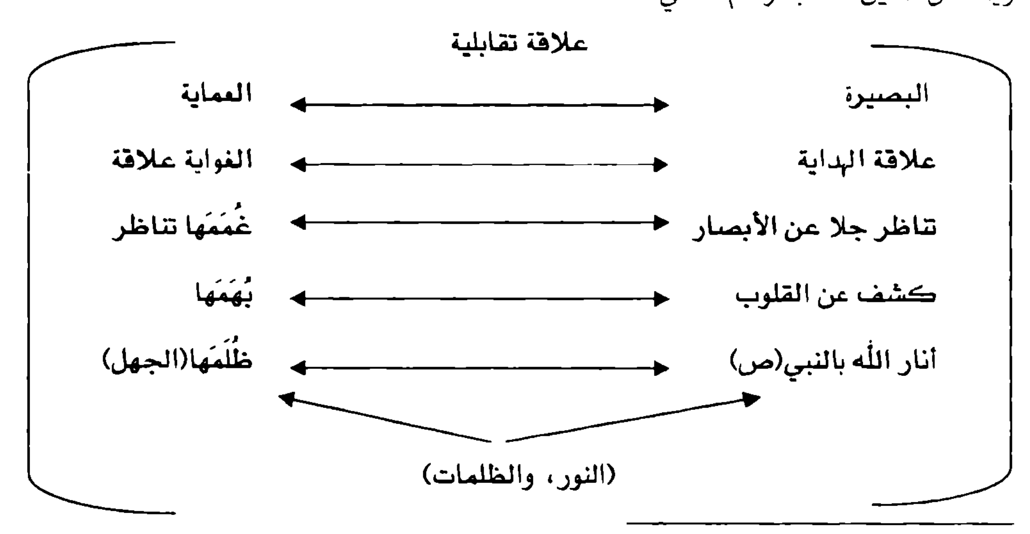
(٤) خطبة الزهراء ٨.

(٥) أدب فاطمة الزهراء (ع): د. محمود البستاني ٢٤.

من تخلّف في الميادين جميعها، وكانوا مشتّتين كل فرقة منهم تدين بدين يختلف عن الأخرى. فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد النار مع أنهم جميعاً يعلمون بأنّ خالقهم هو الله تعالى. ثمّ بعث النبي محمد(ص) فأنار للناس طريقهم واستنقذهم من براثن الجهل والظلام، وكشف عنهم ما استغلق عليهم من مبهمات الأمور، وأزال الريبة والشكوك عن قلوبهم وجلّى عن الأبصار ما التبس عليها، وبذلك بيّنت خصوصية النبيّ وفضله في استنقاذ الناس من العمى الذي هم فيه[١].

ففي الخطاب المتقدّم أُقيمت تقابلات صورية مكثّفة في معانيها مبنيّة على أساس التشبيهات المتفرّعة التي تربطه علاقات دلالية، وأواصر معنوية يمكن أن تتشكل على النحو الآتي: إنّ الدالّ (أنار) بمقابلة الدالّ (ظلمها) وتمثّل بمدلولها الإنارة بنور الإسلام للعقول الغارقة بجهلها، ومقابلة (كشفَ عن القلوب) للدالّ (بهمها) دلالة فرعية - ناتجة عن المقابلة السابقة - تشير إلى دلالة الكشف والوضوح بتبيان الأمور وتوضيحها للناس، وفي المقابلة الفرعية الأخرى بين (جلّى عن الأبصار، غممها) تجسيد للإجلاء الذي يعني رفع ما يؤدّي إلى حجب الأبصار عن الحقائق، وفي (الغُمَم) مدلول على إخفاء البصيرة وتغطيتها بما يشبه الغَمَام السوداء التي تحجب الرؤية، والدالّ (الهداية) يقابلها (الغواية)، و(البصيرة) قابلت (العماية). فالبصيرة هي النور الذي يودعه الله سبحانه في قلب المؤمن ليميّز به بين الحقّ والباطل. فمن كانت لديه بصيرة يستطيع أن يهتدي بها إلى حقائق الأمور، أما الإنسان الذي ارتكب المعاصي وقارف الموبقات فستغلّف قلبه الذنوب وتحجبه عن رؤية الأمور على حقائقها فلا يكاد يفقه شيئاً[٢].

ويمكن تمثيل ذلك بالرسم التالي:



(١) التقديم والتأخير في خطبة الزهراء - (ع) - دراسة دلالية: ميثاق الصيمريّ ٥.
(٢) التقديم والتأخير في خطبة الزهراء - (ع) - دراسة دلالية ٦.

وهناك علاقات تقابلية استعاريّة وردت بكثرة في كلام السيدة الزهراء (ع)، لا يتّسع المقام لذكرها[1] كالعلاقة التقابلية بين صورتي (تفرّى الليل، والصبح)، وما ينتج عنها من تقابلات فرعية كالتقابل الاستعاريّ بين (أسفر الحقّ، محض الحقّ)، و(نطق زعيم الدين، خرست الشياطين)، و(انحلّت، عقدة الكفر).

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث لابدّ من بيان ما تمخّض عنه من نتائج، التي يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- ورود المستوى الدلاليّ المتمثّل بالتقابل الملحوظ بشكل مميّز في كلام السيدة الزهراء (ع) من حيث الإفراد والتركيب، وهذا ما يَسهُم في منحه زخماً تعبيرياً يبعث التأثير في النفوس.

٢- بيّن البحث قدرة السيدة الزهراء (ع) اللغوية المتميّزة في استعمال ظاهرة التقابل الدلاليّ بقيمتها التعبيرية في استنباط المعاني والأفكار المؤثرة في السامعين، من دون وجود تعسّف في إيراد المفردات والجمل المتقابلة لفظياً أو معنوياً.

٣- حاول البحث الكشف عن العلاقات الدلالية التقابلية بين المفردات وبين الجمل والتراكيب والمواقف والصور في خطبتيها (سلام الله عليها)، مما كان ظاهراً منها وخفياً قد تضمنّه المعنى المراد إيصاله في الخطبة ولاسيما في المواقف الفكرية والاتجاهات المتقابلة، وفي التقابل بين التراكيب الصورية التي لها أهميتها في المجال الابداعيّ.

٤- بيّن البحث ما للتقابل الدلاليّ من فاعليةٍ وقدرةٍ كبيرتين على بيان دلالات الألفاظ والأساليب ولا سيما في أسلوب الزهراء (ع) الذي اتسم بسمة واضحة بإيراد تقابلات معنوية متفرّعة، وخفيّة لا يسهل تحديدها إلاّ عن طريق التوسّل بالقرائن الدلالية ولاسيما القرآنية سواء كانت سياقية أم حالية أم عقلية.

٥- نظراً للواقع المرّ الذي مرّت به السيدة الزهراء (ع) والذي دعاها إلى إسداء الخطب للناس آنذاك، فقد اتخذت السيدة الزهراء (ع) من هذا الأسلوب الدلاليّ وسيلة لبيان القضية التي هي بصدد تبيانها للسامعين وإبرازها بشكل دقيق على مرّ العصور وللأجيال جمعاء.

---

(١) ينظر: خطبة الزهراء (ع) في المسجد ٢٢ ـ ٢٦.

قائمة المصادر:

- ❖ القرآن الكريم.
- ❖ أدب فاطمة الزهراء (ع): د. محمود البستاني - قم المقدّسة (د. ت).
- ❖ أساليب البيان في القرآن: السيد جعفر الحسينيّ - الطبعة الأولى - مؤسسة الطباعة والنشر - وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - طهران ١٤١٣ هـ.
- ❖ أسرار البلاغة :الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) - تعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر - الطبعة الأولى - مطبعة المدني - القاهرة - دار المدني - جدة ١٩٩١ م.
- ❖ البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشيّ (ت ٧٩٤ هـ) - تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم - الطبعة الأولى - دار إحياء الكتب العربية - مصر ١٩٥٨م.
- ❖ بلاغة التقابل في الكرسيّ الأزرق لعبد الله المتقي: أبو شعيب الساوري - ٢٠٠٩م.
- ❖ تحرير التحبير :ابن أبي الإصبع المصريّ (ت ٦٥٤ هـ) تحقيق: د. حفني محمّد شرف - الطبعة الأولى - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة ١٣٨٣ هـ.
- ❖ التضادّ في القرآن الكريم: محمّد نور الدين المنجد - الطبعة الأولى - دار الفكر المعاصر - بيروت، ودار الفكر - دمشق ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م.
- ❖ التقابل الدلاليّ:د. فايز عارفالقرعان - جامعة اليرموك - إربد - الأردن (د.ت).
- ❖ التقابل الدلاليّ التشجيريّ في القرآن الكريم لوحة الليل والنهار أنموذجاً: د. علاء جبر محمد– الجامعة المستنصرية/كلية الآداب.
- ❖ التقابل الدلاليّ في القرآن الكريم: منال الصفار – رسالة ماجستير - جامعة الموصل - كلية الآداب ١٩٩٤م.
- ❖ التقديم والتأخير في خطبة الزهراء - (ع) - دراسة دلالية: ميثاق الصيمريّ - ٢٠١١م.
- ❖ خطبة الزهراء (ع) في المسجد وفي بيتها: مسجد أهل البيت – قم (د. ت).
- ❖ الزهراء القدوة: السيد محمد حسين فضل الله - إعداد: حسين أحمد الخشن - ط٣ - دار الملاك - (د.م) ١٤٢٢ه/٢٠٠١م.
- ❖ الصناعتين... الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) - تحقيق: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة البابي الحلبي - القاهرة ١٩٧١م.
- ❖ ظاهرة التقابل الدلاليّ في اللغة العربيّة: عبد الكريم محمّد العبيديّ - رسالة ماجستير - الجامعة المستنصريّة - كلّيّة الآداب - ١٩٨٩ م.
- ❖ ظاهرة التقابل في علم الدلالة: د. أحمد الجنابيّ – (بحث) مجلة آداب المستنصرية - العدد (١٠) ١٩٨٤م.
- ❖ ظلامات فاطمة الزهراء في السنّة والآراء: الشيخ عبد الكريم العقيليّ – الطبعة الأولى – بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ❖ العلامة والعلامية (دراسة في اللغة والأدب): د. محمد عبد المطلب - الطبعة الأولى - الوطن العربي للنشر والتوزيع - القاهرة - بيروت (د.ت).
- ❖ علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية: د. بدوي طبانة - المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٦٧ م.

❖ العين: تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي - دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨٢م.

❖ فاطمة الزهراء (ع) المرأة النموذجية في الإسلام: العلامة إبراهيم الأميني - ترجمة: علي جمال الحسينيّ - (د. م) ١٤١٠هـ.

❖ الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) - ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسيّ - دار الكتب العلمية - بيروت (د. ت).

❖ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) - الطبعة الثانية - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م.

❖ لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١ هـ) دار صادر - بيروت ١٩٥٦م.

❖ اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء: محمد علي بن آحمد التبريزي الأنصاري (ت ١٣١٠هـ): تحق: السيد هاشم الميلاني - دار فاطمة (ع) - الطبعة الأولى - مطبعة نكارش - قم ١٤٢٤ هـ.

❖ مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) - الطبعة الثامنة - مطبعة الأمير - قم ١٤٢٩ هـ.

❖ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة: ابن سيدة - تحقيق: مراد كامل - شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الثانية - مصر ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

❖ المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوريّ ١٣٤/٣ - رقم الحديث(٤٦٢٩) - دار الكتب العلمية - بيروت (د. ت).

❖ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضع: محمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الثانية - مطبعة نويد إسلام - قم ١٣٨٢ هـ.

❖ المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى واحمد حسن الزيات وآخرون - مجمع اللغة العربية - دار الدعوة - استانبول ١٤١٠ هـ/١٩٨٩م.

❖ المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) – تحق وضبط: محمد سيد كيلاني – دار المعرفة - بيروت (د. ت).

❖ المقاييس في اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) - تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو - الطبعة الثانية - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت ١٤٢٨ هـ/١٩٩٨م.



خطبة السيدة الزهراء (ع) في نساء المهاجرين والأنصار

(دراسة وتحقيق)

م. م زينب عبد الله كاظم الموسوي

تُعدّ خُطبة السيدة الزهراء (ع) في نساء المهاجرين والأنصار موسوعة واسعة، وفيها ظهرت مقدرتها الكبيرة، إذ نجد التنقّل الواضح من موضوع إلى آخر، من دون الإخلال بالنّص. وهي (ع) لا تخرج من البحث في موضوع حتّى تفيه حقّه، بقِلّةٍ من العبارات، وغزارة في المعاني، وهذا يدلّ على المقدرة البلاغيّة.

وفي هذا البحث درست بلاغة الخطبة، وبيّنت ما تعنيه مضامينها من خلال استقراء التأثيرات الدينيّة والسياسيّة والاجتماعية وانعكاسها عليها، وقد رجعت في ذلك إلى عدد من المصادر والمراجع وهي ـ على اختلافها وتنوّعها ـ أغنتني في تحقيق الخطبة وتوثيقها ثمّ تحليلها.

ومن الطبيعي أن تعترض البحث معوّقات، لعلّ في مقدّمتها توثيق الخطبة التي اختلف الرواة في نقلها، وتفرّقت على اختلاف ألفاظها في كتب الأدب والتأريخ، وقد قامت دراستي على ثلاثة مباحث سبقت بمقدّمة، وانتهت بخاتمة تبعها مُلحق توثيقي لنُص الخُطبة.

وبما انّ موضوع البحث مُتعلّق بنص خطبة السيدة الزهراء (ع)؛ لذا كان المبحث الأول عن بدراسة مضامين نص تلك الخُطبة بثلاثة محاور الدّيني، والسياسي، والاجتماعي.

. وأما المبحث الثاني فقد تضمن دراسة (لُغة نُص الخطبة) في ثلاثة محاور؛ الأوّل منها في الألفاظ، والثاني في التراكيب، في حين عني الثالث بدراسة أساليب بناء العبارة وأداء المعنى في الخُطبة.

ودرس المبحث الثالث البناء الفنّي لهذه الخُطبة في محاور ثلاثة أيضاً: ركّز الأوّل منها على بناء الخُطبة، وتناول الثاني بناء الصورة البيانيّة، وعُني الأخير بالبنية الإيقاعيّة لخُطبتها(ع).

وبعد ذلك خُتم البحث بجملة من النتائج، تبعها ملحق توثيقي.

المبحث الأول: مضامين الخطبة

في نص خطبة السيدة الزهراء (ع) تجلت لنا بعض المضامين الخطابيّة التي أوحت بها فِقْرات نُص هذه الخطبة، ممّا حدا بنا إلى أن نُفرِد دراسة خاصّة لكلٍّ منها ضمن هذا المبحث.

والإفراد في دراسة المضامين ما هو إلا لغرض الدّراسة، لأنّ النّص الفنّي لا يُخاطب جانباً مُعيّناً من دون آخر في نفس المتلقّي، وإنّما يُخاطب الكينونة بما فيها من عقلٍ وحسٍ ونفسٍ[١]، والفصل بين تلك المضامين يكشف عن خصائص النّص وقيمته الفنّية[٢].

ومضامين هذه الخطب (الدّينيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة).

أولاً: المضمون الديني

تنوّعت وجوه الأثر الديني في هذه الخُطبة، فكان للموضوعات العقيديّة والتشريعيّة حظٌ وافرٌ فيها، وكان ذلك نتيجة الرّغبة المُلحّة لدى الخطيبة في إشباع تلك الموضوعات وإظهارها على حقيقتها بطريقة أدبيّة تؤثّر في نفس المُتلقّي.

والسيدة الزهراء(ع) عمدت إلى استمداد تلك الموضوعات من القرآن الكريم: لما له من وقع في النفوس على مرّ العصور، وقد تنوّعت سُبُل التضمين الديني في نص تلك الخطبة، فجاءت بأشكال مُختلفة.

وقبل الخوض في تلك المضامين أودّ الإشارة إلى أنه قد يكون نصّاً أو معنىً أو إشارة إلى معنى، ومن أمثلته في هذه الخُطبة قولها وهي تَنصح وتُوجّه وتُنذر وتُشير إلى الخطر جرّاء ما يُحاكُ حول الإمام علي(ع) في قولها: (وَنَصَحَ لَهُم سِراً وإعْلاناً، وَلَمْ يَكُنْ يَتَحلّى مِنَ الغِنى بطائِل، وَلا يَحْظى مِنَ الدُّنيَا بِنائِل، غَيْرَ رَيِّ النّاهِل، وَشِبْعَةِ الكافِل، وَلَبانَ لَهُمُ الزّاهِدُ مِنَ الراغِب، والصادِقُ مِنَ الكاذِب، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[٤]، ألا هَلُمَّ فاسْتَمِع[٥]، إذ يتجلّى الموضوع الذي أرادت إظهاره بوضوح، وهي تعرض صفات الإمام علي (ع) وتمزج كلامها بكلام الباري عز وجل، لتُحقّق وحدة موضوعيّة ضمن سياق فنّي بين فِقْرات الخُطبة، وهذا إنّما يدلُّ على عُمق ثقافتها الإسلامية،

---

(١) ظ: الصورة الفنّية في القرآن الكريم: ٤٣٧.

(٢) ظ: الصورة الشعرية في النّقد العربي الحديث: ٥٤.

(٣) الأعراف/٩٦.

(٤) الزمر/٥١.

(٥) الاحتجاج: ٢٨٩/١.

واستيعابها لدلالات القرآن الكريم، وقدرتها على الاختيار الدّقيق لنصّين مختلفين، وجمعهما في فضاء دلالي واحد ضمن سياق موضوعي، وهذان النّصان بما يحملان من معانٍ مشتركةٍ لما أرادت عرضه من موضوع قد أسهما في تعزيز دلالة النّص الخطابي دلالة مركزية.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّ المضمون الديني عندها(ع) قد أُسنِدَ كلٌّ بالدعم القرآني، ولذلك اتّسق المضمون الديني في الخطبة مع حياة المجتمع الإسلامي.

ثانياً: المضمون السياسي

كان للموضوعات السياسيّة نصيب في هذه الخطبة، كونها لازمت تغييرات كبيرة على واقع السياسة بعد وفاة النّبي (ص)، وقد تفاعلت (ع) مع تطورات الساحة السياسيّة، لأنّ العصر كان مُزدحماً بالأحداث والتّطوّرات، حافلاً بتضارب الآراء والنّزعات، مليئاً بالاصطدام وكان آدبه زاخراً بصور ذلك كلّه[1]، لذلك جاءت هذه الخطبة مُمثّلة للواقع وعُمْق اتّصاله وارتباطه بوجدان المُتلقّين.

وتتجلّى المضامين السياسيّة بشكلٍ واضح في قولها(ع): (وَيْحَهُمْ أَنّى زَعْزَعُوهَا عَنْ رَوَاسِي الرسالة، وَقَوَاعِدِ النُّبوَّةِ والدَلالَة، وَمَهْبِطِ الرُوح الأَمِين، والطِبين بأُمورِ الدُّنيا والدِّين؟! ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]. وَمَا الّذي نَقِمُوا مِنْ أبي الحسَنِ؟! نَقِمُوا واللّهِ مِنْهُ نكيرَ سَيْفِهِ، [وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ لحتفِهِ]، وَشِدَّةَ وَطْأَتِه، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللّهِ. وتَاللّهِ لَوْ مَالُوا عَنِ المَحَجَّةِ اللايحَة، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الحُجَّةِ الواضِحَة، لَرَدَّهُم إِلَيْهَا، وَحَمَلَهُم عَلَيْهَا، وَلَسَارَ بِهِمْ سيْراً سُجُحاً، لا يَكْلَمُ خِشَاشُه، ولا يَكِلُّ سَائِرُه، ولا يَمَلُّ راكِبُه، ولأورَدَهُم مَنْهلاً نَمِيراً صافياً رويّاً، تطفحُ ضِفّتاه، وَلا يترَنّقُ جانباه، وَلأَصْدَرَهُمْ بطاناً وَنَصَحَ لَهُم سِرّاً وإعْلاناً)[3]، فهنا تدرّجت (ع) منطقيّاً في خطابها لتُعالج أعظم الأمور وآخطرها، ألا وهو أمر الإمامة، فأخذت تُظهر عجبها من الأمور وتصرّف الدّهور، وتستمر في سياق خطبتها لتكشف عن حلال مُرتقى الإمامة وشامخ مقام الإمام (ع) مُتّخذة من الوصف عُنواناً على الموصوف، ومن مواقفه الحكم للموضوع، فكيف وإلى أين نَحُوا الإمامة وأبعدوها عن مواطنها، ومن كلامها(ع) يظهر لنا أنّ أساس رأس الحكومة الإسلامية هم أهل البيت (ع)، وخلاف تسلمهم لها فإنّ الأمة الإسلامية ستكون في خلاف مستمر، والفرقة ستحدث بينهم بلا شكّ، وهي إنّما عمدت إلى الإشارة إليها بعد اغتصابها من صاحبها الشرعي، ولعلّ الأيام التي أعقبت كلامها أثبتت ذلك.

---

(١) ظ: الخطابة في عصر صدر الإسلام: ٢/٧٣.

(٢) الزمر/١٥.

(٣) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدّر: ٨ - ٩، الاحتجاج: ١/٢٨٧ - ٢٨٩.

وعلى هذا يمكن القول بأنّ خطبة السيدة الزهراء(ع) وثيقة تأريخيّة بكلّ ما حوته من مضامين سياسيّة دلّت على جوهر المواقف التي مرّ بها آل البيت (ع) بعد وفاة الرسول(ص).

ومن مضامينها تتجلّى روحيّة السيدة (ع) الهادفة إلى الإصلاح والإرشاد لا إلى السُلطة بما هي سُلطة، فقد كشفت (ع) في هذه الخطبة من خلال التعرّض لمسألة الخلافة (الإمامة) عن المهاد والمصير الذي ستؤول إليه البلاد الإسلامية إذا لم تنهض الأُمَّة لتصحيح المسار، وضبط زمام الأُمور لإصلاح الأمر وتوجيه الموقف، مُتّخذة سندها السياسي في أثناء خطابها(ع) من واقع آثار الفوضى التي حلّت بالمجتمع بعد وفاة الرسول (ص)، فكان من الطبيعي أن تعرض(ع) ما ضمّنته لخطبتها من موضوعات سياسيّة في سياق تلك الأنماط الخاضعة لآثار هذه الفوضى، ولذلك كانت تلك المضامين بمثابة إظهار لما في نفسها(ع) من رسم خطة، ووضع منهج في الأمور السياسيّة المُرتبطة بالرِّسالة المُحمّدية.

ثالثاً: المضمون الاجتماعي

استطاعت السيدة الزهراء (ع) في خُطبتها هذه أن تُغطّي مساحة من الموضوعات الاجتماعيّة عبر فِقْراتها المُتنوّعة، وبدت مضامينها رهناً بما كانت تمرُّ به (ع)، ولكنّها - في هذا الإطار - ظلّت مشوبة بالمطالب الاجتماعيّة وما يرتبط بها، ونتيجة ذلك بدا المؤثّر الإسلامي رافداً من روافدها، ممّا حدا بالبحث أن يصف بعض تلك المضامين الاجتماعيّة ضمن سياق اللّون الديني الصريح، وهذا ما يبدو من خلال عرض تلك المضامين التي تُعدُّ بمثابة المرآة العاكسة لواقع الحياة وطبيعة الفكر الإنساني السائد لما تضمّنته من قيم وعلاقات اجتماعيّة سائدة في المجتمع آنذاك، ومثال ذلك قولها(ع): (لَفَظْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ عَجَمْتُهُمْ، وَشَنَأْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سبَرتُهُم، فَقُبحاً لِفُلُولِ الحدِّ، واللّعبِ بَعْدَ الجدّ)[1]، فهنا توجّهت (ع) بخطابها إلى ذلك الجمْع لتُصرّح بأنّهم كالسيف المهشوم، لا بل كالقناة الهشّة الضّعيفة، حيث أنّهم يميلون إلى فساد الرأي ويتّبعون ما تسوّله لهم أنفسهم، لذلك فإنّ الله قد غضب عليهم، وسيخلدون حتماً في العذاب كونهم استجابوا للدُّنيا التي أوثقتهم بعرى حبالهم، وألبستهم عارها بعد أن أخضعتهم بغاراتها، فأضحوا من الظالمين، فحبس الله عنهم كُلّ خير، وسيُلبسهُم ثوب الخزي والعار[2]، لتركهم الحقّ واتّباعهم الباطل، وهي بذلك قدّمت صورة عن صفات ذلك المجتمع الذي أرادت (ع) استنهاضه لاستيعاب ما يُراد بالأمّة الإسلامية من تفكيك، وما يُدار حولها من مؤامرات، لتدميرها والقضاء على كلّ مقدّراتها.

---

(١) الاحتجاج: ٢٨٦/١ ـ ٢٨٧.

(٢) ظ: الأدب السياسي المُلتزم في الإسلام: ٩٠ ـ ٩١.

المبحث الثاني: أساليب أداء المعنى في الخطبة

أولاً: اللفظ وأثره في السياق

للألفاظ أهمية كبيرة من حيث كونها الأداة الأساس في التعبير، ولكن هذه الألفاظ إذا لم تخضع لمعايير فنيّة، فإنّها بلا شك ستفقد قيمتها، التي تتأتى من تشكيلتها الحسنة، ذلك أنّ (حُسْن الرَّصفِ أنْ تُوضَع الألفاظُ في مواضعها، وتمكن في أمَاكنها، ولا يستعملُ فيها التقديمُ والتأخيرُ، والحذف والزيادة إلا حَذفاً لا يُفْسِد الكلامَ، ولا يُعمّى المعنى، وتضم كلّ لفظة منها إلى شكلها)[1]، والسيدة الزهراء (ع) كانت حريصة على استعمال كلٍّ لفظة في مكانها، حتّى تحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، إذ وضعت (عليها السلام) اللّفظ في محلّه على وفق بنية التشكيل اللّفظي، وبما يتناسب مع موضوع الخُطبة، وحال المُخاطبين.

وبما أنّ القرآن الكريم يُعدّ المصدر الأساس لانتقاء الألفاظ ذات الإيحاء الدلالي والمعنى الرّاقي، فقد سعت (ع) إلى الاستفادة منه حتى تشدّ المُتلقّي وتلفتَ انتباهَه، حتى أثرت من خلاله على المتلقّين، وكان هذا التأثُّر بالألفاظ أكثر عُمقاً، وأوقعَ دِلالة، ولذلك نلحَظُ اقتباسها للألفاظ القُرآنيّة التي منحت الخطبة بعض سمات النص القرآني المتمثّلة بانتقاء المفردة الموحية[2]، ومن ذلك قولها (ع) الذي ضمّنته ألفاظاً قُرآنيّة لغرض المُحاجة: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[4]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[5] [6]، فهنا اقتبست (ع) قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[7]، لتوظّف ما جاء فيه من ألفاظ لمحاججة المتلقين، وهذا يدُلُّ على سعة ثقافتها القرآنيّة، إذ تُوفّقُ في اقتباس الألفاظ وتستثمرها لصالح القضيّة التي تخطب من أجلها، ويظهر من هذا الانتقاء للفظ القرآني قوّة الخطيبة وقُدرتها على استجماع المفردات القرآنية الدّالّة على ما ترمي إليه (ع) من وراء مُخاطبتها لنساء المهاجرين والأنصار، لما تحمله من دلالات لفظيّة استنكاريّة.

---

(١) م ن: ٤٤.

(٢) ظ: التصوير الفني في خُطب الإمام علي (ع) (رسالة ماجستير): ٨٣.

(٣) الكهف/١٠٤.

(٤) البقرة/١٢.

(٥) يونس/٣٥.

(٦) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدُر: ٩، الاحتجاج: ١/٢٩٠.

(٧) يونس/٣٥.

ثانياً: التراكيب

عادة الخطيب السعي إلى جعل الألفاظ في وحدة متراصّة: ذلك لأنّ (حُسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف وَرَدَاءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية، فإذا كان المغني سبيّاً، ورصف الكلام رَدِيّاً، لم يُوجَد له قبولٌ، ولم تظهر عليه طلاوة، وإذا كان المعنى وسطاً، ورصف الكلام جيداً كان أحسن موقعاً، وأطيَبَ مستَمِعاً..)[1]، إذن التركيب ليس وضع الألفاظ أو المفردات الواحدة جنب الأخرى: بل يجب أن يكون ترتيب المفردات ترتيباً يُؤدي ما هو منشود.

وما يهمُّنا بحثه هنا هو التراكيب في نص خطبة السيدة الزهراء(ع): ولبيان ذلك نورد أمثلة نتعرف من خلالها على قوّة التراكيب واستوائها، تقول(ع): (وَيْحَهُمْ أنّى زَعْزَعُوهَا عَنْ رَوَاسِي الرِّسالة، وَقَوَاعِدِ النُّبوَّةِ والدَلالَة، وَمَهْبَطِ الرُوح الأَمِين، والطِبِينِ بأُمورِ الدُّنيا والدِّين؟! ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]. وَمَا الّذي نَقِمُوا مِنْ أبي الحَسَنِ؟! نَقِمُوا واللهِ مِنْهُ نَكِيرَ سَيْفِهِ، [وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ لحتفِهِ]، وَشِدَّةَ وَطْأَتِه، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللهِ وتاللهِ لَوْ مَالُوا عَنِ المَحَجَّةِ اللائِحَة، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الحُجَّةِ الواضِحَة، لَرَدَّهُم إِلَيْهَا، وَحَمَلَهُم عَلَيْهَا، وَلَسَارَ بِهِمْ سَيْراً سُجُحاً، لا يَكْلَمُ خِشَاشُه، ولا يَكِلُّ سَائِرُه، ولا يَمَلُّ راكِبُه، ولأورَدَهُم مَنْهلاً نَمِيراً صافياً رويّاً، تطفحُ ضِفّتاه[3]، في هذا النص من الخطبة نلحظ جودة التركيب، وإلى جانب الجودة نلمس العناية بالأساليب الإنشائيّة والخبريّة داخل وحدة النّصّ، ممّا أكسبه متانة في التأليف، وطلاوة في النسج، وتتجلّى جمالية التركيب لنا بصورة أدقّ في نص هذه الخطبة من خلال:

الفَصْل والوَصْل:

هُما من فنون البلاغة التي تُحدد محاسن الكلام، وتفصح عن حظّ المُتكلّم من المعرفة بذوق الكلام. وذلك لدِقّة مسلكهما. وعظيم خطرهما. وعلى ذلك فهما البلاغة بحدِّها.

وقد ذكر الجرجاني (ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) قائلاً: (اعلم أنَّ العلم بما ينبغي أن يضع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة وبما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلّص وإلا أقوام طبعوا على البلاغة وأتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام هم به أفراد، وقد بلغ من قوّة

(١) كتاب الصناعتين: ١٦٧.

(٢) الزمر/١٥.

(٣) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠، نثرُ الدُّرَ: ٨ـ ٩.

الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة... ذاك لغموضِهِ ودِقّة مسلكه وأنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة)[1].

ونظراً لما تُضفيه مواضع الفَصْل والوَصْل من جمال ودِقّة في البلاغة فضلاً عن فهم وحنكة في إدراك الأديب ورصانة نتاجه، فإنّنا نُلاحظ وجوده في خطبة السيدة الزهراء(ع)، إذ جاءت الفواصل مُتّسقة ومُختلفة في مواضعها والدواعي الخارجة لها، فضلاً عن الدِقّة الواضحة في شبه كمال الاتصال بحسب ما يقتضيه المقام ويفهمه المتلقي.

وأمثلتهما في الخطبة عدّة على سبيل المثال من موارد الفَصْل ما جاء في قولها(ع): (لأورَدَهُم مَنْهلاً نَمِيراً صافياً رويّاً، تطفحُ ضِفّتاه)[2]، وهي(ع) إنّما تركت العطف بالواو لأنّ العطف إنّما يكون للجمع بين الشيئين والربط بينهما، وذلك لا يكون في المعنيين إذا كان بينهما غاية التباين، ثُمَّ إنَّ كُلَّ صفة كانت بمعنى الصِّفة التي قبلها أو بمنزلة الجزء منها، ولذلك اقتضى المقام ترك العطف كون الشيء لا يُعطف على نفسه، والجُزء لا يُعطف على الكل.

وكما أنّ مواضع الفصل قد سمت وجاءت مناسبة للخطبة، كذلك تناسقت مواضع الوصل فيها، وهي من الوفرة ومنها على سبيل المثال ما ورد في قولها: (وَشَنَأْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سَبَرْتُهُم، فَقُبحاً لِفُلُولِ الحدِّ، [واللّعبِ بَعْدَ الجدّ، وَقَرْعِ الصفاة]، وَصَدْعِ القناة، وَخَتَلِ الآراء، وَزَلَلِ الأهواء، وَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ)[3]، فهنا جمعت (ع) وربطت بين الجُمل لصلة بينهما في الصورة والمعنى ولأن المعاني التي ذكرتها كلها قبيحة فقد جمعته بواو العطف ليكون أكثر قبحاً.

وتسترسل (ع) في الوصل لغرض الإيضاح وبيان المُراد، فتأتي بالجُمَل مُتّحدة في الإنشاء، ومُتناسبة في المعنى، وشاهد ذلك قولها: (نكيرَ سَيْفِهِ، [وَقِلّةَ مُبَالاتِهِ لحتفِهِ]، وَشِدَّةَ وَطْأَتِه، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللهِ. وتاللهِ لَوْ مَالُوا عَن المَحَجَّةِ اللايحَة، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الحُجّةِ الواضِحَة، لرَدّهُم إِليْهَا، وَحَمَلَهُم عَلَيْهَا، ولَسارَ بهِمْ سيْراً سُجُحاً، لا يَكْلَمُ خِشَاشُه، ولا يَكِلُّ سَائِرُه، ولا يَمَلُّ راكِبُه)[4]، نُلاحظ في هذه الخُطبة أنَّ الخطيبة (ع) عطفت جُملة على أخرى، ووصلت بين كلِّ جُملتين اتحدتا وتناسبتا في المعنى، فلم يكن هناك ما يقتضي الفصل بينهما.

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٥٤.

(٢) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدُر: ٨ ـ ٩، الاحتجاج: ٢٨٩/١.

(٣) المصدر السابق: ٢٨٦/١ ـ ٢٨٧.

(٤) دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدُر: ٨.

ثالثاً: أساليب بناء العبارة في الخطبة

تُعدّ الخطابة من أرقى الفنون النثريّة التي ترتكز في قوّة تأثيرها وجذب الأذهان لها على ما يَستعمله الخطيب من أساليب تربط مفرداتها بعضها ببعض، لتنسج منها عبارات ذات نسق مُتسلسل في وحدة عضويّة فنّية، وإلى جانب هذا النّسق المُتسلسل في العبارات لابُدّ للخطيب أيضاً من التنويع في استعمال الأساليب التي تُبنى منها الجُمل.

ومن أجل الوقوف على أسرار بلاغة السيدة الزهراء(ع) وفصاحتها فإني سأتناول طُرُق أداء المعنى من خلال دراسة الأساليب التي اعتمدتها(ع) في بناء جُمل نص الخطبة، والتي ارتكزت على أُسلوب الإنشاء، ولكنّها مع هذا لم تخلُ من أساليب إلقاء الخبر، إذ كانت(ع) تعمد إلى أساليب متُعدّدة لإلقاء الخبر للمُخاطبين من أجل الإفصاح والإظهار لهم، وما كان يُميّز الإلقاء في خُطبتها(ع) هو معرفتها(ع) بما يتناسب ومقتضى الحال، لذا تميز هذا الإلقاء بأنّه كان على قدر الحاجة ولم يكن عبثاً، ولذلك اختلفت السُبُل باختلاف أحوال المُخاطبين، ففي خُطبتها(ع) نلحظ تُعدّد طُرُق إلقائها للخبر، ومثال ذلك قولها (ع): (استبدَلوا واللهِ الذُّنابي بالقوادِم)[1]، فهنا ألقت الخبر للمتلقين الذين كانوا منكرين ومعتقدين بخلافه، لذلك جاءت بمؤكد (القسم)، فكان الخبر إنكارياً لإنكارهم، ولم تكتف بهذا المؤكّد: بل أكدت أيضاً بالإثبات لأنّها أرادت تأكيد الحكم، فجاءت بالجُملة الفعليّة(استبدلوا) لمجرد الإخبار، فضلاً عن إفادة المُخاطب الحكم الذي تضمنه الكلام، وقد أفادت الجُملة الإخبارية عموماً الاستمرارية والتّجدُّد إذا ما بقوا على حالهم في خُذلانهم لأمير المؤمنين(ع)، وكانت طريقة إلقائها تنمُّ عن عُمق بلاغتها، فقد كشفت بأنّ المُخاطب كان منكراً لحكم الخبر: (وفي هذه الحال يجب أن يؤكد الخبر بمؤكد أو أكثر، بحسب درجة إنكاره من جهة القوّة والضّعف، ويسمى هذا الضرب من الخبر - إنكارياً -)[2].

وفي مقطع آخر نلحظ أنّها ألقت الخبر وقد أتت بأكثر من مؤكّد في قولها: (أمَا لعَمْري لقد لقِحَت فنَظِرَةً ريثَمَا تُنتِج)[3]، فنُلاحظ وجود المؤكدات وهي: (حرف الاستفتاح - أما - الواردة قبل القسم، القسم، قد) المتُعدّدة ذلك لأنّ المُخاطب أنكر الخبر الذي أرادت إلقاءه، وهي إنّما أتت بأكثر من مؤكد لقوّة إنكار المُتلقي وشدّته، فجاءت بقولها على مُقتضى ظاهر الحال، وهنا (ع) قد أنزلت المُخاطب العالم بفائدة الخبر ولازمُهُ منزلة الجاهل بذلك لعدم التزامه وعمله على مُوجب ما يُعلم به، لذلك ألقت الخبر كما يُلقى إلى الجاهل به

---

(١) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدُر: ٩، الإحتجاج: ١/ ٢٩٠.

(٢) علم المعاني: ٥٦.

(٣) بلاغات النساء: ٢٠، نثرُ الدُّرّ: ٩، الاحتجاج: ١/ ٢٩٠.

توبيخاً للمُخاطب على عدم عمله بمُقتضى علمه، وهذا الدّاعي هو الذي جعل الخطيبة تأتي بكلام مخصوص، كون الأمر الداعي ثابت في الواقع.

وهكذا تستمرّ (ع) في إلقاء الخبر بأساليب وطُرق متنوعة لأغراض بلاغيّة تتناسب وطبيعة الموضوع، لكنّنا مع هذا نجد أنّ الإنشاء هو الغالب على نُص الخطبة، حتّى أنّه عُدَّ ظاهرة أُسلوبيّة في نُص هذه الخطبة، وأعتقد أنّ سبب ذلك هو مُلائمةُ هذه الأساليب لموضوع الخطبة التي تطلّبت أن يكون الإنشاء الطلبي هو الغالب، ونظراً لكثرة توافر أُسلوب الإنشاء الطلبي فإنّنا سنقف عند أكثرها وجوداً في هذا النُص لإبراز مكامن البلاغة فيه.

أولاً: أسلوب الأمر

يُعدّ أُسلوب الأمر من أساليب الإنشاء الطلبي[1]، وهو (طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويقصد بالاستعلاء أن ينظر الآمر لنفسه على أنّه أعلى منزلة ممّن يُخاطبه أو يوجه الأمر إليه، سواء أكان أعلى منزلة منه في الواقع أم لا)[2].

وللأمر أربع صيغ[3] هي: فعل الأمر، والمضارع المجزوم بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر، وقد تخرج هذه الصيغ عن معناها الأصلي وهو (الإيجاب والإلزام) إلى معانٍ أخرى تُستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال، كالدُّعاء والالتماس والتهديد والتعجب والتأديب والتقريع.

وهذه الصيغ نجدها في نص الخطبة، والملاحظ أنّها وردت بشكل متنوع، إذ لم تعتمد الخطيبة(ع) على فعل الأمر أو لامه فحسب، بل تُعدّى أُسلوبها(ع) إلى استعمال اسم فعل الأمر، وذلك لاقتضاء الحاجة وتطلُّب المقام.

ومن ذلك قولها(ع): (ألا هَلُمَّ فاسْتَمِع)[4]، فقد استخدمت اسم الفعل (هَلُمّ) الذي هو بمعنى (أقْبِل)، ثُمّ تبعته بفعل آخر، وبين الفعلين جاءت بـ(الفاء) وهي رابطة لجواب الطلب، فضلاً عن إفادتها في تقوية المعنى وتوكيده، وملائمتها لجو الخُطبة التي جاءت في ظروفٍ عصيبةٍ تمرُّ بها السيّدة الزهراء (ع).

وفي مقطع آخر تُوظّف صيغ الأمر لأغراض بلاغيّة منها السُّخرية والتهكُّم، كما في قولها: (ثُمّ طِيبُوا عن دُنياكُم أنفساً، واطمئِنُّوا للفتنةِ جَأْشاً، وَأَبْشِروا بسيْفٍ صَارمٍ)[5]،

---

(١) الطلب: (من غير تصور إجمالاً أو تفصيلاً لا يصح وأنّه يستدعي مطلوباً لا محالة ويستدعي فيما هو مطلوبه أن لا يكون حاصلاً وقت الطلب) والطلب نوعان: نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول - ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول: ينظر: مفتاح العلوم: ٥٢٣.

(٢) علم المعاني: ٨١.

(٣) ظ: جواهر البلاغة: ٧٨-٧٩.

(٤) نثرُ الدُرّ: ٩، الاحتجاج: ٢٨٩/١.

(٥) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤١، نثر الدر: ٩، الاحتجاج: ٢٩١/١.

فـ(طيبوا، اطمئنوا، أبشروا) إنّما هي صيغ أمر تُوحي بالسعادة والطمأنينة واللّين والبشارة، ولكن الخطيبة (ع) منحتها معنىً مُغايراً، ونقلتها من السعادة إلى الشقاء، وهذا ما أضاف للخُطبة سمواً من حيث تأثرها بأُسلوب القرآن الكريم، فضلاً عن أنّه أُسلوب أدّى إلى تطوّر دلالة اللّفظة العربيّة، من خلال تنقلها في أثناء الخطاب من الإخبار إلى الإنشاء، ومن الغائب إلى المُخاطب، فهي تُحدِّث نساء المهاجرين والأنصار وانتقلت إلى القوم وكأنّهم يسمعونها، وممّا يُلاحظ أيضاً أنّها تميل على الالتفات وحُسن التصرف، حتّى عُدّ ذلك من أُسلوب خطابها، من حيث تعمدها على نقل الخطاب إلى المتكلّم مباشر.

ثانياً: أسلوب القسم

القسم لغةً: (اليمين، والجمع أقسام، وأقسمت: حلفت، وأصله من القسامة، والقسامة: الذين يحلفون على حقّهم ويأخذون)[1].

وفي الاصطلاح: (أن يحلف على شيء بما فيه فخراً أو مدحاً، أو تعظيماً، أو تغزلاً، أو زهواً أو غير ذلك ممّا يكون فيه رشاقة في الكلام وتحسين له)[2].

ونُلاحظ أنّه ورد في هذه الخُطبة وقد زادها حُسناً، ومثاله قولها: (أَصْبَحْتُ واللّهِ عائِفةً لدُنياكُنَّ، قَالِيَةً لِرِجَالِكُنَّ، لَفَظْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ عَجَمتُهُمْ، وَشَنَأتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سَبَرتُهُم، فَقُبحاً لِفُلُولِ الحدِّ... وَمَا الّذي نَقِمُوا مِنْ أبي الحَسَنِ؟! نَقِمُوا واللّهِ مِنْهُ نكيرَ سَيْفِهِ، [وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ لحتفِهِ]، وَشدَّةَ وَطْأَتِه، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللّهِ، وتاللّهِ لَوْ مَالُوا عَنِ المَحَجَّةِ اللايحَة، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الحُجَّةِ الواضِحَة، لَرَدَّهُم إلَيْهَا، وَحَمَلَهُم عَلَيْهَا، وَلَسَارَ بِهِمْ سَيْراً سُجُحَاً... استبدَلوا وَاللّهِ الذُّنابي بالقوادِم)[3]، ففي هذه الخُطبة وفي أكثر من مقطع منها عمدت (ع) إلى استعمال أُسلوب القسم، وممّا يُلاحظ اقتران لفظ الجلالة (اللّه) بالواو العاطفة، والقسم بهذه الصيغة (اقتران الواو بلفظ الجلالة) إنّما يَزيدُ ويؤكد اليمين رسوخاً في الأذهان، وتتفنن (ع) بإيراد أُسلوب القسم في هذه الخطبة بأكثر من صيغة، فتارة يرد صريحاً بقولها (لا جرم واللّه)، وأخرى (أما لعمر اللّه) وفي قولها (وتاللّهِ لَوْ مَالُوا عَنِ المَحَجَّةِ اللايحَة) قسم صريح، وهذا التعدّد بصيغ القسم إنما يدلُّ على براعتها الأدبيّة ومقدرتها البلاغيّة، ذلك أن القسم من (وسائل توكيد القول إذا أُريد العزم أو الإصرار على أمرٍ مِنَ الأمور)[4].

---

(١) لسان العرب: مادة (قسم) ٤٧٨/١٢.

(٢) الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٥٣/٣.

(٣) دلائل الإمامة: ٤٠ - ٤١، الاحتجاج: ٢٨٦/١ - ٢٩٠.

(٤) أساليب القسم في اللّغة العربيّة: ١٥.

ثالثاً: أسلوب الدُّعاء

الدُّعاء من الأساليب التي يوظفها الخطيب في نُصوصه ليُعبِّر بها عن رضاه أو عدمه، والتي لا يَكاد يبتَعِدّ عنها لما يُحققه الدعاء من أغراض، ومعظم هذه الأغراض تعبر عن الرِّضا أو السّخط.

ونجد عبارات الدعاء تتكرر في خُطبتها(ع) ومن أمثلته قولها: (فَجَدْعاً وَعَقْراً، وَبُعْداً للْقَوْمِ الظّالِمِيْن)[١]، فهنا تدعو على القوم والسخط بادٍ عليها من سياق الدعاء، والمعنى: (جَدَعهم الله جدعاً، والجدع: قطع الأنف والأُذُن والشفة، قطّعهم الله آنافهم قطعاً، وعقرهم عُقْراً أي جرحهم جُرْحَاً وقتلهم قتلاً وأهلكهم إهلاكاً وأبعدهم الله من رحمته بُعُداً)[٢]، وبجُملة إنشائية ودُعائية تقول لهم: (فَقُبحَاً لِفُلُولِ الحدِّ)[٣]، فَقُبحاً مصدر لفعل محذوف نحو سُقياً، وهو دعاء بالشَّر، وهكذا تُكرِّر الخطيبة الدعاء بأكثر من صيغة[٤].

رابعاً: الإيجاز والإطناب والمُساواة

ممّا لا شكّ فيه أنّ البليغ إذا ما أراد التعبير لا يَعدو طُرُقاً ثلاث، فإمّا أن يُوجز أو يُسهب أو يُوازن ليُساوي بين اللّفظ والمعنى على وفق ما يقتضيه الحال أو الواقعة التي يتكلّم بصددها، فضلاً عمّا يقتضيه حال المُخاطب، وهذه الطُرُق (الإيجاز والإطناب والمساواة) هي من علم المعاني، ويُمكن الحديث عنها مُجتمعة إلا أنّ البدء بالمساواة أفضل من حيث جعلها الأصل للإيجاز والإطناب.

أ ـ المساواة:

هي: (تأدية أصل المُراد بلفظٍ مساوٍ له أو ناقص عنه وافٍ أو زائدٍ عليه لفائدة، والمُراد بالمساواة أن يكون اللّفظ بمقدار أصل المراد، لا ناقصاً عنه بحذفٍ أو غيره، ولا زائداً عليه بنحو تكرير أو تتميم أو اعتراض، وقولنا وافٍ احترازٌ عن الإخلال وهو أن يكون اللّفظ قاصراً على أداء المعنى)[٥].

والمساواة من أرقى المستويات التي لا يرتقيها إلا الأفذاذ من البُلغاء، لصعوبة المُرتقى، وجَلال المَقصد، وقليل من الخُطباء من سمت خُطَبُه بهذا اللّون البلاغي، ومن هذه الخُطب

---

(١) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠.

(٢) حياة الزهراء(ع) بعد أبيها الرسول (ص): ٣٠١.

(٣) دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدُر: ٨.

(٤) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠ ـ ٤١ (فرُغماً وتَعْساً) دعاء عليهم وهما مصدران لفعل محذوف، أي: فرغمهم الله رغماً، وتعسهم الله تعساً ـ أي هلاكاً، وقولها: (ويحهم أفمن يهدي للحق...) أيضاً دعاء (فويح) دعاء تقال لكل من وقع في بلية يُرْحَمُ ويُدْعى له بالتخلص منها، لسان العرب: مادة (ويح) ٢/ ٦٣٨.

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٧٠.

خُطبة السيدة الزهراء) (ع) أمام نساء المهاجرين والأنصار، إذ أتت الألفاظ على قَدْرِ المعاني بقولها: (وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَلَّى مِنَ الغِنى بطَائِل، وَلا يَحْظَى مِنَ الدُّنيَا بِنائِل، غَيْرَ رَيِّ النَّاهِل، وَشِبْعَةِ الكَافِل)[1]، لو تأملنا هذا المقطع للاحظنا أنَّ الألفاظ فيه بقدر المعاني، بحيث لو حاولنا أن نزيد لفظاً لكانت الزيادة غير مفيدة، ولو أسقطنا لفظاً لكان ذلك إخلالاً بالمعنى، وفي مقطع آخر تقول: (وَيَعْرِفُ التالُونَ غِبَّ ما أَسَّسَ الأوّلون)[2]، فالألفاظ هُنا مُساوية للمعاني، وَمَعَ هذا فالخطيبة(ع) جاءت باللّفظ مُساوياً للمعنى مع الاختصار، إذ تحرّت بتعبيرها في تأدية معنى أوجز ما كان من ألفاظ قليلة الأحرف، كثيرة المعاني.

ب ـ الإيجاز والإطناب:

كلُّ بليغ ـ بحسب مُقتضيات الأحوال ـ يسلك في أداء معانيه بعد المساواة إمّا طريق الإيجاز أو طريق الإطناب، ويدور كلّ منهما على معنىً معين، ففي الإطناب يتم التعبير على قدر المعنى، وفي الإيجاز اختزال التعبير على قدر كثيرٍ من المعاني.

وقد أشار السكاكي (ت ٦٢٦هـ) إلى هذا المعنى بقوله: (الإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم)[3]، وأغلب القُدامى ذهبوا في تعريفاتهم للإيجاز والإطناب المذهب نفسه[4].

وفي صدد دراستي لهذه الخطبة وجدت الإيجاز من الفنون البلاغيّة التي سمت بوضوح في ألفاظ الخطبة، في حين لم يكن نصيب للإطناب فيها: ذلك أنّ الخطيبة(ع) لم تشعر بمناسبة المقام إليه، ولعدم مناسبته لحال المخاطبات من النساء، بخلاف الإيجاز الذي عمدت إليه ومن أمثلته قولها(ع): (فَنَظِرَةٌ رِيثَمّا تُنتج)[5]، فهنا إيجاز قصر، إذ إنَّ الخطيبة ضمنت معانٍ كثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف، فالمعنى هنا كثير واللّفظ يسير.

وفي مورد من هذه الخُطبة تجمع الخطيبة بين قسمي الإيجاز (الحذف والقصر) بقولها: (ألا فَاسْمَعْنْ، وَمَنْ عَاشَ أَرَاهُ الدَّهْرُ العَجَبَ)[6]، ففي الأوّل إيجاز حذف، فقد أتت بالفعل وفاعله ضمير محذوف، ولم تزد عليه شيئاً للاختصار وتسهيل الحفظ، وفي المقطع الثاني إيجاز قصر، فالمعنى كثير والخطيبة اختصرته لتقريب الفهم حتّى غدا قولها (وما عشت أراك الدهر عجباً) مثلاً.

---

(١) الاحتجاج: ٢٨٩/١.

(٢) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤١، نثر الدُر: ٩.

(٣) مفتاح العلوم: ٤٩٣.

(٤) ظ: المثل السائر: ٢٦٥/٢، ٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) بلاغات النساء: ٢٠، نثر الدُر: ٩، الاحتجاج: ٢٩٠/١.

(٦) دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدّر: ٩.

المبحث الثالث: البناء الفني للخطبة

أولاً: بناء الخطبة

تَتَكَوَّنُ الخُطبة من أجزاء ثلاثة، هي المقدّمة والموضوع والخاتمة، ولكل جزء من هذه الأجزاء أهمّيته وأثره في بناء هيكليّة الخطبة وإنجاح هدفها، وهي:

١ ـ المقدّمة:

هي (من الخطبة كالمطلع من القصيدة، وكالإيقاع في الموسيقى، كلٌّ منها يُمَهِّدُ لما بعده، ويُعِدّ السامعين إلى الإصغاء)[1]، و(الغرض منها تنبيه السامعين إلى موضوع الخطبة، وترغيبهم في الاستماع وإعداد أذهانهم للاقتناع)[2]، وهي ضرورية ولا يمكن للخطيب الاستغناء عنها، وإذا ما تركها الخطيب ودخل إلى الموضوع مباشرة فإنّه إما نتيجة عامل نفسي أو عوامل أخرى يستوجبها المقام[3]، ومقدّمة خطبتها(ع) عنواناً موفّقاً لمضمونها الذي اندرج بين فِقْرَات الخطبة، فهي (ع) قد خرجت من البناء الفنّي المألوف لمقدّمة الخطبة، ومردّ ذلك يعود إلى المناسبة التي ألقت فيها الخطبة، فقد كانت استطراداً لحديث، وجواباً لسؤال، أجابت عليه إذ قالت(ع): (أصبَحْتُ والله عائفةً لدُنياكُنّ، قالية لرجالِكُنّ، شنأتُهُمْ بعد أنْ عَرَفْتُهُم، ولفظتُهُم بعد أن سَبَرْتُهُم، ورَمَيْتُهُم بعد أنْ عجمتُهُم، فَقُبْحَاً لِفُلولِ الحد)[4].

وهذه المقدّمة وإن كانت جواباً لسؤال إلا أنّ السيدة الزهراء(ع) استطاعت أن تخرج به من نمطيّة الجواب إلى نص أدبي يتوافر على كلّ سمات الخُطبة المؤثّرة القويّة وشروطها، فجعلت ومن خلال أسلوب الحكيم[5] المعروف في البلاغة العربية انتقالاً ناجحاً جدّاً من جواب معتادٍ على مثل سؤالهنّ إلى انطلاقٍ واعٍ بخطبةٍ ناجحةٍ، حيثُ بدأتها بجوابٍ حادٍّ، كونها (ع) كانت ناقمة على ما أصاب رجال الأمّة من تراجع عن الأهداف الكبرى التي أرسى قواعدها أبوها الرسول محمّد (ص)، ولما صدر عن خصومها، فأرادت أن تُظهر مدى معاناته بسبب ظُلامتها أولاً، وانقلابهم على الأعقاب ثانياً، ولكن السبب الثاني كان هو الأقوى أثراً في نفسها، فأخذت بتقريعهم، وتدرّجت بعد ذلك لكشف الحقائق، حتى إذا ما بلغت غايتها صمتت، ولذلك تجاوزت المقدّمة وجاءت بالقسم لتؤكّد فداحة الأمر الذي آل القوم إليه.

---

(١) فن الخطابة: ١٢٠.

(٢) الخطابة في صدر الإسلام: ٢٢/١.

(٣) ظ: علم الخطابة: ٢٥ ـ ٣٦.

(٤) دلائل الإمامة: ٤٠ ـ ٤١، الاحتجاج: ٢٨٦ـ ٢٨٧.

(٥) أُسلوب الحكيم: هو تلقّي المخاطب بغير ما يترقّبه، ظ: جواهر البلاغة: ٢٨٨.

٢ـ العرض (موضوع الخطبة):

يعدّ موضوع الخطبة أهمّ ما فيها، لذا لا يُمكن الاستغناء عنه، فالخطيب قد يترك المقدّمة ويستغني عن الخاتمة، لكنّه لا يُمكن أن يترك العرض لأنّه جوهر الخطبة والداعي إليها، وعلى هذا فهو (في حقيقته الخطبة نفسها)[١]، وعليه يجب (أن يكون من الوضوح بحيث لا يفوت على السامعين مزيّة الفهم ولذّة التتبّع، ولا يسئمهم بالتعقيد والغموض، وأن يكون مؤدياً إلى النتيجة المطلوبة)[٢]، وهذا ما نُلاحظه في خطبتها(ع): (وَيْحَهُمْ أَنَّى زَعْزَعُوهَا عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالة، وَقَوَاعِدِ النُّبوَّةِ والدَلالَة، وَمَهْبطِ الرُوحِ الأَمين، والطِبين بأُمورِ الدُّنيا والدِّين؟! ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[٣]. وما الّذي نَقِمُوا مِنْ أبي الحَسَنِ؟! نَقِمُوا واللهِ مِنْهُ نكيرَ سَيْفِهِ، [وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ لحتفِهِ]، وَشِدَّةَ وَطْأتهِ، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللّهِ)[٤]، فعرض الخطبة جاء موزّعاً على فِقْرَات عدّة، تضمّ اللّوم والتقريع وكشف الحقائق، لكنّها(ع) طوتها جميعاً في وحدة موضوعية مُتسلسلة، وهذا يُفصح عن سمةٍ راقيةٍ يتمثل بها أدبها(ع)، فهي لم تعنَ بالعبارات ذات الطابع المترسل لتعرضها كموضوعات مُتنافرة في الخطبة، بل وظفت هذه العبارات لتكوّن وحدة موضوعيّة نموذجية، ولهذا اتّسمت خطبتها بعرضها المتسلسل المنتظم.

٣ ـ الخاتمة:

لا بُدّ من أن تكون الخاتمة منسجمة مع ما سبقها من مقدّمة وموضوع، كونها(آخر ما يبقى في آذان السامعين وأذهانهم من الخطبة، وبعدها يجني الخطيب الثمرة المرتجاة...)[٥]، وتختلف الخواتيم باختلاف المقام معتمدة في ذلك على براعة الخطيب، والسيدة الزهراء(ع) في خطبتها هذه تختتم بإشارة إلى نصٍّ قرآني، بقولها: (فيَا حسرةً لَكُمْ! وَأنّى بِكُم، وَقَدْ عُمِيَتْ عَلَيكُمْ، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُم لَهَا كَارِهُون)[٦]، وهذا النوع من الخواتيم قد ورد على وفق طابع مترسّل خلافاً لما ورد في خطبتها من فِقْرات متسلسلة، ومع ذلك فإنّها جاءت متّسقة ومتناسبة مع المضمون، وهذا (يُفصح عن سمة.... وهي: أنّ المعصومين (ع) لا يعنون بالأداة الفنية بما هي مجرد أداة، بل يُوظّفونها من أجل الموضوع، ممّا يجعل لنتاجهم طبيعته الخاصّة المُتفرّدة بالنحو الذي لحظناه)[٧] في خطبتها (ع).

---

(١) الخطب والمواعظ: ٤٢.

(٢) الخطابة في عصر صدر الإسلام: ٢٦/١.

(٣) الزمر/١٥.

(٤) دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدُر: ٨.

(٥) ظ: فن الخطابة: ١٤٣.

(٦) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤١، نثر الدُر: ٩.

(٧) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: ٢٦٢.

ثانياً: بناء الصورة البيانية

الصورة هي نتاج الفكر العامر بالخيال، ومادّتها هي اللّغة التي يمتلكها المبدع الأدبي، وأمّا مقوّماتها فتعتمد على موهبة الراسم أو المُصوّر للحادثة أو الموقف، وعلى هذا الأساس سنتناول مكوناتها في نص الخطبة من دون أن نبحث تعريفاتها، كونها درست دراسات عديدة[1]، وفي دراستنا هذه سنتوقف عند مكوناتها في نص الخطبة، من خلال:

١ ـ الاستعارة:

لمّا كانت الصورة القائمة على الكناية هي أكثر صور البيان حضوراً في الخطبة، كان من المهم البدء بها والتوقف عندها؛ لتكون الدِّراسة دقيقة في تأشير مواطن الجمال في تلك الخطبة التي زخرت بكثير من الصور القائمة على الكنايات المعبّرة، ممّا أضفى على الخطبة بهاءً، ذلك لأنّ الكناية بابٌ من أبواب علم البيان، ومعناها في اللّغة: (أن تتكلم بشيء وتريد غيره)[2]، وفي الاصطلاح وضّحها الجرجاني (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ) بقوله: (أن يُريد المتكلّم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللّفظ الموضوع له في اللّغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه)[3]، وللكناية أثر كبير في إظهار مواطن جمال الكلام، وفي خطبة السيدة الزهراء(ع) تشدّنا كنايات مُعبّرة وجميلة، فلِكَي تُثيرَ النّدم في نفوس القوم، ولتُظْهِرَ لهم ما أضاعوه بأنفسهم، ترسم لهم صورة فنيّة، بقولها: (لأورَدَهُم مَنْهلاً نَميراً صافياً رويّاً، تطفحُ ضِفّتاه)[4]، فَهُنا أرادت التعبير عن تركهم لخلافة أمير المؤمنين (ع)، وعدم اتّباعهم لوصيّة رسول الله (ص) في إمامته، ولو أنّهم اتّبعوه لطاب لهم العيش، وهنا يكمن جمال الكناية فعن رغد الحياة (كنّت) بالمنهل الروي الفضفاض، وعن السعادة والارتواء بـ: (تطفح ضفّتاه) وهذه صور حسيّة حركيّة أوحت بمعانٍ متعددة كالارتواء والوفرة ورغد العيش عِبرَ الكناية التي مثّلت المعنى حسيّاً، فلفظة (تطفح) مثلاً كنّت بها الخطيبة حركيّاً عن حالة الامتلاء والوفرة في المقام الذي أُريد به الحياة الرغيدة العيش، وفي قولها: (استبدَلوا وَاللهِ الذُّنابي

---

(١) ظ: نقد الشعر: ١٤؛ أسرار البلاغة: ٤؛ دلائل الإعجاز: ١٧٥ـ ١٧٦؛ منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٣٨ـ٣٩؛ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: ١٤؛ الصورة الفنية معياراً نقدياً: ١٢٤؛ الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها: ١٥ ـ ١٦؛ وظ: تمهيد في النقد الحديث: ١٩١؛ الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) لسان العرب: مادة (كني) ٢٣٣/١٥.

(٣) دلائل الإعجاز: ٥٢.

(٤) نثر الدُر: ٨ ـ ٩، الإحتجاج: ٢٨٩/١.

بالقوادم، والعجزَ بالكاهلِ)[١]، نجد الكناية واضحة، فعبر هاتين اللفظتين (الذنابى، القوادم) تُوضح وبشكلٍ دقيق معنى الخسارة التي مُني بها القوم، إذ كانوا بذلك كمن استبدل الذنابى بالقوادم، فالحِسّ البصري واضحٌ في هذه الصورة، إذ إنّها عبّرت عن تمام الفرق بين الحالتين، علِيّة القوم وقوادم الريش، ويُمكن إدراك ذلك بالرؤية ولهذا جاء التعبير الصّوري حسيّاً عن معنى الخسارة الكبيرة التي لحِقَت هؤلاء، وفي كناية بديعة تنقل (ع) المعنى المجرد للإرغام إلى واقع المُشاهدة الحسيّة من خلال صورة حسيّة حركيّة، تُكنّي فيها عن معنى الإجبار والإذلال في حركة القهر عندما يرغم الأنف بالتراب، في قولها: (فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً إلا أنّهم هم المفسدون)[٢]، فقد كنّت عن الأنف بالمعطس، كون التعبير برغم الأنف أضحى مُبتذلاً، لذلك عدلت إلى المعطس، وهذه كناية واضحة منها(ع)عن الإذلال بواقع حسّي حركي لا يُمكن إنكاره، وفي وصفها لأبي الحسن (ع) تُعبّر بكناية مؤثّرة عن تقواه وشجاعته الفائقة بقولها: (وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللهِ)[٣]، وهذه صورة خياليّة لأنّ القوّة إنّما تُدرك بالخيال إلا أنّها أضفت عليها ظِلالاً حسيّة بجعلها مُتّصلةً بتحفّزِ النمور في لفظة (تنمره)، وهي مع هذا تأسى على ما وصل إليه القوم، وما سيؤول إليه مصيرهم، فتقول (ع): (يَدَعْ فَيْئَكُمْ زَهِيداً، وَجَمْعَكُم حَصِيداً)[٤]، وهذه كناية عن فداحة خسارتهم المستقبليّة، وتستمر(ع) في كناياتها المُعبّرة، والدقيقة في تصويرها كاشفةً عن أثر الثقافة الجديدة التي تمتّعت بها المرأة المسلمة، من خلال الصور التي تكوّنُها في نتاجها الأدبي، وهي تُفصح عن حنكة في البلاغة، وتألّقٍ في الوعي.

٢ - الإستعارة:

في اللّغة هي: (العارةُ ما تداولُوه بينهم)[٥]، وعلى هذا المعنى بقي علماء البلاغة يدورون حتى جاء عبد القاهر الجرجاني (ت٧١؟ أو ٤٧٤ هـ) وعرّفها قائلاً: (الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فَتَدَعَ أن تُفصحَ بالتّشبيه وتُظهِرَه، وتجيء إلى اسم المشبّه به فتُعيره المشبّه وتجريه عليه)[٦]، ومن أمثلة الصور القائمة على الاستعارة في قولها(ع): (لا جَرَمَ لَقَدْ قلّدْتُهُمْ

(١) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠.

٢) نثر الدُر: ٩، الاحتجاج: ١/ ٢٩٠.

(٣) بلاغات النساء: ٢٠، نثر الدُر: ٨.

(٤) دلائل الإمامة: ٤١، الاحتجاج: ١/ ٢٩١.

(٥) لسان العرب: مادة (عور) ٤/ ٦١٢.

(٦) دلائل الإعجاز: ٥٣.

رِبْقَتَهَا... وَيْحَهُمْ أَنَّى زَعْزَعُوهَا عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالَةِ)[١]، فقد استعارت لفظة (الرِّبقة) للعهد والميثاق فضلاً عن الأمانة وتحمّل المسؤولية، في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) وهذه صورة حسيّة حركيّة، توحي بمعنى الإلزام الذي رُسِمَ عبْر الاستعارة المكنيّة، وقد حذف المشبّه به (الشاة) وأُخِذَ لازم من لوازمها واستُعير للعهد، فالرِّبقة بمعنى العُرْوَة في حبل، تُوضَع في رقبة الشاة لئلا تَفِرَّ، وهذه صورة مُدركة في الذّهن ومستحضِرة لمعنى الإلزام والتقييد، وفي نفس المقطع تستعير لفظة (رواسي) استعارة مكنيّة، والرواسي هي الثوابت من الجبال أو القواعد من البيت، والخطيبة استعارتها لأهل البيت (ع) فكوّنت صورة حسيّة بصريّة، فالجبال تُدرَك بالرؤية، وباستعارة موفّقة تَتبّع هذه، توضح(ع) أن القوم أزاحوا صاحب الحق الشرعي في الخلافة عن التصدّي لها وأرادوا منه بيعة من هو دونه في علم وفضل وورع وسابقة في دين، فكانوا بذلك كمن استبدل قوادم الطير بذَنَبه، واستعاض عن الكاهل بغيره، ويكمن بيان هذه الصورة البيانيّة في قولها: (استبدَلوا وَاللَّهِ الذُّنابي بالقوادِمِ، والعجزَ بالكاهلِ)[٢]، فالذنابى عبارة عن (ذَنَب) الطائر، والقوادم: مقادم الريش، والعجز مؤخر الشيء، والكاهل: مقدّم أعلى الظهر ممّا يلي العُنُق، وهذه الصورة حسيّة بصريّة يستدلُّ عليها بالرؤيا.

ثالثاً: البنْيَة الإيقاعيّة للخطبة

الإيقاع من العناصر البارزة والمهمّة في بناء الخُطبة الناجحة، لما له من تأثير في نفس المُتلقّي، وهذا ما يدفع الخطيب (إلى إقامة بناء نتاجه على نظام موسيقيّ متوازن، على وفق إيقاعات نغميّة منظمة، لتكون دلالات النّص أدخل في نفس المتلقّي وأبعد غوراً فيه)[٣]، وللتعرّف على أثره في تشكيل بنية نص خُطبة السيدة الزهراء(ع) سأدرس عناصر الإيقاع داخل نص الخُطبة ففي ألفاظها ما يستدعي الوقوف والدِّراسة بتأنٍ ولاسيما المحسنات اللّفظية التي شكلت في الكلمات تلائُماً صوتياً زاد الخطبَة استحساناً في نفس المُتلقي، ولعلَّ السجع والتكرار من أهم مواطن الجمال والروعة في ألفاظ هذه الخطبة، فقد وفّرت فيها ضروبا من القيم التصويريّة والإيقاعيّة.

١ ـ السجع:

من جميل الزخارف اللّفظية، وغالباً ما يكون في النثر ولاسيّما الخطابة، وهو إذا أتى من دون تكلُّف أو صنعة سيكون أكثر تأثيراً في ذوق المتلقّي، وهو إنّما يُستكره إذا كان

---

(١) دلائل الإمامة: ٤٠، نثر الدُر: ٨.

(٢) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠.

(٣) التصوير الفني في خطب الإمام علي (عليه السلام) (رسالة ماجستير): ٩٣.

مُتكلفاً ومُتعسِّفاً، لأنّه سيثقل الأذهان، بينما العفوي يكون أخفَّ وطأة ووقعاً على الأُذن، وفضيلته براءته مِنَ التّكلُّف، وخلوه من التعسف.

ولغةً هو: (الكلام المُقَفّى والجمع أَسجاع وأَساجِيعُ وكلام مُسَجَّع وسَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعاً وسَجَّعَ تَسْجيعاً تَكلّم بكلام له فَواصِلُ كفواصِلِ الشِّعْر من غير وزن)[١]، وفي الاصطلاح كما حدّه ابن الأثير بقوله: (هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرفٍ واحِد)[٢]، وهو من المحسنات اللّفظية التي وردت في نص خطبة السيدة الزهراء(ع) عَفْوِيّاً، وبطريقة خلت من التكلُّف والتصنّع، ولذلك نقول بأنّه لم يأت في نص هذه الخطبة إلا عفو الخاطر، وهذا يدل على وفرة الألفاظ والمفردات التي كانت تملكها السيدة الزهراء(ع)، ممّا أدّى إلى توافق الفواصل بالمفردات الرشيقة والألفاظ الزاخرة المعاني، ومن أمثلته في الخُطبة قول السيدة الزهراء (ع): (أَصْبَحْتُ واللّهِ عائِفةً لدُنياكُنَّ، قَالِيَةً لِرجَالِكُنَّ، لَفَظْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ عَجَمتُهُمْ، وَشَنَأْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سَبَرتُهُم، فَقُبحاً)[٣]، نجد أنّ العبارات جميعها قد انتهت بفواصل محددة، فانسجمت لفظاً ممّا أدى إلى أن تكون أوقعُ تأثيراً في نفس المتلقّي وشعوره.

ومن النماذج التي كان السجع فيها من عناصر جمالها قولها (ع): (وتاللّهِ لَوْ مَالُوا عَنِ المَحَجَةِ اللايحَة، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الحُجَّةِ الواضِحَة، لَرَدَّهُم إِلَيْهَا، وَحَمَلَهُم عَلَيْهَا)[٤]، نجد أنّ السجع المتوالي بارزٌ في هذه الفِقْرات، من دون صنعة أو تكلُّف، وممّا يُلحظ في هذا المقطع السجع المرصّع[٥] في قولها: (المحجة اللايحة، الحُجّة الواضحة) إذ اتفقت فيها الألفاظ وزناً وقافيةً.

٢ - التكرار:

التكرار لغةً: هو (كَرَّرَ الشيء وكَرْكَره أعاده مرة بعد أُخرى، ويقال كَرَّرْتُ عليه الحديث وكَرْكَرْتُه إذا ردّدته عليه وكَركَرْتُه عن كذا كَرْكَرةً إذا رَدَدْته والكَرُّ الرجوع على الشيء ومنه التَّكْرارُ)[٦].

---

(١) لسان العرب: مادة (سجع) ١٥٠/٨.

(٢) المثل السائر: ١٩٣/٢.

(٣) دلائل الإمامة: ٤٠.

(٤) الاحتجاج: ٢٨٨/١.

(٥) وهو مُقابلة كلّ لفظة على وزنها ورويّها: ظ: معجم المصطلحات البلاغيّة: ٢٤٥/٣، وهو أيضاً [ما اتّفق فيه القرينتان أو القرائن وزناً ورويّاً]، فيتساوى فيه اللّفظ في القرينة الأولى مع اللّفظ في الثانية وزناً وتقفية، ينظر: سرّ الفصاحة: ١٩٠، تكوين البلاغة: ٢٤٥.

(٦) لسان العرب: مادة (كرر) ١٣٥/٥.

وفي الاصطلاح هو: (أن يُكرر المُتكلّم اللّفظة الواحدة باللّفظ والمعنى، والمُراد بذلك تأكيد الوصف أو المدح أو الذم والتهويل أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد أو لغرض من الأغراض)[1]، والخطيب ـ عادة ـ يلجأ إلى التّكرار، بوصفه أحد الوسائل المُوسيقيّة، وقد ورد التكرار في نص الخطبة أكثر ما ورد في الألفاظ، ومع ذلك كان له دورٌ كبيرٌ في ترسيخ المعنى وتقريره، ومن أمثلته في خُطبتها قولها(ع): (وَمَا الّذي نَقِمُوا مِنْ أبي الحَسَنِ؟! نَقِمُوا واللهِ مِنْهُ نكيرَ سَيْفِهِ)[2]، فقد كرّرت (ع) باللّفظ في الصياغة العامّة لعباراتها فاتّحدت تلك العبارات لفظاً، وهذا التكرار غير مُتعاقب بل ورد منفصلاً عن بعضه على وفق بناء فنّي عمدت إليه الخطيبة، ويُلاحظ أنّ تكرار اللّفظ (نقموا) في البداية للتأكيد وتقرير المعنى، ضمن استفهام استنكاري، وأمّا الثاني فقد كان جواباً لهذا الاستفهام، وورد تكرار حرفي في قولها (ع): (لَيْتَ شِعْرِي إلى أيِّ سِنادٍ استندُوا؟! وإلى أيِّ عِمادٍ اعتمَدُوا؟! وبأيّةِ عُرْوَةٍ تَمَسَّكُوا؟! وَعَلَى أيّةِ ذُرِيّةٍ أَقْدَمُوا واحْتَنَكُوا؟!)[3]، فهنا عمدت (ع) إلى تكرار (أيّ) لأنّ طبيعة الخطاب قد فرضت ذلك بشكل متعاقب، ممّا أدى إلى اتحاد الدّلالة إلى جانب اللّفظ، والخطيبة عمدت إلى هذا التكرار لغرض الاستنكار، وتأكيد المعنى، ولذلك نجدُهُ قد عمّ هذا النّص من الخُطبة، وشكّل رافداً صبّت فيه دلالات الاستفهام الاستنكاري، وبذلك تحقّقَ أيضاً إيقاعٌ موسيقيٌ في فواصل الخُطبة ولاسيما في هذا المقطع.

الخاتمة ونتائج البحث:

لا بدّ لكل رحلة من نهاية، ونهاية رحلتي جاءت بثمار كانت نتائج لهذا البحث، وهي:

- هذه الخطبة عكست أثر المرأة في إغناء الأدب العربي بفنّ الخطابة؛ كونها جاءت في غاية الدّقة من حيث العمق الدلالي والبلاغي، والسيدة الزهراء(ع) قد سجّلت في خُطبتها هذه مواقف لها أثرها، لاسيّما أنّ مُجريات الحياة تغيّرت، والأحداث تحوّلت.
- في هذه الخطبة استحكمت الجرأة الأدبية التي أظهرت قدرة المرأة الخطيبة على التعبير عن المواقف الصعبة التي واجهت أُمّة الإسلام آنذاك.
- من خلال دراسة مضامين الخُطبة ظهر أنّ الخطيبة (ع) قد سعت إلى حشد مضامينٍ متنوّعةٍ داخل نص خطبتها(ع)، كان جُلُّها الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، وكانت تلك المضامين

---

(١) خزانة الأدب: ١/ ٣٦١.

(٢) بلاغات النساء: ٢٠، دلائل الإمامة: ٤٠ ـ ٤١، نثر الدُر: ٨.

(٣) دلائل الإمامة: ٤٠، الإحتجاج: ١/ ٢٩٠.

بمثابة مرآة تعكس ما في نفسها (ع) من رسم منهج ووضع خطّة للأمور المرتبطة بالرسالة، وما يُلاحظ في المضامين على اختلافها وتنوّعها أنّها قد وشّحت بمؤثر ديني، وهذا لا يعني أنّ جميعها دينيٌّ، ذلك أنّ المؤثر غير الموضوع.

- لقد كشفت دراستنا لألفاظ الخطبة عن عُمقها الدلالي، من حيث وضوحها ودقّتها وصياغة نظمها، وذلك للسمة التي غلبت على ألفاظها، حتى تفاضلت فيها مراتب البلاغة وهي توائمُها على وفق أنظمة وأنساق تتوافق وأفكاره الخطيبة.
- في نص الخطبة نلحظ جودة نظم التركيب من حيث القوّة والتّماسك ووحدة البناء ودقّة المعنى، وهذا ينُمُّ عن متانة أُسلوب الخطيبة (ع)، نتيجة قوّة بلاغتها في المنطق، وبراعتها في الإفاضة، والتّميّز بمنهجيّة اختيار المُفردات.
- غَلَبَة أسلوب الإنشاء على الخطب أكثر من الخبر ولاسيما الطلبي، ممّا أدى إلى أن يشكل الإنشاء ظاهرة أسلوبيّة واضحة فيها؛ وقد اعتمدت(ع) هذا الأسلوب لظروف موضوعيّة، إذ إنّ هُناك مواقف تطلّبت استعمال هذا الأسلوب الذي لا يحتمل صدقاً أو كذباً لذاته، ولكونه أوقع في المتلقّي، وأشدّ تأثيراً في النفس.
- وفرة الصور البيانيّة من استعارة وكناية، وذلك لما تخلقه هاتان الصورتان من تفاعل وانسجام بين المُتلقّي وما يسمعه من خطاب.
- عناصر الإيقاع رسمت صورة مؤثرة في نفس المخاطب وشعوره، لذلك عُدّ الإيقاع من العناصر التي جاءت بها الخطيبة على وفق سياقات منظمة ومتألقة في إيقاعها وتناغمها مما أثر على السامع.



الملحق

تحقيق نص خطبة السيدة الزهراء(ع) في نساء المُهاجِرينَ وَالأَنْصار

عن سويد بنِ غفلةَ روي أنَّهُ لَمَّا مَرِضَت السيدة فاطمةُ (ع) المرضةَ التي تُوُفِّيَتْ فِيهَا، اجْتَمَعَتْ إِلَيْهَا نِسَاءُ المُهاجِرِينَ وَالأَنْصَار لِيَعُدْنَها، فقُلْنَ لهَا: كيف أصبحتِ مِنْ عِلَّتِكِ يا ابنةَ رسولِ الله (ص)؟ فَحَمَدَتِ الله وَصَلَّتْ عَلَى ابيها (ص) ثُمَّ قالَت[1]:

أَصْبَحْتُ واللهِ عائِفةً[2] لِدُنياكُنَّ[3]، قالِيَةً[4] لِرجالِكُنَّ[5]، لَفَظْتُهُمْ[6] بَعْدَ أَنْ عَجَمْتُهُمْ[7]، وَشَنَأْتُهُمْ[8] بَعْدَ أَنْ سَبَرْتُهُم[9]، فَقُبحاً لِفُلُولِ[10] الحدِّ واللّعبِ بَعْدَ الجِدِّ، وَقَرْعِ الصفاة[11][[12]]، وَصَدْعِ[13] القناة[14]، وَخَتَلِ الآراء[15]، وَزَلَلِ الأهواء[16]، وَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ

---

(١) بلاغات النّساء: ص ١٩ ـ ٢٠؛ دلائل الإمامة: ص ٤٠ ـ ٤١؛ معاني الأخبار: ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥؛ نثرُ الدُرّ في المحاضرات: ص ٨ ـ ٩؛ الأمالي للطوسي (ت٤٦٠هـ): ص٣٢٨؛ منال الطالب في شرح طوال الغرائب: ص٥٢٨ ـ ٥٢٩؛ الاحتجاج: ٢٨٦/١ ـ ٢٩٢؛ شرح نهج البلاغة: ٢٣٣/١٦؛ كشف الغمّة: ١١٤/٢.

(٢) عائفة: أي كارهة، عافَ الشيءَ يَعافه عَيْفاً وعيافةً وعِيافاً وعَيَفاناً كَرِهه فلم يَشْرَبه. لسان العرب: مادة (عيف) ٩/ ٢٦٠.

(٣) في بلاغات النساء ونثرُ الدُرّ: لدنياكم؛ وفي دلائل الإمامة: عايفة لدنياكنّ.

(٤) القالية: المُبغضة. والقِلى البغض، لسان العرب: مادة (قلى) ١٩٨/١٥.

(٥) في بلاغات النساء ونثرُ الدُرّ: لرجالكم.

(٦) لفظتهم: رميت بهم، واللفظ أن ترمي بشيء كان في فِيكَ والفعل لَفَظ الشيءَ يقال لفَظْتُ الشيء من فمي أَلفِظُه لَفْظاً رميته، مادة (لفظ) لسان العرب: ٤٦١/٧.

(٧) العَجم: العَض والمَضْغ، وفي لسان العرب عجمت: خبرت، وعَجَمَ عودَه: عضَّ العود يخبر صلابته: جرّب أمره، وخبر حاله.

(٨) الشَّناءة مثل الشَّناعةِ البُغْضُ شَنِئَ الشيء، لسان العرب: مادة (شنأ) ١/ ١٠١.

(٩) السَّبْرُ التَّجْرِبَةُ وسَبَر الشيءَ سَبْراً حَزَره وخَبَرَه واسْبُرْ لي ما عنده أي اعْلَمْه والسَّبْر اسْتِخْراجُ كُنْهِ الأمر، وسبرتهم: أي اختبرتهم، لسان العرب: مادة (سبر) ٤/ ٣٤٠.

(١٠) الفَلُّ الثَّلْم في السيف، لسان العرب: مادة (فلل)١١/ ٥٣٠.

(١١) الصَّفاةُ الحجر الصَّلْدُ الضُّخْمُ الذي لا يُنبتُ شيئاً، لسان العرب: مادة (صفا) ٤٦٢/١٤.

(١٢) هذه العبارة انفرد بها صاحب الاحتجاج، ولم تُذكر في بلاغات النساء ودلائل الإمامة ونثرُ الدُرّ.

(١٣) الصَّدْعُ الشَّقُّ في الشيءِ الصُّلْبِ كالزُّجاجةِ والحائِط، لسان العرب: مادة (صدع) ١٩٤/٨.

(١٤) القناة: الرمح.

(١٥) ختل الآراء زيفها وخدعها، والخَتْل أي الخِداع، لسان العرب: مادة (ختل) ١٩٩/١١، وورد في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: (خطل الرأي)، ومعنى الخطل: المنطق الفاسد المُضطرب. وخطل الرأي: فساده واضطرابه.

(١٦) في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: حُذِفت.

أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللّـهُ عَلَيْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُم خَالِدُون[١]، لا جَرَمَ[٢] لَقَدْ قَلَّدْتُهُمْ رِبْقَتَها[٣]، وَحَمَّلْتُهُمْ أَوْقَتَها[٤]، وَشَنَنْتَ[٥] عَلَيْهِم غاراتها، فَجَدْعاً[٦] وَعَقْراً[٧]، وَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِيْن.

وَيْحَهُمْ أَنَّى زَعْزَعُوهَا[٨] عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالة، وَقَوَاعِدِ النُّبوَّةِ والدَلالَة[٩]، وَمَهْبطِ الرُوح الأَمين[١٠]، والطِبين[١١] بأُمورِ الدُّنيا والدِّين؟! ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[١٢]. وَمَا الّذي نَقِمُوا مِنْ أبي الحسَنِ؟! نَقِمُوا[١٣] واللهِ مِنْهُ نكيرَ سَيْفِهِ، [وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ لحتفِهِ][١٤]، وَشِدَّةَ وَطْأَتِه[١٥]، وَنكَالَ[١٦] وَقْعَتِهِ[١٧]، وَتَنَمُّرَهُ[١٨] فِي ذَاتِ اللهِ. وتاللهِ لَوْ مَالُوا عَنِ المَحَجَّةِ اللايحَة، وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الحُجَّةِ الواضِحَة، لَرَدَّهُم إِلَيْهَا، وَحَمَلَهُم عَلَيْهَا، وَلَسَارَ بِهِمْ سَيْراً سُجُحاً[١٩]، لا يَكْلَمُ[٢٠]

---

(١) في بلاغات النساء: وبئسما قدّمت لهم...، أمّا في دلائل الإمامة فقد ذكرت نصّ الآية (٨٠) من سورة المائدة (لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ).

(٢) في دلائل الإمامة: لا جَرَمَ والله، وكلمة (لا جَرَمَ) تورد لتحقيق الشيء.

(٣) الرِّبْقُ الخَيْط الواحدة رِبْقة، لسان العرب: مادة (ربق) ١١٢/١٠.

(٤) الأَوْقُ الثِّقَلُ وألقى عليه أَوْقَه أي ثِقَلَه، لسان العرب: مادة (أوق) ١٢/١٠.

(٥) وشَنَّ عليهم الغارةَ يَشُنُّها شَنّاً وأَشَنَّ صَبَّها وبثَّها وفرَّقها من كل وجه. لسان العرب: مادة (شنن) ٢٤١/١٣، ومعنى شننت عليهم غاراتها: أعلنت عليهم الحرب، و(الغار): الجيش الكثير.

(٦) الجَدْعُ القَطْعُ وقيل هو القطع البائن في الأنف والأذن والشَّفَةِ واليد ونحوها، لسان العرب: مادة (جدع) ٤١/٨.

(٧) عَقَرَه أي جَرَحَه والعَقْرُ شبيهٌ بالحَزِّ وعَقَر الفرسَ والبعيرَ بالسيف عَقْراً قطع قوائمه، لسان العرب: مادة (عقر) ٥٩١/٤.

(٨) الزَّعْزَعة تحريك الشيء زَعْزَعَه زَعْزَةً فتَزَعْزَعَ حرَّكَه ليَقْلَعه. لسان العرب: مادة (زعع) ١٤١/٨، وورد في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: أنّى زحزحوها...

(٩) حُذفت من: بلاغات النساء ودلائل الإمامة.

(١٠) في دلائل الإمامة: ومهبط الروح الأمين، بالوحي المبين.

(١١) الطَّبَنُ بالتحريك الفِطْنَة ورجل طَبِنٌ فَطِنٌ حاذِقٌ عالم بكل شيء، لسان العرب: مادة (طبن) ٢٦٣/١٣.

(١٢) الزمر/١٥.

(١٣) النَّقِمةُ والنَّقْمةُ المكافأة بالعقوبة، نَقَمْتُ على الرجل أَنقِمُ بالكسر فأَنا ناقِمٌ إذا عَتَبْت عليه، لسان العرب: مادة (نقم) ٥٩٠/١٢.

(١٤) في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: بحذفها.

(١٥) الوَطْأَةُ الأَخْذَة الشَّديدةُ، لسان العرب: مادة (وطأ) ١٩٥/١.

(١٦) النَّكالُ العُقُوبة، لسان العرب: مادة (كتل) ٥٨٣/١.

(١٧) الوقْعةُ والواقِعةُ صَدْمةُ الحرب، لسان العرب: مادة (وقع) ٤٠٢/٨.

(١٨) تَنمَّر له أي تَنكَّر وتَغَيَّر وأَوعَدَه لأَن النَّمِرَ لا تلقاه أَبداً إلا مُتَنَكِّراً غضبان والنِّمْرُ ضربٌ من السباع أَخْبَثُ من الأسد. لسان العرب: مادة (نمر) ٢٣٤/٥.

(١٩) السجح: اللَّيِّن السهل، لسان العرب: مادة (سجح) ٤٧٥/٢.

(٢٠) الكَلْمُ الجُرْح، لسان العرب: مادة (كلم) ٥٢٢/١٢.

خِشَاشُه[١]، ولا يَكِلُّ[٢] سَائِرُه، ولا يَمَلُّ راكِبُه[٣]، ولأورَدَهُم مَنْهلاً[٤] نَمِيراً[٥] صافياً رويّاً، تطفحُ[٦] ضِفْتاه[٧]، ولا يترنَّقُ[٨] جانباه، ولأصْدَرَهُمْ بطاناً[٩]، ونَصَحَ لَهُم سِرّاً وإعْلاناً، ولَمْ يَكُنْ يَتحلَّى مِنَ الغِنى بِطَائِل[١٠]، ولا يَحْظَى مِنَ الدُّنيَا بنائِل[١١]، غَيْرَ رَيِّ النَّاهِل[١٢]، وَشِبْعَةِ الكافِل[١٣]، ولَبَانَ لَهُمْ الزَّاهِدُ مِنَ الراغِب، والصادِقُ مِنَ الكَاذِب، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١٤]، ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[١٥].

ألا هَلُمَّ[١٦] فاسْتَمِع[١٧]! وما عِشْتَ أَرَاكَ الدَّهرُ عَجَباً!! وَإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ[١٨]! لَيْتَ شِعْرِي إلى أيِّ سِنادٍ[١٩] استندُوا؟! وإلى أيِّ عِمادٍ اعتمَدُوا؟! وبأيَّةِ[٢٠] عُرْوَةٍ تَمَسَّكُوا؟! وَعَلى أيَّة

---

(١) الخِشاشُ والخِشاشةُ العودُ الذي يجعل في أَنف البعير، لسان العرب: ٦مادة (خشش)/٢٩٥.

(٢) كَلَّ يَكِلُّ كَلاً وكَلالاً وكَلالة الأخيرة عن اللحياني أَعْيا، لسان العرب: مادة (كلل)١١/ ٥٩٠.

(٣) في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: ولا يُتعتع راكبه، ومعنى التعْتعةُ: الحركة العَنِيفة وقد تَعْتَعه إذا عَتَلَه وأَقْلَقه. لسان العرب: ٣٥/٨.

(٤) المَنْهَل الموضع الذي فيه المشرَب والمَنْهَل الشُّرْب، لسان العرب: مادة (نهل) ٦٨٠/١١.

(٥) النَمِرُ والنَّميرُ كلاهما الماء الزَّاكي في الماشية، لسان العرب: مادة (نمر) ٢٣٤/٥.

(٦) طفحَ الإِناءُ والنهر يَطْفَحُ طَفْحاً وطُفُوحاً امْتَلأَ وارتفع حتى يفيض، لسان العرب: مادة (طفح) ٥٣٠/٢.

(٧) الضِّفَّةُ بالكسر جانب النهر، لسان العرب: مادة (ضفف)٢٠٦/٩.

(٨) الرَّنَق تراب في الماء من القَذى ونحوه ورَنِقَ الماء وتَرَنَّقَ كَدِرَ، لسان العرب: مادة (رنق)١٢٦/١٠.

(٩) بَطِن بالكسر يَبْطَن بَطَناً عَظُم بَطْنُه من الشِّبَع، لسان العرب: مادة (بطن) ٥٢/١٣.

(١٠) الطائل النفع والفائدة، لسان العرب: مادة (طول)٤١٠/١١.

(١١) أَنالَهُ معروفه ونَوَّلَه: أَعطاه معروفه، لسان العرب: مادة (نول) ٦٨٣/١١.

(١٢) الري: من رَوِيَ من الماء بالكسر ومن اللَّبَن يَرْوَى رَيّاً، والرَّيَّانُ ضدّ العَطْشان، لسان العرب: مادة (روي) ٣٤٥/١٤.

(١٣) الكافِل العائِل، والكافِل القائم بأمر اليتيم المربِّي له، لسان العرب: ١١مادة (كفل)/٥٨٨.

(١٤) الأعراف/٩٦

(١٥) الزمر/٥١.

(١٦) في بلاغات النساء: ... وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا والله منه نكير سيفه وشدّة وطأته ونكال وقعته وتنمُّره في ذات الله وبالله لو تكافئوا على زمام نبذه رسول الله (ص) لسار بهم سيراً سُجُحاً لا يكلم خشاشه ولا يُتعتع راكبه ولأوردهم منهلاً رويّاً فضفاضاً تطفح ضفتاه ولأصدرهم بطاناً قد تحرّى بهم الري غير متجل منهم بطائل بعلمه الباهر وردعه سورة الساغب ولفتحت عليهم بركات من السماء وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون، ألا هلمن فاسمعن وما عشتن أراكنّ الدهر عجباً إلى...

(١٧) في دلائل الإمامة: ألا فاسمعن، ومن عاش أراه الدهر العجب: وفي نثر الدُرّ: ألا هلمَّ فاستمع، وما عِشْتَ أراك الدّهرُ عجباً.

(١٨) في بلاغات النساء: بحذفها، وفي دلائل الإمامة: وإن تعجبن فانظرن إلى أيّ نحو اتّجهوا.

(١٩) في بلاغات النساء: إلى أيّ لجأ لجأوا واسندوا، وعلى أيّ سند استندوا.

(٢٠) في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: وبأيّ.

ذُرِيَّةٍ أَقْدَمُوا واحْتَنَكُوا[١]؟! ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾[٢]، ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٣]، استبدَلوا وَاللهِ الذُّنابي[٤] بالقوادِم، والعجزَ[٥] بالكاهلِ[٦]، فَرَغْماً لِمعاطسِ[٧] قومٍ يَحسَبونَ أنَّهُم يُحْسِنُون صُنعاً، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٨]، ويحهم ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٩]؟! أمَا لعَمْري لقد[١٠] لَقِحَت[١١] فَنَظِرَةٌ[١٢] ريثَما[١٣] تُنتِج، ثُمّ احتلِبُوا مِلْءَ[١٤] القَعْبِ[١٥] دَماً عَبيطاً[١٦] وذُعافاً مُبيداً[١٧]، هُنالِكَ يَخسَرُ المُبْطِلون، وَيَعْرِفُ التالُونَ[١٨] غِبَّ[١٩] ما أَسَّسَ الأوّلون، ثُمّ طِيبُوا عن دُنياكُم أنفساً[٢٠]، واطمئِنُّوا للفتنةِ جَأْشاً[٢١]، وَأَبْشِروا بِسَيْفٍ صَارِمٍ[٢٢]، وَسَطوَةِ مُعتَدٍ غاشِمٍ[٢٣]، وبِهَرجٍ

---

(١) احتنكوا: مأخوذ من احْتَنَكَ الجرادُ الأرض إذا أتى على نبتها، لسان العرب: مادة (حنك) ٤١٦/١٠.

(٢) الحج/١٣.

(٣) الكهف/٥٠.

(٤) في نثر الدرّ: الذُّنابَى، والذُّنابَى: ذنبُ الطائر، وأذنابُ الناسِ وذَنَبَاتهم أتباعُهُم وسِفْلَتُهُم دون الرُّؤساءِ، لسان العرب: مادة (ذنب) ٣٨٩/١.

(٥) العجز: عَجْزُ الشيءِ وعِجْزُه وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه آخره، لسان العرب: مادة (عجز) ٣٦٩/٥.

(٦) الكاهِلُ مقدَّم أعلى الظهر مما يَلي العنُق، لسان العرب: مادة (كهل) ٦٠٠/١١، (كاهل القوم): عمدتهم في المهمّات وعدّتهم للشدائد والملمّات.

(٧) المَعْطِس والمَعْطَس الأنف لأن العُطاس منه يخرج، لسان العرب: مادة (عطس) ١٤٢/٦.

(٨) البقرة/١٢.

(٩) يونس/٣٥.

(١٠) في بلاغات النساء: أما لعمر إلهكُنّ، وفي دلائل الإمامة: ألا لعمر الله.

(١١) يقال لَقِحَتِ إذا حَمَلَتْ، لسان العرب: مادة (لقح) ٥٧٩/٢.

(١٢) النَّظِرَةُ بكسر الظاء التأخير في الأمر، لسان العرب: مادة (نظر) ٢١٥/٥.: وقد وردت في دلائل الإمامة: فانظروها تنتج.

(١٣) الرَّيْثُ الإبْطاءُ، فلم يَلْبَثْ إلاّ رَيْثما قُلْتُ أي إلاّ قَدْرَ ذلك، لسان العرب: مادة (ريث) ١٥٧/٢.

(١٤) في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: طلاع القعب.

(١٥) القَعْبُ القدح الضَّخْمُ الغليظُ الجافي وقيل قدح من خَشَب مُقَعَّر، لسان العرب: مادة (قعب) ٦٨٣/١.

(١٦) العَبيط وهو الدم الطريّ، لسان العرب: مادة (عبط) ٣٤٧/٧.

(١٧) الذُّعافُ سَمٌّ قاتِلٌ، لسان العرب: مادة (ذعف) ١٠٩/٩، وورد في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: وذُعافاً ممقراً، والمَقِرُ شبيه بالصَّبِر وليس به وقيل هو الصَّبِرُ نفسه، لسان العرب: مادة (مقر) ١٨٢/٥.

(١٨) هكذا ورد في بحار الأنوار نقلاً عن معاني الأخبار وأمالي الطوسي وشرح النهج لابن أبي الحديد، وقد ورد في بلاغات النساء ودلائل الإمامة: المبطلون.

(١٩) غِبُّ الأَمْرِ ومَغَبَّتُه عاقبتُه وآخِرُه، لسان العرب: مادة (غبب) ٦٣٤/١، وقد حذفت في دلائل الإمامة.

(٢٠) في بلاغات النساء: ثُمّ أطيبوا عن أنفسكم نفساً: وفي دلائل الإمامة: فليطيبوا بعدَ ذلك نفساً.

(٢١) الجأش النفس وقيل القلب، لسان العرب: مادة (جأش) ٢٦٩/٦، وورد في بلاغات النساء: وطامنوا: وفي دلائل الإمامة: وليطمأنوا.

(٢٢) الصارمُ: السيف القاطع، لسان العرب: مادة (صمع)٣٣٤/١٢.

(٢٣) الغَشْمُ: الظُّلم والغَصْبُ، لسان العرب: مادة (خشم) ٤٣٧/١٢.

شَامِلٍ[١]، واسْتِبْدادٍ[٢] مِنَ الظَالِمِينَ، يَدَعُ فَيْئَكُمْ[٣] زَهِيداً[٤]، وَجَمْعَكُمْ حَصِيداً[٥]، فَيَا حسرةً[٦] لَكُمْ! وَأَنَّى[٧] بِكُم، وَقَدْ عُمِيَتْ عَلَيكُمْ، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُم لَهَا كَارِهُون..

المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم.

- الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تح: الشيخ إبراهيم البهادري والشيخ محمّد هادي به، بإشراف العلامة الشيخ جعفر السبحاني. ط٤، دار الأسوة للطباعة والنشر - قم، ١٤٢٤هـ.
- الأدب السياسي المُلتزم في الإسلام: د. صادق آئينة وند، ود. حسن عباس نصر الله، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان، ب.ت.
- أساليب القسم في اللغة العربية: كاظم فتحي الراوي، ط١، مطبعة الجامعة المستنصرية - بغداد، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، تح: هـ - رتير، مطبعة وزارة المعارف - استانبول، ١٩٥٤م.
- الأمالي: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، قدّم له: السيد محمّد صادق بحر العلوم، نشر المكتبة الأهلية - بغداد، د.ت.
- الإيضاح في علوم البلاغة - المعاني والبيان والبديع -: جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر المعروف بالخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، ط٤، دار إحياء العلوم - بيروت، ١٩٩٨م.
- بلاغات النساء (وطرائف كلامهنّ وملح نوادرهنّ وأخبار ذوات الرأي منهنّ) وأشعارهنّ في الجاهليّة والإسلام: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر بن طيفور (ت٣٨٠هـ)، النجف الأشرف - المكتبة المرتضية، ١٣٦١هـ.
- تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: د. محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية - بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- تمهيد في النقد الحديث: روز غريب، ط١، دار المكشوف - بيروت، ١٩٧١م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، ط١٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
- حياة الزهراء بعد أبيها الرسول: العلامة الحاج الشيخ فضل علي القزويني، تح: السيد أحمد الحسيني، ط١، ١٤٢٦هـ.
- خزانة الأدب وغاية الأرب: تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ)، تح: عصام شعيتو، ط١، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ١٩٨٧م.
- الخطابة في عصر صدر الإسلام: د. محمّد طاهر درويش، دار الجيل للطباعة - مصر.
- الخطب والمواعظ: محمّد عبد الغني حسن، ط٤، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٠م.
- دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهربن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، صحّحه وشرحه وعلّق عليه: الأستاذ أحمد مصطفى المراغي، ط٢، المكتبة المحمودية التجارية، مصر، د.ت.

---

(١) في بلاغات النساء: وبقرح شامل: وفي دلائل الإمامة: وهرج شامل.

(٢) في دلائل الإمامة: واستبدال من الظالمين.

(٣) الفَيْءُ: الغَنِيمةُ والخَراجُ، لسان العرب: مادة (فيأ) ١/١٢٤. وقد ورد في بلاغات النساء: يدع فيكم.

(٤) الزهيد: القليل، وشيء زَهيد قليل. لسان العرب: مادة (زهد) ٣/١٩٦.

(٥) في معاني الأخبار: وزرعكم حصيداً.

(٦) في دلائل الإمامة: فيا خسرى لكم.

(٧) في بلاغات النساء: وإنّي بكم.

- دلائل الإمامة: أبو جعفر محمّد بن جرير بن رستم الطبري، منشورات المطبعة الحيدريّة ومكتبتها ـ النجف الأشرف، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م.
- شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن محمّد بن أبي الحديد (ت٦٥٥هـ)، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م.
- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث: بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٤م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: د. جابر أحمد عصفور، ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر ـ بيروت، ١٩٨٣م.
- الصورة الفنّية في القرآن الكريم: عبد السلام أحمد الراغب، ط١، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ٢٠٠١م.
- الصورة الفنيّة في المثل القرآني: د. محمّد حسين الصغير، ط٢، دار الهادي ـ بيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- الصورة الفنيّة معياراً نقدياً منحى تطبيقي على شعر الأعشى الكبير: د. عبد الإله الصائغ، ط١، دار الشئون الثقافية العامّة ـ بغداد، ط١، ١٩٨٧م.
- الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري: دراسة في أصولها وتطورها، د. علي البطل، دار الأندلس، ط١، ١٩٨٠م.
- الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت٧٤٥هـ)، مراجعة وضبط وتحقيق: محمد عبد السلام شاهين، مطبعة المقتطف ـ مصر، ١٩١٤م ـ ١٣٣٢هـ.
- علم الخطابة: د. محمّد سمير الشاوي، ط١، سوريا ـ دمشق ـ البرامكة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.
- علم المعاني: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية ـ بيروت، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
- فن الخطابة: د. أحمد محمّد الحوفي، ط٤، مطبعة دار نهضة للطبع والنشر ـ الفجالة ـ القاهرة ـ مصر، ١٩٨٦م.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ)، تح: علي مح مّد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم، ط١، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٢م ـ ١٣٧١هـ.
- لسان العرب: جمال الدين أبو الفضل محمّد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري(ت٧١١هـ)، ط١، دار صادر – بيروت، د.ت.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير(ت ٦٣٧هـ)، قدم له وحققه وعلق عليه: الدكتور بدوي أحمد طبانة والدكتور أحمد الحوفي، دار النهضة للطباعة، ١٩٨٧م.
- معاني الأخبار: محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه (الشيخ الصدوق) (ت٢٨١هـ) ملحق بكتابه علل الشرائع، ط ـ إيران.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، تح: د. أكرم عثمان يوسف، ط١، مطبعة دار الرسالة ـ بغداد، ١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ.
- منال الطالب في شرح طوال الغرائب: أبو السعادات المبارك بن محمّد ابن الأثير (ت٦٠٦هـ).
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، تح: محمّد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية ـ تونس، ١٩٦٦م.
- نثر الدُر في المحاضرات: الوزير الأديب أبو سعد منصور بن الحسين الآبي (ت٤٢١هـ)، تح: خالد عبد الغني محفوظ، ط١، منشورات دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٤هـ.
- نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧)، عُني بتصحيحه: س. أ. بونيباكو، مطبعة بريل، لندن، ١٩٥٦م.

الرسائل والأطاريح الجامعيّة:

- التصوير الفني في خطب الإمام علي(ع): عباس الفحّام، رسالة ماجستير، كلية التربية ـ جامعة الكوفة، ١٩٩٩م. ❖

الإيحاء والتصوير في خطبة الزهراء (ع)
(دراسة في البنى الأسلوبية)

د. جنان محمد مهدي(*)

المقدمة:

ثمة شخصيات تسمو وترقى قبل أن تولد، لتكون شموساً متوقدة تنير دروب البرية عبر العصور، ولعل أولى تلك الشخصيات وأخصها بتلك المزية هم آل بيت النبوة (ع) جميعاً، الذين اختصهم ربّ العزة بجعلهم حجج الله في أرضه، فقد كانوا (ع) ومنهم السيدة الزهراء (سلام الله عليها) معجزات لا نظير لها كما أعجز الله عز وجل الخلائق بمعجزته الخالدة (القرآن الكريم) فعجزوا عن إتيان مثله أو آية منه، وكما أن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا تنقطع أسراره كذلك أسرار وآفاق آل البيت الذين نختص شخصية الزهراء البتول (ع) منهم ونحاول فتح باب من أبواب أسرارها التي استودعها الله عز وجل.

لذا فإن فكرة هذا البحث هي إبراز جانب من جوانب بلاغة الزهراء (ع) وعلمها، وقدرتها البليغة على جعل الكلمات ناطقة بلسان حالها ومعبّرة بظلالها عن قدرة عالية في استثارة النفوس والأرواح وإخراجها من غفلتها وسهوتها، فكانت أساليبها التي وظّفتها سبيلاً لتلك الغاية، متنوعة تنبض بإيحاء دلالي يظهر في تنوع البنى والتراكيب التي تألف منها كلامها (ع)، ولا عجب أن بلاغتها وثقافتها كانت موهبة فطرية تنم عن قوة شخصيتها وأسلوبها الذي بان وتجلى في رصفها الألفاظ والتراكيب ذات الإيحاء المعبّر عن الطاقات والدلالات الكامنة في البنى الأسلوبية التي انتظمت في عباراتها البليغة.

وتبعاً لذلك كان هذا البحث محاولة لاستنطاق نصوص خطبة الزهراء (ع) وما حملته من دلالات خفية ذات بُعد دلالي عالي الهدف سامي الغاية، ووفقاً لما تقدم فقد انتظم البحث في مباحث ثلاثة، سبقت بتمهيد عن أسلوب السيدة الزهراء (ع) في الخطبة بمعرفة ماهية الأسلوب وتعريفه وبعده الجوهري في تشكيل النص، كما شمل الحديث عن أهم مميزات أسلوب الزهراء (ع) وقدرتها التصويرية.

المبحث الأول وهو بعنوان: (**أسلوب الخطاب النفسي ولغته**) تناول الحديث عن الخطاب النفسي الذي يعكس حال المخاطب ويعبر عن أفكاره وبراعته في الحوار المؤثر ووسيلته لإيصال الأفكار المحركة للعواطف والمشاعر، كما شمل الحديث عن أسلوب الزهراء (ع)

(*) قسم اللغة العربية، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد.

الذي استطاعت بفضل دقة اختيار ألفاظه أن تثير حواس المتلقي وتدفع به إلى التفكر والتعقل فجمعت بليغ اللفظ وكمال العقل في التأثير.

أما المبحث الثاني وهو بعنوان: (**أسلوب الجدل والاحتجاج**) فقد كان الحديث فيه أسلوب الزهراء (ع) العقلي الحواري المنطقي النابع من فكر متفرد في امتلاك وسيلة الجدل المنطقي التي تستند إلى عبارات تحمل في طياتها قوة إيحائية دالة على معرفة واعية وقدرة أسلوبية ممزوجة بدليل لا يقبل النقاش والجدال هو القرآن الكريم.

في حين كان المبحث الثالث والأخير وهو بعنوان: (**أسلوب التهكم والذم**) مخصصاً للحديث عن الأسلوب النقدي الساخر واللاذع للمنافقين ووضاعة مواقفهم باستعمال الأسلوب الاستنكاري الذي تتنوع فيه أساليب اللغة وصيغها من تقريع وتوبيخ وتعجب إنكاري، إذ كانت الغاية منه التنبيه والتحذير والحث على عدم مجانبة العدل والتسويف في أوامر البارئ عز وجل ونواهيه.

وختم البحث بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي توصل البحث إليها.

التمهيد:

تمتلك الألفاظ طاقات تعبيرية وتصويرية لها تأثيراتها البالغة على المتلقي، وتنتظم تلك الألفاظ في تراكيب متنوعة تختلف تبعاً لقصد المخاطب وأسلوبه في الخطاب الذي يتميز به عن غيره، فالأسلوب هو (طريقة تأليف الألفاظ للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير)[١] أو طريقة التفكير والتصوير والتعبير[٢]، وتتباين الأساليب تبعاً لطبيعة المعنى والغرض وجمال النسق وروعة الأداء وقوة التأثير[٣].

فثمة ألفاظ ترسم صورة الموضوع لا بجرس أصواتها الذي تلقيه في الآذان بل بظلالها وإيحاءاتها الخاصة التي لا يلمحها ويلحظها إلا الحس البصير، حين استدعاء صورة مدلولاتها الحسية [٤]؛ ذلك لأن للألفاظ أشكالاً ومعاني خفية لا يظهرها ويجليها إلا التعبير والتركيب القادر على عكس تلك المعاني والإيحاءات الكامنة بوساطة النظم الحسن.

فالمعاني التي تحملها الألفاظ إنما هي (نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار)[٥]؛ ذلك لأن التأثير في النفوس ينبع من رشاقة الأسلوب وجمال العبارة وقدرة مبدعها على التأثير

(١) الأسلوبية والبيان العربي/د. محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون ٤٢.

(٢) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) ينظر: المصدر نفسه الصفحة ٥٥.

(٤) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)/د. جبير صالح حمادي ٩٠.

(٥) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ٣٣.

والإقناع، ولا يتم كل هذا إلا بانتقاء أجزل الألفاظ والعبارات وأقدرها على الإيحاء والتعبير عن مكنونات النفس وحالاتها الشعورية والنفسية.

إن القدرة التصويرية للغة والإيمان بالتأثير الروحي للكلمات والعاطفة وظلال الحزن الممتد من أغوار النفوس، له أثر في أسلوب وبنى مبدع النص وطريقة عرضه، فهي أن لم تترك في النفس حزناً فستترك هيبة وخشية وتوجساً ليس بينها وبين الحزن بون بعيد، فالمعاني ترتسم وتتفاعل في نفوس آدمية[١] مثيرة باللغة نهضة نفسية روحية تدفع بالعقل للاستيقاظ والتفكر والتدبر، كما أن قوة الإيحاء والتصوير في كلام صاحب النص تعتمد في الأساس على قدرته الإبلاغية وبناه الأسلوبية وقابليته على توظيف وتطويع الألفاظ والعبارات لتكون خدماً لمراده وقصديته.

إذن فأسلوب مبدع النص أو صاحبه هو البؤرة الأساس ومحور الارتكاز في عملية الخطاب والإبلاغ، فمهارته وقدرته على إظهار الطاقات الإيحائية للألفاظ ودلالاتها ومحاولة إيصالها إلى متلقيها، تعد من المزايا التي تحسب له وتميزه عمن سواه.

بالعودة إلى استنطاق أسلوب الزهراء (ع) في خطبتها البليغة، نجد أن بنى الألفاظ في عباراتها وأسلوبها ينبض بإيحاء دلالي صادر عن أدبية عالية وثقافة فكرية موسوعية؛ ذلك لأنها جعلت من أساليب اللغة وبناها أداة تعبيرية ووسيلة إفهامية لإيصال رسالتها إلى الألباب والعقول.

فكانت عباراتها الموجزة وهي المزية الظاهرة والسمة الطاغية لها تزيد من كمال وبلاغة كلامها، فضلاً عن دقة اختيار البنى ذات الدلالة المناسبة للمشهد المشحون بظلال الظلامة، إذ أضفت دلالات خفية جعلت الفكر مشغولاً بها.

إن ذكاء الزهراء (ع) وبراعتها العقلية والذهنية تجلت في اختيارها انتحاء أسلوب القرآن الكريم في قِصَر الفِقر للخطبة وتنوع إيقاعاتها، وامتازت بالسجع والتكرار والتناسق الفني، فكانت دعوة للاهتياج النفسي والأثر الحسي لا تحقق إلا بما تؤديه ألفاظها وأساليبها الفنية من قوة التعبير والتصوير؛ ذلك لأنها تخاطب العقول وتتجه إلى النفوس تعميقاً للتأثير وإنفاذاً بموسيقى الألفاظ التصويرية إلى أغوار النفوس.

كما تجلت براعتها في جعل الألفاظ ناطقة بلسان حالها معربة بظلالها وقوة إيحاءاتها عن تصوير مرارة آلامها وحزنها وبثها ومظلوميتها، فكانت ألفاظها فصيحة مستثيرة للوجدان بقوتها التي حملت شرراً كالقصر[٢] في آذان وأذهان متلقيها، وغدت أساليبها سياطاً ناطقة تضرب ضمائر الناس لتصحّيهم من غفلتهم وسِنتهم، وهذا يعني أن الألفاظ لم تكن وعاء لمعنى دقيق فحسب، بل مصدراً لصورة لها أبعادها وظلالها[٣].

---

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم ١٧٩.

(٢) ينظر: قبس من نور فاطمة (ع)/الشيخ حسن الحائري ٢٨٠.

(٣) ينظر: التعبير الفني في القرآن/د. بكري شيخ أمين ١٨٣.

المبحث الأول: أسلوب الخطاب النفسي ولغته

لا يخفى ما للخطاب النفسي ولغة وأسلوب المخاطب من أثر في نفوس متلقيه، باعتبار أن وظيفة النظام اللغوي تبليغ أغراض المتكلم للسامع[١]، وتبعاً لذلك تتباين أساليب المخاطب في خطابه، فلكل موقف خطاب خاص به ولكل مقام مقال، لذا يكون أسلوب المخاطب هو الموجه لمثل هذا الخطاب النفسي.

فالخطاب إذن مفتاح شخصية المخاطب والمعبّر عن سماتها وأفكارها، فهو الكاشف عنها وهو المرآة العاكسة لثقافة المخاطب الفكرية وبراعته الحوارية وقابليته التصويرية، بوصف الأخيرة وسيلة المخاطب في تمثيل العواطف والأفكار التي تختلج في الصدور، ليكون التصوير صنو اللغة وأداتها المعبّرة.

ولغة الخطاب أو عمارة النص الخطابي المؤلف من مجموعة الأفكار والموضوعات والأساليب المختلفة الصياغة[٢] تمتلك دلالات إيحائية تعد الظلال الذي تلقيه ألفاظ النص وهي في واقع الحال خفية يظهرها سياق الحال أو ظروف وملابسات النص والمقام الذي ألقي فيه الخطاب.

وبما أن أسلوب الخطاب وبخاصة النفسي منه مرتبط بدلالة بنى الخطاب نفسه وأساليب المخاطب، فإن قوة إيحاء النص وقوة التصوير تكمن في قدرة المخاطب وقابليته على إثارة متلقيه عبر بث بنى ذات طاقات إيحائية لها القدرة على التعبير عن أقصى حالات النفس الشعورية بأقل ألفاظ تمتلك كثافة معنوية معبّرة.

ولعل خطاب الزهراء (ع) كان نموذجاً فريداً في قوة الإيحاء والتصوير، ويكمن تفرده في قدرتها ودقتها في اختيار الألفاظ ذات الوقع المؤثر في النفوس والعقول، وإثارتها حواس متلقيها الذهنية والنفسية، فاختارت أن تبدأ باستثارة مشاعر الناس بأنة كانت بمثابة اللغز المحير الذي كان له بعده النفسي المؤثر، فمست مشاعرهم وأحاسيسهم وحملت هذه الأنة من المعاني الجمة التي أجهش الناس لها بالبكاء.

إن هذا الأسلوب النفسي كان كميلاً بشدّ وجذب واستمالت نفوس متلقيها فيقبلوا على الاستماع للخطاب، ولقد تنوع أسلوبها النفسي لتهيئة النفوس الغافلة فاستهلت خطبتها بأسلوب نفسي يستند إلى الموعظة والتذكير فذكرت وذكّرت بالنعم الإلهية وأصول العقيدة بركنيها الأساسيين وهما التوحيد والنبوة، والمقصود بالتوحيد هنا التوحيد الفطري الذي جُبلت عليه النفوس، المشفوع بالتفكير وإعمال العقل بعد التدبر والتعمق في الغاية من الخلق والإيجاد الموصل إلى التوحيد النظري بالنظر في الآفاق والآيات والأنفس[٣]، ذاكرة ذلك بقولها:

---

(١) ينظر: مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية/د. بان الخفاجي ١٥.

(٢) ينظر: البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي/د. محمود البستاني ١٦٥.

(٣) ينظر: فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد/محمد كاظم القزويني ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(الحمد لله على ما انعم

وله الشكر على ما ألهم

والثناء بما قدّم

من عموم نعم ابتدأها

وسبوغ الآء أسداها

وتمام منن والاها..)[١].

ثم أشارت إلى فلسفة التوحيد والشهادة بقولها:

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

كلمة جعل الإخلاص تأويلها

وضمُن القلوب موصولها

وأنار في التفكر معقولها..)[٢].

وكانت غايتها الإيحاء للناس أن هذه (الكلمة عندما تنطلق من لسان الإنسان المؤمن فلا بد لها أن تنطلق من عمق الإخلاص في كل ما ترجع إليه من معانٍ، وأن تعيش القلوب أسرارها كلها وآفاقها كلها وامتدادها كله فيما يتصل به الفكر بعضه مع بعض، وأن ينطلق التفكير في حركة عقلية من أجل أن يتعرف الأسس العقلية التي تثير في النفس عمق معنى التوحيد)[٣]. فالزهراء (ع) بأسلوبها الوعظي هيأت النفوس واستمالتها للتدبر والتفكر والعودة إلى التماس سبيل الله والبعد عن الشطط والغاية هنا غاية تربوية وهي تربية النفس وتهذيبها.

ثم انتقلت إلى أسلوب آخر من أساليب الخطاب النفسي وهو أسلوب التنبيه والإرشاد، فنبهت إلى تنزيه الخالق عز وجل عن كل الصفات والأفعال البشرية و(تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الإفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان)[٤]، وأشارت لذلك بالقول:

(الممتنع من الأبصار رؤيته

ومن الألسن صفته

ومن الأوهام كيفيته)[٥].

إن غاية الزهراء (ع) في أسلوب خطابها كانت غاية إفهامية، فامتزج أسلوبها بين اللفظ والعقل لتصل إلى تلك الغاية، لذا كان خطابها مشحوناً ببنى قادرة على الإيحاء والتصوير

---

(١) الاحتجاج: أحمد بن علي الطبرسي ١/١١٣.

(٢) المصدر نفسه ١/١١٣.

(٣) شرح خطبة الزهراء (ع)/محمد حسين فضل الله ٢٦.

(٤) الحواميم السبعة (دراسة تحليلية فنية)، د. طالب عويد الشمري ٢٣.

(٥) الاحتجاج ١/١١٣.

لترسم مشهداً صورياً ينتقل أمام أنظار متلقيها ممزوجاً بفلسفة عقلية فكرية عن الغاية من خلق الكون والأشياء، مشيرة لذلك بالقول:

(ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها

وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها

كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته

من غير حاجة منه إلى تكوينها

ولا فائدة في تصويرها

إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته

وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته

وإعزازاً لدعوته)[1].

ثم انبرت (ع) إلى بيان العلة من الخلق والتبصير بذلك لتفلسف الركن الثالث من أصول العقيدة وهو المعاد والحساب، فقالت:

(ثم جعل الثواب على طاعته

ووضع العقاب على معصيته

زيادة لعبادة من نقمته

وحياشه لهم إلى جنته)[2].

فالزهراء (ع) استطاعت بدقة اختيارها لهيكلة هندسية قائمة على التكثيف والإيجاز في البنى، الإحاطة والشمول بفلسفة الخلق والوجود وعلتهما بأسلوب ينأى عن الملل والسأم رغم كثرة التكرار إلا أن ذلك الأسلوب كان باعثاً على العظة والتذكير والوقفة والتأمل.

المبحث الثاني: أسلوب الجدل والاحتجاج

يعد أسلوب الجدل والاحتجاج واحداً من اهم الاساليب التي يستعملها العقل البشري في محاوراته ومخاطباته، والقصد منه (الإتيان بالدليل والحجة والبرهان في إثبات الحق وإلزام الخصم بها)[3] في أسلوب حواري سلمي بعيداً عن العنف باللجوء إلى لغة الحوار المخاطب للعقول بوساطة الاستدلال المنطقي.

وقد عرّف الجرجاني الجدل بأنه: (القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان أو هو دفع المرء خصمه عن إفساد

(١) الاحتجاج ١/١١٢، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٣٩.

(٢) الاحتجاج ١/١١٢، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٣٩.

(٣) الحواميم السبع ١١٢.

قوله بحجة أو شبهة)[١]، فهو إذن سلاح فعّال هجومي ودفاعي في آن واحد[٢]، إذ يثير في النفوس حركة داخلية رغم شدة أسلوبه، تدفع بها إلى الاقتناع والإذعان تبعاً لمنطقية الحجج والبراهين.

لقد برعت الزهراء (ع) في استعمال وتوظيف هذا السلاح في خطبتها البليغة، إذ ألقت حججها على العقول لتدركها وتعود إلى الطريق الحق القويم، مخاطبة إياها بقولها:

(انتم عباد الله نصب أمره ونهيه

وحملة دينه ووحيه

وأمناء الله على أنفسكم

وبلغاؤه إلى الأمم

زعيم حق له فيكم

وعهد قدمه إليكم

وبقية استخلفها عليكم

كتاب الله الناطق والقرآن الصادق)[٣].

وكان سبيل الزهراء (ع) في أدلتها وحججها استدلالها بالحجة الكبرى وهي القرآن الكريم، إذ إن حجج آيات القرآن الكريم وهي غاية البلاغة والفصاحة والإعجاز البياني، تعد من أقوى وأدل البراهين المثبتة للقصد والغاية، نظراً لامتلاك بُناها قوة وقدرة لا تضاهى على إفحام كل الخصوم بمختلف مستويات تفكيرهم وبلاغتهم.

لذا فالمتأمل لأسلوب الزهراء (ع) في جدلها واحتجاجها يجد أن أسلوبها مشحون بالشدة والقوة المتأتية من تنوع الأساليب واختيار أكثرها تعبيراً، فنجدها تقول:

(فاتقوا الله حق تقاته

ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون

وأطيعوا الله فيما أمركم ونهاكم عنه

فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء)[٤].

فتضمينها القرآن الكريم في أسلوب خطابها يثريه ويمده بإيحاء دلالي يهز العقول ويدفع بها إلى التعقل والعودة، التي أن خالفتها دفعتها إلى مهاوي الضلالة والخسران.

فكان الاستدلال بالقرآن الكريم سبيلها لإثبات حقها ودليلاً في الوقت نفسه على بطلان دعوى خصومها وفق المنطق والبرهان وعلى ضوء الأدلة الواقعية، وقد ذكرت ذلك بقولها:

---

(١) التعريفات ٣٢.

(٢) الحواميم السبع ١٠٨.

(٣) الاحتجاج ١/١١٣ – ١١٤، أعلام الهداية فاطمة الزهراء (ع) (سيدة النساء)/لجنة التأليف/المجمع العلمي لأهل البيت ١٣٧.

(٤) الاحتجاج ١/١١٤، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٥٦.

(وانتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا
أفحكم الجاهلية تبغون
ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون
أفلا تعلمون)[١].

ولم يكن الاستدلال بالقرآن الكريم وحده أسلوب الزهراء (ع) في حجاجها بل اتخذت أسلوب الاستدلال العقلي والمنطقي أيضاً ووظفته في تثبيتها الإمامة وتأكيدها لبيت النبوة وتحقيق الحق لأهله بأسلوب تصويري بليغ يحمل بين طياته إيحاءات لتلك القضية، إذ قالت:

(فانقذكم الله تعالى بمحمد (ص)
بعد اللتيا والتي
وبعد أن مني ببُهم الرجال
وذؤبان العرب
ومردة أهل الكتاب
كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله
أو نَجَمَ قرن للشيطان
أو فغرت فاغرة من المشركين
قذف أخاه في لهواتها
فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه
ويخمد لهبها بسيفه)[٢].

فهي (ع) وجهت دعوة حقيقية للألباب بإلقائها الحجج المنطقية التي كانت دلائل واضحة ومصورة لزيف الاعتقاد والاعتناق لغامض السبيل الداعي لمجانبة الحق والعدول إلى الباطل.

المبحث الثالث: أسلوب التهكم والذم

يعبّر هذا الأسلوب عن الأغراض النفسية، إذ يميز به الخداع والمراء والكذب والنفاق وكل الأمراض النفسية التي تصاب بها النفس البشرية، فهو (هجوم متعمد على شخص لغرض سلبه كل أسلحته وتعريته من كل ما يتخفى فيه ويتحصّن وراءه)[٣].

ويمكن القول إن هذا الأسلوب في اللغة يعد من الأساليب النقدية، إذ يحكم بوساطته على شخصية ما بصفة من الصفات الذميمة نتيجة اتصافها بمثل تلك الخصال الداعية إلى السخرية والذم. وقد تنوعت طرائق التعبير عنه في أساليب اللغة فجاءت بصيغة التقريع أو اللوم

---

(١) الاحتجاج ١/١١٥ – ١١٦، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٩٣.
(٢) الاحتجاج ١/١١٥، أعلام الهداية ١٣٩، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٧٧.
(٣) الحواميم السبع ٩١.

أو التوبيخ أو التعجب الإنكاري وغيرها، وتضفي تلك الأساليب أبعاداً دلالية على النص لتصوّر وضاعة وسخرية الموجه له مثل هذا الأسلوب، لذا فإنها تشير إلى تأنيب وتصغير ونقد لاذع للضمائر والنفوس المتصفة بصفات تنبو عنها النفس السوية.

فكان هذا الأسلوب سلاح الزهراء (ع) لتآز به النفوس الذاهلة وتكشف ستر العقول الغافلة عن الحق، المتبعة للسبل المتفرقة، اللابسة لباس الدين وهي بعيدة كل البعد عن الطريق القويم، بل إنها تضمر النفاق وتدعو إلى الشقاق، فتراها تقول:

(فلما اختار الله لنبيه (ص) دار أنبيائه
ومأوى أصفيائه
ظهر فيكم حسكة النفاق
وسمل جلباب الدين
ونطق كاظم الغاوين
ونبغ خامل الأقلّين
وهدر فنيق المبطلين
فخطر على عرصاتكم
وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه
هاتفاً بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين
وللعزة فيه ملاحظين
ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً
وأحشمكم فألفاكم غضاباً
فوسمتم غير إبلكم
ووردتم غير مشربكم)[1].

فكان هذا الأسلوب لتصوير حال المنافقين الذين فضحت زيفهم بأسلوب بلاغي كنائي يتباين فيه البلغاء؛ لأنه يحتاج إلى اللمحة الذكية التي تعتمد معرفة دلالات الرموز، وهي في هذا كله تبث بنى تحمل دلالات خفية عن ضعف الدين وهزال لباسه الذي تجلبب به أولئك المنافقين.

وقد تنوعت وسائل التعبير وصيغه في خطاب الزهراء (ع) لتوظيف أسلوب التهكم والذم، فاستعملت التقريع واللوم مصوّرة ذلك بأسلوب شديد اللهجة ممتزجاً بتضمين الأمثلة والحكم التي تضرب لمن يدعي شيئاً ويريد غيره[2] ويعمد إلى الخداع بغواية الشيطان له

---

(١) الاحتجاج ١/١١٥، فاطمة الزهراء (ع) من المهد إلى اللحد ٢٩١.

(٢) ينظر: فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٩٩.

سعياً للقضاء على السُنّة والولاية بدعوى الوقاية من الفتنة، فتراها (ع) تقرعهم بتوظيف بنى موحية لمكرهم وخديعتهم عبر تصوير حالهم تلك بما تمجّه النفوس وتستهجنه، مشيرة لذلك بقولها:

(فهيهات منكم وكيف بكم
وأنى تؤفكون
وكتاب الله بين أظهركم
أموره ظاهرة وأحكامه زاهرة
وأعلامه باهرة وزواجره لائحة
وأوامره واضحة
وقد خلفتموه وراء ظهوركم
أرغبة عنه تريدون
أم بغيره تحكمون
﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[1]
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2])[3].

ثم أردفت قائلة:

(ثم أخذتم تورون وقْدَتها
وتهيّجون جمرتها
وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي
وإطفاء أنوار الدين الجلي
وإخماد سنن النبي الصفي
تشربون حسواً في ارتغاء)[4].

وتتمثل مهارة الزهراء (ع) وقدرتها الأسلوبية في توظيف صيغة الاستفهام التي كانت وسيلتها لذم فعلهم المنكر وحكمهم بخلاف كتاب الله عز وجل وأوامره الظاهرة، فترصع(ع) أسلوب خطابها بآيات من القرآن الكريم تقتبسها لتلزمهم بالاحتكام إلى الحق والعقل وتوبخهم باستعمال صيغة الاستفهام بحرف الهمزة الذي يخرج إلى معانٍ بلاغية غير

---

(١) الكهف ٥٠.

(٢) آل عمران ٨٥.

(٣) الاحتجاج ١/١١٥، أعلام الهداية/فاطمة الزهراء (ع) ١٤٠.

(٤) الاحتجاج ١/١١٥، أعلام الهداية/فاطمة الزهراء (ع) ١٤٠.

الاستفهام الحقيقي[1] تفهم من سياق الكلام والمقام ليكون أداتها للتعجب والتوبيخ بأسلوب تأنيبي يوحي بالذم والإنكار لمن يريد غمط حقها في الإرث، فتراها تقول:

(وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا
أفحكم الجاهلية تبغون
ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون!
أفلا تعلمون)[2].

ونلحظ قوة التصوير في أسلوب الزهراء (ع) حين أظهرت ألمها وتوجعها من خديعة القوم ونفاقهم وأذاهم لبيت النبوة وحيادهم عن الطريق المستقيم، وصبر آل البيت واحتسابهم على الأذى الذي صورته الزهراء (ع) بجريمة من قطعت أعضاءه ونبت سنان الرمح في أحشائه، فأعطت بتصويرها تلك الصورة إيحاءات عن بشاعة الموقف وعظم المأساة بأسلوب تهكمي ساخر لاثم في الوقت ذاته مجسدة عظم المشهد بجزالة الألفاظ وقوتها، حتى لكنها ترمي بسهام تصيب به كل مخادع ماكر، بقولها:

(وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء
ونصبر منكم على مثل حز المدى
ووخز السنان في الحشا)[3].

فكانت عبارات الزهراء (ع) تمتلك من الإيحاءات والدلالات ما تحرك به النفوس بتصويرها الأذى النفسي الذي تحملته عبر صور نابضة بالحركة لتثير العواطف والأحاسيس بتوظيفها التكثيف الدلالي للعبارات المصورة لذلك الأذى.

الخاتمة:

بعد هذا التجوال في رحاب الخطبة البليغة للسيدة الزهراء (ع) واستنطاق نصها وأساليبها التي وردت بها، نختم البحث بجملة نتائج ندرجها كالآتي:

١ - اختارت الزهراء (ع) اللفظ المعبّر الموحي ببلاغة عالية صادرة عن وعي وفكر قل نظيره ومثيله، فارتقت بأسلوبها وفصاحتها إلى درجة البلغاء؛ إذ جعلت الألفاظ ناطقة معبّرة رغم الموقف الذي ينأى فيه العقل عن التعقل والتدبر، فجاءت بجمل وعبارات قمة بالحكمة والعلم.

---

(١) ذكر بعض النحاة أن الهمزة قد تستعمل في غير معنى الاستفهام فتخرج إلى معانٍ أخرى هي: التسوية، التقرير، الإنكار، التوبيخ، التهكم، التعجب.. وغيرها وأنها تختص دون غيرها من أدوات الاستفهام بتلك المعاني، ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين/د. قيس اسماعيل الأوسي ٣٤٦.

(٢) الاحتجاج ١/١١٥ - ١١٦، أعلام الهداية/فاطمة الزهراء (ع) ١٤٠.

(٣) الاحتجاج ١/١١٥، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ٢٩٣.

٢ - إن تنوع الأساليب في الخطبة يومئ إلى قدرة ذهنية مذهلة في رقي التفكير النفسي؛ إذ كانت اختياراتها (ع) لأساليب الوعظ والإرشاد باعثاً لصقل النفوس وتخليصها من شوائبها، كما أن فيه إشارة إلى عمق التفكير اللغوي الذي ينتقي ما يناسب المقام من مقال.

٣ - برعت الزهراء (ع) بمسألة الاستدلال النقلي والعقلي، وهو ما يشير إلى ثقافتها الموسوعية: إذ استدلت بآيات القرآن الكريم ليكون حجة قوية لا تقبل الشك في الحجاج، كما أنها أذهلت سامعيها بقدرتها على الاستدلال العقلي حين قدمت فلسفة واضحة للعلة والمقدمات مشفوعة بالدليل النقلي.

٤ - قادت الزهراء (ع) ثورة هادئة لتصحيح الأفكار والرؤى ووضحت بأساليبها اللغوية البلاغية المتنوعة رسالة إفهامية تصحح بها مسار الخلافة الحقة.

٥ - عبّرت الزهراء (ع) بأساليبها عن رسالتها الفكرية حين صوّرت ما تبغي إيصاله عبر تصويرها بالألفاظ ذات الدلالات الرمزية فخاطبت العقول بأسلوب كنائي منسق قل نظيره في خطبة ارتجالية عالية الفصاحة متنوعة البيان.

المصادر والمراجع:

◆ القرآن الكريم

- **الاحتجاج**: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، دار المرتضى: بيروت، ط ١٤٢٩/١ هـ – ٢٠٠٨م.
- **أساليب الطلب عن النحويين والبلاغيين**: د. قيس إسماعيل الأوسي، بيت الحكمة: جامعة بغداد، د. ت.
- **الأسلوبية والبيان العربي**: د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. محمد السعدي فرهود، د. عبد العزيز شرف، الدار المصرية اللبنانية: مصر، ط ١٤١٢/١هـ – ١٩٩٢ م.
- **أعلام الهداية فاطمة الزهراء (ع) (سيدة النساء)**: لجنة التأليف، المجمع العلمي لأهل البيت: إيران، ط١٤٢٥/٢ هـ.
- **البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي**: د. محمود البستاني، دار الفقه للطباعة والنشر: إيران، ط١٤٢٤/١ هـ.
- **التصوير الفني في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)**: د. جبير صالح حمادي، مؤسسة المختار: القاهرة، ط١٤٢٨/١ هـ – ٢٠٠٧ م.
- **التعبير الفني في القرآن**: د. بكري شيخ أمين، دار الشروق: القاهرة، ط ١٣٩٣/١هـ – ١٩٧٣م.
- **التعريفات**: السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، المطبعة الخيرية: مصر، ط١٣٠٦/١هـ.
- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**: الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف: مصر، د. ت.
- **الحواميم السبع (دراسة تحليلية فنية)**: د. طالب عويد الشمري، سلسلة الإصدارات العلمية – المركز الوطني لعلوم القرآن والتراث الإقرائي: بغداد، ط ١٤٢٩/١ هـ – ٢٠٠٨ م.
- **شرح خطبة الزهراء (ع)**: السيد محمد حسين فضل الله، مطبعة باقري، المركز الإعلامي، ط ١٤٢٠/١ هـ – ١٩٩٩ م.
- **فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد**: السيد محمد كاظم القزويني، مؤسسة النور للمطبوعات: بيروت، ط١٤١١/١ هـ – ١٩٩١ م.
- **قبس من نور فاطمة (ع)**: الشيخ حسن الحائري، دار الثقلين: بيروت، د. ت.
- **مراعاة المخاطب في النحو العربي**: د. بان الخفاجي، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٢٠٠٨/١ م. ❖

خطبة الزهراء (ع) في المسجد النبوي الشريف (لما منعت فدكا)

د. حسن عبد المجيد عباس الشاعر

المقدمة:

الحمد لله على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضوان الإسلام لنا ديناً، والصلاة والسلام على من بعثه رحمة للعالمين المصطفى محمد وآل بيته أعلام الهدى وسفن النجاة، ومن شايعهم إلى يوم الدين.

وبعد، فإن الله تعالى بعث أنبياءه ورسله، لإنقاذ الناس من الشرك والضلالة، وجعل المصطفى حبيبه خاتمهم، فاستحق منا المحبة والسمع والطاعة، واتباع نهجه القويم بالقول والفعل، فناجز المشركين وأعداء الدين ووصّى بآل بيته، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وجعلهم قادة العباد من بعده، فحري بالمسلمين أن يقدموهم ولا يتقدموا عليهم تطبيقا لإيصاء الرسول بهم، وهو لا ينطق عن الهوى.

ويروى أن الزهراء ابنة المصطفى (ص) قد خطبت خطبة بمحضر رجال المهاجرين والأنصار ونسائهم، أماطت اللثام فيها عن ظلامتها في اغتصابها فدكا، وغصب بعلها علي بن أبي طالب (عليهما السلام) حقه، وهو أخ رسول الله، وولي أمر المسلمين من بعده. وقد استشهدت فيها بعشرين موضع من مواضع القرآن الكريم، وعدد من أحاديث أبيها (ص) من اجل الاستدلال على ظلامتها. وقد وردت في كتب مختلفة لعلماء السنة، والشيعة في سلسلة سند تصل تارة إلى السيدة زينب (ع)، وتارة أخرى إلى عبد الله بن الحسن عن آبائه (ع).

وفي خطبتها (ع) من أساليب البلاغة العجيب، ولا عجب، لأنها ابنة خير من نطق بالضاد، وحليلة من عرف بالخطب الطوال الجياد، وأمّ من فاهوا بأروع الكلام في شتى صنوفه قدام من عرفوا بالطغيان.

ويتعرض هذا البحث لدراسة أبنية المصادر الواردة في خطبة الزهراء (ع)، أم أبيها، وقرة عينه، وقد قام على أربعة مباحث هي: أبنية المصادر المجردة، وأبنية المصادر المزيدة، وما يلحق بأبنية المصادر، ونكات متفرقة.

وقد اعتمدت على الخطبة المروية في كتاب الاحتجاج لأحمد بن علي الطبرسي (عاش في القرن الخامس وأدرك القرن السادس)، وهي مسندة إلى عبد الله بن الحسن عن آبائه (ع)، وقد قابلتها بما نقله صاحب كتاب شرح خطبة الزهراء برواية عبد الله بن الحسن، والسيدة

زينب (ع)، والمحدث ابن عائشة البصري (ت٢٢٨هـ)[١]، فوقفت على بعض المواضع التي لا تأتلف مع أسلوب النص فأخذت بما يأتلف معه. وربما آخذ بالروايتين لصحتهما.

وعوّلت على أمهات كتب اللغة والصرف في الوقوف على أبنية المصادر في الخطبة وتصنيفها، وأسأل الله التوفيق في عملي ومنه القبول والرضوان.

المبحث الأول: أبنية المصادر المجردة

وهي تنقسم على قسمين: أبنية المصادر الثلاثية، وأبنية المصادر الرباعية: ولم يرد في خطبة الزهراء (ع) إلا القسم الأول ـ الذي ذكره الصرفيون بقسميه القياسي، وهو ما شاع وغلب استعماله في لغة العرب، والسماعي، الذي يحفظ ولا يقاس عليه لعدم شيوعه فيها ـ وذلك على النحو الآتي:

أ ـ أبنية المصادر القياسية:

١- **فَعْل**: يرد هذا البناء مصدرا لفَعَلَ ـ يخرج منه ما دلّ على حرفة، لان مصدره فِعالة[٢] ـ، وفَعِلَ المتعديين كالقتل، والشرب[٣]. وفَعَلَ اللازم إذا كان معتل العين كالسير[٤].

وقد ورد في خطبة الزهراء بألفاظ هي الندب، والأمر، والحتم، والقبض، والنهي، والحق، والعهد، والحج، والعدل، والصبر، والأجر، والحقن، والنذر، والبخس، والقذف، والترك، والعود، والمحض، والكلم، والخوف، والبدء، والحسو (تناول الطعام)، والحزّ، والوخز، والعمد، والحشر، والخطب، والوهن، والفتق، والرتق، والفصل، والخير، والكد، والهرج، والخفض، والبسط، والغيظ، والغدر: وهي كلها من فَعَلَ المتعدي، والحمد، والسمع من فَعِلَ المتعدي، والغيب، والعيش من فَعَلَ اللازم.

ويلاحظ إتيان فَعْل من فَعَلَ المتعدي بكثرة في حين قل استعمال ما ورد منه من فَعِلَ المتعدي، وقيل إن ذلك غالب في كلام العرب[٥]. وربما كانت الغلبة متأتية من فَعَلَ المتعدي لا فَعِلَ؛ ويناظر ما ورد على فَعَلَ المتعدي ما ورد على فَعَلَ اللازم إذا كان معتل العين في القلة.

٢- **فَعَل**: يرد هذا البناء مصدرا لفَعِلَ اللازم، ويخرج منه ما دل على لون، لأنه يبنى على فُعْلَة[٦]. وقد ورد في خطبة الزهراء بألفاظ هي التعب، والسخط، والغلط، واللهب، والخور، والغضب.

٣- **فُعال**: ورد من ذلك الصراخ. وقد أشير إلى قياسية هذا البناء فيما دلّ على صوت، وما دلّ على داء[٧].

٤- **فِعال**: ينقاس هذا البناء فيما دلّ على امتناع كالحران، والإباء[٨]. وورد في خطبة الزهراء من ذلك الصيام.

٥- **فِعالة**: ينقاس هذا البناء فيما دلّ على الولاية وشبهها، والحِرَف[٩]. وورد في خطبة الزهراء من ذلك ما يقع في القسم الأول وهو الإمامة.

ب ـ أبنية المصادر السماعية:

١ ـ **فَعْل**: ورد من ذلك الوهي، والحظ، وكلاهما من فَعَلَ اللازم الناقص والمضاعف.

٢ ـ **فُعْل**: ينقاس هذا البناء إذا دل على الحسن والقبح، وللحسن والقبح مصادر تبنى على فَعالة، وفَعال، وفُعْل، وفَعالة أكثرها[١٠]. ولكن هذا البناء لم يستعمل في خطبة الزهراء دالا على الحسن والقبح، وذلك في الشكر، والحكم والذل، والكفر، والشرب، والجرح، والبؤس.

٣ ـ **فُعْلة**: ينقاس هذا البناء إذا دل على لون[١١]. ولكنه لم يرد دالا على هذه الدلالة في خطبة الزهراء، وهو القوة، والحرمة، والرؤية.

٤ ـ **فِعْل**: لا ينقاس هذا البناء في شيء، وما ورد منه يحفظ ولا يقاس عليه[١٢]. وقد ورد في خطبة الزهراء العلم، والشرك، والرزق، والدين، والعزّ، والبرّ، والإرث، والإفك، والضيق، والقيل، والفعل، والغبّ.

٥ ـ **فِعْلة**: لا ينقاس هذا البناء إلا في إتيانه دالا على الهيأة[١٣]، وورد بخلاف ذلك مصدرا من دون أن يدل على الهيأة، وهو السِّنة، والصِّلة، والصِّفة بإسقاط فاء البناء والتعويض عنه بالتاء، والسَّعَة، والدَّعَة، وأصلهما فِعْلَة ـ وقد استثقل كسر الواو فنقلت الكسرة إلى العين، فوجب حذف الفاء، ثم تحرك عين البناء بحسب حركة عين مضارعه[١٤] ـ، والعلّة، والحظوة.

٦ ـ **فَعَل**: ورد من ذلك العدم من فَعِلَ المتعدي، والشطط من شطّ اللازم.

٧ ـ **فَعَلة**: ورد من ذلك الطاعة، والطاقة، والراحة.

٨ ـ **فُعَلة**: ورد من ذلك النُّعَرَة (العصبية).

٩ ـ **فَعِلة**: ورد من ذلك السرقة.

١٠ ـ **فِعَلَة**: ورد من ذلك الخيرة (الاصطفاء).

١١ ـ **فَعال**: ورد من ذلك التمام، والجزاء، والنجاة، والزكاة، والنماء، والأمان، والوفاء، والممات، والقضاء، والصلاح، والحياة.

١٢ ـ **فَعالَة**: ورد من ذلك العماية، والغواية.

١٣ ـ **فُعال**: ورد من ذلك التراث، والهتاف.

١٤ ـ **فُعالَة**: ورد من ذلك القحافة (أكل الطعام أو الثريد في الفناء كلّه)، والظلامة، وقد دلّت الكلمة الأولى على ما فيه معنى الفضالة، أو أخذ شيء قليل من كثير، ودلّت الأخرى على الجزاء على الفعل، وهما الدلالتان المعروفتان في هذا البناء[١٥].

١٥ - **فِعالَة**: ورد من ذلك الذيادة، والحياشة، والهداية، والوقاية، والتلاوة، والنذارة.

١٦ - **فُعول**: ورد من ذلك الخصوص، والعموم من خصّ، وعمّ المتعديين من خصوص القرآن وعمومه، وهو ينقاس فيما ورد من فَعَلَ اللازم[١٦].

١٧ - **فَعيلة**: ورد من ذلك العزيمة.

١٨ - **فِعْلان**: ورد من ذلك العرفان، والرضوان.

١٩ - **فُعَلِّيَة**: ورد من ذلك البلهنية (الرخاء).

المبحث الثاني: أبنية المصادر المزيدة

وهي تنقسم على قسمين: أبنية المصادر الثلاثية، وأبنية المصادر الرباعية؛ وتكاد تكون كلها قياسية. ولم يرد في خطبة الزهراء (ع) إلا القسم الأول، وذلك على النحو الآتي:

١- **إفعال**: وهو المصدر القياسي للفعل الثلاثي المزيد بالهمزة (أفْعَلَ)[١٧]. وقد ورد منه الإدراك، والإخلاص، والإظهار، والإعزاز، والإحاطة، والإمضاء، والإنفاذ، والإيثار، والإيمان، والإسلام، والإيجاب، والإهماد، والإلحان (الإفهام)، والإعلان، والإقدام، والإجزال، والإبصار، والإتمام.

٢- **إفالة**: وهو في الأصل (إفعال)، ومختص بما اعتلت عينه، وقد تحول إلى هذه الصورة بعد إسقاط عينه، ونقل حركتها إلى فاء البناء، والتعويض عنها بتاء التأنيث، وربما لا تثبت التاء في الآخر[١٨]. وورد من ذلك الإهالة.

٣- **فِعال**: وهو المصدر القياسي للفعل الثلاثي المزيد بالألف (فاعَلَ)[١٩]. وقد ورد منه النفاق، والعقاب، والجهاد، والشقاق، والنزال، والقتال، والكفاح.

٤- **مفاعَلَة**: وهو المصدر القياسي الثاني للفعل الثلاثي المزيد بالألف (فاعَلَ)[٢٠]، وقيل إنها تختص بالأفعال اللازمة[٢١]، وما كانت فاؤه ياء[٢٢]. وقد ورد منه المجاورة. ويلاحظ أن المجاورة مشتقة من الفعل جاور، وهو متعدٍ، ولم تكن فاؤه ياء، أي إن هذا البناء قد يختص بالأفعال المتعدية التي ليست من المثال اليائي في الأصل.

٥- **تفعيل**: وهو المصدر القياسي للفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عين البناء (فَعَّلَ) ما صحّت لامه، ولم يكن مهموزا[٢٣]. وقد ورد منه التأويل، والتفكير، والتكوين، والتصوير، والتثبيت، والتنبيه، والتطهير، والتنزيه، والتشييد، والتنسيق، والتعريض (التهيؤ)، والتغيير.

٦- **تَفْعِلَة**: وهو المصدر القياسي الثاني للفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عين البناء (فَعَّلَ) ما اعتلت لامه، وكان مهموزا[٢٤]. وهو عند الرضي سماعي بالرغم من كثرته في لغة العرب[٢٥]، وهو قياسي عند ابن عقيل، والأشموني، لأنه التفعيل بعد حذف يائه

والتعويض عنها بتاء[٢٦]. وقد ورد منه التزكية، والتوفية، والتقدمة. ويلاحظ أنها قد تختص بما صحت لامه.

٧- **افتعال:** وهو المصدر القياسي للفعل الثلاثي المزيد بهمزة الوصل والتاء (افتَعَلَ)[٢٧]. وقد ورد منه الاتصال، والاحتذاء، والاختيار، والاستماع، والاجتناب، والابتدار، والارتفاء، والاغتلال، والاعتلال، والاتّباع.

٨- **تَفعُّل وتَفعّل:** وهو المصدر القياسي للفعل الثلاثي المزيد بالتاء وتضعيف عين البناء (تَفعَّلَ) بضم العين، وتكسر في أمثلة الناقص للمناسبة[٢٨]. وقد ورد منه التعبُّد، والتظنّي.

٩- **استِفْعال:** وهو المصدر القياسي للفعل الثلاثي المزيد بهمزة الوصل والسين والتاء (اسْتَفْعَلَ)[٢٩]. وقد ورد منه الاستيجاب.

١٠- **استِفالَة:** وهو في الأصل (اسْتَفْعَلَ)، ويكون فيما اعتلت عينه، وجرى فيه ما جرى بأفعل، الذي اعتلت عينه[٣٠]. وقد ورد منه الاستزادة.

المبحث الثالث: أبنية مصادر مختلفة

١- **اسم المرة:** مصدر يبنى من الفعل الثلاثي المجرد على زنة (فَعْلَة)، ويبنى من غير الثلاثي المجرد بأحوال مختلفة[٣١]. ولم يرد في خطبة الزهراء (ع) إلا مبنياً من الثلاثي المجرد، وهو الدعوة، والرأفة، والرغبة، والرحمة، واللعنة، والمذقة، والنهزة، والقبسة، والنفرة، والوقدة، والغيبة، والخبرة، والصرخة، والفورة، والخذلة، والغدرة، والفيضة، والبثّة، والنفثة.

٢- **اسم الهيأة:** مصدر يبنى من الفعل الثلاثي المجرد على زنة (فِعْلَة) للدلالة على الحال أو الهيآة التي يكون عليها الفاعل لا الجنس ولا العدد، وإذا ورد بهذا البناء في الأصل كان اسم الهيآة منه بالوصف، نحو أقمت إقامة واحدة: وشذ في غير الثلاثي المجرد، نحو حَسَن العِمَّة من تعمّمَ[٣٢]. وورد من ذلك في خطبة الزهراء الغِرَّة (الغفلة في اليقظة)، وهو مشتق من الثلاثي المجرد (غرّ).

٣- **المصدر الميمي:** مصدر مبدوء بميم زائدة يبنى من الثلاثي المجرد على زنة (مَفْعَل) مثل مضرب، وقد يبنى على (مَفْعِل) مثل مرجع إلا إذا كان مثالاً واوياً، فالقياس بناؤه على (مَفْعِل) مثل موعد، وتلحقه تاء التأنيث مثل معيشة، ويبنى من الثلاثي والرباعي المزيدين على زنة اسم المفعول منهما[٣٣].

ولم يتوسع العرب فيه كتوسعهم في استعمال المصدر، لأنه متلبس بذات في الغالب، ويحمل معنى أضيق من المصدر غير المبدوء بميم زائدة يستشف ذلك من كلام الدكتور فاضل السامرائي من أن المصير غير الصيرورة، فالمصير نهاية الأمر، والصيرورة التحول، ومثلهما المآب والإياب، والمنتهى والنهاية، ولكنه برأيي غير متلبس بذات[٣٤].

ويلاحظ اتفاق صوغ المصدر الميمي مع صوغ اسمي الزمان والمكان، وهذا ما أدى إلى دعوة الباحث عبد الوهاب محمود الكحلة على جمعهما[٣٥].

ويبدو أن الصواب يكون في التفريق بينهما، لارتباط اسمي الزمان والمكان بالزمان تارة وبالمكان تارة أخرى في حين أن المصدر الميمي غير متلبس بها. وبحسبان هذا الرأي اقترح أن المصدر الميمي كان في الأصل اسم زمان ومكان متلبس بذات إلى يومنا هذا، وقد توسع في استعماله من دون أن يتلبس بذات فصار المصدر الميمي، ولكن المصادر التي تخلو من الميم الزائدة أوسع منه استعمالاً.

وبني المصدر الميمي في خطبة الزهراء من الثلاثي المجرد فحسب، وهو الشائع في لغة العرب على زنة (مَفْعَل)، وهو المآل، والمأوى، والمرأى، والمسمع، والمجمع، وبنته على (مَفْعَلة) وذلك بالمنماة، والمسناة، والمعونة، والمصلحة، والمدرجة، ولم تستعمله على زنة (مَفْعِل) إلا ملحوقاً بالتاء بالمشيئة، والمعصية، والمعرفة، والمغفرة، والموعظة.

٤- **اسم المصدر**: مصدر نقص من أحرفه الأصول أصل من دون تعويض، قال ابن عقيل (ت٧٦٩هـ) عنه: (ما ساوى المصدر في الدلالة [على معناه] وخالفه بخلوه - لفظاً وتقديراً - من بعض ما في فعله دون تعويض كعطاء: فإنه مساوٍ لإعطاء معنى، ومخالف له بخلوه من الهمزة الموجودة في فعله، وهو خال منها لفظا وتقديرا، ولم يعوض عنها شيء)[٣٦]. وكان ابن الناظم بدر الدين محمد بن محمد بن مالك (ت٦٨٦هـ) عدّ عطاء مصدراً سقطت منه الهمزة، وعدّ ابن عقيل كلامه زعما، وهو بخلاف ما يراه النحويون[٣٧]. وقد أشار سيبويه (ت١٨٠هـ) من قبل إلى مجيء المصدر على غير فعله، والذي سوّغ ذلك اجتماع المعنى كالاجتوار والتجاور، والنبات والإنبات[٣٨]. والمعنى المعجمي في ذلك كله مؤتلف، ولكنه مختلف صرفياً. وذكر بعض الباحثين أن المصدر هو الفعل الصادر من الانسان أو غيره في حين أن اسم المصدر هو اسم معناه كالتسبيح الذي معناه سبحان[٣٩].

وقد ورد اسم المصدر في خطبة الزهراء على زنة (فَعال)، وذلك بالثواب من أثاب، والبيان من أبان، والشنار من شنَّر، والعذاب من عذَّب. وكان سيبويه قد أشار إلى إتيان فَعال دالا على اسم المصدر[٤٠].

وقد أشار المستشرق هنري فليش إلى قدم فَعال، وعدّها أصلاً للكثير من المصادر غيره يؤيد ذلك إتيان أسماء مصادر ليس لها أفعال من اشتقاقها يبدو أنها ماتت وبقيت مصادرها[٤١]. ويعضد رأيه ما ذكره المستشرق برجشتراسر من أن هذه الصيغة هي الصيغة المصدرية الوحيدة لفَعَلَ في اللغتين الأكدية، والعبرية[٤٢]. والذي يبدو لي أن اسم المصدر مصدر مخفف سواء أكان له فعل - له مصدر مقيس -، أم لم يكن.

٥- **المصدر الصناعيّ**: مصدر يصاغ من اللفظ بزيادة ياء مشددة وتاء التأنيث على آخره كالحرية، والوطنية، والإنسانية، والهمجية، والمدنية[٤٣]. ويلاحظ أنه يصاغ من ألفاظ شتى تختلف في أوزانها وأنواعها الصرفية فاللفظ يمكن أن يكون صفة، أو اسماً، أو اسم جنس جمعي. وربما كان قبل هذا الوضع اسما منسوبا بدليل أن لفظ المدنية منسوب إلى المدينة أيا كانت، أي: مدنيّ، ثم زيدت التاء عليها.

وقد ورد في خطبة الزهراء الربوبية، والكيفية. ويلاحظ من خلالهما أن مجال استعماله قد اتسع بإتيان اللفظ جمع تكسير، فضلاً عن إتيانه أداة.

المبحث الرابع: نكات متفرقة

المقابلة في المصادر:

تكمن روعة الأسلوب ولا سيما إذا كان وعظياً في المقابلة بين الشيء وضدّه، واتضح هذا الأسلوب في خطبة الزهراء بصورة جلية، وذلك في المواضع الآتية:

١- (ثم جعل **الثواب** على **طاعته** ووضع **العقاب** على **معصيته**).

٢- (**ذيادة** لعباده عن نقمته **وحياشة** لهم إلى جنته).

٣- (والجهاد **عزّا للإسلام**، **وذلاً لأهل الكفر والنفاق**).

٤- (**والأمر** بالمعروف، **والنهي** عن المنكر).

٥- (وهذا بعد **وفاته** شبيه بما بُغي له من الغوائل في **حياته**).

الموازنة في التراكيب:

من بديع القول ما كان موزوناً ولا أعني بالموزون الأوزان الشعرية التي توجد في بعض الأحيان في النثر، وإنما أعني بها استعمال بناء في كل تركيب منفرد أو مجتمع من سنخ البناء المتقدم نفسه إن كان مفرداً أو مجموعاً، فضلاً عن مراعاة عدد وروده، وكثر ما يراعى إتيان الأبنية بأوزانها، وفي حال عدم تحقق الوزن يتحقق عدد الأحرف التي يتكون منها، وكان هذا اللون من الأساليب شائعاً في خطبتها (ع)، وذلك في المواضع الآتية:

١- (ابتعثه الله تعالى **إتماماً لأمره**، وعزيمة على **إمضاء حكمه**، **وإنفاذاً** لمقادير **رحمته**).

٢- (فأنار الله تعالى بأبي محمد (ص) **ظلمها**، وكشف عن القلوب **بهمها**، وجلّى عن الإبصار **غممها**).

٣- (وقام في الناس **بالهداية**، وأنقذهم من **الغواية**، وبصّرهم من **العماية**).

٤- (قبضه الله إليه قبض **رأفة واختيار**، **ورغبة وإيثار**).

٥- (**ورضوان** الرب الغفار، **ومجاورة** الملك الجبار).

٦- (أنتم عباد الله نصب **أمره ونهيه**).

٧- (قائد إلى **الرضوان اتّباعه**، مؤد **إلى النجاة استماعه**).

٨- (فجعل الله **الإيمان تطهيرا** لكم من الشرك، **والصلاة تنزيها** لكم عن **الكبر، والزكاة تزكية** للنفس **ونماء** في **الرزق**).

٩- (**والصيام تثبيتا** للإخلاص، **والحج تشييدا** للدين، **والعدل تنسيقا** للقلوب).

١٠- (**وطاعتنا نظاماً** للملة، **وإمامتنا أماناً** من الفرقة).

١١- (والصبر **معونة** على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **مصلحة** للعامة).

١٢- (والوفاء بالنذر **تعريضا** للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين **تغييراً** للبخس، والنهي عن شرب الخمر **تنزيها** عن الرجس).

١٣- (وترك **السرقة إيجاباً للعفة**، وحرّم الله **الشرك إخلاصاً** له **بالربوبية**).

١٤- (ولا أقول ما أقول **غلطاً**، ولا أفعل ما أفعل **شططاً**).

١٥- (وطاح وشيظ **النفاق**، وانحلت عقد الكفر **والشقاق**).

١٦- (وكنتم على شفا حفرة من النار **مذقة** الشارب، **ونهزة** الطامع، **وقبسة العجلان**).

١٧- (وتنكصون عند **النزال**، وتفرون من **القتال**).

١٨- (هذا **والعهد** قريب، **والكلم** رحيب، **والجرح** لما يندمل).

١٩- (**وإطفاء** أنوار الجليّ، **وإهماد** سنن النبيّ الصفيّ).

٢٠- (ونصبر منكم على مثل **حزّ** المدى، **ووخز** السنان في الحشا).

٢١- (وزعمتم **ألا حظوة** لي ولا **إرث** من أبي).

٢٢- (أم أنتم أعلم **بخصوص** القرآن **وعمومه** من أبي وابن عمي).

٢٣- (ما هذه **الغميزة** في **حقي**، **والسِّنة** عن **ظلامتي**)

٢٤- (ولكم **طاقة** على ما أحاول، **وقوة** على ما أطلب وأزاول).

٢٥- (أتقولون مات محمد **فخطب** جليل، استوسع **وهيه**، واستنهر **فتقه**، وانفتق **رتقه**، وأظلمت الأرض **لغيبته**).

٢٦- (أأهضم تراث أبيَهْ وأنتم **بمرأى** مني **ومسمع ومنتدى ومجمع** تلبسكم **الدعوة** وتشملكم **الخبرة**).

٢٧- (توافيكم **الدعوة** فلا تجيبون، وتأتيكم **الصرخة** فلا تغيثون).

٢٨- (وأنتم موصوفون **بالكفاح**، معروفون بالخير **والصلاح**).

٢٩- (**والنُّجَبَة** التي انتجبت، **والخِيَرَة** التي اختيرت).

٣٠- (ودرّ حلب الأيام، وخضعت **نُعَرَة الشرك**، وسكنت **فورة الإفك**، وخمدت نيران **الكفر**، وهدأت **دعوة الهَرْج**، واستوسق **نظام الدين**).

٣١- (فأنى جُرْتم بعد **البيان**، وأسررتم بعد **الإعلان**، ونكصتم بعد **الإقدام**، وأشركتم بعد **الإيمان**).

٣٢- (قد أرى أن قد أخلدتم إلى **الخفض** وأبعدتم من هو أحقّ **بالبسط والقبض**، وركنتم إلى **الدعة** ونجوتم من **الضيق بالسعة**). ويلاحظ أنها وازنت الواحد باثنين لعظم ظلامتها، وكبير احقيتها.

٣٣- (ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني **بالخذلة** التي خامرتكم **والغدرة** التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها **فيضة** النفس، **ونفثة** الغيظ، **وخور** القنا، **وبثّة** الصدور، **وتقدمة** الحجة).

٣٤- (موسومة **بغضب** الله وشنار **الأبد**).

٣٥- (أفتجمعون إلى **الغدر** اعتلالا عليه **بالزور**).

٣٦- (ما أزاح **علة** المبطلين، وأزال **التظني والشبهات** في الغابرين). وقد وازنت الواحد هنا باثنين لكبير خطر من يتظنى ويشتبه في الأحكام، ولكن خطر من يبطلها بالرغم من وجود عللها أكبر.

٣٧- (معاشر الناس المسرعة إلى **قيل** الباطل المغضية على **الفعل** القبيح الخاسر). وصفت (ع) الثاني بوصفين، لأن الفعل أوقع في النفوس من القول في بعض المواضع.

اجتماع المصادر في السياق الواحد:

ربما تجتمع المصادر في موضع واحد معطوفا أحدها على الآخر من باب ثبوت الأحداث واستمراريتها، وورد هذا الأسلوب في قولها (ع): (أعلن بها كتاب الله جلّ ثناؤه في أفنيتكم **في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وإلحاناً**).

التناوب بين المصادر:

قد تدعو الحاجة إلى التناوب بين المصادر طلبا للمعاني المقصودة بالرغم من وجود المصادر التي نابت منابها، وبدا هذا النحو من الاستعمال في خطبة الزهراء (ع) في المواضع الآتية:

١- القدرة بدلاً من الاقتدار في قوليْها فيما يخص الأشياء: (كونها بقدرته)، و(إظهاراً لقدرته)، لأن الاقتدار فيه جهد مبذول، والله تعالى منزّه عن ذلك.

٢- الفرقة بدلاً من الافتراق في قولها: (وإمامتنا أمانا من الفرقة)، لعظم خطر افتراق أمة أبيها عنهم، فهو أوقع في النفوس من الفرقة التي ربما يخلفها اللقاء.

٣- الكِبْر بدلاً من التكبّر في قولها: (والصلاة تنزيها لكم عن الكِبْر)، لأن التكبر فيه مهلة وتدرج، وقد يكون أشد وطأة من الكبر الذي قد يبدو، وسرعان ما يخبو.

٤- القِصاص بدلاً من الاقتصاص في قولها: (والقصاص حقنا للدماء)، لأن الاقتصاص فيه جهد ومبالغة في تحصيل الشيء، والقصاص لا بد من إيقاعه. وورد في رواية أخرى (حصنا) بدلا من الإحصان، لأن دماء المسلمين حصن منيع لا يمكن دكّه.

٥- النظام بدلاً من الانتظام في قولها: (وطاعتنا نظاما للملّة)، لأن الانتظام فيه إعمال وتنظيم، وملة أبيها نظام من الله لا ينحلّ عقده قامت الدنيا أو قعدت.

٦- السبوغ بدلاً من الإسباغ في قولها: (وسبوغ آلاء أسداها)، لأن الإسباغ فيه مبالغة بإسداء الآلاء ولا يكون إلا من الله، وبحسبان هذا المعنى ورد الفعل (أسبغ) في كتاب الله الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[٤٤].

٧- النهاية بدلاً من الانتهاء في قولها فيما يخص الخلائق: (وبنهاية العدم مقرونة)، لأنها قصدت غاية الشيء لا بلوغه.

٨- **سَرعان** بدلاً من الإسراع في قولها فيما يخص ظالميها: (سرعان ما أحدثتم)، **وسُبحان** بدلاً من التسبيح في قولها: (سبحان الله ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله صادفا ولا لأحكامه مخالفاً)، لأن الإسراع أخف وطأة من السرعان، والتسبيح فيه تكثير الفعل، وهي لم تطلب

النقل من المصدرية إلى الاسمية:

إذا اعتاد اللسان على ألفاظ، وكانت قريبة إليه، ولا سيما ما يخص الاجتماع، والدين فإنه ينقلها من دلالتها على الحدث المجرد إلى الاسمية، وإن لم تحس، أو تقع عليها العين، ولكنها آثارها واضحة، ولها وقع في النفوس كبير. ومما ورد من ذلك في خطبة الزهراء (ع): الدين، والحكمة، والزور، والعمر، والفتنة، والنقمة، والعار، والأبد، والقيامة (مشهد الآخرة وقيام الناس).

وربما كان قسم منها قريباً من المصادر، ولكنه اسم يقع على عين، وهي: النور، والرِّجس، والحَلَب (اللبن)، والغطاء، والحجاب، والكتاب، والضياء.

جمع المصادر:

جمعت المصادر في خطبة الزهراء (ع) بطريقتين هما:

١- **جمع التكسير:** غلب في خطبة الزهراء جمع المصادر جمع تكسير، وقد استعملت الأوزان الآتية:

أ- **فُعَل** جمعا لفُعْلة، وهو البهم، والظلم، والغمم، والرخص، والعقد.

ب- **فِعَل** جمعا لفِعْلة، وهو النعم.

ت- **فعول** جمعا لفَعْل، وهو الأمور.

ث- **أفعال** جمعا لفَعَل، وهو الأبصار، والآمال، والأعمال، وفَعْل، وهو الآلاء جمع ألو (النعمة)، والأكظام، وفُعْل، وهو الأحكام، والأنوار.

ج- **فَعائل** جمعا لفَعيلة، وهو البصائر، والسرائر، والشرايع بتسهيل الهمز، والفرائض.

ح- **مفاعل** جمعا لمَفْعَل، وهو المحارم.

خ- **فعالل** جمعا لفِعللة أو فِعفعة الرباعي المضاعف، وهو الشقاشق جمع شقشقة (الفتنة، وهو في الأصل شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه إذا هدر)، وهو الموضع الوحيد الذي فيه (ع) المصدر الرباعي.

واستعمال الزهراء هذه المصادر هو مما شاع جمعه لدى العرب بالرغم من قول سيبويه: المصادر لا تجمع[٤٥]. ولكن الملاحظ على قسم من هذه المصادر أنها قربت إلى الاسمية فجاز جمعها.

٢- **جمع المؤنث السالم:** خصّت (ع) هذا الجمع بالثلاثي المجرد المختوم بتاء، وهو بركات، ولهوات، وشبهات.

إتيان المصدر بمعنى المشتق:

ورد هذا الاستعمال في موضعين هما:

١- قالت: (ولقبله ما حلّت بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم).

٢- قالت: (هذا كتاب الله حكما عدلا وناطقا فضلاً).

والمصادر المذكورة في خطبتها وردت بمعنى اسم الفاعل، وقد أشار إلى ذلك اللغويون من أنه ورد في لغة العرب مثل قولهم: رجل عَدْل، أي: عادل، ويوك غمّ، أي: غامّ، ورجل نوم، أي: نائم[٤٦].

الخاتمة:

اتضح بعد الفراغ من كتابة البحث في أبنية المصادر في خطبة الزهراء (ع) الأمور الآتية:

١- ميل الزهراء (ع) إلى أبنية المصادر الثلاثية المجردة والمزيدة، وهذا متأت من كثرة الأفعال الثلاثية ومصادرها في كلام العرب، ولم تستعمل من المصادر الرباعية المجردة إلا مصدراً واحداً في حال الجمع، وهو شقاشق جمع شقشقة.

٢- ميلها إلى المصدرين القياسين فَعْل، وإفعال. وهما مما شاع في كلام العرب.

٣- سمعت في خطبتها مصادر سماعية كثيرة بأوزان مختلفة.

٤- اقترح من خلال البحث أن اسم المصدر مصدر كالمصادر الأخرى غير المبدوءة بميم زائدة. وأن المصدر الميمي كان في الأصل اسم زمان ومكان متلبس بذات إلى يومنا هذا، وقد توسع في استعماله من دون أن يتلبس بذات فصار المصدر الميمي، ولكن المصادر التي تخلو من الميم الزائدة أوسع منه استعمالا.

٥- بان من خلال استشهادها بالقرآن الكريم، وأحاديث أبيها الشريفة عظم ظلامتها، وهذا العظم اضطرها إلى الكلام بكلام ذي وقع كبير في نفوس المسلمين.

٦- اتضح في أسلوب خطبتها المقابلة بين المصادر، كالثواب والعقاب، والأمر والنهي، وهو أمر يشد السامعين ويخوفهم بقدر ما يمنيهم.

٧- اتضح في أسلوب خطبتها الموازنة بالمصادر في التراكيب، فإذا استعملت مصدراً واحداً أو اثنين في تركيب ما عطفت عليه بتركيب فيه العدد نفسه من المصادر. وربما يتجاوز الأمر إلى موازنة اثنين بواحد لعظم خطر الواحد.

٨- ناوبت (ع) في خطبتها بين المصادر، فهي قد تميل لاستعمال مصدر اقترب للاسمية بدلاً مما اقترب إلى الفعلية لغاية ما وقفنا عليها بقدر ما يسعنا من قوة.

٩- ورد في خطبتها المباركة مصادر اقترب قسم منها إلى الاسمية، والقسم الآخر إلى العلمية، لكثرة تداولها في المجتمع.

١٠- جمعت المصادر في خطبتها بطريقتين: جمع المؤنث السالم، وجمع التكسير، الذي كان له النصيب الأوفر، وغلب جمع ما اقترب للاسمية.

١١- الميل في مواضع معدودة على إتيان المشتق بمعنى المصدر بحسبان أن الأحداث في المصادر فيها ثبوت كبير.

الهوامش:

(١) ينظر: الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (عاش في القرن الخامس وأدرك القرن السادس الهجري)، تح: السيد محمد باقر الخرسان: ١/١٣١ ـ ١٤٦. ومعجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت١٩٩١هـ)، رقم ترجمة ابن عائشة ١٥١٣٣: ٢٣/٢٠٦، وشرح خطبة الزهراء، السيد باقر الكيشوان الموسوي: ١٣ ـ ١٦.

(٢) ينظر: الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون: ٤/٨١.

(٣) ينظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد: ٩٩/٤. وشذا العرف في فن الصرف، الشيخ أحمد الحملاوي: ٧٥.

(٤) ينظر: شذا العرف: ٧٢.

(٥) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي، تح: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد: ١٥٦/١.

(٦) ينظر: الكتاب: ١٦/٤، وشرح الرضي على الشافية: ١٥٦/١، ١٥٧، ١٦٣. وشرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل المصري، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، : ١٢٢/٢، ١٢٦. وشرح الأشموني: ٩٤/٤، ٩٥، وشذا العرف: ٧٣.

(٧) ينظر: الكتاب: ١٠/٤، ١٤، وشرح المفصل، ابن يعيش: ٤٦/٦، وشرح الرضي على الشافية: ١٥٤/١ ـ ١٥٥، وشرح ابن عقيل: ١٢٥/٢، وشرح الأشموني: ٩٥/٤، وشذا العرف: ٧٢.

(٨) ينظر: الكتاب: ١٢/٤، وشرح الرضي على الشافية: ١٥٣/١ ـ ١٥٤، وشرح ابن عقيل: ١٢٥/٢، وشرح التصريح على التوضيح، الشيخ خالد الأزهري: ٧٣/٢، وشرح الأشموني: ٣٠٤/٢، وشذا العرف: ٧٢.

(٩) ينظر: الكتاب: ١١/٤، وشرح الرضي على الشافية: ١٥٣/١، وشرح الأشموني: ٩٤/٤، وشذا العرف: ٧٢.

(١٠) ينظر: الكتاب: ٢٨/٤، والمقتضب، المبرد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة: ١٢٥/٢، والمقرب، ابن عصفور تح: أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري: ١٣٣/٢، والأبنية الصرفية في ديوان امرئ القيس، صباح عباس سالم: ٨٢.

(١١) ينظر: الكتاب: ٢٥/٤، ٢٦، ٢٧، وشذا العرف: ٧٢.

(١٢) ينظر: شرح ابن عقيل: ١٢٦/٢، وشذا العرف: ٧٣.

(١٣) ينظر: الكتاب: ٤٤/٤، وشرح المفصل: ٥٧/٦، وشرح الرضي على الشافية: ١٨١/١.

(١٤) ينظر: الكتاب: ٢٣٦/٤، ٢٣٧، وشرح المفصل: ٦١/١٠.

(١٥) ينظر: الكتاب: ١٣/٤، والمقرب: ١٣١/٢ ـ ١٣٢، وشرح الرضي على الشافية: ١٥٣/١ ـ ١٥٤، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم: ١١٩/٢.

(١٦) ينظر: الكتاب: ٩/٤، ١٠، ١٥، ٤٧، ٥٠، ٥١، ٥٣، وشرح المفصل: ٤٥/٦، وشرح الرضي على الشافية: ١٥٦/١، ١٥٧، وشرح ابن عقيل: ١٢٤/٢، وشرح الأشموني: ٩٤/٤، وشذا العرف: ٧٢.

(١٧) ينظر: الكتاب: ٨١/٤، وشرح المفصل: ٤٨/٦، وشرح الرضي على الشافية: ١٦٣/١.

(١٨) ينظر: الكتاب: ٨٣/٤، وشرح الرضي على الشافية: ١٦٣/١، ١٦٥، وشرح ابن عقيل: ١٢٩/٢ ـ ١٣٠، وشرح الأشموني: ٩٧/٤.

(١٩) ينظر: الكتاب: ٨٠/٤ ـ ٨١.

(٢٠) ينظر: المصدر نفسه.

(٢١) شرح المفصل: ٤٨/٦.

(٢٢) شرح الرضي على الشافية: ١٦٦/١، وشرح الأشموني: ٩٩/٤، وشذا العرف: ٧٥.

(٢٣) ينظر: الكتاب: ٧٩/٤، وشرح الرضي على الشافية: ١٦٤/١، وشرح ابن عقيل: ١٢٨/٢.

(٢٤) ينظر: الكتاب: ٧٩/٤، ٨٣.

(٢٥) ينظر: شرح الشافية: ١٦٤/١.

(٢٦) ينظر: شرح ابن عقيل: ١٢٨/٢، ١٣١، وشرح الأشموني: ٩٦/٤.

(٢٧) ينظر: الكتاب: ٧٨/٤ ـ ٧٩، وشرح المفصل: ٤٧/٦، ٤٩. وشرح ابن عقيل: ١٣٠/٢، وشرح الأشموني: ٩٧/٤ ـ ٩٨، وشذا العرف: ٧٤.

(٢٨) ينظر: الكتاب: ٧٩/٤، وشرح الأشموني: ٩٨/٤.

(٢٩) ينظر: الكتاب: ٨٣/٤، وشرح ابن عقيل: ١٣٠/٢، وشذا العرف: ٧٤.

(٣٠) ينظر: الكتاب: ٨٢/٤، وشرح الرضي على الشافية: ١٦٣/١، ١٦٥، وشرح ابن عقيل: ١٣٠/٢، وشرح الأشموني: ٩٧/٤، وشذا العرف: ٧٤.

(٣١) ينظر: الكتاب: ٤٥/٤، ٨٦، ٨٧، وشرح الرضي على الشافية: ١٧٩/١ ـ ١٨٠، وشرح ابن عقيل: ١٣٢/٢ ـ ١٣٣، وشرح الأشموني: ١١١/٤ ـ ١١٢، وشذا العرف: ٧٦.

(٣٢) ينظر: الكتاب: ٤٤/٤، وشرح المفصل: ٥٧/٦، وشرح الرضي على الشافية: ١٨٠/١، وشرح ابن عقيل: ١٣٢/٢، وشرح الأشموني: ١١١/٤ ـ ١١٢، وشذا العرف: ٧٦، والاشتقاق، عبد الله أمين: ٢٤١، ٢٤٢.

(٣٣) ينظر: الكتاب: ٨٧/٤ ـ ٩٦، وشرح الشافية، نقرة كار: ٤٥، وشرح الرضي على الشافية: ١٦٨/١ ـ ١٧٤، وشرح الأشموني: ١١٢/٤، وشذا العرف: ٧٦ ـ ٧٧.

(٣٤) ينظر: معاني الأبنية في العربية: ٣٤ ـ ٣٦.

(٣٥) ينظر: مسألتان عن المصدر، بحث منشور في مجلة آداب المستنصرية، العدد التاسع ١٩٨٤م: ٢٢١.

(٣٦) ينظر: شرح ابن عقيل: ٩٨/٢.

(٣٧) ينظر: شرح ابن عقيل: ٩٩/٢.

(٣٨) ينظر: الكتاب: ٨١/٤ ـ ٨٢.

(٣٩) ينظر: مسألتان عن المصدر: ٢١٦.

(٤٠) ينظر: الكتاب: ٢٦٩/٣.

(٤١) ينظر: العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، تعريب وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين: ٧٦، ٩٦.

(٤٢) ينظر: التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه: د. رمضان عبد التواب: ١٠٢.

(٤٣) ينظر: شذا العرف: ٧٧.

(٤٤) سورة لقمان ٢٠.

(٤٥) ينظر: الكتاب: ٥٧٠/٣، ٥٧٢، ٥٧٩، ٥٨١، ٦٠٥، ٦١٣، والمقتضب: ١٩٥/٢، ٢٠٠، ٢٢٨، ٢٣٢، وشرح المفصل: ١٤/٥، ٢٢، ٣٨، ٤١، والمقرب: ١١٢، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك: ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٧، وشرح الرضي على الشافية: ٨٩/٢، ١٠٠ ــ ١٠٩، ١٣٤، ١٨٢، وشرح ابن عقيل: ٤٥٥/٢، ٤٥٩، ٤٦٦، ٤٧٠، ٤٧٢، وشذا العرف: ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١١٤، والمفصل في أنواع الجموع، عباس أبو السعود: ٣٦، ٥٢، ٦٥ ـ ٦٧، ٩٤.

(٤٦) ينظر: الكتاب: ٤٢/٤، وشرح المفصل: ٥٠/٦.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.

٢- الأبنية الصرفية في ديوان امرىء القيس، صباح عباس سالم، وهي أطروحة دكتوراه نوقشت عام ١٩٨٧م بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

٣- الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (عاش في القرن الخامس وأدرك القرن السادس الهجري)، تح: السيد محمد باقر الخرسان، طبع في مطابع النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٦م.

٤- الاشتقاق، عبد الله آمين، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.

٥- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لمحمد بن مالك (ت٦٧٢هـ)، تح: محمد كامل بركات، د.ط، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م.

٦- التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، آخرجه وصححه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب، مطبعة المجد، القاهرة، ١٩٨٣م.

٧- شذا العرف في فن الصرف، الشيخ أحمد الحملاوي (ت١٣١٥هـ)، ط١٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٥م.

٨- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل المصري (ت٧٦٩هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢٠، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٠م.

٩- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى بمنهج السالك إلى ألفية ابن مالك، علي بن محمد (ت٩٢٩هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٤٦م.

١٠- شرح التصريح على التوضيح لألفية ابن مالك في النحو، خالد بن عبد الله الأزهري (ت٩٠٥هـ)، ط١، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣١٣هـ.

١١- شرح خطبة الزهراء، السيد باقر الكيشوان الموسوي، ط١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ٢٠٠٩م.

١٢- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت٦٨٦هـ)، تح: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٧٥م.

١٣- شرح الشافية في التصريف، عبد الله بن محمد الحسيني المعروف بنقرة كار (ت٧٧٦هـ)، ط٢، مطبعة أحمد كامل، استانبول.

١٤- شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت.

١٥- العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، هنري فليش اليسوعي، تعريب وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، ط١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٦م.

١٦- الفيصل في ألوان الجموع، عباس أبو السعود، مطابع دار المعارف، بمصر، ١٩٧١م.

١٧- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، ط٢، دار الجيل للطباعة، مصر، ١٩٨٢م.

١٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٩- مسألتان عن المصدر، عبد الوهاب محمود الكحلة، مجلة آداب المستنصرية، العدد التاسع، ١٩٨٤م.

٢٠- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ط١، ساعدت جامعة بغداد على طباعته، ١٩٨١م.

٢١- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت١٩٩١هـ)، ط٥، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٢٢- المقتضب، أبو العباس محمد يزيد المبرد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

٢٣- المقرب، علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور (ت٦٦٩هـ)، تح: أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٩١م. ❖

خطبة الزهراء (ع) ثورة الحق ومعجـزة الاحتجـاج

د. حسن كاظم أسد الخفاجي[*]

الزهراء (ع) بذرة الرسالة المحمدية والأنموذج الأكمل للقدوة الحسنة، سواء في حياتها السلوكية أو الإيمانية، فقد كرمها الله تعالى وجعل منها سيدة نساء العالمين.

جاءت تعاليم القرآن الكريم مؤكدة على التأسي بالقدوة الحسنة، وأولاها اهتماماً كبيراً، وحث المؤمنين على إتباعها واقتفاء أثرها، وهي لاشك من العوامل الأساسية التي لها الدافع في تطوير شخصية المسلم والارتقاء به إلى مراحل الكمال. إن عالم القدوة ليس هو أن تصل إلى مستوى من تقتدي به، ولكن أن تعتبر بمن تقتدي وتعده النموذج الأعلى للفضائل والقيم من خلال اتصافه بها، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1]، فكل من أراد أن يتكامل في إيمانه وسلوكه فعليه التأسي بشخصية وسلوك النبي (ص)، والزهراء(ع) هي بنت الرسالة وتربية الوحي فهي القدوة الحسنة كملت وحازت جميع صفات الكمال، التي يمكن لكل امرأة أن تتكامل أن اقتدت بها.

يهدف البحث إلى تقديم دراسة تحليلية متواضعة لخطبة الزهراء (ع)، فقد كان من نتائج خطبة الزهراء أن أعادت الروح الحي للأمة من أجل المبادئ، ثم ليخلص إلى أن هذه الخطبة هي ثورة للحق ومعجزة في الاحتجاج يعجز الإنسان عن وصفها، فقد جمعت بين طياتها قوة البلاغة ودقة المعاني وسبك العبارة وترابط السياق، بأسلوب فني وإعجاز جدلي رائع، فبالإضافة إلى قوة بيانها تعرضت فيها إلى مسائل التوحيد وصفات الخالق وأسمائه الحسنى وأهمية القرآن الكريم وفلسفة الاحكام واسرارها بأسلوب دفاعي في نقد الأوضاع القائمة مستندة على إيمانها المطلق بالله ورسوله، لتنير الدرب للأجيال في المطالبة بالحق وإثبات مكانة المرأة التي آرادها الله سبحانه وتعالى، فقد وقفت تحاجج الخلافة، مركزة على الانتصار للحق، والاندفاع في سبيله فهي درس للأجيال وانتفاضة الضمير، التي بقيت ولا تزال ثورة وإشعاع.

وقد انتظم البحث على عدة محاور: فاطمة الزهراء(ع) سيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء (ع) وإرساء معالم البيت الإسلامي، نص الخطبة، خطبة الزهراء(ع) ثورة الحق ومعجزة الاحتجاج، ثم الخاتمة والهوامش والمصادر.

(*) كلية التربية. جامعة ميسان.

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

فاطمة (ع) سيدة نساء العالمين:

لاشك ولا ريب أن أسس السيادة لا تنطلق من نسب فقط، وإنّما فضلاً عن عامل النسب يأتي عامل التربية الخلقية والإيمانية مكملا لها، ولا نجد امرأة كانت لها خصائص الزهراء(ع) في نسبها، وفي إيمانها وفي خلقها: لذلك فهي سيّدة من حيث عناصر السيادة الذاتية، وهي سيّدة من خلال مواقفها، فالزهراء(ع) هي القدوة في كلّ شيء: لأنها بقيت ولا تزال تعطي دروساً كثيرةً للإنسانية في الفكر والجهاد، كما أن فاطمة (ع) سيدة نساء العالمين من خلال تأكيد الرسول (ص) على شخصيتها، إذ قال النبي (ص): (يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين وسيدة نساء هذه الأمة)[١]، وقال: (إنّ الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها)[٢].

و (فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن أحبّها فقد أحبني)[٣]و (فاطمة قلبي وروحي التي بين جنبي)[٤].

هذه الشّهادات جاءت في الروايات المأثورة عن رسول الله (ص)، الذي لا ينطق عن الهوى. وهذا القدر من التأكيد على شخصية الزهراء (ع) يفهم من خلاله السبب الذي دعا رسول الله (ص) إلى ذلك: لكونها ستأخذ دوراً من الأدوار المتميزة في حركة التاريخ الإسلامي.

فالمرأة قبل الإسلام وفي كل الحضارات السابقة للإسلام، لم يكن لها مثل هذا الدور المتميز الذي رسمه الإسلام لها، لذلك فقد أعطى الله الزهراء(ع) منزلة عظيمة، لكي تتأسى بها نساء العالمين، فالحياة الطيبة والكريمة للمرأة لا يمكن الحصول عليها فيغير شخصية وسيرة فاطمة الزهراء (ع).

تحدث القرآن الكريم عن نساء كان لهن دور متميز في التاريخ الإنساني، فقد وصفهن بأوصاف عديدة من قبيل الاصطفاء والتطهير والموقع الخاص، أما الزهراء(ع) فإن الأمر مختلف، فإن لحياتها في الدعوة الإسلامية دوراً مهماً وله أبعاد أوسع بكثير من ذلك الذي ذكره القرآن الكريم، فالزهراء(ع)، حينما يصفها النبي (ص) بأنها سيدة نساء العالمين، يراد من ذلك إعطاء

---

(١) صحيح مسلم - مسلم النيسابوري: ١٤٣/٧ + النسائي – السنن الكبرى: ١٤٦/٥ +محمد صالح المازندراني - شرح أصول الكافي: ٢٢٢/٧+ الطوسي - الأمالي: ٢٤٨+ ابن شهر آشوب - مناقب آل أبي طالب: ١٠٥/٣+ ابن البطريق - العمدة/٣٨٦+ أحمد بن عبد الله الطبري - ذخائر العقبى/٤٣+ المجلسي - بحار الأنوار: ٢٤٤/٢٩.

(٢) الصدوق - الاعتقادات في دين الإمامية: ١٠٥+ ابن شهر آشوب - مناقب آل أبي طالب: ١٠٧/٣+ ابن طاووس - الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢٦٦+ أحمد بن عبد الله الطبري - ذخائر العقبى: ٣٩.

(٣) القاضي النعمان المغربي - دعائم الإسلام: ٢١٤/٢+ الصدوق - من لا يحضره الفقيه: ٥٨٥/٢.

(٤) المجلسي - بحار الأنوار: ٥٤/٤٣+ الماحوزي - كتاب الأربعين: ٣١٦+ الأميني - الغدير: ٢٠/٣.

الأبعاد المختلفة في هذه الشخصية، ومن ثم إعطاء هذه الأبعاد لشخصية المرأة في كافة أدوار الحياة: لأن الزهراء(ع) هي المثال الصالح للمرأة التي يريدها الله، وقطعة من الإسلام المجسّد في محمد، وقدوة للمرأة المسلمة وللإنسان المؤمن في كلّ زمان ومكان.

إنّ معرفة الزهراء(ع) من خلال دراسة حياتها محاولة لفهم الإسلام، وذخيرة قيّمة للإنسان المعاصر. لذلك فهي كانت تحاول أن تشارك أبيها في جهاده فتسعى متمثلة عطف الأم ورعايتها في العناية بشخص الرسول النبي (ص) وفي أدائه الرسالي في مواجهة الأحداث الجسام فقد كان الرسول الكريم (ص) محاطاً بالأعداء، هذا من حيث هي الزهراء (ع) أما من حيث شخص الرسول (ص) فقد وجد عطف الأم والزوجة والبنت في فاطمة. فقد أكد الرسول وفي مواقف عديدة دور الزهراء(ع) العاطفي ونجاحها، الأمر الذي ساعده في تحمل الأعباء الرسالية العظيمة.

الزهراء(ع) قدوتكم في العبادة وقدوتكم في الأخلاق والجهاد والعطاء والإيثار. إن الإسلام يقول للمرأة في العالم، سيدة نساء العالمين لا بنسبها، ولكنها سيدة نساء العالمين بفضائلها، فتعلموا منها الحب والعطاء والمسؤولية والمواجهة والمعارضة للظلم والانحراف.

فاطمة الزهراء (ع) وإرساء معالم المجتمع الإسلامي:

فاطمة الزهراء (ع) نقطة تحول عظيمة، وهي إشراقة الإيمان، وشعلة العقيدة، جمعت رجاحة العقل، وعمق التفكير وقوة الوعي والصلابة والثبات في الفكر والإيمان، والفصاحة والبلاغة والفضيلة، فكنت آية من آيات الله.

إن المتتبع لسيرة السيدة فاطمة الزهراء (ع) يجد أنها مدرسة متكاملة في مختلف أبعاد الحياة فينبغي أن تكون قدوة لجميع للإنسانية في بناء الذات البشرية لكي يرسي القاعدة الأساس التي يقوم عليها البناء الحضاري الشامل، ومن هنا فإن الرسول (ص) أولى النفس البشرية أهمية خاصة، وجعلها الأساس الذي تتم فيه عملية التغيير، فقد هذب (ص) النفس البشرية وطهرها من رواسب الجاهلية، وتعد أساليب التعليم التربوي الإسلامي من أروع ما وصل إليه التقدم البشري، فقد أشارت الآية الكريمة لهذا المعنى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١] فإذا تمت القاعدة يقوم البناء العقلي والذهني والعلمي، وبإمكان الإنسان بعد توفر القاعدة توظيف العلم في الخير والسيطرة على مسارات حياته وسلوكه.

هذه خطوة مهمة للإصلاح الاجتماعي في مجتمع قد أصابه التفتت قبل البعثة، ولكن بولادة الزهراء (ع)، أشرقت مفردات الإصلاح في المجتمع من خلال دور الزهراء(ع)، ذلك

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

عندما أحاط الرسول (ص) الزهراء (ع) بالرعاية والتكريم، وأراد من ذلك أن يخلق صورة للمجتمع الجديد، والذي يكن للمرأة الاحترام، وتجسيد الأخلاق والإنسانية، حتى يترك انطباعاً في المجتمع، أن المرأة تستحق التكريم والاحترام، بهذه الخطوات العملية أدى الرسول (ص) منهج إسلامي توجيهي لم يكتف بالعلم فقد وضع العمل مكملاً إلى كمالات الإنسان، فخطوات الإسلام العملية الرسالية تعد العامل الأمثل في التأثير، أي كلما كانت الخطوة عملية وواقعية يكون تأثيرها أكثر عمقاً، أما إذا كانت الفكرة تدور في نطاق العلم فحسب، فإنها لا تؤثر كثيراً في النفوس.

ويعد احترام البنت والمرأة من أفضل الخطوات في هذا المجال، وهكذا فإن احترام الزهراء (ع) يدخل في هذا الإطار: فقد كان عاملاً حيوياً في إعادة الاعتبار للمرأة. وكان له الأثر الكبير في إصلاح العديد من جوانب الحياة والتي تخص حياة الإنسان ومنها إصلاح البيت الأسري، فقد أضحى لبنة أساسية في جدار المجتمع وعاملاً أساسياً في تغيير القوى المعنوية داخل الإنسان.

وبالتالي أثر ذلك إيجابا على قيام المرأة بدورها في بناء الأسرة، ويرتبط بإعطائها الاعتبار واحترام مكانتها، فإذا تم احترامها وتقدير جهودها، فإنها تقوم بدورها وتخلص في مهمتها وهذه قاعدة حياتية: إذ الاحترام والتقدير يدفع الإنسان إلى أن يبدع في عمله.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تؤكدان أن المرأة من حيث هويتها الإنسانية، تحظى وتتصف بهوية كاملة في إنسانيتها، ولا يوجد فيها أي جانب من جوانب النقص، بحيث يؤثر سلباً على تكاملها. ولهذا أعطى الإنسان حقوقاً في هذه الحياة من أجل أن يوصل سيره إلى الله سبحانه وتعالى ويبلغ درجات الكمال الإنساني القريب من الله تعالى.

وأهداف الإسلام منهجيته واضحة في شخصية المرأة كما أنها واضحة في شخصية الرجل، فكما أن الرجل في هويته الإنسانية وفي شخصيته وواجباته العامة، وفي أهدافه ومواهبه وإمكاناته يتمتع بالهوية الإنسانية الكاملة، كذلك المرأة فهي تتمتع وتتصف بهذا الجانب، لأن النظرة الجاهلية بكل أشكالها قبل الإسلام، كانت تعد المرأة ناقصة من حيث الكمال، وتعيش تحت رعاية الرجل وتابعة في شخصيتها له وليست لها استقلاليتها في المجتمع.

الإسلام أراد أن يوضح حقيقة من الحقائق التي لها علاقة في بناء المجتمع الإنساني، وهذه الحقيقة هي أن المرأة في إنسانيتها كاملة، كما أن الرجل كامل في هذه الإنسانية، والنبي (ص) هو قدوة الرسالة الخالدة، فقد أراد الله عزّ وجل له الاستمرار في وجوده الإنساني، وفي وجوده الرسالي من خلال ذريته، وقدّر الله تعالى أن تكون هذه الذرية متمثلة في امرأة هي ابنته الزهراء(ع).

من الأدوار المهمة التي يمكن أن نجدها في شخصية الزهراء(ع) وبصورتها الكاملة، ونفهم من خلاله جانباً آخر من أدوار المرأة في الحياة الإنسانية، هو دور التكامل الفردي في الحركة نحو الله سبحانه وتعالى.

نتعلم من حياة الزهراء(ع) وسيرتها الثبات في المواقف والصبر في الشدائد، إذ لم يشغلها مرضها وألمها وحزنها على رسول الله (ص) بعد وفاته عن الوقوف مع الحق لتدافع عنه بكل ما آتاها الله من قوة، فوقفت وخطبت وتكلمت واحتجت لإثبات حقها، حتى أنّها واصلت الاحتجاج إلى ما بعد وفاتها بأن أوصت أن تدفن ليلاً ويعفى قبرها ولا يشارك في تشييعها من ظلمها، هذا الدور الذي تمثله الزهراء (ع) والذي قامت به من خلال العمل السياسي، يعلم المسلمين كيف أن للمرأة في هذا المجال ما للرجل، تتحمل المسؤوليات الخاصة في خدمة المجتمع والتضحية من أجله، والجهاد في سبيل الله تعالى وفي البذل والعطاء إلى حد الاستشهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء كان المنكر السياسي أو الشرعي أو العقائدي أو الاجتماعي[1].

إن دور الزهراء(ع) السياسي كان من اجل نصرة مبدأ الإمامة، وترسيخ مبدأ الولاية، والدفاع عن هذا الحق، إذ نجد الزهراء(ع) تبادر إلى هذا الدور، وتنهض به بأفضل ما يمكن أن يؤدى. كانت الزهراء(ع) رائدةً في العمل السياسي والجهادي من خلال معارضتها وثورتها واحتجاجها، هكذا ينبغي أن تكون المرأة المسلمة مقتدية بالزهراء(ع)، غير منشغلة بنفسها وزينتها عن القيام بواجباتها الاجتماعية والسياسية.

نص الخطبة:

(الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب الى أمثالها، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها كونها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتا لحكمته، وتنبيها على طاعته، وإظهاراً لقدرته، تعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده من نقمته، وحياشة لهم إلى جنته، وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله

---

(١) فاطمة الزهراء.. قراءة في خطبة الاحتجاج ومناعليها www.alhiwaraldini.com/Portal/Cultcure/Arabic الحوار الديني.

اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة علماً من الله تعالى بما يلي الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بموقع الأمور ابتعثه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها فأنار الله بأبي محمد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية. وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم. ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد (ص) من تعب هذه الدار في راحة، قد حف بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه، وخيرته من الخلق وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت: أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغائه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائدا إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان: تطهيرا لكم من الشرك، والصلاة: تنزيها لكم عن الكبر، والزكاة: تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام: تثبيتاً للإخلاص، والحج: تشييدا للدين، والعدل: تنسيقا للقلوب، وطاعتنا: نظاماً للملة، وإمامتنا: أمانا للفرقة والجهاد: عزاً للإسلام، والصبر، معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف: مصلحة للعامة، وبر الوالدين: وقاية من السخط، وصلة الأرحام: منساة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص: حقناً للدماء، والوفاء بالنذر: تعريضا للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين: تغييرا للبخس، والنهي عن شرب الخمر: تنزيها عن الرجس واجتناب القذف: حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة: إيجاباً بالعفة، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية، فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء. ثم قالت أيها الناس اعلموا: إني فاطمة وأبي محمد (ص) أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تعزوه وتعرفوه: تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم ولنعم المعزى إليه (ص)، فبلغ الرسالة، صادعاً بالنذارة مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم

آخذا بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجف الأصنام وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام تشربون الطرق وتقتاتون القد أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (ص)، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهدا في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً، كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال، فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين فخطر في عرصاتكم واطلع الشيطان رأسه من مغرزة هاتفاً بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحشمكم فألفاكم غضاباً فوسمتم غير إبلكم ووردتم غير مشربكم هذا والعهد قريب والكلم رحيب، والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتداراً، زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، فهيهات منكم، وكيف بكم، وأني تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم أرغبة عنه تريدون؟ ام بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلا، ومن يبغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ويسلس قيادها ثم أخذتم تورون وقدتها وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسوا في ارتغاء وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء ويصير منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشاء، وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟! أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية: أني ابنته. أيها المسلمون آغلب على إرثي يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا إرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريا! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: "وورث سليمان داود" وقال: فيما اقتص من خبر يحيى بن

زكريا إذ قال: "فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب" وقال: "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله" وقال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ وقال: إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين وزعمتم: أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: يا معشر النقيبة وأعضاد الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول (المرء يحفظ في ولده)؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد (ص)؟ فخطب جليل: استوسع وهنه واستنهر فتقه وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافاً، وصراخاً، وتلاوة، وألحانا، ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم: " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب علي عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين "أيها بني قيلة أأهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودر حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين فأنى حزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ بؤسا لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة

ونجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد. ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة وبثة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقبة الخف باقية العار، موسومة بغضب الجبار، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون. وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون. فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان. وقال: يا بنت رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً، رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذابا أليما، وعقاباً عظيماً، إن عزوناه وجدناه أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الأخلاء آثر على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي بعيد فأنتم عترة رسول الله الطيبون، الخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله، ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، وأني أشهد الله وكفى به شهيدا، أني سمعت رسول الله (ص) يقول: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهبا ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه" وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجالدون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين، لم انفرد به وحدي، ولم استبد بما كان الرأي عندي وهذه حالي ومالي، هي لك وبين يديك، لا تزوى عنك، ولا ندخر دونك، وأنك وأنت سيدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لاندفع مالك من فضلك، ولا يوضع في فرعك وأصلك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك (ص).

فقالت (ع): سبحان الله ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله صادفاً ولا لأحكامه مخالفاً! بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من الغوائل في حياته هذا كتاب الله حكما عدلاً، وناطقاً فصلاً يقول: يرثني ويرث من آل يعقوب ويقول: وورث سليمان داود وبين عز وجل فيما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح به علة المبطلين، وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلا بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. فقال أبو بكر: صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، لا أبعد صوابك،

ولا أنكر خطابك هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلدوني ما تقلدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد، ولا مستأثر، وهم بذلك شهود.

فالتفتت فاطمة (ع) إلى الناس وقالت: معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اغتصبتم لتجدن والله محمله ثقيلاً، وغبه وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء وبان بأورائه الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون. ثم عطفت على قبر النبي (ص) وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وكل أهل له قربى ومنزلة ... عند الإله على الأدنين مقترب

أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما مضيت وحالت دونك الترب

تجهمتنا رجال واستخف بنا ... لما فقدت وكل الأرض مغتصب

وكنت بدراً ونوراً يستضاء به ... عليك ينزل من ذي العزة الكتب

وكان جبريل بالآيات يونسنا ... فقد فقدت وكل الخير محتجب

فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الكثب

ثم انكفأت (ع)، وأمير المؤمنين (ع) يتوقع رجوعها إليه، ويتطلع طلوعها عليه، فلما استقرت بها الدار، قالت لأمير المؤمنين (ع): يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل فخانك ريش الأعزل هذا! ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة ابني! لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي حتى حبستني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت حدك افترست الذئاب، وافترشت التراب، ما كففت قائلا، ولا أغنيت طائلاً ولا خيار لي، ليتني مت قبل هنيئتي، ودون ذلتي عذيري الله منه عادياً ومنك حامياً، ويلاي في كل شارق! ويلاي في كل غارب! مات العمد، ووهن العضد شكواي إلى أبي! وعدواي إلى ربي! اللهم إنك أشد منهم قوة وحولا، وأشد بأساً وتنكيلاً»[1].

---

(١) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي: ١/١٣٢ ـ ١٤٠.

خطبة الزهراء (ع) ثورة الحق ومعجزة الاحتجاج:

كانت خطبة الزهراء(ع) (التي ألقتها والتي تحمل في طياتها معاني ودلالات كثيرة تصلح لكل عصر وهذا السر الخالد متأتي من الدور الإنساني الذي آدته والمتمثل بان أئمة الهدى وعصمتهم تلتقي بالنبوة عن طريقها وهذا في حد ذاته يراه من يمتلك بصيرة بان هذا الارتباط عروة قوية فبالزهراء (ع) ترتبط الإمامة بالنبوة)[1].

رغم المأساة التي تعرضت لها الزهراء (ع) بعد وفاة أبيها (ص) فقد استطاعت أن تؤدي دورها في إلقاء الحجة لإحقاق الحق والدفاع عن الإمامة في خطبة بليغة أعادت تعاليم الحق التي نادى بها القرآن الكريم بها، ثم إنها(ع) لمّا منعت حقها في نحلتها فدكاً توجهت للأنصار معاتبة كونهم هم الذين نصروا الرسول (ص): فلم تلق منهم إلا الجحود بردهم إياها: (يا بنت محمد، لو سمعنا هذا الكلام قبل بيعتنا لأبي بكر ما عدلنا بعلي أحداً. فقالت: (وهل ترك أبي يوم غدير خمّ لأحد عذراً)[2].

كما أنها (ع) لم تترك للأنصار من عذر لخلفيتها العلمية في أصول المحاجة كيف لا وهي بنت الوحي الذي تربت تحت إشراف الرسول (ص)، فقد جاء عن الإمام الباقر (ع): (آنّ علياً (ع) حمل فاطمة(ع) على حمارٍ وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار يسألهم النصرة، وتسألهم فاطمة (ع) الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به، فقال علي عليه السلام (ع) أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه، وأخرج إلى الناس أُنازعهم في سلطانه! وقالت فاطمة (ع): ما صنع أبو الحسن إلاّ ما كان ينبغي له، وصنعوا هم ما الله حسيبهم عليه)[3]، وهكذا نرى الزهراء(ع) وفي اليوم الأول بعد وفاة النبي (ص) منعتها الخلافة من حقها فكان لابد لها من أن تنتفض مطالبة بإرث والدها فأجابوها بأنها لن ترث، إذ قال أبو بكر: لقد سمعت النبي (ص) يقول: (نحن معاشر الأنبياء لا نورّث) قال هذا القول معترفاً بأنّ أحداً من المسلمين غيره لم يسمعه من النبي (ص) وأنه وحده الذي سمعه، ثمّ أضاف بأنه لا يقبل شهادة عليه.

فما معنى لا شهود، وهو رخص لنفسه الشهادة، بينما هو المدعي فكيف يشهد لنفسه في دعوى هو فيها المدعّى عليه. وإذا كان يرى أنّ شهادة رجل وامرأة لا تُقبل فكيف تُقبل شهادة رجل وحده، الأصل في تعاليم الإسلام هو أن من يرث له الحق في مال مورّثه والخليفة

---

(١) عبد الحسين رزوقي الجبوري وعبد الأمير جاووش - فاطمة الزهراء (ع) جانب من دورها السياسي في نظرية السلطة.

(٢) الصدوق - الخصال: ١٧٣+ المجلسي - بحار الأنوار: ١٢٤/٣٠.

(٣) المجلسي - بحار الأنوار: ٣٥٢/٢٨+ الماحوزي - كتاب الأربعين: ٣٤١+ - ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة: ١٣/٦+ عبد الرحمن أحمد البكري - عمر بن الخطاب: ١٤٧.

يدعي كونه سمع من النبي (ص) شيئاً وهو (نحن معاشر الأنبياء لا نورّث). إذا فقد أصبح طرفاً في قضية ولا يجوز له الحكم يدعي أمراً ويفصل فيه الحكم هذا والله العجب، في مثل هذه القضايا لابد من شاهد على صدق دعواه هو، ليس من فاطمة آن تأتي بشهود، كونها صاحبة اليد فلو أن امرأ كان يلبس ثوباً وجاء رجل وادعى أن هذا الثوب له، فالقاعدة الإسلامية تقول: أن على المدعي أن يأتي بشهود تؤيد كلامه وليس المدعى عليه. ثم أن الخبر لا يخصص عموم الكتاب، وموقف أبي بكر من فاطمة بنت الرسول (ص)، وما فعل معها هو اعتماد خبر الآحاد في تخصيص مقابل عموم الكتاب القطعي الصدور.

تعد خطبة الزهراء(ع) تراثاً إسلامياً عظيماً، فلو تأملنا في نص الخطبة نجد أنها، اشتملت على أمور هي:

١ ـ تبتدئ بتوحيد الله ونفي الشريك، ثم بالحمد والثناء عليها وهذا هو منهج القرآن الكريم الذي نهلت منه الصديقة وهي مقتفية كتاب الله في الابتداء بالبسملة التي تهدف إلى توحيد الله رحيم الدنيا ورحمن الآخرة، ومن ثم الحمد والشكر وذكر آلائه ونعمه كما هو ظاهر في سورة الفاتحة، والشكر والثناء يدفع المؤمن إلى معرفة ذاته جل وعلا والإخلاص له بالعبودية، وهو هدف ركزت عليه الزهراء(ع).

٢ ـ تعرج الزهراء (ع) إلى دفع المسلمين إلى قضية مهمة وهي الركيزة الأولى وجزء من حجتها على القوم إلا وهي مسؤولية المسلمين تجاه القرآن المجيد، بأن لا يتركوا القرآن، فأوامره ونواهيه واضحة في مسألة الإمامة، وانه كتاب حارب التعصب، فقد وصفت الكتاب الذي ظاهره أنيق، وباطنه عميق، وأدلته مقنعةً منجيةً في إحقاق الحق بالحجة والبرهان الساطع.فقد دعمت كلامها بقول الرسول (ص): (إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن تركه ساقه إلى النار).

٣ ـ وبعد أن أعطت حق الإله وحق القرآن الكريم جاءت إلى بيان منزلة الرسول الكريم (ص) فقد بينت عصمته وهي جزءٌ من نبوته، وهدفها من ذلك أن صفات المعصومين لا تتوفر لأي كان من البشر إلا من حباه الله واختاره لأن يكون على قدر معين وعظيم في قيادة الأمة، فلن يتمكن أي شخصٌ من القيام بأعباء الرسالة الكبيرة.

ثم تحث المسلمين من التمسك بتعاليم الدين والدفاع عنه من خلال شحذ الهمم والتذكرة، وهي مسؤولية المسلمين في إبلاغ الرسالة، والدفاع عن قوانين وتعاليم وقيم الدين الحنيف من المسؤوليات الخطيرة التي لو تقاعس المسلون عن آدائها كان حقاً عليهم أن ينتظروا العقاب والجزاء الإلهي، وحذرت من مخالفة القرآن والرسول (ص)، والتمسك بأفكاركم العاجزة على وجعلتم أنفسكم حكاماً على القرآن، بذريعة المصلحة وخوف الفتنة، فسوف يصيبكم الخسران المبين.

٤ ـ بيان الأحكام الشرعية فكلماتها درس في فلسفة الأحكام إذ قالت: (جعل الله الإيمان تطهيرا لكم من الشرك، والصلاة تنزيها لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتا للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقا للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة وإمامتنا أماناً للفرقة والجهاد عزاً للإسلام والصبر معونة على استجاب الأجر والأمر بالمعروف مصلحة للعامة وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنماة للعدد والقصاص حقنا للدماء والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة وتوفية المكاييل والموازين تغييرا للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيها عن الرجس واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة)، فكل ثلاث كلمات قانون بل دستور، لنا جميعاً وأعظمها طاعتنا نظام للملة، وإمامتنا أمان من الفرقة، يعني لو اطعنا أهل بيت الرحمة، ووليناهم على أمور الرعية، لساد النظام والحق المجتمع.

كما أكدت على الزكاة التي هي مدعاة إلى تحرير الإنسان من حب الدنيا، حتى تكون للأمة ثروات تتلافى واقع المسلمين من فقر وحرمان بوضع أنصاب على أموال الموسرين من المسلمين.

ومن خلال الصيام دعت فاطمة الزهراء المسلمين إلى معايشة الفقراء فللصيام أهمية في جعل الإنسان مسيطراً على هوى نفسه، ويثبت فيه روح الإخلاص.

ولم تغفل (ع) مناسك الحجُ ذلك التجمع الإسلامي العظيم الذي تثبت فيه أُسس الإسلام، حيث يجد المسلمون أنفسهم في مكان واحد يجمعهم ويجمع أفكارهم وهو دعوة إلى التوحيد في جوار الله تعالى.أشارت سيدتنا إلى كل ذلك مبينةً آثار وعلاج كلٌ منها.

وأشارت الزهراء (ع) مبينةً آثار وعلاج أمور عبادية أخرى كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتعلق بمسائل القصاص والالتزام بالتعهدات، ومحاربة من يبخس الميزان وطهارة الحجور من الفجور وترك شرب الخمر وإقرار قيادة المعصومين لتنظيم اجتماعي منتهجاً خط التوحيد، ويبعد عنهم النفاق والتفرقة.

٥ ـ كل هذه الأمور أشارت إليها الزهراء(ع) للوصول إلى هدفها المنشود وهو التركيز على المطالبة بفدك، والمتأمل في خطبة الزهراء(ع) أنها أرادت من خلال المطالبة بفدك المطالبة بالخلافة، وهو من صميم هدفها، فقد أبانت في طيات كلامها أنها قد سلبت التراث الموروث عن النبي وهو الخلافة، ولقد انتبه المقابل بذلك؛ لأنه لو أقر لها بفدك أقر لها بالخلافة وهذا الأمر أيضاً تنبه له المغتصبون على مر التأريخ. (قال ابن أبي الحديد: سألت ابن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، وقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال نعم، قلت: فلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسم ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً: لو أعطاها اليوم فدكاً لمجرد دعواها: لجاءت إليه غداً وادعت لزوجها الخلافة وزحزحته عن مقامه ولم

يمكن الاعتذار والموافقة، لأنه يكون قد سجل على نفسه أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة وشهود)[١].

وقد تم لها بإعلان موقفها من الخلافة، فقد بدأت بوصف نفسها للحاضرين، ثم استدرجت في حجتها ليتم لها نفاذ ما بأيدي السامعين من حجج وأعذار لنصرتها. وتأتي مرحلة بيان جهود النبي ومعاناته التي مرت بالرسول (ص) وكيف أنه قام بإبلاغ رسالة ربه العظيمة، وبتذكيرهم بأنهم كانوا مجموعةً مؤمنةً صغيرةً وهم بين التيا والتي بين الشرك من جانب وبأعداء الإسلام، حتى لا يتناسوا نِعَمَ الله الجزيلة، ثم تذكر القوم بفضائل أمير المؤمنين من خدمات لهذه الأمة، وكيف أن النبيّ (ص) كان يرسله في لهوات الأحداث الجسيمة فيحسمها لصالح الإسلام وهذا هو دأب الرسول (ص) لمواجهة الحوادث الخطرة والتصدي لها، إذ كان يدافع عن الإسلام بأهل بيته وقد حدثنا التأريخ عن غزواته الكثير فقد كان الإمام علي، مضحياً بنفسه وناصراً للرسول (ص). لقد أقامت الحجة على الخليفة في مجادلتها بأمر فدك، وكيف أنه أعادها جاهلية مرةً أخرى، حيث أن في الجاهلية لاحظ للأنثى الميراث ولم يكن الموضوع مقتصراً على مسألة «فدك» فحسب، بل إن المهم هو خطر إحياء سنن الجاهلية ومحو سنن الإسلام، لذا قامت في هذا القسم بتوجيه حملاتها عليهم.

في هذه الخطبة الحكيمة تعرضت إلى أدلتهم في حجبها فدكا باعتمادهم روايات آحاد نسبوها للنبي وبعد أن أقامت الحجة عليهم بأسلوب قرآني معتمدة المنطق الصحيح وبأدلة من عموم القرآن وخصوصه، فتثبت ومن خلال ذلك أن جميع الأبناء يرثون آباءهم وأمهاتهم في الإسلام، باستثناء بعض الأبناء الكفرة لا يرثون من أب وأمٍّ مسلمين.

منها قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾[٢]، وكذلك قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾[٣]، ثم تذكره بمآل الأمر وان يوم الفصل هو الحكم بينها وبينهم إن نفعت الذكرى ولكن لا حياة لمن تنادي أنكم ستقفون، فالله سبحانه وتعالى هو الحاكم فيها، والرسول (ص) المدعي، والموعد يوم القيامة.

ومع كل ذلك ألقت الحجة على من سمعها وهو طلب نصرة الأنصار بالإشادة في حديثها بطائفة الأنصار، موصفةً إياهم بالصفوة أهل النصرة لرسول (ص)، (ثم هي وعلى قاعدة هذا الاتهام تتوجّه بخطاب الملامة للأنصار: تستقبح فيهم السنة عن ظلامتها بعد سابقتهم المشهودة في النصرة لأبيها ولدين أبيها، وهل بعد قولها هذا استفزاز لحميتهم الدينية: "أأهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى منّي ومسمع.. وتتصاعد حدّة الاستثارة للحميّة درجة التوبيخ" توافيكم الدعوة

(١) شرح ابن أبي الحديد: ١٦/ ٢٨٤.

(٢) سورة النساء: ١١.

(٣) سورة الأنفال: ٧٥.

فلا تجيبون؟ وتأتيكم الصرخة فلا تعينون؟ وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح.." إلى أن تضعهم أمام مرآة أنفسهم وتصدم وجدانهم بجملة حقائق حين قالت فيهم من جملة قول يهزّ الوجدان ".. ونكصتم بعد الإقدام")[1]، كما أظهرت لهم الشكر والثناء بسبب ما بذلوه في خدمة الرسول (ص) منذ دخوله المدينة وما تحمّلوه من عناء ومصاعب قبل ذلك في سبيل الإسلام. فهي قد استخدمت كافة أنواع الاستثارة للوجدان والضمير (والذى يشتمل على تنوّع في مقاماته بين تذكير بالسابقة في الدين والجهاد، واستثارة للوجدان والحمية الدينية بأقوى ما يمكن أن تكون عليه الاستثارة في لغة العاطفة، ومن عتاب وتوبيخ قاسيين - قساوة الحقيقة - يستفز فيهم عناصر الخيرية ويحرضهم على الفعل والحركة، بعد هذا تنهى كلامها لهم بهذا الاستدراك المحير للألباب "ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم.. ولكنّها فيضة النّفس، ونفثة الغيظ.. وبثّة الصدر، وتقدمة الحجة.."، وحتى يعلم من أنها تخاطب في هذا المورد من خطبتها الأنصار حصراً، فالخذلة لا تبدر إلا ممّن توسمت فيهم المسارعة إلى نصرتها في ظاهر الحال، لاعتبارات عدّدتها وهي تخاطبهم).

أنهت الزهراء خطابها، وقد أوضحت فيه الحقّ بأجلى صورة، واستجوبت الخليفة وفضحت مخططاته بالأدلة والبراهين الساطعة المحكمة وذكرت فضائل الخليفة الحقيقي في الإسلام وكمالاته المطلوبة، فتوتر الجو وانساق الرأي العامل صالح الزهراء، وبذلك قد جعلت الخليفة في موقف حرج أمام الرأي العام.

الخاتمة:

لا تزال فاطمة الزهراء(ع) صوتاً ينير درب الأجيال، فقد وقفت تحاجج الخلافة من خلال نقد الأوضاع القائمة مستندةً على عقيدتها الخالصة، وإيمانها المطلق بالله تعالى، فهي درس للأجيال وانتفاضة الضمير، التي بقيت ولا تزال ثورة وإشعاع للإحقاق الحق بأسلوب فني رائع وبإعجاز جدلي لم يسبق له مثيل، من خلال المطالبة بإرثها، فقد كانت فدك مجرد عنوان لإعلان الموقف من الانحراف، واثبات بطلان الخلافة: لأنها خالفت النص القراني والسنة الطاهرة.

أرادت الزهراء أن تلقي الحجة في الربط بين غصب فدك وغصب الخلافة، وقد نهجت للأحرار نهجا عنوانه أن لا مساومة مع الباطل ولا انهزام. وأنّ المرأة كالرجل مسؤولة عن حفظ الرسالة، وساحة النضال كما أنها تتسع للرجل تتسع للمرأة، وينبغي في نهاية المطاف القول: إن هذا البحث لا يهدف إلى تحويل الزهراء (ع) إلى عنصر فرقة بين المسلمين، لأن هذا لم يكن من خلق بنت الرسالة المحمدية، وأيضاً لا يستقيم وأهداف خطبة الزهراء (ع).

---

(١) فاطمة الزهراء.. قراءة في خطبة الاحتجاج ومفاعليها www.alhiwaraldini.com/Portal/Cultcure/Arabic الحوار الديني.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)

١ - **شرح نهج البلاغة:** تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - ط١ - ١٣٧٨ - ١٩٥٩ م - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- ابن البطريق (ت٦٠٠هـ)

٢ - **العمدة:** سنة الطبع: جمادى الأولى ١٤٠٧هـ - الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.

- ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)

٣ - **مناقب آل أبي طالب:** تحقيق: تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف. ١٣٧٦ - ١٩٥٦ م - المطبعة ونشر: الحيدرية - النجف الأشرف.

- ابن طاووس (ت٦٦٤ هـ)

٤ - **الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف:** الطبعة: الأولى - سنة الطبع: ١٣٩٩ - المطبعة: الخيام - قم.

- أحمد بن عبد الله الطبري(ت ٦٩٤هـ)

٥ - **ذخائر العقبى:** سنة الطبع: ١٣٥٦ - الناشر: مكتبة القدسي لصاحبها حسام الدين القدسي - القاهرة.

- الصدوق (ت٣٨١ هـ)

٦ - **الاعتقادات في دين الإمامية:** تحقيق: عصام عبد السيد - ط٢ - ١٤١٤ - ١٩٩٣ م - الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

- الصدوق (ت٣٨١هـ)

٧ - **الخصال:** تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ١٤٠٣ - ١٣٦٢ ش، الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

- الصدوق: محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ).

٨ - **من لا يحضره الفقيه:** تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي - ط٢ - قم - ١٤٠٤هـ.

- الطبرسي (ت٥٤٨ هـ)

٩ - **الاحتجاج:** تحقيق: تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان - ١٣٨٦ - ١٩٦٦ م، الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر - النجف الأشرف.

- الطوسي: محمد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ).

١٠ - **الأمالي:** تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - ط١ -، ١٤١٤هـ - قم.

- عبد الحسين رزوقي الجبوري وعبد الأمير جاووش

١١ - **فاطمة الزهراء (ع) جانب من دورها السياسي في نظرية السلطة:** عبد الرحمن أحمد البكري (معاصر).

١٢ - **عمر بن الخطاب:** الطبعة: السابعة - ٢٠٠٥م - الناشر: الإرشاد للطباعة والنشر - بيروت - لندن.

١٣ - فاطمة الزهراء - قراءة في خطبة الاحتجاج ومفاعلها www.alhiwaraldini.com/Portal/Cultcure/Arabic

- الماحوزي (ت١١٢١هـ)

١٤ - كتاب الأربعين. تحقيق. السيد مهدي رجائي - الطبعة. الأولى - ١٤١٧هـ - أمير - قم.

- المجلسي: المجلسي محمد باقر (ت١١١١هـ).

١٥ - **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:** مؤسسة الوفاء - ط٢ - ١٤٠٣ هـ - بيروت.

- محمد صالح المازندراني(ت ١٠٨١ هـ)

١٦ - **شرح أصول الكافي:** تحقيق مع تعليقات: الميرزا أبو الحسن الشعراني/ضبط وتصحيح: السيد علي عاشور - الطبعة: الأولى. سنة الطبع: ١٤٢١ - ٢٠٠٠ م - المطبعة والنشر: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

- مسلم: مسلم بن الحجاج ابن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ).

١٧ - **صحيح مسلم:** منشورات دار الفكر. بيروت. لبنان.

- النسائي: أحمد بن علي بن شعيب (ت٣٠٣هـ).

١٨ - **سنن النسائي: السنن الكبرى:** منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - ط١ - ١٣٤٨ هـ - بيروت.

- النعمان: ابن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت٣٦٣هـ).

١٩ - **دعائم الإسلام:** دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي دار المعارف، منشورات دار المعارف بمصر ١٣٨٣ هـ. ❖

خطبة الزهراء (ع) الكبرى
(دراسة بلاغيّة)

✍ د. حسين لفته حافظ[*]

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد الأمين وآل بيته الطيبين الطاهرين.

أما بعد فان في خطبة الزهراء (ع)[1] لعبراً سامية ومواعظ عالية ودروساً جامعة مانعة وفوائد نافعة تحكي المبادئ القيمة للدين الإسلامي الحنيف بألفاظ موجزة معبرة ومعان واضحة مؤثرة.

وقد اشتملت هذه الخطبة المباركة على خلاصة من الحكم الإسلامية النبيلة مثل الحمد والشكر لله والتذكير بنعم الله على العبد والخطاب الإسلامي المتكامل لقد كانت خطبة السيدة الطاهرة دعوة إلى الالتزام بالدين القيم الكامل الشامل لجوانب الاعتقاد والتمسك بالدين والعناية بجوانب الحياة والإصلاح الاجتماعي من خلال التأكيد على منزلة النبي الأعظم وصلة القرابة فالخطبة تشكل رؤية واضحة لمراعاة حقوق الأفراد من خلال التأكيد على أحقية الزهراء في الإرث.

إذا هي دعوة من السيدة الزكية (ع) إلى الالتزام بالحقوق والواجبات من خلال تأييد الفكرة بنصوص قرآنية.

ولعل السبب الذي دفعني إلى دراسة هذه الخطبة من الجانب البلاغي هو إهمال اغلب الدارسين لهذا الجانب على الرغم من بروزه واضحاً في كلام الزهراء (ع) إذ أن اهتمام الدارسين السابقين كان ينصب على دراسة الجوانب الموضوعية والفقهية حصراً.

أما عن الصعوبات التي واجهتها فاذكر اختلاف الروايات في المصادر التي تحدثت عن الخطبة ووجود هذه الخطبة متناثرة أحياناً في كتب التراحم والتاريخ والرواية واختلاف هذه المصادر.

أما عن منهج الدراسة فقد كان منهجاً وصفياً تحليلياً اعتمدت فيه على وصف الظاهرة في البلاغة ومن ثم تحليلها بغية الوقوف على الأهداف والغايات المتوخاة من وراء هذه

(*) مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة.

(١) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة: ٥٤/٨، وأعلام النساء المؤمنات: ٦٤٠

الظاهرة، وفيما يتعلق بمصادر الدراسة فقد تنوعت هذه المصادر لتشمل كتب التراجم والتفسير وكتب البلاغة فضلاً عن كتب التاريخ العربي وكتب الحديث النبوي الشريف واذكر من هذه المصادر كتاب (بحار الأنوار) للعلامة المجلسي (ت١١١١هـ)، و(أصول الكافي) للشيخ الكليني (ت٣٢٩هـ)، فضلاً عن كتب التراجم، وكتب البلاغة ومنها كتاب (أسرار البلاغة) للشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) فضلاً عن كتب التاريخ العربي.

أما عن كتب مصادر خطبة الزهراء فهي كثيرة، اذكر منها كتاب (بلاغات النساء) لابن طيفور (ت٢٨٠هـ) وكتاب (مروج الذهب) للمسعودي (ت٣٤٦هـ) وكتاب (الشافي في الإمامة) للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ) وكتاب (الاحتجاج) للشيخ الطبرسي وهو من أعلام القرن السادس الهجري وكتاب (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد (ت٦٥٥هـ) وكتاب (الطرائف) لابن طاووس (ت٦٦٤هـ)، وكتاب (كشف الغمّة) لعلي بن عيسى الأربيلي (ت٦٩٢هـ)، وقد اقتضت طبيعة المادة أن تكون وفق محاور متنوعة تحاول هذه المحاور أن تغطي المادة من كافة جوانبها البلاغية.

التمهيد: مضامين خطبة الزهراء (ع)

أخذت الخطابة العربية منذ فجر الإسلام تتطور وتنتعش، وقد تفنن البلغاء في فن الخطابة، والأمر له علاقة بالنهضة الحضارية الشاملة التي حققها الإسلام، فقد تطورت الحياة السياسية والاجتماعية وفتحت أبواب شتى لمخاطبة الجمهور ونشأت في البلاد العربية ضروب مختلفة من الخطب لم تكن معروفة في زمن القدماء، وقد امتازت هذه الخطب باستعمال الأسلوب السهل المرسل ويرى أنيس المقدسي إن هذا الأسلوب يمتاز عن الأسلوب الكتابي السائد في المقالات والمؤلفات بما يكثر فيه من صيغ المخاطبة والاستفهام والتكرير والتعجب والقسم وتقطيع العبارات يناسب نبرات المتكلم والحدث وإشاراته مع الإكثار من الشواهد الموضحة والعبر المؤثرة[1].

إذا لا بد من الحديث عن الأفكار الرئيسة الواردة في خطبة الزهراء (ع) ومنها الحديث عن القفزة النوعية الهائلة التي أحدثها مجيء الإسلام فقد غير الإسلام وجه الأرض وكان النبي الأكرم هو اللسان الناطق بتعاليم الدين، فضلاً عن هذا تحدثت الزهراء عن المعجزات والبراهين الإلهية، فضلاً عن هذا كشفت الزهراء ببلاغتها البارعة عن صورة للوضع الجاهلي والظروف التي بعث فيها الرسول الأعظم، ومن الأفكار الأخرى فكرة التعريض بالمنافقين، وقضية إرث الزهراء، وتؤكد الزهراء على منزلة الإمام علي (ع) فضلاً عن مخاطبة الأنصار كونهم أهل خير وصلاح، وأخيراً أرادت الزهراء استنهاض الهمم من خلال مخاطبة مجموع الناس.

(١) ينظر: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث: ٤٥٨.

ولاشك أن مثل هذه الخطبة اشتملت على مضامين دينية واجتماعية وسياسية وقد لاحظ بعض الباحثين أن المرأة استطاعت أن تُحقّق نجاحاً كبيراً في هذا الفنّ وبصورة عملية، فجاءت خطبها غايةً في الدّقّة من حيث العُمْق الدّلالي والبلاغي، وهذا بديهي كونها كانت (معنية بالخطابة قبل الإسلام وبعده، ويتّضح ذلك من خلال المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية)[١]، فإنّنا نجد نصوص خطبٍ لنساء هذه المرحلة قد تضمّنت أحداثاً سياسيّة وتحوّلات اجتماعيّة ومُرتكزات دينيّة بشكلٍ دقيق، ومن خلال تأمّلي بعض خُطب نساء تلك المدّة ألحظ أنّها كانت تُعبّر عن رأيها، وتعرض ما يختلج في صدرها من أفكار وتطلّعات، وتُدافع عن قضايا وتقوّي دفاعها بأدلّة وبراهين، وتلجأ إلى المنطق في بعض الحالات، وممّا يُلاحظ أيضاً استعمالها للمصطلحات الإسلامية الجديدة، والمعاني الراقية التي اكتسبت من الدِّين السمح، ولا يفوتنا أن نذكر أثر القرآن الواضح على خطبهنّ، والثورة الروحية التي قادها الرسول (ص) في اللّغة والأدب، وهذا ما نلمسه واضحاً في خُطبة الخنساء بنت عمرو السلمي مثلاً، حين خرجت تُدافع عن العقيدة وتُجاهد في سبيل الله (يا بنيَ إنّكم أسلمتم طائعين، وهاجرتُم مُختارين، ووالله الذي لا إله غيره، إنّكم لبنو رَجُلٍ واحد، كما أنّكم بنو امرأة واحدة، ما خُنت أباكم، ولا فضحتُ خالكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين، واعلموا أنّ الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، ولله على أعدائِهِ مُستنصرين)[٢].

ومن المضامين التي ظهرت من خلال دراسة خطبة الزهراء إنها كانت طريقة من طرق الإقناع وبما إن الخطاب موجه إلى أناس أغواهم الشيطان وغلبت عليهم الأطماع الدنيوية لهذا احتاجت الزهراء إلى هذا الأسلوب البلاغي الرفيع محاولة منها للتأثير وقد دفع ذلك الزهراء(ع) إلى أن تكشف وبصراحة لهؤلاء القوم أخطائهم وعيوبهم مبينة لهم إن الذي يعيشون به ما هو إلا وهم زائل وأنهم بعملهم هذا ينتقلون على أعقابهم بعد هداهم.

الدراسة الفنيّة:

يعد الحديث عن محور الدراسة الفنية والبلاغية أمر ضروري، وذلك لأن خطبة الزهراء تعد نموذجا فريدا للخطب الدينية إذ التزمت فيها الزهراء بالبيان البليغ الذي يأخذ بمجامع القلوب فقد كانت الغاية التأثير في الناس وإحداث الصدمة التي تعيدهم إلى الوراء ليميزوا الخيط الأبيض من الخيط الأسود، لقد كانت خطبة الزهراء تمتاز بالأسلوب الواضح الذي

---

(١) أثر المرأة في الحياة الإسلامية حتّى نهاية العصر الراشدي (رسالة ماجستير): ١٢٨.

(٢) جمهرة خطب العرب: ١/٢٣١، والآية من سورة آل عمران/٢٠٠.

يتدرج من حيث الانفعال وإثارة المشاعر أما عن أبرز الظواهر البلاغية التي لاحظها البحث فاذكر منها:

١ - ظاهرة التوازن التركيبي:

تألفت خطبة الزهراء من جمل متوازنة من حيث التركيب وقد حقق هذا التوازن إيقاعا هادئا وجميلا يجعل السامع يحس بمتعة التأثير إذ آن المعاني التي تضمها الجمل تؤثر في المتلقي فيجتمع المعنى والإيقاع لصالح النص ومن أمثلة هذا التوازن قولها (ع): "كِتَابُ اللهِ النَّاطِقُ، والقُرآنُ الصَّادِقُ، والنُّورُ السَّاطِعُ، والضِّيَاءُ اللامع"[١].

٢ - ظاهرة التضمين القرآني:

أثر القرآن الكريم في نفوس المسلمين وهذا التأثير دفع المؤمنين إلى التحقق في النص القرآني ومحاولة محاكاته في الخطب والكلام وهذا ما ظهر جليا في خطبة الزهراء (ع) نحو اقتباسها: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢]، واقتباسها لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٣].

ان استعمال الزهراء (ع) للتراكيب والمعاني القرآنية واضح كل الوضوح، فقد تجسد التأثير القرآني في خطبتها، وهذا دليل على شدة تأثرها (ع) بالثقافة القرآنية.

وقد لاحظ بعض الباحثين أن خطبة الزهراء امتازت بأسلوب حاول أن يُفيدَ من القرآن الكريم من حيث الدِّقّة والوضوح والسّمو في المضمون، وكذلك أفاد من المنهج المنطقي في الكلام، والاحتجاج بالأدلّة والبراهين، والاطراد في الإتيان بالأحكام الشرعية، والاقتباس من القرآن الكريم على وفق ما يناسب الخطبة من حيث المضمون، حتّى جاءت اقتباساتها مُتناسقة مع الخطب، وهذا ما أكسبها روعة واضحة، ممّا أدّى إلى أن تتحول هذه الخطب إلى عطاءات مثمرة وداعية للتأمّل[٤].

٣ - ظاهرة التقديم والتأخير:

اهتم النقاد والبلاغيون بهذه الظاهرة البلاغية المهمة لان لها دلالة كبيرة ذلك لان التقديم والتأخير يفيد التأكيد والاختصاص والسيدة الطاهرة (ع) كانت تهدف إلى تأكيد المعنى في نفوس المسلمين ومن الأمثلة على ذلك قولها (فمحمد من تعب هذه الدار في راحة)، وقولها في وصف

---

(١) الاحتجاج: ٢٥٧/١ - ٢٥٨.

(٢) آل عمران (١٠٢).

(٣) فاطر (٢٨).

(٤) ينظر: خطب سيدات البيت العلوي: ١٢.

كتاب الله (كتاب الله الناطق... بينة بصائره منكشفة سرائره) ومن الأمثلة الأخرى قولها: (قائداً إلى الرضوان اتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه)، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]؟!... (أَفَعَلَى عَمدٍ تَرَكتُم كِتَابَ اللهِ وَنَبَذْتُمُوهُ)[2].

وقد قدّمت الخطيبة (ع) (أفحكم الجاهلية يبغون) فإنها لو قالت (يبغون حكم الجاهلية) نلاحظ الفرق الدقيق بين المعنيين المستفاد من أسلوب الاستفهام المقدم أي أنهم يهدفون إلى إرجاع الناس إلى الوراء من خلال سلوك حكم الجاهلية وطمس المنجزات الكبيرة التي حققها النبي برسالته العظيمة إذاً الغرض هو التوبيخ والتقريع، فضلاً عن الفائدة التي حققها التعجب الاستنكاري.

أما قولها الآخر فأصل الكلام فيه (أفتركتم كتاب الله على عمدٍ) إن هذا التقديم والتأخير أفاد التخصيص والتأكيد على فعل العمد في ترك كتاب الله وان هذا الترك كان مقصودا من القوم في حين لو أرجعنا الكلام إلى أصله نلاحظ ان التركيز ينصب على التركز بغض النظر عن كون هذا الترك جاء عمداً أم غير عمد.

٤ ـ أسلوب الكناية:

تعارف أهل البلاغة على أن الكناية ابلغ من التصريح، ذلك لأن الكناية توصل إلى المعنى بطريقة الإيحاء غير المباشر مما يدعو المتلقي إلى التأمل والتفكر في النص وفي خطبة الزهراء وردت مجموعة من الكنايات وفي مواضع متعددة فمرة نجدها تستعمل أسلوب الكناية في وصف المنافقين بصفات مذمومة الهدف منها تصوير قبح أعمالهم نحو قولها: (خرست شقاشق الشيطان وطاح وشيظ النفاق)، وهي كناية عن خمود جذوة الشذر وذلك لأن الشر أمر مستهجن، واستشهادها (ع) بقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾[3]، وهي كناية عن ضعفهم وقلتهم.

فضلاً عن هذا استعملت الزهراء (ع) أسلوب التعريض في قولها: "وفُهتم بكلمة الإخلاص مع النفر البيض الخماص الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا"[4]، فقولها فهتم أي تلفظتم، وفاه بالكلام لفظ به، وكلمة الإخلاص: كلمة التوحيد، وفيه تعريض بأنه لم يكن إيمانهم عن قلوبهم، والبض جمع ابيض وهو من الناس خلاف الأسود، والخماص بالكسر، جمع خميص ووصفهم أي أهل البيت بالبيض لبياض وجوههم، أو هو من

---

(١) المائدة/ ٥٠. وينظر خطب سيدات البيت العلوي: ٦١.

(٢) دلائل الإمامة: ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) ينظر بلاغات النساء ودلائل الإمامة. والآية: ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٤) ينظر نص الخطبة في بلاغات النساء: ١٢ ـ ١٨، وشرح نهج البلاغة: ٢١١/١٦.

قبيل وصف الرجل بالأغر، وبالخماص لكونهم ضامري البطون بالصوم وقلة الأكل، أو لعفتهم عن أكل أموال الناس بالباطل[١].

لقد اظهر استعمال الزهراء للكناية أكثر من غيرها ويبدو أن السبب وراء ذلك هو أن الكناية لها محاسن عديدة لا يصل إليها إلا كلّ بليغ متمرس لطف طبعه وصفت قريحته فضلاً عن هذا أن الكناية في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها والقضية في طبعها وبرهانها وقديما رأى الإمام عبد القاهر الجرجاني أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح.

٥ ـ الرمز والإيحاء:

استعملت الزهراء (ع) أسلوب الإيحاء والرمز في خطبتها الغراء، لأن النص مجموعة من العلامات والإشارات التي تضيء للقارئ ظلمته، والخطيب إنما يتعامل مع هذا النوع من العلامات لتوطيد العلاقة بين المتلقي والنص، لان القوانين الاجتماعية تفرض نوعا من التخاطب المشفر عبر علامات يتم الاهتداء بها "لأن الشفرة تملك خاصية إبداعية متفردة، فهي قابلة للتجدد والتغير والتحول، حتى وان ظلت داخل سياقها"[٢].

ومن الأمثلة التي تؤكد استعمال الزهراء لهذا النوع من الإيحاء قولها: "مذقة الشارب، ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطيء الأقدام..."[٣]، فقولها مذقة الشارب إشارة إلى تصغير أمرهم، والنهزة الفرصة تريد أنّ كل طامع كان قادراً عليكم وكنتم عنده فرصة ينتهزها أي يغتنمها، وكل هذه الكلمات تشير إلى ذلَهم قبل أن أعزهم الله بالإسلام، وفي البحار: القبسة شعلة من نار يقتبس من معظمها والإضافة إلى العجلان لبيان القلة والحقارة،

٦ ـ أسلوب الاستعارة:

عرف البلاغيون الاستعارة بأنها تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، فالاستعارة تحتاج إلى نوع من التأمل في النص بسبب خفاء هذا الفن البلاغي أي أن بلاغة الاستعارة تحتاج إلى هذا النوع من التحليل والقراءة وقد استعملت الزهراء (ع) الاستعارة في قولها تصف النبي الأكرم: (مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم آخذاً بأكظامهم) وقولها. (واطلع الشيطان رأسه من مغرزه)، فقد شبهت الشيطان بحيوان.

لقد اتخذت الزهراء من أسلوب الاستعارة طريقا إلى القول الجميل والخيال المثير والعاطفة الفياضة والفكر المحلق فبالاستعارة استطاعت الزهراء (ع) إن تجسد المعنوي حتى يغدو كتلة من عالم المحسوسات تراه العين وتسمعه الإذن ويشمه الأنف ويذوقه اللسان وبالاستعارة ترتفع الأجسام إلى المعنوي ويتحول الظاهر للعيان خفيا تطلع عليه النفس انظر إلى

---

(١) ينظر البحار، ولسان العرب مادة (خمص)، وخطب سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع) مصادرها وأسانيدها: ١٤٢.

(٢) الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريحية: ٩.

(٣) خطب سيدة النساء: ١٤٣.

قولها الشريف "واستقر الحق عن محطه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشيطان وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق"[١]، يقول القاضي النعمان: وقولها: خرست شقاشق الشيطان: الخرس ذهاب الكلام وذهاب الصوت من الشيء، يقال منه: كتيبة خرساء: إذا لم يسمع لها صوت ولا جلبة، والشقاشق: جمع شقشقة، وهي التي يغطى بها البعير، وتخرج من شدقيه إذا هدر، وإذا نحر لم توجد كذلك، وإنما هي لحمة في آخر فيه تنتفخ إذا هاج وتمتد حتى تخرج من حلقه فإذا سكن انفشت والناقة تهدر ولا تغط لأنه لا شقشقة لها تمتد كذلك إذ لا تهيج فضربت لذلك مثلاً لصولة الكفار وانقطاعها برسول الله (ص)"[٢].

لقد استعارت الزهراء هذا التعبير للخطيب، لأنهم إذا قالوا للخطيب ذو شقشقة فإنما يشبه بالفحل، وإسناد الخرس إلى الشقاشق مجازي[٣].

٧ ـ أسلوب الاستفهام:

شكل أسلوب الاستفهام ملمحاً بلاغياً بارزاً في خطبة الزهراء وذلك لأن الزهراء استعملت هذا الأسلوب في مواضع التوبيخ والاستنكار ونحن نعلم أن الاستفهام المجازي لا يحتاج إلى جواب لأنه ليس من قبيل طلب حصول الفهم وكما ذهب إلى ذلك أصحاب البلاغة.

لقد كانت الزهراء تراعي في خطابها حالة المتلقي وموقفه إزاء ما يتلقى من خطبة بليغة فقد استفهمت في قولها (أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟) وقولها في موضع آخر من الخطبة (فإني... وأسررتم بعد الإعلان؟ وأشركتم بعد الإيمان؟).

٨ ـ ظاهرة السجع أو الفاصلة:

لاشك في أن الفاصلة توفر نمطاً موسيقياً له تأثيره في المتلقي خاصة عندما يكون الكلام إنشاداً ويكون الاعتماد فيه على السمع ذلك لأن الأذن تتأثر بالكلام الذي يأتي منسجم الفقرات يشتمل على نهايات متوافقة الحروف تامة المعنى لاحظ قولها (ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته ذيادة لعباده من نقمته وحياشة لهم إلى جنته)

٩ ـ توظيف المثل:

لم تقتصر الزهراء (ع) في خطبتها على الاستفادة من النص القران إن تعدى ذلك ليشمل (المثل العربي) فقد استعانت الزهراء بالمثل شدة تحول المنافقين عن مبادئ الإسلام المتمثلة بولاية الإمام علي (ع) عندما قالت مثل يضرب على سرعة التحويل أي إن الزهراء وجدت في

---

(١) بلاغات النساء: ١٢ ـ ١٨. الوَشيظ من الناس لَفيفٌ ليس أصلهم واحداً، والوَشيظ الدُخلاء في القوم، لسان العرب: مادة (وشظ) ٤٦٥/٧، وقال الجوهري: (الوشيظ: لفيف من النّاس (ليس) أصلهم واحد).

(٢) ينظر: خطب سيدة النساء: ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٣) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية: ١٥٧/٥

الإسلام العربي البليغ حجة لإثارة النفوس ذلك لأن المثل يشمل قصة مكثفة مليئة بالدروس يستفيد منها الناس في حياتهم، ومن صور استعمال الزهراء (ع) للمثل قولها: "موطئ الأقدام" وهو مثل مشهور يضرب في بيان المغلوبية والمذلة[1].

وقد كانت الدقة في اختيار الألفاظ ذات الدلالة القوية على معانيها واحداً من عناصر نجاح الصورة في خطبة الزهراء، إذ أننا نلاحظ الاقتضاب في استعمال الكلمات ذوات الدلالة الدقيقة على معانيها.

وأخيراً بودي أن أقول أن خطبة الزهراء كانت ذات أبعاد متعددة فقد بدأت الخطبة بحمد الله والثناء عليه ومن ثم عرجت على التذكير بنعم الله، وقد امتاز الأسلوب الأدبي للزهراء (ع) بأنه كان يزداد وتيرة في التصريح بضرورة النهضة والوقوف إلى جانب الحق والهدف من وراء ذلك هو إثارة الضمائر واستنهاض الهمم، وقد كشفت الدراسة عن تماسك النص وقوة النظم وقد كان الهدف هو إثبات المظلومية ورمزيه (الحق المغتصب) المتمثل بـ(فدك) وهي إشارة إلى الخلافة وما يترتب عليها.

الخاتمة:

وبعد هذه القراءة البلاغية في خطبة الزهراء (ع) إن لنا أن نسجل أهم النتائج التي توصل إليها البحث وكما يلي:

١- لقد كانت خطبة الزهراء (ع) خطاباً موجهاً ينسجم مع سياق الموقف والحدث أي أنها راعت الأسلوب الخطابي، وهنا تكمن قوة المعاني والألفاظ، وقوة الحجة والبرهان، فهي تتحدث إلى السامعين لإثارة عزائمهم واستنهاض هممهم.

٢- أدركت السيدة الزهراء (ع) إن للخطابة دوراً كبيراً في تأثير الكلمة على العقل وفي القلب لأنها تؤثر في قناعات الناس في مختلف جوانب الحياة بسبب سرعة نفاذها إلى الذات الإنسانية لهذا أحادت استثمارها من خلال توظيف عناصر متنوعة كالصورة الفنية بمختلف طرقها.

٣- اظهر البحث أن أكثر الصور الفنية والتعابير المجازية التي استعملتها الزهراء كانت مأخوذة من الواقع الاجتماعي والبيئة التي يعيشها الفرد العربي، وذلك إيماناً منها بقدرة هذه الصور المستوحاة من نفس البيئة على التأثير السريع في النفوس ومن ثم استمالتها نحو الغاية من الخطبة.

٤- بين البحث أن بلاغة الزهراء امتد تأثيرها ليشمل علماء اللغة وكبار الأدباء، وقد تبين هذا التأثير من خلال كثرة الشروح التي قامت حول الخطبة، فضلاً عن المفردات التي استوقفت علماء اللغة وقاموا بتفسيرها في مؤلفاتهم.

---

(١) ينظر: مجمع الأمثال: ١٢٣ والتمثيل والمحاضرة: ٢٩٠. فلان موطئ الأقدام للذليل.

مصادر الدراسة:

القران الكريم.

- الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي. دار العلم للملايين. لبنان. ط٩، ١٩٩٨م.
- أثر المرأة في الحياة الإسلامية حتّى نهاية العصر الراشدي: علي كسار غدير الغزالي. رسالة ماجستير، كلية الآداب. جامعة الكوفة، ١٤١٨هـ . ١٩٩٧م.
- الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تح: الشيخ ابراهيم البهادري والشيخ محمّد هادي به، بإشراف العلامة الشيخ جعفر السبحاني، ط٤، دار الأسوة للطباعة والنشر . قم، ١٤٢٤هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(ت٨٥٢هـ)، تح: علي محمد البجاوي، ط١، دار الجيل . بيروت، ١٤١٢هـ.
- أعلام النساء المؤمنات: محمد الحسون وأم علي مشكور، ط٢، دار الأسوة للطباعة والنشر . إيران، ١٣٧٩هـ.
- بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار: العلامة الشيخ محمّد باقر المجلسي (ت١١١٠هـ)، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت . لبنان، ط٢، ١٩٨٣م . ١٤٠٣هـ.
- بلاغات النساء (وطرائف كلامهنّ وملح نوادرهنّ وأخبار ذوات الرأي منهنّ) وأشعارهنّ في الجاهليّة والإسلام: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر بن طيفور (ت٢٨٠هـ)، النجف الأشرف. المكتبة المرتضية، ١٣٦١هـ.
- التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، مطبعة القاهرة، (د.ت).
- جمهرة خُطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية . بيروت، د . ت.
- خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع) مصادرها وأسانيدها، محمد جواد المحمودي، مكتبة فخراوي، ط١، المنامة – البحرين، ٢٠٠٨م.
- شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن محمّد بن أبي الحديد (ت٦٥٥هـ)، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٣٧٩هـ . ١٩٥٩م.
- الكافي: لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (٣٢٨هـ)، صحّحه وعلّق عليه علي أكبر الغفاري. دار الكتب الإسلامية . طهران، ط٤، ١٣٧٥هـ.
- الكامل في التأريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، عُني بمُراجعته نخبة من العلماء، ط٢، دار صادر . بيروت، ١٩٨٠م.
- كتاب جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط٢، دار الفكر -دمشق، ١٩٨٨م.
- كتاب الشافي في الإمامة: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت٤٣٦هـ)، تح: عبد الزهراء الحسيني الخطيب، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران . إيران، ١٤١٠ هـ.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ)، تح: علي محمّد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم، ط١، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٢م . ١٣٧١هـ.
- كشف الغمّة: علي بن عيسى الأربلي (ت٦٩٣هـ)، مكتبة الصدر، طهران . ١٣٩٧هـ.
- لسان العرب: جمال الدينأبو الفضل محمّد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري(ت٧١١هـ)، ط١، دار صادر . بيروت، د.ت.
- اللهوف في قتلى الطفوف: علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسيني (ت٥٨٩هـ)، منشورات سجدة.
- المرأة في أدب العصر العباسي، د. واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام . الجمهورية العراقية، ١٩٨١م. ❖

خطبة الزهراء (ع) في المسجد النبوي الشريف (لما منعت فدكا)

(دراسة في المدلول النصيّ)

د. حيدر كريم كاظم الجمّالي[*]

إن الكتابة عن فاطمة يستغرق الجهد كله ويفيض أن يكون في هذه الأوراق المعدودة فالحديث يحتاج إلى أكبر من هذا.

فليس من كتب عن هذه الشخصية ولعل موضوعي يكون الأول بينهم في عنوانه إذ إنه يبحث في الدلالة النصية للخطبة الرائعة للسيدة الزهراء عليها سلام الله تعالى. لا أكون قد وضعت نفسي موضع المدقق في كثير من الروايات والكتب والبحوث التي تناولت الموضوع من بعيد أو قريب.

فجاء البحث مقسماً على محاور:

فجاء المبحث الأول في أسانيد رواية الخطبة ومحال ذكرها في الكتب والمصادر، ولاسيما القديم ثم وقدا كدت في البحث على إيرادها من كتب أبناء العامة أبناء العامة ثم ذكرت كتب الشيعة والمعاصرين.

وقد عرضت في الثاني منها: نص الخطبة الرائعة للسيدة الزهراء وقد اخترت رواية كتاب الاحتجاج للطبرسي ثم ذيلتها بالألفاظ المختلفة في بعض الألفاظ التي وردت في الروايات الأخرى.

أما في المبحث الثالث: فقد درست فيه شروح الخطبة وجعلتها في محورين وهما ما هو مخطوط منها وما هو مطبوع ولاسيما ما وقعت عليه يدي، وفي كل محور جعلت قسمين منها: ما يخص الزهراء (ع) بشكل عام وما يخص خطبتها بشكل خاص.

أما المحور الرابع: فكان بيان المناهج الحديثة للدراسات النصية وعطفاً على موضوعنا منه.

وأما المحور الخامس والأخير: وهو أطولها فكان للدلالة النصية في الخطبة المذكورة.

وقد قدمت لمحاور البحث بمقدمة وختمتها بخاتمة ضمنتها نتائج بحثي المتواضع يتبعها قائمة بمصادر البحث ومراجعه. وجل أمنياتي أن أكون قد وفقت في أن أنال ما أصبو إليه وشكرا لمن أسهم معي في إعداد البحث وعملي أساساً مبني على النقصان وغايتي أن أشكر كل من مد لي يد العون. والله المستعان على كل شيء.

(*) كلية الآداب، جامعة الكوفة، قسم اللغة العربية.

ملخص البحث: خطبة الزهراء (ع) لمّا منعت من فدك

لقد جاء الخطاب في المسجد النبوي، وبجوار قبر المصطفى محمد (ص) ليسجل اعتراض المسجد النبوي الذي كان دائماً محور الهدى الديني - على «سقيفة بني ساعدة» الذي جرى تحت سقفه أول مؤامرة على خط المسجد. وخط باني المساجد رسول الله محمد (ص).

لم تكن فاطمة من النوع يقيم لحطام الدنيا وزناً - وهي التي أهدت حتّى ثياب عرسها لسائلة مسكينة ليلة الزفاف - وهي التي شهد القرآن لها ولآلها في سورة (هل أتى) بالايثار في سبيل الله ولو كان بهم خصاصة، وهي التي شهدت لها آية التطهير (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) بالصدق والعفّة ولكن اغتصاب « فدك » كان حجة على الذين غصبوا الخلافة وسنداً واضحاً يدين فعل «المغتصبين».

لقد أثبتت الزهراء (ع) للتاريخ كلّه أنّ خلافة تقوم في أول خطوة لها بالاعتداء على «أملاك رسول الله» ليست امتداداً للنبي بقدر ما هي انقلاب عليه، كما هو شأن كلّ «الانقلابات» الّتي تتمّ في الدنيا حيث يصادر الرئيس الجديد ممتلكات الرئيس السابق الذي انقلب عليه، بحجةٍ أو بأخرى، حتّى لا يستطيع أعوانه وأقرباته من الدفاع عن أنفسهم والعودة إلى مراكز الحكم والسلطة إن أي شخص يتجرّد من العصبية المذهبية ويفهم أوليات السياسة يدرك مغزى مصادرة «فدك».

والبحث يسير في الدليل النصي وإثباته من قبل الزهراء (ع) وكيفية استخدامه حيث جعلت القوم ينهزمون أمام منطق الزهراء الموازر بآيات من النص الحكيم وبمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة، وفي الأخير.. وبعد أخذ ورد صرّح الخليفة أمام الجماهير بعدم شرعيّة انتزاع فدك من الزهراء.. ولم يجد بدّاً من الاعتراف، ولكنّه حاول الالتفاف على حجّتها برمي الكرة في مرمى الجماهير الحاضرة في المسجد.. فصار حقّ الزهراء المسلّم رهناً برضى قوم يعرفون تماماً وجه الحقّ ومقصد الخليفة من هذه المناورة، ولكن سيف الإرهاب الذي شهر في السقيفة ما كان يدع لأحد مجالاً للاعتراض..

أولاً: أسانيد خطبة الزهراء (ع) ومصادرها - لمّا منعت من فدك -

تعد خطبة الزهراء (ع) من أهم خطب أهل البيت وأشهرها، وهي من الشهرة حيث لا يمكن تغافلها وقد أوردتها مصادر كثيرة ومراجع وبطرق عدة:

- ويقف أمامنا كتاب (السقيفة) لأحمد بن عبد العزيز الجوهري (ت ٢٦٢هـ) كأقدم مصدر يذكرها بأسانيده الثلاثة المشهورة[(١)]:

---

(١) ظ: شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد - نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهري - ٧٨/٤. وأعيان الشيعة: السيد الأمين: ٣١٥/١. وإشراقات فكرية من أنوار الخطبة الفدكية: لحبيب الهديبي: ٥١/١....... وغيرها.

١- قال الجوهري حدثني جعفر بن محمد بن عمارة الكندي. قال حدثني أبي عن الحسن بن صالح بن حي. قال حدثني رجلان من بني هاشم عن زينب بنت علي بن أبي طالب (ع)، وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه...... وأورد الخطبة.

٢- قال الجوهري: وحدثني عثمان بن عمران العجيفي عن ابن عمير عن شمر عن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن علي (ع)، وذكر سندها هكذا: (أخبرني أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، حدثني محمد بن أحمد الكاتب، حدثنا أحمد بن عبد الله بن ناصح النحوي، حدثنا الزيادي، حدثنا السري عن القطامي عن محمد بن إسحاق. قال: حدثنا صالح بن كيسان عن عروة عن عائشة، قال المرزباني: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي حدثنا أبو العيناء محمد بن القاسم اليماني حدثنا ابن عائشة قال.... وأورد الخطبة.

٣- قال أبو بكر الجوهري: حدثني أحمد بن محمد بن يزيد عن عبد الله بن محمد بن سليمان عن أبيه عن عبد بن الحسن بن الحسن قالوا جميعاً.... وأورد الخطبة.

- وممن رواها ابن طيفور (ت ٢٨٠هـ) في كتابه بلاغات النساء وقال: (حدثني جعفر عن رجل من أهل ديار مصر لقيته بالرافقة حدثني أبي أخبرنا موسى بن عيسى أخبرنا عبد الله بن يونس أخبرنا جعفر الأحمر عن زيد بن علي - رحمه الله - عن عمته زينب بنت الحسين (ع) قال: لمّا بلغ فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فدكا لاثت خمارها وخرجت في حشدة من نسائها ولمة من قومها.......)[١] وقد نقلها السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة[٢].
- وقد أوردها المسعودي (ت ٣٤٦هـ) في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر. ونقلها في أخبار الزمان والأوسط بإسناده عن صاحب السقيفة[٣].
- وممن ذكرها هنا السيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ) في كتاب الشافي حيث يروها بإسناده عن عائشة (رض) ثم قال بعد إيرادها: أخبرنا أبو عبد الله المرزباني، حدثني علي ابن هارون أخبرني، عبد الله بن أبي طاهر عن أبيه. قال: ذكرت لأبي الحسن زيدبن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كلام فاطمة عندما منع أبي بكر إياها فدكا. وقلت له: إن هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء لأن الكلام منسوق في البلاء. فقال ليّ: رأيتُ مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أولادهم. وقد حدثني به أبي عن جدي يبلغ به فاطمة على هذه الحال)[٤].

---

(١) بلاغات النساء: ابن طيفور، ص١٩.

(٢) أعيان الشيعة: ٢١٥/١.

(٣) ظ: مروج الذهب: ٣١١/٢.

(٤) الشافي في الإمامة: للشريف المرتضى ١١١. وظ: شرح نهج البلاغة: ٧٨/٤ واعيان الشيعة: السيد الأمين: ٣١٥/١. وإشراقات فكرية من أنوار الخطبة الفدكية: لحبيب الهديبي: ٥١/١ وفاطمة من المهد إلى اللحد: السيد كاظم القز ويني ص ٢٣٦. وشرح خطبة الزهراء: جمع وتحقيق: السيد باقر الكيشوان الموسوي: ص١٢ - ١٧.......... وغيرها.

- أوردها ابن الأثير (ت ٥٤٤هـ)، في كتابه النهاية في غريب الحديث والأثر[١].
- ونقلها ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٥٨٦هـ) في كتابه شرح نهج البلاغة، وقد أورد الخطبة كاملة نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهري بأسانيدها[٢]. بأربعة طرق:
  ١- بإسناده عن رجال أهل البيت عن زينب بنت علي (ع).
  ٢- بإسناده عن الإمام جعفر بن محمد (ص).
  ٣- بإسناده عن الإمام الباقر بن علي (ع).
  ٤- بإسناده عن عبد الله بن الحسن (ع).
- وأوردها الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) في كتابه معاني الأخبار وبإسناده عن زينب بنت علي (ع)[٣].
- ورواها الشيخ الطبرسي (ت٦٥٠هـ) في كتابه الاحتجاج والرواية عنه مرسلاً[٤].
- وممن أوردها علي بن الحسين الأربلي (ت ٦٩٣هـ) في كتابه كشف الغمة قال) نقلتها من كتاب السقيفة تأليف أحمد بن عبد العزيز الجوهري من نسخة قديمة مقروءة على مؤلفها المذكور قرئت عليه في ربي الآخر سنة اثنين وعشري وثلاثمائة.... روى رجال عدة)[٥].
- ونقلها السيد علي بن موسى الطاووس (ت٦٦٤ هـ) في كتابه الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف. بإسناده عن زينب بنت علي (ع)، وعن عائشة[٦].
- ونقلها العلامة المجلسي (ت ١١١١هـ) في كتابه بحار الأنوار بأسانيدها المختلفة[٧].
- نقلها العلامة الأميني في كتابه أعيان الشيعة[٨].
- نقلها عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء[٩]. وقد نقل الخطبة كاملة بإسناده عن عائشة (رض).

وقد نقلها جمع كثير ولكن حسبي الإطالة هنا وأوجز عمن لم أذكرهم.

---

(١) ظ: النهاية: ٤/ ٢٧٣.

(٢) ظ: شرح نهج البلاغة: ٤/ ٧٨ فما بعدها..

(٣) ظ: معاني الأخبار: ١/ ٢٢٥.

(٤) ظ: الاحتجاج: ١/ ١٣١. وقد رأيت أن أثبتها هنا برواية الاحتجاج ثم أشير إلى موضع التباين في الروايات في أثناء سد الخطبة.

(٥) كشف الغمة في معرفة الأئمة: للأربلي: ص٢١٢. وظ: شرح خطبة الزهراء ص ١٤.

(٦) ظ: الطرائف: ص ٢١٢.

(٧) ظ: بحار الأنوار: ٨/ ١٠٩ - ١١٢. حيث قال في مقدمتها: (ثم أن فاطمة لما منعت فدكا خطبت خطبة طويلة عظيمة جليلة غاية في الفصاحة والبلاغة والمتانة وقوة الحجة بمحضر من المهاجرين والأنصار).

(٨) ظ: أعيان الشيعة: ١/ ٣١٥.

(٩) ظ: أعلام النساء: ٤/ ١١٦ - ١١٩.

ثانياً: خطبة فاطمة الزهراء (ع) لّما منعت من فدك

روى العلاّمة الطبرسي في كتابه الاحتجاج بسنده عن عبد الله بن الحسن[١] بإسناده عن آبائه (ع)[٢]: [أنه لما أجمع[٣] أبو بكر وعمر على منع فاطمة (ع) فدكا وبلغها ذلك لاثت[٤] خمارها[٥] على رأسها، واشتملت[٦] بجلبابها[٧]] وأقبلت في لمة[٨] من حفدتها[٩] ونساء قومها تطأ ذيولها[١٠] ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص)[١١] حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت[١٢] دونها ملاءة فجلست ثم آنت انة أجهش[١٣] القوم لها بالبكاء، فارتج المجلس، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلما امسكوا عادت في كلامها، فقالت (ع):

(الحمد لله على ما انعم، وله الشكر على ما الهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام من أولاها[١٤]، جم عن الاحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بأجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص بأولها، وضمن القلوب موصلها، وأنار في التفكر معقولها، الممتنع من الإبصار

---

(١) [هو عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن طالب (عليه السلام)].

(٢) روى خطبة الزهراء (ع) في المسجد النبوي جمع من أعلام الشيعة والعامّة بطرق متعدّدة تنتهي بالإسناد عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده (ع)، وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أبيه الباقر عليه السلام، وعن جابر الجعفي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وعن عبدالله بن الحسن، عن أبيه، وعن زيد بن علي، عن زينب بنت الحسين (ع)، وعن رجال من بني هاشم، عن زينب بنت علي (ع)، وعن عروة بن الزبير، عن عائشة.

(٣) [أي أحكم النية والعزيمة].

(٤) [أي لفه].

(٥) [الخمار: المقنعة، سميت بذلك لان الرأس يخمر بها أي يغطى].

(٦) [الاشتمال الشيء جعله شاملا ومحيطا لنفسه].

(٧) [الجلباب: الرداء والإزار].

(٨) [أي جماعة وفي بعض النسخ في لميمة بصيغة التصغير أي في جماعة قليلة].

(٩) [الحفدة: الأعوان والخدم].

(١٠) [أي أن أثوابها كانت طويلة تستر قدميها فكانت تطأها عند المشي].

(١١) [الخرم: البرك، النقص، والعدول].

(١٢) [أي علقت].

(١٣) [أجهش القوم: تهيئوا].

(١٤) [أي تابعها].

رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها كونها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته، وتنبيها على طاعته، وإظهاراً لقدرته، تعبدا لبريته، إعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده من نقمته، وحياشة[1] لهم إلى جنته، وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه[2]، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علما من الله تعالى بما يلي الأمور. وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بموقع الأمور. ابتعثه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذا لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقا في أديانها، عكفا على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها[3] وجلى عن الأبصار غممها[4] وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم.

ثمَ قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد (ص) من تعب هذه الدار في راحة، قد حف بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه، وخيرته من الخلق وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته).

ثمَ التفتت إلى أهل المجلس وقالت: (أنتم عباد الله بصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه. وأمناء الله على أنفسكم، وبلغائه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به اشياعه، قائداً إلى الرضوان اتباعه، مؤد النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة.

فجعل الله الإيمان: تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة: تنزيها لكم عن الكبر، والزكاة: تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام: تثبيتا للإخلاص، والحج: تشييدا للدين، والعدل: تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا: نظاماً للملة، وإمامتنا: أماناً للفرقة، والجهاد: عزاً

(١) [حاش الإبل: جمعها وساقها].

(٢) اوبروى: اجتبله]أي خلقه.

(٣) [أي مبهماتها وهي المشكلات من الأمور].

(٤) [الغمم: جمع غمة وهي: المبهم الملتبس وفي بعض النسخ (عماها)].

للإسلام، والصبر: معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف: مصلحة للعامة، وبر الوالدين: وقاية من السخط، وصلة الأرحام: منساه[١] في العمر ومنماة للعدد، والقصاص: حقنا للدماء، والوفاء بالنذر: تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين: تغييرا للبخس، والنهي عن شرب الخمر: تنزيها عن الرجس، واجتناب القذف: حجاباً عن اللعنة[٢]، وترك السرقة: إيجاباً بالعفة، وحرم الله الشرك: إخلاصاً له بالربوبية، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣]، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤].

ثم قالت: (أيها الناس اعلموا، إني فاطمة وأبي محمد (ص) أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً[٥] ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[٦] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٧].

فان تعزوه وتعرفوه: تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه (ص)، فبلّغ الرسالة، صادعاً[٨] بالنذارة[٩] المشركين، ضارباً ثبجهم[١٠] آخذاً بأكظامهم[١١] داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجف الأصنام[١٢] وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه[١٣] وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين[١٤] وطاح[١٥] وشظ[١٦] النفاق، وانحلت عقد

---

(١) [أي مؤخرة].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في حقّ من يرمون المحصنات: {لعنوا في الدنيا والآخرة}.

(٣) آل عمران/١٠٢.

(٤) فاطر/٢٨.

(٥) [الشطط: هو البعد عن الحق ومجاوزة الحد في كل شيء].

(٦) [عنتم: أنكرتم وجحدتم].

(٧) التوبة/١٢٨.

(٨) [الصدع هو الإظهار].

(٩) [الإنذار: وهو الإعلام على وجه التخويف] مائلا عن مدرجة [هي المذهب والمسلك].

(١٠) [الثبج: وسط الشيء ومعظمه].

(١١) [الكظم: مخرج النفس من الحلق].

(١٢) [في بعض النسخ (يكسر الأصنام) وفي بعضها (يجذ) أي يكسر].

(١٣) [أي انشق حتى ظهر وجه الصباح].

(١٤) [الشقاشق: جمع شقشقة وهي: شيء كالربة يخرجها البعير من فيه اذا هاج].

(١٥) [أي هلك].

(١٦) [الوشيظ: السفلة والرذل من الناس].

الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص[١] في نفر من البيض الخماص[٢] وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب[٣] ونُهزة[٤] الطامع، وقبسة العجلان[٥] وموطئ الأقدام[٦]. تشربون الطرق[٧] وتقتاتون القِدّ[٨] أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (ص)، بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني ببهم الرجال[٩] وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، إن نجم[١٠] قرى الشيطان[١١] أو فغرت فاغرة من المشركين[١٢] قذف أخاه في لهَواتها اللهوات[١٣] فلا ينكفيء[١٤] حتى يطأ جناحها بأخمصه[١٥] ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً، كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وانتم في رفاهية من العيش، وادعون[١٦] فاكهون[١٧] آمنون، تتربصون بنا الدوائر[١٨] وتتوكفون[١٩] الأخبار[٢٠] وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال، فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النفاق[٢١] وسمل[٢٢] جلباب الدين ونطق

---

(١) [أي كلمة التوحيد].

(٢) [المراد بهم أهل البيت (ع)].

(٣) [أي شربته].

(٤) [أي الفرصة].

(٥) [مثل في الاستعجال].

(٦) [مثل مشهور في المغلوبية والمذلة].

(٧) [ماء السماء الذي تبول به الأبل وتبعر].

(٨) [سير بقد من جلد غير مدبوغ].

(٩) [أي شجعانهم].

(١٠) [أي ظهر].

(١١) [أي أمته وتابعوه].

(١٢) [اي الطائفة منهم].

(١٣) وهي اللحمة في أقصى شفة الفم].

(١٤) [أي يرجع].

(١٥) [الأخمص مالا يصيب الأرض من باطن القدم].

(١٦) [أي ساكنون].

(١٧) [أي ناعمون].

(١٨) [أي صروف الزمان أي كنتم تنظرون نزول البلايا علينا].

(١٩) [أي: التوقع].

(٢٠) [أي تتوقعون أخبار المصائب والفتن النازلة بنا].

(٢١) [في بعض النسخ (حسكية) وحسكة النفاق عداوته].

(٢٢) [أي صار خلقاً].

الغاوين، ونبغ خامل[١] الأقلين، وهدر[٢] فنيق[٣] المبطلين، فخطر[٤] في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه[٥] هاتفاً بكم[٦] فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، واحشمكم فألفا غضاباً فوسمتم[٧] غير أبلكم ووردتم [الورود: حضور الماء للشرب] غير مشربكم، هذا والعهد قريب والكلم [أي الجرح] رُحيب [أي السعة] والجرح لما يندمل [أي لم يصلح بعد] والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٨]، فهيهات منكم، وكيف بكم، وإني تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها [نفرت الدابة جزعت وتباعدت] ويسلس [أي يسهل] قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها [أي لهبها] وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسوا [الحسو: هو الشرب شيئاً فشيئاً] في ارتغاء[٩] وتمشون لأهله وولده في الخَمرة [الخمر: ماواراك من شجر وغيره] والضَراء [أي الشجر الملتف بالوادي] ويصير منكم على مثل حز المدى، ووخز السنان في الحشاء، وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١٠]؟! أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية: أني ابنته.

أيها المسلمون أغلب على ارثي؟ يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريا! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[١١]. وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥

---

(١) [أي من خفي ذكره وكان ساقطا لا نباهة له].

(٢) [الهدير: ترديد البعير صوته في حنجرته].

(٣) [الفحل المكرم من الإبل الذي لا يركب ولا يهان].

(٤) [خطر البعير بذنبه إذا رفعه مرة بعد مرة وضرب به فخذيه].

(٥) [أي ما يخفى فيه تشبيها له بالقنفذ فإنه يطلع رأسه بعد زوال الخوف].

(٦) [أي حملكم على الغضب فوجدكم مغضبين لغضبه].

(٧) [الوسم أثر الكي].

(٨) آل عمران/٨٥.

(٩) [الارتغاء: هو شرب الرغوة وهي اللبن المشوب بالماء وحسوا في ارتغاء: مثل يضرب لمن يظهر ويريد غيره].

(١٠) المائدة/٥٠.

(١١) النمل/١٦.

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾[١]. وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٢]: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٣] وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤] وزعمتم: إن لا حظوة [أي المكانة] لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية اخرج أبي منها؟ ام هل تقولون: أن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم انتم أعلم بخصوص القرآن من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة [من الخطام وهو: كل ما يدخل في انف البعير ليقاد به] مرحولة [الرحل: هو للناقة كالسراج للفرس] تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٥] ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[٦].

ثمّ رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: (يا معشر النقيبة[٧] وأعضاد الملة وحضنة الإسلام. ما هذه الغميزة[٨] في حقي والسنة[٩] عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: (المرء يحفظ في ولده)؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة[١٠] ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما اطلب وأزاول، أتقولون مات محمد (ص)؟ فخطب جليل، استوسع وهنه[١١] واستنهر[١٢] فتقه وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسف الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت[١٣] الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة[١٤] عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هنافاً، وصراخاً، وتلاوة، وألحاناً، ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله، حكم فصل،

---

(١) مريم: ٦.
(٢) [الأنفال: ٧٥].
(٣) [النساء: ١١].
(٤) [البقرة: ١٨٠].
(٥) الأنعام: ٦٧.
(٦) هود: ٣٩.
(٧) [أي الفتية].
(٨) [أي ضعفه في العمل].
(٩) [النوم الخفيف].
(١٠) [أي الدسم].
(١١) [وهنة الوهن: الخرق].
(١٢) [أي اتسع].
(١٣) [أي قل خيرها].
(١٤) [أي داهية].

وقضاء حتم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١].

(أيها بني قيلة[٢] أهضم تراث أبي؟ وانتم بمرئ مني ومسمع، ومنتدى[٣] ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وانتم ذوو العد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجُنة [ما استترت به من السلاح] توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح[٤] أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودر حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق[٥] نظام الدين، فأنى حزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الايمان؟ بؤساً لقوم نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين[٦].

ألا وقد أرى أن قد أخلدتم[٧] إلى الخفض[٨] وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة ونجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ماوعيتم، ودسغتم[٩] الذي تسوغتم[١٠] ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[١١].

ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجذلة[١٢] التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة[١٣]، وبثة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها[١٤] دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة

---

(١) ال عمران: ١٤٤.

(٢) [قبيلتا الأنصار: الأوس والخزرج].

(٣) [أي المجلس].

(٤) [أي لا نزال].

(٥) [أي اجتمع].

(٦) جاء في أعلام النساء ج٤/١٢٣ بعد هذه الجمل فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون.

(٧) [أي ملتم].

(٨) [أي السعة والخصب واللين].

(٩) [الدسغ: الفيء].

(١٠) [تسوغ الشراب شربه بسهولة].

(١١) إبراهيم: ٨.

(١٢) [الجذلة: ترك النصر].

(١٣) والمراد من ضعف القناة هنا ضعف النفس عن الصبر على الشدة].

(١٤) [أي احملوها على ظهوركم ودبر البعير أصابته الدَبَرة وهي جراحة تحدث من الرحل].

بغضب الجبار، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[١]، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾[٢]، ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[٣].

فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان وقال: يا بنت رسول الله، لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفا كريما، رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذابا أليماً، وعقاباً عظيماً، إن عزوناه وجدناه أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الإخلاء [الألف: هو الأليف بمعنى المألوف والمراد به هنا الزوج لأنه إلف الزوجة، وفي بعض النسخ: ابن عمك] آثر على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي بعيد، فأنتم عترة رسول الله، والطيبون الخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، إلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله، ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، واني أشهد الله وكفى به شهيداً، أني سمعت رسول الله (ص) يقول: (نحن معاشر الأنبياء، لا نورث ذهبا ولا فضة، ولا دارا ولا عقار، وإنما نورث الكتاب والحكمة، والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة، فلأولي الأمر بعدنا، أن يحكم فيه بحكمه) وقد جعلنا ما حولته في الكراع والسلاح، يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجالدون المردة الفجار. وذلك بإجماع من المسلمين، لم انفرد به وحدي، ولم استبد بما كان الرأي عندي، وهذه حالي ومالي، هي لك وبين يديك، لا تزوى عنك، ولا ندخر دونك، وإنك وأنت سيدة امة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا ندفع مالك من فضلك، ولا يوضع في فرعك وأصلك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك (ص)؟

فقالت (ع): (سبحان الله ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله صادفاً[٤] ولا لأحكامه مخالفاً! بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من الغوائل [أي المهالك] في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً، وناطقاً فصلاً، يقول: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٥] ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٦] وبين عز وجل فيما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ

(١) الشعراء: ٢٢٧.

(٢) فصلت: ٥.

(٣) السجدة: ٣٠.

(٤) [أي معرضا].

(٥) مريم: ٦.

(٦) النمل: ١٦.

الذكران والإناث، ما أزاح به علة المبطلين، وأزال التظني والشبهات في الغابرين، ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

فقال أبو بكر: صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة، وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، لا أبعد صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلدوني ما تقلدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت، غير مكابر ولا مستبد، ولا مستأثر، وهم بذلك شهود.

فالتفتت فاطمة (ع) إلى الناس وقالت: (معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل [في بعض النسخ: قبول الباطل] المغضية على الفعل القبيح الخاسر، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[2]؟ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اغتصبتم، لتجدن والله محمله ثقيلاً، وغبه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء، وبان باورائه الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون).

ثمّ عطفت على قبر النبي (ص) وقالت[3]:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة[4]	**لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب[5]**
أنا فقدناك فقد الأرض وابلها	**واختل قومك فاشهدهم ولا تغب**
وكل أهل له قربى ومنزلة	**عند الإله على الادنين مقترب**
أبدت رجال لنا نجوى[6] صدورهم	**لما مضيت وحالت دونك الترب**
تجهمتنا رجال واستخف بنا	**لما فقدت وكل الأرض مغتصب**
وكنت بدرا ونورا يستضاء به	**عليك ينزل من ذي العزة الكتب**
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا	**فقد فقدت وكل الخير محتجب**
فليت قبلك كان الموت صادفنا	**لما مضيت وحالت دونك الكثب**

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) محمد: ٢٤.

(٣) وفي كشف الغمة لهند بنت أثاثة وقيل إن هذه الأبيات لهند بنت أبان بن عبد المطلب تمثلت بها السيدة الزهراء (ع) ينظر فاطمة الزهراء (ع) من المهد إلى اللحد: ٣٤٢.

(٤) الهنبثة: الأمر الشديد المختلف.

(٥) الخُطب: بضم الخاء والطاء جمع خطب بفتح الخاء وهي المصائب الشديدة.

(٦) النجوى هنا: الأحقاد.

ثمّ انكفأت (ع)، وأمير المؤمنين (ع) يتوقع رجوعها إليه، ويتطلع طلوعها عليه، فلما استقرت بها الدار، قالت: لأمير المؤمنين (ع): (يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة[١] الأجدل[٢] فخانك ريش الأعزل[٣] هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبغلة[٤] ابني! لقد أجهد[٥] في خصامي، والفيته آلد في كلامي، حتى حبستني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، آضرعت[٦] خدك يوم أضعت حدك افترست الذئاب، وافترشت التراب، ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً[٧] ولا خيار لي، ليتني مت قبل هنيئتي، ودون ذلتي عذيري[٨] الله منه عادياً ومنك حامياً، ويلاي في كل شارق! ويلاي في كل غارب! مات العمد، ووهن العضد، شكواي إلى أبي! وعدواي [العدوى: طلبك إلى وال لينتقم لك من عدوك] إلى ربي! اللهم إنك أشد منهم قوة وحولاً، وأشد بأسا وتنكيل!).

فقال أمير المؤمنين (ع): (لا ويل لك بل الويل لشانئك ثم نهنهي عن وجدك[٩] يا ابنة الصفوة، وبقية النبوة، فما ونيت[١٠] عن ديني، ولا أخطأت مقدوري[١١] فإن كنت تريدين البلغة، فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعد لك أفضل مما قطع عنك، فاحتسبي الله).

فقالت: (حسبي الله)، وأمسكت.

ثالثاً: شروح خطبة فاطمة الزهراء (ع) لمّا منعت من فدك

لقد تناول هذه خاصة وفاطمة الزهراء (ع) جمع كثير من الكتاب والباحثين: شرحاً وتفصيلاً وتدقيقاً بجميع اللغات ولاسيما: الفارسية والعربية منها وسأورد هنا ما استطعت الوقوف عليه من خلال المصادر المختلفة، وسيكون بحثي بمحورين المخطوط من تلك الكتب والمطبوع باتجاهين الأول سيكون لشرح الخطبة أو التعليق عليها. والثاني: سيكون للكتب العامة التي عرضت لحياة فاطمة (ع) وسيرتها: الشخصية والعلمية....

(١) [قوادم الطير: مقادم ريشه وهي عشرة].
(٢) [أي الصقر].
(٣) [العزل من الطير: ما لا يقدر على الطيران].
(٤) [البغلة ما يتبلغ به من العيش].
(٥) [في بعض النسخ: أجهر].
(٦) [ضرع: خضع وذل].
(٧) [أي ما فعلت شيئاً نافعاً، وفي بعض النسخ: ولا اغيت باطلاً: أي كففته].
(٨) [العذير بمعنى العاذر أي: الله قابل عذري].
(٩) [اي كفي عن حزنك وخففي من غضبك].
(١٠) [أي ما كللت ولا ضعفت ولا عييت].
(١١) [أي ما تركت ما دخل تحت قدرتي أي لست قادراً على الانتصاف لك لما أوصاني به الرسول].

المحور الأول: الكتب المخطوطة

الاتجاه الأول: ما يتعلق بالخطبة (مخطوطاً)

- تفسير خطبة الزهراء (ع) لابن عبدون ذكره النجاشي في رجاله[١] والقمي في الكنى والألقاب[٢].
- تفسير خطبة الزهراء (ع) للسيد عبد الله شبر[٣].
- شرح الخطبة الكبرى ذكره صاحب الذريعة[٤].
- شرح الخطبة لفضل القزويني، ذكره صاحب الذريعة[٥].
- شرح الخطبة السيد علي محمد تاج العلماء، ذكره صاحب الذريعة[٦].
- شرح الخطبة هادي البنابي، ذكره صاحب الذريعة[٧].
- شرح خطبة الزهراء لمحمد نجف المشهداني الكرماني، ذكره صاحب الذريعة[٨].

الاتجاه الثاني: ما يتعلق بحياة فاطمة الزهراء (ع) (مخطوطاً): (وقد تناولت الخطبة ضمن مواضيعها):

- إتحاف السائل بما لفاطمة (رض) من الفضائل لمحمد حجازي الشافعي. ذكره صاحب كتاب ينابيع المودة[٩].
- إخبار فاطمة الزهراء لأبي علي الصولي[١٠].
- أخبار فاطمة الزهراء (ع) لعبد الله بن أبي زيد الأنصاري، ذكره النجاشي في رجاله[١١].
- أخبار فاطمة (ع) لمحمد بن أجمد بن عبد الله (ابن أبي البلح)، ذكره النجاشي في رجاله[١٢].
- أخبار فاطمة (ع) ومنشأها ومولدها. لمحمد بن زكريا بن دينار. ذكره النجاشي في رجاله[١٣].

---

(١) ص٦٤.

(٢) ص ١/ ٣٥٣.

(٣) نسخة منه في المكتبة الشبرية/النجف الأشرف.

(٤) ٢١٦/١٣.

(٥) ٢١٦/١٣.

(٦) ن م.

(٧) ن م.

(٨) ن م ص ٢١٧/١٢.

(٩) ص٦. الطبعة السادسة مؤسسة أهل البيت، بيروت لبنان ١٤٠٠ هـ.

(١٠) ظ: معالم العلماء ١٩. ووصف الكتاب بأنه كبير.

(١١) ص ١٤٦.

(١٢) ص٢٧٠.

(١٣) ص ٢٤٥.

- أربعون حديثاً في فضائل الزهراء (ع) لنجم الدين الشريف العسكري ذكره صاحب كتاب علي والوصية[١].
- الأربعين في فضائل الزهراء (ع) لأحمد بن عبد الملك المؤذن، ذكره صاحب كتاب معالم العلماء[٢].
- أضواء الدرر الغوالي لإيضاح غصب فدك والعوالي لبعض الإعلام، ذكره صاحب كتاب بحار الأنوار[٣].
- تزويج فاطمة (ع) لعبد العزيز بن يحيى الجلودي، ذكره النجاشي في رجاله[٤].
- الثغور الباسمة في مناقب السيدة فاطمة لجلال الدين السيوطي[٥].
- الدرة البيضاء في أحوال فاطمة الزهراء للسيد جمال الدين بن محمد بن الحسين الواعظ، ذكرها صاحب الذريعة[٦].
- الروضة الزهراء في مناقب فاطمة الزهراء، لمحمد بن أحمد الخزاعي، ذكره صاحب الذريعة[٧].
- الظلامة الفاطمية، للناصر للحق إمام الزبدية ذكره صاحب معالم العلماء[٨].
- فدك. لإبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي ذكره صاحب الفهرست[٩].
- فدك للحسن بن علي بن الحسن (أبو محمد الأطروش) ذكره النجاشي في رجاله[١٠].
- فدك، لمضر عبد الرحمن بن كثير الهاشمي ذكره النجاشي في رجاله[١١].
- مقامات فاطمة الزهراء في الكتاب والسنة، للسيد محمد علي الحلو، دار الغدير، قم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

---

(١) ص ١٠.

(٢) ص ٢٥.

(٣) ٣١/١.

(٤) ص ١٦٨.

(٥) نسخة منه بدار الكتب المصرية رقم(١٢٣) وأخرى بمكتبة أسعد أفندي. سليمانية برقم (٢٣٥٣) وثالثة في مكتبة جامعة برنستن في الولايات المتحدة ذكرها صلاح الدين المنجد في تحقيقه لكتاب تزويج فاطمة.

(٦) ٩٣/٨.

(٧) ٢٩٤/١١.

(٨) ص ١٢٦.

(٩) أي الطوسي: ص ٤٧.

(١٠) ص ٤٢.

(١١) ١٦٢.

- الروضة الزهراء في مناقب فاطمة الزهراء (ع) للشيخ المفيد أبي سعيد محمد بن أحمد الخزاعي[1].
- فدك، لعبيد الله بن أبي زيد الأنباري ذكره النجاشي في رجاله[2].

وهناك كثير من الكتب تناولت حياتها ولكن ما ذكرته هنا مما شرح الخطبة من قريب أو بعيد. وتوجد قائمة طويلة بمجموعة كبيرة من الكتب التي ترجمة لحياة الزهراء ولاسيما مازال منها مخطوطاً ولكنها لم تشرح خطبتها.

المحور الثاني: الكتب المطبوعة

الاتجاه الأول: ما يتعلق بالخطبة (مطبوعاً)

- اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء (ع) والمسماة بـ(خطبة اللمعة) لمؤلفها المولى محمد علي بن أحمد القرجه داغي الاونساري المحيي للقوانين، وقد طبع عام (١٩٧٢م)، في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وصدّر يشطر وافٍ من مناقبها وفضائلها وأحوالها وما يتعلق بها.
- الدرة البيضاء في شرح خطبة فاطمة الزهراء للسيد محمد بن إسحاق القمي وقد طبع سنة (١٣٥٤هـ).
- عبد الزهرة عثمان شرح بعض جمل الخطبة في كتابه (فاطمة الزهراء بنت محمد).
- شرح خطبة الزهراء للشيخ نزيه قميحاً.
- إشراقات فكرية في أنوار الخطبة الفدكية، لحبيب الهديبي، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى. ٢٠٠٢م.
- شرح خطبة الزهراء (ع) تأليف العلامة المجلسي والقاضي النعمان والشيخ الأنصاري التبريري، تحقيق وإعداد السيد باقر الكيشوان الموسوي، بيروت - لبنان، مؤسسة البلاغ، ٢٠٠٦م.
- خطب فاطمة الزهراء (ع)، شرح وتحقيق الشيخ مسلم الجابري، النجف ١٩٧٨م.
- شرح خطبة فاطمة (ع) لمحمد عبد الرحيم، فارسي، إيران. ١٣٤٤هـ.
- الاحتجاج، للشيخ الطبرسي
- العلامة المجلسي شرحها شرحاً مختصراً في البحار[3].

وغيرها مما شرح الخطب نصاً ولكن لم أستطع الحصول عليها.

---

(١) ظ: الذريعة: ١١/١٠.

(٢) ١٤٦.

(٣) ظ: ٨/١٠٩ - ١١٣.

الاتجاه الثاني: ما مطبوع فيما يتعلق بحياة فاطمة الزهراء (ع) (مطبوعاً)

(وقد تناولت الخطبة ضمن مواضيعها):

- فاطمة صوت الحق الإلهي.
- حياة سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع) دراسة وتحليل. الشيخ باقر شريف القرشي، دار الهادي، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.
- فاطمة بنت محمد أم الشهداء وسيدة النساء لعمر آبو النصر، مصر ١٣٦٦هـ.
- احتجاج الزهراء فاطمة (ع)، لحجة الله النجفي، إيران. ١٣٧٦هـ.
- الدرة البيضاء في مشاهير النساء للميرزا عبد علي بن الميرزا هداية الله صاحب كتاب ناسخ التواريخ[١].
- فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ لجواد فاضل. فارسي، إيران ١٣٣٣هـ[٢].
- فاطمة الزهراء (ع) للشيخ ميرزا نجم الدين جعفر بن الميرزا الطهراني، فارسي[٣].
- النفحات القصدية في الأنوار الفاطمية، لعبد الرزاق كمونه الحسيني، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م.
- أحاديث فاطمة بنت محمد (ص) في مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت.
- أخبار الزهراء (ع) للشيخ الصدوق[٤].
- أنوار الهداية في مباحث فدك والقرطاس ودفع شبهات الناس، للمولوي محمد أنور بن نور الدين الأكبر آبادي[٥].
- البتول فاطمة الزهراء، للدكتور عبد الفتاح الحلو، طبعة الكويت، ١٩٨٦م.
- فاطمة الزهراء (ع) من المهد إلى اللحد للسيد العلامة الخطيب كاظم القزويني، مؤسسة المراقد المقدسة للطباعة، بيروت لبنان، ٢٠١٢م.
- البلاغة الفاطمية، لعبد الرضا بن محمد علي المطبعي، النجف الأشرف، مطبعة الغري الحديثة.
- بنات النبي يتحدثن، فارسي، لجواد فاضل، طهران، ١٣٢٧هـ.
- تحرير النقول في مناقب أمنا حواء وفاطمة البتول لابن الصباغ المالكي، دار الكتب الوطنية، في باريس ١٩٢٧م.

---

(١) ظ: الذريعة: ٩٣/٨.

(٢) ظ: م. ن.

(٣) ظ: م. ن.

(٤) ظ: م. ن: ٣٢١/١

(٥) ظ: م. ن: ٢٤٤٧.

- ترجمة حديث لوح فاطمة، فارسي، ترجمة أحمد البروجردي، كرمنشاه، إيران، ١٣٢١هـ.

وغيرها مما لم أذكره كثير ولكنه ترجم لحياتها ولم يشرح خطبتا مدار البحث.

رابعاً: الاتجاهات الأساس لنشأة دراسات التحليل النصي

يمكننا الحديث هنا عن المراحل التي مر بها الخطاب الأدبي عبر التاريخ النقدي الطويل وأقصد به هنا في العصر الحديث قبل الولوج إلى النص مدار البحث.

فقد مر الإبداع النصي النقدي منه بمراحل عدة منها:

أولاً: مرحلة الخطاب الإبداعي النقدي: في هذه تأتي منذ نشأة النقد النصي الأدبي حتى منتصف القرن التاسع الهجري، وتركز على دراسة الأسلوب درساً دلالياً لغوياً تركيبياً، وتنطبق هذه المرحلة في البالغة والنقد القديمين من مبدأ الجيد والرديء، ويرتكز فيهما على التركيب والدلالة (المثالي/والإنحرافي)، ويلحظ أن المستوى المثالي للغة يكمن في المستوى الأول لها أو ما يعرف اصطلاحاً بالمستوى العادي أو الحقيقي وهو الذي استقر عند اللغويين[1].

فهو يميل إلى الإجمال الإبداعي للغة والأدب ولعل أهم سمات اللغة المنحرفة ما يأتي:

إنها تميل إلى الفردية ولا تستعمل للخاص فكما يقول الطاهر أحمد مكي: (كل أديب يطبع الكلمات والأصوات المتفق عليها بلون جيد، وإن ألفاظ الأديب لا تعطي معنى فحسب وإنما تثير لوناً وطعماً ورائحة وضلاً وحركة ومزاجاً ومواقف وغيرها)[2]. إن وصف اللغة بالانحراف جاء في مرحلة أخرى تالية على مثاليتها أي اللغة، فهو إذن مستوى جديد لاحق. ويمكننا القول في هذه المرحلة أن نجمل ما دار في الخطاب فيها: المثالي والمنحرف في الدلالة والتركيب، التقديم والتأخير، الحذف والذكر، والتقدير والتأويل وغيرها.....

وهذه الفكرة (لم تكن غائبة عن الوعي النقدي العربي في عصوره المختلفة وظل الجدل حولها مستمراً، وأن كثر، وأشتد حول أولئك الخطباء والشعراء الذين ولعوا في الابتداع وأغربوا فيه)[3].

ولعل حازم القرطاجني من بين أوائل من فطن من النحاة والبلاغيين القدامى لفكرة الانحراف فقد نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ رحمه الله ـ قوله: (الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من أطلاق المعنى وتقييده من:

---

(١) ظ: الشعر العربي المعاصر، روائع ومدخل لقراءته: الطاهر أحمد مكي: ص٩٩.

(٢) م ن: ص ١٠١.

(٣) مفهوم العدول في البلاغة العربية ـ مقال ـ الدكتور السعيد الباز، مجلة كلية العلوم، ص١٢٨.

تصريف اللفظ وتعقيده وقصور الممدود والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته..)[١].

ثانياً: مرحلة الدرس النقدي في ضوء علم اللغة الحديث: وهذه المرحلة بدأت منذ مطلع القرن العشرين وحتى النصف الثاني منه، ويلحظ أن الخطاب اللغوي هنا في هذه المرحلة بدأ متشابها في جوه العام مع ما تقدم ذكره في المرحلة السابقة ولكن بدأت مصطلحاته جديدة مثل: التحويلية والتوليدية والبنية السطحية والبنية العميقة...... الخ إذ تكون الصورة اللغوية الظاهرة للنص الإبداعي هي الاستعمال اللغوي الفردي أو الفني وتشكل اللغة في مسيرتها نسقا فردياً وحداثوياً انحرافياً على حين أن النص يمتلك صورة باطنه تمثل مستواه العادي أي المثالي الأول، وهذا ما يطلق عليه اصطلاحا بالبنى العميقة التي اتصفت بالنسق والمثالية والاصطلاحية في استعمالها[٢]. وظهر الصراع واضحاً بين مؤيدي داخل النص وخارجه لفترة انتصر فيها أصحاب النقد الداخلي بوصف اللغة مادة خام للعمل الإبداعي.

وكل هذا يتم من خلال التنظير اللغوي الحديث أو ما يعرف بالنقد الجديد ويقوّم هذا الاتجاه التطور[٣] الذي تشهده البلاغة والنقد الأدبي وهذا ما أطلق عليه في علم اللغة الأسلوب اللغوي. ويظهر في هذا الجانب قدرة الباحث على إيضاح الخلاف الكائن بين لغة الاستعمال اليومي الحياتي ولغة الأدب بما يظهر لنا تفرد الاستعمال في النص الإبداعي وانحراف اللغة عن مثاليتها في أصلها عما سيقتْ له وبناء علاقات لغوية جديدة قائمة على السياق[٤]، ويذكر الدكتور عبد الحكيم راضي تقسيم (دي سي فريمان) لهذا الاتجاه في ميدان الأسلوبية اللغوية على ثلاثة أقسام هي[٥]:

أ ـ الأسلوب بوصفه انحرافاً عن القاعدة.

ب ـ الأسلوب بوصفه تواتراً أو تواطؤاً على قالب تركيبي.

ج ـ الأسلوب بوصفه استعمالاً خاصاً لممكنات النحو.

ويمكننا أن نلحظ التوافق بين النقاد العرب واللغويين في مرحلتهم الأولى والاسلوبيين واللغويين في مرحلتهم الثانية إلا أن المتمعن لهذه المرحلة يلحظ الفارق الدلالي بين المرحلتين من حيث أن اللغة المثالية الأصلية قبل أن يصيبها الانحراف لا وجود لها في الاستعمال اللغوي

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص١٤٣ ـ نقلا عن الخليل بن أحمد.

(٢) ظ: نظرية اللغة في النقد ـ الدكتور عبد الحكيم راضي ـ : ص٣١١.

(٣) ظ: م ن.

(٤) ظ: م ن: ص٢٣٤ فما بعدها.

(٥) ظ: م ن: ص٤٨١.

وما موجود لدينا فعلاً هو تلك اللغة الفنية أو اللغة المنحرفة، وتبقى تلك اللغة المثالية من صنع اللغويين والنحاة[١].

المرحلة الثالثة: إرهاصات نحو النص: وهذه المرحلة نشأة مع ظهور نحو النص أو علم اللغة النصي الذي جاء مختلفا عما ألفناه في المرحلتين السابقتين، فقد ظهر هذا الاتجاه مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين على يد (هاريس) و(فان دايك) الأخير يعد بحق مؤسس علم اللغة النصي، والذي نتج عنه نحو النص إلى أن ظهر (روبرت دي جراند) فوضع الأسس العامة للنظرية في الثمانينات من القرن الماضي، وهذا نتاج عن دراسات لغوية مكثفة قامت بها المدارس اللغوية الأمريكية والأوروبية لمدة طويلة[٢].

ولعل ما يمتاز به هذا الاتجاه الجديد جعله وسيلة مهمة لتحليل الخطاب الإبداعي لأنه جاء نتيجة تفاعل وامتزاج واختلاط بين مجموعة من العلوم المتنوعة منها اللغوي والصوتي والبلاغي وقد يكون بعضها غير لغوي كالفلسفة والمنطق والتاريخ وقد ركز على مجموع من المعايير[٣] منها: ١ ـ السبك. ٢ ـ الحبك. ٣ ـ القصد. ٤ ـ القبول. ٥ ـ الإعلامية. ٦ ـ المقامية (الموقفية). ٧ ـ التناص.

كانت طريقة تناول النص عبارة عن تحليل للمفردات وشرحها مع قلة تناول العلاقات العضوية داخل النص[٤]، ومن هنا اهتم النحو النصي بظواهر تركيبية نصية منها علاقة التماسك النحوي النصي وأبنية التطابق والتقابل والتراكيب المحورية والتراكيب المجتزأة وحالات الحذف والجمل المفسرة، والتحويل إلى الضمير والتنويعات التركيبة وتوزيعها في نصوص فردية وغيرها من الظواهر التركيبية[٥]. والملاحظ أن هذه المعايير النصية السبعة تتناول النص الإبداعي من زوايا وابعد متنوعة سواء أكانت داخل النص أم خارجه. وهي[٦]:

١ ـ **البعد الأول:** علاقة النص بالسياق. فهناك سياقات مادية، واجتماعية، وثقافية، ومواقف لغوية، ونفسية ويتمثل هذا البعد في معيار المقامية وهذا البعد غير نصي، فهو خارج عن النص.

٢ ـ **البعد الثاني:** علاقة النص بمجموعة النصوص التي سبقته أياً كان نوعها وحجمها. ويتمثل هذا البعد في معيار التناص وهو دراسة علاقة النص بنصوص سابقة تداخلاً أو تماساً لفظياً أو معنوياً، وهو يعد مرتبطاً بالنص منطلقاً من الداخل إلى الخارج.

---

(١) ظ: اللغة والإبداع الأدبي (الدكتور محمد العبد) ص ٣٢٢.

(٢) ظ: نحو النص ـ اتجاه جديد في الدرس النحوي ـ : الدكتور أحمد عفيفي: ص١١.

(٣) ظ: نحو النص ـ اتجاه جديد في الدرس النحوي ـ : الدكتور أحمد عفيفي: ص٢٢.

(٤) ظ: م ن.

(٥) ظ: م ن.

(٦) ظ: اللغة والإبداع الأدبي: ص٤٨٢.

٣ - **البعد الثالث**: علاقة النص بمدعه. حيث يمثل معياراً القصد والإعلامية. وهذان المعياران من خارج النص.

٤ - **البعد الرابع**: علاقة النص بالمتلقي. ويمثل هذا معيار القبول عند متلقي النص، وهذا البعد أيضاً من خارج النص.

٥ - **البعد الخامس والأخير**: العلاقة المفهومية والعلاقة الرصفية بين أجزاء النص.

وكما هو واضح فإن هذا البعد يركز على الترابط اللفظي والمعنوي بين أجزاء النص الواحد، وهو الأكثر أهمية من موقفنا هذا، لأنه يتعامل مع المنتج بشكل مباشر، ويتمثل في معارين: السبك والحبك. ويبدو جليا أن المعيارين المتصلين بالترابط النصي قد نالا نصيباً وافراً من الدراسة[1]، عند كل من يتناول نحو النص أو علم اللغة النصي حيث كان الأنساق النصي من أهم أهداف التحليل الخطابي. ومن هنا شرع علماء النص يولون التماسك عناية قصوى، ويذكرون أن خاصية دلالية الخطاب تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم المستويات اللغوية المختلفة في النص الواحد[2]... ومن هنا بحث علم اللغة النصي عن وسائل الترابط مع التأكيد على المزج بين المستويات اللغوية المختلفة، وكل هذا يؤدي إلى النظرة الكلية للنص[3].

رابعاً: المرحلة الأخيرة المتطورة: نحو نص عربي ملائم

وقد ارتبطت هذه المرحلة بمجهود جماعة من العلماء والباحثين والنقاد العرب الذين حاولوا إيجاد نص عربي ملائم من عباءة علم اللغة النصي في صورته الأجنبية ومن أهم هؤلاء الإعلام: الدكتور تمام حسان والدكتور سعد مصلوح والدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، فمنذ إرهاصات نحو النص الأوربي الأمريكي في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين ـ الماضي ـ ظهرت محاولات تطبيقية لإيجاد نص عربي ملائم تتضح بجزئياته مكونات النص العربي والثقافة العربية. وقد شهدت المرحلة محاولات عدة تمثلت في الأسماء المذكورة أعلاه[4]. وبعد ما تقدم أود الإشارة إلى أنها، أي فاطمة (ع) عنوان للبراعة البيانية التي انطوت تحت الإصلاح ومن هنا يقول الأستاذ حسن المعلم: (ولو سعد طالع الأمة لأمدتهم فاطمة بنت محمد بعطاء من سنخ عطاء قران ربها وجوامع كلم أبيها، ولشرعت لهم نهجاً

---

(١) ظ: اللغة والإبداع الأدبي: ص٤٨٨.

(٢) ظ: نحو النص: ص ١٢.

(٣) ظ: م ن.

(٤) ظ: البيان في روائع القرائن ـ تمام حسان ـ، وواجرومية للنص الشعري ـ مقل ـ للدكتور سعد مصلوح، مجلة فصول، ومنج في التحليل النصي للقصيدة ـ مقال ـ، للدكتور محمد حماسة، مجلة فصول.

كنهج كفئها علي، ولأسهمت في تقديم نماذج وقدوات صالحات للمجتمع)[١]. ففاطمة الصديقة الطاهرة سليلة بيت الوحي ومدرسة النبوة وبضعة الرسول (ص) وهي زوج مولى الموحدين وإمامهم علي بن أبي طالب (ع).

إن التحليل العميق لهذه الخطبة ودلالاتها المتحولة ولغتها المثالية والانحرافية تعطينا انطباعا عما أحدثته هذه الخطبة في نفوس المتلقين عبر العصور المنصرمة بل وحتى عصرنا الحاضرة فقد امتلكت لغتها النصية عنصر الاستمرارية والديمومة أننا نستمع إليها في كل زمان ومكان وهذا سر من إسرار إبداعها وجوهر ديمومتها.

إن التحليل الدقيق لألفاظ الخطبة لا يتوافق عندنا إلا بالتقرب الحثيث من الخط العام للنص المبارك ولا أعرف أن أحداً يجهل مناسبة النص التي لهذا الأهمية القصوى في نجاح إبداعه، أننا إذ نقترب إلى غاياته الكبرى نكون قد نعطي تصوراً واضحاً لإعطاء رأي في دلالاته النصية، وأحسب أن النقصان سمته فلا تكفي هذه الورقات للإحاطة بالنص الكريم شرحاً وتحليلاً وبياناً.

وهذا ما سنقدم عليه في الفقرة اللاحقة والخيرة من هذا البحث، ولا أكاد أعرف سيدة بهذا العمر: أي: التاسع عشر - في رواية - يمتلكها القدرة الإبداعية والملكة الرائعة مثل ما نطقت به الزهراء (ع)، وهو الأمر الذي يصعب على الإتيان به أعاظم البلغاء والمفوهين في كل العصور. ولكن هذا ليس غريبا عليها فهي من نعرف وقد غذاها أبوها رسول الله (ص) ببيانه وحكمة وعلمه حتى جاءت صورة معبرة عنه كما أشارت إلى ذلك كثير من الأحاديث التي لا مجال لذكرها تبين مكانتها من رسول الله (ص).

خامساً: خطبة الزهراء - (ع) - الفدكية دراسة نصية

لقد أتى الإسلام بضياء الرحمة والفلاح لينير بتعاليمه السمحاء ظلام الإنسانية البلهاء وينقذ الإنسان مما يحيط به من أنياب الجاهلية الظلماء وأتون العبودية والشر ثم يعطينا مجتمعا سمح متقيد بتقاليد الإسلام، وشرعته السمحاء. أنما بعث محمد (ص) ليكمل مكارم الأخلاق تلك الأخلاق التي جبل على إتباعها بنو البشر بمتخلف أديانهم أو أجناسهم حتى جاء الإسلام فالمدين الخالص عند الله هو الإسلام، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه هذا المجتمع قائم على حب الله أولا وحب بني البشر ثانياً، فالإنسان أما نظير لك في الخلق أو أخو لك في الدين وليستعين أفراده بعد الله أولا بقوة الدستور الإسلامي التي سنها الله للبشرية بدينه الجديد الذي يعد امتداداً للأديان الموحدة الأخرى.

---

(١) فاطمة صوت الحق الإلهي: ص١٩٤.

لقد كان للرجل فيه أي: الإسلام مكانه على الأصعدة كافة فالمسلم عزيز بعزة الإسلام ونحن هنا نتحدث عن الرجل، والمرأة كانت لها مكانة تماثل الرجل فهي تشترك معه الحقوق كافة وعليها واجبات لتأديتها مثل أخيها الرجل تماما.

فالمرأة تحتل مكانه مهمة من الأحداث ولاسيما تلك التي مرت بها الأمة الإسلامية بعد ان النبي الرسول محمد (ص) نداء ربه، وقد كان لها مكانة ليس في عصر صدر الإسلام بل حتى بعصور حتى قال فيها الشاعر:

ولو كن النساء كمن ذكرن	**لفظلت النساء على الرجال**
فما التأنيث لاسم الشمس عيب	**ولا التذكير فخرا للهلال**

ولعل خير شاهد هنا ما جاء على لسان الزهراء (ع) ولاسيما اقصد خطبتها الطويلة.

التي تعرف بخطبة المسجد الجامع الأعظم أو الخطبة الفدكية الكبرى، تلك حركت مشاعر الناس وجيشتهم، وألهبت فيه حمية الإسلام والتقوى، وكاد لها ما كادت لولا أن السياسة وتملي على المقابل إكمال نهجه كما قال ابن الزعبري:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر	**يوحى ولا وحي ينزل**

وها هو صوتها صوت رسول الله (ص) لأنها بضعته ومنه يرتفع في الجامع كبير أمام أنظار الصحابة يطالب بالحق المهتظم نظراً لجدية القوم في دعواهم.

إن هذه الخطبة[١] حي من أفضل خطبها على الإطلاق بل تعد أهم خطبة في خطب آل البيت (ع) على الرغم من طولها الملفت لأنها استطاعت أن تبين فيها ما أرادت. وهنا بعد أن تم ذلك، أمسكت[٢]، واشتمال خطبتها على معارف تدلك على سمو مقامها وعظيم صحبتها[٣].

وما تزال هذه الخطبة تأخذ صداها في أذهان المتلقين وكان لها استمراريتها جيلاً بعد جيلا، حيث توكد علو شأن مبدعها لاسيما العلوم التي يتقنها.كيف لا ومبدعتها سليلة بيت النبوة ومهبط الوحي والتنزيل حياها الله من العلم.

فصارت المحدثة والعالمة والسيدة الجليلة وما شاء الله من الألقاب فلا غرابه ان تفتق في خطبتها من بعض خزائن معارف الله تعالى.

واللغة وسيلة يعبر بها الإنسان عن حاجاته الاجتماعية وأداة مهمة من أدوات الخطيب بل هي أساسها حيث يبدع من خلالها، ومن خلالهما نحن نحكم على قدرته الإبداعية في إيصال ما يرده إلى المتلقي بسهولة ويسر.

---

(١) للزهراء (ع) خطبتان الأولى هذه المعروفة بالفدكية وخطبة المسجد الجامع، والثانية صغيرة قالتها لنساء الأنصار عندما زرنها في المرض الذي توفيت منه.

(٢) ظ: الاحتجاج: ٢٨٦/١.

(٣) ظ: مقامات فاطمة: ص١١١.

وهنا نحكم على جودة النص حيث تكون خطبته نابعة في صميم نفسه وقدرته الفنية وهي تترجم ثقافته وتدفعه ومشاركته للحدث، كما قال الإمام الصادق اختيار المرء قطعة من عقله. واختيار خصائصها المميزة للتعبير عن عواطفه وانفعالاته. ولغة التخاطب جاءت معبرة عن المقاصد التي أرادت الزهراء (ع) توصيلها إلى المتلقي لتوعيته بالأحداث القادمة.

وما يجري عليه الآن: (وهذا ينصح من خلال الألفاظ التي استعملتها فهي جزلة واضحة قوية التأثير في المتلقي من خلال جرسها ورنينها فضلاً عن الشمولية)[١].

(اختارت السيدة فاطمة الزهراء (ع) لخطبتها هذا الأسلوب للبداية والنهاية أنها لم تكتف بالتركيز على مطالبة حقها فقط، بل انتهزت الفرصة لتفجر للمسلمين عيون المعارف الإلهية وتكشف لهم محاسن الدين الإسلامي، وتبين لهم علل الشرائع والأحكام وضمنها تهيئ الجو لكلامه المقصود وهدفها المطلوب)[٢]. أي براعة، فقدت مسكت للحق والصراط المبين، حباها الله - عز وجل - بقول وشجاعة ومذهبا، وقد علمها بيانه وحكمته. إن للبيان فضيلة مهمة إلهية سامية جليلة عليها تدور المعاني في متصرفاتها. (ولذا كان التعبير والإبانة عن الظلامة الفاطمية من هذا الباب إذ الداعم لحالتها البيانية في منطقها سليقتها الثابتة وهي (ع) لم تقصد بخطبتها تمدحا؛بل كان هدفها مشبعاً بروح التقوى بإحقاق الحق، وإزهاق الباطل وإحياء أمة قد استنامت إلى الذل والخنوع)[٣].

ولابد من الإشارة ألي ما نجده من بيان وبلاغة عند أهل البيت (ع) كانت سليقة اختصوا بهما من دون الناس وهبهما الله إياهما من دون أي تعثر فيه تجري على ألسنتهم جري الماء في النهر.

وقد يتفوقون بهما على الناس وخير دليل على ذلك نهج البلاغة وذلك (يكون مصداق الحفظ الإلهي لآيات القرآن الكريم مكتوبا في صدورهم)[٤].

(إن تحليل نص الخطبة بحاجة إلى كتاب ضخم لأنها ليس مجرد خطاب سياسي محض بل هو خطاب ديني تاريخي قانون سياسي اجتماعي وثوري ذات إبعاد متعددة)[٥].

هذه كله لا يمنع من الاقتراب من الخط العام للخطبة ونلقي الضوء عليها:

فقد بدأت الزهراء (ع) خطبتها بالحمد لله والثناء عليه وقد حكى هذا المقطع الثناء على لله والشكر لألطافه ونعمه التي لا تحصى التي أسداها لعباده، وطلب منهم الشكر

---

(١) الخطبة الصغري لفاطمة الزهراء: دراسة في الفن: دكتور عبد الاله العرداوي - مقال - ص ٣١..

(٢) فاطمة من المهد إلى اللحد: ص٢٣٨.

(٣) براعة البيان في خطبة الزهراء: الدكتور مشكور العوادي - مقال - : ص ٦.

(٤) م ن.

(٥) كلمة الزهراء: للسيد عباس المدرسي: ص١٩.

ليزيدهم من إحسانه وأفاضله إن خروجها من بيتها الأمر يسترعي الانتباه ويثير التساؤلات حول الموقف وتقول بعدها: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلى قولها: إلى جنته.

وفي هذا المقطع بحوث كلامية عن الخالق العظيم وهي كما يأتي[1]:

أولاً: إن الأبصار يتمنع عليها رؤية المبدع المكون لهذا الكون بما فيه في المجرات التي لا تحصى وهل يستطيع الممكن في وجوده وفكره أن يبصر تلك الحقيقة المذهلة؟ كما أن الألسن مهما بلغت في الإبداع وتصور الأشياء فإنها عاجزة عن تصويره وكذالك الأوهام لا تدرك كفيته إما إيضاح هذه الأمور والاستدلال عليها فلقد عرضت لها بصورة موضوعية المصادر الكلامية.

ثانياً: عرضت سيدة النساء إلى خلق الله تعالى وتكوينه للأشياء فقد أنشأها وكونها لا من شي كان قبلها وإلا حاكى أمثله كانت قبلها، وإنما ابتدعها بقدرته وذراها بمشيئة فتعالى المبدع العظيم.

ثالثاً: إن الله تعالى في خدمة لما يُرى وما لا يُرى لم تكن له في هذا الخلق حاجة ولا فائدة له فيها، فهو مصدر الفيض والعطاء وخلق الأشياء بقدرته ومشيته: إظهاراً لعظمته، وتنبيتها لطاعته وإعزازا لدعوته، وجعل الثواب الذي لا يوصف لعظمته لمن أطاعه، كما جعل العقاب الصارم لمن عصاه)[2].

فهي مع ذكرها الوافر لكمال الحمد على النعمة، والشكر لله على التفضل والثناء على الربوبية والتوحيد لصفاته (فهي تسوق البيان للتوحيد بما ليس معهوداً فمي الفلسفات البشرية آنذاك من اليونانية أو الفارسية أو الهندية، ومن ظرائف التوحيد ينفي الصفات البشرية للغيب المطلق، وأن الصفات الإلهية تجليات آسمائية دون المقام إذ لم يعهد قبل الإسلام ولم يعده القرءان الكريم)[3].

فكل الأنبياء يوجه إليهم مهمة رئيسية (إخراج الإنسان من عبادة غير الله إلى عبادة الله وبناء الحياة الإنسانية على هذه القاعدة المتينة)[4]. وقد ذكرت الزهراء (ع) في حديثها هنا عن التوحيد والشؤون الإلهية لتسير (إلى جوانب من تلك الشؤون من الخالقية والربوبية والغنى المطلق في الذات المقدسة، حيث أفاض الوجود على الكائنات بمحض الرحمة والجود..... لتكون آيات وعلامات على قدرته المطلقة وحكمته البالغة)[5].

---

(١) ظ: حياة سيدة النساء فاطمة: ص ٤٣١.

(٢) م ن.

(٣) مقامات فاطمة: ص١١١.

(٤) إشراقات فكرية: ١/١١٠.

(٥) م ن: ١/١١١.

قولها: وأشهد أن محمد (ص) ...... إلى قولها وخيرته في الخلق وصفيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. ذكرت بضعة محمد (ص) أباها سيد الكائنات الذي آنار العقول وحرر الإنسان من عبودية الشرك والأصنام، وفتح له بالإسلام عالماً أوسع وآفاقاً مشرقة وحياة كريمة: ليعيش عزيزاً مهاباً موفور الكرامة ينعم باله، وكان مما يستدل من حديثها[١]:

(**أولاً**: إن الله تعالى اختار عبده ورسوله، وخصه بهذه المنزلة الرفيعة قبل أن يخلقه علماً منه تعالى بسمو ذات نبيّه وعظيم شأنه.

ثانياً: إن النبي (ص) بعث في زمان كانت الأمم فرقا وشيّعا مختلفة في أديانها، فبعضها تعبد الأوثان، وبعضها تعبد النيران: فأنار الله تعالى بالنبي العظيم (ص) العقول، وأزال الظلمات وكشف الجهل عن القلوب وحرر الإنسان من هذه الخرافات التي أوردت به إلى مستوى سحيق في مجاهل هذه الحياة.

ثالثاً: إن الله تعالى قد اختار جوار عبده ورسوله إليه محفوفا برضوان الله تعالى قد حفيت ملائكة الله المقربين وأنبياءه المعظمون).

وقد شهدت فاطمة (ع) بالشهادتين بعد أن شرحت كلامها شرحاً وافياً كافياً حول التوحيد. (فلما انتقلت إلى ذكر النبوة وما يدور في هذا الفلك، فاعترفت لأبيها أولاً بالعبودية الكاملة أي: الأتقياء والخضوع لله تعالى، درجة يبلغها الإنسان باختياره مع العلم أن النبوة مرتبة تحصل للنبي بغير سعي منه، ثم اعترفت له بالرسالة: أي: انه النبي مرسل من عند الله تعالى الخلائق بشريعته)[٢].

ثم تحدثت الزهراء (ع) في خطبتها قائلاً: أنتم عباد الله نصب أمره.... وشرائعه المكتوبة. فقد تحدثت سيد النساء[٣]: **أولاً**: عن سمو مكانة أصحاب أبيها (ص) وأنهم أمناء الله تعالى على أممهم وعلى تبليغ رسالة الله تعالى إلى أمم العالم وشعوب الأرض فقد خصهم الله تعالى بهذه الميزة وتحدثت سلام عليها.

ثانياً: عن عظم القران الكريم فهو النور الساطع الضياء اللامع الذي يقود إلى الرضوان ويؤدي إلى النجاة فهو حجة الله تعالى على عباده يهديهم للتي هي أقوم)[٤].

وقد انتقلت في هذا المقطع إلى ما تركه رسول الله من الثقلين الكتاب والعترة الذين يقومان مقام النبي. وتعرضت (ع) إلى فرائض الإسلام وعلله وتشريعاته فقالت: فجعل الله الايمان تظهير إلى قولها: **إنما يخشى الله من عباده العلماء**.

---

(١) حياة فاطمة: ص٤٣٣ - ٤٣٤.

(٢) فاطمة من المهد إلى اللحد: ص٢٥١.

(٣) حياة فاطمة: ص ٤٣٤.

(٤) م ن.

هنا تحدثت الزهراء عن فلسفة الإحكام الإلهية والتكاليف الربانية (فأشارت إلى ما تنطوي عليه تلك الأحكام في الحكم والمصالح إذ إن أوامر الله تعالى ونواهيه مبنية على قاعدة المصالح والمفاسد)[١] يعني أنها كشفت عن إسرار تشريعاتها التي كشفت عن كثيرين لما يترتب عليها من المصلحة والفائدة وتلك المصالح والمساندات إنما ترجع في آمرها للإنسان نفسه. فهو المستفيد المنتفع بذالك، وهو الغاية الكبرى في وضع هذه الأحكام وقد تحدث الزهراء (ع) في هذا القسم منت خطبتها عن الرسالة الإسلامية بكل إبعادها وشموليتها لكل إبعاد الحياة الإنسانية. بما في ذلك الجانب: الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، فهي تعرض الإسلام كنظام بديل للحياة الذي نطبقه بكل أبعاده وحرفيته، تفضح عظمة التشريع الإلهي ومعطياته الإنسانية[٢].

وقد تحدثت الزهراء (ع) هنا عن سلسلة من الصوادر عنه تعالى وكيفية الصدور واختلاف من النشأة لما هو غير معهود في المعارف البشرية آنذاك، ثم تدرجت في خطبتها قائلة: آيها الناس اعلموا أني فاطمة إلى قولها.... عند النزال، وتفرون من القتال. أجل فهي نور من نور الله تعالى وحي نفس محمد (ص) التي بين جنبيه، الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها فقد عرضت الزهراء (ع): (أنها لا تقول قولاً عملاً إلا ما وافق الحق، فهي مع الحق والحق معها ثم تعرضت إلى فضل رسول الله (ص) على المسلمين جميعاً ورأفته وشفقته عليهم فقد كان كالأب البار عليهم، عزيز عليهم حريص على سعادتهم بالمؤمنين رؤوف رحيم)[٣] ثم تطرقت إلى جهاده وما لاقاه من نصب من فلول قريش وطغاتها، ومن مردة أهل الكتاب حتى استو سق عود الإسلام باندحار المشركين والكفرة والملحدين. وكيف كانت الأمة العربية وحالتها قبل الإسلام؟! وكان مجي الرسول إليها رحمة ليستنقذها من مها لك الحضارة وأتونها إلى سعادة البشرية كي تكون خير امة أخرجت للناس.

ثم تطرقت إلى نضال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام وسابقته في الإسلام ونظرته للنبي وللمسلمين، حينما كانوا ينكصون عند النزال، ففتح الله على يديه، وبعبارة أدق فإنها (تسوق البيان المقام النبوة ومعدن الرسالة، وفضلها الذي لا يحصى إذا خرجهم الله من ظلمات الجهل إلى نور الهداية وطهرهم من دنس الشرك بعد أن كانوا أذلاء ضعفاً، يتخطفهم الناس من كل جانب، وتهوي بهم عواصف الشرك من مكان سحيق، وبعد أن عرّفتهم بعظم مقام أبيها (ص) عند الله تعالى، وأظهرت فضله وتثبتت برهانه وبيان حكمة كل ركن وأوضحت حجته وأعلمتهم معالم دينهم وأركان فرائضهم)[٤].

---

(١) إشراقات فكرية: ٢/ ٦٨.

(٢) ظ: م ن: ٢/ ٦٩.

(٣) حياة فاطمة: ص ٤٢٧ ـ ٤٣٨.

(٤) مقامات فاطمة: ص ١١٣.

وقد وجهت الخطاب باسمها فاطمة بنت محمد وهذا الاسمان لهما وقعهما في أذهان الحاضرين، وهنا يحتاج المقام إلى كتاب لشرح هذا التعبير النصي، ولا تتكلم جوراً وظلماً وتجاوزاً عن الحدود وأدمجت كلامها بكلام الله تعالى وذكرت آخاه وابن عمه علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام وكان علي (ع) يعتز بهذه الإخوة.

لقد كان الرسول قوياً في كفاحه وشديدا وصبوراً عن تعرضه لوابل المحن التي صادفته من أجل أن يصدح بالرسالة، وهنا أرادت سيدة النساء أن تذكر ذلك الحشد بماضيهم السيئ وما كانوا عليه قبل نعمة الإسلام في جوانب كافة وكيف أنقذهم الله منها بالإسلام وقد كان لأمير المؤمنين (ع) أثر بارز في (حركة الدعوة يأتي في الدرجة ا لثانية بعد دور النبي (ص)..... ويتضح هذا حينما يلاحظ تواجد أمير المؤمنين (ع) في صف النبي محمد (ص) الطيبين الطاهرين في كل المواقف التي وقفها النبي محمد (ص) الطيبين الطاهرين على رأس المجاهدين كما سجل غيره من أعيان الصحابة من مواقف التراجع وعدم الثبات حينما يشتد البأس في ميادين القتال بين الإسلام والكفر)[1] ثم قالت: (ع): فلما اختار.... الخاسرين.

تحدثت عن ارتحال أبيها إلى الملكوت الأعلى، ثم الأحداث الهائلة المخيفة التي حلت بالدولة بعد وفاة الرسول الأعظم محمد (ص) ومنها[2]:

١ - ظهور النفاق وضعف الوازع الديني في النفوس

٢ - بروزا لغواة على مسرح الحياة السياسي

٣ - التنديد بالصحابة على ما أقدموا عليه من صرفهم الخلافة عن أهل البيت (ع) : ومركز العلم والحكمة في دنيا الإسلام مع قرب وفاة المنقذ العظيم محمد (صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين) ولا عذر لهم، فما اقترفوه فقد سقطوا في الفتنة وانحرفوا.

٤ - إتباع الشيطان والاستجابة الكاملة لخدعة وغروره.

٥ - نبوغ الخاملين الذين لم يكن لهم أي رصيد اجتماعي للقضية الإسلامية).

ثم انتقلت للحدث عن فترة الانقلاب الذي قام به الأفراد بعد وفاة الرسول (ص)، (ما أروع هذه الكلمات وما أحسن هذا التفسير الراقي إذ إنها ما قالت: فلما مات النبي، قالت فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه)[3] فأشارت إلى أنهم كانوا يخفون في نفوسهم في أثناء حياة الرسول كل ما أبدوه وفعلوه بعد التحاق بالرفيق الأعلى فقد كان وجود رسول الله بين ظهرانيهم هو المانع والرادع لهم من يتظاهروا بالخلاف والشقاق فوجدوا الجو مناسباً والمجال

---

(١) إشراقات فكرية: ٢/ ٢٤٥.

(٢) حياة فاطمة: ص ٤٤٠.

(٣) م ن.

مفتوحاً لتحقيق، وكانوا يصبون إليه ولإبراز ما كانوا يخفون في نفوسهم لما لاحت لهم الإغراءات تحركت المطامع والشهوات الكامنة في النفوس فان فعوا وبكل قوة لتحقيق تلك المطامع ثم قالت ثم لم يلبثوا أفلا تعلمون جهة بضعة الرسول الله علياً عتابها إلى الأنصار وإنهم استجابوا لنداء الشيطان في أقصائهم لعترة رسول الله أطفئوا بذلك نور الله تعالى واستجابوا لرغباتهم الخاصة التي هي بعيدة كل البعد عن الحق ثم وجهت كلامها إلى آبي بكر قائلة:

لا يا ابن أبي فخامة في كتاب الله أقامتن سيدة النساء الحج البالغة على ميلادها من أبيها والتي فيها أولا الآيات البيان الدالة بعمومها على أن يكون كل ميت يرثه أبناؤه صريمة وواضحة في دلالتها على إرادتها في أبيها ثانياً إن من مواقع الأرض أن يكون الميت من ملة ووارته من ملة أخرى كأن يكون الميت مسلما وأبنه غير مسلم فإنه لا يرثه أباه والحال إن سيدة نساء أو بفي ملة الإسلام فلما ذا تحجب من الميزات هنا وجهت خطا بيها إلى الرئيس الدولة ولم تقل له يا خليفة رسول الله لأن رسول الله ص لم يستخلفه لم تخاطب بالكنية أبا بكر لأنه تعظيم له وقد عرضت الزهراء (ع) الأدلة القرآنية المشتبه لدعة وأهمها المبطلة لدعوى تساءلت هنا يافا هجرة تحرم حقها فهل هناك قراءة صحيحة علي ثم خاصيت الصديقة(ع) ضعمها بلسان الوعيد سون يوافهم كل ما قدمت بداه ونعرف يجد الحمل ثقيلاً عندما تعصف بين يذل الله تعالى المخاصنة قافا الحكم فهذا الله والتشاهد فهو الرسول الأعظم (ص) وأما الموعد فهذا القيامة ثم أنها رمت بطرفها نحو الأنصار تخاطبهم قائلة يا مصر الفتية واعتضاد علة الشاكرين فقد استنبهت سيدة النساء بشباب المسلمين لإرجاع اصفها بمقتضب ظلمها التي كانت وقد ذكرتهم إن رعيتم لأبيها رسول الله ض الذي فقط في لده ولكنهم مع الأسف لم يحفظوا مكامنها وجهلوا أحقها عمداً إلى ظلمها وأيضاً هنا كرت سلام أغله على استشهاد من بني ولا قيلة قائلة أيها بني قيلة إن كنتم مؤمنين فتوجه إلى قبيلين الأوس والخررج ودعت حبيبنه رسول الله (ص) للإطاحة بالحكومة الجديدة فقط ذكرتهم السابق جهادهم في نشر الإسلام وإعلاء كلمة الحق وما عناوه من مشتاق وتعب في ميادين الجهاد استوفق نظام الدين وقام الإسلام سوقه عبر الزراع فواصلتن الطاهرة ص خطابها نحو الأنصار ثم أخبرتهم بأنها قالت ما قالت في خطابها وتوبيخها لهم وصي على علم بان ذالك لا يجدي نفعاً معهم وبلكن ذلك منا نفسه المدور الذي يعبر عن الأمة وإجاعة القبيلة والاقامة الحجة عليهم ثم وعدتهم الصديقة بأنهم سوف يواجهون النتائج لما ينون في مقدمات في موافقهم وقدر صفتهم بالخجول وعدم مضرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) الذي أقامه رسول الله محمد (ص) قائلة للأنصار والخزرجى إلا قد أرى أنا منتظرون وانتهى هذا الخطاب الحاد الذي وعت فيه إلى النورة والإطاحة بحكومته أبي بكر وإرجاع الحق إلى أهله ومعدنه

وقد حلت منه القلوب وخشعت الأبصار وخشعت النفوس إلا أن أبا بكر قد استطاع بلباقته الهائلة وقابليته الدبلوماسية أن يسطر على هذا الموقف وينقذ حكومته من الانقلاب فقد بضعة الرسول (ص) سلام الله عليها بكل اختفاء وتكريم وأظهر لنا المزيد من الاحترام والتقدير يكن لها من الاختلاف والولاء ما يكتبه لابنته عائشة لما أظهر الحزن العميق على وفاة أبيها رسول الله (ص) ورد أنه مات قبل موته إلى غير ذلك.

الخاتمة:

الحمد لله أهل الحمد على نعمائه والله وليّ وهو نعم النصير.غاية شكره ومن شكره اشكر كل من مدّ ببصره لبحثي راجياً أن يكون التوفيق علامة ليّ والصلاة والسلام على محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

بعد هذه الجولة السريعة المتواضعة في بحثي لكثير ما كتب عنه تتضح لي أمور منها:

أولاً: إن خطبتها سلام الله عليها هي أول خطاب إسلامي بعد الر سول (ص) تسجلها منّا براً للمسلمين وتحفظها جيلاً بعد جيل وتوليها اهتماماً مبالغاً فيه ولا تنكر ها: مما يؤكد حجيتها البالغة.

ثانياً: تعد هذه الخطبة إحدى الأمم التوحيدية التي ذكرت فيها الزهراء (ع) ثناء الله تعالى ووحدانيته، وتشير إلى نبوة أبيها محمد صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، ودلالتها في حياة المسلمين، وتتطرق إلى أركان الدين وتفسر الحكمة وتبين عله الشريفة.

ثالثاً: حاولت السيدة الزهراء (ع) تنبيههم إلى المشاريع التي تحاك ضد الإسلام ولاسيما انقلاب السقيفة المشئوم، وقد بينت سلام الله عليها خطورته لاحقاً ولاسيما تبعاته.

رابعاً: النفس القرآني الخالص، وهذا ما لاحظناه في خطبتها ولاسيما تأكيد الآيات القرآنية: لأنها نص جلي لا يحتاج إلى تأويل وكذالك الأحاديث النبوية الشريفة.

خامساً: أنبأت الزهراء (ع) بوضع المسلمين مستقبلاً، ولاسيما ظهور الفتنة، وتفشي الفساد ولانحلال الطبقي، والى غير ذالك مما نهى عنه الإسلام بقولها: (أما لعمري لقد لفخت فنظرة ريثما تنتج، ثم اجتلبوا إملاء القعب دماً عبيطاً وزعافاً هنالك يخسر المبطلون ويعرف الباطلون غب ما أسس الأولون ثم طيبوا عن دنيا أنفاً واطمأنوا للفتنة جأشاً وابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج شامل، استبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيدا). كأني بها تتحدث عن كل الأزمنة التي عاصرتها الدولة الإسلامية منذ بعض محمد (ص) إلى يوم وقتنا الحاضر، ولاسيما وقتنا الحاضر حيث الأمة الإسلامية ممزقة أي تمزيق.

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين

مسرد المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

- المصدر الأساس: القرآن الكريم - عز وجل من أنزله.
- الاحتجاج: أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي. مركز الأبحاث العقائدية، إيران. ١٩٨٦م.
- إشراقات فكرية من الخطبة الفدكية: حبيب الهديبي، مؤسسة الهداية، ط١، ١٩٩٥، بيروت.
- إعلام النساء: عمر رضا كحالة، الشركة العربية المتحدة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.
- أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين، إخراج، حسن الأمين، دار التعارف، ١٩٨٣م بيروت.
- بلاغات النساء: أحمد بن أبي طاهر طيفور، انتشارات الشريف الرضي، قم المقدسة.
- بحار الأنوار: للسيد محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، ط٢، ١٤٠٣هـ، إيران.
- حياة سيدة النساء فاطمة (ع): للعلامة الشيخ باقر شريف القرشي، دار الهادي، ط١، ٢٠٠١م، بيروت.
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة: أغا بزرك الطهراني، ١٢٦٦ش، طهران.
- رجال النجاشي: الشيخ الجليل أبو العباس أحمد النجاشي الأسدي، مؤسسة إصدارات، ١٤٢٠هـ، إيران.
- شرح خطبة الزهراء(ع) تأليف: العلامة المجلسي، القاضي النعمان، الأنصاري التبريزي، تحقيق وإعداد: السيد باقر الكيشوان الموسوي، مؤسسة البلاغ ودار سلوني، ط١، ٢٠٠٩م، لبنان.
- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد أبو الفضل أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٩٥٩م.
- الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: السيد علي بن موسى بن الطاووس البغدادي، ط١، الخيام، ١٣٩٩هـ، قم، إيران.
- فاطمة من المهد إلى اللحد: السيد كاظم القزويني، مؤسسة المراقد المقدسة، ط١، ٢٠١٢، بيروت لبنان.
- كشف الغمة في معرفة الأئمة: للأربيلي علي بن الحسين، ١٩٧٠م، النجف.
- الكنى والألقاب: الشيخ عباس القمي، مكتبة الصدر، طهران(د. ت).
- لسان العرب: ابن منظور، دار التراث العربي، ط٣، ٢٠٠٦، بيروت.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، مصر، (د.ت).
- مقامات فاطمة الزهراء في الكتاب والسنة: السيد محمد علي الحلو، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٣م، بيروت.
- معالم العلماء في فهرس كتب الشيعة وأسماء المصنفين: ابن شهر آشوب المازندراني، منشورات المطبعة الحيدرية، ١٣٧٦هـ، النجف الأشرف.
- معاني الإخبار: الشيخ الصدوق، طبع عام١٣٦١ش، انتشارات إسلامي، إيران.
- النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير، مؤسسة أسما عليان، ط٤، ١٣٦٤هـ، إيران.

ثانياً: المجلات والدوريات.

- مجلة فصول العدد الثاني من المجلد الخامس عشر عام ١٩٩٦ م البحث بعنوان: منهج في التحليل النصي للقصيدة للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف.
- مجلة فصول – المجلد العاشر - العددان الأول والثاني البحث بعنوان (اجرومية للنص الشعري)– يوليو – أغسطس ١٩٩١ م.
- مجلة ينابيع العدد (١٨)، السنة ٤ حزيران ٢٠٠٧م. ❖

البنى التركيبية في خطبة السيّدة الزهراء (ع)

✍ د. حيدر عبد الزهرة التميمي(*)

ترمي هذه الدراسة إلى تجلية خطبة السيدة الزهراء (ع) وطبيعة البنى الأسلوبية فيها ولاسيما أنماط تركيب النص، فالدراسة تلاحق الخصائص المتميزة في خطبة السيدة الزهراء (ع) عبر فحص البنى الأسلوبية المهيمنة على الخطبة ومعاينتها، ومحاولة اكتشافها بوساطة الاستقراء والتحليل مدعمة هذا الاستقراء وذلك التحليل بوجهات نظر متعددة تتواشج لتفضي إلى مجموعة من الإجراءات المنهجية على وفق نظرة خاصة تحاول أن تفي بمتطلبات التحليل الأسلوبي، وعلى النحو الآتي:

اقتضت منهجية الدراسة تقسيمها على محورين رئيسين: الأول اهتم بالأساليب التركيبية ممثلة بالأساليب الخبرية والأساليب الإنشائية، فيما عالج الآخر الظواهر التركيبية ممثلة بالحذف والذكر والتقديم والتأخير، وختم البحث بأهم النتائج التي توصل البحث إليها، فضلاً عن قائمة بروافد البحث.

المحور الأول: الأساليب التركيبية

نسعى في هذا المحتوى إلى رصد تشكلات الأساليب التركيبية بنوعيها: الخبرية والإنشائية، والوقوف على الطريقة المتبّعة في صياغتها، ومدى إسهامها في البوح بالأفكار التي عبّرت عنها في الخطبة الشريفة وبذلك تكون أشبه بمحاولة الكشف عن مقاصد السيدة الزهراء في استعمالها هذه الأساليب.

أولاً: الأساليب الخبرية

ويتضمن أسلوبي التوكيد، والشرط لما لهذين الأسلوبين من أهمية في بناء الخطبة الشريفة، إذ حمل كلٌّ منهما إشارات وإيحاءات حققت الكثير من المعاني التي سنسلط الضوء عليها في مواضعها.

١ ـ التوكيد:

إنّ الكلام يلقى بحسب موقف المتلقي من قبوله، أو الشك فيه، أو إنكاره. على صور عدّة تمثلت في أنواع الخبر الذي يقسّم على: ابتدائي، وطلبي، وإنكاري. يقول الهاشمي: (حيث

(*) كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد.

كان الغرض من الكلام الإفصاح والإظهار يجب أن يكون المتكلّم مع المخاطب كالطبيب مع المريض يُشخّص حالته، ويُعطيه ما يناسبها، فحقّ الكلام أن يكون بقدر الحاجة، لا زائداً عنها، لئلا يكون عبثاً ولا ناقصاً عنها لئلا يُخلّ بالغرض)[١].

فغاية التوكيد تأكيد المعنى وتقريره في نفس المتلقي حين ينتابه شكٌ في ما يلقى إليه من أخبار فوجود التوكيد مرتبط بوجود شكّ المخاطب فيما يُلقى إليه. لذا اتّسمت خطبة السيّدة الزهراء (ع) بخلوها من أدوات التوكيد في الأعم الأغلب إلا في مواضع قليلة منها، ويبدو أنّ هذا الأمر كان بقصدية تامة منها (ع): لأنها تتحدث في خطبتها عن أمورٍ غير منكرة ممن يتلقاها، فهم أعلم من غيرهم بما ورد في ثنايا الخطبة الكريمة. فضلاً عن ذلك أنّ عدم التوكيد يشير إشارة قد تكون خفية مفادها أنّ السامعين عالمون بالحقائق التي تذكرها وبضمنها حتماً أحقيتها بميراث أبيها المغتصب المتمثل بأرض فدك.

أمّا الموارد التي استعملت فيها أدوات التوكيد فأمثلته قليلة جاءت في مواضع شكّل فيها التوكيد ملمحاً أسلوبياً، وحقق غاية مخطط لها مسبقاً، وأسهم في إيصال جزءٍ من الحقائق التي عبّرت عنها الزهراء (ع) في خطابها ومن المواضع التي ورد فيها التوكيد:

قولها (ع): **ثُمَّ قبضه الله إليه قبضَ رأفةٍ واختيار**[٢].

وقد شكّل هذا النوع من التوكيد منبهاً أسلوبياً مهماً، وحقق الهدف الذي كانت الزهراء(ع) تروم تحقيقه، وهو إفهام المتلقي حقيقة ما وتقريرها في نفسه وهي: إنّ أمر قبض روح النبي محمدٍ (ص) ونقله إلى الحياة الأخرى تتجّسد فيه رأفة الله ورحمته، ومثلما كانت حياته متحققة بأمر إلهي مقدّس وقد حققت غاية مرسومة من لدن حكيم عليم كذلك كانت وفاته أمراً إلهياً فيه عبّر عن غاية سامية، وما كانت وفاته إلا رحمة لأنّه سينتقل إلى دار الآخرة في منزل صدق مع الأنبياء والصالحين في جنات النعيم الدار التي وَعَد الله بها المتقين.

٢ - أسلوب الشرط:

يعرف الشرط بـ(أنْ يقع الشيء لوقوع غيره، أي يتوقف الثاني على الأول. فإذا وقع الأول وقع الثاني)[٣].

ومن أبرز غايات هذا الأسلوب إلقاء الحجة على من يُلقى عليه، والبرهنة عليها فتتنوع دلالات أسلوب الشرط، وتؤثر في المتلقي، وتسهم في إفهامه وإقناعه بحقيقة يبوح بها صاحب النص.

---

(١) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ٤٧.

(٢) الاحتجاج، الطبرسي، ١١٣/١.

(٣) معاني النحو، الدكتور فاضل السامرائي، ٤٥/٤.

وكان موضع الشرط في خطبة الزهراء (ع) يُنَم عن بلاغة وإبداع في استعمال الأدوات اللغوية، وتوظيفها لتحقيق الهدف المنشود، والغاية المبتغاة، وإلقاء الحجة على المتلقي، وقد ورد أسلوب الشرط في قولها (ع): **فإنْ تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم**[1].

فالشرط شكّل دلالة إشارية وظّفتها (ع) لمحاجة خصمائها وتعريفها لهم بانتسابها إلى النبي محمد (ص)، وأفصحت عن علاقته الوثيقة وأخوته للإمام علي (ع)، فكان موضع الشرط منسجماً مع البناء الهندسي للخطبة الشريفة التي ابتدأتها بتمجيد الله تعالى (حمداً ثم شكراً... ثُمّ اتباع ذلك لمحمدٍ (ص)، وانبعاثه لنشر الإسلام، وإنقاذ الأمة، ثم اتباعه بجملة من المعطيات المجسّدة لهذا الجانب كالإيمان والصلاة)[2]. وبعد بيان هذه المعطيات شرعت بعرض الأمر الذي ارتكزت عليه الخطبة، ومثّل هدفها الأسمى وغايتها الأساسية. وهذا من ملامح الإبداع في نسج الخطبة الشريفة من حيث تسلسلها الموضوعي، إذ استهلتها بعموميات جعلت كالمقدمة التي مهدت للدخول في موضوعها، ساعية بذلك إلى معالجة الموقف الخاص بها، وجاء ذلك من دون أن يؤثر على التجانس التركيبي بين موضوعات الخطبة الأخرى.

ثانياً: الأساليب الإنشائية

واقتصر الحديث فيها على أسلوبي (الاستفهام والتوكيد) لما لهذين الأسلوبين من أثر فاعل في المنظومة التعبيرية للخطبة.

١ ـ أسلوب الاستفهام:

وهو من الأساليب الإنشائية، ويعرّف بأنّه (طلب الفهم)[3]. أو (هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل)[4].

وفي هذين التعريفين إشارة إلى دلالة الاستفهام الحقيقية غير المجازية. إذ إنّ طلب الفهم ليس الغرض الوحيد الذي من أجله يؤتى بالاستفهام فثمّة معانٍ غير (طلب الفهم) يعبّر عنها الاستفهام[5]، منها: النهي، والتهديد أو التحذير، والتقرير، والتوبيخ، والتنبيه، والتعجّب... وغيرها.

---

(١) الاحتجاج، ١/١١٤.

(٢) مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، الدكتور محمود البستاني، ١٤٤.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ١/٤٣١.

(٤) جواهر البلاغة، ٧٠.

(٥) ينظر: معاني النحو، ١٩٩ ـ ٢٣١، وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، الدكتور قيس الأوسي، ٤٢١ ـ ٤٦٠.

فقد يقع الاستفهام ممّن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام، وآنذاك لا يطلب به المتكلم الفهم لنفسه، وإنّما يريد به تفهيم المخاطب، أو توبيخه، أو زجره، أو تنبيهه على خطئه، وغير ذلك. وهذا ما اصطلح عليه البلاغيون (تجاهل العارف)، ويراد به (سؤال المتكلم عمّا يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم. أو ليدل على شدّة التدله في الحب، أو لقصد التعجب أو التوبيخ أو التقرير)[1].

ويعدّ أسلوب الاستفهام من أروع (أساليب الكلام معاني، وأوسعها تصرفاً وأكثرها في مواقف الانفعال وروداً: ولذا نرى أساليبه تتالى في مواطن التأثير وهيجان الشعور، للاستمالة والإيقاع)[2].

وقد وظّفت الزهراء (ع) هذا الأسلوب الإنشائي أيّما توظيف ليكون حاملاً شحنات الغضب، ووسيلةً للبوح بالسخط على القوم الذين سلبوا منها حقّها، ومنبهاً للضلال الذين هم فيه. ومذكراً إياهم بما غفلوا عنه.

وجاء أسلوب الاستفهام بعد عرض مفصّل، وبيانٍ واضح، تمثل في الجزء الأول من الخطبة الشريفة الذي طغى عليه الأسلوب الخبري؛ لأنّ المقام مقامُ بيان وحجج وعرض حقائق. ثم تلاه المقطع الآخر الذي عرضت لسخطها وغضبها، وقد كان للاستفهام دور بارز في عرض مشاعرها عرضاً بيناً.

تنوعت أدوات الاستفهام التي وردت في الخطبة لكنّ أكثرها وروداً هي (الهمزة) التي جاء الاستفهام بها في أغلب مواضعه. ومن الأدوات الأخرى التي استعملت هي:

- **أنّى**: في المواضع الآتية:

١ - **أنّى تؤفكون؟** [3]

٢ - **فأنّى حزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الاعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟** [4]

- **كيف**:

- **كيف بكم؟** [5]

- **هل**:

- **هل تقولون إنّا أهل ملتين لا يتوارثان؟**[6]

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين الحلبي، ٢٣١.

(٢) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم، عبد العليم السيد فودة، ٢٩٢.

(٣) الاحتجاج، ١١٥/١.

(٤) المصدر نفسه ١١٧/١.

(٥) المصدر نفسه ١١٥/١.

(٦) المصدر نفسه ١١٦/١.

- ما:

- ما هذه الغميزة في حقّي؟ [١]

أمّا بقية الجمل الاستفهامية فقد عبّرت عنها بـ(الهمزة) وقد لاءمت الهمزة سياق الخطبة من جوانب منها:

١ - الإيحاء الصوتي لهذه الأداة: لكونها صوت انفجاري يتصف بالشدّة والجهر[٢] وهذا ما يكسبها دلالة القوة الذي ينسجم مع الجو العام للخطبة.

٢ - قصر (الهمزة) ولعلّ هذا نافعٌ في مقام يبغي المتكلم فيه حشد أكبر قدر من المعاني بأقلّ الكلمات وأقصرها: ليوصل جلّ أفكاره التي تلجلج في صدره إلى متلقيه.

٣ - إنّ الهمزة أوسع أدوات الاستفهام استعمالاً [٣]، وقد بيّن النحويون أنّها أمُّ باب الاستفهام[٤].

أمّا بقية أدوات الاستفهام فقد عبّرت عن معانيها الخاصة بها، غير أنّ الطابع العام يشير إلى أنّ الاستفهام بصورة عامة في الخطبة عبّر عن معنى الإنكار والتوبيخ.

والإنكار الذي يقع بهمزة الاستفهام يكون على نوعين:

أ - إنكار إبطالي وهو إنكار من ادّعى وقوع الشيء، والحق أنّه غير واقع.

ب - إنكار توبيخي: ويقتضي أنّ المخاطب فعل فعلاً يستلزم توبيخه عليه وتقريعه[٥].

وهذا ما أرادت الزهراء (ع) التصريح به أمام القوم الذين ادّعوا ما لم يكن له وجه حقّ، واستلزم توبيخهم وتقريعهم، فعبّرت عن هذا المعنى بوساطة الجمل الاستفهامية التي شكّلت ظاهرة أسلوبية، وحملت ملامح دلالية استطاعت أن تقرع أذهان السامعين، وتجذب عواطفهم. إذ أنكرت عليهم جملة من الأمور هي:

١ - ابتعادهم عن كتاب الله ورغبتهم عنه، وعدم امتثالهم لأحكامه قائلة:

- أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ [٦]

- أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم؟ [٧]

- أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور؟ [٨]

---

(١) المصدر نفسه ١/١١٦.

(٢) ينظر: الكتاب، سيبويه ٤/٤٣٤.

(٣) ينظر: معاني النحو ٤/١٩٩.

(٤) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٣١٩.

(٥) ينظر: معاني النحو ٤/٢٠١.

(٦) الاحتجاج، ١/١١٥.

(٧) الاحتجاج ١/١١٦.

(٨) المصدر نفسه ١/١١٦.

٢ - تغافلهم عمداً لانتسابها إلى النبي محمد (ص) بالبنوة قائلة:

- أفلا تعلمون؟ بلى لقد تجلّى لكم كالشمس الضاحية بأني ابنته. [١]

- أما كان رسول الله..يقول المرء يحفظ في ولده؟ [٢]

- أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟

- أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟

٣ - إنكارها اغتصابهم حقّها، وهذا هو الأمر البارز الذي يمثل المرتكز الأساسي للخطبة، فقد تجلّت صورة الإفصاح عن هذا الأمر في أكثر من جملة استفهامية:

- أأغلب على إرثي؟ [٣]

- أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ [٤]

- أأهضم تراث أبي؟ [٥]

وبذلك يتبين أنّ للاستفهام دلالة تعارف عليها أبناء العربية، وأدركوا إشاريته، وهذا ما دفع بالسيدة الزهراء (ع) إلى توظيفه للإفصاح عن قضيتها، وعرض ظلامتها.

٢ - أسلوب النداء:

ومن الأساليب الإنشائية التي كان له أثر بارز في عملية التواصل الإبلاغي في الخطبة، والإسهام في نقل الفكرة التي عرضت لها السيدة الزهراء (ع) أسلوب النداء الذي يُعرَف بـ(تنبيه المدعو ليقبل عليك)[٦]. فهو من الأساليب التنبيهية الذي يعمد إلى استعماله المتكلم ليجعل المخاطب يصغي إليه: لينقل إليه الرسالة التي يروم إيصالها إليه (فهو ليس مقصوداً بالذات، بل هو لتنبيه المخاطب: ليصغي إلى ما يجيء بعده من الكلام المنادى له، فأنت تلجأ إلى النداء لتنبه المخاطب، وتعطفه عليك، حتّى تختصه بأمرك أونهيك أو استفهامك، أو خبرك)[٧].

وللنداء حروف هي: (يا)، و(أيا)، و(آ)، و(أي) و(الهمزة). تستعمل الهمزة لنداء القريب أو ما ينزل منزلة القريب، وتستعمل باقي أدوات النداء للبعيد أو ما ينزل منزلة البعيد.

قال سيبويه: (إلاّ أنّ الأربعة غير الألف، قد يستعملونها إذا أرادوا أنّ يمدّوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم، أو الإنسان المعرض عنهم، الذي يرون أنّه لا يبل عليهم إلا باجتهاد، أو

---

(١) المصدر نفسه ١/١١٦.

(٢) المصدر نفسه ١/١١٦.

(٣) المصدر نفسه ١/١١٦.

(٤) المصدر نفسه ١/١١٦.

(٥) المصدر نفسه ١/١١٦.

(٦) شرح المفصل، ابن يعيش، ٨/١٢٠.

(٧) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٢١٨.

للنائم المستثقل، وقد يستثقلون هذه للمد في موضع الألف، ولا يستعملون الألف في هذه المواضع التي يمدون فيها)[١].

وقد شكّل النداء في الخطبة الشريفة ظاهرة أسلوبية، إذ أسهم إسهاماً فعالاً ليكون جزءً من المنظومة التعبيرية التي وظفتها السيدة الزهراء (ع) لبث أطروحتها المتمثلة بمحاججة خصمها وإنكارها غصبهم أرضها.

والتأمل الدقيق في طبيعة استعمال هذا الأسلوب داخل الخطبة يفضي إلى أنّ فيه ملامح أسلوبية انسجمت مع سياق الخطبة وفكرتها العامة، وعبّر بدقة عن مشاعر الزهراء (ع) تجاه من يُلقى إليهم الخطاب، وتجسّدت هذه الملامح في الجوانب الآتية:

١ ـ الأدوات المستعملة في هذا الأسلوب:

فالمتطلع إلى الخطبة الشريفة يجد أنّ السيدة الزهراء (ع) استعملت الأداة (يا) في ندائها على الرغم من قربهم إليها. وقد بيّن البلاغيون دواعي هذا العدول في التعبير، فقد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى بغير الهمزة لأسباب منها:

- إشارة إلى انحطاط منزلته ودرجته.
- إشارة إلى أنّ السامع لغفلته وشرود ذهنه كأنه غير حاضر[٢].

يقول السكاكي: ((يا) و(أيا) و(هيا) لنداء البعيد حقيقة...أو تقديراً لتبعيدك نفسك عنه...أو لما هو بمنزلة البعيد من نائم أو ساه)[٣]

فالواقع التاريخي يشير إلى أنّ أموراً كثيرة، ومنها قضية أرض فدك، أنشأت فجوة واسعة بين الزهراء (ع)، وأبي بكر. وهذا ما جعلها تناديه في خطابه بـ(يا)؛ لأنّه بعيدٌ عن نفسها، فضلاً عن انحطاط قدره عندها. فجاء نداءها له بـ: **يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي**[٤]. وجاء استفهامها الإنكاري المعبر عن حرمانها ميراث أبيها (ص): ليكون بياناً وتوضيحاً لسبب جعله في هذه المنزلة

وليس أبو بكر هو الطرف البعيد الذي نودي بـ(يا) في خطبة الزهراء (ع)، فقد نادي طرفين آخرين: وهم كلٌ من (الأنصار)، و(الإمام علي) (ع). فنادت الأنصار قائلة: **يا معشر النقيبة، وأعضاد الملة، وحضنة الإسلام... ما هذه الغميزة في حقّي**[٥].

---

(١) الكتاب ٢/٢٢٩ ـ ٢٣٠

(٢) ينظر: جواهر البلاغة ٨٢.

(٣) مفتاح العلوم. السكاكي، ٤٩

(٤) الاحتجاج ١/١١٦.

(٥) المصدر نفسه ١/١١٦.

فسياق كلامها يشير إلى أنها جعلتهم في موضع الساهي: لأنّها تذكرهم بمواقفهم ومنزلتهم وكيف كانوا أعضاد الملة، وحضنة الإسلام، لتدلي باستفهامها، وتعبّر عمّا أصابها من حيف.

وكان نداؤها للإمام علي (ع) بهذه الأداة معاتبةً إيّاه لغفلته عمّ أصابها من ظلم، وسكوته على هذا الأمر، ويعضد هذا القول ويؤكده ألفاظ العتاب التي اشتملت عليها الجملة الندائية الواردة في الخطبة، قائلة:

يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين...[1].

٢ ـ استعمال (أيها):

ومن روعة بلاغتها (ع)، ودقتها في توظيفها الألفاظ في خطابها واستعمالها كلاً في محله ورود لفظة (أيها) في أسلوب النداء في مواضع تقتض وجود هذه اللفظة، فهي وصلة للمنادى، وجاء ذكرها منسجماً مع الموضع الذي وردت فيه: لدلالتها على تأكيد النداء وهذا ما أشار إليه سيبويه في قوله: (وأمّا (الألف والهاء) اللتان لحقتا (أيُّ) توكيداً فكأنّك كررت (يا) مرتين)[2].

ويقول الزمخشري: ((أي) وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام..وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه فلا بُدَّ أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه، يتصف به حتّى يتضح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو (أيُّ) والاسم التابع له صفته، كقولك (يا زيد الظريف) إلا أنّ (أيّاً) لا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك من الصفة. وفي هذا التدّرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين معاضدة حرف النداء ومكاتفته بتأكيد معناه ووقوعها عوضاً ممّا يستحقه (أي) من الإضافة)[3].

وقد وردت (أيها) في خطبة الزهراء مرتين الأولى في خطابها الناس عامة لإخبارهم أنها فاطمة بنت محمد (ص)، فقالت:

أيها الناس اعلموا إنّي فاطمة، وأبي محمد[4].

لتشير بوساطة ندائها هذا إلى أمر مهم وهو انتسابها لأبيها وتعريف نفسها للناس أجمع، ويبدو أنّ هذه الجملة لها ارتباط وثيق بجملة النداء الأخرى التي وردت فيها (أيّ) التي

---

(١) الاحتجاج ١/١١٨.

(٢) الكتاب ٢/١٩٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ١/٢٥٥.

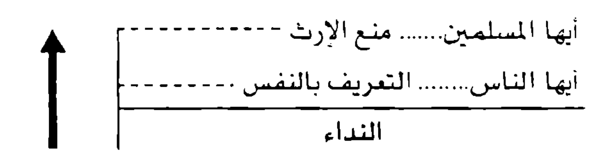
(٤) الاحتجاج ١/١١٥.

أشارت بها إلى المسلمين لعرض المسألة الرئيسة وهي منع إرثها قائلة: **أيها المسلمون، أأغلب على إرثي؟** [١]

وهذا أسلوب تدرجي تمثل في جانبين:

الأول: التدرج في المخاطب، إذا بدأت في الجملة الأولى بالناس أجمع، ثم اتجهت في الثانية صوب المسلمين منهم.

الثاني: التدرج في عرض مظلوميتها، فبدأت بتعريف نفسها، ثم شرعت باستنكار منع إرثها من قبل خصمها.



٣ ـ هيأة المُنادى

وهذا الملمح لا يرتبط بقاعدة نحوية كالملامح التي سبقت لكنّه يُستشف من قبل سياق الخطبة والموقف العام لها. وهذا الأمر يتعلق بهيأة المُنادى المتمثلة بجملتي النداء:

ـ **يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي**[٢].

ـ **يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين....**[٣].

فقد جاء الاسم المنادى بلفظة (ابن) منسوباً إلى أبيه (ابن أبي قحافة) و(ابن أبي طالب) وفي هذا الاستعمال إشارة سيميائية بثّتها السيدة الزهراء (ع) إلماحاً وتذكرة بانتساب الإنسان لأبيه، وأحقيته في ميراثه وهو محور الخطبة العام، ويظهر هذا الأمر جلياً إذا ما بيّنا امكانية استبدال المُنادى بصيغة أخرى كأن يستبدل (ابن أبي قحافة) باسمه الصريح أو (أبا بكر) أو غير ذلك

وكذلك بالإمكان استبدال (ابن أبي طالب) بـ(أبي الحسن) أو (ابن عمّي أو (علي)، ولاسيما إذا عرفنا أنّ التاريخ يُقرُّ أنّ الزهراء (ع) لم تناد الإمام بهذه الصيغة في الظروف الطبيعية، وكانت تناديه بـ(أبي الحسن) أو (ابن عمّي).

فممّا مر يتضح أنّ النداء بصورة خاصة والأساليب الأخرى بصورة عامة وُظّفت بكيفية متقنة، وكانت أدواتها منتقاة بدقة: للتعبير عن الرسالة اللغوية التي حملتها خطة الزهراء (ع).

---

(١) المصدر نفسه ١/١١٦.

(٢) المصدر نفسه ١/١١٦

(٣) الاحتجاج ١/١١٨.

المحور الثاني: الظواهر التركيبية

وسيعرض في هذا المحور لظاهرتين من أبرز الظواهر التركيبية هما:

١ - الحذف والذكر:

أ - الحذف:

يُعدُّ الحذف من الظواهر الأسلوبية الواضحة في التراكيب اللغوية. يميل إليها المتكلم للإيجاز والاختصار، فيختزل أجزاءً من الكلام إذا وجد ما يدل عليها من القرائن [1]. فمن أبرز أغراض الحذف الاقتصاد الأدائي الذي يجعل مستعمل اللغة يصوغ كلامه بما يسمح له بإبلاغ أكبر كمية ممكنة من المعلومات، بأقلّ مجهود أدائي ممكن [2].

وقال ابن جني الذي عدّ الحذف من شجاعة العربية: (قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه) [3].

فالمتكلم يحاول أن يوصل أفكاره بأقل ما يمكن من الكلمات شرط أن لا يكون هذا الاقتصاد في القول مخلاً بالمعنى فمن دواعي الإيجاز (الاختصار، وتسهيل الحفظ، وتقريب الفهم، وضيق المقام، وإخفاء الأمر على السامع، والضجر والسآمة، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير) [4]

وكان موقف خطبة الزهراء (ع) موقفاً لا يسمح بالأطناب، فقد ارتأت أن تعبّر عن جملة من الأفكار، وتبثّ أكبر قدرٍ ممكن من المعلومات لذا عمدت إلى الحذف، وإسقاط ما يمكن إسقاطه من الكلام إذا لم يؤد إسقاطه لبساً في نفس السامع، فضلاً عن أغراض أخرى سنشير إليها في مواضعها.

ومن مواطن الحذف في الخطبة:

١ - حذف أداة النداء:

في قولها: أنتم - عبادَ الله - نصب أمره [5].

فعبادَ الله منادى مضاف حذف منه حرف النداء. وقد حقق هذا الحذف إيجازاً في القول، إذ إنّ من دواعي حذف حرف النداء العجلة والإسراع بقصد الفراغ من الكلام

---

(١) ينظر: نظرية المعنى في الدراسات النحوية، الدكتور كريم حسين ناصح، ٢٩٨.

(٢) ينظر: ما وراء اللغة، عبد السلام المسدّي، ٥٤ - ٥٥.

(٣) الخصائص، ابن جني، ٣٦٢/٢.

(٤) جواهر البلاغة ١٨.

(٥) الاحتجاج ١١٣/١.

بسرعة، أو للإيجاز إذا كان المقام مقام إيجاز واختصار[1] يقول الأنصاري: (وحذف حرف النداء تنبيه آخر على أنّ المطلب مهم فليلاحظ حتى لا يفوت بطول النداء، وهذه النكتة اعتبرت في لفظ (عبادَ الله) بخصوصه في الخطب المتواترة عن الأئمة (ع))[2]

إنّ تعليل حذف أداة النداء لغرض الإيجاز والاقتصاد، أمر دقيق وليس عليه غبار إلا أنّ الزمخشري يرى أنّ له نكتة أخرى وهي تقريب المنادى من المتكلم، وتلطيف لمحله عنده [3].

وبذلك يكون حذف أداة النداء في الموضع المشار إليه من الخطبة لغرض الإيجاز والإسراع في القول فضلاً عن التلطف بالمنادى وتقريبه. وقول الأنصاري أنّ هذه النكتة اعتبرت في لفظ (عبادَ الله) في الخطب المتواترة عن الأئمة (ع) دليلٌ على ما ذهب إليه الزمخشري. فهم آرحم الناس بعباد الله، وخُلقهم الرفيع المُستمد من أخلاق النبوة المقدّسة يوجب عليهم التلطف في النداء مع عباد الله إلا من خرج عن عبادته بمخالفته أوامره ونواهيه.

٢ - حذف الفاعل:

ومن مواضع الحذف في الخطبة الشريفة حذف الفاعل في الجمل الآتية:

كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته[4]

ووضع العقاب[5]

ابتدع الأشياء[6]

فلم تذكر الفاعل لأنّه معلوم، فضلاً عن أنّ تكرار الاسم المذكور يحقق سماجة في القول. ناهيك عن موقف الخطبة الذي لا يسمح بهذا التكرار إذ آرادتها صاحبتها أن تحمل أكبر قدر من المعاني التي أفصحت عنها.

لكنّ الإيجاز لم يكن الغاية الوحيدة للحذف، فثمّة معانٍ أخرى حققها الحذف غير الإيجاز، فكان الحذف واقعاً عن قصدية تامة من الزهراء (ع) التي تعمدت عدم الإفصاح عن المحذوف: لأنّ في ذكره معنى غير الذي يكون في حذفه. ومن ذلك حذف الفاعل وبناء الفعل للمجهول في قولها (ع): كلمة جُعِلَ الإخلاص تأويلها.

---

(١) ينظر: معاني النحو ٢١٨/٤.

(٢) اللمعة البيضاء، الأنصاري، ٢٧٣.

(٣) ينظر: الكشاف ٢١٥/٢.

(٤) الاحتجاج ١١٣/١.

(٥) المصدر نفسه ١١٣/١.

(٦) المصدر نفسه ١١٣/١.

والمراد بالكلمة: لا إله إلا الله. والإخلاص بأن يجعل المرء أعماله كلّها خالصة لله تعالى ولا يشوبها رياء ولا أغراض فاسدة، ولا يستعين بغيره في أي شيء من الأمور وغير ذلك من شروط التوحيد. وقد شكّل عدم ذكر الفاعل في هذا الموضع ملمحاً دقيقاً: لأنّ الإخلاص يكون باستعداد المرء، وإعانة الله، ولا يكون الله هو المسؤول الوحيد عن هذا الأمر. يقول الأنصاري: (ولفظ (جُعِل) مبني على المفعول. والإخلاص نائب فاعله، وجُعِل الإخلاص تأويلها إنّما يكون بأمرين: استعداد القائل، وإفاضة الله سبحانه له، ولذا آتى بصيغة المجهول إشارة إلى أنّ الفاعل مجهول الحال. ولو قُرئ معلوماً فهو وإن صحّ أيضاً إلاّ أنّه يوهم الاستغلال فيتولد منه الجبر)[1].

وهذا يدل على أنّ للحذف دلالات إيحائية عبّرت عن معانٍ مكنونة في نفس المتكلم الذي يستعين بالظواهر الأسلوبية لتفصح عن تلك المعاني.

ب - الذكر:

هو الأصل الذي تقتضيه عملية التواصل اللغوي بين المتكلم والمتلقي. ودأب الدرس البلاغي على المرور سريعاً بالقالب المعياري للجملة (أصل التركيب): لأنّه الأصل الذي تجب مراعاته، في حين وقف طويلاً عند حالات العدول عن هذا الأصل، واصفاً ومحللاً ومفسراً مقتضيات العدول ودلالاته، إلا أن استجلاء ظروف القول وحال المتكلم، وحال المخاطب، يجعل للذكر دلالة أسلوبية ولاسيما حينما تبيح قواعد اللغة للمتكلم إمكانية الحذف بما يوفره من اقتصاد في الأداء، إلا أنّه يجنح إلى الذكر لمسوغ بلاغي [2].

وللذكر معانٍ ودلالات [3]منها: التقرير والإيضاح، وعدم فهم المتلقي، وتعظيم المذكور أو تحقيره، أو التلذذ بذكره، أو التبرك.

ومثلما شكّل الحذف ظاهرة أسلوبية في خطبة الزهراء (ع) شكّل الذكر ظاهرة أيضا، وحمل ملامح ودلالات أُريد الإفصاح عنها في الخطبة. تتضح هذه الدلالات والمعاني للمتأمل، وصاحب الذوق اللغوي والمتمرس على قراءة النصوص الفصيحة العالية.

وهذا ما تلمسناه في ذكر الفاعل مع إمكانية حذفه أو استبداله بضمير ينوب عنه في قولها (ع): **ابتعثه الله اتماماً لأمره**[4].

---

(١) اللمعة البيضاء، ٣٧٤.

(٢) ينظر: سورة آل عمران دراسة تحليلية لغوية، إياد محمد علي، ٣٠٦.

(٣) ينظر: البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ٢٤٧.

(٤) الاحتجاج ١/١١٣.

فقد ذكرت الفاعل وهو (اللّه) مع أنّ الجمل السابقة هذه الجملة لم تصرح به، فقالت: **اختاره... وسمّاه... واصطفاه**[١]. لكنّها حين وصلت إلى البعثة صرّحت بالفاعل المسؤول عنها وهو اللّه: لأهمية هذا الموضوع. وقد اتسق هذا مع وجود التأكيد والمبالغة المتحقق باستعمال المصدر (الانبعاث) وهو يدل على البعث وبمعناه بزيادة في المبالغة [٢].

وقد حقق الذكر في هذا الموضع دلالتين:

الأولى: تنشيط ذهن السامع وإبعاد الرتابة عنه بوساطة التنوع الأدائي ما بين الذكر والحذف.

والثانية: إنّ الذكر ينبئ عن أهمية الأمر الذي يصرح بفاعله، ويوضح مسؤوليته المباشرة عنه: لذا يتعمد ذكره ولا يحذفه.

فكان ذكر الفاعل (اللّه) في الجملة التي أشارت إلى بعثة النبي محمد (ص) وهي أولى مراحل النبوة المحمدية الخالدة.

ثمّ عادت (ع) لتحجب ذكر الفاعل: لعلم السامع به في جملة: **فرأى الأمم فرقاً في أديانها**[٣]. لكنّها عادت لتصرح بالفاعل (اللّه) في قولها: **فأنار اللّه بأبي محمد (ص) ظلمها**[٤].

وبيّنت من هذا الذكر أنّ اللّه بلطفه وإرادته وبوساطة نبي الرحمة (ص) أنار ظلمات الأرض وأزال ظلمها وهي إشارة إلى نجاح الرسالة المحمدية الخالدة

وبعد هذا عادت (ع) لإضمار الفاعل وعدم الكشف عنه في الجمل التي تلت هذه الجملة في معرض حديثها عن النبي (ص) وما قدّمه للإسلام قائلة:

وكشف عن القلوب بهمها

وجلى عن الأبصار غممها

وقام في الناس بالهداية

فأنقذهم من الغواية[٥].

حتى إذا وصلت إلى مرحلة انتهاء حياة النبي (ص) صرّحت بذكر الفاعل قائلةً: **ثمّ قبضه اللّه إليه قبضَ رأفة واختيار**[٦].

---

(١) المصدر نفسه ١/١١٢.

(٢) ينظر: لسان العرب. ابن منظور. ١/٤٢٨.

(٣) الاحتجاج ١/١١٣.

(٤) المصدر نفسه ١/١١٣.

(٥) المصدر نفسه ١/١١٢.

(٦) الاحتجاج ١/١١٣.

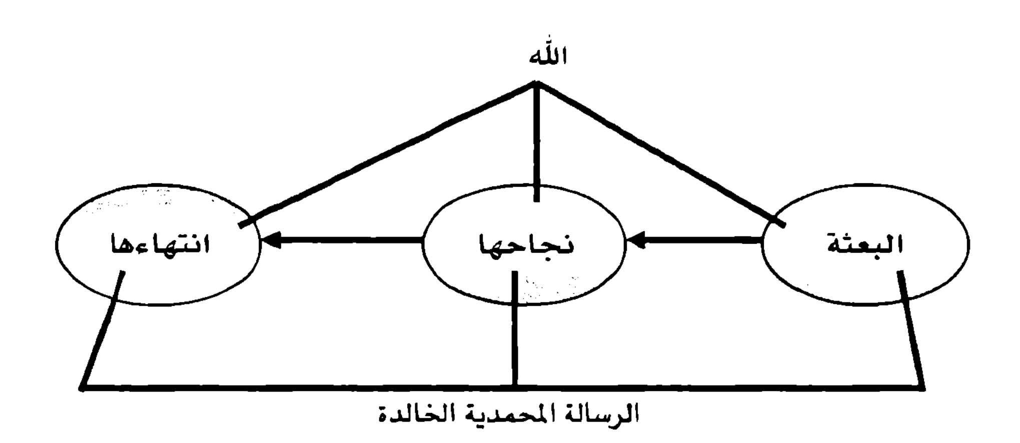
وبذكر الفاعل دفعت اللبس الذي قد يتحقق: لأنّ الحديث السابق كان عن النبي (ص)، فضلاً عن أنّها أشارت بوساطة الذكر إلى أهمية هذا الموضع فجاء ذكر الله في ثلاثة مواقف هي:

١. البعثة.

٢. نجاح الرسالة المحمدية.

٣. انتهاء البعثة.

وفي ذلك إشارة إلى أنّ الله هو المسؤول عن مسيرة النبوة الخالدة من بدايتها وحتّى نهايتها.



وبذلك يتضح أنّ كلاً من الحذف والذكر ورد في محله المناسب، معبراً عن معانٍ بدقة متناهية، وهندسة لغوية محكمة.

٢ ـ التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير فن دقيق ورفيع لا يعرفه إلا أهل البصر بالتعبير، والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام، وأسرار تراكيبه[١]. ويعرّف بأنه (جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها لعارض اختصاص أو أهمية أو ضرورة)[٢]. قال عنه الجرجاني: (هو باب كثير الفوائد جمّ المحاسن، واسع التّصرف، بعيد الغاية)[٣].

---

(١) ينظر: التعبير القرآني، الدكتور فاضل السامرائي، ٥١.

(٢) الأكسير في علم التفسير، سليمان الصرصري، ٥٤.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ٧٣.

وقد عنيت به الدراسات المعاصرة، فهو بؤرة مباحث الأسلوب في التركيب[١].

فأصل الكلام أن يكون المقدّم مقدّماً، والمؤخر مؤخراً، إلا أنّ دواعي فكرية ونفسية ومعنوية كثيرة تطرأ على منتج النص فتجعله يقدّم مؤخراً، أو يؤخر مقدّماً وليس ذلك من قبيل الترف، أو تلوين الكلام وتزيينه، أو تعدد صيغه[٢]. وإنما يشير ذلك إلى قصد وهدف اتّخذه منتج النص ليفهم المتلقي بفحوى الرسالة التي يريد إبلاغها له.

فالعدول عن الصياغة التقليدية للكلام والانزياح إلى أخرى يشكّل واحداً من أهم المنبهات الأسلوبية التي تلفت النظر أكثر من غيرها. وتعمل على إيقاظ وعي المتلقي، وجذب انتباهه. فضلاً عن مقاصده الكثيرة التي تحدّث عنها العلماء، ومنها: العناية والاهتمام، والاختصاص، وإفادة القصر، والافتخار، والتفاؤل، وتقوية الحكم، والتدّرج الزمني، والتشويق للمؤخر وغيرها من المقاصد[٣].

وقد استطاعت السيدة الزهراء (ع) توظيف هذه الظاهرة توظيفاً دقيقاً رسمت بوساطته لوحة معبّرة بيّنت فيها الظلامة التي لحقت بها، والحيف الذي وقع عليها.

ومن التقديم الوارد في الخطبة الشريفة:

ـ تقديم الخبر على المبتدأ:

في قولها (ع): **بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره**[٤].

والشائع أنّ هذا اللون من التقديم يفيد الاختصاص[٥]، وقد حقق هذا القصد فعلاً، لكنّ ثمّة أمر مهم آخر حققه هذا التقديم وهو مشاكلة رؤوس مقاطع الخطبة، وهذا أمر متّبع في صياغة النصوص الفصيحة، ولاسيما في كتاب الله العزيز إذ إنّ (الملاحظ أنّ القرآن يُعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس فتد ترى أنّه مرة تُقدّم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات)[٦]

وهذا ما عمدت إلى استعماله وتوظيفه السيدة الزهراء (ع) في خطبتها، وقد شكّلت بهذه الظاهرة وقعاً موسيقياً كان له الأثر البالغ في نفوس المتلقين.

---

(١) ينظر: سورة آل عمران دراسة تحليلة لغوية، ٢٨٩.

(٢) ينظر: أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم، الدكتور شلتاغ عبود، ٨٤. ٨٥.

(٣) ينظر: معترك الاقران في اعجاز القرآن، ١/١٧١. ١٨٠.

(٤) الاحتجاج ١/١١٤.

(٥) ينظر: التعبير القرآني، ٥٥.

(٦) التعبير القرآني، ٢٤٩.

فضلاً عن ذلك فقد راعت السيدة الزهراء في هذا التقديم المعنى أيضاً ولم تكن غايتها الانسجام الموسيقي وحده. فالتأمل الدقيق يبيّن أنّ هنالك علاقة بين المعاني التي تحملها رؤوس المقاطع في المخطبة، وأنّ هنالك تسلسلاً وترابطاً بينها وهذا ما بدا واضحاً في المقطع المشار إليه، والتي تصف به القرآن الكريم مبتغية بيان وضوحه، وانكشاف أسراره لدى حامليه، وانجلاء ظواهره، وبذلك تكون قد أشارت إلى وجود علاقة بين كلّ من البصائر والسرائر والظواهر. وهذه العلاقة كشفت عن أنّ حجج القرآن ما أُسرّ منها وما أعلن متسم بالوضح.

ومن مواضع تقديم الخبر على المبتدأ قولها (ع):

مغتبطة به أشياعه

قائد إلى الرضوان اتباعه

مؤدٍ إلى النجاة استماعه[1].

فقد خصصت الغبطة بأشياع القرآن، والنجاة باستماعه. فضلاً عن الوقع الموسيقي الذي تحقق بمشاكلة رؤوس المقاطع. والعلاقة التي ربطت الكلمات التي خُتمت بها المقاطع، فمشايعة القرآن تحقق الغبطة، واستماعه يؤدي إلى النجاة، ولعل المراد بالاستماع هو الانصياع لأوامره ونواهيه وعدم الإعراض عنه فمن آمن بالقرآن عليه أن يشايعه ويتبعه ويستمع إليه.

- تقديم شبه الجملة:

ومنه تقديم شبه الجملة على الفاعل، نحو قولها (ع):

جمّ عن الإحصاء عددها.

ونأى عن الجزاء أمدها.

وتفاوت عن الإدراك أبدها[2].

وجاء التقديم في هذا الموضع للعناية والاهتمام فضلاً عمّا بيّنا من تحقق الانسجام الموسيقي في نهاية المقطع، والإلماح إلى وجود علاقة بين نهايات المقاطع.

وقد قدّمت شبه الجملة على الخبر في قولها (ع):

إذ الخلائق بالغيب مكنونة

وبستر الأهاويل مصونة

وبنهاية العدم مقرونة[3].

---

(١) الاحتجاج ١/١١٤.

(٢) المصدر نفسه ١/١١٣.

(٣) المصدر نفسه ١/١١٣.

فجاء تقديم شبه الجملة في هذا المقطع (بالغيب) و(بستر الأهاويل) و(بنهاية العدم) للعناية والاهتمام: لأنه حديث عن غيبيات فجاء تقديمها إشعاراً بتخصصها وتوكيدها وتسلسلها.

وكذلك قُدمت شبه الجملة على المفعول به في قولها (ع):

كشف عن القلوب بهمّها

وجلى عن الأبصار غممها [١].

فجاء هذا التقديم ليشير إلى أنّ الاهتمام ينصب على القلوب والأبصار.

وقولها:

فألفاكم لدعوته مستجبين.

وللعزة فيه معاندين[٢]

هذه وغيرها من المواضع التي حصل فيها مثل هذا التقديم شكّلت انحرافاً في المألوف من صياغة الألفاظ على وفق النظام المعهود من قانون الرتبة في العربية وكان لهذا الانحراف دلائل ومعان أرادها صاحب النص وقصد إلى الإشارة إليها.

الخاتمة:

لقدّ شكّلت بنية الخطبة ببناها التركيبية المتمثلة بالأساليب والظواهر رؤية السيدة الزهراء (ع). فقد جاءت خطبتها ذات بنية لغوية وصورية قادرة أن تعبّر عن تجربة الزهراء (ع) باعتمادها على الإجراءات اللغوية، التي جاءت بصورة تعتمد الجدّة والكشف، وتسعى إلى جعل اللغة وهاجة وتصويرية وكاشفة وموحية.

وممّا تظهره الخطبة هو قدرة السيدة الزهراء (ع) على الإبداع الذي تحقق بتماسك النص وتلاحمه بوساطة ركونه إلى أدوات أسلوبية استطاعت أن تجعل النص مرتبطاً في جمله ومتماسكه.

أبدى استعمال الأدوات اللغوية في الخطبة قصدية الزهراء في استعمالها تلك الأدوات، ودقة انتقائها في وضع الألفاظ في مواضعها.

ويوحي خطاب السيدة الزهراء (ع) بمدى التشابه الواضح في البنى التعبيرية والتركيبية بين خطابها والخطاب القرآني، وهو ما يوحي بالفهم والاستيعاب الدقيق من قبل السيدة الزهراء (ع) القرآن الكريم، فضلاً عن التأثر الواضح به وبأساليبه المختلفة، كيف لا وهي ابنة من نزل على صدره القرآن الكريم نبي الرحمة محمد (ص).

---

(١) الاحتجاج ١/ ١١٣.

(٢) المصدر نفسه ١/ ١١٥.

قائمة المصادر والمراجع:

- **الاحتجاج**: الشيخ أبو منصور الطبرسي، دار المرتضى، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **أساليب الاستفهام في القرآن الكريم**: عبد العليم السيد فودة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مؤسسة دار الشعب.
- **أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين**: الدكتور قيس الأوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بيت الحكمة.
- **أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم**: الدكتور شلتاغ عبود، ط١، دار الرسول الأكرم، ودار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م
- **الأكسير في علم التفسير**: سليمان الصرصري، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ١٩٥٦.
- **البلاغة والأسلوبية بين النظرية والتطبيق**: محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- **التعبير القرآني**: الدكتور فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة ١٩٨٩م
- **جواهر البلاغة**: أحمد الهاشمي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**: شهاب الدين الحلبي، بغداد، ١٩٨٠م
- **الخصائص**: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الرابعة، مطابع الهيئة المصرية العامة، مصر، ١٩٨٦.
- **دلائل الإعجاز**: عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا دار المعرفة، بيروت ١٩٨٧.
- **سورة آل عمران دراسة تحليلية لغوية**: إياد محمد علي، الطبعة الأولى المركز الوطني لعلوم القرآن، ديوان الوقف الشيعي، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨.
- **شرح المفصل**: الشيخ موفق الدين بن علي بن يعيش، تحقيق وشرح: أحمد السيد أحمد، مراجعة: اسماعيل عبد الجواد عبد الغني، المكتبة التوفيقية، مصر، (د.ت).
- **الكتاب**: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت.
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل**: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر، بيروت.
- **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ)، دار صادر بيروت، (د.ت).
- **اللمعة البيضاء**، محمد علي بن أحمد التبريزي الأنصاري (ت١٣١٠هـ) تحقيق: السيد هاشم الميلاني، دار فاطمه (ع)، الطبعه الأولى مطبعه نجارش، قم، ١٤١٤هـ.
- **ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية**: الدكتور عبد السلام المسدّي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس.
- **مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي**: الدكتور محمود البستاني، طهران، ١٣٨١.
- **معاني النحو**: الدكتور فاضل صالح السامرائي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**: جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ١٩٧٠.
- **مفتاح العلوم**: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.
- **نظرية المعنى في الدراسات النحوية**: الدكتور كريم حسين ناصح، الطبعة الأولى، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٦م. ❖

بنية الحجاج من منظور لسانيات الخطاب في خطبة الزهراء (ع)

د. فاطمة كريم رسن(*)

تُعدُّ خطبة الزهراء (ع) من النصوص الخطابية التي جمعت في بنيتها جميع شرائط النصّ التام من حيث الموضوع الأساس الذي تناول قضية "الإرث" بعدّها "القاعدة المشتركة" في توصيفات لسانيات الخطاب التي تتمحور حولها الموضوعات المتنوعة الأخرى التي شملت المنظومة المعرفية للإسلام والتي ارتبطت مع بعضها بعلاقات جوهرية أظهرت مقدرة السيدة الزهراء (ع) اللغوية والمعرفية والمنطقية وهي من متلازمات الاحتجاج على القوم للمطالبة بحقّ قد أُستلب، ويمكن تلمس بنية الحجاج في فضاء النصّ الخطابي عند الزهراء (ع) في غالبه؛ لذا عمدتُ إلى دراسة الخطبة في بنيتها الحجاجية ومن منظور لسانيات الخطاب لما يتوافر في النصّ من علاقات دلالية وسياقية ظاهرية وداخلية تتمظهر في بنية النصّ الخطابي تتيح لنا مجالات كثيرة نستطيع بها أن نُحكم أدواتنا البحثية لاستظهارها والوقوف على المديات الجمالية والإبلاغية في مؤدى النصّ: لأنه نصّ ثرّ وخطاب تام وهي نتيجة ترسمت في فضاء الدراسة اللسانية في بحثنا للخطبة.

إن بنية الحجاج هي أكثر بنية يمكن الاشتغال عليها في الخطاب لما فيها من قضايا مطروحة على سبيل إلقاء الحجة وتأكيد المطلب من قبلها (ع) لأنه مطلب حقّ استمدت مشروعيته من القرآن الكريم.

ومما مهد الطريق للاشتغال على هذه البنية لما وجدته من دراسة مستفيضة لبنية الحجاج والتأصيل لهذا المفهوم والوقوف على دلالاته وعلاقاته بمفهوم الجدل ومفهوم الاحتجاج عند الكاتب عبد الله صولة في دراسته الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية" وجدت فيه مايعينني على دراسة بنية الحجاج في خطبة الزهراء (ع).

١ - ترد لفظة الحجاج في قواميس اللغة من الحجة وهو الدليل والبرهان ومنه تخرج لفظة الحجاج مرادفة للجدل، فعند ابن منظور في هذا المقام هو "مقابلة الحجة بالحجة"(١).

وعلى هذا المعنى تكون بنية الحجاج مؤدية لمعنى النزاع والخصام بوجود أدلة وبراهين وحجج، ووردت لفظة الحجاج في كتب المفسرين القدماء وعلماء المذهب الكلامي كثيرا: إذ أنها تعدُّ من بلاغة القرآن وانه مشحون به.

(*) كلية التربية، ابن رشد، قسم اللغة العربية.

(١) لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة (جدل).

ويكثر الحجاج في الخطابة كما هو الحال مع الجدل فكما عبر عنهما أرسطو بأنهما "قوتان لإنتاج الحجج"(١).

وفي ضوء النظّريات النقدية الحديثة أخذت بنية الحجاج تُعَالَج في إطار لساني محض أو يقترب من ذلك، وقد حاول النقاد المحدثين أن يستثمروا الجهود الفلسفية واللسانية في مجال الفلسفة بوضع الحجاج في إطار نظرية أوسع هي "نظرية المساءلة"(٢).

وهذه النظرية تفتح أفقاً دلالياً رحباً: إذ تنزل بنية الحجاج في صميم التفاعل بين الخطيب وجمهوره: لذا وجدت أن خطبة الزهراء(ع) الخالدة تنضوي على أفق دلالي رحب من بنية الحجاج في مؤداها القصدي بمفاهيم عديدة تضمنها نصّ الخطبة.

٢ - يمثل التماسك التام للوحدات المشكلة للنصّ المكونة لخطاب محدد، وانسجامها محورين مركزيين تتمظهران في الأبحاث التي تحفر في بنيات تحليل الخطاب، ولسانيات الخطاب على وجه الدقة، وعلم نصّ اللغة، حيث يكون معنياً بالمفاهيم التي ترتبط بهذين المحورين مثل الترابط، والتعالق، وتمام النصّ، والإحالة، وما شاكلها.

إنَّ تلك الوحدات المشكلة للنصّ تتطلب من الكاتب توظيف الوسائل الداخلة في صناعة النصّ من وحدات لغوية راصداً للضمائر والإشارات والإحالات بوسائط الربط المتنوعة، كالعطف والحذف والاستبدال وغيرها بوصفها أدواتاً لبناء الانسجام مولدة لوحدة كلية تامة تسمى وفق مستوى الاتساق بـ(الخطاب).

ومن جهة أخرى تتطلب من المتلقي توجيه الذهن إلى الكشف عن العلاقات الخفية التي تربط النصّ ببعضه وتنظمه مولدة لبنية كلية بمجموعة العلاقات الظاهرة لترابط النصّ الذي يتمظهر بالاتساق ومجموعة العلاقات الكامنة التي تبرز النصّ بوصفها بنية كاملة تامة تتمظهر بالانسجام، وعلى وفق النظرية اللسانية للخطاب عند أحد منظري هذه النظرية هو (توت فان ديك) في كتابه (text and context) على وفق الترتيب الآتي بيانه:

الخطاب:

١- الدلالة وتتفرع إلى:

أ - الترابط

ب - الانسجام

ج - البنية الكلية.

---

(١) الخطابة: أرسطو، تعريب عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦م، مقالة١، الفصل الثاني، ١٣٥٦آ.

(٢) ينظر الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م: ٢١.

٢- التداول ويتفرع إلى:

أ - السياقات والأفعال الكلامية

ب - تداوليات الخطاب

ج - الأفعال الكلامية الكلية.

ومن ذلك وجدت من الأهمية بمكان دراسة نموذج من تراثنا الأدبي في ضوء منظور لسانيات الخطاب معتمدة أنساق هذه النظرية في الكشف عن مكامن النصّ من حيث الشكل والمضمون فضلاً عن استجابة هذه النصوص لمثل هذه النظريات الحديثة لمرونتها وغزارتها شكلاً ومضموناً، وقد وقفت على تحليل خطبة الزهراء (ع) دلالياً في ضوء منظور لسانيات الخطاب: لأنها مادة غزيرة بشكلها ومضمونها وتكامل مجموعة العلاقات التي تنتظم النصّ مكونة انسجاماً تاماً لبنية نصّ كلية في خطابها (ع).

إنّ الوقوف على دراسة الخطبة على أساس محور دلالي واحد هو (الترابط) على أساس استظهار مجموعة شرائطه ومدى توافر تلك الشرائط في فضاء خطبة الزهراء ع.وقد اقتصرت على هذا المحور بمقتضى كمية البحث.

ويمكن تسليط الضوء على مفهوم الترابط وشرائطه الذي اعتمدته في متون البحث، أشار فان ديك إلى أن الترابط يستعمل للإشارة إلى علاقة خاصة بين الجمل، والترابط علاقة دلالية تربط بين قضايا الجمل "المقولات التركيبية" في نصّ ما"[1].

من أهم شرائط التي تحقق الترابط في الخطاب هي:

١. التطابق الإحالي "أي أن يكون نفس الشخص المتحدث عنه في طرفي الجملة أو الجمل"[2].

٢. تعالق الوقائع التي تشير إليها الجمل. وهذا هو الشرط الأعم في تحقق الترابط ويعتمد على ركيزتين هما:

- الترتيب الزمني.
- تعالق العوالم الممكنة.
- علاقة السبب والنتيجة.

مما تقدم نخلص إلى أنّ "الجمل مترابطة إذا كانت الوقائع التي تشير إليها قضاياها متعالقة في عوالم متعالقة"[3].

وهذا ما اعتمدنا في إجرائنا البحثي في خطب الزهراء ع: إذ جاء البحث على:

---

(١) لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي. المركز الثقافي العربي. ط١، ١٩٩١م: ٢١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢.

(٣) فان ديك: text and context: ٤٨. نقلاً عن لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب: ٣٣.

مقدمة تناولت فيها الحديث عن بنية الحجاج لغة واصطلاحاً وعلاقة هذا المصطلح مع مصطلح الجدل والمحاجة ومدار هذه البنية في فضاء النصّ الخطابي للسيدة الزهراء (ع).

وتناولت في أقسام أربع حراك بنية الحجاج فيها:

١- الحجاج في بنية الاستهلال.

٢- الحجاج في بنية المفردة.

٣- الحجاج في بنية التركيب.

٤- الحجاج في البنية القرآنية.

والخاتمة.

أولاً: الحجاج في بنية الاستهلال

اهتم النقد القديم بتأنق بنية الاستهلال في النصّ، لأنه أوّل ما يقرع السمع فيطمع السامع فيه إذا كان عذب اللفظ حسن السبك، صحيح المعنى[١].

وقد انمازت خبطة الزهراء (ع) ببعديها الإيقاعي والدلالي ومناسبتها لموضوع النصّ، وهي تشكل ملمحاً أسلوبيا متفرداً وأصيلاً تكاد تتلمس في فضاءاتها الجدّة والفرادة التي يمكن مقاربتها مع بنيات الاستهلال في خطاب نهج البلاغة للإمام علي(ع)[٢].

ومجموعة بنيات الاستهلال في خطبة الزهراء (ع) تتمثل في قولها (ع):

الحمدُ لله على ما أنعم
وله الشكر على ما ألهم
والثناء بما قدّم
من عموم نعم ابتداها
وسبوغ آلاء أسداها
ونأى عن الجزاء أمدها
وتفاوت عن الإدراك أبدها
وندبهم لاستزادتهم بالشكر لاتصالها
واستحمد إلى الخلائق بإجزالها
وثنّى بالندب إلى أمثالها[٣].

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني (٧٣٩هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م: ٤٢٨.

(٢) ينظر: الاستدلال في كتاب نهج البلاغة للإمام علي(عليه السلام) دراسة أسلوبية، فاطمة كريم رسن، كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، بإشراف د. حيدر لازم مطلك، كانون الثاني، ٢٠٠٩م: ١٢٤.

(٣) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: العلامة الخطيب السيد محمد كاظم القزويني، منشورات الفجر، لبنان، بيروت، ب. ت: ٢٣٣.

جاءت البنيات الاستهلالية في بداية النصّ الخطابي المستحدثة مع الرسالة الإسلامية من حيث التحميد للّه تعالى والشكر والثناء، في سياق استهلال فني ترتبط فيه هذه البنيات مكونة بناءً هندسياً محكماً معتمداً على ركنين أساسيين في غاية الأهمية هما الإيقاع والدلالة.

تأتي وظيفة بنية الاستهلال في النصّ بوصفها مُحركاً يوجه ذهن المُخاطَب باتجاه موضوع النصّ، وهو البناء الإيقاعي، حيث يتضمن اثنتا عشرة وحدة لغوية تنتظم في بنية الاستهلال بإيقاع منتظم مكونة مجاميع متشابهة تختلف بإيقاعها عن بعضها منتجة لكثافة إيقاعية تهيمن على فضاء المتلقي فتستجلب إحساسه وتشدّ ذهنه.

ينتج عنها ردود إيجابية باتجاه الدخول إلى موضوع الخطاب وهذه هي إحدى وظائف الاستهلال في النصّ.

وبنية النسق الإيقاعي لم تقتصر على الجمالية الواقعة في دائرة الصوت، بل تتواشج مع الدلالة، لتؤدي وظيفة أخرى في الخطاب وهي الوظيفة الإفهامية للمتلقي.

امتازت بنية الاستهلال بتراكيبها المتنوعة باللغة المباشرة، وذلك لوضوح التحميد والشكر والثناء، مع وضوح الموقف، فالأفعال التي ترتبط ببعضها بعلاقات دلالية تنوعت بأثر ذلك التعدد (أنعم، ألهم، قدّم، ابتداها، أسداها، والاها، جمّ، نأى، تفاوت، ندبهم، استحمد، ثنّى) فقد استوجبت هذه الأفعال طرحاً مباشراً، لأنها أمور تُفرض على الجميع فهمها.

وينزاح الخطاب بدرجة عالية إلى التقريرية في الأسلوب في مكملات بنية الاستهلال الأولى في ما يمكن توصيفها ببنية الاستهلال الثانية في قولها (ع):

واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له[1].

وبنية الاستهلال الثالثة في قولها (ع):

واشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله[2].

والتقريرية في الأسلوب في هذا المقام دعتها الوظيفة الحجاجية لبنى الاستهلال على المُخاطَب في عرضه لمضامين الإسلام وصفاته وحركة البعثة المتمثلة في حراك الرسول محمد(ص) حتى لا تكون له حجّة في الإعراض عنه.

وعود على بنية الاستهلال الأولى في النصّ فإننا نتلمس الركيزة الأساس فيها: فهي تتمحور حول الدلالة. فإن كل واحدة من وحداتها اللغوية (الحمد والشكر والثناء) تحمل دلالة

---

(١) ينظر: فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ووحداتها اللغوية تسع عشر ة وحدة.

(٢) ينظر: م. ن: ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ووحداتها اللغوية أربع وعشرون وحدة.

تفترق عن الأخرى: إذ جاء معنى الحمد عند النحاس بأنه أعم من الشكر والثناء، فهو "يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر والجزاء"[١].

وفي سياق مفهوم الترابط في لسانيات الخطاب فإن الأفعال في هذه البنية التي ذكرناها (أنعم، ألهم..... الخ)، قد اتصفت بـ(التطابق الإحالي) وهو "أن يكون نفس الشخص المتحدث عنه في طرفي الجملة"[٢].

وما يحقق التطابق الإحالي في هذه الجمل هو الضمير (الهاء)، العائد إلى ذات الله سبحانه وتعالى "المُتحدث عنه" الذي ذُكر صراحة في الجملة الأولى مع مفردة "الحمد" لأن القضية التي تحملها الجملة "الحمد لله على ما أنعم" هي قضية النعم المادية الملموسة من قبل الإنسان والتي خلقها الله تعالى مُنعماً بها على البشر مُسخرة لخدمته في الحياة الدنيا فضلاً عن ذكر لفظ الجلالة "الله" في بدء الخطاب هو توجيه المتلقي على أن ما يُطرح من قضايا هو متعلق بأمر الله سبحانه وتعالى فضلاً عن جهة المُخاطِب بأنه متمسك بأوامر الله غير خارج عن طاعته.

وفي ذلك تمظهرت لفظة "الله" بوصفها بنية حجاج أولى ارتكز عليها الخطاب بوصفها منطلقاً إيمانياً وعقائدياً للمُخاطب أمام الجمع.

ونخلص من ذلك إلى أن مجموعة الملامح الأسلوبية التي توشجت فيها العلاقة السطحية بالبنية العميقة بركيزتين أساسيتين، هما الإيقاع والدلالة أثرَت الوظيفة الأهم لبنيات الاستهلال الثلاث المتمثلة بالوظيفة الحجاجية في مؤدى النصّ وهو اكتمال الدين الإسلامي وإتمام النعمة بأهل بيت النبوة (ع).

ثانياً: الحجاج في بنية المفردة

نهتم في هذا المقام بدراسة الكلمة المفردة في فضاء النصّ الخطابي التي تستوحي دلالتها الحجاجية في سياق موضوع النصّ الذي قيلتُ فيه، وأبرز الملامح الأسلوبية التي يمكن ان نؤسس عليها المفردة الحجاجية هي "العدول" بوصفه معياراً أسلوبياً: فقد ظهر هذا المفهوم في أواخر القرن التاسع عشر على يد فون درجيلتس حينما أطلقه على دراسة الأسلوب من خلال الانزياحات اللغوية والبلاغية في الكتابة الأدبية، بعدها تطور هذا المفهوم فصار عند موروزو سنة ١٩٣١م دراسة المظهر والجودة الناتجين عن الاختيار بين الوسائل التي تضعها اللغة في متناول المبدع[٣]. وهذا المفهوم يقارب محور الاختيار في مستوى العلاقات بين الوحدات

---

(١) معاني القرآن الكريم: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (٣٣٨هـ). تح: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ: ٥٧/١.

(٢) لسانيات النصّ: ٣٢.

(٣) ينظر: اللسانيات وتحليل النصوص. د. رابح بوحوش، عالم الكتاب الحديث. أربد – الأردن، ٢٠٠٩م: ٤٨.

عندما يكون التحرك عمودياً يعتمد علاقات الغياب، وهي عملية طبيعية إيحائية تقوم على إمكان استبدال أية كلمة بكلمة أخرى[١].

إلا إننا سنقف عند استعمال أسلوبيات العدول في حركة المفردة الحجاجية في فضاء النصّ الخطابي نحو:

١ ـ العدول عن الاسم إلى الصفة:

في ذكر اسم محمد(ص) وصفته فقد ورد في النصّ الخطابي إحدى وعشرون مرة وتوزعت هذه التسميات بطريقة لافتة للانتباه، إذ جاء بالاسم العلم محمد(ص) ست مرات اثنان منها مع لفظة (أبي)، وأربعة بالاسم "محمد"، وقد ورد بصفة النبي ثلاث مرات وبصفة الرسول خمس مرات وصفة الصفي مرتان وتوزعت الصفات (أمنينه وخيرته ورضيه) على مرة واحدة.

من ذلك فان كلمة "محمد" قد زاد ذكرها عن التوصيفات الأخرى في خطاب السيدة الزهراء ع، ولما كانت القاعدة في القرآن الكريم هي ذكر الرسل بأسمائهم نحو ذكر اسم عيسى (ع) (٢٥) مرة وذكر موسى (١٣٦) مرة فضلاً عن ورود اسم النبي العربي محمد(ص) أربع مرات ومرة خامسة باسم أحمد[٢].

فإن خطاب الزهراء (ع) اقتفى أثر الخطاب القرآني في هذا السياق لما يتضمنه اسم محمد(ص) من بعد دلالي وحجاجي، لاسيما أن لفظ " محمد" جاء في سياق الأخبار التوكيدي في موضعين (أبي محمد) لما في هذه النسبة من موطن حجاج على القوم، كما أن العدول من اسم العلم إلى اسم الجنس الواقع صفة في المواضع التي ذُكرت تحمل في مضمونها بُعداً دلالياً حجاجياً.

وقد ورد اسم العلم محمد في المواضع الأربعة التي ذُكر فيه صفة الرسول ليجعل توازناً معرفياً استدلالياً على الاسم في قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[٣]، ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾[٤]، ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[٥]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[٦].

---

(١) ينظر: م.ن: ٤٦.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن: ١٧٥.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

(٤) الأحزاب: ٤٠

(٥) محمد: ٢

(٦) الفتح: ٢٩

وهكذا الأمر في خطاب السيدة فاطمة (ع) جاء اسم (محمد) في موضعين مع لفظ (أبي) فكان موطن حجاج بالنسبة.

وأربع مرات جاء قائماً بذاته لتوازي ما جاء في الخطاب لقرآني وجاء العدول إلى الصفة (الرسول) في خمسة مواضع وهو موطن حجاج آخر لتضمين الصفة معنى في المسمى به وهو انه مرسل من الله (الرب) للبشر أي أنه صاحب رسالة وهذا بحمولته الفلسفية يقتضي الطاعة بما يأتي.

فضلاً عن ذلك فان اسم محمد بذاته اسماً منقولاً عن صفة فقد جاء في اللغة معناه "الذي كثرت خصاله المحمودة"[١].

ومن ذلك فان اسم "محمد" ينطوي على توصف جوهري دون شك فقد جاء عند الراغب الأصفهاني، وقوله عز وجل ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٢] فأحمد إشارة إلى النبي(ص) باسمه وفعله ونسبته على انه كما وجد اسمه أحمد يوجد هو محمد وفي أخلاقه وأحواله وخصّ لفظة أحمد فيما بشر به عيسى (ع) تشبيها انه أحمد منه ومن الذين قبله. وقوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[٣] فمحمد ههنا وإن كان من وجه اسماً له علماً ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه.

ويحقق العدول في خطاب الزهراء (ع) من اسم محمد إلى صفة "الرسول" في مواضع خمسة: إذ يحقق سمة دلالية عميقة تعطي فضاء الخطاب وتؤكد خاصية اسم العلم "محمد" الذي كان يتعمد خصومه من المشركين وغيرهم بمناداته به إنكاراً منهم لصفة "محمد" الذي تحقق له وضعاً شرعياً للنهوض بالرسالة والتبشير بها[٤].

لذلك جاءت لفظة "الرسول" في خمسة مواضع في الخطبة تلاحق لفظة محمد "بنية الحجاج" محققة بذلك مؤدىً قصدياً في الخطبة، هو تذكير القوم وتنبيههم من غفلتهم في حال تناسوا أن المتكلم هي من تلقت أسولها من وحي هذه الرسالة.

فقد جاء في قولها الحجاجي "اعلموا أني فاطمة! وأبي محمد. أقول عوداً وبدءاً. ولا قول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططا"[٥].

---

(١) لسان العرب: ابن منظور مادة (ح. م. د).

(٢) الصف: ٦.

(٣) الفتح: ٢٩.

(٤) أسباب النزول. أبو الحسن الواحدي، تح: السيد الجميلي. دار الكتاب العربي. بيروت، ط٢، ١٩٨٦م: ٣٠٣، ٤٠٠.

(٥) فاطمة من المهد إلى اللحد: ٢٦٤.

وورد لفظة الرسول أكثر من غيرها من الصفات في الخطبة تأتي في سياقات الأمر بالطاعة وفي سياقات التشريع[1].

ولكلمة النبي في خطاب الزهراء (ع) بعدها الحجاجي فقد وردت في موضعين هما:

ثم قبض الله إليه قبض رأفة واختيار
ورغبة وإيثار.......
صلى الله على أبي
نبيّه، وأمينه على الوحي وصفيّه
وخيرته من الخلق ورضيّه[2]

إذ يمثل لفظ "نبيّه"، وما بعده حجاج تعددت فيه الصفات الأخرى لمحمد(ص) حققت شرطاً مهماً من شروط الترابط في لسانيات الخطاب وهو "التطابق الإحالي"[3] والإحالة هي "التي تعبر عنها الضمائر المحيلة إلى الأشخاص"[4] بوجود الضمير (الهاء) العائد إلى النبي محمد(ص)، فقد ارتبطت خمسة صفات متلاحقة مؤكدة كمال المبنى الرسالي بواقع ثبوتية تلك الصفات على ما استودعه الله عند رسوله محمد(ص).

أما الموضع الآخر الذي ذكر فيه لفظة " نبيه " فقد جاء في قولها (ع):

فلما اختار الله لنبيّه (ص) دار أنبيائه
ومأوى أصفيائه.
ظهر فيكم حسكة النفاق
وسمل جلباب الدين
ونطق كاظم الغاوين..... إلى آخر المقطع[5].

وقعت لفظة "نبيه" في هذا الخطاب ضمن مديات الفضاء الزمني بمجيء "لما" الظرفية بمعنى "حين" ويتلوها فعل الاختيار (فلما + اختار) ترتب على هذا وقوع فعل آخر هو "ظهر" عطفت عليه الأفعال الأخرى التي فتحت آفاقاً دلالية للموقف السلبي تجاه موضوع الخطاب للسيدة الزهراء (ع).

تحقق في تواتر الأفعال شرط ترابطي مهم هو الترتيب الزمني، ففعل الاختيار من الله سبحانه وتعالى لرحيل الرسول محمد (ص) من فضاء العيش للأمة إلى منزل الآخرة ترتب على

---

(١) كما في سياق الآية الكريمة (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) (المائدة: ٦٧).

(٢) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٦٣.

(٣) ينظر: لسانيات النص: ٣٢.

(٤) م. ن: ٤٦.

(٥) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٧٨.

ذلك زمنياً ظهور أفعال من القوم إذ لو كان الرسول (ص) في حيز الوجود الدنيوي لما تحققت تلك الأفعال.

وفي ذلك تحقق شرطاً مهماً من شروط الترابط هو شرط الترتيب الزمني[١]، في متتالية الأفعال في النصّ الخطابي في هذا الموضوع.

والمضمون الدلالي لوقوع الترتيب الزمني لمتوالية الأفعال أدخل لفظة "نبيّه" الحجاجية في سياق بنية الخطاب التي تقوم على علاقة السبب والنتيجة، ففعل الاختيار كان سبباً لفعل الظهور ومعطوفاته بوصفها نتيجة ترتبت على فعل التسبيب وهنا تحقق الشرط الآخر من شروط "الترابط" في علاقة السبب والنتيجة[٢].

٢ ـ العدول في تسمية جهة المُخاطب:

تنوعت أساليب توجيه الخطاب بالنسبة إلى جهة المخاطب (المتلقي) بتغير المقام الذي توجه فيه السيدة الزهراء (ع) موضوع خطابها، فكان بين التوجيه العام لجمهرة السامعين وبين التوجيه الخاص لفرد مثل أبي بكر أو فئة محددة من الناس، وقد احتملت كل بنية توجيه خطابي حمولة فلسفية حجاجية بواقع الموضوع المحتج به ومثال ذلك خطابها (ع) في مجلس أبي بكر:

أنتم – عباد الله نصب أمره ونهيه.

وحَملة دينه ووحيه

وأمناء الله على أنفسكم

وبلغاؤه إلى الأمم[٣].

وهذا خطاب خاص إلى مَن شاهد الرسول (ص) وتلقى الأحكام منه مباشرة وكان العدول في تسمية هذه الجهة إلى عنصر إشاري متمثلاً بالضمير (أنتم) بما يحتمل من وظيفة حجاجية (المثال الحجاجي) نقلت الخطاب من الخاص في تسمية الأفراد المعنيين بحمل ما تركه الرسول(ص) من الدين وإيضاح الحقيقية في ما تلمسوه من الرسول(ص): إذ ان هذه الوظيفة حققت شرط المحاجة وهو "التعميم" الذي ينقل فضاء الخطاب من الخاص إلى العام ويفتح أفق التلقي للجمهور ولا ينحصر في الفرد وان كان معنياً فـ"رغم أن الخطيب يعلم انه إنما يخاطب جمهوراً خاصاً فانه يقدم له خطاباً يسعى إلى أن يتجاوز الحدود الضيقة ويتعدى ذلك الجمهور الخاص إلى جماهير أخرى ممكنة، واضعاً في حسبانه – ضمنياً – ما تنتظره

---

(١) ينظر: لسانيات النصّ: ٣٢.

(٢) ينظر: م.ن: ٣٢

(٣) فاطمة من المهد إلى اللحد: ٢٤٧.

تلك الجماهير وما يمكن أن تعترض عليه، وعلى هذا لا تكون مخاطبة الجمهور الخاص خطاب العام مخاطبة يُقصد بها إلى مخادعة ذلك الجمهور وإنما هو سبيل مجاوزة الحدود الضيقة، فبهذا يقاس مدى نجاعة الحجاج"[1].

وخطابها لأبي بكر "يا ابن أبي قحافة" بنية حجاج تضمنت عدم شرعية بتوصيفه خليفة الرسول (ص) لأنه لم يستخلفه، ولم تكنه باسمه (أبي بكر) لتقطع عليه سبل الإحساس بالتعظيم، فوقفت على هذه النسبة من حيث مبدأ الاختيار، و"هي عملية طبيعية إيحائية تقوم على إمكان استبدال آية كلمة بكلمة أخرى، وهي ممارسة اختيارية تحدث انطلاقاً من السلسلة العمودية، حيث يمكن أن تحل كلمة محل كلمة أخرى لتشابه صوتي أو صرفي أو دلالي"[2].

والعدول عن الصفة والكنية إلى النسبة التي خرجت إلى دلالة التحقير والتصغير الموجهة إلى رئيس المجلس.

أما البنى الحجاجية الأخرى (أيها الناس، أيها المسلمون، يا معشر النقيبة، بني قيلة، معاشر الناس) فقد تنوعت بين الخاص والعام بمقتضى المقام.

فتأتي حركة كلمتي (معشر النقيبة) ويُقصد بهم جماعة (الأنصار) و(بني قيلة) ويُقصد بهم الأوس والخزرج بناءً على خصائصهما في المستوى التداولي الاستعمالي في ذلك الوقت، فالزركشي يقول: "قد يكون للشخص اسمان، فيقتصر على أحدها لنكتة"[3]، فكان خطاب السيدة الزهراء (ع) لهاتين الفئتين خطاباً قصدياً يراد به التعظيم لأمرهم من جهة والتنبيه لغفلتهم من جهة أخرى.

وقد ورد هذا المعنى في السياق القرآني في مخاطبة الكتابيين فلم يذكروا بالقرآن إلا بـ(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) دون ذكر (يا بني يعقوب) لما تتضمنه دلالة لفظة "إسرائيل" اللغوية من بُعد حجاجي، ففي إشارة الزركشي إلى ما في تسمية (بنو إسرائيل) في رأيه للتذكير والموعظة والتنبيه والدعوة والتحريض[4]، حيث ذكر الزمخشري بأن "إسرائيل هو يعقوب (ع) لقب له ومعناه في لسانهم صفوة الله وقيل عبد الله"[5].

---

(1) Olivier reboul, introduction alarhetorigue, op. cit. pp 101-102.

نقلاً عن الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٢٠٥.

(٢) اللسانيات وتحليل النصوص: ٤٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي: تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢: ١٦٠/١ - ١٦١.

(٤) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٢٢٣.

(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود الزمخشري، الدار العالمية للطباع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٨م: ٢٧٥/١.

وقد توافقت بنية الحجاج في هذا المؤدى في خطبة الزهراء (ع) مع النصّ القرآني وهذا يؤكد أن القرآن الكريم هو المعين الأساس والمصدر الملهم لثقافة الزهراء (ع).

والعدول إلى العام في بنية الحجاج "أيها الناس، أيها المسلمون، معاشر الناس"، فموطن الحجاج ينفتح على فضاءات الجمهور متجاوزاً الشخص المعني أو الأشخاص المعنيون إلى "جمع الناس" لتنفتح دلالاتها بالاتساع والشمول محققاً غرضاً حجاجياً مطلقاً يشمل الجميع بلا استثناء محملة (ع) إياهم ظلامتها ومحذرة لهم اشتراكهم في الجرم مع مَن بيده الحكم وفي ذلك تحقيق لمؤدى التحذير والإنذار.

ففي بنية (أيها الناس) تقول (ع):

أيها الناس

اعلموا أني فاطمة

وأبي محمد

أقول عُوداً وبدءاً

ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً[1].

وفي بنية "أيها المسلمون" التي وقعت في نهاية فقرة خطاب الزهراء (ع) ويحمل دلالة التأنيب والتحذير بالاستفهام الاستنكاري في قولها (ع):

أيها المسلمون: أأغلب على إرثي[2].

وبنية "معاشر الناس" في المقطع الأخير من خطبة الزهراء (ع) حيث يئست من نصرة القوم للحق واستمكان التخاذل من أنفسهم تقول (ع):

معاشر الناس

المُسرعة إلى قبل الباطل

المُغضية على الفعل القبيح الخاسر[3].

وتنطوي بنية الحجاج في هذا المقام على دلالة التقريع والإنذار بعاقبة السوء تجلى ذلك في قولها (ع):

لتجدنَّ ـ والله ـ محمله ثقيلاً

وغبَّه وبيلاً

إذ اكشف لكم الغطاء وبان ما وراءه الضراء[4].

---

(١) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٤٦.

٢) م.ن: ٢٨٠.

٣) م.ن: ٣٢٤.

(٤) م.ن: ٣٢٤.

تضمنت البنى الحجاجية في جهة المُخاطِب شروطاً عدة من شرائط تحقيق "الترابط" تمثل ذلك في احتفاظ السياق الخطابي بالتراتب الزمني وفق القضايا الآتية:

١- ذكر بعثة الرسول ومنجزه الرسالي[١]. (أنتم)

٢- تذكيرهم بحفظ الأمانة من بعده(ص)[٢]. (أيها الناس)

٣- تعرضت (ع) لبخس القوم حقها في الإرث[٣]. (أيها المسلمون)

٤- محاججة رئيس القوم في بخسها حقّها في إرثها في ضوء القرآن الكريم[٤] (يا ابن أبي قحافة).

٥- تذكير الأنصار بمواقفهم الحسنة مع الرسول(ص)[٥] (يا معاشر النقية).

٦- تنبيه الأوس والخزرج من غفلتهم وتذكيرهم بمواقفهم البطولية مع الرسول (ص)[٦] (بني قيلة).

٧- خطاب جمعي لجميع ما ذكر مؤداه التوبيخ والتهديد[٧] (معاشر الناس).

إن تواتر الموضوعات التي أشارت إليها السيدة فاطمة (ع) في خطابها اتسم بترابط الوقائع الذي استجاب إلى الترتيب الزمني فجعلها ترتكز على قاعدة "مشتركة" تنفعل فيها تلك العلاقات لتشكل بؤرة حجاج للقوم تتمثل بالموضوع الرئيس في الخطبة وهو المطالبة بحق قد سُلب، وهي قضية الإرث التي عارضوا بها النصّ القرآني ومنعوا عليها (ع) حقّها وهذه القضية تمثل "القاعدة المشتركة" للنصّ الخطابي فما "يترتب عن هذا اننا نؤول العلاقات بين الوقائع بالنظر إلى قاعدة مشتركة"[٨].

وشرط آخر تحقق في هذه المتوالية الموضوعية الحجاجية هي التعالق بين الوقائع التي أدرجتها السيدة الزهراء(ع) في خطبتها وارتباطها بموضوع الخطاب الرئيس بتنوع جهة المُخاطَب وموضوع كل مُخاطَب جعلت الترابط في النصّ الخطابي متحققاً فتحقق شرط تعالق

---

(١) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد: ٢٣٥.

(٢) م. ن: ٢٤٧.

(٣) م. ن: ٢٨٠.

(٤) م. ن: ٢٨٨.

(٥) م. ن: ٢٨٩.

(٦) ينظر م. ن: ٣٠١.

(٧) م. ن: ٣٢٤.

(٨) فان ديك text and context: ١٩٧٧م/٤٩.

نقلاً عن: لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب: ٢٣.

الوقائع يُعدُّ الشرط الأدنى لترابط القضايا التي تعبر عنها جملة أو متتالية هو ارتباطها بموضوع (موضوعات) التخاطب نفسه"[١].

٣ ـ الحجاج في بنية التركيب:

١ ـ تمظهرت بنية التوكيد في خطاب السيدة الزهراء (ع) في مواطن عدة، وقد جاءت في الخطاب موطن حجاج تنوعت بتنوع الموضوعات التي وردت فيها ومنها.

وردت "قد" في مقام اختيار الله سبحانه وتعالى لرسوله الأعظم محمد (ص) إلى مقام الخلود ورفعه من دار الدنيا التي لم يألُ جهداً لهذا في تحقق منجز الرسالة وبيان مقامه الرفيع في الدار الآخرة بعد إتمامه الدين وإكمال الشريعة.

ففي قولها (ع):

فمحمد(ص) من تعب هذه الدار في راحة

قد حفَّ بالملائكة الأبرار

ورضوان الرب الغفّار

ومجاوره الملك الجبّار[٢].

وفي سياق الإخبار عن رضا الله سبحانه وتعالى عن رسوله محمد (ص) جاءت بنية التوكيد (قد) في النصّ الخطابي لتؤكد حكم الخبر الذي ألقته على مسمع القوم وجاءت بنى المجاورة بالمصادر (رضوان) و(مجاورة) لتؤكد ذلك المقام السامي الذي انزل الله به نبيه (ص).

أما الموطن الحجاجي الآخر الذي ورد فيه بنية التوكيد (قد)، فكان في معرض انقلاب حال القوم بعد موت الرسول محمد(ص) ورغبتهم عن إحقاق الحقّ وقد لُبس الباطل عندهم بلباس الحقّ فأغرتهم مطامع الدنيا وحادتهم عن جادة الحقّ، فجاءت بنية التوكيد "قد" في مقام بيان خذلان القوم وتقاعسهم عن نصرة دين أبيهم: فقد جاء في قولها (ع):

فهيهات منكم!

وكيف بكم؟

وإنّى تؤفكون...

وقد خلفتموه وراء ظهوركم

أرغبة عنه تريدون؟[٣].

---

(١) فان ديك: م. ن: ٥٢.

نقلاً عن: لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب: ٣٤.

(٢) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٣٦.

(٣) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٧٩.

وجاءت بنية الاستفهام الإنكاري في (أرغبة عنه تريدون) مؤكدة لحجاج السيدة الزهراء(ع).

وردت بنية الحجاج (قد) في تركيب الجملة الآتية ترتبط بموضوع الحجاج السابق بإعراض القوم عن تطبيق حدود الله والمتمثل بأمر أبي بكر بسلب السيدة فاطمة(ع) حقها في إرث أبيها (ص) في قولها (ع):

يا ابن أبي قحافة

أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي

لقد جئت بشيئاً فريّا!!

افعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟[1].

١ - جاءت (قد) في سياق المؤكدات المتتالية في النصّ الخطابي الموجه لأبي بكر وهي همزة الاستفهام (أفي كتاب الله) وهذا استفهام خرج إلى دلالة التعجب: فهو "ضرب من الخبر فكأن التعجب لما طرأ على الاستفهام إنما أعاده إلى أصله في الخبرية"[2] فهو تعجب من خبر حكم أبي بكر الذي لم يوافق حكم النصّ القرآني الذي بدأت به الزهراء (ع) لأنّها تعي حكم الله سبحانه وتعالى في النص القرآني بما يتعلق بقضية الإرث وحق الأبناء في إرث الآباء فكيف لحاكم أن يتجرأ على منع حكم الله.

٢ - تقديم الجار والمجرور (في كتاب) لبيان أهمية موطن الاستفهام في ما يتعلق بكتاب الله لأنه هو الفصل في الحكم كي يتبين كذبه إذا لم يقدر على إثباته في كتاب الله وقد وضعت الزهراء(ع) المُخاطَب بهذا السياق كي تضيق عليه، وليظهر كذبه حين لا يستطيع إثبات حجته.

وجاء في مثل هذا الموطن في كلام العرب "للرجل يَدّعي أمراً وأنت تنكره (متى كان هذا؟ أفي ليل أم نهار؟ تضع الكلام وضع من سلمَ أن ذلك قد كان، ثم تطالبه ببيان وقته، لكي تبين كذبه إذا لم يقدر أن يذكر له وقتاً ويفتضح"[3].

٣ - إن المصدرية في التركيب نفسه (أن ترث) التي دخلت على موضوع الحكم وهو الإرث وقد جاء التوكيد بهذا السياق لأن الفعل ترث، الفعل المضارع فيه دلالة التجدد فـ"كونه

---

(١) م. ن: ٢٨٨.

(٢) الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٥هـ)، تح: محمد علي النجار، بيروت، ب.ت: ٢٦٩/٣.

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١م: ٨٢.

فعلاً فيستفاد منه التجدد"[١] تنفيذ الحكم الشرعي في التوريث بما يتعلق به وعدم تنفيذه فيما يتعلق بحكم توريث الزهراء(ع).

٤ - اللام الموطئة للقسم جاءت مع قد (لقد) والجملة بعدها تكون جواب للقسم مُقدَّراً، لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٢] وهنا دخلت على الفعل الماضي فأفادت تحقيق معناه[٣].

٥ - التوكيد بالصفة فريّا: ولغةً ترد فريّا: وفرّ الشيءَ يفْريه فَرْياً وفرّاه كلاهما شقّه وأفسده، وحكى ابن الإعرابي وحده فرى أوداجه وأفراها قطعها قال والمتقنون من أهل اللغة يقولون فرى للإفساد[٤].

فجاءت لغةً لتؤكد عظيم فساد الشيء وسوءه الذي تحقق وقوعه بدخول "قد" على الفعل الماضي "جئت".

وبنية التوكيد بالقسم المقدر و"قد" التحقيق والصفة جاءت نتيجة حتمية سبب وقوعها بنية الاستفهام التعجب في سياق الجملة الإسمية التي حصل فيها انزياح بأسلوب التقديم والتأخير ووقوع فعل موضوع الخطاب وهو الإرث، وبذلك تحقق شرط مهم في ترابط النصّ وهو وقوع السبب والنتيجة في بنية الحجاج وقد حققت مجموعة المؤكدات في بنية النصّ كمّاً حجاجياً أثرى المؤدي العقيدي الإبلاغي لموضوع الخطاب في دحض حكم أبي بكر في قضية عدم توريث الزهراء (ع) وإلقاء الحجة عليه في تجاوزه الحدّ الشرعي في ذلك وخروجه عن حفظ النصّ الإلهي كونه خليفة المسلمين.

- التوكيد "بأن":

جاءت في بنية الحجاج أني فاطمة في سياق قولها(ع):

أيها الناس!

اعلموا أني فاطمة!

وأبي محمد

أقول عوداً وبدءاً

ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً[٥].

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م: ٨٦.

(٢) الأحزاب: ٢١.

٣) ينظر: جامع الدروس العربية: الشيخ مصطفى الغلاييني. ضبطه: محمد فريد. المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر: ١٨٧/٢ - ١٨٨.

(٤) ينظر: لسان العرب: مادة (فرا).

(٥) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٦٤.

جاءت بنية الحجاج (إني فاطمة) في مقام التجديد والتنبيه للقوم والتذكير بأفعال الرسول(ص) وعمله الدؤوب من أجل تبليغ الرسالة وكسر قيد العبودية وما آل إليه من مشقة في سبيل إعلاء كلمة الحقّ ونصرتُ الدين.

جاء توكيد حجاج السيدة الزهراء(ع) بـ"إن" وهي من أدوات التوكيد المهمة، وهي الأصل فيه[١]. وهي "من مؤكدات الحكم في الضربين الطلبي والإنكاري من أضرب الخبر"[٢].

جاءت نبية التوكيد (أن) مؤكدة لموضوع الحجاج في تنبيه المخاطبين من غفلتهم عن إنها ابنة النبي والرسول الأعظم(ص) وقد حملت هذه البنية مؤكداً آخر المتضمن في بنية "أبي محمد" التي تشمل في دلالاتها العميقة على توصيفات شتى لمحمد النبي المرسل.

وترتبط هذه البنية مع بنية تؤكد بأن أخرى في النصّ الخطابي تتعلق بشخص السيدة الزهراء(ع) وبموضوع الخطاب (الإرث) التي ترتبط به البنيات الأخرى: إذ جاءت بعد بنية حجاج (وقد خلفتموه وراء ظهوركم)[٣]، تجاوزهم لكتاب الله في إعطاء الحقوق وفي ذلك رغبة عن القرآن الكريم باتباع الشيطان بانتهاك حرمة كتاب الله وتبجحهم بإنكار حقّ التوريث لفاطمة(ع) في قولها(ع):

وأنتم الآن - تزعمون أن لا إرث لنا -[٤].

في هذه البنية جاءت أن المؤكدة مع "لا" النافية للجنس التي "تدل على نفي الخبر عن الجنس الواقع بعدها على سبيل الاستغراق، أي إيراد بها نفيهُ عن جميع أفراد الجنس نصاً، لا على سبيل الاحتمال، ونفي الخبر عن الجنس يستلزم نفيهُ عن جميع افراده"[٥].

وفي هذا السياق فإن "لا" قد نفت أحقية الإرث لعموم أهل الزهراء (ع) والمعنيون هنا أهل البيت (ع) لتجريدهم من كل مورد اقتصادي يمكن أن يقوي شوكة أمير المؤمنين (ع) على مقارعة مَنْ سلبوه حقّه في الولاية.

---

(١) ينظر: الشامل، محمد سعيد أمير وبلال جنيدي: ٣٧٢ (مادة التوكيد أو التأكيد)

(٢) معجم البلاغة العربية بدوي طبانة، دار المنارة، دار الرفاعي، السعودية، ط٣، ١٩٨٨م، مادة (إنّ).

(٣) فاطمة من المهد إلى اللحد: ٢٧٩.

(٤) م. ن: ٢٨٠.

(٥) جامع الدروس العربية: ٢/ ٢٢١.

ولما كانت آن تأتي لتأكيد الإثبات والمبالغة فيه[١]. فإنها في سياق النصّ هنا تؤكد مزاعم القوم في سيرهم قدماً في تجريد آل البيت (ع) من حقّهم الاقتصادي المتمثل في توريث فدك إلى السيدة فاطمة (ع).

وفي نوع أخر من الحجاج في التركيب ما جاء في العدول من الجملة الإسمية إلى الجملة الفعلية في سياق الخطاب الموجه إلى عامة الناس بجميع أصنافهم من عليّة القوم ومن الأنصار والمهاجرين والأوس والخزرج وما شاكلهم في سياق حديث الزهراء (ع) من مآثر الرسول في إنقاذه للأمة ومؤازرة في ذلك ابن عمه وأخيه الإمام علي(ع)؛ إذ تقول في ذلك:

قذف أخاه في لهواتها

فلا تنكفئ حتى يطأ صحافها بأخمصه[٢].

والقوم في شُغل عن ذلك، فجاءت بنية الحجاج في التركيب النصّ الخطابي في قولها(ع):

وأنتم في رفاهية من العيش

واعون فاكهون آمنون

تتربصون بنا الدوائر

وتتوكفون الأخبار

وتنكصون عند النزال

وتفرّون من القتال[٣].

فجاءت بنية الحجاج في الجملة الاسمية تؤكد حكم ثبوت القوم في رفاهية عيشهم.

وجاءت أسماء الفاعلين (وادعون فاكهون آمنون) بنيات خبرية تؤكد كون المُخبَر عنهم في تلك الرفاهية من العيش غير مبالين بغيرها لنصرة الدين و إقامة العدل. وجاءت أسماء الفاعلين في سياق المجاورة التي تترابط ببعضها بعلاقة تكامل لأحوال هؤلاء القوم لتمثل وحدة وصفية كلية لحال القوم، وعندما يتحول الخطاب بالتوجه إلى فئة الزهراء(ع)، فإن تركيبة الجملة يتغير من الاسمية إلى الفعلية بالأفعال (تتربصون وتتوكفون، تنكصون، تفرّون) لما في الفعل المضارع من دلالة التغير والحدوث والاستمرار في هذه الأفعال باتجاه فاطمة(ع) وأهلها فهم لا يألو جهداً في إيقاع دلالات تلك الأفعال على أهل البيت (ع). وتوالى الأفعال المتجاورة

---

(١) ينظر: م. ن: ٢/ ٢٢١.

(٢) فاطمة من المهد إلى اللحد: ٢٢٦.

(٣) م. ن: ٢٦٧.

جاءت في سياق بنيات تؤكد وضعيتهم بوصفها بنى حجاجية كشفت عنها السيدة الزهراء(ع) وأزاحت الستار عن الحقائق التي عنها هم غافلون.

وتقديم بنية الحجاج بالجملة الاسمية على الجملة الفعلية بما فيها من إخبار مؤكدة انغماس القوم في رفاهية عيشهم، وقد أورد الزركشي عن زين الدين التنوخي في مقام القيمة الإخبارية يقول "إذا قصدوا مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية وان أكدوا فبالاسمية"(١).

وفي هذه الحالة فإن العدول من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية في خطاب الزهراء(ع) في هذا النصّ يكشف عن دلالة عميقة في أن الحراك المستمر بشتى الأفعال السلبية التي تنتج من القوم باتجاه الزهراء وأهل بيتها(ع) إنما هو حراك يتعقب صاحب الفعل ولا يؤدي مبلغه في تأثيره على أهل بيت الرسول لما فيهم من ثبات مصير وعمق إيماني والحقيقة الثابتة في هذا النصّ هو نزوع هؤلاء القوم باتجاه ما يُؤَمِن أهم العيش الرغيد دون الالتفات إلى صيانة الدين والذود عنه.

وفضلاً عن الوظيفة الحجاجية للجملة الاسمية في الكشف عن ماهية القوم وأحكامهم الجائرة على أهل بيت الرسول (ع) فإن للجملة الاسمية لها وظيفة حجاجية أخرى على قول بْرِلْمان وتيتيكا "محاولة لجعل ما نقوله يقع خارج دورة الزمان. فلا تلابسه ذاتية ولا يداخله انحياز"(٢).

وفي هذه الحالة تكون أقوالنا بمنزلة الحقائق والمسلمات(٣). وهذا ما أرادت السيدة الزهراء(ع) أن تحتج به على القوم.

٤ ـ الحجاج في البنية القرآنية:

انطلاقاً من الفكرة البديهية التي تعِدّ القرآن خطاباً، وهذا يقتضي بالضرورة الإقناع والتأثير، مما يدّل على أنّ هناك طرفان لإتمام الخطاب يتمثلان بالمتكلم والسامع مع وجود قصدية الإقناع والتأثير، وقد بيَن الزركشي في إنّه ما يثبت انه خطاب كثرة وقوع المخاطبات في القرآن حتى عرفت في القرآن "علماً من علومه"(٤)، والأمثلة في هذا المقام كثيرة نورد منها قوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٥)، ومخاطبة "بني إسرائيل" أو "أهل الكتاب".

---

(١) البرهان في علوم البلاغة: ٣٩١/٢.

(2) Chaim Perelman etlucie obrechts. Tyteca, traite de l'ar gumentation, op. cit. p. 246.

نقلا الحجاج في القرآن: ٤٤٠.

(٣) ينظر: الحجاج في القرآن: ٤٤٠.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢١٧/٢ ـ ٢٥٣ (في وجوه المخاطبات في القرآن).

(٥) الكافرون: ١.

وإذا كان القرآن يحمل في مضمونه أدوات التغيير أي أنه كتاب "إصلاح"، فيكون في هذه الحالة حجاجاً دون شك[١]، إذ أنّ من تعريفات الحجاج أنه "عمل غرضه دائماً أن يغير وضعاً قائماً"[٢].

وفي ضوء هذه المقدمة الوجيزة عن بنية القرآن الحجاجية في ضوء النظرية الحجاجية وذلك يتلمس معاني القرآن الكريم في الآيات التي سيقت في خطاب السيدة الزهراء (ع) وارتباطها بالقاعدة المشتركة في ضوء لسانيات الخطاب وهو موضوع الخطاب الأساس في قضية توريث السيدة الزهراء ع، وسلبها حقّها في الإرث فقد أشبعت نصّها الخطابي بالعديد من الآيات القرآنية التي يتوائم معناها وتتفق دلالاتها مع العنصر الخطابي في كلّ مقام وبالحساب الرياضي فقد أوردت الزهراء (ع) ثمانية عشرة آية صريحة وثلاث آيات متضمنة في النصّ جاءت بنى حجاجية في سياق الموضوعات التي طرحتها السيدة الزهراء في خطبتها (ع).

ومن أهم الشروط التي يمكن إجرائها في الحجاج في البنية القرآنية في ضوء منظور لسانيات النصّ في محور "الترابط" هو شرط "تعالق العوالم الممكنة" بين البنى القرآنية في فضاء النصّ الخطابي للزهراء (ع)، وقد اخترت بعض الآيات بوصفها أنموذجا لاستظهار تحقق هذا الشرط المهم لتأكيد ترابط وحدات نصّ الخطاب.

جاءت البنية التركيبية، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء[٣].

في سياق المؤكدات إنّ، إنما، التقديم والتأخير، لترتبط الدلالات ببعضها من أجل إظهار العناية لبعض عباده وهم "العلماء" الذين يعوّن بمعرفتهم كيفية حفظ الدين وصيانة كتاب الله وحفظ مقام النبوة، وحفظ أركان الإسلام، وإطاعة أهل البيت لأنهم النظام المتكامل الذي يحفظ للأمة هيبتها المتمثلة بـ"الإمامة" وجميع الأحكام الشرعية التي وجه إليها الخطاب القرآني، فكان موطن الحجاج في سياق تضمين البنية القرآنية في النصّ الخطابي هو "العلم بالشيء والمعرفة به" في إطار لساني هو "السبب والنتيجة" فيكون الإلزام بطاعة الله وتنفيذ أمره هو السبب وتحصيل النتيجة يكون في عامل الخشية من ذوي المعرفة.

وسأعرض للآيات القرآنية تباعاً متضمنة موضوع الحجاج فيها من ثم استظهر فضاءات الترابط الموضوعي بتحقق شرط "تعالق العوالم الممكنة" التي تتعلق بموضوع مكونات النصّ الخطابي بوحدته الكلية والخروج إلى نتيجة ذلك التعالق.

---

(١) ينظر الحجاج في القرآن: ٤٣.

(7) Perelmanet ettyteca - traite de largument ation op. – cit. – p 73.

نقلا عن الحجاج في القرآن: ٤٣.

(٣) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٤٩.

١. ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة ١٢٨) (الخطبة)[١].

جاءت في سياق التوكيدات بنسبة السيدة فاطمة (ع) إلى بيت الرسالة.

٢. تضمين الآية الكريمة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله[٢].

جاءت في سياق إثارة الفتن مما وصفتهم (ع) بمردة أهل الكتاب، فيكون الإمام علي (ع) هو المتصدي لإخماد لهيبها بسيفه بلحاظ الصورة البلاغية في القول.

٣. ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة/٤٩) (الخطبة)[٣].

جاءت في سياق الحجاج على الأمة بانقلابهم بعد وفاة الرسول (ص) وظهور الشيطان بين أضلعهم.فكانت بنية الحجاج على خروج القوم عن النصّ الإلهي وأنهم غير حافظين لحكم الله فلا مشروعية لحكمهم بعد إذ.

٤. ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (الكهف/٥٠).

٥. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران/٨٥).

٦. ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ (المائدة/٥٠). جاءت في سياق الحجاج في قولها (ع) "وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا"[٤].

٧. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة/٥٠) (الخطبة)[٥].

اجتمعت هذه البنى القرآنية (٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧) الحجاجية بعلاقات تعالق الوقائع الممكنة من حيث تسلسل الموضوعات الحجاجية التي احتجت بها (ع) بالبنى القرآنية بوقائعها التراتبية من حيث وقوعها زمانياً وما ترتب من أثر السابقة على حدوث الواقعة التي تليها مُشكّلة لمجموعة علاقات موضوعية كشفت عن غاية القوم بسلب الزهراء (ع) حقّها وكشفت أيضاً عن الدلالة العميقة من ذلك الحكم الذي خرجوا به عن النصّ القرآني متمثلاً بقطع أيّ مورد اقتصادي لبيت آل الرسول (ص) ممكن أن يعينهم على استرداد الحكم باعتبار ان العامل الاقتصادي هو عصب إقامة الدول ومورد مهم لديمومتها.

---

(١) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٤٩.

(٢) م. ن: ٢٦٦.

(٣) م. ن: ٢٧٩.

(٤) م. ن: ٢٨٠.

(٥) م. ن: ٢٨٠.

وعلاقات تعالق الوقائع المتحققة في اجتماع البنى القرآنية في هذا المقام وهو شرط أساس من شروط تحقق "الترابط" في منظور لسانيات الخطاب؛ فتدرجت السيدة الزهراء (ع) من الخطاب الكشفي عن واقع القوم بعد وفاة نبيهم (ص) وكيف أنهم رغبوا عن كتاب الله وطاعة نبيهم وكيف وقعت فيهم الفتنة وتمكن الشيطان منهم فجاروا في أحكامهم في قضية توريث الزهراء (ع).

وفي الخطاب الخاص الذي وجهته (ع) إلى "ابن أبي قحافة" في هذا المقام ودحض حجته الضعيفة في أنّ الأنبياء لا يورثون ضمنت (ع) خمسة آيات تتعلق بأحكام التوريث[١] في:

١. ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (النمل/من الآية ١٦).
٢. ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ (مريم/من الآيتين ٥ ـ ٦).
٣. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال/من الآية ٧٥).
٤. ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء/من الآية ١١).
٥. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: من الآية ١٨٠).

وتستمر السيدة الزهراء (ع) بحجاجها القرآني[٢]، إلى البنيتين القرآنيتين في آخر النصّ الخطابي[٣] في ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد/٢٤).

جاءت في سياق الحجاج على قبح أعمالهم التي أعمت بصيرتهم.

والآية ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر/من الآية ٧٨).

ومن علاقة موضوع الحجاج بين الآيتين الأخيرتين فإن العلاقة الدلالية في تعالق الموضوعين قام على علاقة "السبب والنتيجة" وهذا شرط مهم من شروط تعالق الوقائع الممكنة.[٤]

نخلص مما تقدم أن الترابط بوصفها علاقة دلالية لتمام النصّ الخطابي وانسجامه قد تحقق بتعالق العوالم الممكنة الذي يعد من أهم شروط توافره في النصّ في الحجاج بالبنية القرآنية في خطبة الزهراء ع.

---

(١) فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: ٢٨٨.
(٢) ينظر: م. ن: ٢٨٩، ٢٩١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٧، ٣١٨.
(٣) ينظر: م. ن: ٣٢٤.
(٤) ينظر لسانيات النصّ: ٣٢.

الخاتمة:

توصّلت الباحثة من سعة فضل الله تعالى ومنّه عليها إلى ثمرات عدّة في دراسة بنية الحجاج من منظور لسانيات الخطاب في خطبة الزهراء (ع). يمكن إيجازها على النحو الآتي:

- كان خطاب نصّ "خطبة الزهراء (ع)" خطاباً أدبيّاً تعبيريّاً يتخذ من الحجة البرهانيّة معماراً بنائيّاً في ميدان اللفظ، والتوليف اللفظيّ ينسج منها أنساقاً متساوقة للإبلاغ موزعة على عناصر الحياة سياسياً واجتماعياً ونفسياً وتربوياً، وهذا ما مكن الباحثة من أن تعتمد البرهان الحجاجي على من خاطبتهم الزهراء"(ع)": وهو أسلوب منطقي فلسفي وجدت الباحثة نصّ "خطبة الزهراء ع" ميداناً أدبيّاً رحباً لتطبيقها.
- يكشف النصّ الخطابيّ في "خطبة الزهراء (ع)" عن حشد دلاليّ مكتنز يحتاج معه إلى ذهنيّة قارئة واعية يقترب من فَهْم مضمونه المعرفيّ لنعي ما تكتنف عليه تلك المفردات المتراصّة، مشكلة تراكيباً تشمل المنظومة المعرفية الكاملة للإسلام، فلم يفتها (ع) قضية قد طرحها الإسلام إلا وحاججت بها القوم، فكان ذلك داعياً لاستجابة المخاطب لمغزى النصّ "الفاطميّ" المنتج بنحو إبهاريّ في غالبه لتميّزه بإشعاعات مفردة النصّ الدلائليّة المُبثة.
- حمل نصّ الزهراء "(ع)" الخطابيّ في داخله وظائف معرفية استُدلَ عليها بالمفردة والتركيب أفصح عنها ذلك البعد العلاميّ للنصّ، فكانت بنى الحجاج بوصفها أدوات كشفية لفضح نسقيّة الواقع الاجتماعيّ المعيشيّ الذي قصر عن مؤازرة السيدة الزهراء (ع) وآل البيت (ع) مرة في سلب الخلافة وأخرى في سلب الزهراء (ع) حقّها في الإرث فكان خطابها توليفاً بنائياً حجاجيّاً في أغلبه.

يعدّ النصّ الخطابيّ في "خطبة الزهراء (ع)" منظومة مفهوميّة متكاملة اشتملت على اللفظ الفريد، والتركيب المنسوج بمؤدّىً وظيفيّ يتنوّع بتنوّع أنساق الكلام: فكانت ذات وظيفة حجاجيّة في أغلبها ووظيفة وإقناعية، وإفهامية فكان إبداع تلك المنظومة شكلاً في جمالية التعبير ومضموناً في أداء الوظيفة.

- بلغت مقولة (المرجعيّة) مبلغ المهيمن على النظريّات النقديّة، وإجراءاتها في تحليل النصوص، والكشف عن دلالته وإشارة المفردات المشكّلة لها كلّها، فكانت مرجعيّة الزهراء (ع) الكبرى تتمثل بالنصّ القرآنيّ، فنصّ "خطبة الزهراء (ع)" نصّ إبداعيّ متحرّك يستوعب كثيراً من النظريّات الإبداعيّة الحديثة، ومنها لسانيات الخطاب بوصفه منبعاً واعياً للرؤية النقديّة الحديثة التي تسبر أغوار النصّ القديم.

المصادر:

- القرآن الكريم.
- أسباب النزول، أبو الحسن الواحدي، تح: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
- الايضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني (٧٣٩هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م.
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي: تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢م.
- جامع الدروس العربية: الشيخ مصطفى الغلاييني، ضبطه: محمد فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ب.ت.
- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.
- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٥هـ)، تح: محمد علي النجار، بيروت، ب. ت.
- الخطابة: أرسطو، تعريب عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.
- الشامل، محمد سعيد اسبر وبلال جنيدي، ب. د. ب. ت.
- فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد: العلامة الخطيب السيد محمد كاظم القزويني، منشورات الفجر، لبنان، بيروت، ب.ت.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود الزمخشري، الدار العالمية للطباع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٨م.
- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.
- لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١م.
- اللسانيات وتحليل النصوص، د. رابح بوحوش، عالم الكتاب الحديث، أربد – الأردن، ٢٠٠٩م.
- معاني القرآن الكريم: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (٣٣٨هـ)، تح: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.
- معجم البلاغة العربية بدوي طبانة، دار المنارة، دار الرفاعي، السعودية، ط٢، ١٩٨٨م.

الأطاريح:

- الاستدلال في كتاب نهج البلاغة للإمام علي (ع) دراسة أسلوبية، فاطمة كريم رسن، كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، بإشراف د. حيدر لازم مطلك، كانون الثاني، ٢٠٠٩م. ❖

أسلوبية البناء في خطبة الزهراء (ع) الخطبة الكبرى مثالاً

أ. م. د. عواد كاظم لفتة الغزي(*)
أ. م. د. علي حسين جلود الزيدي(**)

تمتاز الدراسة الأسلوبية بالبحث فيما يتميز به الكلام الفني عن مستويات الكلام الأخرى، وتحاول استبيان أثر المبدع بالمزج بين الأفكار والأسلوب، وبذلك عقدت الأسلوبية صلات متينة مع العلوم الأخرى، وكانت أقوى صلاتها مع البلاغة حتى قيل قديماً أن البلاغة علم أسلوب الأقدمين[١].

واستثمرت الأسلوبية كثيرا من مصطلحات البلاغة وحولتها إلى معطيات أسلوبية، وأدوات في البحث الأسلوبي[٢]، وعنت الأسلوبية بقضايا البنية اللسانية[٣]، فالدراسة ما إن تُكرّس نفسها في خدمة الأدب حتى تستحيل أسلوبية[٤]، فالأسلوبية إذن (تُبرز خصوصية العمل الأدبي بوصفه وسيلة توصيل رمزية تُثير معنى إدراكياً)[٥] وبذلك تتحرى الأسلوبية الخصائص اللغوية التي يتحول بها الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفة ليقنع ويؤثر في آن واحد[٦].

وقد كانت خطبة الزهراء (ع) (الخطبة الكبرى) خطاباً يتخذ من التأريخ منفذاً للتحول إلى سياق أدبي مقنع للمتلقين ومؤثر في تكوين طائفة من المتلقين تسترجع خزينها الفكري وتتشكل في انساق تتحقق فيها استجابة القارئ، ولا شك في أن الصديقة (ع) (كانت تعيش في عمق شخصية النبي (ص) وتحتل موقعاً جوهرياً في قلبه الشريف إن لم تكن هي قلبه النابض وروحه النورانية)[٧] مما يعني أن الصدّيقة (ع) سهيمن ديني في عصر ما بعد

(*) كلية الآداب. جامعة ذي قار.

(**) كلية التربية للعلوم الإنسانية. جامعة ذي قار.

(١) ينظر: علم الأسلوب، د. صلاح فضل: ١٥٤، الأسلوبية بيير غيرو: ١٧.

(٢) يُنظر: علم الأسلوب: ١٥٦.

(٣) يُنظر: أسلوبية البناء الشعري، ارشد محمد علي: ٢٣.

(٤) يُنظر: الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي: ١٠٤.

(٥) الأسلوبية الصوتية في النظرية والتطبيق، د. ماهر مهدي هلال: ٦٨.

(٦) يُنظر: الأسلوبية والأسلوب: ١٣٦.

(٧) عظمة الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء (ع)، فاضل الفراتي: ٤٦.

الرسول (ص) وقد تجسّد ذلك في بكائها الذي كان مؤثرا دينياً ملفتاً أنظار العالم إليها على أنها هي المخصوصة بالنبي (ص) وهي بقيته في الأرض[١].

وللصدّيقة الزهراء (ع) خطب مأثورة كثيرة منها خطبة المسجد، وخطبة الدار[٢]، ولها نصائح وإفهامات كثيرة للنساء[٣]، وكانت الصدّيقة (ع) كثيرة الاحتجاج بالقرآن، والمحاججة بآياته، كما أنها كانت على علم وفير[٤]، جمعت المصحف، وتولت مهمة بث العلم في المجتمع الإسلامي، ولها حلقات درس لنساء المهاجرين والأنصار، وهي بحق أول كاتبة في الإسلام من الرجال والنساء، وأول من كتب الحديث النبوي[٥] فضلاً عن مصحف فاطمة (ع)[٦] وللصدّيقة الزهراء (ع) شعر ديني كثير[٧].

لقد استثمرت الصدّيقة معارفها الكثيرة وعلمها النافذ في القرآن، وامتلاكها ناصية اللغة في خطبتها وذلك أسلوبٌ رأته مناسباً لتفجير طاقات المسلمين في مختلف المعارف الإلهية، فتوزعت خطبتها بين الحمد والتوحيد والنبوة من جهة واستذكار العصر الجاهلي، وإنجازات الرسول (ص) من جهة أخرى، ومن ثم الالتفات إلى الحاضرين، وسَوق الحديث عن القرآن الكريم، وبيان فلسفة الإسلام وشرائعه، والالتفات إلى طريقة الحكم وطبيعتها في عهد الرسول الكريم (ص)، وقد خصّت في خطبتها هذه طائفة من الحاضرين بالخطاب (المهاجرين والأنصار)[٨].

يلمح البناء الفني في الخطبة الكبرى للصدّيقة الكبرى (ع) إلى تجاور ثلاثة أجناس بنائية يُبنى كل جنس منها فضاءً نصيًا لا يتحايث فيه مع الجنس الآخر، بل يكادان يُفارق بنية الجنس الآخر، وتتشكل في ثلاثة مرتكزات بنائية فنية، يلمح الاستقراء الأسلوبي فيها إلى إمكانية تفكيكها بنائياً إلى الأجناس الآتية:

١- بنية النص النثري

٢- بنية النص القرآني

٣- بنية النص الشعري

---

(١) فاطمة الزهراء (ع) قدوة وأسوة: السيد محمد تقي المدرسي: ٥٩.

(٢) يُنظر: فاطمة الزهراء (ع) أفضل أسوة للنساء، السيد محمد الحسيني الشيرازي: ٣٠. إحياء فاجعة الطف، السيد محمد سعيد الحكيم: ٥١، ٦٣.

(٣) يُنظر: فاطمة الزهراء (ع) من الميلاد وحتى الاستشهاد، عبد الله عبد العزيز الهاشمي: ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٩.

(٤) يُنظر: الزهراء (ع) القدوة، السيد محمد حسين فضل الله: ١٨٦ - ١٨٧.

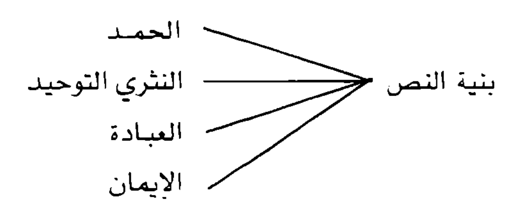
(٥) يُنظر: الزهراء (ع) القدوة، محمد حسين فضل الله: ١٨٨.

(٦) يُنظر: م. ن: ١٨٩ - ١٩٥.

(٧) يُنظر: ديوان السيدة فاطمة الزهراء (ع)، إعداد: حيدر كامل ومحمد شراد حساني.

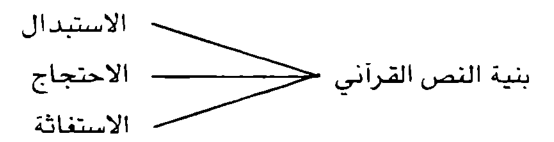
(٨) يُنظر: فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني: ١٦٤، ١٦٥.

وتتقاسم البنيات الثلاث البناء العمودي للخطبة، ولا شك في أن الخطبة الشفوية تُرسَل في بناء ثلاثي (مقدمة وعرض وخاتمة) ولما كان آفق الإرسال وأفق الاستقبال تتحقق فيه ثلاثية الأفق الشفاهي (المرسل والمستقبل والخزين الثقافي) فما من شك في أن هذه البنيات الثلاث ستتجه إلى بؤر بنائية مفارقة لبنية النص، وترتكز في تشكيل بنائي منقطع عن البنيات الأخرى، وكلما كانت البؤرة النصية في بنية النص المنقطع مستقلة عن غيرها كان المهيمن البنائي قارًا في ذاته وبذلك يبدو التشكل الأسلوبي لبناء الخطبة متّشحا بالقصدية الدلالية التي تتيح للباث أن يُشكل مستويات التلقّي تشكيلاً نسقيّاً يُوجب الاستجابة على المتلقّي[1]، إذ تشير البنية النصية النثرية في مقدمة الخطبة إلى اندماجها في جنسها الخطابي مع محاولة كسر أفق التوقع للمتلقي[2]، بوساطة التعالي أسلوبياً على غيرها من مطالع الخطب النثرية في التكثيف والإيجاز، إذ يقوم مطلع الخطبة على بنيات موضوعية متعددة:



ولا شك أنها مقاطع بنائية استدعاها النص النثري في مقدمة خطبة الصدّيقة (ع) لأجل استمالة المتلقي إلى فضاء دلالي مُتَصوَر يتشكل في خزينه الأيديولوجي بعد أن ظل المتلقي يترجح بين فضائين، فضاء تستكشفه الذات في حيزها المجتمعي، وفضاء تُرغم عليه الذات في حيزها العقائدي، فالفضاء المقصود الذي تحاول الصدّيقة (ع) استمالة المتلقي إليه هو الفضاء الذي يستشرفه المتلقي وتتحقق فيه ذاته في حيزيها: المجتمعي والعقائدي.

أما البنية الفنية الثانية في خطبة الصدّيقة (ع) فهي بنية النص القرآني التي تنفتح أسلوبياً على بنيات موضوعية قصدية أخرى تتمثل في قدرة الصدّيقة (ع) على توظيفها بنائياً:



(١) يُنظر: سلطة المتلقّي على النص في العصر الجاهلي، د. عواد كاظم: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) يُنظر: من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل، حسين الواد: ١١٣.

لقد جاءت البنية الثانية (بنية النص القرآني) حافلة بآيات قرآنية دلفت إلى النص في نسق زمني متراتب يقوم على التحذير، والدعوة إلى العودة لكتاب الله، والاحتكام إلى ما جاء فيه، وكل ذلك يتدرج تحت (الاستدلال والاحتجاج)[1].

وبعد أن يتضافر النصّان (النثري والقرآني) أسلوبياً وبنائياً وتتحقق فيهما استجابة المتلقي المحايث بوساطة اندغامه ذاتياً بالمجتمع والعقيدة، تضع الصدّيقة (ع) خاتمة فرعية في نهاية بنية النص القرآني تتجسد فيها لغة التذكير والتسامح واستشراف المستقبل، إذ تحاول في هذه الخاتمة تحقيق ثبوتية المتلقي والانقلاب به إلى فضاء زمني مغاير، بوساطة تقديم الرمز العقائدي للمتلقّي في استذكار زمني يستدر به الماضي، ويلج إلى خزينه الأيديولوجي فيستحضر المتلقي رمزه العقائدي وتحاول الصدّيقة في البنية الثالثة (بنية النص الشعري) ترسيخ ثبوتية المتلقي على عقيدته من جانب، وأن ترتفع بالمتلقي المحايث إلى مصاف المتلقي الأول الذي يُكلف ببث (بنية النص الشعري) إلى المتلقي الثاني المفارق الانتمائي وغير الإنتمائي من جهة أخرى، كما أنها تحاول شيوع هذه البنية النصية الثالثة بين المتلقيين (المحايث والمفارق) بوصفها قيمة موضوعية رثائية للرمز العقائدي (الرسول الكريم) (ص) تتوحد حولها ذوات الآخرين مجتمعياً وعقائدياً، كما إن هذه البنية النصية في الخطبة الكبرى تُمثل بنية جاذبة أسلوبياً للبنيتين السابقتين.

أما محاولة تفكيك هذه البنية أسلوبياً فإنه يوحي بمحاولة الصديقة (ع) كسر أفق المتلقي مرة أخرى ونعي رمزه العقائدي (الرسول الكريم) (ص) في رثائية نصية مفارقة بنية النصين السابقين:

بنية النص الشعري ـــ النجوى

لقد كان البناء الأسلوبي للخطبة الكبرى المتفارق جنسياً والمتناوب فنياً يطوف بالمتلقي بين عوالم ثلاثة (عالم الأنا، عالم الوجود، وعالم الآخر) في موتيفة نصية تتشكل لغوياً من بنيات أسلوبية ثلاث (النثر والقرآن والشعر) وما بين البناء الأسلوبي للنص والبنيات الأسلوبية للخطبة تتحقق الدلالات الأسلوبية العميقة التي يتقاسمها البناء الموضوعي للنص، وأسلوبية تراتبه.

إن البناء الأسلوبي الفني للخطبة كان النسغ الذي تسري به الدلالات وتتوحد به المعاني، وتتراتب به الأفكار، فثمة تعالق أسلوبي بين البنية وما تقوم عليه من دلالات، وتعالق أسلوبي بين البناء العام للخطبة وما تقوم عليه من بنيات، وتعالق دلالي آخر بين مضامين النثر ومضامين القرآن، ومضامين الشعر في بناء الخطبة.

---

(١) يُنظر: فاطمة الزهراء (ع) من الميلاد وحتى الاستشهاد: عبد الله عبد العزيز الهاشمي: ٢٦٥ ـ ٢٨٩.

ويمكن لنا أن نقسم خطبة الزهراء الكبرى على ثمانية مقاطة بنائية موضوعية، ويحق لنا بعد التقسيم أن نتعامل مع كل مقطع بعنونة دلالية مستقاة من بنية المقطع الموضوعية، واستجابة المتلقي له:

١ ـ بنية المقطع الأول: الحمد
٢ ـ بنية المقطع الثاني: التوحيد
٣ ـ بنية المقطع الثالث: العبادة
٤ ـ بنية المقطع الرابع: الإيمان
٥ ـ بنية المقطع الخامس: الاستدلال
٦ ـ بنية المقطع السادس: الاحتجاج
٧ ـ بنية المقطع السابع: الاستغاثة
٨ ـ بنية المقطع الثامن: النجوى

إن إنعام النظر في هذه المقاطع الثمانية يُحيلنا إلى أن الخطبة تبدأ بالتوحيد وتنتهي به، ولكن هذا التوحيد له فلسفة خاصة عند الزهراء(ع) إذ (تتحدث عن عمق معنى التوحيد لله سبحانه وتعالى)[١] ذلك أن المقطع الأول (الحمد) ينفتح على المقاطع أخرى تراتبياً ويرتد في خاتمة النص/الخطبة إلى التوحيد بمناجاة الرسول (ص) في ذكرى استشهاده، وأما إعادة البَصَر كرتين في بنية النص، والاتكاء على المرتكزات البنائية الأسلوبية في كشف دلالات النص العميقة فإنه يدلّنا على التناسل الدلالي للمقطع اللاحق من المقطع السابق، إذ يُشير المقطع الأول بوصفه المرتكز الأسلوبي التأسيسي للتوحيد إلى الحمد الذي يتجه إلى استحضار الموحَد الله تعالى، والإقرار بوحدانيته وربوبيته.

وما يلبث المقطع أن يُؤسس مرتكزاته التوحيدية في (أنعم، ألهم، قدّم، ابتداها، ازداها، أولاها، عددها، أمدّها، أبداها، استحمد، وثنى)[٢] حتى ينفتح على مقطع (التوحيد) مباشرة بوساطة التصدير للمقطع بالشهادة (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)[٣] ثم يتجه مقطع التوحيد إلى التأسيس لوحدانية الرسول الكريم (ص) فيختص به من دون غيره (وأشهد أن أبي محمدا عبده ورسوله)[٤] ويعقب مقطع التوحيد موضوعياً مقطع العبادة، إذ يتحول في الخطاب إلى

---

(١) الزهراء القدوة: ٢٤٧.
(٢) يُنظر: فاطمة الزهراء من الميلاد وحتى الاستشهاد: ٢٦٠.
(٣) ينظر: م. ن: ٢٦١.
(٤) يُنظر: م. ن. ٢٦٢.

الآخر/المخاطب، ويستثير المخاطب المحايث خصوصاً (أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم)[١] وينفتح المقطع موضوعياً على ثيم العبادة (كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع)[٢].

وما إن تستشعر الصديقة (ع) بإيفاء العبادة حقها تميل بالمتلقي المحايث شفوياً إلى مقطع الايمان، وتستدعي أركان الإسلام، إذ جعل (الله الإيمان: تطهيراً لكم من الشرك والصلاة: تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة: تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام: تثبيتاً للدين، والعدل: تنسيقاً للقلوب)[٣].

وما يرتبط بالإيمان من فعل المعروف، وردّ المنكر الذي تهيأ له ذهن المتلقي إلى موضوعات بنية النص القرآني (الاستدلال، والاحتجاج، والاستغاثة)[٤].

ولا بد أن تكون الانتقالة بالمتلقي إلى نصوص قد وقرت في ذهنه، وتلامس ما قبلها دلاليا، وتنفتح على ما بعدها موضوعياً، فكانت دلالات الخشية تتوجه بها الصديقة (ع) إلى المختشين[٥]، ونبوة الرسول وآدميته[٦]، ونبذ الافتراق والاحتراب[٧] والفتنة[٨] ورفض الظلم[٩] وسوء عاقبته[١٠] وتجنب الكفر[١١] الذي به خلاف أحكام الله وشرائعه[١٢].

ومن ثم الانتقال إلى الاحتجاج لنزع آخر وساوس المشككين، واستدعاء شخصيات القرآن الكريم من الأولياء والصالحين[١٣] وصيرورتهم قيمة عليا يتمثلها الآخر والانعطاف به على مكانة الوالدين في القرآن الكريم[١٤] وتطالب الصدّيقة (ع) بالثبات على الدين ولا مغيث إلا الله تعالى[١٥].

---

(١) م. ن: ٢٦٤.

(٢) م. ن: ٢٦٥

(٣) فاطمة الزهراء (ع) من الميلاد وحتى الاستشهاد: ٢٦٥.

(٤) يُنظر: م. ن: ٢٦٧.

(٥) يُنظر: م. ن: ٢٦٩.

(٦) يُنظر: م. ن: ٢٧٠.

(٧) يُنظر: م. ن، والصفحة.

(٨) يُنظر: م. ن: ٢٧٢.

(٩) يُنظر: م. ن: ٢٧٣.

(١٠) يُنظر: م. ن: ٢٧٤

(١١) يُنظر: م. ن: ٢٨٢ - ٢٨٣.

(١٢) يُنظر: م. ن: ٢٨٦.

(١٣) يُنظر: م. ن: ٢٨٧.

(١٤) يُنظر: فاطمة الزهراء (ع) من الميلاد وحتى الاستشهاد: ٢٨٧.

(١٥) يُنظر: م. ن: ٢٨٨ - ٢٨٩.

وأما في خاتمة النص ونهايته فتتجه بالنص النثري الخطابي إلى جنس أدبي آخر تجسد فيه نجواها ومناجاتها لخاتم الرسل والأنبياء (ع) وتشكو انقطاع جبريل (ع) واستضعافها بعد فقد أبيها (ص)[١].

لقد كانت أسلوبية البناء النثري والشعري تُظهر قدرة الصدّيقة (ع) على الانتقال موضوعيا بين بنيات النص كما تُظهر امتلاك ناصية اللغة وحُسن التصرف بها، وأما المبنى الفني للنص فتُظهر قدرة على الربط بين النثر والقرآن والشعر، من دون خلل في المستويات البنائية وأسلوبية الخطاب.

مصادر البحث ومراجعه:

١ـ إحياء فاجعة الطف، السيد محمد سعيد الحكيم، ط١، دار الهلال، النجف الأشرف، ٢٠١١ م.

٢ـ الأسلوبية، بيير غيرو، تر: منذر عياش، ط٢، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، حلب، ١٩٩٤ م.

٣ـ أسلوبية البناء الشعري، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي. ارشد محمد علي. ط١، دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد، ١٩٩٩ م.

٤ـ الأسلوبية والأسلوب ـ نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدّي، مطبعة الاتحاد العام للشغل، تونس. ١٩٧٧ م.

٥ـ الأسلوبية الصوتية في النظرية والتطبيق. د. ماهر مهدي هلال، مجلة آفاق عربية ١٩٩٢ ص ٧.

٦ـ ديوان السيدة فاطمة الزهراء (ع)، إعداد: حيدر كامل، ومحمد شراد حساني، ط١. دار ومكتبة الهلال. دار النجار، بيروت، ٢٠٠٦ م.

٧ـ الزهراء (ع) القدوة، السيد محمد حسين فضل الله، ط٢. دار الزهراء، كربلاء، ٢٠٠٣م.

٨ـ سلطة المتلقي على النص في الشعر الجاهلي، د. عواد كاظم الغزي وآخر. مجلة كلية التربية، الجامعة المستنصرية. ع٦. ٢٠٠٥ م.

٩ـ عظمة الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء (ع)، فاضل الفراتي، ط٢، دار الأنصار، قم، ١٤٢٤ هـ.

١٠ـ علم الأسلوب. مبادئه واجراءاته، د. صلاح فضل. دار عالم المعرفة، القاهرة، ١٩٩٢ م.

١١ـ فاطمة الزهراء (ع) أفضل أسوة للنساء، السيد محمد الحسيني الشيرازي، ط٦، مؤسسة التبليغ العالمية، بيروت، ٢٠٠٣ م.

١٢ـ فاطمة الزهراء (ع) ـ قدوة وأسوة. السيد محمد تقي المدرسي، ط١. دار محبي الحسين (ع)، ٢٠٠٣ م.

١٣ـ فاطمة (ع) من المهد إلى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني، مطبعة النبراس. النجف الأشرف، ١٣٩٢هـ.

١٤ـ فاطمة الزهراء (ع) من الميلاد وحتى الاستشهاد، السيد عبد الله عبد العزيز الهاشمي. دار الأضواء لبنان. د.ت.

١٥ـ من قراءة النشأة إلى قراءة التقبّل، حسين الواد، مجلة فصول. مج ٥، ع١، ١٩٨٥ م. ❖

(١) يُنظر: م. ن: ٢٨٩.

آيات الوعيد في خطبة الزهراء (ع)

د. عدي جواد الحجار

المقدمة:

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد الصادق الأمين، وعلى أهل بيته الطاهرين عدل كتاب الله وأعلام دينه وخزان علمه وتراجمه وحيه.

وبعد.. فإن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، والمعين الصافي للثقافة الإسلامية، التي اختارها الله تعالى لسمو الإنسان وسعادته في النشأتين، وقد تعاهد أهل البيت(ع) وفقاً لتكليفهم الإلهي لقيادة الأمة: القرآن الكريم تلاوةً وحفظاً وتفسيراً يكشف ما فيه من مراد الله تعالى، وصيانةً له عن أيدي العابثين وانتحال الجهلة والمبطلين، وعندما تُبعث الأمم على يد عظمائها لتكون علامةً فارقةً وعنواناً بارزاً في قاموس الوجود، تصبح معياراً حاكماً على صحة التوجه الإنساني والعقائدي في مسيرة ذلك التوجه والنهوض، ولا بد من وجود راعٍ يعمل على صيانة ذالك النهوض والحئول دون انحرافه كلما اقتضت الحاجة والضرورة وهو ما ينطبق على الأمة الاسلاميه التي نشأت ونهضت بفعل ما بذله قائدها وراعي نهضتها النبي محمد(ص) من جهد في تغيير واقع ذلك المجتمع الذي كان عنواناً لعدم الالتزام بقاعدة أو قانون حتى قامت تلك الأمة على أصولها بعد آن رسخ النبي(ص) فيها بما كان يرفده به الوحي السماوي من أحكام، حتى استقام الأمر وكمل الدين وتمت النعمة بأن جعل الله لهذه الشريعة وهذا الدين من ارتضاهم ليكونوا حماةً لشرعته وأمناءَ على وحيه، وكان واجب الحماية هذا منوطاً بمن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فكانوا يعملون جاهدين في هذا الأمر.

ومن هنا نجد أن فاطمة الزهراء (ع) عندما احتجت على من عطل احكام الله في باب من أبواب الفقه نجدها قد خرجت من دائرة شخصنة القضية إلى أفق أرحب وأوسع ألا وهو أفق الأمة والرسالة فلم تجعل همها في نفسها بل جعلت تنفث همها حسرات على ما آلت إليه حال الأمة ولما يزل العهد قريب برسول الله(ص) فأشرت إلى مواطن الانحراف والخلل الذي سيقت إليه الأمة.

فيجد المتتبع لخطبة الزهراء البتول (ع) ومن النظرة الأولى أن المفردات والنصوص القرآنية المباركة كانت تمثل قدراً كبيراً من البناء النصّي والموضوعي للخطبة على مستوى التضمين أو الاستشهاد بتلك المفردات والنصوص لذا تكون عباراتها قوية الوقع واضحة الدلالة سهلة الفهم لما يكتنفها من قرائن مقالية مبينة للمراد مرشدة للمخاطب إلى

حقيقة المطلوب، وقد وظّفت سلام الله عليها الموروث التاريخي لقصص الأنبياء في باب الإرث بشكل لا نظير له لتعطي صورة واضحة عن حقها المهتضم لا لبس فيها ولا غموض لكي لا يبقى عذر لمعتذر.

لذا اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على:

مقدمة وبيان صلة فاطمة(ع) والقرآن ونظرة في آيات الوعيد وشواهد الآيات في خطبة الزهراء (ع) والهوامش وثبت المصادر.

فاطمة (ع) والقرآن:

لا ينفك الكشف والبيان للقرآن الكريم عن العترة الطاهرة فهم ورثة الكتاب وحملة علم الرسول، تأسيساً على قوله(ص): "إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله عز وجل حبل ممدود، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض"[1]. وذلك يثبت أن القرآن الكريم يقترن معه من العترة من يعرف التنزيل والتأويل علماً يقينا، يُخبر عن مراد الله عز وجل كما كان رسول الله (ص) يخبر عن المراد، ولا يكون معرفته بتأويل الكتاب استنباطاً ولا استخراجاً كما لم تكن معرفة الرسول (ص) بذلك استخراجاً ولا استنباطاً ولا استدلالاً ولا على ما تجوز عليه اللغة وتجري عليه المخاطبة، بل يخبر عن مراد الله ويبين عن الله بياناً تقوم بقوله الحجة على الناس[2]، فتفسير أهل البيت (ع) ومنهم فاطمة الزهراء(ع) للقرآن الكريم وظيفة شرعية تتكفل بالبيان والتفصيل، فموضعها منه كموضع النبي(ص) من القرآن الكريم موضع بلاغ وبيان، فهي من أبواب علمه، ومستودع حكمته ولها أهلية استنطاق القرآن الكريم وبيان مجمله وكشف دلالاته، وتوضيح أحكامه، والاخبار عن عجائبه، وبيان فضائله، والإرشاد إلى العبر في قصصه، ودليلنا على ذلك أن النبي(ص) قام بالناس خطيباً فقال: (وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وان اللطيف الخبير أخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروني بم تخلفوني فيهما)[3].

ومن خلال التتبع الدلالي لألفاظ الحديث الشريف بما تمليه ضرورات اللغة وقواعدها، وباجتناب القبليات الذهنية، والمرتكزات الاعتقادية، وبأعمال الموضوعية، والتجرد عن

---

(١) الصدوق - كمال الدين وتمام النعمة: ٢٣٥، والحديث يروى بمضمونه عند جمهور المسلمين، ظ: أحمد بن حنبل- مسند أحمد: ١٤/٣.

الطبراني - المعجم الصغير: ١٣١/١. المتقي الهندي - كنز العمال: ٢٨٩/٥ — ٢٩٠.

(٢) الصدوق - كمال الدين وتمام النعمة: ٦٤.

(٣) أحمد بن حنبل - مسند أحمد: ١٧/٣ وينظر: أبو الصلاح الحلبي — الكافي ٩٦ والصدوق - كمال الدين وتمام النعمة ٦٤ والترمذي - سنن الترمذي ٣٢٩/٥.

الرفض أو القبول المسبق ولفك الجدلية بين المثبتين والنافين لمداليل الحديث الشريف نعمد إلى التحليل اللغوي للنص مشفوعاً بالمتفقات العقلية التي لا تتعارض مع ضرورة من ضرورات الدين وصولاً إلى المراد من الحديث الشريف الذي يؤسس وبشكل لا يقبل الشك أو الاشتباه إلى التلازم التكافلي والتكافئي بين الكتاب وأحكامه ومراميه وبين العترة المؤهلة للدلالة على تلك الأحكام لانطباق اللفظ في الحديث الشريف في مفردتي (الكتاب والعترة) على تمام معناهما، واللفظ الذي تكون هذه صفته لا يرقى إليه الشك في تعدد دلالته فوجب أن الكتاب لا يزال معه من العترة من يعرف التنزيل والتأويل علماً يقيناً يخبر عن مراد الله عز وجل كما كان رسول الله (ص) يخبر عن المراد، كذلك يجب أن يكون معرفة عترة الرسول (ص) بالكتاب على يقين ومعرفة وبصيرة، قال الله عز وجل في صفة رسول الله (ص): ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١) فأتباعه من أهله وذريته وعترته ومنهم فاطمة(ع) هم الذين يخبرون عن الله عز وجل مراده من كتابه على يقين ومعرفة وبصيرة، ومتى لم يكن المخبر عن الله عز وجل مراده ظاهراً مكشوفاً فإنه يجب علينا أن نعتقد أن الكتاب لا يخلو من مقرون به من عترة الرسول (ص) يعرف التأويل والتنزيل إذ الحديث يوجب ذلك. دل على أن الحجة من بعده ليس من العجم ولا من سائر قبايل العرب بل من عترته أهل بيته، ثم قرن قوله بما دل به على مراده فقال: "ألا وإنها لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" فأعلمنا أن الحجة من عترته لا تفارق الكتاب، وإنا متى تمسكنا بمن لا يفارق الكتاب لن نضل، ومن لا يفارق الكتاب ممن فرض على الأمة أن يتمسكوا به، ويجب في العقول أن يكون عالما بالكتاب مأموناً عليه يعلم ناسخه من منسوخه، وخاصه من عامه. وحتمه من ندبه، ومحكمه من متشابهه ليضع كل شيء من ذلك موضعه الذي وضعه الله عز وجل. ويجب أن يكون جامعا لعلم الدين كله ليمكن التمسك به والأخذ بقوله فيما اختلفت فيه الأمة وتنازعته من تأويل الكتاب والسنة، وبهذا الحجاج المنطقي الذي اتخذ من المقدمات العقلية واللوازم الشرعية في ما تفرضه صحة الاعتقاد يمكن النزول للمختلفين على دلالة حديث الثقلين على أن المعنيين بهذا الحديث هم العترة الطاهرة من آل البيت (ع) الذين صرح الكتاب العزيز بإذهاب الرجس عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾(٢)، ولما كانت فاطمة (ع) من آل البيت لما تواتر من أخبار السنة القولية والفعلية للنبي(ص) في بيانه للمراد من قوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ والتي

---

(١) سورة يوسف: ١٠٨.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣.

تعينت أشخاصهم بعلي وفاطمة والحسن والحسين كما عين ذلك أهل الحديث من العامة قبل غيرهم[١].

نظرة في آيات الوعيد:

إن طاعة العبد لمولاه إنما تكون طلباً لثوابه، والنأي عن شديد ما توعد به العصاة لأوامره، فهو الذي لا يفوته فوت، ولا يؤمن له عقاب، قرن الوعد بالوعيد ترغيباً في جزيل ثوابه وتحذيراً من عظيم عقابه، وخوّف من يشط عن جادة الصواب بالنار، وبعث للناس رسوله مبشراً ونذيراً، فدعا إلى طاعة الله في ما أوجب استنقاذاً للعباد وامتحاناً، وهدم دعائم الشرك والطغيان، وأمر بطاعة الرحمن، ونهى عن متابعة الشيطان، وقمع عبدة الطاغوت والأوثان، وأوجب به الحجة على الجاحدين، وأيقظ بدعوته قلوب الغافلين، حتى استقام عمود الإسلام وارتفع، ووضحت سبل الهدى واستبانت لمن اتبع.

ففي كتاب الله تعالى من آيات الوعيد والتحذير الكثير الجم، ومخرجها الوعظ لمن يجعل القرآن هادياً له والزجر لمن اتخذ إلهه هواه وجعل طاعة الشيطان عبادة له[٢].

وإن آيات الوعيد لها وقع في قلوب الخائفين فتراهم إذا مروا بها خر أحدهم مغشياً عليه ومنهم من مات عند سماعها فمثل هذه الأحوال تخرج من يتلبس بها عن أن يكون حاكياً في كلامه لها إنما تكون حالة خوف من الوعيد، شهوداً قلبياً حقيقياً، يخشع له القلب، ويرسخ به الايمان، وتتحسس به المشاعر، ويكتمل ليصبح حياة في الوجدان، ويقظة في الضمير، وليكون موقفاً، وحركة وسلوكاً، وسجية.

فهذا حماد بن حبيب العطار الكوفي يصف حال الإمام زين العابدين (ع) عند تلاوته القرآن الكريم ومروره بآيات الوعد والوعيد قال: ثم دخل في الصلاة، فلما أن رأيته قد هدأت أعضاؤه وسكنت حركاته، قمت إلى الموضع الذي تهيآ فيه للصلاة، فإذا بعين ماء تفيض بماء أبيض، فتهيأت للصلاة، ثم قمت خلفه، فإذا أنا بمحراب كأنه مثل في ذلك الوقت، فرأيته كلما مر بآية فيها ذكر الوعد والوعيد، يرددها بأشجان الحنين، فلما أن تقشع الظلام، وثب قائماً وهو يقول: يا من قصده الطالبون فأصابوه مرشداً، وأمه الخائفون فوجدوه متفضلا، ولجأ إليه العابدون فوجدوه نوالاً. متى راحة من نصب لغيرك بدنه!؟ ومتى فرح من قصد سواك بنيته!؟ إلهي قد تقشع الظلام، ولم أقض من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدراً، صل على محمد وآله، وافعل بي أولى الأمرين بك يا أرحم الراحمين. فخفت أن يفوتني شخصه، وأن يخفى علي أثره، فتعلقت به، فقلت له: بالذي أسقط عنك ملال

(١) ينظر: الصدوق ـ كمال الدين وتمام النعمة ٦٤.

(٢) ابن حمدون ـ التذكرة الحمدونية: ٢/ ٩٨.

التعب، ومنحك شدة شوق لذيذ الرغب، إلا ألحقتني منك جناح رحمة، وكنف رقة، فإني ضال، وبغيتي كلما صنعت، ومناي كلما نطقت. فقال: لو صدق توكلك ما كنت ضالاً، ولكن اتبعني واقف أثري. فلما أن صار بجنب الشجرة، أخذ بيدي، فخيل إلي أن الأرض تمد من تحت قدمي. فلما انفجر عمود الصبح، قال لي: أبشر فهذه مكة. قال: فسمعت الضجة، ورأيت المحجة، فقلت: بالذي ترجوه يوم الآزفة ويوم الفاقة، من أنت؟ فقال لي: أما إذا أقسمت، فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

فإذا قال العبد إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ولم يكن خائفاً كان حاكيا دونما اعتقاد بذلك الخوف

وإذا قال عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيا دونما اعتقاد في ذلك

وإذا قال ولنصبرن على ما آذيتمونا فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة

فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة آيات الوعيد حركة اللسان ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها ولذلك قيل إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى مالك ولكلامي وأنت معرض عني دع عنك كلامي إن لم تتب إلي[٢].

شواهد الآيات في خطبة الزهراء (ع):

يجد المتتبع لخطبة الزهراء البتول(ع) ومن النظرة الأولى أن المفردات والنصوص القرآنية المباركة كانت تمثل قدراً كبيراً من البناء النصّي والموضوعي للخطبة على مستوى التضمين أو الاستشهاد بتلك المفردات والنصوص لذا تكون عباراتها قوية الوقع واضحة الدلالة سهلة الفهم لما يكتنفها من قرائن مقالية مبينة للمراد مرشدة للمخاطب إلى حقيقة المطلوب، وقد وظّفت سلام الله عليها الموروث التاريخي لقصص الأنبياء في باب الإرث بشكل لا نظير له لتعطي صورة واضحة عن حقها المهتضم لا لبس فيها ولا غموض لكي لا يبقى عذر لمعتذر.

التقوى والتسليم:

ومما استشهدت به الزهراء(ع) من آيات الوعيد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣].

---

(١) ابطحي - الصحيفة السجادية - الإمام زين العابدين (ع) - ص ١٦٤ - ١٦٥. تحقيق: السيد محمد باقر الموحد الأبطحي الأصفهاني - ط: ١ - سنة ١٤١١هـ - الناشر: مؤسسة الإمام المهدي (ع). مؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر - قم - إيران.

(٢) الغزالي - إحياء علوم الدين: ٢٨٦/١.: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد. الناشر: دار المعرفة - بيروت

(٣) سورة آل عمران: ١٠٢.

لعل في هذه الآية الشريفة ملحظ مهم يؤشر إلى من ينطبق عليهم وصف المتقي ممن كان في عهد رسول الله تعالى وهو ما يصرح به إمام المتقين ويعسوب الدين علي بن أبي طالب(ع) بقوله: والله ما عمل بها غير بيت رسول الله ـ نحن ذكرناه فلا ننساه ونحن شكرناه فلن نكفره ـ ونحن أطعناه فلم نعصه[1].

وفي خطبة لرسول الله (ص) يستشهد فيها بهذه الآية الشريفة في سياق لا يخلو من تهديد ووعيد وشكوى وألم حد الغصة من أقوام سيحدثون بعد النبي الأكرم فقال (ص) "الحمد لله على آلائه وبلائه عندنا أهل البيت وأستعين الله على نكبات الدنيا وموبقات الآخرة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني محمداً عبده ورسوله، أرسلني برسالته إلى جميع خلقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2] واصطفاني على جميع العالمين من الأولين والآخرين، أعطاني مفاتيح خزائنه كلها واستودعني سره وأمرني بأمره فكان القائم وأنا الخاتم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم و﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[3] واعلموا أن الله بكل شيء محيط وأن الله بكل شيء عليم. أيها الناس إنه سيكون بعدي قوم يكذبون علي فلا تقبلوا ذلك وأمور تأتي من بعدي يزعم أهلها أنها عني ومعاذ الله أن أقول على الله إلا حقاً فما أمرتكم إلا بما أمرني به ولا دعوتكم إلا إليه ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[4]. قال: فقام إليه عبادة بن الصامت فقال: متى ذلك يا رسول الله؟ ومن هؤلاء؟ عرفنا لنحذرهم. فقال: أقوام قد استعدوا للخلافة من يومهم هذا وسيظهرون لكم إذا بلغت النفس مني هاهنا ـ وأومأ بيده إلى حلقه ـ فقال له عبادة بن الصامت: فإذا كان كذلك فإلى من يا رسول الله قال: إذا كان ذلك فعليكم بالسمع والطاعة للسابقين من عترتي فإنهم يصدونكم عن الغي ويهدونكم إلى الرشد ويدعونكم إلى الحق فيحيون كتاب ربي وسنتي وحديثي ويميتون البدع ويقمعون بالحق أهلها ويزولون مع الحق حيث ما زال، فلن يخيل إلى إنكم تعلمون! ولكني مجتمع عليكم إذا أعلمتكم ذلك فقد أعلمتكم. أيها الناس أن الله تبارك وتعالى خلقني وأهل بيتي من طينة لم يخلق أحداً غيرنا ومن ضوي إلينا فكنا أول من ابتدأ من خلقه فلما خلقنا فتق بنورنا كل ظلمة وأحيا بنا كل طينة طيبة وأمات بنا كل طينة خبيثة ثم قال: هؤلاء خيار خلقي وحملة عرضي وخزان علمي وسادة أهل السماء والأرض،

---

(١) تفسير الميزان ـ السيد الطباطبائي: ٣/٢٧٧ ـ ٣٧٨.

(٢) سورة الانفال: ٤٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٤) سورة الشعراء: ٢٢٧.

هؤلاء البررة المهتدون المهتدى بهم، من جاءني بطاعتهم وولايتهم أولجته جنتي وكرامتي ومن جاءني بعداوتهم والبراءة منهم أولجته ناري وضاعفت عليه عذابي وذلك جزاء الظالمين. ثم قال: نحن أهل الإيمان بالله ملاكه وتمامه حقاً وبنا سداد الأعمال الصالحة، ونحن وصية الله في الأولين والآخرين، وإن منا الرقيب على خلق الله ونحن قسم الله الذي قسم بنا حيث قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]. أيها الناس إنا أهل البيت عصمنا الله من أن نكون مفتونين أو فاتنين أو مفتنين أو كذابين أو كاهنين أو ساحرين أو عايقين أو خائنين أو زاجرين أو مبتدعين أو مرتابين أو صادفين عن الخلق منافقين، فمن كان فيه شيء من هذه الخصال فليس منا ولا أنا منه، والله منه بريء ونحن منه براء ومن برء الله منه أدخله جهنم وبئس المهاد، وإنا أهل بيت طهرنا الله من كل نجس فنحن الصادقون إذا نطقوا والعالمون إذا سئلوا والحافظون لما استودعوا، جمع الله لنا عشر خصال لم يجتمعن لأحد قبلنا ولا تكون لأحد غيرنا: العلم والحلم والحكم واللب والنبوة والشجاعة والصدق والطهارة والعفاف، فنحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى والحق الذي أمر الله في المودة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[2] الذي عنده علم من الكتاب[3].

ويمكن لهذا النص أن يحتمل دلالات واضحة على سبيل التغليظ وطريق التشديد، ليهاب المؤمنون بلوغ أدنى حدود المعصية، ويقفوا عند أول مراتب السيئة، كما روي عن بعض الصالحين. أنه قال: اجعل بينك وبين الحرام حاجزا من الحلال، فإنك متى استوفيت جميع الحلال تاقت نفسك إلى فعل الحرام، وإذا كثرت الزواجر كانت على المعاصي أردع، والى فعل الطاعات أحوش وأجذب[4].

يعني بذلك جل ثناؤه: يا معشر من صدق الله ورسوله، "اتقوا الله" خافوا الله وراقبوه بطاعته، واجتناب معاصيه، "حق تقاته" حق خوفه، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. "ولا تموتن" أيها المؤمنون بالله ورسوله، "إلا وأنتم مسلمون" لربكم، مذعنون له بالطاعة، مخلصون له الألوهية والعبادة[5].

---

(١) سورة النساء: ١.

(٢) سورة يونس: ٣٢.

(٣) تفسير فرات الكوفي ـ فرات بن إبراهيم الكوفي ـ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩.

(٤) حقائق التأويل ـ الشريف الرضي: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٥) جامع البيان ـ ابن جرير الطبري: ٤/ ٢٨.

وفي قراءة لأهل البيت (ع) "وأنتم مسلّمون" بالتشديد، ومعناه إلا وأنتم مستسلمون لما أتى به النبي (ص) ومنقادون له[١].

وإن التقوى هي نوع من الاحتراز إذا كان تقوى الله سبحانه تجنباً وتحرزاً من عذابه كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٢] وذلك إنما يتحقق بالجري على ما يريده ويرتضيه فهو امتثال أوامره تعالى والانتهاء عن نواهيه والشكر لنعمه والصبر عند بلائه ويرجع الأخيران جميعاً إلى الشكر بمعنى وضع الشيء موضعه وبالجملة تقوى الله سبحانه أن يطاع ولا يعصى ويخضع له فيما أعطى أو منع. لكنه إذا أخذ التقوى حق التقوى الذي لا يشوبه باطل فاسد من سنخه كان محض العبودية التي لا تشوبها آنية وغفلة وهي الطاعة من غير معصية والشكر من غير كفر والذكر من غير نسيان وهو الإسلام الحق أعني الدرجة العليا من درجاته وعلى هذا يرجع معنى قوله ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون إلى نحو قولنا ودوموا على هذه الحال حق التقوى حتى تموتوا[٣].

فاستشهاد الصديقة الطاهرة بهذه الآية الشريفة بما تكتنزه من دلالات واضحة وصريحة على وجوب ولزوم أوامر الله تعالى في ما أوجبه على العباد من أحكام وطاعته في تنفيذها، وعدم عصيانه بالتنكر لها، وشكر نعمته على إقامة تلك الأحكام، تحذير مباشر لأولئك الذين حذر منهم النبي الأكرم (ص) من أنهم سيأتون بعده بأمور يزعمون أنها منه في مقام الأحكام، وهي ليست منه، ولا عن الله كما في وضعهم أو تحريفهم لدلالة حديث "لا نورث ما تركناه صدقة"[٤] بعد ثبوت النسبة ليزحزحو عن الصديقة حقها الذي فرضه الله لها.

نار الحرب:

ومما استشهدت به الزهراء(ع) من آيات الوعيد قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[٥].

قيل في تفسير الآية بالمعنى الأخص عن جابر عن أبي جعفر (ع) في قوله: كلما أوقدوا نار للحرب أطفأها الله كلما أراد جبار من الجبابرة هلكه آل محمد (ع) قصمه الله[٦].

---

(١) التبيان ـ الشيخ الطوسي: ٢/٥٤٤ ـ ٥٤٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٤.

(٣) تفسير الميزان ـ السيد الطباطبائي: ٣/٣٦٧.

(٤) صحيح مسلم ـ مسلم النيسابوري: ٥/١٥٢.

(٥) سورة المائدة: ٦٤.

(٦) تفسير نور الثقلين ـ الشيخ الحويزي: ١/٦٥٠.

وفي معناه الأعم أي: لحرب محمد، عن الحسن، ومجاهد. وفي هذا دلالة ومعجزة لان الله أخبره فوافق خبره المخبر، فقد كانت اليهود أشد أهل الحجاز بأسا، وأمنعهم داراً، حتى إن قريشا كانت تعتضد بهم، والأوس والخزرج تستبق إلى محالفتهم، وتتكثر بنصرتهم، فأباد الله خضراءهم، واستأصل شأفتهم، واجتث أصلهم، فأجلى النبي بني النضير وبني قينقاع، وقتل بني قريظة، وشرد أهل خيبر، وغلب على فدك، ودان له أهل وادي القرى، فمحا الله تعالى آثارهم صاغرين. وقال قتادة: معناه إن الله أذلهم ذلا لا يعزون بعده أبدا، وإنما يطفئ نار حربهم بلطفه، وبما يطلع نبيه عليه من أسرارهم، وبما يمن به عليه من التأييد والنصر ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ بمعصية الله، وتكذيب رسله، ومخالفة أمره ونهيه، واجتهادهم في محو ذكر النبي (ص) من كتبهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ العاملين بالفساد، والمعاصي، في أرضه[1].

إن مما يلفت النظر ويثير الانتباه ويحفز الذهن أن تقرن سيدة نساء العالمين في خطبتها وهي تستعرض النوازل والصعاب التي حاقت بدعوة أبيها (ص) والتي احتمل وزرها بُهم الرجال: جمع بهمة: الشجاع، وقيل: هو الفارس الذي لا يدرى من أين يؤتى له من شدة بأسه[2] وذؤبان العرب تعني صعاليكهم ولصوصهم وهم الذين كافحوا الرسول وناكفوه في بدء دعوته المباركة من جهة وبين من نزلت في حقهم الآية الشاهد في خطبتها والتي تشير التفاسير إلى أنهم اليهود بشكل خاص[3]. من جهة أخرى سيما إذا علمنا أن فدك التي أنحلها النبي(ص) لأبنته الصديقة الطاهرة بعد أن راسل أهلها إلى رسول الله (ص) أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك. فهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت خالصة لرسول الله (ص)[4].

وبهذا الربط السلوكي الذي أشارت إلية الزهراء(ع) بين من وصفتهم باليهم والذؤبان وبين اليهود تؤكد حقيقة اشتراك كلا الفريقين في إيقاد نار الحرب على محمد(ص) وآل محمد(ع) حتى وإن دخلوا الإسلام بعد ضرب خراطيمهم على يد علي بن أبي طالب وهو ما أفاده بعض المفسرين من أن المراد من قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾[5] هم

---

(١) تفسير مجمع البيان ـ الطبرسي: ٣٧٨/٢ – ٣٧٩.

(٢) لسان العرب ـ ابن منظور: ٥٨/١٢.

(٣) تفسير مجمع البيان ـ الطبرسي: ٣٧٨/٣ ـ ٣٧٩ وجامع البيان ـ ابن جرير الطبري: ٤١٠/٦ وتفسير السمعاني ـ السمعاني: ٥١/٢ وتفسير ابن زمنين ـ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين: ٣٧/٢.

(٤) السنن الكبرى ـ البيهقي: ٣١٧/٦ ومعجم البلدان ـ للحموي: ٨٥٥/٣ – ٨٥٨ وفدك في التاريخ ـ محمد باقر الصدر: ١٧٣.

(٥) سورة المائدة: ٦٤.

عموم أعداء النبي (ص) من اليهود وغيرهم ممن نصب الحرب لمحمد (ص)[١] وذهب آخرون إلى أنهم أعداء آل بيت محمد(ص) على وجه الخصوص[٢] ومن هؤلاء الأعداء من قام بغصب الصديقة الطاهرة نحلتها.

السقوط في الفتنة:

ومما استشهدت به الزهراء(ع) من آيات الوعيد قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٣].

كان الاستشهاد بهذه الآية الكريمة بعد أن استعرضت الزهراء(ع) خارطة التحول في التوجهات والانقلاب في النفوس، والذي ظهر على من كانت في صدورهم الضغينة والعداوة والنفاق حال ما اختار الله تعالى نبيه إلى جواره، فتخرّق عنهم ما كان قد لبسوه من رداء الدين وكأنه قد تقادم عليه العهد حتى بلى وانخلق ولم يعد يستر ما أخفت صدورهم من غل فهتّك ما أضمروا من البغضاء مع قرب العهد برسول الله (ص) حتى هزل منهم الدين وضعف فيهم الإيمان إلى الحد الذي لم يعد قائماً فيه عندهم على أصوله فهلك ذلك الدين وبلية عظامه ولم تعد واضحةً معالمه فظهر فيهم ورثة النفاق بعد ما كانوا يخفونه، فتصدّى منهم من لا نباهة له في رأي ولا علو له في ذكر ولا وضوح في صوته ولا بيان. فانطلق حبس نَفَسِه فأفصح عما يختلج في نفسه بعد عيٍّ بالباطل، فهو يسبق إلى عرصات الأصحاب متبخترا في مشيته فيشير عليهم برأي يحرفهم فيه عند اتباعه عن وردهم الصافي الذي هداهم الله تعالى إليه بنبيه(ص) متذرعاً لذلك خوف الوقوع في الفتنة وهو متقمص لها ومنغمس فيها بعد أن احتج على منع فاطمة (ع) حقها بقول نسبه إلى النبي(ص) فهو يخشى من الوقوع في الفتنة إن لم يعمل بما بلغه عن رسول الله(ص)، فجاءه جواب دعواه الوقوع في الفتنة قرآناً صريحاً واضح الدلالة على لسان من نزل الوحي في دار أبيها ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٤] والتي قال المفسرون في المراد منها وفي سبب نزولها الآتي:

ما أورده الطوسي (ت٤٦٠هـ) من أن معنى الآية ولا تفتني ولا تؤثمني بالعصيان في المخالفة التي توجب الفرقة، فتضمنت الآية جملة من المنافقين ممن استأذن النبي (ص) في التأخر عن الخروج، والإذن رفع التبعة في الفعل، وهو والإباحة بمعنى، وقال له "لا تفتني"

---

(١) جامع البيان - إبن جرير الطبري: ٤١٠/٦.

(٢) تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي: ٦٥٠/١.

(٣) سورة التوبة: ٤٩.

(٤) سورة التوبة: ٤٩.

أي لا تؤثمني بأن تكلفني المشقة في ذلك[١] وفي سبب النزول قال جماعة من المفسرين: إن النبي (ص) كان يعبئ المسلمين ويهيؤهم لمعركة تبوك ويدعوهم للتحرك نحوها، فبينا هو على مثل هذه الحال إذا برجل من رؤساء طائفة " بني سلمة " يدعى جد بن قيس بن صخر بن خنساء الأنصاري، كان من المنافقين، تخلف عن رسول الله (ص) عند بيعة الرضوان[٢]. فجاء مستأذنا أن لا يشهد المعركة، متذرعا بأن فيه شبقا إلى النساء، وإذا ما وقعت عيناه على بنات الروم فربما سيهيم ولها بهن وينسحب من المعركة[٣]!! فأذن له النبي بالانصراف. فنزلت الآية أعلاه معنفة ذلك الشخص! فالتفت النبي (ص) إلى بني سلمة وقال: من كبيركم؟ فقالوا: جد بن قيس، إلا أنه رجل بخيل وجبان، فقال: وأي شيء أبشع من البخل؟ ثم قال: إن كبيركم ذلك الشاب الوضيء الوجه بشر بن براء "وكان رجلاً سخياً سمحاً بشوشاً"[٤]. يكشف شأن النزول المذكور أن الإنسان متى أراد أن يتنصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرع بشتى الحيل، كما تذرع المنافق جد بن قيس لعدم المشاركة في المعركة وميدان الجهاد، بأنه ربما تأسره الوجوه النضرة من بنات الروم وتختطف قلبه، فينسحب من المعركة ويقع في إشكال شرعي!!... فالقرآن يوجه الخطاب للنبي (ص) ليرد على مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلا: ومنهم من يقول أأذن لي ولا تفتني بالنساء والفتيات الروميات الجميلات. كما ويحتمل في شأن نزول الآية أن جد بن قيس كان يتذرع ببقاء امرأته وأطفاله وأمواله بلا حام ولا كفيل بعده ليتخلص من الجهاد. ولكن القرآن يقول مجيبا عليه وأمثاله: ألا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين. أي أن أمثال أولئك الذين تذرعوا بحجة الخوف من الذنب ـ هم الآن واقعون فيه فعلا، وأن جهنم محيطة بهم، لأنهم تركوا ما أمرهم الله ورسوله به وراء ظهورهم وانصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!!

وتستخلص من هذا الموقف التاريخي للمنافقين ملاحظتان:

١ ـ إن أحد طرق معرفة جماعة المنافقين في كل مجتمع، هو التدقيق في أسلوب استدلالهم وأعذارهم التي يذكرونها ليتركوا ما عليهم من الوظائف، فهذه الأعذار تكشف ـ بجلاء ـ ما يدور في خلدهم وباطنهم. فهم غالباً ما يتشبثون بسلسلة من الموضوعات الجزئية والمضحكة أحياناً بدلاً من الاهتمام بالمواضيع المهمة، ويستعملون المصطلحات الشرعية

---

(١) ينظر: التبيان: ٥/٢٣٣.

(٢) ينظر: امتاع الأسماء ـ للمقريزي: ١/٤٤٧.

(٣) ينظر: تفسير الثعلبي ـ الثعلبي: ٥/٥٢.

(٤) ينظر: أسباب النزول – الواحدي النيسابوري: ١٦٦.

لاغفال المؤمنين ويتذرعون بالأحكام الشرعية وأوامر الله ورسوله، في حين تجد أنهم غارقون في دوامة الخطايا، جادون في عداوتهم للرسول ودينه القويم.

٢ ـ للمفسرين أقوال مختلف في تفسير جملة وإن جهنم لمحيطة بالكافرين فقال بعضهم: هذه العبارة كناية عن إحاطة عوامل ورودهم إلى جهنم بهم، أي أن ذنوبهم تحيط بهم[١]. وقال بعضهم: إن هذا التعبير من قبيل الحوادث الحتمية المستقبلية التي تذكر بصيغة الفعل الماضي أو الحال، أي أن جهنم ستحيط بهم بشكل قاطع. كما ويحتمل أن نفسر الجملة بمعناها الحقيقي، وهو أن جهنم موجودة فعلاً، وهي عبارة عن باطن هذه الدنيا، فالكفار قابعون في وسط جهنم في حياتهم الدنيوية وإن لم يصدر الأمر بتأثيرها[٢]، كما أن الجنة موجودة في هذه الدنيا أيضاً وتحيط بالجميع، غاية ما في الأمر لما كان أهل الجنة جديرين بها فسيكونون مرتبطين بها، وأهل النار جديرون بالنار فهم من أهلها أيضاً[٣].

وقد أفاد السيد الطباطبائي من الدلالة السياقية معانٍ اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾[٤] الفتنة ههنا ـ على ما يهدى إليه السياق ـ إما الإلقاء إلى ما يفتتن ويغر به، وإما الإلقاء في الفتنة والبلية الشاملة. والمراد على الأول: ائذن لي في القعود وعدم الخروج إلى الجهاد، ولا تلقني في الفتنة بتوصيف ما في هذه الغزوة من نفائس الغنائم ومشتهيات الأنفس فافتتن بها وأضطر إلى الخروج، وعلى الثاني ائذن لي ولا تلقني إلى ما في هذه الغزوة من المحنة والمصيبة والبلية. فأجاب الله عن قولهم بقولهم: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ ومعناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقبة من قبل الخروج، وقد أخطأوا فإن الذي هم عليه من الكفر والنفاق وسوء السريرة، ومن آثاره هذا القول الذي تفوهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور، ووقعوا في مهلكة الكفر والضلال وفتنته. هذا حالهم في هذه النشأة الدنيوية وأما في الآخرة فإن جهنم لمحيطة بالكافرين على حذو إحاطة الفتنة بهم في الدنيا وسقوطهم فيها فقوله: (ألا في الفتنة سقطوا) وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ كأنهما معاً يفيدان معنى واحداً وهو أن هؤلاء واقعون في الفتنة والتهلكة أبداً في الدنيا والآخرة. ويمكن أن يفهم من قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الإحاطة بالفعل دون الإحاطة الاستقبالية كما تهدى إليه الآيات الدالة على تجسم الأعمال[٥].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ـ عبد الرحمن ناصر السعدي: ٣٤٠٦.

(٢) ينظر: التفسير الأصفى ـ الفيض الكاشاني: ١/٤٧٠و تفسير الميزان ـ السيد الطباطبائي: ٣٠٥/٩.

(٣) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ـ ناصر مكارم الشيرازي: ٧٣/٦ ـ ٧٥.

(٤) سورة التوبة: ٤٩.

(٥) تفسير الميزان ـ السيد الطباطباني: ٣٠٥/٩ ـ ٣٠٦.

وبعد هذا التقصي لأقوال المفسرين في تفسير الآية الكريمة وبيان سبب نزولها والمراد منها وما تمخض عنها من كشفها لصنف من المنافقين الذين حاولوا شرعنة عدم التزامهم بأوامر الله ونواهيه بحجة الخوف ووقوعهم بالفتنة عند قيامهم بما أوجب الله تعالى عليهم، تتضح حقيقة الربط بين المرامي التي قصدتها سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء(ع) وبين الدلالات التي توافرت عليها الآية الكريمة.

فإنها تتوعد من حادوا عن جادت الصواب وتنكبوا عن طريق الحق بعد أن طلع شيطان نكوصهم وغدرهم من مخبأه، فأبعدوا الحق الإلهي الذي أوكله الله تعالى إلى من جعله النبي (ص) خليفة له ووصيه على أمته من بعده، حتى جعلوا الأمر في غير أهله بعدما فتنتهم الدنيا بغرورها ومطامعها فتكشفت تلك الفتنة بانثيالهم على السلطان ولما يزل جثمان رسول الله(ص) بينهم لم يجهز بجهازه، وما كانت حجتهم في هذا الأمر إلا أن قالوا: (فجعلت كلما ارتفعت الأصوات وخشيت الفتنة أقول لأبي بكر: مد يدك حتى أبايعك. فمد يده، فبايعته)[1]. إذن فحجتهم في منع الحق عن أهله هي الخوف من وقوع الفتنة في أمة محمد (ص) بعدما اختلفت هذه الأمة في سقيفة بني ساعدة[2] فجعلت الأمر في عامة قريش تارةً وتبنى هذا الرأي الأول فقال: (قال لي رسول الله (ص): إن هذا الأمر لا يكون إلا في قريش)[3]. ومنهم من جعل الأمر محاصصة بين الفرقاء يسهمونه بينهم إرضاءً للأنفس الشح حتى قال قائلهم: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال حباب بن المنذر لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء هم أوسط العرب دارا وأعربهم أحسابا)[4]. كل هذا وهم على علم ودراية وبصيرة في أن لهذا الأمر أهل ولكنهم اجتهدوا على أن يزحزحوه عنهم خوفاً من الفتنة كما يزعمون فاعتذروا لصاحب الحق حتى قال قائلهم: (يا بن عم لسنا ندفع قرابتك ولا سابقتك ولا علمك ولا نصرتك، ولكنك حدث السن - وكان لعلي (ع) يومئذ ثلاث وثلاثون سنة - وأبو بكر شيخ من مشايخ قومك، وهو أحمل لثقل هذا الأمر، وقد مضى الأمر بما فيه فسلم له، فإن عمرك الله يسلموا هذا الأمر إليك، ولا يختلف فيك اثنان بعد هذا إلا وأنت به خليق وله حقيق، ولا تبعث الفتنة في أوان الفتنة فقد عرفت ما في قلوب العرب وغيرهم

(١) شرح الأخبار - القاضي النعمان المغربي - ج ٢ - ص ٢٢٨.

(٢) سقيفة بنى ساعدة:، وهي ظلة كانوا يجلسون تحتها بالمدينة، فيها بويع أبو بكر، وأما بنو ساعدة الذين أضيفت إليهم السقيفة فهم حي من الأنصار، وهم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج ومنهم سعد بن عبادة وهو القائل يوم السقيفة: منا أمير ومنكم أمير، ولم يبايع أبا بكر ولا أحدا. ينظر: معجم البلدان - الحموي: ٢٢٨/٣ - ٢٢٩.

(٣) شرح الأخبار - القاضي النعمان المغربي: ٢٢٨/٢.

(٤) صحيح البخاري - البخاري: ١٩٤/٤.

عليك)[١]. فكان ما اعتذروا منه بحجة خوف الوقوع في الفتنة هو الفتنة بعينها، لأن في فعلهم الذي اجترحوه غاية المعصية لله ورسوله ولأولي الأمر الذين فرض الله طاعتهم وحرم على العباد معصيتهم، وإن الفعل الذي سولت لهم أنفسهم اقترافه هو الذي يسقطهم في الفتنة ويوردهم موارد الهلكة ولا يبعدهم عنها كما يزعمون، لذا يرى المتتبع أن الاقتران الموضوعي بين سبب النزول للآية الكريمة وتهرب من نزلت بحقه من أداء الواجب تذرعاً بالخوف من الفتنة والتي احتجت بها سيدة النساء(ع) وبيَّنت دلالتها الانطباقية على مصداقها وبين السبب الذي تذرع به سرّاق الولاية من الخوف في الوقوع في الفتنة، فإن هذا الاقتران الذي أوجدته الزهراء(ع) نتيجته أنهم وقعوا في فتنة العصيان بمخالفتهم ما أمر به رسول الله (ص) في غدير خم. وجزاء ذلك أن جهنم محيطة بهم كما توعد القرآن أهل الفتنة بذلك يوم القيامة، أو محيطة بهم الآن، لأن أسباب إحاطتها بهم معهم، فكأنهم في وسطها[٢].

حكم الجاهلية:

ومما استشهدت به الزهراء(ع) من آيات الوعيد قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٣].

لقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول هذه الآية هو أن اليهود قد حكّموا النبي(ص) فيما بينهم، طمعاً منهم في الحصول على حكم مغاير لما ثبت عندهم في التوراة، إلا أن ذلك السبب لا يقصر الحكم على هذه الواقعة دون غيرها بل تكون تلك الواقعة واحدة من مصاديق ذلك الحكم فـ(إذا نزلت الآية بسبب خاص، وكان اللفظ فيها عاما فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يتقيد بالمدلول القرآني في نطاق السبب الخاص للنزول أو الواقعة التي نزلت الآية بشأنها، بل يؤخذ به على عمومه، لان سبب النزول يقوم بدور الإشارة لا التخصيص، وقد جرت عادة القرآن أن ينزل بعض أحكامه وتعليماته وإرشاداته على اثر وقائع وأحداث تقع في حياة الناس، وتتطلب حكما وتعليما من الله، لكي يجئ البيان القرآني أبلغ تأثيراً وأشد أهمية في نظر المسلمين وان كان مضمونه عاماً شاملاً).

عين الإمام أبو جعفر الباقر(ع) المراد من هذه الآية الكريمة فبيّن أن (الحكم حكمان: حكم الله، وحكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية)[٤].

(١) الاحتجاج ـ الشيخ الطبرسي: ١/٩٦ ـ ٩٧.

(٢) تفسير جوامع الجامع – الطبرسي: ٢/ ٧٠.

(٣) علوم القرآن ـ محمد باقر الحكيم: ٤٢.

(٤) الكافي – الكليني: ٧/ ٤٠٧.

وذكر الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) في أحد قوليه في بيان المراد من هذه الآية الكريمة (إنها كناية عن كل من طلب غير حكم الله أي إنما خرج منه إلى حكم الجاهلية. وكفى بذلك خزياً أن يحكم بما يوجبه الجهل دون ما يوجبه العلم)[1].

ونقل الزمخشري (ت٥٣٨هـ) عن الحسن قول (هو عام في كل من يبغي غير حكم الله. والحكم حكمان: حكم بعلم فهو حكم الله، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض فقرأ هذه الآية)[2].

وبما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد كما هو شأن الآيات التي لنزولها أسباب خاصة من الحوادث الواقعة، فليس لأسباب نزولها منها إلا ما لواحد من مصاديقها الكثيرة من السهم، وليس إلا لان القرآن كتاب عام دائم لا يتقيد بزمان أو مكان، ولا يختص بقوم أو حادثة خاصة وإذا كانت هذه الأحكام والشرائع حقة نازلة من عند الله ولم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها إلا حكم الجاهلية الناشئة عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ما ذا يريدون بتوليهم وليس هناك إلا حكم الجاهلية؟ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ والحال أنه ليس أحد أحسن حكما من الله لهؤلاء المدعين للإيمان؟. فقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ استفهام توبيخي، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا ﴾ استفهام إنكاري أي لا أحد أحسن حكما من الله، وإنما يتبع الحكم لحسنه، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ في أخذ وصف اليقين تعريض لهم بأنهم أن صدقوا في دعواهم الإيمان بالله فهم يوقنون بآياته، والذين يوقنون بآيات الله ينكرون أن يكون أحد أحسن حكماً من الله سبحانه[3].

ومن لطائف التفسير ما صرح به القطب الراوندي[4] في تفسير آية المواريث ووجوب العمل بها على وفق ما شرعه الله تعالى من أن للرجال من الميراث نصيباً وأن للنساء أيضاً نصيباً، وان توريث الرجال دون النساء مع المساواة في القربى والدرجة من أحكام الجاهلية، وقد نسخ الله بشريعة نبينا محمد (ص) احكام الجاهلية وذم من أقام عليها واستمر على العمل بها بقوله ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[5].

ومما يصح أن يقال عنه في هذا المورد الذي استشهدت به الزهراء (ع) أنه تأسيس لقاعدة تفسيرية قامت على إرساء قواعدها ألا وهي قاعدة الجري والانطباق، بمعنى أن الآية وردت لمناسبةٍ ما باستعمال لفظ له دلالة واسعة، تتيح للمفسرين تطبيقها على موارد عديدة،

---

(١) التبيان: ٥٤٩/٣.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: ج ١ ـ شرح ص ٦١٩.

(٣) ينظر: تفسير الميزان ـ السيد الطباطبائي: ٣٢٩/٥.

(٤) ينظر: فقه القرآن ـ القطب الراوندي: ٢٥١/٢.

(٥) علوم القرآن ـ محمد باقر الحكيم: ٤٢.

وقد يلتزم بمصداقها المثالي الذي هو أكمل المصاديق، وهذا لا إشكالية فيه، وإنما قد يُختلف في كون هذا المصداق هو الأكمل، وقد تبقى دلالة ذلك اللفظ على سعتها عند الجميع بحيث لا يجزم أحد بانحصارها في معنى معيّن، وليس هذا بعيداً عن طبيعة القرآن، بل كون القرآن كتاب الإنسانية على مدى الزمان والمكان، يقتضي صحة ذلك[1].

فكانت (ع) موبخةً لمن عدل عن حكم الله تعالى إلى حكم الجاهلية في منعها إرثها من أبيها وهو مما ثبت في الشرع كما منع اليهود إقامة حدود الله وهي مما شرعته التوراة، وبذلك يجري على هؤلاء المانعين لحقها من حكم ما يجري على اليهود لوحدة المناط بين الحكمين.

هذه بعض من آيات الوعيد التي اشتملت عليها خطبة سيدة النساء(ع) والتي توافر البحث على دراستها وبيان أبعادها واستجلاء مضامينها وسبر أغوارها مسترشدين لذلك بما أفصحت به الزهراء(ع) من مكنون معاني الآيات وواضح دلالاتها وبيان مصاديقها وكشف المراد منها، لتلقي على خصومها الحجج والبراهين حجة إثر حجة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2] فهي تؤشر إلى من ينطبق عليهم وصف المتقي ممن كان في عهد رسول الله (ص) لما تحتمل الدلالات الواضحة على سبيل التغليظ وطريق التشديد، ليهاب المؤمنون بلوغ أدنى حدود المعصية، ويقفوا عند أول مراتب السيئة فكانت الصديقة الطاهرة تستشهد بآيات الوعيد الشريفة بما تكتنزه من دلالات واضحة وصريحة على وجوب ولزوم أوامر الله تعالى في ما أوجبه على العباد من أحكام، وطاعته في تنفيذها، وعدم عصيانه بالتنكر لها، وشكر نعمته على إقامة تلك الأحكام.

إن مما يلفت النظر ويثير الانتباه ويحفز الذهن أن تقرن سيدة نساء العالمين في خطبتها وهي تستعرض النوازل والصعاب التي حاقت بدعوة أبيها (ص) والتي احتمل وزرها بُهم الرجال وذؤبان العرب وهم الذين كافحوا الرسول وناكفوه في بدء دعوته المباركة من جهة وبين من نزلت في حقهم أغلب الآيات التي استشهدت بها الزهراء (ع) في خطبتها والتي تشير التفاسير إلى أنهم اليهود بشكل خاص وقد عملت (ع) على الربط السلوكي بين من وصفتهم بالبهم والذؤبان وبين اليهود لتؤكد حقيقة اشتراك كلا الفريقين في إيقاد نار الحرب على محمد (ص) وآل محمد (ع) حتى وإن دخلوا الإسلام بعد ضرب خراطيمهم على يد علي بن أبي طالب (ع).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف الخلق أجمعين وعلى آله الطيبين الطاهرين.

---

(١) ينظر: الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني ـ للباحث: ١١٤.

(٢) سورة الأنفال: ٤٢.

المصادر والمراجع:

١. ابطحي - الصحيفة السجادية - الإمام زين العابدين (ع) - ص ١٦٤ - ١٦٥. تحقيق: السيد محمد باقر الموحد الأبطحي الأصفهاني - ط: ١ - سنة ١٤١١هـ - الناشر: مؤسسة الإمام المهدي (ع)، مؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر - قم – إيران.

٢. ابن حمدون - التذكرة الحمدونية - مصدر الكتاب: موقع الوراق.

٣. http: //www.alwarraq.com - [الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع].

٤. ابن زمنين: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (ت٣٩٩هـ) - تفسير ابن زمنين. - تحقيق: حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز - ط١ - ١٤٢٣ هـ - القاهرة.

٥. ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت٧١١هـ). - لسان العرب. - طبع دار أحياء التراث العربي. منشورات: مؤسسة أدب الحوزة - ١٤٠٥هـ.

٦. أبو الصلاح الحلبي (ت٤٤٧هـ) - الكافي - تحقيق: رضا أستادي.

٧. - الناشر: مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي (ع) العامة - أصفهان.

٨. أحمد بن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني (ت٢٤١هـ). - المسند: مسند أحمد. - منشورات دار صادر. بيروت. لبنان.

٩. الباحث - الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني - ط١ - سنة١٤٣٣هـ - بيروت - إصدار قسم الشؤون الفكرية في العتبة الحسينية المقدسة.

١٠. البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦ هـ). - الجامع الصحيح.

١١. طبعة بالاوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول - منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ١٤٠١ هـ.

١٢. البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ). - السنن الكبرى. - طبع - دار الفكر - بيروت.

١٣. الترمذي محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ). - سنن الترمذي. - تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - منشورات دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت. ١٤٠٣هـ.

١٤. الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت٤٢٧هـ). - تفسير الثعلبي: الكشف والبيان في تفسير القرآن. - تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي. - مطبعة: دار إحياء التراث العربي - ط: ١ - ١٤٢٢ هـ.

١٥. الحموي ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ). - معجم البلدان - منشورات دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان ١٣٩٩ هـ.

١٦. الحويزي: عبد علي بن جمعة العروسي (ت١١١٢هـ) - نور الثقلين - تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي.

١٧. الراوندي: هبة الله بن سعيد "القطب الراوندي" (ت٥٧٣هـ). - فقه القرآن. - تحقيق: أحمد الحسيني - منشورات: مكتبة المرعشي العامة - ط٢ - ١٤٠٥هـ - قم.

١٨. الزمخشري محمود بن عمر بن محمد (ت٥٣٢هـ). - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. - تحقيق محمد عبد السلام شاهين - منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية. لبنان - الطبعة الثالثة. ١٤٢٤هـ.

١٩. السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت ٤٨٩هـ). - تفسير السمعاني، تفسير القرآن. - تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس - ط١ - دار الوطن - ١٤١٨هـ - الرياض.

٢٠. السيد محمد باقر الصدر (ت١٤٠١هـ) فدك في التاريخ - تحقيق: عبد الجبار شرارة - ط١ - سنة ١٤١٥ - الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

٢١. الشريف الرضي: محمد بن الحسين بن موسى الموسوي (ت ٤٠٦ هـ). - حقائق التأويل. في متشابه التنزيل. - بشرح محمد الرضا آل كاشف الغطاء - طبع ونشر دار المهاجر - بيروت - لبنان.

٢٢. **الصدوق: محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي** (ت ٣٨١هـ). - كمال الدين وتمام النعمة - تحقيق: علي أكبر الغفاري - مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - ١٤٠٥هـ - قم.

٢٣. الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ). - المعجم الصغير - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٤. الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ). - مجمع البيان في تفسير القرآن. - تحقيق لجنة من العلماء والمحققين - ط١ - مؤسسة الأعلمي - ١٤١٥هـ بيروت.

٢٥. الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ). - مجمع البيان في تفسير القرآن.

٢٦. تحقيق لجنة من العلماء والمحققين - ط١ - مؤسسة الأعلمي - ١٤١٥هـ بيروت.

٢٧. الطبرسي: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت - ق٥هـ) - الاحتجاج - تحقيق: محمد باقر الخرسان - دار النعمان - ١٣٨٦هـ - النجف الأشرف.

٢٨. الطبري: محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ). - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. - تحقيق صدقي جميل العطار - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥ هـ.

٢٩. الطوسي: محمد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ). - التبيان. - تحقيق أحمد حبيب قصير - دار إحياء التراث العربي - ط١ - بيروت - ١٤٠٩هـ.

٣٠. عبد الرحمن بن ناصر السعدي: نفسه. - تيسير الكريم المنان: تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان. - تحقيق: ابن عثيمين - مؤسسة الرسالة - ١٤٢١ هـ - بيروت.

٣١. الغزالي محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ). - إحياء علوم الدين: ٢٨٦/١.: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد. الناشر: دار المعرفة - بيروت.

٣٢. فرات بن إبراهيم الكوفي (ت٣٥٢هـ) - تفسير فرات الكوفي - - تحقيق: محمد الكاظم - ط١ - سنة ١٤١٠ - الناشر: مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - طهران.

٣٣. الفيض الكاشاني: محمد محسن (ت ١٠٩١ هـ). - التفسير الأصفى، في تفسير القرآن. - مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية.

٣٤. الكليني: أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (ت ٣٢٩ هـ). - الكافي.

٣٥. تحقيق: علي أكبر الغفاري - دار الكتب الإسلامية - ط: ١ - طهران.

٣٦. المتقي الهندي: علي بن حسام الدين البرهان فوري (ت ٩٧٥ هـ). - كنز العمال: في سنن الأقوال والأفعال. - تحقيق بكري حياني وصفوة السقا. - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٩هـ - بيروت.

٣٧. محمد باقر الحكيم: نفسه. - علوم القرآن. - مجمع الفكر الإسلامي - ط٣ - مؤسسة الهادي - ١٤١٧هـ - قم.

٣٨. محمد حسين الطباطبائي: محمد حسين الطباطبائي الحسني (١٤١٢هـ). - الميزان - منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم.

٣٩. مسلم بن الحجاج ابن مسلم بن ورد القشيرى النيسابوري (ت٢٦١هـ). - صحيح مسلم. - منشورات دار الفكر. بيروت. لبنان.

٤٠. المقريزي (ت٨٤٥هـ) - إمتاع الأسماع - تحقيق: تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي ط١ - الطبع: ١٤٢٠ - الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٤١. ناصر مكارم الشيرازي - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. - طبعة جديدة منقحة مع إضافات.

٤٢. النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي(ت٣٦٣هـ). - شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار. - منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - تحقيق محمد الحسيني الجلالي. مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي. قم. إيران.

٤٣. **الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري** (ت ٤٦٨هـ). - أسباب النزول، أسباب نزول الآيات. **منشورات** مؤسسة الحلبي وشركاه. القاهرة. ١٣٨٨ هـ. ❖

مظاهـر مـن التماسـك النصّـي في خطبة الزهراء(ع) الفدكيّة

✍ أ. م. د مجيد مطشر العامر(*)

أ. م. د كاظم فاخر الخفاجي

المقدمة:

تعد قراءة نصوص التراث العربي على وفق المعايير النصية جهد معرفي له أهمية خاصة في انبعاث هذا التراث من جديد ليشق طريقه في بناء المنظومة المعرفية للقارئ العربي فيما توفره الدراسات النصية من أدوات بحثية تسهم في إنتاج دلالات كلية للنصوص أصبح بالإمكان خلق رؤية منهجية تتسم بالعمق والشمول للمقاصد التي يبثها المنتج في رسالته إلى المتلقي.

يقوم هذا البحث برحلة استكشافية في أحد النصوص التراثية المهمة، باحثاً عن مظاهر التماسك فيه، وبعد علميات الحفر المعرفية، واستنطاق لغة النص، تبين أن هذا النص (خطبة الزهراء "ع") زاخرة بهذه المظاهر الاتساقية، إذ وجدت أن المؤلف لهذا النص وهي البتول(ع)، قد استعانت بأكثر المعايير النصية التي تشكل عماد الدراسات النصية الحديثة، والمقصود بها هنا (لسانيات النص) وهذه المعايير هي "القصدية، التناصية، المقامية، الإخبارية، المقبولية، التضام، التماسك" ويكاد يعتمد (نحو النص) اعتماداً كلياً على هذه المعايير في تحليله النصوص الأدبية المختلفة – الشعرية منها والنثرية – ولما كان تمثل هذه المعايير مع تفريعاتها على صعيد التطبيق والتحليل يأخذ من الوقت والمساحة البحثية الشيء الكثير، فقد ارتأينا الاعتماد على معيار واحد فقط. ألا وهو (التماسك النصي) تاركين تمثيل المعايير الأخرى في هذه الخطبة الخالدة لمناسبة أخرى قد يسمح بها المقام والزمان.

وسوف يكون تمثلنا لهذا المعيار (التماسك النصي) على مستوى: التماسك النحوي فقط والذي يضم:

التماسك بالإحالة الضميرية، (بالعطف والحذف، والاستبدال). وفي خاتمة هذه التطوافة بين المعيار النصي التحليلي والنص المدروس، سجلت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، واسأل الله حسن القبول ومن سيدتنا ومولاتنا الزهراء "ع" الرضا والشفاعة يوم الورود. والحمد لله رب العالمين.

(*) جامعة ذي قار، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

من مظاهر التماسك النحوي:

حظي مفهوم (التماسك) بأكثر من تعريف، تصب جميعها في إطار عام، منها ما يتوسع في المفهوم ومنها ما يحاول الاقتصاد والاقتصار فيه، وهذه بعض التعريفات التي قيلت في التماسك[١]:

يعرف التماسك بأنه "محتوى مدرك يمكن استعادته أو تنشيطه بدرجات متفاوتة من الوحدة، والاتساق في العقل، أما العلاقات فهي حلقات الاتصال بين المفاهيم، وتحمل كل حلقة اتصال نوعاً من التعيين المفهوم الذي ترتبط به بأن تحمل عليه وصفاً أو حكماً أو تحدد له هيئة أو شكلاً"[٢] ويوضح هاليدي ورقية حسن التماسك بأنه (علاقة معنوية بين عنصر في النص، وعنصر آخر يكون ضرورياً لتفسير هذا النص وهذا العنصر الآخر يوجد في النص، غير أنه لا يمكن تحديد مكانه إلا عن طريق هذه العلاقة التماسكية)[٣]، ويتوصل الدكتور صبحي إبراهيم الفقي بعد عرضه لمجمل الآراء التي قيلت في التماسك إلى أنه يعني (العلاقات أو الأدوات الشكلية أو الدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى، ومن بين هذه الأدوات المرجعية)[٤].

ولأهمية التماسك النصي في عملية تحليل النصوص، فقد نال اهتماماً كبيراً من علماء النص، من خلال توضيح مفهومه وأدواته ووسائله وعوامله [٥].

وما دمنا بصدد التماسك النحوي، سنحاول استجلاء أهم أدوات هذا المظهر النصي ولعل الإحالة الضميرية تحتل الصدارة من بين هذه الأدوات.

الإحالة الضميرية:

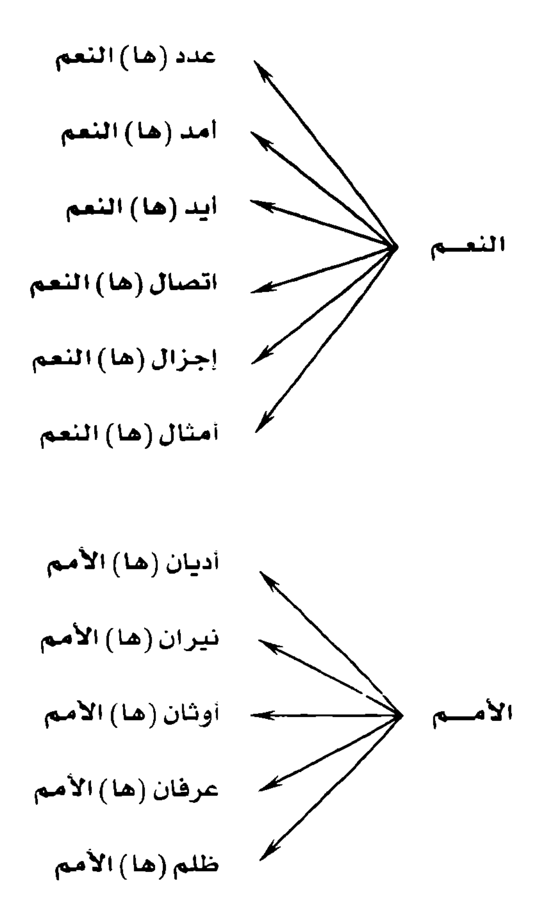
تعد الإحالة بوصفها من أهم عناصر التماسك النحوي، من أكثر الأدوات شيوعاً وتداولا في الربط بين الجمل والعبارات التي تتألف منها النصوص (٧)، وأهم ما يميز هذا النمط من الإحالة هو خضوعها لقيود دلالية بوساطة (وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والمحال إليه)[٥]. وسنقدم وصفاً تطبيقياً لهذا العنصر الإحالي "الضمير" بما اكتنزته خطبة الزهراء (ع) الفدكية وما تحمله من دلالات تعبيرية قد يبدو بعضها سهل المثال لتمكين الربط الدلالي المباشر، أما بعضها الآخر فلا يفهم إلا بلحاظ تنوع القرائن وكثافتها على مستوى باطن النص وعباراته.

أسهمت الضمائر بأنواعها بشكل فعّال في تشكيل نسيج الخطبة الفدكية، ولنتأمل الأمثلة الآتية:

أولاً: ...... جمّ من الإحصاء (عددها)، ونأى من الجزاء (أمدها)، وتفاوت عن الإدراك (أبدها)، وندبهم (لاستزادتها) بالشكر (لاتصالها)، واستحمد إلى الخلائق (بإجزالها)، وثنى بالندب إلى (أمثالها).

ثانياً: ...... فرأى الأمم فرقاً في (أديانها)، عكفا على (نيرانها)، عابدة (لأوثانها)، وفكرة الله مع (عرفانها)، فأنار الله بابي محمد (ص) ظلمها.

ففي الفقرتين نلاحظ الضمائر التي هي بين قوسين تعود إلى مشار إليه واحد لا يتجزأ (النعم) في الفقرة الأولى (والأمم) في الفقرة الثانية: والترسيمة التالية توضح ذلك:



تماسكت الجمل في الفقرتين وارتبط الكلام بعضه ببعض، بعودة الضمائر المتصلة إلى (النعم والأمم) والضمير المفرد يعود على من قام بالفعل (الضمير المستتر) العائد على الخالق جل شأنه والاستتار هنا تبعاً للقاعدة العرفية في علم النحو لأنه مذكور صراحة في صدر هذه الجمل فلا حاجة لتكريره، ومن هنا جاءت جميع هذه الضمائر بإحالة داخلية قبلية.

وقد يحدث أن تترابط الوحدات اللغوية بوساطة إيجاد تطابق دلالي بين العناصر المحيلة والمحال اليها ، ومن أمثلة ذلك:

الطائفة الأولى: (أنعم - الهم - قدم - استحمد - ثنى - أنار - ابتدع - انشأ - كون.... الخ).

الطائفة الثانية: (رأى - جلى - قام - آنقذ - دعا - هدى - بلغ - كسر... الخ).

الطائفة الثالثة: (زعمتم - وسمتم - أوردتم - خلّفتم - أخذتم - أحدثتم - قاتلتم - ناطحتم - أسررتم - نكصتم - أشركتم - أبعدتم - خلوتم.... الخ).

الطائفة الرابعة: (تعزوه - تعرفوه - تجدوه....).

الطائفة الخامسة: (تشربون - تقتاتون - تخافون - تتربصون - تتوكفون - تنكصون - تفرون - تحكمون - تزعمون... الخ).

ويتضح التطابق الدلالي من خلال الجدول الآتي:

نوع الضمائر	العناصر المحيلة	المحال إليه
الضمائر المستترة	انعم - الهم - قدم - استحمد - ثنى - أنار - ابتدع - أنشأ - كون..... الخ	الله سبحانه وتعالى
الضمائر المستترة	رأى - جلى - قام - آنقذ - دعا - هدى - بلغ - كسر	الرسول الأكرم (ص)
الضمائر المتصلة	تعزوه - تعرفوه - تجدوه تشربون - تقتاتون - تخافون - تتربصون - تتوكون - تتكصون - تقرون - تحكمون - تزعمون	١. الضمير (الواو) عائد على المخاطبين ٢. الضمير (الهاء) عائد على الرسول (ص) جمع المخاطبين بالضمير المفسر (بالواو والنون)

ونلاحظ من خلال هذه الأمثلة إن الخطبة استطاعت إن توزع عناصرها الإحالية بشكل يتطابق دلالياً المحال إليه فالدقة المتناهية في هذا التوزيع مرده إلى مقدرة الخطيب الزهراء (ع) في توزيع وحداته الكلامية بما يتناسب ومقتضاها الدلالي فعلى سبيل المثال: أن الأنعام على الخلق والإلهام للصالحين والثناء وتقديم الثواب والإنارة بعد الظلمات وابتداع الأشياء لأول مرة من غير سابق والإنشاء للروح وغيرها والتكوين، لسرائر ومكنونات العالم لا يستطيع أحد من المخلوقين القيام بها إلا الله جل ثناؤه فله القدرة والعزة وله البداية والنهاية في صنع مكونات الطبيعة بكل إشكالها وألوانها فالتطابق الدلالي حاصل بين الفعل وما يضمره وبين المحال إليه وهو الله تعالى عما يصفون وللقارئ حرية إجراء المطابقة الدلالية بين

العناصر الإحالية والمحال إليها في الأمثلة المتبقية الأخرى للوصول إلى مكامن البؤر القابعة خلف كتلك الإحالات من خلال المباني الفعلية وحركتها.

الفصل والوصل:

شاركت أدوات الفصل والوصل في ربط أجزاء الكلام اللاحق منه بالسابق وبشكل منظم بغية تحقيق استمرارية هذا النص التراثي (الخطبة) في عمله الإبلاغ أولا وفي عملية التوصيل على مستوى الفكرة الرئيسة ثانياً.

وتتجسد بنية الوصل بأدوات العطف على اختلاف أنواعها وتتخذ شكلين[٨]: الأول: يقوم على الجمع بين جملة سابقة وأخرى تلحقها وهي تفيد مجرد الترتيب المنطقي والحكم الموقعي غير أنها قد ترتب بين أشياء لا رابط بينها من جهة المعنى أي الجمع بين المتضادات أو المتغايرات أو المتقابلات فضلاً عن عمادها الرئيس وهو الجمع والرتيب بين المتماثلات حكما ومعنى وتعد (الواو) سيدة هذا النوع من الرابط.

والثاني: يقوم على الربط الخطي والجمع أيضاً ولكنه يدخل معنى آخر يتعين به نوع العلاقة بين الجملة والأخرى مثل (الفاء، ثم، أو، لكن، بل) حيث تساعد هذه الأدوات على مجرد الرابط أولا ومن ثم تعبر عن علاقة منطقية أخرى بين العنصرين المربوطين وإذا عدنا إلى بنية الخطبة سوف نلحظ إن أدوات العطف متنوعة فيها (الواو، الفاء، ثم، أو... الخ) ولا يوجد تناسب في نسبة الاستعمال بينها إذ إن ورود الربط بالواو، جاء بنسبة عالية جدا مقارنه بالأدوات الأخرى غير إن هذا التنوع في أدوات العطف داخل النص الواحد (الخطبة يشير إلى خصائص دلالية متعينة على سبيل القصدية).

لقد تنوعت حالات الربط (بالواو) وسواء كان ذلك بين كلمتين أم جملتين أم متتالية من الجمل ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ على مستوى الكلمة الواحدة:

جاء في الخطبة الخالدة ما نصه: (... ثم قبضه إليه قبض رأفة واختيار.. ورغبة وإيثار..... وتمشون لأهلة وولده في الخمرة والضراء... وتركتم كتاب الله ونبذتموه... وانتم بمنتدى ومجمع... الخ).

يلاحظ على هذه الكلمات إن دافع الربط بينها هو لانسجامها دلالياً.

الرأفة = الاختيار

الرغبة = الإيثار

الخمرة = الضراء

تركتم = نبذتم

منتدى = مجمع

فهذه الكلمات ارتبط فيها السابق باللاحق من خلال حرف العطف (الواو) وإن أفعالها قد اتسقت وانسجمت دلالياً.

وهناك نوع آخر يقع على الضد من الأول، فإذا كانت أفعال النوع الأول متسقة دلاليا وجاء الربط بالواو بينها ليفيد الترتيب المجرد للاتفاق في المجال الدلالي، فأن هذا النوع من الربط يفيد الربط بين المتناقضين أو المتضادين، ومن أمثلته مما ورد في الخطبة الفدكية. قولها (ع) (..... يوم حشرك ونشرك..وكسفت الشمس والقمر..... وانتم بمرأى ومسمع..... الخ)

نلاحظ على هذا الربط انه جمع بين أشياء غير منسجمة دلاليا إذ أن:

الحشر # النشر

الشمس# القمر

المساء # الصباح

الرؤيا # السمع..... وهكذا

وهذا الأمر يتفق مع ما أشار إليه الأزهر الزناد بقوله "إن كل جملتين متتاليتين في النص ثانيهما تخالف الأولى ترتبطان بأداة ربط"[٩].

٢ - على مستوى الجمل أو المتتاليات الحملية:

تزخر الخطبة الخالدة بالجمل والمتتاليات المرتبطة مع بعضها البعض بوساطة حرف العطف (أو) غير أن أغلب هذه المتتاليات تقع ضمن مجال دلالي يكاد أن يكون موحداً. ولنتابع هذا الانسجام والتماسك مع بعض النماذج من الخطبة.

جاء في الخطبة ما نصه: (علماً من الله تعالى بمايل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور) في هذا النموذج تتابعت فيه الجمل عن طريق وحدة الربط (الواو). وهي (العلم والاحاطة والمعرفة) وإن التماسك والانسجام الدلالي واضح بين هذه المفردات لأنها تنطلق من وحدة مركزية كبرى أي أن:

العلم = الإحاطة = المعرفة

- أنار الله بابي محمد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غمها). الوحدات اللغوية المربوطة بوساطة (الواو) في هذا المثال هي (أنار، كشف، جلى) والناظر في المرجعية المعرفية لهذه الوحدات سوف يكتشف أنها تتناغم ضمن إطار معجمي متقارب (أنار = كشف = جلى).

وتبرز إلى جانب حرف العطف الواو) وسائل انسجامية أخرى تقوم بالعملية نفسها مثل (الفاء، ثم) وتحتل الفاء المركز الثاني بعد الواو من حيث سعة الانتشار في نص الخطبة، حيث توافر النص المدروس على ما يقرب من ٤٠٪ حالة ربط بالفاء، أشارت جميعها إلى تعاقب الأحداث، ومنها ما هو مرتبط بالأسماء ومنها ما هو مرتبط بالأفعال، ومنها مرتبط بالحروف.

ومن أمثلة ذلك: (فرأى، فأنار، فأنقذهم، فجعل، فبلغ، فأنقذكم، فخطر، فالقاكم، فوجدكم، فألفاكم، فوسمتم، فمججتم، فاخذ، فتأتمرون) أفادت الفاء في هذه الأفعال تعاقب الأحداث واستمرارها، إذ استحضرت الزهراء (ع) أوضاع العرب قبل الإسلام وما هم عليه من الشرك، والتفرق، وتمجيد العادات السيئة، وقتلهم النفس المحترمة، وأكلهم الباطل، وتعاطيهم الجيف والمحرمات، وكل ذلك وغيره تابعت الزهراء(ع) بسرد الأحداث مشفوعة بالأدلة والبراهين من خلال الأفعال الدالة على الأحداث.

ومن أمثلة ارتباط الفاء بالأسماء قولها (عليها السلام): فمحمد (ص) عن تعب هذه الدار في راحة، .... فبعين الله ما تفعلون، فأنتم عترة رسول الله (ص). أفادت الفاء في هذه الجمل الاسمية التشخيص، والتأكيد، مع التضافر الانسجامي مع بقية مكونات الربط لنسج خيوط الخطبة التي تهدف إلى توصيل الفكرة بأكبر قدر من انتظام العناصر المكونة لها.

ومن أمثلة ارتباط الفاء بالحروف قولها (ع) (فإن تعزّوه، فلا ينكفئ، فلما اختار الله، فلا نبرح أو تبرحون فلما اختار، فأنى حرتم بعد البيان، فلا تجيبون، فلا تغيثون) تفيد الفاء الرابطة هنا عدة مضامين منها: الشرط، النفي، الشروع والتفسير، الاستفهام.

وهذه المضامين الدلالية وظفتها الزهراء (ع) لغرض المحاججة وإزالة الغموض واللبس عند المتلقين في الأمور والأحداث التي رافقت وتوالت بعد وفاة الرسول الأكرم (ص).

وفضلا عن (الفاء والواو) فقد استخدمت الزهراء (ع) وسائل ربط أخرى وان كانت بنسبة قليلة، ومن هذه الروابط (ثم - أو - بل) والأولى تفيد العطف والترتيب، وأحياناً المهلة أو التراخي[١٠].

وأمثلة ذلك قولها (ع) (ثم قبضه الله إليه، ثم استنهضكم، ثم لم تلبثوا، ثم أخذتم) أما الثانية (أو) فتفيد التخيير ومن أمثلتها (أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين) في حين جاءت الثالثة لغرض العطف والإضراب وقد وردت في الخطبة بنسبة قليلة جداً، منها قولها (ع) (بل كان يتبع أثره، بل ران على قلوبكم).

وإذا كانت حروف العطف بأنواعها (الواو - الفاء - ثم - أو - بل) وكذلك الإحالة الضميرية قد حققت تماسكاً على مستوى المفردات وجمل الخطبة الشريفة، فإنها لم تستأثر بذلك لوحدها إذ آسهمت وسائل اتساقية أخرى برزت على مستوى سطح الخطبة وعملت على الربط النحوي بين أجزائه، مما خلق استمرارية للنص وامتداداً متلاحماً لعناصره ومن هذه الوسائل الحذف والاستبدال.

ثالثاً: الحذف

يعد الحذف أحد الوسائل السياقية ويراد به لغوياً الإيجاز والاقتصاد اللغوي[١١]، وعدم التكرار للمفردات والعبارات حتى لا يقع الثقل والترهل في الكلام[١٢].

ويعتمد الحذف على قرائن دالة عليه سواء كانت قرائن مقالية أو مقامية[١٣] ويأتي الحذف لأغراض جمالية وبلاغية تزيد النص رصانة، وتؤدي به إلى التماسك وتفعيل المشاركة بين القائل والمتلقي في إنتاج النص وتشكيله[١٤].

وقد ورد الحذف بأنواعه في نص الخطبة الفدكية بشكل مكثف، دالاً على معان متعددة؛ ومن أمثلة ذلك قولها (ع): (بما قدّم - ندبهم - الممتنع - ابتدع - بلغ - يطأ - مجتهداً - مكدوداً - ظهر - وجد.... الخ).

هذه الأفعال قد حذف فاعلها إيجازاً واقتصاداً في المجهود اللغوي وابتعاداً عن التكرار. وكانت القرائن المقالية دالة عليها، لأنها مذكورة في صدور عبارات هذه الأفعال.

وقد يحذف المفعول به للأغراض نفسها ومن ذلك (ابتعثه الله – قبضه الله – تعزوه – تعرفوه – تجدوه.... الخ).

ففي هذه الأمثلة حذف المفعول به وأقام الضمير المتصل (الهاء) مقامة اختصاراً وإيجازاً في الكلام على أن صور الحذف في هذا النص قد تعدد أنماطه، فمنها حذف المبتدأ أو الخبر، وحذف الفعل، وحذف الأداة، وحذف الجمل بأكملها والاكتفاء بالإشارة إليها.

ولعل المقام لا يسمح بإيراد جميع تلك المحذوفات لذا اكتفينا بما تقدم وللقارئ المستزيد التتبع والاكتشاف عن مواطن الجمال في ظواهر الحذف المذكورة.

رابعاً: الاستبدال

هو عملية تتم داخل النص، فيها يتم تعويض عنصر في النص بعنصر آخر لغرض دلالي، وهذه الخصيصة تعد من خصائص التماسك والانسجام النصي[١٥].

ويأتي دور الاستبدال في التماسك وانسجامه من خلال العلاقة بين المستبدل والمستبدل منه وهي علاقة قبلية بين عنصر سابق وعنصر لاحق في النص[١٦] يجمعها السياق التركيبي نفسه، عن طريق الوظيفة أو الموقع، أو هما معاً.

ويقسم اللسانيون الاستبدال إلى عدة أقسام[١٧]، أشهرها:

الاستبدال الاسمي، أي استبدال اسم بآخر مع المحافظة على الوظيفة التركيبية.

الاستبدال الفعلي، أي إحلال فعل محل فعل آخر مع المحافظة على الوظيفة التركيبية.

الاستبدال القولي، هو إحلال قول محل قول آخر مع المحافظة على الوظيفة التركيبية.

والاستبدال يؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها الحذف من الاقتصادي والتكثيفي وعدم التكرار. ومن الأمثلة الواردة في الخطبة الفدكية ما يأتي:

الاستبدال الفعلي (أرسله - اجتلبه - ابتعثه - إتماماً - إمضاء - إنقاذاً - استوسع - استنهر.... الخ) والأصل فيها (أن يرسله، قبل أن يجتلبه، قبل أن يبعثه - تتميماً لأمره - تمضية لحكمه - تنفيذاً لمقادير حتمه - وسّع وهنه - نهر فتقه.... الخ).

الاستبدال الاسمي (سبوغ ـ مصونة ـ منكرة ـ منكشفة ـ منجلية ـ مائلاً ـ مرحولة ـ الغميزة.... الخ) والأصل فيها (سابغ أو سبغ، ومصانة ـ ناكرة ـ مكشوفة ـ مجلوة ـ ممال ـ راحلة ـ الغمزة.... الخ).

أما الاستبدال القولي فتكاد أسماء الإشارة والموصول والاستفهام دالة عليه والخطبة قد اشتملت على هذا النوع السياقي من الانسجام وتمثل ذلك في قول الزهراء (ع) (بعد اللتيا والتي، أرغبة عنه تريدون؟ أفلا تعلمون؟ سرعان ما أحدثتم... الخ).

والملاحظ على هذه العبارات إنها أضمرت كلاماً لا تريد الزهراء (ع) أعادته خشية التكرار، لذا لجأت إلى هذه الاختصارات تعويضا عن المحذوف واستبدالاً عنه.

الإحالات:

١- في البلاغة العربية، والأسلوبيات اللسانية، سعد مصلوح، عالم الكتب مصر ط ١ ٢٠٠٦، ص ٢٢٨، وينظر في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع عمان ٢٠٠٧، ، ص ٢١٣، ونحو النص بين الأصالة والحداثة، محمد أحمد عبد الراضي، القاهرة، ٢٠٠٨.

٢- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المغرب، ٢٠٠٦، ص ١٧، ونحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١، ص ٩٠.

٣- نحو النص بين الأصالة والحداثة، محمد أحمد عبد الراضي، القاهرة، ٢٠٠٨، ١١٠، وينظر النص، الخطاب، الأجراء، بوجراند، ترجمة تمام حسان، مصر، ١٩٩٨، ص ١٠٢.

٤- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، محمد إبراهيم الفقي، القاهرة ٢٠٠٩، ج ١، ص ٩٦.

٥- ينظر: علم اللغة النصي، ص ٩٣، ولسانيات النص النظرية والتطبيق، لندة قياس، القاهرة ٢٠٠٩، ص٢٦.

٦- في اللسانيات ونحو النص، ص ٢٢٧.

٧- لسانيات النص (خطابي)، ١٧.

٨- ينظر: نسيج النص، الأزهر الزناد، لبنان ١٩٩٣، ص ٣٧.

٩- المصدر نفسه: ٢٨.

١٠- ينظر: التطبيق النحوي، عبدة الراجحي، لبنان ٢٠٠٤، ص ٤٤٤، والنص والخطاب والاتصال، محمد العبد مصر ٢٠٠٥. ص١١٧.

١١- ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، الإسكندرية د٠ت ص ٩ ـ ١٧، وأصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، محمد الشاوش. بيروت د٠ت ص ١٣١.

١٢- ينظر: علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، مصر ٢٠٠٧، ص ١٦٩.

١٣- ينظر: الخصائص، ابن جني، القاهرة ١٩٦٢، ج ٣٦٠/١، واللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة صادق عبد الوهاب، بغداد د٠ت، ص ١١٢.

١٤- ينظر: نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عثمان ابو زيد، الجزائر، ١٢٧.

١٥- ينظر: لسانيات النص (خطابي): ١٩.

١٦- دور المنهج الاستبدالي في وصف العربية وتقعيدها، وليد عبد الله، الأردن، ٢٠٠٢، ص ٢٣ ــ ٢٤، ولسانيات النص (خطابي) ص ٢٠.

١٧- ينظر: دور المنهج الاستبدالي، ص ٢٠، ووجوه الاستبدال في القرآن الكريم، عز الدين محمد، لبنان، ٢٠٠٧ ص ٤١ ـ ١٢٩. ❖

المرجعيات القرآنية النصية وأثرها في بناء النص الخطابي (خطب السيدة الزهراء (ع) إنموذجاً)

د. مجيد مطشر العامر(*)

المقدمة:

يحاول هذا البحث الكشف عن جانب مهم في خطب السيدة الزهراء(ع) وهو النصوص القرآنية الموظفة نصياً في تلك الخطب(١)، وما خلفته من تلاقح وتواشج مع النسيج العام لبنيتها النصية، ولعل المرجعيات الدينية بشكل عام تعد مصدراً ثراً للإلهام الأدبي والبوح الفكري عند أغلب المبدعين وصناع الكلام، حيث درج الأدباء والمتكلمون وأصحاب النزعة الاستدلالية وغيرهم على الأخذ من تلك المرجعيات والاستعانة بها لتقوية أساليبهم الكتابية وفرض صحة ما يطرحونه من أفكار، وفي هذا المعنى يرى أحد الباحثين المعاصرين إن الكتاب المقدس كان هو المصدر الأساسي الذي يستمد منه الأدباء الأوربيون نماذجهم وأساليبهم وشخصياتهم، وأن عدداً كبيراً منهم قد تأثر ببعض المصادر الإسلامية وفي مقدمتها القرآن الكريم، حيث استمدوا من هذه المصادر الإسلامية الكثير من الموضوعات والشخصيات والأساليب التي كانت محوراً لإعمال أدبية عظيمة(٢)، وبناء على ذلك فان توظيف المرجعية القرآنية في النص الأدبي عموماً إنما هو تقوية وإسناداً لمواقف الأديب ورؤيته الخاصة، وكذا هو الحال في خطب الزهراء (ع) إذ استلهمت واستحضرت النصوص القرآنية لبلورة مواقف مخصوصة تارة مثل المطالبة بأحقيتها الفدكية، والدعوة إلى التفكر والتدبر في الخالق والخلق تارة أخرى، أو الكشف عن رؤية كونية عامة تارة ثالثة.

المرجعيات القرآنية:

وظفت السيدة الزهراء(ع) المرجعيات القرآنية في خطبها بأشكال متنوعة، يمكن أدراك ما تبدى منها لفهمنا القاصر بالأنماط الآتية:

١- المرجعية النصية لآيات القرآن الكريم
٢- المرجعية التركيبية لآيات القرآن الكريم
٣- الرجعية الإشارية لآيات القرآن الكريم

(*) جامعة ذي قار، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

٤- المرجعية الإيحائية لآيات القرآن الكريم

٥- مرجعية الشخصيات القرآنية

وفي هذا المقام سنحاول التركيز على المرجعية النصية لما لها من عظيم الأثر في تلك الخطب، وما تركته من تشاكل وتصاهر مع كلام الزهراء (ع) مخلفة مزيدا من المعاني والتداعيات في النص الجديد الذي حلت فيه امتزجت معه بعلاقات هي في غاية من التمكن والانشداد.

المرجعية النصية لآيات القرآن الكريم:

يتخذ هذا النمط المرجعي النصوص والآيات القرآنية التي استدعتها السيدة الزهراء (ع) في خطبها الشريفة، ميدانا لاشتغاله العقدي والدلالي والتشكيلي الفني، فمن خلاله وضعت الزهراء (ع) المتلقي الآني (جمهور الحاضرين زمكانياً) والمتلقي المستقبلي (جمهور المروي لهم والقراء) أمام جملة من الأبعاد والحقائق الدينية التي هضمتها هي وعملت عليها، ولاسيما أن جمهور الحاضرين لا زالوا قريبين جداً من عهد الوحي والرسالة المحمدية، وكيف لا والزهراء(ع) نفس أبيها ومستوع سره، فكانت (ع) خير من حفظ القران وعمل به ظاهراً وباطناً حتى خالط ذاتها، فلا عجب أن نجد القرآن قد تحول لدى الزهراء (ع) إلى منهج حياة متكاملة (سلوكاً وعملاً وثقافة...... الخ)[٣]، لذا سعت (ع) إلى بث وترسيخ الثقافة القرآنية في أذهان الناس، جاعلة الاستدلال بالنصوص والآيات القرآنية منفذاً إلى تلك الغاية أولاً، ومن ثم مطالبة المتلقي إدراك الغايات والأهداف الخاصة التي أرادتها الزهراء (ع) من خلال والاحتجاج بتلك الآيات والنصوص القرآنية ثانياً.

ومن تلك النصوص والآيات القرآنية التي اقتبستها الزهراء (ع) نصياً ووظفتها في خطبها ما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٧].

٥- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٨].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٩].

٧- قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[١٠].

٨ - قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١١].

٩ - قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٢].

١٠ - قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[١٣].

١١ - قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[١٤].

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١٥].

١٣ - قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[١٦].

١٤ - قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[١٧].

١٥ - قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١٨].

١٦ - قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[١٩].

١٧ - قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢٠].

١٨ - قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٢١].

١٩ - قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٢٢].

٢٠ - قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[٢٣].

٢١ - قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[٢٤].

٢٢ - قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[٢٥].

٢٣ - قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٢٦].

٢٤ - قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[٢٧].

٢٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٢٨].

٢٦ - قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[٢٩].

٢٧ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٣٠].

٢٨ - قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[٣١].

٢٩ - قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٣٢].

٣٠ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[٣٣].

إن هذه الوفرة الطاغية من الاقتباسات النصية لآيات الذكر الحكيم لتشي بحرص السيدة الزهراء (ع) على توظيفها بدلالاتها المباشرة لتمكن المتلقي من العودة إلى النص القرآني نفسه وبكل محمولاته (عبادات ومعاملات.......)، من ثم أدراك مدى التفاعل بين هذه الآيات المضمنة وكلام الزهراء (ع) على المستوى السياقي والنصي بشكل عام، بحيث أن الانكسار اللساني في هذه الخطب إذا ما أريد حسبانه، فلا يشير إلا إلى النص القرآني ومعطياته العبادية والرسالية، وان دل هذا على شيء فانه يدل على أن كلام الزهراء (ع) كان (يصدر عن رؤية كونية شاملة محاورها ثلاثة موضوعات لا انفصال بينها هي: الله والعالم والإنسان)[٣٤].

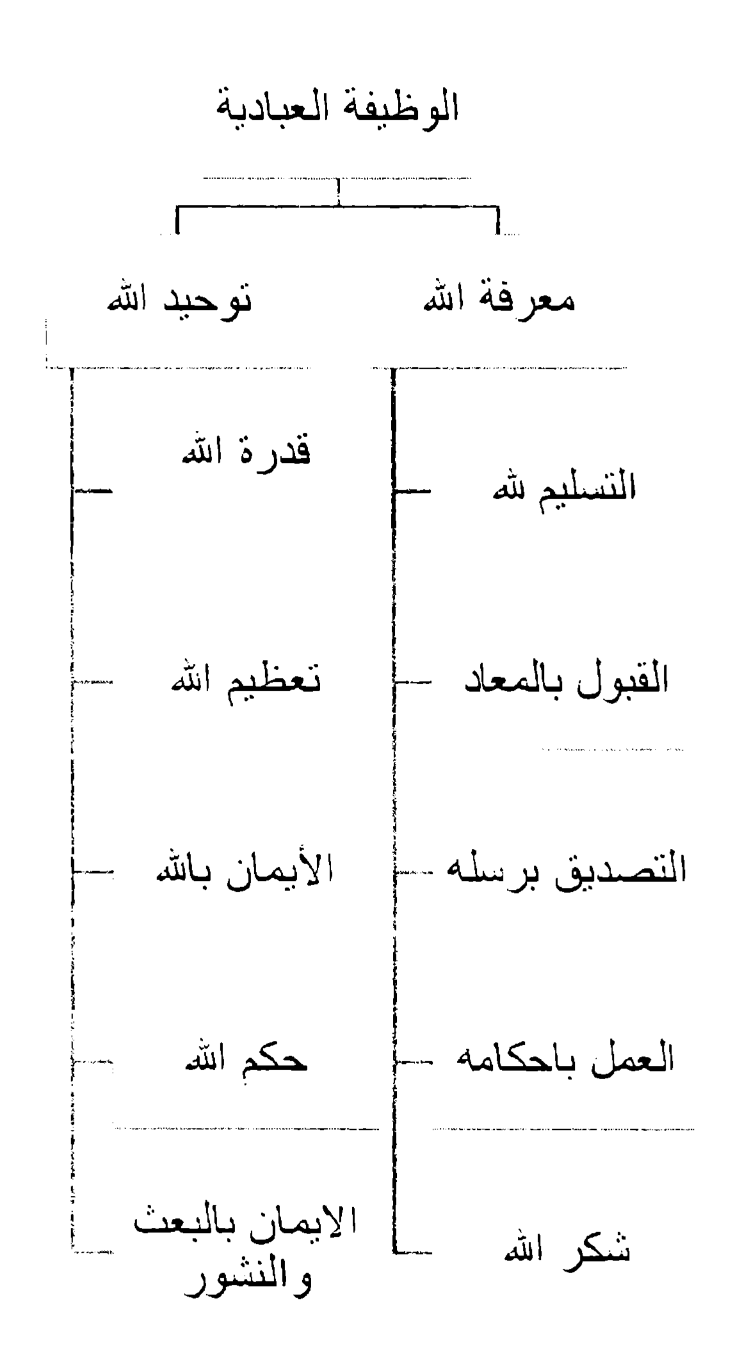
لذا سعت إلى فرض سلطة الخطاب القرآني القويم، الذي به قدمت احتجاجاتها المتنوعة وفي مقدمتها المطالبة بالشرعية الفدكية[٣٥].

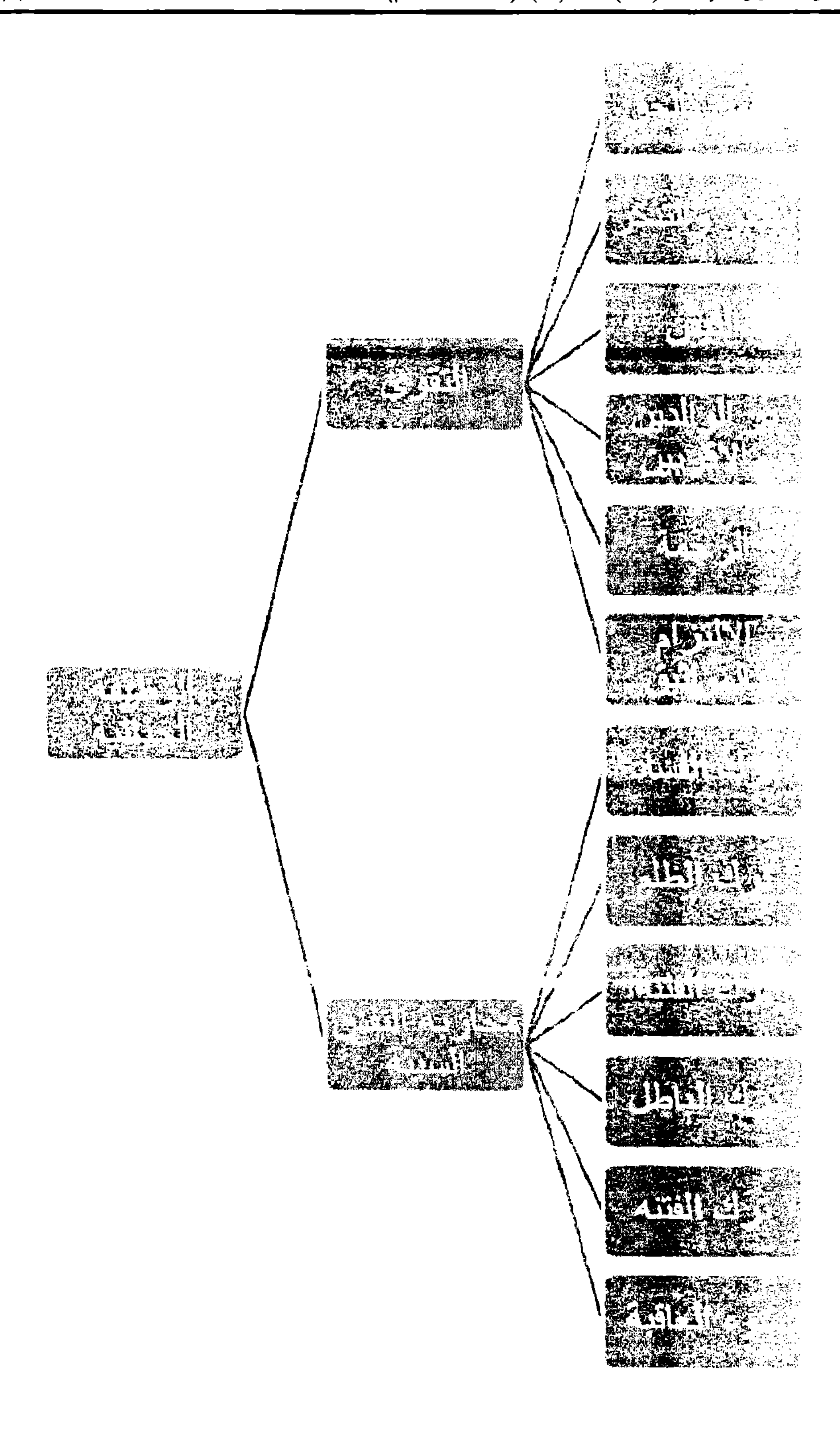
ويمكن تلمس أهم المعاني التي جاءت بها هذه النصوص القرآنية والتي استطاعت الزهراء (ع) توظيفها في تشكيل البنية النصية لخطبها الشريفة وهي كالآتي:

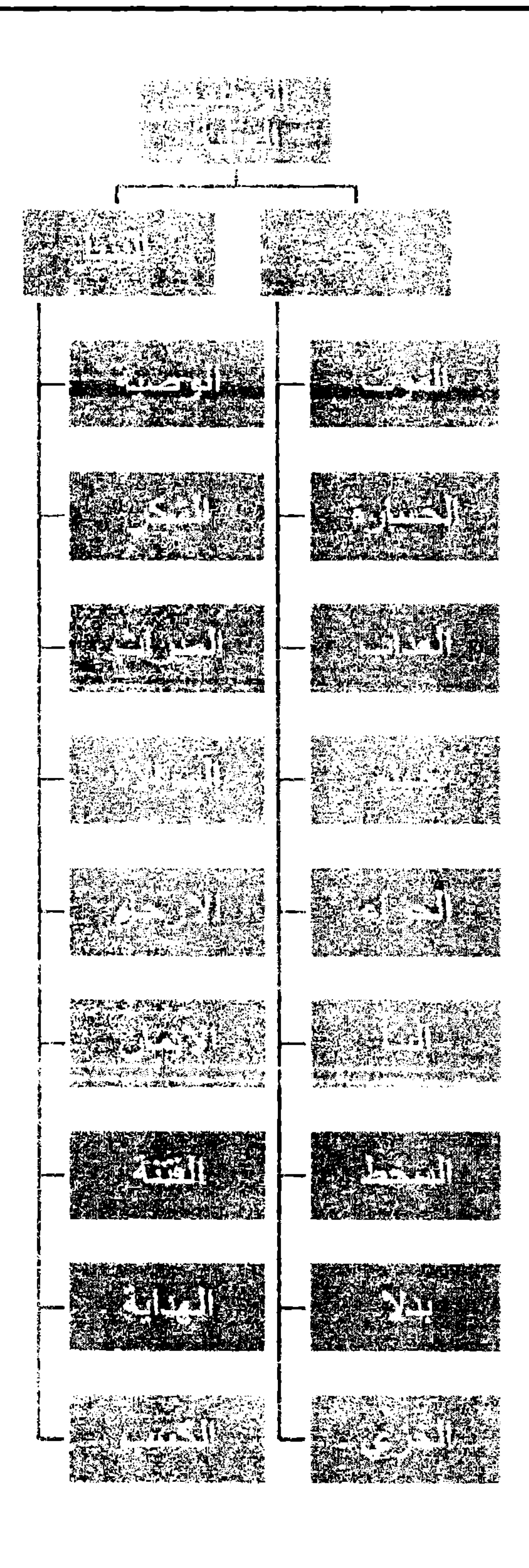
١ - تعظيم الله وتنزيه الباري.
٢ - قدرة الله وحاطته بكل شيء في هذا الكون.
٣ - معرفة الله وتوحيده والتسليم له.
٤ - معرفة الحق وإتباعه والسير بهديه.
٥ - شكر الله على آلائه وأنعامه.
٦ - ترك العبادات والعادات والتقاليد الجاهلية.
٧ - مصير الارتداد عن الإسلام وتعاليمه.
٨ - مصير الظالمين والإقامة في جهنم.
٩ - مصير المفسدين في الأرض.
١٠ - نقض العهود والمواثيق وقول الزور.
١١ - محاربة النفس الأمّارة بالسوء.
١٢ - الرسالة المحمدية وما جاءت بها من تعاليم.
١٣ - أوصاف الجنة ١٤حياة المتقين والصادقين.
١٤ - الخلود في النار.
١٥ - منزلة العلماء والعارفين والعابدين[٣٦].

وغير ذلك من المعاني غير الملحوظة، والتي تسمى بالمعاني الذهنية غير المصرح بها، ولا يستطيع إدراكها إلا من رسخت أقدامه في أرومة الثقافة المحمدية والفاطمية ذات الأبعاد الإلهية والربانية.

ويمكن حصر الوظائف المستقاة من تلك المعاني بثلاثة وظائف كبرى مهمة هي (الوظيفة العبادية والوظيفة الحياتية والوظيفة العقلية) ويقع تحت كل وظيفة منها جملة من الوظائف الصغرى ولعل الترسيمة التالية توضح تلك الوظائف جميعاً:




الباطل
الفتنة


الفتنة
بدلا
الهداية

من الواضح جلياً أن نصوص الزهراء (ع) الخطابية قد حفلت بالمرجعيات القرآنية النصية، فضلاً عن أنماط أخرى من المرجعيات القرآنية (التركيبية والإيحائية والإشارية وغيرها) التي لم يمسح حجم البحث من تناولها، ولم يك توظيف تلك المرجعيات توظيفا مباشرا لدلالاتها معانيها فحسب، وإنما استطاعت الزهراء (ع) أن تتشرب الآيات والنصوص القرآنية الموظفة وتفجر كل محمولاتها وطاقاتها التعبيرية سواء على مستوى اللفظة القرآنية[٣٧]، أو الآية القرآنية بكاملها تكسبها سياقياً لغة خطابية مؤثرة وبعداً دلالياً ينداح في الغايات والأهداف التي من اجلها أقيمت ونسجت تلك الخطب[٣٨]، ويتجلى ذلك في الموضوعات التي طرقتها الزهراء (ع) أثناء خطبها، وما تلك الثنائيات المتضادة أو المتوافقة التي ضمتها الوظائف الكبرى والصغرى إلا دليل على البراعة والقدرة التوظيفية المميزة في بناء نصوصها الخطابية.

ومن الجدير بالذكر أن الزهراء (ع) قد حققت من خلال هذا البناء النصي المرجعي عملية التواصل والتفاعل مع المتلقي، بدليل تمكنها من الدخول إلى عوالم عقلية وفكرية متنوعة، وحصول التأثير في هذه العقول جميعاً على اختلاف مستوياتها وزمانها ومكانها[٣٩].

إن الزهراء (ع) عندما أرادت تأكيد بعض الحقائق المقررة عن طريق إقامة الحجج والبراهين، أطلقت العنان لخطبها أن تأخذ طريق الاتساع والانفتاح على فضاء المرجعية القرآنية النصية، فلا يشعر المتلقي أن هناك تباينا بين بنية النصين (الآيات القرآنية/الكلام النثري) حيث يتعانق النصان في تلاحم وانسجام وتساوق، ليصبح السياق العام للنص المنتج في غاية الدقة والجمالية والانسيابية في التعبير عن الفكرة المراد توصيلها للمتلقين[٤٠].

وصفوة القول: إن القارئ المتمعن لنصوص السيدة الزهراء (ع) الخطابية يتراءى له جيداً ان هذه الخطب زاخرة بالمرجعيات القرآنية المتنوعة، ولعل المرجعية النصية (ميدان الدراسة) كانت أهمها وأعلاها، ولا مشاحة في ذلك لأنها (ع) تشربت نصوص القرآن الكريم، هاضمة إياها دلالة ومعنى، فهي ـ بحكم تكوينها ـ تمتلك القدرة على فهم معاني القرآن الكريم ودلالاته واستثمارها في توجيه ونسج نصوصها الخطابية على وفق ألوان متعددة من الأفكار والغايات.

ومن هنا يتضح لنا عمق التجربة الخطابية ونضجها من خلال تجليات المرجعيات القرآنية التي أريد لها في النهاية الانطلاق من الذات إلى الصوت الجمعي، لتنبئ عن رؤية كونية، ووعي تام بالدين الإسلامي بشكل عام، والقرآن الكريم بشكل خاص، ومن ثم الإعلام بقدرة التواصل مع القرآن الكريم، والإفادة منه في التعبير الأفكار والمعاني.

الهوامش والإحالات:

(١) أستقى البحث نصوص الخطب من مصادر متنوعة منها: الاحتجاج للطبرسي وللزهراء شذى كلمات لفرات الأسدي وفاطمة الزهراء (ع) للسيد الحكيم وموسوعة كلمات سيدتنا فاطمة الزهراء لمجموعة من المؤلفين وشرح خطبة الزهراء للمجلسي والتبريزي والسقيفة وفدك للجوهري البغدادي وغير من المصادر التي لا يتسع المقام لذكرها جميعا.

(٢) ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: د.علي عشري زايد، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٧ ص٧٥ ـ ٧٦.

(٣) ينظر: قبسات من سيرة القادة الهداة: مجموعة مؤلفين: مركز المصطفى (ص) العالمي للترجمة والنشر: قم المقدسة: الجلد الأول: ص ١٥٨ وما بعدها. ونهج الحياة موسوعة كلمات الزهراء(ع): محمد الدشتي الطبراني: مؤسسة أمير المؤمنين (ع) للفن والثقافة: قم المقدسة: ص ٢٩ وما بعدها.

(٤) التوبة/١٢٨.

(٥) البقرة/١٨٠.

(٦) البقرة/١٢.

(٧) آل عمران/٨٥.

(٨) آل عمران/١٠٢.

(٩) آل عمران/١٤٤.

(١٠) النساء/١١.

(١١) المائدة/٥٠.

(١٢) المائدة/٦٤.

(١٣) المائدة/٨٠.

(١٤) الأنعام/٦٧.

(١٥) الأعراف/٩٦.

(١٦) الأنفال/٧٥ والأحزاب/٦.

(١٧) التوبة/١٢.

(١٨) التوبة/١٣.

(١٩) التوبة/٤٩.

(٢٠) يونس/٣٥.

(٢١) يوسف/١٨.

(٢٢) إبراهيم/٨.

(٢٣) الكهف/٥٠.

(٢٤) مريم/٥ ـ ٦.

(٢٥) الحج/١٣.

(٢٦) الشعراء/٢٢٧.

(٢٧) الزمر/١٥.

(٢٨) فاطر/٢٨.

(٢٩) النمل/١٦.

(٣٠) محمد/٢٤.

(٣١) الزمر/٤٠.

(٣٢) غافر/٧٨.

(٣٣) الزمر/٥١.

(٣٤) ينظر: أساليب البيان في خطب السيدة فاطمة (ع): سعد الفرطوسي (بحث) مجلة دراسات البصرة: العدد الخامس: ٢٠٠٨.

(٣٥) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري: زكي نجيب محمود: دار الشروق: القاهرة: بدون تاريخ: ص٣٠.

(٣٦) تم استخراج هذه المعاني من مجموع الخطب، بناء على استقراء شخصي. أما ترتيبها ضمن الوحدات الدلالية التوظيفية الثلاث فكان عشوائيا لا يلتزم بنهج معين.

(٣٧) ينظر: شرح خطبة الزهراء (ع): المجلسي والتبريزي: مؤسسة البلاغ: بيروت ـ لبنان: ٢٠١٢ وفيه تعرض الباحثان للمفردة الواحدة وما تحمله من إبعاد دلالته وطاقة تعبيرية في مواطن كثيرة.

(٣٨) ينظر: أساليب الإنشاء في كلام السيدة الزهراء (ع): عامر سعيد الدليمي: العراق ـ النجف الأشرف: ٢٠١٢: ص٢٤٣

(٣٩) ينظر الأثر القرآني في نهج البلاغة: عباس علي الفحام: العراق ـ النجف الأشرف: ٢٠١٢: ص٢١٥.

(٤٠) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة: د. عبد اللطيف عادل: منشورات ضفاف: بيروت ـ لبنان: ص١٥٢ وما بعدها. ❖

البنى الصرفيّة في خطبة السيّدة الزهراء (ع)

د. بان صالح مهدي الخفاجي(*)

إنّ الدراسة الصرفيّة تعنى ببنية الكلمة ووظيفتها في التكوين اللغوي(١) إذ إنّ علم الصرف (يدرس بنية الكلمات، وأشكالها لا لذاتها وإنّما لغرض دلالي أو لغرض صرفي يفيد خدمة الجمل والعبارات)(٢).

وهذا البحث يروم الإفادة من معطيات الدرس الصرفي؛ ليوظفها في تحليل تجليات خطبة السيدة الزهراء (ع).

فإذا كان الدرس الصرفي قد اشتمل على قواعد تغيّر البنية، وإحصاء الصيغ والأوزان، وأثر موسيقى الشعر في توليد بعضها. فإنّ الدراسة التحليلية تفيد من ذلك كلّه في وصف أشكال الاستعمال اللغوي، والحكم على أسلوب النص بوساطة الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي.

والمستوى الصرفي له أهمية كبيرة في تحديد دلالات النص، ومعانيه ولاسيما ما يتعلق بالبنية الصرفية وما في تلك البنية من معانٍ متباينة يسوقها المُبدع لتحقيق الغاية المنشودة(٣).

فالجانب الصرفي من جوانب الدراسة المهمة، ولا يخفى ما لهذا المستوى من أهمية كبيرة في بيان المعاني التي تحملها الأبنية الصرفية لجملة من الألفاظ التي يسوقها المبدع لتحقيق الغاية المنشودة.

وما نبغيه في هذا البحث هو إبراز دلالات الأبنية الواردة في الخطبة الشريفة، ودورها في رسم ملامح أسلوب السيّدة الزهراء (ع) بغية الوصول إلى الأهداف المرجوة من الخطبة. ومحاولة الوقوف على القصدية التي أدت بها إلى انتقاء بناء ما في موضع معين، واستعمال بناء مغاير في موضع آخر. مفيدة بذلك من أهم خصائص اللغة العربية في تعدد الأبنية فـ(من خصائص العربيّة التي عدها العلماء لها ما تمتاز به من اتساع الأبنية، وكثرة الصيغ التي تستوعب المعاني التي يمكن أن تجيش بها نفس إنسان في وقت من الأوقات)(٤).

(*) كليّة التربية للبنات، جامعة بغداد.

(١) ينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي ٣٢١.

(٢) البنية اللغوية لبردة البوصيري، ٨٣.

(٣) ينظر: سور القيامة دراسة أسلوبية، ٤٨.

(٤) الاعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ٧.

ويعيننا في الوصول إلى مبتغانا القواعد التي حملتها كتب الصرف التي تبرّز معاني هذه الأبنية، علاوة على السياق الذي يحيط بالنص المدروس، والمقام الذي وردت فيه.

وقد انتظم هذا البحث في محورين:

الأول: تناول البنية الفعلية لما لها من أهمية فاعلة في التعبير عن المعاني بصورة مميزة، واشتمل الحديث فيه عن دلالات معاني أبنية الأفعال وقصدية استعمالها في الخطبة الشريفة، إذ بيّنت دقة استعمال كلٌ منها في موضعها.

والثاني: كان الحديث فيه عن المشتقات الواردة في الخطبة التي لا تقل شأناً عن أبنية الأفعال في رسم ملامح تشكيل النص ولاسيما في المستوى الصرفي.

أبنية الأفعال:

للفعل أهمية كبيرة وهو الأساس في البناء الصرفي: لأن بنيته ترتبط بالتغيّر والتحوّل، وتقوم السوابق واللواحق بدور رئيس في هذا التغيّر وما يتشكل عنه من معانٍ ودلالات مختلفة، وتقوم حروف الزيادة بدور مهم في الدلالة على المعاني المكتسبة: لذلك فإن انتقاء أبنية معينة في الخطبة الشريفة كان له دلالته ولاسيما إذا اتسق بناء الفعل ودلالته مع المعنى المراد من النص، ولبيان هذا الأمر حاولنا رصد الأبنية الواردة في الخطبة وبيان معانيها التي أشارت إليها كتب الصرف، ومن ثم استكناه توظيف تلك الأبنية لتبوح بالمراد. وهي على النحو الآتي:

أولاً: أفعل

الغرض من الزيادة إمّا معنوي فيراد فيها الحصول على معانٍ جديدة زائدة على معنى الفعل المجرد، أو لفظي يُراد منه الإلحاق فـ(كلّ كلمة اسماً كانت أو فعلاً فيها زيادة لا تطّرد في إفادة معنى، وساوت الكلمة بهذه الزيادة وزناً من أوزانه المجرّد في عدد حروفه، وحركاته، فهي ملحقة بهذا الأصل وزيادتها للإلحاق)[1] فإن لم تفد الزيادة معنى جديداً، ولم تكن للإلحاق، كانت لتوكيد المعنى أو المبالغة فيه[2]

وقد ذكر الصرفيون مجموعة معانٍ[3] تتأتى من زيادة الهمزة على الجذر الثلاثي (فعل) ومن معانيها الواردة في الخطبة الشريفة:

١ ـ التعدية:

وهو أشهر معاني (أفعل)، يقول الدكتور زين كامل الخويسكي: (وهي في هذه الحالة تأتي بمعنى جديد يهدف إليه المستعمل حتى يزداد بها الأداء دقة وقوة، وقد يُراد تهيئة

(١) المغني في تصريف الأفعال ٥٣.

(٢) ينظر: شرح الشافية ١/ ٨٣.

(٣) ينظر: الكتاب ٤/ ٦٠ـ ٦٣، وشرح الشافية ١/ ٨٣.

الذهن للنهوض بما يكسب الأداء الفني أصالة غير معهودة في الكلام وقد يكون الإيجاز بالتعبير عن المعنى الكثير بلفظ قليل)[١]،

ومثالها في خطبة السيدة الزهراء (ع): (**أنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها**)[٢].

جاء الفعل (أنشأ) على البناء (أفعل) ليحمل معنى (التعدية) إذ عدي الفعل (نشأ) إلى مفعول به بزيادة همزة في أوله ليصير (أنشأ) فهو فعل متعدٍ. والدلالة التي يحملها هذا التغيير لا تتعلق بمضمون تعدية الفعل أو لازميته إنّما تتمثل في أنّ الفعل إذا كان لازماً فيشير إلى أن الفاعل هو المنشئ نفسه وهو الذي يقوم بالفعل أمّا إذا كان متعدياً فالله هو الذي أنشأه وكوّنه. وهذه إشارة على عظمة الله وقدرته على عباده. فضلاً عمّا أداه هذا البناء في الفعل من انسجام موسيقي في الخطبة الشريفة لأنّه جاء متساوقاً مع الأفعال التي وردت سابقة له كـ (أنعم، وألهم، وأسدى، وأولى، وغيرها).

وورد أيضاً في قولها (ع): (**أطلع الشيطانُ رأسه من مغرزه**)[٣].

إذ حول الفعل من اللازم إلى المتعدي وهي في هذا الحال تنسب الفعل إلى المسبب فجملة (طلع رأس الشيطان) لا تشير إلى من تسبب بطلوع رأسه. أمّا (أطلع الشيطان رأسه) تشير إلى أنّ المسبب هو الشيطان. فهذا كان من وساوس الشيطان وهي إشارة إلى أنّ هذا الأمر بعيد عن الله عزّ وجل وهو حادث بأمر الشيطان الذي يأمر بالمعاصي.

وهذا ينطبق في أكثر من موطن استعمل فيه هذا البناء، ومن هذه المواطن قولها (ع): (**أبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض**)[٤]، فأشارت بالفعل (أبعد) الذي حمل دلالة التعدية من اللازم (بعُد) إلى أنّكم من تسببتم بإبعاد من له أحقية البسط والقبض وهذه كناية عن (الخلافة).

٢ ـ التوكيد والمبالغة:

ورد البناء (أفعل) ليفيد معنى التوكيد والمبالغة في الفعل ومثاله قولها (ع): (**فأنقذهم من الغواية**)[٥] لتشير إلى المهمة الجسيمة التي أداها الرسول الأعظم (ص)، وقيمتها السامية وهي إنقاذ المجتمع مما كان فيه، وانتشال الناس من واقعهم المرير، ونقلهم إلى واقع جديد أساسه المعاني السامية التي تجسدت بتعاليم الإسلام السماوية.

---

(١) الزوائد في الصيغ في العربية: ١٢.

(٢) الاحتجاج ١/١١٣.

(٣) الاحتجاج ١/١١٥.

(٤) الاحتجاج ١/١١٧.

(٥) الاحتجاج ١/١١٣.

ومن ذلك أيضاً قولها (ع): (**وأسفر الحق عن محضه**)[١] زيادة في التوكيد والمبالغة في الظهور فإنّ أسفر وسفر يحملان معنى واحداً لكنّها (ع) أرادت أن تشير إلى شدّة وضوح الحق الذي حاد القوم عنه، وابتعدوا.

ومن المواضع التي ورد فيها البناء (أفعل) ولا يراد منه إلا التوكيد هو قولها (ع): (**أخلدتم إلى الخفض**)[٢] ولا فرق بين الفعل (خلد) و(أخلد) إلا التوكيد.

ثانياً: (فعّل)

يدل البناء (فعّل) على مجموعة معان أهمها:

١ - المبالغة والتكثير:

إذ يومئ بناء (فعّل) إلى التكثير والمبالغة[٣] وقد وردت هذه الصيغة في الخطبة الشريفة في المواطن التي تدل على القوة والتحدي، وذلك نحو قولها (ع)، في معرض حمدها لله عزّ وجل وشكرها له على نعمه فتثني عليه قائلة: (والثناء بما قدّم)[٤] مبالغة بفضل الله ونعمه على العالمين التي قدّمها لهم.

ووردت هذه الصيغة أيضاً في حديثها الذي فصّلت القول فيه في كلمة الإخلاص والتوحيد ومخالفة الشرك فقالت عن هذه الكلمة: (**وضمّن القلوب موصولها**)[٥] وهذا البناء جاء منسجماً مع الفكرة التي تحملها هذه البنية التركيبية وهي تتحدث عن كلمة تعد أساس الدين ومرتكز الإيمان.

ثم تصل إلى الحديث عن قدرة الله عزّ وجلّ، وخلقه الأشياء من العدم وهذا موطن من مواطن الجدل وله ماله من الأهمية فتوظف البناء (فعّل) في هذا الموضع الذي يتحدث عن تكوين الله الأشياء فتقول: (**كوّنها بقدرته**)[٦].

وقد ورد هذا البناء في القصة التي بثّتها السيدة الزهراء (ع) في خطبتها، وهي محور الفكرة التي تبنى عليها الخطبة، وهي إرثها (ع) فقد جاء هذا البناء في استفهامها الإنكاري إذ زاد هذا البناء في المبالغة في الاستنكار فضلاً عن اقترانه بالهمزة فتعاضد كلٌّ من هذا البناء مع الاستفهام الإنكاري الذي يوحي بشدة استنكارها (ع) قائلة: (**أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها**)[٧].

---

(١) الاحتجاج ١/١١٤.
(٢) الاحتجاج ١/١١٣.
(٣) ينظر: الكتاب ٤/٥٥ . ٦٣، وأدب الكاتب ٣٥٤ . ٣٥٥.
(٤) الاحتجاج ١/١١٣.
(٥) الاحتجاج ١/١١٣.
(٦) الاحتجاج ١/١١٣.
(٧) الاحتجاج ١/١١٣.

إنّ أهمية تصوير حال الأمة قبل مجيء النبي محمد (ص)، وبعد بداية رسالته الخالدة. وحاجة هذين إلى التأكيد دفعا السيدة الزهراء (ع) إلى انتقاء بناء يحمل هذا التوكيد فجاء اختيار صيغة (فعّل) ملائماً للمطلوب. وفي منتهى الدقة. فاستعملته وهي تتحدث (ع) عن أبيها (ص) مؤكدة تبليغه رسالة الإسلام الخالدة. وأهمية هذا الحدث هو الذي دفعها إلى استعمال بناء (فعّل) الذي يشير إلى التوكيد، فقالت (ع): (**فبلّغ الرسالة صادعاً بالنذارة**)[1].

وعلاوة على معنى التوكيد الذي حمله هذا البناء في هذا الموضع أفاد معنى التدرج[2]، الذي يشير إلى طول الحقبة التي أدى بها هذا التبليغ، ومشقّة هذه العملية، فحمل هذا البناء المعنيين معاً.

واستعملت هذا البناء معاتبة من تخاطبهم وتلومهم على تركهم القرآن الكريم، وترك آوامره مكْبِرة هذا العمل ومستقبحة إيّاه. فصورته بهذا البناء، لتؤكد شناعته وقبحه قائلة: (**وقد خلّفتموه وراء ظهوركم**)[3].

وكان هذا البناء حاضراً حين شرعت السيّدة الزهراء في حديثها عن النبي المصطفى (ص) مشيرة إلى اختيار الله له واصطفائه قبل بعثته وتسميته قبل اجتبائه، ويبدو أنّ هذا الموضع الذي قد ينكره المنكرون به حاجة إلى التوكيد فورد مؤكداً دون الأفعال السابقة له واللاحقة. فقالت (ع): (وسمّاه قبل أن اجتباه)[4].

ويرد البناء (فعّل) في الحديث الذي جسّد مسيرة النبي محمد (ص) الخالدة والمهام الجسام الذي نهض بها (ص) ومن بين هذه الأفعال التي تحدّثت عمّا قام به وهي: كشف، وأنقذ، وقام، وهدى فعلان وردا بصيغة (فعّل) في قولها (ص)[5] والفعل (بصّر) في قولها: (**وبصّرهم من العماية**)[6]. فيتضافر معنى التعدية مع التوكيد: لتشير إلى تدخل النبي، وإسهامه في نقلهم من حالة إلى حالة.

وهذان الفعلان صور حال المسلمين قبل بداية الرسالة المحمدية الخالدة وكأنّ على عيونهم غشاوة أدت بهم إلى العماية فكانت الرسالة هي الوسيلة التي جلت الغمم عن الأبصار، وبصّرت الناس من العماية.

---

(١) الاحتجاج ١/١١٤.

(٢) أشار ابن جني إلى آن هذا البناء يفيد معنى التدرج في قوله: (إنما تُخبر آن هذا الفعل وقع منك شيئاً بعد شيء على تطاول الزمان)، ينظر: المنصف ١/٩١.

(٣) الاحتجاج ١/١١٥.

(٤) الاحتجاج ١/١١٢.

(٥) الاحتجاج ١/١١٢.

(٦) الاحتجاج ١/١١٢.

ثالثاً: فاعل

الأصل أن يكون هذا البناء بين اثنين، وذلك أن يفعل كل واحد منهما ما يفعل الآخر، ويعبر عنه بالمفاعلة[١]. ومن أهم معاني هذا البناء هو المشاركة، قال سيبويه: (اعلم أنك إذا قلت فاعلته، فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه)[٢].

ويرى الدكتور مصطفى جواد: (أنه على نوعين: مشاركة، وتهيئة إليها)[٣].

وقد جاء هذا البناء مشيرا إلى معنى المشاركة والتآزر في قيام الأعمال في قولها (ع): (قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم)[٤] وهذه المهام بها حاجة إلى تضافر الهمم، والتعاون من أجل تحقيقها لذا كان انتقاء البناء (فاعل) متساوقا مع هذا المعنى.

رابعاً: افتعل

يؤدي هذا البناء معاني: المبالغة، والطلب، والمشاركة، والاتخاذ، والمطاوعة والإظهار[٥].

وتدل زيادة الهمزة والتاء في الفعل الثلاثي على القوة والشدّة. والافتعال يعني حدوث الفعل بالمجاهدة والقوة [٦].

١ - التوكيد:

فمن معانيه الواردة في الخطبة الشريفة (التوكيد) إذ أفادت السيدة الزهراء من المعاني التي يحملها هذا البناء ووظفته في الخطبة الشريفة التي انسجمت دلالة هذا البناء مع جوها فقالت: (**ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها**)[٧] تلوح إلى قوة خلق الله للأشياء من العدم وفي هذا التوكيد مدح لقوة الله عزّ وجل.

ومثلما يرد هذا البناء ليؤكد الحقيقة التي يحملها، يرد منفياً لينفي المعنى المعبّر عنه فقد نفت الاتخاذ الذي هو أحد معاني هذا الفعل في قولها: (**وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها**)[٨] أي نفت أن يتخذ أمثلة يحذو حذوها، ويتمثل بها في الخلق.

وقد جاء هذا البناء ليحمل معنى التوكيد والمبالغة في الأفعال التي تحدّث عن اختيار الله لنبي الرحمة محمد (ص)، واجتبائه، واصطفائه قبل بعثته فقالت (ع): (**واشهد أنّ أبي**

(١) ينظر: أدب الكاتب، ٣٥٨، والصاحبي، ٢٢٢.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٨٠.

(٣) أوزان الفعل ومعانيها ٨٤.

(٤) الاحتجاج ١/١١٧.

(٥) ينظر: المبدع في التصريف ١١٥.

(٦) ينظر: شرح الشافية ١/ ١١٠.

(٧) الاحتجاج ١/١١٣.

(٨) الاحتجاج ١/١١٣.

محمداً عبده ورسوله اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه)[١] فضلاً عن التوازي المتحقق من تكرار هذا البناء الذي يشبه خيطاً يضم أطراف الموضوع، ويشكّل وحدة موضوعية في تناسق صوتي رائع.

وأعادت الفعل (ابتعث) في موضع آخر في قولها: (**ابتعثه الله إتماماً لأمره**)[٢].

٢ ـ الاتخاذ:

عبّر البناء (افتعل) عن الاتخاذ في الفعل (اصطفى) في قولها (ع) (**اصطفاه قبل أن ابتعثه**)[٣]: واصطفاه بمعنى اتخذه نبيًا والمراد اتخذ الله الرسول نبياً أي جعله نبياً.

خامساً: تفعَّل

ارتبط هذا البناء بدلالات توزعت بحسب المعاني التي يعبر عنها.

فمن معاني (تفعّل): مطاوعة (فعّل)، و(المبالغة) والتدرج[٤]، وقد بدا واضحاً هذا المعنى أعني التكلف والتدرج في قولها (ع): (**حتّى تفرّى الليلُ عن صبحه**)[٥] فجاء هذا البناء في الفعل (تفرَّى) إذ يفيد هذا الفعل في أصله التدرّج في حصول الفعل أو التكلّف في الإتيان به.

وكذلك ورد هذا المعنى متمثلاً ببناء (تفعّل) في قولها (ع): (**تحمّلتُم الكدّ والتعب**)[٦] ففي الفعل (تحمّلتم) إشارة إلى المبالغة والزيادة في شدّة ما تحمل المسلمون من الكدّ والتعب لأجل إرساء قواعد الدين الحنيف وبناء المرتكزات التي أسست عليها الأمة الإسلامية. فعبر هذا البناء عن شدة هذا التحمل، وهو معنى مستحصل من استمرار حمل هم الكد والتعب شيئاً فشيئاً، أي التدرج في حمله.

وهذا البناء ورد في قولها (ع) (**ولبئس ما تأوّلتم**)[٧] في الفعل (تأوّلتم) الذي بيّنت بوساطته شدة العمل الذي قام به المسلمون ضدها وفداحته وهو محور الخطبة الشريفة في قولها (تأوّلتم)، فالتأوّل هو تكلّف العودة إلى الأمر الأول.

---

(١) الاحتجاج ١/١١٣.

(٢) الاحتجاج ١/١١٣.

(٣) الاحتجاج ١/١١٣.

(٤) ينظر: الممتع في التصريف ١/١٨٣.

(٥) الاحتجاج ١/١١٤.

(٦) الاحتجاج ١/١١٧.

(٧) الاحتجاج ١/١١٩.

سادساً: انفعل

يفيد هذا البناء المطاوعة (وهي تعني قبول الأثر وعدم الامتناع عليه باعتبار المطاوع في الأساس هو المفعول به الذي يصير فاعلاً)[١] وقد ورد هذا البناء حاملاً هذا المعنى في قولها (ع): (**انحلّت عقد الكفر والشقاق**)[٢].

فالعقد طيّعة بين يدي رسول الله (ص) الذي أجهد نفسه في حلّ تلك العقد، ونشر الدين الإسلامي الحنيف، وبث أفكاره إلى العالم.

وكذلك ورد في قولها (ع): (**انهزم الجمع وولوا الدبر**)[٣].

طاوعوا الهزيمة لشدّة ما لاقوا من قوة جيش المسلمين وجهاده لهم.

وكذلك في قولها (ع): (**وانفتق رتقه**)[٤].

أي طاوع الانفتاق.

سابعاً: استفعل

وهذا البناء له مجموعة معانٍ[٥].

من معانيها: الطلب، والصيرورة.

١ ـ الطلب:

وقد ورد هذا البناء في الخطبة الشريفة في قولها (ع): (**استحمد إلى الخلائق بإجزالها**)[٦] أي أمر الخلائق بالحمد.

إنّ الله أمر العباد أن يكون مقابل عطاياه حمدهم وشكرهم.

٢ ـ الصيرورة:

وجاء هذا المعنى بوساطة البناء (استفعل) في قولها (ع): (**استوسع وهنه، واستنهر فتقه**)[٧] أي صيره واسعاً، وصار نهرا، وكذلك في قولها (ع): (**واستوسق نظام الدين**)[٨] أي صار وسيقاً، وجاء أيضاً في قولها (ع). (**والغدرة التي استشعرتها قلوبكم**)[٩] بمعنى شعرت

---

(١) الكتاب، ٤/٦٥.

(٢) الاحتجاج ١/١١٤ . ١١٥.

(٣) الاحتجاج ١/١١٤.

(٤) الاحتجاج ١/١١٦.

(٥) ينظر: الممتع في التصريف ١/١٩٥، وأوزان الفعل ومعانيها ١٠٧ ـ ١١٢.

(٦) الاحتجاج ١/١١٣.

(٧) الاحتجاج ١/١١٦.

(٨) الاحتجاج ١/١١٧.

(٩) الاحتجاج ١/١١٧.

وأحسّت بها قلوبكم فجاءت بمعنى الطلب والاستقصاء أي الغدرة التي رامت قلوبكم الشعور بها، والوصول إلى كنهها لأنكم كنتم تخططون لها مسبقاً.

فوظفت كلّ صيغة صرفية من تلك الصيغ في محلها ووضعتها في المكان الذي ينسجم وما تحمله من دلالة الأمر الذي يفسر كثرة استعمال هذه الصيغ في الخطبة الشريفة إذا ما قورنت بأبنية الاسم الواردة فيها.

المشتقات:

تعد أبنية المشتقات كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وأبنية المبالغة عناصر رئيسة في البناء الصرفي في خطبة السيدة الزهراء (ع) وقد استعملتها كثيراً إذ وظفت معانيها في تجسيد بناء خطبتها الشريفة، فضلاً عن التنوع في الأدوات الذي يكسب النص اللغوي رونقاً، ويضفي عليه جمالية السبك، علاوة على أن هذه الأبنية أسهمت في توليد جو صوتي من شأنه أن يحقق الغاية المنشودة من الخطبة الشريفة ومن أمثلتها:

١ - اسم الفاعل:

بنية اسم الفاعل مصدر من مصادر الثراء اللغوي في الخطبة الشريفة فقد حمل دلالات صوتية، وفنية.

واسم الفاعل، هو: (الصفة الدالة على الحدث والذات ومعناه التجدد والحدوث)[1]

يؤتى باسم الفاعل دون الفعل حين يراد الثبوت و(يقع اسم الفاعل وسطاً بين الفعل والصفة المشبّهة فالفعل يدل على التجدد والحدوث، فإن كان ماضياً دلّ على أن حدثه تمّ في الماضي. وإن كان حالاً أو استقبالاً دلّ على ذلك أمّا اسم الفاعل فهو أدوم وأثبت من الفعل ولكنّه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبّهة)[2]: لذلك نجد أن محلّ ورود اسم الفاعل في الخطبة الشريفة يشير إلى الأمور التي لا تكتسب صفة الثبوت المطلق، وذلك نحو قولها (ع): وهي تتحدث عن القرآن (**قائداً إلى الرضوان اتّباعه**)[3] ولعل عدم ثبوت أن يكون اتباع القرآن إلى الرضوان لما يتوجب من توافر الشروط المعينة في اتباعه، وهذه الشروط قد لا تكون موجودة في كلّ متبع فإنّ استعمال اسم الفاعل في هذا الموضع من خطبتها الشريفة فيه دلالة أرادت أن تبوح بها وهي أن يكون القرآن قائداً مع توافر شروط أخرى يجب أن يتصف بها من يتبع القرآن الكريم ليقوده إلى رضوان الله تعالى.

---

(١) الخصائص ٣/١٠٢.

(٢) معاني الأبنية ٤٧.

(٣) الاحتجاج ١/١١٤.

وكذلك كانت لفظة (عابدة) تحمل دلالة عدم الثبوت في قولها: (ع): (**عابدة لأوثانها**)[1] لأنّ عبادة الأوثان غير مستقرة، وغير ثابتة. وهذه الدلالة تنطبق على الأمثلة الأخرى التي ورد فيها هذه البناء، وذلك نحو قولها: (**ضارباً ثبجهم**)[2] و(**آخذاً بأكظامهم**)[3].

وخلاصة القول إنّ السيّدة الزهراء (ع) استعملت اسم الفاعل لتشير به إلى الأوصاف غير المستقرة، لما يحمل بناؤه من دلالة عدم الثبات والاستقرار.

٢ ـ الصفة المشبّهة:

ترد أبنية الصفة المشبهة لتؤدي وظيفة العدول عن (فاعل) إلى أبنية مختلفة ولتدل على معانٍ أبلغ من معاني (فاعل) وتكسب هذه الأبنية وقعاً موسيقياً في الاستعمال فهي ذات دلالة معنوية وموسيقية في البناء اللغوي، فضلاً عن أن الصفة المشبهة تدل على الوصف الثابت اللازم، وقد وردت الصفة المشبهة بأوزانها المختلفة، ومنها:

ـ فعيل:

وتدل صيغة (فعيل) على الوصف الثابت اللازم في باب الصفة المشبهة باسم الفاعل فتشتق أمثلة من أفعال الباب الخامس التي تدل على الطبائع والخصال الملازمة صاحبها كالحسن والقبح [4] وقد بدا هذا المعنى في أكثر من موضع من الخطبة الشريفة، وذلك نحو قولها (ع):

(**وهداهم إلى الدين القويم**)[5] فوصف القويم ثابت في الدين الحنيف غير متغير.

وكذلك الأوصاف التي نعتت بها الرسول المصطفى (ص)، وهي عزيز، حريص، رحيم تتصف بالثبوت وقد وردت في قولها: (**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم**)[6]

ومما وصفت به الله عز وجل قولها: (**فإنّ الله لغني حميد**)[7] وهي صفة ثابتة غير متغيرة.

علاوة على أنها نعتت الإمام علياً (ع) بصفة ملازمة له غير متغيرة وهي قربه من رسول الله (ص) في قولها: (**قريباً من رسول الله**)[8] إذ بيّنت آفاق العلاقة المتينة التي تربط

---

(١) الاحتجاج ١/١١٣.

(٢) الاحتجاج ١/١١٤.

(٣) الاحتجاج ١/١١٤.

(٤) ينظر: الكتاب ٤/٨٤، والصاحبي ١٩١. ١٩٢.

(٥) الاحتجاج ١/١١٣.

(٦) الاحتجاج ١/١١٤.

(٧) الاحتجاج ١/١١٧.

(٨) الاحتجاج ١/١١٥.

الإمام علياً(ع) بالرسول الأعظم (ص) فقد أفادت الصفة (قريباً) التي جاءت على بناء (فعيل) لتعزز صفة التلازم والقرب من الإمام علي ورسول الرحمة (ص) وهو بالتالي أمر رباني مفروغ منه.

وقد ورد استعمال بناء (فعيل) الصفة المشبهة معبرا عن معنى الثبوت في قولها التي عبّرت فيه عن عتبها الذي وجهته إلى من اغتصبها حقّها قائلة لهم: (**هذا والعهد قريب، والكلم رحيب**)[1] مشيرة بلفظتي (قريب، ورحيب) اللتين جاءتا على بناء (فعيل) الذي يعبر عن الثبوت لتؤكد شدّة اقتراب العهد من رسول الله (ص) الذي فارق الحياة قبل أيام قليلة والتحق بالرفيق الأعلى. فضلاً عن إشارة لفظة (رحيب) إلى أن جرح فراق النبي الأعظم (ص) لم يندمل بعد وهو جرح ثابت مستقر في ضمير السيدة الزهراء(ع) ومستقر في ضمير الأمة الإسلامية أيضاً، وقولها: (**وانا ابنةُ نذير لكم بين يدي عذاب شديد**)[2].

فصيغتي (نذير) التي هي صفة للرسول محمد (ص) صفة لازمة في حياته، وبعد انتقاله إلى الرفيق لبقاء أثره خالداً في نفوس المسلمين، وخلوده يتجسد في سنّته الشريفة التي رسمت طريق الهداية للعالم أجمع. وكذلك لفظة (شديد) صفة لعذاب الله فالشدّة ملازمة لذلك العذاب الذي يصدر بحق من يستحق ذلك العذاب.

٣ ـ فيعل:

ومن أوزان الصفة المشبهة الواردة في الخطبة الشريفة قولها (ع): (**بيّنة بصائره**)[3] و: (**سيّداً في أولياء الله**)[4] وكلا الصفتين (بينة) التي أشارت إلى حقيقة من حقائق القرآن الكريم التي ستبقى بصائره بيّنة لا خفاء عليها و(سيّد) التي نُعت بها أمير المؤمنين (ع) الذي سيسود الأولياء بمنزلته التي خصّه بها الباري عزّ وجل.

ـ اسم المفعول:

لقد استعانت السيدة الزهراء بصيغة (اسم المفعول) للشروع في بيان الحدث أولاً ومن وقع عليه الحدث. وهذا الأمر اتسق مع دلالة بنية اسم المفعول التي ترد للدلالة على الحدث ومن وقع عليه: بغية التأثير في المتلقي بوصفه الجهة التي قد تحتاج أحياناً إلى بعض التفاصيل للوقوف على حقائق النص الملقى إليه. وذلك نحو قولها (ع):

(١) الاحتجاج ١/١١٥.
(٢) الاحتجاج ١/١١٧.
(٣) الاحتجاج ١/١١٤.
(٤) الاحتجاج ١/١١٥.

(إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة)[١]. فقد عبرت كلّ من (مكنونة) و(مصونة) و(مقرونة) عن الحدث ومن وقع عليه الحدث.

وقولها (ع): **(به تنال حجج الله المنوَّرة، وعزائمه المُفسّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيناته الجليّة، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة)**[٢].

وكذلك قولها (ع) **(ولنعم المُعزّى إليه)**[٣].

وقولها (ع): **(مكدوداً في ذات الله)**[٤].

وقولها (ع): **(فدونكها مخطومة مرحولة)**[٥].

وقولها (ع): **(وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح)**[٦].

وقولها (ع): **(موسومة بغضب الجبّار)**[٧].

وقولها (ع): **(موصولة بنار الله الموقدة)**[٨].

فقد جاءت صيغة اسم المفعول في المواضع التي أرادت السيّدة الزهراء (ع) الإشارة فيها إلى من وقع عليه الحدث الذي تتحدث عنه، وتُريد أن تنقله للمتلقين، فاستعمال صيغة اسم المفعول جاء في المواضع التي لا يُغني ذكر الحدث فحسب، بل تكون الحاجة إلى ذكر ذلك الحدث، ومن وقع عليه الحدث.

- صيغ المبالغة:

تأتي صيغ المبالغة للدلالة على من دام منه الفعل، أو من كثر منه الفعل، أو من كان قوياً على الفعل، أو من اتصف به اتصافاً شديداً [٩].

---

(١) الاحتجاج ١/١١٣.

(٢) الاحتجاج ١/١١٤.

(٣) الاحتجاج ١/١١٥.

(٤) الاحتجاج ١/١١٦.

(٥) الاحتجاج ١/١١٧.

(٦) الاحتجاج ١/١١٧.

(٧) الاحتجاج ١/١١٧

(٨) الاحتجاج ١/١١٣.

(٩) ينظر: المباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة المطبوعة (دراسة موازنة)، ٢٣٧.

وقد وردت صيغة المبالغة في خطبة السيدة الزهراء في مجموعة مواضع. وقد توافق ورودها مع السياق العام الذي تدور فيه الأفكار إذ تعددت دلالات هذه الصيغة في الخطبة الشريفة من الإشارة إلى من كثر منه الفعل أو من اتصف به الفعل اتصافاً شديداً. ومثال ورود هذه الصيغة في الخطبة الشريفة قولها (ع): (**ورضوان الربّ الغفّار، ومجاورة الملك الجبّار**)[1] فنعتت الباري عزّ وجل بالغفار والجبار وكلا الوصفين قد اتصف بهما الباري اتصافا شديداً.

وبذلك تكون الخطبة الشريفة قد وظّفت هذه الصيغة بما يتلاءم مع المضامين المراد البوح بها. وبالربط بين دلالات تلك الصيغ، والمعاني التي عبّرت عنها في الخطبة يتضح بجلاء دقة انتقاء السيّدة الزهراء (ع) لتلك الصيغ، ودقة وضعها في مواضعها.

الخاتمة:

وفي الختام أقول: إنّ استعمال الأبنية الصرفية في الخطبة الشريفة جاء متساوقاً مع المضامين التي أرادت أن تعبر عنها السيدة الزهراء (ع)، فقد مثّلت أبنية الأفعال في الخطبة الشريفة ثورة انطلاق ساعدت على بيان كثير من الأفكار التي أرادت السيدة الزهراء (ع) أن تعبر عنها وتنقلها إلى المتلقي بصيغها الصرفية المختلفة وقد أفادت من الدلالات التي تحملها هذه الأبنية

وقد جاءت المشتقات لتحمل مفاهيم الثبوت والاستقرار ولكن بنسب متفاوتة كلٌّ بحسب موقعه، والغرض الذي استُخدم من أجله مع الالتفات إلى مراعاة السيدة الزهراء (ع) انسجام هذه الصيغ مع المدلولات العامة، فضلاً عن حضورها في الجملة الواحدة.

في حين كان استعمال صيغ المبالغة في المواضع التي كان بها حاجة للتوكيد وبيان شدّة اتصاف صاحب الحدث الذي تعبر عنه هذه الصيغ. فقد وظفت الدلالات التي تعبّر عنها أبنية معينة في حمل القيم الدلالية التي كانت تروم التعبير عنها، وليس ذلك بغريب وهي سليلة بيت النبوة الطاهرة، وعقيلة الإمام علي (ع) صاحب أعلى نصوص في البلاغة فليس غريبا على السيّدة الزهراء (ع) أن تنطق بهذه الكلمات التي تحمل هذه السمات، وهذه المعاني المختزلة في عبارات موجزة غاية في الفصاحة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

---

(١) الاحتجاج ١/١١٣.

قائمة المصادر والمراجع:

- **الاحتجاج:** الشيخ أبو منصور الطبرسي، دار المرتضى، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **أدب الكاتب:** أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق وضبط وشرح محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، مطبعة السعادة، مصر ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣م.
- **الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم:** الدكتور عبد الحميد أحمد يوسف الهنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٨م.
- **أوزان الفعل ومعانيها:** الدكتور هاشم طه شلاش، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧١م.
- **البنية اللغوية لبردة البوصيري:** رابح بوحوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٣ م.
- **الخصائص:** أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الرابعة، مطابع الهيئة المصرية العامة، مصر ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦.
- **الزوائد في الصيغ في العربية:** زين كامل الخوينسكي، إربد، ١٩٩٥م.
- **سور القيامة دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير):** مواهب عباس رافع الدليمي، كلية التربية/جامعة الأنبار، ١٩٩٩م.
- **شرح شافية ابن الحاجب:** الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاستربادي، تحقيق وضبط وشرح: محمد نور الحسن، و محمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، د.ت.
- **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها:** أبو الحسن أحمد بن فارس، تعليق: أحمد حسم بسج، الطبعة الأولى، منشورات أحمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- **الكتاب:** أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- **المباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة المطبوعة (دراسة موازنة)** (أطروحة دكتوراه): جنان ناظم حميد مجيد، كلية التربية للبنات/جامعة بغداد، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

المبدع في التصريف: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: الدكتور عبد الحميد السيد طلب، دار العروبة، بيروت د.ت.

- **معاني الأبنية في العربية:** الدكتور فاضل السامرائي، الطبعة الأولى، جامعة الكويت، ١٩٨١م.
- **المغني في تصريف الأفعال:** محمد عبد الخالق عضيمة، الطبعة الثالثة، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- **الممتع في التصريف:** ابن عصفور، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثالثة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- **المنصف.. شرح لكتاب التصريف لأبي عثمان المازني:** ابن جني، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- **نظرية البنائية في النقد الأدبي:** د. صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، د. ط، ١٩٨٧. ❖

التفاعل النصّي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع)

✍ د. محمد قاسم لعيبي(*)

المقدمة:

تنفرد الثقافة العربية بظاهرة التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم، **لأنها تؤثر في** عملية تواشج العلاقات النصوصية، فلا تعرف الثقافات الأخرى مثل هذا النص المقدس، فضلاً عن تفرده بوجوه إعجازه المختلفة.

لقد شكل النص القرآني رافداً غنياً لجميع النصوص ولا سيما الأدبية منها، فالنص القرآني تتوافر لديه القدرة على إلهام الأديب لما يحويه من معان تناسب كل زمان ومكان، إذ أنها تتصف بالقابلية على التجدد والتفاعل وعلى مختلف الأصعدة.

وعليه نجد استدعاء السيدة الزهراء (ع) لآي القرآن الكريم أو ألفاظه أو قصصه أو شخصياته أو أحداثه. إذ يمثل أهم خصيصة إنمازت بها الخطبة الشريفة. التي تمثل رؤية خاصة عند السيدة الزهراء عليا السلام فألبستها ثوبها الجديد بما يتناسب والموضوعات والمواقف المراد التعبير عنها.

فجاءت هذه الدراسة تسعى إلى رصد اتجاهات التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع)، والوقوف على آليات إنتاج الدلالة الجديدة وتوجيهها، وتحديد خصائص هذا التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم. عبر المحاور الآتية:

الاتجاه الأول: تمثل في التفاعل التركيبي للآيات القرآنية، الذي انقسم بدوره إلى قسمين، الأول اهتم بالتفاعل الكلي الذي يعتمد تفاعلاً كاملاً مع النصوص القرآنية، والآخر اهتم بالتفاعل النصوصي الجزئي الذي يعتمد نصا مع زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير

الاتجاه الثاني: اختص بالتفاعل النصوصي مع الألفاظ القرآنية

الاتجاه الثالث: عالج التفاعل النصوصي مع الشخصيات القرآنية

الاتجاه الرابع: تمثل في التفاعل النصوصي مع الأفكار القرآنية.

ولكن لكي يسبق ذلك تمام الفائدة، ولحاجة الدراسة، تناولنا مفهوم المصطلح والتأصيل التاريخي والمعرفي له عند النقاد العرب والغربيين، فضلاً عن تسليط الضوء على إشكاليات هذا المصطلح وتعدد مفهوماته ودلالاته في الدراسات النقدية الحديثة.

(*) جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد.

وانهينا الدراسة بخاتمة سجلنا فيها أهم النتائج التي توصل البحث عليها، وقائمة بالمراجع والمصادر التي أفادت منها الدراسة.

المصطلح والمنهج:

يعد التفاعل النصي أو التناص (Intertextuality) من المصطلحات الوافدة عن الغرب التي عرفت في أدبنا العربي الحديث، ويقصد به تولد نص واحد من نصوص متعددة[١]، وقد أشارت إليه الناقدة البلغارية (جوليل كرسيفيا) عام ١٩٧٠ في كتابها (نص الرواية: مقاربة سيميائية لبنية خطابية متحولة) وتعني به (ذلك التداخل النصي الذي ينتج داخل النص الواحد بالنسبة للذات العارفة، فالتناص هو المفهوم الوحيد الذي سيكون المؤشر على الطريقة التي يقرأ بها النص التاريخ ويتداخل معه)[٢] فالنص الواحد تتدخل فيه عدة نصوص أُخر يقوم خلالها باستيعابها وتمثيلها وتحويرها ومناقضتها أحياناً.

وكان معنى التفاعل النصي أو التناص مقصوراً أول الأمر على تعدد الأصوات (Phonypoly) في الشعر في أبسط معنى اشتقاقي له، وهو الازدواج في النظم بين الإيقاع المجرد وأصوات الحروف نفسها، وتطور بعد ذلك ليدل على تشابك المعاني الداخلية للكلمات مع معانيها أو نظائرها في نصوص أخرى خارج القصيدة، وتطور هذا الأمر حتى وصل إلى المعنى المصطلح عليه.

وهذا يدل على أن التفاعل النصي أو التناص عبارة عن عدة نصوص في نص واحد، من دون حدود لزمان أو مكان[٣]، وكما عبر (دريدا) (نسيج لقيمات أي تداخلات، لعبة منفتحة ومنغلقة في آن واحد، مما يجعل الأمر من المستحيل لديه القيام بـ (جينالوجيا genealogie) بسيط لنص ما توضح مولده. فالنص لا يملك أباً واحداً ولا جذراً واحداً، بل هو نسق من الجذور وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى محو مفهوم النسق والجذر، إن الانتماء التاريخي لنص ما لا يكون ابداً بخط مستقيم فالنص دائماً من هذا المنظور التفكيكي له عدة أعمار)[٤].

ولمغزى المصطلح جذور عربية، وإن أخذت مسميات ودلالات مختلفة، ومع ذلك فهي تصب في نصوص عربية قديمة ومتجددة، وقد تنوعت مفهومات تلك الحقول ما بين السرقات والمعارضات الشعرية، والمناقضات، ولاقتباسات والتضمينات، والإشارات والتلميحات والتوليدات، فضلاً عن الرموز والاستيعاب والتمثيل، مع اختلاف الأطر لكل حقل من تلك الحقول.

وقد تنوعت روافد هذا المصطلح في الأدب المعاصر بتأثير مدرسة النقد الجديد، **والأساس في** جميع الروافد هو التفاعل النصي أو التناص انطلاقاً من النص الشعري أو

النثري، باعتبار النص هو الجوهر المفاهيمي والدلالي الذي يؤخذ منه معطيات المصطلح الجديد.

وتكمن إشكالية التعريف بهذا المصطلح، بتعدد دلالاته ومفهوماته في الدراسات النقدية الحديثة، لأن أغلب الترجمات التي قدمت لهذا المصطلح، هي ترجمات لأشخاص مختلفين مكاناً واتجاهات ثقافية... الخ، لذا صيغ هذا المصطلح بصياغات عدة حول ترجمته ومفهومه تناقلها الباحثون على النحو الآتي:

- التناص أو التناصية
- تداخل النصوص أو النصوص المتداخلة
- النصوصية
- النص الغائب، ويقابلها النص الراهن أو النص الحاضر
- النصوص المهاجرة، والمهاجر إليها
- النصوص الحالة والمزاحة (الإحلال والإزاحة).

وغير ذلك من المصطلحات المترادفة، التي تتشابه في مدلولها - مع اختلافها - في تسمية المصطلح. ومع تعدد المصطلحات العربية والغربية، غير أنه يمكن الاستقرار على مصطلح (التفاعل النصي)؛ لأنه أكثر المصطلحات اتساعاً واستيعاباً لمفهوم العلاقة التفاعلية بين النصوص.

يعرفه محمد مفتاح بأنه (تعالق "الدخول في علاقة" نصوص مع نص حديث بكيفيات مختلفة)[٥].

أما محمد بنيس فيقترح صياغة جديدة فيسميه النص الغائب إذ يرى (إن النص الشعري هو بنية لغوية متميزة ليست منفصلة عن العلاقات الخارجية بالنصوص الأخرى)[٦]. أما عبد الله الغذامي فيقول فيه بأنه: (يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن البشري فهو لا يأتي من فراغ، كما أنه لا يفضي إلى فراغ، إنه إنتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي وهو بذرة خصبة تؤل إلى نصوص تنتج عنه)[٧]. ويستخدم صبري حافظ بدلاً من الغياب والحضور الإحالة والإزاحة فيقول: (النص عادة لا ينشأ من فراغ ولا يظهر من فراغ.. إنه يظهر في عالم مليء بالنصوص الأخرى، ومن ثمة فإنه يحاول الحلول محل هذه النصوص وإزاحتها من مكانها، وخلال عملية الإحلال والإزاحة قد يقع النص في ظل نص أو نصوص أخرى)[٨].

ومعنى هذا إن النصوص كلها - القديمة والحديثة - ترتبط بوشائج قربى، إذ لا يمكن إفلات النص الحالي من اتصاله بالنصوص السابقة.

وقد تنبه نقدنا القدامى إلى ضرورة اتصال الأديب بما سبقه، ولهم في هذا المجال جهود مميزة، غير أن أغلبها وقع تحت ظلال مسمى (السرقات الأدبية) وسواها ـ محمودة أو مذمومة ـ، وإن لم يذكر مفهوم التفاعل النصي أو التناص صراحة في المؤلفات التراثية العربية، ولكن هناك بعض الإشارات المتفقة معه والدالة عليه في بعض تلك المؤلفات من مثل: كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، وكتاب خزانة الأدب لابن حجة الحموي) وسواها من المؤلفات التي تنهض في شرحها وتفسيرها ونقدها من النص[٩].

ويشكل القرآن الكريم مادة غنية للأدباء والكتاب في مختلف الاتجاهات والموضوعات؛ لأنه يمثل مرجعاً فكرياً لتداخله مع النصوص الأدبية في علاقات تناصية بوصفه محور العلوم والمعارف.

إن توظيف النصوص الدينية – ولا سيما القرآنية – في الأدب يعد من أنجع الوسائل، وذلك لخاصية ذهنية في هذه النصوص تلتقي وطبيعة الأدب نفسه، وهي إنها مما يسعى الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره، فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينياً أو أدبياً[١٠].

وظاهرة التفاعل النصي مع القرآن (تنفرد بها الثقافة العربية وتؤثر في حركية عملية تشابك العلاقات التناصية فيها، فلا تعرف ثقافة أخرى مثل هذا النص الأب، النص المثال، النص المسيطر، النص المطلق، النص المقدس...)[١١] فضلاً عن كونه النص المتفرد في إعجازه البياني.

لقد أ صبح استرفاد النص القرآني من الوسائل التي يلجأ إليها الأديب دائماً، وقد نبه أئمة البيان وعلماء البلاغة إلى أهمية حفظ القرآن الكريم والمداومة على استخدام ألفاظه وعباراته، وممارسة حلها أو نثرها فيما يكتبون لتكتسب أساليبهم رونقاً وتعلوها طلاوة[١٢].

وإيماناً منا بالوشائج المتينة التي تربط السيدة الزهراء بالقرآن الكريم وبناءً على ما توافر من علاقات تفاعلية مع النص القرآني في خطبتها الشريفة التي شكلت ملمحاً بارزاً يمثل أهم السمات الفنية والموضوعية على حد سواء، كانت هذه الدراسة التي تسعى إلى قراءة اتجاهات التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع)، التي تمثلت على وفق المحاور الآتية:

أولاً: التفاعل النصي التركيبي

يظهر هذا المحور عبر التراكيب القرآنية ودورها في إنتاج الدلالة الجديدة وتوجيهاتها، **وتفاعلها** مع الحدث داخل سياق الخطبة الشريفة فيعطي لها قيمة دلالية، ويمثله ما تعدّق

اللفظة الواحدة، وشمل آية كاملة أو جزءاً منها، وتؤدي وظيفة مماثلة، ولكن من دون زيادة أو نقصان، أو ما اشتمل على آية أو جزء منها مع التباعد بين الألفاظ القرآنية ونص الخطبة الشريفة.

١ ـ التفاعل النصي الكلي:

وهو ما يأتي من دون زيادة أو نقصان، وفيه استخدمت السيدة الزهراء (ع) النص القرآني للتعبير عن مجموعة من المبادئ الإسلامية من مثل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، والوفاء وسواها، إذ تختتم ذلك بقولها (ع): (فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به)[١٣] عبر الاتكاء على النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[١٤].

فالنص القرآني يتحدث عن تقوى الله عز وجل وارتباط ذالك كله بطبيعة الإسلام والإنسان المسلم، ونص الخطبة الشريفة يتحدث عن طاعة الله ومن ثم أل بيت النبوة (ع)، غير أن السيدة الزهراء (ع) عملت على تداخل النص القرآني مع الخطبة الشريفة، إذ يمكن أن نلحظ الارتباط العضوي فيما ذكرته (ع) من أن طاعة آل بيت النبوة (ع) هي نظام للأمة وأن الإمامة هي أمان من الفرقة والضعف وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد مبادئ الدين، وها هي عيها السلام تمارس هذه المهمة وتطالب المسلمين بطاعة آل بيت النبوة (ع)[١٥] لتنطلق فيما بعد إلى الغايات الكبرى التي كانت السيدة الزهراء (ع) تروم تحقيقها في خطبتها الشريفة.

وفي موضع آخر من الخطبة الشريفة توجه السيدة الزهراء (ع) كلامها إلى عامة الناس بقولها: (أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد (ص)، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول عزيز عليه ما عنّتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)[١٦].

لقد شملت الألفاظ القرآنية مساحة واسعة من الخطبة الشريفة تنسجم ومضمون النصوص القرآنية عبر أسلوب التفاعل النصي لتتحرك هذه الألفاظ بصورة متوازية مع الدلالة الجديدة المراد طرحها، لتسجل المواقف التي أرادت السيدة الزهراء (ع) والوقوف عندها وتسليط الضوء عليها، وبالتالي نجد أن هذا التفاعل النصي قد جاء متوافقاً مع الحالة الشعورية لها في تلك اللحظة، فأتى التفاعل النصي مع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١٧]. فنص الخطبة الشريفة يعمد إلى الصور التمثيلية التي تمثل نمواً عضوياً لما طرحته السيدة الزهراء سابقاً، وبذلك تدخل عليا السلام عبر هذا المدخل إلى الموضوع الرئيس المستهدف لتخاطب

الجماعة، وقد عمدت (ع) إلى تقرير القول في (لا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً) إذ يمثل هذا التقرير أداة فنية لتمرير دلالة خاصة تستهدف من ورائها إرهاصا لما هو شديد الأهمية — ما هو قادم —[١٨].

لقد وظفت السيدة الزهراء (ع) النص القرآني توظيفا مناسباً، إذ كانت تمهد له بقولها (لا أقول ما أقول غلطاً...) وفيه تأكيد على عد القول من جانب وعدم الفعل من جانب آخر، لما هو غلط قولا أو ما هو شطط فعلاً، وعليه فقد قدم هذا التمهيد نفسه بوصفه دلالة رمزية لما هو آت. فاقتطعت السيدة الزهراء (ع) جزء من الآية الكريمة ليتم معها التوظيف في سياق الخطبة الشريفة، وفي كلا النصين تظهر سمات النبي الأكرم محمد (ص) وآل بيته الكرام.

٢ ـ التفاعل النصي الجزئي:

وهو ما يأتي نصاً مع زيادة أو حذف أو تقديم وتأخير في الآيات القرآنية المباركة.

لقد قدمت السيدة الزهراء (ع) حقائق تتصل بالنبي الأكرم (ص) في علاقته مع القوم من مثل إ نقاذه (ص) المجتمع المنحرف بقولها: (فبلغ الرسالة صادعا بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة)[١٩]. لقد اختارت السيدة الزهراء (ع) أن تذكّر القوم بدور الرسول الكريم في هداية المجتمع من الضلالة فاختارت هذه المرة صور جديدة عبر استلهام موضوعة (الجهاد) بعد أن كان الموقف السابق يتحدث عن الإنقاذ من خلال التلميح العام لمعطيات الرسالة المحمدية ولذلك تقول عنه (ص) ومجاهدته المشركين بأنه بلغ رسالة الله[٢٠] وقد جاء التفاعل النصي مع آي القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[٢١] فالآية القرآنية تخبر عن أساليب الدعوة التي اتبعها الرسول الكريم (ص) والسيدة الزهراء (ع) استخدمت الأسلوب المباشر الأمر الذي يثير المتلقي. والتفاعل النصي جاء عبر استبدال فعل الأمر (أدع) بالفعل الماضي (داعياً) واستبدال الضمير (الكاف) بالضمير (الهاء)، فالآية بتصدرها فعل الأمر تشير إلى حدث لم يقع بعد أما الفعل الماضي الذي استخدمته السيدة الزهراء (ع) فإنه يفيد وقوع الفعل وتحقق وقوعه، ليتناسب مع السياق العام للخطبة الشريفة، وقد أضفى التفاعل النصي مع القرآن الكريم على هذا المقطع لوناً من البريق الشعوري للمقابلة عن وصف أسلوب الرسول الكريم (ص) في تبليغ الرسالة السماوية السمحاء.

ثم تقيم السيدة الزهراء (ع) علاقات جديدة بين الدلالات عبر إيجاد روابط إضافية بين الجهاد في سبيل الله والانحراف الذي كان القوم عليه، فتقول: (وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطىء الأقدام، تشربون الطرق،

وتقتاتون القدّ، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (ص))[٢٢] لقد ظهرت في هذا المقطع من الخطبة الشريفة بعض الألفاظ التي تدعم صور انحراف هؤلاء القوم وهي بمجموعها تمثل سمات المجتمع الذي يغرق في الرذيلة والخنوع والذل من مثل: (تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلة خاسئين، تخافون، أن يتخطفكم الناس من حولكم)، وقد تفاعل نص الخطبة الشريفة مع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[٢٣].

لقد وظفت السيدة الزهراء (ع) النص القرآني لتظهر لنا ثنائية المواقف بين الإيمان والكفر عبر التركيز على مفاصل مهمة تتمحور حولها الدلالة الجدية التي تسعى إلى تقديمها وهي بالتالي تشغل مساحة مهمة من الخطبة الشريفة تقوم على معرفة الآخر بمكوناته المختلفة وموقف الذات المبدعة منه الذي تحاول فيه كشف حقيقة هذا الآخر وتعرية مواقفه السلبية ولا سيما الموقف من قضية ارث السيدة الزهراء (ع) الذي أخذ أبعاداً أخرى تنسحب على الموقف من الإيمان والكفر الذي ينسحب بدوره من أصحاب الشأن بشكل مباشر إلى عامة المسلمين الذين تمثل مواقفهم السلبية تجاه هذه القضية انحيازاً غير معلن مع الباطل على حساب الحق، الأمر الذي يؤشر بوضوح ازدواجية المواقف ويوضح بما لا يقبل الشك ما آلت إليه أمور المسلمين بعد وفاة الرسول الكريم (ص).

ثانياً: التفاعل النصي مع المفردات القرآنية

ظاهرة التفاعل النصي مع المفردات القرآنية، تمثل جانبا مهما وشغلت مساحة كبيرة من الخطبة الشريفة، لما تحمله من عمق دلالي وقدسية معينة في نفس المتلقي، فضلاً عن قدرتها على تزويد النص الجديد بعمق دلالي يسهم في إثراء السياق العام والأخذ بالتراكيب نحو نمو معنوي وعضوي أكثر فعالية وأنجع تأثيراً. وان هذه المفردات جاءت بصور مختلفة مابين صيغ فعلية وإسمية، واغلبها قد طبعت بالطابع القرآني الخالص الذي يمكن تلمسه بوضوح في متن الخطبة الشريفة.

تقول السيدة الزهراء (ع): (بقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيّنة بصائره، منكشفة أسراره، متجلية ظواهره)[٢٤] ففي هذا المقطع من الخطبة الشريفة نلمح بعض الألفاظ القرآنية التي ظهرت في النص الجديد – نص الخطبة الشريفة – والتي أتت متفاعلة مع قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾[٢٥] وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢٦]. والملاحظ هنا أن كلمة (بصائر) قد عضدت المعنى الجديد في متن الخطبة الشريفة، إذ تبدأ السيدة الزهراء (ع) بمخاطبة القوم ـ جماعة من المهاجرين والأنصار ـ عبر الاستعانة بمجموعة من

الصور تمثل مقدمات فنية للموضوع المستهدف، عبر التفاعل النصي مع القرآن الكريم، من خلال تأكيده (ع) على أن هؤلاء القوم هم بقية مستخلفة من قبل كتاب الله تعالى، الأمر الذي يمثل إلقاء الحجة عليهم علّهم يحاسبون أنفسهم حيال المسؤولية الملقاة على عاتقهم بوصفهم مسلمين، ولا سيما أنها (ع) ألمحت إلى هذا الموضوع بصورة مباشرة، لتؤكد بذلك التطابق بين أدلة القرآن الكريم وأدلة الحق للإمام علي (ع)، إذ قدمت صوراً تعتمد علة ما هو ناطق وصادق وساطع ولامع وبيّن ومنكشف ومتجلّ، فالنطق والصدق والانكشاف والتجلي والتبين والسطوع... تمثل مفردات منتخبة تقدم بكل وضوح دلالة جوهرية هي: وضوح البرهان وضوح الموقف ومع هذين الموقفين فإن تجاهل استمرارية الإمامة لا يمكن أن يقبل أبداً. ومثل هذا التناول يضع بين أيدينا أهمية التفاعل النصي مع القرآن الكريم على مستوى المفردات، فالنص القرآني يقترن بسمات تتناول جوانب مختلفة من مثل: العقائدية والأخلاقية والاجتماعية ولاقتصادية والعلمية... إلا أن الخطبة الشريفة اكتفت في هذا المقطع بعرض سمة واحدة هي: وضوح وتجلي وانكشاف وسطوع ونطق وصدق هذا القرآن، لتربط بين وضوح الحقائق المتقدمة ووضوح الموقف الذي ينبغي ألا يتجاهله القوم[٢٧]. ففي هذا المقطع استخدمت السيدة الزهراء عليا السلام لفظة (بصائر) التي تنتمي إلى القرآن الكريم والتي تدور حول سمات القرآن الكريم التي نقلت عن طريق النبي الأكرم (ص) وكما جاء في القرآن الكريم في سورة (الأعراف ٢٠٣) و(سورة الإسراء ١٠٢) و(سورة القصص ٤٣) و(سورة الجاثية ٢٠).

فالعلاقة بين الألفاظ القرآنية والخطبة الشريفة قائمة على أساس المساعدة في إظهار جميع جوانب الحدث الذي تريد السيدة الزهراء (ع) أن تقدمه وتجعله محور اهتمام المتلقي، وكأنها وثيقة لهذا الحدث عبر الاستعانة بأُطر الألفاظ القرآنية في سياق الخطبة الشريفة.

لقد اعتمدت السيدة الزهراء (ع) استعارة التراكيب القرآنية عبر الألفاظ فجاءت متماثلة مع الألفاظ القرآنية من حيث البنية الصرفية والنحوية مع اختلاف الدلالة، لإنتاج دلالة مختلفة داخل متن الخطبة الشريفة.

وعليه يمكن القول: إن أسلوب السيدة الزهراء (ع) يشي بغزارة الاستدعاءات للألفاظ القرآنية وتكثيفها داخل نص الخطبة الشريفة متمثلا في اللفظ والمعنى، مع التنبيه إلى تفاوت ذلك من مقطع إلى آخر كل بحسب أهمية الحدث الجزئي المراد التعبير عنه.

ثالثاً: التفاعل النصي مع الشخصيات القرآنية

تمثل الشخصيات القرآنية بما تحمله من أبعاد مهمة على المستوى الشخصي والعام روافد ثرة لمختلف النصوص الأخرى، نظرا لثرائها الدلالي وعمق تصويرها وبراعة تقديها لتمثل الأنموذج الرباني الذي يسعى الجميع على التأسي به وعلى مختلف الأصعدة.

وعليه فقد استطاعت السيدة الزهراء عليا السلام التنبه إلى أهمية الدور الذي تلعبه هذه الشخصيات في تقديم الدلالة المطلوبة وبالتالي توظيفها في تقديم الحدث الذي تريده في الخطبة الشريفة، مع التلاعب بالألفاظ، ومن الشخصيات التي استدعتها (ع) شخصيتي: (داوود وسليمان عليهما السلام) وتوظيفهما في المقطع الأخير من الخطبة الشريفة، وهو قسم له خصوصيته، ولا سيما أنه القسم الذي تحاجج به السيدة الزهراء (ع) خصومها بشكل مباشر عبر الاتكاء على الأدلة القرآنية.

والملاحظ أن الاعتماد على التفاعل مع النص القرآني في الخطبة الشريفة يظل من الوضوح بنحو لا يمكن مقارنته مع نصوص أخرى المماثلة، وهو الأمر الذي يستدعيه السياق الخاص وطبيعة الموضوع والظرف الذي طرح فيه والمقصود هنا تحديدا الاحتجاج به على قضية إرثها عليا السلام، ولا سيما أنها (ع) تأخذ على القوم عدم عملهم بمضمون القرآن الكريم، وعند إذ ما أحراها بأن تفيد منه هي في هذا الموقف، وهذا ما توافرت عليه بشكل ناجع، ولعل هذا الأمر يفسر (مدى التجانس بين مضمون الخطبة وأسلوبها الفني: في التوكؤ على النص القرآني)[٢٨] ببعديه الاحتجاجي والتفاعلي مع النص القرآني.

فقد جاء في الخطبة الشريفة: (أفي كتاب الله ان ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريا، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول وورث سليمان داوود)[٢٩]. لقد عمدت السيدة الزهراء (ع) إلى أسلوب السؤال المباشر، ثم بعد ذلك التعقيب والتهديد في نهاية المطاف اعتمادا على النص القرآني في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٣٠].

وفي ذات السياق تقول السيدة الزهراء (ع): (وقال فيما اقتص خبر يحيى من زكريا إذ يقول رب هب لي من لدنك وليا يرثني... وقال وأولو الأرحام.. وقال يوصيكم وقال إن ترك خيراً الوصية..)[٣١]. لقد اقترنت شخصية يحيى (ع) بشخصية زكريا (ع)، وتجاورت الشخصيتان للدلالة ولتأكيد حق السدة الزهراء (ع) في إرثها الذي أقره القرآن الكريم قبل كل شيء.

والسيدة الزهراء عليا السلام تخاطب القوم الذين أنكروا حقها وعليه كان استدعاؤها (ع) ليحيى وزكريا عليهما السلام للدلالة على الحق، حق إرث الأنبياء الذي أقر في القرآن الكريم ابتداءً.

لقد اعتمدت السيدة الزهراء (ع) في هذا التوظيف أسلوب المفارقة، إذ جعلت إرث سليمان داوود يقابلها لا إرث لها، وخبر يحيى من زكريا يقابله لا أرث لها وكما في المخطط الآتي:

الدلالة القرآنية الدلالة في الخطبة الشريفة:

إثبات/إقرار نفي/تتصل

وورث سليمان دوود لا إرث للسيدة الزهراء (ع)

خبر يحيى من زكريا

لقد تحققت المفارقة بين الصورة القرآنية والصورة الواردة في الخطبة الشريفة عبر بوابتي الإثبات والنفي، وعليه تفاعل المعنى المطلوب مع الشخصيات القرآنية لإنتاج الدلالة الجديدة المتوخاة، بشكل يتيح للمتلقي الوقوف على الحقائق عبر الاستعانة بالإقرار القرآني الصريح لحق السيدة الزهراء (ع).

إن أهمية هذا التفاعل النصي تكمن في الكيفية التي استخدم فيه، فمثلاً عندما تخاطب السيدة الزهراء عليا السلام (.. ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريا) نجد أن أسلوب السؤال من جانب، والتعقيب عليه عبر التفاعل النصي مع القرآن الكريم من جانب آخر يجسد أهم ملامح النص الجديد الذي يحمل مسؤولية تقديم الدلالات المغايرة بغية الحفاظ على شخصيته واستقلاليته مع الاعتراف بفضل النص القرآني في الدلالة الجديدة.

رابعاً: التفاعل النصي مع الأفكار القرآنية

إن امتصاص أفكار النصوص الأخرى يمثل مرحلة أعلى في قراءة النص الغائب، وهذا القانون ينطلق أساسا من الاعتراف بأهمية هذا النص وقداسته، فيتفاعل وإياه تفاعلاً حركياً تحوليا لا ينفي الأصل، بل يسهم في استمراره جوهراً قابلاً للامتصاص، ومعنى هذا أن التفاعل النصي لا يجمّد النص الغائب ولا يبعده، بل هو يعيد صياغته فحسب على وفق اشتراطات المرحلة التي ولد فيها النص الجديد، وبذلك، (يستمر النص غائباً غير ممحو ويحيا بدل أن يموت)[٣٢].

ومثل هذا الأمر حصل في خطبة السيدة الزهراء (ع)، في قولها: (والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منساة في العمر، ومنماة للعدد، والقصاص حقنا للدماء)[٣٣] إذ تجلى التفاعل النصي مع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[٣٤]. غير أن السؤال المهم الذي يطرح هنا ماذا حل بالنص الأصلي؟ الجواب ببساطة أنه ثمة تلخيص لقوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، فضلاً عن استرفاد المفاصل المهمة فيه وتوظيفها لبناء صياغة جديدة تخدم المعنى المطروح - الجديد - .

لقد عرضت السيدة الزهراء (ع) لمجموعة من المبادئ الإسلامية التي تحقق التوازن الاجتماعي للأمة، من مثل: (الأمر بالمعروف، والصبر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام) إذ تختم

السيدة الزهراء (ع) هذا المقطع من الخطبة بالتأكيد على أهمية التقوى التي بدورها مرتبطة عضويا بقضية تمثل مفصلاً مهماً في الخطبة الشريفة ألا وهي قضية طاعة آل بيت النبوة (ع) التي قدمتها الخطبة الشريفة بوصفها أمان للأمة من الفرقة والتشرذم وبالتالي الضعف والانهيار.

يتبين من خلال هذا المقطع من الخطبة الشريفة أن هناك بصمة واضحة للأفكار القرآنية السامية التي ارتفعت بالمجتمع إلى مصاف متقدمة إذا ما قيست بالمجتمعات الأخرى المعاصرة، فضلاً عن الإضافات البنائية، الأمر الذي أعطى نص الخطبة الشريفة عمقاً دلالياً وبعداً معنوياً إنماز بكونه يستمد وجوده من الأصل القرآني.

وفي موضع آخر من الخطبة الشريفة تقول السيدة الزهراء (ع) في معرض حديثها عن شخصية رسول الله (ص) وانتخابه رسولا من الله تعالى إلى البشرية جمعاء: (وأشهد أن أبي محمد "ص" عبده ورسوله، اختاره وانتخبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه)[٣٥]. لقد استخدمت السيدة الزهراء (ع) مفردات دقيقة تدل على معنى الانتخاب غير أنها تفترق إحداها عن الأخرى مما يكشف عن قدراتها (ع) اللغوية، إن استخدام هذه الألفاظ المترادفة (اختاره، انتجبه، اجتباه، اصطفاه) في موضع واحد مع أن لكل واحدة منها دلالته التي تميزها عن الأخرى له مبرراته على مستوى النظم والأسلوب والدلالة.

فهذه الصفات المتنوعة في شخصية الرسول الكريم (ص) وإرساله إلى البشرية مشفوعا بها يعني: أن الله تعالى قد رصد هذه فيه الصفات الإيجابية في شتى صورها ومن ثم ابتعثه إلى البشرية، الأمر الذي يشير بوضوح إلى علاقة هذا الانتخاب والرصد بما يرسم من المواقف والأحداث، فضلاً عن أن الرسالة السماوية تتطلب الانتخاب لشخص النبي محمد (ص) بوصفة أسوة حسنة الآخرين[٣٦]

وعليه يبدو واضحاً مدى التلاقح الفكري بين نص الخطبة الشريفة والنص القرآني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[٣٨] لقد حول التفاعل النصي مع القرآن الكريم في النص القرآني الأول الحديث من الإخبار عن الأنبياء (نوح، وآدم، وإبراهيم، وآل عمران) إلى الحديث عن شخص رسول الله محمد (ص) ن الأمر الذي أحدث تحولا على صعيد الدلالة التي تحول هذا الاصطفاء إلى الرسول الكريم (ص) بوصفه خاتم الأنبياء والمرسلين. أما في النص القرآني الثاني فقد حولت الخطة الشريفة الحديث من العام إلى الخاص وهو طبعاً ما يشير إلى شخصية الرسول الكريم (ص).

وهذا اللون من التفاعل النصي يخلق شعرية خاصة وواضحة على النصوص، لما له من قابلية على تطوير وقلب في الدلالة، كونه يقود إلى تصور جديد بأعلى قيمه، الأمر الذي يسميه النقاد بـ (شعرية التناص للنص الجديد)[٣٩].

الخاتمــــة:

لقد مثل القرآن الكريم عند السيدة الزهراء (ع)، مرجعاً فكرياً هاماً، لتداخله مع نصوص خطبتها الشريفة في علاقات تفاعلية عديدة، إذ استقت منه ما يقوي خطبتها ويدعمها.

فالدخول في علاقات تفاعلية مع النصوص القرآنية سمة تطبعت بها مختلف مقاطع وأقسام الخطبة بنحو لافت للنظر، ذلك إنها لا تمثل مجرد إفادة أسلوبية ودلالية من النصوص القرآنية، بل هي تشير إلى أن السيدة الزهراء قد أفادت من النصوص القرآنية في دلالاته المختلفة، الأمر الذي يتناسب مع ما جاء في متن الخطبة الشريفة.

لقد أكسب القرآن الكريم هذه الخطبة الشريفة، عمقاً جمالياً وفنياً، عبر التفاعل النصوصي، بالاسترفاد من الخطبة الشريفة، ممثلاً في الجزئيات والوحدات البنائية المتوالدة، إذ تلاحقت الأفكار داخل نسيج الخطبة الشريفة، اعتماداً على التلاقح المثمر مع النصوص القرآنية، الأمر الذي أسهم بقوة في بلورة آليات إنتاج الدلالات الجديدة، انطلاقاً من اعتماد السيدة الزهراء (ع) لغة وأسلوب القرآن الكريم ذاته، وبذلك تعتمد في تفاعلها النصوصي على المادة والأسلوب كليهما.

وعليه نخلص من دراسة التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع)، أنه سار في تفاعلاته النصوصية على عدة محاور:

١- استحضار الآية أو جزء منها بلفظها ومدلولها.

٢- استحضار الآية أو جزء منها، إما بزيادة أو نقصان أو الفصل.

٣- استخدام الألفاظ المفردة المتقاربة والمتباعدة في النص القرآني.

٤- استحضار بعض الشخصيات القرآنية وقصصها، ليقدم بها الحدث الجديد، مستعيناً بوجه الشبه بين الظروف والمواقف، وأحياناً ذكر حدث القصة.

٥- لم يأت التفاعل النصوصي منفصلاً عن بنية الخطبة الشريفة، بل جاء متوجاً لها عبر التداخل مع التراكيب والمفردات أو استدعاء الشخصيات أو الأفكار القرآنية.

أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه، وأن يتقبله بمنه وكرمه، وأن يجعله لبنه أخرى في صرح تراث السيدة الزهراء (ع).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على النبي الأكرم محمد بن عبد الله وعلى آل بيته الطاهرين وصحبه أجمعين.

الإحالات:

(١) ظهر هذا المصطلح الأدبي على يد البلغارية (جوليا كرستيفيا) عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ في دراستها التي نشرت في مجلتي (تيل كيل) و(كيتك) في فرنسا، وأعيد نشرهما في كتابها (سيميوتك) و(نص الرواية) في مقدمتها لكتاب (دستيوفيسكي) الذي ألفه ميخائيل باختين، إذ يذهب بعض النقاد إلى أنه أول القائلين بالتفاعل النصوصي، وهناك من يترجم (intertextuality) بالتناص أو التناصية أو النصوصية أو تداخل النصوص أو النص الغائب وسواها من المفهومات المترادفة. ينظر مفهوم التناص في الخطاب النقدي مقال ضمن كتاب في أصول الخطاب النقدي، مارك انجينيو، ترجمة أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧.

(٢) سيميائية النص الأدبي، أنور المرتجى، المغرب، ١٩٨٧: ٣١٢.

(٣) نقلاً عن بلاغة الخطاب وعلم النص، د صلاح فضل، عالم المعرفة (١٤٧) المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢: ٢٣٨.

(٤) تحليل الخطاب الشعري - استراتيجية التناص -، د محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٥: ١٢١.

(٥) ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، محمد بنيس، دار العودة بيروت، ١٩٧٩: ٢٥١.

(٦) ثقافة الأمثلة - مقالات في النظرية والنقد - عبد الله الغذامي، دار سعاد الصباح، ط ٢، ١٩٩٣: ١١١.

(٧) التناص وإشارات العمل الأدبي، د صبري حافظ، مجلة البلاغة المقارنة، العدد الرابع، ١٩٩٤: ١٣.

(٨) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب الوساطة لعبد القاهر الجرجاني، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، وكتاب عيار الشعر لابن طباطبا العلوي.

(٩) ينظر إنتاج الدلالة - قراءة في الشعر والقصة والمسرح - د صلاح فضل، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٢: ٤١.

(١٠) التناص وإشارات العمل الأدبي: ٢٧.

(١١) الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٠: ٨١.

(١٢) المصدر نفسه: ٨٥.

(١٣) الاحتجاج، الطبرسي: ١/١١٤.

(١٤) آل عمران: ١٠٢.

(١٥) أدب فاطمة، د محمود البستاني، د ت: ٤.

(١٦) الاحتجاج، الطبرسي: ١/١١٤.

(١٧) التوبة: ١٢٨.

(١٨) ينظر أدب فاطمة: ٤٠ - ٤١.

(١٩) الاحتجاج، الطبرسي: ١/١١٤.

(٢٠) ينظر أدب فاطمة، ١٤.

(٢١) النحل: ١٢٥.

(٢٢) الاحتجاج، الطبرسي: ١/١١٥.

(٢٣) آل عمران: ١٠٣.

(٢٤) الاحتجاج، الطبرسي: ١/١١٤.

(٢٥) الأنعام: ١٠٤.

(٢٦) الأعراف: ٢٠٣.

(٢٧) ينظر آدب فاطمة: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢٨) ينظر آدب فاطمة: ٦٨ ـ ٦٩.

(٢٩) الاحتجاج، الطبرسي: ١١٦/١.

(٣٠) النمل: ١٦.

(٣١) الاحتجاج، الطبرسي: ١١٦/١.

(٣٢) ينظر ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: ٢٥٣.

(٣٣) الاحتجاج، الطبرسي: ١١٤/١.

(٣٤) البقرة: ١٧٩.

(٣٥) الاحتجاج الطبرسي: ١١٢/١.

(٣٦) ينظر آدب فاطمة: ٣٠ ـ ٣١.

(٣٧) آل عمران: ٢٣.

(٣٨) النمل: ٥٩.

(٣٩) التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٤: ٦٤.

المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم

❖ أدب فاطمة الزهراء، د محمود البستاني، مؤسسة تعليم اللغات، قم، د ت.

❖ الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٠.

❖ أصول الخطاب النقدي ن مارك انجينيو، ترجمة أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧.

❖ إنتاج الدلالة – قراءة في الشعر والقصة والمسرح ـ، د صلاح فضل، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٣.

❖ بلاغة الخطاب وعلم النص، د صلاح فضل، علم المعرفة (١٤٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢.

❖ تحليل الخطاب الشعرى ـ استراتيجية التناص ـ. د محمد مفتاح. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ١٩٩٥.

❖ التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٤.

❖ ثقافة الأمثلة – مقالات في النقد والنظرية، عبد الله الغذامي، دار سعاد الصباح، ط ٢، ١٩٩٣.

❖ الاحتجاج، الشيخ أبو منصور الطبرسي، دار المرتضى، بيروت، ٢٠٠٨.

❖ سيميائية النص الأدبي، د أنور المرتجى، المغرب، ١٩٧٨.

❖ ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب – مقاربة بنيوية تكوينية ـ، محمد بنيس، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

الدوريات:

❖ **التناص وإشارات العمل الأدبي**، د صبري حافظ، مجلة البلاغة المقارنة، (ع) ٤، لسنة ١٩٩٤. ❖

أثر القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع)
دراسة في ضوء مصادر الخطابة في العصر الإسلامي

✍ أحمد حسن صاحب الموسوي(*)

تتولى الأيام وتنقضي الدهور، وتبقى السيدة الزهراء(ع) ذلك الكوكب الدري الذي لا يتغير بهاؤه ولا يخفت سناؤه، تبقى الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

لم تولد الزهراء لتموت، أو لتقف منظراً في متاحف الشمع، أو لتكون نظرية في برزخ الإثبات، أو لتسكن في أسطر مكتوبة في صفحات مطويات، أو لتكون على طاولة نقاش يؤلهها زيد ويكفرها عمرو، فما للزهراء وبحوث الأقلام مثلما للزهراء والحياة الدنيا ومثلما للزهراء وفدك والنفس مظانها جدث تنقطع في ظلمة آثارها وتغيب آثارها وحفرة لو زيدت فسحتها وأوسعت يداً حافرها لاضغطها الحجر والمدر.

وسد فرحها التراب المتراكم، ذلك لأنها نموذج الحق، وقمة الإيمان، ورمز لتحدي الظلم ومواجهة الجبروت..

ومن الملفت للنظر، إن المؤمنين عاشوا حياة فاطمة الزهراء (ع) في عقولهم، في سلوكياتهم، في عواطفهم، في ضمائرهم، من دون أن يثاقلوا منها أو ليسأموا أو ينتابهم الملل، وإنما تجد الأرواح تتجاذب نحوها تجاذب الفطيم إلى محالب أمه، ذلك لأن عطرها عطر الجنة أو لأنها الحقيقة المجهولة أو لأنها القبر المجهول أو السر المكتوم أو أم أبيها...

ولعل هذا الذي جعل السيدة الزهراء (ع) عنوان لتأليف مئات الكتب وآلاف البحوث وملايين الخواطر من قبل المثقفين وأنصاف المثقفين وكيف لا، والقرآن الكريم أول من شق الطريق للناس بالبحث عنها بالثناء عليها في آياته وبيناته.

وها أنذا أزاحم بقلمي أقلام الباحثين لأقول شيئاً بحق الزهراء (ع) علني أكون حبة تلتقطها عندما تلتقط الحب الجيد من الحب الرديء، في تلك الهيبة التي تطل على ساحة المحشر وجبرائيل آخذ بخطام ناقتها، ينادي بأعلى صوته: غضوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد (ص).

فسلطت الضوء على اثر القرآن الكريم في خطبتها المعروفة بالخطبة الفدكية على ضوء مصادر الخطابة في العصر الإسلامي إذ لم تسم بالفدكية ألا وهي تحمل كثير من معاني

(*) ديوان الوقف الشيعي، كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلامية.

التضحية والفداء الذي لازم الزهراء (ع) منذ أن فتحت عينيها على الحياة وهي في شعب أبي طالب تعاني مع الرعيل الأول من المسلمين برفقة رسول الله (ص) وأم المؤمنين خديجة (ع) من حصار مشركي قريش، الذي أذاقهم الجوع والعطش، وأبعدهم عن الناس وقتذاك لم تنتظر فاطمة (ع) أن تكبر حتى تلتحق بصفوف المناصرين للرسول والرسالة، والمجاهدين في سبيل الله، وإنما على صغر سنها بادرت بأعمال كبيرة، مما دعا رسول الله أن يناديها بأم أبيها.

ولم ينته دور فاطمة الزهراء (ع) في مكة المكرمة، وإنما امتد مع هجرتها إلى المدينة المنورة، حتى آخر لحظة من حياتها الشريفة حتى لم تتوان في الدفاع عن إمام زمانها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وقد نصرته بكل وجودها، حتى استشهدت وهي تحمل معها إلى الآخرة آثار الظلم الذي أصابها، الضلع المكسور، والجنين السقط، وكلمات مازال صداها يفضح صوت التاريخ من خطبتها في أرض فدك نحلة أبيها رسول الله (ص).

ومثلما كان للخطيب في العصر الإسلامي مصادر لابد أن يرجع إليها في خطبته كالقرآن الكريم والسنة الشريفة المتمثلة بأحاديث الرسول الكريم (ص) والشعر العربي.

فقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث:

تناولت في **المبحث الأول**: جانباً من حياة السيدة فاطمة الزهراء (ع) من ولادتها ونشأتها وتربيتها، تلك الولادة التي تشرف بها الكون بأسره وحفل بها تاريخ الإنسانية حتى أصبحت قدوة للناس وسيدة نساء العالمين.

والمبحث الثاني: كان دراسة موجزة عن مصادر الخطابة في العصر الإسلامي وكيف استطاع الخطيب الإسلامي أن يوصف القرآن الكريم في خطبته حتى يستطيع بمشافهته للجمهور من أن يقنعهم ويستميلهم، من خلال ما تمليه عليه ثقافته من الرجوع لمصدره القرآن الكريم فإما أن يفتتح خطبته بآية من الذكر الحكيم ويبني عليها كامل خطبته مستفيداً بذلك من موضوع الآية في عرض أفكاره للناس.

أو من خلال الاقتباس من القرآن الكريم في ثنايا خطبته لتدليل على صحة رأي أو لتفنيد رأي آخر أو لربما يكون الاقتباس من أجل نسج ألفاظ القرآن الكريم بألفاظ الخطيب حتى يكون الكلام قطعة نثرية ونسيج رصين.

أما **المبحث الثالث**: فكان تطبيقاً لمصادر الخطابة ومنها القرآن الكريم وكيف كان نصيب خطبتها (ع) من هذا المصدر في التدليل والتفنيد من خلال عرضها لآيات المواريث التي نص عليها القرآن الكريم والتي تزيف الحديث المفترى عن رسول الله (ص) وبينت أيضاً اقتباسها من ألفاظ القرآن الكريم بنسجها ألفاظ القران مع ألفاظها حتى اكسب الخطبة رصانة وقوة لا تدانيها خطبة خاطبة أو خطيب غيرها وقد عملت عرضاً لألفاظها وما يقابلها من آيات القرآن الكريم.

ومن ثمة الخاتمة وابرز النتائج التي توصل إليها الباحث ولا ادعي الكمال في بحثي هذا إنما أدليت بدلوي مع الدلاء رجاءً للإثابة وطمعاً في الرضا، وإفادة من خبرات العلماء الأعلام في هذا المجال.

المبحث الأول: ولادتها

ولدت السيد فاطمة الزهراء (ع) في شهر جمادي الآخرة يوم العشرين منه سنة خمسٍ وأربعين من مولد النبي (ص)[١]، وكان ذلك بعد مبعثه بخمس سنين وهو المروي عن الإمام الصادق (ع)[٢].

وما انعقدت نطفتها (ع) إلا بعد تأهب واستعداد، وكانت من ثمار الجنة، فقد روى الشيخ المجلسي (ت١١١١هـ/١٦٩٩) في البحار: (بينما النبي (ص) جالس بالأبطح[٣] ومعه علي بن أبي طالب (ع) وبعض الصحابة إذ هبط عليه جبرائيل (ع) فناداه: يا محمد العلي الأعلى يقرأ عليك السلام وهو يأمرك أن تعتزل خديجة (ع) أربعين صباحاً فشق ذلك على النبي (ص) وكان لها كبا وبها وامقاً[٤]، قال: فأقام النبي (ص) أربعين يوماً يصوم النهار ويقوم الليل حتى إذا كان في آخر أيامه تلك بعث إلى خديجة (ع) بعمار بن ياسر وقال لها: (لا تظني يا خديجة أن انقطاعي عنك هجرة ولاقلى ولكن ربي عز وجل أمرني بذلك لينفذ أمره..)[٥].

وبعد أن أكل الرسول (ص) من ثمار الجنة وحملت خديجة بفاطمة إثر هذا الثمر[٦]، فلما حضرت ولادتها وجهت إلى نساء قريش ونساء بني هاشم ليجهن ويلين منا ماتلى النساء من النساء فأرسلن إليها عصيتينا ولم تقبلي قولنا وتزوجت محمد (ص) يتيم أبي طالب (ع) فقيراً لا مال له فلسنا نجيء، ولا نلي من أمرك شيئاً فاغتمت خديجة لذلك، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة طوال كأنهن من نساء بني هاشم، ففزعت منهن فقالت لها إحداهن: لا تحزني يا خديجة فانا رسل ربك إليك، ونحن أخواتك، أنا سارة وهذه مريم بنت عمران وهذه كلثم أخت موسى بن عمران، بعثنا الله إليك لنلي منك النساء من النساء فجلست

---

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي الاصفهاني (١١١١هـ/١٦٩٩م)، بحار الأنوار، تح: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط٣مصححة، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، ج٤٣ص٦.

(٢) م. ن، ج٤٣ ص٦.

(٣) الأبطح: دقائق الحصى.

(٤) الوامق: المحب.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦ ص٧٨.

(٦) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه (ت٣٨٠ هـ/٩٩٠م) الأمالي، تح: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة (قم)، ط١ طهران – شارع سمية، (١٤١٧هـ)، ص ٥٤٦.

واحدة عن يمينها، والأخرى عن شمالها، والثالثة بين يديها، والرابعة خلفها فوضعت خديجة فاطمة (ع) طاهرة مطهرة[1].

نشأتها مع أبيها:

كان النبي (ص) يعظم شأنها (ع) ويرفع مكانها ويدلنا على ذلك الحديث المشهور عنه (ص) من أنه كان يكنيها بأم أبيها[2]، إذ أنه يحملها من محبته محلاً لا يقاربها فيه أحد، فبهذا الإكرام والتبجيل نشأت تحت رعايته وعناية أمين وحي السماء وربيب الرفيق الأعلى الذي نعته بـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3] فأنتج هذا تلك العبادة الروحانية التي أفضت إلى انه لم يكن في هذه الأمة اعبد من فاطمة (ع) كانت تقوم حتى تتورم قدماها[4] فأي نشأة تلك وأي عبادة جعلت منها مثالاً يحتذى عند نساء الإسلام التي كانت بحق أماً للأئمة الأطهار.

زواجها:

روي عن الإمام الصادق (ع) انه قال: (لولا أن الله تعالى خلق أمير المؤمنين (ع) لم يكن لفاطمة (ع) كفؤ على وجه الأرض آدم (ع) فمن دونه)[5].

هذه الرواية الشريفة تبين معنى جليلاً وهو أن الله تعالى لم يخلق للسيدة فاطمة كفوا إلا الأمام أمير المؤمنين (ع)، وكفى بها منقبة وأكرم بها فضيلة أن تكون سيدة نساء العالمين زوجة لأشرف مخلوق بعد أبيها رسول الله (ص) والذي هو نفس رسول الله بنص القرآن الكريم ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[6] وأخوه في الدنيا وخليفته بعد وفاته، ولولا أمير المؤمنين وسيد الموحدين لما كان لفاطمة (ع) كفؤ من النبي آدم فمن دونه.

وهذا هو السر في رد النبي (ص) كل من أتى لابنته فاطمة (ع) خاطباً. فإنه رد أبا بكر عندما تقدم خاطباً لها، ورد عمر بن الخطاب عندما تقدم خاطبا لها وهو يقول (إنني

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٦ ص٢٤٧.

(٢) ينظر، م.ن، ج٢٢ ص١٥٢.

(٣) سورة القلم، آية ٤.

(٤) ينظر المجلسي، (مصدر سابق)، ج٤٣ ص٧٦؛ الكجوري، محمد باقر، الخصائص الفاطمية، ترجمة وتحقيق: علي جمال اشرف، ط١، قم - دار نشر الشريف الرضي، (١٣٨٠ش)، ص٥٤٠

(٥) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق (٣٢٩هـ/٩٤٠م)، الكافي، تح: على أكبر، ط٥، طهران - دار الكتب الإسلامية، (١٣٦٣ش)، ج١ ص٤٦١.

(٦) سورة ال عمران، الآية ٦١.

انتظر في أمر فاطمة الوحي الإلهي)[١] مع انه (ص) لم يرد أحد خطب أخواتها وليس ذلك إلا لعلمه بان خلفاءه على الأمة لابد أن يكونوا منها، وان أبا الأوصياء لا يكون إلا بانعقاد الكفؤ بالكفؤ لتولي أمر الأمة من بعده (ص).

روى الشيخ المجلسي (رحمه الله) عن مجيء الإمام (ع) للنبي (ص) خاطبا ابنته فقال له النبي (ص): (يا علي انه قد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن على رسلك حتى أخرج إليها) فدخل عليها فقامت فأخذت رداءه ونزعت نعليه واتته بالوضوء وغسلت رجليه ثم قعدت فقال لها: (يا فاطمة فقالت، لبيك لبيك حاجتك يا رسول الله؟ قال: إن علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته وفضله وإسلامه واني قد سألت ربي أن يزوجك خير خلقه وأحبهم إليه وقد ذكر من أمرك شيئاً فما ترين، فسكتت ولم تدل وجهها ولم ير فيه رسول الله (ص) كراهة فقام وهو يقول: (الله أكبر سكوتها إقرارها) فأتاه جبرائيل(ع): يا محمد زوجها علي بن أبي طالب فإن الله قد رضيها له ورضيه لها[٢].

مقامها:

لا يوجد مقام لنساء العالمين كمقام فاطمة الزهراء (ع) فهي ابنة محمد (ص)، وهي قطعة كبد محمد (ص) وهي قلب محمد (ص) ووهي روح محمد (ص) التي بين جنبيه، فهل بلغ حب النبي (ص) لأحد من البشر ما بلغ من حبه لابنته فاطمة؟

قال رسول الله (ص): (فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني)[٣].

ثم يقول (ص) في حديث آخر: (فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله)[٤].

فأي مقام هذا، وأي منزلة تلك التي حازتها (أم الأئمة) بحيث صارت أذيتها أذية لله تعالى، وغضبها غضب لله تعالى، سمّاها أبوها فاطمة وحياً من الله تعالى على لسان ملَك بعثه إليه يخبره انه فطمها بالعلم وفطم شيعتها من النار[٥] كما أن الله تعالى قطع عنها الدم فلم تر مدة حياتها ما يعتري النساء عند العادة والنفاس تنزيهاً لها من جميع أنواع الرجس، وتفضيلاً لمن ارتضى في بطنها من طاهرين مطهرين.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٣ص٩٢.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٣ ص٩٢.

(٣) البخاري، ابو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، (لا.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، ج٤ ص٢١٠.

(٤) المجلسي، (مصدر سابق)، ج٢٩ ص١٥٧.

(٥) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م)، علل الشرائع، : محمد صادق بحر العلوم، (لا.ط)، النجف – منشورات المكتبة الحيدرية، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م)، ص١٧٨.

المبحث الثاني: مصادر الخطابة في العصر الإسلامي

بعدما أذاب الإسلام العصبية القبلية، وأصبحت السيادة للدين لا للنسب، والإخاء للرحمن لا للعصب، وان التغيير في العقلية العربية كان يستلزم حتما تغيير ما يصدر عنها من فكر أو تصور أو قول، فالشاعر الذي كان يقطر لسانه سموم العداوة والبغضاء، والفارس الذي كان يرتع بالدماء والأشلاء، والخطيب الذي يهيّج المنافرة والمفاخرة والهجاء، والغني الذي يتجر بقوت الفقراء، كلهم وقفوا منصتين صامتين لدعوة الإسلام فلا يقولون ولا يفعلون الا بأذن من الصادق الأمين، وهذا ما أفصحت عنه السيدة الزهراء في خطبتها وهي تشير إلى عظمة الرسول القائد (ص)[1] حيث قالت:

(﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾[2] مذقة الشارب[3] ونهزة الطامع[4] وقبسة العجلان[5]، وموطئ الأقدام، وكنتم تشربون الطرق وتقتاتون القدة والورق[6] أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد)[7].

فكان لزاماً على الأدب العربي ومنه الخطابة بأن يحط رحاله عند المصادر الإسلامية الجديدة التي اعتمدها قالب البناء الأدبي أو الخطابي، وهي[8]:

أولاً: القرآن الكريم

يعد أول كتاب دون في اللغة العربية، فهو واضع النثر الفني الإسلامي ومنبع المعاني والأساليب والمعارف التي شرعت آنذاك بأسلوب بديع لا عهد للأذهان بمثله، فهو آيات مفصلات متزاوجات، يسكن عندها الصوت ويسكت لها الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارئ[9] وعلى اعتباره كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، فقد أصبح مذهباً وقبلة للأدباء عامة والخطباء منهم خاصة، فكان تأثيره القوي في

---

(١) الصدر، محمد باقر، فدك في التاريخ، ط١، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، ص١٢٣.

(٢) شفا حفرة: جانبها المشرف عليها.

(٣) المذقة: بضم الميم، شربة من اللبن الممزوج بالماء

(٤) النهزة: بضم النون، الفرصة.

(٥) قبسة العجلان: الشعلة من النار التي يأخذها الرجل العاجل

(٦) الطرق بفتح الطاء وسكون الراء، الماء الذي خوضته الإبل وبوّلت فيه.

(٧) الأربيلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، (ت ٦٩٣هـ - ١٢٩٣م)، كشف الغمة، ط٢، بيروت - لبنان، دار الأضواء، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ج٢ ص١١١

(٨) ينظر الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ط١٣، مصر - شارع الفحالة، (لا.ت)، ص٨٦

(٩) الزيات، (مصدر سابق)، ص٨٦

نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة - في العصر الجاهلي - إلى تلك الصور الأنيقة التي نقرأها في خطب الرسول الكريم (ص) وخطب الإمام علي (ع) وخطبة السيدة الزهراء (ع) التي نحن بصددها، فظلت آياته على طول القرون قوة للخطيب وحلية للمنشئ، والمتصفح لخطب العرب في العصر الإسلامي يجد أن الخطيب قد اعتمد القران كأحد أهم مصادره، إلا أن هذا الاعتماد قد توزع بالشكل الآتي:

أ- يفتتح الخطيب الإسلامي كلامه بآية من القرآن الكريم فيبني عليها خطبته، أي أن الخطيب يأخذ من غرضها غرضاً له في عرض أفكاره التي يريد بها إقناع الجمهور، إن كان في ندب ورثاء، أو موعظة واعتبار، وغير ذلك[١] ونجد هذا جلياً في كثير من خطب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب (ع) لاسيما في خطبته التي تسمى بـ (القاصعة)[٢] التي ابتدأ الكلام بآية ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[٣] فاخذ الإمام (ع) تكبر إبليس عن السجود مثالاً للكلام عن التكبر والمتكبرين[٤].

ب- يأتي الخطيب بالآيات القرآنية في ثنايا خطبته تقوية لحجته وإثباتاً لدعوته أو لترغيب وترهيب يترك أثره في أذهان السامعين، حيث لا يمكن التخلي عن ذلك في امة تحتكم للقران الكريم[٥]، وهذا نجده واضحاً في خطبة السيدة الزهراء كما سيأتي لاحقاً - عند مطالبتها بأرض فدك[٦] وكذلك الذي يقرأ خطب الحجاج بن يوسف الثقفي[٧] يجد نفسه أمام سبك بياني من آيات القرآن الحكيم التي ينسجها

---

(١) الحوفي، أحمد محمد، فن الخطابة، مصر - القاهرة، (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م)، ص٢٤٢.

(٢) سميت بذلك لأنها تحقر المتكبرين والقصع في اللغة هو التحقير.

(٣) سورة الحجر الآيات ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٤) ينظر، ابن أبي الحديد، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنيّ المعتزلي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، قم - إيران، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، (١٩٦٧م - ١٣٨٧هـ)، ج١٣ص١٢٧.

(٥) البدوي، إبراهيم، فن الخطابة، ط٣، بيروت لبنان، دار المحجة البيضاء، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م) ص٢٣١.

(٦) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وهي ما أفاءها الله على رسوله (ص) في سنة سبع صلحاً، وهي التي قالت فاطمة (رض) إن رسول الله (ص) نحلنيها وطلب أبو بكر (رض) عنها بشهود، ياقوت الحموي، عبدالله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، (لا. ط)، بيروت - دار الفكر، (د. ت)، ج٤ص٢٣٨.

(٧) الحجاج الثقفي: هو الحجاج بن يوسف الثقفي الطائفي، مات سنة (٩٥هـ/٧١٣م). ابن العماد الحنبلي، عبدالحي بن أحمد (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت)، د١ ص١٠٦.

في ثنايا خطبته وبكثرة استدلاله بتلك الآيات لتظن إنه على حق وإن أهل العراق على باطل مع أنه قتل منهم مائة وعشرون ألفاً وتوفى في سجونه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة[١].

ج- مضافاً لما تقدم في النقطتين السابقتين، فقد يستخدم الخطيب البارع من القرآن الكريم عدة أشياء منها مثلاً الموضوعات أو القصص أو الحكم والأمثال أو الألفاظ وغير ذلك[٢] والمطلع علي خطب العرب الإسلامية يجد هذا واضحاً وجلياً أمام عينه، خذ مثلاً قول (أم الخير بنت الحريش)[٣] حيث تقول من خطبة لها وهي تحرض قومها على قتال معاوية ابن أبي سفيان: (... فكأني بكم غداً، وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض...)[٤].

أما عن خطبة السيدة الزهراء (ع) فقد أخذت ألفاظ القرآن فيها مأخذها حتى أن القارئ لها يجد نفسه بين آيات من القرآن وألفاظ منها شكلت بناء عضوي واحد، والذي سنبينه لاحقاً أيضاً.

ثانياً: الحديث النبوي الشريف

يعد الحديث الشريف أغزر ينابيع التشريع في العبادات والمعاملات، وأقوم طريق يؤدي إلى فهم القران ويفصّل إجماله، والأحاديث التي صحت عن الرسول الكريم (ص) اتسمت بطابع البيان والعبقرية لتضلعه (ص) من لغة القرآن وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب اللغوية العالية ووضع الألفاظ الجديدة في التشريع[٥]، فهو أفصح العرب لساناً وأقومهم بياناً، واثر البلاغة النبوية في اللغة العربية وعلومها وآدابها فأبين من يُبيّن، فقد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع وصفاء الحس وتمكن اللسان أضف إلى ذلك كله مؤازرة الوحي[٦].

(١) الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والادب، (لا. ط)، بيروت ـ لبنان، دار الكتاب العربي، (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م)، ج١٠ص٥٢.

(٢) ينظر، الحوفي، فن الخطابة، ص٢٤٢ وما بعدها.

(٣) أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية الكوفية: من المواليـــــات لعلي ابن أبي طالب (عليه السلام) لها محاورة رائعة مع معاوية بن أبي سفيان لم تذكر سنة وفاتهــــا. ابن طيفور، آبو الفضل ابن أبي طاهر (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، بلاغات النساء، (لا. ط)، قم المقدسة، مكتبة بصيرتي، (د. ت)، ص٣٧.

(٤) الميانجي، علي، مواقف الشيعة، ط١، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، (١٤١٦هـ)، ج١ ص٤٠١.

(٥) الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (ت٩٤٢هـ/١٥٣٥م)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، بيروت ـ لبنان، دار الكتب العلمية، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م)، ج١ص٦٧.

(٦) م.ن، ج١ص٦٨.

فكان (ص) يقتضب ويشتق وينهج المذاهب البيانية ويرتجل الأوضاع التركيبية ويضع الألفاظ الاصطلاحية فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان وسراً من أسرار اللسان ويزيد من ميراث اللغة ويرفع من قدر الأدب[1].

ومن أمثلة ذلك قوله (ص): (مات حتف انفه) قال علي (ع): (ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله (ص) وسمعته يقول مات حتف أنفه)[2] فأصبح حديثه (ص) قبلة ومطلباً للخطباء يعتمدونه في كلامهم ويضمنونه ألفاظهم.

ثالثاً: الشعر العربي

لم يكتف الخطباء بان يأخذوا من القرآن الكريم والسنة الشريفة مصادر لخطبهم بل تعداه إلى الأخذ من الشعر العربي أيضاً، وحسبنا من هذا إنهم أهل الشعر ومادته[3]، ولم يكن شرطا على الخطيب بان يلجأ إلى الشعر كما كان عليه في القران والسنة ولكن العرب يعدون الشعر العربي موطن مفاخرتهم ومحلاً للإفصاح عن بيانهم، وبالتالي يكون لزاماً على بعض الخطباء بأن ينثر أبياتاً من الشعر في ثنايا خطبته، فيكون موقع تلك الأبيات مطابقاً لواقع الحال وكأنك تقرأ مثلاً مقتبساً من واقع الحياة ويكون البيت أو البيتين من الشعر هو بمثابة اختصار لعدة جمل يلخصها بتلك الأبيات[4]. وكان هذا جلياً عند السيدة الزهراء أثناء خطبتها حينما قالت (وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون، ثم عطفت على قبر أبيها (ص) وقالت:

قد كان ابناء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم وقد نكبوا[5]

إلى آخر الأبيات.

يتبين من ذلك إن شهادة الشعر على نحو خاص من الأهمية عند الخطباء خصوصاً إذا كان الشعر ثابتاً ومسلم به عند من يسمعه ليجعله شاهدا له على صحة كلامه، وناصراً له في إثبات ادعائه.

---

(١) م.ن، ج١ص٦٨

(٢) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (٨٤٥هـ/١٤٤١م)، إمتاع الأسماع بما للنبي (ص) من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تح: محمد عبد الحميد النميسي، ط١، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ج٢ ص٢٦٢.

(٣) الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص٢٩.

(٤) البدوي، فن الخطابة، ص٢٢٩.

(٥) الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الاحتجاج، تعليقات وملاحظات: محمد باقر الخرسان، (لا.ط)، النجف الأشرف، منشورات النعمان، (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م)، ص١٢٢.

المبحث الثالث: أثر القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء (ع)

تبين فيما سبق بأن الخطيب الإسلامي بات من الضروري بمكان أن يرجع إلى القرآن الكريم على اعتباره المصدر الأول الذي يملي عليه الرجوع إليه في أمة أصبحت تدين بدين الإسلام لها وترى منه هذا الكتاب مشتملاً على أصول الدين المشتمل على الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الخطابي القوي المؤثر الفعال[١]، وهذا ما دعت إليه السيدة الزهراء (ع) في خطبتها التي ضمنتها القرآن الكريم، وكان استخدامها القرآن الكريم لا يعدو أن يكون من خلال ما يأتي:

الأول: استخدام آيات القرآن الكريم بصورة مباشرة، الغرض منها هو (التدليل)[٢] فكثيراً ما يحتاج الخطيب البارع إلى التدليل على صحة رأيه بأدلة منطقية مبنية على مقدمات ثابتة يقينية[٣]، وأي أدلة ثابتة يقينية ترقى إلى الأدلة القرآنية التي اعتمدتها الزهراء (ع).

فتوزعت الآيات القرآنية في خطبتها كالأتي:

أ. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] وبعد مقدمتها افتتحت خطبتها بذكر أبيها رسول الله (ص) وهي تدلل على أن الرسول من العرب، يشق ويعز عليه وقوعكم في الشدة لأجله، حريص على توفير وسائل السعادة لكم، بالمؤمنين من هذه الأمة رؤوف رحيم، كلمتان مترادفتان، معناهما العطف واللطف والحنان[٥].

ب. ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٦].

وجاءت هذه الآية بعد قولها (ابتداراً[٧] زعمتم خوف الفتنة)، وقد دللت باليقين القرآني أن الفتنة أنتم، وعملكم هو الفتنة المفسدة، غصبتم الحقوق عن أهلها لأجل الوقاية من الفتنة حسب ادعائكم، وأي محنة أعظم من تغيير مجرى الإسلام، وتبدل أحكامه وغصب حقوق أهل البيت (ع) ومعاملتهم بتلك القسوة والخشونة[٨].

---

(١) ينظر الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ص٨٨.

(٢) التدليل: وهو من العرض الذي يعد أحد أجزاء الخطبة. الحوفي، فن الخطابة، ص١٢٩.

(٣) ينظر، الحوفي، فن الخطابة، ص١٢٩.

(٤) سورة التوبة: آية ١٢٨.

(٥) القزويني، محمد كاظم، الخطبة الفدكية لفاطمة الزهراء (ع)، ط١، مطبعة النجف الأشرف، (١٤١٣هـ)، ص٧٥.

(٦) سورة التوبة، الآية ٤٩.

(٧) ابتداراً، معاجلة.

(٨) القزويني، الخطبة الفدكية، ص٩٥.

ج. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[١].

وجاءت هذه الآية الخطيرة بعد أن حذرتهم من تركهم الحكم بالقران فيكون ذلك خروجاً عن ملة الإسلام الأمر الذي يؤدي إلى الخسران المبين في الآخرة.

ثانياً: استخدام آيات القرآن الكريم لغرض آخر وهو التفنيد[٢]: **ويكون عن طريق** مناقشة آراء الخصم وأدلته لأبطالها، سواء أكان التفنيد للآراء العامة التي دعا إليها الخصم، أم النتائج التي استنبطها[٣].

وكثيراً ما يضطر الخطيب إلى تفنيد ما قاله خصمه، ليمحو من النفوس أثره، وهذا ما استعرضته السيدة الزهراء (ع) لكل آيات الإرث التي تفند الحديث الذي اختلقه نفر من أصحاب رسول الله (ص) ونسبوه إلى الرسول (ص) فأبطلت ذلك الادعاء بالأدلة القاطعة والحجج الساطعة المأخوذة من القرآن والتي أعجزت ذلك النفر عن تفنيدها.

والتي جاءت بعد قولها:

يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً؟ أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم[٤] إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾[٥].

وقال فيما اقتص من خبر زكريا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾[٦].

وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[٧].

وقال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾[٨].

وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٩].

وهنا تأتي السيدة الزهراء (ع) بإلقاء الحجة القرآنية أمام الملأ، أليس هذا القرآن موجوداً عندكم؟ فلماذا تركتم العمل به وطرحتموه وراءكم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أليس هذا تصريحاً بقانون التوارث والوراثة بين الأنبياء؟ أما كان سليمان وابنه داود من الأنبياء؟ وبغض النظر عن الخلاف الذي ابتدعه المخالفون بأن الوراثة هنا وراثة علم **لا مال**

---

(١) سورة آل عمران، آية ٨٥.

(٢) التفنيد ، وهو من العرض ويعد أحد أجزاء الخطبة. ينظر الحوفي، فن الخطابة ص١٢٧.

(٣) م. ن، ص١٢٧.

(٤) الطبرسي، الاحتجاج، ص١٢٨.

(٥) سورة النمل: آية ١٦.

(٦) سورة مريم: آية ٥ و٦.

(٧) سورة الأنفال: آية ٧٥.

(٨) سورة النساء: آية ١١.

(٩) سورة البقرة: آية ١٨٠.

وبعيداً عن التفاسير التي تؤول ما جاءت به الزهراء (ع) الموكول إلى ذوي الاختصاص بذلك لعدم الإطالة في المقام، إلا أن سكوت القوم آنذاك لدليل قاطع على أن الفهم من الآية هو التوارث بين الأنبياء فالذي فهمته الزهراء (ع) هو نفسه الذي فهمه ابن أبي قحافة ولذلك لم ينبس ببنت شفه تعقيب على آيات الإرث وقتذاك. وقال ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ وذوو الأرحام والقرابة بعضهم أحق بميراث بعضهم من غيرهم فهذه الآية عامة في التوارث بين الأرحام والأقارب، وقال ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾، أي يأمركم ويفرض عليكم من توريث أولادكم إذا متم للابن مثل نصيب البنتين وهذه الآية أيضاً عامة في جميع المسلمين بلا تخصيص للأنبياء إنهم لا يورثون أولادهم. وقال ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وبدلالة الآية ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ...﴾ أي ترك مالاً، وهذه الآية ثالثة عامة في الوراثة وليس فيها تخصيص للأنبياء أو نفي الوراثة بين الأنبياء[1].

وبعد هذا العرض من آيات الله تبارك وتعالى تبين بشكل لا يقبل الشك بطلان؟ الحديث المفترى عن رسول الله (ص).

ثالثاً: استخدام آيات القرآن الكريم بصورة غير مباشرة، أي استخدام ألفاظ القرآن الكريم وهنا يأتي دور ثقافة الخطيب البارع بطرحه وحسن أدائه، فكما أن أصحاب الأعمال يختلفون كثيراً في توظيف مواد عملهم بصورة صحيحة، فبعضهم يوفق وبعضهم يخفق عن طريق التوقيت الجيد لنسج الكلام بألفاظ القرآن الكريم أو الاستشهاد بالشعر العربي أو عن طريق وضع الأمثال لتقريب المعنى للسامع[2] فاستخدام ألفاظ القرآن الكريم خصوصاً في عصر صدر الإسلام في وسط امة تعنى بحفظ القرآن وتدارسه لما يبعث السهولة والوضوح في كلام الخطباء إذ أن الكلمات السهلة أحفل في كثير من الأحيان بالشعور والعاطفة من الكلمات والوضوح الغريبة التي لا تحصل إلا بالمطالعة والمدارسة[3] وبهذا المعنى يشير الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)[4] (رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدُربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب (الإفصاح)، وبهاؤها تخير الألفاظ...)[5].

---

(١) ينظر، القزويني، الخطبة الفدكية، ص١٠٤ وما بعدها.

(٢) الميلاني، فن الخطابة الحسينية، ص١٢٧.

(٣) الحوفي، فن الخطابة، ص١٧٩

(٤) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر البصري المعتزلي، له تصانيف كثيرة منها (البيان والتبيين، الحيوان)، توفى سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م). الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقوسي، ط٩، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤١٣هـ)، ج١١ص٥٢٧،

(٥) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)، البيان والتبيين، تح: عبدالسلام محمد هارون، (لا. ط)، دار الفكر، ج١ص٤٤.

وهذا عرض لألفاظ القرآن وما يقابلها من الآيات الواردة فيها:

١. لا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً[١] ❖ **ويقابلها من القرآن الكريم** ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[٢].

٢. صادعاً بالنذرة مائلاً عن مدرجة المشركين[٣] ❖ ويقابلها ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٤].

٣. داعياً إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة[٥] ❖ ويقابلها ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٦].

٤. وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب[٧] ❖ ويقابلها ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٨].

٥. فهيهات منكم وكيف بكم وأنى تؤفكون[٩] ❖ ويقابلها ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[١٠].

٦. أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريا[١١] ❖ ويقابلها ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾[١٢].

٧. فنعم الحكم الله، والزعيم محمد (ص) والموعد القيامة[١٣] ❖ ويقابلها ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾[١٤].

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج، ص١٣٤.
(٢) سورة الكهف، الآية ١٤.
(٣) الطبرسي. (مصدر سابق)، ص١٣٥.
(٤) سورة الحجر، الآية ٩٤.
(٥) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص١٣٥.
(٦) سورة النحل، الآية ١٢.
(٧) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص١٣٥.
(٨) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.
(٩) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص١٣٧.
(١٠) سورة الأنعام، الآية ٩٥.
(١١) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص١٣٨.
(١٢) سورة مريم، الآية ٢٧.
(١٣) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص١٣٩.
(١٤) سورة الأنعام، الآية ٥٧.

٨. ولا ينفعكم إذ تندمون ولكل نبأ مستقر[١] ❖ ويقابلها ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[٢].

٩. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم[٣] ❖ ويقابلها ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[٤].

١٠. موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة[٥] ❖ ويقابلها ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾[٦].

١١. فاعملوا أنا عاملون[٧] ❖ ويقابلها ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾[٨].

١٢. معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل، والمغضية على الفعل القبيح الخاسر أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب إقفالها[٩] ❖ ويقابلها ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[١٠].

١٣. كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم[١١] ❖ ويقابلها ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[١٢].

يتبين من ذلك المقدرة الخطابية التي بلغتها السيدة الزهراء (سلام الله عليها) باستشهادها على كلامها بآيات قرآنية جاءت ضمن السبك اللفظي للكلام تدل على ما تدعي وتؤيد، أو توضح ما تريد إثباته، فإن المستمع يتأثر بذلك ويذعن لكلام الله عز وجل والجمهور المسلم يرى أن الخطاب الذي لا يزدان بآيات قرآنية جاف، وفاقد للقوة والسحر البياني المطلوب، وبهذا كان لخطبة الزهراء (ع) أثر بالغ ومحرك لنفوس الناس سيما الأنصار منهم، لما تحمله تلك الخطبة من الواقعية والصدق والاستناد إلى أسس متينة قوامها القرآن الكريم في بيان مظلوميتها وفي قربها من الرسول الكريم (ص) وفي إشادتها بفضل أمير

(١) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص ١٣٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٦٧.
(٣) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص ١٣٩.
(٤) سورة هود، الآية ٣٩.
(٥) سورة هود، الآية ٣٩.
الطبرسي، (مصدر سابق)، ص١٤١.
(٦) سورة الهمزة، الآية ٦ - ٧.
(٧) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص ١٤١.
(٨) سورة هود، الآية ١٢١.
(٩) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص ١٤٤
(١٠) سورة محمد، الآية ٢٤.
(١١) الطبرسي، (مصدر سابق)، ص١٤٤.
(١٢) سورة المصطفين، الآية ١٤.

المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وأحقيته في خلافة الرسول الكريم (ص) عندما أخذت فدكاً غرضا لإثبات أحقيته (ع) في الخلافة وإلا فهي غنى عن فدك وغير فدك، مما جعل الأنصار يهتفون باسم علي (ع) فاستشعر رجال السقيفة الخطر من هذه البادرة، فنادى مناديهم الصلاة جامعة بعدما أرعد وابرق من خطبتها سلام الله عليها.

الخاتمة ونتائج البحث:

بعد هذا العرض الموجز من سيرة السيدة الزهراء (ع) والاستقراء في خطبتها (ع) خرج الباحث بعدة نتائج من أهمها ما يأتي:

- لابد للخطيب من الأخذ من المصادر الرئيسية للخطابة حتى تكون دعامة وأساساً لنجاحه.
- تنوع الأخذ من مصادر الخطابة في كأدوات بيد الخطيب يستخدم ما يراه مناسباً في وقته معتمداً على ثقافته وخبرته في ذلك.
- إذا استغنى الخطيب عن أحد مصادر الخطابة فلا يمكن له الاستغناء عن القرآن الكريم خصوصاً عند التدليل أو التفنيد لأنه في أمة تحتكم للقرآن الكريم.
- كانت مصادر الخطابة واضحة وجلية في خطبة الزهراء (ع) وموزعة بشكل هندسي يدل على إمكانية وقدرة عالية في فن الخطابة فقد استخدمت القرآن في موضعه والحديث في موضعه وكذلك الشعر والأمثال العربية.
- بدا المصدر الأول وهو (القرآن الكريم) أكثر وضوحاً من غيره في مشهد الخطبة ذلك لأنه كان لزاماً عليها من الرجوع إليه لتزييف الحديث المفترى عن رسول الله (ص) فتطلب منها أن تأتي بدليل أقوى حجة من الحديث وقتذاك.
- دلت الخطبة على مقدرة الزهراء (ع) الخطابية وتمكنها من اللغة والثقافة الأدبية حتى أنتجت مثل هذا الكلام الذي أصبح مثار جدل بين الباحثين والمؤرخين من وقته إلى هذه اللحظة.

قائمة المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم

- الأربيلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، (ت ٦٩٢هـ - ١٢٩٣م)

١. كشف الغمة، ط٢، بيروت – لبنان، دار الأضواء، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)

٢. صحيح البخاري، (لا.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)

٣. البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، (لا.ط)، دار الفكر.

- ابن أبي الحديد، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

٤. شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، قم – إيران، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، (١٩٦٧م - ١٣٨٧هـ).

- الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (ت٩٤٢هـ/١٥٣٥م)

٥. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه (ت٣٨٠ هـ/٩٩٠م)

٦. الأمالي، تح: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة (قم)، ط١ طهران – شارع سمية، (١٤١٧هـ).

٧. علل الشرائع، : محمد صادق بحر العلوم، (لا. ط)، النجف – منشورات المكتبة الحيدرية، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).

- الطبرسي، ابو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (٥٤٨هـ/١١٥٣م)

٨. الاحتجاج، تعليقات وملاحظات: محمد باقر الخرسان، (لا.ط)، النجف الأشرف، منشورات النعمان، (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

- ابن طيفور، أبو الفضل ابن أبي طاهر (٣٨٠هـ/٩٩٠م)

٩. بلاغات النساء، (لا.ط)، قم المقدسة، مكتبة بصيرتي، (د. ت).

- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

١٠. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية.

- الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق (٣٢٩هـ/٩٤٠م)

١١. الكافي، تح: على أكبر، ط٥، طهران – دار الكتب الإسلامية، (١٣٦٣ش).

- المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي الأصفهاني (١١١١هـ/١٦٩٩م)

١٢. بحار الأنوار، تح: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط٣مصححة، بيروت – لبنان، دار احياء التراث العربي، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (٨٤٥هـ/١٤٤١م)

١٣. إمتاع الأسماع بما للنبي (ص) من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تح: محمد عبد الحميد النميسي، ط١، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

- يافوت الحموي، عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

١٤. معجم البلدان، (لا. ط)، بيروت – دار الفكر، (د. ت).

- الأميني، عبد الحسين

١٥. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، (لا.ط)، بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

- البدوي، إبراهيم

١٦. فن الخطابة، ط٣، بيروت لبنان، دار المحجة البيضاء، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).

- الحوفي، أحمد محمد

١٧. فن الخطابة، مصر – القاهرة، (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

- الزيات، أحمد حسن

١٨. تاريخ الأدب العربي، ط١٢، مصر – شارع الفحالة، (لا. ت).

- الصدر، محمد باقر

١٩. فدك في التاريخ، ط١، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

- القزويني، محمد كاظم

٢٠. الخطبة الفدكية لفاطمة الزهراء (ع)، ط١، مطبعة النجف الأشرف، (١٤١٢هـ).

- الكجوري، محمد باقر

٢١. الخصائص الفاطمية، ترجمة وتحقيق: علي جمال اشرف، ط١، قم – دار نشر الشريف الرضي، (١٣٨٠ش).

- الميانجي، علي

٢٢. مواقف الشيعة، ط١، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، (١٤١٦هـ). ❖

الجملة العربيّة في الخطبة الفدكيّة
التركيب والدلالات

أ. م. د حيدر جبار عيدان(*)

الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء (ع):(١)

الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغ آلاءٍ أسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لاسْتِزادَتِها بالشُّكْرِ لاتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إلى الْخَلايِقِ بإجْزالِها، وَثَنّى بالنَّدْبِ إلى أمْثالِها.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها. الْمُمْتَنِعُ مِنَ الإبْصارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الألْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ. إبْتَدَعَ الأشَياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها إلاّ تَثْبيتاً لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهاً عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهاراً لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازاً لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيتَهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ.

وَأَشْهَدُ أنّ أبي مُحَمَّداً (ص) عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجْتَبَلَهُ، وَاصْطَفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويلِ مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْماً مِنَ اللهِ تَعالى بِمآيِلِ الأُمُورِ، وَإحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ. ابْتَعَثَهُ اللهُ تَعالى إتْماماً لأمْرِهِ، وَعَزيمَةً عَلى إمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإنْفاذاً لِمَقاديرِ حَتْمِهِ.

فَرَأى الأُمَمَ فِرَقاً في أدْيانِها، عُكَّفاً عَلى نيرانِها، عابِدَةً لأَوْثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ (ص) ظُلَمَها، وَكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ

(*) كلية الآداب، جامعة الكوفة، قسم اللغة العربية.

(١) انظر: الاحتجاج: ١/١٣١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦/٢٤٥. بلاغات النّساء: ٢١. أسرار الخطبة الغراء ١٥ ـ ١٨ ذكر المؤلف أسانيد هذه الخطبة بشكل مفصل. وهناك اختلاف بين المصادر في فقرات الخطبة وبعض ألفاظها وكذلك الأبيات الشعرية التي وردت فيها، فنرجو من القارئ الالتفات إلى ذلك.

غمهما، وَقامَ في النّاسِ بالهدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ.

ثُمَّ قَبَضَهُ اللّهُ إليه قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاختِيارٍ، ورَغْبَةٍ وَإيثارٍ بمُحَمَّدٍ (ص) عَنْ تَعَبِ هذهِ الدّارِ في راحَةٍ، قَدْ حُفَّ بالمَلائِكَةِ الأبْرارِ، وَرِضْوانِ الرَّبِّ الغفارِ، ومُجاوَرَةِ المَلِكِ الجَبّارِ. صلى الله على أبي نبيِّهِ وأَمينِهِ عَلى الوَحْيِ، وَصَفيِّهِ وَخيرَتِهِ مِنَ الخَلْقِ وَرَضِيِّهِ، والسَّلامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ.

ثُمَّ التفتت إلى أهل المجلس وقالت: أَنْتُمْ عِبادَ اللّه نُصُبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وأُمَناءُ اللّهِ عَلى أنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ للّهِ فيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُمْ. كِتابُ اللّهِ النّاطِقُ، والقُرْآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللامِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ. بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللّهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهينُهُ الكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرائِعُهُ المَكْتُوبَةُ.

فَجَعَلَ اللّهُ الإيمانَ تَطْهيراً لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزيهاً لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً في الرِّزْق، والصِّيامَ تَثْبيتاً للإخْلاصِ، والحَجَّ تَشْييداً لِلدّينِ، وَالعَدْلَ تَنْسيقاً لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الفُرْقَةِ، وَالْجِهادَ عِزاً لِلإسْلامِ، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلى اسْتِيجابِ الأجْرِ، وَالأمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصاصَ حِصْناً لِلدِّماءِ، وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْريضاً لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازينِ تَغْييراً لِلْبَخْسِ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزيهاً عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجاباً عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السَّرِقَةِ إيجاباً لِلْعِفَّةِ. وَحَرَّمَ اللّه الشِّرْكَ اخلاصاً لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، ﴿اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] وأطيعُوا اللّهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فإنَّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾[2].

ثُمَّ قالت: أيها النّاسُ! اعْلَمُوا أنّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحَمَّدٌ (ص)، أَقُولُ عَوْداً وَبَدْءاً، وَلا أَقُولُ ما أَقُولُ غَلَطاً، وَلا أفْعَلُ ما أفْعَلُ شَطَطاً: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] فَإنْ تَعْزُوه وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أبي دُونَ نِسائِكُمْ، وَأخا ابْنِ عَمّي دُونَ رِجالِكُمْ، وَلَنِعْمَ الْمَعْزِيُّ إليه (ص). فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ صادِعاً

(١) آل عمران ١٠٢.

(٢) فاطر ٢٨.

(٣) التوبة ١٢٨.

بالنِّذارةِ، مائِلاً عَنْ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ، ضارِباً ثَبَجَهُمْ، آخِذاً بأكْظامِهِمْ، داعياً إلى سَبيلِ رَبِّهِ بالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، يَكْسِرُ الأصْنامَ، وَيَنْكُتُ الْهامَ، حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلُّوا الدُّبُرَ، حَتَّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأسْفَرَ الحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ، وَخَرِسَتْ شَقاشِقُ الشَّياطِينِ، وَطاحَ وَشيظُ النِّفاقِ، وَانْحَلَّتْ عُقَدُ الْكُفْرِ وَالشِّقاقِ، وَفُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الإخْلاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبِيضِ الْخِماصِ، وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ، مُذْقَةَ الشّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطّامِعِ، وَقُبْسَةَ الْعَجْلانِ، وَمَوْطِئَ الأقْدامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتاتُونَ الْوَرَقَ، أذِلَّةً خاسِئِينَ، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾[1].

فَأنْقَذَكُمُ اللّهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِمُحَمَّدٍ (ص) بَعْدَ اللَّتَيّا وَالَّتِي، وَبَعْدَ أنْ مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجالِ وَذُؤْبانِ الْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أهْلِ الْكِتابِ، ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[2]، أوْ نَجَمَ قَرْنٌ لِلْشَّيْطانِ، وَفَغَرَتْ فاغِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أخاهُ في لَهَواتِها، فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأخْمَصِهِ، وَيُخْمِدَ لَهَبَها بِسَيْفِهِ، مَكْدُوداً في ذاتِ اللّهِ، مُجْتَهِداً في أمْرِ اللّهِ، قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اللّهِ سَيِّدَ أوْلياءِ اللّهِ، مُشَمِّراً ناصِحاً، مُجِدّاً كادِحاً - وأنْتُمْ فِي رَفاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ.

فَلَمَّا اخْتارَ اللّهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أنْبِيائِهِ وَمَأْوى أصْفِيائِهِ، ظَهَرَ فِيكُمْ حَسيكَةُ النِّفاقِ وَسَمَلَ جِلْبابُ الدِّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوِينِ، وَنَبَغَ خامِلُ الأقَلِّينَ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْمُبْطِلِينَ.

فَخَطَرَ فِي عَرَصاتِكُمْ، وَأطْلَعَ الشيْطانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرِزِهِ، هاتِفاً بِكُمْ، فَألْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجِيبِينَ، وَلِلْغِرَّةِ فِيهِ مُلاحِظِينَ. ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافاً، وَأحْمَشَكُمْ فَألْفاكُمْ غِضاباً، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إبِلِكُمْ، وَأوْرَدْتُمْ غَيْرَ شِرْبِكُمْ، هذا وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالْكَلْمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمّا يَنْدَمِلْ، وَالرِّسُولُ لَمّا يُقْبَرْ، ابْتِداراً زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3]

فَهَيْهاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأنّى تُؤْفَكُونَ؟ وَكِتابُ اللّه بَيْنَ أظْهُرِكُمْ، أُمُورُهُ ظاهِرَةٌ، وَأحْكامُهُ زاهِرَةٌ، وَأعْلامُهُ باهِرَةٌ، وَزَواجِرُهُ لائِحَةٌ، وَأوامِرُهُ واضِحَةٌ، قَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، أرَغْبَةً عَنْهُ تُرِيدُونَ، أمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ، ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾[4] ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[5]. ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا إلاّ رَيْثَ أنْ

---

(١) الأنفال ٢٦.

(٢) المائدة ٦٤.

(٣) التوبة ٤٩.

(٤) الكهف ٥٠.

(٥) آل عمران ٨٥.

تسكن نفرتها، ويسلس قيادها ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيّجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهماد سنن النبيّ الصفي، تسرّون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء، ونصبر منكم على مثل حزّ المدى، ووخز السنان في الحشا، وأنتم تزعمون ألا ارث لنا، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] أفلا تعلمون؟ بلى تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته.

أيها المسلمون أأغلب على ارثيه يا ابن أبي قحافة! أفي كتاب الله أن ترث أباك، ولا أرث أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾[2]، أفعلى عمد تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[3]، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[4] وقال: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[5] وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[6] وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[7]، وزعمتم ألا حظوة لي، ولا إرث من أبي لا رحم بيننا!

أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان، ولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟ فدونكها مخطومة مرحولة. تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة ما تخسرون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[8] ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[9].

ثمّ رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: يا معاشر الفتية، وأعضاد الملة، وأنصار الإسلام! ما هذه الغميزة في حقّي؟ والسِّنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: (المرء يحفظ في ولده)؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوّة على ما أطلب وأزاول!

---

(١) المائدة ٥٠.

(٢) مريم ٢٧.

(٣) النمل ١٦.

(٤) مريم ٦.

(٥) الأنفال ٦٥.

(٦) النساء ١١.

(٧) البقرة ١٨٠.

(٨) الأنعام ٦٧.

(٩) هود ٣٩.

أَتَقُولُونَ ماتَ مُحَمَّدٌ (ص)؟! فَخَطْبٌ جَليلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ، وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأَظْلَمَتِ الأرض لِغَيْبَتِهِ، وَكُسِفَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الآمالُ، وَخَشَعَتِ الْجِبالُ، وَأُضيعَ الْحَريمُ، وَأُزيلَتِ الْحُرْمَةُ عِنْدَ مَماتِهِ. فَتِلْكَ وَاللهِ النّازِلَةُ الْكُبْرى، وَالْمُصيبَةُ الْعُظْمى، لا مِثْلُها نازِلَةٌ وَلا بائِقَةٌ عاجِلَةٌ أَعْلَنَ بِها كِتابُ اللهِ - جَلَّ ثَناؤُهُ - فِي أَفْنِيَتِكُمْ فِي مُمْساكُمْ وَمُصْبَحِكُمْ هِتافاً وَصُراخاً وَتِلاوَةً وَإِلحاناً، وَلَقَبْلَهُ ما حَلَّ بِأَنْبِياءِ اللهِ وَرُسُلِهِ، حُكْمٌ فَصْلٌ وَقَضاءٌ حَتْمٌ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

أيها بَنِي قَيْلَةَ! أَأُهْضَمُ تُراثَ أبِيَهْ وَأَنْتُمْ بِمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ، وَمُبْتَدأٍ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وَتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ؛ تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفاحِ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، وَالنُّجَبَةُ الَّتي انْتُجِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتيرَتْ! قاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَناطَحْتُمُ الأُمَمَ، وَكافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلا نَبْرَحُ أو تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ حَتَّى دارَتْ بِنا رَحَى الإسلام، وَدَرَّ حَلَبُ الأَيّامِ، وَخَضَعَتْ نُعَرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإِفْكِ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الْكُفْرِ، وهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرْجِ، وَاسْتَوْسَقَ نِظامُ الدِّينِ؛ فَأَنّى جُرْتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الإِعْلانِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الإِقْدامِ، وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الإيمانِ؟ ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

أَلا قَدْ أرى أنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إلى الْخَفْضِ، وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ، وَنَجَوْتُمْ مِنَ الضِّيقِ بِالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ ما وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمُ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ، ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[3] ألا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ، وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ

فَدُونَكُمُوها فَاحْتَقِبُوها دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، باقِيَةَ الْعارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللهِ وَشَنارِ الأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنارِ اللهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ. فَبِعَيْنِ اللهِ ما تَفْعَلُونَ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[4]، وَأَنَا ابْنَةُ نَذيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ، ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[5].

---

(١) آل عمران ١٤٤.

(٢) التوبة ١٣.

(٣) إبراهيم ٨.

(٤) الشعراء ٢٢٧.

(٥) هود ١٢١ ـ ١٢٢.

فأجابها أَبُو بَكْرِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُثْمانَ، فَقَالَ: يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللهِ، لَقَدْ كَانَ أَبُوكِ بِالْمُؤْمِنِينَ عَطُوفاً كَرِيماً، رَؤُوفاً رَحِيماً، وَعَلَى الْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً وَعِقاباً عَظِيماً: فَإِنْ عَزَوْناهُ وَجَدْناهُ أَباكِ دُونَ النِّساءِ، وَأَخاً لِبَعْلِكِ دُونَ الأَخِلاَّءِ، آثَرَهُ عَلى كُلِّ حَمِيمٍ، وَساعَدَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ جَسِيمٍ، لا يُحِبُّكُمْ إلاّ كُلُّ سَعِيدٍ، وَلا يُبْغِضُكُمْ إلاّ كُلُّ شَقِيٍّ: فَأَنْتُمْ عِتْرَةُ رَسُولِ اللهِ (ص) الطَّيِّبُونَ، وَالْخِيَرَةُ الْمُنْتَجَبُونَ، عَلَى الْخَيْرِ أَدِلَّتُنا، وَإِلَى الْجَنَّةِ مَسالِكُنا، وَأَنْتِ - يا خَيْرَةَ النِّساءِ وَابْنَةَ خَيْرِ الأَنْبياءِ - صادِقَةٌ فِي قَوْلِكَ، سابِقَةٌ فِي وُفُورِ عَقْلِكِ، غَيْرُ مَرْدُودَةٍ عَنْ حَقِّكِ، وَلا مَصْدُودَةٍ عَنْ صِدْقِكِ، ووَاللهِ، ما عَدَوْتُ رَأْيَ رَسُولِ اللهِ (ص) يَقُولُ: (نَحْنُ مَعاشِرَ الأَنْبِياءِ لا نُوَرِّثُ ذَهَباً وَلا فِضَّةً وَلا داراً وَلا عِقاراً، وَإِنَّما نُوَرِّثُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ، وَالْعِلْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وَما كانَ لَنا مِنْ طُعْمَةٍ فَلِوَلِيِّ الأَمْرِ بَعْدَنا أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ بِحُكْمِه).

وَقَدْ جَعَلْنا ما حاوَلْتِهِ فِي الكُراعِ وَالسِّلاحِ يُقابِلُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ، وَيُجاهِدُونَ الْكُفّارَ، وَيُجالِدُونَ الْمَرَدَةَ ثُمَّ الْفُجّارَ. وَذلِكَ بِإِجْماعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ أَتَفَرَّدْ بِهِ وَحْدِي، وَلَمْ أَسْتَبِدَّ بِما كانَ الرَّأْيُ فِيهِ عِنْدِي. وَهذِهِ حالي، وَمالي هِيَ لَكِ وَبَيْنَ يَدَيْكِ، لا نَزْوِي عَنْكِ وَلا نَدَّخِرُ دُونَكِ، وَأَنْتِ سَيِّدَةُ أُمَّةِ أَبِيكِ، وَالشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ لِبَنِيكِ، لا يُدْفَعُ ما لَكِ مِنْ فَضْلِكِ، وَلا يُوضَعُ مِنْ فَرْعِكِ وَأَصْلِكِ؛ حُكْمُكِ نافِذٌ فِيما مَلَكَتْ يَدايَ، فَهَلْ تَرينَ أَنْ أُخالِفَ فِي ذلِكِ أَباكِ (ص)؟

فَقالَتْ (ع): سُبْحانَ اللهِ! ما كانَ رَسُولُ اللهِ (ص) عَنْ كِتابِ اللهِ صادِفاً، وَلا لأَحْكامِهِ مُخالِفاً، بَلْ كانَ يَتَّبِعُ أَثَرَهُ، وَيَقْفُو سُوَرَهُ، أَفَتَجْمَعُونَ إلى الْغَدْرِ اعْتِلالاً عَلَيْهِ بِالزُّورِ: وَهذا بَعْدَ وَفاتِهِ شَبِيهٌ بِما بُغِيَ لَهُ مِنَ الْغَوائِلِ فِي حَياتِهِ. هذا كِتابُ اللهِ حَكَماً عَدْلاً، وَناطِقاً فَصْلاً، يَقُولُ:

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ فَبَيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ فيما وَزَّعَ عَلَيْهِ مِنَ الأَقْساطِ، وَشَرَّعَ مِنَ الفَرايِضِ وَالميراثِ، وَأَباحَ مِنْ حَظِّ الذُّكْرانِ وَالإِناثِ ما أَزاحَ عِلَّةَ الْمُبْطِلِين، وَأَزالَ التَّظَنّي وَالشُّبُهاتِ في الغابِرين، كَلاّ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1].

فَقالَ أَبو بَكْرٍ: صَدَقَ اللهُ وَرَسولُهُ، وَصَدَقَتِ ابْنَتَهُ: أَنْتِ مَعْدِنُ الحِكْمَةِ، وَمَوْطِنُ الهدى وَالرَّحْمَةِ، وَرُكْنُ الدِّينِ وَعَيْنُ الحُجَّةِ، لا أُبْعِدُ صوابَكِ، وَلا أُنْكِرُ خِطابَكِ هؤلاءِ المُسْلِمونَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ، قَلَّدوني ما تَقَلَّدْتُ، وَباتِّفاقٍ مِنْهُمْ أَخَذْتُ ما أَخَذْتُ غَيْرَ مُكابِرٍ وَلا مُسْتَبِدٍّ وَلا مُسْتَأْثِرٍ، وَهُمْ بِذلِكَ شُهودٌ.

فَالتَفَتَتْ فاطِمَةُ (ع) وَقالَتْ: مَعاشِرَ النّاسِ المُسْرِعَةِ إلى قِيلِ الباطِلِ، المُغْضِيَةِ عَلى الفِعْلِ القَبيحِ الخاسِرِ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[2] كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلوبِكُمْ

---

(١) يوسف ١٨.

(٢) قرأت السيدة الزهراء قوله تعالى (أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها) (محمد: ٢٤).

ما أَسَأتُمْ مِنْ أَعمالِكُمْ، فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ، ولَبِئْسَ ما تَأَوَّلْتُمْ، وَساءَ ما أَشَرْتُمْ، وشَرَّ ما مِنْهُ اعتَضْتُمْ، لَتَجِدَنَّ ـ وَاللهِ ـ مَحْمِلَهُ ثَقيلاً، وغِبَّهُ وَبيلاً إذا كُشِفَ لَكُمُ الغِطاءُ، وبانَ ما وَراءَهُ الضراءُ، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[1] و﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[2]. ثُمَّ عَطَفَتْ على قَبْرِ النَّبيِّ (ص) وَقالَتْ:

قَدْ كان بَعْدَكَ أَنْباءٌ وهَنْبَثَةٌ لَوْ كُنْتَ شاهِدَها لَمْ تَكْبُرِ الخَطْبُ
إنّا فَقَدْناكَ فَقْدَ الأرض وابِلَها وَاختَلَّ قَومُكَ فَاشْهَدْهُمْ وَقَدْ نَكِبوا
وَكُلُّ أهلٍ لَهُ قُرْبى وَمَنْزِلَةٌ عِنْدَ الإلهِ عَلَى الأَدْنَيْنِ مُقْتَرِبُ
أَبْدَتْ رِجالٌ لَنا نَجْوى صُدورِهِم لَمّا مَضَيْتَ وَحالَتْ دونَكَ التُّرَبُ
تَجَهَّمَتْنا رِجالٌ واسْتُخِفَّ بِنا لَمّا فُقِدْتَ وَكُلُّ الأرض مُغْتَصَبُ
وَكُنْتَ بَدْراً وَنُوراً يُسْتَضاءُ بِهِ عَلَيْكَ تُنْزَلُ مِنْ ذي العِزَّةِ الكُتُب
وَكانَ جِبْريلُ بالآياتِ يؤنِسُنا فَقَدْ فُقِدْتَ فَكُلُّ الخَيْرِ مُحْتَجِبٌ
فَلَيْتَ قَبْلَكَ كانَ المَوْتُ صادَفَنا لِما مَضَيْتَ وَحالَتْ دونَكَ الكُتُبُ
إنّا رُزِئْنا بِما لَمْ يُرْزَ ذُو شَجَنٍ مِنَ البَرِيَّةِ لا عُجْمٌ وَلا عَرَبُ

ثُمَّ انْكَفَأَتْ (ع) وأميرُ المُؤمِنِينَ (ع) يَتَوَقَّعُ رُجُوعَها إليه، وَيَتَطَلَّعُ طُلُوعَها عَلَيْهِ. فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ بها الدّارُ قالتْ لأميرِ المُؤمنينَ (ع): يا ابْنَ أبي طالِب! اشْتَمَلْتَ شِمْلَةَ الجَنِينِ، وَقَعَدْتَ حُجْرَةَ الظَّنِينِ! نَقَضْتَ قادِمَةَ الأَجْدلِ، فَخانَكَ ريشُ الأَعْزَلِ: هذا ابْنُ أبي قُحافَةَ يَبْتَزُّني نُحَيْلَةَ أبي وَبُلْغَةَ ابْنِي، لَقَدْ أجْهَرَ في خِصامِي، وَالفَيْتُهُ أَلَدَّ في كَلامِي، حَتَّى حَبَسَتْنِي قَيْلَةُ نَصْرَها، وَالمُهاجِرَةُ وَصْلَها، وَغَضَّتِ الجَماعَةُ دُونِي طَرْفَها: فَلا دافِعَ وَلا مانِعَ، خَرَجْتُ كاظِمَةً، وَعُدْتُ راغِمَةً، أَضْرَعْتَ خَدَّكَ يَوْمَ أَضَعْتَ حَدَّكَ، افْتَرَسْتَ الذِّئابَ، وَافْتَرَشْتَ التُّرابَ، ما كَفَفْتُ قائِلاً، وَلا أَغْنَيْتُ باطِلاً، وَلا خِيارَ لي. لَيْتَنِي مِتُّ قَبلَ هَنِيَّتِي وَدُونَ زَلَّتِي. عَذيرِيَ اللهُ مِنْكَ عادِياً وَمِنْكَ حامِياً. وَيْلايَ في كُلِّ شارِقٍ. ماتَ العَمَدُ، وَوَهَتِ العَضُدُ.

شَكْوايَ إلى أبي، وَعَدْوايَ إلى رَبِّي. اللّهُمَّ أَنْتَ أشد قُوَّةً وَحَوْلاً، وَأَحَدُّ بَأْساً وَتَنْكِيلاً.

فَقالَ أمير المُؤْمِنِينَ (ع): لاوَيْلَ عَلَيْكِ، الوَيْلُ لِشانِئِكِ، نَهْنِهي عَنْ وَجْدِكِ يا ابْنَةَ الصَّفْوَةِ وَبَقِيَّةَ النُّبُوَّةِ، فَما وَنَيْتُ عَنْ دِيني، وَلا أَخْطَأْتُ مَقْدُوري، فَإنْ كُنْتِ تُرِيدينَ البُلْغَةَ فَرِزْقُكِ مَضْمُونٌ، وَكَفيلُكِ مَأمُونٌ، وَما أَعَدَّ لَكِ أفْضَلُ مِمّا قُطِعَ عَنْكِ، فَاحْتَسِبي اللهَ، فَقالَتْ: حَسْبِيَ اللهُ، وَأَمْسَكَتْ.

---

(١) ولَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جميعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يحْتَسِبُونَ) (الزمر: ٤٧)

(٢) غافر ٧٨.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد...

يدرس علم النحو من جانبين اثنين: جانب تركيب الجملة العربية، وجانب الإعراب، ومعرفة هذين الجانبين تفضي إلى المعرفة بالدلالة النحوية، إذ إن هندسة الجملة العربية تحتم ترتيبا خاصا وفق قواعد اللغة المعمول بها، وإذا اختلفت هذه الهندسة وكان الاختلاف مخلاً بقواعد اللغة فإن السامع قد يضل عن مقاصد الكلام، لذلك فإن دراسة النظام النحوي، في أي لغة من اللغات، تستند إلى مستويين اثنين: مستوى المعنى، ومستوى المبنى وتسميهما اللسانيات الحديثة مستوى الوظيفة Fonction، ومستوى الشكل Forme (أو الصورة). والجملة العربية من المرتكزات المهمة في الكشف عن طرق البناء النصي. وقد انشغل عدد كبير من الباحثين في علم النحو والبلاغة وغيرها من علوم العربية، في بحث الجملة، لذلك ظهرت بل تولّدت رغبة أصيلة عند الباحث في إعطاء فكرة تدور في خلده عن الجملة وعلاقاتها (التركيب والدلالة) متخذا من الخطبة الفدكية مجالاً للتطبيق، وفرضية البحث هي أبعاد الجملة العربية التي تحقق بها الفائدة، إذ لم يقم من الباحثين – فيما اطلعت عليه – بذكر ذلك البعد، ودراسته في نص واحد دفعة واحدة.

من هنا، فإن هذه الدراسة تسعى، إلى الكشف عن العلاقات في الجملة العربية التي وردت في الخطبة الفدكية للسيدة فاطمة الزهراء (ع)، وما كانت تنطوي تحتها من دلالات، على حقها في وصية أبيها للحفاظ على الدين وهيبة الإسلام والمسلمين، وحق أهل بيت الرسول في الخلافة بعده وفي حقها في الإرث من النبي (ص) فضلاً عن التأكيد على (التوحيد، والعدل الإلهي، والنبوة، والإمامة، والإيمان وفروعه، والمشيئة الإلهية، وان نور النبوة امتداد طبيعي في فاطمة الزهراء وبنيها) وكذلك ما انطوت عليه من حال القوم بعد وفاة أبيها وغيرها من الدلالات التي يمكن أن تدل عليها علاقات التراكيب في الخطبة.

والجملة التي يدرسها البحث هي الجملة المكونة من مركبات إسنادية أو مركبات مشتملة على إسناد، وقد اقتصر البحث على علاقات محورية في بيان التركيب والدلالات في الجملة العربية التي وردت في الخطبة، هي العلاقات السببية، والعلاقات المعجمية، وعلاقات الاقتباس النصي، وعلاقات التبادل الدلالي، ويمكن أن تُعدّ هذه العلاقات من العلاقات المهمة في البناء النصي الجملي للخطبة الفدكية.

ولابد من القول أننا وضعنا الخطبة الفدكية في بداية البحث ليتمكن القارئ من الرجوع إليها، وكذلك بعض المصادر التي ذكرت الخطبة من الموافق والمخالف، وقمنا بتخريج الآيات القرآنية التي وردت في الخطبة من المصحف الكريم.

ويمكن أن أقول أن منهج البحث هو تحليل وصفي تناول البحث في البداية الجملة، إذ تم توضيح الجملة العربية التي دار الحديث عنها في كتب النحو العربي وما يتبناه الباحث، وانتقل البحث بعد ذلك للجانب التطبيقي المتمثل بالكشف عن الدلالات من خلال العلاقات التي يتم بها تركيب الجملة.

أولاً: ما الجملة؟

الجملة العربية هي الأساس في بناء التركيب الموصل للمعنى الذي يريده المتكلم ليفصح عن غرضه من الكلام[1]، والخطبة التي قالتها الزهراء (ع) كانت على مستوى كبير في بنائها الجملي الذي ينقل المتلقي بمستوياته المختلفة للوصول إلى غرض الزهراء منها والمتأمل في الجملة العربية التي قامت عليها الخطبة الفدكية يجدها ملئ بالأسرار والدلالات التي لا يمكن معها الشك ويرفع عن غرضها كل ريب في ما أرادت أن توصله الزهراء (ع) إلى المؤمنين الذين يسمعون هذه الخطبة.

ومما لاشك فيه أن الجملة العربية تتكون من ركنين أساسيين في بنائها هما (المسند والمسند إليه) ومن فضلة، وما يصبها في التركيب من تقديم أو تأخير أو حذف أو غيرها، لا بد له من غاية تقف وراء ذلك يقصدها المتكلم[2].

وقد حفلت كتب النحو العربي - ولا سيما المتأخرة منها [3] - بمصطلح الجملة، وعلى الرغم من كثرة ترددّ مصطلح (الجملة) لم يتفق النحاة على معنى محدد لها، بل تباينت أقوالهم في تعريفها، وفي الموازنة بينها وبين الكلام، وأنت إذا تجاوزت التقريرات النظرية إلى الممارسات التطبيقية وجدت الخلاف أشد، ودائرة النزاع أوسع.

وظاهر من كلام ابن هشام وتحليله ونقله أن ثمة اتجاهين في تحديد مرتكز الجملة[4]:

---

(١) انظر: الجملة العربية والمعنى١١. الجملة العربية. مكوناتها. أنواعها. تحليلها: ٢٤

(٢) الجملة العربية. تأليفها وأقسامها. ١١ . ١٢.

(٣) لعل من أوائل من أشار إلى الجملة كمصطلح، الفراء في معاني القرآن [٢/ ٣٣٣] قال: " وتقول قد تبين لي أقام زيد أم عمر، فتكون الجملة مرفوعة في المعنى كأنك قلت: تبين لي ذلك "، وكذلك المبرد في قوله: " وإنما كان الفاعل رفعا لأنه هو والفعل جملة يحسن السكوت عليه " [المقتضب ١/ ١٤٦ وانظر: ٣/ ١٢٧ ففيها ذكر الجملة وفيها نقل عن المازني اذكر المصطلح]، ونجده كذلك عند أبي علي الفارسي في قوله: "حيث لم يَعُدْ من الجملة التي بعد الواو ذكر إلى مَنْ هذه الجملة حال لهم" [الحجة ١/ ١٥٦]، وانظر المقتصد في شرح الإيضاح ١/ ٢٧٣][شرح المفصل ١/ ٨٨].

(٤) قال الرضي: " الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي سواء كانت مقصودة لذاتها أم لا كالجملة التي هي خبر المبتدأ.. فيخرج المصدر وأسماء الفاعل والمفعول والصفة المشبهة والظرف مع ما أسندت إليه " [شرح الرضي ١/ ٣٣]، والمراد بالإسناد الأصلي كما هو ظاهر من كلام الرضي ما كان بين الفعل وفاعله والمبتدأ وخبره أو ما كان في منزلة أحدهما، فيدخل فيه نحو (أقائم الزيدان) و(كان زيد قائما). والجملة العربية - تأليفها وأقسامها. ٢٤ - ٣٠

الاتجاه الأول: الاتكاء على الإسناد في تحديد الجملة، فكل إسناد أصلي بين فعل وفاعل، أو مبتدأ وخبر ينشئ جملة، وهو ما صرح به ابن هشام ودافع عنه.

الاتجاه الثاني: الاتكاء على المعنى، فلا تكون الجملة جملة إلا إذا دلت على معنى يحسن السكوت عليه، وهو محصلة قول الذين جعلوا الجملة والكلام مترادفين.

وثمة اتجاهان في التراث النحوي:

الاتجاه الأول: (الجملة) و(الكلام) بمعنى واحد[1]

ونحن نجد ذلك في عبارات كثير من النحاة؛ ومنها على سبيل المثال: قول السيوطي: (ذهب طائفة إلى أن الجملة والكلام مترادفان)[2] وإذا كان أصحاب هذا الاتجاه يتفقون على التسوية بين المصطلحين فإنهم يختلفون في المفهوم الذي يجعلونه لهما، وهذا مما لا أعلم أن أحدا فصله أو أشار إليه.

هناك عدة مذاهب في تحديد المفهوم المشترك للمصطلحين؛ منها:

المذهب الأول: ربط المصطلحين دون غيرها.

وعندهم أن الكلام ومثله الجملة ما أفاد وحده دون حاجته إلى غيره، ولا يشترط القائلون بهذا القول تحقق الإسناد، وإنما يكتفون بتحقق الفائدة، قال ابن الخشاب: (الجملة: كل لفظ أفاد السامع فائدة يحسن سكوت المتكلم عندها)[3]، وقل ابن منظور: (الكلام ما كان مكتفيا بنفسه، وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفياً بنفسه: وهو الجزء من الجملة)[4]، ولعل مما يؤكد القول بعدم التفات أصحاب هذا المذهب إلى الإسناد أن ابن جني حين عرف الكلام قال: (أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل: نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء وعاء، وحس ولبِّ وأفَّ وآوه، فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام)[5]. وتأمل تمثيله للكلام بـ: حاء وعاء مما هو متفق على أنه لا إسناد فيه، وبأسماء الأفعال التي اختلف في إسنادها لفاعلها أهو إسناد أصلي أم لا.

على أن لقائل أن يقول: إن مصطلح الفائدة عند القوم مقابل لمصطلح الإسناد، فلا تتحقق الفائدة إلا بالإسناد، وهو قول له حظ من النظر، ويشير إليه قول المبرد: (فالابتداء نحو قولك: (زيد)، فإذا ذكرته فإنما ذكرته للسامع ليتوقع ما تخبره به عنه، فإذا قلت:

---

(١) انظر: الجملة العربية، مكوناتها - أنواعها - تحليلها، ٢٥.

(٢) همع الهوامع ١/ ٢٧.

(٣) المرتجل: ٢٧.

(٤) لسان العرب ٧/ ٣٩٢٢

(٥) الخصائص ١/ ١٨.

منطلق أو ما أشبه صح الكلام، وكانت الفائدة للسامع في الخبر)[١]. وأظهر في الدلالة عليه قول السيوطي: (لأن الإفادة إنما تحصل بالإسناد)[٢].

المذهب الثاني: ربط المصطلحين بالإسناد

ربط بعض النحاة تعريف الكلام والجملة بمبدأ الإسناد، قال الزمخشري: (والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، وهذا لا يتأتى إلا في اسمين أو فعل واسم، ويسمى الجملة)[٣]، وظاهر كلامه أن مطلق الإسناد يسمى جملة ويسمى كلاماً، ولم يشترط تمام الفائدة ولا حسن السكوت، فكل إسناد بين فعل وفاعل أو مبتدأ أو خبر يسمى عنده كلاماً وجملة، فـ (زيد قائم) و(زيد يقوم) و(إن قام زيد) كل ذلك عنده كلام وجملة. وقد حاول ابن يعيش أن يتأول كلام الزمخشري ليربط المفهوم بالفائدة إضافة إلى الإسناد، فقال: (فعرفك بقوله: (أسندت إحداهما إلى الأخرى) أنه لم يرد مطلق التركيب بل تركيب الكلمة مع الكلمة إذا كان لإحداهما تعلق الأخرى على السبيل الذي به يحسن موقع الخبر وتمام الفائدة)[٤].

المذهب الثالث: ربط المصطلحين بالإسناد مع تمام الفائدة وهذا هو المشهور بين النحاة: ومنه قول الجرجاني: (اعلم أن الواحد من الاسم والفعل والحرف يسمى كلمة. فإذا ائتلف منها اثنان فأفاد سمي كلاماً وسمي جملة)[٥]. ومقتضى هذا القول أن الإسناد الذي يقع خبرا أو حالا أو صفة على سبيل المثال لا يسمى جملة، لأنه لا استقلال له بالفائدة، ولما كان النحاة يطلقون على ما هذه صفته جملة فيقولون: جملة الخبر وجملة الحال وجملة الصفة ذهب هؤلاء إلى أن (كلاً منها كان جملة قبل، فأطلقت الجمل عليه باعتبار ما كان كإطلاق اليتامى على البالغين نظراً لأنهم كانوا كذلك)[٦].

الاتجاه الثاني: (الجملة) و(الكلام) ليسا بمعنى واحد[٧]

نجد عدة مذاهب في التفريق بين مصطلحي الكلام والجملة[٨]:

المذهب الأول: الجملة أعم من الكلام (إذ شرطه الإفادة بخلافها)[٩]، وخلاصة مذهب هؤلاء أن كل إسناد أصلي هو جملة سواء أفاد فائدة يحسن السكوت عليها

(١) المقتضب ٤/ ١٢٦.
(٢) همع الهوامع ١/ ٣٢.
(٣) شرح المفصل ١/ ٢٠.
(٤) شرح المفصل ١/ ٢٠.
(٥) الجمل: ٤٠.
(٦) همع الهوامع ١/ ٣٧.
(٧) انظر: الجملة العربية، مكوناتها ـ أنواعها ـ تحليلها، ٢٧.
(٨) انظر: الجملة العربية، مكوناتها ـ أنواعها ـ تحليلها، ٢٧.
(٩) مغني اللبيب: ٤٩٠.

أم لا. أما الكلام فلا يطلق إلا على ما يحسن السكوت عليه، وعليه فكل كلام جملة، ولا عكس[1]، ولهذا يقول النحاة: (جملة الشرط وجملة الجواب وجملة الصلة، وكل ذلك ليس مفيداً، فليس بكلام)[2]، ومن القائلين بهذا القول ابن هشام[3]، والسيوطي[4].

المذهب الثاني: التفريق بين المصطلحين صورة التركيب ووحدة الحقيقة، قال السيوطي، ذهب بعض النحاة إلى (إن الكلام يقال باعتبار الوحدة الحاصلة بالإسناد بين الكلمتين، ويسمى الهيئة الاجتماعية، وصورة التركيب، وأن الجملة تقال باعتبار كثرة الأجزاء التي يقع فيها التركيب، لأن لكل مركب اعتبارين: الكثرة والوحدة. والأجزاء الكثيرة تسمى مادة، والهيئة الاجتماعية الموحدة تسمى صورة)[5]، وحاصل هذا الكلام أن الجملة والكلام من حيث الماهية شيء واحد، وإنما يختلف الاسم المطلق باختلاف الاعتبار، فمن حيث كون اللفظ ذا وحدة ناشئة من الإسناد هو كلام، ومن حيث كونه في أصله ذا أجزاء متعددة هو جملة.

المذهب الثالث: الكلام جنس للجملة، أصحاب هذا المذهب يرون أن الجملة هي ما تم معناه وأفاد مستقلاً، وأما الكلام فلفظ يصدق على الجملة الواحدة وعلى الجمل المتعددة، فالكلام إذا: جنس للجمل كما أن الإنسان من قول الله سبحانه: إن لإنسان لفي خسر جنس للناس، فكذلك الكلام جنس للجمل، فإذا قال: قام محمد فهو كلام، وإذا قال: قام محمد وأخوك جعفر فهو أيضاً كلام، كما كان لما وقع على الجملة الواحدة كلاماً، وهذا طريق المصدر لما كان جنساً لفعله، ألا ترى أنه إذا قام قومة واحدة فقد كان منه قيام، وإذا قام قومتين فقد كان منه قيام، وإذا قام مئة قومة فقد كان منه قيام؟ فالكلام إذا إنما هو جنس للتوام: مفردها ومثناها ومجموعها، كما أن القيام جنس للقومات: مفردها ومثناها ومجموعها.

ويرى البحث إن ابن الجني يقترب من الحقيقة في تفريقه بين الجملة والكلام، وهو كالبيان لما انبهم من كلامه في مواضع أخرى، فإن له نصوصاً يظن قارئها بادي الرأي أنه يسوي بين الجملة والكلام.

---

(١) انظر: تطور دراسة الجملة العربية ٦٩.

(٢) مغني اللبيب: ٤٩٠.

(٣) مغني اللبيب: ٤٩٠.

(٤) انظر: مغني اللبيب ٣٧/١.

(٥) الأشباه والنظائر ٢١٤/٢، ٢١٥.

أما من عرف الجملة العربية، فكان في تعريفه ينظر إلى[١]:

١ - (الإسناد):

قال الجرجاني: (الجملة: عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى سواء أفاد كقولك: زيد قائم، أو لم يفد كقولك: إن يكرمني، فإنه جملة لا تفيد إلا بعد مجيء جوابه)[٢].

٢ - (تمام المعنى):

قال المبرد: (الجملة ما يحسن السكوت عليه وتجب به الفائدة للمخاطب)[٣] وقال ابن الجني: (أما الجملة فهي كل كلام مفيد مستقل بنفسه)[٤].

أما المحدثون فلم يقدموا تعريفا للجملة، فكان منهم من كرر مقالة السابقين من أئمتنا النحاة كعبد السلام هارون الذي ذهب مذهب الرضي وابن هشام[٥] ومنهم من قدم تعريفا، هو إلى الشرح والإيضاح أقرب منه إلى الحد الجامع، ومن ذلك قول إبراهيم أنيس: (الجملة هي أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر)[٦]، وقول مهدي المخزومي في تعريف الجملة: (الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد في أي لغة من اللغات، وهي المركب الذي يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع)[٧].

وتأسيساً على ما تقدم يمكن أن نقول إن نواة الجملة الإسناد: فالإسناد هو الشرارة الأولى للجملة، ثم إن هذا الإسناد تتعلق به متعلقات مقيدة له أو لأحد ركنيه من تخصيص بوصف أو بيان لحال أو زمان أو علة أو مصاحبة أو مفعولية... الخ. ثم إن هذه المقيدات قد تستتبع مقيدات لها هي فلو كانت الصفة مثلاً اسماً مشتقاً فإن فاعله وما يتعلق به امتداد للجملة، ولو كان أحد المقيدات إسناداً فإن كل ما يتعلق به ويقيده امتداد للجملة الأم التي شكل الإسناد الأول نواتها، وهكذا تمتد الجملة إلى أن تنقطع كل صلة نحوية بالإسناد الأول وما ارتبط به من مفردات وأسانيد.

---

(١) انظر: الجملة العربية، مكوناتها - أنواعها - تحليلها، ٢٣.

(٢) التعريفات: ٨٧.

(٣) المقتضب ١٤٦/١.

(٤) اللمع: ٣٠.

(٥) انظر: الأساليب الإنشائية: ٢٥.

(٦) من أسرار اللغة: ٢٧٦.

(٧) في النحو العربي نقد وتوجيه: ٣١.

هذا التصور يتيح لنا أن نتعرف بوضوح على (أبعاد الجملة)[١] فنعرف بدايتها ونهايتها مسترشدين بقوانين النحو وأصوله.

والفرق هنا بين ما أقوله وما نصوا عليه من تمام المعنى أن الاعتماد في قولي على الصناعة المنضبطة التي تستعين بالمعنى ولا تجعله أساساً، أما ما نصوا عليه فهو قائم على الارتباط المعنوي المجرد، (والارتباط المعنوي لا يستلزم محلية الإعراب)[٢].

وهناك من يقسم الجملة العربية إلى أقسام أخرى تتبع طول الجملة وقصرها[٣]، لذلك يرى أنها جملة كبرى وجملة صغرى وهناك جملة لا توصف بالكبرى ولا بالصغرى، فالجملة الكبرى هي الاسمية التي خبرها جملة أو الجملة المصدرة بفعل ناسخ والخبر فيها جملة بحسب الأصل[٤].

والناظر إلى خطبة الزهراء (ع) يجد في تركيبها الجملي بناء رصينا ولغة فصيحة، متماسكة في جملها من أول كلمة فيها إلى آخر كلمة، فانظر إلى قولها: (وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها) تجد المعنى في هذا التركيب الإسنادي يؤل إلى معاني كثيرة يريدها المتكلم، يمكن أن تكون:

الأول: أن الله تعالى ألزم وأوجب على القلوب ما تستلزمه هذه الكلمة (وَأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ) من عدم تركيبه تعالى وعدم زيادة صفاته الكمالية الموجودة وأشباه ذلك مما يؤول إلى التوحيد.

الثاني: جعل ما يصل إليه العقل من تلك الكلمة مدرجاً في القلوب بما أراهم من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، أو بما فطرهم عليه من التوحيد.

الثالث: أن يكون المعنى لم يكلف العقول الوصول إلى منتهى دقائق كلمة التوحيد وتأويلها، بل إنما كلف عامة القلوب بالإذعان بظاهر معناها وصريح مغزاها، وهو المراد بالوصول.

الرابع: أن يكون الضمير في (موصولها) راجعاً إلى القلوب، أي لم يلزم القلوب إلا ما يمكنها الوصول إليها من تأويل تلك الكلمة الطيبة والدقائق المستنبطة منها، أو مطلقا، ولولا التفكيك لكان أحسن الوجوه بعد الوجه الأول، بل مطلقاً.

وفي قولها (وَأَنارَ فِي الْفِكَرِ مَعْقُولَها) أي أوضح في الأذهان ما يتعقل من تلك الكلمة بالتفكر في الدلائل والبراهين. ويحتمل إرجاع الضمير إلى القلوب. والفكر بصيغة الجمع، أي أوضح بالتفكر ما يعقلها العقول. وهذا يؤيد الوجه الرابع من وجوه الفقرة السابقة.

---

(١) انظر: الجملة العربية، مكوناتها ـ أنواعها ـ تحليلها، ٢٩.

(٢) حاشية الأمير ٢/٤٦.

(٣) الجملة العربية ـ تأليفها وأقسامها ١٦٨.

(٤) حاشية الدسوقي ٢/٣٩.

فانظر كيف احتجت أولاً على توريث الأنبياء بآيتي داوود وزكريا الصريحتين بتوريثهما. ولعمري أنها (ع) أعلم بمفاد القرآن ممن جاؤوا متأخرين عن تنزيله، فصرفوا الإرث هنا إلى وراثة الحكمة والنبوة دون الأموال، تقديماً للمجاز على الحقيقة بلا قرينة تصرف اللفظ عن معناه الحقيقي المتبادر منه بمجرد الإطلاق، وهذا مما لا يجوز، ولو صح هذا التكلف لعارضها به أبو بكر يومئذ أو غيره ممن كان في ذلك الحشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم. على أن هناك قرائن تعين ذلك.

واحتجت ثانياً على استحقاقها الإرث من أبيها (ص) بعموم آيات المواريث وعموم آية الوصية، منكرة عليهم تخصيص ذلك العموم بلا مخصص شرعي من كتاب أو سنة. وما أشد إنكارها إذ قالت: (أخصكم الله بآية أخرج بها أبي)؟ فنفت بهذا الاستفهام الإنكاري وجود المخصص في الكتاب. ثم قالت: (أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي)؟ فنفت بهذا الاستفهام التوبيخي وجود المخصص في السنة، بل نفت وجوده مطلقاً، إذ لو كان ثمة مخصص لبينه لها النبي والوصي، ويستحيل عليهما الجهل به لو كان في الواقع موجوداً، ولا يجوز عليهما أن يهملا تبيينه لها لما في ذلك من التفريط في البلاغ، والتسويف في الإنذار، والكتمان للحق، والإغراء بالجهل، والتعريض لطلب الباطل، والتغرير بكرامتها، والتهاون في صونها عن المجادلة والمجابهة والبغضاء والعداوة بغير حق، وكل ذلك محال ممتنع عن الأنبياء وأوصيائهم.

وانظر إلى قولها: (وَأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإِخْلاصَ تأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ فِي الْفِكَرِ مَعْقُولَها. الْمُمْتَنِعُ مِنَ الإِبْصارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الْأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ. اِبْتَدَعَ الأَشَياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ...).

تجد الكلام يحمل المتلقي على النظر إلى ما فيها من ألفاظ وتراكيب إسنادية أصيلة تجعل الذهن يجول فيها ليخرج منها ما يمكنه أن يحتمله عقله وقلبه.

ثانياً - العلاقات السببية:

يثبت التحليل اللغوي للعلاقات القائمة بين الجمل أو التراكيب في بنية الخطبة الفدكية، أنّ العلاقات السببية تمثّل محور هذه العلاقات وقلبها النابض بالحركة والحيوية التي تعطي النص البعد التماسكي[1]، وهذا يوفر الأبعاد النحوية الحقيقية التي تعطي الخطبة الشريفة البعد التواصلي، مما يضمن سرعة التلقي والتأثير.

---

(١) انظر: الجملة العربية، مكوناتها - أنواعها - تحليلها، ١٤٠.

وبداية يمكن أن نتساءل: ما العلاقات السببيّة؟ وما المظاهر التي اتّفق علماء لغة النص على إثباتها؟ ثم ما يمكن أن نقف عليه منها في الخطبة الفدكية؟

تُعدّ العلاقات السببية من العلاقات الدلالية المهمة التي تتضمن القيم الحقيقية لبناء الخطاب، بل إنّ خطّة قاعدة الوصل داخل النصوص تقوم على إدراك العلاقة السببيّة التي تقوم بين الجمل (التراكيب) على مستوى النص. وهي وفقاً لمنظورات نصية أوسع، علاقات تقوم بين الوحدات النصية، فتربط القضايا النصية بعضها ببعض.

تم تحديد أدوات الربط السببي وحصرها بمجموعة من الأدوات والعناصر، استنتجت عن طريق الاطّلاع والتحليل لما كتب في هذا الموضوع في كتب علم لغة النص، وتشكّل هذه الأدوات مظهرين هما: الأدوات السببيّة الملفوظة، والأدوات السببيّة المقدّرة، وتتمثل الأولى باستعمال الأدوات الدالّة على السبب والتعليل جميعها، مثل: الفاء الدالة على السبب، والتلفّظ بـ"لأن"، و"حيث"[1]، أما المقدرة فتتمثل برصد العلاقات السببيّة المنطقية الناتجة عن التعالق الحاصل بين الوحدات النحوية على مستوى أبعد من الجملة الواحدة، فإذا كانت العلاقات السببيّة اللفظية قائمة على استعمال التعليل الملفوظة، فإن العلاقات المقدّرة، تقوم على تحليل الدلالات الخاصة بالتراكيب، وملاحظة الالتحام التام القائم بين التراكيب والسياقات، وهذا يتطلّب وعياً من المستقبل، وهذا ما أسماه جان كوهن بـ "الربط بالقران"[2]. ويجد المتتبع لهذه العلاقات في الخطبة الفدكية، أثرها البارز في بناء النص وتنظيمه، ومن ذلك ما جاء في قول الزهراء (ع): (أَنْتُمْ عِبادَ اللّه نُصْبُ أمْرِهِ ونَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وأُمَناءُ اللّهِ عَلى أنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ للّهِ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُمْ. كِتابُ اللّهِ النّاطِقُ، والقُرآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتّباعُهُ، مُؤدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ. بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللّهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرائِعُهُ المَكْتُوبَةُ).

وقولها: (اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحمَّدٌ (ص)، أَقُولُ عَوْداً وَبَدْءاً، وَلا أقُولُ ما أقُولُ غَلَطاً، وَلا أفْعَلُ ما أفْعَلُ شَطَطاً: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] فَإنْ تَعْزُوه وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أبي دُونَ نِسائِكُمْ، وَأخا ابْنِ عَمّي دُونَ رِجالِكُمْ، ولَنِعْمَ المَعْزِيُّ إليه (ص)).

---

(١) انظر: المرجع نفسه، ١٤٠ - ١٤١.

(٢) انظر: بنية اللغة الشعرية، ٣٥٠.

(٣) التوبة ١٢٨.

وقولها: مَعاشِرَ النّاسِ المُسْرِعَةِ إلى قِيلِ الباطِلِ، المُغْضِيَةِ عَلى الفِعْلِ القَبيحِ الخاسِرِ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلوبِكُمْ ما أَسَأْتُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ، فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ، وَلَبِئْسَ ما تَأَوَّلْتُمْ، وَساءَ ما أَشَرْتُمْ، وشَرَّ ما مِنْهُ اعتَضْتُمْ، لَتَجِدَنَّ - وَاللهِ - مَحْمِلَهُ ثَقيلاً، وغِبَّهُ وَبيلاً إذا كُشِفَ لَكُمُ الغِطاءُ، وَبانَ ما وَراءَهُ الضَراءُ، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

يُلحظ في هذا الامتداد النصي للخطبة، وجود أثر بارز للعلاقات السببية في تنظيم النص، وقد تمثلت بوجود الفاء الواقعة في جواب الشرط، باعتبارها عنصراً ملفوظاً (فَإنْ تَعْزُوه وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ)، ثم سلسلة العلاقات المتتابعة والمتمثلة بالتتابع الدلالي التوضيحي؛ لأن سلسلة التراكيب المتتابعة، قد جاءت أساساً لتوضح فكرة (التوحيد والرسالة والرسول) ويمكن توضيح ذلك عن طريق تحليل المضمون الدلالي لهذه النصوص كما يلي:

١ـ التبليغ بان المسلمين عباد الله يحلون حلاله ويحرمون حرامه وأمناء الله على أنفسهم (النص الأول) (تتابع وتفصيل سببي).

٢ـ التبليغ بفضل الحفاظ على وصايا رسول الله، بالقرآن الكريم وآله بيته (النص الثاني) (تتابع وتفصيل سببي).

٣ـ التبليغ بمصير من لم يحافظ على الحق ويتبع الباطل (النص الثالث) (تتابع وتفصيل سببي).

٤ـ التبليغ عن مجموعة المعارف الدينية المترتبة على البعثة النبوية (مجمل الخطبة ونصوصها) (تتابع وتفصيل سببي).

فالمراحل جميعها هي مراحل تتابعية تفصيلية، والتراكيب جميعها توضح بعضها بعضاً، ووجود أسلوب الشرط يعزّز البنية السببية، يُضاف إلى ذلك خاتمة النص الثالث، التي تتضمن التبليغ بمصير من لم يحافظ على وصايا النبي واتباع الدين بالخسارة والبطلان يوم القيامة، وفي هذا ربط محكم للتراكيب حميعها.

ومما يعزّز العلاقات السببية داخل البنية النصية للخطبة مسألة التدرّج الإسنادي في عرض الأفكار، لما تتضمنه من تسلسل منظّم، وتظهر جلية في التدرّج؛ لأن بنية التدرج هي بنية منطقية[1]: فتحقُّق إحدى صور المعلومات داخل التتابع الجملي النصي يتوقّف على حدوث الأخرى، إذ تترابط المحتويات الدلالية للتراكيب الإسنادية بطريقة مقنعة ومؤثرة، ويلمح هذا في كل الخطبة تقريباً:

بعد أن عرضت الزهراء (ع) لأمر التوحيد، والعدل الإلهي، والنبوة، في بداية الخطبة الشريفة، شرعت في بيان الأمر المهم وهو (الخلافة) والمرجعية الدينية والسياسية وولاية أمر

(١) انظر: علم اللغة التعليمي، ٣٤٧.

المسلمين بعد النبي (ص) وثم حقها بعد رسول الله بالإرث الذي يجب على الأمة أن تعمل وفق ما وضعه الله من أحكام، فحق الخلافة واضح في قولها (اِبْتَدَعَ الأشياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوِينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْوِيرِها إلاّ تَثْبِيتاً لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبِيهاً عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهاراً لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازاً لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيتِهِ) وقولها (فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ (ص) ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأبْصارِ غُمَمَها، وَقامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدِّينِ القَوِيمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ) وقولها (أَنْتُمْ عِبادَ الله نُصْبُ أمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دِينِهِ وَوَحْيِهِ، وَأُمَناءُ اللهِ عَلى أنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ للهِ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُمْ. كِتابُ اللهِ النّاطِقُ، والقُرآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتِّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ) وقولها (فَلَمَّا اخْتارَ اللّهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أنْبِيائِهِ وَمَأْوى أصْفِيائِهِ، ظَهَرَ فيكُمْ حَسيكَةُ النِّفاقِ وَسَمَلَ جِلْبابُ الدّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوِينَ، وَنَبَغَ خامِلُ الأَقَلِّينَ، وَهَدَرَ فَنيقُ الْمُبْطِلِينَ.) وقولها (فَخَطَرَ فِي عَرَصاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشيْطانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرِزِهِ، هاتِفاً بِكُمْ، فَأَلْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجيبِينَ، وَلِلْغِرَّةِ فِيهِ مُلاحِظِينَ. ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافاً، وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفاكُمْ غِضاباً، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إبِلِكُمْ، وَأَوْرَدْتُمْ غَيْرَ شِرْبِكُمْ، هذا وَالْعَهْدُ قَريبٌ، وَالْكَلْمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمّا يَنْدَمِلْ، وَالرِّسُولُ لَمّا يُقْبَرْ، ابْتِداراً زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

وحقها بالإرث واضح أيضاً في قولها (أرى أنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إلى الْخَفْضِ، وَأبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ، ونَجَوْتُمْ مِنَ الضِّيقِ بِالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ ما وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمُ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ، ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2]. ألا وَقَدْ قُلتُ ما قُلتُ عَلى مَعْرِفةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ، وَالغَدْرَةِ الّتِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ). وقولها: (سُبْحانَ اللهِ! ما كانَ رَسُولُ اللهِ (ص) عَنْ كِتابِ الله صادِفاً، وَلا لأَحْكامِهِ مُخالِفاً، بَلْ كانَ يَتَّبِعُ أَثَرَهُ، وَيَقْفُو سُوَرَهُ، أَفَتَجْمَعُونَ إلى الْغَدْرِ اعْتِلالاً عَلَيْهِ بِالزُّورِ: وَهذا بَعْدَ وَفاتِهِ شَبِيهٌ بِما بُغِيَ لَهُ مِنَ الْغَوائِلِ فِي حَياتِهِ. هذا كِتابُ اللهِ حَكَماً عدْلاً، وَناطِقاً فَصْلاً، يَقُولُ:

---

(١) التوبة ٤٦.

(٢) إبراهيم ٨.

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ﴾ فَبَيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ فيما وَزَّعَ عَلَيْهِ مِنَ الأَقْساطِ، وَشَرَّعَ مِنَ الفَرايضِ وَالميراثِ، وَأَباحَ مِنْ حَظِّ الذُّكْرانِ وَالإناثِ ما أَزاحَ عِلَّةَ المُبْطِلِينَ، وأزالَ التَّظَنِّي وَالشُّبُهاتِ في الغابرينَ، كَلاّ ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾).

إذ تترابط التراكيب على تعدّد دلالاتها الجزئية مع اتفاقها في الفكرة الشاملة التي هي: (بعد تحميد الله والصلاة على نبيه، حق ابن عمها على الخلافة وهو حق من الله تعالى له): وذلك بفعل العلاقات السببية التي تربط الدوائر الإسنادية المشكلة لهذه الخطبة، فالله عز وجل قد قال لنبيه بان يبلغ ما انزل إليه من ربه، فتنبثق من هذه الفكرة الدلالات الجزئية التي تحملها الأفكار المتتابعة، وهذه الأفكار هي:

١. حق ابن عمها بالخلافة.
٢. حقها على القوم أن ترث أباها.
٣. حقها أن تحفظ هي وذريتها، لان المرء يحفظ في ولده، إكراماً للرسول.
٤. حقها على القوم إن الله سبحانه أوصى بأهل بيت النبي ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾.
٥. درء الفتن التي تحيط بالإسلام والدين والمسلمين.

فكل فكرة تُفضي إلى الأخرى وهكذا حتى نهاية الخطبة، وهذه العلاقات تعزّز الوحدة الموضوعية لبنية الخطبة، ومن مظاهر العلاقات السببية ظاهرة التفصيل بعد الإجمال، ولا يخفى ما لهذه الظاهرة من أثر بارز في وضع الإطار النصي الحقيقي للعلاقات السببية التي تخدم الموقف ـ إذ يتم ذكر نقطة محدّدة ثم تُتبع بتفصيلات خاصة بها، فتكون هذه النقطة الفكرية إجمالاً ـ يُتبع بالتفصيلات الخاصة به، ونماذجه كثيرة في فمثلاً:

قالت في التوحيد (أشهد أَنْ لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإخْلاصَ تأْويلها، وضمّنَ القُلُوب موْصُولَها، وأَنار في الفِكَرِ معقُولَها. المُمتنعُ مِن الإبْصارِ رُؤيتُهُ، ومِنَ الأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ. اِبْتَدَعَ الأَشَياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصويرِها إلاّ تَثْبيتاً لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهاً عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهاراً لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وإِعزازاً لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيَتِهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ).

إنّ كلّ شيء يبنى على الأصول والرّكائز والأسس، وبهذا يتضح إننا الخطبة الفدكية بنيت على أصل وأساس متين هو القرآن الكريم لذلك نجد فيها عرض رصين للأبحاث العقائدية، والتّأكيد عليها تباعاً دون انقطاع وقدر المستطاع، لأن السيدة فاطمة

الزهراء (ع) لابد لها من التركيز على المنظومة الدينية وما يتعلق بها من المعارف الإسلامية التي قام عليها الدين الإسلامي، وهذه الخطبة جاءت في وقتها الزمني المحدد لها لتكون حجة على الناس بعد أبيها وترشد القوم وتعزيهم وتعزي نفسها برحيل النبي الأكرم، لذلك كانت القاعدة رصينة، حتّى يتمكّن الإنسان من طيّ مراحل التّفريع والبناء على ضوء تلك القواعد والأُسس[١].

وما قالته في التوحيد وهذا ظاهر من النص المتقدم نجده ينفي الصفات عنه سبحانه بل ـ نفي كلّ هذه الصّفات عنه ـ لأنّ الصّفة حادثة، ولأنّ الصّفة غير الموصوف، فعندما نقول إنّ زيداً قائم، القيام شيء، وزيد شيء آخر، وإن كان مندكاً معه، لأنّ القيام والعلم وما إلى ذلك صفات تعرض على ذات الإنسان، فإذا كانت الصّفات عارضة لا يمكن أن يوصف بها الله سبحانه[٢]. وكذلك نجدها تؤكد على المشيئة الإلهية وهو مبدأ اعتقادي على المسلم أن يتمسك به لذلك لفتت النّظر لأهمية هذا المعتقد، لأنّ المطالب الإعتقادية إذا وردت على لسان المعصوم (ع) تكون لها تمام الأهمية، وتستحق تمام الإصغاء، لأنّ المتحدث والمتكلّم والخطيب هنا المعصوم، ذلك الإنسان الكامل، ولهذا نعرّج إلى رياض المعرفة بعد طيّ أمرين هامّين[٣]:

الأوّل: قالت (ع): ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وهذا هو سرّ عظمة الخالق، إنه أنشأ الأشياء لا لصورة قبلية، ولا مثال سابق، إنّما أنشأها بعظمته، وكوّنها بقدرته من غير احتذاء أمثلة، يعني: لم يقتد ولم يتّبع مثالاً أو صورة أو شكلاً أو هيئةً في تكوين الأشياء، وإنّما كوّنها من غير سابق لتلك الصّورة، من هنا ندرك العظمة، ويتميّز الخالق جلّ وعلا عن غيره من الصنّاع ومن الفاعلين والمقتدرين في إيجاد الأشياء، بأنه يوجد الشّيء لا من شيء كان قبله، ولا على مثال ليحتذى على ضوئه، إنّ هؤلاء أي ـ ما سوى الله تعالى ـ إنّما يشكّلون الأشياء على صورة سابقة. على سبيل المثال، لمّا ابتركت الطّائرة واستحدثت، كانت على مثال الطّير، حيث نظر المخترع إلى هذا الطّائر، واستطاع على ضوء ذلك أن يوجد هذا الحديد المكوّن من هذه الهيئة، وبهذه الكيفية المسمّاة بالطّائرة.

الثّاني: هو عبارة عن المشيئة، وهذا الأمر احتار الكثير فيه، ولكن على أولي الألباب وأصحاب القلوب سهل يسير، وبإذن الله سوف ندخل في هذا المجال لنص إلى نتيجة هامّة، يتمّ على ضوئها تصحيح الكثير من الإعتقادات الخاطئة عند الإنسان، والتّخرّصات والتّوهّمات في قضية الصّنع والإيجاد عبر المشيئة، وهذا من الأبحاث التي لو استوعبها الإنسان لاستطاع أن

---

(١) **انظر**: أسرار الخطبة الغراء ٣٥.

(٢) **انظر**: المرجع نفسه ٤١.

(٣) **انظر**: المرجع نفسه ٤٨.

يصل إلى أصح الإعتقادات، ويحلّ بذلك جملة من المعضلات والمشكلات، ويخرج من قاع الطّبيعة والظّلمات، لأنّ الإنسان ما لم يفهم الحقائق يبقى كالبهيمة التي تقع في الوحل، والتي لا تقدر على حركة دائرية على نفسها، والمفترض أن يخرج الإنسان من هذهِ الدّائرة إلى الدّائرة الأعمق والأهمّ.

وقالت في النبوة: (أشهد أنّ أبي مُحَمَّداً (ص) عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ اِنِ اجْتَبَلَهُ، وَاصطفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويل مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْماً مِنَ اللهِ تَعالى بمآيلِ الأُمُور، وَإحاطَةً بحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ. ابْتَعَثَهُ اللّهُ تعالى إتماماً لأمْرِهِ، وَعَزِيمَةً على إمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإنْفاذاً لِمَقادِيرِ حَتْمِهِ.

فَرَأى الأُمَمَ فِرَقاً في أدْيانِها، عُكَّفاً على نيرانِها، عابِدَةً لأوثانِها، مُنْكِرَةً للّه مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللّهُ بِمُحَمَّدٍ (ص) ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ.).

وقالت في وصف القرآن الكريم وخليفة رب العالمين (كِتابُ اللّهِ النّاطِقُ، والقُرآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ. بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللّهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرائِعُهُ المَكْتُوبَةُ).

وقالت (ع) في أسرار نشأة الأنوار المحمّدية قبل الخلائق من خلال البيان السّاطع[1] في خطبة الزّهراء قالت (ع): (ثمّ جعل الثّواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنّته، وأشهد أنّ أبي محمّداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من اللّه تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدّهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه اللّه تعالى إتماماً لأمره).

وقالت في محور الإمامة: (وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة).

انظر كيف خرجت الصّدّيقة الكبرى في هذا المسرح الشّهودي للمسرح النبيي، لما هم عليه من مراتب ومقامات لدى اللّه تعالى، وعند مليك مقتدر، نزلت الصّدّيقة الكبرى تتوسط القافلة النّورانية، التي كانت تضم أفضل الخلق بإجماع العقلاء، وهم: محمّد وعلي والحسن

---

(١) انظر: المرجع نفسه ٦٥.

والحسين، وفاطمة، صلوات الله عليهم أجمعين، بإجماع المفسّرين، وبإجماع من دون حقائق التّاريخ بإنصاف وكتب هذه الحقيقة التي لا تخفى[1] وهذا النص بحث في محور الإمامة باعتبارها نظاماً للملّة، وأماناً من الفرقة[2] فهي بعد أن بيّنت أصل الاعتقاد وهو التّوحيد، انتقلت إلى النّبوّة، ثمّ إلى الإمامة، ومن هنا نستكشف أنّ الإمامة من الأصول الإعتقادية للدّين، وليست من الأصول الإعتقادية للمذهب فحسب، لئلاّ تترك الأمّة سدىً، ولئلاّ تضيع البشرية بأكملها، فلذا أرسل إليها رسلاً مبشرين ومنذرين، ليجتمعوا على الكلمة الواحدة، ولئلا يتفرّقوا، ومن هنا نستكشف بأنّ الإمامة أصل عقلي، وليس فقط أصلاً نقليّاً، والعقل يحكم بلزوم الحُجّة. وهذه تعدّ من أهمّ الأبحاث في وقتنا، لأنّ إنكار الإمام أو الإمامة مساوق لإنكار النّبوّة، وإنكارهما مساوق لإنكار الله وإنكار صفاته وأسمائه وأفعاله، وبالتّالي تبطل الأغراض التي من أجلها وجد الإنسان، لأنّ الإنسان وجد ليعرف الله عبر أسمائه وصفاته وآثاره وأدلاّئه وبراهينه الجليّة وبيّناته الكافية، كلّ ذلك ليتضح للكل هذه الحقيقة، إذاً هذه من المباني العقلية[3].

وقالت في الإيمان وفروعه (فَجَعَلَ اللّهُ الإيمان تَطْهيراً لَكُمْ مِنَ الشّرْكِ، وَالصّلاةَ تَنْزيهاً لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنّفْسِ وَنَماءً في الرّزْق، والصِّيامَ تَثْبيتاً للإِخْلاص، والحَجَّ تَشْييداً لِلدّينِ، وَالعَدْلَ تَنْسيقاً لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهادَ عِزاً لِلإْسْلامِ، وَالصّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأْجْرِ، وَالأْمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصاصَ حِصْناً لِلدِّماءِ، وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْريضاً لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازينِ تَغْييراً لِلْبَخْسِ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزيهاً عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجاباً عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السِّرْقَةِ إيجاباً لِلْعِفَّةِ. وَحَرَّمَ اللّه الشِّرْكَ إخلاصاً لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ).

وقالت في الفتنة: (فَلَمَّا اخْتارَ اللّهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أنْبِيائِهِ وَمَأْوى أصْفِيائِه، ظَهَرَ فيكُمْ حَسيكَةُ النِّفاقِ وَسَمَلَ جِلْبابُ الدّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوينِ، وَنَبَغَ خامِلُ الأَقَلِّينَ، وَهَدَرَ فَنيقُ الْمُبْطِلِين).

ففي قولها: (بالتوحيد، والنبوة، ووصف القرآن الكريم، والخلافة، والإيمان، والفتنة والإرث) إجمال، وهو سبب للتفصيلات اللاحقة، المنبثقة من الإجمال السابق، وهذا يمثل أعلى درجة من درجات التماسك والربط.

---

(١) انظر: المرجع نفسه ١٠٥ والكشاف ٣٦٨/١.

(٢) انظر: المرجع نفسه ١٢٢.

(٣) انظر: المرجع نفسه ١٢٤.

نستدل بالقرآن الكريم لإثبات أنّ الوجود بأسره لآل محمّد (ع) مع بيان دقيق لهذه الآية ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[1] قالت مولاتنا فاطمة الزهراء (ع) في خطبتها أمام المهاجرين والأنصار وغيرهم: (كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبّداً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثمّ جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنّته). نظراً لأهمية هذا الجانب العقائدي في هذا التركيب الموحي بالدلالة على أن الوجود وما حوى ممّا علم وممّا لم يعلم، ممّا يرى وممّا لا يرى ويترتّب عليه من ثمرات عظيمة، هي أنّ المجموعة الكونية بما فيها من دقائق وعجائب وغرائب، كلّها كانت من أجل آل الرسول (ع)[2].

ثالثاً ـ العلاقات المعجمية

تتراءى عبر الخطبة مجموعة من العلاقات اللفظية، وتقوم هذه العلاقات الخاصة بالألفاظ بربط التراكيب، بالدلالات، فإعادة ذكر اللفظ أو التركيب نفسه له علاقة مباشرة بالتماسك المعجمي الذي يُعد الخطوة الأساس في بناء الجملة والنص كاملاً[3].

ولتوضيح هذه العلاقة نأخذ قول الصديقة الطاهرة:

(وَنَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلى مِثْلِ حَزِّ الْمُدى، وَوَخْزِ السِّنانِ فِي الحَشا، وَأَنْتُمْ تزعُمُونَ ألاّ أرْثَ لَنا) و(أفي كِتابِ اللّهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟) و(أيها المُسْلِمونَ أأُغْلَبُ عَلى ارْثِيَهْ يَا ابْنَ أبي قُحافَةَ) و(وزَعَمْتُمْ ألا حِظْوَةَ لِي، وَلا إرْثَ مِنْ أبي لا رَحِمَ بَيْنَنَا!) وغيرها من النصوص القرآنية التي استشهدت بها.

فالتركيز على الجذر "إرث" وإعادة ذكره بصيغ مختلفة؛ يحدث نوعاً من العلاقات السياقية الهادفة: (ارث، ارْثِيَهْ، إرث، ترث، يتوارثان، يرث، يرثني)، وهذا النوع من العلاقات السياقية المعجمية يؤدي إلى استمرار السياق وعدم انقطاعه، فهو يعزّز الترابط النحوي المعجمي: لأنه يتضمن في ثناياه التتابعات الدلالية النحوية، فلا تبقى محصورة في إطار العلاقات الشكلية القابعة في اللفظ، وفي بعض مدلولاته.

وهذا التتابع لهذه الصيغ، يثبت أن هذه الصيغ هي التي تنظم عالم النص، فهي تثبت الفكرة الأساسية القائمة على أساس: حقها بالإرث، ولترسيخ هذه الفكرة وتأكيدها: فإنها كررت هذه الصيغة لتحمل في ثناياها الأفكار جميعها. فضلاً عن أنها كررت اللفظ (أنا)

---

(١) الأحزاب ٦.

(٢) انظر: أسرار الخطبة الفراء ١٢٢.

(٣) انظر: منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، ٢٥.

و(آبي) كثيراً في خطبتها، حرصاً منها على بيان أن النبوة مستمرة معها من أبيها وهي التي ورثت منه فيضها في ذريتها التي اختارها الله تعالى لتكون حججاً على عباده وأمناءه في بلاده. ولهم حق الوراثة التكوينية لأن الأرض يرثها عباده الصاحون.

ولو دققنا في هذه العلاقة، يثبت أنها تؤثر في منظومة العلاقات الكلية التي تحكم بنية الخطبة، فهي التي استدعت أسلوب العطف، كما أنها عملت على تعزيز ظاهرة التعليق الشرطي وتعميق أثرها في اتّساق النص، وهذا يثبت أيضاً الأبعاد التكاملية للعلاقات النصية، وصولاً إلى نص مقنع، يدفع إلى التواصل والتأثير، وما يؤكد ما تقدّم ذكره نصاً وفكرةً قولها (ع):

(فَهَيْهاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأَنّى تُؤْفَكُونَ؟) و(﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أفَلا تَعْلَمُونَ؟ بَلى تَجَلّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضّاحِيَةِ أنّي ابْنَتُهُ) وقولها (أأُغْلَبُ عَلى ارْثِيَهْ يَا ابْنَ أبي قُحافَةَ! أفي كِتابِ اللّهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾، أفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللّهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ) و(أَفَخَصَّكُمُ اللّهُ بآيَةٍ أخْرَجَ مِنْها أبي؟ أمْ هَلْ تَقُولُونَ أهل مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثانِ، وَلَسْتُ أنَا وَأبي مِنْ أهل مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أمْ أنْتُمْ أعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أبي وَابْنِ عَمّي؟) و(أتَقُولُونَ ماتَ مُحَمَّدٌ (ص)؟! فَخَطْبٌ جَليلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ، وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأظْلَمَتِ الأرض لِغَيْبَتِهِ) و(أأُهْضَمُ تُراثَ أبيَهْ وَأنْتُمْ بِمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ، ومُبْتَدأٍ وَمَجْمَعٍ؟).

إن إعادة ألفاظ "الاستفهام" بهذا التتابع يؤكد العلاقات السببية القائمة بين التراكيب المتتابعة، أو بين أجزاء الخطبة، وقد جاء هذا التكرار ليعزّز فكرة أن الإرث حق لها كما هو حق أعطاه الله لكل المسلمين من آبائهم.

ولعلّ هذا من أبلغ أنواع البلاغة في بنية الخطبة الشريفة في اعتقاد الباحث، إذ يرتقي تكرير اللفظ والتركيب معاً ليعزّز غاية أبعد وأعمق مما يتخيّله القارئ والمستمع، وهذا فيه بلاغة وإبلاغ، وحثّ على الالتزام بكل ما حكم الله للرعية وأوصى به رسوله الكريم (ص) ليحصل بذلك رضا الله سبحانه وتعالى، وهذا له علاقة مباشرة أيضاً بالمقصدية الأسلوبية داخل الخطبة نفسها.

رابعاً ـ علاقات الاقتباس النصي

مما لاشك فيه أن علماء لغة النص يذهبون إلى أن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به، يحقق مبدأ التماسك النصي المطلوب، سواء بواسطة أم بغير واسطة، لذلك نجد أن ارتباط النص بنصوص أخرى يحقق مبدأ النصية، وتبرز هذه العلاقة بروزاً واضحاً في البنية النصية للخطبة الفدكية، إذ تدخل النصوص القرآنية في تكوين الخطبة، فتعمل على بناء

النص، وتوضح مفرداته، وتقريرها، وإثباتها، فتكون لها أهمية كبرى في بناء التماسك البنيوي الشامل للنص، ويمكن القول: إن بنية الخطبة تضم مجموعة من المتواليات الجملية التي تضم بنية كلية يمكن للقارئ أن يتوصّل إليها بوضوح عن طريق إدراك مجموعة من العلاقات اللغوية، ويأتي التناص على رأس هذه العلاقات، ومن ذلك قولها:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

يلحظ أنّ الآية، جاءت لتوظّف في السياق المخصص لها، إذ يتضمّن السياق الحديث عن الإيمان وترك المعاصي وعدم الميل إلى الشيطان، وقد يكون مجيء الآية في نهاية الفقرة من الخطبة دليلاً على أنها (ع) أرادت أن تقول إن من يتقي الله هو العالم العارف لله العامل بأوامره التارك لنواهيه.

وقد يوظّف التناص في بناء الخطبة: لبناء نصها كاملاً، فتكون العلاقة هي علاقة كلية تكاملية، إذ تأتي الخطبة شارحة للآية الكريمة التي تقع في سياقها، ومثال ذلك قولها في شرح قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] وبعدها أفاضت الزهراء (ع) في شرحها الآية الكريمة.

وكذلك شرح قوله تعالى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[3] وكذلك في شرح الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. وفي اتباع الباطل ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4]. وفي حقها على الإرث ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[5] وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[6] وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[7]، وكذلك ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[8]. وكذلك ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا

(١) آل عمران ١٠٢.

(٢) التوبة ١٢٨.

(٣) المائدة ٦٤.

(٤) آل عمران ٨٥.

(٥) الأنفال ٦٥.

(٦) النساء ١١.

(٧) البقرة ١٨٠.

(٨) آل عمران ١٤٤.

نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١]. وكذلك ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[٢].

وَقالَتْ: مَعاشِرَ النّاسِ المُسْرِعَةِ إلى قِيلِ الباطِلِ، المُغْضِيَةِ عَلى الفِعْلِ القَبيحِ الخاسِرِ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِكُمْ ما أَسَأْتُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ، فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ، وَلَبِئْسَ ما تَأَوَّلْتُمْ، وَساءَ ما أَشَرْتُمْ، وشَرَّ ما مِنْهُ اعتَضْتُمْ، لَتَجِدَنَّ ـ وَاللّهِ ـ مَحْمِلَهُ ثَقيلاً، وغِبَّهُ وَبيلاً إذا كُشِفَ لَكُمُ الغِطاءُ، وَبانَ ما وَراءَهُ الضَراءُ، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ و﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

تأتي سلسلة الاقتباسات القرآنية، المتمثّلة بآيات السور القرآنية الكريمة؛ لتؤكّد ولتوضح كيفية إطاعة الله سبحانه وتعالى والتزام أمره وإطاعة رسوله وأهل بيته.

ويحق لنا القول إن التتابع التركيبي في هذه الخطبة، يثبت وجود هندسة أسلوبية ذات أبعاد متعدّدة: جاءت لتعزّز البعد الحقيقي للنص، المتمثّل بالاقتباس من القرآن الكريم، وشواهد ذلك كثيرة كما ترى في ما ذكرناه.

خامساً ـ علاقات التتابع الدلالي

التتابع الدلالي في الجملة العربية تخضع لمبدأي التتابع والتعاقب، ويميل البحث إلى تسميته بهذا الاسم ليكون أكثر شمولاً وتحديداً لمجموعة من المظاهر الخاصة به، ويمكن حصرما جاء في خطبة الزهراء (ع) بما يلي:

أ ـ الروابط الزمنية (التتابع الزمني).

ب ـ العطف.

ج ـ التتابع الدلالي الإسنادي.

يتتبع محور التتابع إلى (العلاقات التي تربط الجمل بعضها ببعض وهي تستجيب في ذلك لحتمية الخطية في إنجاز الكلام)[٣]. وهذه العلاقات هي علاقات توافقية توفرها الأفعال وبعض الألفاظ الدالّة على الزمن، ومثال ذلك قول الصديقة:

(وَأَشْهَدُ أنّ أبي مُحَمَّداً (ص) عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجْتَبَلَهُ، وَاصْطِفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاوِيل مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْماً مِنَ اللهِ تَعالى بِمآيِلِ الأُمُور، وَإحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً

---

(١) التوبة ١٣.

(٢) إبراهيم ٨.

(٣) نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً) ٣٥.

بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ. ابْتَعَثَهُ اللّهُ تعالى إتماماً لأمْرِهِ، وَعَزِيمَةً على إمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإنْفاذاً لِمَقادِيرِ حَتْمِهِ.

فَرَأى الأُمَمَ فِرَقاً في أدْيانِها، عُكَّفاً على نيرانِها، عابِدَةً لأوثانِها، مُنْكِرَةً للّه مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللّهُ بِمُحَمَّدٍ (ص) ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقامَ في النّاسِ بالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطّريقِ المُستَقيم).

(بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، ...).

فَجَعَلَ اللّهُ الإيمان تَطْهيراً لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً في الرِّزْقِ، والصِّيامَ تَثْبيتاً للإِخْلاصِ، والحَجَّ تَشْيِيداً لِلدّينِ، وَالعَدْلَ تَنْسيقاً لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهادَ عِزاً لِلإسْلامِ، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأَجْرِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصاصَ حِصْناً لِلدِّماءِ، وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْرِيضاً لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازِينِ تَغْييراً لِلْبَخْسِ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزِيهاً عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجاباً عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السَّرِقَةِ إيجاباً لِلْعِفَّةِ. وَحَرَّمَ اللّه الشِّرْكَ إخلاصاً لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] وأطيعُوا اللّهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإنَّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

(اعْلَمُوا أنّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحمَّدٌ (ص)، أَقُولُ عَوْداً وَبَدْءاً، وَلا أقُولُ ما أقُولُ غَلَطاً، وَلا أفْعَلُ ما أفْعَلُ... وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ، مُذْقَةَ الشّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطّامِعِ، وَقُبْسَةَ الْعَجْلانِ، وَمَوْطِئَ الأقْدامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتاتُونَ الْوَرَقَ، أذِلَّةً خاسِئِينَ).

(فَأنْقَذَكُمُ اللّهُ تبارَكَ وتَعالى بِمُحمَّدٍ (ص).... وَأنْتُمْ فِي رفاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ).

يلحظ أنّ سلسلة الأفعال: (اختاره، انتجبه، أرسله، سماخ، اجتلبه، اصطفاه، ابتعثه، رأى، قام، هداهم، تنال، جعل، ترك، اعلموا، أقول، كنتم، فأنقذكم..) تترابط فيما بينها زمنياً، وتعمل على تنظيم سلسلة الأحداث التي تتكون منها الخطبة الشريفة، وذروة البلاغة أن يأتي الفعل معبّراً عن الرابط الزمني من جهة، ومعبّراً عن مناسبته للحدث من جهة أخرى. وهذه الأفعال جميعها مترابطة، وتابعة لمحور حتمية الإنجاز، الأفعال التي وردت في الخطبة تؤكد هذا.

---

(١) آل عمران ١٠٢.

أمّا العطف، فهو خير ما يربط التراكيب بطريقة ظاهرة، إذ يقوم على عطف الجمل والتراكيب بعضها على بعض ضمن السياق، فتكون العلاقة القائمة بين التركيبين هي علاقة التتابع الدلالي؛ لأن الجملة المعطوفة أو التركيب المعطوف يأخذ حكم التركيب المعطوف عليه ودلالته، ويحدث العطف بوساطة أدوات العطف المعروفة، ويقوم المفهوم الوظيفي للعطف على النظر في المعاني المتعددة لاستعمالات حرف العطف، ويتطلّب وجود قرابة بين وحدات اللسان[1]، (فالتوسّع بالعطف قد يشمل في تحليل الجملة العربية الدلالات المنتظمة، داخل وحدة كلامية قائمة برأسها حتى يلتقي الشكل التركيبي بالشكل المعنوي)[2]. وجدير بالملاحظة، أنّ العطف كثير الورود في بنية الخطبة الفدكية، ولا توجد حاجة لإيراد نماذج على العطف لسهولة مجراه.

(وَأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ) بعد أن أنهت الفقرة الأولى عطفت عليه قولها (وَأَشْهَدُ أنّ أبي مُحَمَّداً (ص) عبْدُهُ وَرَسُولُهُ) ثم عطفت عليه (فَرَأى الأُمَمَ فِرَقاً في أدْيانِها) وبعدها عطفت (ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ إليه قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاختِيارٍ، ورَغْبَةٍ وَإيثارٍ) ثم عطفت قولها (فَجَعَلَ اللهُ الإيمان تَطْهيراً لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً في الرِّزْق، والصِّيامَ تَثْبيتاً للإخْلاصِ، والحَجَّ تَشْييداً لِلدِّين، وَالعَدْلَ تَنْسيقاً لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهادَ عِزاً لِلإسْلامِ، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأجْرِ، وَالأمْرَ بالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأرْحامِ مَنْماةً لِلعَدَدِ، وَالْقِصاصَ حِصْناً لِلدِّماءِ، وَالْوَفاءَ بالنَّذْرِ تَعْريضاً لِلْمَغْفِرَةِ، وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوازينِ تَغْييراً لِلْبَخْسِ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزيهاً عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجاباً عَنِ اللَّعْنَةِ، وَتَرْكَ السَّرِقَةِ إيجاباً لِلعِفَّةِ. وَحَرَّمَ الله الشِّرْكَ إخلاصاً لَهُ بالرُّبُوبيَّةِ، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3] وأطيعُوا اللهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإنَّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وبعد هذا كله أعود فأقول: إن العطف (وسيلة) تربط بين جزأين، وليس هو (مزجاً بين جزأين)، فمن ثم كانت الجملة ذات المحل الإعرابي المعطوف عليها جديرة بالموقع الإعرابي وحدها، والجملة المعطوفة إنما هي تابعة لها، تمثل امتداداً للجملة الأم لا الجملة المعطوف عليها، وأشبه شيء بذلك القطار الذي يجر وراءه عربات عدة، وبين كل عربة

---

(١) انظر: مدخل إلى الألسنية، ١٣.

(٢) بنية الجملة العربية، ٧٠.

(٣) آل عمران ١٠٢.

وأختها رابط، هذا الرابط لا يجعل العربة جزءاً من العربة التي قبلها، وإن كان يجعلها جزءاً من القطار كله[1].

ودونك مثالاً جملة (يلعب) من نحو قولنا: (محمد يلهو ويلعب)، فهي ليست من الخبر، غير أنها امتداد للجملة الأم، ولا يسوغ إخراجها عنها، ومثلها في ذلك مثل قولنا: محمد لاه ولاعب، فليست لاعب خبراً ولكنها دون ريب امتداد للجملة الأم.

وعلى هذا الفهم للجمل المتابعة في الربط بالعطف وغيره تبين لك ما ذكرته في الفقرة الأولى من هذا البحث (ما الجملة؟)، لذلك يمكن أن نعرف لِمَ جعل الزجاج أربع عشرة آية من آخر سورة الفرقان جملة واحدة، قال أبو جعفر النحاس: (ورأيت أبا إسحاق قد جاء في هذا بما هو أولى من قول الأخفش هذا قال: عبادُ مرفوع بالابتداء، و الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرض هَوْناً من صفتهم، والَّذِينَ الذي بعده عطف عليه، والخبر أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ...).

قال: ويجوز أن يكون الخبر الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرض هَوْناً[2]، والجملة هي هي مع اختلاف تقدير الخبرين، وكل ما في الأمر أن المبتدأ هو الذي يطول على التقدير الأول، على حين يكون الطول والامتداد من نصيب الخبر على القول الثاني.

ويُعدّ التتابع الدلالي الإسنادي من أبرز العلاقات الجملية في الخطبة الفدكية التي تتحكّم بأهدافها، فتعمل على سَلْسلتها بأسلوب مترابط متماسك، وتتراءى هذه العلاقات عبر البنية النصية عن طريق ربط جزأي التركيب بعضهما ببعض من جهة، وربط سلسلة التراكيب النصية بعضها ببعض؛ كونها تدور حول فكرة محوريّة أو دلالة كلية واحدة وثابتة من جهة أخرى؛ وذلك لأن اشتراك التراكيب الإسنادية في المحور الدلالي الثابت هو من أسمى علاقات الربط؛ إذ يعكس الإمكانات الذهنية التنظيمية داخل النص، وما يؤكد ذلك قول الزهراء:

أأُغْلَبُ عَلى ارْثِيَهْ يَا ابْنَ أبي قُحافَةَ! أَفي كِتابِ اللهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، أفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، إذْ يَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وَقالَ فيمَا اقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيّا عليهما السلام إذْ قالَ رَبِّ ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وَقالَ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[3] وَقالَ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[4]

---

(١) تأمل إن شئت كلام ابن هشام عن فاء الاستئناف في مغني اللبيب: ٢٢٣، فإنه كالصريح في الدلالة على ما ذكرته.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٤.

(٣) الأنفال ٦٥.

(٤) النساء ١١.

وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1]، وزَعَمْتُمْ ألا حِظْوَةَ لِي، وَلا إرْثَ مِنْ أبي لارَحِمَ بَيْنَنَا!

أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بآيَةٍ أخْرَجَ مِنْها أبي؟ أمْ هَلْ تَقُولُونَ أهل مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثانِ، وَلَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أهل مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بخُصُوصِ الْقُرآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أبي وَابْنِ عَمّي؟ فَدُونَكَها مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً. تَلْقاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ، والزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيامَةُ، وَعِنْدَ السّاعَةِ ما تَخْسِرُونَ، وَلا يَنْفَعُكُمْ إذْ تَنْدَمُونَ، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

يدور هذا الحديث حول فكرة محورية أساسية وهي: (حقها في الإرث بعد أبيها)؛ ولتأكيد هذه الفكرة وتوضيحها تتتابع التراكيب الإسنادية: مشكّلة مجموعة من الدوائر الإسنادية المترابطة، وبعضها يتّسع لمجموعة كبيرة من الدوائر الإسنادية، وهي واضحة في النص آنف الذكر.

ويلحظ أنّ هذا الخطاب يضم دائرتين إسناديتين كبيرتين، كل واحدة منهما تتضمّن مجموعة من الدوائر التي تنقل الدلالات، وتفعلها، وتربطها ببعضها البعض؛ وللتوضيح يمكن التفصيل مثلاً في الدوائر التي تتضمنها الدائرة الثانية على النحو التالي:

الخطاب في قولها: أيها بَنِي قَيْلَةَ! أأُهْضَمُ تُراثَ أبِيَهْ وَأَنْتُمْ بمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ، ومُبْتَدأٍ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ؛ تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بالْكِفاحِ، مَعْرُوفُونَ بالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، وَالنُّجَبَةُ الَّتي انْتُجِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتِيرَتْ! قاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَناطَحْتُمُ الامَمَ، وَكافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلا نَبْرَحُ أو تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ حَتّى دارَتْ بِنا رَحَى الإسلام، وَدَرَّ حَلَبُ الأيّامِ، وَخَضَعَتْ نُعَرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإفْكِ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الْكُفْرِ، وهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرْجِ، وَاسْتَوْسَقَ نِظامُ الدِّينِ؛ فَأَنّى جُرْتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الإعْلانِ، وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الإقْدامِ، وَأشْرَكْتُمْ بَعْدَ الإيمان؟ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

والاستفتاح بقولها: (ألا قَدْ أرى أنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إلى الْخَفْضِ، وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بالدَّعَةِ، وَنَجَوْتُمْ مِنَ الضّيقِ بالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ ما وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمْ

---

(١) البقرة ١٨٠.

(٢) التوبة ١٣.

الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ، ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1]. ألا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ، وَالغَدْرَةِ التِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ).

وختام قولها جواباً على ما قالته: (فَدُونَكُمُوها فَاحْتَقِبُوها دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، باقِيَةَ الْعارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللهِ وَشَنارِ الأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنارِ اللهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ. فَبِعَيْنِ اللهِ ما تَفْعَلُونَ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، وَأَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ، ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾).

فهذا التدوير الإسنادي يعزّز قيمة التتابع الدلالي للتراكيب في فهم النص، ولفت أنظار المستقبل إلى أهمية المضامين الدلالية التي تتكون منه هذه الخطبة ويمكن القول: إنه هناك مجموعة من التقنيات النصية التي ساعدت في تعزيز منحى التتابع الدلالي الإسنادي، وهي:

١. العامل الإحالي:

للإحالة أثر بارز في تعزيز بنية التتابع الدلالي الإسنادي؛ وذلك لأنها تشكّل الإطار الدلالي لا الشكلي للنصيّة، إذ تقوم بربط السابق باللاحق شكلاً ودلالة، وقد يحدث العكس، وتنوّعت العناصر الإحالية في الخطبة، فهناك الضمائر وهي كثيرة منها ما يشير إلى الجماعة ومنها ما يشير إلى المفرد المخاطب المذكر، وهناك العناصر المعجمية التي تحيل إلى مقاطع محددة داخل الخطبة، مثل تكرار: (أبي) و(الإرث) و(الإفك) وغيرها من العناصر المعجمية التي تحيل إلى ماهيات محددة وثابتة، داخل الدوائر الإسنادية.

٢. العلاقات السبب والنتيجة:

ويتمثّل ذلك بالجواب الذي يأتي مباشرة بعد السؤال، فهذه علاقة السبب بالنتيجة، فضلاً عن القصدية الحقيقية في عملية التدرّج المنطقي في عرض المسندات، والمسند إليها عبر البنية النصية كاملة. وهذا واضح في قولها (ع):

(أيها بَنِي قَيْلَةَ! أأهْضَمُ تُراثَ أبِيَهْ وَأَنْتُمْ بِمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ، ومُبْتَدأٍ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ: تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَتَأْتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغِيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفاحِ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، وَالنُّجَبَةُ الَّتي انْتُجِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتِيرَتْ! قاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَناطَحْتُمُ الأُمَمَ، وَكافَحْتُمُ الْبُهَمَ، فَلا نَبْرَحُ أو تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ

---

(١) إبراهيم ٨.

فتأتبرون حتّى دارَتْ بنا رَحى الإسلام، وَدرَّ حَلَبُ الأيّامِ، وَخضَعَتْ نُعرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإفْكِ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الْكُفْرِ، وهَدأتْ دَعْوَةُ الْهَرجِ، واسْتَوْسَقَ نِظامُ الدِّينِ: فَأنّى جُرتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ، وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الإعْلانِ، وَنَكَصتُمْ بَعْدَ الإقْدامِ، وأشْرَكْتُمْ بَعْدَ الإيمانِ؟ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

ألا قَدْ أرى أنْ قَدْ أخْلَدْتُمْ إلى الْخَفْضِ، وَأبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أحَقُّ بالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ، وَنَجَوْتُمْ مِنَ الضِّيقِ بالسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ ما وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمُ الَّذي تَسَوَّغْتُمْ، ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[2]. ألا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بالْخَذْلَةِ الَّتي خامَرَتْكُمْ، وَالغَدْرَةِ التي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ.

فَدُونَكُمُوها فَاحْتَقِبُوها دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، باقِيَةَ الْعارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللّهِ وَشَنارِ الأبَدِ، مَوْصُولَةً بِنارِ اللّهِ الْمُوقَدَةِ الَّتي تَطَّلِعُ عَلَى الأفْئِدَةِ. فَبِعَيْنِ اللّهِ ما تَفْعَلُونَ ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾، وَأنَا ابْنَةُ نَذيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ، ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

فَأجابَها أبُو بَكْرٍ عَبْدُاللهِ بْنُ عُثْمانَ، فَقالَ: يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللّهِ، لَقَدْ كانَ أبُوكِ بالْمُؤْمِنينَ عَطُوفاً كَريماً، رَؤُوفاً رَحيماً، وَعَلَى الْكافِرينَ عَذاباً ألِيماً وَعِقاباً عَظيماً؛ فَإنْ عَزَوْناهُ وَجَدْناهُ أباكِ دُونَ النِّساءِ، وَأخاً لِبَعْلِكِ دُونَ الأخِلاّءِ، آثَرَهُ عَلى كُلِّ حَميمٍ، وَساعَدَهُ فِي كُلِّ أمْرٍ جَسيمٍ، لا يُحِبُّكُمْ إلاّ كُلُّ سَعيدٍ، وَلا يُبْغِضُكُمْ إلاّ كُلُّ شَقِيٍّ: فَأنْتُمْ عِتْرَةُ رَسُولِ اللّهِ (ص) الطَّيِّبُونَ، وَالْخِيَرَةُ الْمُنْتَجَبُونَ، عَلَى الْخَيْرِ أدِلَّتُنا، وَإلَى الْجَنَّةِ مَسالِكُنا، وَأنْتِ - يا خَيْرَةَ النِّساءِ وَابْنَةَ خَيْرِ الأنْبياءِ - صادِقَةٌ فِي قَوْلِكِ، سابِقَةٌ فِي وُفُورِ عَقْلِكِ، غَيْرُ مَرْدُودَةٍ عَنْ حَقِّكِ، وَلا مَصْدُودَةٍ عَنْ صِدْقِكِ، ووَاللّهِ، ما عَدَوْتُ رَأيَ رَسُولِ اللّهِ (ص) يَقُولُ: (نَحْنُ مَعاشِرَ الأنْبِياءِ لا نُوَرِّثُ ذَهَباً وَلا فِضَّةً وَلا داراً وَلا عِقاراً، وَإنَّما نُوَرِّثُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ، وَالْعِلْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وَما كانَ لَنا مِنْ طُعْمَةٍ فَلِوَلِيِّ الأمْرِ بَعْدَنا أنْ يَحْكُمَ فِيهِ بِحُكْمِهِ).

وَقَدْ جَعَلْنا ما حاوَلْتِهِ فِي الكُراعِ وَالسِّلاحِ يُقاتِلُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ، وَيُجاهِدُونَ الْكُفّارَ، وَيُجالِدُونَ الْمَرَدَةَ ثُمَّ الْفُجّارَ. وَذلِكَ بإجْماعٍ مِنَ الْمُسْلِمينَ لَمْ أتَفَرَّدْ بِهِ وَحْدي، وَلَمْ أسْتَبِدَّ بِما كانَ الرَّأْيُ فِيهِ عِنْدي. وَهذِهِ حالي، وَمالي هِيَ لَكِ وَبَيْنَ يَدَيْكِ، لا نَزْوي عَنْكِ وَلا نَدَّخِرُ دُونَكِ،

---

(١) التوبة ١٣.

(٢) إبراهيم ٨.

وَأَنْتِ سَيِّدَةُ أُمَّةِ أبيكِ، وَالشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ لِبَنيكِ، لا يُدْفَعُ ما لَكِ مِنْ فَضْلِكِ، وَلا يُوضَعُ مِنْ فَرْعِكِ وَأَصْلِكِ: حُكْمُكِ نافِذٌ فِيما مَلَكَتْ يَداي، فَهَلْ تَرينَ أَنْ أُخالِفَ فِي ذلِكِ أباكِ (ص)؟

فَقَالَتْ (ع): سُبْحانَ اللهِ! ما كانَ رَسُولُ اللهِ (ص) عَنْ كِتابِ الله صادِفاً، وَلا لأَحْكامِهِ مُخالِفاً، بَلْ كانَ يَتَّبِعُ أَثَرَهُ، وَيَقْفُو سُوَرَهُ، أَفَتَجْمَعُونَ إلى الْغَدْرِ اْعْتِلالاً عَلَيْهِ بالزُّورِ؛ وَهذا بَعْدَ وَفاتِهِ شَبِيهٌ بِما بُغِيَ لَهُ مِنَ الْغَوائِلِ فِي حَياتِهِ. هذا كِتابُ اللهِ حَكَماً عَدْلاً، وَناطِقاً فَصْلاً، يَقُولُ: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ فَبَيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ فيما وَزَّعَ عَلَيْهِ مِنَ الأَقْساطِ، وَشَرَّعَ مِنَ الفَرايِضِ وَالميراثِ، وَأَباحَ مِنْ حَظِّ الذُّكْرانِ وَالإِناثِ ما أَزاحَ عِلَّةَ المُبْطِلِينَ، وأزالَ التَّظَنِّي وَالشُّبُهاتِ في الغابِرينَ، كَلاَّ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فَقالَ أَبو بَكْرٍ: صَدَقَ اللهُ وَرَسولُهُ، وصَدَقَتِ ابْنَتُهُ؛ أَنْتِ مَعْدِنُ الحِكْمَةِ، وَمَوْطِنُ الهُدى والرَّحْمَةِ، وَرُكْنُ الدِّينِ وَعَيْنُ الحُجَّةِ، لا أُبْعِدُ صوابَكِ، وَلا أُنْكِرُ خِطابَكِ هؤلاءِ المُسْلِمونَ بَيْنِي وبَيْنَكِ، قَلَّدوني ما تَقَلَّدْتُ، وباتِّفاقٍ مِنْهُمْ أَخَذْتُ ما أَخَذْتُ غَيْرَ مُكابِرٍ وَلا مُسْتَبِدٍّ وَلا مُسْتَأْثِرٍ، وهُمْ بِذلِكَ شُهودٌ.

فَالتَفَتَتْ فاطِمَةُ (ع) وَقالَتْ: مَعاشِرَ النّاسِ المُسْرِعَةِ إلى قِيلِ الباطِلِ، المُغْضِيَةِ عَلى الفِعْلِ القَبيحِ الخاسِرِ (أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلوبِهِم أَقْفالُها) كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلوبِكُمْ ما أَسَأْتُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ، فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ، ولَبِئْسَ ما تَأَوَّلْتُمْ، وَساءَ ما أَشَرْتُمْ، وشَرَّ ما مِنْهُ اعتَضْتُمْ، لَتَجِدَنَّ ـ وَاللهِ ـ مَحْمِلَهُ ثَقيلاً، وغِبَّهُ وَبيلاً إذا كُشِفَ لَكُمُ الغِطاءُ، وَبانَ ما وَراءَهُ الضَراءُ، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ و﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

٣. توظيف أسلوب الاستفهام في عملية التوصيل والتأثير، والإقناع، وعرض طبيعة كل مرحلة، أو دائرة إسنادية، متبوعة بنتائجها.

في قولها: (أَأُهْضَمُ تُراثَ أَبِيَهْ وَأَنْتُمْ بِمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ) وكذلك (أَفَتَجْمَعُونَ إلى الْغَدْرِ اْعْتِلالاً عَلَيْهِ بالزُّورِ) وغيرها.

الخاتمة:

إن التركيب الجملي في خطبة السيدة الزهراء (ع) هو الأساس في عملية بناء النص، فهي محور النص، وبدونها يظهر النص على أنه مقاطع لفظية صوتية غير مفهومة، ونتيجة لذلك، فإنها قامت بما يمكن أن نقول:

أ. إنتاج نص متماسك؛ لأنها تعطي النص سمة المقبولية الصحيحة، وما دام النص قد حصل على المقبولية من المستقبل، فإن هذا يضمن نجاح عملية الاتصال اللغوي، لتحقيق الغاية المنشودة من تلك الخطبة.

ب. جعلت الجملة في الخطبة النص شبكة نسيجية من الصعب فك عراها؛ لأنها تعزّز مسألة كون النص نسيجاً من المكونات اللفظية والدلالية التي تترابط فيما بينها لتشكّل النص.

ج. إنّ وجود المكوّن النحوي والدلالي، سيؤدي إلى تحديد مدى مناسبة الجمل والخطاب للسياقات التي يراد لها أن تكون محور الدلالة التواصلية، وهذا كلّه في النهاية يؤدي إلى التأثير الإيجابي في نفس المستقبل، ممّا يجعله يتفاعل مع الخطبة.

د. عملت العلاقات الجملية في تراكيبها على تحقيق الفهم الصحيح للخطبة، ونظمت الأفكار، وتتابعات الدلالة، لما وفرته من السبك القائم على الإحالة، والربط، والاتساق المعجمي.

هـ. اتضح من البحث أن وجود نماذج وظيفية متعددة للعلاقات الدلالية والجملة في الخطبة الفدكية وهي: العلاقات السببية، والعلاقات المعجمية، وعلاقات الاقتباس النصي، وعلاقات التتابع الدلالي.

و. ثبت أنّ هذه العلاقات صادرة عن قصد نحوي أسلوبي، هدفها لفت نظر المستقبل، وجعله يتأثر بالمضامين الخاصة بالخطبة.

ز. إن الدلالات التي يمكن أن يكون قد حققها التركيب الجملي في الخطبة الفدكية هي التأكيد على (التوحيد، العدل الإلهي، النبوة، الإمامة، الخلافة، الإيمان وفروعه، وصف القرآن الكريم، المشيئة الإلهية، حق الزهراء (ع) في الإرث من أبيها، إن النور النبوة امتداد طبيعي في فاطمة الزهراء وبنيها، وغيرها من الدلالات التي أشار إليها البحث في متنه).

المصادر:

- القرآن الكريم.
- الاحتجاج، لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي. تعليقات وملاحظات السيد محمد باقر الخرسان، سلسلة كتب المناظرات (٥) إعداد مركز الأبحاث العقائدية
- الأساليب الإنشائية في النحو العربي، د. عبد السلام محمد هارون، مطبعة السنة المحمدية، مؤسسة الخانجي، مصر ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- أسرار الخطبة الغراء، عبد الكريم العقيلي، منشورات مؤسسة بنت الرسول، إصدار رقم ٩٥.
- الأشباه والنظائر في النحو، لجلال الدين السيوطي، تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، بالقاهرة ١٩٧٥.
- إعراب القرآن، للنحاس (أبي جعفر أحمد بن محمد) تحقيق: د. زهير غازي زاهد، بغداد ١٩٧٧م.
- بلاغات النساء، لابن طيفور.
- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، ط١، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٦م
- بنية الجملة العربية بين التحليل والنظرية، المنصف عاشور: تونس: جامعة تونس، ١٩٩١
- تطور دراسة الجملة بين النحويين والأصوليين، الدكتور صالح الظالمي، ط١، ٢٠٠٣م.

- التعريفات، للجرجاني (علي بن محمد الشريف) البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
- الجمل، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: علي حيدر، دمشق ١٩٧٢م.
- الجملة العربية، تأليفها وأقسامها، الدكتور فاضل صالح السامرائي، لاط، لا ت.
- الجملة العربية، مكوناتها - أنواعها - تحليلها، الدكتور، محمد إبراهيم عبادة، ط٤، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٧م.
- الجملة العربية والمعنى، الدكتور فاضل صالح السامرائي، ط٢، دار الفكر، الأردن ٢٠٠٩.
- حاشية الأمير على المغني، مطبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٧٢هـ.
- حاشية الدسوقي على المغني، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بمصر.
- الحجة في علل القراءات السبع، لأبي علي الفارسي، تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرون، لاط، لا ت.
- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٤، بغداد ١٩٩٠م.
- شرح الكافية في النحو، لرضي الدين الاسترابادي، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- شرح المفصل، لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت ومكتبة المتنبي، القاهرة، لا ط، لا ت.
- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي.
- علم اللغة التعلمي، سمير استيتية، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن – إربد (د.ط)، (د.ت)
- في النحو العربي. نقد وتوجيه. د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، ط٢، بيروت ١٩٨٦م.
- الكشاف، للزمخشري (أبي القاسم جار الله محمود بن عمر) دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٦٦هـ - ١٣٤٧م.
- لسان العرب، لابن منظور(أبي الفضل جمال الدين)، دار صادر، بيروت لا ط. لا ت.
- اللمع في العربية، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: حامد المؤمن، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٢م.
- مدخل إلى الألسنية مع التمارين التطبيقية، . فاير، بول وبايلون، كريستيان: ترجمة: طلال وهبة، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م
- المرتجل، لابن الخشاب (أبي محمد عبدالله) تحقيق: علي حيدر. مجمع اللغة العربية. دمشق ١٩٧٢.
- معاني القرآن، الفراء، ج٢، تحقيق: محمد عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر.
- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك وآخرون، دار الفكر، ط٦، بيروت١٩٨٥م.
- المقتضب، للمبرد (أبي العباس محمد بن يزيد) تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.
- المقتصد في شرح الإيضاح، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الرشيد للنشر.
- من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، طبعة القاهرة ١٩٧٢م.
- منازل الرؤية (منهج تكاملي في قراءة النص)، سمير استيتية، ط١، عمان: دار وائل، ٢٠٠٢م
- نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً) الأزهر الزناد، بيروت – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي، ط١، سنة ١٣٢٧هـ مطبعة السعادة بمصر. ❖

السيدة فاطمة الزهراء (ع) ينبوع الثقافة الإنسانية المتعددة الأبعاد

د. محمد جميل قلندر (باكستان)

السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عَلَيْها) شخصية نادرة في تاريخ النسوان تمثّل الأسوة المُثلى من مُثلّث الأُنوثة والبُنوّة والأمُومة من جهة. ومن جهة أخرى هي **"دُرّة يتيمة"** من معدن النُبوّة والرسالة، لَمْ تَرِث فَحَسْبُ فصاحة وبلاغة وحكمة وسيرة أبيها العظيم الذي هُو أفصح العَرَب والعَجَم وصاحب جوامِع الكَلِم والخُلُق العظيم حتى اعترفَتْ السيدة عائشة (رض) بذلك قائلة: **"ما رأيتُ أحداً أشبه كلاماً وحديثاً (وفي رواية أخرى) سمتاً وهَدْياً برسول الله في قيامها وقعودها من فاطمة بنت مُحَمّد..... وكانتْ إذا دخلَت على النّبي (ص) قام إليها ورَحَّبَ بها فَقَبّلَها وأخذ بيَدِها فأجلسها في مجلسه وكانت هي إذا دَخَلَ عليها رسول الله (ص) قامت إليه من مجلسها فقبّلَته في مَجْلِسِها"**، بَلْ وَقَعَت مَوْقِعَ الاحترام والإكرام والمحبّة من قلبه (ص) إلى حدّ أنّها تخطّتْ مَرْحلة **"بنتِ أبيها"** إلى منزلة ومحلّة **"أمّ أبيها"** (وبالتالي **أمّ امّهات المؤمنين**)- التسمية التي تنطوي على أسرار ورُموز وإشارات عجيبة وغريبة ذات الصلة بمكانتها الأمّية (matriarchic status) ويمكن أن تعلّل وتفهم في ضوء ما قال النبي محمد (ص) في حقّها وفي حقّ بَعْلها علي بن أبى طالب (ع) وسبطيه أي إبنيهما الحسن والحُسين (عليهما السلام) ضمن خضمّ مناقبهم الذين عرّفهم النبي محمد (ص) بعترته وأهل بيته وآل كسائه - بيت الله الأعظم المكّون من تلك النفوس الخالدة الطاهرة الزكية التي يعود الفضل إليها في عُمْران بيت الله المُكعّب المكوّن من طُوب وآجر، والذي وُلِد فيه من سُمّي وعُرِف بـ**"مولود الكعبة"** و**"شهيد المحراب"**، فمن ثمَّ ظلّ مطمح نظر ونصب عين من كان من المقرر أن يكون مصدر ومورد إثنتا عشرة عيناً من الإمامة مصداقاً لمضمون الآية: قَدْ نَرى تَقلُّبَ وجْهِكَ في السّماءِ فَلَنُوَلِيَنّكَ قِبْلَة تَرْضاها - المضون الذي عبّرتُ عنه في هذا البيت من إحدى قصائدي باللغة العربية:

"قِبْلَـــةٌ تَرْضَـــاهَا" أَدْنَـــى شَـــأْنِكَ   قِبْلَـــةٌ أَنْـــتَ لِكِلْتَـــا الْقِبْلَتَيْـــن

فكَمَا إن أبى الأئمة إبراهيم (ع) جعله الله إماماً لِـ (الناس) بعد ما ابتلاه **"بكلماتٍ فأتَمَّهُنّ"**، فكذلِكَ جعل الله إمامة (الأئمة) المعهودة من ذريّة النبي محمد (ص) عالمية أي: للناس كافة في مشارق الأرض مغاربها، وهي مشروطة بتواجد (العدل والإحسان) وعَدم تواجد (الظلم) معها تمثيلاً وتطبيقاً لمضمون الآية: **"فقال لا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين"**، ومضمون الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾. ولِكلمات الله الواردة في القرآن الحكيم بالنسبة لله ورَسُوله وكتابه المُنزّل على قلبه **كربّ العالمين ورحمة للعالمين وذكر للعالمين** على الترتيب.

من خضمّ مناقب (آل البيت) التي لا تُعدّ ولا تُحْصَى (١) ما قال النبي محمدٌ (ص) في السيدة فاطمة (ع) إنها "**بضعة مني**" وسيدة نساء أهل الجنة، وسيدة نِساء العالمين على قدم وساق مع أمّها السيدة خديجة بنت خويلد (ع)، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، والسيدة العذراء مريم بنت عمران أم المسيح عيسى (ع) و(ب) أعلن ونَصَب بَعْلَها عَليّاً على صِغَرِ سِنة أثناء دعوة ذي العشيرة خليفته ووصيّه ووزيره، ثُمّ صرّح بأنه الباب الوحيد لمدينة علمه وحكمته، المفروض إتيانه من أجل الدخول إليهما، واختاره أخاه يوم المؤاخاة عامَ الهجرة، وأنزله من نفسه منزلة هارون من موسى (ع)، ودلّ النبي (ص) يوم دعوة الطير على أن عَليّاً أحب الخلق إلى الله، وأعلن (ص) يوم غدير خُمّ أن عليا (ص) مَوْلى كُل من كان هو (ص) مولاه من الكون بما فيه الكائنات، وقال (ص): إن عَلِيّاً مِنّي وأنا منه وهُو وليُّ كُلِّ مُؤمِن بَعْدِي، بل اعتبره وليّه (ص) في الدنيا والآخرة، بل ذَهَب (ص) إلى أبعد مدى، واعتبرهُ نَفْسَه، فمِنْ ثَمَّ أصبحت نفسُ عَليّ "**نفسَ الرسول (ص)**"، فما دام النبي محمد (ص) ﴿أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وبالتالي مَوْلاهم فَبحُكم الطبيعة والمنطق إنّ عَليّاً (ع) أولى بأولي الإيمان من أنفسهم فأجْدر بأن يُوالوْه حتّى يواليهم الله وينصروه حتّى ينصرهم الله وأن لا يعادوه لكي لا يعاديهم الله وأن لا يَخذلوه لكي لا يخذلهم الله، و(ج) ثمّ اعتبر النبي محمد (ص) سِبْطَيه الحسن والحُسين (عليهما السلام) ريحانَتَيه من الدنيا وسَيِّدي شباب أهل الجنّة، لا سيّما الحسين (ع) الذي قال (ص) فيه ما قال في عَلِيّ (ع): "**الحُسين مِنّي وأنا من الحُسيْن**"، وأضاف (ص) قائلاً: أحبَّ اللهُ من أحَبّ حُسَيْناً حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الأسْبَاطِ. وقال علي (ع): مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى وَجْهِ رَسُوْلِ اللهِ مِنَ رَأسِهِ إلى عُنُقِهِ فَلْيَنْظرْ إلى الحَسَنِ، ومن أرَادَ أن يَنْظُرَ إلى ما لُدن عُنُقِهِ إلى رِجْلِهِ فَلْيَنظرْ إلى الحُسَيْن.

ما تقدم آنِفاً من إيراد ذكر آل بيت النبي محمد (ص) قد يبدو في أول وهلة منهجاً تقليدياً يفيد تحصيل حاصل وتكرار مُكرّر في باب المناقب ولكنه هذا هو الذكر الذي مهم جدّا إذ إنه عبارة عن عصارة التعريف بهم على لسان النبي محمد (ص) نفسه كمحاور اهتمامه البالغ — التعريف الذي قام به نبي الرحمة ورسول الأمن والسلام (ص) مراراً وتكراراً في السفر والحضر، والذي يقدم مفاهيم أساسية (fundamental concepts) ضرورية لإفادة كافة الناس مسلمين وغير مسلمين بمكانة آل البيت، يتمحور فيها الفكرة الماوراء الطبيعية (metaphysical idea) للدّين القيّم الذي عرّفه القرآن الحكيم بـ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾. وهي مفاهيم يتكرّر ويتردّد دَوِيُّها ورجع صداها لتذكّر "**الناس**" الذين هُم عُرْضة للنسيان والغفلة بمكانة السيدة الزهراء (ع) وبالواقع من أن شجرة النبوّة علماً وحكمة تجد — عبْرَ جذورها من الولاية — فروعها وثمارها من الإمامة.

إن طلوع السيدة فاطمة الزهراء (ع) على أُفق تاريخ البشرية ظاهرة خطيرة تمثل فيه النُموذج الأمثل لعواطف الأنوثة والأبوّة والبنتية والأمومة والبنُوّة والزوجية ضمن العلاقة بين الأدب الرؤوف الرحيم والبنت الحكيمة الرقيقة القلب وبين الجدّ الحنون والأسباط المشتاقين

وبين الأمّ المشفقة وأبنائها المتأدّبين بأدب رفيع والمتخلّقين بخُلُقٍ عَظِيْمٍ وبين الزوجة الصابرة الشاكرة الوفية المُحْصنة والزوج الصبور الشكور الجامع بين العلم والحلم والحكمة، الحكيم المجاهد بنفسه والمهاجر للخطايا والذنوب، الراهب ليلاً والفارس نهاراً – العلاقة الرُّباعية التي أعيد فيها بناءُ "أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ" بتأسيس وإنشاء بيت الله الأعظم أي: بيت النبوّة والرسالة، المبني على قواعد العلم والحكمة والتزكية النفسية والتخلّق بأخلاق الله من الربوبية والرحمانية والرحيمية ومبادئ إطعام الطعام وإفشاء الأمن والسّلام وإغاثة الملهوف من الأنام وعيادة المرضى والمنكوبين من الخواص والعوام والتأدب بأدب الكرام، والمتمثّل في مثلث النبوة والولاية والإمامة – المثلّث الربّاني الذي تسبّب في إرسال تيّارات روحانية ونورانية ذات الوجهة الجديدة غير المعهودة من الثقافة الخلقية والأدبية والعلمية.

فإن الإنسانية لها بيتان: بيت ظاهري، وهو بيت الله الحرام المُكَعّب المُكوّن من طوبٍ وآجر، والذي أعاده البني الأمين (ص) وضع حجر أساسه أي الحجر الأسود قبل إعلان نبوّته وبدء رسالة، وذلك بالمشاركة مع زعماء القبائل باعتبارهم فصولاً من الجنس البشري، فمن ثمّ ترجيع إنسانية الإنسان على الاعتبارات الدينية والعِرْقية والوطنية في سبيل توحيْدِ كلمة بني آدم ضدّ (التفرقة) باعتبارها نوعاً خطيراً من الشرك، وبيت باطني استَهلَّ متكوّن من آلِ بيت الرسول (ص) بصفتهم نفوساً طاهرةً زكيةً تحقق بهم دُعاء إبراهيم (ع) الكامن في الآية: "وَمِن ذُرِّيتِي؟".

لقد وَصلَتْ الأسرة الإنسانية ذروتها من الرقي الخُلُقي والثقافي والأدبي وفيما يتصل بالعلم والحكمة والتزكية النفسية في بيت النبوة (ص) – الميزة التي تتمثل في زواج السيدة فاطمة الزهراء (ع) من علي بن أبى طالب (ع) – الزواج الذي انطلَقتْ حمامة بُشْراه بخطبتين أي خطبتي النكاح أوْلاهما ألقاها النبي (ص) والثانية ألقاها على بن أبى الطالب (ع). وأما خطبة النكاح التي ألقاها النبي (ص) تنطوي على مفاهيم دقيقة وعميقة ذات الصلة بذات الله وصفاته، لاسيّما قدرته المتمثلة في عالَمي الأمر والخلق والمصاهرة الموصول بها الأرحام والملزم بها الأنام، ومن الجدير بالملاحظة فيها هذا الجزء العميق والدقيق الخاص بالقضاء والقدر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ **فأمْرُ الله يجرى إلى قضائه وقضاؤه يجرى إلى قدرهِ فلِكلّ قضاء قَدَر ولِكُلّ قدر أجل ولِكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب".**

وأنهى النبي محمد (ص) خطبته هذا بقوله (ع): ثمّ إن الله أَمَرني أن أزوّج فاطمة مِن علي وقد زَوَّجْتُها إيّاه على أر بعمائة مثقال فضة أرضيتَ؟ فقال علي (ع): رضيتُ يا رسول الله!

وأما الخطبة التي ألقاها علي (ع) فهي أيضاً تشتمل على مفاهيم عميقة متصلة بذات الله وصفاته من القرب والدُنو (من حامديه وسائليه) والخَلْق والبراء والإماتة والإحياء والسؤال عن المساوئ ومرجعية الاستعانة والاستهداء والإستكفاء والإيمان بالله وشهادة وحدانيته وشهادة رسالة محمد (ص). وفى ختام الخطبة قال (ع): **"وقد رضيتُ بما رضى الله فنعم الختن أنت ونعم الصاحب أنت وكفاك برضى الله رِضىً".**

يتضح من هاتين الخطبتين جلياً أنّ النبي محمد (ص) استهلّ مناسبة اجتماعية كزواج بنته فاطمة (ع) من علي (ع) ببيان نوعٍ خاصٍ من الفلسفة الماوراء الطبيعية المبنية على سُنن القضاء والقدَر والتقدير وأجليّة القدر ونظامية الآجال وسنة المحو والإثبات وفكرة "أم الكتاب" - المفاهيم التي يتطلّب شرحها مجلّدات.

ثُمّ احتفل النبي محمد (ص) بهذا الزواج بطريقته الخاصة وذلك بالدعوة العامة إلى مأدبة الزفاف، اجتمع فيها ما يزيد عن أربعة آلاف رَجُلٍ علاوة عن النسوة، وأرسل (ع) طعاماً منها في أوانٍ كبيرة وأكواب إلى بيوت جميع أزواجه، بينما خصّص صَحْناً مشتركاً لفاطمة وعلى (عليهما السلام)، ثم حَمَل فاطمة (ع) على ناقة مُجَهّزة وكلّفَ سلمان الفارسي بأن يقودها، وهُوَ نفسه (ع) يمشي مع حمزة وعقيل وبني هاشم خلفها، وتمشي أزواج النبي (ص) قُدّامها وهُنّ يُرَتّلِن أراجيز منها:

آرجوزة السيدة عائشة (رض)، منها:

يــا نِــسْوَةَ أُسْــتُرْنَ بِالْمَحَاجِــر	واذكُــرنَ مَــا يَحْــسُنُ فِي المَحَاضِــر
سِــرْنَ بهــا فــالله أعْلَــى ذِكرَهــا	خَــصَّها منــه بُطهْــرٍ طَاهِــر

أرجوزة السيدة أم سلمة (رض)، منها:

سِــرن بعــون الله جاراتــي	واشــكُرن فِي كُــلّ حــالات
وسِــرْن مَــعَ خَيْــرِ نِــسَاءِ الــوَرَى	تُفْــدَى بعَمّــاتٍ وخــالات
يــا بنْــتَ مَــنْ فَــضَّلَهُ ذو العُلــى	بــالوحي منــه الرســالات

أرجوزة السيدة حفصة (رض)، منها:

فَاطِمَــةُ خيْــرُ نِــسَاءِ الْبَــشَــر	وَجْهُــا كَوَجــهِ الْقَمَــر
فَــضَلَك اللهُ علــى كُــلِّ الــورى	بفــضل مَــن خُــصّ بــآي الزُّمَــر
زَوَّجَــكَ اللهُ فتــىً فَاضِــلاً	أعْنِــي عَلِيّــاً خَيْــرَ مَــنْ فِي الحَــضَر
فَــسِرْن جَــاراتي بِهَــا فَإنّهَــا	كَريمَــةٌ عِنــدَ عَظِــيْمِ الخَطَــر

أرجوزة السيدة حفصة (رض)، منها:

أقــولُ قــولاً فيــه مــا فيــه	وَأذْكُــرُ الخــيرَ وأُبْدِيــه
مُحَمَّــدٌ خــير بنــي آدم	مــا فيــه كِبْــرٌ ولا تِيــه
و نَحْــنُ مَــعَ بنــتِ الهُــدى	ذي شــرَفٍ ومُكّنَــتْ فيــه
فِي ذَرْوةِ شــامخةٍ أصــلها	فمــا لــه أشــياء يدانيــه

وأَبْرَم النبي محمد (ص) هذا "التقريب" بِرَشِّ ما اجترع من جُرْعة من الماء على رأس وصدر السيدة فاطمة الزهراء (ع)، وعلى رأس وصدر سيِّدنا علي (ع)، ثم قال كلمةً منها:

"مرحبا ببحرين يلتقيان ونجمين يقترنان". ◆

من الموحدين الدروز إلى المؤتمر الفاطمي في النجف الأشرف

✍ كلمة القاضي سليمان غانم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سماحة السيد مقتدى الصدر.

أيها الزملاءُ المؤتمِرونَ الكرام.

السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

أحمدُك أللهم، على ما قدَّرت لنا به، في هذه الزيارة المباركة، التي بعد أن قمنا بها، عرفنا عن حق قيمة من نزور، وبمقدار ما وقع في قلوبنا من الفرح، بمقدار ما نتمنى مثلها، لكل من شهد بأن لا إله إلا الله، وبأن محمداً رسولُ الله، وبأن علياً وليُّ الله.

وأن أشكرك بعد الحمد، يا وليَّ الله يا أبا الحسنين عليكم السلام، لَينتابني مِن الخشوع والوقار ما شعرت به عند وقوفي على باب عتبتك المقدسة، وعلى باب بيتك الطاهر، فأخشى ما أخشاه، أن أقع في التقصير، لا لقصر الوقت، بل لضعفي وعجزي، في تبيان فضائلك، لأنه لو صُنِعَ خشبُ أشجارِ الكون ورقاً، ولو صبغت مياه البحر حبراً، لما وفتك حقك يا باب مدينة علم خاتم النبيين.

أما بعد.

فالشكر الجزيل لك، أيها السيد مقتدى الصدر، على جهدك في لمِّ شمل هذه الأمة، ومن أغصانِ دوحتك الوارفةِ، هذا المؤتمرُ الهام، تحت عنوان هام: السيدةُ فاطمةُ الزهراء عُنوانُ الوحدة الإسلامية. نعم، وهل يُعقل أن تكون الزهراء غير ذلك؟! وهي رَيحانةُ سُدرةِ المنتهى، وصاحبةُ السيرةِ العطرة، وسيدةُ نساءِ العالَمين، ، وابنةُ أعظم نبي، وزوجةُ أولِ إمام، وأمُّ الحسن والحسين، وجَدَّةُ الأئمة، صلوات الله عليهم أجمعين.فوجهها وجهُ الرسالة المشرقة لخاتم النبيين، ومنبتها منبت الطيبِ لِعِترةِ رسولِ الله، ونورُها - متى قامت للصلاة في محرابها بين يدي ربها جل جلاله - زَهَرَ لملائكة السماء كما يَزْهَرُ نور الكواكب لأهل الأرض، وهذا بشهادة والدها النبي المصطفى (ص).

ونحن الموحدون الدروز، لنا شرف الانتساب إليها ولذُرِّيَّتِهَا (ع)، من حيث انتمائنا إلى الدولة الفاطمية - في وجهها الإيجابي - التي كانت بدورها تتمسك بشرف النسب والانتساب للزهراء(ع).

فإمامنا، المعز لدين الله الفاطمي، الذي بويع الخلافة في المهدية في المغرب في شهر جمادى الآخر سنة ٣٤١هـ. وأرسل القائد جوهر الصقلي إلى مصر في مائة ألف فارس، فوصلها بعد حوالي خمسة أشهر وتسلمها يوم الثلاثاء في الثاني عشر من شعبان ٣٥٨ هجرية، وبدأ ببناء القاهرة في أول ساعة منه وهي ساعة المرِّيخ، والمريخ قاهر الفلك والمعزُّ قاهر الملوك، لذلك سميت بالقاهرة. ثم بنى الأزهر الشريف عام ٣٥٩هـ الموافق ٩٧٠م وهو أول جامع بني في القاهرة. وفي ٢٤ شعبان ٣٦٢هـ وصل المعز إلى الإسكندرية بعد دخول جوهر إلى مصر بأربعة سنين وعشرين يوماً. ثم انتقل إلى القاهرة ودخل قصره فيها يوم الثلاثاء في السابع من رمضان المبارك عام ٣٦٢هـ. ومن خطبة له: " وأني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما صان أرواحكم، وعمّر بلادكم، وأذل أعداءكم، وقمع أضدادكم. فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله، ولا تظهروا التجبّر والتكبر، فينزع الله النعمة عنكم، وينقلها إلى غيركم، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إليَّ كتحنني عليكم، ليتصل في الناس الجميل، ويكثر الخير، وينتشر العدل"(*).

فالشكرُ لك يا حُجَّةَ الإسلام والمسلمين، أيها السيد مقتدى الصدر، على كلامك الذي قلته بالأمس فينا، والذي أكدت فيه على نبذ التفرقة والتعصب، مشدداً على العيش بروح الوحدة والمودة، وحريصاً (أعزك الله) على التوحيد ونبذ الطائفية بين المذاهب الإسلامية. وما تفضلت به اليوم، بأننا لسنا بضيوف ولكننا أهل البلد. وبأن من يبحث عن وحدة المسلمين بات منبوذاً، وغريباً في مجتمعه، وبأنك تريد الوحدة الإسلامية في القلوب لا في المظاهر فقط، وبنبذك للمتعطشين للدماء والكراهية، ولمذكي الفتنة ونارها ولهيبها، إنه لدرر يتفوه به لسان عاطر، من قلب مفعم بالإيمان.هذا الكلام الذي أقل ما يقال فيه: إن كلام السيد سيِّد الكلام. صفاتك هذه، هي صفات القائد الحكيم الحليم العادل: لا للتطرف ولا للافتراء ولا للانتقام، بل للتعقل والتسامح والتحاور والتحابب، ومن هذا المنطلق علينا التعايش مع الجميع دون تكفير أو تفسيق لطائفة أو لمذهب، داعياً إلى أن يعلو صوت الاعتدال، تاركاً أمر الحساب لله تعالى الذي قال في كتابه العزيز: إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

(*) راجع اتعاظ الحنفا، لتقي الدين المقريزي.

والشكرُ الشكرُ لك على رعايتك لهذا المؤتمر، كما على رعايتك خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. أدام الله عُزَّكَ، لِيعتزَّ بإمامتك الإسلام، وأطال بعمرك إلى أن نستقبل وإياك إمامنا المهديَّ المنتظر، عجَّل الله فرجه، لتُملأ الأرض عدلاً وقِسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً.

إننا نحن كموحدين دروز، أحفاد سيدتنا فاطمة الزهراء (ع)، نشد بقوة على يدك، ونؤيدك في كل ما دعوت به إلى خير هذه الأمة، ونسأله تعالى، أن يجتث كل مرض خبيث من هذا المجتمع الذي أصبح فيه العاقل محتقراً، والمؤمن رجعياً، والموحد مشنوءاً. فكفانا تقاتلاً باسم الدين، وتباغضاً باسم الوحدة، وتخويناً باسم الوطنية. شعارات حق يراد منها باطلاً، وأرواح تزهق على مذابح أجهل من جهل الجاهلين.

والشكر لكما، يا سماحة الشيخ الدكتور علي سميسم، وحضرة الدكتور محمد سعيد الطريحي، على هذا التنظيم المتناهي في الدقة، وهذا البروتوكول الذي وضعتموه، بما يليق بشأن هكذا مؤتمر، وهكذا ضيوف، وهكذا مفصل تاريخي في توحيد الأمة الإسلامية.

والشكر لك، يا سماحة الشيخ ضياء الدين زين الدين، على حفاوة استقبالك لنا في العتبة العلوية المقدسة.

والشكر لكل من أفضل علينا واستقبلنا من أصحاب السماحة والفضيلة والمسؤولين والتشريفات والحرس والمرافقين، وإلى كل من أسدى لنا خدمة في هذا المؤتمر.

ولن أنسى بالشكر المستشارةَ الثقافية في السفارة العراقية في لبنان، الدكتورة أحلام شهيد علي، فنسأل الله تعالى من خلال هذه العتبات المقدسة، أن يُفرجَ عنها همومَها، ويُشفي مرضاها، ويُعطيها القوة والصحة.

والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.



حقيقة مصحف فاطمة

✍ الشيخ محمد جواد مغنية

نسب إلى الإمامية القول بأن عند فاطمة بنت الرسول مصحفاً، فيه زيادات عن هذا القرآن الكريم، وقبل أن نبين حقيقة هذه النسبة نشير إلى عقيدة المسلمين في صيانة الكتاب العزيز. اتفق المسلمون بكلمة واحدة على أنه لا زيادة في القرآن، ما عدا فرقة صغيرة شاذة من فرق الخوارج، فإنها أنكرت أن تكون سورة يوسف من القرآن، لأنها قصة غرام يتنزه عن مثلها كلام الله سبحانه. ونسب إلى بعض المعتزلة إنكار سورة أبي لهب، لأنها سب وطعن لا يتمشى مع منطق الحكمة والتسامح. ونحن لا نتردد، ولا نتوقف في تكفير مَن أنكر كلمة واحدة من القرآن، وإن جحود البعض، تماماً كجحود الكل، لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي (ص) بضرورة الدين، واتفاق المسلمين.

أما النقصان بمعنى أن هذا القرآن لا يحتوي على جميع الآيات التي نزلت على محمد، فقد قال به أفراد من السنة والشيعة في العصر البائد، وأنكر عليهم يومذاك المحققون شيوخ الإسلام من الفريقين، وجزموا بكلمة قاطعة إن ما بين الدفتين هو القرآن المنزل دون زيادة أو نقصان للآية ٨ من سورة الحجر: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾. والآية ٤٢ من سورة فصلت: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾. واليوم أصبح هذا القول ضرورة من ضرورات الدين وعقيدة لجميع المسلمين، إذ لا قائل بالنقيصة، لا من السنة، ولا من الشيعة. فإثارة هذا الموضوع، والتعرض له - في هذا العصر - لغو وعبث، أو دس وطعن على الإسلام والمسلمين.

وإذا عذرنا محب الدين الخطيب والحفناوي والجبهان وأضرابهم من المأجورين فإنا لا نعذر أبداً الشيخ أبا زهرة، لأنه في نظرنا أجلّ، وأسمى علماً وخلقاً من ألف خطيب وخطيب من أمثال محب الدين. لذا وقفنا حائرين متسائلين: ماذا أراد فضيلته من إثارة هذا الموضوع في كتاب (الإمام الصادق) مع علمه ويقينه أنه أصبح في خبر كان. وانه لا قائل به اليوم من الشيعة ولا من السنة؟ ماذا أراد الشيخ أبو زهرة من حملته الشعواء على الشيخ الكليني صاحب الكافي الذي مضى على وفاته أكثر من ألف سنة؟ هل يريد الشيخ أن يدخلنا في جدل عقيم، ونحن نطلب الوفاق والوئام معه ومع غيره؟ وحيثما أجلت الفكر في سبب هذه الحملة لم أجد لها تفسيراً إلا التأثر بالبيئة والوراثة.

وهل من شيء أدل على ذلك من قوله في ص٣٦: (لا نستطيع قبول روايات الكليني، لأنه الذي ادعى أن الإمام جعفر الصادق قد قال: إن في القرآن نقصاً وزيادة، وقد "كذبه" - كذا - كبار العلماء من الاثني عشرية، كالمرتضى والطوسي وغيرهما، ورووا عن أبي عبدالله الصادق نقيض ما ادعاه الكليني) وكرر هذه العبارة وما إليها في صفحات الكتاب مرات ومرات. إن أبا زهرة يصور الكليني، وكأنه قد تفرد بهذا القول دون غيره، وتصويره

هذا بالتضليل أشبه، كما يتضح مما يلي: ولست أدري كيف ذهب الشيخ عن وجه الشبه فيما نقله الكليني في الكافي، وما نقله كل من البخاري ومسلم في صحيحه؟ قال البخاري في ج٨ ص٢٠٩ طبعة سنة ١٣٧٧هـ:

"جلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذن قام، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإني قائل لكم مقالة قد قدر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي؟ فمن عقلها ووعها فليحدث بها، حيث انتهت به راحلته، ومَن خشي أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب علي. إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، ورجم رسول الله ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان آن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على مَن زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل، أو الاعتراف، ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: (أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)".

هذا ما جاء على لسان الخليفة الثاني في صحيح البخاري، وروى هذا الحديث مسلم في صحيحه ص١٠٧ القسم الأول من الجزء الثاني طبعة سنة ١٣٤٨هـ، ولم يذكر فيه (أن لا ترغبوا عن آبائكم) الخ مع العلم بأن ليس في القرآن ما يشعر بوجوب الرجم والرغبة عن الآباء. وقال السيوطي في (الإتقان) ج١ ص٦٠ مطبعة حجازي بالقاهرة:

"أول مَن جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل، وان آخر سورة براءة لم توجد إلا مع أبي خزيمة بن ثابت، فقال - أي أبو بكر -: اكتبوها فإن رسول الله (ص) جعل شهادته بشهادة رجلين، فكتب، وان عمر أتى بآية الرجم، فلم يكتبها، لأنه كان وحده".

وإذا كان أبو زهرة لا يقبل أحاديث الكليني، لأنه روى حديث التحريف - كما قال - فعليه أن لا يقبل أحاديث البخاري جملة وتفصيلاً، لمكان هذا الحديث الصريح الواضح بالتحريف بشهادة عمر بن الخطاب. إن ما ذكره الكليني في هذا الباب لا يختلف في النتيجة عما ذكره البخاري ومسلم. فلماذا تحامل الشيخ على الكليني، وسكت عنهما؟ والجواب عند القارئ.

وأيضاً روى البخاري في الجزء الرابع (باب طفة إبليس وجنوده) عن عائشة أنها قالت: "سحر النبي، حاتى كان يخيل إليه انه يفعل الشيء، وما يفعله".

وقد كذبه في ذلك الجصاص أحد أئمة الحنفية، قال ما نصه بالحرف: "وقد أجازوا من فعل الساحر ما هو أطم وأفظع، ذلك إنهم زعموا أن النبي (ص) سحر وان السحر عمل فيه، حتى قال: انه يخيل لي إني أقول الشيء، ولا أقوله، وأفعله، ولم أفعله - إلى أن قال الجصاص -: ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين". الجزء الأول من أحكام القرآن للجصاص ص٥٥ طبعة سنة ١٣٤٧هـ

وكذب البخاري في ذلك أيضاً الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفلق، حيث قال: "وقد رووا أحاديث أن النبي (ص) سُحر. حتى كأنه يفعل الشيء، وهو لا يفعله، أو يأتي شيئاً، وهو لا يأتيه. وهذا يصدق قول المشركين فيه. (أن تتبعوا إلا رجلاً مسحوراً). وليس

المسحور إلا مَن خولط في عقله، وخيل إليه أن شيئاً يقع، وهو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحى إليه، ولا يوحى إليه".

والآن، وبعد هذه الأرقام بماذا تجيب ـ أيها الشيخ ـ؟ قلت: إن لا تقبل روايات الكليني، لأن الطوسي والمرتضى كذباه في رواية التحريف. ونقول لك: إن الإمام الجصاص، والإمام عبده كذبا البخاري في رواية سحر النبي. وقال الأول: إن هذا من وضع الملحدين. وقال الثاني: ان السحر يستلزم تصديق المشركين وتكذيب الرسول. وعليه فأنت بين أمرين: إما أن لا تقبل روايات البخاري والكيني معاً، وإما أن تقبلهما معاً، ولا أظنك تفعل هذا ولا ذاك. بل تقبل البخاري، دون الكليني، وتناقض نفسك بنفسك. وهذا هو منطق كل مَن رد وتحامل على علماء الإمامية.

لقد ذهل الشيخ أبو زهرة عن ذلك، وذهل أيضاً عن ان مخالفة المرتضى والطوسي للكليني إنما هي كمخالفة مالك لأبي حنيفة، والشافعي للاثنين، وأحمد للثلاثة في كثير من المسائل. وإذا كان اختلاف علماء الإمامية فيما بينهم يستدعي طرح أقوالهم كلاً أو بعضاً فكذلك الأمر بالنسبة إلى علماء السنة، وأئمة المذاهب. ان اختلاف أنظار العلماء في صحة الحديث وضعفه كاختلافها في الأحكام نفسها لا يستدعي تكذيبهم، وطرح أقوالهم. بل أن أبا زهرة صرح في كتاب (المذاهب الإسلامية) ص٢١ بأن الخلاف الذي نتج عن الاستنباط كان محمود العاقبة حسن النتيجة. فهل هذا الحسن يختص بعلماء طائفة دون أخرى؟ وبعد هذه الوقفة القصيرة مع الشيخ أبي زهرة نعود إلى الحديث عن مصحف فاطمة، وقد جاء ذكره في أخبار أهل البيت مع تفسيره، وانه كان من إملاء رسول الله على عليّ، قال الإمام الصادق: عندنا مصحف فاطمة، أما والله، ما فيه حرف من القرآن، ولكنه من إملاء رسول الله، وخط عليّ. قال السيد محسن الأمين في (الأعيان) قسم أول من ج١ ص٢٤٨: إن نفي الإمام الصادق أن يكون فيه شيء من القرآن لكون تسميته بمصحف فاطمة يوهم انه أحد النسخ الشريفة، فنفى هذا الإيهام.

وفي كتاب الكافي أن المنصور كتب يسأل فقهاء أهل المدينة عن مسألة في الزكاة، فما أجابه عنها إلا الإمام الصادق، ولما سئل من أين أخذ هذا؟ قال: من كتاب فاطمة. إذن مصحف فاطمة كتاب مستقل وليس بقرآن. فنسبة التحريف إلى الإمامية على أساس قولهم بمصحف فاطمة جهل وافتراء.

والأولى نسبة هذا القول إلى الذين زعموا بأن لعائشة قرآناً، فيه زيادات عن هذا القرآن. قال جلال الدين السيوطي في كتاب (الإتقان) ج٢ ص٢٥ طبعة حجازي بالقاهرة ما نصه بالحرف: "قالت حميدة بنت أبي يونس: قرأ أبي، وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى)". ❖

تجليات النصرة الإلهية للزهراء المرضية

✍ السيد مرتضى الشيرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾[1].

حقائق عن عالمي التفسير والتأويل:

هناك حقائق ثلاثة ترتبط بالآية الشريفة بعضها معروف وبعضها قد لا يكون بتلك المعروفية، فيما يتعلق بإطار بحثنا عن الصديقة الطاهرة فاطمة (صلوات الله وسلامه عليها):

الحقيقة الأولى: أن هناك عالمان: (عالم التفسير) المبتني على الظواهر و(عالم التأويل) المبتني على البواطن.

الحقيقة الثانية: إن التأويل كثيراً ما يكون أعظم بكثير من التفسير، وإن كانت للتفسير عظمته وأهميته ومكانته، ومثاله العرفي إنك لو قلت: (رأيت أسداً) فإن المنصرف هو الحيوان المعروف وهذا هو التفسير على مستوى الظاهر، أما إذا قلت: (رأيت أسداً في المعركة) قاصداً بطلاً ضرغاماً فإن تأويله أعظم من تفسيره إذ أنك لا تقيس أسد الغابة بأسد المعركة (الرجل البطل) إذ أين هذا من ذاك؟ فإن الرجل البطل يدافع عن حريم الدين أو الوطن وهو لا يقاس بأي مخلوق آخر ليست له هذه المنزلة، فكيف لو قلنا: أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (صلوات الله وسلامه عليه)؟!!

وبالتالي فتأويل الكلمة قد يكون أعظم بكثير من ظاهرها.

وهذه الآية الشريفة من مصاديق ذلك حيث أن تأويلها - كما سيأتي - أعظم بدون كلام من التفسير بما لا قياس.

الحقيقة الثالثة: إن الجسر الرابط بين عالم التفسير أي الألفاظ الظاهرة والمرادات الظاهرة، وعالم التأويل أي ما يؤول إليه الكلام ويرجع إليه من بواطنه، هذا الجسر الرابط بين هذين العالمين هو فقط: الراسخون في العلم، كما أن المتشابهات لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، وليس أي شخص آخر على الإطلاق.

(تفسير) الآية الشريفة: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾[2]

والآية الشريفة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[٣] تفسيرها الظاهر لا غبار عليه ولا ينكره منكر وهو واضح، حيث حزن المؤمنون بغلبة الفُرس على الروم: لأن الفرس كانوا عباد النار في حين أن الروم كانوا مسيحيين فالفرس كانوا أبعد من المسيحيين. فبشر الله المؤمنين أن الروم سوف يغلبون الفرس في قادم السنين...

وهذا التفسير الظاهر وهو وإن كان صحيحاً، إلا أنه على أية حال لا يعدو الإخبار والبشارة بغلبة كفار على كفار آخرين، إلا أن بعضهم (المسيحي) أقرب إلينا وأبعد عن مضرتنا، وهو حدث مهم ولا شك في ذلك إلا أن لأهميته حدوداً.

(تأويل) الآية الشريفة:

أما تأويل الآية فهناك تأويلان:

أ – النصر الإلهي يوم ظهور القائم من آل محمد (عجل الله تعالى فرجه الشريف):

كما في الرواية: إن ذلك في يوم ظهور الإمام المهدي من آل محمد (عجل الله تعالى فرجه الشريف)[٤].. وهو حدث عظيم لا يقاس به حدث آخر، فأين هذا الحدث اللاهي العظيم من ذلك الحدث (انتصار كفار على كفار) بالرغم من أهميته كما أسلفنا.

مع أننا نقول: أنه لا مانعة جمع بين التفسير والتأويل ولا بين البطون والظهور، فإنها كلها صحيحة إذ الظاهر مراد والباطن أيضاً مراد، لكن أين فرح المؤمنين بولي الله الأعظم حيث تشرق الأرض عندئذ بنور ربها وحيث أن الوعد الإلهي للمستضعفين والأنبياء على مر التاريخ يتحقق وحيث يورث الله عندئذٍ الأرض من يشاء من عباده ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[٥] أين هذا من ذاك؟ فالتأويل قد يكون أعظم بكثير من التفسير من حيث أهمية الواقعة في حد ذاتها ومن حيث نتائجها الكونية المختلفة بكثير، إلا أن الدال عليه هم الراسخون في العلم حصرياً.

ب ـ النصرة الإلهية لفاطمة الزهراء (عليها السلام) ولمحبيها:

إن هذه الآية الشريفة أُوِّلت بفاطمة الزهراء (عليها السلام) فقد نقل تفسير البرهان عن كتاب معاني الأخبار للشيخ الصدوق ـ والسند صحيح بأعلى درجات الصحة على رأي ومعتبر بأعلى درجات الاعتبار على رأي آخر ولا رأي ثالث ـ:

... رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخاطب جبرائيل (عليه السلام): (... قلت: حبيبي جبرائيل لم سميت في السماء المنصورة[٦] وفي الأرض فاطمة؟ قال: سميت في الأرض فاطمة لأنها فَطَمَت شيعتها من النار وفُطِمَ أعداؤها من حبها وهي في السماء المنصورة وذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ يعني نصر الله لمحبيها)[٧].

والحاصل: إن التأويل يقودنا إلى أن الزهراء (صلوات الله وسلامه عليها) منصورة عند الله تعالى، إلا أننا نلاحظ في هذه الدنيا أنها (صلوات الله وسلامه عليها) مظلومة مضطهدة

وقد هتك حريمها وسحقت حقوقها، لكن (ويومئذ) أي: يوم ينصر الله سبحانه وتعالى محبيها، عندئذٍ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾[٨] فهي المنصورة بنصر رب العالمين حقاً حقاً.

وحول هذا المقطع بالذات سيدور البحث في هذه المحاضرة والتي بعدها إن شاء الله تعالى: تجليات نصرة الزهراء: بالآيات والروايات والمقامات والكرامات:

الحقيقة الرابعة هي: إن فاطمة (عليها السلام) منصورة بالنصرة الإلهية في أبعاد وتجليات ومناحي عديدة، إذ هناك تجليات مختلفة لكونها منصورة وهناك مصاديق ومعاني متعددة لنصرة الله تعالى لها (عليها السلام) وهنا نشير إلى بعضها حسب ما يسمح به الوقت:

المجلى الأول: النصرة لها (عليها السلام) بالروايات بعد الآيات.

المجلى الثاني: نصرتها (عليها السلام) بالمقامات والكرامات.

المجلى الثالث: نصرتها (عليها السلام) في هذه الحياة الدنيا.

نصرتها (عليها السلام) بالروايات:

إن هناك روايات كثيرة في هذا المجال تشهد بذلك وتنطق به وتصرح نذكر منها: ما نقله كتاب الخصائص الفاطمية عن كتاب التبر المذاب، إذ نقل رواية طويلة جديرة بأكملها بالتأمل والتدبر نقتطف منها:

حب فاطمة وسائر الخمسة الطيبة مفتاح المغفرة الإلهية:

(عن الزهراء (عليها السلام):... فقال رسول الله صلى الله عليه واله ارفعي يديك[٩] فرفعت يدي ورفع النبي يديه حتى بان بياض إبطيه ثم دعى لامته فقال: اللهم اغفر لأمتي فقلت: آمين، فهبط جبرائيل وقال قال الله غفرت لمن أحب فاطمة وأباها وبعلها وبنيها من أمتك...)[١٠].

وما أعظم ذلك وما أسماه من مقام! وما أعلاها من نصرة إلهية كبرى إذ جعل حبها وحب أبيها وبعلها وبنيها وسيلة للنجاة وطريق الغفران الإلهي!

فمن أحب فاطمة والخمسة الطيبة فهو مغفور له بل انه سوف يدخل الجنة شرط أن يموت على حبها ولا تسلبه المعاصي والموبقات والإعراض عن أهل البيت (عليهم السلام) فكراً وسلوكاً، ذلك الحب في لحظات الاحتضار.

أفليست إذن هي منصورة حقاً؟ بل إن ذلك لهو من أعظم مجالي النصرة في الدنيا والآخرة بحيث يكون حبها ميزان الجنة والنار!

ثم تقول (صلوات الله وسلامه عليها): (... فطلبت كتابا فجاءني جبرائيل بهذا الحرير الأخضر......)

رواية الترمذي: حب الخمسة الطيبة مفتاح الجنة!

ولقد كانت الرواية السابقة من طرق الخاصة، إلا أن الله ينصرها أيضاً بروايات معتبرة من طرق العامة أيضاً فهي منصورة حتى عند من لا يريد لهذا النور أن يملأ

الكون بزعمه، فقد روى سنن الترمذي ما يوافق تلك الرواية بل ويزيد عليها ثم صرح انه (حسن): قال:

(قال رسول الله صلى الله عليه واله: من أحب هذين يعني حسناً وحسيناً وأباهما وأمهما كان معي في الجنة)[١١].

وهذه الرواية من طرق العامة وينقلها أحد أبرز علماءهم! ثم يصرح فيقول: (هذا حديث حسن غريب).

و(الحسن): الذي يكون جميع رواته مشهورين بالصدق والأمانة[١٢] إضافة إلى سلامة الحديث من أن يكون منكرا أو شاذا أو معللا[١٣].

وأما الغريب فإنه ليس تضعيفاً اذ الغريب يعني ان الرواية ليست مستفيضة بل رويت بطريق واحد (اذ وصلته بطريق واحد)

إذن هي (صلوات الله وسلامه عليها) منصورة بالروايات، وما ذكرناه غيض من فيض.

نصرتها (صلوات الله وسلامه عليها) بالمقامات

ومجالي هذه النصرة ومظاهرها هي أكثر من أن تحصى أو أن تسطر، فلنشِر إلى واحده منها في هذه العجالة:

ـ نور فاطمة مخلوق قبل خِلقة الأرض والسماء في رواية صريحة:

ما رواه الشيخ الصدوق في معاني الأخبار برواية صحيحة بأعلى درجات الصحة أو هي معتبرة بأعلى الدرجات إذ اشترطوا لاعتبار كون الرواية صحيحة أن يكون كل واحد من رواتها عدلاً إمامياً ضابطاً، لكن يوجد في هذه الرواية فطحي لكنه ثقة بلا شك، علماً أن هذا الفطحي رجع واستبصر قبل وفاته.

ونص الرواية سنداً ومتناً كما رواها الشيخ الصدوق في معاني الأخبار: حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل[١٤] قال حدثنا عبد الله بن جعفر الحميري[١٥] عن يعقوب بن يزيد[١٦] قال حدثنا الحسن بن علي بن فضال[١٧] عن عبد الرحمن بن الحجاج[١٨] عن سدير الصيرفي[١٩] عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (صلوات الله عليهم أجمعين) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): خُلق نور فاطمة قبل أن تخلق الأرض والسماء).

وهو مقام لا يرقى إليه حتى الخيال!! بل أين نور فاطمة من أجرام السماوات والأرض؟

ويكفي للتقرب إلى الذهن: لو لاحظنا أن شبراً من الأرض قد يتنازع ويتقاتل عليه الناس!!، كما أن الحكومات على مر التأريخ طالما سفكت الدماء وخربت البلدان من أجل قطعة ارض بين هذه الدولة وتلك، فللأرض والسلطة عليها وعلى خيراتها أهمية كبيرة حتى في نظر العقلاء فضلاً عن غيرهم، فكيف لو تصورنا كل الأرض وكل السماء السماوات في جانب، ونور فاطمة (عليها السلام) في جانب، ثم أن الله تعالى خلق نورها قبل كافة السماوات والأرضين! فأية عظمة هذه وأي مقام عظيم هذا؟!

ولننقل الرواية السابقة مع بعض تتمتها: (ابن المتوكل، عن الحميري، عن ابن يزيد، عن ابن فضال، عن عبد الرحمان بن الحجاج، عن سدير الصيرفي، عن أبي عبد الله، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): خلق نور فاطمة (عليها السلام) قبل أن يخلق الأرض والسماء فقال بعض الناس: يا نبي الله فليست هي إنسية؟ فقال: فاطمة حوراء إنسية قالوا: يا نبي الله وكيف هي حوراء إنسية؟ قال: خلقها الله عز وجل من نوره قبل أن يخلق آدم إذ كانت الأرواح فلما خلق الله عز وجل آدم عرضت على آدم...).

"قيل يا نبي الله وأين كانت فاطمة؟ قال: كانت في حقة تحت ساق العرش، قالوا: يا نبي الله فما كان طعامها؟ قال: التسبيح والتقديس والتهليل والتحميد[٢٠]، فلما خلق الله عز وجل آدم وأخرجني من صلبه وأحب الله عز وجل أن يخرجها من صلبي جعلها تفاحة في الجنة وأتاني بها جبرائيل (عليه السلام) فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا محمد! قلت: وعليك السلام ورحمة الله حبيبي جبرائيل، فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام قلت: منه السلام وإليه يعود السلام قال: يا محمد إن هذه تفاحة أهداها الله عزّ وجلّ إليك من الجنة"[٢١].

تحليل الرواية السابقة على مستويات: الإمكان، الرجحان، والبرهان

وهنا نقول: هذه الرواية يمكن أن تطرح في ضمن ثلاثة اطر ومستويات: الإمكان، الرجحان، البرهان.

ولكل من هذه الأطر والمستويات بحثه الخاص به وسوف نبين من ذلك ما يسمح به الوقت:

١ - الإمكان:

فمن الواضح انه لاشك في ذلك وإمكانه إذ أنه لاشك أنه (يمكن) أن يخلق الله شخصا مثل فاطمة (صلوات الله وسلامه عليها) - وما أدراك ما فاطمة؟ - قبل أن يخلق الخلق، فإن هذا الأمر ليس مستحيلاً لوضوح انه لا يلزم منه اجتماع النقيضين أو الضدين، ولا الدور ولا التسلسل ولا غير ذلك من المحالات.

نعم قد يكون ذلك غريبا على بعض الأسماع لقلة المعرفة أو للجحود والعناد أو غير ذلك، لكنه يبقى ممكنا في حد ذاته دون ريب

والقاعدة المعروفة هي: كل ما قرع سمعك من الغرائب فذره في بقعة الإمكان حتى يذودك عنه قائم البرهان.

٢ - الرجحان:

ولا شك في رجحان ذلك أيضاً، فإن ملاحظة كتب العامة - ودع عنك الآن كتب الخاصة - تقودنا إلى رجحان مثل ذلك فإن كتب العامة ذكرت عدة روايات نتيجتها: إذا

كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه واله هي المتصفة بالصفات التي أقروا بها كما سيأتي، فإنه سيرجح بالنظر إلى (الحكمة) أن تخلق نوراً قبل السماوات والأرض.

ولنُشِر الآن إلى بعض روايات أهل العامة:

ففي صحيح مسلم[٢٢] سألت عائشةُ فاطمةَ الزهراء (عليها السلام) ماذا أسرَّ إليك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فضحكت فقالت: بشرني ابي فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت لذلك).

نقول: ألا يرجح أن تكون سيدة نساء المؤمنين قد خُلِقَ نورُها قبل خِلقة العالم؟ إذ أن ذلك هو مقتضى القاعدة والحكمة لان المؤمن اشرف عند الله من الكعبة كما صرحت الروايات بذلك، فكيف بمن هي سيدة نساء المؤمنين، أفلا يرجح أن تكون هذه السيدة التي هي سيدة نساء المؤمنين قد خلق نورها قبل خلق العالم؟

وفي صحيح مسلم أيضاً[٢٣] قال: رسول الله صلى الله عليه واله: فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها.

أي أنها بضعة مني وجزء منه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولاشك أن رسول الله صلى الله عليه واله هو اشرف المخلوقات عندهم أيضاً وأنه مخلوق قبل كافة العوالم فلا داعي لاستنكار واستبعاد أن تكون بضعته وما هي جزء منه أيضاً خلق نورها مع نوره قبل ذلك، بل يرجح بالنظر للحكمة أن يكون ما هو جزء من رسول الله مخلوقاً معه نوراً قبل الأرض والسماء.

وفي صحيح البخاري أيضاً هاتان الروايتان موجودتان: قال رسول الله صلى الله عليه واله: (إن هذا ملك مقرب لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربّه أن يسلّم عليّ ويبشرني بأنّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة)[٢٤].

كما ينقل رواية أخرى: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني)[٢٥].

هذا اضافة إلى رواية الترمذي الآنفة الذكر التي صرحت بـ(من أحب هذين، يعني حسنا وحسينا، وأباهما وأمهما كان معي في الجنة) أفلا يرجح أن يكون نورُ مَن حبهما مقياس الدخول إلى الجنة، مخلوقاً قبل خلق السماوات والأرض؟

٣ ـ البرهان:

وأما البرهان فالروايات الكثيرة المصرحة بذلك والتي فيها الصحاح والموثقات، كالرواية السابقة التي أوضحنا حجية سندها دون شك، وغيرها.

ونختم كلامنا بهذا الدعاء المبارك: اللهم صل على فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها عدد ما أحاط به علمك، اللهم عجل لوليك الفرج والعافية والنصر واجعلنا من خُلّص خدمه وأعوانه وشيعته والمستشهدين بين يديه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) سورة الروم: آية ٤ ـ ٥.

(٢) سورة الروم: آية ٤ ـ ٥.

(٣) سورة الروم: آية ١ ـ ٥.

(٤) راجع تأويل الآيات الظاهرة لمحمد بن العباس ومسند فاطمة (عليها السلام) لمحمد بن جرير الطبري، عنهما تفسير البرهان أول سورة الروم.

(٥) سورة النور آية: ٥٥.

(٦) للزهراء (عليها السلام) أسماء وألقاب عديدة منها: الصديقة والمرضية والمحدَّثة والحوراء الأنسية والمنصورة وغير ذلك.

(٧) معاني الأخبار: ص ٣٩٦.

(٨) سورة الروم: آية ٤ ـ ٥.

(٩) وهنا فلنرفع أيدينا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومع بضعته الزهراء (عليها السلام)، داعين مؤمّنين.

(١٠) مسند فاطمة الزهراء (عليها السلام) ص٤٩، وورد في كتاب الكوكب الدري.

(١١) سنن الترمذي ٣٠٥/٥، الحديث ٣٨١٦ النسخة اليزرية.

(١٢) كما قال ذلك ابن الصلاح في مقدمته الشهيرة.

(١٣) قاله ابن الصلاح أيضاً في تتمة تفسيره للحسن. أقول: فالحسن هو الحسن لذاته والذي لا إشكال عليه متناً.

(١٤) السيد بن طاووس ادعى الإجماع على وثاقة محمد بن موسى بن المتوكل، العلامة الحلي وبن داوود ذكراه في القسم الأول من كتابيهما، كما أن الشيخ الصدوق أكثر الرواية عنه.

(١٥) يقول عنه الشيخ النجاشي: شيخ القميين ووجههم، وقد صرح الشيخ الطوسي بأنه ثقة.

(١٦) قال عنه النجاشي: كان ثقة صدوقا، الشيخ الطوسي: ثقة.

(١٧) فطحي إلا أنه ثقة بلا كلام كما صرح بذلك الشيخ الطوسي، والكشي ينقل عن محمد بن مسعود قوله: إنه من أجلة العلماء، وقال النجاشي: قال بالحق قبل موته، ثم ذكر النجاشي روايات عن عبادته وورعه.

(١٨) قال النجاشي: كان ثقة ثقة، ثبتا وجها، وقال الشيخ المفيد: كان من شيوخ أصحاب الصادق (عليه السلام) وبطانته وثقاته.

(١٩) قال عنه ابن شهر آشوب: كان من خواص الصادق (عليه السلام)، كما أنه قد روى الأجلاء عنه، وقال عنه الوحيد البهبهاني: كان من أكابر الشيعة، كما أن كامل الزيارات وتفسير علي بن إبراهيم ممن رويا عنه.

(٢٠) سيأتي تحليل ذلك وتوضيحه في بحوث قادمة.

(٢١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ـ ج ٤٣ ـ الصفحة ٤.

(٢٢) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٠٥، ح ٢٤٥٠.

(٢٣) المصدر السابق ٢٦٦/٢ ح ٩٤ باب ١١٥.

(٢٤) صحيح البخاري باب مناقب فاطمة، وباب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله ج ٤ ص ٢١٩، و٢٠٩.

(٢٥) المصدر السابق. ❖

إضاءات حول مكانة السيدة الزهراء (ع) في التراث البحراني

✍ أ. وسام السبع (البحرين)

كان للحضور الدائم للسيدة فاطمة الزهراء (ع) في يوميات أهل البحرين عبر القرون أثرٌ واضحٌ انعكس في تراث هذا الشعب الذي عرف بشدة ولائه لأهل بيت الرسول (ص)، ويزخر التراث الأدبي والشعري بشواهد دالة على عمق هذا الولاء وتجذره في نفوس أهل البحرين.

وهذه الورقة تحاول أن تلقي الضوء على نتاج علمي وأدبي وتقاليد ثقافية عريقة وراسخة، امتدت لمئات السنين حول شخصية السيدة فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) وظلامتها في تراث البحارنة، وسنعمد إلى تقسّيم هذا البحث ضمن أربعة محاور أساسية:

المحور الأول: السيدة الزهراء (ع) في ثقافة الإحياء الشعائري.

المحور الثاني: السيدة الزهراء (ع) في الثقافة الشعبية لأهل البحرين.

المحور الثالث: السيدة الزهراء (ع) في تراث أهل البحرين النثري.

والمحور الرابع: السيدة الزهراء (ع) في تراث أهل البحرين الشعري.

آملين من هذه البحث أن تعطي فكرةً عامة عن مكانة السيدة الزهراء عليها في التراث الأدبي والفكري وموقعها في الثقافة الشعبية والممارسات الاجتماعية التي تعكس وتختزل أبعاداً روحية وفكرية ودينية عميقة الغور.

(١)
السيدة الزهراء (ع) في ثقافة الإحياء الشعائري

يحفل الوعي الإسلامي منذ صدر البعثة حتى عصر الامام الثاني عشر (ع)، بنصوص تأسيسية مكثفة صادرة عن النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) في حث المسلمين على إحياء أمر البيت (ع)، إذ نلمس تفاصيل هذه الأحاديث تأكيداً على إحياء ذكراهم بأشكال العزاء المختلفة، بين بكاء وتباكٍ وإنشاء شعر وإقامة مجالس المصيبة وتسيير المواكب وما سوى ذلك.

كما أكدت الأحاديث على عدم ترك زيارتهم، وأولت عناية كبيرة للاجتماع في مأتم سيد الشهداء وعموم مجالس ذكر أهل البيت (ع)، حيث يسجل الإمام الصادق (ع) نصاً: "إن تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا"[1].

---

(١) قرب الإسناد: ص ١٨ تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم: ج ٢ ص ٢١٢، وسائل الشيعة: ج ١٤ باب ٦٦ ح ٢ ص٥٠١.

وفي حديث آخر: "من تذكّر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب"[(١)].

ولقد كان للتشيع الذي عرفت به البحرين منذ بواكير الرسالة الإسلامية أثر كبير في تعميق محبة أهل البيت (ع)، فهذا المؤرخ ابن المجاور الشيباني (ت ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١م) ينص على أنّ جزيرة أوال كان بها ٣٦٠ قرية إماميةَ المذهب ما خلا قريةً واحدة[(٢)]. ولاغرو في رسوخ ظاهرة التشيع في نسيج المجتمع البحراني، فقبيلة ربيعة سكان البحرين الأصليين، وعلى الخصوص عبد القيس، كانوا يتميزون بولائهم لأمير المؤمنين علي (ع) فهم أنصاره في مواقعه كلها، وكان يُرى في الحروب تحت راياتهم، ويقول "إنها رايات الحق"[(٣)].

أصالة الشعائر الفاطمية:

حرص أهالي البحرين على إحياء ذكرى مناسبات أهل البيت (ع)، والتي تتكثف فيها مراسم الإحياء في "عاشوراء" وهي الأيام العشر الأولى من شهر محرم منذ سماعهم بمقتل الأمام الحسين (ع) من الحجاج الذين زاروا مكة والمدينة آن ذاك، وكانوا يقيمون مأتم العزاء في البيوت ثم خصصت أماكن سميت "مأتم" أو حسينيات نسبة للحسين (ع) واليوم قد وصل عدد لمآتم المرخصة كما يزيد عن ٦٠٠ حسينية ومأتم في المناطق المختلفة من المملكة[(٤)]. وبينت الإحصاءات أن ما نسبته ٥٢٪ من تلك المآتم والحسينيات للرجال وما نسبته ٤٨٪ للنساء وأن ما يربوا على ٢٠٠ من تلك المآتم والحسينيات تأخذ من البيوت مقراً لها في إحياء فعالياتها.

ويرتفع البعض بعدد المآتم الموجودة في البحرين مؤكداً انه تزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة حسينية للرجال، ثلث هذا العدد فقط له أوقاف مسجلة لدى إدارة الأوقاف الجعفرية، والثلثان الباقيان بلا أوقاف حيث تعتمد في تمويل مصروفاتها على أموال المؤسسين الخاصة، وكذلك القائمين عليها ومن التبرعات والنذور التي ترد من الآخرين[(٥)]. وأياً يكن الاختلاف في عدد المآتم الموجودة في البحرين، فهي بلا شك تعكس الثقل الديموغرافي والاجتماعي لشيعه البحرين ومبلغ اهتمامهم وعنايتهم بهده المؤسسات والنشاطات الدينية التي ترعاها.

ما أن يهل هلال المحرم، تتشح الطرقات والشوارع بالرايات السوداء وتعلق على المباني والبيوت وجدران "المآتم والحسينيات" إعلاناً لموسم الحزن على مأساة المسلمين بمقتل الإمام

---

(١) أمالي الصدوق: ٦٨، ٤، عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٢٩٤، ٤٨ وسائل الشيعة: ج ١٤ باب ٦٦ ص ٥٠٢.

(٢) أنظر: ابن المجاور الشيباني: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز: الصفحات: ٢٠٨، ٣٣١.

(٣) **سالم النويدري**: أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، ج ١ ص ٥١.

(٤) **منبر الأوقاف**، دورية تصدر عن إدارة الأوقاف الجعفرية، العدد الثالث، يوليو ٢٠٠٧.

(٥) **عبدالله سيف**: المآتم في البحرين، ص ٢٥.

الحسين ابن بنت رسول الله (ص)، يسمى ذلك اليوم بيوم "تركيب السوداء". كما يحرص شيعة البحرين على تقديم الموائد لجميع الطوائف والأديان في مشهد يعكس مدى قدرة هذه المناسبة على جمع الأديان على قيم الخير والفضيلة، فتجد مشاركة فاعلة وواضحة إلى الأشقاء السنة والمسيحيين واليهود والبوذيين خصوصاً في مراسم الإحياء الحاشدة التي تجري في العاصمة المنامة، والتي يتواجد فيها جالية أجنبية كبيرة متعددة المذاهب والأديان، ولهذا سرى مثل شعبي بين البحرانيين يقول: "اللي ينوح واللي ما ينوح يأكل عيش الحسين" في إشارة دالّة على كرم أهالي البحرين الذي ليس له حدود، حيث توضع الموائد على حب أهل البيت (عليهم السلام).

إن معظم المآتم تصرف المبالغ الطائلة على إقامة هذه المحافل الحسينية من مدخرات أهل الكرم والجود الذين رصدوا مبالغ كبيرة لهذا الغرض المقدس، هذا إلى جانب التبرعات المادية من محبي أهل البيت. وفي الزمن السالف وحتى وقت متأخر نسبياً كان لكل مأتم رايته الخاصة، وتقوم مجموعة من الشباب بالمرور في الأحياء وهم يحملون "الراية" للحصول على المساعدات المادية من الناس والأهالي، كما تقدم دائرة الأوقاف الجعفرية مبالغ نقدية من الأوقاف المخصصة من أهل الخير.

تاريخياً، عرفت البحرين إقامة المجالس الحسينية منذ زمن مبكر، قد يرجع إلى السنين الأولى من مصرع الإمام الحسين (ع) وأهل بيته في كربلاء، وكان أهالي البحرين يقومون بعقد المجالس الحسينية - كما أشرنا - في بيوتهم ومجالسهم الخاصة أو في بساتينهم ومساجدهم منذ سمعوا باستشهاد الإمام الحسين في كربلاء، وكلما شهد الأهالي انفراجاً أمنياً من الحكام توسعوا في إقامة هذه المجالس علناً، وكلما شعروا بالتضييق والاضطهاد انكمشوا في إحياء هذه الذكرى وأقاموا هذه المجالسَ في السر.

غير أن الحسينية كمؤسسة أهلية قائمة بذاتها كبناء له كيان مستقل لم يعرفه المجتمع البحراني إلا في العصر الحديث وربما منذ حوالي اربعمائة عام. اما بالنسبة للمواكب الحسينية المنظمة: فالمظنون أن المجتمع البحراني لم يعرفها إلا في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة (ت ١٩٣٢) الذي تولى حكم البلاد في الفترة ما بين عام ١٨٦٩ وعام ١٩٢٢[(١)].

وحينما تأتي مناسبة وفاة الزهراء تنشغل مآتم البحرين وحسينياتها خصوصاً في السنوات المتأخرة بإقامة ما يُعرف بـ "العشرة الفاطمية" حيث سرت هذه العادة التي يضع فيها الكثير من الخطباء والرواديد والمحاضرين من النساء والرجال في قضية الزهراء (ع) كل طاقتهم فيها وإمكانياتهم فإيضاح ظلامتها وسيرتها العطرة.

---

(١) عبدالله سيف: مصدر سابق، ص ٢٦.

ولا يقتصر إحياء أمر أهل البيت (ع) في ذكرى الوفيات والمواليد، بل يتعداه. ولعل ظاهرة النذورات وقراءة العوائد المعروفة في أوساط المجتمع البحراني تعد أبرز مظاهر هذا الإحياء، فلقد عرف مجتمع البحرين ما يعرف بـ "العوائد" التي كانت تمثل ظاهرة من ظواهر الحياة الدينية في المجتمع البحريني قبل أن تنحسر شيئاً فشيئاً في نهاية القرن الماضي. فقد اعتاد الناس عند بناء بيوتهم أن يفردوا مكاناً خاصاً منعزلاً عن سكن البيت يسمى "المجلس" خاص لاستقبال الضيوف، وكثيراً ما كانت هذه المجالس التي يقصدها الناس عامرة بالمستمعين للخطابة الحسينية المسماة "العادة الأسبوعية".

وتزداد وتيرة النشاط الديني والثقافي لهذه المجالس طوال ليالي شهر رمضان الكريم من أجل التبرك بقراءة القرآن والأدعية المأثورة عن أهل بيت العصمة (ع) ضمن عرف سنوي له رسوخ قديم في المجتمع، ورغم قسوة الفقر وشظف العيش الذي عاشه الآباء والأجداد إلا أنهم كانوا حريصين على هذه التقاليد الدينية مدركين لأهميتها العقائدية والاجتماعية في نفوس النشء.

أوقاف أهل البيت (ع):

تمثل ظاهرة كثرة الأوقاف المخصصة لإحياء ذكر أهل البيت (ع) إحدى مميزات المجتمعات الإسلامية الشيعية، ومع وجود أوقاف لمختلف الأغراض الدينية والعلمية والإنسانية في المجتمعات الشيعية، إلا أن النسبة الغالبة من الأوقاف لدى الشيعة مخصصة لأهل البيت (ع) وخاصة الإمام الحسين (ع).

وفي مجتمع البحرين، تتجلى هذه الظاهرة بوضوح، إذ تكثر الموقوفات المخصصة لأهل البيت، من مزارع ودكاكين وأراض وحضور. ويشير مدير دائرة الأوقاف الجعفرية في البحرين أن الأوقاف على أهل البيت تزيد على نسبة ٧٥٪ من مجمل الأوقاف في البحرين[1]. وتشرف إدارة الأوقاف الجعفرية على عدد كبير من العقارات الموقوفة للمساجد والمآتم، وأخرى للذريات وكذلك للعبادات وللكتب ولخطباء لمنبر الحسيني ولطلبة العلم والمحتاجين من الفقراء في البحرين.

ولقد دون السيد عدنان الموسوي (ت ١٩٢٨) أول رئيس للأوقاف الجعفرية في الربع الأول من القرن الماضي أغلب هذه الأوقاف[2] ويصاب المطلع على هذا السجل بالذهول لحجم

---

(١) حسن موسى الصفار: الأوقاف وتطوير الاستفادة منها، ص ٢٢.

(٢) شغل السيد عدنان منصب القضاء الجعفري في أيامه، ومنصب رئاسة الأوقاف الجعفرية، وأموال القاصرين، وخلال هذه الفترة بذل السيد الجليل جهداً كبيراً في حفظ الأوقاف المعروفة ضمن فترة توليه الأوقاف (١٩٢٧ ـ ١٩٢٨م)، إذ قام بعملية مسح كاملة وشاملة لجميع الأوقاف في جميع قرى ومدن البحرين، وتحديد حدودها وذكر الواقفين لها، وبيان أوجه الصرف لها، حيث قام بتدوينها في دفتر سمي باسمه "سجل السيد عدنان" الذي يعتبر بمثابة وثيقة تاريخية ومرجعاً أساسياً تستند إليه إدارة الأوقاف في تسجيل أراضيها وأملاكها غير الموثقة.

الأوقاف المخصصة لأغراض إحياء مناسبات أهل البيت والصرف عليها[1]. مما يدلل على تعلق أهل البحرين وعمق ولائهم وحرصهم على أهمية استمرار عملية تأصيل ثقافة الانتماء المذهبي بوعي تاريخي يتواصل عبر الأجيال.

ويلاحظ الباحث الكثير من مسميات "المزارع" مثلاً المنتشرة في طول البلاد وعرضها حتى أواخر القرن الماضي، يقال: (دالية الزهراء) أي أنها موقوفة فقط على إقامة وإحياء وفاة الزهراء، وفي قرية جدحفص مثلاً ونظراً لتعدد مناسبة وفاة الزهراء(ع) بحسب الروايات المتعددة في وفاتها (عليها السلام) بين ١٣ جمادى الأولى و٨ ربيع الثاني و٣ جمادى الثانية كأشهر الروايات من بين ما يذكره أرباب السير من السنة والشيعة في تاريخها، هناك بعض الموقوفات في هذه المنطقة وقفاً خاصاً بإحياء يوم ٨ ربيع الثاني، حتى لاتُنسى هذه المناسبة ويستمر إحياؤها، رغم كونها من أقل الروايات عملاً بها بين الأوساط الشيعية.

يمتاز دور أوقاف أهل البيت في المجتمع الشيعي بميزة إضافية عما تقوم به سائر الأوقاف في المجتمعات الإسلامية، وتلك الميزة هي توفير الاستقلال للنشاط الديني والثقافي، حيث تعتمد الجهة الدينية في تمويلها على الأوقاف والخمس الشرعي.

فالحوزات العلمية الدينية، وشؤون المرجعية والإفتاء، وإقامة الشعائر والمناسبات الدينية، ودور الخطباء والمبلغين، كل هذه المهام يجري تمويلها من وارد الأوقاف والخمس، وهو ما يمكنها من الاستمرارية والاستقلال المالي عن الجهات الرسمية.

إن هذا الإقبال الكبير على تخصيص الأوقاف لأهل البيت (عليهم السلام) في المجتمعات الشيعية نابع من الأسباب الآتية:

١. عمق المودة والولاء لأهل البيت (ع) في نفوسهم، إذ يرتضعون ذلك من تربيتهم ونشأتهم ضمن عوائلهم، كما تسود في مجتمعاتهم ثقافة المحبة والولاء والارتباط بأهل البيت (عليهم السلام) عبر المناسبات الدينية وإرشاد العلماء ووعظ الخطباء.
٢. دافع التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فإحياء ذكر أهل البيت (ع) أمر محبوب عند الله سبحانه، ومظهر من مظاهر المودة التي أوجبها الله لهم، وهو ينسجم مع نهج القرآن الكريم في إحياء ذكر الأنبياء والأولياء، والإشادة بهم، والحديث عن سيرتهم ومواقفهم.
٣. كما يشكل استجابة لتوجيهات أئمة أهل البيت الذين دعوا شيعتهم لإحياء ذكرهم وأمرهم، كالخبر المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) "أحيوا أمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا. قلت: كيف يحي أمركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو عرفوا محاسن كلامنا لاتبعونا"[2].

---

(١) انظر: سجل السيد عدنان الموسوي، إدارة الأوقاف الجعفرية في مملكة البحرين، النسخة الالكترونية ٢٠٠٦.

(٢) محمد بن علي بن الحسين الصدوق: عيون أخبار الرضا ج٢ ص ٢٧٥.

٤. إن إحياء ذكر أهل البيت (ع) يعني إحياء الحالة الدينية في المجتمع. ذلك أن حضور سيره أهل البيت في النفوس والأذهان تعني حضور القيم والمبادئ التي يمثلونها، مما ترك أثراً وانعكاساً واضحاً على الفكر والسلوك.

٥. إن المظلومية التي عاشها أهل البيت في حياتهم بإقصائهم وتهمشيهم والإساءة لهم من قبل أغلب الحاكمين في عصورهم، أوجدت في نفوس أتباعهم تعاطفاً عميقاً، يدفعهم لتحدي حالة المظلومية التي تعرضوا لها، بالمزيد من مظاهر الاحتفاء والتخليد لذكرهم وسيرتهم، في مقابل محاولات التعتيم على ذكرهم وآثارهم.

٦. وبسبب الظروف الصعبة التي مرت على المجتمعات الشيعية أصبح إحياء ذكر أهل البيت جزءاً من "الهوية"، والاهتمام به يعني حماية الذات من الذوبان، وحفظاً للخصوصيات المذهبية.

وأخيراً فإن الأوقاف على أهل البيت تعني ضمان التمويل الذاتي للنشاط الديني والفاعلية الاجتماعية، حيث يلمس الواقف أثر وقفه في جذب الجمهور نحو المناسبات الدينية، وفي توفير فرص الوعظ والإرشاد لأبناء المجتمع، وفي تهيئة الأجواء لتربية النشء على العقيدة والمبدأ، وفي تكريس تلاحم المجتمع ورفع معنوياته وإظهار قوته.

النذورات والعوائد:

كذلك، عرف المجتمع النذورات كشكل من أشكال التعبد الديني في المجتمع البحراني، وكان أيضاً لأهل البيت (ع) موقع الصدارة في عقل ووجدان البحرانيين في نذوراتهم، والنذر هو "أن يجعل الشخص لله على ذمته فعل شيء أو تركه".

ومن المعروف أن للنذورات أحكام فصلها فقهاء الإسلام في كتبهم ومدوناتهم الفقهية، وللنذورات وظيفة اجتماعية على جانب كبير من الأهمية، فقد لا يكون موضوع النذر موضوعاً شخصياً مرتبط بدائرة الذات (كالحج، والصلاة، والزكاة) بل يتعداه ليلامس الإطار الاجتماعي الاوسع، وكثيراً ما يكون لمثل هذه الندورات مكاسب اجتماعيه كبيرة وتؤدي أغراض إنسانية تعزز روح التكافل وتغرس الإحساس بالمسؤولية تجاه الفئات المحرومة في المجتمع كالصدقة وكفالة اليتيم ومظاهر برّ الوالدين.

وضمن هذا الفهم الشرعي، شكلت النذورات المتعلقة بزيارة مقامات أحد أئمة أهل البيت (ع) عنصر من عناصر الثقافة الدينية لدى البحرينين، وكانت كثير من النذورات تخصص لقراءة مصائبهم وإحياء أمرهم، أو تخصيص المال لمشهد من المشاهد المشرفة لكي يُصرف في مصالحه، كأن ينفق على عمارته أو إنارته، أو لأداء أُجور خدمه والقائمين على حفظه وصيانته، أو ينفق على زواره الفقراء أو على ما فيه إحياء ذكره ونحو ذلك.

(٢)
شخصية السيدة الزهراء (ع) في الثقافة الشعبية البحرانية

يعكس الأدب الشعبي لكل شعب خلجاته النفسية واهتماماته الروحية، فالأدب الشعبي ينبع من الوعي واللاشعور الجمعي، ومن المعروف أن نشاط اللاشعور الجمعي كبير ومتشعب للغاية، وعنه تصدر الأفعال والتعبيرات الواعية التي لا يمكن إدراك منزاها إلا إذا بحثنا عن جذورها النفسية، والغوص عميقاً في استكناه الاهتمامات الروحية التي دفعته للظهور.

فالحكاية الشعبية واللغز والمثل الشعبي والنكتة، والأغنية والأهزوجة الشعبية، كلها أنواع أدبية شعبية، ولكنها ولاشك أشكال يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً جوهرياً، ولكل نوع من هذه الأنواع أشكال تعبير مختلفة ومجال وغرض ودافع مختلف[1]. وبالطبع فإن العادات والتقاليد البحرانية كغيرها من عادات وتقاليد الشعوب الأخرى تتأثر بعدة عوامل متداخلة منها التأثير الديني أو التمازج الحضاري.

ففي مجتمع مشبع بالروحانية والتعلق بالدين كمجتمع البحرين، كان للدين قوته الروحية في تشكيل ثقافة وأدب مخيال شعبي مرتبط إلى حد كبير بالشخصيات الإسلامية، وقد ساهم تعلق أهل البحرين الروحي والعقائدي بالنبي وأهل البيت (ع) في ظهور الكثير من الممارسات التي أخذت موقعها في الثقافة الشعبية للأهالي بعيداً عن الأطر العقائدية وتخومها النصيّة، بل أخذت العقلية الجمعية تبتكر وتبتدع بعفوية وسائل وممارسات جديدة كلياً من وحي تراثها الديني بما يلائم حاجاتها الروحية ويحقق له الطمأنينة واليقين في حياتها اليومية.

لقد كانت شخصية الزهراء مرتبطة بهوية هذا الشعب وثقافته، كشعب ارتباطاً وثيقاً مؤصلاً يظهر بين خفايا أدبيات هذا الشعب من عمق ذاكرته، ويمكن أن نتدرج في فهم هذه المظاهر من تراثنا من عدة نواحٍ وهي كالآتي:

- **أناشيد الزاجرة، والغوص:**

كان أهالي البحرين يرددون الأناشيد الزاجرة وهي الأناشيد التي تُردد عند استخراج الماء من العيون باستخدام الثيران عادة لري الزرع، وهي طريقة تقليدية موجودة من مئات السنين، وقد اعتاد أهل البحرين أن يلقوا نوعاً من الشعر أثناء استخراج الماء بالطريقة السابقة، بشكل إنشادي مميز، ذكر الأديب محمد علي الناصري (ت ١٩٩٩) هذا النوع في

(١) انظر: نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.

بعض مؤلفاته، ولم تغب شخصية الزهراء عن الذكر أثناء الكدح والعمل ومنه على سبيل المثال قولهم:

البضعة الزهرا على نالها   والصخرة الصم عن بير العلم زالها

ومنه على سبيل المثال أيضاً قولهم:

أمس الضحى ريت ريمٍ يرتعي يا علي

ويصيح يابا الفضايل يا إمامي علي

يا مظهر الدين بدروب الهدى يا علي

من حين ماعودت تبغي علي فاطمة

جابت وربت ومن بعد الربا فاطمة

أم الحسن والحسين امفضّلة فاطمة

بنت الرسول المكرّم زوجتك يا علي

كذلك هناك نوع آخر من المواويل المعروفة التي يرددها "النهّام"، حيث اشتهر عن غاصة البحرين سنة وشيعة في فن النهام الذي هو من أغاني البحر، ومن فنون النهامة الفن المعروف بـ "الفجري" الذي اشتهر به الغاصة من أهل السنة[١]، وعن النهام حسن بن صالح (الجوري) من منطقة رأس رمان تُنقل بعض الأبيات في هذا الإطار، والتي لا تخلو عادة من الإشارات والرموز الدينية منها ما يخص السيدة الزهراء (ع) وأهل البيت.

وتنقسم الأغنية الشعبية وفقاً للوظيفة التي تؤديها إلى ثلاثة أقسام[٢]:

١. أغنيات المناسبات الاجتماعية.

٢. أغاني العمل.

٣. الموال.

وهذا التقسيم ينطوي على أهمية بالغة، فكل نوع من هذه الأنواع يؤدي من ناحية وظيفه محددة في حياه الشعب، كما أنه يسهم من ناحية أخرى في استجلاء الملامح الأساسية لبناء المجتمع الشعبي والشخصية الشعبية التي تعيش فيه.

فأغاني المناسبات الاجتماعية التي يُتغنى بها في كل مناسبة يحتفي بها المجتمع، مثل الزواج أو الختان أو الحج أو مواليد الأولياء وغيرها، لابد أن تخدم مناسبتها. ومعنى هذا أن أغاني الأفراح والختان تثير الإحساس بالسعادة والفرح، وأن الأغاني التي تنشد في مناسبات دينية تتمثل وظيفتها في إيقاظ القيم الدينية والإحساس الديني عند أفراد.

---

(١) مي محمد الخليفة: محمد بن خليفة الأسطورة والتاريخ الموازي، ص ٤٩.

(٢) نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص ٢٣٧.

بينما تتمثل وظيفة أغاني العمل في حثّ الجماعة على العمل في إيقاع واحد، ولهذا قد تفتقد أغاني العمل "الوحدة الموضوعية"، ذلك أن فترة العمل قد تطول بحيث يضطر المغني إلى أن يضيف إلى الأغنية كل ما يطرأ على ذهنه من كلام ينساق مع لحن الأغنية، كما قد يستعين المغني بالموروث الديني وترديد قصائد تمجّد الشخصيات الدينية مدحاً أو رثاءً.

أما "الموال" في حياة المجتمعات العربية، فينقسم إلى نوعين: "الموال الأخضر" و "الموال الأحمر". والموال الأخضر كما يبدو من تسميته يرتبط بالنضرة والحياة، أي الموال الذي يتغنى بالحب، أما الموال الأحمر فهو الموال الذي يبث فيه الإنسان لوعته وألمه، لا من الحب بل من خوفه على ضياع القيم الأخلاقية[1]. وهنا يمكن القول أن الموال ينبّه المجتمع في الغالب إلى قيمة الأخلاقية الأصيلة التي يخشى أن تضيع في زحمة الاندفاع الحضاري وفي زحمة تكالب الناس على المكسب المادي حيث يمكن أن تختلق الأمور على الناس، فإذا هم يرفعون من قدر الرجل الغني ويحطون من شأن الفقير غير عابئين بمبدأ الأصالة.

- **دخول الزهراء في "أداء القسم":**

من الأعراف القديمة المتوارثة لأهل البحرين ذكر أهل البيت (ع) في أقسامهم، وهي ظاهرة انحسرت إلى حد كبير بفعل الانفتاح المذهبي الذي شهده المجتمع البحريني في العقود الأخيرة وتزايد الوعي الديني، لكن هذه النوع من الأقسام لازال كبار السن من الرجال والنساء يمارسون كتقليد متوارث، كسلوك عفوي في إجراء صيغة القسم، فقد اعتاد البحرانيون على أداء القسم أو "الحلَف" بها، حيث تضمنت صيغة أداء القسم شخصية الزهراء(ع)، لما لها من مكانة مقدسة عند هذا الشعب، ومن هذه الأقسام الشائعة: وحرمة الزهراء، وحرمة أم الحسن والحسين، وحق فاطمة الزهراء، وحق ضلع الزهراء.. الخ. وكلها تدل على مدى الارتباط بشخص السيدة الزهراء (ع).

- **الزهراء في الألعاب الشعبية:**

مما يتناقله الأطفال من تراثهم الشعبي ومازال متداول، أثناء تقسيمهم أو عدهم لبعضهم وإخراج المقسوم بهذه الكلمات:

"الله، محمد، وعلي
يا فاطمة بنت النبي
إخذي كتابش (كتابك) وانزلي
على محمد وعلي..".

---

(١) نبيلة إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

- **التسمي بأسماء السيدة الزهراء:**

عن يونس بن ظبيان قال: قال أبو عبد الله (ع): "لفاطمة تسعة أسماء عند الله عزّ وجل: فاطمة والصدّيقة والمباركة والطاهرة والزكيّة والراضية والمرضيّة والمحدّثة والزهراء"[١]. ومن الملاحظ أن ظاهرة التسمي بأسماء السيدة الزهراء لدى شعب البحرين ظاهرة موغلة في التاريخ، وتعد ظاهرة اجتماعية ملفتة. إذ لا يوجد بيت من البيوتات البحرانية إلا واسم: فاطمة، أو زهراء أو طاهرة، أو بتول، يتردد في جنابات المنزل، ولا نحتاج إلى عناية كبيرة لنصل إلى قناعة بأن هذه الأسماء هي من أكثر الأسماء النسائية شيوعاً في أوساط المجتمع البحراني، وهو ما يدل دلالة واضحة على التعلق الواضح والولاء الكبير لأهل البيت (ع) وللمكانة القدسية العظيمة للسيدة الزهراء في نفوس البحرانيين.

- **أعراف اجتماعية أخرى:**

ويمثل توديع الزائرين إلى العتبات المقدسة حتى زمن متأخر أبرز العادات والتقاليد البحرانية، إذ يجتمع الأهل والصحب والجيران رجالاً ونساءً وأطفالاً لتوديع الزائرين المتوجهين إلى كربلاء والنجف وخراسان والمدينة المنورة ويصحبونهم حتى "فرضة المنامة" مرسى العاصمة القديمة، وذلك في موكب حزين، حيث يتقدمهم شخص يحمل راية عالية، وهو يطلق صيحات الألم والحزن لمصاب آل البيت (ع) والندم على عدم التوفيق لزيارة عتباتهم المقدسة مع أولئك الزائرين. ويعرف الشخص الذي يؤدي ذلك الدور بـ "الشاووش"[٢].

كذلك يحظر أهل البيت (ع) في أفراح المجتمع البحراني وأحزانه بصورة مكثفة، ففي الأعراس تقام الولائم، وفي الاحتفالات تنشد الجلوات، وهي عبارة عن أهازيج خاصة بالمناسبة، وتغلب عليها اللغة الفصحى البسيطة، وفيها إشادات بصفات الرسول (ص)، وآله الأطهار، ولهذه الجلوات أشخاص متخصصون بالإنشاد، أما جماهير الناس فيرددون معهم بعفوية وحماس.

أما في التعازي، فإن سيرة أهل البيت (ع) تكون حاضرة بصورة أوضح وأكثر جلاءً، فذكر ما كابدوه (ع) من فجائع ومآسٍ يمثل خير عزاء وسلوان لأهل الفقيد وذويه، فقد جرى التقليد المتبع أن الفقيد إذا ما كان رجلاً كبيراً ذُكرت مصيبة الحسين (ع) ومصرعه في كربلاء، وإن كان كهلاً روي مصرع العباس بن علي (ع)، وإن كان يافعاً ذُكر استشهاد علي الأكبر أو القاسم بن الحسن، أما إذا كانت الفقيدة امرأة فيتم الإشارة إلى مصاب السيدة الزهراء (ع) وشهادتها.

---

(١) **أمالي الصدوق**:٤٧٤، ح ١٨، علل الشرائع: ١ / ١٧٨، الخصال: ٤١٤، ح ٣، روضة الواعظين: ١٧٩.

(٢) **النويدري**: مصدر سابق، ج ١ ص ٥٤.

وهكذا نرى أن سيرة أهل بيت النبي (ع) حاضرة في مفاصل عديدة من حياة الناس والمجتمع، في الأفراح والأتراح، وفي الأعراف والتقاليد المتوارثة، وتتجسد هذه الحقيقة في الكثير من الممارسات الاجتماعية والحياة الشعبية في هذا البقعة التي عُرفت بولائها المبكر لأهل البيت.

(٣)
السيدة الزهراء (ع) في تراث أهل البحرين النثري

لقد كتب بعض علماء الشيعة الأقدمين في سيرة أهل البيت عليهم السلام وتاريخ حياتهم كالشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) في كتابه (الإرشاد في معركة حجج الله على العباد)، والشيخ الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ) في (عيون أخبار الرضا عليه السلام)، لكن الاهتمام بهذا الجانب لم يتواصل من قبل كبار العلماء في العصور اللاحقة إلا نادراً كالجهد الموسوعي الذي قام به الشيخ المجلسي (١٠٢٧ ـ ١١١١هـ) في (بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار).

ويشير المحقق السيد عبدالعزيز الطباطبائي (ت ١٩٩٥) إلى ظاهرة ضخامة التراث المكتوب عن أهل البيت بقوله: "... وربما يستكثر القارئ عند ما يرى مئات الكتب المؤلَّفة في أهل البيت، مع شدة المحنة ومعارضة الحكم القائم في أغلب أطوار التأريخ لنشر فضائلهم: وإذاعة علومهم، بل قد حُرِّم في بعض الأحيان ذكرهم، والناس على دين ملوكهم.

فكان المحدّث يتحاشى ذكرهم حتى أن بعض المحدّثين يعبّر عن علي (ع) بأبي زينب، فيقول: حدّثنا أبو زينب...

ولكن ما كان لله ينمو، ويريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره...

فشاع وذاع من الأخبار عنهم: ومن الشهادات في فضلهم والاعتراف بأحقّيّتهم كما قال أحمد بن حنبل في علي(ع): كتم أصحابه فضله خوفا، وكتمه أعداؤه حسدا، حتى شاع من بين ذا وذاك ما طبّق الخافقين"[1].

ولقد أنجز الباحث العراقي الشيخ عَبد الجبار الرفاعي، موسوعة استقصى فيها عناوين المؤلفات والبحوث التي كتبت عن أهل البيت عليهم السلام، عبر أربعة قرنا، قائمة "بيلوغرافيا" تحت عنوان (معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت)[2] طبعت في اثني عشر مجلداً، وكشفت عن الأرقام التالية لعدد الكتب والمقالات عن كل واحد منهم:

---

(١) عبدالعزيز الطباطبائي: أهل البيت في المكتبة العربية، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ص ١٠.

(٢) عبد الجبار الرفاعي: معجم ماكتب عن الرسول وأهل البيت، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ ش، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران.

عن فاطمة الزهراء (عليها السلام)	٥٤٦
عن الإمام علي (عليه السلام)	٤٩٥٦
عن الإمام الحسن بن علي (عليه السلام)	٢٠٥
عن الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)	٣٢١٥
عن الإمام السجاد (عليه السلام)	٣٩٩
عن الإمام الباقر (عليه السلام)	٦٩
عن الإمام الصادق (عليه السلام)	٣٣١
عن الإمام الكاظم (عليه السلام)	٢١١
عن الإمام الرضا (عليه السلام)	٦٥١
عن الإمام الجواد (عليه السلام)	٦٢
عن الإمام الهادي (عليه السلام)	٧٩
عن الإمام العسكري (عليه السلام)	٦٦
عن الإمام المهدي (عليه السلام)	١١٤٥

هذا من ناحية الكتابات أما من ناحية المستوى والنوعية فإن قسماً كبيراً من هذه الكتابات لا تتصف بالعمق العلمي، والتحليل الجاد، لسيرة أهل البيت وآرائهم ومواقفهم، بل يغلب عليها السرد التاريخي أو الطرح العاطفي بذكر الفضائل والمصائب.

إن جوانب أساسية كثيرة من سيرة أهل البيت وتراثهم لا تزال مجهولة، ولم تسلط عليها الأضواء الكافية من البحث والتحقيق، لقد اهتم فقهاء الشيعة بدراسة وتمحيص ما ورد عن أهل البيت (ع) فيما يرتبط بالمسألة الفقهية، أما سائر الجوانب فلم تحظ بالاهتمام المطلوب.

وقل أن تجد دراسة تاريخية ضمن قواعد البحث العلمي عن حياة أئمة أهل البيت (ع) والظروف الاجتماعية التي عاصروها، مع ما لذلك من أهمية بالغة لمعرفة آرائهم ومواقفهم، والتي لا يمكن فهمها بالشكل الصحيح إلا ضمن سياقها الاجتماعي، ومعرفة الملابسات والظروف المحيطة.

وقد خص علماء البحرين وأدبائها وشعراءها بنتاج فكري وأدبي وفير، وكتبوا عن الأئمة المعصومين أدباً بالغ القيمة يُعد من ذخائر التراث الإسلامي على المستوى النثري والشعري، منهم على سبيل المثال الشيخ راشد بن إبراهيم بن إسحق الجزيري البحراني (ت٥٠٦ هـ/ ١١١٢م) من أعلام القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي الذي وضع مصنفه (مختصر في تعريف أحوال سادة الأنام محمد والائمة الاثني عشر الامام) ويعد كتاب الشيخ الجزيري البحراني من أقدم المصادر التاريخية لعلماء البحرين.

وبالطبع كان لشخصية السيدة الزهراء القدح المعلى والنصيب الأوفى من هذا الاهتمام.

وتتخذ أشكال المقاربة النثرية لشخصية السيدة الزهراء (ع) عند علماء وأدباء البحرين شكلين أساسيين، الأول: يتمثل في شرح وتحليل نصوص خطب السيدة فاطمة الزهراء (ع)، والشكل الثاني هو تأريخ سيرتها واستشهادها (ع).

- **شرح التراث الفاطمي:**

واستعرض هنا أنموذجين لعالمين من علماء البحرين المبرزين، وهما:

١. الشيخ يوسف بن أحمد العصفور (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م) من علماء القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، حيث قام بشرح الخطبة الفاطمية، وشرحه عليها موجز ولم يفرد له المؤلف عنواناً مستقلاً بل جاء ضمن كتابه "سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد"، قال عنه مؤلفه: "والرد عليه في شرحه لكتاب نهج البلاغة، الذي رام فيه أن يشرحه على رأي المعتزلة، وأصولهم ومذاهبهم وقواعدهم، وذكرت في أوله مقدمة شافية في الإمامة تصلح أن تكون كتاباً مستقلاً، ثم نقلت من كلامه في الشرح المذكور ما يتعلق بالإمامة وأحوال الخلفاء والصحابة ومما يناسب ذلك ويدخل تحته، وبينت ما فيه من الخلل والمفاسد الظاهرة لكل طالب وقاصد..."[1] كما في اللؤلؤة، وقد قام أحد الباحثين البحرانيين وهو الشيخ محمد عيسى المكباس[2] بتحقيق وطبع شرحه على خطبة الزهراء مستقلاً.

٢. الشيخ عبد الله بن نور الدين أو نور الله البحراني، من علماء القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، فقد أفرد في موسوعته القيمة (العوالم) ما خصصه لسيدة النساء، وتصل موسوعته هذه لأكثر من مائة مجلد، جمع فيها ما وجد عنه من الأخبار الواردة عن موالينا الأطهار، وهو تلامذة العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م)[3] وله الرواية عنه وكان من جملة من أعانه على تأليف كتابه بحار الأنوار، وكتابه الموسوعي العوالم يتضمن أحاديث الزهراء وأحوالها.

---

(١) يوسف بن أحمد آل عصفور: لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم الحديث. ص ٤٤٧.

(٢) يوسف بن أحمد آل عصفور البحراني (٢٠٠٦): الدرة الغرّاء في شرح خطبة الزهراء. تحقيق محمد عيسى آل مكباس، دار العصمة، المنامة.

(٣) محمد علي التاجر: منتظم الدرين في تراجم علماء وأدباء الإحساء والقطيف والبحرين، ج ٢ ص ٤٤٤ – ٤٤٥.

- **في شهادة السيدة الزهراء (ع):**

لقد دأب أعلام البحرين على تأليف الكتب حول النبي والأئمة (ع)، مما كان له أبلغ الأثر في تثبيت عقيدة الولاء لأهل بيت النبي (ص)، وسنستعرض في هذه الفقرة جملة من المؤلفات التي وضعها علماء البحرين في التعريف بهذه الشخصية ذات المكانة العالية في الإسلام، فمن بين من صنف حول شخصية الزهراء من علماء البحرين عبر العصور:

١. الشيخ سلمان بن عبدالله آل عصفور (توفي بعد ١٢٦١ هـ/١٨٤٥م) الذي وضع كتاب (مصارع الشهداء ومقاتل السعداء) وانتهى من تصنيفه عام ١٢٥١ هـ/ ١٨٣٥م، كما وضع كتاب (الرزايا) وكتاب (وفاة أمير المؤمنين) (ع).

و"مصارع الشهداء ومقاتل السعداء" للشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ حسين آل عصفور البحراني"[١] استعرض فيه المصنف مقاتل النبي (ص) والسيدة الزهراء والأئمة المعصومين (ع).

قال المصنف في المقدمة بعد كلام له:

"إن الشوق قيّد أقدامي والحب قد ملك زمامي، والولي قد قادني، والبرّ قد ساقني، إلى اقتحام مضمار لست من فرسانه، وولوج عرين ما كنت من أقرانه، والدخول في جملة قومٍ أنا أقل منهم، طمعاً مني في قوله (ص) من تشبه بقوم فهو منهم.. وذلك لما رأيت جملة من الشيعة المؤمنين، وجمهور الهداة في الدين، مكبين على إقامة فنون العزاء، على مصاب سيد الشهداء، والأئمة الأتقياء السعداء.

غير أن أكثر مصنفيهم من العرب، وجل مؤلفيهم من ذوي الرتب، قد سلكوا في نظم المراثي نهجاً واضحاً، ونهجوا مسلكاً ملحوباً لائحاً، وأما علماء العجم وفضلاؤهم من أصحاب العلم، فتفرقوا في التصنيف، واختلفوا في التأليف، فمنهم من أطال في المراثي إطنابه، حتى غدى كتابه مثل ديوان الصبابة، فالجأه ضيق المأخذ وطول المساحة إلى الركون لكلمات المؤرخين، وخرافات السالفين، ومنهم من ضيّق رحب مضماره لشدة اختصاره، وكلاهما لم يصب سهمه الغرض، ولا قام بما إليه نهض.

لكن لما كان مطلبهم الأقصى التقرب لأولئك الكرماء، والوقوف على أرباب العطاء، صوّبت آراءهم في منهجهم، وشكرتهم على بذل مهجتهم، ولكل ضيف قرى ولكل عمل كرى.

وهناك دار في قلبي وارتسم بلوح لبي، جمع كتاب وجيز، يزري بعسجد نظمه سبائل الذهب الإبريز، وأن أسميه بـ "مصارع الشهداء ومقاتل السعداء" جاعلاً لكل معصوم

---

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ٢١ / ٩٨.

مقتلاً، مبتدئاً بالنبي المصطفى، مثنياً بفاطمة الزهراء، خاتماً بصاحب العصر والزمان، وخليفة ربنا الملك الديان في هذه الأزمان.."[١].

وكتاب (الرزايا) كما يقول الشيخ بزرك الطهراني "مقتل في حجم منتخب الطريحي، رأيته عند الشيخ خلف آل عصفور البوشهري المتوفى سنة (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م)" وكتاب (منتخب الطريحي) هو للمصنف الشهير الشيخ فخر الدين الطريحي النجفي (ت ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) وكتابه المنتخب في جمع المراثي والخطب، ويشتهر أيضاً بالفخري.

٢. الشيخ يحيى بن حسين بن عشيرة البحراني: وهو من فقهاء القرن العاشر الهجري وكان له دور ريادي في حركة مرجعية المحقق علي بن حسين الكركي (ت ٩٣٧ هـ / ١٥٣١م) إبان الدولة الصفوية، ويظهر هذا من لقبه "المفتي"، له كتاب (وفاة الزهراء) ذكره الشيخ بزرك الطهراني في (الذريعة إلى تصانيف الشيعة)، وذكره الأفندي في (رياض العلماء وحياض الفضلاء) إلا أنه ذكر أن من مؤلفاته (كتاب مقتل فاطمة عليها السلام)، ولم يتعرض لذكره الشيخ علي بن حسن البلادي في (أنوار البدرين) لأن ترجمته كانت مقتضبة.

٣. العلامة المحدث السيد هاشم بن السيد سليمان بن السيد إسماعيل التوبلاني البحراني (ت١١٠٩هـ/١٦٩٦م)، له كتاب (وفاة الزهراء) وقد وصف هذا الكتاب المحقق الشيخ محمد باقر الكجوري في كتابه (الخصائص الفاطمية) بقوله: "فيه مجموعة من الأخبار المفجعة المبكية"، ذكره السيد محسن الأمين في الأعيان[٢]، وآغا بزرك في الذريعة[٣] لدى تعديدهما لمؤلفات السيد هاشم. ووثقه الشيخ عباس القمي في الفوائد الرضوية[٤].

٤. العلامة السيد ماجد البحراني، فبحسب ما نقله فارس تبريزيان في كتابه (العلامة السيد هاشم البحراني) ضمن حديثه عن تراث السيد هاشم، أشار إلى نسخة من مخطوط كتاب عن وفاة الزهراء الموجودة في مكتبة جامعة طهران (مجموعة مشكاة: ذكر في فهرس المكتبة ١٢٤١/٥٠ بأنها وفاة الزهراء للسيد هاشم) وعلق: وبعد مراجعة المخطوطة في المكتبة تبين أنها ليست للسيد هاشم البحراني، والظاهر أنها للسيد ماجد البحراني"[٥].

---

(١) سليمان بن عبدالله ال عصفور: مصارع الشهداء ومقاتل السعداء، تحقيق علي آل كوثر. مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ص ١٦.

(٢) أعيان الشيعة: ج ١٠ ص ٣٥٠.

(٣) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٢٥ ص ١١٩.

(٤) عباس القمي: الفوائد الرضوية في أحوال علماء المذهب الجعفرية، ج ٢ ص ١٠٧٤.

(٥) فارس تبريزيان: العلامة السيد هاشم البحراني، ص ١٦٨.

ولابد من الإشارة إلى تردد اسم السيد ماجد البحراني بين شخصيتين: الأول: سيد ماجد ابن السيد محمد آل أبي شبانة، عالم جليل القدر وكان قاضياً بشيراز ثم بأصفهان وكان شاعراً أديباً له (شرح نهج البلاغة) بالفارسية، وكان معاصراً للحر العاملي (ت١١٠٤هـ/١٦٩٣م) ـ والشخصية الثانية هو السيد ماجد بن هاشم الجدحفصي (ت ١٠٢٨هـ/١٦١٨م)، أول من نشر علم الحديث في دار العلم شيراز وكان له مع علمائها مجالس عديدة ومقامات مشهورة[١].

٥. الشيخ حسين آل عصفور البحراني (ت ١٢١٦هـ/١٨٠١م) له كتاب (الدرة الغراء في وفاة الزهراء)[٢] في بدايته: [الحمد لله ابتلى أولياءه في هذه الدار بأجل المصائب والأخطار...] له بعض المخطوطات في أماكن متفرقة تاريخ نسخ بعضها في ١٣٦١هـ/١٩٤٢م ونسخة أخرى مخطوطة في ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، وقد ذكرها في أنوار البدرين والأمين في الأعيان في تعدادهما لمؤلفات الشيخ حسين، ولكن أسمياه (الدرة الغراء في وفاة الزهراء) ولكنني لم أجد هذه التسمية في المخطوط على عادة الشيخ حسين في تسمية مؤلفاته في مقدمات الكتب التي ألفها. وذكر الكتاب بنفس المسمى في فهرست مكتبة آل عصفور في بوشهر. جاء ضمن الكلام عنه: [فرغ من تأليفه في شهر ذي الحجة سنة ١٢١١هـ، الناسخ عبد النبي بن حسين بن عبدالله الأصبعي البحراني بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٢هـ، أوله: "الحمد لله الذي ابتلى أوليائه في هذه الدار بأجل المصائب ولأخطار..." ق٢١×١٤.٥سم، ١٥س، الاستفادة وسط"][٣].

٦. العلامة الشيخ علي بن الشيخ حسين بن محمد البلادي البحراني المذكور في أنوار البدرين ووصف الكتاب بأنه ينقل عن أسفار الدمستاني قال عنه ما نصّه: "العالم الأديب الكامل الشيخ علي ابن الشيخ حسين ابن الشيخ محمد البلادي البحراني، كان فاضلا أديبا كاملا، له كتاب (وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام) مجلد حسن الترتيب والتأليف وله فيها بعض الأشعار وينقل فيها كثيرا من أسمار الدمستاني، ولم أقف على شيء من أحواله ولا تأريخ وفاته ضاعف الله حسناته"[٤]. وهذا المصنف متداول في الكثير من مجالس التعزية، وقد طبع أكثر من مرة. وله فيه إنشاءات وأشعار جيدة، إلا أنها تخلو من ذكر تاريخ وفاته أو الفراغ من تصنيف.

---

(١) انظر: جعفر المهاجر: أعلام الشيعة، ج ٣ ص ١١١٩.

(٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٨ ص ١٠٤.

(٣) حبيب آل جميع وزميله: فهرس مخطوطات مكتبة آل عصفور، ص ٨٧.

(٤) علي بن حسن البلادي: أنوار البدرين، ص ١٩٤.

٧. العلامة الشيخ سلمان بن الشيخ أحمد بن ال عصفور، من ذرية الشيخ أحمد أخ الشيخ حسين العلامة، عاش في البحرين، وكان والده فقيهاً وإماما في الجمعة والجماعة وزعيماً عاش في الشاخورة وسكن المنامة ودفن في الشاخورة بجوار ضريح الشيخ حسين آل عصفور (١٢٠٩هـ). له من المؤلفات منها (وفاة الزهراء عليها السلام) وهو مخطوط. وأما تلامذته وهو أستاذ الأديب الشيخ سلمان التاجر (ت ١٩٢٥) الشاعر المعروف، وقد رثى أستاذه بقصيدة نقلها الشيخ حسين بن علي البلادي (ت ١٩٦٧) صاحب (رياض المدح والرثاء) مدحه فيها وأثنى عليه غاية الثناء، كانت وفاته كما في (منتظم الدرين) في العراق، ويذكر أفراد عائلته أنه توفي في النجف ودفن فيها وكانت وفاته في ١٣٣٨هـ الموافق ١٩١٩م ولم يكن قد بلغ الأربعين من العمر[١].

٨. العلامة الشيخ علي بن الشيخ حسن البلادي (ت ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م)، صاحب (أنوار البدرين)، له كتاب (وفاة الزهراء)، وقد طبع في النجف الأشرف.

٩. المرحوم الخطيب الشيخ محمد علي الناصري محمد علي الناصري (ت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) الذي وضع كتاب (قصة الزهراء) عُدت ضمن المطبوع من تراثه رحمه الله.

١٠. العلامة الخطيب السيد محمد صالح ابن السيد عدنان القاروني البحراني (ت ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م)[٢]، له كتاب (ليلة الإسراء في فاطمة الزهراء) يشمل أحوالها ووفاتها صلوات الله عليها وقد طبع مؤخراً ضمن مجموعته في وفيات المعصومين، وهو جمع روايات ولا يخلو من بعض التحقيقات بحسب ذوقه، وله مصنف آخر ضمن كتاب طبع أيضاً تضمن (وفاة الزهراء) ضمن مجموعة وفيات، وله أيضاً كتاب (رياض الإمامة في سيرة فاطمة الزهراء).

وهكذا، نرى أن السيدة الزهراء (ع) حظيت باهتمام علماء البحرين وأدباءها، وحفلت مصنفاتهم بذكر أهل البيت (ع) مدفوعين في ذلك بولائهم العميق وإحساسهم العالي بواجب التصدي لنشر فضائل أهل البيت، وإحياء أمرهم سواءً كان ذلك من خلال تصنيف الكتب، أو خلال العمل على ترسيخ ظاهرة الإحياء الشعائري أو من خلال تخصيص الأوقاف الشرعية التي تعمل على تدعيم حركة الوعي التاريخي بمسيرتهم (ع).

لقد آن الأوان للنهوض بالتراث العلمي المخطوط لعلماء البحرين الذي لا يزال الكثير منه ينتظر من ينتشله من الخزائن المظلمة، ومن أرفف المكتبات القديمة، ونرى ضرورة تحمل هذا الدور المهم وأن تتباه مؤسسات علمية قادرة على التحرك وفق استراتيجيات وخطط مدروسة تستهدف العناية بهذا التراث الذي لا يزال المشتغلين به أسرى للرؤى الارتجالية

---

(١) أعلام الثقافة الإسلامية ج٢ ص ٦٢٧، ماضي البحرين وحاضرها: ٩٠. أنوار البدرين ٣١٥.

(٢) ولد هذا السيد الجليل في الخامس من ربيع الأوّل سنة ١٣٣٩هـ الموافق ٢٩ نوفمبر من العام ١٩١٩م في قرية البلاد القديم. أبوه القاضي المعروف السيد عدنان بن علوي بن علي بن عبدالجبار الثالث القاروني الموسوي.

والطموحات الخاصة التي تتعثر في ظل غياب الإمكانات المادية والبشرية الكفيلة بالنهوض بهذا الدور على أكمل وجه، من هنا نشيد بالدور الذي يقوم به مركز الإمام الحسين (ع) للدراسات والبحوث التابع للمجلس الإسلامي العلمائي في البحرين، والذي أصدر ضمن باكورة إصداراته الجزء الأول من (البيبليوغرافيا الحسينية البحرينية) التي ضمت محصلة التراث الحسيني البحريني المطبوع من عام ١٨٨٧ حتى عام ١٠١٢ أي ما يقارب قرن وربع من الزمان[١]. ويهدف مشروع المركز الحسيني إلى:

١. الحافظ على التراث الحسيني البحريني بجمعه تحت مظلة المركز لفائدة الباحثين والدارسين والجمهور.
٢. رصد وتوثيق كافة الفعاليات الحسينية في الساحة البحرينية السابقة والحالية والمستقبلية عن تطرق إصدار بيبلوجرافيا حسينية كل خمس سنوات لتوثيق كل الفعاليات والإصدارات التي تدخل ضمن سياق تخصص المركز، وإصدار موسوعة في عدة أجزاء باسم (موسوعة المركز) تحوي كافة النشاطات الثقافية الحسينية السابقة على إنشاء المركز.
٣. إثراء الساحة بالدراسات الحسينية المتعمقة بعدة لغات، وتحديث الرؤى للحركة الحسينية على مر العصور، وذلك عن طريق إعدادا وتأهيل باحثين ومتخصصين في الدراسات الحسينية. والعمل على عقد الملتقيات والمؤتمرات المتخصصة في معالجة قضايا التراث الحسيني العلمي والروحي.
٤. متابعة وتقييم الفعاليات الحسينية وصولاً لوضع أكثر تخطيطاً ومنهجية لعرض التراث الحسيني بشكل حضاري إنساني متطور.
٥. العمل على احتضان أي إبداع علمي، من آجل الحفاظ على التراث الحسيني بصيغته العلمية والروحية.
٦. تكوين نواة لمرجعية علمية بإنشاء مكتبة المركز خدمة للعلماء والباحثين.

إننا نرى أن إنشاء هذا المركز يعد خطوة واعدة وشجاعة، ونتطلع إلى إنشاء العديد من المراكز المماثلة التي تغطي جوانب أكبر من تاريخ الإسلام وأهل البيت (ع)، في وقت صار لزاما على المسلمين أن يؤدوا دورهم ومسؤوليتهم في إبراز الوجه الحضاري المتسامح والعقلاني للإسلام.

وينبغي في ختام هذا المحور أن نؤكد أنه ورغم الجهود المشكورة التي قام بها العلماء السابقون في جمع ما ورد عنهم من أحاديث وروايات، إلا أنها بحاجة بعد تمحيص أسانيدها إلى دراسة وتحليل، من قبل أصحاب التخصصات المختلفة. وعلى ضوء التجارب العلمية

---

(١) محمد حميد السلمان وآخرون: البيبليوغرافيا الحسينية البحرينية، ص ٧.

المتقدمة في كل اختصاص، لنتعرف على ما قدمه أهل البيت (ع) للبشرية من آراء وأفكار في مختلف المجالات والميادين.

إن تعرف العالم المعاصر على أهل البيت يستلزم تقديم سيرتهم وتراثهم بلغات العالم الحية، اللغات الرسمية لحقول العلوم والتكنولوجية والمعرفة العالمية، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية واليابانية وغيرها.

وهنا يظهر العجز الشديد والقصور الواضح، فما هو متوفر من الكتابات عن حياتهم وتراثهم ينحصر في اللغة العربية والفارسية.

وقد أشار المحقق الشيخ جعفر السبحاني إلى بعض هذه الجوانب من القصور والتقصير في عرض سيرة أهل البيت وتراثهم، نقتطف من كلامه الفقرة الآتية:

"يجب أن نؤكد بأن حياة الأئمة والأولياء الإلهيين شأنها شأن عالم الطبيعة، فيه جوانب عديدة مهما اكتشفت وكتب عنها، فستظل هناك جوانب مجهولة تحتاج لمن يكتشفها ويميط لثام الغموض عنها.

وفضلاً عن ذلك إن أكثر ما كتب حول الأئمة ينحصر في تجميع فضائلهم ومناقبهم ومعجزاتهم، وبالتالي في نقل أحداث حياتهم بصورة جافة بعيدة كل البعد عن التحليل، ثم إن الكتب التحليلية التي يمكن أن تلبي رغبات الباحثين والمحققين المعاصرين قليلة جداً، وإن بعضاً منها لا يتمتع من ناحية طريقة كتابتها وبيانها بالمستوى المطلوب. هذا ومن المؤكد إنه قد ألف وكتب عن بعض الأئمة مثل أمير المؤمنين وسيد الشهداء الحسين بن علي باللغة العربية، وربما الفارسية، بما فيه الكفاية، غير أن هناك فراغاً كبيراً للكتب التحليلية العميقة والجامعة فيما يتعلق ببقية الأئمة وحياتهم ويجب - للأسف - الاعتراف بهذه الحقيقة المرة. وهي إنه ليس الناس العاديون هم الذين يجهلون حياة الإمام الجواد أو الإمام الهادي أو الإمام العسكري (عليهم السلام)، السياسية والأخلاقية والعلمية فقط، بل إن أغلب الخطباء والكتاب يفتقدون المعرفة الكافية بهم أيضاً.

وثانياً: إن نوع الحياة التي كانوا يعيشونها، وكيفية مواقفهم السياسية الاجتماعية يكون واضحاً أكثر عندما نلم بظروفهم الاجتماعية والسياسية والثقافية الخاصة التي يعيشون فيها، وذلك أننا نعرف بأن الأئمة الأطهار كانوا يقيمون طريقة حياتهم الاجتماعية، ومواقفهم السياسية، وطبيعة نضالهم، على أساس من المحاسبات الدقيقة للظروف والأوضاع السائدة في عصرهم، وتقييم الإمكانات والمقتضيات والموانع. وتناسبا مع نوع المواجهة مع أعداء الإسلام. وعليه ما دمنا لم نتعرف على الأوضاع والظروف الخاصة التي كانوا يعيشون فيها آنذاك، فلن يكون لسيرة الأئمة وحياتهم أي مفهوم ومعنى دقيق وواقعي"[1].

---

(١) مهدي البيشوائي: سيرة الأئمة عليهم السلام، ص٢٣، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم.

(٤)

السيدة الزهراء (ع) في تراث أهل البحرين الشعري

وردت بعض المأثورات الدينية التي تحث على إنشاد الشعر في أهل البيت (ع) في تهانيهم وتعازيهم، فقد ورد على عن أبي عبدالله: "من قال فينا بيت شعر بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة"[1]. وعن أبي عبدالله (ع) قال: "ما قال فينا قائل بيتاً من الشعر حتى يُؤيد بروح القدس"[2] ولقد تراكم العطاء الأدبي والشعري عبر العصور الذي اتخذ من مدح ورثاء أهل البيت موضوعاً حيوياً صاغ جانباً كبيراً من نفسية الأمة وشكل وعيها العقائدي.

ولقد عُرف أهل البحرين بالفصاحة والبيان، كما وصفهم معاوية بن أبي سفيان بأنهم "مخاريق الكلام"[3] وقد وظفوا ذلك البيان لنشر فضال آل البيت (ع)، والتأكيد على أحقيتهم في رعاية أمور الأمة، ومن أبرزهم، بشر بن منفذ الشاعر الكبير المعروف بـ (الأعور الشني)، فله في الإمام علي (ع) مدائح. وفي عصر الامام جعفر الصادق (ع) نبغ شاعر بحراني من العبديين، أرغ جهده في نظم مناقب آل لابيت (ع) والإعراب عن خالص ولائه لهم، حتى قال الإمام الصادق لشيعته "علموا أولادكم شعر العبدي فإنه على دين الله" ذلك هو سفيان بن مصعب العبدي[4].

وسنحاول هنا الوقوف على إسهام شعراء وأدباء البحرين في مدح ورثاء السيدة الزهراء (ع)، وذلك عبر تقسيم التراث الشعري إلى عطاء شعري فصيح، وعطاء شعري صيغ باللهجة الدارجة.

- **التراث الشعري الفصيح:**

شكل الرثاء أحد سمات الشعر العربي، وقد قاله العرب في جاهليتهم للتعزية وهم يتحاضون عند المصيبة على الصبر حزماً وحلماً ومروءة، وقاله شعراء العرب في الإسلام وهم يتحاضون على الصبر رضاء بقضاء الله وقدره طلباً لما وعد الله الصابرين من حسن الثواب.

ويذكر المبرد أن هناك تعازي ومراثي لكبار شعراء الجاهلية والمخضرمين من أمثال متمم بن نويرة، ودريد بن الصمة، وكعب بن سعد الغنوي، وأعشى باهلة، وأوس بن حجر وغيرهم، ومن النساء ليلى الأخيلية، والخنساء. وهناك تعازٍ ومراثٍ لشعراء آخرين أمثال مسلم بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، وأبي العتاهية، والبعلي، وأبن أبي حفصة، وغيرهم مما

---

(١) عيون أخبار الرضا: ١ / ٤.

(٢) المصدر نفسه، ١ / ٤.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ج ٧، ص ١٠١.

(٤) محمد بحر العلوم: رجال السيد بحر العلوم، مكتبة الصادق، طهران، ط١، ج ٢، ص ٩٢.

جادت به القريحة المكلومة، كما أن حسان بن ثابت كانت له قصائد يرثي بها القادة الثلاثة الذين استشهدوا في غزوة مؤتة.

لقد عرفت البحرين على امتداد تاريخها في العصر الجاهلي والإسلامي والحديث بوجود شعراء لهم تعاز ومراث متباينة، البعض منها جاء على شكل أبيات محدودة، والبعض الآخر جاء على شكل قصائد طويلة، ففي العصر الجاهلي رثت خرنق أخيها طرفة بن العبد الذي مات وهو في ريعان شبابه قائلة:

عددنا له ستة وعشرين حجة ... فلما توفاها استوى سيدا ضخما

فجعنا به لما رجونا إيابه ... على خير حال لا وليدا ولا قحم[1]

وفي أوائل العصر الإسلامي رثى صعصعة بن صوحان علي بن أبي طالب (عليه السلام) قائلاً:

بكيتك يا علي بدر عيني ... فلم يغني البكاء عليك شيئا

كفى حزنا بدفنك ثم إني ... نفضت تراب قبرك من يديا

وكانت في حياتك لي عظاة ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا[2]

ولقد كان رثاء شعراء القرن الحادي عشر الهجري في البحرين شبيه برثاء شعراء العصر الجاهلي والإسلامي من حيث النمطية واختيار الكلمات وجزالة الألفاظ، ومن بين شعراء ذلك القرن أبو البحر جعفر بن محمد الخطي (ت ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م)، الذي كتب العديد من قصائد الرثاء مبثوثة في ديوانه الذي خضع لأكثر من عمل تحقيقي، أبرزه تحقيق الأستاذ عدنان السيد محمد العوامي.

تطورت المراثي إلى أن وصلت أوجها على شكل ملحمة كما هو الحال في ملحمة (أحرم الحجاج) وهي ملحمة خاصة بموقعة كربلاء ومقتل الحسين بن علي (عليه السلام)، من تأليف الشيخ حسن الدمستاني (ت ١٢٨١هـ/ ١٨٦١م)، ويبلغ عدد أبياتها ١٤٢ بيتاً.

وقد امتازت القصيدة بصدق العاطفة وقوة التعبير، كما امتازت بقوة الألفاظ وجزالتها، وتأثر المحسنات البديعية والصور البيانية، وفي ذلك يذكر الدكتور عبد علي حبيل الذي شرح وعلق على هذه الملحمة قائلاً: "وأستطيع القول لو لم يكن للدمستاني غير

---

(١) أنظر: ديوان طرفه بن العبد: شرح الأعلم الشنتمري، إدارة الثقافة والفنون، البحرين. وأيضاً: ديوان الخرنق: تحقيق حسين نصار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٩.

(٢) أنظر: بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ٢٤٣، المناقب، ج ٣ ص ٣١٤ فصل مقتله. اعيان الشيعة، ج٧ ص ٣٨٨، روضة الواعظين عن الإمام الصادق (ع)، الدر النظيم، لابن حاتم العاملي. موسوعة شهادة المعصومين.

هذه الملحمة لكفى. وهي قصيدة مربعة يتألف كل مقطع منها من أربعة أبيات، ينتهي كل بيت من أبياتها الثلاثة الأولى بقافية وينتهي البيت الرابع بقافية القصيدة".

يقول الدمستاني في هذه الملحمة:

أحرم الحجاج عن لذاتهم بعض الشهور

وأنا المحرم عن لذاته كل الدهور

كيف لا أحرم دأبا ناصرا هدي السرور

وأنا في مشعر الحزن على رزء الحسين

حق للشارب من زمزم حب المصطفى

أن يرى حق بنيه حرما معتكفا

ويواسيهم وإلا حاد عن باب الصفا

وهو من أكبر حوب عند رب الحرمين

ويلاحظ أن شعر الرثاء في البحرين بدأ بالفصحى منذ العصر الجاهلي والإسلامي وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت هناك قصائد قصيرة وأخرى طويلة. أما الظاهرة الجديدة في القرن العشرين هي بروز دواوين الرثاء التي تجمع الشعر العامي والفصيح لدرجة أنه يصعب فرز هذه الدواوين وتصنيفها في خانة الشعر العمودي أو الشعر العامي، مما حدا بنا إلى تخصيص هذه المساحة من الكتاب لشعر الرثاء منفرداً. ومما شجعنا على فصله عن بقية أنواع الشعر كثرة الدواوين الصادرة منه والتي بلغت ٥٠ ديواناً، خصصت جميعها لرثاء الرسول وأهل بيته (ع).

ويتقدم شعراء البحرين في شعر الرثاء الفاطمي الشيخ سلمان التاجر (ت ١٩٢٥) بقصيدته التي لم تزل تتردد في المحافل عند ذكرى استشهاد مولاتنا فاطمة الزهراء (ع) وهي القصيدة المشهورة والتي مطلعها:

قف على قبر فاطم في البقيع	**بعد مزق الحشا وسكب الدموع**
والثم الترب من حاوليه وانشق	**من شذاه نعيم زهر الربيع**
وابلغنها السلام عني فإني	**لمروع فيها بخطب مريع**
وتذكر أذية القوم فيه	**وابك حزناً وعج بقبر الشفيع**[1]

وهي من روائع الأدب الرثائي البحراني للسيدة الزهراء. وقد وصف الشيخ حسين القديحي البلادي الشيخ سلمان التاجر بـ: "الأديب الكامل الزكي الذكي.. وذكر له عدة

(١) رياض المدح والرثاء، ص ٢١٦.

قصائد تربو على الألف والخمسمائة بيت، في مراثي آل البيت (ع) ومدائحهم تصلح أن تكون قطعة من ديوان[1].

ويلاحظ الدكتور علوي الهاشمي[2] أن الشيخ سلمان التاجر لم يحظ باهتمام الباحثين بسبب "تركيز الشاعر المساحة الكبرى من تجربته الشعرية على المواضيع المذهبية الخاصة بالشيعة. فقد عثرنا له على أربعة وثلاثين قصيدة طويلة في مدح أهل البيت ورثائهم، خاصة الإمام الحسين، إضافة إلى قصيدة أخرى في رثاء أستاذه الشيخ سلمان العصفوري": وذلك ضمن كتاب (رياض المدح والرثاء) الذي يعد مصدراً رئيساً لشعر الشيخ التاجر.

ورغم انهماك تجربة الشيخ التاجر الشعرية في بحر المناسبات الدينية والمذهبية إلا أن الشاعر كان أحياناً يتخذ من تلك المناسبات إطاراً للدعوة إلى الإصلاح والحثّ على العلم وسوى ذلك من مظاهر الصحوة والإحياء، كما كان في الوقت نفسه شديد التمسك بمحاكاة النموذج الشعري العربي الأصيل من حيث الشكل التعبيري، لذا عدّ بحق "أحد رواد المدرسة الإحيائية في البحرين ومنطقة الخليج"[3].

لقد عرف الجمهور الأدبي في البحرين ما يسمى بالتخميس الشعري الذي كتب فيه التاجر. ويتكون المخمس من خمسة أشطر تتحد الأربعة الأولى في القافية، ويكون للشطر الأخير قافية أخرى، تتحد مع القافية في الشطر الأخير من المخمس التالي. وهكذا.

وفي شعر التاجر[4]، نموذج آخر في تنويع القوافي، وهو ما يطلق عليه "المربعة"، وهي تختلف عن التخميس في أن الأبيات في المربعة جميعها من نظم الشاعر، والمقطع المربع يتكون من أربعة أشطر، تتحد الثلاثة الأولى في القافية، وتكون للشطر الرابع قافية أخرى تتحد بدورها مع نظائرها في المربعات التالية وهكذا.

- **التراث الشعري الدارج:**

تأثر شعر الرثاء البحراني الدارج بشكل كبير باللهجة العراقية، فنجد أن حصة كبيرة من القصائد التي كتبت بلهجة عامية دارجة تميل ميلاً شديداً للهجة العراقية الدارجة. فمثلاً صدر ديوان رثاء للشيخ عباس الريس الدرازي في عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م بعنوان (درر المدح

---

(١) رياض المدح والرثاء، ص ٢٨٠.

(٢) علوي الهاشمي: شعراء البحرين المعاصرون. ص ٢٤.

(٣) علوي الهاشمي. المصدر نفسة.

(٤) لابد من التنويه بأهمية الدراسة القيمة التي قدمها الدكتور سالم النويدري لتراث الشيخ سلمان التاجر الشعري. ونشرت في مجلة الموسم. العدد ١٢ (١٩٩١م- ١٤١٢هـ).

والرثاء) ضمنه قصائد عامية تميل إلى اللهجة العراقية، ومنها قصيدة "رؤيا الأعرابي" التي يقول فيها:

عن رؤيتك يعرابي جيت المدينة أتسايل

بالليل شفت الرؤيا وأصبحت عنها ذاهل

أما القمر بو فاضل وأنا الشمس يعرابي

وذيك النجوم المزهرة هاي إخوتي واحبابي

وأبرز شعراء الرثاء في البحرين على الإطلاق هو الشاعر الأديب ملا عطية الجمري (ت ١٩٨١) صاحب ديوان (الجمرات الودية) الذي تعد قصائده محور اهتمام خطباء المنبر الحسيني في البحرين والمنطقة الخليجية، والعراق وخوزستان.

لقد طبعت قصائد الجمرات الودية في ستة أجزاء، أربعة منها في حياة الشاعر، واثنين بعده، ويعود الفضل في جمعه وحفظه لتلميذه البار الخطيب الشاعر الملا محمد علي الناصري (ت ١٩٩٩) الذي جهد في سبيل إعداده والتعليق عليه.

ومن نماذج شعر ملا عطية الجمري في الزهراء (ع)، شعره على لسانها وهي تشكو عند قبر أبيها (ص):

وقفت على قبر النبي والقلب مشعوب	**تشكي هظمها ودمعها على القبر مصبوب**
صاحت يبو إبراهيم قوم من القبر شوف	**خانت الأمة عهودنا ونسيت المعروف**
بالسوط ضربوني وعلي قادوه مكتوب	**مغدور حقه والورث يابوي مغصوب**
دقعت وعاين ساعدي ولطمة عيوني	**وسوط العبد ورّم يبو القاسم متوني**
هجموا على داري ومحسّد وقف دوني	**بعدك يبو إبراهيم قلبي شلون ميذوب**[1]

وقد صدر للشاعر محمد علي الناصري (ت ١٩٩٩) ستة دواوين رثاء منها (ديوان غديريات الناصري) الصادر سنة ١٩٨٧. ومن دواوين الرثاء الأخرى (اللآلئ الزاهرة في رثاء النبي وعترته الطاهرة) للشيخ محمد علي حميدان - ١٩٦٠م، و(ديوان فواز الفائز) لملا علي بن فايز - ١٩٦٤م، و(نفحات الشهاب في رثاء محمد وآله الأطياب) للشاعر عباس الحاج أحمد شهاب - ١٩٨٠م، و(الدموع المؤمنة) لفاطمة بنت الحاج جاسم إبراهيم آل إسماعيل - ١٩٩٠م، و(لهبات الأسى في رثاء خامس أصحاب الكساء) لملا عبد الرسول بن ملا حسن السهلاوي - ١٩٩٠م، و(وفيات الأطهار) و(ديوان مصارع العبرة في فجايع العترة) وكلاهما للسيد محمد صالح السيد عدنان الموسوي البحراني - ١٩٨٦م، و(رياض المدح والرثاء) للشيخ حسين بن

---

(١) عطية بن علي الجمري: الجمرات الودية في المودة الجمرية، ص ٧٣.

الشيخ علي البلادي - ١٩٩١م، و(ديوان صدح البلابل) لأحمد بن رمل - ١٩٩١م، و(الجوهر الثمين في رثاء العترة الطاهرة) لنجمة حسن العسلي - ١٩٩١م، و(النبع المعين في رثاء الحسين عليهم السلام) للسيد هاشم السيد حسن الموسوي القدمي - ١٩٩٢م، و(ديوان لآلئ الدموع) لثريا ملا عطية الجمري - ١٩٩٣م.

الخاتمة:

وبعد هذا العرض نستطيع أن نختم هذه الدراسة بالتأكيد على نتائج عدة منها:

- إن المجتمع البحراني دأب على إحياء شعائر أهل البيت (ع) منذ بواكير التاريخ الإسلامي، وقد ساهم رسوخ التشيع في البحرين وعراقته على استمرار التقاليد الثقافية المرتبطة بأهل البيت الأمر الذي انعكس على التراث الأدبي والشعري، وتجلى بصورة واضحة في الأدب النثري والمصنفات العلمية التي خلفها علماء البحرين وأدباؤها.
- حفل التراث الشعبي البحراني بالعديد من الرموز والإشارات الدينية التي أفردت مساحة واسعة لشخصيات آهل البيت وهو ما انعكس في الأهازيج والألعاب الشعبية وغير ذلك من مظاهر الأدب الشعبي لأهل البحرين، وكان للسيدة الزهراء (ع) كما أوضح البحث حضور بارز لذكرها في هذا التراث الشعبي الخصب.
- إن شعراء البحرين وأدباءها شاركوا في إحداث نهضة أدبية اهتمت بشكل خاص بشعر المدح والرثاء لأهل البيت، فقد برع الشعراء في نظم تراث شعري هائل باللغة الفصيحة واللهجة الدارجة حفظته الأجيال وقُرأ ولا يزال يّردد الكثير منه على أعواد منابر سيد الشهداء، وكان لموضوع مكانة السيدة الزهراء ومقامها وظلامتها حصة كبرى من هذا الاهتمام الشعري.
- إن هناك حاجة وضرورة لإخراج التراث العلمي والأدبي البحراني المخطوط، وضرورة إنشاء مؤسسات علمية ترعى هذا التراث وتعمل على إخراجه بصورة حديثة وتخصيص الدراسات العلمية التي تعنى بهذا التراث وتحقيقه والعناية به.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر:

- ابن المجاور الشيباني (١٩٩٦): **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز**: القاهرة.
- بزرك الطهراني (١٩٨٣): **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، دار الأضواء، بيروت.
- جعفر المهاجر (٢٠١٠): **أعلام الشيعة**، دار المؤرخ العربي، بيروت.
- حبيب آل جميع وأحمد المرهون (١٩٩٨): **فهرس مخطوطات مكتبة آل عصفور**، دار حفظ التراث البحراني. قم المقدسة.
- حسن موسى الصفار (٢٠٠٦): **الأوقاف وتطوير الاستفادة منها**، أطياف للنشر والتوزيع. القطيف.

- **ديوان طرفه بن العبد** (٢٠٠٠): شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق ريه الخطيب ولطفي الصقال، إدارة الثقافة والفنون، البحرين.
- سالم النويدري (١٩٩٢): **أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين**، مؤسسة العارف، بيروت.
- سلمان رامس (٢٠٠٩): **صعصعة بن صوحان العبدي**، مؤسسة طيبة لإحياء التراث، قم المقدسة.
- سليمان بن عبدالله آل عصفور (٢٠٠١): **مصارع الشهداء ومقاتل السعداء**، تحقيق علي آل كوثر، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم المقدسة.
- عباس القمي (د. ت): **الفوائد الرضوية في أحوال علماء المذهب الجعفرية**، تحقيق ناصر باقري بيدهندي، مؤسسة باستان كتاب، قم المقدسة.
- عبد الجبار الرفاعي (١٣٧١هـ ش): **معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت**. الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران.
- عبدالله سيف (١٩٩٥): **المأتم في البحرين**، مؤسسة الأيام للطباعة والنشر، المنامة.
- عبدالعزيز الطباطبائي (د. ت): **أهل البيت في المكتبة العربية**، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المقدسة.
- عطية بن علي الجمري (٢٠٠٤): **الجمرات الودية في المودة الجمرية**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- عدنان الموسوي (٢٠٠٦): **سجل السيد عدنان الموسوي**، إدارة الأوقاف الجعفرية، النسخة الالكترونية.
- علوي الهاشمي (١٩٨٨): **شعراء البحرين المعاصرون**، المؤلف، البحرين.
- علي بن حسن البلادي (١٩٩٤): **أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والإحساء والبحرين**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- فارس تبريزيان (١٩٩٥): **العلامة السيد هاشم البحراني**، دار المعروف للطباعة والنشر، قم المقدسة.
- محسن الأمين العاملي (١٩٨٦): **أعيان الشيعة**، دار التعارف، بيروت.
- محمد علي التاجر (٢٠٠٩): **منتظم الدرين في تراجم علماء وأدباء الإحساء والقطيف والبحرين**، مؤسسة طيبة لإحياء التراث، بيروت.
- محمد حميد السلمان (٢٠١٢): **الببليوغرافيا الحسينية البحرينية**، المجلس الإسلامي العلمائي - مركز الامام الحسين للدراسات والبحوث، المنامة.
- محمد علي التاجر (١٩٩٤): **عقد اللآل في تاريخ أوال**، مؤسسة الأيام للطباعة والنشر، المنامة.
- محمد بن علي بن الحسين الصدوق (١٩٨٤): **عيون أخبار الرضا**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- **منبر الأوقاف**، دورية تصدر عن إدارة الأوقاف الجعفرية، العدد الثالث، يوليو ٢٠٠٧.
- مي محمد الخليفة (١٩٩٩): **محمد بن خليفة الأسطورة والتاريخ الموازي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- نبيلة إبراهيم (د. ت): **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
- يوسف بن أحمد آل عصفور (٢٠٠٦): **الدرة الغرّاء في شرح خطبة الزهراء**، تحقيق محمد عيسى آل مكباس، دار العصمة، المنامة.

يوسف بن أحمد آل عصفور (١٩٨٦): **لؤلؤة البحرين**، تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم، ط ٢، دار الأضواء، بيروت. ❖

توثيق شعر السيّدة فاطمة الزهراء (ع) (ت١١هـ)

د. عادل لعيبي سلمان الربيعي
الكلية الإسلامية الجامعة – النجف الأشرف

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على النبيّ الأمين محمّد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين.

إنّ هناك كثيراً من الأبيات الشعرية نسبت للزهراء (عليها السلام) بطرق عدّة، منها ما يكون مسموعاً مباشرة منها (عليها السلام)، ومنها بطريق النقل، ومنها بطريق الرؤيا، أو بطريق الحدس والظن.

وقد أبعد الباحث جملة من الاشعار المنسوبة للزهراء (عليها السلام)، التي لا تتضمن المقاييس العلميّة، والضوابط التوثيقيّة المعتمدة في نسبة الشعر إلى قائله، كما سيتضح ذلك في خطة البحث.

إنّ خطة البحث مؤلّفة من مرحلتين:

الأولى: مرحلة الجمع، وتعدّ هذه المرحلة - في تسلسل العمل الميداني - المرحلة الأولى في البحث، إذ قام الباحث بجمع الأبيات الشعرية المنسوبة لها (عليها السلام) من دون تدقيق وتوثيق، بل كلّ ما يحتمل أنها قالته أو نسب إليها من شعر كان من حصة هذه المرحلة.

ومن خلال القراءة المتأنية، والملاحظة الفاحصة، والتأمل الدقيق، يمكن تقسيم شعر هذه المرحلة إلى:

١- شعر الرؤيا.
٢- الشعر المنسوب بطريق الحدس.

وقد أبعد الباحث هذين القسمين:

أمّا شعر الرؤيا: فإنّ الرؤيا الصادقة وان كانت من المبشّرات، كما ورد ذلك في الأحاديث[1]، إلاّ انه لا يمكن الأخذ به في مقام النسبة: إذ لا بدّ من إثبات كون هذه الرؤيا صادقة، وإنّها ليست أضغاث أحلام، أو من حديث النفس أو غير ذلك، مما يسبب اشتباه الرائي.

لذلك لا يؤخذ بالرؤيا في مقام تشريع الأحكام، حتى لو كانت من المبشّرات، مضافا إلى إنّ فتح مثل هذه الأبواب خطير على المسيرة العلميّة.

وأمّا الشعر المنسوب بطريق الحدس والظّن، فانّ كانت النسبة قائمة على اسس علمية، كوجود قرائن قويّة يحصل الاطمئنان اليها، فيؤخذ بها وتندرج تحت الشعر المحقق والموثق، والاّ فلا يؤخذ بها ولا يدرجها الباحث ضمن هذا الشعر.

وقد جعل الباحث هذين القسمين ضمن المبحث الاول.

وامّا ما تبقى من شعر فقد كان من نصيب المرحلة الثانية.

الثانية: مرحلة التوثيق، وهي المرحلة الثانية من العمل الميداني للباحث بعد مرحلة الجمع، وفيها قام الباحث بالتحقق من نسبة الشعر إلى قائله وفق الضابطين الاتيين:

١. **معيار الزمن**، فيؤخذ بالاسبق زمنا، فينسب الشعر إلى قائله بحسب أقدمية المصدر وروده فيه، اذا لم توجد قرائن تدلّ على خلاف ذلك: إذ الغموض ينشأ من ابتعادنا عن عصر النص وصدوره، وبناء على هذا الضابط: يقدم كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) في نسبة الشعر على كتاب العمدة لابن رشيق(ت٤٦٣هـ).

٢. **معيار التواتر**، فهو يستلزم صدور الشعر ممن نسب إليه.

وبناء على المقياسين المذكورين: تبيّن أنّ هناك ثلاثة أقسام:

١. الشعر المنسوب إليها (عليها السلام) وإلى غيرها والصواب أنه لغيرها.

٢. الشعر المنسوب إليها (عليها السلام) وإلى غيرها، والصواب أنه لها عليها السلام.

٣. الشعر المنسوب إليها (عليها السلام)، ولم يشاركها في نسبته إليها أحد.

وقد أدرج الباحث القسم الأول في المبحث الثاني، والقسم الثاني والثالث في المبحث الثالث.

وقد جعل الباحث لكل قصيدة من قصائدها أو مقطعة أو نتفة أو يتيم رقماً مستقلاً، ولكل بيت رقماً يشير إلى مرتبته في القصيدة أو المقطعة.

المبحث الأول

ذكر الشاعر ابن عنين[٢] أنه نظّم قصيدة حرّض فيها صاحب اليمن[٣] على بعض الأشراف الذين سلبوه مالاً وأقمشة كانت معه قال فيها:

طَهِّـر بِسَيْفِكَ بيتَ اللهِ مِـن دَنَـسٍ	**وَمِـن خَسَاسَةِ أقْـوَامٍ بِـهِ وخَنَـا**
وَلا تَقُـل إنَّهُـم أولادُ فَاطِمَـةَ	**لَـو أدرَكُوا آلَ حَـرب حَارَبُوا الحَسَنَا**

فلما انتهى من قصيدته رأى في الرؤيا فاطمة الزهراء (عليها السلام) وهي تطوف بالبيت، فسلّم عليها فلم تجبه، فتضرع وتذلل وسأل عن ذنبه الذي أوجب عدم جواب سلامه! فأنشدته (عليها السلام):

حَاشَا بَنِي فَاطِمَةَ كلّهم	**مِـن خِسةٍ تعرض أو مِـن خَنَـا**
وَ إنمَـا الأيَـامُ فِـي غَدرِهَـا	**وَفعلِهَـا السّوء أسَاءت بِنَـا**
أ إن أسَا مِـن ولـدِي وَاحِـد	**جَعلـتَ كُـلَّ السَّبِ عَمـداً لنَـا**

فـتُب إلى اللهِ فمَـن يقـترِف ... ذَنبـاً بنَـا يُغفَـر لَـهُ مَـا جَـنَى

وَ أكـرِم بعـينِ المُـصطفَى جـدُهم ... و لا تهـن مـن آلـه اعينـاً

فكـلُ مَـا نَالَـكَ مِـنهُم عَنـاً ... تَلقَـى بِـهِ فِـي الحَـشرِ مِنـا هنـاَ

قال ابن عنين: فانتبهت من منامي فزعاً مرعوباً...فكتبت هذه الأبيات وحفظتها وتبت إلى الله سبحانه وتعالى مما قلت وقطعت تلك القصيدة وقلت:

عُـذراً إلى بِنـتِ نَـبي الهُـدَى ... تـصفَح عَـن ذَنـبِ مُـسِيء جَنَـى

إلى آخر كلامه[٤].

فإنّ ابن عنين ينقل شعرا سمعه من الزهراء (عليها السلام) في منامه، على القافية نفسها التي نظّم قصيدته عليها.

ومن ذلك، رؤيا السيد حيدر الحلي لفاطمة الزهراء (عليها السلام) في المنام تقول:

أنـاعِي قَتلَـى الطَّـفِ لا زِلـتَ نَاعِيَـا ... تهـيجُ عَلَـى طُـولِ اللَيَـالِي البَوَاكِيَـا

اعـد ذكـرهم في كـربلا إنّ ذكـرهم ... طـوى جزعـا طـيّ الـسجل فؤاديـا[٥]

ومن أمثلة ذلك أيضاً، إن زر النايحة رأت فاطمة (عليها السلام) فيما يرى النائم إنّها وقعت على قبر الحسين (عليه السلام) تبكي وأمرتها أن تنشد:

ايُهَـا العَينَـانِ فِيـضَا ... وَاسـتَهِلا لا تَغِيـضَا

وَابكِيَـا بِـالطفِ مَيتَـا ... تَـرَكَ الـصَّدرَ رَضِيـضَا

لَـم امرضـهُ قَتـيلا ... لا وَلا كَـانَ مَرِيـضَا "[٦]

ومن هذا القبيل أيضاً، ما رواه صاحب ديوان أنوار العقول "إنّ محمّد الرضا بن القاسم رأى في منامه فاطمة (عليها السلام) تقول:

بـابِي المقتـولِ غمّـا بالظمَـا ... مَـا لَـهُ رَيّ سـوَى فَـيضِ الـدِمَا

منَعُـوا قُـرّةَ عَينِـي ورده ... عَجَبَـا مهـرِي عَليـهِ حرمَـا"[٧]

ومن هذا القبيل - في خبر طويل - نسبة الأبيات الآتية:

ابكنِـي إن بكيـتَ يَـا خَيـرَ هَـاد ... وَاسـبلِ الـدمعَ فهُـوَ يـومُ الفـرَاقِ

يَـا قَـرينَ البتُـولِ أوصِيك بالحـسنَينِ ... فَقَـد اصـبَحَا حـليفَ اشتـياقِ

ابكـني وَابـكِ لليتـامَى وَلا تنـ ... ـسَ قتيـلَ العِـدَى بطـفِ العـرَاقِ

فـارقُوا فأصـبَحُوا يتـامَى حيـارَى ... يخلـفُ اللهُ فَـهُوَ يـومُ الفـرَاقِ[٨]

فإنّ العلامة المجلسي يقول في بداية هذا الخبر: "أقول: وجدت في بعض الكتب خبراً في وفاتها - أي الزهراء (عليها السلام) - فأحببت إيراده وإن لم آخذه من أصل يعول عليه، روى ورقة بن عبد الله الأزدي..."[٩].

المبحث الثاني

فقد نسب إلى الزهراء (عليها السلام) أنها قالت[١٠] - من الطويل -:

إذا ماتَ قرمٌ قلّ واللّهِ ذكرُهُ	وَذكرُ أبي مُذ ماتَ واللّهِ أزيدُ
تذكّرتُ لمّا فرّق الموتُ بيننا	فعزّيتُ نفسي بالنبيِّ محمّد
فقُلتُ لها إنّ المَماتَ سبيلُنا	ومَن لَم يَمُت في يومِهِ ماتَ في غدِ

التخريج والتوثيق:

نسبها ابن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ)[١١] إلى الزهراء عليها السلام.

ونسب الخطيب البغدادي(ت٤٦٣هـ)[١٢]، وابن ظافر الأزدي (ت٦١٣هـ)[١٣]، والصفدي(ت٧٦٤هـ)[١٤]، وابن تغري(ت٨٧٤هـ)[١٥]، البيت الثاني للمتوكل.

وذكر الخطيب البغدادي(ت٤٦٣هـ)[١٦]، وابن ظافر الأزدي (ت٦١٢هـ)[١٧]، وابن تغري (ت٨٧٤هـ)[١٨]، البيت الثالث، والصالحي الشامي(ت٩٤٢هـ)[١٩] البيت ٢، ٣، من دون نسبة.

والبيت الأول للزهراء (عليها السلام) : لانفرادها به، ولم يشاركها (عليها السلام) فيه احد، والبيتان الثاني والثالث وردا بالكسر، أمّا البيت الأول فقد ورد بالرفع، وهذا يدلّ على إنّ ناظم البيت الأول غير ناظم البيت الثاني والثالث وإن اتحدا في الوزن والقافية: لذا فالبيت الثاني والثالث للمتوكل، أمّا الثاني: فاعتماداً على معيار السبق الزمني، وأمّا الثالث: فلعدم وجود الإقواء بينهما بخلاف البيت الأول.

وفي رواية[٢٠]:

إذا ماتَ قرمٌ قلّ واللّهِ ذكرُهُ	وَذكرُ أبي مُذ ماتَ واللّهِ أكثرُ

ونسبه الخزاز القمي (ت٤٠٠هـ)[٢١] إلى الزهراء (عليها السلام)، ولم يشاركها (عليها السلام) فيه أحد.

ونسب إلى الزهراء (عليها السلام) أنها قالت[٢٢]- من الرجز -:

حُزقةٌ حُزقةُ

ترقَّ عين بقّه

التخريج والتوثيق:

نسبهما ابن أبي شيبة الكوفي(ت٢٣٥هـ)[٢٣]، ومحمد بن سليمان الكوفي(ت٣٠٠هـ)[٢٤]، والطبراني(ت٣٦٠هـ)[٢٥]، والخزاز القمي(ت٤٠٠هـ)[٢٦]، وابن عبد البر(ت٤٦٣هـ)[٢٧]، والزمخشري(ت٥٣٨هـ)[٢٨]، وابن عساكر(ت٥٧١هـ)[٢٩]، وابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[٣٠]، وابن الأثير(ت٦٠٦هـ)[٣١]، وابن أبي الحديد(ت٦٥٦هـ)[٣٢]، ورضي الدين الأسترابادي(ت٦٨٦هـ)[٣٣]، وأحمد بن عبد الله الطبري(ت٦٩٤هـ)[٣٤]، والبري(من أعلام القرن ٧هـ)[٣٥]، والهيثمي(ت٨٠٧هـ)[٣٦]، والمقريزي(ت٨٤٥هـ)[٣٧]، وعلي بن يونس العاملي(ت٨٧٧هـ)[٣٨]، والصالحي الشامي(ت٩٤٢هـ)[٣٩] للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والصحيح أن هذين الشطرين من الكلام الموزون ولا يريد به القائل شعراً، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يقدر على قول الشعر.

ونسبهما ابن خلاد الرامهرمزي(ت٥٧٦هـ)[٤٠] إلى أمير المؤمنين (ع).

وذكرهما الجوهري(ت٣٩٣هـ)[٤١]، والفيروز آبادي(ت٨١٧هـ)[٤٢]، من دون نسبة.

ونسب إلى الزهراء (عليها السلام) أنها قالت[٤٣]- من الكامل -:

امسَى بخَدّي لِلدُمُوعِ رُسُومُ ... أسَفَا عَلَيكَ وَفي الفُؤادِ كُلُومُ

وَالصَبْرُ يَحسنُ في المَواطِن كُلِّهَا ... إلاّ عَلَيكَ فَإنّه مَذمُومُ

لا عَتبَ فِي حُزنِي عَلَيكَ لَو انّه ... كَانَ البُكَاءُ لُمقلَتِي يَدُومُ

التخريج والتوثيق:

نسب البيت١، ٢ إلى العتبي(ت٢٢٨هـ): المبرد(ت٢٨٦هـ)[٤٤]، والآمدي (ت٣٧٠هـ)[٤٥]، والقاضي الجرجاني(ت٣٩٢هـ)[٤٦]، وأبو حيان التوحيدي(ت٤٠٠هـ)[٤٧]، وابن حمدون(ت٥٦٢هـ)[٤٨]، والحافظ اليغموري(ت٦٧٣هـ)[٤٩]، وابن خلكان(ت٦٨١هـ)[٥٠]، والصفدي(ت٧٦٤هـ)[٥١]، وعبد الله اليافعي(ت٧٦٨هـ)[٥٢]، وابن تغري(ت٨٧٤هـ)[٥٣].

ونسب البيت١، ٢ إلى سمنون المحب(ت٢٩٧هـ): ابن عساكر(ت٥٧١هـ)[٥٤].

وذكر ابن أبي الحديد(ت٦٥٦هـ)[٥٥] البيت ١، ٢، والقزويني(ت٧٣٩هـ)[٥٦]، والصالحي(ت٩٤٢هـ)[٥٧]، والعباسي(ت٩٦٣هـ)[٥٨]، البيت الثاني فقط من دون نسبة.

والأبيات للعتبي؛ اعتماداً على معيار السبق الزمني، وتواتر الشهادات، ولا يوجد مصدر ينسبها للزهراء (عليها السلام).

المبحث الثالث

قافية الهمزة

[١][٥٩]

ـ الخفيف ـ

١. قلَّ صَبري وبَانَ عنّي عزائي ... بعدَ فَقدي لخَاتمِ الأنبيَاءِ
٢. عينُ يا عينُ اسكُبي الدّمعَ سحًا ... وَيلكِ لا تبخَلي بفيضِ الدمَاءِ
٣. يا رسولَ الإلهِ يا خيرةَ اللهِ ... وَكهفَ الأيتَامِ والضعفَاءِ
٤. قد بكَتكَ السماءُ وَالوحشُ جمعًا ... والطيرُ والأرضُ بعدَ بُكيّ السمَاءِ[٦٠]
٥. وبكَاكَ الحُجُونُ وَالرُكنُ وَالمشـ ... ـعرُ يَا سيّدي معَ البطحَاءِ
٦. وَبكَاكَ المحرابُ والدرّسُ للقـ ... ـرآن في الصُبحِ مُعلنًا والمسَاءِ
٧. وبكَاكَ الإسلام إذ صارَ في ... النَاسِ غريبًا من سَائرِ الغربَاءِ
٨. لو ترَى المنبرَ الذي كُنتَ تعلُوهُ ... عَلاهُ الظلامُ بعدَ الضيَاءِ
٩. يا الَهي عجّل وَفاتي سريعًا ... فَلَقَد تنغصتِ الحيوةُ يَا مولائي[٦١]

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزّهراء (عليها السلام): الكفعمي(ت٩٠٥هـ)[٦٢]، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها أحد.

قافية الباء

[٢][٦٣]

ـ البسيط ـ

١. وَكلُّ قَومٍ لَهُم قُربَى ومنزلةٌ ... الإلهِ وَللأدنينَ مُقتربُ
٢. أبدَت رجَالٌ لَنَا فَحوَى صدورهِم ... لَمَّا مَضيتَ وَحَالَت دُونكَ التُربُ
٣. تَجهّمَنَا رجَالٌ وَاستُخفَ بنَا ... لَمَّا فُقدتَ وكلُّ الإرثِ مُغتَصَبُ
٤. فَليتَ قبلكَ كانَ الموتُ صادفنَا ... لَمَّا نُعيتَ وَحَالَت دُونكَ التُربُ
٥. إنَا رُزئنَا بمَا لَم يُرزَ ذُو شَجَنٍ ... منَ البريَةِ لا عَجَمٌ وَلا عَرَبُ
٦. سَيَعلمُ المُتولّي ظُلمَ جانبنَا ... يومَ القيَامَةِ أنّي كُنتُ أنقلبُ

٧. فأنــتَ واللهِ خــيرُ الخلــقِ كلِّهِــمُ ... وَأصــدَقُ النــاسِ حَيــثُ الــصدق وَالكَــذبُ

٨. ضَــاقَت علــيَّ بــلاد بعــدَمَا رَحُبَــت ... وَ ســيمَ ســبطَاكَ خــسفًا فيــه لِــي نــصبُ

٩. فَــسوفَ نبكِيــكَ مَــا عــشنَا وَمَــا بَقيَّــت ... لَنَــا العيــونُ بتهمَــال لَــهُ سُكُــبُ

١٠.وَ قــد رُزينــا بــهِ محــضا خليقتــه ... صــافِي الــضرائب والأعــراق والنــسبُ

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزّهـراء (عليهـا السلام): ابـن داود الأصـفهاني(ت٢٩٧هـ)[٦٤]، وابـن عبـد ربه(ت٣٢٨هـ)[٦٥]، ومحمّد بـن جريـر الطـبري(الـشيعي)[٦٦] (مـن أعـلام ق٤هـ)[٦٧]، والـشيخ الطبرسي(ت٥٤٨هـ)[٦٨]، وابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[٦٩]، والاربلي(ت٦٩٢هـ)[٧٠].

ونسب إلى الزهراء (عليها السلام) أنها قالت[٧١] - البسيط -:

قَــد كــانَ بَعــدكَ انبــاءٌ وهنبثــةٌ ... لَــو كُنــتَ شــاهدَها لَــم تكثــر الخطــبَ

إنّــا فَقَــدناكَ فَقــدَ الأرضِ وابلهــا ... وَ اختــلَ قومُــك فأشهدهــم ولا تغــب

وَكــلُّ قَــومٍ لَهُــم قُربَــى ومنزلــةٌ ... الإلـــهِ وَلــلأدنيـــنَ مُقتـــربُ

أبــدَت رجَــالٌ لَنَــا فَحــوَى صدورهِــم ... لَمَّــا مَــضيتَ وَحَالَــت دُونــكَ التُّــربُ

تَجهَمَنَــا رجَــالٌ وَاستُخــفَ بنَــا ... لَمَّــا فُقــدتَ وكــلُّ الإرثِ مُغتَــصَبُ

وَكُنــتَ بــدرًا ونُــورًا يُستــضَاءُ بِــهِ ... عَليــكَ تَنــزَّلُ مِــن ذِي العــزّةِ الكُتــبُ

وَكــانَ جبريــلُ روحُ القُــدسِ زَائِرُنَــا ... فغــابَ عنَّــا وكــلُّ الخيــرِ مُحتجــبُ

فَلَيــتَ قبلــكَ كــانَ المــوتُ صادفنَــا ... لَمَّــا نُعيــتَ وَحَالَــت دُونــكَ التُّــربُ

إنَّــا رُزئنَــا بمَــا لَــم يُــرزَ ذُو شَجَــن ... مِــن البــريَّةِ لا عَجَــم وَلا عَــرَبُ

ســيعلمُ المُتولّــي ظُلــمَ جانبنَــا ... يــومَ القيَامَــهِ انّــي كُنــتُ أنقلــبُ

فَأنــتَ واللهِ خَــيرُ الخلــقِ كلِّهِــمُ ... وَأصــدَقُ النــاسِ حَيــثُ الــصدق وَالكَــذبُ

ضَــاقَت علــيَّ بــلاد بعــدَمَا رَحُبَــت ... وَسَــيمَ ســبطَاكَ خــسفًا فيــه لِــي نــصبُ

فَــسوفَ نبكِيــكَ مَــا عــشنَا وَمَــا بَقيَّــت ... لَنَــا العيــونُ بتهمَــال لَــهُ سُكُــبُ

وَقَــد رُزينــا بــهِ محــضا خليقتــه ... صــافِي الــضرائب والأعــراق والنــسبُ

اختلفت المصادر في روايتها[٧٢].

ونسبها إلى الزهـراء (عليهـا السلام): ابـن قتيبـة(ت٢٧٦هـ)[٧٣] البيـت ١، ٢، وابـن داود الأصفهاني(ت٢٩٧هـ)[٧٤] البيت ١، ٢، ٤، ٥، ١٠، وابن عبد ربه(ت٣٢٨هـ)[٧٥] البيـت ٢، ٨،

والشيخ الكليني(ت٣٢٩هـ)[٧٦] البيت ١، ٢، وعلي بن إبراهيم القمي(ت ٣٢٩هـ)[٧٧] الأبيات كاملة، والقاضي النعمان المغربي(ت٣٦٣هـ)[٧٨] البيت ١، ٢، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، وابن طيفور(ت٣٨٠هـ)[٧٩] البيت ١، ٢، وابن مردويه الأصفهاني(ت٤١٠هـ)[٨٠] البيت ١، ٢، والشيخ المفيد(ت٤١٣هـ)[٨١] البيت ١، ٢، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٢، والشريف المرتضى(ت٤٣٦هـ)[٨٢] الأبيات: ١، ٢، والزمخشري(ت٥٣٨هـ)[٨٣] الأبيات ١، ٢، والشيخ الطبرسي(ت٥٤٨هـ)[٨٤] الأبيات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ١٣، وابن حمدون(ت٥٦٢هـ)[٨٥] البيت ١، ٢، وابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[٨٦] الأبيات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ١٠، وابن الأثير(ت٦٠٦هـ)[٨٧] البيت ١، ٢، وابن أبي الحديد(ت٦٥٦هـ)[٨٨] الأبيات ١، ٢، ٨، ١٣، وابن طاوس(ت٦٦٤هـ)[٨٩] البيت ١، ٢، وابن منظور(ت٧١١هـ)[٩٠] البيت ١، ٢، والنويري(ت٧٣٣هـ)[٩١] البيت ٢، ٨، وابن الدمشقي(ت٨٧١هـ)[٩٢] البيت ١، ٢.

ونسب ابن سعد(ت٢٣٠هـ)[٩٣]، والمقريزي(ت٨٤٥هـ)[٩٤]، الأبيات ١، ٢، ٦، ٧ إلى هند بنت أثاثة(ت١٠هـ).

ونسب محدثون عدّة(ت ق٢هـ)[٩٥] البيت ١، ٢ إلى هند - أي بنت اثاثة -.

ونسب ابن حاتم العاملي(ت٦٦٤هـ)[٩٦] الأبيات ١، ٢، ٤، ٥، ٦، ٧، ٩، ١٣، إلى هند بنت إبانة – وهو تصحيف اثاثة[٩٧] -، وانّ الزهراء (عليها السلام) تمثّلت بها.

ونسب الأربلي(ت٦٩٣هـ)[٩٨] الأبيات ١، ٢، ٤، ٥، ٨، ١٢ إلى هند بنت اثاثة وانّ الزهراء (عليها السلام) تمثّلت بها.

ونسب ابن أبي شيبة الكوفي(ت٢٣٥هـ)[٩٩]، والهيثمي(ت٨٠٧هـ)[١٠٠]، وابن حجر(ت٨٥٢هـ)[١٠١]، البيت الأول فقط لصفية بنت عبد المطلب(ت٢٠هـ).

ونسب محمّد بن جرير الطبري(الشيعي)[١٠٢] (من أعلام ق٤هـ)[١٠٣] البيت ١، ٢، ٤، ٦، ٧ لصفية بنت عبد المطلب وأنّ الزهراء (عليها السلام) تمثّلت بها.

ونسب الحسن بن سليمان الحلي(من أعلام ق ٩هـ)[١٠٤] البيت ١، ٢، ٣، ٤ إلى رقية بنت صفي[١٠٥] وان الزهراء (عليها السلام) تمثلت بها، ولانفراده وتأخره الزمني: لا نعتمد على شهادته.

والبيت١، ٢، ٦، ٧ ليس للزهراء (عليها السلام) : لأنّ المعيار الزمني بمجموعه يقضي بنسبة البيتين لهند بنت أثاثة أو لصفية بنت عبد المطلب : اعتماداً على شهادة ابن سعد وابن أبي شيبة الكوفي، بل صرّح بعضهم أنّ الزهراء (عليها السلام) تمثّلت بها، وللتقارب الزمني بين المذكورين؛ قد يقال بعدم إمكان ترجيح نسبة الأبيات لهند أو لصفية، ولكن هذا يجري في نسبة البيت الأول فقط، أمّا البقية - أي ٢، ٦، ٧ - فهي لهند بنت أثاثة: للسبق الزمني.

والأبيات البقية للزهراء (عليها السلام) : للسبق الزمني، وتواتر الشهادات وتنوّعها، فتكون (عليها السلام) ضمّنت البيتين ١، ٢ واقتبستهما في أبياتها، يؤيّده وجود الإقواء فيهما.

[٣][١٠٦]

ـ الطويل ـ

١. إذا اشتدَّ شَوقِي زرتُ قبركَ باكِيَا ... أنوحُ وأشكُو لا أراكَ مُجَاوِبِي

٢. فَيَا سَاكنَ الصَّحراءِ علَّمتَنِي البُكَا ... وَ ذكرُكَ أنسانِي جميعَ المَصَائبِ

٣. فإن كُنتَ عنِّي فِي الترابِ مُغيَّبا ... فمَا كُنتَ عَن قلبِي الحزِينِ بغائِبِ

التخريج والتوثيق:

- انفرد بها الديوان، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها أحد.

قافية التاء

[٤][١٠٧]

ـ الطويل ـ

١. نَعت نفسكَ الدنيَا إلينَا وَأسرَعَت ... وَنَادَت ألا جدَّ الرحيلُ وَودَّعَت

التخريج والتوثيق:

نسبه ابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[١٠٨] إلى الزّهراء (عليها السلام)، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها أحد.

قافية الحاء

[٥][١٠٩]

ـ الكامل ـ

١. قَد كُنتَ جارَ حميّتِي مَا عشت لِي ... وَاليومَ بعدَكَ مَن يريشُ جنَاحِي

٢. فاليوم أخضعُ للذليلِ وأتقِي ... ذلّي وأدفعُ ظالِمِي بالرَّاحِ

٣. وَإذَا بكَت قمريّة شَجنًا لَهَا ... لَيلا عَلَى غُصنٍ بكيتُ صبَاحِي

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزّهراء (عليها السلام): ابن داود الأصفهاني(ت٢٩٧هـ)[١١٠]، والأربلي(ت٦٩٢هـ)[١١١]. واختلفت المصادر في روايتها[١١٢].

ونسب إلى الزهراء (عليها السلام) أنها قالت[١١٣] ـ الكامل ـ:

قَد كُنتَ لِي جبَلاً ألُوذُ بظلّهِ ... فَاليوم تُسلمني لاجردَ ضَاحِ

قَد كُنتَ جارَ حميّتِي مَا عشت لِي ... وَاليوم بعدَكَ مَن يريشُ جنَاحِي

و اغــضُّ مِــن طرفِــي وأعلــمُ أنّــه / قَــد مــاتَ خــيرُ فَوارسِــي وسِــلاحِي

حَــضَرَت مَنيّتُــهُ فَأسـلمَني العــزا / وَ تَمكّنَــت ريــبُ المَنــونِ جرَاحِــي

نَــشَرَ الغــرابُ علــيَّ ريــشَ جنَاحــهِ / فظَلَلــتُ بيــنَ سيوفــهِ ورمَــاحِ

إنّــي لأعجــبُ مَــن يــروحُ ويَغتــدِي / وَالمــوتُ بيــنَ بكــورهِ ورواحِ

فَــاليومَ أخــضعُ للذليــلِ واتّقِــي / ذلّــي وأدفــعُ ظالِمــي بالــرَّاحِ

و إذَا بكَــت قمريَــة شَجنَــا لَهَــا / لَــيلا عَلَــى غُــصنٍ بكيــتُ صَبَاحِي

فَاللّــهُ صــبَّرَنِي عَلَــى مَــا حــلَّ بِــي / مَــاتَ الــنبيُّ قَــدِ انطَفَــى مِـصباحِي

يَــا عَــينُ ابكِــي عنــدَ كــلِّ صــبَاح / جــودِي بِأربعــةٍ عَلَــى الجِــرَاحِ

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزهراء (عليها السلام): ابن داود الأصفهاني(ت٢٩٧هـ) [١١٤] البيت ٢، ٧، ٨، وابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[١١٥] البيت ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، والعاملي(ت٦٦٤هـ) [١١٦] البيت ٢، ٧، ٨، والاربلي(ت٦٩٢هـ)[١١٧] البيت ٢، ٣، ٧، ٨، ١٠ بلفظ التمثّل.

والأبيات ١، ٢، ٣، ٧، ٨، ١٠ في شعر فاطمة بنت الأجحم[١١٨].

ونسب القالي(ت٣٥٦هـ) [١١٩] الأبيات ١، ٢، ٣، ٧، ٨، والمرزوقي(ت٤٢١هـ) [١٢٠] الأبيات ١، ٢، ٣، ٧، ٨، ١٠، وابن حمدون(ت٥٦٢هـ) [١٢١] الأبيات ١، ٢، ٣، ٧، والجراوي(ت٦٠٩هـ)[١٢٢] الأبيات١، ٢، ٧، ٨، والبصري(ت٦٥٩هـ)[١٢٣] الأبيات ١، ٢، ٣، ٧، ٨، ١٠، لفاطمة بنت الأجحم.

ونسب ابن سيّد الناس محمّد بن عبد الله بن يحيى(ت٧٣٤هـ) [١٢٤] البيت ١، ٢، ٧، ٨ لفاطمة بنت الأجحم وأنّ الزهراء (عليها السلام) تمثلت بها.

ونسب القاضي النعمان المغربي(ت٣٦٣هـ) [١٢٥] الأبيات ١، ٢، ٧، والمزي(ت٧٤٢هـ) [١٢٦] الأبيات ١، ٢، ٧، ٨، إلى أسماء بنت عميس(ت٤٠هـ)

والأبيات ٢، ٧، ٨ للزهراء عليها السلام: اعتماداً على معيار السبق الزمني، والبقية لفاطمة بنت الأجحم ؛ للعلّة نفسها، وسبب الاشتباه الحاصل في نسبة الأبيات إلى فاطمة الزهراء (عليها السلام) وفاطمة بنت الأجحم : هو التشابه الاسمي بينهما، وتضمين فاطمة بنت الأجحم أبيات الزهراء (عليها السلام) في أبياتها.

قافية الدال

[٦][١٢٧]

- الطويل -

١. إذا مــاتَ قــرمٌ قــلّ واللّــهِ ذكــرُهُ / وَ ذكــرُ أَبِــي مُــذ مــاتَ واللّــهِ ازيــدُ

التخريج والتوثيق:

نسبه ابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ) [١٢٨] إلى الزّهراء (عليها السلام)، وفي رواية[١٢٩]:

إذا مـــاتَ قـــرمٌ قـــلّ واللّـــهِ ذكـــرُهُ　　　وذكـــرُ أبـــي مُـــذ مـــاتَ واللّـــهِ أكثـــرُ

ونسبه الخزاز القمي (ت٤٠٠هـ)[١٣٠] إلى الزهراء (عليها السلام)، ولم يشاركها (عليها السلام) فيه أحد.

[٧] [١٣١]

- الخفيف -

١. إنَّ حزنِـــي عَليـــكَ حـــزن جَديـــدُ　　　وَفــــؤادِي واللهِ صــــبٌ عَنيــــدُ

٢. كــلَّ يــوم يَزيــدُ فِيــهِ شجُونِــي　　　وَاكتئــابِي عَليــكَ لــيسَ يَبِيــدُ

٣. جــلّ خطبِــي فبَــانَ عَنّــي عَزائِــي　　　فبُكَــائِي فِــي كــلّ وَقــت جَدِيــدُ

٤. إنَّ قلبَــا عَليــكَ يألــفُ صبــرَا　　　أو عـــــزَاءً فإنّــــهُ لَجَليــــدُ

التخريج والتوثيق:

- انفرد بها الديوان، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها أحد.

قافية العين

[٨] [١٣٢]

- الرجز -

١. امــرُكَ يــا ابــنَ عــمّ سمــعٌ وَطاعَــه

٢. مــا بــي مِــن لُــؤمٍ ولا ضَــراعَه

٣. غُــذِيتُ مِــن خبــزٍ لَــهُ صِناعَــه

٤. أطعمــــهُ ولا أُبالِــــي الــــساعَه

٥. أرجُـــو إذا أشــبعتُ ذا مَجاعَــــه

٦. ان ألحـــقَ الأخيـــارَ وَالجَماعـــه

٧. وَأدخـــلَ الخلـــدَ ولِـــي شفاعَـــه

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزّهراء (عليها السلام): محمّد بن سليمان الكوفي(ت ٣٠٠هـ) [١٣٣]، والشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)[١٣٤]، والنيسابوري(ت٥٠٨هـ)[١٣٥]، والموفق الخوارزمي(ت٥٦٨هـ)[١٣٦]، وابن

شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[١٣٧]، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها احد، واختلفت المصادر في روايتها[١٣٨].

[٩][١٣٩]

- الرجز -

١. لَـم يَبـقَ ممّـا جئـتُ غَـيرُ صَـاعِ
٢. قَـد دميـت كفّـي مَـعَ الـذرَاعِ
٣. ابنـايَ واللّـه مـنَ الجيَـاعِ
٤. أَبُوهمَـا للخـير ذُو اصـطِنَاعِ
٥. يَـصطنعُ المعـروفُ بِابتـدَاعِ
٦. عبـلُ الـذراعَينِ طويـل البَـاعِ
٧. وَمَـا عَلَـى رأسـيَ مـن قنَـاعِ
٨. إلا قنَـاع نـسجتُه مـن صَـاعِ
٩. يَـا ربِّ لا تَترُكهمَـا ضيَـاعِ

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزّهراء (عليها السلام): محمّد بن سليمان الكوفي(ت ٣٠٠هـ)[١٤٠]، والشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)[١٤١]، والنيسابوري(ت٥٠٨هـ)[١٤٢]، والموفق الخوارزمي(ت٥٦٨هـ)[١٤٣] كاملة عدا البيت ٩، وابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[١٤٤]، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها أحد. واختلفت المصادر في روايتها[١٤٥].

قافية اللام

[١٠][١٤٦]

- الرجز -

١. إنّـي لأعطيـهِ ولا أبالـي
٢. وأوثـرُ اللَـه علـى عيالـي
٣. أمسَوا جِياعـاً وَهـم أشـبالي
٤. أصـغرهُما يُقتـلُ في القتـالِ
٥. بكـربلا يُقتـلُ باغتيـالِ

٦. لِلقاتـلِ الويـلُ مـع الوبـالِ

٧. تهـوي بـهِ النـارُ إلى سـفالِ

٨. مُـصفّد اليـدينِ بالأغـلالِ

٩. كبولـةٍ زادت علـى الأكبـالِ

التخريج والتوثيق:

نسبها الموفق الخوارزمي(ت٥٦٨هـ) (١٤٧) إلى الزّهراء (عليها السلام)، ولم يشاركها فيها أحد.

قافية النون

[١١] (١٤٨)

- مجزوء الرجز -

١. أشـبِه أبـاكَ يـا حَسَن

٢. وَ إخلَـع عَـنِ الحـقّ الرسَن

٣. وَ إعبُـد إلهـاً ذا مَنَن

٤. وَ لا تـوالِ ذا الأحَـن

التخريج والتوثيق:

نسبها ابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ) (١٤٩) إلى الزّهراء (عليها السلام)، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها أحد.

[١٢] (١٥٠)

- الكامل -

١. اغـبرّ آفـاقُ الـسّماءِ وكـوِّرت ... شمـسُ النهـارِ وأظلـم العـصرانِ

٢. فـالأرضُ مِـن بعـدِ الـنبيّ كئيبـةٌ ... أسـفاً عليـه كثيـرةُ الرجفـانِ

٣. فَلَيبكـهِ شـرقُ البـلادِ وغربُهـا ... وَ ليَبكـهِ مـضرٌ وكـلّ يَمانـي

٤. و ليَبكـهِ الطـور المعظّـمُ جـوّهُ ... وَ البيـتُ ذو الأسـتارِ والأركـانِ

٥. يـا خـاتم الرّسـلِ المبـارك ضـوؤه ... صـلّى عليـكَ منـزّل الفرقـانِ

٦. نَفـسي فـداؤكَ مـا لراسكَ مائـلا ... مـا وسّـدوك وسـادة الوسنـانِ

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزّهراء (عليها السلام) كاملة عدا البيت: الحصري القيرواني(ت٤٥٣هـ)[١٥١]، والجراوي (ت٦٠٩هـ)[١٥٢]، وابن سيّد الناس(ت٧٣٤هـ)[١٥٣]، وابن الصباغ(ت٨٥٥هـ)[١٤]، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها أحد.

قافية الهاء

[١٣][١٥٥]

- الرجز -

١. يَـــا أبتـــاهُ أجَـــابَ ربّـــاً دَعَـــاه

٢. يَـــا أبتـــاهُ إلى جنّـــةِ الفـــردوسِ مـــأواهُ

٣. يَـــا أبتـــاهُ إلى جبريـــل ننعَـــاهُ

٤. يَـــا أبتـــاهُ مِـــن ربّـــهِ مَـــا أدنَـــاهُ

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزّهراء (عليها السلام): سليمان بن داود الطيالسي(ت٢٠٤هـ)[١٥٦]، وابن سعد (ت٢٣٠هـ)[١٥٧]، وإسحاق بن راهويه(ت٢٣٨هـ)[١٥٨]، وعبد بن حميد بن نصر الكسي (ت٢٤٩هـ)[١٥٩]، وعبد الله بن بهرام الدارمي(ت٢٥٥هـ)[١٦٠]، والبخاري(ت٢٥٦هـ)[١٦١]، ومحمّد بن يزيد القزويني(ت٢٧٣هـ)[١٦٢]، وابن حبان(ت٣٥٤هـ)[١٦٣]، والطبراني (ت٣٦٠هـ)[١٦٤]، والحاكم النيسابوري(ت٤٠٥هـ)[١٦٥]، والبيهقي(ت٤٥٨هـ)[١٦٦]، والخطيب البغدادي(ت٤٦٣هـ)[١٦٧]، والطبرسي(ت٥٤٨هـ)[١٦٨]، وابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ)[١٦٩]، وعبد الله بن قدامة(ت٦٢٠هـ)[١٧٠]، ومحيى الدين النووي(ت٦٧٦هـ)[١٧١]، وعبد الرحمن بن قدامة(ت٦٨٢هـ)[١٧٢]، والعلامة الحلي(ت٧٢٦هـ)[١٧٣]، والذهبي(ت٧٤٨هـ)[١٧٤]، وابن كثير (ت٧٧٤هـ)[١٧٥]، والشهيد الأول محمّد بن جمال الدين المكي العاملي(ت٧٨٦هـ)[١٧٦]، والعيني (ت٨٥٥هـ)[١٧٧]، والصالحي الشامي(ت٩٤٢هـ)[١٧٨]، ولم يشاركها (عليها السلام) فيها احد.

قافية الياء

[١٤][١٧٩]

- الكامل -

١. قُـــل للمغيّـــب تحـــتَ أطبـــاقِ الثّـــرى ... إن كنـــتَ تـــسمعُ صَـــرخَتي ونِـــدائِيا

٢. صـــبّت عَلـــيَّ مَـــصائبٌ لـــو أنهـــا ... صُـــبّت عَلـــى الأيّـــام صِـــرنَ ليالِيـــا

٣. قَـد كنـتُ ذاتَ حِمـى بظـلّ محمّـد — لا أخشَ مِـن ضيمٍ وكان جماليـا

٤. فَـاليومَ أخـشعُ لِلذليـلِ وأتّقـي — ضَـيمي وَأدفـع ظالِمـي بِردائيـا

٥. فَـإذا بَكَـت قمريّـة فـي ليلهـا — شَـجناً عَلى غـصنٍ بكيتُ صـباحِيا

٦. فَلأجعلـنَ الحـزنَ بَعـدكَ مُؤنـسي — وَ لأجعلـنَّ الـدمعَ فيـك وِشاحيـا

٧. مـاذا عَلـى مَـن شـمَّ تُربـة أحمـدٍ — أن لا يـشمَّ مَـدى الزمـان غَواليـا

التخريج والتوثيق:

نسبها إلى الزهراء (عليها السلام): الفتال النيسابوري(ت٥٠٨هـ) [١٨٠] البيت ٢، ٧، وابن شهر آشوب(ت٥٨٨هـ) [١٨١]، وعبد الله بن قدامة(ت٦٢٠هـ)[١٨٢] البيت ٢، ٧، وعبد الرحمن بن قدامة(ت٦٨٢هـ) [١٨٣] البيت ٢، ٧، والعاملي(ت٦٦٤هـ)[١٨٤]، والمحقق الحلي(ت٦٧٦هـ) [١٨٥] البيت ٢، ٧، والذهبي(ت٧٤٨هـ) [١٨٦] البيت ٢، ٧، والزرندي الحنفي(ت٧٥٠هـ) [١٨٧] البيت ٢، ٧، والشهيد الأول محمّد بن جمال الدين المكي العاملي(ت٧٨٦هـ) [١٨٨] البيت ٢، ٧، وابن الصباغ(ت٨٥٥هـ) [١٨٩] البيت ٢، ٧، والصالحي الشامي(ت٩٤٢هـ) [١٩٠] البيت ٢، ٧.

ونسب المرزباني(ت٣٨٤هـ) [١٩١] البيت الثاني للباخرزي محمّد بن إبراهيم: فهو له اعتماداً على معيار السبق الزمني، ولا يستبعد أن يكون البيت للزهراء (عليها السلام) لما يأتي من تواتر الشهادات، والمناسبة والغرض.

ونسب ابن سلامة(ت٤٥٤هـ)[١٩٢] البيت ٢، ٧ إلى أمير المؤمنين(عليه السلام).

وتردد ابن سيّد الناس(ت٧٣٤هـ)[١٩٣] في نسبة البيت ٢، ٧ بين أمير المؤمنين(عليه السلام) والزهراء (عليها السلام): ولتردده وتأخره الزمني، لا يمكن الاعتماد على شهادته.

والأبيات كلها عدا ٢، ٧ للزهراء (عليها السلام): إذ لم يشاركها أحد فيها، ولتواتر الشهادات في نسبتها لها عليها السلام.

[١٥] [١٩٤]

- مجزوء الرجز -

١. إنّ بُـنيَّ شـبه النبـي

٢. لَـيس شـبيهاً بعلـي

التخريج والتوثيق:

نسبهما إلى الزّهراء (عليها السلام): مصعب الزبيري(ت٢٣٦هـ) [١٩٥]، ومحمّد بن حبيب البغدادي(ت٢٤٥هـ)[١٩٦]، وابن عبد ربه(ت٣٢٨هـ)[١٩٧]، وابن حجر(ت٨٥٢هـ)[١٩٨].

وتردد أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ) في نسبتهما، ففي موضع[١٩٩] نسبهما إليها (عليها السلام)، وفي موضع آخر[٢٠٠] نسبهما إلى أبي بكر، والتردد نفسه عند اليعقوبي(ت٢٨٤هـ)[٢٠١].

ونسبهما القاضي عياض(ت٥٤٤هـ)[٢٠٢]، وابن عساكر(ت٥٧١هـ)[٢٠٣]، وابن البطريق(ت٦٠٠هـ)[٢٠٤]، ومحمّد بن طلحة الشافعي(ت٦٥٢هـ)[٢٠٥]، والعاملي(ت٦٦٤هـ)[٢٠٦]، والأربلي(ت٦٩٣هـ)[٢٠٧]، وأحمد بن عبد الله الطبري(ت٦٩٤هـ)[٢٠٨]، والمزي (ت٧٤٢هـ)[٢٠٩]، والذهبي(ت٧٤٨هـ)[٢١٠]، والزرندي الحنفي(ت٧٥٠هـ)[٢١١]، والصفدي (ت٧٦٤هـ)[٢١٢]، وابن كثير(ت٧٧٤هـ)[٢١٣]، وابن حجر(ت٨٥٢هـ)[٢١٤]، وابن الصباغ (ت٨٥٥هـ)[٢١٥]، وابن الدمشقي(ت٨٧١هـ)[٢١٦]، والصالحي الشامي(ت٩٤٢هـ)[٢١٧]، إلى أبي بكر.

وهما للزهراء (عليها السلام): اعتماداً على معيار السبق الزمني.

الهوامش:

(١) قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لم يبق بعدي إلا المبشّرات. قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة). الموطأ:٢/٩٥٧.

(٢) ابن عنين: هو محمّد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن بن عنين الحوراني الدمشقي(٥٤٩هـ ـ٦٣٠هـ) كان أعظم شعراء عصره، مولده ووفاته بدمشق. نفاه صلاح الدين فذهب إلى العراق والجزيرة وآذربيجان وخراسان والهند واليمن ومصر وعاد إلى دمشق بعد وفاة صلاح الدين. من مؤلفاته: مقراض الأعراض. التاريخ العزيزي، ديوان شعره. ينظر: الأعلام: ٧/١٢٥.

(٣) صاحب اليمن: الملك الناصر ابن أيوب.

(٤) عمدة الطالب: ١٣٠ ـ ١٣٢.

(٥) أعيان الشيعة: ٦/٢٦٦.

(٦) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٢٠.

(٧) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٤.

(٨) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٧٨.

(٩) م. ن: ٤٣/ ١٧٤

(١٠) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢١.

(١١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٠٤.

(١٢) تاريخ بغداد: ٧/ ١٧٩.

(١٣) بدائع البداءة: ١٦٩.

(١٤) الوافي بالوفيات: ١١/ ١٠٢.

(١٥) النجوم الزاهرة: ١٤٠٣.

(١٦) تاريخ بغداد: ٧/ ١٧٩.

(١٧) بدائع البداءة: ١٦٩.

(١٨) النجوم الزاهرة: ١٤٠٣.

(١٩) سبل الهدى والرشاد: ١٢/ ٢٧٣.

(٢٠) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٢.
(٢١) كفاية الأثر: ١٩٨.
(٢٢) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٤.
(٢٣) المصنف: ٥١٤/٧ الشطر ٢ فقط.
(٢٤) مناقب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): ٢٧٠/٢ الشطر ٢ فقط.
(٢٥) المعجم الكبير: ٥٠/٣.
(٢٦) كفاية الأثر: ٨٢ ولكن بدل " حزقة ": " حبقة ".
(٢٧) الاستيعاب: ٣٩٧/١ الشطر ٢ فقط.
(٢٨) الفايق في غريب الحديث: ٢٤٢/١.
(٢٩) تاريخ مدينة دمشق: ١٩٤/١٣ و٢٤/ ٤٦٠.
(٣٠) مناقب آل أبي طالب: ١٢٨/١ و١٥٩/٣ ولكن بدل " حزقة ": " حبقة ".
(٣١) النهاية في غريب الحديث: ٣٧٨/١.
(٣٢) شرح نهج البلاغة: ٣٢١/٦.
(٣٣) شرح شافية ابن الحاجب: ٢٤٩/٤.
(٣٤) ذخائر العقبى: ١٢٢ الشطر ٢ فقط.
(٣٥) الجوهرة في نسب الإمام علي وآله: ٤٠.
(٣٦) مجمع الزوائد: ١٧٦/٩.
(٣٧) إمتاع الأسماع: ٣٦٣/٥، ولكن بدل "حزقة": "خبقة"..
(٣٨) الصراط المستقيم: ١٤٠/٢.
(٣٩) سبل الهدى والرشاد: ٧/ ١١٦.
(٤٠) أمثال الحديث: ١٢٩.
(٤١) الصحاح: ٤ /١٤٥٩، ولكن بدل "حزقة": "حبقة"..
(٤٢) القاموس المحيط: ٢٢٤/٣، ولكن بدل "حزقة": "حبقة"..
(٤٣) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٤.
(٤٤) التعازي والمراثي: ٢٢٤. الكامل: ٣٥٨/١.
(٤٥) الموازنة: ١٤٧
(٤٦) الوساطة: ٤٧١ البيت ٢ فقط.
(٤٧) البصائر والذخائر: ١٧٤٠ البيت ٢ فقط.
(٤٨) التذكرة الحمدونية: ٢٦٠٥.
(٤٩) نور القبس: ٢٩٦.
(٥٠) وفيات الأعيان: ٣٩٩/٤.
(٥١) الوافي بالوفيات: ٦/٤ البيت ٢ فقط.
(٥٢) مرآة الجنان: ١٦٦١ و١١٤٦.
(٥٣) النجوم الزاهرة: ١٢٦٢.
(٥٤) تاريخ دمشق: ٣٢٢/٤١.
(٥٥) شرح نهج البلاغة: ١٩٥/١٩.
(٥٦) الإيضاح في علوم البلاغة: ٦١٣.

(٥٧) سبل الهدى والرشاد: ١٢/ ٢٧٦.
(٥٨) معاهد التنصيص: ٢٠٢٧.
(٥٩) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٢١٧.
(٦٠) إنّ البيت غير موزون ويتزن البيت لو قلنا... والأبابيل بعد بكي السماء.
(٦١) البيت يقف العجز فيه، ويتزن لو قلنا: نغصتني الحياة يا مولائي.
(٦٢) الكوكب الدرّي: ٢٤١/١.
(٦٣) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٢١٨.
(٦٤) الزهرة: ٨٣٨/٢.
(٦٥) العقد الفريد: ٢٣٨/٣.
(٦٦) وهو غير محمّد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التاريخ والتفسير، المتوفى سنة ٣١٠ هـ.
(٦٧) دلائل الإمامة: ١١٨.
(٦٨) الاحتجاج: ١/ ١٢٤ و١٤٥.
(٦٩) مناقب آل أبي طالب: ٥١/٢.
(٧٠) كشف الغمّة: ١١٣/٢.
(٧١) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٢١٨.
(٧٢) اختلاف الروايات:

البيت الثاني: الزهرة: أبدى رجال... لَمّا حجبت وحالت دونك الكتب.
دلائل الإمامة:... لَمّا نأيت وحالت بيننا الكثب.
كشف الغمّة:... لَمّا قضيت وحالت دونك الترب.
ورواية الزهرة غير تامة، فلا معنى لحيلولة الكتب بين الميت والحي، بل الذي يحجب هو الترب والكثيب.
البيت الثالث: الزهرة: تجهمتنا رجال...
مناقب آل أبي طالب:... واستخف بنا جهرا وقد أدركونا بالذي طلبوا.
دلائل الإمامة: تجهّمنا ليال وَإستخفّ بنا دهر فقد أدركوا منا الذي طلبوا.
الاحتجاج:......... إذ غبت عنا فنحن اليوم نغتصب.
كشف الغمّة:......... مذ غبت عنا فنحن اليوم نغتصب.
البيت الرابع العقد الفريد ونهاية الأرب: الكثب بدل الترب.
كشف الغمّة العجز بهذا النص: "قوم تمنوا فأعطوا كل ما طلبوا"، وهو لا يستقيم مع صدره.
البيت السادس: مناقب آل أبي طالب:... ظلم خاصتنا يوم القيامة عنا كيف ينقلبُ.

(٧٣) غريب الحديث: ٢٦٧/١.
(٧٤) الزهرة: ٨٣٨/٢.
(٧٥) العقد الفريد: ٢٣٨/٣.
(٧٦) الكافي: ٢٧٦/٨.
(٧٧) تفسير القمي: ١٥٧/٢.
(٧٨) شرح الأخبار: ٣٩/٣.
(٧٩) بلاغات النساء: ١٤.
(٨٠) مناقب علي بن أبي طالب (ع) وما نزل من القرآن في علي (ع): ٢٠٢.

(٨١) الأمالي: ٤١.
(٨٢) الشافي في الإمامة: ٤/ ٧٥.
(٨٣) الفايق في غريب الحديث: ٣/ ٤١١.
(٨٤) الاحتجاج: ١/ ١٢٤ و١٤٥.
(٨٥) التذكرة الحمدونية: ٣٩٧٢.
(٨٦) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٥١.
(٨٧) النهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٧٧.
(٨٨) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٥١.
(٨٩) الطرائف: ٢٦٥.
(٩٠) لسان العرب: ٢/ ١٩٩.
(٩١) نهاية الأرب: ٣٢٩١.
(٩٢) جواهر المطالب: ١/ ١٦١.
(٩٣) الطبقات الكبرى: ٢/ ٢٣٢.
(٩٤) إمتاع الأسماع: ١٤/ ٦٠٢.
(٩٥) وهم: زيد الزراد الكوفي، وعباد العصفري ابن يعقوب الرواجني، وعاصم بن حميد الحناط، وزيد النرسي، وجعفر بن محمد بن شريح الحضرمي، ومحمّد بن المثنى بن القسم الحضرمي، وعبد الملك بن حكيم الخثعمي، ومثنى بن الوليد الحناط، وخلاد السندي البزاز، وحسين بن عثمان بن شريك العامري الوحيدي، وعبد الله بن يحيى الكاهلي، وسلام بن أبي عمرة الخراساني، وعلي بن أسباط الكوفي، وظريف بن ناصح، وعلاء بن رزين القلا المولى الثقفي، وابن أبي منصور الواسطي. ينظر: الأصول الستة عشر: ٩٣ و٩٥.
(٩٦) الدرّ النظيم: ٤٧٥.
(٩٧) لا يوجد اسم هند بنت إبانة في التراجم.
(٩٨) كشف الغمّة: ٢/ ١١٣.
(٩٩) المصنف: ٨/ ٥٦٧.
(١٠٠) مجمع الزوائد: ٩/ ٣٩.
(١٠١) الإصابة. ٨/ ٢١٥.
(١٠٢) وهو غير محمّد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التاريخ والتفسير، المتوفى سنة ٣١٠ هـ.
(١٠٣) دلائل الإمامة: ١١٨.
(١٠٤) مختصر بصائر الدرّجات: ١٩٢.
(١٠٥) لم اعثر على ترجمة لها.
(١٠٦) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٢١٧.
(١٠٧) م. ن: ٣٢٠.
(١٠٨) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٠٨.
(١٠٩) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢١.
(١١٠) الزهرة: ٢/ ٨٣٨.
(١١١) التذكرة الفخرية: ٢٠.

(١١٢) اختلاف الروايات:

البيت الثاني: الزهرة: قد كنتَ ذا حمية ما عشت لي امشي السراح وأنت كنت جناحي

البيت السابع: الزهرة: فاليومَ أخضعُ للضعيفِ وأتّقي منه وأدفع...

التذكرة الفخرية: منه وأدفع ظالمي...

البيت الثامن: الزهرة: وإذا بكت قمريّة ليلا على فننٍ بكيت صباحي

التذكرة الفخرية: وإذا دعت قمريّة شَجنا لها ليلا على شجنٍ دعوت صباحي

(١١٣) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢١.

(١١٤) الزهرة: ٨٣٨/٢.

(١١٥) مناقب آل أبي طالب: ٢٠٨/١.

(١١٦) الدرّ النظيم: ٤٧٥.

(١١٧) التذكرة الفخرية: ٢٠.

(١١٨) شاعرة إسلامية، ولم اعثر على سنة وفاتها.

(١١٩) الأمالي: ٢/ ١ ـ ٢.

(١٢٠) شرح ديوان الحماسة: ١٤٨٥.

(١٢١) التذكرة الحمدونية: ٢٥٦٧.

(١٢٢) الحماسة المغربية: ٤٤١.

(١٢٣) الحماسة البصرية، رقم القصيدة ٥٠٤.

(١٢٤) عيون الأثر: ٤٣٤/٢.

(١٢٥) شرح الأخبار: ٢٠٧/٣.

(١٢٦) تهذيب الكمال: ٦٣/٥.

(١٢٧) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢١.

(١٢٨) مناقب آل أبي طالب: ٢٠٤/١.

(١٢٩) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٢.

(١٣٠) كفاية الأثر: ١٩٨.

(١٣١) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٢.

(١٣٢) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٠٨.

(١٣٣) مناقب الإمام أمير المؤمنين (ع): ١٧٩/١.

(١٣٤) الامالي: ٢٣٠

(١٣٥) روضة الواعظين: ١٦١.

(١٣٦) المناقب: ٢٦٩.

(١٣٧) مناقب آل أبي طالب: ١٤٧/٣.

(١٣٨) اختلاف الروايات:

البيت الأول: أمالي الصدوق: أمرك سمعٌ يا إبن عمّ وطاعه.

مناقب آل أبي طالب: أمرك سمعا يا إبن عمّ وطاعه.

البيت الثاني: أمالي الصدوق: ما بيَ من لؤمٍ ولا وضاعه.

مناقب آل أبي طالب: ما في من لؤمٍ ولا وضاعه.

البيت الثالث: أمالي الصدوق: غُذيت باللب وبالبراعه.

البيت الرابع: مناقب آل أبي طالب: أطعمهُ ولا أُبالي.

البيت السابع: أمالي الصدوق: وأدخلَ الجنة في شفاعه.

(١٣٩) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٠٩.

(١٤٠) مناقب الإمام أمير المؤمنين (ع): ١٨٢/١.

(١٤١) الأمالي: ٣٣٢.

(١٤٢) روضة الواعظين:١٦٢.

(١٤٣) المناقب: ٢٧٠.

(١٤٤) مناقب آل أبي طالب: ١٤٨/٣.

(١٤٥) اختلاف الروايات:

البيت الأول: مناقب آل أبي طالب: ممّا كان غَيرُ صاعِ.

البيت الثالث: مناقب آل أبي طالب: شبلاي واللّه من الجياع.

البيت السادس: مناقب آل أبي طالب: عبل الذراعين شديد الباع.

البيت الثامن: مناقب آل أبي طالب: إلّا عبا نسجته بصاع.

(١٤٦) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٠٩.

(١٤٧) المناقب: ٢٦٩.

(١٤٨) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٥.

(١٤٩) مناقب آل أبي طالب: ١٥٩/٢.

(١٥٠) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٥.

(١٥١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣٢/١.

(١٥٢) الحماسة المغربية: ٤٢٠.

(١٥٣) عيون الأثر: ٤٣٤/٢.

(١٥٤) الفصول المهمة: ٦٧٢/١.

(١٥٥) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٧.

(١٥٦) مسند أبي داود الطيالسي: ١٩٧.

(١٥٧) الطبقات الكبرى: ٣١١/٢.

(١٥٨) مسند ابن راهويه: ١٤/٥.

(١٥٩) منتخب مسند عبد بن حميد: ٢٠٤.

(١٦٠) سنن الدارمي: ٤١/١.

(١٦١) صحيح البخاري: ١٤٤/٥.

(١٦٢) سنن ابن ماجة: ٥٢٢/١.

(١٦٣) صحيح ابن حبان: ٥٩٢/١٤.

(١٦٤) المعجم الكبير: ٤١٦/٢٢.

(١٦٥) المستدرك: ٣٨٢/١.

(١٦٦) السنن الكبرى: ٧١/٤.

(١٦٧) تاريخ بغداد: ٢٥٩/٦.

(١٦٨) إعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٦٨/١.

(١٦٩) مناقب آل أبي طالب: ٢٠٤/١.

(١٧٠) المغني: ٤١١/٢.

(١٧١) المجموع: ٣٠٨/٥، رياض الصالحين: ٧٥.

(١٧٢) الشرح الكبير: ٢/ ٤٣٠.

(١٧٣) تذكرة الفقهاء: ٥٨/١ و٢/ ١٢٠، نهاية الأحكام: ٢٨٩/٢.

(١٧٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٢٠.

(١٧٥) البداية والنهاية: ٢٩٤/٥، السيرة النبوية: ٥٤٣/٤.

(١٧٦) ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة: ٥٧/٢.

(١٧٧) عمدة القاري: ١٨ / ٧٤.

(١٧٨) سبل الهدى والرشاد: ١٢/ ٢٦٦.

(١٧٩) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٨.

(١٨٠) روضة الواعظين: ٧٥.

(١٨١) مناقب آل أبي طالب: ٢٠٨/١.

(١٨٢) المغني: ٤١١/٢.

(١٨٣) الشرح الكبير: ٤٣٠/٢.

(١٨٤) الدرّ النظيم: ١٩٨.

(١٨٥) المعتبر: ٣٤٥/١.

(١٨٦) سير أعلام النبلاء: ١٣٤/٢.

(١٨٧) نظم درر السمطين: ١٨١.

(١٨٨) ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة: ٥٧/٢.

(١٨٩) الفصول المهمة: ٦٧٢/١.

(١٩٠) سبل الهدى والرشاد: ١٢/ ٢٣٧.

(١٩١) معجم الشعراء: ٤٦٨.

(١٩٢) دستور معالم الحكم: ١٩٩.

(١٩٣) عيون الأثر: ٤٣٤/٢.

(١٩٤) ديوان أهل البيت (عليهم السلام): ٣٢٨.

(١٩٥) نسب قريش: ٣٨.

(١٩٦) المحبر: ٤٦.

(١٩٧) العقد الفريد: ٤٣٩/٢.

(١٩٨) الإصابه: ٦٢/٢، تهذيب التهذيب: ٢٥٧/٢.

(١٩٩) مسند احمد: ٢٨٣/٦.

(٢٠٠) م. ن: ٨/١.

(٢٠١) تاريخ اليعقوبي: ١١٧/٢.

(٢٠٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٤٩/٢.

(٢٠٣) تاريخ دمشق: ١٧٤/١٣.

(٢٠٤) عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار: ٢٩٧ و٤٠٠ و٤٠٤.

(٢٠٥) مطالب السؤول: ٣٣٦.

(٢٠٦) الدرّ النظيم: ٤٩٠.

(٢٠٧) كشف الغمّة: ١٤٥/٢ و١٧٣.

(٢٠٨) ذخائر العقبى: ١٢٧.

(٢٠٩) تهذيب الكمال: ٢٢٤/٦.

(٢١٠) تاريخ الإسلام: ٣٤/٤.

(٢١١) نظم درر السمطين:٢٠٢.

(٢١٢) الوافي بالوفيات: ٦٧/١٢.

(٢١٣) البداية والنهاية: ٢٠٧/٥ و٣٩/٦ و٣٧/٨، السيرة النبوية: ٥٦٩/٤.

(٢١٤) فتح الباري: ٧٥/٧.

(٢١٥) الفصول المهمة: ٦٩٦/٢.

(٢١٦) جواهر المطالب: ٢٠٥/٢

(٢١٧) سبل الهدى والرشاد: ١١/ ٤٤٦.

المصادر والمراجع:

١. نبدأ بالقرآن الكريم تبركا.

٢. الاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي(ت٥٤٨هـ)، ط١، مط:نشر المرتضى– مشهد ١٤٠٣هـ.

٣. الاستيعاب في أسماء الأصحاب "بهامش كتاب الإصابة"، ابن عبد البر القرطبي(ت٤٦٣هـ)، ط١، مط: مصطفى محمّد ـ مصر١٣٥٨هـ.

٤. الإصابة، ابن حجر: شهاب الدين احمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ)، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمّد معوض، ط١، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت١٤١٥هـ.

٥. إعلام الورى بأعلام الهدى، أحمد بن علي الطبرسي(ت٥٤٨هـ)، دار الكتب الإسلامية – طهران، (د.ت).

٦. الأمالي، المفيد(ت٤١٣هـ)، ط١، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد ـ قم١٤١٣هـ.

٧. إمتاع الأسماع، تقي الدين المقريزي، تصحيح: احمد محمّد شاكر ـ القاهرة ١٩٤١م.

٨. أمثال الحديث، ابن خلاد الرامهرمزي(ت٥٧٦هـ)، ت: أحمد عبد الفتاح تمام، ط١، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت١٤٠٩هـ.

٩. الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني الخطيب(ت٧٣٩هـ)، ط٤، الناشر: دار إحياء العلوم- بيروت١٩٩٨م.

١٠. الأعلام، خير الدين الزركلي(ت١٤١٠هـ)، ط٥، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٠م.

١١. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين(ت١٣٧١هـ)، ت:حسن الأمين، دار التعارف ـ بيروت، (د.ت).

١٢. بدائع البداءة، علي بن ظافر الازدي(ت٦١٣هـ)، (د.م)، (د.ت).

١٣. بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي(١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٤. بلاغات النساء، ابن طيفور(ت٣٨٠هـ)، الناشر: مكتبة بصيرتي ـ قم، (د.ت).

١٥. البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي(ت٤٠٠هـ)، (د.م)، (د.ت).

١٦. البداية والنهاية، ابن كثير(ت٧٧٤هـ)، ت: علي شيري، ط١، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧. التذكرة الحمدونية، محمّد بن الحسن بن حمدون(ت٥٦٢هـ)، (د.م)، (د.ت).

١٨. التذكرة الفخرية، علي بن عيسى الأربلي(ت٦٩٣هـ)، (د.م)، (د.ت).

١٩. التعازي والمراثي، المبرد: محمّد بن يزيد(ت٢٨٦هـ)، (د.م)، (د.ت).

٢٠. تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي(ت٧٢٦هـ)، ت: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط١، مط: مهر ـ قم، الناشر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث– قم١٤١٤هـ.

٢١. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب(ت٢٨٤هـ)، (د.م)، (د.ت).
٢٢. تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي(من أعلام القرنين الثالث والرابع الهجري) تقديم وتعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري، ط١ ـ النجف الاشرف١٣٨٦هـ.
٢٣. تهذيب الكمال، المزي(ت٧٤٢هـ)، ت: د. بشار عواد معروف، ط٤، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.
٢٤. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي:احمد بن علي(ت٤٦٣هـ)، دار الكتاب العربي ـ بيروت، (د.ت).
٢٥. تاريخ دمشق " التاريخ الكبير "، ابن عساكر: علي بن الحسين بن هبة الله بن الحسين بن عساكر الشافعي(ت٥٧١هـ)، مط: روضة الشام ١٣٣١هـ.
٢٦. تاريخ الإسلام، الذهبي(ت٧٤٨هـ)، ت: د. عمر عبد السلام تدمرى، ط١، مط: دار الكتاب العربي، الناشر: دار الكتاب العربي ـ لبنان١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٢٧. جواهر المطالب في مناقب الإمام علي (ع)، ابن الدمشقي(ت٨٧١هـ)، ت: الشيخ محمّد باقر المحمودي، ط١، مط: دانش، الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية ـ قم١٤١٥هـ.
٢٨. الجوهرة في نسب الإمام علي وآله، البري(ت ق٧هـ)، ت: د. محمّد التونجي، ط١، مط: مؤسسة الأعلم للمطبوعات ـ بيروت، الناشر: مكتبة النوري ـ دمشق١٤٠٢هـ.
٢٩. الحماسة البصرية، البصري: صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين(ت٦٥٩هـ). تصحيح وتعليق: د.عادل سليمان جمال، ط١، مكتبة الخانجي ـ القاهرة١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
٣٠. الحماسة المغربية، احمد بن عبد السلام الجراوي(ت٦٠٩هـ)، (د.ك)، (د.ت).
٣١. ديوان أهل البيت (عليهم السلام)، جمعه واعتنى به: علي حيدر المؤيد، ط١، مط: دار العلوم للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
٣٢. الدرّ النظيم، ابن حاتم العاملي(ت٦٦٤هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، (د.ت).
٣٣. دستور معالم الحكم، القاضي القضاعي: محمّد بن سلامة(ت٤٥٤هـ)، شرح: محمّد سعيد الرافعي، ط١ ـ مصر١٣٣٢هـ.
٣٤. دلائل الإمامة، محمّد بن جرير الطبري(الشيعي)(ت ق٤هـ)، مط:دار الذخائر ـ قم، (د.ت).
٣٥. ذخائر العقبى، احمد بن عبد الله الطبري(ت٦٩٤هـ)، ط١، الناشر: مكتبة القدسي ـ القاهرة، ملاحظة: عن نسخة دار الكتب المصرية، ونسخة الخزانة التيمورية، انتشارات جهان – طهران ١٣٥٦هـ.
٣٦. ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، الشهيد الأول محمّد بن جمال الدين المكي العاملي (ت٧٨٦هـ)، ت: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط١، مط: ستاره، الناشر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث – قم١٤١٩هـ.
٣٧. روضة الواعظين، محمّد بن الحسن الفتال(ت٥٠٨هـ)، دار الرضي – قم، (د.ت).
٣٨. زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني: أبو إسحاق الحصري(ت٤٥٣هـ)، ت: د.زكي مبارك، ط١، مط: الرحمانية ـ مصر١٩٢٥م.
٣٩. الزهرة، الأصفهاني: محمّد بن أبي سليمان داود(ت٢٩٧هـ)، النصف الأول باعتناء: د.لويس نيكل البوهيمي، مط: الآباء اليسوعيين ـ بيروت١٩٣٢م، والنصف الثاني ت: د.إبراهيم الوكيل ود.نوري حمودي القيسي، مط: دار الحرية ـ بغداد ١٩٧٤م.
٤٠. السيرة النبوية " عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير "، ابن سيد الناس(ت٧٣٤هـ)، ط١، الناشر: مؤسسة عزّ الدين للطباعة والنشر ـ بيروت١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤١. سنن ابن ماجة، محمّد بن يزيد القزويني(ت٢٧٣هـ)، ت:محمّد فؤاد عبد الباقي، الناشر:دار الفكر - بيروت، (د.ت).

٤٢. سنن الدارمي، عبد الله بن بهرام الدارمي(ت٢٥٥هـ)، طبع بعناية: محمّد أحمد دهمان، ط١، مط: الاعتدال – دمشق١٣٤٩هـ.

٤٣. السنن الكبرى، البيهقي(ت٤٥٨هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت، (د.ت).

٤٤. السيرة النبوية، ابن كثير(ت٧٧٤هـ) ت: مصطفى عبد الواحد، ط١، مط: دار المعرفة - بيروت١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٤٥. سير أعلام النبلاء، الذهبي(ت٧٤٨هـ)، إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط، ت: حسين الأسد، ط٩، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٤٦. سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي(ت٩٤٢هـ)، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمّد معوض، ط١، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٤٧. الشافي في الإمامة، المرتضى: علي بن الحسين(ت٤٣٦هـ)، ط٢، مط: مؤسسة إسماعيليان، الناشر: مؤسسة إسماعيليان – قم١٤١٠هـ.

٤٨. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: عزّ الدين أبو حامد بن عبد الله المدائني المعتزلي(ت٦٥٦هـ)، مكتبة آية الله المرعشي - قم ١٤٠٤هـ.

٤٩. شرح الأخبار، القاضي النعماني المغربي(ت٣٦٣هـ)، (د.م)، (د.ت).

٥٠. الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، القاضي عياض(ت٥٤٤هـ) مذيلاً بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلاّمة أحمد بن محمّد بن محمّد الشمني(ت٨٧٣هـ)، ط١، الناشر: دار الفكر - بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٥١. شرح ديوان الحماسة، أبو علي احمد بن محمّد بن الحسن المرزوقي(ت٤٢١هـ)، ت: احمد أمين وعبد السلام هارون، ط١، مط: لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة١٩٦٧م.

٥٢. الشرح الكبير على متن المقنع، عبد الرّحمن بن قدامه(ت٦٨٢هـ)، ط: بالأوفست، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، (د.ت).

٥٣. شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي(ت٦٨٦هـ)، ت: محمّد نور الحسن ومحمّد الزفزاف ومحمّد محيي الدين، ط١، الناشر:دار الكتب العلمية - بيروت١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٥٤. الصحاح " تاج اللغة وصحاح العربية "، للجوهري: إسماعيل بن حماد(ت٣٩٣هـ)، ت: احمد عبد الغفور عطار، ط٢، مط: دار العلم للملايين - بيروت١٩٧٩م.

٥٥. صحيح ابن حبان، ابن حبان(ت٣٥٤هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط، ط٢، الناشر: مؤسسة الرسالة١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٥٦. صحيح البخاري، البخاري(ت٢٥٦هـ)، ط١، الناشر: دار الفكر - بيروت، ملاحظة: طبعت بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥٧. الصراط المستقيم، علي بن يونس النباطي البياضي(ت٨٧٧هـ)، ط١، مط:المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف١٣٨٤هـ.

٥٨. الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، السيد ابن طاوس(ت٦٦٤هـ)، ط١، مط: الخيام – قم١٣٩٩هـ.

٥٩. الطبقات الكبرى، ابن سعد: محمّد بن سعد الزهري الواقدي(ت٢٣٠هـ)، ط١، مط: دار صادر – بيروت١٩٥٧م.

٦٠. عمدة الطالب، ابن عنبة(ت٨٢٨هـ)، تصحيح: محمّد حسن آل الطالقاني، ط٢، الناشر: الحيدرية - النجف الأشرف١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

٦١. عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، يحيى بن الحسن الأسدي المعروف ابن البطريق(ت٦٠٠هـ)، ط١، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين - قم١٤٠٧هـ.

٦٢. عمدة القاري، محمود بن أحمد العيني(ت٨٥٥هـ)، مط: دار إحياء التراث العربي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

٦٣. العقد الفريد، ابن عبد ربه: شهاب الدين احمد بن محمّد الأندلسي(ت٣٢٨هـ)، ت: محمّد التونجي، ط١، دار صادر - بيروت٢٠٠١م.

٦٤. فتح الباري، ابن حجر: شهاب الدين احمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ)، ط٢، مط:دار المعرفة، الناشر: دار المعرفة - بيروت، (د.ت).

٦٥. الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي المعروف بابن الصباغ(ت٨٥٥هـ)، ت: سامي الغريري، ط١، مط: سرور، الناشر: دار الحديث– القاهرة ١٤٢٢هـ.

٦٦. الفائق في غريب الحديث، الزمخشري: محمود بن عمر(ت٥٣٨هـ)، ت: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمود البجاوي، ط٢، مط: عيسى البابي الحلبي - مصر١٩٧١م.

٦٧. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، (د.م)، (د.ت).

٦٨. الكامل في التاريخ، ابن الأثير: عزّ الدين علي بن أبي المكارم الشيباني(ت٦٣٠هـ)، ط١، مط: دار صادر، الناشر: دار صادر - بيروت١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

٦٩. كشف الغمّة، الإربلي(ت٦٩٣هـ)، ط١، مط: مكتبة بني هاشمي - تبريز١٣٨١هـ.

٧٠. كفاية الأثر، الخزاز القمي: علي بن محمد(ت٤٠٠هـ)، ت: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري الخوئي، ط١، مط: الخيام، الناشر: انتشارات بيدار - قم١٤٠١هـ.

٧١. الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني(ت٣٢٩هـ)، ط١، مط: دار الكتب - طهران١٣٦٥هـ.ش.

٧٢. لسان العرب، ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، ط١، الناشر: نشر أدب الحوزة - قم١٤٠٥هـ.

٧٣. مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي(ت ق٩هـ)، ط١، الناشر: الحيدرية - النجف الأشرف١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.

٧٤. مسند ابن راهويه، إسحاق بن راهويه(ت٢٣٨هـ)، ت: د.عبد الغفور عبد الحق حسين برد البلوسي، ط١، مط: مكتبة الإيمان، الناشر: مكتبة الإيمان - المدينة المنورة١٤١٢هـ.

٧٥. مسند أبي داود، سليمان بن داود الطيالسي(ت٢٠٤هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، (د.ت).

٧٦. مسند احمد، الإمام احمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، (د.ت).

٧٧. منتخب مسند عبد بن حميد، عبد بن حميد الكسي(ت٢٤٩هـ)، ت: صبحي البدري السامرائي ومحمود محمّد خليل الصعيدي، ط١، الناشر: مكتبة النهضة العربية١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٧٨. المستدرك، الحاكم النيسابوري(ت٤٠٥هـ)، ت: يوسف عبد الرّحمن المرعشلي، (د.م)، (د.ت).

٧٩. المغني، عبد الله بن قدامه(ت٦٢٠هـ)، ط: بالأوفست، الناشر:دار الكتاب العربي - بيروت (د.ت).

٨٠. المجموع، محيى الدين النووي(ت٦٧٦هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت، (د.ت).

٨١. المعتبر، المحقق جعفر بن الحسن الحلي(ت٦٨٦هـ)، (د.م)، (د.ت).

٨٢. الموطأ، الإمام مالك(ت١٧٩هـ)، تصحيح وتعليق: محمّد فؤاد عبد الباقي، ط١، مط: دار إحياء التراث العربي - بيروت١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٨٣. المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي(ت٢٣٥هـ)، ت: سعيد اللحام، ط١، الناشر: دار الفكر - بيروت١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٨٤. مناقب الإمام أمير المؤمنين (ع)، محمّد بن سليمان الكوفي(ت ٣٠٠هـ)، ت: الشيخ محمّد باقر المحمودي، ط١، مط: النهضة، الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة – قم١٤١٢هـ.

٨٥. مناقب علي بن أبي طالب (ع) وما نزل من القرآن في علي (ع)، أحمد بن موسى ابن مردويه الأصفهاني(ت٤١٠هـ)، جمعه ورتبه وقدم له: عبد الرزاق محمّد حسين حرز الدين، ط٢، مط: دار الحديث، الناشر: دار الحديث ـ القاهرة ١٤٢٤هـ.

٨٦. المعجم الكبير، الطبراني(ت٣٦٠هـ)، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

٨٧. الموازنة بين الشعراء، د. زكي مبارك، ط٣، مط: مصطفى البابي الحلبي١٩٢٦م.

٨٨. مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي: عبد الله بن اسعد بن علي(ت٧٦٨هـ). (د.م)، (د.ت).

٨٩. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن عبد الرّحمن العباسي(ت٩٦٣هـ). (دم). (د.ت).

٩٠. معجم الشعراء، المرزباني: محمّد بن عمران بن موسى(ت٣٨٦هـ)، ت: فاروق اسليم، ط١، دار صادر ـ بيروت٢٠٠٥م.

٩١. المحبر. أبو جعفر: محمّد بن حبيب بن أميّة بن عمرو الهاشمي البغدادي(ت٢٤٥هـ)، برواية أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري، مط: المكتب التجاري ـ بيروت(د.ت).

٩٢. مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، محمّد بن طلحة الشافعي(ت٦٥٢هـ) ت: ماجد بن احمد العطية، (د.م). (د.ت).

٩٣. مناقب آل أبي طالب (ع)، محمّد بن شهر آشوب المازندراني(ت٥٨٨هـ)، ت: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، ط١، مؤسسة العلامة للنشر ـ قم ١٣٧٩هـ. ومط: الحيدرية ـ النجف الأشرف١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.

٩٤. مجمع الزوائد، الهيثمي(ت٨٠٧هـ)، ط١، الناشر دار الكتب العلمية ـ بيروت١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٩٥. نور القبس " المختصر من المقتبس "، المرزباني: محمّد بن عمران بن موسى(ت٣٨٦هـ). ت: رودلف زلهايم، ط١. مط: دار فرانتس بفيسبادن١٩٦٤م.

٩٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري: جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي(ت٨٧٤هـ)، مط: دار الكتب. (د.ت).

٩٧. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمّد الجزري(ت٦٠٦هـ)، ت: محمود محمّد الطناحي، مط: عيسى البابي الحلبي ـ مصر. (د.ت).

٩٨. نسب قريش، المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبري(ت٢٣٦هـ)، ت: ليفي بروفنسال، ط١، مط: دار المعارف – مصر١٩٥٣م.

٩٩. نظم درر السمطين في فضائل المصطفى والمرتضى والبتول والسبطين، الحنفي محمّد بن يوسف الزرندي المدني(ت٧٥٠هـ)، ط١، مط: القضاء ـ النجف الاشرف١٩٥٨م.

١٠٠. نهاية الإحكام في معرفة الأحكام، العلّامة الحلي الحسن بن يوسف، ت: السيد مهدي الرجائي، ط٢، مط: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الناشر: مؤسسة إسماعيليان ـ قم١٤١٠هـ.

١٠١. نهاية الأرب، النويري(ت٧٣٣هـ)، (د.م)، (د.ت).

١٠٢. وفيات الأعيان، ابن خلكان: احمد بن محمّد بن أبي بكر(ت٦٨١هـ)، ت: د. إحسان عباس، مط: دار الثقافة – بيروت، (د.ت).

١٠٣. الوافي بالوفيات، الصفدي(ت٧٦٤هـ)، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، مط: دار إحياء التراث، الناشر: دار إحياء التراث ـ بيروت١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٠٤. الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني(ت٣٩٢هـ)، (د.م)، (د.ت). ❖

في ذكرى الزهراء (ع)

✍ حسن عبد الحسين المسقطي اللواتي(*)

لا أشك في أن معظم الحاضرين قد دعا يوماً - أو سمع على الأقل - بالدعاء المشهور الذي يفتتح بالتوسل إلى الله عزّ وجلّ بفاطمة و"السر المستودع فيها" وتساءل عما يكون ذلك السر!

لقد طرح أحدهم هذا السؤال على أحد العلماء وكان جواب العالم الجليل: "لو كنت أعرفه لم يعد سراً" وذلك حق. فهناك أسرار تقع في دائرة علم الله.. عالم الغيب الذي لا يطلع على غيبه أحدا، وهو جل شأنه أعلم حيث يجعل رسالته، وحيث يضع سره!

من أبيات شاعركم الكبير في أزريته الخالدة قوله عن رسول الله (ص).

أي خلق لله أعظم منه وهو الغاية التي استقصاها

ما أبدع ذلك من قول.. نعم.. كان محمد الغاية التي استقصاها الله من الرجال، وكانت فاطمة بنت محمد (ص) الغاية التي استقصاها من النساء. ألم يقل (ص) – والنص هنا منقول عن البخاري – "فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني"؟ أو ليست للبضعة منزلة الأصل الكريم كما كانت لقرينها العظيم طبقاً لحديث المنزلة ولم تستثن من تلك الدرجات إلا النبوة؟

بنى محمد بن عبد الله بخديجة ببت خويلد في مكة الجاهلية، حيث كان بيت الله الواحد مقراً للعزى وهبل واللات، وما شاء المشركون لهما من إخوة وأخوات، وفي مجتمع غارق في الظلم والفساد والرذائل ما علمنا منها وما لم نعلم، غير أن ذلك المجتمع المظلم لم يعب عنه حقيقة استحالة اندماج أي من الزوجين الكريمين فيه، فوصف محمداً بـ (الصادق الأمين) وخديجة بـ (الطاهرة) ومن الصادق الأمين والطاهر ولدت (الزهراء) سيدة نساء العالمين.

إنها البنت المثالية، والزوجة المثالية، والأم المثالية.. كانت حياتها كتابا مفتوحا لأن الله عزّ وجلّ شاء لها أن تكون القدوة لكل النساء، فقد روي عن رسول الله (ص) - ما أخرجه الإمامان أحمد بن حنبل والترمذي - أنه قال: "حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون".

(*) مسقط – سلطنة عمان.

شهدت فاطمة منذ طفولتها أحداثاً جساماً كثيرةً، فقد كان النبي (ص) يعاني من اضطهاد قريش وكانت فاطمة تعينه على ذلك الاضطهاد وتسانده وتوازره، وكانت فاطمة(ع) تتولى أمور تنظيف وتطهير القاذورات التي كانت ترمى عليه وأمام بيته وكان من أشد ما قاسته من آلام في بداية الدعوة الحصار الذي حوصر فيه المسلمون مع بني هاشم في شعب أبي طالب، وان أشد ما الم بها يوم وفاة أباها رسول الله (ص) وأنها بكت وقالت: يا أبتاه من ربه ما أدناه، يا أبتاه إلى جبريل ينعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه.

وقد ورد في كتب جمهور المسلمين «أن الله سمّاها فاطمة لأنه فطمها ومحبيها عن النار»، هناك من يقول أن النبي محمد (ص) هو من سماها بالزهراء لأنها كانت تزهر لأهل السماء كما تزهر النجوم لأهل الأرض.

أورد إخواننا السنة في أكثر من مصدر من مصادرهم (الخطيب البغدادي وابن حجر الهيثمي في الصواعق والنووي وابن حجر العسقلاني في الفتح والطبراني في المعجم الكبير والبخاري) بأنها سلام الله عليها انفردت بأدعيةٍ وأوراد خاصة، مثل: تسبيح الزهراء، ودعاء الزهراء وصلاة الزهراء وغير ذلك.

لقد وجدت في كثير من مصادر إخواننا السنة أسماء وألقاب وفضائل السيدة البتول وهذا يعني مكانتها لديهم – ويرد هنا تساؤل لماذا ابتعد إخواننا السنة عن الارتباط بفاطمة بالخصوص وأهل البيت بصفة عامه، أليس التساؤل يدعوا للبحث عن الأسباب ولعل جزء من الأسباب يعود إلينا؟؟ سؤال ينتظر الجواب.

ألقابها:

الزهراء، البتول، الحوراء الأنسية، الصديقة الطاهرة، أم الأئمة، المنصورة الصادقة، المحدثة، الريحانة، البضعة.

قبس من أسمائها ومعانيها:

فاطمة: لأن الله قد فطم من أحبها من النار.

الزهراء: لأن نورها زهر لأهل السماء.

الصديقة: لأنها لم تكذب قط.

المباركة: لظهور بركتها.

الزكية: لأنها كانت أزكى أنثى عرفتها البشرية.

المرضية: لأن الله سيرضيها بمنحها حق الشفاعة.

المحدثة: لأن الملائكة كانت تحدثها.

البتول: لأنها تبتلت عن دماء النساء.

الحانية: لأنها كانت تحن حنان الأم على أبيها النبي وبعلها وأولادها (ع) والأيتام والمساكين.

الكوثر: كما سماها الله جل وعلا في القرآن في سورة الكوثر.

الحوراء: لأن النبي قال هي الحوراء الإنسية (ولأن نطفتها تكونت من ثمار الجنة).

ولادتها:

هذه نبذة من أقوال أئمة أهل البيت (ع) وقدماء علماء الشيعة (رحمهم الله) حول ولادة السيدة فاطمة الزهراء (ع) بعد المبعث.

١ ـ الكافي (للكليني)، المناقب (لابن شهر آشوب): ولدت **بعد النبوة بخمس سنين وبعد الإسراء بثلاث سنين** وأقامت مع أبيها بمكة ثماني سنين ثم هاجرت...، وقبض النبي ولفاطمة يومئذ ـ ثماني عشرة سنة!...

٢ ـ في البحار عن الإمام الباقر (ع): ولدت فاطمة بنت محمد بعد مبعث رسول الله **بخمس سنين، وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً.**

٣ ـ روضة الواعظين: ولدت فاطمة **بعد مبعث النبي بخمس سنين**...

٤ ـ إقبال الأعمال: قال الشيخ المفيد في كتاب (حدائق الرياض): يوم العشرين من جمادى الآخرة كان مولد السيدة فاطمة الزهراء **سنة اثنتين من المبعث.**

٥ ـ مصباح الكفعمي: ولدت في العشرين من جمادى الآخرة يوم الجمعة سنة **اثنتين من المبعث، وقيل سنة خمسٍ من المبعث.**

٦ ـ المصباحين: في اليوم العشرين من جمادى الآخرة يوم الجمعة سنة **اثنتين من المبعث** كان مولد فاطمة (ع) في بعض الروايات، وفي رواية أخرى: **سنة خمس** من المبعث. والعامة تروي أن مولدها **قبل المبعث بخمس سنين.**

٧ ـ دلائل الإمامة عن الإمام الصادق (ع) قال: ولدت فاطمة في جمادى الآخرة العشرين منها سنة خمس وأربعين من مولد النبي... إلخ.

الواقع إني لا أريد أن ادخل في السرد التاريخي فهو معلوم عند العامة والخاصة إلا أني أحب أن أركز على شي واحد فليس من المعقول وبعد مرور قرون لا يزال المسلمين مختلفين في تواريخ الأحداث الإسلامية ومنها الولادات والوفيات بما فيها أئمة أهل البيت (الموضوع الذي يخصنا نحن أتباع أهل البيت) وحسب علمي القاصر فان واقعة كربلاء ـ أعني استشهاد الإمام الحسين (ع) محل اتفاق بين المؤرخين ـ حتى أن استشهاد الإمام علي (ع) مع أنه كان في أيام حكمه للدولة الإسلامية موضع اختلاف – ألم يآن الأوان أن يولي الباحثون والمحققون الاهتمام لهذا الموضوع.

وبما أننا في مناسبة الزهراء (ع) هل من المعقول أن يختلف المسلمون في ولادتها وهجرتها ووفاتها وهي ابنة نبيهم الوحيدة والتي طالما كان عليه أفضل الصلاة والسلام يصدع باسمها ليل نهار – كما هو الحال بشان وفاة أمها خديجة أليس من واجبنا أن نتساءل عن قبرها ومدفنها، "ولقد رأيت في الكلمة الغراء في تاريخ شهادة الزهراء أن الشيخ إسماعيل الأنصاري الزنجاني الخوئيني قد حصر في موسوعته الكبرى عن فاطمة الزهراء(ع) (ج١٥، ص٢٣) الأقوال التي ذكرت شهادتها في (٢١) قولاً من (٦١٥) مصدراً، ابتداءً من (٢٨ ربيع الثاني) وانتهاءً بـ (٢٨ شوال) من سنة ١١هـ... إلا أن الذي المشهور عندنا ثلاث أقوال، وفيها يكون إحياء مواسم الفاطمية" (منقول بالنص).

لقد ترك رحليها الأثر الكبير عند أمير المؤمنين، فقد ورد أنه (ع) جلس بعد دفنها مخاطباً رسول الله (ص): السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك وزائرتك والبائتة في الثرى ببقعتك، والمختار الله لها سرعة اللحاق بك.

وقائلاً:

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على ألا يدوم الخليل

بما أن المؤتمر ينعقد تحت شعار الوحدة الإسلامية فإني أدعوا من على هذا المنبر الإخوة المؤمنين من الطائفة الواحدة إلى التوحد ونبذ الخلافات والتمسك بالمشتركات العامة طالما نؤمن بان الهدف المشترك واحد، كما أرجو من الأطياف العراقية على مختلف مشاربها التمسك بالوحدة الوطنية لتنعم الأجيال القادمة بالرخاء (لنزرع فيأكلون).

أيها الإخوة لتكن السنوات العشر التي مررتم بها فترة تجربة بحلوها ومرها وأعتقد أنها تكفي كي تضعوا أقدامكم على الطريق للنهوض بعراقكم

لنأخذ من التاريخ عبره وليكن التاريخ نبراسا يضيء الطريق أمامنا نستفيد من عبره لتصحيح مسارنا إلى المستقبل.

أشكر القائمين على ما بذلوا من جهد لإنجاح هذا المؤتمر، واشكر لهم حسن استقبالهم وكرم ضيافتهم، واشكر لكم حسن استماعكم.

اسأل الله التوفيق لكم ولعراقكم الحبيب الازدهار كي يستلم صاحب الأمر (عج) الراية منكم وانتم إخوة متحابين في الله ونواة لإكمال مسيرة العدل والمساواة تحت قيادته عجل الله فرجه الشريف وجعلنا من أنصاره وأعوانه القائمين في إدارة دولته الكريمة. ❖

السر الإلهي يتجلّى في بضعة النبي الأعظم محمد (ص)

د. زينب محمد عيسى(*)

"من عرف هذه فقد عرفها ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد وهي قلبي وهي روحي التي بين جنبيّ من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله"[١].

"أيها الناس إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها"[٢].

(النبي الأعظم محمد (ص)

حقيقة إلهية عظمى سطر خطوطها النبي الأعظم محمد (ص) لتكون للعالمين بشيراً ونذيراً ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ (النجم: ٣ - ٤)، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر: ٧). وما يصدر عن النبي الأعظم (ص) في أقواله، وأفعاله، وحركاته، وأحواله، وأطواره مرتبط بمقام ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) ﴾ (النجم: ٨ - ٩).

فأيّة سيدة تكون فاطمة؟؟ وأيّة حقيقة استترت فيها لتكون إشارة قدسية لسر إلهي في العالمين الدنيوي والأخروي؟؟ وأيّة مرتبة سمت بها ليكون اتصالها وارتباطها بنور أنوار الوجود النبي الأعظم محمد (ص)؟؟ وأيّة شخصية هي: حتى تكون الحد الفاصل بين الايمان والكفر، وبين الطاعة والمعصية؟؟ ولتكون كما يقول أبا عبد الله (ع) "من عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر وإنما سميت فاطمة لأن الخلق فطموا عن معرفتها": ولتتمثّل في الوعي الإنساني حقيقة عظمى. حقيقة ذابت مصطلحات عقلنا النسبي وغص النفس في استيعاب امتدادها، وقد استحالت (ع) تعبيراً عن قدس. قدس تألق هو في ذات نفسها (ع).

(*) رئيسة جمعية السيدة زينب الخيرية - بيروت.

(١) الشبلنجي، نور الأبصار، مكتبة الجمهورية العربية، مصر، المطبعة اليوسفية، ص ٤٥ - ٤٦/ابن الصباغ، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، مؤسسة الأعلمي، طهران، ص ١٤٦.

(٢) المازندراني، هدية الأبرار، مؤسسة الأعلمي، طهران، ٢٠٠٢.

وروعة التألق: هو في قدرته أن يدنيك من ذاته، يسكبُ عليك من لآلئه. تستشعره عن قريب، تبتهج له، تلتقطه، تسكبهُ في أعماق ذاتك. روعة التألق: أن يمسي منارة يضيء وجنه قلب عانى الظمأ فتوجه بانكسار القلب الخاشع لعظمة وجبروت الله يسأله "اللهم إني أسألك بحق فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها".

هذه الحقائق وتلك التساؤلات تشكل مدخلاً إلى دراسة خصائص مقومات شخصية السيدة فاطمة (ع) من خلال المحاور:

١. النور المبين: في شخصية السيدة فاطمة (ع).
٢. نحن نقص عليك أحسن القصص: السيدة فاطمة (ع) مستودع السر الإلهي.
٣. في قصصهم عبرة لأولي الألباب: السيدة فاطمة (ع) المثل الأعلى للإنسانية (إطلالة مستقبلية).

١ ـ النور المبين: في شخصية السيدة فاطمة (ع):

تعددت التعريفات التي تناولت الشخصية وطبيعتها وخصائصها ومن أبرزها تعريف البورت Allport الذي نقله عثمان فراج، حيث يرى أنها "التنظيم الديناميكي في الفرد لجميع التكوينات الجسمية – النفسية. هذا التنظيم هو الذي يحدد الأساليب الفريدة التي يتوافق فيها الفرد مع البيئة[١]". وقد أشار محمد خليفة بركات إلى العوامل المكوِّنة للشخصية التي وضعها كاتل Cattel حيث بيَّن أن للشخصية بناءً معيناً يكمن بعضه في الفرد وهو الصفات الموروثة، وآخر مكتسب من البيئة. وهي تتفاعل في ما بينها لتبرز شخصية لها كيان متمايز، تتصف بالثبات النسبي[٢]. وقد يبين انطون رحمة في دراسته حول تأكيد جلتون وبرسون Jalton & Person وغيرهما من علماء الوراثة أن "ثبات ملامح الشخصية بالوراثة، في حين أكَّد كل من بارتلت Bartlet وبرنر Berner وغيرهما من علماء النفس الاجتماعي اتخاذ الشخصية صفات جديدة لم تكن موجودة بها. في حين بيَّنت الدراسات الحديثة أن الفرد مزود بإمكانيات لسلوكه المقبل، وأنه خلال نموه يكتسب صفات جديدة تبعاً للعوامل الخارجية المحيطة به"[٣].

وهكذا يتبين أن الشخصية تحمل بالوراثة استعدادات أولية تقبل التشكل وفقاً لمقتضيات النمو. وبذلك تكون الوراثة والمحيط عاملين أساسيين في تكوينها. ويشير الأبرشي إلى "أن الشخصية توهب بالفطرة، وقد تكتسب بالتربية ولكن الفطرية أقوى من

---

(١) فراج، عثمان، الشخصية والصحة النفسية، مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٦٦، ص ١١.

(٢) بركات، محمد، خليفة، تحليل الشخصية، مكتبة مصر، ص ١١.

(٣) رحمة، انطون، أثر معاملة الوالدين في تكوين الشخصية، رسالة ماجستير في التربية، جامعة دمشق، كلية التربية، دمشق ١٩٦٥، ص ١٠.

المكتسبة"[١]. ومن العناصر الجوهرية التي تتكون منها الشخصية القوية: الجاذبية والنشاط العقلي والمشاركة الوجدانية والشجاعة والحكمة والتفاؤل والتواضع وحسن المظهر وقوة البيان والثقة بالنفس"[٢].

هذه التعريفات وإن كانت تشكل مدخلاً إلى تعريف الشخصية إلاّ أنها تبقى عاجزة عن الإلمام باستيعاب شخصية فاقت البشر في تكوينها الخلقي والخُلقي، إنها مخلوق من نور انفصل عن عالم واستقر في عالم، فكانت حقيقته من بعد كما كانت حقيقته من قبل. وقد قال النبي الأعظم (ص): "لو كان الحُسن شخصاً لكان فاطمة، بل هي أعظم. فإن فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً"[٣].

١ ـ السيدة فاطمة (ع) في القرآن الكريم:

يقول السيد عبد الحسين شرف الدين "وحسبك من محكمات البيّنات أدلة قاطعة تظل في اعناق الورى لها خاضعة"[٤].

أ ـ في عصمة السيدة فاطمة (ع):

١ ـ آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ **(الأحزاب: ٣٣).**

أكثر المفسرين قالوا: أن هذه الآية نزلت في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع). "وقد أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري أنها نزلت في خمسة: النبي (ص)، وعلي، وفاطمة والحسن والحسين (ع)، وأخرجه ابن جرير مرفوعاً بلفظ: أنزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ وفي عليٍّ والحسن والحسين وفاطمة. وأخرجه الطبراني أيضاً. ولمسلم: أنه (ص) أدخل أولئك تحت كساء وقرأ هذه الآية. وصح أنه (ص) جعل على هؤلاء كساء وقال اللهم هؤلاء أهل بيتي وحاميتي ـ أي خاصتي ـ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقالت أم سلمة: وأنا معهم. قال: إنك على خير[٥].

---

(١) الأبرشي. محمد عطية، الشخصية، مطبعة المعارف. ط ٢، مصر. ١٩٣٨. ص ١٠.

(٢) (م.ن)، ص ١٥.

(٣) العلوي. عادل. فاطمة الزهراء (ع) سر الوجود، منشورات مكتب الشيخ جواد التبريزي. ط ١، دمشق. ٢٠٠٠. ص ٥٩.

(٤) شرف الدين. عبد الحسين. الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء (ع)، تحقيق محمد رضا المقاني، منشورات دليل ما، ط ١، قم، ١٤٢٧هـ. ص ٩.

(٥) ابن حجر. الصواعق المحرقة، مكتبة القاهرة، ص ١٤٣/السيوطي. جلال الدين. الدرر المنثور. ص ٦٨، ج ٢. مكتبة المرعشي النجفي، مركز بقية الله الأعظم للدراسات والنشر، بيروت. ١٩٩٩، ص ١٩٨، ج ٥/مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ص ٩٤/الحكساني، شواهد التنزيل. تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة الطبع والنشر. طهران. ط ١. ١٩٩٠. ص ٤٠. ج ٢.

هذه الآية برهاناً على أن هؤلاء الخمسة أفضل من أقلته الأرض ومن أظلته السماء. فالنبي محمد (ص) وصنوه عليٌّ (ع) وبضعته فاطمة (ع) التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها، والحسن والحسين ريحانتاه من الدنيا، سبطاه، الإمامان، سيدا شباب أهل الجنة. ومقدار تخصيص الآية بهؤلاء الخمسة أنه (ص) كان بعد نزول الآية، كلما خرج إلى الفجر يمر ببيت فاطمة فيقول: "الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]. وحدث الضحاك بن مزاحم (رضي) أن نبي الله (ص) كان يقول "نحن اهل بيت طهرهم الله، من شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم"[2].

إن هذه الآية كما يشير السيد شرف الدين دلت على عصمة الخمسة: لأن الرجس فيها عبارة عن الذنوب كما في الكشاف وغيره، وقد تصدرت بأداة الحصر وهي "إنما" — فأفادت أن إرادة الله تعالى في أمرهم مقصورة على إذهاب الذنوب عنهم وتطهيرهم منها. وهذا كنه العصمة وحقيقتها. كما أنها دلت بالالتزام على إمامة أمير المؤمنين: لأنه ادعَّى الخلافة لنفسه، وادَّعاها له الحسنان وفاطمة، ولا يكونون كاذبين. لأن الكذب من الرجس الذي أذهبه الله عنهم وطهرهم منه تطهيراً[3]. إن آية التطهير هي من الآيات النورانية التي تظهر مدى ارتباط آل النبوة بالعالم القدسي: إنهم الصفوة المختارة ليحملوا رسالته ويبلغوها ويهدون الناس سواء السبيل وإلى الصراط المستقيم.

والسيدة فاطمة (ع) التي اختارها الله من خلقه واختصها لذاته واصطفاها لنفسه لتتجلى فيها أسماؤه وصفاته **(أنا الفاطر وهي فاطمة)**، هي مجمع النورين بحديث الأفلاك "يا أحمد، لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا عليٌّ لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما"[4]. إن آية التطهير عصمت السيدة فاطمة (ع) عصمة ذاتية ومطلقة واجبة عقلاً ونقلاً.

٢ ـ حديث الثقلين:

قال رسول الله (ص): "يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلُّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي"[5]، وفي رواية "إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلُّوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، (م.س)، ج ٥، ص ١٩٩/المسكاني. شواهد التنزيل. (م. س)، ج٢، ص ٧٨ — ٨٢ أخرجه من عدة طرق.

(٢) (م. ن)، ص ١٩٩.

(٣) شرف، عبد الحسين، الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء (ع). (م. س)، ص ٧٥ — ٧٩.

(٤) العلوي، عادل، فاطمة الزهراء (ع) سر الوجود، (م. س)، ص ٢٥.

(٥) شرف الدين، عبد الحسين، المراجعات، دار المشرق العربي الكبير، ص ١٨.

يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما"[١]. لقد جعل الله السيدة فاطمة (ع) من بين الخمسة عدل القرآن في العصمة تبعاً لحديث الثقلين.

٣- كفاءتها لعلي (ع):

قال النبي (ص): "هبط عليَّ جبرائيل فقال: يا محمد إن الله جلّ جلاله يقول لو لم أخلق علياً لما كان لفاطمة ابنتك كفؤاً على وجه الأرض"[٢]. وأن تزويجها تمَّ بأمر من الله لقوله(ص): "ما زوجّت فاطمة إلاّ لمّا آمرني الله بتزويجها"[٣]، وقوله (ص): أنه أتاه الملاك فقال "يا رسول الله إن الله بعثني أن أزوِّج النور من النور، أعني فاطمة من عليٍّ"[٤]. فالمعصومة لا يتزوجها إلا معصوم، وهذه ميزة وفرادة لعلي بن أبي طالب (ع)، حتى النبي لم يشاركه بها، وعليه فكل ما ثبت لعليٍّ (ع) بالمطابقة ثبت للسيدة فاطمة (ع)، بالالتزام وكل شيء ثبت لفاطمة (ع) بالمطابقة ثبت بالدلالة الالتزامية لعلي بن أبي طالب (ع).

٤- خِلَقُها النورانية:

روي عن جابر عن... عن أبي عبد الله (ع) قال: "إن الله عزَّ وجل خلقها (السيدة فاطمة ع) من نور عظمته، فلما أشرقت أضاءت لها السموات والأرض وغشيت أبصار الملائكة وخرَّت الملائكة لله ساجدين وقالوا: إلهنا وسيدنا ما هذا النور؟ فأوحى إليهم هذا نور من نوري أسكنته في سمائي، خلقته من عظمتي، أخرجه من صلب نبيّ من أنبيائي، أفضّله على جميع الأنبياء. وأخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمري يهدون إلى حقي وأجعلهم خلفائي في أرضي بعد انقضاء وحييّ"[٥]. وفي حديث عن ابن عباس أنه سأل النبي (ص) كيف خُلِقت يا رسول الله؟ فأجاب (ص): "الله تعالى خلقني من نور مخزون في علم الله"[٦]. وفي وصف ذلك النور يقول (ص): "نور وجه الله، نور عظمته، نور الجلال، نور الكمال، ثم يواصل حديثه، نور مخزون مكنون الله"[٧]. فالسيدة فاطمة (ع) في خلقتها النورانية تساوي النبي الأعظم (ص) وهذا إشارة إلى قوله (ص): "فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله"،

---

(١) (م. ن). ص ١٥.

(٢) الهمداني، أحمد الرحمن، فاطمة الزهراء (ع) بهجة قلب المصطفى. نشر المرضية. ط ٢. ١٣٧٢ ش، طهران. ص ٨٠.

(٣) (م. ن)، ص ٨١.

(٤) الكليني. الكافي، دار مصعب، ط ٤. ١٤٠١هـ، ص ٤٦٧. ج ١/المقرم. عبد الرزاق. وفاة الصديقة الزهراء (ع) مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ١. ١٩٨٣، ص ٢٩.

(٥) الصدوق، علل الشرائع. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص ١١٢ باب ١٤٣.

(٦) الاميني. المعصومة الكاملة، مركز باء للدراسات، ط ١. بيروت، ٢٠٠١، ص ٨١.

(٧) (م. ن)، ص ٨٤.

إلى قوله (ص): "فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله"، وقوله (ص): "فاطمة شجنة مني"[1] وقوله (ص) "فاطمة هي قلبي وهي روحي التي بين جنبيّ".

ب - في جلالة وكرامة السيدة فاطمة (ع):

١ - آية المباهلة:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

أجمعت التفاسير أنه لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (ع) فقال اللهم هؤلاء أهلي. وفيه أن النبي (ص) لما دعا أهل نجران إلى المباهلة قالوا: نرجع وننظر... وأتى الرسول وقد غدا محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي وعلي خلفها وهو يقول: "إذا أنا دعوت فأمنّوا". فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة..."[2]. إن السيدة فاطمة (ع) هي من بين الخمسة الذين نزلت فيهم الآية ولم يشاركهم فيها أحد من العالمين. يقول السيد شرف الدين: "إن من وقف على هذه الوهلة العظيمة، والروعة الشديدة التي رهقت أعلام نجران وممثلي دينها ودنياها بمجرد أن برز أصحاب الكساء لمباهلتهم يعلم أن لمحمد (ص) وآله جلالة ربانية تغشي الأبصار، أو مهابة روحانية يخفض لها جناح الذل والصغار،... فكأن الجلالة والعظمة، والمهابة، وقرب المنزلة من الله، والكرامة عليه، مكتوبة بنوره تعالى في أسارير جبهاتهم الميمونة، ومعنونّة في صفحات وجناتهم الكريمة"[3].

ويتابع السيد شرف الدين بأن مباهلة النبي (ص) بهم والتماسه منهم التأمين على دعائه بمجرّده لفضل عظيم، وانتخابه إياهم لهذه المهمة العظيمة واختصاصهم بهذا الشأن الكبير وإيثارهم فيه على من سواهم من أهل السوابق فضلٌ على فضل، ولم يسبقهم إليه سابق، ولن يلحقهم لاحق. (كما) أن الآية الكريمة ظاهرة في عموم الأبناء والأنفس. وإنما أطلقت هذه العمومات عليهم بالخصوص تبياناً لكونهم ممثليّ الإسلام، وإعلاناً لكونهم أكمل الأنام، وإيذاناً بكونهم صفوة العالم، وبرهاناً على أنهم خيرة الخيرة من بني آدم. وتنبهاً إلى أن فيهم من الروحانية الإسلامية والإخلاص لله في العبودية ما ليس في جميع البرية، وأن دعوتهم إلى

---

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، (م. س)، ج ٤٣، ص ٢٦.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٢٩٦/البيضاوي، أنوار التنزيل، مؤسسة شعبان، بيروت، ج ٢، ص ٢٢/ابن حجر، الصواعق المحرقة، (م.س)، ص ١٥٥.

(٣) شرف الدين، عبد الحسين، الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء، (م.س)، ص ١٨ ← ٣٠.

المباهلة بحكم دعوة الجميع وحضورهم خاصة فيها مُنزَلٌ منزلة حضور الأمة عامة، وتأمينهم على دعائه فغنيٌ عن تأمين ما عداهم"[١].

٢ـ السيدة فاطمة (ع) أم أبيها (ص):

هي أمومة على سبيل المجاز كدلالة على كرامة السيدة فاطمة (ع)، وقداسة منزلتها، ومدى العلاقة الوجدانية والذاتية بين النبي (ص) وبينها (ع). فكما تشرفت زوجات النبي بأنهن أمهات المؤمنين بقوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ (الأحزاب/٦)، وكما تشرفت مكة بأن تكون ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ (الأنعام/٩٢) لأنها قبلة الناس يؤمونها، وكما تشرفت الفاتحة بأن تكون أم الكتاب لأنه يبتدأ بها في كل صلاة، والفاتحة أم الكتاب لأنها المقدمة أمام كل سورة وابتدأ بها المصحف. فالأم هي الأصل، وأم كل شيء أصله وعماده. وأم القوم رئيسهم، وأم منزله أي امرأته ومن يدبر بيته[٢].

وقد تشرفت السيدة فاطمة (ع) أن تكون "أم أبيها" وفيه منتهى التعظيم والتشريف لما جمعته (ع) من أصول موضوعية لكينونة النبي (ص) "فاطمة بضعة منّي، روحي، قلبي بين جنبَي، شجنة منِّي، شعرة منِّي".. "أم أبيها" هو تشبيه يصح حتى في علوم البلاغة وذلك للعلاقة الوجدانية بين تلك الأصول الموضوعية التي تكوّنت منها السيدة منها فاطمة (ع) وبين ما تكوّن منه النبي (ص).

"أم أبيها" هذا التعظيم والتشريف أرسى دعائمه النبي الأعظم (ص) ووطدً أركانه بأنماط سلوكية متعددة ومتكررة، وكلها تشير إلى حقيقة السيدة فاطمة (ع) ومكانتها من أبيها (ص). روي أن رسول الله (ص) كان إذا قدم من غزوة أو سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم يأتي فاطمة (ع) ثم يأتي أزواجه[٣]. وقد روي عن ثوبان: كان النبي (ص) إذا سافر كان آخر عهده بإنسان فاطمة، وأول من يدخل عليه فاطمة (أخرجه أحمد)[٤]. وعن ابن عباس قال: إن النبي (ص) كان إذا جاء من سفر قبَّل فاطمة (ع)[٥]. وكفى السيدة فخراً أن ارتقت وتسامت لتكون وارثة المجد الذي جاء به الوحي: أخرج الطبراني عن ابن عمر أن النبي (ص) قال: كل بني أنثى فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد

(١) (م.ن)، ص ٢٠.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ص ٢١٩/٢١٨، ج ١.

(٣) الشرواني. حيدر. ما روته العامة في مناقب أهل البيت. تحقيق محمد الحسون. مطبعة المنشورات الاسلامية. ١٤١٤هـ، ص ٢٣٢.

(٤) القندوزي. ينابيع المودة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، ج ١، ص ٢٣.

(٥) م.ن، ص ٢٣.

فاطمة فإني أنا عصبتهم وأنا أبوهم"[١] وقوله (ص): "لكل بني انثى عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم"[٢].

٣ ـ السيدة فاطمة (ع) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، وبين الطاعة والمعصية:

قدَّم النبي الأعظم (ص) السيدة فاطمة (ع) نموذجاً من نفسه حتى غدت بمعناها الميزان الفاصل بين الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وقد أكدَّ (ص) هذه الحقيقة بتكرارها. والحقائق لا يتم معناها إلا بمعاودتها وتكرارها، والتسامي الصحيح لا يكون إلا بالحقائق وحدها. وقد تواترت الأحاديث عن النبي (ص) في تقديم السيدة فاطمة (ع) كصورة متكاملة لإرادة المشيئة، وقد جاءت رمزاً صادقاً عن النبي (ص)، رمزاً أعطاها حالة فريدة مميزة. روي في الحديث قول النبي (ص) "فاطمة بضعة منِّي من أغضبها فقد أغضبني"[٣]، وعنه (ص) "فاطمة بضعة منِّي يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي. رواه الإمام أحمد، والحاكم[٤]. وعنه (ص) "فاطمة شجنة منِّي يؤذيني من آذاها ويسرني ما سرها وإن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها"[٥] وعنه (ص) "كنت إذا اشتقت إلى الجنة شممت رقبة فاطمة"[٦]. وعن ابن عباس، عنه (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) أنه قال: "أنا ميزان، العلم، وعلي كفتاه، والحسن والحسين خيوطه، والأئمة من أمتي عموده: وفاطمته علاقته توزن فيه أعمال المحبين لنا والمبغضين لنا"، رواه الديلمي[٧]. وقوله (ص): "إنما سميَّت فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها عن النار"[٨].

على هذا النحو من الجلالة والسمو والرفعة أعلن النبي (ص) حقائق عملية تجسدَّت فيها مقام السيدة فاطمة (ع) ورفعتها ومنزلتها والتي تستلزم وجوب طاعتين: إحداهما طاعة النبي (ص)، وأخرى لله تعالى. وما يأمر به النبي (ص) هو حكماً ما أمر به الله تعالى. بل هو عين ما أمر به الله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣ - ٤) والرسول الكريم (ص) لا يصح عنه أنه يأمر بشيء يخالف حكم الله، وعليه، تكون إطاعته (ص)

---

(١) ابن حجر. الصواعق المحرقة، (م.س)، ص ١٨٧.

(٢) (م. ن)، ص ١٨٧/ابن شاهين والسيوطي والقلقشندي. فضائل فاطمة الزهراء. مؤسسة الزهراء، طهران، ط ١، ١٤١٦هـ، ص ١٤١.

(٣) كنز العمال، ج ١٢، ص ١٠٨/ابن شاهين، السيوطي، القلقشندي. فضائل فاطمة الزهراء. (م. س)، ص ٨٣.

(٤) ابن شاهين، السيوطي، القلقشندي، (م.ن)، ص ٨٤/ ابن حجر. الصواعق المحرقة. (م. س)، ص ١٨٨.

(٥) المجلسي. بحار الأنوار، (م. س)، ج ٤٣، ص ٢٦.

(٦) ابن شاهين. السيوطي، القلقشندي. (م.ن)، ص ١٣٩.

(٧) (م. ن)، ص ٩٤.

(٨) (م. ن)، ص ١٣٨.

بإرضاء فاطمة (ع)، طاعة واجبة التنفيذ، واجبة وجوباً مطلقاً. لقد أراد النبي الأعظم (ص) أن يبين للبشرية بأن السيدة فاطمة (ع) هي الفيض، هي الإشعاع الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالله تعالى، فالإنسانية بحبها للسيدة فاطمة (ع) ترتفع بحسها ومشاعرها إلى القمة لشعورها بالعطاء الإلهي من كل وجوهه وفي كل وجهه.

٢ - نحن نقص عليك أحسن القصص: السيدة فاطمة (ع) مستودع السر الإلهي:

إن من تدبر الآيات البيِّنات التي نزلت في السيدة فاطمة (ع)، وغاص في درر معانيها وأسرارها البالغة، وجد في مقدار عناية الله تعالى في السيدة فاطمة (ع) أمراً عظيماً لا يوصف بكيف ولا يقدَّر بكم!! وحسبك في حقيقتها العظمى ما قاله الإمام الحسن العسكري (ع): "نحن حجج الله على خلقه وجدتنا فاطمة حجة الله علينا"[١]، وما قاله جابر الأنصاري عن رسول الله (ص): "يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك ولولا علي لما خلقتك ولولا فاطمة ما خلقتكما"[٢]، فالسيدة فاطمة (ع) هي تجلِّي السر الإلهي الأعظم الذي استودعه جلَّ جلاله في شخصها (ع). إنها مجمع النورين: نور النبوة ونور الإمامة لقوله (ص) إلى السيدة خديجة وكانت حاملاً بالسيدة فاطمة: "يا خديجة، هذا جبرائيل (يبشرني) يخبرني أنها أنثى، وأنها النسلة الطاهرة الميمونة وأن الله تبارك وتعالى سيجعل منها نسلي وسيجعل من نسلها أئمة ويجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه"[٣].

١ - الحقيقة العظمى للسر الفاطمي (ع):

أ - وحدة الإرادة الإلهية:

حيث أن الله تبارك وتعالى يغضب لغضب السيدة فاطمة ويرضى لرضاها. إن التسليم لله تعالى على نحو مطلق في الحب والبغض منحصر في النبي الأعظم (ص) وفي طاعته. وقد شدَّد النبي (ص) من خلال أقوال وأفعال متعددة على إرضاء السيدة فاطمة (ع) وعدم إغضابها. حيث أن رضاها موجب للفوز والرحمة، وإغضابها موجب للعذاب والخسران لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (طه/٨١)، ونحن في صلاتنا نتوجه إلى الباري عزَّ وجلَّ بأن يجعلنا من عباده ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة/٧).

إن حب وإرضاء السيدة فاطمة (ع) هما الميزان الذي يتوقف عليه رضى الله تعالى، ومن يرضى عنه الله فقد فاز فوزاً عظيماً ونال ما وعده ربه "ومساكن طيبة" في جناتِ

---

(١) السعودي، محمد فاضل، الأسرار الفاطمية، طهران، ط ٣، ٢٠٠٢، ص ١٠٤.

(٢) (م. ن)، ص ٢٣١.

(٣) الطوسي، الثاقب في المناقب، ط ٢، مؤسسة أنصاريان، م، ١٤١٢، ص ٢٨٥/المجلسي، بحار الأنوار، (م. س)، ج ٤٣، ص ٢ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم" (التوبة: ٧٢). وفي الحديث: "أن الله يتجلّى للمؤمنين في الجنة فيقول لهم: سلوني. فيقولون: رضاك يا ربنا"[١]. في رواية الطبراني وابن عمر "آخر ما تكلم به النبي (ص) أخلفوني في أهل بيتي"[٢]. وفي رواية أخرى عن الطبراني وابن الشيخ: إن لله عزَّ وجَلّ ثلاث حرمات فمن حفظهن حفظ الله دينه ودنياه ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله دنياه ولا آخرته: قُلن: ما هُن؟ قال: حرمة الإسلام وحرمتي وحرمة رحمي"[٣].

ب ـ السيدة فاطمة برزخ بين عالم النبوة الكبرى والولاية العظمى:

إن إدراك ومعرفة أبعاد أهداف الآيات القرآنية التي نزلت في حق السيدة فاطمة (ع): ومنها أن تكون (ع) **ليلة القدر**: فقد روى يعقوب بن جعفر بن إبراهيم: "كنت عند أبي الحسن موسى (ع)... فقال ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ (الدخان/١-٤) فقال (ع): أما "حم" فهو محمد (ص)، وأما "الكتاب المبين" "فهو أمير المؤمنين (ع)، وأما الليلة ففاطمة صلوات الله عليها، وأما قوله "فيها يُفرق كل أمر حكيم" يخرج منها خير كثير، فرجل حكيم ورجل حكيم"[٤].

وفي آية المباهلة عندما يتقدَّم النبي الأعظم (ص) وعليٌ (ع) في أثره، وفاطمة (ع) في الوسط (بينهما)، له دلالاته العظمى حول مركزية السيدة فاطمة (ع)، وموقعها القطبي بين مقامي: النبوة والإمامة، كما أن توجه النبي (ص) إلى أصحاب الكساء بالقول "إذا دعوت فأمنّو" له عظيم الدلالة بأن استجابة الدعاء مقرونة بأنفاس السيدة فاطمة (ع) وبعلها وبنيها، كما أن تقديم الأبناء والنساء في الآية تنبيه على لطف مكانة الزهراء وبنيها وقرب منزلتهم، وأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها[٥]: أليس في ذلك سراً إلهياً وحجة من رب العالمين على عباده أجمعين.

ج ـ السيدة فاطمة (ع) حاملة سر النبوة. (سر السر):

إن السيدة فاطمة (ع) في خلقتها النورانية تساوي النبي الأعظم (ص) **ما عدا النبوة**، في صفاته الذاتية بكل ما خصَّها الرحمن من عظمة وصدق، وعصمة، وطهارة، ومهابة، وإيمان. فكان لها من الكمالات الإلهية والإنسانية. فلا بدع، وهي بضعة النبي (ص)، وشجنه منه، وروحه

---

(١) النراقي، جامع السعادات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٦، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٠٧.

(٢) ابن حجر، الصواعق المحرقة، (م.س)، ص ١٥٠.

(٣) (م.ن)، ص ١٥٠.

(٤) الخرساني، الوحيد، مقتطفات ولائية، ط ١، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٩٤.

(٥) راجع الكشاف: الزمخشري، (م.س)، ج ١، ص ٢٩٦ وما بعده تفسير آية المباهلة سورة آل عمران (بتصرف).

التي بين جنبيه. وقد ورد في الخبر النبوي الشريف "ظاهري النبوة وباطني الولاية"[1] فالسيدة فاطمة (ع) يعني رسول الله (ص) وأمير المؤمنين، فهي مظهر النبوة والإمامة، وهي مجمع النورين: النور المحمدي والنور العلوي. فالنبوة والإمامة في وجودها. وهذا من معاني **(والسر المستودع فيها)، فالنبي الأعظم محمد (ص) هو سر الوجود، والسيدة فاطمة (ع) هي مستودع سر سر الوجود**، هي المستودع الحاضن سر الكون، الحاضن سر النبوة، الحاضن سر الإمامة: لقد تجلّت (ع) في سترات الملكوت فأشرقت وتلألأت وامتدت، فكانت في البداية **(نقطة)** وفي النهاية **(كوثر)**. فسبحان من أفاض وأعطى. وقال النبي الأعظم (ص) لفاطمة كما أخرجه عنه الكنجي في البيان، وابن الصباغ في الفصول المهمة. واللفظ للكنجي: "أنا خاتم النبيين وأكرم النبيين على الله وأحب المخلوقين إلى الله، وأنا أبوك، ووصيّ خير الأوصياء وأحبهم إلى الله وهو بعلك... ومنّا سبطا هذه الأمة وهما ابناك الحسن والحسين، وهما سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما – والذي بعثني بالحق – خير منهما. يا فاطمة والذي بعثني بالحق، إنّ منهما مهدي هذه الأمة، إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً وتظاهرت الفتن..."[2] وأخرج السيوطي عن ابن عساكر عن الحسين (ع) أن رسول الله (ص) قال: "ابشري يا فاطمة، المهدّي منك"[3].

إن السر المستودع في السيدة فاطمة (ع) هو **الولاية**. وهذا مصداق لحديث جابر الأنصاري عن النبي (ص) "يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك ولولا عليّ لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما". فالنبي محمد (ص) هو سر الوجود، ومن أصله خلق الكون، وهو الجامع لصفات الله تعالى والعاكس لها، وهو اشرف المخلوقات فلذلك صار حجة على الخلق وهذه الحجية كما يشير السيد عادل العلوي "ثابتة لمن يليه في المسؤولية... والذي يليه لا بد أن يكون بينه وبين النبي (ص) من سنخية، لأن السنخية هي الترابط والتشابه بين العلة والمعلول، فإذا كان النبي (ص) هو العلة الغائية لا بد أن يكون له معلولاً يشترك معه في الغاية، ولا بد أن تكون سنخية بينهما بموجب قاعدة السنخية[4]... فإذا كان النبي هو العلة الغائية لهذا الكون... فالمعلول لا بد أن يكون من سنخه ومن جنسه ومن نفسه وليس هو إلا الإمام علي بن

---

(١) الخرساني، الوحيد، (م.ن)، ص ٦٠.

(٢) الصدر، محمد، تاريخ ما بعد الظهور، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٢، مجلد ٣، ص ٧٥.

(٣) (م.ن)، ص ٧٥.

(٤) قاعدة السنخية: مفادها أن يكون بين العلة والمعلول رابطة تكوينية وذاتية غير موجودة بين تلك العلة ومعلول أخر. أو بين ذلك المعلول وعلة أخرى، وإذا لم تكن هذه الرابطة يلزم أن يصدر كل شيء من كل شيء. مثال ذلك النار علة لوجود الحرارة، للسنخية بينهما ولولا السنخية لجاز أن تصدر البرودة من النار وهذا محال. والسنخية علة الانضمام (عادل العلوي، فاطمة الزهراء سر الوجود، (م.س)، ص ٣٠).

أبي طالب لآية المباهلة "وأنفسنا وأنفسكم" فلذلك صار الحديث "لولا عليٌ لما خلقتك"... فأنت يا رسول الله نور النبوة وعليٌّ نور الإمامة وكلاكما نور التوحيد، فلا بد لكما من معلول يجمع بين نوريكما وبين حجتيكما، وهذا المعلول الذي يشبهكما وبمستواكما ما هو إلا فاطمة الزهراء (ع)، فلذلك قال: "ولولا فاطمة لما خلقتكما" لأنها بطن الإمامة وصلب النبوة، وهي روح النبوة والإمامة، والإسلام والعقيدة، فإذن هي سر الوجود أو سر السر..."[1]. ولذلك قال الإمام الحجة (عج) "إني أقتدي بأمي فاطمة لما لها من الفضل والعظمة التي يقرُّ بها جميع الأنبياء"[2].

السيدة فاطمة (ع) التي حازت مقام الولاية، وبالخصوص حازت السر المستودع وهو الإمام المهدي (عج) وهذا نجده في معنى الآية المباركة "وإذ ابتلى إبراهيم ربُّهُ بكلمات فأتمهُّن" (البقرة: ١٢٤)، فقد سأل المفضل بن عمر الإمام الصادق (ع) عن هذه الكلمات. فقال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، وهو أنه قال: أسألك بحق محمد وعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين إلا تُبت عليَّ... فما يعني "فأتمهُّن" قال: يعني أتمهُّن إلى القائم اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين (ع)[3].

وبهذا الخصوص تكون السيدة فاطمة (ع) حجة الله الكبرى على العالمين، **فالسر الذي وضعه الله تعالى في السيدة فاطمة (ع) هو ديمومة الإسلام والقيام بالحق** وفي ذلك يقول الإمام علي بن موسى الرضا (ع) "نحن حجج الله في أرضه وخلفاؤه في عباده وأمناؤه على سره، ونحن كلمة التقوى والعروة الوثقى، ونحن شهداء الله وأعلامه في بريته"[4]. والإمام المهدي (عج) هو من ولد السيدة فاطمة (ع)، إليه تنتهي مواريث الأنبياء وبذلك تكون ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (الأنعام ١١٥)، وقوله تعالى ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ٨٦). إنه عصارة الخلق والوجود.

فالمهدي (عج) سر الوجود والسيدة فاطمة (ع) سر الوجود.

٣ - في قصصهم عبرة لأولي الألباب: السيدة فاطمة الزهراء (ع) المثل الأعلى للإنسانية: (إطلالة مستقبلية):

لقد قدَّم الإسلام في السيدة فاطمة (ع) صورة نموذجية في إرساء موقع المرأة ومكانتها في أقصى حدودها؛ من حيث أنها عاملاً أساسياً من عوامل الارتقاء النفسي والبنيوي

---

(١) العلوي، عادل، فاطمة الزهراء (ع) سر الوجود، (م. س)، ص ٢٩ – ٣١.

(٢) (م. ن)، ص ٣٥.

(٣) الأميني، المعصومة الكاملة، (م.س)، ص ٢٧.

(٤) الصافي الموسوي، جواد، في رحاب الزهراء، دار الزهراء، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧، ص ١٧٥.

والوظيفي والاجتماعي. هذه الصورة النموذجية هي ما تحتاجه المرأة في الوقت الراهن، حيث أنها تعيش تحت إرهاصات الحضارة الغربية وما تفرزه من مآزم، وضغوطات، واستلاب لكيانها تحت شعارات: التحرر الغير المشروط، والمساواة، والتنمية التي أثبتت الوقائع بأنها أدّت ضمن سياقات متنوعة إلى اختزال لكيان المرأة ومكانتها، أدخلتها في دائرة المجتمع المأزوم: وفي وهم السعادة والرفاه من خلال استثمارها إعلامياً باختزالها إلى صورة جسد يشكّل أحد مقومات اقتصاد السوق في عصر العولمة.

هذه الوقائع تحتم أعادة قراءة واقع المرأة في الإسلام الذي تتجمع فيه كل مظاهر الارتقاء بالمرأة: والتي تمهد بدورها لبناء نوعية حياة كريمة على المستوى الإنساني والمعرفي. إن سيرة السيدة فاطمة (ع) تشكل نموذجاً مثالياً للمرأة في أرقى المستويات الإنسانية. إن الدعوة إلى الاقتداء بالسيدة فاطمة (ع) هي دعوة إلى الالتزام بالمنطق القرآني، إنها دعوة إلى التوجه نحو إطاعة الله ورسوله (ص)، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ (النساء: ٦٩).

فإن كان النبي الأعظم محمد (ص) قد أرسى للبشرية طريق خلاصها حيث بيّن لها النجدين بقوله (ص): "من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها إنها فاطمة بنت محمد، بضعتي، وهي قلبي وهي روحي التي بين جنبيّ"... فالسيدة فاطمة (ع) رسمت تاريخ الأمة بقولها "اعلموا أنّي فاطمة وأبي (أنا فاطمة ابنة محمد)، أقول عوداً على بدء، وما أقول ذلك سرفاً ولا شططاً، فاسمعوا بأسماع واعية وقلوب راعية"[1].

❖ ❖ ❖

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٩. ص ٢١٢، ج ١٦.

الطبرسي، الفضل بن الحسن، الاحتجاج، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٣٤، ج١.

الفتح والبشرى
في مناقب الزهراء (ع)

تأليف

السيد محمد بن السيد حسين العلوي المدني الشافعي الجفري

(١١٤٩ - ١١٨٦ هـ) / (١٧٣٦ - ١٧٧٢ م)

تحقيق

محمّد سعيد الطريحي

الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٥ م

الطبعة الثانية بغداد ٢٠١٣ م

الطبعة الثالثة هولندا ٢٠١٤ م



الفتح والبشرى

مؤلف هذه الرسالة أحد أعلام القرن الثاني الهجري، من أهل المدينة المنّورة بها ولد ونشأ وتوفي، وكان عالماً فاضلاً، وأديباً جليلاً وشاعراً مقبولاً، ومحدثاً فقيهاً، من مدرّسي المسجد النبوي الشريف ومن الحفاظ المتقنين الصالحين. ينحدر من أسرة علوية شريفة ترجع بنسبها إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وتعرف بآل الجفري[١] نسبة إلى الجَفْر: بالفتح ثم السكون، موضع بناحية من نواحي المدينة المشرَّفة[٢].

ويبدو أن والد المترجم له السيد حسين الجَفْري كان من أهل الفضل والتقى، فنشأ الابن على أبيه محباً للعلم والعلماء منقطعاً للدراسة والتحصيل، حتى حاز من علوم عصره قسطاً وافراً فكان من فقهاء الشافعية الأفاضل في المدينة، ويظهر من آثاره أنه كان من أهل الموهبة والفطنة والذكاء، وكان له أطيب الأثر من العطاء الفكري، وخدمة الدين والشريعة المقدسة لولا أن المنية قد عاجلته وهو في عزّ شبابه وعطائه وزمن بروز قابليته وإمكاناته، ولم يتجاوز العقد الرابع من عمره رحمه الله رحمة واسعة[٣].

ولذلك نرى (محمد خليل المرادي) يصفه بالشريف بن الشريف، الشهم الفاضل، الغطريف، ذو الفهم الوقاد والذكاء النقاد، ثم يقول: «وكان من أفراد العالم فضلاً وذكاء ونباهة»[٤].

ولقد نحا السيد محمد الجفري منحاً صوفياً عميقاً انعكس على سلوكه وأخلاقيته، كما يبدو من كتاباته التي تنبئ بوضوح عن قوة هذا الاتجاه في تفكيره وشخصيته، ولنا أن

---

(١) ألّف في فضل هذه الأسرة، أحد أعلامها، وهو شيخ بن محمد بن حسن الجفري العلوي الحسيني، المدني (١١٣٧ - ١٢٢٢هـ/١٧٢٥ - ١٨٠٧) كتاب (الكواكب الدرّي في نسب السادة آل الجفري) والجفري هذا من أهل حضرموت، من الصوفية: تنقل في البلدان حتى استقر في إقليم المليبار (كيرالا الحالية) بجنوب غربي الهند فاستوطن مدينة كاليكوت المشهورة بالجاليات العربية وبهامات. انظر: الإلهامات الغيبية لسادات مشائخ الطريقة الحسينية والشُعيبية، والمسلك السوي من المشرع الروي. له ترجمة في تأريخ الشعراء الحضرميين ٢/٢١٨.

(٢) الجفْر لغة هي البئر الواسعة القعر لم تُطو، وهناك عدة مياه في أمكنة شتى تدعى بالجفر، وموضع الجفر من نواحي المدينة كان بها ضيعة لأبي عبد الجبار سعيد بن سليمان بن نوفل بن مساحق بن عبدالله بن مخرمة المدائني، القاضي أيام المهدي العباسي، وكان يكثر الخروج إليها فعرّف بالجَفْري. انظر معجم البلدان ٢/١٤٦.

(٣) كانت ولادته حدود سنة تسع وأربعين ومائة وألف، ووفاته في حادي عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة وألف. ودفن بالبقيع.

(٤) سلك الدرر ٤/٣٥ بولاق، القاهرة ١٣٠١.

نفسر سر ذلك بملازمته الكثيرة لأستاذه المتصوف الشهير في عصره السيد محمد بن عبد الكريم أبو عبد الله السمّان المدني، الشافعي، الخلوتي، القادري، الشاذلي (١١٣٠ ـ ١١٨٩هـ/ ١٧١٨ ـ ١٧٧٥م) المولود والمتوفى بالمدينة أيضاً وصاحب التصانيف في عدة مواضيع صوفية[1].

وقد أثنى الجفري غاية الثناء والإطراء على أستاذه السمان في شرحه لأرجوزته المسماة (جالية الكرب)، وذكر في أول شرحه قصيدة في مدحه رأينا إثباتها كنموذج في شعره:

وهي قوله:

ظهرت بدور الذات بالإشراق	في حان مجلي البسط والإطلاق
وأدير كأس الوصل من خمر اللمى	وفنى الرقيب وطاب وقت الساقي
وأتى عريب الحي أرباب الوفا	في حضرة التوحيد بالإطلاق
فغدوا سكارى من رحيق رضابه	وتهتكوا في مجلس العشاق
ثم انفنوا مذ لاح بارق نوره	فهو الذي ما زال يظهر باق
بمظاهر الرحموت في مجلس الرضا	بمحمد السمان مرقى الراقي
باب الإله فمن أتاه قد حظى	بوصال سلمى بعد طول فراق
سر الوجود طور سينا نوره	فيه اهتدى من رام حسن تلاق
ما كامل إلاّ وحلّ بسوحه	كي يستضيء بنوره البرّاق
بحر المعارف فيه خض يا صاح إن	رمت الترقي بل وحلّ وثاق
وأَنخْ ركابك في رحاب جنابه	وسل المطالب ترق أيّ مراقي
يا سيدي إني التجأت إليك في	كل الأمور فبيضن أوراقي
إني عليل في رحابك ميت	وأسير نفس راجياً إعتاقي
فاحظ حجابي واجل لي مرآة قلبي	كي أشاهد وحدة الإطلاق
وأفوز من ليلى بطيب وصالها	في ليلة طابت بحسن عناق

---

(١) ومن هذه التصانيف: النفحات الإلهية في كيفية سلوك الطريقة المحمدية، والوسيلة في الدعوات والأذكار، ومولد النبي، والأخير منه نسخة خطية في المكتبة الظاهرية برقم ٥٢٤٥ ضمن مجموع (١٢٥ ـ ١٣٢). وأخرى برقم ٩٩٣٢ ضمن مجموع (١٠٠ ـ ١١٤) ورأيت في هذه المكتبة عدة كتب في مناقب محمد السمان منها: جالية الكروب ومزيلة الأحزان في مناقب العارف السمان، ودرّة عقد جيد الزمان وفيض مواهب الرحمن في بعض مناقب السمان، والمناقب السنية من مواهب المنان علي عبده ذي الأخلاق المرضية. ومنائح الكريم المنان في بعض مناقب الشيخ السمان، والوهبة الرحمانية من بعض مناقب الحضرة السمانية وكل هذه الرسائل ضمن مجموع برقم ٥٢٤٥ ومن كتب السمان الخطية في الظاهرية تتمة نفحة الريحانة للمحبي برقم عام ٤٧٢٣ ـ التاريخ. وللسمان ترجمة في سلك الدرر ٤/٦٠ ـ ٦١، وجامع الكرامات: ١٤٥ ـ ١٤٧.

وأبيــت آلــثم ثغرهــا واشــم مــن ... كــل الجهــات ســنا الــشذى العبّــاق

وأخــوض في بحــر التجلــي نــشوة ... وأعــود صــحواً بعــد محــو نفــاقي

فكّــوا قيــادي ســادتي وتفــضلوا ... بوضــوح رمــزي مــن عمــى الإغــلاق

بحبيبنــا مجلــي البريــة (أحمــد) ... المخــصص بالإسـراء فــوق بــراق

صــلى عليــه (الله) ربــي دائمــاً ... والآل والأصــحاب خــير رفــاق

مــا أنــشدت في حــانكم قمريــة ... ظهــرت بــدور الــذات بالإشــراق

أساتذة الجفري

المعروف من أساتيذه:

١ ـ السيد محمد بن عبد الكريم السمان، المذكور. ٢ ـ الشيخ صالح البغدادي.

٣ ـ الشيخ جمعة السندي. ٤ ـ الشيخ محمد بن سلمان الكردي.

مؤلفاته:

١ ـ مولد النبي.

٢ ـ مناقب الخلفاء الأربعة.

٣ ـ مجموع في الخطب البليغة التي كانت تقرأ عند عقود الأنكحة، والمراسلات والمحاورات.

٤ ـ المواهب الغزار في بعض مناقب سيدي علي الكرار كرَّم الله وجهه. أوله «حمداً لعلي أهل من سماء فيوضاته...» إيضاح المكنون: ٦٠٨. حققناه ونشر في بيروت.

٥ ـ قرة كل عين في بعض مناقب سيدنا الإمام الحسين رضي الله عنه: منه نسخة في المكتبة الظاهرية ضمن مجموع تحت رقم ٧٠٠٦ كتبه يوسف بن محمد حماد سنة ١٢٦٦ (١ ـ ١٠ ورقة) ١٩ سطر، ٢٤ × ١٥سم. وأخرى في مكتبة جامعة الرياض كتبت سنة ١٢٥٦ هـ برقم ٦/٢٦٥٣م ونسخة أخرى بنفس المكتبة تحت رقم ٢٣٤٦ وقد نشرناها ببيروت عام ١٩٨٥م.

٦ ـ العقد الثمين في مناقب السيدة عائشة أم المؤمنين: منه نسخة مخطوطة ضمن المجموع المرقم ٧٠٠٦ بالمكتبة الظاهرية في خمس أوراق (١٥ ـ ٢٠). وأخرى بمكتبة جامعة الرياض برقم ٢/٢٦٥٣م.

٧ ـ المواهب والمنن في بعض مناقب سيدنا الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب وابن السيدة البتول: منه نسخة مخطوطة ضمن المجموع المرقم ٧٠٠٦ بالظاهرية (٢٠ ـ ٢٧ ورقة). ونسخة أخرى بمكتبة جامعة الرياض برقم ٥/٢٦٥٣م تأريخها ١٢٥٦هـ وقد نشرنا هذه الرسالة في بيروت عام ١٩٨٥.

٨ - الفتح والبشرى في مناقب الزهراء: (هذا الموضوع) وقد أخرجناه على النسخة المخطوطة المحفوظة بالمكتبة الظاهرية ضمن المجموع المرقم (٧٠٠٦) كتبه يوسف بن محمد حماد سنة ١٢٦٦، وهي نسخة جيدة بخط نسخ ومشكولة كتبت رؤوس الفقر بالمداد الأحمر، ونقط حمراء في نهايات الفقر الأولى، تقع في عشرة أوراق (١ - ١٠) القياس ١٩ سطر، ٢٤ × ١٥سم.

ورد ذكر هذه الرسالة في إيضاح المكنون قال:

«الفتح والبشرى في مناقب فاطمة الزهراء رضي الله عنها للسيد محمد الجفري تلميذ محمد السمان المتوفى سنة ١١٨٦ ست وثمانين ومائة وألف أولها: حمداً لمن جعل محبة أهل بيت رسول الله فاطمة عن ارتضاع يدي ما لا برضاه... الخ»[1].

وقد جاء في آخر هذه النسخة «وكان الفراغ من كتابه مناقب السيدة فاطمة الزهراء بقلم أفقر العباد إلى ربه الجواد يوسف بن المرحوم محمد حماد في رجب سنة ١٢٦٦..». وفي جامعة الرياض نسخة أخرى كتبت سنة ١٢٥٦ هـ برقم ١/٢٦٥٣م، تقع في ٧ أوراق، قياس ١٩ سطر، ١٠.٥ × ٢١سم.

٩ - الجنى اليانع الأقرب، على جالية الكرب ومنيلة الأرب:

وهو شرح على توسل أستاذه الصوفي السيد محمد السمان المسمى جالية الكرب ومنيلة الأرب، فرغ من تأليفه سنة ١١٦٦هـ طبع في مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة سنة ١٣٢٦هـ.

أوله بعد البسملة «يا من هو الهوية السارية، في مظاهرها البادية، بأسرار الجمع في المثاني السبع....».

آخره: «قال مصنفه وقع الفراغ من تبييضه غرة ربيع الأول بمسجد سيد المرسلين (سنة مائة وألف وسبعة وسبعين) والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على زين الأحباب المقرب من رب الأرباب وآله وأصحابه الأنجاب إلى يوم المآب».

وجالية الكرب المذكورة لأستاذه السمان أرجوزة شعرية مطلعها:

ما أنشدت في حانكم قمرية	**ظهرت بدور الذات بالإشراق**
الله يا الله يا الله	**يا ملجأ القاصد يا مولاه**
ندعوك مضطرين بالصفات	**بمظهر الأسما بسر الذات**

وقد شرحه السيد الجفري شرحاً وافياً على طريقة المتصوفة، وذكر في مقدمة الشرح أن أستاذه المذكور هو الذي أشار عليه بشرحها.

هذا ما تسنى لنا من ذكر المؤلف وكتابه وعلى الله قصد السبيل.

الهند - بومباي/١٩٨٥ **محمد سعيد الطريحي**

---

(١) البغدادي: إيضاح المكنون ١٧٥/٢. (طبع سنة ١٩٤٧/١٣٦٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

حمداً لِمَنْ جعل محبة آل بيت رسول الله، فاطمة عن ارتضاع ثدي ما لا يرضاه، ونوَّر ليالي وجودهم بمصباح السَّادة الأبرار، فأضحت زهراً بعلوَّ مقامهم على سائر البشر، وشكراً لمن نصب رايات التميز في ميدان الفضائل. ورفع إلى أوج السماك منهجهم العزيز فامسى راقياً أعلى المنازل، وأجرى عليهم دآماء[1] تيار إحسانه الغطمطم[2] عيون فضائل الفواضل، الذَّوارق، وأنار بهديهم بوارق الحقائق وشوارق الرقائق، وعوارف المعارف، وصلاةً على من لم تزل نسائم العرفان تُهدى إليه من أرج زهورها ما يهزأ بالعبهر[3]، ولم تبرح حمائ الإحسان تُسدي إليه من هزج طيورها ما يزري بالمزهر[4]، جدّ الحسنين، وسيد الكونين، المرسل إلى العالمين بشيراً ونذيراً والمنزل عليه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[5]، وآله الواردين من مناهل السيادة عُبابها[6]، والراشفين من مباسم السعادة رُضابها[7]، وأصحابه الذين نظمت صفاتهم الغرّاء فزينت قلائدها من الوجود جيداً ونحراً، صلاةً تنثر على روضات أجداثهم من نُوار كمامها نوافح الأزهار، عاصمة قائلها عن وصمة النفاق والإنكار، ما صدحت عنادل الرضوان شغانيب[8] هذا المحفل الفضفاض[9]، وهيمنت النفحات الإلهية فحفَّ الملائكةُ الكرام ترتفع طلائح[10] هذه الرّياض.

---

(١) الدأماء: البحر.

(٢) تغطمط البحرُ: اضطرب وعلت أمواجه، وبحر غُطامطٌ: عظيم الأمواج والغطمطم: البحر العظيم.

(٣) العَبهر: النرجس.

(٤) المِزْهَر: بكسر الميم من آلات الملاهي وهي عود الغناء والجمع مزاهر (مجمع البحرين للطريحي ص ٥٧٤، بيروت ـ مؤسسة الاعلمي ٢٠٠٩م).

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٣، ذهب أكثر العلماء إلى أن أهل البيت عبارة عن علي، وفاطمة، والحسن، والحسين لرؤية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه قال، في هذه الآية: أنها أنزلت في خمسة النبي (ص)، وعلي، وفاطمة، والحسن والحسين. انظر مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٢ بسنده عن عمرو بن ميمون، وج ٤: ١٠٧ بسنده عن شداد بن أبي عمار، وج ٦: ٢٩٢ بسنده عن أم سلمة وج ٦: ٢٩٢ بسنده عن شهر بن حشب. نزل الأبرار للدخشاني: ٣١.

(٦) العُباب: معظم السيل ارتفاع السيل. عُباب البحر، موجه، يقال: (جاءوا بعُبابهم) أي أجمعهم.

(٧) الرُضاب: البَرَد، قطع الثلج والسكر ونحو ذلك، وفتات المسك وهو المقصود هنا. وما رضاب: عذب.

(٨) الشُغنة: جمع شغن، والغصن الرطب، والشُغنب والشغنوب: الغصن الرطب الناعم.

(٩) الفضفاض: الواسع من ثوب أو عيش، والرجل الكثير العطاء.

(١٠) الطلع عند العرب: شجر حسن اللون لخضرته رفيف ونور طيب (مجمع البحرين/٨٠٢).

أما بعد فمناقبُ السيدة فاطمة الزهراء، جديرة بأن تسجدَ بتحريرها أقلامُ المصنفين في محاريب الطروس، وتتعطر بشذي عَرْف ذكرها مَحافل كتب المؤرخين ولا عطر بعد عروس، وحفيةٌ بأن تُمهل عيون آنابيب براعةِ المنقمين، على عراص[1] صحون خدود طِرسها بدر فرائد الفوائد، ويقتنص بلمحات نظرات نسورها في كل حين، ما تبدَّد في رياض كتب أرباب التأريخ من نوَّار الشوارد لطولِ حنين حداة عين المحبين، إلى مشاهدة مُحيًا جمالها حنين الصَّب العميد، وشدة استشراق سوائق آضعان العاشقين، إلى هاتيك المخائل استشراق هلال العيد، فلذا أضحت جيوش همتي في حمى جمع نموذجها محشورة مجموعة، وأنامل تأملي قاطفة من رياض تحقيقهاتها فواكه لا مقطوعة ولا ممنوعة، راكباً جوادَ العزم لاقتناص شواردها، مركضاً عنان القلم في مضمار الطرس لتأليف بعض فوائدها، مع علمي بأنَّ ذاتها العلية، إن طفقت أصفُها فلا أنصفها وإن صفاتها السنية إن أردت تعداد بعضها فلا أنصفها ولو مطيب غواربَ الإسهاب، واطلعت من أفق المدح غرائب بدور الأطناب، وإن أحاديث فضلها المرفوعة مرويةٌ بأفواه الدهور، وقلائد عقد فخرها المنظوم متحليةٌ به لَبَّاتُ الزمان ونحور الحور، فكان حقاً عليَّ أن أغيض مُجاجة[2] القلم، وأكتفي بشهرتها إذ هي كنارٍ على علم، والإطناب في صفة من عُرِفَ قدره خلقٌ مجتنب، وترك البيان لمن ظهر فخره أمرٌ قد وجب، بَيْدَ أني أحببتُ تعطير محالِ قلوب المحبين لتلك الذات، وتشنيف[3] أواني أسماع الحاضرين بأقراط أسماع تلك الصفات، راجياً ببركاتها الرّقي إلى المقام الأسنى، سائلاً منها بها تحقيق الانتساب إليها حساً ومعنى.

فأقول:

هي السيدة العلية والدرة الوضية، دُرَّة تاج نساء العالمين، وغُرَّةُ نتاج أمَّهات المؤمنين، المجموع فيها ما تفرَّق في جميعهم من كمالٍ وصفات، والمحصورُ فيها تلك المفاخر والمكرمات، مع ما خصَّها الله به من شمائل شريفة، وخصالٍ منيفة، سلسلة مدارج السعادة، التي ليس لسدرة عزها منتهى، صلصلة معارج السيادة، التي من دونها الفرقدان والسهى، ابنة حضرة رافع علم الرسالة، محبوبةُ من شفعَ السماحة بالبسالة، المتدرعة

---

(١) العراص: جمع العرصة بالفتح، كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء (مجمع البحرين/٨٦٠).

(٢) المجاجة. بحاجة الشيء: عصارته.

(٣) شنف الكلام: زيّنه، والشنف جمع شنوف وأشناف: ما علق في الأذن أو أعلاه من الحلي.

سربال الفتوة بكريمة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾[1]، والمتشرعة بجلبات الفضائل صاحبة المجد الأصيل، وساحبةُ ذيل الشرفِ الأثيل، السيدة فاطمة ابنة سيدنا محمد (ص)، ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن ملك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[2]:

نسبَ تبدّت شمسُهُ فضياؤها	**أضحى به نجم النفاق حسيرا**
نسبٌ أنار الكون بدر فخاره	**أمسى به متحبراً تحبيرا**
نسبٌ تعلى قدره بمحمد	**فسما رُقيّاً واستزاد حبورا**
نسبٌ جميع الكائناتِ تثبطو	**عن أن ينالوا شأوه المعطيرا**

ولدت رضي الله عنها برحارح بلد الله الحرام، قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام، بخمس سنين كذا ذكره جمع من المؤرخين[3]، وسُميت فاطمة لأن الله فاطمها وذريتها ومحبيها من النار أي عليهم حَرَّمها[4]، ولقبت بالبتول من البتل وهو الانقطاع لانقطاعها إلى الله عن كل ما سواه من الأوتار والأشفاع، أو لانقطاع حيضها على ممر السنين، كرامة لها من بين نساء العالمين، واشتهرت بالزّهراء بين نساء المؤمنين، لعُلُوِّ

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣، وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، في تفاسيرهم والطبراني في المعجم الكبير، عن ابن عباس، لما نزلت هذه الآية: {قُلْ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} قالوا: يا رسول الله، مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: عليٌّ وفاطمة وولداها. انظر الدر المنثور للسيوطي ٦/٦، ذخائر العقبي ١٢٦٩. تفسير الزمخشري ٢/٢٣٩. مطالب السؤول: ٨.

(٢) انظر السمعاني: الأنساب ١٢/١ - ١٥ (فصل في نسب رسول الله (ص)) حيدر آباد الهند ١٩٦٢

(٣) قال الشيخ الطوسي في مصباح المتهجد ولدت عليها السلام بمكة يوم الجمعة العشرين من جمادي الآخرة بعد المبعث بسنتين، وفي رواية أخرى سنة خمس من المبعث، وقال الشيخ محمد بن يعقوب الكليني والحافظ ابن شهر آشوب ولدت بعد المبعث بخمس سنين وهو المروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام والمشهور عند الإمامية، ففي كشف الغمة للإربلي المتوفى ٦٩٣هـ (٧٥/٢ طبعة بيروت) عن ابن الخشاب في مواليد ووفيات أهل البيت مرفوعاً عن الباقر عليه السلام أنها ولدت بعد النبوة بخمس سنين وقريش تبني البيت ولعله اشتباه من الراوي أو سهو من النساخ فبناء الكعبة كان قبل النبوة لا بعدها ويدل عليه ما في مقاتل الطالبين أنها ولدت قبل النبوة وقريش تبني الكعبة. وروى الحاكم في المستدرك وابن عبد البر أنها ولدت بعد البعثة بسنة، وأكثر علماء أهل السنة يروون أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين ولعله وقع اشتباه من الرواة بين كلمتي قبل وبعد.

(٤) من حديث لرسول الله (ص) انظر كنز العمال باب فضائل فاطمة الحديث ٣٨٤١. عن ابن مسعود.

قدرها كالزهرا على كافة الكواكب أجمعين[١]، وترَبت في مهد الرصانة، وحجر الكمال والصيانة، راضعةً ثدي الإدلال والإسعاد، مشرقة على عراص هياكلها أنوار أنظار سيد العُبَّاد، رافلة في حُلل الكرامة والإجلال، ساحبة ذيل الفخار على الأتراب والموال، راكبة جواد الهمة في السعي بما يرضي الرحمن، مشتغلة ذاهلة عما تكالب عليه الصبيان في كل زمان، تتعجبُ أمها السيدة خديجة من حميد صفاتها، وتميّزها حُبّاً على سائر بناتها، إلى أن أناخت بفنا أمها مطايا الحِمام، هاجرت مع أبيها سيد الأنام، إلى طيبة الطيبة الأمينة، محبورة مسرورة مسربلة بجلابيب السكينة، مُنهلَةً على رياض شبحها سحائب شفقة المحبوب الأعظم مطرزةً أذيال هيكلها برضائه عنها (ص) فلما بلغت أوان التزويج على الوجه الأتم، تحرك لخطبتها سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر، فخطبها من رسول الله (ص) فلم يجبهما في ذلك؟[٢] وفي رواية قال لهما أمرني الملك ذا الجلال والإكرام، بتزويجها من ابن عمها علي الهمام، ثم خطب فقال، وأفصح بما يقف دونه كلُّ بليغٍ وإن أوجز أو أطال، «الحمد لله المحمود بنعمته»[٣]، إلى آخر ما ذكره في خطبته، ثم زوَّجهُ بها بحضرة أكابر الصحابة الكرام، وأتى بطبق بُسْرٍ[٤] وأمرهم بالانتهاب منه عليه الصلاة والسلام، ثم أمر بتجهيزها لابن عمها الغضنفر الغطريف، فجعل لها سريراً مشرطاً[٥] وخميلة ورحاً وقربة ووسادة من أدَمٍ[٦] حشوها ليف[٧]، وجعل لها

---

(١) قال الطريحي في مجمع البحرين/٥٧٤: «سميت ـ بالزهراء ـ لأنها إذا نامت في محرابها زهر نورها إلى السماء كما يزهرَ نور الكواكب لأهل الأرض. وروي أنها سميت الزهراء لأن الله خلقها من نور عظمته».

(٢) ذكر ذلك المحب الطبري في الرياض النضرة ١٨٣/٢. وجاء ذلك أيضاً في ذخائر العقبي/٢٩ وذكره ابن حجر في الصواعق المحرقة ٨٤ ـ ٨٥، وأخرجه ابن عساكر. والحسن بن شاذان وعلي بن سلطان القاري في مرقاة المفاتيح ٥٧٤/٥ في الشرح.

(٣) خطبة النبي عند تزويجه فاطمة من أمير المؤمنين عليهما السلام. وأولها «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه، المرغوب إليه فيما عنده، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه». راجع النص كاملاً في أعيان الشيعة ٢٧٨/١ (طبعة ١٩٨٣).

(٤) البُسر: بالضم ثمر النخيل قبل أن يصير رطباً.

(٥) الشريط خوص مفتول يشرط به السرير ونحوه.

(٦) أدَم: بفتحتين أو ضمتين جمع أديم وهو الجلد.

(٧) راجع تجهيز الزهراء (ع) في الطبقات لابن سعد ١٤/٨ ـ ١٥. ومستدرك الصحيحين للحاكم ١٨٥/٢.

بنا بين دوره[١]، ليتردَّد عليها ويتحفها بفواكه بُشره وسروره، ثم قبل الدخول بها، نضحَ بين كتفيها ويديها وعلى رأسها بماء بعدما تفل فيه السيد الكريم، وقال: اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، ثم فعل ذلك بعلي سعيد الحركة، وقال ادخل بأهلك باسم الله والبركة[٢].

وكان زواجها في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وقيل في صفر والدخول في ذي الحجة باتفاق العلماء ذوي الشأن[٣].

وأولادها رضي الله عنهم زينب، وأم كلثوم، والمحسن، والحسن، والحسين، فالحسن مات صغيراً، وجعل الله منهما نسل سيِّد الكونين، ثم تجرعت كأس مرارة الصبر في هذه الدَّار الزائلة كالسَّراب، وطوت الأيام جوعاً وتعباً رغبة فيما عند الله من الثواب، فلذا نوَّه بفضلها المحبوب الأعظم (ص)، بقوله وهو الصادق في المقال وقوله الحق: إذا كان يوم القيمة ينادي منادي من بطنان العرش يا أهل الجمع نكّسوا رؤوسكم وغُضوا أبصاركم، حتى تَمرُّ فاطمة بنت محمد على الصراط، فتمرُّ مع سبعين ألف جارية من الحور كالبرق[٤].

وبقوله وهو الصادق فيما أخبر به الله: «فاطمة بضعة مني وفي قلبي وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله»[٥].

---

(١) حيث أمر رسول الله (ص) بسد أبواب المسجد إلاّ باب علي، ولما علم الصحاب رضي الله عنهم سألوا رسول الله (ص) قال: ما أنا أخرجتكم وأسكنته ولكن الله أخرجكم وأسكنه رواه الحاكم في المستدرك ١١٦/٣ بسنده عن خيثمة بن عبد الرحمن، وذكره السيوطي في الدر المنثور في آية {وما ينطق عن الهوى} في سورة والنجم وفي صحيح الترمذي ٣٠١/٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١٧٥/١ و٣٣٠ وحلية الأولياء ١٥٣/٤ وتاريخ بغداد للخطيب ٢٠٥/٧، وخصائص النسائي: ١٣ وميزان الاعتدال ١٩٤/٢ ومجمع الزوائد للهيثمي ١١٥/٩ وكنز العمال ١٥٢/٦ و٤٠٨.

(٢) انظر المصنف لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني ٤٨٦/٥ (الحديث ٩٧٨٢) بيروت ١٩٧٢.

(٣) اختلف العلماء في يوم وشهر تزويجها قال ابن شهر آشوب في المناقب تزوجها علي عليه السلام أول يوم من ذي الحجة بها يوم الثلاثاء لست خلون من ذي الحجة، قال أن تزويجها كان السادس (١ هـ) ولعله رفع اشتباه بين يوم التزويج والبناء وقال أبو الفرج: كان تزويجها في صفر وفي رواية دخل بها لأيام خلت من شوال وفي رواية تزوجها في شهر رمضان وبنى بها في ذي الحجة وعن المفيد وابن طاووس ناسبين له إلى أكثر علمائنا أن زفافها كان ليلة إحدى وعشرين من المحرم ليلة الخميس.

(٤) مستدرك الصحيحين ١٥٣/٣ وأسد الغابة ٥٢٣/٥ مجمع الزوائد ٢١٢/٩.

(٥) حديث مشهور، رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب قرابة رسول الله (ص)، وفي كتاب النكاح في باب ذب الرجل عن ابنته: وذكره المناوي في فيض القدير ٤٢١/٤ وقال: استدل به السهيلي على أن من سبها كفر لانه يغضبه، ورواه النسائي في خصائصه، وانظر حلية الأولياء ٤٠/٢، وكنز العمال ٢١٩/٦ و٢١٥/٨ والصواعق المحرقة/١٠٧. والإمامة والسياسة لابن قتيبة/١٤.

وبقوله وهو سيد الأنس والجن: «فاطمة سيد أهل الجنة»[١].

وغير ذلك من الأحاديث المشتهرة، العاجز على حَصْر بعضها كُمّل العلماء البررة، مَعْ ما ورد في عُلُوّ مقامها من الآيات تخصيصاً وتعميماً من غيرها من الأمهات، ولولا خوف الإطالة والسَّأم، لأرعفت[٢] معاطس أنبوب يراعةِ القلم، وأتيتُ بما يكعُّ[٣] عن مباراته المصقعُ ذو السُّفاسق[٤].

والقرمُ الذي تنفهق[٥] لهاتُه بالشقاشق[٦]، وأنجمتُ أهاضيب غياض هذا الطِّرس، بأزاهير ما وَرَدَ في مدحها من درر الآيات التي هي أظهر من الشمس، وزينت سماءَهُ ببدور ما ثبتَ في عُلُوّ مقامها من غرر الأحاديث الصحيحة عن سيد السادات، وغرست على حافات أنهاره أشجارَ فضائلها المؤيّدةِ بالبينات، وبالجملة فقدرها العظيم معروف بكل مكان، والنفيس نفيس أينما كان، وايمُ الله ما قصد قاصدٌ حماها من مشارق الأرض والمغارب، إلاّ ارتفعَ قدرُه على الفلك، وكان دليلاً على أفضلية خواص البشر على الملك، فلعمري ما الفخرُ إلا ثغرٌ من حفاظها يتبسَّمْ، والفضلُ إلا عِقْدٌ من جوهرِ مقامها ينتظّمْ، والمجدُ إلاّ بُرْدٌ من وفائها مُعَلّم، والسيادة إلا طلٌّ من سَحَابها مسجم، وأقسم بشيمتها الزهراء، التي نزعت مَنْزَعاً قَصُرَ عنه كُلُّ مطاول، وشنشنتها الغرّا، التي قطعت في مجامع التفاخر كل مبادر ومناضل، لئن عقدت على عُلاها من الثناء إكليلاً، واستصرخت من جزائها بجيوش المدائح بكرة وأصيلا، واستنزلت الكواكب من عَوالي الأفلاك، ونظمتها في أجياد أوصافها السنية قلائد أسلاك، لما كنت آتياً إلاّ بقليل من كثير، وزهرةٍ من روضٍ نضير، ولا كنت منتدياً من محيط هذا القاموس بغير بُلالَة ثماد[٧]، ولا راوياً من خبر ذلك المرفوع إلاّ رسوم إسناد، كيف لا وهي ابنة من خُلِق الكونُ لأجله وأديرت الأفلاك، وكافة الرسل حاسون من لما بحر فضله

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي سعيد، انظر كنز العمال، الحديث ٣٨٤٥ من باب فضائل فاطمة عليها السلام ج ٦. ورواه السيوطي في الثغور الباسمة وقال أخرجه أحمد وأبو يعلى.

(٢) أرعفة: أعجله. وأرعف القربة: ملأها حتى يفيض منها الماء، وأرعف القلم أكثر مدادهُ.

(٣) أكعتُ الرجل: ركب منتفخاً من الغضب.

(٤) السفاسق: الممتدُ من كل شيء.

(٥) تنفهق: تمتلئ.

(٦) جمع شقْشقة: شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج. ويقال للفصيح: «هدرت شقْشقتَهُ» و«فلان شقْشِقَةُ قومه» أي شريفهم وفصيحهم.

(٧) البُلالَة: الندوة، قدر ما يُبَلّ به الشيء.

مقبّلة أعتاب بابه خواصُ الأملاك، فسبحان ممَنْ خَصَّها من منح المواهب بأعلاها، ومن قداح أنفس المحامد بمُعَلاَّها، وحباها رتبةً تتضاءلُ دونَها الشُمُّ العوَال، وجعلَ لياليها أياماً في دهر أيامها ليالٍ.

وكانت رضي الله عنها شديدة الخشية، غزيرة الدّمعة، كثيرة الصيام والقيام، فانيةً في حب سيد الأنام، متقلبة في خير السرور والاطمئنان، إلى آن وافى الحق سيد ولد عدنان، فمرضت كمداً على أبيها الأعطر[١]، ولحقته بعد ستة أشهر[٢] كما هو محقّقٌ مُحَرّر، وكانت وفاتها ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خلون من رمضان[٣]، عليها وعلى بَعْلِها وبنيها منهلةٌ سحائب الرّضوان، فغسلها سَيدنا علي ذو الجناب الرفيع، وحملها ودفنها ليلاً على الأصح في البقيع[٤].

هذا وإذ كمل تعطير حرير هذه الطروس، بغالية تحرير مناقب تخالُها على مَنصَّةِ السطورِ كالعروس، ووقف جواد حلبة بيان اليراع، في مهامه العجز عن حصر بعض مناقب ابنةِ الأصيل في الأوتار والأشفاع، وجرّت على المجرّة هذه الحقيرة ذيل الفجر، تيْهاً بتطريز حافات أنهار طرسها بمناقب سُلالة المصطفى الأطهر، فلنرفع أكفّ الضراعَة

(١) في حلية الأولياء ٤٣/٢ روى بسنده عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما رئيت فاطمة سلام الله عليها ضاحكة رسول الله (ص) إلا يوماً افترت بطرف نابها، قال: ومكثت بعده ستة أشهر، ورواه ابن سعد في الطبقات ٤٠/٢ وعن كرب فاطمة وحزنها على رسول الله (ص) انظر فتح الباري ٢٠١/٩، سنن البيهقي ٤٠٩/٣، صحيح النسائي ٢٦١/١، تاريخ بغداد ٢٦٢/٦.

(٢) بهذا قال محمد بن عمر الواقدي، وقاله مسلم في الصحيح، وقال ذلك محمد بن علي أبو جعفر البار وابن هشام والمدائني. الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة للبري ١٩٨/٢ (الرياض ١٩٨٣) وانظر أسد الغابة ٥٢٤/٥. والمروي عند الامامية من طرق أهل البيت عليهم السلام أنها بقيت بعده خمسة وسبعين يوماً على أصح الروايات.

(٣) بهذا قال المدائني والواقدي وابن عبد البر في الاستيعاب والحاكم في المستدرك، وقيل أنها توفيت في الثالث من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة من الهجرة على المشهور بين الإمامية وهو المروي عن الصادق عليه السلام. وروي أنها توفيت لعشر بقين من جمادي الآخرة، وقيل لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر ليلة الأحد. وعن ابن عباس في الحادي والعشرين من رجب.

(٤) قال البري: «صلى عليها علي، وهو الذي غسلها مع أسماء بنت عميس، ودُفنت ليلاً. ودخل قبرها العباس علي والفضل وهي أول من غُطّي نعشُها من النساء في الإسلام. الجوهرة ١٩٩/٢. وفي تذكرة الخواص لابن الجوزي، عن الواقدي، أنه في البقيع رخامة مكتوب عليها «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مبيد الأمم، ومحيي الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله (ص) سيدة نساء العالمين وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن علي وجعفر بن محمد عليهم السلام».

والابتهال، ناصبينَ أقدامَ ذُلّنا بين يدي الكبير المتعال، موقنين بأنّ من انخفض لجلاله، بشر ببلوغ آماله، جزماً من غير شكٍ ولا ارتياب، قائلين يا أرحم الراحمين يا ربّ الأرباب، يا من يعلم ما تخفى الأنفسُ قبل السؤال، ويا من أغدق النعم على عبده وهو في العدم ما زال، أسألك بجزيل جميل الوصال، وبسرِّ الجمال والجلالة والكمال، أن تغرس في عراص جناننا أشجار حبك، وتسقيها من سحائب التوفيق بصدق الهمة بقربك، لتصبح أغصانها مونقةً بنفائس جواهر نور الرؤية لك والشهود، وثمارها يانعة برقائق معرفتك يا حقّ يا معبود، اللهم اغمسنا في حياض أنهار بدائع فتوحاتك، واسقنا من زُلالِ الهمة بالتوجهِ إلى حضرتك، وشنّفَ أسماعَ قلوبنا بسماع ألحان هزار خطيب القبول لديك، ورنّح بسُلاف صبَا الجذب أغصان نفائس الأرواح بوصولها إليك، واجعل كرائم أردان أشباحنا متمايلة طرباً بمطربات ألحان الحنين إلى جمال محبوبك الأعظم، حاسية من عقار حُبّه (ص)، وأسبل اللهم براقع سترك المنيع على سائر أسارير غرر السُراة الحاضرين بك المحفل الرفيع، خصوصاً المؤلف الحقير الجفريّ الوضيع.

«وأفض اللهم على جدث مؤلفها المرحوم بكرمك مولانا السيد محمد سجال الرحمة والرضوان، يا قريب يا سميع، أجبر الله كسره، واشرح صدره، ويسر أمره، يا قريب يا سميع، وصلِ وسلم على الفاتح الخاتم، معلم كل العالم، وعلى آله وأصحابه الأعاظم، والحمد لله رب العالمين».

وكان الفراغ من كتاب مناقب السيدة فاطمة الزهراء بقلم أفقر العباد إلى ربه الجواد يوسف بن المرحوم محمد حماد في رجب سنة ١٢٦٦ غفر الله له ولوالديه وللمسلمين، آمين.

❖ ❖ ❖

أنموذج من مخطوطة الفتح والبشرى

الفتح والبشرى في مناقب الزهراء للمرحوم
مولانا السيد محمد الجعفري
تلميذ سيدي الشيخ محمد
حسان نفعنا
[illegible]

توفيت رضي الله عنها ثلاث في رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

حمداً لمن جعل محبة آل بيت رسول الله، فاطمة عن ارتضاع ثدي ما لا يرضاه،
ونوّر ليالي وجودهم بمصباح سيد الأبرار، فأفحمت زهر أبطالها [illegible] على سائر
[illegible]، وشكراً لمن نصب لهم رايات التمييز في ميدان الفضائل، ورفع إلى أوج الكمال
منهجهم العزيز، فأمسى راقياً أعلى المنازل، وأجرى عليهم من دأماء تيار إحسانه
لعظمهم غيوث فضائل الفواضل الدوارف، وأنار بهديهم بوارق الحقائق وشوارق
الرقائق وعوارف المعارف، وصلاة على من لم تزل نسائم عرفان تهدى إليه
من أرج زهورها ما يزري بالعبهر، ولم تبرح حمائم الأحشاء تشدو إليه من هزج
طيورها ما يزري بالمزامير، جد الحسنين وسيد الكونين، المرسل إلى العالمين بشيراً
ونذيراً، والمنزل عليه إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم
تطهيراً، وآله الواردين من مناهل السيادة عبابها، والرشفين من مباسم السعادة
رضابها، وأصحابه الذين نظمت صفاتهم درراً، فزينت قلائدها من الوجود
جيداً ونحراً، صلاة تنثر على رياض [illegible] من نوافح [illegible]
الأزهار، عاصمة قائلها عن وصمة النفاق والإنكار، ما صدحت عنادل الرضوان

عن شعائب هذه الحظيرة الفضفاض . وهبت النفحات الالهية فحق للملائكة
الكرام رتع طلائع هذه الرياض ما بعد . فما بال السلسلة الزهراء جديرة
بأن تستعد بتحريرها اقلام المستعيرين لمحاسن الطروس . وتستعطر بشذى ذكرها
محافل كتب المؤرخين ولا يعطر بعنبر دروسه . وحقيقة بأن يهرع ابناء براعة
المتقنين على غراس غصون نضيد وطرز سماء بدر فرائد الفوائد . ويقتنص بالمحابات
نظرات نشر ريها في كل حين . ما انبتت في رياض كتب ارباب التاريخ من نوادر الشوارد
لطول حين جنت به عليه المحابير . الى ان شاهدنا الحاجة الماسة لكتب المفيد وبنان
اسفرت سوانح الظواهر لمعاشر . الى هاتيك المحافل انتشر واهلا لا بعد
تلك الفضل جيوش ... في جمع عويصها المختزنة مجموعة . تأمل تامي ماطلة
من رياض تحتفظ بها الفواكه لا مقطوعة ولا ممنوعة رأيت الجواد الحزم الاقتناص
شواردها من كفل عنان العلم في مضمار الطرس لتأليف بعض فرائدها .
مع علمي بأن ذاتها العلية . ان طلقت اصفها فلا اتصفها وان صفاتها السنية
ان اردت تعداد بعضها فلا احصيها ولو نطقت عن ثرب الاسهاب . واطلعت
من افق المدح غرائب بدور الاطناب . وان حاولت نقلها الى نوعة مرتبة
بأفواه الدهور . وقلائد عقد نحرها المنظوم متحلية بلبات الزمان ونحور الحور
فكان حقا علي ان اغيض مجاجة القلم . وانتحي بنشر نبأها اذ هي كنار على علم
ولا اطنب في صفة من نزر ندبه خلق محببه . وترك الباب لمن ظم ...
قد جنبه بينها الى ... تعطير محافل قلوب المحبين لتلك الذات . وتشنيف آذان
اسماع الحاضرين بأقراط سماع تلك الصفات راجيا بكمالها الرقي الى ... دنيى

سائلونها بما تحقيق الانتساب إليها حسباً ومعنى ... هي السيدة العلية
والدرة البهية، درة تاج نساء العالمين، وغرة بنات أمهات المؤمنين، المجموع
فيها ما تفرق في جميعهم من كمال الصفات، والمحصور فيها تلك المفاخر والمكارم
التي مع ما خصها الله به من شمائل شريفة، وخصال منيفة، بسلسلة مدبج متعالي
التي تنتسب لسدرة عزها ما انتهى، صلصلة معارج السيادة التي من دونها الفرقدان
والسها، ابنة خير رافع علم الرسالة، محبوبة من شفع الشفاعة بالبسالة،
المدرعة بسربال الفتوة بكريمة قل لا أسألكم عليه أجرا، والمشرعة بحليا
الفضائل، فكانت مصداقاً للعظمة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس شرفاً
وتكرمة صاحبة المجد الأصيل، وساحبة ذيل الشرف الأثيل، السيدة فاطمة
ابنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ابن عبد الله، بن عبد المطلب بن هاشم
ابن عبد مناف، ابن قصي، بن كلاب، ابن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر
بن مالك، ابن النضر، ابن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، ابن إلياس، ابن مضر، ابن نزار
ابن معد، بن عدنان، شعر

نسب تبدت شمسه فضياؤها ... أضحى به نجم الثناء حسيرا

نسب أنار الكون بدر فخاره ... أمسى به متحيراً التعبيرا

نسب تعلى قدره بمحمد ... فسما رقياً واستزاد حبورا

نسب جميع الكائنات تشطر ... عن أن ينالوا شأوه المعطيرا

ولدت رضي الله عنها بمارح بلد الله الحرام، قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام
بخمس سنين، كذا ذكره جمع من المؤرخين، وسميت فاطمة لأن الله فطمها وذريتها

وبحجبها من النار أي عليهم حرّمها. ولقّبت بالبتول من البتل وهو الانقطاع.
لانقطاعها إلى الله عن كل ما سواه من الأكدار والأشياع. والانقطاع حيضها لعلو
عن النساء كرامة لها من بين نساء العالمين. واشتهرت بالزهراء من بين نساء المؤمنين
لعلو قدرها كالزهراء على كافة الكواكب بحسبه وتربّت في مهد الرصانة. وحجر الكمال
والعبادة. رضيعة ثدي الإدلال والإسعاد. مشرقة على عرائس هياكلها أنوار
أنظار سيد العباد. رافلة في حلل الكرامة والإجلال. ساحبة ذيل الفخار على
الأتراب بحالول بكبر تجوادا لهمّة في السعي بما يرضي الرحمن. مشتغلة ذاتها عما
تكالبت عليه الصبيان وكل الولدان. تنحجب أمها السيدة خديجة من عديد صفاتها
وعيرتها لحبا على سائر بناتها. إلى أن بلغت بعنا أتمها مطايا الحلم. هاجرت مع
أبيها سيد الأنام إلى طيبة الطيبة الأمينة محبورة مزودة مسربلة
بجلابيب السكينة. منهلة على رياض شيمها سحائب شفقة المحبوب الأعظم
مطرزة أذيال هيكلها برضائه عنها صلى الله عليه وسلم. فلما بلغت أوان التزويج
على الوجه الأتم. تحرّك لخطبتها سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر. فخطباها من رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلم يجبهما إلى ذلك. وفي رواية قال لهما أمرني الملك ذو الجلال والإكرام
بتزويجها من ابن عمها علي الإمام. ثم خطب فقال. وأفصح بما يعجز دونه كل بليغ
ومن أوجز وأطال. الحمد لله المحمود بنعمته. إلى آخر ما ذكر في خطبته. ثم زوجه بها
بحضور أكابر الصحابة الكرام. وأتى بطبق بسر وأمرهم بالانتهاب منه عليه
الصلاة والسلام. ثم أمر بتجهيزها لابن عمها الغضنفر الغطريف
فجعل لها سريرا مشرطا وخميلة ورحى وجرة ووسادة من أدم حشوها الليف

فجعل لها بيتاً بين دوره ليتردد عليها ويتحفها بعوائد بشره وسروره. ثم قبل دخوله
عليها بها نضح بين كتفيها ويديها وعلى رأسها ماءً بعد ما تفل فيه السيد الكريم
وقال اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ثم فعل ذلك بعلي سعيد
الحركة، وقال ادخل بأهلك باسم الله والبركة. وكان زواجها في السنة الثانية من
الهجرة في رمضان، وقيل في صفر، وقيل في ذي الحجة، باتفاق العلماء ذوي الشارات.
وأولادها رضي الله عنهم زينب وأم كلثوم والحسن والحسين ومحسن. فالمحسن مات
صغيراً وجعل الله منهما نسل سيد الكونين. ثم تجرعت كأس مرارة الصبر في هذه
الدار التي هي كالسراب، وطوت الأيام جوعاً وتعباً رغبة فيما عند الله من الثواب.
فلنبادر بفضلها المحبوب الأعظم صلى الله عليه وسلم بقوله وهو الصادق في المقال
وقوله الحق: إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ من بطنان العرش يا أهل الجمع نكسوا
رؤوسكم وغضوا أبصاركم حتى تمر فاطمة بنت محمد على الصراط، فتمر مع سبعين ألف
جارية من الحور كالبرق. وبقوله وهو الصادق فيما أخبر عن الله: فاطمة بضعة مني
وهي قلبي وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله.
وبقوله وهو سيد الأنبياء: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. وغير ذلك من الأحاديث
المشهورة العاجز عن حصر بعضها كل العلماء البررة، مع ما ورد في علو مقامها من الروايات
خصيصاً وتعميماً من غيرها من الأمهات، ولولا خوف الإطالة والسآمة لأرخيت
معاطس أنابيب براعة القلم، وأتيت بما يكل عن مباراته المصقع ذو التعاسف
والقرم الذي تنفهق لهاته بالشقاشق، ولأبحت أحاصيب غياض هذه الطروس
بأزاهير ما ورد في مدحها من درر الآداب التي هي أظهر من الشمس، وزينت سماءه

بنذور ما ثبت في علو مقامها من غرر الأحاديث الصحيحة عن سيد السادات وترشحت
على صفحات نهارها شموس فضائلها المؤيدة بالبينات وبالجملة فقدرها العظيم معروف
بكل مكان والنفيس نفيس أينما كان وايم الله ما قصدنا من مدحها من مناقب
الأرض والمغارب إلا نيل أقصى مرام نفيسه بالمطالب ولو نثبت أعلامها
مثبتاً لا لأن ينفع تقديره على الفلك وكان دليلاً على أفضلية خواص البشر
على الملك فلعمري ما الغر الأنور من حسن طلعتها بمبتسم والبدر الأعظم من جوهر
مقامها بمنتظم والمجد الأبرد من دنياها بملتزم والسيادة الأطول من سبحها بمنسجم
وأقسم بيتيمها الزهراء التي نزعت منزعاً قصر عنه كل متطاول وشنفت بها الغراء
حتى قطعت في مجامع الافتخار الأنبياء بين مناصل لئن عقدت على علاها من الثنا
أكاليلاً واستفرغت من جواهرها بجواهر من المدايح بكرة وأصيلاً واستنزلت
الكواكب من هوالي الأفلاك ونظمتها في أجيادا وصلها السنية فلا بد أنك
لما أتيت إلا بقليل من كثير ونزر من روض نضير ولو كنت متشبثاً من
محيط هذه القاموس بغير بلالة تماد ولا نادياً من خبر ذلك [illegible] الرسوم
بشأنها كيف لا وهي التي من أجلها خلق الكون ولأجلها أديرت الأفلاك وكانت
ترسل جالسة من المآثر فضله مقبلة الأعتاب بكاية خواص الأملاك فسبحان
من خصها من منح المواهب بأفلاذها ومن بدائع النفس بتجاليد علاها وجعلها
رتبة تتضاءل دونها الشمس الغوارب وجعل لياليها أياماً في دهر أيامها الليالي
وكانت رضي الله عنها شديدة الخشية غزيرة الدمعة كثيرة الصيام والقيام
فانية في حب سيد الأنام متقلبة في حجر السرور والاطمئنان إلى أن رأت

سيد ولد عدنان، ثم مرضت لكمدها على أبيها الأعظم، ولحقته بعد ستة أشهر كما هو
محقق مقرر، وكانت وفاتها ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان، عليها وعلى بعلها
وبنيها أسنى تحيات سحائب الرضوان، وغسلها سيدنا علي من خلف حجاب رفيع، وحملها ودفنها
ليلاً على الأصح في البقيع عنده، وإذا كمل تعطير جيد هذا الطروس، بغالية تحرير
مناقب تجليها على منصة السطور كالعروس، ودخل جواد حلبة بيان البراع
في مقامه العجز عن حصر بعض مناقب ابنة الأصيل في الأذكار والأسماع، وجرت
على المجرة هذه المختصرة ذيل العجز، تبتهل بسطرين هما فاتحة أنهار طرس بها عمنا
سلالة المصطفى الأطهر، فلنرفع أكف الضراعة والابتهال، ناصبين أقدام
ذلتنا بين يدي الكبير المتعال، موقنين بأن من اغتمض بجلاله بشر ببلوغ آماله
جزماً من غير شك ولا ارتياب، قائلين يا أرحم الراحمين يا رب الأرباب، يا من يعلم
ما تخفي الأنفس قبل السؤال، ويا من أغدق النعم على عبيده وهو في العدم ما زال
أسألك بجزيل الفضل وبسر الجمال والجلال والكمال أن تغرس في رياض جنان
أفئدة رجائك، وتسقيها من سحائب التوفيق بصدق الهمة بلا ريب، لتثمر أغصانها
موثقة بنفائس جواهر نور المعرفة لك والشهود، وثمارها يانعة برقائق حقائق
معرفتك يا حق يا معبود، اللهم اغمسنا في حياض أنهار بدائع فتوحاتك واسقنا من
زلال المحبة بالتوجه إلى حضرتك، وشنف أسماع قلوبنا بسماع ألحان هزار خطب
القبول لديك، ورنح بسلاف صبا الجذب أغصان نفائس الأرواح بوصولها
إليك، واجعل كرائم أزواد أشباحنا متمايلة طرباً بعطر أثواب الحبائب
محبتي إلى جمال حبيبك الأعظم حاشية من عقار حبه صلى الله عليه وسلم

الـدرّة اليتيمـة
في بعض فضائل السيدة العظيمة

تأليف

الشيخ عبد الله المير غني الحنفي المكي
المتوفى ١١٩٣هـ

تحقيق

محمّد سعيد الطريحي

الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٥ م
الطبعة الثانية بغداد ٢٠١٣ م
الطبعة الثالثة هولندا ٢٠١٤ م



نص الرسالة(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمداً له به منه عليه . والشكر لله مولى العالمين، شكراً يليق به منه إليه، والصلاة والسلام على خير كل مصلٍ وإمام، وعلى اله أئمة كل مقام، وأصحابه في كل قعودٍ وقيام، خصوصاً قطبَ الأقطاب، وغور الإنجابِ والأحباب، سيدةَ آل بيت الرسول، فاطمةَ الزهراء البتول، وسيما فروعَ هذه الشجرة اليانعة الزكية، وأغصانها الرطْبةَ الطيبةَ الرضيةَ، أمدنا الله من إمداداتهم، في المدد، وأفاض علينا من ذلك بلا حصر ولا عدد، وجَعَلنا ممن تساقط عليه رطباً جنيا، فيأكله هنياً مريّاً، لا ممن تنثر عليه شوكاً شويًا فيكون به نَقِصاً قصيّاً، فليس الهني إلا من يأكل الرطب الجني، لا مَن يلذغُه الشوك العني، وبعد فهذه نبذة تتعلق بنَبْذ من مناقب سيدة نساء العالمين، وشزرُ من نزر من بحور فضائل ابنة سيد المرسلين، تتلى في مجالسها، وتبلي سرايرها في مآنسها، أردت جمعها للمحبين، وأحببت سردها للمخلصين، مرتباً ذلك ثلاثةَ أبواب وخاتمة، وسميتها : **الدرةَ اليتيمة في بعض فضائل السيدة العظيمة**.

الباب الأول

في فضائلها

قال صلى الله عليه وآله وسلم: فاطمة سيدة نساء العالمين، وفي غيره وقال لها: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين. وفي رواية أفضل نساء أهل الجنة، وفي أخرى: سيدات نساء أهل الجنة أربع مريم وفاطم وخديجة وآسية وفي معناه كثير.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: فاطمة بَضعَة مني يقبضني مَا يقبضها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب تنتطع يوم القيامة غير نسبي وسهري .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ رضي الله عنه: فاطمة أحَبُّ إليّ منك وأنت أعزّ علي منها ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن فاطمة أحصنت فرجها فحرمها الله وذريتها على النار. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: يا فاطمة تدرين لمَ سُميتِ فاطمة فقال علي كرم الله وجهه : لِم سُميَتْ فاطمة يا رسول الله ؟ فقال: إنّ الله فطمها وذريتها على النار، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله عز وجل فطم ابنتي فاطمة وولدها ومن أحبهم على النار، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله تعالى غيرُ معذبك ولا ولدِكَ.

(*) سبق أن نشرنا كامل الرسالة هذه مع كامل التحقيق في بيروت عام١٩٨٥م والصادرة عن مؤسسة الوفاء، ولم تحضرنا النسخة المحققة المطبوعة الآن ، لهذا اقتصرنا هنا على ذكر نص الرسالة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجب يا أهل الجمع غُضوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد حتى تمر ، وعن عمرو بن سلمة لما نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الآية ٣٣ سورة الاحزاب). وذلك في بيت أم سلمة دعا فاطمة وحسناً وحسينا فجلّلهم بكساءٍ وعليٌّ خلف ظهره ، ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

قالت أم سلمة وأنا منهم فقال: إنك على خير ، وفي رواية ألقيَ عليهم كساء ووضع يده عليها ، وقال: "اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد إنك حميد مجيد".

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابنته فاطمة رضوان الله عليها:

أي شيء خير للمرأة قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل فضمها إليه وقال ذرية بعضها من بعض واستحسن قولها، وخبر: أتاني جبريل بسَفرْجلة من الجنة فأكلتها ليلة أُسري بي فعَلِقَت خديجة بفاطمة فكنت إذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رقبة فاطمة، قال الأئمة رداً على تصحيح الحاكم له إنه كذب موضوع عليّ الوضع لأن فاطمة وُلدت قبل النبوة فضلاً عن الإسراء كذا في شرح الهمزية.

أقول:

إن قيل أن هذا الأسراء غير الأسراء المعهود بأن كان منامياً أو روحياً أو معنوياً فأي مانع وعليه فلا وضع ولا خفض ولا رفع فتدبر والله أكبر.

والوارد في فضلها كثير وناهيك بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبلها في فيها ويُمِصُّها لسانه وما دخلت عليه قط إلا قام إليها وقبلها ورحب بها وما أراد سفراً إلا كان آخر عهده بها وما قدم إلا وبدأ بالدخول عليها بعد بيت الله.

وهي أول أهل بيته لحوقاً به (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي سلطانة الزاهدات ورأس العابدات وزين العارفات ودوحة الشرف اليانعة الفروع ويتيمة عقد الكمال الفائقة الأفراد والجموع صلى الله على أبيها وعليها وعلى الآل والأصحاب والأتباع والأحزاب، هي وأم كلثوم أفضل بناته (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي أيضاً أفضل عند الجمهور واختار السبكي أفضليتها ثم خديجة ثم عائشة وفضّل مريم على خديجة وهذا إن شاء الله هو الصواب وإن كنت مِلْتُ في كنز الفوائد إلى أن الأفضليات بالحيثيات والله أعلم.

الباب الثاني

في الميلاد والزواج والوفاة وتوابعها

ولدت عام إحدى وأربعين من مولده صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل قبل النبوة بخمس سنين أيام بناء الكعبة ، والصحيح أن أولاده صلى الله عليه وآله وسلم كلهم قبل المبعَث سوى إبراهيم وكلهم من خديجة غيره ، **ولقبت بالزهراء** لإشراق وجهها وشبهها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في الكلام ، ولكونها لم تحض أصلاً ، **وبالبتول** لانقطاعها إلى الله عز وجل ، أو لانقطاعها عن نساء زمنها فضلاً وديناً وحسباً.

ونكحها علي (رضي الله عنهما) بأمر الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، بعد أن خطبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهم ، وكان ذلك في السنة الثانية ، وقيل بعد أُحد وقيل بعد بنائه بعائشة رضي الله عنها بأربعة أشهر ونصف ، وبنى بها بعد تزويجها بسبعة أشهر ونصف ، وقيل تزوج بها في صفر في الثانية وبني بها في ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً وعمرها إذ ذاك خمسة عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف وعليّ إحدى وعشرون وخمسة أشهر وقيل غير ذلك ، ولم ينكح عليها حتى ماتت رضي الله عنها .

وتوفيت بعد وفاة صلى الله عليه وآله وسلم بخمس وسبعين ليلة ، وقيل بستة أشهر ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة ، وقيل بثمانية أشهر ، وقيل بثلاثة ، وقيل بمائة يوم ، وقيل غير ذلك.

وروي أنها قالت لأسماء بنت عُمَيسٍ إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء إنه يطرح على المرأة الثوب فيَصِفها ، فقالت يا بنت رسول الله ألا أريكِ شيئاً رأيته بأرض الحبشة فدعت بجرايد رطبة فَحَنَتْها ثم طرحت عليها ثوباً ، فقالت فاطمة ما أحسن هذا تُعرف به المرأة من الرجل ، فإذا أنا متُّ فاغسليني أنت وعليّ ولا يدخل عليّ أحدٌ (الحديث).

وفي حديث أم سلمة ، أنها لما اشتكت اغتسلت ولبست ثياباً جدداً واضطجعت في وسط البيت ووضعت يدها اليمنى تحت خدها ثم استقبلت القبلة وقالت ، إني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد ولا يغسلني ، ثم قُبضت مكانها ، ودخل علي فأخبر بالذي قالت فاحتملها ودفنها بغسلها ذلك ، ولم يكشفها ولا غسلها أحد ، رواه أحمد في المناقب والدّولابي باختصار وهو مضاد لخبر أسماء وهي أول من غُطّي نعشها ثم زينب بنت جحش .

واختلف في محل دفنها والأشهر أنها في قبة ولدها الحسن قرب محرابها وكان القطب أبو العباس المرسي يجزم بها قيل فلعله كوشف به.

الباب الثالث

في أولادها

قال الله تعالى ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (الاية٢٣ سورة الشورى) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله أوصاني بذي القربى . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : أحبّ أهل بيتي إليّ الحسن والحسين . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : مَن أحب الحسن والحسين فقد أحبني ومَن أبغضهما فقد بغضني . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل ذريتي في صلب علي ابن أبي طالب. وقال صلى الله عليه وآله وسلم : كل بني أنثى فإن عَصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا عَصَبتهم وأنا أبوهم.

وفي رواية إن لكل بني أب عصبة ينتمون إليها إلا ولدَ فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم فهم عترتي خُلقوا من طينتي ويل للمكذبين بفضلكم من أحبّهم أحبه الله تعالى ومن أبغضهم أبغضه الله تعالى .

وفي رواية :أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم (قاله لعلي وفاطمة وولديهما) وفي أخرى : والذي نفسي بيده لا يبغضننا أهل البيت أحد إلا أكبّه الله تعالى في النار. وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله حرّم الجنة على من ظلم أهل بيتي أو قاتلهم أو أعان عليهم أو سبهم ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي رضي الله عنه : أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن إيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا. (وزاد في رواية) : واشياعنا عن إيماننا وشمائلنا.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: رِضَا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقال زين العابدين رضي الله عنه : إن من رضا رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أن يدحل أهل بيته الجنة. وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : ليس أحد من أهل البيت إلا وله شفاعة.

والحاصل أن الواردَ في فضلهم كثير والثابت في الزجر عن بغضهم كبير والقيام بحق شأنهم خطير كيف ومولانا سبحانه متوليهم بالتطهير آما قال وقد كان بهم عليماً خبيرا. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾. وأما قال صلى الله عليه وآله وسلم : إني تارك فيكم ما إن أخذتم لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما. وأما قال صلى الله عليه وآله وسلم: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق :وأما قال صلى الله عليه وآله وسلم : من أحبَّ الله أحبَّ القرآن ومن أحب القرآن أحبني ومن أحبني أحب أصحابي وقرابتي . وأما قال صلى الله عليه

وآله وسلم : لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وتكون عترتي أحبّ إليه من عترته ويكون أهلي أحبّ إليه من أهله وتكون ذاتي أحبّ إليه من ذاته. وأما قال صلى الله عليه وآله وسلم : اشتد غضب الله على من آذاني في عترتي. وفي رواية : من أذاني في عترتي آذى الله . وفي أخرى : فعليه لعنة الله . وأما قال صلى الله عليه وآله وسلم :أحبوا الله لما يَغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله عز وجل وأحبوا أهل بيتي لحبي ...إلى ما لا يحصى ولا ينال فيستقصى.

الخاتمة:

ختم الله لنا بختام سيد المرسلين وجعلنا من أخصّ محبيه وآله وأصحابه والتابعين إذا كان هذا بعض فضل أهل البيت وقُل نزر إحياء كل ميت وجَب على كل مؤمن محبتهم وصلتهم ومودتهم والتأدب معهم، كيف وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : من صنع إلى أحد من أهل بيتي يداً كافيته عليها يوم القيامة . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي . وقال أيضاً : ارقبوا محمد في أهل بيته . (أي اشهدوا محمد في كل فرد منهم) وهذا نظر الصديقين وأكابر العارفين حتى لقد حكي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه تعطل درسه يوماً بكثرة قيامه في أثنائه فسئل عن سببه ، فقال: طفل من آل البيت أراه يقف على باب المسجد فأقوم .

وحكي عن الخوجة عبيد الله أحرار ، أنه كان يقول كل بلد يكون فيها الشر فلا أريد سكناها تأدباً معهم فإذا كان الصديق الأكبر والإمام الأفخرَ والولي الأنور هذا سننهم فكيف بأمثالنا الذين بالنسبة إليهم أخسّ من الكلاب وأذلّ من التراب ، اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاة تعصمنا بها من الأهوال والآفات وتطهرنا بها من جميع السيئات اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، اللهم إني أعوذ بك أن أقول زوراً وأغشى فجوراً أو أكون بك مغروراً ، اللهم ارزقنا حبك وحبّ رسولك وأنبيائك وخاصتك وأوليائك وخصوصاً آل بيت نبيك وسيما سيدتنا فاطمة الزهراء وأولادها.

وقد كمل التمام وحسن الاختتام ونسأله حسن الختام وتمام المرام بجاهه عليه الصلاة والسلام على يد أفقر العباد إلى الله علوي بن عبد الله ميرماه ليلة السبت بعد العشاء سنة عشر من جماد ثاني سنة ١١٧٩ تسعة وسبعين ومائة وألف في المدينة المنورة ، وعلى ساكنها أفضل الصلاة والسلام ورزقنا الله حسن الختام والفوز بالجنان وبخدمة محمد بن عدنان صلى الله عليه وآله وسلم وعلى ذريته وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة والسلام. ❖

الثغور الباسمة

في

فضائل السيدة فاطمة

(عليها السلام)

تأليف

الحافظ جلال الدين السيوطي

(٨٤٩ - ٩١١ هـ)

تحقيق

محمد سعيد الطريحي

الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٥ م

الطبعة الثانية بغداد ٢٠١٣ م

الطبعة الثالثة هولندا ٢٠١٤ م



الثغور الباسمة[١]

تمهيد

حظيت سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع) باهتمام المؤرخين والمحدثين والباحثين، بما لم تحظ به أعلام النساء الأخريات في التاريخ الإسلامي.

وإن سر العناية والاهتمام بتسجيل مآثرها الخالدة وتدوين أخبارها السالفة لا يعود فقط لأنها ابنة سيد الأنبياء والمرسلين وبضعته الطاهرة وإن كان هذا يكفيها فخراً وشرفاً، ولكن ذلك يعود أيضاً إلى سابقتها في الإسلام بعلمها وأدبها وكمالها وفصاحتها، وما ورد فيها من المناقب والفضائل الكثيرة، وما تميزت به من الخصائص الفريدة دون نساء العالمين كاختصاص الله سبحانه لها بأن جعل من نسلها الذرية الطاهرة الطيبة من آل الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا وحده قمة في الفضيلة والمجد والسؤدد.

وممن أفرد لها بحثاً خاصاً من العلماء: الحاكم النيسابوري والحافظ محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيِّع، والشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، ومحمد الحجازي الشافعي، وعبدالله بن أبي زيد الأنباري، ومحمد بن زكريا بن دينار، ومحمد بن أحمد بن عبد الله بن أبي الثلج، وأحمد بن عبد الملك المؤذن، وعبد العزيز بن يحيى الجلودي، ولوط بن يحيى الأزدي المعروف بأبي مخنف، وابن شاهين، وأحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن عقدة، وعشرات غيرهم ولقد أعدَّ البحاثة المتتبع الشيخ علي دخيّل فهرساً فيمن كتب عَنْ الزهراء (ع) بلغ فيه إلى ثلاثمائة من المصادر والمراجع[٢].

ومن تلكم الكتب المصنفة في الزهراء (ع) هذه الرسالة للحافظ العلامة السيوطي وقد أسماها «الثغور الباسمة في مناقب السيدة فاطمة»[٣]، وهي لم تطبع من قبل فتوفقنا إلى نشرها والتعليق عليها ومقابلتها على نسختين:

الأولى، من الهند، من مخطوطات مكتبة بيير محمد شاه Peer Mohammad Shah Library بولاية كجرات GUJARAT وهي نسخة كاملة جيدة ضمن مجموعة غير مرقمة تحتوي على عدة كتب ورسائل، مجهولة الناسخ وتاريخ النسخ.

والثانية، من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق الشام، وهي نسخة حديثة وجيدة، مجداولة بالحمرة، كتبت الفصول ورؤوس الفقر بالمداد الأحمر. نسخها:

---

(١) سبق أن صدرت "الثغور الباسمة" بتحقيقنا في بيروت، مؤسسة الوفاء سنة ١٩٨٧، وفي بغداد دار المنارة سنة ٢٠١٣م.

(٢) طبع في النجف سنة ١٣٨٧ هـ، وانظر كتابة فاطمة الزهراء (١٤٩ ـ ١٦٤) بيروت ١٩٨٠.

(٣) ورد ذكرها في كشف الظنون ٥٢١/١.

إبراهيم بن سليمان بن محمد الحنفي بدمشق سنة ١٠٧٦ هـ. ضمن المجموع المرقم ٥٢٩٦ الصفحات (١٠٣ ـ ١٠٨).

على أن هنالك عدة نسخ من الرسالة متوفرة في عدة مكتبات، منها نسخة بمكتبة جامعة برنستن بالولايات المتحدة (مجموعة يهودا)، وأخرى بمكتبة أسعد أفندي ـ سليمانية ـ تركيا ضمن المجموع المرقم ٣٥٥٣، وأخرى بدار الكتب المصرية برقم ١٢٣م مجاميع ورقم ٧٤٢ مجاميع[1].

اعتمد السيوطي في رسالته على كتب كثيرة في مقدمتها الصحاح الستة، ومصنفات أخرى منها لابن مسنده، وابن سعد، وابن عساكر، والبيهقي، والطبري، والبزار، وأحمد بن حنبل، والطبراني، وغيرهم من أئمة الحديث.

وبدأ رسالته بذكر حديث زواج فاطمة (ع) ناقلاً عن أستاذه تقي الدين الشمني، معقباً عليه بذكر تخريجاته الوافرة، ثم فصل ذكر فيه الأحاديث الواردة في تزويج فاطمة (ع)، وفصل آخر ذكر فيه خصائصها ومناقبها ففصل في سنها ووفاتها ففائدة في تعداد ما روته من الأحاديث النبوية ففائدة أخرى في الإشارة إلى إنقراض نسل رسول الله (ص) إلاّ منها، ثم أحاديث أخرى قصيرة عنها وختم الرسالة بذكر أبيات لها في رثاء رسول الله عليه الصلاة والسلام.

سيرة المؤلف:

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي الشافعي.

ولد سنة (٨٤٩ هـ/١٤٤٥م)، ونشأ في القاهرة يتيماً (مات والده وعمره خمس سنوات) وشرع في تعلم العلوم الدينية والعربية، وحفظ القرآن وعمره دون الثامنة وتدرج في دراسة العلوم حتى بلغ المنزلة الجليلة بين علماء مصر، وأصبح من كبار الأئمة والحفاظ والمؤرخين والأدباء، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا في روضة المقياس، وأخذ في التجرد للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والاشتغال به صرفاً، والإعراض عن الدنيا وأهلها كأنه لم يعرف أحداً منهم وشرعَ في تحرير مؤلفاته وترك الافتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف ألفه في ذلك وسماه بالتنفيس.

---

(١) وهناك نسخ أخرى أشار لها أستاذنا العلامة الطباطبائي في كتاب أهل البيت في المكتبة العربية ص ١٠٨ـ ١٠٩. نشر مؤسسة أهرابيت لإحياء التراث رقم ٥١٢١٧.

أما مشايخه وأساتيذه فقد بلغوا من الكثرة آن صنف تلميذه الداودي رسالة في ذكر أسمائهم (إجازة وقراءة وسماعاً) ورتبهم على حروف المعجم فبلغت عدّتهم أحداً وخمسين نفراً ومنهم:

١ ـ الشيخ شمس الدين محمد بن موسى السيرائي.

٢ ـ شمس الدين محمد بن الشيخ سعد الدين بن سعد بن خليل المرزباني.

٣ ـ شهاب الدين أحمد بن علي الشارمساحي. (شارمساح من بلدان مصر).

٤ ـ شيخ الإسلام صالح البلقيني.

٥ ـ سيف الدين محمد بن محمد الحنفي.

٦ ـ تقي الدين أحمد بن محمد الشمني.

٧ ـ محمد بن سليم الكافيجي.

٨ ـ الشيخ مجد الدين إسماعيل بن السباع.

٩ ـ تقي الدين أبي بكر بن شادي الحصفكي.

١٠ ـ عز الدين عبد العزيز بن محمد الميقاتي.

١١ ـ شمس الدين البابي.

١٢ ـ جلال الدين المحلي.

وكان السيوطي في سرعة الكتابة والتأليف آية كبرى. قال تلميذه الشمس الداودي، عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب على المتعارض منه بأجوبة حسنة. وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه ورجال وغريبه واستنباط الأحكام منه وأخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث. قال: ولو وجدت أكثر لحفظته. قال: ولعله لا يوجد على وجه الأرض أكثر من ذلك.

وقد نيَّفت مؤلفاته الحافلة على خمسمائة مؤلف في شتى العلوم المعارف ومن هذه المؤلفات:

الإتقان في علوم القرآن ـ إتمام الدراية لقراء النقاية ـ الأشباه والنظائر ـ الإكليل في استنباط التنزيل ـ الاقتراح في علم النحو ـ أنباه الأذكياء لحياة الأنبياء ـ التاج في إعراب مشكل المنهاج ـ تاريخ أسيوط ـ تاريخ الخلفاء ـ التحبير لعلم التفسير ـ تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك ـ الجامع الصغير ـ جمع الجوامع ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ـ همع الهوامع ـ اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ـ وغيرها.

وللسيوطي شعر أكثر في الفوائد العلمية والأحكام الشرعية[1] ومن ذلك قوله:

---

(١) انظر رسالته: أحاسن الاقتباس في محاسن الاقتباس. مخطوطة في الظاهرية برقم ٨٧٢٥.

فوّض أحاديث الصفات ولا تشبه أو تعطل

إن رمت إلاّ الخوض في تحقيق معضلة فأوّل

إن المفوض سالم مما يكلفه المؤول

وقال في الشافعي:

إن ابن إدريس حقاً بالعلم أولى وأحرى

لأنه من قريش وصاحب البيت أدرى

وقال مقتبساً:

أيها السائل قوماً ما لهم في الخير مذهب

اترك الناس جميعاً «وإلى ربك فارغب»

وكانت وفاته ليلة الجمعة ١٩ جمادي الأولى سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥م في منزله بروضة المقياس عن عمر يقارب ٦٢ سنة.

وفيه قال عبد الباسط بن خليل الحنفي من قصيدة يرثيه.

مات جلال الدين غيث الورى ومرشد الضال بنفع يعود

فيا عيون انهملي بعده ويا قلوب انفطري بالوقود

وحق للناس بأن يحزنوا بل حق إن كل بنفس يجود

مصيبة هلّت فَحلّت بنا وأورثت نار اشتعال الكبود

صبّرنا الله عليها وأوْ لاهُ نعيماً حلَّ دار الخلود

وغمه منه بوبل الرضى والغيث بالرحمة بين اللحود[1]

ونرجو أن نكون قد أخرجنا الرسالة بصورتها التي أرادها المؤلف.

والله الموفق.

الهند ١٩٨١

محمد سعيد الطريحي

---

(١) استقينا الترجمة من ترجمة السيوطي لنفسه في كتابه حسن المحاضرة ١٨٨/١ طبع مصر ١٢٩٩ هـ. وكتاب الكواكب السائرة لنجم الدين الغزي ٢٢٦/١ ـ ٢٣١. ومن أراد المزيد فليراجع الأعلام ٧١/٤، ومعجم المؤلفين ١٢٨/٥ ففيهما جمهرة من المراجع عنه. وكتاب تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٢٩٨/٣ ـ ٩١٤. وبروكلمان، الذيل ١٤٣/٢ ـ ١٥٨.

الصفحة الأولى من النسخة الهندية

الصفحة الأخيرة من النسخة الهندية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى اخبرني شيخي شيخ الاسلام والمسلمين
تقي الدين الشمني بقراءتي عليه قال انا الجمال عبد الله بن علي الحنبلي قال انا ابو الحسن
القرشي قال انا ست زينب بنت مكي ح وانبأني عاليا ابو عبد الله محمد بن مقبل
الحلبي عن الصلاح بن ابي عمر المقدسي قال انا ابو الحسن بن البخاري قال انا ابو
علي الرصافي قال انا ابو الحصين قال انا ابو علي التميمي قال انا ابو بكر القطيعي
قال ثنا عبد الله بن احمد بن حنبل قال ثنا ابي قال ثنا عفان قال حدثنا حماد
قال انا عطاء بن السائب عن ابيه عن علي رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما زوجه بفاطمة بعث معها بخميلة ووسادة من ادم حشوها ليف
ورحيين وسقاء وجرتين فقال علي لفاطمة ذات يوم والله لقد سنوت حتى
اشتكيت صدري وقد جاء الله اباك بسبي فاذهبي فاستخدميه فقالت
وانا والله قد طحنت حتى مجلت يداي فاتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما جاء
بك اي بنية فقالت جئت لاسلم عليك واستحيت ان تسأله ورجعت فقال ما
فعلت قالت استحييت ان اسأله فاتياه جميعا فقال علي يا رسول الله والله
لقد سنوت حتى اشتكيت صدري وقالت فاطمة قد طحنت حتى مجلت يداي
وقد جاءك الله بسبي وسعة فاخدمنا فقال والله لا اعطيكما وادع اهل الصفة
تطوى بطونهم لا اجد ما انفق عليهم ولكني ابيعهم وانفق عليهم اثمانهم فرجعا
فاتاهما النبي صلى الله عليه وسلم وقد دخلا في قطيفتهما اذا غطت رؤوسهما
تكشفت اقدامهما واذا غطيا اقدامهما تكشفت رؤوسهما فثارا فقال مكانكما
ثم قال الا اخبركما بخير مما سألتماني قالا بلى فقال كلمات علمنيهن جبريل تسبحان
في دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبران عشرا واذا اويتما الى فراشكما
فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا اربعا وثلاثين قال فوالله
ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله صلى قال فقال له ابن الكواء ولا ليلة صفين
قال نعم ولا ليلة صفين هذا حديث صحيح مشهور اخرجه الائمة الستة وطرقه
من طرق كثيرة بالفاظ مطولة ومختصرة فاخرجه البخاري في الخمس عن بدل بن

المحبر



وقد اخرج احمد عن محمد بن علي قال كتب [illegible] بن عبد العزيز ان انسخ
لي وصية فاطمة فكان في وصيتها الستر التي تزعم الناس انها احدثته
وان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فلما راه رجع واخرج
عن ابن ابي مليكة قال كانت فاطمة تنقز الحسن وتقول بابي شبيه
رسول الله ليس شبيه بعلي واخرج الدارمي من طريق انس بن
مالك عنها انها قالت له كيف طابت انفسكم ان تحثوا التراب على رسول
الله صلى الله عليه وسلم واخرج ابن عساكر عن حابس بن سعد قال
حدثتني فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم انها رات في منامها انها
نكحت ابا بكر ونكح علي اسما بنت عميس وكانت بنت عميس تحت ابي بكر
فتوفي ابو بكر وتوفيت فاطمة فنكح علي اسما بنت عميس ومما ينسب
لفاطمة من الشعر قولها ترثي اباها صلى الله عليه وسلم اورده ابن سيد الناس في سيرته

اغبر آفاق السماء وكورت ، شمس النهار واظلم العصران
فالارض من بعد النبي كئيبة ، اسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها ، وليبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود المعظم جوه ، والبيت ذو الاستار والاركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه ، صلى عليك منزل الفرقان

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تم كتاب
الثغور الباسمة في مناقب فاطمة للعلامة الحافظ
جلال الدين ابي الفضل عبد الرحمن الاسيوطي
تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنته بمنه
وكرمه وذلك نهار الخميس [illegible] من
صفر الخير سنة ست وسبعين والف
على يد افقر [illegible] ابراهيم بن بركات
ابن محمد بن عبد العزيز الحنفي
بدمشق وعلقها
لنفسه ولمن
شاء الله من
بعده
آمين

الصفحة الأخيرة من نسخة الظاهرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى...

أخبرني شيخي شيخ الإسلام والمسلمين تقي الدين الشُّمُنّي[1] بقراءتي عليه، قال: انبأني الجمال عبد الله بن علي الحنبلي، قال: أنبأنا أبو الحسن العُرْضي، قال: أنبأتنا زينب بنت مكي.

وأنبأني عالياً أبو عبد الله محمد بن مقبل الحلبي، عن الصلاح بن أبي عمر المقدسي، قال: أنبأنا أبو الحسن بن البخاري، قال: أنبأنا أبو علي الرصافي، قال: أنبأنا أبو الحصين، قال: أنبأنا أبو علي التميمي، قال: أنبأنا أبو بكر القطعي، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا عفان، قال: حدثنا حماد، قال: حدثنا عطا بن السائب، عن أبيه، عن علي رضي الله تعالى عنه، إن رسول الله (ص) لما زَوَّجه بفاطمة بعث معه بخميلة ووسادة من آدم، حشوها ليف، ورحيين، وسقاء، وجرَّتين. فقال علي لفاطمة ذات يوم:

والله لقد سَنَوْت[2] حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسببي، فاذهبي فاستخدميه.

فقالت: وإنا والله قد طحنت حتى مجلت[3] يداي.

فأتت النبي (ص) فقال: ما جاء بك إليّ بنيَّة؟

فقالت: جئت لأسلّمُ عليك، واستحيت إن تسأله ورجعت، فقال: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله، فأتياه جميعاً فقال علي لرسول الله: والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي وقد جاك الله بسببي وسعة فاخدمنا، فقال: والله لا أعطيكما، وادعُ أهل الصُفّة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا، فأتاهما النبي (ص)، وقد دخل في قطيفتهما[4] إذا غطت رؤوسهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: مكانكما، ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟ قالا: بلى، فقال: كلمات علمنيهنَّ

---

(١) أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن علي الشمني القسنطيني الأصل الإسكندري أبو العباس تقي الدين (٨٠١ - ٨٧٢ هـ) ولد بالإسكندرية ومات في القاهرة له شرح المغني لابن هشام مطبوع وكتب أخرى (الأعلام ٢١٩/١). وهو أستاذ السيوطي، ذكر الشيخ نجم الدين الغزي في الكواكب السائرة ٢٢٧/١ أنه لزم درسه من شوال سنة ٨٦٨ هـ وسمع عليه المطلو والتوضيح والمغني وحاشية عليه وشرح المقاصد للتفتازاني وقرأ عليه من الحديث كثيراً.

(٢) يقال سَنَيتُ الشيء إذا فتحته وسهَّلته. وتسنى لي كذا أي تيسر وتأتى. ومن حديث البعير الذي قال أصحابه لرسول الله (ص) إنا كنا نسنو عليه أي نستقي النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج ٢.

(٣) يقال: مجلت يده أي نفطت من العمل ظهر فيها المجل (والعامة تقول: بقبقت).

(٤) القطيفة دثار له حمل.

جبريل، تسبّحان في دُبر كل صلاة عشراً، وتحمّدان عشراً، وتُكبِّران عشراً، وإذا آويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين، قال: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله (ص). قال له ابن الكوا: ولا ليلة صفين؟ قال: نعم ولا ليلة صفين[1].

هذا حديث صحيح مشهور، أخرجه الأئمة الستة وغيرهم، من طرق كثيرة بألفاظ مطولة ومختصرة، فأخرجه البخاري في الخمس عن بدل بن المحبّر، وفي فضل علي بن بُندار عن غندر، وفي النفقات عن مسدد عن يحيى، وفي الدعوات عن سليمان بن حرب.

وأخرجه مسلم في الدعوات عن محمد بن المثنى وبندار، كلاهما عن غندر وعن وكيع وعن عبيد الله بن معاذ عن أبيه، وعن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي.

وأخرجه أبو داود في الأدب عن مسدد عن يحيى، وعن حفص بن عمر ثلاثتهم عن شعبة، عن الحكم بن عتيبة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن علي به.

وأخرجه البخاري أيضاً في النفقات، عن الحميدي، ومسلم في الدعوات عن زهير بن حرب، والنسائي عن قتيبة، ثلاثتهم عن سفيان، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن مجاهد، عن ابن أبي ليلى به.

وأخرجه مسلم أيضاً في الدعوات، عن عبيد بن يعيش، ومحمد بن عبد الله بن نمير، كلاهما عن عبد الله بن نمير، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطا، عن مجاهد به.

وأخرجه أبو داود أيضاً في الأدب، عن عباس العنبري، عن عبد الملك بن عمرو، عن عبد العزيز بن محمد النسائي، عن ابن السراج، عن ابن وهب، عن عمر بن ملك المعافري، وحَيْوَة بن شريح، ثلاثتهم عن يزيد بن عبد الهادي، عن محمد بن كعب القرظي، عن شبث بن ربعي، عن علي به.

وأخرجه أبو داود أيضاً في الخراج، عن يحيى بن خلف، عن عبد الأعلى، وعن مؤمل بن هشام، عن ابن عُلَيَّة، كلاهما عن سعيد الجريري، عن أبي الورد بن ثمامة، عن ابن أعبد، عن علي به.

---

(١) الحديث في طبقات ابن سعد ١٩/٨ (عن عفان بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب عن أبيه عن علي).

وفي مسند أحمد ٣٩/٢.

ومسند الحميدي ٢٤/١، صحيح أبي داود ج ٣٣ باب التسبيح عن النوم. وفي كشف الغمة ٣٦٢/١ إن رسول الله قال لفاطمة: تسبحين الله عز وجل في كل يوم ثلاثاً وثلاثين مرة، وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين مرة، وتكبرينه أربعاً وثلاثين مرة، فذلك مائة باللسان، وألف حسنة في الميزان، يا فاطمة إنك إن قلتها صبيحة كل يوم كفاك الله ما أهمك من أمر الدنيا والآخرة.

وأخرجه الترمذي في الدعوات، والنسائي في عشرة النسا، كلاهما عن أبي الخطّاب زياد بن يحيى البصري، عن أزهر بن سعد السمان، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن عبيدة بن عمرو السلماني، عن علي به.

وأخرجه النسائي أيضاً في النكاح، عن نصر بن الفرج، عن أبي أسامة، عن زايدة وابن ماجة في الزهد، عن واصل بن عبد الأعلى، عن محمد بن فضل كلاهما عن عطا بن السائب، عن أبيه، عن علي به.

وأخرجه أحمد أيضاً، عن أسود بن عامر وحسين وأبي أحمد الزبيدي، ثلاثتهم، عن إسرائيل، عن أبي إسحق، عن هبيرة بن مريم، عن علي به.

وأخرجه الطبري في تهذيب الآثار، من طريق القاسم مولى معاوية عن علي، من طريق أبي إمامة عن علي، ومن طريق عمارة بن عبيد عن علي، ومن طريق محمد بن الحنفية، عن علي، ومن طريق أبي مريم، عن علي.

وأخرجه مطين في مسند علي، من طريق هاني بن هاني عن علي. وممن أخرجه أيضاً ابن حبان في صحيحه، وجعفر الفريابي في الذكر، ويوسف القاضي في الذكر، والدارقطني في العلل، والبيهقي، والبزار.

وورد أيضاً من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم.

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه الطبري في تهذيب الآثار واصله في سنن أبي داود.

ومن حديث الحكم أو ضباعة بن الزبير، أخرجه أبو داود من حديث أم سلمة، أخرجه الطبري في تهذيبه، ومن مرسل علي بن الحسين، ومن مرسل عروة أخرجهما جعفر في الذكر.

ذكر الأحاديث الواردة في تزويج فاطمة (رضي الله عنها)

قال ابن منده في المعرفة: تزوج علي فاطمة بالمدينة بعد سنة من الهجرة، وبنى بها بعد ذلك بنحو من سنة، وولدت له حسناً وحسيناً ومحسناً وأم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى[1].

وفي الطبقات لابن سعد: تزوج علي فاطمة في رجب بعد مقدم النبي (ص) المدينة بخمسة أشهر وبنى بها مرجعه من بدر، وفاطمة بنى بها علي بنت ثمان عشرة سنة ونصف[2].

---

(١) في كشف الغمة ٣٦٤/١: عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: تزوج علي فاطمة رضي الله عنهما في شهر رمضان وبنى بها في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة.

(٢) ابن سعد ١٢/٨ (عن عبد الله بن عمر بن علي عن أبيه).

أخرج البيهقي في الدلائل: عن علي، قال: خطبت فاطمة إلى رسول الله (ص)، فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله (ص)؟ قلت: لا، قالت: قد خُطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله (ص) فيزوجك؟ فقلت: وعندي شيء أتزوج به، قالت: إنك إن جئت رسول الله (ص) زوّجك، فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله (ص)، وكان لرسول الله (ص) جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم، فقال رسول الله (ص): ما جاء بك ألك حاجة؟ فسكت. فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقلت: نعم، فقال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا يا رسول الله، فقال: ما فعلت درع سلمتكها فوالذي نفسي بيده إنها لحطمية[1]، فقال: قد زوجتك فابعث بها إليها تستحلها بها فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله (ص)[2].

وأخرج البزار بسند حسن، عن بُريدة، قال: قال نفر لعلي لو خطبت فاطمة بنت رسول الله (ص) (فأتى النبي (ص) فقال: ما حاجتك يا علي، قال ذكرت فاطمة بنت رسول الله (ص))[3]، قال مرحباً وأهلاً لم يزده عليها، فخرج علي إلى أولئك الرهط، وهم ينظرونه قالوا: ما ورائك؟ قال: لا أدري غير أنه قال لي مرحباً وأهلاً، قالوا: يكفيك أن رسول الله (ص) أعطاك الأهل وأعطاك المرحب، قال: فلما كان بعدما زوجه، قال: يا علي أنه لا بد للعروس من وليمة، فقال: سعد عندي كبش، وجمع له رهط من الأنصار أصوعاً من ذرة، فلما كان ليلة البنا، قال: يا علي لا تحدث شيئاً حتى تلقاني، فدعا النبي (ص) بماء فتوضأ منه، ثم أفرغه على علي، ثم قال: اللهم بارك فيهما، وبارك لهما في نسلهما[4].

وأخرج أبو داود، من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما تزوج علي رضي الله عنه فاطمة رضي الله عنها قال له رسول الله (ص): أعطيها شيئاً، قال: ما عندي شيء، قال: أين درعك الحطمية؟ وأخرجه ابن سعد عن عكرمة مرسلاً وزاد، فاصدقها إياها وكان ثمنها أربعمائة درهم.

وأخرج ابن سعد عن علباء بن أحمر اليشكري، أن علياً رضي الله عنه تزوج فاطمة رضي الله عنها فباع بعيراً له بثمانين وأربعمائة درهم، فقال النبي (ص): اجعلوها ثُلثين في الطيب، وثلثاً في الثياب[5].

---

(١) الحطمية: بضم الحاء وفتح الطاء المهملة. قال الزمخشري هي منسوب إلى حطمة بن محارب بن عبد القيس يعملون الدروع (الفائق ١/١٣٦).

(٢) مسند الحميدي ١/٢٢ الحديث ٣٨.

(٣) ما بين القوسين سقط في نسخة الظاهرية.

(٤) طبقات ابن سعد ٨/١٢. وفي ذخائر العقبى/٣٢ وقال أخرجه أبو عبد الرحمن النسائي وأخرجه الدولابي. ورواه ابن الأثير في أسد الغابة ٥/٥٢١ مختصراً. وفي الصواعق المحرقة/١٤٠.

(٥) ابن سعد ٨/١٢.

وأخرج عن حجر بن عنبس، وكان أدرك الجاهلية. قال: خطب أبو بكر وعمر فاطمة فقال النبي (ص):

هي لك يا علي لستُ بدجّال، يعني لست بكذاب، وذلك أنه قد كان وعد علياً بها قبل أن يخطب إليه أبو بكر وعمر[١].

وأخرج عن عطاء قال: خطب علي فاطمة، فقال لها رسول الله (ص): أن علياً يذكركِ فسكتت فزوجها[٢].

وأخرج عن عكرمة قال: لما زوج رسول الله (ص) علياً فاطمة كان فيما جُهزت به سرير مشروط[٣]، ووسادة من آدم[٤] حشوها ليف، وتور من ادم، وقربة، وقال لعلي إذا أتيت بها فلا تقربنها حتى آتيك، وكانت اليهود يُؤخرون الرجل عن امرأته، فلما أتى بها قعداً حيناً في ناحية البيت، ثم جاء رسول الله (ص) فدعا بماء فإتي به فمج فيه ومسده بيده، ثم دعا علياً فنضح من ذلك الماء على كفيه وصدره وذراعيه، ثم دعا فاطمة فاقبلت تعثر في ثوبها حياءاً من رسول الله (ص)، ثم فعل بها مثل ذلك، ثم قال: يا فاطمة أما إني ما آليت[٥] أن أنكحتك خير أهلي.

وأخرج نحوه موصولاً من طريق سعيد بن المسيب عن أم أيمن[٦].

وأخرج ابن ماجة، عن علي، قال: لقد أهديت ابنة رسول الله (ص) إليَّ فما كان فراشنا ليلة اهديت إلاّ مسك كبش[٧].

وأخرجه ابن سعد بلفظ: لقد تزوجت فاطمة ومالي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار ومالي ولها خادم غيرها[٨].

وأخرج البزار، عن جابر، قال: حضرنا عرس علي وفاطمة، فما رأينا عرساً كان أحسن منه، حشونا الفراش الليف، وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا، وكان فراشها ليلة عرسها اهاب كبش.

---

(١) ابن سعد ١٢/٨ عن الفضل بن دكين بن موسى بن قيس الحضرمي عن حجر بن عنبس عن علباء بن أحمر اليشكري.

(٢) ابن سعد ١٢/٨ وفي الشريعة الإسلامية يكفي في رضا البكر السكوت ولا يكفي في الثيب إلاّ الكلام، وإنما أراد الرسول (ص) استشارتها الجري على السنة وتعليم أمته أن تستأمر المرأة عند إرادة تزويجها وأن لا يستبدوا بها وإظهار كرامة المرأة باستشارتها حتى لو كان أبوها سيد الأنبياء (ص).

(٣) أي ملفوف بشريط وهو خوص مفتول يشرط به السرير ونحوه.

(٤) ادم: بفتحتين أو ضمتين جمع اديم وهو الجلد.

(٥) ما آلوت (خ . ل).

(٦) ابن سعد ١٤/٨ - ١٥، المصنف لأبي بكر الصنعاني ٤٨٥/٥ الحديث ٩٧٨١، موارد الظمآن ٥٤٩/١: الأحاديث ٢٢٢٤ إلى ٢٢٢٦.

(٧) صحيح ابن ماجة في أبواب الزهد ص ٣١٦.

(٨) ابن سعد ١٣/٨. وفي ذخائر العقبى ٣٥ وقال: أخرجه في الصفوة.

وأخرج ابن سعد، عن أسماء[1]، قالت: جهزت فاطمة إلى علي وما كان حشو فراشها ووسايدها إلاّ ليف، ولقد أولم عليّ على فاطمة فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودي بشطر شعير[2].

وأخرج عن رجل أخواله من الأنصار، قال: أخبرتني جدتي أنها كانت مع النسوة اللاتي أهدين فاطمة إلى علي، قالت: أهديت في بردين عليها دملوجان من فضة مصفرّان بزعفران، فدخلنا بيت علي فإذا أهاب شاة ووسادة فيها ليف وقربة ومنخلٌ ومنشفة وقدح[3].

وأخرج الإمام أحمد في الزهد، عن علي، قال: جهز رسول الله (ص) فاطمة رضي الله عنها في خميل، وقربة، ووسادة، من آدم حشوها ليف[4].

وأخرج عن علي، قال: ما كان لنا إلاّ إهاب كبش[5] ننام على ناحيته، وتعجّن فاطمة على ناحيته.

ذكر خصائص فاطمة ومناقبها (رضي الله تعالى عنها)

أخرج الشيخان من طرق، عن المسور بن مخرمة، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول وهو على المنبر: إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن إلاّ أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم وإني لست أحرم حلالاً ولا أحلل حراماً ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبداً. وفي رواية: فإنما

---

(١) ذكر الحافظ محمد بن يوسف الكنجي في كفاية الطالب أن أسماء هذه هي أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصاري، وليست أسماء بنت عميس كما يذكره أكثر الرواة لحديث تزويج فاطمة رضي الله عنها وردّ على ذلك بأن أسماء بنت عميس كانت مع زوجها جعفر بن أبي طالب بالحبشة وقدم بها يوم فتح خيبر سنة سبع وقال النبي (ص): ما أدري بأيهما أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر، وكان زواج فاطمة (رض) بعد وقعة بدر بأيام يسيرة. انظر الأربلي: كشف الغمة ٣٧٢/١. ٣٧٣. كفاية الطالب ص ٣٠٧ ط ٢.

(٢) ابن سعد ١٤/٨ (عن محمد بن علي بن أبي طالب عن أمه أم جعفر عن جدتها أسماء بنت عميس). ذخائر العقبى/٣٣ . ٣٤ وقال أخرجه الدولابي.

(٣) ابن سعد ١٥/٨ : (عن موسى بن إسماعيل عن دارم بن عبد الرحمن بن ثعلبة الحنفي، عن رجل أخواله من الأنصار، عن جدته).

(الدملج) بضم الدال واللام وإسكان الميم كقنفذ، شيء يشبه السوار تلبسه المرأة في عضدها والدملوج كعصفور مثله (مجمع البحرين).

(٤) قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد، مستدرك الصحيحين ١٨٥/٢، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده ٨٤/١ و٩٣ و١٠٤ و١٠٨. وفي كنز العمال ١٢٣/٧ وزاد: ووسادة حشوها اذخر. ثم قال: أخرجه البيهقي في الدلائل.

(٥) الإهاب: ككتاب ـ الجلد ويقال: ما لم يدبغ، والجمع أُهُب ككتب، استعير الاهاب لجلد الإنسان (مجمع البحرين).

فاطمة بضعة مني يريبني عاراً بها، ويؤذيني ما آذاها، وأنا أتخوف أن تفتن في دينها[1].

---

(١) رواه البخاري ٦٧/٧ و٦٨ ومسلم رقم ٢٤٤٩ في فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي (ص) وأبو داود رقم ٢٠٦٩ و٢٠٧٠ و٢٠٧١ والترمذي رقم ٣٨٦٦ في مناقب فاطمة عليها السلام وجامع الأصول ١٢٦/٩ رقم ٦٦٧٤ ورواية خطبة علي عليه السلام ابنة أبي جهل موضوعة لا أصل لها. قد افتعلها أعداء علي (ع) ليحطوا من قدره الجليل ومنزلته العظيمة في نفوس المسلمين قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٦١/٤ «ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله فاختلقوا ما أرضاه». وبعض الصحابة كانوا منحرفين عنه فسعد وابن عمر لم يبايعاه كمحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وغيرهما فلم يجبرهما واعتزلوا فقال هؤلاء قوم خذلوا الحق ولا ينصروا الباطل. وأهل الجمل نكثوا بيعته وهم من الصحابة وعداوة ابن الزبير له معلومة وكذا أمر معاوية وعمرو بن العاص معه وهما من الصحابة معلوم. وجماعة من الصحابة كانوا منحازين إلى بني أمية يمالؤنهم ويداهنونهم وينالون من دنياهم ويلون لهم الأعمال كالنعمان بن بشير وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة وأمثالهم. وجملة منهم أخذوا الأموال الطائلة وولوا الولايات ليرووا لبني أمية في ذمة ما شاؤوا مثل أن آية: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد} نزلت في علي بن أبي طالب حكى ابن أبي الحديد عن نسخة أبي جعفر الإسكاني أنه قال إن معاوية بذل لسمرة بن جندب (وهو صحابي) مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي وإن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله} فلم يقبل فبذل له أربعمائة ألف درهم، فقبل وروى ذلك. وليرووا لهم أنه غاظ رسول الله (ص) بخطبته بنت أبي جهل حتى قام في ذلك خطيباً وحتى نظم ذلك مروان بن أبي حفصة قصيدته اللامية متقرباً به إلى العباسيين فقال:

وغـــاظ رســـول الله إذ غـــاظ بنتـــه بخطبتـــه بنـــت اللعـــين ابـــي جهـــل

وحكى ابن أبي الحديد في شرح النهج عن شيخه المذكور أن أبا هريرة روى ذلك وأن الحديث مشهور من رواية الكرابيسي ثم قال ابن أبي الحديد أن الحديث مخرج أيضاً من صحيحي مسلم والبخاري عن المسور ابن مخرمة الزهري، وقد أشرنا لكتبهما في أول التعليقة، قلت والمسور هذا ولد سنة ٢ هـ وقبض النبي (ص) وهو ابن ثمان سنين وكانت الخوارج تغشاه لحسن رأيه ودينه وتعظمه وتنتحل رأيه كما ذكر عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ المتوفي سنة ٨٣٧ هـ في كتابه معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (١٠٧/١ طبع سنة ١٣٢٠). وبهذا ترى أنه علاوة على صغر سنه كان على صلة بالخوارج وبالتالي فإن خطه يتفق مع أعداء علي فلا تصح روايته لذلك، وأما ما ورد من هذا الحديث من طرق صحابة غيره فهي غريبة مجهولة وضعها أعداء أمير المؤمنين وحساده.

ولم يسبه من افتعل هذا الحديث إلى أنه يؤول إلى القدح في الرسول (ص) والعياذ بالله فإنه ليس له أن يغضب مما أحله الله وأباحه وأنزلوا رسول الله (ص) منزلة الجاهل العامي الذي لا يربطه دين ولا عقل ولا علم فلا يريد لصهره أن يتزوج على ابنته، مع العلم أن النبي (ص) مزود بالعقل والعلم والحكمة وهو رجل تشريع لا يستسلم إلى العاطفة إلى درجة تتنافى في القيم الدينية، ومعلوم أن مثل هذه الروايات التي تقدح في علي وأهل البيت كسابقاتها المذكورة راجت أمام دولة بني أمية الذين منعوا أن يسمى أحد باسمه أو يكنى بكنيته ومنعوا من ذكره والرواية عنه وجعلوا به على المنابر في الأعياد الجمعات كفرض الصلاة ثمانين سنة وكان الناس يتقربون إليهم بذمة وأخفي قبره بعد موته خوفاً منهم فما زاده ذلك إلا رفعة وسمواً وكان كالمسك كلما ستر فاح عرفه وكلما كتم تضوع نشره ولقد أجاد ثم قال فيه:

«ما أقول في رجل أخفى أولياؤه فضائله خوفاً وأعداؤه حسداً وظهر من بين ذين ما ملأ الخافقين». ويكفي محبة علي لفاطمة دليلاً على بطلان تلك الخطبة ووضعها. تلك المحبة المقدسة التي سارت بها الركبان.

وذلك ما يظهر من قوله عليه السلام: «فوالله ما أغضبتها ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل إليه. ولا أغضبتني ولا عصت لي أمراً، ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عني الهموم والأحزان» وحديث علي تراه في كشف الغمة ٣٦٣/١.

وللحاكم عن سويد بن غفلة، قال: خطب علي بنت أبي جهل فاستشار النبي (ص) فقال: اعن حسبها تسألني فقال لا، ولكن أتأمرني بها قال: لا، فاطمة بضعة مني ولا أحسب إلا أنها تحزن أو تجزع فقال علي أتى شيئاً تكرهه.

وأخرج البزار، والطبراني، عن ابن عباس: أن علياً خطب بنت أبي جهل فبلغ ذلك النبي (ص) فبعث إليه رسول: إن كنت تؤذينا بها فرد علينا ابنتنا.

قال ابن التين: اصح ما تحمل عليه هذه القصة أن النبي (ص) حرم على أن يجمع بين ابنته وغيرها لأن ذلك يؤذيه لكونه يؤذيها وإذايته (ص) حرام باتفاق.

قال شيخ الإسلام ابن حجر الذي يظهر أنه لا يبعد أن يعد في خصائص النبي (ص) أن لا يتزوج على بناته ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بفاطمة (ع).

وأخرج الترمذي عن بريدة وعائشة، قالا: كان أحب الناس إلى رسول الله (ص) فاطمة.

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي، عن عائشة: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ولا هدياً برسول الله (ص) من ابنته فاطمة في قيامها وقعودها، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه فلما مرض دخلت فأكبت عليه، ثم رفعت رأسها، فضحكت فسألتها عن ذلك فقالت: أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به فضحكت[1].

وأخرج الشيخان، عن عائشة، قالت: اجتمع نساء رسول الله (ص) فجاءت فاطمة تمشي ما تخطي مشيتها مشية أبيها، فقال: مرحباً بابنتي، فاقعدها عن يمينه فسارّها بشيء فبكت، ثم سارَّها فضحكت فقلت لها: أخبرني بما سارّك، قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله (ص) سرَّه، فلما توفي قلت لها أسألك بما لي عليك من الحق أخبريني بما سارك، قالت أما الآن فنعم، سارّني قال إن جبريل كان يعارضني بالقرآن[2] في كل سنة مرّة، وأنه عارضني عنده السنة مرتين ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري فنعم السلف إنا لكِ، فبكيت، ثم سارني فقال: أما ترضين أن تكون سيدة نساء المؤمنين فضحكت[3].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق في باب علامات النبوة في الإسلام. وصحيح الترمذي ٣١٩/٢ ورواه الحاكم في مستدرك الصحيحين ٢٧٢/٤.

(٢) يعارضين بالقرآن أي: يدارسني في كل عام مرّة واحدة بجميع القرآن الذي نزل.

(٣) رواه البخاري ٦٢/٦ في الأنبياء - باب علامات النبوة في الإسلام، وفي فضائل أصحاب النبي (ص) باب مناقب قرابة رسول الله (ص)، وفي المغازي باب مرض النبي (ص) ووفاته، وفي الاستئذان باب من ناجى بين يدي الناس ومن لم يخبر بسر صاحبه فإذا مات أخبر به. ومسلم رقم ٢٤٥٠ في فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة. والترمذي رقم ٣٨٧١ في المناقب - باب مناقب فاطمة. وأبو داود رقم ٥٢١٧ في الأدب، باب ما جاء في القيام. جامع الأصول لابن الأثير ١٢٨/٩ رقم ٦٦٧٦. الجوهرة للبُري ١٩٨/٢. كشف الغمة ٧٩/٢.

وأخرج الترمذي عن أم سلمة قالت: دعا رسول الله (ص) فاطمة عام الفتح فناجاها فبكت، ثم حدثها فضحكت، فلما توفي سألتها، قالت: أخبرني أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلاّ مريم بنت عمران فضحكت.

وأخرج عن أنس أن النبي (ص) قال: حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون[١].

وأخرج البزار، عن علي: أن النبي (ص) قال لفاطمة: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة وابنيك سيدا شباب أهل الجنة[٢].

وأخرج...[٣] عن عمران بن حصين، أن النبي (ص) عاد فاطمة وهي مريضة فقال لها: كيف تجدينك؟ قالت: إني وجعة، وإني ليزيدني أني مالي طعام آكله، قال: يا بنية أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، قالت: فأين مريم قال: تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك أما والله لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة[٤].

وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (ص): فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران[٥].

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن عمران بن حصين قال: كنت مع رسول الله (ص) إذ أقبلت فاطمة فوقفت بين يديه فنظر إليها، وقد ذهب الدم من وجهها، وغلبت الصفرة عليها من شدة الجوع فرفع يده حتى وضعها على صدرها في موضع القلادة وفرّج بين أصابعه، ثم قال: اللهم مشبع الجاعة ورافع الوضيعة ارتفع فاطمة بنت محمد، قال عمران: فسألتها بعد، فقالت: ما جعت يا بن عمران.

وأخرج الطبراني بسند حسن عن علي قال: قال رسول الله (ص) لفاطمة: إن الله يرضى لرضاك، ويغضب لغضبك[٦].

---

(١) صحيح الترمذي في فضل خديجة، ورواه الحاكم في مستدرك الصحيحين ١٥٧/٣ بطريقين. قال في ثانيهما: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وأحمد بن حنبل في مسنده ١٣٥/٣. وفي حلية الأولياء ٣٤٤/٢. ومشكل الآثار للطحاوي ٥٠/١. وتاريخ بغداد للخطيب ١٨٤/٧ و٤٠٤/٩. وأسد الغابة ٤٢٧/٥. وتهذيب التهذيب ٤٤١/١٢. والاستيعاب ٧٢/٢. وكنز العمال ٢٢٧/٦. الجوهرة للبري ١٩٧/٢ (عن ابن السراج).

(٢) كنز العمال ١١١/٧. والحديث بمعناه في صحيح الترمذي رقم ٣٧٨٣ في المناقب، مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، وجامع الأصول ١٢٥/٩ رقم ٦٦٧٣.

(٣) بياض في الأصل.

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم ٤٢/٢. مشكل الآثار للطحاوي ٥٠/١. ذخائر العقبى/٤٣.

(٥) الجوهرة للبُري ١٩٨/٢. تاريخ ابن عساكر (تراجم النساء): ٣٧٩ وما بعدها. فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢ (٧٥٤ - ٧٦٥) فضائل فاطمة بنت رسول الله (ص).

(٦) مستدرك الصحيحين ١٥٣/٣. أسد الغابة ٥٢٢/٥. الإصابة ١٥٩/٨. تهذيب التهذيب ٤٤١/١٢. كنز العمال ١١١/٧. ميزان الاعتدال ٧٢/٢. ذخائر العقبى/٣٩.

وأخرج البزار، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله (ص): إن فاطمة أحصنت فرجها فحرمها الله وذريتها على النار[١].

فصل في سنها ووفاتها (رضي الله عنها)

قال المدائني وغيره: كانت فاطمة أصغر بنا رسول الله (ص)، وقال ابن عبد البر: كانت هي وأم كلثوم أصغر بناته، واختلف في الصغرى منها، والصحيح أن أولى بناته زينب، ثم الثانية رقية، ثم الثالثة أم كلثوم، ثم الرابعة فاطمة.

وذكر ابن إسحاق أن مولدها وقريش تبعت الكعبة، وبنت قريش الكعبة قبل المبعث بسبع سنوات ونصف، وقيل ولدت عام المبعث، وقيل غير ذلك[٢].

وكانت وفاتها بعد رسول الله (ص) بستة أشهر، وقيل ثمانية، وقيل بثلاثة أشهر، وقيل بسبعين يوماً، وقيل بشهرين، والصحيح الأول.

قال الواقدي وغيره: وكانت وفاتها ليلة الثلاثاء، لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقال الذهبي: والصحيح أن عمرها أربع وعشرون سنة، وقيل إحدى وعشرون وقيل ست وعشرون، وقيل ثلاثون، وقيل ثلاث وثلاثون، وقيل خمس وثلاثون[٣].

قال عبد الله بن الحارث: مكثت بعد رسول الله (ص) ستة أشهر وهي تذوب قال، غيره: وما رؤيت ضاحكة بعده[٤].

قال جماعة: وغسلها زوجها علي رضي الله عنه وصلى عليها ودفنها ليلاً، وقيل صلى عليها العباس، وقيل أبو بكر[٥]، ونزل في قبرها علي والعباس وابنه الفضل، وقد ورد حديث أنها لم تغسل وأنها غسلت نفسها عند موتها فأخرجها ابن سعد في الطبقات، وأحمد في مسنده، عن أم سلمى قالت: اشتكت فاطمة شكواها التي قبضت فيه فكنت أمرّضها فأصبحت يوماً وخرج علي لبعض حاجته، فقالت: يا أمة اسكبي لي غسلاً، فسكبت لها

---

(١) مستدرك الصحيحين ٣/١٥٢. حلية الأولياء ٤/١٨٨. كنز العمال ٦/٢١٩. ذخائر العقبى/٢٦ و٤٨.

(٢) ولدت بمكة يوم الجمعة العشرين من جمادي الآخرة قبل المبعث بسنتين قاله الشيخ الطوسي في مصباح المتهمين قال وفي رواية أخرى سنة خمس من المبعث وقاله الكليني وابن شهر آشوب ولدت بعد المبعث بخمس سنين وهو المروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام والمشهور بين الإمامية.

(٣) توفيت في الثالث من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة من الهجرة على المشهور بين الإمامية وهو المروي عن الصادق وروي أنها توفيت لعشر بقين من جمادى الآخرة وقيل لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر ليلة الأحد، وعن ابن عباس في الحادي والعشرين من رجب. وقيل غير ذلك. وقد اختلف أيضا في مدة بقائها بعد أبيها (ص) إلاّ أنه لم يقل أحد بأكثر من ثمانية أشهر ولا بأقل من أربعين يوماً والمروي عن أهل البيت (ع) أنها بقيت بعده خمسة وسبعين يوماً.

(٤) طبقات ابن سعد ٢/٤٠، حلية الأولياء ٢/٤٣، فتح الباري ٩/٢٠١.

(٥) قال الأربلي: أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما عاتبا علياً كونه لم يؤذنهما بالصلاة عليها، فاعتذر أنها أوصته بذلك وحلف لهما فصدقاه وعذراه. كشف الغمة ٢/١٣٠.

غسلا، فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل، ثم قالت: يا أمة أعطني ثيابي الجدد فلبستها، ثم قالت: يا أمة قربي فراشي وسط البيت فاضطجعت واستقبلت القبلة، وجعلت يدها تحت خدها، وقالت: يا أمة إني مقبوضة، وقد تطهرت فلا يكشفني أحد فقبضت مكانها، فجاء علي فأجزته، فقال: لا والله لا يكشفها أحد فدفنها بغسلها ذلك[١].

هذا حديث غريب وإسناده جيد إلا أن فيه ابن إسحاق، وقد عنعنه وله شاهد مرسل، وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وتعقبه شيخ الإسلام ابن حجر في القول المسدد وأنكر عليه الحكم بوضعه فإن صحت هذه القصة عُدّ ذلك في خصائصها.

وأخرج...[٢] عن أم جعفر أن فاطمة قالت لأسماء بنت عميس: إني استقبح ما يصنع بالنسا يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت: يا ابنة رسول الله (ص)، ألا أريك شيئاً رأيته بالحبشة، فدعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله، إذا أنا متّ فغسليني أنت وعلي لا يدخلن أحد علي.

قال ابن عبد البر فهي أول من غطي نعشها في الإسلام على تلك الصفة، ثم بعدها زينب بنت جحش[٣].

قال ابن سعد: أنبأنا محمد بن عمر، أنبأنا عمر بن محمد بن عمر بن علي، عن أبيه عن علي بن حسين، عن ابن عباس، قال: فاطمة أول من جُعل لها النعش، عملته أسماء بنت عميس، وكانت قد رأته يصنع بأرض الحبشة[٤].

فائدة

قال العلماء انقرض نسب رسول الله (ص) إلاّ فاطمة لأن إمامة بنت بنته زينب تزوجت بعلي ثم بعده بالمغيرة بن نوفل وجاءها منها أولاد. قال الزبير بن بكار انقرض عقب زينب[٥].

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل ٤٦١/٦. ذخائر العقبى/٥٣ وقال في آخره: أخرجه أحمد في المناقب والدولابي. ورواه ابن الأثير في أسد الغابة ٥٩٠/٥ وطبقات ابن سعد ١٨/٨ عن يزيد بن هارون عن إبراهيم بن سعد عن إسحاق عن علي بن فلان بن أبي رافع عن أبيه عن سلمي. كشف الغمة ١٢٧/٥ ـ ١٢٨.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) ذخائر العقبى/٥٣ وفيه (عن أم أبي جعفر) وفيه زيادة على ما ذكر هنا. ورواه البيهقي في سننه ٣٤/٤. وفي كشف الغمة ١٢٩/٢ ـ ١٣٠.

(٤) طبقات ابن سعد ١٨/٨.

(٥) قال الحافظ البدخشاني في نزل الأبرار/١٣٤ يذكر الزهراء (ع): وأما مروياتها فإنها روت عن أبيها صلى الله عليها وسلم يسيراً لأنها لم تعش بعده إلا قليلاً وروى عنها علي، وولديها الحسن، والحسين، وعائشة، وأم سلمة، وسلمى أم ولد أبي رافع، وأسماء بنت عميس، وغيرهم... وكل ما روى عنها فثمانية عشر حديثا. اتفق البخاري، ومسلم، على واحد منهما الذي روت عنها عائشة رضي الله عنها أن رسول الله(ص)، أخبرها أنه يقبض في وجعه، وأنها أول أهل بيته تتبعه، وأنها سيدة نساء أهل الجنة. صحيح البخاري ٣٥٢/٢. صحيح مسلم ١٩٠٤/٤ رقم ٢٤٥.

فائدة

جميع ما روته فاطمة رضي الله عنها من الحديث لا يبلغ عشرة أحاديث لتقدم وفاتها، فمما روته حديث المسارّة السابق من رواية عائشة وأم سلمة عنها، وحديث القول عند دخول المسجد رواه الترمذي وابن ماجة من رواية فاطمة الصغرى عنها مرسلاً، وقد ثبت اتصاله من طريق آخر عن فاطمة، عن أبيها الحسين عنها، وحديث ألا لا يلومن امرؤ إلاّ نفسه يبيت وفي يده ريح غمر، أخرجه ابن ماجة من رواية ابنها الحسين عنها، وحديث ترك الوضوء مما مست النار، أخرجه أحمد من رواية الحسن بن الحسن عنها مرسلاً. وحديث ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأنها إذا تدلت الشمس للغروب، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

حديث

وقد أخرج أحمد، عن محمد بن علي، قال كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن انسخ لي وصية فاطمة فكان في وصيتها الستر التي تزعم الناس أنها حدثته، وآن رسول الله (ص) دخل عليها فلما رآه رجع[1].

وأخرج عن ابن أبي مليكة، قال: كانت فاطمة تنقر[2] الحسن وتقول: بأبي شبيه برسول الله ليس شبيه بعلي.

وأخرج ابن عساكر عن حابس بن سعد، قال: أخبرتني فاطمة بنت رسول الله (ص) أنها رأت في منامها انكحت أبا بكر ونكح علي أسماء بنت عميس، كانت بنت عميس تحت أبي بكر فتوفي أبو بكر وتوفيت فاطمة فنكح علي أسماء بنت عميس[3].

ومما ينسب لفاطمة من الشعر قولها ترثي أباها (ص)، أورده ابن سيد الناس في سيرته:

اغـــــبر آفــــاق الــــسماء وكـــــورت
شمــــس النهـــــار واظلـــم العـــصران
فــــالأرض مـــن بعـــد الـــنبي كئيبـــة
آســــفاً عليـــــه كـــــثيرة الرجفـــــان

---

(١) أثبت السيد محسن الأمين، تمام وصية الزهراء في ترجمته لها (ع) في كتابه أعيان الشيعة وانظر كشف الغمة ٢/١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) تنقر: من النقّرة مراجعة الكلام والمخاصمة.

(٣) حديث غريب ظاهره الوضع شاذ ولا يصح.

فلتبكـــــه شـــــرق الـــــبلاد وغربهــــا
ولتبكـــــه مـــــضر وكـــــل يمـــــاني
وليبكـــــه الطـــــود المعظـــــم جـــــود
والبيـــــت ذو الأســـــتار والأركـــــان
يـــــا خـــــاتم الرســـــل المبـــــارك ضـــــؤوه
صـــــلى عليـــــك منـــــزّل الفرقـــــان[1]

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وفرغ من استنساخها أقل الخليقة محمد سعيد الطريحي ببلدة أحمد آباد[2]، محلة كالو بورتاور في السادس عشر من شعبان سنة ١٤٠٢ هجرية. والله من وراء القصد.



(١) الأبيات الثلاثة الأولى في السيرة النبوية لأحمد بن ريني دحلان وللسيدة الزهراء (ع) أبيات أخرى مشهورة في رثاء رسول الله (ص) ومنها:

قـل للمغيـب تحـت اطبـاق الثـرى
إن كنـت تـسمع عبرتـي وبكانيـا
صـبّت علـيّ مـصائب لـو أنهـا
صـبت علـى الأيـام عـدن لياليـا
مـاذا علـى مـن شـم تربـة أحمـد
أن لا يـشم مـدى الزمـان غواليـا
قـد كنـت ذات حمـى بظـل محمـد
لا اختـشي ضـيماً وكـان جماليـا
فلأجعلـن الحـزن بعـدك مؤنـسي
ولأجعلـن الـدمع فيـك وشـاحيا

وبقيتها في المناقب لابن شهر آشوب، وينسب لها أيضاً في رسول الله (ص):

كنـــت الـــسواد لنـــاظري
فعليـــك يبكـــي النـــاظر
مـــن شـــاء بعـــدك فليمـــت
فعليـــك كنـــت احـــاذر

(٢) التابعة لولاية كجرات في الهند.

الزهــراء (ع)
ريحانة الرسول
ونفسه وروحه التي بين جنبيه

✍ يوسف كتاني (بسكنتا - لبنان)

بين سليمان كتاني ابن بسكنتا الرابضةِ على سفح جبل صنّين، والنجف الأشرفِ موئل الأئمةِ الأشراف، روابطُ فكريّةٌ وروحيّةٌ وقوميّةٌ مرّت بمراحلَ عدّةٍ بدأت بكتابهِ «الإمام علي نبراس ومتراس» وانتهت بكتاب «الإمام الصادق ضمير المعادلات» مروراً بـ «فاطمة الزهراء وترٌ في غمد» و«محمّد شاطئ وسحاب» و«الإمام الحسن الكوثر المهدور» و«الإمام الحسين في حلّة البرفير» و«الإمام زين العابدين عنقودٌ مرصّع» و«الإمام الباقر نجيّ الرسول» و«الإمام الكاظم ضوء مقهور الشعاع».

وفي هذه المناسبة المقدّسة أحبُّ أن أخاطبَ السيّدة الزهراء التي وصفها الأديب سليمان كتاني بقوله: «وترٌ في غمد» فأقول:

سيّدتي، يا فاطمة

أودُّ أتساءلَ، ويحقُّ للمسيحيّ أن يتساءل، ماذا فعلت يا أمّةَ محمّد، مع ريحانةِ الرسول ونفسهِ وروحه التي بين جنبيْه؟

لقد قلتِ يا فاطمةُ إنَّ التّاليين سيعلمون ما فعلَه الأوّلون، وها نحن يا ابنةَ الرسولِ ويا سيّدة النساء، في القرن الحادي والعشرين، نعلم جيّدا أيّ جرحٍ جرحُكِ، وأيَّ مُصابٍ مُصابُكِ، وأيّ أمّة قتلت ريحانتي محمداً وآلَ محمداً: قتلتهم واحداً واحداً، ولم يرعوا لرسول الله إلاًّ ولا ذمّة. قتلوا رموزَ، وقياداتِ المجتمع، وهم ما هم، فمن أين تأتي الإنسانيّةُ بشخصٍ كعليّ بن أبي طالب، وقد قتلوه؟ من أين يُنجبُ البشرُ كالحسنِ بن عليّ وقد قتلوه؟ من أين يُنجبُ الزمانُ كالحسين بن عليّ وقد قتلوه؟ ومن أين تُنجبُ النساءُ كالتسعةِ المعصومين من ذرّيّةِ الحسين، وقد قُتلوا إمّا بالسيفِ، وإمّا بالسمّ؟

يا سيّدتي يا فاطمة

عندما كان رسول الله أبوكِ يجودُ بنفسيه الشريفة، أسرَّ إليكِ كلاماً فبكيتِ، وأسرَّ لكِ كلاماً فضحكتِ، وقلتِ بكاؤكِ كان حزناً على فراق أشرفِ المخلوقين وسيّدِ المرسلين، وكان سرورُكِ لأنّكِ أوّلَ من يلحقُ بالنبي.

ما هذه الأمَةُ التي منعتْكِ من البكاء على أبيكِ؟

لقد اعتادَ الظالمون الطغاةُ أن يسرقوا البسمةَ من مواطنيهم. ولكن لم نجدْ طاغيةً منعَ المواطن من أن يحزنَ لمصيبةٍ ألمّت به: لقد منعوكِ من الحزنِ على فقدِ الرسولِ لأنّهم لم يؤمنوا لا بالمرسلِ ولا بالرسول ولا برسالةٍ لو تركوا عليّاً يُطبّقها لانتشرتْ قيمُ الفضيلةِ والعدالةِ والعلم والرّفاهِ العالمَ بأجمعه.

ضحكتِ لأنّكِ أوّلُ اللاحقين به؟ تُرى إذا أوصى الرسولُ بأهلِ بيتِهِ وفعلوا مع أهلِ هذا البيتِ ما فعلوا، فكيف كان فعلُهم لو لم يوصِ بهم؟

إلى الله نشكوهم سيّدتي، ودائماً، قافلةُ النّورِ تبقى تُضيءُ كلَّ الجنباتِ وتبقى الشمسُ منيرةً كلَّ الأمكنةِ ولو كان ثمنُ ذلك بذلاً وعطاءً وصبراً على البلاء.

يا سيّدة نساء العالمين أنتِ الكمالُ، والجمالُ والجلالُ. أنتِ صدّيقةٌ شهيدةٌ، مضتْ سنواتُ عمركِ القصيرِ وعاءً للإمامةِ التي ستملأُ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلِئتْ جوراً وظلماً.

«لقد ذابَ الترابُ في المصهرِ يا ابنةَ الجنّةِ.

هكذا يا ابنةَ أبيكِ أصبحتِ الوصيّةَ.

يا طيبَ الأمومةِ،

يا مشهد العفّةِ،

يا طهارةَ المردنِ. وبقيتِ على الخطّ الكريم،

يا عديلةَ مريم،

يا قيثارة النبي،

يا زوجةَ علي

ويا أمَّ الحسنِ والحسين،

يا سيّدة نساءِ العالمين،

يا ثورةَ اللحد

ويا وتراً في غمد».

❖ ❖ ❖

تزويج فاطمة (ع)
برواية الإمام محمد الباقر (ع)

تمهيد:

هذا الجزء الذي نقدمه عن تزويج السيدة فاطمة بنت الرسول عليه السلام، رُوي عن خامس الأئمة الاثني عشر الإمام الباقر محمد بن زين العابدين عليّ، ابن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. فهو إذن جزء صحيح، في غاية الصحة، لأن من رُوي عنه ثقة من آل البيت عرف قصة زواج فاطمة من أبيه زين العابدين فرواها. وقد توفي الإمام الباقر سنة ١١٣ هـ/ ٧٣١ ميلادية، وتوفي أبوه الإمام زين العابدين سنة ٩٤ هـ/٧١٢ م. أما السيدة فاطمة، (ع)، فقد توفيت بعد وفاة الرسول بستة أشهر في السنة الحادية عشرة من الهجرة.

وقد وجدنا هذا الجزء في مجموع بالظاهرية بدمشق. رقمه ١٢٩ تصوّف، وهو مجموع نادر، فيه رسائل وأجزاء قيّمة. وهاكم مسرداً بها:

١ - كتاب الورع لأبي بكر المروزي.

٢ - كتاب الديباج لأبي القاسم الحتلي.

٣ - كتاب الحيدة وهو ما جرى بين عبد العزيز بن يحيى الكناني وبشر بن غياث المريسي بحضرة المأمون.

٤ - مختصر النصيحة لأهل الحديث للخطيب البغدادي.

٥ - كتاب المشتبه للحافظ محمد بن طاهر بن عليّ المقدسي.

٦ - كتاب الغوامض لعبد الغني بن سعيد الأزدي رواية الحافظ ابن عساكر.

٧ - كتاب ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه للأصمعي.

٨ - مسائل في الإنسان وأجوبتها

٩ - وقعة الجمل، عن أبي بكر محمد بن يحيى بن العباس الصولي.

تزويج فاطمة:

الجزء فيه تزويج فاطمة بنت رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب عليهما أفضل السلام ورضي الله عنهم بمنه

عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام).

رواية أبي عبد الرحمن المدني عنه.

رواية عبد الرحمن بن حماد بن شعيب البصري عنه.

رواية يحيى بن محمد البصري عنه.

رواية أبي بكر محمد بن هارون الروياني عنه.
رواية أبي القاسم جعفر بن عبد الله بن يعقوب بن فناكي عنه.
رواية أبي عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن بندار عنه.
رواية أبي سهل محمد بن إبراهيم بن محمد بن سعدويه عنه.
رواية أبي القاسم يحيى بن سعد بن يحيى بن بوش عنه.
رواية أبي عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن إبراهيم الكاتب عنه إجازة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا الشيخ الثقة أبو القاسم يحيى بن أسعد بن بوش التاجر، أذناً، قال: أخبرنا الشيخ أبو سهل محمد بن إبراهيم بن محمد سعدويه الأصبهاني، قراءةً عليه ببغداد، في صفر سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة قال: أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن بندار الرازي المقري بأصبهان، قال: حدثنا أبو القاسم جعفر ابن عبد الله بن يعقوب بن فناكي الرازي بالريّ، قراءةً عليه في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاث مئة قال: حدثنا أبو بكر محمد بن هارون الروياني إملاءً قال: حدثنا يحيى بن محمد البصري قال: حدثنا عبد الرحمن بن حماد بن شعيب الشعيثي البصري، قال: حدثنا أبو عبد الرحمن المدني، عن محمد بن علي، عن أبيه، قال:

لما أدركتْ فاطمة بنتُ رسول الله (ص) خَطَبتها رجالٌ من قريش. وكلَّما خطبها رجلٌ أعرض عنه رسولُ الله (ص) بوجهه. فلقي بعضُهم بعضاً، وشكى بعضهم ما صنع بهم رسولُ الله (ص). وكان رجلٌ ممن خطبها بينه وبين عليّ خاصيَّةٌ، فقال ذاك الرجل: أنا أكفيكم هذا الأمر، فانطلقُ إلى عليّ فأهيجه على أن يخطبها. فإن هو زوَّجَهُ فعليه كان يحبسُها، وإن هو رَده فالأمر فيهما واحد، ينتظر فيها أمر الله.

فانطلق ذالك الرجل إلى عليّ، وعليٌّ رضي الله عنه في حائط[1]. له ينضحُ[2] على نخل له. فقال: يا عليّ! والله ما من خصالِ الخير خصلة إلا قد نلتها، غير خصلة واحدة ما أدري ما يمنعك منها.

قال له عليّ: ما هي؟

قال: فاطمة بنت رسول الله (ص) بنتُ عمّك تزوجها!

فقال له علي: والله لقد هيَّجتني على أمر إنْ كنتُ عنه لفي غطاء.

ثم قام إلى ربيع البئر فتوضأ منه، ثم أخذ نعليْه فعلّقهما بيده، ثم قال للرجل: انطلق.

---

(١) الحائط: البستان.

(٢) أي يسقي النخل ويرش عليه الماء.

فانطلقا ورسولُ اللّه (ص) في بيت أم سَلَمَة. فدخل عليٌّ عليه السلام على رسول اللّه (ص) فقال: يا رسول اللّه! أنا مَنْ قد عرفتَ قرابتي وصحبتي وبلائي معك.

قال: صدقتَ، وما حاجتُك يا عليّ؟

قال: فاطمة بنت رسول اللّه (ص) تزوجنيها؟

فتبسم رسولُ اللّه (ص) ثم قال:

وما عندك يا علي إنْ زوجناك؟

قال: عندي درعي وفرسي وناضحي[1].

قال: أما فرسُك فلا بدَّ لك منه، تجاهد عليه في سبيل اللّه. وأما ناضحك فلا بدّ لك منه تنضح به على نخلك. وأما درعك فقد قبلناها وزوّجناك. فانطلِقْ وبِعْها وائتنا بثمنها.

فأخذ عليٌّ الدرعَ فطرحها على عاتقهُ يريدُ السوق. فمرَّ بذالك الرجل فقال: يا علي! ما صنع رسولُ اللّه (ص)؟

قال: زوَّجني فاطمة على درعي، وأمرني أن أبيعها وآتيه بثمنها.

فانطلق الرجلُ إلى أصحابه فقال: ليس علينا بأس فقد زوّجها عليًا، وعليه كان يحبسها.

فانطلق عليٌّ فباع الدرع بثمان وأربع مئة سودٍ هجَرِيَّة. فجاء بها في طرفِ ثوبه، فصبَّها بين يديْ رسولِ اللّه (ص) على حصيرٍ، فلم يسأله رسولَ اللّه (ص) كم هي، ولم يخبره عليٌّ كم هي. فقبض قبضة فقال: يا بلال! إبتعْ لنا بهذا طيباً لفاطمة. وقال لأمّ سَلَمَة: خذي هذا البقية فجهّزوا بها فاطمة، فأخذتها أم سلمة فوجدتها مِئَتَيْن.

فلبثوا تسعاً وعشرين ليلة. ثم إنَّ علياً دخل على بعض أهله فقالوا له: يا علي! ما يمنعك أن تدخل على رسولِ اللّه (ص) فتسأله أن يُدخل عليك أهلك؟

فدخل عليّ رضي اللّه عنه على رسول اللّه (ص) في ساعةٍ ثلاث مرَّات يسلِّمُ ثم يخرج، ثم يعودُ. فلمَّا كان في الثالثة أنكر عليه رسولُ اللّه (ص) وظنَّ وقال: ما لك يا علي؟ لعلك تريد أن نُدخل عليك أهلك؟

قال: نعم يا رسول اللّه.

فأمر رسولُ اللّه (ص) أمَّ سلَمَة ففرغت من جهازها. وأمر لها ببيت في حجرته، وجعل لها في بيتها فراشين من خيوش مصر أحدهما محشوّ بليفٍ وآخر بحدود الحدابيين (؟) وأربع وسائد: وسادتين بردين، وحصيرين، وستر صوف. حتى إذا صلى رسول اللّه (ص) العشاء، وقد ذهبت فاطمة، دعاها فأجلسها خلف ظهره، ثم دعا عليًا، فأخذ بيد فاطمة فوضعها في يد عليّ ثم قال: انطلقا إلى بيتكما ولا تُحْدِثا شيئاً حتى آتيكما. فقامت فاطمة معه غير عاصيةٍ ولا متلكئة، حتى دخلا بيتهما وجلسا على فراشهما. ثم قام رسول اللّه (ص) فدخل عليهما. فقال لعليّ: قم

---

(١) أي بعيري، يحمل الماء من البئر للسقي.

فأتني بماء. فأخذ قعباً[١] وصبَّ ماء من شكوة[٢] فأتاه به. فأخذ رسولُ الله (ص) القَعْبَ بيده، ثم أخذ ملء فيه فمضمض ثم أعاده في القَعْب، ثم أخذ قبضة من الماء فنضح[٣] به رأس عليٌ ووجهه، ثم قال: اجلس واشربه. ثم قال لفاطمة: قومي فائتيني بماء. فأخذ القعب فأتته به، فأخذ رسول الله (ص) ملء فيه فمضمض به ثم أعاده في القعب، ثم أخذ قبضة من الماء فنضح به رأس فاطمة ووجهها ونحرها، ثم قال إشربيه. ثم خرج رسول الله (ص) وخلاهما. فلبثا ثلاثاً لا يدخل عليهما. فلما كان في اليوم الرابع صلّى رسولُ الله عليه وسلم الصبح في غداةٍ شبمةٍ[٤]، ثم دخل عليهما وهما في فراش واحد، فلما سمعا خشخشة نعل رسول الله (ص) ذهبا يتفرقان، فقال رسول الله (ص): كما أنتما. فجاء فلجس عند رؤوسهما، ثم خلع نعليه وأدخل قدميه وساقيه بينهما. فأخذ عليٌّ عليه السلام إحداهما فوضعها على صدره وبطنه يدفئها، وأخذت فاطمةٌ الأخرة فوضعتها على صدرها وبطنها تدفئها.

وقال علي لفاطمة رويداً: استخدميه. فقال فاطمةُ: يا رسول الله، إني كنت في عيالك، وكنت مكفيَّةً، وقد أُفردتُ بنفسي، وقد شقَّ عليَّ العمل فأخدمني يا رسول الله. فقال رسول الله (ص): أوَلا خير من الخادم؟ قال عليّ: قولي بلى يا رسول الله. فقالت: بلى يا رسول الله خير من الخادم. فقال: يا فاطمة إذا أخذتِ مضجعكِ من الليل فسبِّحي الله ثلاثاً[٥] وثلاثين، واحمديه ثلاثاً وثلاثين، وكبِّريه أربعاً وثلاثين، فذالك مئة هي أثقل في الميزان من جبل أُحُدٍ ذهباً. نعم يا فاطمة نغزو فنصيبُ فنخدمك إن شاء الله.

فقال: فلبث رسولُ الله (ص) ستة أشهر، ثم غزا ساحل البحر، فأصاب سَبْياً فقسمه، فأمسك امرأتين أحداهما[٦] شابة والأخرى قد دخلت في السنّ ليست بشابة ولا قريبة، فدعا رسول الله (ص) فاطمة فأخذ بيد المرأة فوضعها في يد فاطمة وقال: يا فاطمة هذه لك خادمة فلا تضربيها، فإني قد رأيتُها تصلّي، وإنَّ جبرائيل قد نهاني أن أضرب المصلّين.

فجعل يوصيها بها، فلما رأت فاطمة ما يوصيها بها التفتت إلى رسول الله (ص) فقالت: يا رسول الله عليّ يوم وعليها يوم. ففاضت عينا رسول الله (ص) بالبكاء فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٧] ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٨]. ❖

---

(١) في الأصل «قعب». والقعب بفتح وسكون القدح الضخم الغليظ.

(٢) الشكوة بفتح وسكون وعاء من جلد يحفظ فيه الماء أو اللبن.

(٣) أي مسح ورشّ.

(٤) شبمة: بفتح وكسر أي باردة.

(٥) في الأصل «ثلاثة».

(٦) في الأصل «أحدهما».

(٧) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.

(٨) سورة آل عمران، الآية ٣٤.

فاطمة الزهراء [ع]

«فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»

الرسول (ص)

✍ محمد رضا الكتبي

لم يترك لنا التاريخ الإسلامي الشيء الكثير من سيرة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع) إلا ما يتصل بحياة أبيها العظيم النبي محمد (ص) وزوجها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) أما حياتها الخاصة فلم يكن الأقدمون في زمانها أو بعده يعنون بحياة المرأة كثيراً مهما كانت عظيمة، ولهذا فنحن إذ نذكر الآن ظلالاً خفيفة من سيرة هذه السيدة الكريمة إنما استوحيناها من حياة هاذين البطلين.

ولدت فاطمة (ع) بمكة المكرمة سنة ٦٠٥ للميلاد أي قبل أن ينزل الوحي على أبيها بست سنين أو ما يقرب من ذلك. ودرجت في بيت كريم تظللها حياة وادعة يحوطها أبواها: محمد وخديجة بنت خويلد (عليهما السلام) بحبهما ورعايتها ويكلآنيها بعنايتهما. ولا غرو في ذلك إذ أنها كانت أصغر أخواتها وأحبهن إلى قلب النبي الكريم وأشبههن به في الخلق والخلق، وقد زاد حب والدها لها بعد أن تزوجت أخواتها وانتقلت أمها خديجة إلى رحمة ربها، فلم يبق للرسول غيرها، فكرست نفسها على خدمته والاهتمام بشؤونه وراحته. وأخذت تخفف عن آلامه عندما يشتد عليه إيذاء قريش، وإن كانت معالم الحزن الصامت مرتسمة على ميحاها الجميل. وتحنو عليه وتشجعه وتواسيه وتمسح بيدها الكريمة ما علق عليه من إيذاء الأعداء، وإن كانت علائم الأسى الديني لا تفارق وجهها للشرق نوراً. وكثيراً ما كان (ص) يرجع إلى البيت على حين غفلة فيراها مطرقة حزينة باكيه فيبادرها بقوله:

- يا فاطمة!! إن الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك!

وحدث أن ألقت قريش عليه في أحد الأيام أوساخا وقاذورات وهو ساجد يصلي. فلما انتهى من عبادته رجع إلى بيته، فأخذت فاطمة تنفض عنه الغبار وهي تبكي فقال (ص):

- لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك!!

وهذا لعمري إن دل على شيء فإنما يدل على رقي أخلاق فاطمة ونبلها وكرم عنصرها. وهل عجب في ذلك بعد أن علمنا أنها تلقت في مدرسة النبوة أسمى المعارف والعلوم وفي معهد الرسالة أشرف التربية والتهذيب، فنشأت بطبيعة الحال ناعمة بالثقافة العالية والخلق العظيم والجمال الكامل فأشرقت في سماء بيت الرسول بجانب شمسه وقمره النيرين

كوكباً زاهراً: حتى عرفت ـ بالزهراء ـ وكفى ذلك أن تشهد عائشة زوجة أبيها (رضي الله عنها) إذ تقول:

ـ ما رأيت أفضل من فاطمة إلا أبيها!

بلغت الزهراء (ع) الثامنة عشر من عمرها، فإذا بها جميلة الطلعة وفيرة الأدب دقيقة الاحساس، فأقبل إليها كبار الأشراف والصحابة يخطبونها من أبيها لأنفسهم، ومن بينهم كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب، فردهم الرسول (ص) رداً جميلاً، ولم يزوجها إلا من علي بن أبي طالب (ع) وكان ذلك بإيعاز من المولى عز وجل.

قال (أنس بن مالك) أحد رواة الحديث في ذلك العهد ـ كنت عند رسول الله فغشيه الوحي، فلما أفاق قال لي: «يا أنس أتدري ما جاءني به جبرائيل (عليه السلام) من صاحب العرش العظيم!!» قلت: «بأبي وأمي يا رسول الله ما جاءك به جبرائيل (ع)»، قال: «قال لي أن الله يأمرك أن تزوج ابنتك فاطمة من علي... فانطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعض الأنصار»، قال أنس: «انطلقت فدعوتهم جميعاً ـ فلما أن أخذوا مجالسهم قال رسول الله (ص):

ـ الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته، المطاع سلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه أن الله جعل المصاهرة نسباً حقاً وخيراً جامعاً ثم إنه تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي، وأشهدكم إني زوجت فاطمة من علي على أربعمائة مثقال من الفضة على السنة القائمة والفريضة الواجبة، جمع الله شملهما وبارك لهما، وكان علي (ع) غائباً في حاجة لرسول الله. ثم أمر لنا الرسول بطبق من التمر فوضع بين أيدينا، وبينما نحن كذلك إذ أقبل علي. فتبسم إليه الرسول الكريم، وقال: ـ يا علي!!، إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة. وإني قد زوجتها إليك على أربعمائة مثقال فضة.

فقال علي:

ـ رضيت يا رسول الله! وهل ترضى فاطمة بي بعلاً؟!

قال أنس: ـ فذهب رسول الله ليستمع فاطمة رأيها في الزواج بعلي فإذا بها تلزم الصمت، ولاذت بالسكوت خجلاً ـ وهذا من دلائل الرضا طبعاً.. وكيف لا ترضى وهي التي لم يستهوها المال والثروة، فرضيت بعلي على فقره، لأنه كان غنياً بخصاله وشجاعته وعلمه، وآثرته على غيره، لأنها ألفته منذ الحداثة، ولأنها سمعت أباها النبي يقول عنه: «أن علياً سيد في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين، وإنه أكثر الصحابة علماً، وأفضلهم حلماً وأولهم اسلاماً» وبطبيعة الحال إن من كانت له هذه الخلال الكريمة فهو في غنىً عن كل ثروة.

قال أنس: وما أن أيقن النبي (ص) من رضا ابنته حتى هرع إلى علي يبشره بالأمر ويبارك له، فاستنار وجه ابن أبي طالب سروراً، ثم خر ساجداً شكراً لله الذي أبلغه أمنية طالما راودته ومنعه الجهر بها ما رآه من حرص النبي على إبقاء ابنته بقربه، ثم سأله الرسول:

- هل عندك شيء تقدمه للجهاز؟

فأجابه علي (ع):

- لا أملك إلا فرسي ودرعي.

قال أنس: فأمره النبي ببيع الدرع. فأسرع علي إلى السوق تغمره السعادة، فباع درعه إلى عثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهماً ثم أحضرها إلى النبي الذي راح يعطي بعضها إلى «بلال الحبشي» ليشتري طيباً وإلى زوجته «أم سلمة» بعضها لتشتري بها الجهاز الذي لا يتعدى ثوبين من الصوف وسوارين من الفضة وطاحونة وثلاثة أوان للماء وأربع وسادات! اثنتان محشوتان صوفاً واثنتان ليفاً، وأشياء غير ذلك لم تتعد ف بساطتها عن هذه.

وبعد أن أعد جهاز سيدة نساء العالمين وكريمة فخر الأنبياء المرسلين وهو من البساطة على ما ذكرنا دعا الرسول جمعاً غفيراً من الأنصار وخطبهم في مناقب الزواج، وبعد إنهاء العقد أحضر الرسول للمجتمعين وعاءً فيه تمر قدمه إليهم قائلاً: «تخاطفوا إياه» ثم تفرق القوم، فأمر بعد ذلك الرسول الكريم أم سلمة زوجه الطاهرة بأن تذهب بفاطمة إلى دار علي وأن تخبرهما بأنه آت في أثرها.

وبعد صلاة العشاء يمم النبي الأعظم شطر دار علي فجلس إليهما يحدثهما ويحدثانه، وعند خروجه بكت فاطمة فقال لها:

- أي يا ابنتي! قد تركتك وديعةً عند رجلٍ إيمانه أقوى من إيمان أي إنسان آخر، وهو من أفضل قومنا أخلاقاً وأعلاهم نسباً.

فاطمأنت فاطمة لذلك كثيراً.

ما كادت الزهراء تنتقل إلى بيت زوجها حتى حلمت عليه جواً جديداً من الراحة والسعادة والهناء رغم الفاقة التي أنشبت أظفارها في كل زاوية من زواياه ورغم الفقر المدقع والحياة القاسية الكادحة التي كانت تعانيه وزوجها الذي كان يجاذبها أمر العمل وتدبير المنزل بين حين لآخر، فتقابله زوجة إن تجاذبه شؤون المسلمين وجد الحياة، إذ كثيراً ما كانت تحمل له بعض المشاكل التي يعرضها عليه أفراد الرعية في كل وقت، ناهيك عن مبادرتها معه إلى خوض الغزوات والمعارك لتسقي المجاهدين من الماء وتآسو جرحى المسلمين وتضمد جراحهم رغم ضعف جسمها ورقة بنيتها، وفي موقعة «أحد» جرح أبوها فأسرعت

تضمد جراحه في باحة المسجد بالمدينة وهي تؤسي أحزانه لمقتل عمها «الجمزة» أشجع أبطال المسلمين في تلك المعركة.

وكانت الزهراء إلى جانب ذلك كله خير مثال يحتذى للزوجة المدبرة، فكان علي(ع) يأتيها بالصوف فتغزله بأجر معلوم على غزله لتساعده في أمر المعاش، وكانت على الرغم من فقرها المدقع كريمة إلى حد الاعجاب، فقد حدث أن باتت وزوجها وولديها على الطوى ثلاث ليال وهي تجود بخبزهم لطارق مسكين وآخر يتيم وثالث أسير على التوالي. وفي ذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾.

جاءت مرة إلى أبيها تعلو وجهها صفرة الجوع، فعلم ذلك سيد الخلق دون أن تحدثه هي، فوضع يده الشريفة على صدرها، وقال:

- اللهم احفظ فاطمة بنت محمد من الجوع!

فما رفع يده عن صدرها إلا وقد زال أثر الجوع ورجع اللمم إلى وجهها، والزهراء إلى جانب كرم أخلاقها ونبلها وجالها وطهارتها كانت أديبة عالمة بفنون الشعر والأدب... ولكن لم يصلنا من شعرها إلا ما كان من رثاءً لأبيها، وقد كانت تروي الأحاديث وتفضل في المفضلات.

ولما مرض الرسول الكريم (ص) مرضه الأخير لازمته الزهراء تمرضه وتسهر على راحته، وكلما كانت تدخل عليها قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه رغم مرضه، ولما اشتد مرضه أدناها منه وأسر في أذنها حديثاً بكت له، ثم إليها حديثاً آخر ضحكت له فسألتها عائشة عن ذلك فأجابتها:

- ما كنت لأفشي لرسول الله سراً.

فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى ذكرت أنه أسر اليها أولاً ينبئها بقرب وفاته، فبكت، ثم ضحكت واستبشرت عندما أسر إليها أنها أول أهله لحوقاً به، وهكذا النفس الآمنة المطمئنة لا تجد في الموت فزعاً ولا رهبةً، ولكنها لم ترقط ضاحكة بعد وفاة أبيها.

توفي الرسول فحزنت عليه فاطمة أشد الحزن وبكته حر البكاء، ووقفت عند قبره الشريف بعد دفنه وقد جعلت قبضة من ترابه على وجهها، وهي تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد	**ألا يشم مدى الزمان غواليا**
صبت علي مصائب لو انها	**صبت على الأيام عدن لياليا**

وهكذا نرى الحزن قد أثر في هذه السيدة الكريمة بفقد أمها فأخوتها فأخواتها فعمها، ثم حزنها الكبير لفقد أبيها، فأنهك الألم جسمها النحيل وأضر الأسى بقلبها الرقيق

العذب، وإذا بالموت يمشي إليها مسرعاً، وهي ما تزال في فجر الصبا ونضارة الشباب. فتوفيت ـ عليها أفضل الصلاة والسلام ـ في ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خلون من رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة. أي أنها لم تبق بعد وفاة أبيها غير ستة أشهر فقط. فذهبت إلى فسيح جنان ربها وهي في الثامنة والعشرين من عمرها، وهو عمر وإن قصر فإنه حافل في الحقيقة بأسمى ما تتصف به المرأة من صفات، وبأقدس رسالة تستطيع أداءها في الحياة.

وكفاها فخراً أنها أنجبت شبلين أرضعتهما لبان النبل والشرف وخلقت في كل منهما مثلاً أعلى في الشجاعة والإقدام والطهر والتقى والعلم والأدب، ذالك هما الحسن والحسين (عليهما السلام) سيد شباب أهل الجنة.

توفيت الزهراء فجزع علي (ع) على شريكة حياته وزوجته الوفية جزعاً كبيراً، ومن جملة أقواله فيها قوله:

أرى علل الدنيا علي كثيرة	وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة	وكل الذي بعد الفراق قليل

هذه صفحة نقية طاهرة تعبق بأريج الزهراء أفضل امرأة في الجزيرة العربية وأشرف سيدة في الإسلام وأكرم امرأة في الأرض والسماء. فأنى منها نساؤنا وفتياتنا ليقتبسن من وحي روحها العالية ورسالتها العظيمة التي أدتها إلى الحياة وهي تمثل أشرف ما في المرأة من قداسة وإنسانية.

وحسب الزهراء فخراً أنها كانت حلقة الاتصال بين من خلف في ذريتها الطاهرة وبين رسول الله الكريم، وإليها يرجع الفضل في تسلسل هذه الدوحة النبوية والعترة المباركة بل إلى رجالات نسلها الشريف البارزين يرجع الفضل الأكبر في التفاف المسلمين حول أنفسهم وتوحيد كلمتهم وتعزيز الإسلام كلما تضعضع أمر أهله ورهمى، ومن لا يدين إلى رجالات الأسرة الهاشمية المالكية بالملك العادل والرآسة الحكيمة الحازمة؟!

تلك الصفات الغراء والخلال الطاهرة التي غرستها الزهراء المطهرة في أبنائها ومن تسلسل من ذريتها المباركة.

فبقليل من أخلاقها تمثلن يا فتياتنا!

❖ ❖ ❖

فاطمة الزهراء

✍ سيف الدين زيد الكيلاني

درجت فاطمة (رضي الله عنها) في بيت الرسول الكريم بمكة، تظللها حياة وادعة ويحوطها أبواها محمد عليه السلام والسيدة خديجة رضي الله عنها بحبهما ورعايتهما ويكلآنها بعينهما وعنايتهما، وفي الخامسة من عمرها وافقت الرسول في هجرته إلى المدينة فتلقت في مدرسة النبوة أسمى المعارف والعلوم وفي معهد الرسالة أشرف التربية والتهذيب فلا عجب أن تنشأ ناعمة بالثقافة العالية والخلق العظيم والجمال الكامل وتشرق في سماء بيت الرسول بجانب شمسه وقمره النيرين كوكباً زاهراً حتى عرفت بالزهراء...

أخذت الزهراء بعد وفاة السيدة خديجة تكرس نفسها على خدمة الرسول والاهتمام بشئونه دون أن يفارق محياها الجميل ما ارتسم عليه من معالم الحزن الصامت والأسى الدفين لوفاتها ومع أنها كانت صغرى أخواتها إلا أنها كانت أحبهن إلى قلب النبي الكريم وأشبههن به في خلق وخلق ولذا كان يدعوها (بأم أبيها)! وإذا رآها منزعجة من أمر بادرها قائلاً: «يا فاطمة إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»! وهو قول لم نسمعه من الرسول في سواها وكفاها فخراً أن تشهد عائشة أم المؤمنين وزوجة أبيها بفضلها ورضى شمائلها إذ تقول: «ما رايت أفضل من فاطمة إلاأبيها»!

بلغت الزهراء الثامنة عشر من عمرها فإذا بها جميلة الطلعة وفيرة الأدب دقيقة الإحساس فأقبل كل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يخطبها لنفسه فردهما الرسول بلطف، وتهيب علي بن أبي طالب من خطبتها إثر ذلك ولكن حبه لها منذ أن ربيا في بيت النبي ومواهبها الفذة التي وقفت عليها بنفسه كل ذلك شجعه على المثول بين يدي الرسول وهو يقول: «ذكرت فاطمة بنت رسول الله (ص)». ولم يزد الرسول عن قوله: «مرحبا وأهلاً...». وذهب الرسول يستطلع فاطمة رأيها في الزواج بعلي فلزمت السكوت ولاذت بالصمت دليل الرضى، لم يكن يستهوي الزهراء من المال والثروة فرضت بعلي على فقره لأنه كان غنياً بخصاله وشجاعته وعلمه واثرته على غيره لانها ألفته منذ الحداثة ولأنها سمعت أباها النبي يقول: «أنه سيد في الدنيا وأنه في الآخرة من الصالحين وأنه أكثر الصحابة علماً وأفضلهم حلماً وأولهم إسلاماً» وفي هذه الخلال غناء عن كل ثروة...

وما كادت الزهراء تنتقل إلى بيت زوجها حتى خلعت عليه جواً جديداً من الطمأنينة والراحة والسعادة والهناء رغم ما كانت تعاني فيه من الفقر والحياة القاسية الكادحة وكما كان علي يجاذبها أمر العمل وتدبير المنزل كذلك كانت فاطمة تجاذبه شئون العالم وجد الحياة. ناهيك عن مبادرتها معه إلى خوض الغزوات والمعارك لتسقي المجاهدين من الماء وتأسو جرحى المسلمين وتضمد جراحهم رغم ضعف جسمها ورقة بنيتها وفي معركة أحد جرح النبي فاسرع تضمد جراح والدها في باحة المسجد بالمدينة وهي تؤسي أحزانه لمقتل عمها حمزة أشجع أبطال المسلمين في هذه المعركة.

وكانت الزهراء خير مثال يحتذى للزوجة المدبرة فكان علي يأتيها بالغزل من الصوف فتغزله بأجر معلوم على غزله لتساعده في أمر المعاش. أما كرم الزهراء فقد ضرب الله به المثل في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾... وذلك حين باتت وزوجها وولديها على الطوى ثلاث ليال وهي تجود بخبزهم لطارق مسكين فيتيم فأسير على التوالي.

ومرض الرسول الكريم فلازمته الزهراء بمرضه وتسهر على راحته وهو رغم مرضه كلما دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه ولما اشتد مرضه أدناها منه وأسر في أذنها حديثاً بكت له ثم أسر إليها حديثاً آخر ضحكت له! أجل لقد أسر لها أولاً ينبئها بقرب وفاته فبكت، ثم أسر إليها أنها أول أهله لحوقاً به فضحكت واستبشرت وهكذا النفس الآمنة المطمئنة لا تجد في الموت فزعاً ولا رهباً.

توفي الرسول الكريم فحزنت عليه فاطمة أشد الحزن وبكته حر البكاء ووقفت على قبره الشريف وقد جعلت قبضة من ترابه على وجهها وهي تنشد قائلة:

ماذا على من شم تربة أحمد	**ألا يشم مدى الزمان غواليا**
صبت علي مصائب لو انها	**صبت على الأيام عدن لياليا**

أثر حزن الزهراء بفقد أمها فأخوتها فعمها ثم حزنها الكبير لفقد أبيها على جسمها النحيل فأنهكه وأضر الأسى بقلبها الرقيق المعذب وإذا بالموت يمشي إليها وهي ما تزال في فجر الصبا ونضارة الشباب فتوفيت رحمها الله بعد وفاة أبيها بستة أشهر وهي في الثامنة والعشرين من عمرها ولكنه عمر وإن قصر فهو حافل بأسمى ما تتصف به المرأة من صفات وبأقدس رسالة تستطيع أداءها في الحياة وكفاها فخراً أنها خلفت شبلين أرضعتهما لبان النبل والشرف. وأنجبت كلاً منهما مثلاً أعلى في الشجاعة والإقدام، والطهر والتقى، والعلم والأدب، ذانك هما الحسن والحسين رضي الله عنهما.

وجزع علي على الزهراء شريكة حياته وزوجته الوفية جزعاً كبيراً فأخذ يقول:

أرى علل الدنيا علي كثيرة	**وصاحبها حتى الممات عليل**
لكل اجتماع من خليلين فرقة	**وكل الذي بعد الفراق قليل**
وإن افتقادي فاطما بعد أحمد	**دليل على أن لا يدوم خليل!!**

هذه صفحة نقية طاهرة تعبق بأريج الزهراء أفضل امرأة في الجزيرة العربية وأشرف سيدة في الإسلام وأكرم امرأة في الأرض والسماء! فأين منها نساؤنا وفتياتنا ليقتبسن من وحي روحها العالية ورسالتها العظيمة التي أدتها إلى الحياة وهي تمثل أشرف ما في المرأة من قداسة وإنسانية..!

وحسب الزهراء فخراً أنها كانت حلقة الاتصال بين من خلف في ذريتها الطاهرة وبين رسول الله الكريم، وإليها يرجع الفضل في تسلسل هذه الدوحة النبوية والعترة المباركة بل إلى رجالات نسلها الشريف البارزين يرجع الفضل الأكبر في التفاف المسلمين حول أنفسهم وتوحيد كلمتهم وتعزيز الإسلام كلما تضعضع أمر أهله ووهن. ❖

رسائل نادرة

رسالة في صداق

السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)

للعالم العلامة الحبر الفهامة إمام العلماء خاتم المحدثين

صبغة الله بن محمد غوث المدرسي (رحمه الله)(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد: فقد سألني بعض الأصدقاء عن صداق سيدتنا فاطمة الزهراء البتول، بنت سيد المرسلين (ص)، فذكر بعضهم:

١ ـ أنه كان أربع ماية وثمانين درهماً.

٢ ـ وبعضهم: أنه أربع ماية درهم.

٣ ـ وبعضهم: أربعماية مثقال فضة.

فأقول وبالله التوفيق:

قال ابن إسحاق في المغازي الكبرى: حدثني ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن علي رضي الله عنه، أنه خطب فاطمة رضي الله عنها، فقال له النبي (ص): هل عندك من شيء؟ قلت: لا، قال: فما فعل الدرع التي تنكحها.

ـ يعني من مغنم بدر ـ قلت: هذا سند منقطع.

قال ابن أبي حاتم في المراسيل: إن مجاهداً عن علي مرسل.

وقال ابن سعد: أخبرنا خالد بن مخلدٌ، ثنا سليمان ـ هو ابن بلال ـ حدثني جعفر بن محمد، عن أبيه: أصدق علي فاطمة ـ رضي الله عنهما ـ درعاً من حديد. قلت: هذا أيضاً مرسل.

قال ابن سعد: عن أبي حازم، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة، أن النبي(ص) قال لعلي حين زوّجه فاطمة ـ رضي الله عنهما ـ: «اعطها ذلك الحطمية» قال الحافظ العسقلاني في الإصابة: «هذا مرسل صحيح الإسناد»، رواه ابن سعد أيضاً عن يزيد بن هارون، عن جرير بن حازم، عن أيوب، عن عكرمة أتم منه.

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا سفيان، عن أبي أبي نجيح، عن أبيه، عن رجل سمع علياً ـ رضي الله عنه ـ يقول: «أردت أن أخطب إلى رسول الله (ص) ابنته، فقلت والله

(*) من نوادر مكتبة أكاديمية الكوفة ـ هولندا.

ما من شيء! ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه، فقال: وهل عندك شيء؟ قلت: لا، قال: وأين درعك الحطمية التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟ قلت: هو عندي، قال: فاعطها إيّاها».

وله شاهد عند أبي داود في سننه قال: ثنا إسحق بن إسماعيل الطالقاني، ثنا عبدة ـ أي ابن سليمان ـ ثنا سعيد بن أبي عروبة، عن أيوب بن أبي تميمة الشختياني، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما تزوج علي فاطمة ـ رضي الله عنهما ـ قال له رسول الله(ص): اعطها شيئاً، قال: ما عندي شيء. قال: أين درعك الحطمية رجاله ثقات.

ورواه النسائي، عن هارون بن إسحق، عن عبدة به، وقال النسائي أيضاً: أخبرنا عمرو بن منصور، ثنا هشام بن عبد الملك، ثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ أن عليا رضي الله عنه ـ قال: تزوجت فاطمة ـ رضي الله عنهما ـ قلت: يا رسول الله: أين لي، قال: اعطها شيئاً، قلت: ما عندي من شيء، قال: فأين درعك الحطمية؟ قلت: هو عندي، قال فاعطها إيّاه، فجعله من مسند علي ـ رضي الله عنه ـ.

واعلم أن ابن عباس لم يحضر الواقعة، وكان سمعه من علي ـ رضي الله عنه ـ فتارة أثبت الواسطة، وتارة أرسله، ومرسل الصحابي في حكم الرفع.

وقال أبو داود: «ثنا كثير بن عبيد الحمصي، ثنا أبو حيوة، عن شعيب ـ يعني ابن أبي حمزة ـ ثني غيلان بن أنس ـ من أهل حمص ـ ثني محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن رجل من أصحاب النبي (ص) ـ أن علياً (رضي الله عنه) لما تزوج فاطمة (رضي الله عنها) بنت النبي(ص) أراد أن يدخل بها فمنعه رسول الله (ص) حتى يعطيها شيئاً.

فقال: يا رسول الله ليس لي شيء، فقال له النبي (ص): اعطها درعك فأعطاها درعه ثم دخل بها، رجاله ثقات، وإبهام الصحابي لا يضر لأنهم كلهم ثقات.

قال أبو داود: ثنا كثير بن عبيد، ثنا أبو حيوة، عن شعيب، عن غيلان، عن عكرمة، عن ابن عباس مثله.

فهذه الروايات تدلّ على أن صداقها كانت الدرع الحطمية، وهي بضم الحاء وفتح الطاء المهملتين من الحكم وهو الكسر.

قال ابن الأثير: هي الدرع التي تحطم السيوف ـ أي تكسرها ـ وقيل هي العريضة الثقيلة، وقيل هي منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم حطمة بن محارب، كانوا يعملون الدروع ـ وهذا أشبه الأقوال ـ انتهى.

قال المحب الطبري: إن العقد وقع على الدرع، وبعث بها علي ـ رضي الله عنه ـ ثم ردَّها رسول الله (ص) ليبيعها فباعها وأتاه بثمنه ـ انتهى.

وقد اختلفت الروايات في ثمنها، فروى ابن سعد، عن عكرمة مرسلاً أن ثمن الدرع كان أربع ماية درهم.

وروى أبو يعلى: قال ثنا عبد الله بن عمر بن إبان، ثنا عبد الرحيم بن سليمان، ثنا محمد بن إسحق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «زوجني رسول الله (ص) فاطمة على درع حديد حطمية وكان سلحنيها وقال ابعث بها إليها تحللها بها، والله ما ثمنها كذا أو أربعماية درهم»، كذا رواه أبو يعلى بالشك.

ورواه الدولابي في الذرية الطاهرة، قال: ثنا أحمد بن الجبار، ثنا - يونس بن بكير، عن أبي إسحق، ثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن علي بن أبي طالب - قال: «خطب فاطمة إلى رسول الله (ص) فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله (ص) قلت: لا، قالت: فقد خطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله (ص) فيزوجك؟، فقلت: وعندي شيء أتزوج به! فقالت: إنك إن جئت رسول الله (ص) وكانت لرسول الله (ص) جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما أستطيع أن أتكلم فقال ما جاء بك ألك حاجة؟ فسكتُّ، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ قلت: نعم، قال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: ما فعلت الدرع التي سلحتكها فقلت: عندي والذي نفس علي بيده إنها لحطمية ما ثمنها أربعماية درهم، قال زوجتك بابعث بها فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله (ص)».

وروى البيهقي أيضاً في الدلائل نحوه وهذه الرواية منقطعة، لأنَّ مجاهداً لم يسمع من علي.

ففي هذه الروايات أن ثمن الدرع كان أربعماية درهم لكن طرقها ليست بموصولة.

وروى أبو يعلى، قال: ثنا نصر بن علي، ثنا العباس بن جعفر بن يزيد بن طلق الشني العبدي عن أبيه عن جده عن علي رضي الله عنه قال: لما تزوجت فاطمة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله ما أبيع فرسي أو درعي؟ قال: بع درعك، فبعتها بثنتي عشرة أوقية وكان ذلك مهر فاطمة - رضي الله عنها -.

قلت: نصر بن علي ثقة، والعباس بن جعفر أورده ابن أبي حاتم في كتاب العلل ولم يذكره بجرح ولا عدالة، وجعفر ذكره ابن حبان في الثقات وباقي الرجال لم أطلع على حالهم.

وروى أبو عبيد في كتاب الأموال عن علي - رضي الله عنه - قال: زوجني رسول الله(ص) **فاطمة** - رضي الله عنها على أربع ماية وثمانين درهما وزن ستة، قال أبو عبيد: كانت الدرهم **في عهد رسول الله** (ص) ستة دوائق.

قال الحافظ السيوطي: سنده ضعيف.

وعن أنس - رضي الله عنه - في خبر خطبة فاطمة - رضي الله عنه -: أنه (ص) قال لعلي - رضي الله عنه - وعندك شيء؟ قلت: فرسي وبدني - يعني درعي - قال: أما فرسك لك منها، وأما بدنك فبعها، فبعتها بأربعماية وثمانين درهما فجئته بها فوضعتها في حجره - الحديث عزاه السيوطي إلى ابن جرير الطبري، وعزاه القسطلاني إلى ابن أبي حاتم، والإمام أحمد، لكن لم أجده في مسند أحمد، وعزاه صاحب الاكتفاء إلى أبي حاتم في مسنده، وابن حبان في صحيحه، وأحمد في مناقبه من حديث زيد المدني، وقد أورد الشمس ابن الجزري قطعة منه في كتابه الحصن برمز ابن حيان ولم يصل إلينا شيء من تلك الأصول. فهذه الروايات تدل على أن الدرع بيعت بأربعماية وثمانين درهماً، وهذه هي الصحيحة لأن حديثها صحيح موصول واعتضدت بما تقدم، ولأنها مثبتة للزيادة وهي متقدمة على رواية من نفي الزيادة، وطريق الجمع بين الروايتين إن من قال أن ثمنها كان أربعماية درهم محمول على ثمنها المثلي لكنها بيعت بأزيد من ثمن مثلها لجودتها، ومراعاة من المشتري، فقد ذكر الحلبي في سيرته أنه - رضي الله عنه - باعه من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بأربعماية وثمانين درهماً، وأن عثمان رضي الله عنه ردّ الدرع إلى علي - رضي الله عنه - فجاء بالدرع والدراهم إلى رسول الله(ص) فدعى لعثمان بدعوات - انتهى.

وبهذا يحصل الجمع بين الروايتين.

وقيل إن الأربع ماية قيمة الدرع، وإن الثمانين قيمة شيء آخر باعه علي - رضي الله عنه - لتكميل المهر، واستدل بما رواه أبو يعلى، قال ثنا عبيد الله، ثنا حماد بن مسعدة، عن المنذر بن ثعلبة، عن علياء بن أحمر، قال: قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - خطبت إلى النبي(ص) ابنته فاطمة قال فباع علي - رضي الله عنه - درعاً له وبعض ما باع متاعه، فبلغ أربعمائة وثمانين درهما فأمره النبي (ص) أن يجعل ثلثين في الطيب، وثلث في الثياب. الحديث.

فرجاله وإن كانت ثقات لكنه منقطع لأن علياء بن أحمر لم يسمع من علي شيئاً، فلا يصحّ الاحتجاج به.

وكذا ما رواه ابن سعد عن علياء بن أحمد البشكري أيضاً، قال: إن علياً - رضي الله عنه - تزوج فاطمة (رضي الله عنها) فباع بعيراً له بثمانين وأربعماية درهم، فقال النبي (ص) اجعلوا ثلثيها في الطيب، وثلث في الثياب، وهاتان الروايتان من علباء، وإن كان فيها بعض مخالفة لما قدمناه لكنهما يعضدان ما تقدم في أن الحاصل من البيع أربعماية وثمانين درهماً.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجة، وأبو يعلى، والحاكم في المستدرك، وعزاه السيوطي في جمع الجوامع أيضاً إلى عبد

الرزاق، وأبي داود الطيالسي، والحميدي، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأبو عبيد في الغريب، وابن شيبة، والعدني، والدارمي، وابن حبان في صحيحه، والدار قطني في الإفراد، والبيهقي في الدلائل، والضياء المقدسي في كتابه المختار، كلهم من طرق متعددة، عن أبي العجفاء، عن عمر بن الخطاب - أنه قال - ما أصدقت امرأة من بناته (ص) أكثر من اثنتي عشرة أوقية.

وفي رواية للحاكم قال: ولا أصدق - أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أحداً من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، قال: وال .. أربعون درهماً فذاك ثمانون وأربعماية درهم، وأما ما رواه أبو الخير القزويني الحاكمي، عن أنس - في حديثه الطويل في زواج فاطمة - رضي الله عنه - وخطبته - صلى الله عليه وآله وسلم من أنه (ص) قال لعلي - رضي الله عنه - زوجتك فاطمة على أربعماية مثقال فضة - الحديث، كما ذكره القسطلاني في المواهب اللدنية فلم أقف على سنده، وعلى تقدير صحته فقد قال العلامة الشبراملسي في حاشيته على المواهب أن هذه الرواية تزيد وزناً على الدراهم المسمين فيما مرّ بأنها أربعماية وثمانون، فيحتمل أنه زاد في العقد على ما باع به الدرع أو أن الدراهم المعتبرة كانت مقدرة بما يساوي المثاقيل المذكورة وزناً انتهى.

قلت: الاحتمال ضعيف مخالف لما ذكرناه سابقاً من أن الصداق إنما كان درعاً ولم يقع في حديث أنه زاد على العقد على ما باع، فالاحتمال الثاني هو المتعين ويمكن أن يقال، أن المراد بالمثقال: المقدار من الوزن. قال ابن الأثير في النهاية: وفيه أنه (لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان) قال: والمثقال في الأصل المقدار من الوزن أي شيء كان من قليل أو كثير فمعنى مثقال ذرة وزن ذرة قال والناس يطلقونه في العرف على الدينار خاصة، وليس كذلك انتهى.

فعلى هذا معناه أنه (ص) زوّجها على أربع ماية وزن فضة، والمراد بالفضة الدراهم وإطلاق الفضة على الدراهم كان عندهم متعارفاً، وعلى هذا يرجع إلى الروايات التي وقعت فيها أربعماية درهم فيجمع بين الروايتين بما قدمنا.

هذا ما ظهر في هذا الباب والله أعلم بالصواب.

قال المؤلف فرغت من تحريره يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول عام ألف ومائتين وتسع وسبعين من الهجرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم،

وأنا المفتقر إلى الله صبغة الله بن محمد غوث كان الله لها ولأسلافها.

تمت ١٣٠٦ هـ.

فخر النساء فاطمة

✍ خليل رشيد

مسكتُ قلماً هزيلاً ليكتب في أضخم موضوع وأعظم حديث وما أظنه يؤدي الغرض أو يفي الموضوع. الموضوع ضخم والحديث عظيم. ذاك حديث (الطهر) وموضوع (صفوة الرسالة). أي قلم يسعده الجري بحيث يرضي البضعة البتول وهو غاية ما يصبى إليه ويرجى.

غمست القلم في دواة نضب منها مداد العلم وجف عنها معين المعرفة ولكن الموضوع ثر والحديث غزير والمصب متشعب الروافد. يعطي الرفد لكل مجدب ماحل ولكل غرثان هزيل.

شباة قلم تتعثر في الحديث رهبة من صاحبة الحديث. ويد تندفع رغبة في ثواب العقبى من صاحبة الحديث. بيد أن الرهبة تنهزم أمام الرغبة الكبرى والثواب الجزيل والعطاء الثر من مصب العطاء ومعين البذل والسخاء فاطمة.. لننفض ما تراكم من غبار السنين المواضي عن جدث الطهر ورفاة الخدر. رفاة من اسمها الزهراء. لنر ثقل النبوة ومدخر الرسالة وما انضم بين الجنبات من تراث محمد.

قد أوفق في الحديث هذا وقد أخفق فيه بيد أن التوفيق أقرب لي من الإخفاق والفشل لمساسه المباشر بالعاطفة وصلته الوثقى بالقلب وعلاقته بالدين والمعتقد وعلاقة العقيدة التي استوعبها القلب علاقة تنحسر عنها الصعاب وتتحطم دونها العقبات وتنهار أمامها كل صعبة كأداء. وليست هناك صلة أقوى وأمتن من صلة الدين مهما كانت العوامل والأسباب لارتباطها بأخرى الإنسان ومصيره الأبدي. وفاطمة بضعة من به نلوذ ونتشفع عند الفزع الأكبر والموقف الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون وزوجة من حبه عنوان صحيفة المؤمن ومن بيده صك الجواز على الصراط. تلك هي فاطمة وهذا سر الحديث عنها فإلى الحديث ومنه استمد المعونة والتوفيق.

بيت خديجة:

ترف باذخ. وشرف تليد. وثراء لا يجارى. تتربع على أريكته سيدة نساء العالمين في الجاهلية وأم المؤمنين في الإسلام. تلك هي خديجة بنت خويلد. ترنو إليها القلوب وتشخص نحوها الأبصار وتشرئب نحو بيتها الأعناق[1] تطمع بنظرة رضى أو لفتة قبول ليغدق عليها المال وتنعم بالجاه والثراء لمن ترتضي فيه الأمانة والشرف وطيب الأحدوثة والذكر. والبلد يتجر بمال خديجة. والبلد كل البلد ينتفع بمال خديجة. والمال تعنو لجبروته الرجال وتخضع لسيطرته هام الجبابرة من قريش. إذ

---

(١) مثلهن الأعلى خديجة بنت خويلد للعلايلي ص ٤١ قال: آنها كانت تحوط نفسها بأسباب الرفاهية فترفل في حلل فاخرة من منسوجات الهند وتقطن منزلاً فخماً ذا طابقين يسرح فيه عبيد وآماء ومؤثثا بالرياش والمقاعد المطعمة بصنوف العاج والأبنوس والصدف من صناعة دمشق وغيرها من مراكز الصناعة في تلك الأيام.

فيه تقويم الأود وإسعاف المحتاج ورد عادية المعتدي. وفيه إكرام الضيف ودية القتيل ودرأ الوأد عن المؤودة وفيه كل مقومات الحياة وما يحتاجه الإنسان في دنياه. هو أكسير الحياة والشريان النابض لمحو الحركة وبالإضافة إلى هذا يحوطها مجد العشيرة وسؤدد من تحدرت عنهم. لهذا وذاك تتزاحم سراة قريش وأعيانها على طلب يدها والخطوة فيما تتمتع به من شرف وجاه وعز وسؤدد. أبوها خويلد تياه مدل فخور والزهو ملء أهابه بهذه الابنة الكريمة لا يدري أي سر يختار وأي كريم معطاء بفضل وكلهم كرام سراة فكان المختار المنتقى هند بن زارة التميمي. وكان سيدا على جاه وغنى[1] وأنجبت له هالة وهندا[2] وكان الزوج رضيا على جانب كبير من الرضا ودماثة الخلق وحسن السيرة وطيب المعشر. وكان زوجاً مثاليا لخديجة وكانت تبادله ما يعطيها من خلق وحسن سيرة وطيب معشر فكانت حياة زوجية هنية رضية بكل ما في الهناءة والرضا من معنى بيد أن القدر باغتها بفقد من أعطته كل ذاتها. فاختلف السراة وتوافدت الوجوه لطلب يدها ثانية ومن جديد بيد أنها رفضت وأمعنت في الرفض منكمشة على نفسها وعلى ولديها هالة وهند تمنحهم كل رعايتها وعنايتها لينعما بالحياة ودفء الأمومة وما يحتاجه الطفل من عناية ورعاية وحنان. غير أن أباها خويلد وعمها عمر بن أسد رغبا مع الراغبين في تزويجها لأنهما شيخان تقدمت بهما السن وخديجة بحاجة لمن تعيش بكنفه وتستظل بظله من حوادث الدهر ونكبات الزمان فاختير لها سيد من سادات مخزوم وأجودها هو عتيق بن عائذ فرضت به بعد لأي وجهد وأعطته من ذاتها ما هي خليقة به أن تعطيه رجلاً مثل عتيق فأنجبت له طفلة اسمتها هندا[3] بيد أنها كانت والفجيعة على موعد إذ سرعان ما رزئت به وفجعت فراحت تجتر آلامها وأحزانها ثانية وتستعيد ذكرى هذا وذاك وهي في دوامة من الألم الممض الممعن في الإيذاء وفي غمرة هذه الانفعالات النفسية انتقلت روح أبيها خويلد إلى ملكوتها الأعلى. فلم تستسلم ولم تيأس ولم

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٥، في الروايات خلاف فيمن تزوجته أولاً منهما واعتمدنا هنا ما جاء في المواهب اللدنية للزرقاني وإن كان الأكثرون من أصحاب السير والتواريخ على ان الأول منهما كان عتيق بن عائذ.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها قال: سمتهما كذلك بأسماء الإناث على عادة العرب من وضعهم أسماء الإناث للذكور وقاية من الحسد. وهالة أدرك الإسلام وكانت له صحبة. وأما هند فقد طالت صحبته وكان وصافا روى عنه الحسن ابن أخته فاطمة «ع» حديث وصف النبي «ص»وهو أبلغ ما روى. وقتل مع علي«ع» يوم الجمل. وكان يفخر فيقول: أنا أكرم الناس أبا وأما وأخا وأختا. أبي رسول الله «ص» لأنه زوج أمه. وأمي خديجة وأخي القاسم وأختي فاطمة «ع» وعن السهيلي في الروض قال: أنه مات بالطاعون في البصرة. وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين ألفا فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته فصاحب ناعيته. واهنداه ابن هنداه واربيب رسول الله فلم تبق جنازة الا تركت واحتملت جنازته على أطراف الأصابع أعظاماً لربيب رسول الله «ص».

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨ قال: أدركت الإسلام وكانت لها صحبه وتزوجت صيفي المخزومي وكان لها منه غلاماً أسمته محمد.

يسيطر عليها الحزن شأن الكثيرات من النساء بل كانت على صلة بالناس من أخذ ومعاطاة وإذا ما انصرفت وذاتها يخالجها شعور وإحساس داخلي يختلف عن شعور وإحساس العامة من الناس. شعور علوي. شعور الخاصة والصفوة المختارة من لدن الملكوت الأعلى. وكاد الأحساسأن يكون وحيا يمثل أمامها في اليقظة والمنام وفي أي لحظة من لحظات حياتها يستصرخها بأن لله دين غير ما عليه قومها وعن قريب سيولد وفي بيتها. وكان من أحلام يقظتها ما جاءت به الرواية كما يقول العلايلي من أن نساء قريش بينما هن مجتمعات في عيد لهن عند البيت إذ تمثل لهن رجل. دنا فنادى بأعلى صوته: يا نساء مكة قد آن ظهور المنتظر فمن منكن ستكون له؟.. فكذبنه ورمينه بالحصى. وكانت خديجة بينهن فلم ترمه كما فعلن. بل لبثت في مكانها مطرقة واجمة لا تستطيع حراكاً مما أنتابها من دقات قلب: ويعزو هذه الرواية إلى السيرة الحلبية جـ١ ص ١٣٩ كما يثبتها ابن حجر في الإصابة عن المدايني: وترى فيما يرى النائم. كأن شمساً عظيمة تهبط إلى منزلها من سماء مكة فيغمر ما يحيط المنزل من أماكن قصية وبقاع. وتهب من نومها مضطربة وتسارع الخطو نحو دار ابن عمها ورقة تقص عليه ما رأت بأسارير واجفة. وينبؤها بسر الرؤيا بوجه متهلل. وأن تلك الشمس علامة مجيء المنتظر وحلولها بمنزلها علامة أنها تحضنه ويثبت أدنى ما تكون منه وكان همساً يدور في مكة وفي رحاب مكة وبين شباب مكة وبين شيوخ مكة وكهولها بتمخض الزمن عن ولود المنتظر ومن سيكون المنتظر؟ أنه من مكة. ومن قريش. ومن دوحة هاشم وأرومة عبد المطلب..

وغمر الهمس هضبات مكة ووديانها وراحت الأنظار تتجه نحو يتيم أبي طالب عسى أن يكنه. ولم لا؟ وهو ملء السمع والبصر، ملء القلب والخاطر، أنه محمد بن عبد الله ذلك الفتى العزوف عن منتديات الشباب ومضارب لهو الشباب وأحسن وصف لهذه الحادثة ما نَدَّ به قلم العلامة العلايلي لنثبته فهو يغنينا: «كم هو رائع هذا الفتى؟ وكم هو رائق حين يغشى العين وعذب حين يغشى السمع؟ ثم يتحدثون ويوسعون في الحديث: ولكن ما شأنه؟ ما به؟ أنه شاب ملء عين الشباب. ولكنه عزوف يتحامى كل ما للشباب من مناسك وفروض: في اللهو وما تجده لاهيا. في المجانة وما استخفته مجانة أو لون فيها.. ويمر بهم فيشغلون عن حديثه بتأمله. كان الفتى محمدا. وكان الحديث المودود الحديث عنه وهو في دارة مثله في أخرى. حديث حب وإعجاب يشوبه تساؤل حائر واستفهام مستغلق لا ينقطع إلى صواب. وكانت تفاريق هذا الحديث تتوزع لتجتمع عند السيدة خديجة. وتنتشر هنا وهناك لتجد الملتقى في دارتها. والسيدة تصغي إليها في نشوة لا تدري مبعثها. وتسعى سعيها إلى الاستزادة منها بدافع خفي غامض لا تعلله. على أن مشاعرها بدأت تتضح شيئاً فشيئاً وملامح أحلامها المبهمة بدأت تتدانى لترسم كلها وجها كان وجه هذا الغني. ولم لا يكونه؟ سألت نفسها طويلا وانتهت

إلى اطمئنان وتأكيد. نعم لم لا يكون هو إياه؟ ذاك الذي ترتقبه وأجيال ضخمة من وراءها ترتقبه في لهفة الانتظار، أنه من هاشم وفيها الينبوع. وأنه ما يتحدث الناس عنه. وهي ملامح لا تجتمع للعادين».

هو حديث كل دارة ومجلس، وشاغل كل منتدى وسامر. الحديث عنه أعذب حديث لامس الشفاه وألذ سمير يختاره السمار. لتعطير دار السمر بأريج ذكراه وعبير نشره. وظلت خديجة ترقب هذا وتستزيد منه كأنها وهذا المنتظر على موعد لبناء شيء جديد. وتشييد كيان جديد وإذا بها تفاجأ بعمة محمد[1] تطلب منها مرابحة محمد في تجارتها. فتغمرها الفرحة. فتبذل ما يختاره محمد وما يحتاجه من مال دون ما مساومة أو مقايضة. هو مخول فيما يريده من مال.

وتلتقي خديجة بمحمد[2] فترى فيه أكثر مما تحدث الناس عنه. وأكثر مما تحدث الناس عنه. ويرد غلامها ميسرة وهو كبير أمناءها ليحدثها بما وقع لمحمد من معاجز وخوارق أثناء مسيرته للشام[3] أهمها تظليل الغمامة له[4] فيخالجها شيء كبير عن محمد ويختلج في نفسها شيء كبير عن محمد أيضاً غير ما يختلج في صدور الناس ويعتمل في نفوسهم من حب محمد هوحب علوي. حب تجاذب الأرواح نحو مصير أزلي تختاره السماء وتقره شرعة السماء لدعم ما تريده أرادة السماء من بناء يتم تشييده بمال خديجة وجهاد خديجة. فتسعى خديجة حثيثاً لاستطلاع رأي محمد في أمر الزواج. وهل يرغب فيه أم يرغب عنه؟. وتخطر من أمامها

---

(١) مثلهن الأعلى للعلايلي ص ٥٠، قال:

بالاعتماد على المصادر الوثيقة يقع على مجلس طعام ضم أبا طالب وأخته عتيقة ومحمداً. وما أن قام محمد إلى بعض شأنه حتى أخذا بحديث عمله وترتيب أمر دنياه. وأفضت العمة برأي أن يعمل في مال خديجة كما كان الشأن يومذاك بالمرابحة أو بالأجر واستصوب العمّ الرأي وأشار على ابن أخيه فأجاب: إذا شاءت خديجة أرسلت تطلبني. وأدركت العمة لما تعرف من عزته. أنه لن يسعى إلى الأمر بنفسه فجمعت عزمها وقصدت في السعي ببيت خديجة.

(٢) المصدر نفسه ص ٥١. تحفل المصادر بذكر اللقاء الأول خرج محمد منه منتبطاً. فقد بذلت له كثيراً من بشرها وترحابها. وقفل إلى عمه فرحاً بأنه يسعى في التخفيف من عسره وفاجأه بقوله: أبشر برزق عاجل ساقه الله إليك.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٢. الأكثرون على أن النبي سافر لها مرتين واحدة إلى الشام، وأخرى إلى سوق حباشة بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال.. وعند البعض سافر لها أيضاً إلى جرش في اليمن فتكون سفراته لها ثلاثاً. وعند بعض آخر غير ذلك وإذا جمعت الروايات المختلفة لزم أن يكون سافر لها خمس سفرات أربع منها إلى اليمن وواحدة إلى الشام.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٢. في المصادر ولا استثني مصدراً. ذكر لخوارق شهدها ميسرة غلام خديجة وشهدها الركب ونقلها كلها إليها. وكان من أهمها السحابة التي تظله في الهاجرة وشدة الحر.

مولاتها نفيسة بنت منية[1] فتستوقفها لتقول لها: هل رأيت محمداً. وهل عرفته؟.. فتجيب رأيته في هذا الدار. وعرفته كما عرفه الناس. فتدسها لتستطلع رأي محمد في أمر الزواج منها. تعود وبشرى القبول معها. وتستيقظ أم القرى مكة على حفل بهيج. حفل عقد الأملاك. عقد خديجة على محمد. يقول التأريخ: «أقبل القوم من بني هاشم يوم الأملاك. العقد.. وفيهم كريم فتيانهم ونجيب عشيرتهم محمد بن عبد الله. يحف به عماه أبو طالب وحمزة. فنزلوا من بني عمهم أكرم منزل وأسناه. حيث قابلهم واحتفى بهم عمرو بن أسد عمّ خديجة. وما أن أكتمل عقد اجتماعهم حتى قام أبو طالب أمام قريش يومذاك وسيدها فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه. وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا حكام الناس.. ثم أن ابن أخي هذا. محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً. وأن كان في المال قل. فإن المال ظل زائل وأمر حائل. وعارية مسترجعة. وهو والله يعد له نبأ عظيم. وخطر جليل. وقد رغب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة. وقد بذل من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشا»[2] فقام على الأثر ابن عمها ورقة فقال:

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت. وفضلنا على ما عددت. فنحن سادة العرب وقادتها. وأنتم أهل ذلك كله. لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم. فاشهدوا علي معاشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله. وكان ورقة في موقعه هذا ينطق بلسان عمرو بن أسد عم خديجة. فالتفت أبو طالب وقال:

يا ورقة ادع عمها يشاركك العقد.. فنهض عنها وقال: اشهدوا علي يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد[3].... وكان محمد ازاها أثناء العقد. وما انتهوا حتى مالت تهمس في أذنه أن ينحر فطعم القوم ما شاءوا[4].

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨. في الروايات اختلاف أكانت نفيسة هذه مولاتها أم صديقتها. ويكاد يقع الاتفاق بين كتاب التاريخ والسير وتراجم الصحابة والتراجم العامة على أنها صديقتها فهي أخت يعلي بن منية ووقع عند الطبري ما يفيد أنها مولاتها ج٢ ص ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٦: النش عشرون درهما وهو نصف الأوقية ويروى آن أبا طالب أصدقها عشرين بكرة.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٧. يروى أنه قال أيضاً وقد جهزتها بأربعمائة مثقال من الذهب.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٧ قال:

كان تزويج محمد بخديجة بعد مجيئه من الشام بشهرين وقيل بخمسة عشر يوماً وكان عمره إذ ذاك خمساً وعشرون سنة على ما هو الصحيح الذي عليه الجمهور. وفي قول كان عمره خمسا وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام.. أما عمر خديجة فاختلف فيه والصحيح أنها كانت في الأربعين وقيل بنت خمس وأربعين وقيل خمس وثلاثين وقيل ثلاثين وقيل ثمان وعشرين راجع السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠.

وكانت خديجة أثيرة عنده عزيزة عليه. أحب أزواجه لديه. وكانت تشغل الحيز الكبير من حياته. ومن أقواله فيها: روى عنه أنه قال: خير نسائها مريم. وخير نسائها خديجة.. وقيل: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله فعرف استئذان خديجة في استئذانها فارتاح لذلك فرط ارتياح وقال: اللهم هالة.. قالت عائشة فغرت فقلت:

ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر. وقد أبدلك الله خيراً منها. قالت: فغضب غضبا حميا ما عهدته. حتى لقلت والذي بعثه بالحق لا أذكرها بعد هذا إلا بخير. وفي رواية أخرى:

كان النبي يكثر ذكرها. فربما قلت له: كأنما لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: كلا والله ما أبدلني الله خيراً منها. أنها كانت وكانت. آمنت إذ كفر الناس. وصدقتني إذ كذبني الناس. وواستني بما لها إذ حرمني الناس. ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء.. وكانت قبل البعثة تأخذ[1] يده فتضعه على صدرها وتقول: بأبي أنت وأمي. والله ما أفعل هذا لشيء. ولكن أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث. قال تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي وادع الإله الذي سيبعثك لي. فقال النبي لها: والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً. وأن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً[2].

وتقول كتب التأريخ والسير عنها:

خفف الله بخديجة عن نبيه. لا يسمع شيئاً يكرهه. من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها. إذا رجع إليها تخفف عنه وتهون عليه أمر الناس.

وتأتي منحة السماء لها. بوسام المجد والخلود - بشر خديجة ببيت من قصب[3]... روى أبو القاسم بن مطير بإسناده إلى فاطمة سيدة نساء العالمين أنها قالت لأبيها: أين أمي؟.. قال:

في بيت من قصب لا لغو فيه ولا نصب بين مريم وآسية امرأة فرعون. قالت: أمن هذا القصب هو؟. قال:

لا. أنه المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت.

وأعطتها السماء منحة أخرى. هي أم أولاده كلهم ما عدا إبراهيم أنه من مارية القبطية!.. أولادها:

القاسم والطيب والطاهر. وأكبر بناته: رقية ثم زينب ثم أم كلثوم وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن، راجع ابن هشام جـ١ ص ٢٢١. ففخر نساء العالمين سر الوجود فاطمة.

---

(١) مثلهن الأعلى ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠.

(٣) مثلهن الأعلى ص ١٠٠.

فاطمة

ولادتها في العشرين من جمادى الثانية بعد البعثة بخمس سنين وعليه أكثر محدثي الشيعة وبعد الإسراء بثلاث سنين.

بذرة طيبة في تربة خصبة صالحة لتقبل البذرة وبعث الحياة فيها. غذتها يد العناية الإلهية ورعتها عين الرسالة ونمتها خديجة. فكانت البذرة فاطمة وكان الباذر محمد وكانت التربة خديجة فكانت نعمت البذرة والباذر والتربة.

وتفتح برغم الزهرة على أريج الرسالة وندى القرآن وتطويحة جبرائيل. وامتصت الغذاء من قلب محمد ومن روح محمد ومن ثدي خديجة فكانت قطعة من الرسالة وجزءاً لا يتجزأ من صاحب الرسالة. فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني. كلمة انطلقت من فم النبي. فكانت كلمة تبكيت وتأنيب لعلمه بما سيجري لفاطمة من بعده. وما ستعانيه من فئة استفزتها الدنيا واستحوذ عليها حبّ السلطة والمال فأنساها عهد محمد وما لمحمد عليها من حقوق فلم تعبأ بفاطمة ولم تدرء غضب الله بمرضاة فاطمة فراحت تبوء مثقلة بأوزار ما باء بمثلها مثقل بالأوزار...

وأكد أبو الزهراء بأكثر من حديث واحد. وركز نقطة اهتمامه حول هذه الناحية فكانت انطلاقة الأبوة بما فيها من حنان الأبوة وما يتفاعل في نفسه الكريمة تجاه ابنته فاطمة من حنان.

- ترنيمة السماء يرددها الرسول الأعظم..

«فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويريبني ما يريبها.

فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني.

وإنما فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها.

رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي.

فمن أحب ابنتي فاطمة فقد أحبني. ومن أرضى ابنتي فاطمة فقد أرضاني.

ومن اسخط فاطمة فقد اسخطني»[1].

ورغم هذا الحصن المنيع من الأحاديث التي أحيطت بها فاطمة فقد هدموا الحصن واستباحوا حرمة محمد في إيذاء فاطمة والإمعان في هذا الإيذاء.. وما هذه الأحاديث غير اضمامة من أضاميم عبقة اختصت بها فاطمة دون سواها من النساء.. ولكن زكمة بعض الخياشيم سدت دون هذا الأريج الفواح من عطر الرسالة وشذى النبوة. والنفوس المحلة المجدبة لن تتقبل رشح النبوة ووابل السماء فراحت تلفظ نبتة الرسالة وغرس السماء دونما

---

(١) العذراء البتول لمحمد حسين شمس الدين ص ٢٤ و٢٥ نقلاً عن الطبري والإصابة وصحيح البخاري.

خجل أو حياء ودونما يقظة من ضمير يفي حق محمد في عقيلته فاطمة. وأي ضمير ممحل يتقبل قوله لعائشة وقد أخذتها الغيرة من فاطمة ابنة ضرتها الميتة حين سألته[١]:

مالك إذا أقبلت فاطمة جعلت لسانك في فيها كأنك تريد أن تلعقها عسلاً. أنك تكثر من تقبيل فاطمة؟.. فقال: يا حميراء أن كانت مريم ابنه عمران سيدة عالمها. ففاطمة ابنتي سيدة نساء العالمين. لو كان الحسن شخصاً لكان فاطمة. أن ابنتي فاطمة خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً[٢].

نبا مسمع النيرة وطبيعة المرأة عن ترنيمة الخير وتغريده من لا ينطق عن الهوى أن هو إلا وحي أوحت به السماء لينفثه الرسول بشكل أحاديث. أحاديث تنمقها السماء ليتغنى بها من اختارته السماء من اصطفاها جلت عظمته دون سائر نساء العالمين عصارة لقلب من اختاره واصطفاه حبيبا له.. وكان (ص) يفزع إليها فيما يسئل به عن أمور ومشاكل النساء لعلمه برجاحة عقلها وتكامل إنسانيتها.. يسأل مرة عن خير المرأة فيسترشد بها فتجيبه: بأن خير المرأة أن لا ترى الرجل ولا يراها الرجل فيقبلها وهو يقول:

- فداها أبوها -

فما أعظم الفادي. وما أغلى الفداء!!..

ولما امتازت به من دراية ومعرفة وسعة إطلاع وخبرة بالحياة وشئون النساء وتدبير الأمور كان النبي (ص) كما قلنا يفزع إليها ويسترشد برأيها فتجيبه فيما يخص النساء.. وكان يكنيها:

- بأم أبيها . فتمتزج العاطفتان. عاطفة الأبوة والبنوة وتنصهر بعاطفة واحدة لتكن عصارتها فاطمة. وخلاصة قلبه فاطمة.. فاطمة ولا شيء يشغل فراغ عاطفته غير فاطمة. حصيلته من الدنيا فاطمة. وهي كل دنياه.. إذ هي أم أولاده وحصرت سلالته (ص) فيها.

وكان يحيطها بالكثير من عنايته ورعايته دون سائر بناته. وكان يكثر من تقبيلها حتى أنكرت عليه بعض أزواجه فقال:

وما يمنعني من ذلك وأني أشم فيها رائحه الجنه وهي الحوراء الأنسيه.. وكان يقوم لها أن دخلت عليه معظماً ومبجلاً. وإذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله ابنته فاطمة وإذا رجع من السفر فكان أول ما يبتدء بها.. وقوله لفاطمة:

يا بنية من صلى عليك غفر الله له والحق بي حيث كنت من الجنة..

وناهيك جلالة بمن يقوم النبي إجلالاً لها وتعظيماً. ومن تبوأ المصلي عليها اللحوق بالنبي حيث كان من الجنة. وفي القليل هذا حجة دامغة لمن أنكر حق فاطمة وغضب حقها بعد أبيها. ولنترك الحديث عنها وهي في بيت أبيها.. لننتقل معها حيث تكون في بيت ابن عمها علي.

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٠ عن الطبري في ذخائر العقبى ص ٢٩ والصفوري ص ٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٤١ عن الخوارزمي في ترجمة فاطمة.

في مدرج النبوة

زوج النور من النور...

أمر إلهي، أمرت به السماء ونفذه الرسول الأعظم محمد (ص). فانساب واستغفر الله لي ولكم.

لا شك وأنك ترى ينابيع بيانه تتفجر بالرضى والاطمئنان من خلال خطبته هذه يقولها والغبطة ملء كيانه. وكيف لا؟ وهو الخبير: لولا علي لما كان لفاطمة كفوء من آدم فمن دونه: يقول أنس: وكان علي عليه السلام غائباً أثناء الخطبة في حاجة لرسول الله (ص) قد بعثه فيها. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا. فقال: انتهبوا. فبينما نحن كذلك إذ أقبل علي فتبسم إليه رسول الله (ص) وقال: يا علي! أن الله أمرني أن أزوجك فاطمة. وأني زوجتكها على أربعمائة مثال فضة.. فقال علي: رضيت يا رسول الله! ثم خر ساجداً شكراً لله. فلما رفع رأسه قال الرسول:

بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب.. قال أنس: والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب...

وهناك رواية أخرى تقول: بحضور علي كان إعلان العقد.. تقول الرواية: بعد أن أنهى النبي خطبة العقد قال: أشهدكم أن الله قد أمرني أن أزوج ابنتي فاطمة من علي بن أبي طالب فأشهدوا أني قد زوجتها إياه على أربعمائة مثقال فضة... أرضيت يا علي...؟ قال: رضيت يا رسول الله. ويسجد علي (ع) لله شكراً. وحق لعلي أن يقول:

وبنت محمد سكني وعرسي ... منوط لحمها بدمي ولحمي

وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكموا له سهم كسهمي

حفل الزفاف

بعد أن أرفض الجمع من دعوة سعد بن عبادة المكونة من الشواء والذرة لزفاف فاطمة. خرجت الجماهير تنتظر موكب الزفاف.. وزفت فاطمة تحف بها فضليات النساء[1] وعقائل الهاشميات والزهراء على بغلة النبي الشهباء وقد أخذ بزمامها سلمان الفارسي. ومن خلفها النبي ومعه الحمزة وعقيل وبنو هاشم مشهرين سيوفهم. وتهادى الموكب على أراجيز نساء النبي (ص) وكرائم بني هاشم. وكان لأم سلمة وعائشة وحفصة ومعاذة أناشيد خاصة تثبتها السير والمعاجم، وكانت كيفية الإنشاد أن تنشد الشاعرة بيتا من نشيدها بلحنها الخاص فإذا انتهت منه إعادته النسوة من خلفها وختمته بالتكبير والتهليل وهكذا زف موكب العرس حتى وصل بيت علي عليه السلام..

---

(١) الزهراء لمحمد جمال الهاشمي ص ٤٣.

في بيت علي

وكان علي عليه السلام قد جهز داره بما يناسب حياة بنت النبي (ص). فنشر المرمل اللين على الأرض ونصب خشبة من حائط إلى حائط لحفظ الثياب وبسط أهاب كبش على الأرض. وأسند على الحائدة مخدة من ليف.

هذا تمام أثاث علي يوم عرسه وهو وأيم الله يناسب حياة أبي الحسن وزهده في الدنيا وما فيها. ثم يتوجه النبي ليأخذ بيد الزهراء ثم يدعو عليا ليأخذ بيده ثم يضع يد الزهراء بيد علي ويتوجه إلى علي وهو يقول:

نعم الزوج زوجتم.. ثم يلتفت إلى الزهراء وهو يقول:

نعم البعل بعلك... ثم يمشي بينهما حتى يدخلهما البيت الخاص ويقول لها: مرحباً ببحرين يلتقيان.. ونجمين يقترنان.. اللهم هذه ابنتي وأحب الخلق إلي.. اللهم أجعله لك وليا وبك حفيا.. وبارك له في أهله.. ثم يتوجه إلى علي ويقول:

أدخل بأهلك بارك الله لك. ثم يخرج من البيت ويقبض على عضادة الباب ويقول: طهركم الله وطهر نسلكما. أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما استودعكما الله واستخلفه عليكما. وقال لمن سأله، أيهما أحب إليك؟ فقال: . فاطمة أحب إلي وعلي أعز علي..

موقف قد انفرد به أبو الزهراء فكانت العظمة الشامخة وكان سر الخلود وكانت البسمة المشرقة على فم التأريخ. تبدد دياجير الظلم وتكتسح ما اعتلا وجه التأريخ من كلف.. موقف كريم معطاء. لم تنفرج شفة الزمن عن كلمة أثمن من كلمة صاحب الرسالة: طهر كما الله وطهر نسلكما.. إلخ.. قالها رغم كل مكابر معاند...

شموخ إلى المجد يعتليه أبو الحسن بسلم التضحية حيث الحياة الأبدية والعالم العلوي المسيح يعتلي منه أسمى المراتب وأعلا الدرجات. يعتلي ذروة محمد حيث صمد بجانب الحق بجانب الفضيلة بجانب أخيه وابن عمه محمد (ص).

كان أبو الحسن مثلاً رائعاً في التضحية والفداء وفي اقتفاء أثر ابن عمه منفذا لرسالته بكل أمانة وإخلاص. وبهذا اعتلا أمرة المؤمنين وحقت له الوصاية وعقد الولاء وصارت بيعته طوقاً في عنق كل من أقر الإسلام واعترف برسالة محمد وكانت نعم الجزاء.

❖ ❖ ❖

السيدة فاطمة الزهراء

✍ عبد السلام الشاذلي القوصي (مصر)

إن الذي يكتب عن السيدة فاطمة الزهراء يشعر دائماً بسعادة.. ولا أدري (وقد حدثت) لماذا؟ وكيف؟.. وقد تخيلها العقل أنها أمامه رضي الله عنها واقفة في حياتها الإسلامي وروحها الملائكية وطهارتها النادرة ووجهها الوضاء الجميل ولسانها العف وصوتها الذي يخيل إليك أنك تسمع نبرات صوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... ما أملك قولاً وفعلاً. وما احسنك أخلاقاً ومنبتا. الأدب كله يعيش بك ولك. والأخلاق الحسنة أنت ربتها.. أنت يا رابعة بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ويازينة هذا البيت النبوي الكريم. ويا طبيبة القلب الحزين. ويا حبيبة الأرامل والأيتام والمساكين. السعد تدفق إلى الدعوة الإسلامية من يوم نزولك إلى وجه هذه الأرض. فلقد اقترن الذي ولدت فيه بأن يلقب والدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأمين. وأن يحكم بين المتشاحنين. أن يرأس وفود القبائل المختلفين. فجاءوا بوالدك العظيم صلوات الله وسلامه عليه في اللحظة التي بزغ نور وجهك فيه على هذه الدنيا. وقالوا له أن الخلاف قد أشتد بين كل القبائل في وضع الحجر الأسود.. وحكم والدك بالحكم الذي ارتضاه الجميع. وكان لهذا العمل وفرحة وفأل حسن جميل ولقد ظل جمال وجهك الطاهر المعبر. وقلبك النابض النير. كسيران وراء حب عميق وضعيته في فؤادك النظيف الكبير. أنه حب والديك. ما اجمله من حب. وما أحسنه من قربى.

النظرة الأولى منك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت إيماناً برسالته.

النظرة الثانية منك إلى رسول الله صلى الله عليه واله وسلم كانت إيماناً بأبوّته.

والنظرة الثالثة منك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت إيماناً بمحبته.

والنظرة الرابعة منك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت إيماناً بصحبته.

والنظرة الخامسة منك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت إيماناً بطاعته.

والنظرة السادسة منك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت إيماناً بالوفاء له والإخلاص له.

والنظرة السابعة منك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت يوم أن خفق قلبك حنانا ورقة.

ولقد تمتم لسانك بكلام خرج من بين شفتيك يحكي طهارة حصيرة قلبك ونقاوة أسوار نفسك فقلت لوالدك رسول الله وأنت تسمعين قوله.. (لبيك يا أحب والد وأكرم داع).

ماذا قال والدك العظيم نبي هذه الأمة وسيدها وعظيمها ونورها صلى الله عليه وآله وسلم... لقد نزل الوحي بقرآن كريم.. قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾... وصدع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الأمر. فخرج لقريش ينادي فيهم ويقول:

يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئاً.

يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغنى عنك من الله شيئاً...

وكنت أنت (يا زهراء) لتسمعين قولا قد استثناك فيه والدك الكريم صلى الله عليه وآله وسلم دون أخواتك جميعاً.. أنه الحب.. الحب الطاهر من قلب والد طاهر إلى قلب ابنته الطاهر. أنه الحنان والرأفة من إنسان عظيم ونبي كريم قال الله فيه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.. لقد غمر بهذا الحنان. وأحاط بهذه الرأفة إنسان الوجود. وكنز الأدب والجود. وعين عناية الرحمن.. سيدة العلم والعرفان (السيدة فاطمة الزهراء)... وحينما أكرر قول والدك صلى الله عليه وآله وسلم وهو يناديك.. يا فاطمة بنت محمد.. سليني ما شئت من مالي. وليس لأبيك مال.. حتى يغدقه عليك فتكوني به من الأثرياء. وليس لوالدك صلى الله عليه وآله وسلم ثراء ورثه حتى يجعلك به من الأغنياء. وليس لوالدك صلى الله عليه وآله وسلم خزائن مكدسة بالذهب والفضة حتى يطمعك فيها. فتسألينه من هذا المال لتعيشي عيشة المترفين السعداء... ولكن يا زهرة بيت النبوة الكريم. ويا ضوء إشراقة الأمل في كل قلب حزين.. أنه صلى الله عليه وآله وسلم ليقول لك رضى الله عنك أن لك عنده كلاماً لك فيه منحة من العزيز الغفار. وتقدير واستبشار ومنزلة العارفين الأخيار.. أنه يقول لك صلى الله عليه وآله وسلم وقلبه الشريف هو خزينة العلم والأسرار ولسانه لسان الصدق والاعتبار.. يقول صلى الله عليه وآله وسلم... (**خير نساء العالمين أربع: مريم وآسية وخديجة وفاطمة**). ثم يعطيك الأب الخير النير الصفي الكامل صاحب الأخلاق العظيمة والنفس الراضية النبي الوفي صلى الله عليه وآله وسلم. يعطيك قولا آخر أجمل وأكمل وأعلى منزلة وأحسن مقاماً: «**يا فاطمة أن الله ليرضى لرضاك. ويغضب لغضبك**».. ما شاء الله.. هل صدقت معي أيها القارئ الكريم بأن الذي يكتب عن السيدة فاطمة الزهراء يشعر بسعادة... هذه هي السعادة وأسبابها أن الله ليرضى لرضاها.. ونحن تحت ستار هذا القول نحتمي. ولظل هذا الرضا نستظل وبالعمل الصالح نسعى ونجد ليفتح لنا عند السيدة فاطمة الزهراء الباب لترضى. وحتى يرضى الله برضاها.

وهناك يا سيدتي (فاطمة الزهراء) قلب آخر اهتز بحبك طرباً وخاف عليك أياماً تأتي من بعده. ذلك القلب هو قلب أمك البارة الوفية «خديجة» أم المؤمنين. وعنوان الأوفياء والمخلصين. أنها تخشى أن تموت فتتركك في سنك الصغير وحيدة الفراش مشغولة المعاش. قبل أن يضمك زوج إلى عصمته كما ضم أختيك زينب ورقية. أو يرقى سنك إلى درجة

الاعتماد على النفس والمعرفة بشئون الدنيا وما فيها من أفراح وأحزان. كأختك أم كلثوم وقد بلغت من السن ما يطمئن أمها عليها.. وتضع السيدة خديجة يدها فوق صدر ابنتها الصغيرة (فاطمة) لتصل قلبها الكبير قلب الأمومة والعطف بقلب ابنتها الصغير موضع النور والأمل.. وفاطمة تحكي لأمها ما سمعته من والدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوة أبيها لقومه حيثما قال (فأن أحداً لن يغنى عن أحد **من الله شيئاً** (.. **وفاطمة تردد هذا القول ونبضات قلبها فيه**). دقات تسمع وتقول (أشهد إلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).. قالتها أمها من قبلها وهي كبيرة مدركة.. وتقولها (الزهراء) وهي طفلة ناعمة الأظفار لتكتب عند الله من الأخيار.. نعم آمنت «فاطمة» بالله ورسوله بلسانها وقلبها وأدركت معنى من معاني الإيمان السامية فأخذت به في مطلع حياتها طريقاً موصلاً لله ولرسوله. فكانت به من المجاهدين ومع الصابرين.. ثم تقول «فاطمة» لتطمئن أمها على مستقبلها: **(لابأس على يا أماه لتفعل قريش ما شاء لها. ولتمض في طغيانها وجورها ولتأت بكل قوتها. فأنا فاطمة بنت النبي محمد سيد العالمين وصاحب الدين القويم والدعوة الكريمة للطريق المستقيم. انها دعوة الحق. والله ينصر الحق ويهدي إلى سواء السبيل.. وتعلقت فاطمة بأبيها روحاً وجسماً وقلباً وقالباً فرأت عن كثب كيف أهانت قريش رسول الله (ص) وسمعت كيف لغت قريش بألفاظها في حق رسول الله (ص). ونظرت إلى والدها وهو يضطهد في دعوته ويؤذي في جسده. ووقفت فاطمة في وديان ابي طالب تقاسي مع والديها مرارة الحصار.. وهي في طفولتها عنواناً للصبر وحسن الجهاد. جهاد الطفل البريء الذي لم يعرف عن الدنيا شيئاً أكثر من انه وجد حياة قاسية من أقرب الناس إليه. هم عشيرته واهل ابيه. ولكن ماذا يجدي جهاد الأطفال في نفوس الكبار. لقد كانت تعذب فاطمة على صغرها من رجال من قريش. لم يراعوا في ذلك صغرها ولم يحترموا طفولتها. واحست فاطمة بكل هذا وتحملته على مضض. وعناية الرحمن تهيئ لها أمراً آخر.. ان قول والدها لا يزال عالقاً بعقلها حينما قال.. يا فاطمة..** (أن الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك)... **وامتحن الله إيمانها بما قاسته من ألم محض وعذاب أليم.. وصبرت.. ثم شكرت فانتصرت. وتمتحن مرة أخرى في شيء عزيز عليها مس شغاف قلبها وسلامة روحها.. انها تقف لترى امها** «خديجة» أم المؤمنين تودع الدنيا بعد أن أدت رسالتها كاملة من خدمة الدعوة وفي رحاب الزوجية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمانة وإخلاص ووفاء.. ووقفت فاطمة لترى بعينيها روحاً تقبض ونفساً تخرج من الدنيا إلى الآخرة وهي أحب إنسانة إليها. وليس لفاطمة من حيلة إلا البكاء.. وقد بكت حتى روت خديها بماء لو جمع لملأ كوباً من الماء.. ثم صمتت فاطمة فجأة لتسمع من والدها رسول الله (ص) يقول في **أمها خديجة وهي** مسجاة في فراش الموت.. والله لقد نصرتني حين خذلني الناس.

انشغل قلب فاطمة بحب أبيها لأنه أصبح هو الوحيد الذي يروى ظمأها ويهدئ روعها ويخفف لوعتها بعد فراق أمها.. ولكن متى يتم ذلك.. أن رسول الله (ص) مشغول بدعوته وبما يقاسيه من عناد أهله وعشيرته. وفاطمة من خلفه تقاسى مثله لتدفع عنه براءة الأطفال ما تستطيع.. فلقد سجد الرسول صلوات الله وسلامه عليه حول الحرم ومشركو قريش من حوله ينظرون إليه ماذا يفعل.. فجاءه (عقبة بن أبي معيط) . بسلى جزور . فألقاه على ظهره.. وتأخر الرسول ساجداً لم يرفع رأسه الشريف.. وجاءت فاطمة لترفع عن والدها أذى قريش. ثم دعت على من فعل ذلك.. ولما انتهى رسول الله من صلاته قال: **اللهم عليك الملأ من قريش. اللهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وعقبة بن ابي معيط وأبي ابن خلف**. وقد كان لهؤلاء جميعاً سوء الخاتمة فقتلوا في غزوة بدر... لقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة. وبعدها هاجر علي بن أبي طالب. وبقيت في مكة فاطمة وأختها أم كلثوم حتى وصل من عند رسول الله رسول ليأخذهما إلى المدينة.. ولم يكن إيذاء المشركين من قريش وغيرها قد أشبعهم وروى غليلهم بمكة بعد أن هاجر المسلمون منها. ولكن لئيم خسيس هو (الحويرث بن نقيذ بن عبد بن قصى) تبع ركب فاطمة وأم كلثوم فلما وصل إليه نخس بعيرهما فرمي بها إلى الأرض.. واهتزت قلوب.. وبكت عيون.. فقد كانت فاطمة قد أصابها الضعف وكان يرى ذلك واضحاً جلياً على جسدها . لقد قاست الكثير.. من مطلع طفولتها.. وواصلت السير بعد ما ألم بها شيء أثقل ساقيها وعلم رسول الله (ص).. ويذكر صلى الله عليه وآله وسلم.. الحويرث هذا مع أمر بقتلهم ولو كانوا تحت أستار الكعبة.

سيدتي «فاطمة الزهراء تاريخك جميل طويل. ونحن إلى اليوم نكتب في سيرة السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء لكي نعيش في رضى الرحمن وفي رضاها رضي الله عنها. فرضاها سعادة وسيرتها أمان واطمئنان وزيادة في الإيمان وهو أمر يرضى والدها العظيم سيدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأنك لتجد في كل حطوة من حطواتها وحطوات أحواتها تجد له أثراً وتشريعاً... أما الأثر فهو خالد باق بما وصل إلينا من تضحيات جسام قام بها آل بيت كريم لرسول عظيم لو سأل الله جل جلاله المال لوجد الجبال ذهبا ولو سأل الله الدنيا وما فيها له ولآل بيته لامتلأ بيته من كل أنواع الترف والزينة والمتاع. ولكنه رسول كريم جاء برسالة تشريع للقلوب المطمئنة المؤمنة الخالصة الوفية فهو لم يمنع زينة الله التي لا حرمة فيها والتي لا تبعث في النفوس الكبرياء والعجب وتبعد الإنسان عن التواضع الذي يوصل إلى طريق الله تعالى الذي أمر بالمساواة بين الناس بالعدل والقسطاس المبين».

سادتي آل البيت سلام الله عليكم أجمعين، وأنا بكم من المتوسلين إلى جدكم **سيدي رسول** الله يوم الدين وهم راضون وصلاته الله عليهم. ❖

فاطمة الزهراء

✍ عارف النكدي(*)

شاء الصدر، ومشيئته أمر. أن تكون لي كلمة ألقيها على هذه النخبة الطيبة، في هذا البلد الطيب. عن فاطمة الزهراء: سيدة نساء العالمين، وبضعة رسول الله: سيد العرب والمسلمين. وهو القائل فيها يوم بُشّر بها: ريحانة أشمها، ورزقها على الله. ومن أبغضها فقد أبغضني، ومن أغضبها فقد أغضبني. والتي قيل فيها:

خجلاً من نور طلعتها	تتوارى الشمس في الأفق
وحياء من شمائلها	يتغطى الغصن بالورق

لا! ليست بكم حاجة أن يحدثكم مثلي عن مثلها. وأنتم تعرفون عنها فوق ما أعرف، فأكون معكم كناقل تمرة إلى هجر. وقديماً قيل: أهل مكة أدري بشعابها.

ولكن علامتنا السيد الصدر، وقد أراد لقومه النجيب، ولهذا الوطن الحبيب، أن تكون لهذه البقعة الكريمة منه[1]، والعزيزة عليه[2]، نهضة صحيحة، أرادها أن تعم الجنسين من الرجال والنساء، فتقوم على رجلين اثنتين، لا على رجل واحد، وعلى شطرين اثنين لا شطر واحد، فتكون قوية صحيحة سليمة، تقف لعوادي الدهر وحدثانه، كما وقف لها آباؤكم من قبل.

لذلك أراد - حفظه الله - أن يمد يده طاهرة قوية، إلى هذه المرأة العاملية، فيأخذ بيدها لتنهض النهضة الحق، وأراد أن يكون لها مثالاً صالحاً تقتدي به، وتطبع على غراره. فلم ير لها أشرف من الزهراء في طهر سيرتها، وطهارة سريرتها، وفي آبائها وإخلاصها ومكارم أخلاقها.

وإلى جانب هذا، أراد أن يعرف الجمهور خاصته وعامته، أن هذه السيدة الفضلى، لا ينحصر أمر تقديرها وتكريمها بفريق اختص بها دون فريق. بل كلنا من عرب ومسلمين، سواء في الاعتراف بمناقبها، وإذا كان السادة الحاضرون، أو كثرتهم يفخرون علينا بأنهم أعرف منا بمزاياها، وهو حق لا نناقش فيه، فأنهم ليسوا بأكثر منا ولاء لها، وتعلقاً بها. فنحن ننتسب إلى هذه الفاطمية التي إليها تنتسب.

(*) كتبها بطلب من الإمام السيد موسى الصدر.

(١) من الوطن.

(٢) على السيد الصدر.

المـرأة:

وقبل أن نمضي قدماً في حديثنا عن موضوعنا الخاص، لابد لنا من إلمامة خاطفة، بالحديث حديثاً مختصراً عاماً عن المرأة في المشرق والمغرب في حاضرها وغابرها.

يخيل إلى بعضنا، ممن يأخذون الأمور على ظاهرها من غير تمحيص ولا تعمق، أن المرأة الغربية التي تشارك الرجل اليوم في أعماله، وتسدد كثيرات منهن في أعماله، خطواته. أنها خلقت منذ خلقت السيدة المطاعة: صاحبة المكانة والإكرام، وأن هذه المرأة العربية، ولا سيما المسلمة منهن، ظلت دهورها الطوال! الحرمة[1]... الذليلة المهانة المستعبدة، إلى أن مدت إليها المرأة الغربية يدها - مداً معنوياً - فانتشلها من الصغار والاحتقار، وجعلتها تحتل مكانها من التقدير والاعتبار.

غير أن التاريخ الحق، يقول غير هذا. يقول: أن المرأة الغربية كانت إلى ما قبل اليقظة الأخيرة، وليس العهد بالبعيد، تقاسي من الذي ألواناً وأشكالاً.

كانت تقاد إلى الأسواق فتباع فيها، وإذا احتاج الرجل العامل إلى من يحمل أثقاله، أو يفلح أرضه استعاض بها عن الحيوان، وكان الرجل يضربها الضرب المبرح، لا متعدياً ولا متطاولاً، ولكن بحكم القانون الذي كان يجيز له ضربها على أن لا يكون ذلك بعد الساعة التاسعة ليلاً، لا شفقة عليها ورحمة بها، لتنام وهي على شيء من السكينة والهدوء، بل لكي لا يزعج صراخها الجيران، حتى أن الألواح الاثني عشرة وهي التي يزعمونها أساس القوانين الأوروبية. أعطت الرجل حق إعدام امرأته الحياة أن هي أخذت مفاتيح مستودع له[2]. هكذا كانت المرأة تعد في جملة الأشياء المملوكة. وكلكم يعرف ما كان من ذلك الجدل الطويل، والتساؤل الغريب، عما إذا كان للمرأة نفس كالرجل أم لا؟.

كان ذلك يوم كانت المرأة عند العرب تتمتع بحقوق كاملة، من حق في الملك، ومن حق في الإرث. إلا ما حددت الشريعة بعضه لأسباب اجتماعية أو سياسية - ومن تعلم وتعليم، ومن الطلاق لمن اشترطته في العقد.

أقول قولي هذا، وإن كان معروفاً أكثره، بل كله. ليستقر في أذهاننا، توكيداً للحقائق التي غشّي عليها الجهل. فحجب بها الشرع والتاريخ.

---

(١) أطلق العرب على المرأة «الحرمة» وقد يحمل اليوم هذا اللفظ على معنى التحقير. فتأبى السيدة العصرية أن يقال لها «حرمة» كما كان يقال لها من قبل. وما أطلق العرب على المرأة لفظ «الحرمة» إلا وهم يريدون لها الإكرام. فالحرمة لغة: ما لا يحل انتهاكه. من ذمة، أو حق، أو صحبة.. ومن معانيها المهابة.

(٢) يرجع في ذلك إلى المعجم الأفرنسي الاجتماعي السياسي مادة (Femme).

المرأة العربية:

وإذا كانت بعض الدول تجند النساء اليوم للقتال، أو لما يتعلق بشؤون الحرب، فإن النساء العربيات سبقت إلى هذا بمئات السنين. كن يتبعن الجيوش، يضمّدن الجراح، ويسقين العطاش، ويجملن العمد، يضربن بها وجوه المنهزمين. ومنهن المقاتلات قتالاً لا يقل عن قتال الرجال وقد يزيد أحياناً، إلى أن يساوي قتال الأبطال.

شهدت نسيبة بنت كعب بن عمارة أحد[1] خرجت أول النهار ومعها شنّ[2] تريد تسقي الجرحى. والدولة والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون، انحازت إلى رسول الله تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف، وترمي بالقوس، فأبلت بلاء حسناً. وجُرحت اثني عشر أو ثلاثة عشر جرحاً بين طعنة برمح، أو ضربة بسيف. وجعل الناس يمرون عن الرسول منهزمين. ورآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا ترس معها. ورأى رجلاً مولياً معه ترس. فقال له: يا صاحب الترس: ألق بترسك إلى من يقاتل. فألق ترسه. فأخذته وجعلت تترس به على النبي. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني.

وكذلك كانت نساء قريش، يحملن معهن الدفاف وإلا كبار[3] يضربن عليها، ويذكرن القوم بقتلى بدر[4]، ومعهن مكاحل ومراود فكلما ولي رجل أو تكعكع[5] ناولته أحداهن مروداً ومكحلة ويقلن له إنما أنت امرأة خذ فاكتحل:

فاطمة البارة:

وبعد هذه اللمحة العاجلة، نرجع إلى موضوعنا - إلى الحديث عن الزهراء، فمن جرأتها وحسن تدبيرها، أن الرسول (ص) لما جرح في يوم أحد، جعل علي «ع» ينقل له الماء في درقته[6] من المهراس[7] ويغسله. فلم ينقطع الدم. فأتت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي غير أن الموقف رغم ما فيه من رقة ومن قلق وحنان على أبيها، لم يشغلها عن الواجب الصحي، وهو خير من

---

(١) أحد بضم أوله وثانيه، اسم جبل شمالي المدينة بينه وبينها قرابة ميل. وعنده كانت الوقعة العظيمة التي قتل فيها حمزة عم النبي (صلعم) وسبعون من المسلمين، وكسرت رباعية الرسول وشج وجهه وكلمت شفته. وكان يوم بلاء وتمحيص. كان ذلك لسنتين وتسعة أشهر وسبعة أيام من مهاجرة النبي.

(٢) الشن: القربة الصغيرة.

(٣) الدفاف، والدفوف جمع دف بالضم معروف والإكبار: جمع كبر بالحريك وهو الطبل ذو الرأسين أو هو الذي له وجه واحد.

(٤) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة، وعنده كانت الوقعة المباركة، التي أظهر الله بها الإسلام، وفرق بين الحق والباطل، سنة اثنتين الهجرة.

(٥) تكعكع: هاب وتراجع بعدما أقدم.

(٦) الدرقة بالتحريك: الترس من جلد ليس فيه خشب.

(٧) المهراس: حجر منقور مستطيل، يتوضأ منه.

العاطفة، ومن القلق على رسول وهو في مثل تلك الحالة التي كان عليها: جراح بليغة تنزف منها الدماء غزيرة. وما كان غير الله يدري ما يكون بعد ذلك عمدت إلى حصير فأحرقته، وجعلت تذر على الجرح من رماده حتى انقطع الدم.

وكان بين الرسول وابنته تعاطف. قال ابن عمر: أن النبي كان إذا سافر، كان آخر الناس عهداً به فاطمة. فإذا قدم كانت أولى الناس به عهداً.

وعن عائشة: أن علياً سأل النبي: أينا أحب إليك؟ أنا أم فاطمة؟

قال: هي أحب إلي، وأنت أعز علي.

ولا يكون جواب أصدق من هذا، ولا أبلغ، ولا أجمع. فاطمة أحب إليه حب حنان وشفقة، وعلي أعز عليه عزة فضل ومكانة.

وبلغ من حبها لأبيها ومن حزنها عليه: أنها ما زالت بعده، معصبة الرأس، ناحلة الجسم، مهيضة الركن، باكية العين، محرقة القلب. وأنها لم تر بعد وفاته كاشرة ولا ضاحكة. قيل وبكت حتى تأذى بها أهل المدينة فقالوا لها: آذيتنا بكثرة بكائك، فجعلت تأتي قبور الشهداء في كل أسبوع مرتين. فتقول: ها هنا كان الرسول. وها هنا كان المشركون. وعن الصادق عليه السلام أنها كانت تصلي هناك وتدعو. وأنها ظلت على ذلك حتى ماتت.

وقد تكون الزهراء مثلاً أعلى في الصبر والمكاره، واحتمال الحرمان حتى الجوع والعطش. مرضت يوماً، فدخل عليها الرسول يعودها. فسألها كيف تجدينك يا بنية؟

قالت: أني موجعة، وأنه ليزيدني أني مالي طعام آكله.

قال علي: أن فاطمة استقت بالقربة حتى آثرت في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها[1]، وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها. وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت[2] ثيابها فأصابها من ذلك ضرر شديد.

عبادتها وصدقها:

عن الحسن البصري، ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة، كانت تقوم، حتى تورمت قدماها.

وعن عائشة (رض) ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها (أو قالت أفضل).

---

(١) مجلت: تقرحت.

(٢) دكنت: أسودت.

بلاغتها وحجتها وجرأتها:

من ذلك موقفها من أبي بكر يوم منعها فدكاً.

أقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها. تطأ في ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله(ص) حتى دخلت عليه، وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار، فضرب بينها وبينهم ربطة بيضاء. ثم أنّت أنّه أجهش لها القوم بالبكاء. ثم أمهلت طويلاً حتى سكتوا، فخطبت خطبة طويلة جيدة. قالت في آخرها:

«فاتقوا الله حق تقاته، وأطيعوه في ما أمركم به. فإنما يخشى الله من عباده العلماء. واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره، يبتغي من في السموات والأرض إليه الوسيلة. ونحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصته، ومحل قدسه، ونحن حجته في غيبته، ونحن ورثة أنبيائه».

ثم قالت: أنا فاطمة بنت محمد: أقول عوداً على بدء، وما أقول ذلك سرفاً ولا شططاً فاسمعوا بأسماع واعية، وقلوب داعية.

ثم قالت: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما غنمتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم.

ثم ذكرت كلاماً طويلاً تقول في آخره:

ثم أنكم الآن تزعمون أن لا أرث لي. أفحكم الجاهلية تبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يتقون.

أيه معاشر المسلمين: ابتز أرث أبى. أبي الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك، ولا أرث أبي. لقد جئت آمراً فرياً.

أفعلى عَمْد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: «وورّث سليمان داود» وفي خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ يقول: «رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من أبي يعقوب» وقال: «وأولوا الأرحام أولى ببعض في كتاب الله».

وقال: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين».

وزعمتم أن لا حظوة لي ولا أرث من أبي ولا رحم بيننا.

أأنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه، من أبي وابن عمي؟

ثم رنت بطرفها نحو الأنصار فقالت: يا معشر الفتية وأعضاد الملمة، وحصن الإسلام ما هذه الغمزة في حقي... أما كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «المرء يحفظ في ولده».

ومن كلامها في الدعاء:

اللهم اقنعني بما رزقتني، واسترني وعافني أبداً ما أبقيتني. وأغفر لي وارحمني إذا توفيتني.

اللهم لا تعنّي في طلب ما لم تقدر لي، وما قدرته علي اجعله ميسراً سهلاً.

اللهم كاف عني والدي، وكل من له نعمة علي خير مكافأتك.

اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكلفت لي به. ولا تعذبني وأنا أستغفرك، ولا تحرمني وأنا أسألك.

اللهم ذلل نفسي في نفسي، وألهمني طاعتك والعمل بما يرضيك، والتجنب لما يسخطك يا ارحم الراحمين.

وكانت تلتفت إلى ولديها: الحسن والحسين، بعد وفاة أبيها فتقول لها من قلب حزين أين أبوكما؟ - تريد رسول الله (ص) - الذي كان يكرمكما، ويحملكما مرة بعد مرة. أين أبوكما الذي كان أشد الناس شفقة عليكما. لا يدعكما تمشيان على الأرض. لا أراه يفتح هذا الباب أبداً. ولا يحملكما على عاتقه، كما لم يزل يفعل بكما الله ونسب إليها شعر ما ارتضيته لها.

وقام علي بعد دفنها، فَحَوَّلَ وجهه إلى قبر الرسول ثم قال: السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك وزائرتك النازلة في جوارك، والهانئة في الثرى ببقعتك. والمختار الله لها سرعة اللحاق بك. قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي. إلا أن التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز. فلقد وسدتك في ملحود قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك. بلى وفي كتاب الله لي نعم القبول. أنا لله وأنا إليه راجعون. واختلست الزهراء فما أقبح الخضراء والغبراء.

يا رسول الله، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم. كمد مقيّح، وهم مهيّج.

وإلى الله أشكو، وتنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها.

لكل اجتماع من خليلين فرقة	**وكل الذي دون الفراق قليل**
وان افتقادي واحداً بعد واحد	**دليل على أن لا يدوم خليل**

منزلتها:

قال الربيع للمهدي:

أن شريكاً -يريد القاضي- مخالف لك وأنه فاطمي ممعن.

قال المهدي عليَّ به:

فلما دخل عليه قال له: يا شريك! بلغني أنك فاطمي!

قال له شريك: اعيذك بالله أن تكون غير فاطمي، إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى.

قال: ولكن أعني فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: أفتلعنها يا أمير المؤمنين؟

قال: معاذ الله.

قال: فما تقول فيمن يلعنها؟

قال: عليه لعنة الله.

قال: فالعن هذا - يعني الربيع فإنه يلعنها.

قال الربيع: لا والله ويا أمير المؤمنين ما ألعنها.

قال له شريك: يا ماجن! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين، وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال.

مبراتها:

وقفت كل ما كانت تملكه من بساتين على بني هاشم، وبني عبد المطلب. وجعلت النظر فيها والولاية عليها لعلي بن أبي طالب عليه السلام. ومن بعده للحسن والحسين ثم للأكبر فالأكبر.

كما أوصت لأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكل واحدة منهن باثنتي عشرة أوقية (والأوقية أربعون درهماً) ولنساء بني هاشم بمثل ذلك.

الخلاصة:

لقد كانت فاطمة الزهراء المرأة الفاضلة، والمثل الصالح، يقتدي به في الوفاء والكرم، وفي البلاغة وقوة الحجة وفي الصدق، وفي الجرأة في الحق.

كلام للنساء الشرائف:

فاطمة ابنة رسول الله عليها السلام(*)

قالوا: لما بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر منعها فدكا[1] لاثت[2] خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم[3] مشيتها مشية رسول الله (ص)، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين

(*) نثر الدر للأبي ٤/٨ - ١٥.

(١) فدك: قرية بينها وبين المدينة يومان، أفاءها الله على رسوله، ذكرت فاطمة أن الرسول تصدق عليها بها، فحرمها أبو بكر منها. معجم البلدان: ٢٤٢/٦ شرح نهج البلاغة ٢٤٠/١٦.

(٢) لاثت الخمار تلوثه: أدارته اللسان.

(٣) ما تخرم مشيتها: ما تنقص عنها.

والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، ثم أنَّتْ أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، وارتجَّ المجلس ثم أمهلت هنيَّة[١] حتى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم افتتحت كلامها بحمد الله والثناء عليه (٣٤٧) والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله، ثم قالت:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢]. فإن تعرفوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمي[٣] دون رجالكم، فبلَّغ الرسالة صادعاً بالنِّذارة، بالغا بالرسالة، مائلاً عن سنن المشركين، ضارباً لشبحهم[٤]، يدعو إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة ـ آخذاً بأكظام[٥] المشركين، يُهشِّم الأصنام ويفلق الهام: حتى انهزم الجمع وولّوا الدُّبر، حتَّى تفرَّى[٦] الليل عن صبحه، وأسفر الحقُّ عن محضه[٧]، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق[٨] الشيطان، وتمّت كلمة الإخلاص، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾[٩]، نهزة[١٠] الطامع، ومذقة الشّارب[١١]، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطّرق[١٢]، وتقتاتون القد، أذلة خاسئين، يخطفكم الناس من حولكم، حتَّى أنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وآله بعد اللتيّا واللتي، وبعد أن مُنى ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[١٣]. أو نجم قرن للشيطان، أو ففرت فاغرة للمشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخها[١٤] باخمصه، ويطفئ عادية لهبها بسيفه. أو قالت. ويخمد لهيبها بحده مكدوداً في ذات الله. وأنتم في رفاهة فكهون آمنون وادعون.

---

(١) هنية: بمعنى هنيهة، تصغير هنة، وهي القياس في التصغير: اللسان. هنو.

(٢) سورة التوبة: ١٢٨.

(٣) اشارة إلى مؤاخاة رسول الله ليلى، أنظر هامش ٤ في الصفحة ٥

(٤) الشبح: الوسط. اللسان.

(٥) الأكظام: جمع كظم وهو مخرج النفس: اللسان.

(٦) تفرى: تشقق اللسان.

(٧) المحض: الخالص: القاموس.

(٨) في المخطوطة والمصورة: شقائق. والشقاشق القول فيه كذب: اللسان.

(٩) سورة آل عمران: ١٠٣.

(١٠) نهزة الطامع: اسم للشيء المعرض لك كالغنيمة: اللسان.

(١١) المذقة: الشربة من اللبن المخلوط بالماء: اللسان، وفي القول تشبيه.

(١٢) الطرق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل: اللسان.

(١٣) سورة المائدة: ٦٤.

(١٤) الصماخ: فتحة الأذن الباطنة: اللسان، وفي القول استعارة.

حتى إذا اختار الله لنبيه (ص) دار أنبيائه ظهرت حسكة[١] النفاق، وسمل[٢] جلباب الدين، ونطق كاظم[٣] الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق[٤] المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة ملاحظين: ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمشكم[٥] فألفاكم غضابا: فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب، والجرح لما يندمل. أبماذا زعمتم[٦]: خوف الفتنة؟ ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٧]، فهيهات فيكم، وأنّى بكم، وأنّي تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، زواجره بينةٌ، وشواهده لائحةٌ، وأوامره واضحة، أرغبةً عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[٨] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٩] ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها تشربون حسوا في ارتغاء[١٠]، ونصبر منكم على مثل حزّ المدى وأنتم الآن تزعمون لا إرث لنا ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[١١].

إيها معشر المسلمة المهاجرة: أأبتز إرث أبيه؟ أبى الله في الكتاب يا بن قحافة، أن ترث أباك ولا أرث أبيه. لقد جئت شيئاً فرياً[١٢]، فدونكها مخطومةً مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد (ص)، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[١٣].

ثم تنكفأ على قبر أبيها (ص) فقالت:

---

(١) الحسكة: الشوكة: اللسان.

(٢) سمل الجلباب: بلى ورث: اللسان.

(٣) الكاظم: المبطن للحقد: اللسان.

(٤) الفنيق: الجمل الفحل. اللسان.

(٥) أحمشكم: جعلكم تغضبون. ومن معانيها: ساقكم بنضب. اللسان.

(٦) في نسخة: أبماذا زعمتم، وفي نسخة أخرى: أنازعتم. والتصويب من بلاغات النساء: ١٨.

(٧) سورة التوبة: ٤٩.

(٨) سورة الكهف: ٥٠.

(٩) سورة آل عمران: ٨٥.

(١٠) مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويبطن غيره. اللسان.

(١١) سورة المائدة: ٥٠.

(١٢) الفري: العمل الذي لم يسبق إليه. اللسان.

(١٣) سورة الأنعام: ٦٧.

قد كان بعدك أنباء وهنبثة[١] لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل أهلك فاحضرهم ولا تغب[٢]

وذكر أنها لما فرغت من كلام أبي بكر والمهاجرين عدلت إلى مجلس الأنصار فقالت:

يا معشر الفئة، وأعضاد (٣٤٨) الملة، وحضنة الإسلام: ما هذه الفترة في حقي[٣]؟ والسنة في ظلامتي؟ أما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يحفظ في ولده؟ لسرع[٤] ما أحدثتم! وعجلان ذا إهالة[٥] أتقولون: مات محمد صلى الله عليه وآله؟ فخطبٌ جليل استوسع وعيه، واستنهر[٦] فتقه وفقد راتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصيبته، وخشعت الجبال، وأكدت الآمال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته صلى الله عليه، وتلك نازلةٌ علن بها كتاب الله في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم، تهتف في أسماعكم ولقبله ما حلت بأنبياء الله ورسله صلى الله عليهم.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٧].

إيها بني قيلة[٨]: أأهتضم تراث أبيه وأنتم بمرأى مني ومسمع؟ تلبسكم الدعوة، وتشملكم الحيرة، وفيكم العدد والعدَّة، ولكم الدار، وعندكم الجنن[٩]، وأنتم الألى نخبةُ الله التي انتخب لدينه، وأنصار رسول الله صلى الله عليه، وأهل الإسلام والخيرة التي اختار الله لنا أهل البيت فنابذتم العرب، وناهضتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح نأمركم فتأتمرون، حتى دارت لكم بنا رحا الإسلام، ودرّ حلب الأيام وخضعت نعرة الشرك، وباخت نيران الحرب، وهدأت دعوة الهرج[١٠]، واستوسق[١١] نظام الدين، فأنَّى حرتم بعد البيان،

(١) الهنبثة: الاختلاط في الكلام. اللسان.

(٢) روى في اللسان: هنبث وفيه: فاشهدهم ولا تغب، وفي البيتين إقواء. وفي شرح نهج البلاغة ٢١٢/١٦ أن الشعر لهند بنت أثاثة.

أنظر الخطبة في بلاغات النساء: ١٦ - ١٨، وشرح نهج البلاغة.

(٣) في بلاغات النساء: ٢١ ما هذه الغميزة في حقي، وفي نهج البلاغة: ما هذه الغمرة في حقي.

(٤) لسرع: ما أسرع. اللسان.

(٥) الإهالة: الشحم والزيت. وهو مثل يضرب للشيء يأتي قبل أوانه.

(٦) استنهر: اتسع، تشبيهاً له بجريان النهر وتمكنه. اللسان.

(٧) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٨) قيلة: هي قيلة بنت كاهل، أم الأوس والخزرج. اللسان: قيل.

(٩) الجنن: جمع جنة. وهي الدرع (القاموس).

(١٠) الهرج: الفتنة. اللسان.

(١١) استوسق نظام الدين: اجتمع وتضام. اللسان والمراد قرى.

ونكصتم بعد الإقدام، وأسررتم بعد التبيان، لقوم نكثوا ﴿أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وركنتم إلى الدَّعة، فعجتم عن الدين، ومججتم الذي وعيتم، ولفظتم الذي سوغتم ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[2].

ألا وقد قلت الذي قلته على معرفة مني بالخذلان الذي خامر صدوركم، واستشعرته قلوبكم. ولكن قلته فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وبثّة الصدر، ومعذرة الحجّة فدونكموها فاحتقبوها مدبرة[3] الظهر، ناقبة الخف[4]، باقية العار موسومةً بشنار الأبد، موصولةً بنار الله الموقدة، التي تطلّع على الأفئدة. فبعين الله ما تفعلون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[5]، وأنا ابنة نذيرٍ لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنا عاملون. وانتظروا إنا منتظرون.

قالوا: لما مرضت فاطمة عليها السلام دخل النساء عليها وقلن: كيف أصبحت من علّتك يا ابنة رسول الله؟ قالت:

أصبحت والله عائفةً لدنياكم، قاليةً لرجالكم: لفظتهم بعد أن عجمتهم وشنئتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحد، وخطل الرأي ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[6].

لا جرم لقد قلّدتهم ربقتها، وشنّت عليهم غارتها[7] فجدعاً وعقرا وبعدا للقوم الظالمين.

ويحهم. أين زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ومهبط الروح الأمين، والطّبن[8] بأمر الدنيا والدّين ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[9].

ما الذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا والله نكير سيفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته وتنمُّره في ذات الله، وتالله لو تكافوا عن زمامٍ نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه لاعتقله،

---

(١) سورة التوبة: ١٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٨.

(٣) مدبرة الظهر: بها دبرة في ظهرها أي قرحة اللسان.

(٤) نقب الخف: رق: اللسان.

(٥) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٦) سورة المائدة ٨٠، وفي المصورة: وبئس.

(٧) في المصورة: شننت عليهم عارها.

(٨) الطبن: العالم الفطن اللسان.

(٩) سورة الزمر: ١٥. وفي المصورة: والطين، بدون نقط.

ولسار بهم سجحاً[١] لا يكلم خشاشه[٢] ولا يتعتع (٣٤٩) راكبة، ولأوردهم منهلاً روياً فضفاضاً، تطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً، وقد تحيّز[٣] بهم الرّى، غير مستحل[٤] منه بطائل، إلاّ بغمر[٥] الناهل، أو دعةِ سورة الساغب[٦]، ولفتحت عليهم بركات من السماء، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون.

ألا هلمّ فاسمع. وما عشت أراك الدهر عجباً وإن تعجب[٧] فعجب لحادث إلى أي ملجأ لجئوا واستندوا[٨]، وبأيّ عروةٍ تمسكوا، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾[٩].

استبدلوا والله الذنابى[١٠] بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[١١] ويحهم ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١٢].

أما لعمر إلهك لقد لقحت فنظرةً ريث ما تنتج، ثم احتلبوا طلاع القعب[١٣] دماً عبيطاً، وذعافاً ممقراً[١٤]، فهنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن أنفسكم أنفساً، وطامنوا[١٥] للفتنة جاشاً، وأبشروا بسيف صارم، وبهرجٍ شامل[١٦]، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً فيا حسرةً بكم، وقد عمّيت عليكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[١٧]. ❖

---

(١) سجحا: سيراً سهلاً لبناً. اللسان.

(٢) الخشاش: الجانب القاموس.

(٣) التحيز: سوق الإبل برفق اللسان: والمراد: سار بهم في هوادة إلى منهلهم.

(٤) المصورة: منحل.

(٥) المصورة: تغمز.

(٦) في بلاغات النساء: ٢٤، أورد عنه سورة الساغب، والمراد: تسكين حدة السغب.

(٧) في الأصول. وإن تعجب قد أو فقد.

(٨) في نسخة أخرى: وأسندوا.

(٩) سورة الحج: ١٣.

(١٠) الذنابى: أربع ريشات للطائر بعد الخوافي. اللسان. والمراد استبدال الأدنى بالأقوى.

(١١) سورة البقرة: ١٢.

(١٢) سورة يونس: ٣٥.

(١٣) القعب: القدح الضخم الجافي. وطلاعه: ملؤه اللسان: قعب وطلع.

(١٤) الممقر: المر. والمسموم. اللسان.

(١٥) طأمنوا: اخفضوا. اللسان.

(١٦) الهرج: من معانيه القتل. اللسان. وهو المراد هنا.

(١٧) سورة هود: ٢٨. والخطبة في بلاغات النساء: ٢٣ وما بعدها.

بيت فاطمة

الشيخ محمد جواد مغنية

دخل رسول الله (ص) بخمس عشرة امرأة أولهن خديجة بنت خويلد. ثم سوده بنت زمعه. ثم أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية. ثم أن عبد الله عائشة بنت أبي بكر. حفصة بنت عمر. زينب بنت خزيمة. زينب بنت جحش. أم حبيب رملة بنت أبي سفيان. ميمونة بنت الحارث. زينب بنت عنيس. جويه بنت الحارث. صفية بنت حي بن أخطب. خوله بنت حكيم وهي التي وهبت نفسها للنبي. مارية القبطية. ريحانة الخندقية. وتزوج غير هؤلاء ولم يدخل بهن فارق بعضهن بالطلاق وبعضهن بالموت واجتمع عنده في آن واحد تسع زوجات في تسعة بيوت حول المسجد في المدينة ومدة حياته الزوجية وإقامته مع النساء ٢٧ حولا تزوج ابن ٢٥ وقبض وله ٦٣ وبقي بعد خديجة بدون نساء سنة واحدة وعلى الرغم من طول هذه المدة وكثرة الزوجات لم يكن له من الولد ما يكون للرجل من الزوجة الواحدة التي لم تبلغ مدة إقامته معها إلى هذا الحد حتى قال العاص بن وائل السهمي قد انقطع ولده فهو ابتر فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ فعقمت أمهات المؤمنين ولم يعقب الرسول إلا من خديجة ومارية فوهب الله له من خديجة ذكرين القاسم وعبد الله وهما الطيب والطاهر وماتا صغيرين قبل النبوة وقيل لم يعش كل منهما أكثر من سبع ليال. وأربع إناث كبرن ودخلن في الإسلام وزوجهن الرسول: زينب. أم كلثوم. رقية. فاطمة. كانت زينب مع أبي العاص بن الربيع وتوفيت سنة ثمان من الهجرة. وتزوج عثمان رقية وأم كلثوم وتوفيت الأولى في اثنتين من الهجرة والثانية في سنة ثلاث. وتزوجت فاطمة ابن عم الرسول علي بن أبي طالب (ع) وبقيت بعد أبيها ٧٢ يوماً على بعض الروايات. أما مارية فولدت له على الكبر إبراهيم ومات في حياة أبيه وله من العمر سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام فلم تحمل نساء الرسول غير خديجة ومارية ولم يبق له من الولد سوى فاطمة فهي العزاء لنفسه والسلوة لقلبه ومن ذريتها انتشر نور النبوة حسبا ونسباً لذلك بلغت فاطمة من قلب الرسول مكاناً علياً فإن ما يتركه موت الولد من الأسى والحزن في قلب الوالد ينقلب حبا لأخيه على الأخص بعد أن بلغ الرسول سن الكبر وعقمت أمهات المؤمنين سنين متتابعة وانقطع أمله من الولد بنات وبنين ففاطمة حبة قلب الرسول وسواد عينه وأول ولده وآخرهم كان يشمها ويقول كلما اشتقت إلى الجنة شممت ابنتي فاطمة آن ريح الولد من ريح الجنة. رأته عائشة يقبلها فقالت أتحبها يا رسول الله قال أما والله لو علمت حبي لها لازددت لها حباً. وقال فاطمة بضعة مني يرضيني ما يرضيها ويغضبني ما يغضبها. وإذا رجع من السفر فيكون أول بيت يدخله بيت فاطمة وإذا أراد السفر فآخر بيت يخرج منه بيتها وأدبها الرسول بآداب الله وعلمها الدين وأسراره وسلك بها سبيل النبوة والإيمان حتى طبعها بطابعه الخاص.

قالت أم سلمة فوض إلي النبي أمر ابنته فاطمة وكنت أؤدبها فأجدها والله أعذب مني وأعرف بالأشياء كلها. وما بلغت فاطمة مبلغ الزواج حتى تطاولت إليها الأعناق واشرأبت نحوها النفوس ومن الذي لا تكون فاطمة أمنيته ومثله الأعلى وهي وحيدة محمد وأشبه الناس خلقاً وخلقا ومنطقاً بأبيها. قال جابر ما رأيت فاطمة تمشي إلا ذكرت رسول الله فخطبها رؤساء العرب وصناديد قريش وكان الرسول يجيب بكلمة تسكت الجميع فلا يستطيعون المعاودة. ليس لي من الأمر شيء أمرها بيد الله. وقد اختارها الله سبحانه لعلي واختاره لها فليس لها كفو سواه وليس له كفؤ سواها. نزل الوحي على الرسول يعلمه أن الله زوج فاطمة من علي فأنس النبي بهذه البشارة وطابت لها نفسه والخالق أعرف بخلقه وأعلم بشؤونهم في اختبار الصلاح والخير كله فامتثل الرسول أمر ربه سبحانه وأسكنها مع بعلها في بيت ملاصق لبيته الذي كان ينفرد فيه بنفسه وعاش أبو السبطين مع البتول سعيدين قريري العين قائمين بالواجبات الزوجية ومستحباتها بعيدين عن الشقاء والكدر لا يعرفان سوى الهناء والسرور والنبي (ص) مغتبط بسعادة وحيدته ثلج الصدر لصفو حياتها مع ابن عمه ووزيره. ولكن لم تزل في نفس الرسول حاجة لم تقض وغاية لم تحصل ربما كدرت عليه عيشه وأشعر بها المسلمون رجالاً ونساء يتحدثون فيما بينهم متأسفين أن لا يكون لنبيهم الكريم الذي خلق الكون لأجله خليفة يحيى ذكره ويكون به العزاء والسلوة من بعده. ولما مضى على زواج فاطمة تسعة أشهر جاء البشير إلى النبي مهنئاً بالحسن ومن بعده بأشهر بالحسين عليهما السلام فنهض النبي إلى بيت فاطمة ليرى نعمة ربه وبضعة كبده فرأى فيهما العوض المبارك والبدل العظيم والخلف الذي يمثله ففاضت غبطته لله حمداً وغمر الابتهاج قلب الرسول وحل الأمل فيه محل البأس. امتلأ ذلك الفراغ الذي أحدثه فقد أولاده وفرح المؤمنون لفرح الرسول وتحققت أمنيتهم التي كانوا يرجونها من قبل. وعندما ولد الحسين (ع) قال للقابلة وهي صفية بنت عبد المطلب يا عمة هلمي يا بني قالت يا رسول الله لم ننظفه بعد قال أنت تنظفينه الله نظفه وطهره فأخذه وقبّلَ ما بين عينيه ووضع فاه في فيه. فبعد الحسن والحسين أصبح النبي يجد حاجته وأضاء عاطفته القلبية عاطفة القلب للولد في بيت فاطمة(ع) ولم يمض عليه يوم في المدينة إلا وبدخله فإذا دخل وجلس وضع الحسن على فخذه الأيمن والحسين على فخذه الأيسر يقبل هذا مرة وذاك أخرى وأجلس علياً وفاطمة بين يديه يعلمهم الرسول علم ما كان وعلم ما يكون ويبشرهم بعظم منزلتهم عند الله سبحانه ويخبرهم بما ستفعله أمته بهم من بعده ولا يلتذ في طعام إلا في بيت فاطمة مع ابنته وبعلها وبنيها وكما كانت تضمهم مائدة واحدة كان يجمعهم فراش واحد وحديث الكساء مشهور. ويحمل الحسن والحسين على كتفيه فيعترضه أبوهما علي والأصحاب ليحملاهما عنه فيأبي ويجد في نفسه لذة عظمى وارتياحاً كبيراً. خطب يوماً في المسجد والمسلمون من حوله مصغون لحديثه العذب الذي يملأ النفوس نورا إذ حانت من النبي التفاتة فرأت الحسن والحسين يمشيان ويعثران بأذيالها قاصدين جدهما نبي الرحمة والناس في غفلة قد تعلقت أرواحهم بالنبي وحديثه لا يشعرون بشيء سواه فلم يشعروا إلا والنبي يقطع كلامه وينزل عن المنبر وقدْ هَالتهم هذه المفاجأة فنظروا فوجدوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحمل الحسن والحسين على صدره وهو يقبلهما ثم صعد المنبر وأجلسهما بين يديه وتلا قوله تعالى: ﴿

أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ وقال رأيت ولديَّ هذين يعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي. وتسابق الأصحاب إلى خدمتهما وتسارعوا إلى إكرامهما تقربا إلى الله ورسوله. ولما مرض النبي مرض الموت وقع الحسن والحسين على الرسول وهما يصيحان ويبكيان فأراد علي أن ينحيهما فأفاق ثم قال يا علي دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودان مني. وبالغ النبي بالوصية بأهل بيته وأبدى الاهتمام بشأنهم وحث أمته على المحافظة عليهم ولم يترك عليا وهو زوج البتول وأبو السبطين بدون أن يوصيه بالرفق بأهل بيته ولم يعتمد على حنان الأبوة وعطف الزوج على زوجته وشريكه حياته وعلي بالمكان الذي هو فيه من الرقة والرحمة على كل ذي روح فكيف بأهل بيته وأحب الناس إليه. قال له يا علي أن فاطمة بضعة مني ونور عيني وثمرة فؤادي وهي أول من يلحقني فأحسن إليها بعدي وأما الحسن والحسين فهما أبناي وريحانتاي وسيدا شباب أهل الجنة فليكرما عليك كسمعك وبصرك. فأهل بيت الرسول هم أهل بيت فاطمة الذين أعلن لأمته بفضلهم وجاهر بعظيم منزلتهم عند الله وأمر أمته بالتمسك بحبلهم وأن التمسك بهم يوازي التمسك بكتاب الله سبحانه وقد شبههم بسفينة نوح وجعلهم باب النجاة إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة التي بهذا المضمون كل ذلك للاهتمام بشأنهم والتأكيد لحفظ حقوقهم وقد كرما على علي كسمعه وبصره ورفع منزلتهما على سائر أولاده وأوجب لهما الطاعة عليهم وأمرهم بالخضوع والإتباع لأوامرهما وكان يبعث أولاده إلى الحرب ويلقيهم في طرق المخاوف ويحافظ على الحسنين حتى عاتبه على ذلك ولده محمد فقال له الإمام أنت ولدي وهما ولدا رسول الله وأمانته وجاء للإمام ظروف سمن وعسل من مال الخراج فصادف أن نزل على الحسين (ع) ضيف فاضطر أن يقدم له من ذاك السمن والعسل وتعهد الإمام الظروف حسب عادته فوجد فيها نقصاً ففحص فعلم بما كان من أمر الحسين فغاظه ذلك ورفع يده ليضرب ولده فتذكر أنه أمانة لرسول وريحانته فقال له لو لم أرَ جدك يقبل فاك لضربته فقال له الحسين إن لي بها سهما كما للمسلمين والذي أخذته من أصل سهمي فقال أبوه أن لك سهماً ولكن ليس لك أن تتصرف قبل سوال من المسلمين وتأكل قبل أن يأكل غيرك وكما تدل هذه النادرة على عمله بوصية الرسول ومحافظته على أمانته فقد دلت على عدل الإمام وقوة إيمانه وشدة تمسكه بدين الله تعالى وجاءت جماعة تزعم أنها من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبذت وصية الرسول ولم تحفظه في قرابته فهدمت بيته الذي من دخله كان آمنا وحطمت سفينة نوح التي من ركبها نجا ومن تخلف عنها هوى فماتت قرة عين الرسول وثمرة فؤاده حزينة وقتل ابن عمه ووزيره وهو قائم بين يدي ربه ولم يتوف ريحانته الحسن حتى تقيأ كبده من السم ولا يوم كيوم الحسين فقد أنست رزيته الرزايا السالفة وهونت الرزايا الآتية حاولت هذه الفئة أن يمنع عباد الله من سكنى البيت الطاهر وتصدهم عن الركوب في تلك السفينة وقد انعكس الأمر ودارت الدائرة عليهم فخربوا بيوتهم بأيديهم ونحروا أنفسهم بخناجرهم وما ازداد آل الرسول إلا عظمة وشرفا وبينهم إلا علوا وارتفاعا وكانت نتيجة عملهم أن أصبح الراكب في تلك السفينة على بينة من أمره وأمان على نفسه من الغرق والهلاك بعد أن بانت الحقيقة وقضى أهل البيت (ع) ما بين مسموم ومنحور في سبيل الحق والدين. ❖

فدك وسيدة نساء العالمين (ع)

د. حمود عبد المجيد بهية[*]

إن كل خدمة تبذل في سبيل أهل البيت (ع) وخصوصاً الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء (ع) التي هي محور هذا البحث هي توفيق الهي... وكل من تكلم عنها فوقع في مضايق فقد وقع أجره على الله تعالى، لأنها (ع) أحد طرق القرب من الله تعالى أن لم نقل بأنه أفضل وأسرع طرق الوصول لأن أهل البيت (ع) قالوا عن مقام الزهراء (ع) (نحن حجج الله على الخلق وفاطمة حجة الله علينا)[١].

وحتى أهل البيت كانوا يستنجدون بأمهم الزهراء في الملمات فقد روي أن الإمام الباقر(ع) أصيب بالحمى فتوسل بجدته الصديقة الزهراء (ع) وقد علا صوته وهو يقول في فراش المرض (يا فاطمة.. يا ابنة رسول الله...)[٢] بحيث سمع صوته من خارج الدار.

وكذلك يقول مولانا الحجة بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف (وفي ابنة رسول الله (ص) لي أسوة حسنة وسيردي الجاهل رداءة)[٣].

وبناء عليه فإني العبد الفقير الحقير أجد من الصعوبة بمكان أن أتحدث عن مكانة وقدرات وملكات هذه الحورية الأرضية، والانسية السماوية فأخال نفسي في لجة البحر لا أدري من أين أبدأ ولا إلى أين أنتهي.

وإذا بيّ اقرأ (فاحمدوا الله الذي بعظمته ونوره ابتغى من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة، فنحن وسيلته في خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجة غيبه، وورثة أنبيائه)[٤].

وإذا بوجداني يصرخ سيدتي أنتم ورثة الأنبياء؟

فلماذا إذن مُنعتم ومُنعنا من فدك؟!

(*) كلية الفقه - جامعة الكوفة.

(١) العاملي، معاصر/الانتصار، ٧: ٢٣٧، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢. الناشر: دار السيرة - بيروت - لبنان.

(٢) الكليني، ت: ٣٢٩ هـ/الكافي، ٨: ١٠٩، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٣٦٢ ش، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.

(٣) الطوسي، ت: ٤٠٦ هـ/الغيبة، ٢٨٦، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، الشيخ علي أحمد ناصح، الطبعة: الاولى، سنة الطبع: شعبان ١٤١١، المطبعة: بهمن، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة.

(٤) محمد بن جرير الطبري ت: ق ٤/دلائل الإمامة، ١١٤، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٣، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

ولا زلنا ومع مرور أربعة عشر قرناً من الزمن، لا نزال نعيش مأساة فدك الأليمة... بينما نتطلع إلى ظهور آخر وارث لفدك، المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فكان موضوع البحث ـ **فدك وسيدة نساء العالمين (ع).**

ما فدك:

فدك: قرية في الحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة وهي أرض يهودية، كان يسكنها طائفة من اليهود حتى السنة السابعة للهجرة حيث قذف الله بالرعب في قلوب أهليها فصالحوا رسول الله (ص) على النصف من فدك.

ويعود تاريخ فدك إلى ١٥٠٠ سنة قبل الإسلام، وسميت بهذا الاسم بسبب سكن أرضها فدك بن هام.

وروى أن رسول الله (ص) صالحهم عليها كلها، فصارت ملكا لرسول الله (ص) خاصة، لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، فلما نزل قوله تعالى ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[١] دعا رسول الله (ص) فاطمة فأعطاها فدك[٢]، وكان فيها بضعة عشر نخلة غرسها رسول الله بيده الشريفة[٣].

وقد كان قسم من أراضي فدك أراضي زراعية مثمرة، وباقي أرضها كان على شكل بساتين تمر، تتوسطها عين ماء فائرة[٤].

قال ابن أبي الحديد: (وقلت لمتكلم من متكلمي الإمامية يعرف بعلي بن تقي من بلدة النيل[٥]. وهل كانت فدك إلا نخلا يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير؟ فقال لي ليس الأمر كذلك بل كانت جليلة جدا وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل)[٦].

وقد كانت محاصيل فدك كثيرة جداً، حتى أن متوسط حاصلها السنوي كان يعادل سبعين إلى مئة وعشرين ألف قطعة ذهبية[٧].

---

(١) الإسراء ٢٦.

(٢) ينظر جلال الدين السيوطي، ٩١١هـ/الدر المنثور، ٤: ١٧٧، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

(٣) ينظر التبريزي الأنصاري، ت: ١٣١٠هـ ق/اللمعة البيضاء، ٨٣٨، تحقيق: السيد هاشم الميلاني، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ٢١ رمضان ١٤١٨، المطبعة: مؤسسة الهادي، الناشر: دفتر نشر الهادي ـ قم ـ إيران.

(٤) ينظر الحموي، ت: ٦٢٦هـ/معجم البلدان، ٤: ٢٣٨، سنة الطبع: ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩ م، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

(٥) قرية تابعة لمدينة الحلة.

(٦) ابن أبي الحديد ت ٦٥٦هـ/شرح نهج البلاغة، ١٦: ٢٣٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سنة الطبع: ١٩٦٢ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٧) ينظر العلامة المجلسي، ت: ١١١١هـ/بحار الأنوار، ١٧: ٣٧٩، تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، الطبعة: الثالثة المصححة، سنة الطبع: ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

وكانت فدك بيد الزهراء (ع) في عهد أبيها وبعد وفاته (ص) وكانت وضعت عليها وكيلا عنها فانتزعها الخليفة الأول وطرد وكيلها[١] ولما تولى عمر الخلافة ردها إلى ورثة رسول الله (ص) فلما ولي عثمان بن عفان أقطعها مروان بن الحكم، فجعل مروان ثلثها لعبد الملك وثلثها لعبد العزيز، فجعل عبد الملك ثلثه ثلثا للوليد. وثلثا لسليمان. وجعل عبد العزيز ثلثه لعمر بن عبد العزيز، فلما صار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان أقطع مروان ثلثها، وعمر بن عثمان ثلثا، ويزيد ابنه ثلثها الآخر. ثم ولي مروان فجعل ثلثه لعمر بن عبد العزيز[٢].

فقد كانوا يتداولونها حتى خلصت لمروان بن الحكم أيام ملكه ثم صفت لعمر بن عبد العزيز، فلما ولي الأمر ردها لولد فاطمة (ع)، ثم انتزعها يزيد ابن عبد الملك من أولاد فاطمة (ع) وظلت في أيدي بني مروان حتى انقرضت دولتهم.

فلما تقلد الخلافة أبو العباس السفاح ردها على عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي عليهما السلام ثم قبضها أبو جعفر المنصور في خلافته من بني الحسن، وردها المهدي بن المنصور على الفاطميين، ثم انتزعها موسى بن المهدي من أيديهم. ثم ردها المأمون عليهم سنة مائتين وعشرة ولما بويع المتوكل انتزعها منهم وأقطعها عبد الله بن عمر البازيار من أهل طبرستان.

وردها المعتضد، وحازها المكتفي، وقيل إن المقتدر ردها عليهم.

الحكمة من منع الزهراء (ع) فدك:

كانت فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) ذات نفوذ قوي وتأثير عظيم في سياسة الدولة الإسلامية عقب انتقال رسول الله (ص) إلى الرفيق الأعلى[٣]، وبالتالي كان يمكن لها أن تغير مسير الأحداث باتجاه أخر مستندةً في ذلك على قدسيتها المستقرة في نفوس الناس، كونها بضعة الرسول وأم أبيها ومن آذاها فقد آذا الله جل جلاله ورسوله (ص)، ومن هنا كان لابد للطرف الثاني الطامع للسلطة من ضربة استباقية، وتجسدت هذه الضربة في نزع قدسية الزهراء (ع) من النفوس، وذلك عن طريق تكذيبها ومن ثم تكذيب زوجها (ع)، وبالتالي تسير الأحداث وفقاً لما سبق التخطيط له، ويكون الناس مع الأقوى والذي بيده السلطة والمال (لان الناس على دين ملوكها)[٤].

---

(١) ينظر الشيخ المفيد، ت: ٤١٣هـ/المقنعة، ٢٨٩، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٠، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

(٢) ينظر العيني، ت: ٨٥٥هـ/عمدة القاري، ١٥: ٢٥، المطبعة: بيروت - دار إحياء التراث العربي، الناشر: دار إحياء التراث العربي

(٣) عمر رضا كحالة، معاصر/المرأة في القديم والحديث، ٦ ١٨٥، ط مؤسسة الرسالة بيروت.

(٤) ابن خلدون، ت: ٨٠٨هـ/تاريخ ابن خلدون، ١: ٢٩٧، الطبعة: الرابعة، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

فهذا علي بن تقي في حوار مع ابن أبي الحديد يقول: (ما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا أن لا يتقوى علي بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة)[١].

وقال ابن أبي الحديد: (سألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال نعم قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدكا وهي عنده صادقة فتبسم ثم قال: كلاما لطيفا مستحسنا مع ناموسه وحرمته وقلة دعابته قال لو أعطاها اليوم فدكا بمجرد دعواها لجاءت إليه غدا وادعت لزوجها الخلافة وزحزحته عن مقامه ولم يكن يمكنه الاعتذار بشئ لأنه يكون قد سجل على نفسه بأنها صادقة فيما تدعي)[٢].

إذن الحكمة من منع الزهراء حقها هي الخلافة ومما يؤكد دعوانا في أن الخلافة كانت في الهدف الأساسي ما جاء في الإمامة والسياسة من قول ابن قتيبة.. (وخرج علي كرم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله (ص) على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله لقد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر، ما عدلنا به فقال علي كرم الله وجهه: أفكنت أدع رسول الله (ص) في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم)[٣].

وقد بقيت فدك وعلى مر السنين تمثل السلطة والقوة فهي ليست مجرد بستان نخيل، فقد (حدها علي (ع) حد منها جبل أحد، وحد منها عريش مصر، وحد منها سيف البحر، وحد منها دومة الجندل يعني الجوف)[٤]، وفي حوار بين الإمام الكاظم (ع) وهارون العباسي حول استرداد فدك أعلن الإمام (ع) إن حدود فدك الحقيقية قد خرجت عن تلك القرية الصغيرة في الحجاز لتستوعب كل العالم الإسلامي في حدوده الرسمية[٥] وقد أرعب هذا الإعلان هارون الرشيد وراح يخطط لتصفية الإمام (ع) بشتى الطرق.

---

(١) ابن أبي الحديد ت ٦٥٦هـ/شرح نهج البلاغة، ١٦: ٢٣٦. تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم. سنة الطبع: ١٩٦٢ م. الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) ابن أبي الحديد ت ٦٥٦هـ/شرح نهج البلاغة، ١٦: ٢٨٤.

(٣) ابن قتيبة الدينوري. ت: ٢٧٦هـ/الإمامة والسياسة، ١: ١٩. تحقيق: طه محمد الزيني. الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع

(٤) الطريحي، ت: ١٠٨٥هـ/مجمع البحرين، ٣: ٢٧١. تحقيق: السيد أحمد الحسيني. الطبعة: الثانية. سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٣٦٧ ش. الناشر: مكتب النشر الثقافة الإسلامية

(٥) ينظر الكليني. ت: ٣٢٩هـ/الكافي. ١: ٥٤٣؛ تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري. الطبعة: الخامسة. سنة الطبع: ١٣٦٣ ش. المطبعة: حيدري. الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران
وابن طاووس. ت: ٦٦٤هـ/الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف. ٢٥٢. الطبعة: الأولى. سنة الطبع: ١٣٩٩. المطبعة: الخيام — قم ومحسن الأمين. ت: ١٣٧١هـ/أعيان الشيعة. ٢: ٨. تحقيق: تحقيق وتخريج: حسن الأمين. الناشر: دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان

فَفدك تعبير ثاني عن الخلافة الإسلامية، والزهراء جعلت فدك مقدمة للوصول إلى الخلافة. فأرادت استرداد الخلافة عن طريق استرداد فدك.

ومما يدل على ذلك تصريحات الزهراء (ع) في خطبتها بحق علي (ع) وكفائته وجهاده فهي القائلة في خطبتها التي ألقتها في مسجد رسول الله: (فأنقذكم الله بأبي محمد بعد بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومرده أهل الكتاب، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله أو نجم قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه[1] في لهواتها، فلا ينكفي حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه. مكدودا في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريبا من رسول الله، سيد أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً كادحاً، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عن النزال، وتفرون من القتال)[2].

ففي حياة الرسول الأكرم (ص) كانت السيرة هي التأكيد على أن الإمام علي بن أبي طالب (ع) هو الخليفة من بعد النبي والحوادث في التأكيد على ذلك كثيرة جداً وكان الذين في قلوبهم مرض يتآمرون على خليفة النبي بالاختيال المادي والمعنوي، ولكن تواصل الرسول في دفاع عن الوصي كان يدفع هذه المؤامرة حتى إذا ما استشهد (ص) اغتصبت الخلافة فجاءت المطالبة بفدك والخطبة الفدكية لكي تواصل من خلالها الزهراء النهج المحمدي في الدفاع عن الخط العلوي، والتأكيد على أن الخليفة الحق هو الإمام علي (ع).

إذن فالزهراء (ع) حينما كانت تدافع عن حقها بفدك، فإنها تدافع عن أصل الولاية، ولاية أمير المؤمنين (ع) وإمامته أساساً، ومن هنا، فقد منعوا عنها فدك واخرجوا مزارعيها وعمالها، تضعيفاً منهم لأهل البيت (ع) وإعلاناً لصراعهم ضد ولاية أمير المؤمنين (ع).

ولذلك لم تقصد سيدة نساء العالمين بيت أبي بكر للمطالبة بفدك، وإنما يممت شطر المسجد النبوى، الذى كان قاعدة الاسلام مع ثلة من المؤمنات. وألقت خطبتها الغراء، هذه الخطبة التي تعد من جملة كراماتها ومعاجزها، (تلك الخطبة الغراء الساطعة عن سيدة النساء صلوات الله عليها التي تحير من العجب منها والإعجاب بها أحلام الفصحاء والبلغاء)[3].

---

(١) أي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

(٢) الشريف المرتضى، ت: ٤٣٦هـ/الشافي في الإمامة، ٤: ٧٣. تحقيق: الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٠. المطبعة: مؤسسة إسماعيليان – قم. الناشر: مؤسسة إسماعيليان - قم

(٣) العلامة المجلسي، ت: ١١١١هـ/بحار الأنوار، ٢٩: ٢٤٧. تحقيق: الشيخ عبد الزهراء العلوي. سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م. الناشر: دار الرضا - بيروت - لبنان

الروايات المتحدثة عن مطالبة الزهراء بفدك:

أن لمن الغريب والعجيب حقاً أن نسمع ونقرأ في الروايات الصحيحة ما يفيد بأن تأتي الزهراء (ع) إلى مسجد رسول الله (ص) تطالب أبي بكر بفدك، وتأكد له أن آباها نحلها إياها، فينكر ذلك ويكذب قولها، ويقول لها: هذه دعوى لا بينة عليها، مع إجماع الأمة على طهارة الزهراء (ع) وعدالتها، فتقول له: (إن لم يثبت عندك أنها نحلة فأنا أستحقها ميراثا)[١]، فيدعي أنه سمع النبي (ص) يقول: (ما تركناه صدقة إن الأنبياء لا تورث)[٢]. ثم يقول لها أبو بكر مع علمه بعظم خطرها في الشرف، وطهارتها من كل دنس، وكونها في مرتبة من لا يتهم، ومنزلة من لا يجوز عليه الكذب: ائتيني بأحمر أو أسود يشهد لك بها وخذيها ـ يعني فدك ـ، فأحضرت إليه أمير المؤمنين والإمامين الحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين وأم أيمن، فلم يقبل شهادتهم وأعلها[٣]، وزعم أنه لا يقبل شهادة الزوج لزوجته، ولا الولد لوالده، وقال: هذه امرأة واحدة ـ يعني أم أيمن ـ، هذا مع إجماع المخالف والمؤالف على أن النبي قال: (علي مع الحق، والحق مع علي، اللهم أدر الحق معه حيثما دار)[٤]، وقوله (ص): (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[٥]، وقوله (ص) في أم أيمن: (يرحمك الله، أنت على خير وإلى خير، وما أرضاني عنك)[٦]، فرد شهادة الجميع مع تميزهم عن الناس.

أقول: إن كانت فاطمة (ع) جاءت مطالبة بميراث أبيها، فلا حاجة بها إلى الشهود، لأنه من المعلوم لكل من له من الفقه نصيب أن المستحق للتركة لا يفتقر إلى الشاهد إلا إذا لم يعرف صحة نسبه واعتزائه إلى الدارج، وهذا مستبعد جداً فمن غير المعقول بأنهم شكوا في نسب فاطمة الزهراء (ع) وكونها ابنة النبي (ص)، هذا أولاً.

---

(١) ينظر الشيخ المفيد، ت: ٤١٣ هـ/حديث نحن معاشر الأنبياء، ٤. الطبعة: الثانية. سنة الطبع: ١٤١٤ ـ ١٩٩٣م. الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

(٢) محيى الدين النووي، ت: ٦٧٦هـ/المجموع، ١٩: ٣٧٦. الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) ينظر الشيخ المفيد ت: ٤١٣هـ/المقنعة، ٢٨٩. تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي. الطبعة: الثانية. سنة الطبع: ١٤١٠ هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة. و: الخطيب البغدادي. ت: ٤٦٣هـ، تاريخ بغداد، ١٤: ٣٢٢. تحقيق: دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى. سنة الطبع: ١٤١٧ ـ ١٩٩٧ م. الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

(٤) الشيخ المفيد، ت: ٤١٣هـ/المسائل الصاغانية، ١٠٩. تحقيق: السيد محمد القاضي. الطبعة: الثانية. سنة الطبع: ١٤١٤ ـ ١٩٩٣ م. الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

(٥) أحمد المرتضى ت: ٨٤٠ هـ/شرح الأزهار، ٤: ٥٢٢. الناشر: مكتبة غمضان ـ صنعاء ـ اليمن.

(٦) الشيخ الطوسي، ت: ٤٦٠ هـ/الأمالي، ٥٦٥، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٤، الناشر: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ـ قم.

أما ثانياً: فإن كانت (ع) تطلب فدكا وتدعي ان آباها نحلها إياها احتاجت إلى إقامة البينة، ولم يبق لما رواه أبو بكر من قوله: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث)[1] معنى، وهذا واضح جدا ولا يحتاج إلى كلام.

ثم لم تمض الأيام حتى وصل مال البحرين، فلما ترك بين يدي أبا بكر (قال أبو بكر من كان له عند رسول الله (ص) دين أو عدة فليأتنا، فتقدم إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال له: قال لي النبي (ص): لو جاء مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا قال فقال له: تقدم فخذ بعددها، فأخذ ثلاث حفنات)[2] من أموال المسلمين بمجرد الدعوى من غير بينة ولا شهادة!

سبحان الله؟! فما الفرق بين هذه وتلك.

الروايات التي استند عليها الخليفة في تأميم تركة رسول الله (ص) ومناقشتها

الرواية الأولى:

ما جاء في بعض الروايات من أن أبا بكر بكى لما كلمته فاطمة الزهراء (ع)، ثم قال: يا بنت رسول الله، والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما، وإنه قال: إن الأنبياء لا يورثون[3].

وما ورد في الخطبة من قوله: (إني سمعت رسول الله (ص) يقول: إنا معاشر الأنبياء لا نورث ذهبا ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً لكنما نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنة)[4].

الرواية الثانية: (إنا لا نورث ما تركناه صدقة)[5] وهذا التعبير تناقلته عدة أخبار عن الخليفة نقلاً عن رسول الله (ص)[6].

---

(١) ابن أبي الحديد، ت: ٦٥٦هـ/شرح نهج البلاغة، ١٦ : ٢١٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سنة الطبع: ١٩٦٢م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه. والشوكاني، ت: ١٢٥٥هـ /نيل الأوطار، ٦ : ١٩٦، سنة الطبع: ١٩٧٣، الناشر: دار الجيل - بيروت - لبنان.

(٢) احمد بن حنبل، ت: ٢٤١هـ/، مسند احمد، ٣ : ٣٠٧، الناشر: دار صادر - بيروت - لبنان.

(٣) ينظر ابن أبي الحديد، ت: ٦٥٦هـ/شرح نهج البلاغة، ١٦ : ٢١٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سنة الطبع: ١٩٦٢ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه. والشوكاني، ت: ١٢٥٥هـ/نيل الأوطار، ٦ : ١٩٦، سنة الطبع: ١٩٧٣، الناشر: دار الجيل - بيروت - لبنان.

(٤) المصدر السابق، ١٦ : ٢١٤.

(٥) ابن عبد البر، ت: ٤٦٣هـ/التمهيد، ٨ : ١٧٥، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، سنة الطبع: ١٣٨٧، المطبعة: المغرب - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية.

(٦) ينظر محيى الدين النووي، ت: ٦٧٦هـ/المجموع، ١٣ : ٢٧٦، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. والحطاب الرعيني، ت: ٩٤٥هـ/مواهب الجليل، ٥ : ١٢، تحقيق: ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: الشيخ زكريا عميرات، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٦ - ١٩٩٥ م، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

مناقشة الروايات:

أولاً: إذا تأملنا في الروايات الصادرة وفقاً للتعبير الأول نلاحظ أن الرواية تحتمل أكثر من مفهوم فهي تحتمل أن تكون بيانا لعدم تشريع توريث الأنبياء كما فهمه الخليفة، وتحتمل أن تكون كناية عن معنى وقع في نفس رسول الله (ص) وأراد بيانه، وهو تعظيم مقام النبوة وتجليل الأنبياء، وليس من مظهر للجلالة الروحية والعظمة الإلهية أجلى دلالة وأكثر أثراً مادياً من الزهد في الدنيا، ولذائذها الزائفة، ومتعها الفانية.

فلماذا لا يجوز لنا افتراض أن النبي (ص) أراد أن يشير إلى أن الأنبياء أناس ملائكيون وبشر من الطراز الأسمى الذي لا تشوبه الأنانيات الأرضية والأهواء البشرية؟ لأن طبيعتهم قد اشتقت من عناصر السماء - بمعناها الرمزي - المتدفقة بالخير لا من مواد هذا العالم الأرضي، فهم أبدا ودائما منابع الخير، والطالعون بالنور، والمورثون للأيمان والحكمة، والمركزون للسلطان الإلهي في الأرض، وليسوا مصادر للثروة بمعناها المصطلح عليه في عرف الناس، ولا بالساعين وراء نفائسها[1].

إذن لا خصوصية للاحتمال الأول، والاحتمال الثاني وارد وموضوعي وينسجم مع روح التربوية للرسالة المحمدية، فيسقط الاحتمال الذي بنا عليه الخليفة، (وإذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال)[2] وكما هو ثابت في علم الأصول.

وعليه فقوله (ص): (إنا معاشر الأنبياء لا نورث ذهبا ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا دارا...الخ) كناية عن هذا المعنى؟ لأن توريثهم لهذه الأشياء إنما يكون بحيازتهم لها، وتركهم إياها بعد موتهم وهم منصرفون عنها، لا يحسبون لها حساباً ولا يقيمون لها وزناً ليحصلوا على شيء منها[3].

وهذا اللفظ لا يعني بالضرورة نفي حكم التوريث وإنما يعني عدم وجود التركة، فلو قلنا: إن الفقراء لا يورثون، لا يعني أنهم يختصون عن سائر الناس بحكم يقتضي بعدم جريان أحكام الإرث على تركاتهم، وإنما يعني انهم لا يورثون لعدم وجود ما يورثونه.

فالتوريث يعني جعل شيء ميراثا، فالمورث من يكون سببا لانتقال المال من الميت إلى وريثه، وهذا الانتقال يتوقف على أمرين:

---

(١) ينظر السيد محمد باقر الصدر، ت: ١٤٠١هـ/فدك في التاريخ، ١٥٣، تحقيق: عبد الجبار شرارة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥ - ١٩٩٤ م، الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

(٢) الكتاب: الشيخ المفيد، ت: ٤١٣هـ/المسح على الرجلين، ٦، تحقيق: الشيخ مهدي نجف، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ - ١٩٩٣ م، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

(٣) ينظر السيد محمد باقر الصدر، ت: ١٤٠١هـ/فدك في التاريخ، ١٥٣، تحقيق: عبد الجبار شرارة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥ - ١٩٩٤ م، الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

الأول: وجود التركة. وهذا يحصل بسبب الميت نفسه.

الثاني: القانون الذي يجعل للوارث حصة من مال الميت.

وهذا يحصل بسبب المشرع الذي وضع قانون الوراثة سواء أكان نبيا يشرع بوحي من السماء أو فرداً أسندت إليه الناس الصلاحيات التشريعية أو هيئة تقوم بذلك.

إذن فكل من الميت والمشرع له دور من إيجاد التوارث، ولكن المورث الحقيقي الذي يستحق التعبير عنه بهذا اللفظ بحق هو الميت الذي أوجد مادة الارث. لأنه هو الذي هيأ للإرث شرطه الأخير بما خلفه من ثروة، وأما المشرع فليس مورثا لأنه لم يجعل بوضعه للقانون ميراثا معينا بالفعل، بل شرع نظاماً يقتضي بأن الميت إذا كان قد ملك شيئاً في حياته وخلفه بعد موته فهو لورثته، وهذا وحده لا يكفي لإيجاد مال موروث في الخارج. بل يتوقف على أن يكون الميت قد أصاب شيئاً من المال وخلفه بعده، فالواضع التشريعي نظير من قام بصناعة القنبلة مثلاً فمن قام باستخدامها للقتل يكون هو القاتل وليس من قام بصناعتها يكون قاتل. فالمتسبب في الشيء هو الفاعل الأخير.

وعليه وفقاً لهذه القاعدة يكون مفهوم قوله عليه الصلاة والسلام أن الأنبياء لا يورثون، أي أنهم لا يسعون للحصول على الأموال ليجعلونها تركة من بعدهم، فهم لا يهيئون للإرث شرطه الأخير.

وإذن فليس معنى قوله (ص): أن الأنبياء لا يورثون، عدم التوريث التشريعي، ونفي الحكم بالإرث، لأن الحكم بالإرث ليس توريثاً حقيقياً، بل التوريث الحقيقي تهيئة نفس التركة وهذا هو المنفي في الحديث.

والظاهر أن هذا المعنى كان حاضر في ذهن الخليفة حيث قدم لحديث النبي (ص) بالقول (والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً)[1] وهذا القول يعبر بكل وضوح عن نفي التركة، وعدم ترك رسول الله (ص) شيئاً من المال، وليس نفي تشريع التوريث.

فإذا صح للخليفة أن يستعمل تلك الجملة في هذا المعنى، فليصح ان تدل صيغة الحديث عليه أيضاً ويكون هو المقصود منها.

ثانياً: لو سلمنا بصحة الروايات السابقة الذكر وسلمنا بان المراد منها نفي تشريع الإرث بالنسبة للنبي محمد (ص)، فهل يعقل بأن الزهراء (ع) كانت تجهل ذلك فتطالب بإرثها من أبيها(ص) حيث تقول في خطبتها (وأنتم الآن تزعمون: أن لا أرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟!! فلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني

---

(١) ابن أبي الحديد، ت: ٦٥٦هـ/شرح نهج البلاغة، ١٦: ٢١٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سنة الطبع: ١٩٦٢ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه، والشوكاني، ت: ١٢٥٥هـ /نيل الأوطار، ٦: ١٩٦، سنة الطبع: ١٩٧٣، الناشر: دار الجيل - بيروت - لبنان

ابنته أيها المسلمون أأغلب على أرثه. يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً؟، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم[١].

إلا أن يقال بأن النبي (ص) لم يُعلم ابنته التي هي أعز الخلق عنده، والذي يلزم من صيانتها، ويتعين عليه من حفظها، أضعاف ما يلزمه لغيرها، بأنه لاحق لها من ميراثه، ولا نصيب لها في تركته، ويأمرها أن تلزم بيتها، ولا تخرج للمطالبة بما ليس لها، والمخاصمة في أمر ليس لها، وقد جرت عادة الحكماء في تخصيص الأهل والأقرباء بالإرشاد والتعليم، والتأديب والتهذيب، وحسن النظر بهم بالتنبيه، والحرص عليهم بالتعريف والتوقيف، والاجتهاد في إبداعهم معالم الدين، وتميزهم عن العالمين! هذا مع قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٣]، وقول النبي(ص): (بعثت إلى أهل بيتي خاصة، وإلى الناس عامة)[٤].

فمن ذا الذي يشك في أن فاطمة (ع) كانت أقرب الخلق إلى رسول الله (ص)، وأعظمهم منزلة عنده، وأجلهم قدرا لديه، وأنه كان في كل يوم يغدو إليها لمشاهدتها، والسؤال عن خبرها، والمراعاة لأمرها، ويروح كذلك إليها ويتوفر على الدعاء لها، ويبالغ في الإشفاق عليها، وما خرج قط في بعض غزواته وأسفاره حتى ولج بيتها ليودعها، ولا قدم من سفره إلا لقوه بولديها، فحملهما على صدره وتوجه بهما إليها.

فهل يجوز في عقل، أو يتصور في فهم، أن يكون النبي (ص) أغفل إعلام أم أبيها (ع) بما يجب لها وعليها، وأهمل تعريفها بأنه لاحظ لها في تركته، والتقدم إليها بلزوم بيتها بترك الاعتراض بما لم يجعله الله عز وجل لها؟

اللهم إلا أن نقول: إنه أوصاها فخالفت، وأمرها بترك الطلب فطلبت وعاندت، وهذا محال على من شهد القرآن بطهارتها.

وعلى كل حال قد يقال أنه (ص) أعلمها فنسيت، واعترضها الشك بعد علمها فطلبت!

---

(١) ابن طيفور، ت ٣٨٠هـ/بلاغات النساء، ١٦، الناشر: مكتبة بصيرتي. قم المقدسة وعباس القمي، ت: ١٣٥٩هـ/بيت الأحزان، ١٤٤، الوفاة: ١٣٥٩الطبعة: الجديدة الأولى. سنة الطبع: ١٤١٢، المطبعة: أمير. الناشر: دار الحكمة - قم - إيران.

(٢) الشعراء ٢١٤.

(٣) التحريم ٦.

(٤) ابن شهر آشوب، ت: ٥٨٨هـ/مناقب آل أبي طالب، ١: ٢٠٥. تحقيق: تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، سنة الطبع: ١٣٧٦ - ١٩٥٦ م. المطبعة: الحيدرية - النجف الأشرف. الناشر: المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف.

ولكن هذا الكلام غير موافق للعادات، حيث أنه لم تجر العادة بنسيان ما هذا سبيله، لأنه (ص) وكما يقولون قال ما مفاده: (لا ميراث لك مني، وإنا معاشر الأنبياء لا نورث، وما تركناه صدقة)، فإن هذا الحكم مختصاً ومعلقا بها، فكيف يصح في العادات أن تنسى شيئاً يخصها فرض العلم به، ويصدق حاجتها إليه حتى يذهب عنها علمه، ثم تذهب للمطالبة به، فيقال لها: إن أباك قال: إنه لا يورث، ومع ذلك لا تذكر مع وصيته إن كان وصاها حتى تحاجهم بقول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[1]، وقوله تعالى حكاية عن زكريا: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[2]، ولا تزال باكية شاكية إلى أن قبضت، وأوصت أن لا يصلي ظالمها وأصحابه عليها، ولا يعرفوا قبرها؟!

وأخيراً لو سلمنا انها (ع) قد نست فهل يمكن أن يعقل أن يعترض اللبس على أمير المؤمنين (ع) حتى يحضر فيشهد لها مما ليس لها، مع قول النبي: (أنا مدينة الحكمة وعلي بن أبي طالب بابها، ولن تؤتى المدينة إلا من قبل الباب، وكذب من زعم أنه يحبني ويبغض عليا. معاشر الناس، والذي بعثني بالنبوة واصطفاني على جميع البرية، ما نصبت عليا علما لأمتي في الأرض حتى نوه الله باسمه في سماواته، وأوجب ولايته على ملائكته)[3].

وقوله (ص): (يا علي أنا مدينه العلم وأنت بابها فمن أتى من الباب وصل، يا علي أنت بابي الذي أوتى منه وأنا باب الله فمن آتاني من سواك لم يصل إلى، ومن آتى الله من سواي لم يصل إلى الله)[4] ومثل مضمون ذلك متواتر وغيره كثير مذكور في كتب المذاهب الإسلامية[5].

ثالثاً: لو سلما بصحة ما تفرد بنقله أبو بكر عن رسول الله (ص) (إن الأنبياء لا يورثون)[6] وعلى أثره منع الزهراء ارثها فكذب قولها، ولم تصدق في دعواها، وردت خائبة إلى بيتها، ثم تأتي عائشة بنت أبي بكر تطلب الحجرة التي أسكنها بها رسول الله (ص)، وتزعم أنها تستحقها، فيصدق قولها، وتقبل دعواها، ولا تطالب ببينة عليها، وتسلم هذه

(١) النمل ١٦.

(٢) مريم ٦.

(٣) الصدوق. ت: ٣٨١هـ/الأمالي، ١٨٨، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم. الطبعة: الأولى. سنة الطبع: ١٤١٧، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة

(٤) الحر العاملي. ت: ١١٠٤هـ/وسائل الشيعة، ١٨: ٥٢، تحقيق: تحقيق وتصحيح وتذييل: الشيخ محمد الرازي/تعليق: الشيخ أبي الحسن الشعراني، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

(٥) ينظر ابن البطريق، ت: ٦٠٠هـ/العمدة، ٢٨٥، سنة الطبع: جمادي الأولى ١٤٠٧، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

(٦) ينظر ابن أبي الحديد، ت: ٦٥٦هـ/شرح نهج البلاغة. ١٦: ٢١٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. سنة الطبع: ١٩٦٢ م. الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه. والشوكاني. ت: ١٢٥٥هـ /نيل الأوطار. ٦: ١٩٦، سنة الطبع: ١٩٧٣، الناشر: دار الجيل - بيروت - لبنان.

الحجرة إليها، فتتصرف فيها، وتضرب عند رأس النبي (ص) بالمعاول حتى تدفن أبو بكر وعمر فيها ثم تمنع الحسن ابن رسول الله بعد موته منها، ومن أن يقربوا سريره إليها، وتقول: (لا تدخلوا بيتي من لا أحبه)[١]، وإنما أتوا به ليتبرك بوداع جده، فصدته عنه، فعلى أي وجه دُفعت هذه الحجرة إليها، وأمضى حكمها، فهل حكم عدم توريث النبي (ص) خاص ببنته (ع) وغير شامل لزوجته عائشة، سبحان الله؟! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢].

فإن قلنا إنه كان ذلك لأن النبي نحلها إياها فكيف لم تطالب بالبينة على صحة نحلتها كما طولبت بمثل ذلك فاطمة صلوات الله عليها؟

وكيف صار قول عائشة بنت أبي بكر مصدقا، وقول فاطمة ابنة رسول الله مكذباً مردوداً؟

وأي عذر لمن جعل عائشة أزكى من فاطمة صلى الله عليها وقد نزل القرآن بتزكية فاطمة في آية الطهارة وغيرها.

وإن كانت الحجرة دفعت إليها ميراثاً، فكيف استحقت هذه الزوجة من ميراثه ولم تستحق ابنته منه حظاً ولا نصيباً؟

وكيف لم يقل هذا الحاكم لابنته عائشة نظير ما قال لبنت رسول الله: إن النبي لا يورث، وما تركه صدقة!

ثم أن عائشة واحدة من تسع أزواج خلفهن النبي، فلها تسع الثمن بلا خلاف، ولو اعتبر مقدار ذلك من الحجرة مع ضيقها لم يكن بمقدار ما يدفن أباها، وكان بحكم الميراث للحسن (ع) منها أضعاف بما ورثه من أمه فاطمة ومن أبيه أمير المؤمنين عليهما السلام المنتقل إليه بحق الزوجية من الزهراء (ع)!.

الزهراء سيدة نساء العالمين:

روى في الجمع بين الصحاح الست أن رسول الله (ص) قال فاطمة بضعة مني وسيدة نساء العالمين ثم قال أحمد سيدة نساء أهل الجنة[٣] وروي بطريق أخر أيضا انه (ص) أنه قال ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء أهل الجنة وروي بطريق أخر أيضاً

---

(١) قطب الدين الراوندي، ت: ٥٧٣هـ/الخرائج والجرائح، ١: ٢٤٢، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي (ع)/بإشراف السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، الطبعة: الأولى، كاملة محققة، سنة الطبع: ذي الحجة ١٤٠٩، المطبعة: العلمية – قم، الناشر: مؤسسة الإمام المهدي ـ قم المقدسة، والحر العاملي، ت: ١١٠٤هـ /وسائل الشيعة، ١: ٣٥، تحقيق: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤، المطبعة: مهر – قم، الناشر: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث بقم المشرفة.

(٢) يونس ٣٥، الصافات ١٥٤، القلم ٣٦.

(٣) ينظر أحمد بن حنبل، ت: ٢٤١هـ/مسند أحمد، ٣: ٨٠، الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.

قال(ص) لها ألا ترضين إن تكوني سيدة نساء المؤمنين[١] أو سيده نساء هذه الآمة[٢] وكذلك رواه البخاري في صحيحه[٣] وكذلك رواه المزي[٤].

وكل من ذكر الحديث فهم منه آنها (ع) سيدة نساء العالمين دون الرجال، ونحن هنا سوف نثبت إن شاء الله تعالى إنها سيدة الرجال والنساء من العالمين ما خلا رسول الله (ص) واله وسلم والإمام علي بن أبي طالب (ع) معتمدين في الإثبات على القرآن الكريم وهذا ما يتميز به بحثنا عن غيره ومن الله التسديد.

أقول في سياق إثبات المدعى نحتاج إلى أن نرجع إلى القرآن الكريم لنثبت مقدمة مهمة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٥]

نلاحظ في هذه الآية الكريم عشر مجموعات كل مجموعة لها صفة مشتركة عطف بعضها إلى بعض بالواو، ومن المعلوم ان التعاطف يفيد قيام التجمع لكل صفة على حدة، إذ لو كانت كل تلك الصفات لمجموعة واحدة لكان اللفظ بغير تكرار الواو، أي لكان التعاطف بين الذكور والإناث ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ... الخ.

ولذلك نلاحظ غياب التعاطف في سورة التوبة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦] لأن هذه الصفات تابعة لمجموعة واحدة وهي مجموعة المؤمنين وقد أفصحت نهاية الآية عنهم.

كذلك نلاحظ أن آية الأحزاب قد رتبت فيها الصفات ترتيب تنازلي ودليله نهاية الآية حيث ما آعد الله لهم من مغفرة والأجر العظيم أي أن المسلمين هم أعلى درجة من المسلمات

---

(١) ينظر البخاري، ت: ٢٥٦هـ/صحيح البخاري، ٤: ١٨٣، سنة الطبع: ١٤٠١ ـ ١٩٨١ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

(٢) ينظر جعفر كاشف الغطاء، ت: ١٢٢٨هـ/كشف الغطاء (ط. ق)، ١: ١٨، الناشر: انتشارات مهدوي ـ أصفهان، ملاحظات: طبعة حجرية.

(٣) ينظر البخاري، ت: ٢٥٦هـ/صحيح البخاري، ٧: ١٤٢، سنة الطبع: ١٤٠١ ـ ١٩٨١ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٤) ينظر المزي، ت: ٧٤٢هـ/تهذيب الكمال، ٣٥: ٢٤٩، تحقيق: تحقيق وضبط وتعليق: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٣ ـ ١٩٩٢ م، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

(٥) الاحزاب ٣٥.

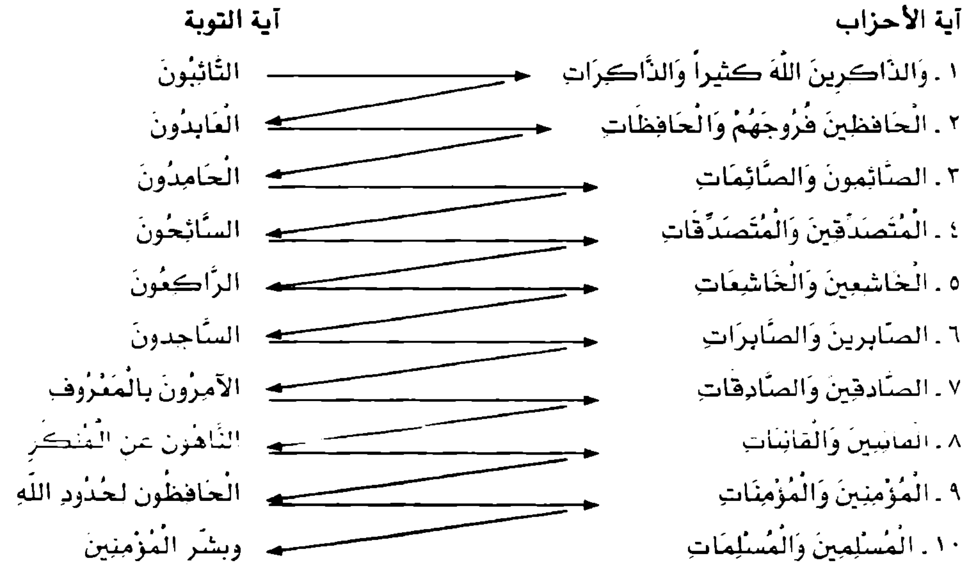
(٦) التوبة ١١٢.

وهؤلاء جميعاً أعلى درجة من المؤمنين... وهكذا إلى الذاكرين، لأنه من المعلوم أنه عز وجل واسع المغفرة فهو يقول أن المسلمين وليس هؤلاء فقط بل المسلمات وليس هؤلاء فقط بل المؤمنين وليس هذا فقط بل المؤمنات... وهكذا إلى آخر القائمة أعد الله لهم مغفرة وأجر عظيم.

ولا يمكن عكس الترتيب إذ لو بدأ بالأدنى درجة لما احتاج لذكر من هو خير منه ويكون ما يناله من الأجر تحصيل حاصل وهو أمر سيكون مخالفاً لو ذكره للبلاغة المعلومة.

بينما يكون الترتيب في صفات مجموعة آية التوبة تصاعدياً، وذلك لأن غياب التعاطف جعلها مجموعة واحدة هي مجموعة المؤمنين في قوله تعالى وبشر المؤمنين في أخر الآية. ومن المعلوم أن صفات المجموعة الواحدة تتصاعد، إذ لو ذكر أعلى صفة لهم لاندرجت تحتها الصفات الأدنى منها ولما احتاج إلى ذكرها.

ولنرتب الآن ألفاظ آية الأحزاب تصاعدياً، أي من آخرها إلى أولها لنلاحظ التقابل مع آية التوبة، علماً بأنه يمكن فعل العكس أيضاً.



ومن هذا الترتيب نلاحظ انه في نهاية آية التوبة ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن المجموعة التاسعة من آية الأحزاب ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لم يتصفوا بهذه الصفة حتى حافظوا على حدود الله، وبالتالي فان هذه المجموعة لم تصل إلى مرحلة البشرى حتى مرت بكل المراحل التسع السابقة لها - أي المتدنية مقاماً عنها - ولم تصل إلى مرحلة الإيمان حتى حققت الصفة التاسعة، وعليه فان مجموعة المسلمين بقيت غير معلنة دون سائر المجموعات حيث لا يوجد فعل معين ينقل مجموعة المؤمنين إلى مجموعة المسلمين.

أذن فدرجة المسلمين تتحصل من قبل الحافظون لحدود الله بعد القيام بعمل معين على تمامه واجتيازهم مرحلة أخرى من التقوى، إنها درجة عالية مخصصة للقادة ومرتبة المسلمين خاصة بهذه المجموعة، وهي تعني التسليم التام لله تعالى، ومن الواضح لم يتصف بهذه الصفة سوى المعصومين (ع).

ان هذا الترتيب سيحل ولأول مرة الإشكال الحاصل في العلاقة بين الايمان والإسلام، فقد زُعِم أن الإيمان يتقدم على الإسلام ويعلو عليه في آيات معينة، بينما يكون الإسلام أعلى منه بكثير في آيات أخر كما في قوله تعالى في شأن الأعراب:

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[1].

بينما كانت مجموعة المسلمين متقدمة على المؤمنين في آية الأحزاب المار ذكرها.

ولحل هذا الإشكال نقول ان الإسلام اسم مشتق من التسليم، فإن كان التسليم للمجموعة الدينية والدخول فيها فهو مرتبة أولى للدخول إلى الدين وإن كان التسليم لله فهو غاية الدين وهدفه، وكان أعلى مرتبة فيه، إذن فالإسلام مرحلتان، مرحلة أولى أو ابتدائية يدخل بها المرء إلى الدين ومرحلة نهائية يُسلم فيها وجهه لله تعالى وحده وهي أعلى مرحلة الايمان.

وبين المرحلتين الأولى والأخيرة تسعة مراتب وهي المزبورة في القائمة اليمنى لأية الأحزاب ليصل إلى الإيمان ويحتاج إلى مرتبة أخرى ليبلغ الإسلام في مرتبته النهائية - العصمة ..

ولذلك قال الله عز وجل ﴿ يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾. فأمامهم تسع مراتب حتى يدخل الايمان في قلوبهم ليقولوا آمنا، وعليهم أن يقولوا أسلمنا دخولاً في المرتبة الأولى، فالإسلام النهائي وصف الله تعالى به النخبة من عباده الذين اصطفاهم وهي مرتبة القادة ولذلك ابتدأت آية الأحزاب بهم عند الترتيب التنازلي وتوقفت آية التوبة عندهم في الترتيب التصاعدي.

ولذلك حكي عن النبي (ص) أنه من المسلمين وأنه تعالى أمره أن يكون أول من أسلم وكذلك جاء هذا الوصف للأنبياء (ع)، ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[2].

الآيات التي تؤكد أن مرتبة المسلمين هي مرتبة الأنبياء والرسل

﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[3].

---

(١) الحجرات ١٤.

(٢) الأنعام ١٦٣.

(٣) يوسف ١٠١.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3].

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[4]

إسلامهم جاء بعد الإيمان.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾[5].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[6].

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[7].

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[8].

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[9].

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[10].

---

(١) البقرة ١٣٢.

(٢) آل عمران ٦٧.

(٣) الذاريات ٣٦.

(٤) المائدة ١١١.

(٥) النمل ٤٢.

(٦) الأحقاف ١٥.

(٧) البقرة ١٣٢.

(٨) البقرة ١٣٣.

(٩) البقرة ١٣٦.

(١٠) آل عمران ٥٢.

وكذلك سورة آل العمران آية ٢٠ و ٦٤ و ٨٠ و ٨٣ و ٨٤ و ١٠٢ وسورة المائدة ١١١ وسورة هود ١٤ وسورة الأنبياء ١٠٨ وسورة النمل ٨١ وسورة العنكبوت ٤٦ وسورة الروم ٥٣ وسورة الجن ١٤. وسورة الأنعام ١٦٣ وسورة يونس ٧٢ وسورة الحج ٧٨ وسورة النمل ٩١ وسورة الزمر ١٢ وسورة فصلت ٣٣ وسورة الأحقاف ١٥ وسورة الذاريات ٣٦ وسورة القلم ٣٥ وسورة البقرة ١١٢ و ١٣١ وسورة المائدة ٤٤ وسورة الأنعام ١٤ وسورة الحج ٣٤ وسورة النمل ٤٤ وسورة الزمر ٥٤ وسورة غافر ٦٦ وسورة الجن ١٤.

ولا يفوتنا هنا قوله عز وجل ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] فهو (ص) إله الأول من القادة في شريعته ودينه وفيه إشارة إلى وجود سلسلة من المسلمين من بعده حازوا هذه الدرجة.

والآن لنعود لآية الأحزاب المذكورة آنفاً فقد لاحظنا ترتيب المجموعات من حيث هي مجموعات بصفات محددة لكل منها المسلمون، المؤمنون، القانتون، ... الخ وهي عشر مجموعات من حيث أسمائها المشتركة، وهي مع إناث كل مجموعة تصبح عشرون مجموعة، ولما كان العطف بالواو قد استمر هو ذاته بين الذكور والإناث، والإناث والذكور، فقد اظهر ذلك أن تعاطف المجموعات مرتب بنفس الترتيب ومتفاضل بنفس الطريقة، أي كما تتقدم مجموعة المسلمين على مجموعة المؤمنين والأخيرة على القانتين... وهكذا، فإن مجموعة المسلمين تتقدم على مجموعة المسلمات ومجموعة المسلمات تتقدم على مجموعة الذكور من مجموعة المؤمنين وهؤلاء أفضل من المؤمنات، والمؤمنات أفضل من القانتين الذكور... وهكذا يستمر التفاضل بين الذكور والإناث، والإناث والذكور على التناوب، وصورته النهائية هي نفس صورة الآية ونفس الترتيب الذي هو فيه.

إذن فأفضلية الذكور على الإناث خاص بكل مجموعة على حدة ومعنى ذلك أن المسلمة من مجموعة المسلمات أفضل من تسع ذكور جاؤوا بعدها بالترتيب وهم المؤمن والحافظ والقانت والصادق والصابر والخاشع والمتصدق والصائم والحافظ والذاكر كذلك تسع نساء من هذه المجموعات، وليس أفضل منها إلا الرجل الذي هو من مجموعتها ذاتها، مجموعة المسلمين.

إذن فالمجموعات العشرون فيها رجل أفضل من تسع عشرة شخصاً ممن هم دونه من المجموعات إذا افترضنا أن كل مجموعة فيها واحد فقط، وكذلك فيها امرأة هي أفضل من ثمان عشرة شخصاً أي باستثناء ذلك الرجل ونفسها.

---

(١) الأنعام ١٦٣.

إن آية الأحزاب تكشف لنا في الواقع مرجع الدرجة الواحدة التي تقدم بها الذكور على الإناث، فهذا هو معناه، وهذه الآية إحدى مواضع تلك الدرجة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

إذن فليس صحيح قول من زعم أن الذكور متقدمين على الإناث إطلاقاً فالقرآن الكريم لم يقل بتقدم الذكور على الإناث ولا قال فضلنا الذكور على الإناث أو الرجال على النساء، بل قال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2]، ومن الملاحظ أن اللام هنا هي لام التملك، إذن فالرجال يملكون درجة على النساء، وهذه الدرجة تبقى نفسها كفارق ثابت بين أية مجموعتين.

إذن وتأسيساً على ما ذكرنا فإن قول الرسول (ص) (الزهراء بضعة مني وهي سيدة نساء العالمين) يفهم منه انه (ص) عممه بقوله نساء العالمين أي كل النساء وبالتالي ادخل كل المفضولين أي كل مجموعات آية الأحزاب أي المجموعات التسع عشرة رجالها ونسائها. فليس أفضل منها إلا رجال مجموعتها فقط، ومن المعلوم ان ليس في مجموعتها أحد إلا أبوها وبضعة رجال لما يقتضيه الجمع إذ لا يعقل أن تكون المجموعة فارغة والله تعالى يقول ﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾[3] فيدل ذلك على وجود ما يحقق الجمع.

ولا بد أن يكون بعلها من رجال مجموعتها، إذ لا يصح تزوجها منه مع الحفاظ على الدرجة، والناتج الذي لا بد منه هو: إن الثلاثة (ع) هم المجموعة المتقدمة الأولى مجموعة المسلمين وهي المجموعة التي أطلق اسمها قرآنياً على الرسل والأنبياء فقط وكما سبق ذكره من آيات الذكر الحكيم.

وبناء على ما ذكر فقد تم حل مشكلة تقدم الرجال على النساء حيث أن هذا الأمر ليس على إطلاقه وإنما مقيد بالمجموعات التي ذكرتها آية الأحزاب فالرجل متقدم على المرأة إن كانت من مجموعته أو من مجموعة أخرى متدنية عن مجموعته وحسب تسلسل المجموعات في آية الأحزاب الآنفة الذكر.

فإن قيل من أين جاء تقديم الرجل على المرأة في المجموعة الواحدة مع العدل المطلق له سبحانه، قلنا جاء من أصل الخلقة وتحقق المشيئة، والإرادة والرضا، فقد خلق الله عز وجل الرجل مقدماً على المرأة.

---

(١) البقرة ٢٢٨.

(٢) البقرة ٢٢٨.

(٣) الأحزاب ٣٨.

بيد أنه سبحانه وتعالى قدم الرجل وأناط به المزيد من التكاليف وإذ أخر المرأة خفف عنها، وهذا ظاهر لا يحتاج إلى كثير أمثلة وشرح.

فإن قيل: إن الله تعالى قد قال في القيمومة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾[1]؟

نقول: إن معنى القيمومة هو تكليف إضافي للقيام بشؤون معينة أوقعه الله تعالى على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض في أصل الخلقة وبما أنفقوا وهذا يعني أن المشيئة قررت هذا التفضيل.

فإن قيل إن القيمومة تسقط إذا لم ينفق الرجل.

نقول: أن الإنفاق وحده ليس كاف لرفع القيمومة فالقيمومة مرتبطة بالتفضيل الأصلي للمجموعات قبل الإنفاق وقوله تعالى ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[2] شاهد على ما نقول.

نعم تسقط القيمومة إذا كان الرجل والمرأة من مجموعتين مختلفتين مثل المرأة من المسلمين والرجل من القانتين، وبهذا تكون هي أفضل منه ولا قيمومة له في هذه الحالة إلا بالإنفاق فإذا لم ينفق سقطت القيمومة.

ولكن إذا كانا من مجموعة واحدة ولم ينفق بقيت قيموميته ثابتة بأصل التفضيل ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ لأنه مقدم عليها في المجموعة، لأن القيمومة ارتبطت بسببين هما: التفضيل والإنفاق.

لذا نرى النبي (ص) قال: (إن الله قد أعطى فاطمة في الدنيا ذلك: أنا أبوها وما أحد من العالمين مثلي، وعلي بعلها **ولولا علي ما كان لفاطمة كفوا أبدا**، وأعطاها الحسن والحسين وما للعالمين مثلهما سيدا شباب أسباط الأنبياء وسيدا أهل الجنة)[3].

إن قول النبي (ص) لا كفء لفاطمة لولا علي يدل على أن المجموعة فارغة إلا من أشخاص لا يحلون لها وليس فيهم من هو حل لها إلا علي.

فمهما أردنا تكثير تلك المجموعة لم تزد يومئذ عن ثلاث: الزهراء وأبوها وابن عمها لأنه (ص) يقرر عدم وجود كفء لها سوى ابن عمها علي (ع).

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) النساء: ٣٤.

(٣) محمد بن علي الطبري، ت: ٥٢٥ ن/بشارة المصطفى، ٢٢٠، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٠، المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي، كشف الغمة: ٤٧٢/١، تفسير القمي: ٣٣٧/٢، روضة الواعظين: ١٤٦/١.

وهنا يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) (إن الله عز وجل زوجني فاطمة وقد كان خطبها أبو بكر وعمر فزوجني الله من فوق سبع سماواته فقال رسول الله (ص) هنيئاً لك يا علي فإن الله عز وجل قد زوجك فاطمة سيدة نساء أهل الجنة **وهي بضعة مني فقلت يا رسول الله أولست منك قال بلى يا علي وأنت مني وأنا منك كيميني من شمالي لا** أستغني عنك في الدنيا والآخرة)[1].

أذن فقول النبي (ص) للزهراء (ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة)[2] يريد منه تحقيق أفضليتها على الخلائق أجمعين ما خلا أبيها وزوجها، وكما أثبتنا، والله العالم.

ومع كل هذا ثم تخرج فاطمة الزهراء البتول سيدة نساء العالمين، ابنة خاتم النبيين، تندب أباها وتستغيث بأمته، ومن هداهم إلى شريعته، في منع أبي بكر من ظلمها فلا يساعدها أحد، ولا يتكلم معها بشر، مع قرب العهد برسول الله (ص)، ومع ما يدخل القلوب من الرقة في مثل هذا الفعل إذا ورد من مثلها.

فاستحقت الأمة أن تحرم من قبرها ومن زيارته عن قرب إلى أن تصلح هذه الأمة من شأنها، فتكون مستحقة لهذه النعمة، نسأل الله تعالى أن يعجل لنا بصلاح أمرنا.

وأخيراً إن كانت فدك من حق أبي بكر الخاص فلماذا لم يعطها سيدة النساء وبنت سيد الأنبياء إكراماً لمقام أبيها (ص) وإذا كان من حق المسلمين فلماذا لم يؤخذ رأيهم أولا ثم يعطيها لسيدة نساء العالمين.

وعلى كل حال فقد رد كلامها وكلام بعلها (ع) فيما يخص فدك والى الله المشتكى وعليه المعول والحمد لله رب العالمين وصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.



(١) الميرجهاني، ت: ١٣٨٨/مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة)، ٣: ١٦٨، سنة الطبع: ١٣٨٨، ملاحظات: مستدرك نهج البلاغة الموسوم بمصباح البلاغة في مشكوة الصياغة/نسخة مخطوطة.

(٢) أحمد بن حنبل، ت: ٢٤١/مسند أحمد، ٦: ٢٨٢، الناشر: دار صادر – بيروت – لبنان، والبخاري، ت: ٢٥٦هـ/صحيح البخاري، ٧: ١٤٢، سنة الطبع: ١٤٠١ – ١٩٨١ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

ببلوغرافيا السيرة الفاطمية
مطالعة في الدراسات الإسلامية حول فاطمة الزهراء(ع)

أ. محمد نوري
ترجمة: محمد عبد الرزاق

ببلوغرافيا السيرة الفاطمية ويراد بها معرفة المراجع المدونة في حياة السيدة الزهراء(ع)، وللمراجع أهميتها في ثقافة المجتمعات، وتعد المراجع مرآة للثقافة المعاصرة في كل مجتمع. ويتجاوز عدد مصادر السيرة الفاطمية الثلاثمائة عنوان من بينها مجموعة كبيرة تتعلق بحقل المراجع كدائرة المعارف والفهارس، وهذا الجانب هو المعني ببحثنا الحالي.

وتنشأ أهمية دراسة المراجع الفاطمية من عدة متغيرات، أهمها عنصر الاتصاف بالتخصص الميداني في ذلك المجال، وقد يتوهم البعض بان التاريخ الفاطمي بات مقتصراً على مجالس العزاء والرثاء، وعلى الرغم من تصنيف ومدخلية هذه المظاهر ضمن المفهوم العام للتاريخ الفاطمي، لكن البعد الأهم في القضية هو البحث الاختصاصي في هذا الباب، وله أيضاً مستويات ودرجات في داخله، يبدأ من مساحات الفن والإبداع الإنساني كالشعر والرسم وحتى أعمق التحليلات التاريخية والدراسات النفسية والاجتماعية. ويدخل تحت هذا المفهوم التخصصي مبحث تدوين المراجع أيضاً، على أن أبرز تلك المصاديق وأهمها يبقى مختصاً بمشاريع دائرة المعارف.

في كل الأحوال تبقى الرسالة الفاطمية مصدر إشعاع في طريق هداية البشرية على مر القرون، وسيتركز جهد هذا المقال على رصد أبعاد المراجع المدونة، ودورها في ترسيم التاريخ الفاطمي ومعطياته.

وكان الذي قادني إلى التفكير بهذا الموضوع حديث معالي وزير الثقافة والإرشاد الإيراني السيد (مسجد جامعي) عندما أشار في كلمة له إلى تزايد نشر وطباعة الكتب المتعلقة بمواضيع فاطمة الزهراء(ع) في الفترة الأخيرة مستندا في ذلك إلى جملة من الإحصائيات الجديدة، واعتبر ذلك نجاحاً آخر من نجاحات الحكومة الإصلاحية. فقلت في قرارة نفسي: إن تنامي إعداد تلك الكتب يستلزم تنامي ونضج تدوين المراجع الفاطمية انطلاقاً من القاعدة القائلة بأن مراجع كل علم تظهر نتيجة لثراء مصادره وتاريخه، بعبارة أخرى لا يمكن تقديم ببلوغرافيا بعلم ما إذا لم تكن قد دونت فيه دراسات وبحوث.

وقد تبينت من قراءاتي في هذا المجال بأن ازدهار حركة التأليف في مواضيع السيرة الفاطمية جاء نتيجة لانتشار الكتاب الديني الواسع في السنين الأخيرة، ومن ذلك أيضاً

نشاطات محمودة في الحقل الببلوغرافي. ومن الإنصاف اعتبار دعم الدولة في الظاهر وغيره واحداً من العوامل المساهمة في هذه الحركة العلمية.

المراجع وقيمتها العلمية:

تقسم المصادر المدونة في كل علم وباب إلى ثلاثة أنواع هي: المصادر الأصلية (الأم)، والفرعية، والمراجع. والفرعية منها على نوعين: منها ما هو تخصصي (لذوي الاختصاص)، وما هو عام (لعامة الناس).

إن الانتفاع بالمعلومات المتضافرة بحاجة إلى الجمع والتبويب، وهذا ما توفره لنا المراجع والمدونات، لذا يدخل كل علم من العلوم مرحلة تدوين مراجعه بعد مرحلة من النضج والتطوير.

من هنا، تعكس لنا المراجع وأرقامها المستوى الكمي والكيفي لفاعلية ذلك العلم أو اضمحلال حركته على ارض الواقع، بعبارة أخرى يعتبر عدد المراجع مؤشراً بارزاً في قياس النسبة المئوية لحركة كل علم، وموضوع من المواضيع المدروسة.

ويمكن رصد أهمية المراجع من زوايا أخرى خارجة عن إطار العلاقة بين كمية المراجع ونمو العلوم، هي:

١ - أهمية مصادر تلك المراجع التي تمثل منهلاً أبديّاً للعديد من الباحثين الذين يستقون جلّ نتائج دراساتهم منها، وعلى وفقها يعتمدون في توجيه وترتيب مضامينها.

٢ - للمراجع دور نظراً لانتمائها الفكري في تسييس القراء فكرياً.

٣ - خطورة بعض الأفكار في تلك المراجع على الكتابات الأخرى، فقد تؤدي أحياناً إلى انتشار الأخطاء وتعمية الحقائق.

إذن، ثمة تأثير بالغ للمراجع في تطوير العلوم وتنميتها، بل يمكن عدها منهلاً غزيراً للعلوم والمعارف.

يعتبر جهل أو قلة اطلاع الباحثين الإسلاميين بمصادر المراجع من نقاط ضعفهم البارزة، لذا تتضاءل نسبة المحققين في المدارس الدينية أو الجامعات، ممن لهم اطلاع كاف بما يحتاجونه من مراجع في بحوثهم. وإحصائية إيران في ذلك تبعث على الأسف.

إن تفعيل دور المراجع من السبل المجدية في تطوير الدراسات الإسلامية، وهذا ما يتأتى من خلال تعريف الوسط العلمي بالمراجع وثقافتها، وقد كتب في ببلوغرافيا المراجع جملة من الدراسات سواء باللغة الفارسية أو العربية، من قبيل:

(مرجع شناسي وروش تحقيق) لغلام رضا ستوده. و(مرجع شناسي) لنور اللّه مرادي، و(مدخل لدراسة المرجع) لعبد الستار الحلوجي، و(موسوعة المصادر والمراجع) لعبد الرحمن عطية. و(المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي) لعز الدين إسماعيل.

لقد تنبه الأكاديميون في العقود المنصرمة إلى أهمية المراجع ودليلها فخصصوا وحدات دراسة لمادة المصادر في الجامعات مستعينين في إيران وبعض الدول العربية بجملة من الكتب الآنفة الذكر.

وتتمحور كتب المراجع عادة حول مواضيع الببلوغرافيا، القواميس، دائرة المعارف، كتب الأطالس الجغرافية، الفهارس، النسخ الخطية، وبعض المقالات.

إن ضرورة اطلاع الباحثين في العالم على المراجع الإسلامية تأتي بمثابة التخطيط لعالمية هذا المشروع الذي بإمكانه تصحيح بعض الأفكار المغلوطة لدى كتاب المسلمين والمستشرقين وذلك من خلال إرشادهم للمراجع والمصادر الأصلية في كل علم وموضوع. وقد بادر المسلمون لا سيما الشيعة منذ القدم في تأليف الكتب المفهرسة للمصادر المهمة، من قبيل: كتاب معالم العلماء لأبي جعفر محمد بن علي بن شهرآشوب (ت ٥٨٨ هـ)، وفهرست كتب الشيعة وأصولهم لمحمد بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (٣٨٥ ٤٦٠ هـ)، أما على صعيد العصر الجديد فتطالعنا أسماء بعض الكتب من قبيل: الذريعة إلى تصانيف الشيعة لاقا بزرك الطهراني (١٢٩٣ ١٣٨٩هـ)، وقد احتفظت هذه الكتب على رغم قدمها بمنزلتها العلمية، حيث كان هدف الطوسي من تأليف الفهرست هو التعريف بانجازات الشيعة العلمية كما هو الحال بالنسبة لاقا بزرك الطهراني في كتابه الذريعة.

تاريخ الببلوغرافيا الشيعية يمكننا رصد مراجع السيرة الفاطمية من خلال التحول التاريخي الطارئ على مراحل التدوين في الببلوغرافيا بشكل عام، ولا بد لنا هنا من إطلالة سريعة على هذا الجانب.

تميز الفكر الشيعي بمسايرته المستمرة لمقتضيات كل عصر وتاريخ ومجتمع، وهذا ما ينطبق تماماً على كتاب الشيعة ومفكريهم في مواضيع الببلوغرافيا والمصادر، فجاءت أداءاتهم متناسبة مع تنامي العلوم وتطورها والسبل المتاحة على هذا الصعيد، فعقب صدور دائرة المعارف الإسلامية في هولندا بجهود بعض المستشرقين، وما طرأ من تحديث في فن دائرة المعارف النشري، اقبل المسلمون بدورهم في شتى البلدان على تأليف دائرة معارف بأسلوب جديد، ففي إيران وفر استقرار الحكومة الإسلامية أجواء مساعدة لتأسيس مشاريع جديدة في تأليف دائرة المعارف الإسلامية من قبيل: دائرة المعارف بزرك إسلامي "دائرة المعارف الإسلامية الكبرى"، ودائرة المعارف تشيع "دائرة المعارف الشيعية"، الأمر الذي يدعونا إلى الجزم بأن لإيران قصب السبق في هذا المجال بين سائر الدول الإسلامية خلال العقدين المنصرمين. وقد شهدنا خلال الثلاث سنوات الأخيرة صدور دائرة معارف في تاريخ الإمام علي(ع) (دانشنامه إمام علي) إصدار مركز الفكر والثقافة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى صدور موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) عن دار الحديث بمدينة قم. وعلى رغم تفرد هذه

المشاريع بأساليب جديدة وانطباعها بطابع المقالات، لكن الذي يحسب لها هو المشاركة في دعم هكذا نوع من مشاريع التأليف في دوائر المعارف.

مشاريع دائرة المعارف الفاطمية هناك ثلاثة أنشطة مستمرة في هذا الباب أسبقها (الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء (ع) بإشراف إسماعيل الأنصاري الزنجاني الخوئيني)، صدر منها حتى الآن أربعة أجزاء ولا تزال بقية أجزائها العشرين تحت الطباعة، وكان تاريخ بداية نشرها قبل خمس سنوات، أي في عام ١٣٨٠هـ. شمسي.

والمشروع الثاني هو (دانشنامه فاطمي) عن مركز الفكر والثقافة الإسلامية بإشراف علي أكبر رشاد، وهو لا يزال قيد التأليف ومن المقرر آن يصدر على غرار مشروع (دانشنامه إمام علي) الصادر عن المؤسسة ذاتها في العام ١٣٨٠ الإيراني، أي سيكون أشبه بمجموعة من المقالات المتابعة لجملة من الكتاب والمختصين.

أما المشروع الثالث فيحمل عنوان (موسوعة فاطمة الزهراء(ع) والتي تقوم على إصدارها دار الحديث). ولا يزال أيضاً قيد التأليف والإخراج، ويظهر أنه سيصدر على شاكلة موسوعة الإمام على بن أبي طالب الصادرة عن الدار ذاتها في عام ١٤٢١هـ.

تقرير حول الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء (ع):

بدأ الكاتب عمله في عام ١٣٦٨ شمسي بجمع وترتيب الأحاديث حسب مواضيعها معتمداً في ذلك على أساليب التحقيق والبحث في علوم الحديث والدراية، ويشير السيد الزنجاني في المقدمة إلى أن موسوعته استندت إلى أكثر من ثلاثة آلاف مصدر ومرجع كان معظمها مختصاً بحياة الزهراء.

وكسائر الكتب الأخرى جاءت مقدمة الكتاب مطولة بعض الشيء، فاشتملت على سبعة فصول ورتبت عناوينها كما يلي:

منزلة الزهراء(ع) عبر ١٤ قرناً من الزمن، الخطوات الأولى على طريق تأليف موسوعة الزهراء، نظرة على نتاجات المؤرخين في حياتها (ع) خلال ١٤ قرناً، إحصائيات بالكتب المؤلفة حول الزهراء، أسلوب الموسوعة ومراحل الإعداد، فهرسة بمصادر الموسوعة، خلاصة عن حياة السيد الزهراء(ع) وقد تمحورت مواضيع الموسوعة في ثلاثة أقسام أصلية هي:

الزهراء قبل عالم الدنيا، الزهراء في عالم الدنيا، الزهراء بعد عالم الدنيا جاء القسم الأول في ثلاثة عناوين هي: بداية خلق الزهراء، سبق خلق الزهراء على خلق النبي آدم، نشأة الزهراء النورانية.

أما القسم المتعلق بحياة الزهراء في هذا العالم فجاء مستوعباً لتفاصيل حياتها في عشرة عناوين هي: من الولادة إلى وحتى الاستشهاد، تفاصيل الاستشهاد، حياتها الخاصة، أترابها، المقربون منها، أوصافها، تركتها. أما القسم الثالث فيقع في خمسة عناوين هي:

منزلة الزهراء يوم المحشر ، الزهراء مع الرسول غ يوم المحشر ، الزهراء والحسين (ع) في المحشر ، شفاعة الزهراء، الزهراء في عرصات الجنان.

لقد انطوى هذا الكتاب على جميع النصوص والمصادر المتصلة بتفاصيل حياة الزهراء ومنزلتها، وقد اتبع في دراسة كل موضوع من المواضيع آلية مشابهة قوامها تقديم تحليل علمي عن الموضوع المدروس قبل إيراد الروايات المتعلقة به، ومن ثم ذكر مصادره وتوثيقها. وقد رتبت مواضيع كل حديث كالآتي:

١ - ذكر الحديث في أكمل نصوصه المتوفرة في المصادر المختارة مع المراجعة والتنظيم.

٢ - ذكر المصادر الناقلة للحديث سواء المتقدم منها كمؤلفات العلماء المتقدمين أمثال الكافي والطوسي وابن طاووس، أو المتأخر أمثال كتب الشيخ الحر العاملي والمجلسي، بالإضافة لبعض الدراسات الرصينة خلال القعود المتأخرة.

٣ - إثبات أسانيد كل حديث حسب ما جاء في المصادر المختلفة، فقد يكون للحديث الواحد ما يفوق العشرة أسانيد.

أما أهم مصادر الكاتب فهي:

بحار الأنوار، وما توفر في مكتبته الخاصة، من الكتب الخطية والمطبوعة في مكتبة المرعشي النجفي بقم، مخطوطات ومنشورات مكتبة الروضة الرضوية بمشهد، مخطوطات ومطبوعات مكتبة آية الله الكلبايكاني بقم، مدرسة باقر العلوم بقم، مكتبات سائر المدن الأخرى في إيران وخارجها لقد بين الكاتب مراحل تحقيق وتأليف كتابه بما لا يتناسب والأساليب المتبعة في مشاريع دوائر المعارف الجديدة، بل جاء أسلوبه مطابقاً لأساليب مجاميع الحديث والرواية وهو بحد ذاته نوع من انواع دوائر المعارف المتبعة في بعض الأوساط.

وعليه، سوف تكون موسوعات السيرة الفاطمية القادمة بأساليب أكثر تطوراً من قبيل ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، وهذا ما يحتاج إلى توفير جملة من المقدمات كمصادر الرواية والتاريخ، الأمر الذي سيكون لأمثال الموسوعة الكبرى دور في تحقيقه لإنجاح المشاريع المستقبلية الملحة.

وقد ذهب البعض إلى إنكار القيمة العلمية لهكذا نوع من الموسوعات، نظراً لإشكالية الأسلوب المتبع فيها والمغاير لما هو معهود في الموسوعات الحديثة.

ونقول في الرد على ذلك: بأن لكل موسوعة نمطها وموضوعها الخاص بها، ولها أيضاً مراحل لا بد من المرور بها وهذا لا يتحقق دائماً بالأساليب المتقدمة. بعبارة أخرى، هنالك ثلاثة أنماط في كتابة الموسوعات يمكن تصنيفها كالتالي:

أ) الموسوعات المدخلية (الألفبائية).

ب) موسوعات مكونة من مجموعة مقالات.

ج) الموسوعات الموضوعية (التحليلية).

حيث نجد دائرة المعارف الإسلامية الكبرى مثلاً قد رتبت مقالاتها حسب النمط المدخلي، بينما هناك العديد من الأعمال الموسوعية التي جاءت مقالاتها مرتبة حسب موضوعاتها الداخلية، من قبيل: دانشنامه إمام علي (ع)، وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب. وتأسيساً على ذلك لا بد لمشاريع الموسوعات المدخلية من أعمال سابقة حسب نمط المجاميع. بهذا تكون الموسوعة الكبرى عن الزهراء قد عبدت الطريق أمام المشاريع اللاحقة من خلال تصنيف الأحاديث وترتيب المصادر العلمية. وهنا بالطبع يكمن نجاحها، علماً أن أسلوبها بحد ذاته من الأساليب المجدية والمطلوبة لكل محقق وباحث.

ببلوغرافيات السيرة الفاطمية:

بعيداً عن صنف الكتب الموسوعية، هناك نوع آخر من المراجع وهو ما يسمى بكتب الببلوغرافيا، فقد ألفت العديد من الكتب التاريخية عن الزهراء منذ بدايات القرن الأول الهجري وحتى يومنا هذا، حيث كان سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦هـ) أول من كتب عن الزهراء(ع)، وهو من المعاصرين لزمانها، وليس لكتب السيرة الفاطمية حدود جغرافية أو قومية، بل إن الأرقام تشير إلى وجود مؤلفات في هذا الباب في ٢٧ لغة.

وقد أكد هذا الاتساع الجغرافي واللغوي ضرورة الإلمام بكل تلك الآثار من خلال مشروع ببلوغرافي جامع، فتصدت مجموعة من الباحثين إلى تجميع المعلومات المتعلقة بكتب السيرة الفاطمية وترتيبها في كتاب مستقل تلبية لحاجات المحققين والمختصين بهذا الشأن، بالإضافة إلى تحديد وإحصاء نتاجات التاريخ الفاطمي إحصاءً دقيقاً. وقد صدر حتى الآن عشرون كتاباً من هذا القبيل، هذا ما عدا بعض الكتب الأخرى التي تضمنت في بعض جوانبها أخباراً عن كتب السيرة الفاطمية من قبيل كتاب الذريعة. أما كتب الببلوغرافيا المستقلة (العشرون) فهي كما يلي:

١ ـ (جهل كتاب درباره حضرت فاطمة) "أربعون كتاباً عن سيرة فاطمة"، تأليف عبد الرحمن موكهي، وهو منشور في كتاب ياس عصمت (ص ١٢٥ ـ ١٣٠).

٢ ـ رائدة فخر النساء، تأليف حيدر علي السعدي، صدر باللغة العربية سنة ١٣٨٧هـ في النجف الأشرف، وهو عبارة عن دليل بجملة من المصادر.

٣ ـ الزهراء في المكتبة العربية، تأليف محمد الحسون، منشور في (أعلام النساء المؤمنات، ص ٥٦٧ ـ ٥٧٥)، وفيه ١٨٤عنواناً من الكتب العربية في قسمين أصلي وفرعي.

٤ ـ (فهرست كتابهاي مربوط به مناقب ومصائب حضرت فاطمة ـ ع ـ) "فهرس ما جاء في مناقب ومصائب السيدة فاطمة"، تأليف محمد باقر كجوري، وهو منشور ضمن كتاب الخصائص الفاطمية (ص ١٤ ـ ١٦).

٥ ـ (كتابشناسي حضرت زهراء) "مصادر السيرة الفاطمية"، تأليف أحمد صادق اردستاني، نشر في مجلة (آينه ض زوهش) العدد ٤، ص ١٠٧ ـ ١١٣. وكذلك في كتابه

(فاطمه الكوي زن مسلمان) "فاطمة نموذج المرأة المسلمة"، ص ٢٠٠ ــ ٢٣٧، وفي الكتاب إحصائية لأكثر من (٢٨٠) كتاباً رتبت في أربعة فصول، الأول عن الكتب الصادرة باللغة الفارسية، والثاني عن الصادرة باللغة العربية، والثالث عما صدر بالاردو، والفصل الأخير حول الكتب المتضمنة لسيرة الزهراء(ع) بشكل عرضي.

٦ - كتابشناسي حضرت فاطمة زهراء، تأليف أمير علي آقاياري ومينو فضلي نزاد، لا يزال تحت الطبع وهو في ٢٢٧ صفحة رتبت فيها المصادر حسب مضامينها وموضوعاتها.

٧ - كتابنامه حضرت فاطمة زهراء، تأليف ٤٧١ عنواناً وزعت على قسمين: المخطوط، والمطبوع.

٨ - كتابنامه حضرت فاطمة، إصدار مؤسسة الزهراء الثقافية، ذكر فيه ٧٩٦ عنواناً، والكتاب في أقراص مدمجة ولم يطبع بعد.

٩ - كتابنامه فاطمة زهراء، تأليف مجتبى بالسيرة الفاطمية، وهو غيره مطبوع أيضاً.

١٠ - كتابنامه كوثر، إصدار مركز باقر العلوم(ع) بقم، في ٣٦ صفحة و٣٢٤ عنواناً باللغة الفارسية على قسمين: **الكتب المستقلة، والضمنية.**

١١ - الكتب المؤلفة في الزهراء(ع)، تأليف علي محمد علي دخيل، ١٣٨٧هـ شارك به المؤلف في مسابقة التأليف عن الزهراء(ع) المقامة في النجف الأشرف، نشر في كتاب فاطمة الزهراء(ع)، (ص ١٤٧، ١٦٤)، وفي الكتاب (١٠٠) عنوان ومصدر بين مخطوط ومطبوع، مضافا للكتب المشاركة والفائزة في المسابقات.

علماً أن كتاب السيد دخيل الآخر (مصادر الدراسة عن الزهراء(ع) جاء كدليل بالمصادر والدراسات الجديدة، وليس من الببلوغرافيا في شيء.

١٢ - الكتب المؤلفة في الزهراء(ع)، تأليف أحمد الرحماني الهمداني، وقد ذكرها في كتابه (فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى غ) (ص ٦٧٩ - ٧١١)، وفيه أضاف على مئة كتاب مما ذكره الدخيل مئة وستين عنواناً آخر ليخرج بمئتين وستين عنواناً وورد... هذه الفهرسة أيضاً في كتاب (اعلموا إني فاطمة) تأليف عبد الحميد المهاجر (ج ١٠، ص ٦٩٥، ٧٤٢).

١٣ - كتابشناسي توصيفي حضرت فاطمة (ع)، تأليف محمد الروحاني علي آبادي، ذكر فيه (٨٠٠) كتاب عن حياة الزهراء (ع) مرتبة حسب حروف الهجاء (غير مطبوع).

١٤ - معجم ما ألف عن فاطمة الزهراء (ع)، إصدار دار العلوم بيروت ١٤٠٨هـ.

١٥ - معجم ما كتب عن فاطمة الزهراء (ع)، تأليف عبد الجبار الرفاعي، مجلة تراثنا، العدد ١٤، ص ٥٧ - ١٠٤، ذكر فيه ٢٩٦ عنواناً مرتبة هجائياً، مضافاً لبعض الدراسات والمقالات المنشورة في المجلات، وقد نشرت المادة ذاتها كملحق بكتاب معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت (ع)، ج ٥، ص ١ - ١٣٠.

١٦ - (معجم المؤلفات حول السيدة فاطمة ـ ع ـ)، تأليف عبدالله المنتفكي، مجلة الثقافة الإسلامية، عدد ٤٠، ص ٤٤ - ٨٩، وقد تضمن ٢٨٤ عنواناً حسب الترتيب الموضوعي.

١٧ - الكتب المؤلفة عن فاطمة الزهراء (ع) بالعربية، تأليف علي أكبر مهدي ض ور، ذكر فيه ٣٠٦ عنواناً بين مخطوط ومطبوع باللغة العربية خاصة، مضافاً إلى ٢٤٨ عنواناً مطبوعاً و٤٤ عنواناً مخطوطاً و١٤ عنواناً من الكتب المشاركة بمهرجان كتب حياة الزهراء(ع).

١٨ - (فاطمة در مرآة الكتاب)، وهي الترجمة الثانية عن الأصل العربي المنشور ملخصاً في مجلة المرشد، دمشق، عدد ٧ - ٨، السنة الرابعة، ص ٥١٣ - ٦٠٧، لعام ١٤١٨هـ.

١٩ - (كتابشناسي فاطمي در تاليفات أهل سنت)، إصدار منظمة الإعلام الإسلامي، وقد قدم في مهرجان فتاة من الشمس الذي انعقد بكرمانشاه سنه ١٣٧٩ شمسية في كتاب كمنشور تحضيري للمهرجان (ص ٥٤ - ٩١)، ذكر فيه ٧٠ كتاباً للمؤلفين السنة حول حياة الزهراء (ع).

٢٠ - فاطمة در آيينه كتاب، وهو من أكمل المعاجم في هذا الباب، حوى في طبعته الأولى ٧٣٥ كتاباً في (١٥) لغة، سنة ١٤١٦هـ. ووصل عددها في الطبعة الثانية سنة ١٤١٧هـ إلى ١١٥٥ كتاباً مستقلاً في (١٩) لغة. أما في الطبعة الثالثة فقد بلغ العدد ١٦٢٩ كتاباً في (٢٦) لغة عالمية. وها هي الطبعة الرابعة تطالعنا بـ(٢٠٢٢) كتاباً في (٢٧) لغة.

مسانيد الحديث وهي كتب الحديث المسندة، وتصنف في علم الحديث في حقل المراجع. أما نتاجات هذا النوع فيما يخص الأحاديث المنقولة عن الزهراء أو عن حياتها فهي كثيرة بامتداد بعدها التاريخي، واليك هوية تلك المسانيد:

١ - مسند فاطمة(ع)، مهدي جعفري، نشر مرضية طهران ١٣٧٢ شمسية/ ١٤١٤هـ، في ٤٣٢ صفحة، وصدرت طبعته الثالثة عن مؤسسة جليل الثقافية ١٣٧٣ شمسية، في ٤٩٦ صفحة.

تنوعت مواضيع مقدمة الكتاب التي انتظمت في فصلين، جاء فيها: تكوين الزهراء وخلقها النوراني، يوم ولادتها، أسماؤها وفضائلها، الحوادث التاريخية، زواجها، حياتها مع علي(ع)، عطاء النبي لها، استشهادها وأخبار بيت الأحزان ومأتم الزهراء(ع). بالإضافة إلى التعريف بمفهوم السند الحديثي وطرقه. ثم يدخل الكتاب في ١٤ فصلاً بعناوينها التالية:

منزلتها عند النبي (ص)، منزلة النبي والإمام علي (ع)، الإمامة والولاية وما ورد في فضائل علي(ع)، أبناء فاطمة مع الرسول الأكرم (ص)، مناقب أهل البيت (ع)، إمامة الأئمة (ع)، ما ورد في حديث الكساء، وحديث المعراج وشيعة علي (ع)، الرسول يوم المحشر، المواعظ والحكم، أحكام الإسلام، الآداب والسنن، تعقيبات الصلوات، الأدعية، تسبيحات الزهراء (ع)، استنصار الناس، الزواج، الإعسار في معيشة فاطمة (ع)، أحاديثها مع الإمام علي (ع) وأترابها من النساء، أشعارها المنسوبة إليها.

٢ ـ مسند فاطمة، ابن شاهين أبو حفص عمر بن أحمد الخراساني المروروذي البغدادي، (٢٩٧ ـ ٣٨٥ هـ). ذكر في مجلة تراثنا، عدد ٢٠، ص ٦٤. يذكر أن الكتاب ذكر ما نقل عن الزهراء من أحاديث حققه محمد سعيد الطريحي ونشره في بيروت سنة ١٩٨٥م.

٣ ـ مسند فاطمة، محمد بن جرير الطبري ٤٠٦.

٤ ـ مسند فاطمة، مجهول المؤلف، ذكره صاحب الذريعة ج ٢١، ص ٢٨ الرقم ٣٧٩٠، وأمل الأمل ج ٢، ص ٣٦٣. وقد ذكره ابن شهرآشوب في عداد الكتب المجهولة المؤلف أيضاً.

٥ ـ مسند فاطمة. ذكر في الذريعة ج ٢١، ص ٢٧ الرقم ٣٧٨٩، وأمل الأمل ج ٢، ص ٣٦٥. وفي الكتاب روايات عن أبي الحسين محمد بن هارون بن موسى بن احمد بن إبراهيم بن سعد التلعكبري، وعن احمد بن الفرج بن منصور عن علي بن بابويه وآخرين. وأيضاً نقل عنه في السياق ذاته صاحب مدينة المعاجز.

٦ ـ مسند فاطمة الزهراء(س)، عزيز الله العطاردي القوجاني، نشر عطارد طهران ١٣٧١ شمسية/ ١٤١٣ هـ. والكتاب في جزأين: الأول عن تفاصيل حياة الزهراء، في ٤٧٠ صفحة، والثاني: عن رواة الزهراء (ع)، في ١٥٠ صفحة.

٧ ـ مسند فاطمة الزهراء (ع)، السيد حسين الموسوي شيخ الإسلامي تويسر كاني، تحقيق السيد محمد جواد الحسيني الجلالي، دار القرآن الكريم قم ١٤١٢هـ/١٣٧٠ شمسية، ج١، ٤٥٤ص. صدرت طبعته الرابعة عن مكتب الإعلام الإسلامي ومن ثم الطبعة الخامسة/١٤١٩هـ. والكتاب عبارة عن تاريخ مفصل حول حياة الزهراء، مضافا لجانب آخر من حياتها وهو ما روي عنها من أحاديث وأدعية مع ذكر اغلب نصوص تلك الأحاديث.
ولم يصدر من هذا الكتاب سوى الجزء الأول.

٨ ـ مسند فاطمة الزهراء(ع)، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ ٩١١ ه)، تحقيق عزيز بك، الطبعة الأولى، حيدرآباد الهند ١٤٠٦ ه، في ١٤٢ صفحة، الطبعة الثانية، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤١٢هـ، في ١٢٠ صفحة وهناك طبعة أخرى عن دار ابن حزم بيروت ١٤١٤ هـ، في ٢٧٢ص، مجلة تراثنا، عدد ٢٠، ص ٦٤.
وقد جمع الكتاب من روايات الزهراء(ع) ٢٨٢ حديثاً.

٩ ـ مسند فاطمة سيدة نساء العالمين، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني الشافعي (٣٨٥ ه)، ذكر في الذريعة ج ١٨، ص ٥٩ الرقم ٦٦٥، وينابيع المودة ج ١، ص ٣.
يذكر أن هذا الكتاب جمع ما نقل من أحاديث عن السيدة الزهراء(ع)، وهو من مؤلفات القرن الرابع، وقد نقل عنه السيد هاشم البحراني في (غاية المرام) لكنه مفقود هذه الأيام.

في الختام، نطمح إلى أن تشهد أعمالنا التراثية تطورا ملحوظا يتناسب والأساليب الجديدة المتبعة في ببلوغرافيا المراجع، لاسيما وان مجتمعنا اليوم يتمتع بمناخ مساعد على تحصيل العلم والتحقيق في كافة المجالات العلمية. ❖

دراسة فلسفية
لبعض جوانب كونية السيدة الزهراء(ع)

د. محمد عبد اللاوي(*)

لا يمكن فهم فترة ما بعد وفاة الرسول (ص) إلا بدفع الفكر الإسلامي في مسار غير مسار الفلسفة الإسلامية قديماً والفلسفة الغربية المعاصرة، ومعنى هذا أن استيعاب حقيقة تلك المرحلة ضروري للكشف عن بعض جوانب حقيقة السيدة الزهراء (ع)، وهذا يقتضي:

أولاً: صياغة فلسفة إسلامية خارج دائرة فلسفة هيجل وخارج دائرة الفلسفة الإسلامية القائمة على أساس التوفيق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية.

ثانياً: دفع الفكر الإسلامي في مسار صياغة جديدة لا تقوم على التوفيق بين الدّين والفلسفة، بل تقوم على أساس محاولة فهم الدين الإسلامي في حدود الفلسفة.

فعندما نحاول الكشف عن أبعاد حياة السيدة الزهراء (ع) فنحن هنا أمام كونية حقيقية تستمد مصدرها من خارج التاريخ وليس من التاريخ، ومن هنا عجز الفلسفة الغربية في صورها المختلفة، خاصة في صورتها الهيجلية والوضعية، عن دراسة الكونية الملازمة للسيدة الزهراء (ع) والملازمة للأئمة على العموم. فخصوصية الموضوع تقتضي خصوصية المنهج إلى درجة يجب اجتثاث الفكر الإسلامي الذي يسعى إلى دراسة النبوءة والإمامة، يجب اجتثاثه من مسلمات عقل الأنوار ويجب نقله من محور آثينا - يينا (Iena) مدينة هيجل إلى محور المدينة المنورة (كربلاء) قم والتأسيس لعقل أنوار جديد.

وهكذا يجب وضع السيدة الزهراء (ع) في موقعها والنظر إليها في حجمها الحقيقي: هي محور واساس المهدويه الإسلاميه، اي المهدويه النبويه التي بشر بها النبي (ص) وليست مجرد مهدوية جاءت كرد فعل لقساوة الواقع والتاريخ على غرار المثاليات المجردة والطوباوية وكثيرا من الرؤى الفلسفية إلى التاريخ.

فحقيقة الزهراء (ع) ليست مجرد حقيقة تاريخية وحجمها ليس مجرد حجم تاريخي، فالزهراء ليس تاريخها ووجودها على العموم هو التاريخ الواقعي بل التاريخ الحقيقي الذي ينبغي على التاريخ الواقعي أن يتطلع إليه ويسير نحوه، ومن هنا فالمستقبل الذي تؤسس له الزهراء (ع) ليس المستقبل الذي ينتجه التاريخ ويتصوره الفكر انطلاقا من داخل التاريخ.

(*) قسم الفلسفة جامعة وهران - الجزائر.

فالزهراء (ع) في ممارساتها كانت تؤسس لمستقبل البشرية، وكل الرؤى والدراسات التي رأت في مواقف الزهراء (ع) مجرد مواقف تسعى لامتلاك قطعة أرض (فدك) أو امتلاك السلطة هي مواقف لم تطرح الموضوع طرحاً كلياً أي طرح الموضوع بكل أبعاده الاجتماعية والتاريخية من موقع علاقة التاريخ بما يتجاوزه.

لقد كان المجتمع في تلك المرحلة ورغم أم الملك مازال لم يظهر بعد يسير في بدايات مسار تبرير الواقع القبلي بصورة أو بأخرى. في هذا الجو التبريري كانت الزهراء (ع) تسعى إلى تحرير الأمة من الاجتهادات التبريرية التي ظهرت في مرحلة غير مرحلة الاجتهاد لأن ذلك العصر كان يقتضي القيادة المعصومة، العصمة التي تجتث الأمة من التاريخ بمعناه الهيجلي، أي التاريخ كمرجعية تكفي نفسها بنفسها.

كانت الزهراء (ع) تقوم بدورها في المجتمع وفي مرحلة تاريخية لكن من موقعها المتحرر من نسبيات المجتمع ونسبيات التاريخ. وهذا ما لا يوجد في الفلسفة من سقراط إلى هيجل. إلى يومنا هذا، فالفلسفة مهما كانت قوتها النقدية ومهما كان حجم الفيلسوف، هي منتوج تاريخي. وفي الحقيقة أن هيجل كان يُنظر لهذه الفكرة التي أوصلها إلى أبعد حدودها عندما أكد بأن "كل واقعي معقول وكل معقول واقعي".

ومن هنا فمثالية الزهراء (ع) لا يمكن مقارنتها بأية مثالية يونانية أو ألمانية أو غيرها، لأن مثالية الزهراء (ع) هي مثالية الآفاق والمسافات البعيدة: مثالية الإنسان الخليفة. هذه المثالية لا يمكن دراستها وفهمها عن طريق أو في حدود المفاهيم الفلسفية كالصيرورة والتقدم الخطي والنزعة الاجتماعية. فهذه المفاهيم قد نفذت طاقتها اليوم وأصبحت الفلسفة تُنظِر لموت الأيديولوجيا وموت السياسة ونهاية التاريخ. فالأفق أصبح مسدوداً: ماتت المثالية وماتت الثورة وماتت الطوباوية في منظور الفكر الغربي اليوم.

إن الأفق الذي كانت تؤسس له الزهراء (ع) هو أفق الإنسان الكوني: الإنسان الخليفة وافق الأمة الكونية التي تتجاوز القبائل والأعراق والقوميات وتستوعب التنوع داخل الوحدة البشرية. إن مواقف الزهراء (ع) لا يمكن أن تتخذ موقعها في سياق غير سياق النبوءة وفي أفق غير أفق الإمامة. فالزهراء (ع) برزخ بين النبوة والإمامة. فالزهراء لم تكن تستجيب للأحداث التي وقعت بعد وفاة الرسول (ص) في سياق محدودية تلك الأحداث وحدها. فاستجابة الزهراء كانت تتم على أساس علاقة تلك الأحداث بسياق التاريخ الحقيقي الملازم لخط النبوة. فالخط الرسالي في الإسلام هو خط الرسالة الخاتمة وليس مجرد خط رسالي على غرار الرسالات الأخرى. ومن هنا ضرورة وجود "النموذجية" التي تعطي للخط الرسالي الطاقة للسير في مسار المسافات البعيدة. فعلى أساس هذه الخلفية يجب وضع كل مواقف الزهراء. فلا يمكن فهم حقيقة كونية الزهراء (ع) بدون مفاهيم كمفهوم العصمة ومفهوم ختم النبوة ومفهوم الخط الرسالي ومفهوم المستقبل الموعود عقائدياً (الظهور).

فالزهراء (ع) كانت تربط القبيلة والمجتمع الإسلامي المحدود في تلك المرحلة، كانت تربط كل ذلك بالكونية. أي بمفهوم الأمة الإسلامية كمجتمع مفتوح على كل الشعوب والثقافات.

فمن ناحية التحليل الفلسفي يمكن القول بأن كل مواقف الزهراء (ع) لم تكن مجرد مواقف تجاه واقع، لم تكن مجرد مجابهة للواقع، فالزهراء (ع) كونية جابهت القبلية كخصوصية ضيقة وأسست لأمة كونية ولمستقبل كوني.

ومن هنا فالزهراء (ع) لا يحتويها التاريخ فهي ليست مرحلة يتجاوزها التاريخ فحقيقتها فوق - تاريخية، فالوعي التاريخي الذي كانت تتمتع به الزهراء (ع) يعتبر امتداداً للوعي النبوي، فهذا الوعي يؤسس معرفياً وسياسياً لبشرية كونية تسير الأمة الإسلامية نحو تحقيقها في التاريخ.

وهكذا فعصمة الزهراء (ع) والأئمة لا تنفي الزمانية. فالعصر التاريخي بمعنى المرحلة التاريخية التي يجب التعامل معها شيء والنظر إلى العصر التاريخي كحالة تكفي نفسها بنفسها (التاريخ كمرجعية مطلقة) شيء آخر.

انطلاقاً من هذا الطرح فإن مواقف الزهراء (ع) تتخذ موقعها داخل متطلبات «التنزيل» التي تنتج العصر التاريخي (التاريخ الحقيقي) وليس عصر التاريخ الواقعي، التاريخ المهيمن لأن «التنزيل» تنزيلٌ ولأن «العصمة» عصمةٌ.

عصمة الزهراء (ع) أسست للدولة على أساس أن السياسة عبادة ولم تؤسس للدولة التي تجسد المطلق أي الدولة التي تُعبد (الدولة الهيجلية)، فالزهراء (ع) جسدت عن طريق العصمة أعلى درجة من العبودية لله تعالى، أي جسدت الزهراء (ع) نموذجية علاقة الإنسان بالمثل الأعلى الحقيقي، فهنا تتجلى الحقيقة التغييرية للدين: الصيرورة التي لا تعرف النهاية لأن هدفها هو الله تعالى.

وعلى عكس ذلك تتجلى محدودية الفلسفة التي اصبحت اليوم تُنظر لموت السياسة وموت الأيديولوجيا والرعب من المستقبل ونهاية التاريخ بعد أن كانت تُنظر، ابتداءً من الفيلسوف الألماني نيتشه، لموت الله.

فالزهراء (ع) أسست بعصمتها للأفق المهدوي الذي يفتح المجال لتحقق الأمة الإسلامية المفتوحة على البشرية بقيادة الدولة الكونية التي تجسد عمق التعبد وعمق خلافة الإنسان لله تعالى.

إن خط الزهراء (ع) لا يزعج، اليوم، الغرب فحسب ولا يزعج إسرائيل فحسب، بل يقف في وجههما ويتحداهما لأنه خط يتفاعل مع التاريخ الواقعي تاريخ الغرب أو التاريخ الأمريكي اليوم: يتفاعل من خلال متطلبات التاريخ الحقيقي، فالأمة اليوم في العراق وإيران

ولبنان وغزة تجسد النقيض العقائدي والسياسي للتاريخ الهيجلي المبني على مبدأ أن "كل واقعي معقول وكل معقول واقعي".

إن حضور الزهراء (ع) في ذهنية وعاطفة الشعوب الإسلامية يفتح المجال لاستمرارية الطموح التاريخي الذي يمكن هذه الشعوب من إدراك حقيقة العلاقة بين الأمة والغرب اليوم كحقيقة صراعية تتجلى في الواقع الحي منذ بدايات الاستعمار باسم الحداثة والتحديث إلى غزو العراق والوقوف في طريق إيران. فخط الزهراء (ع) أي خط أهل البيت (ع) يعيد النظر في كل شيء اليوم، خاصة في الثقافة والسياسة وعلاقة الأمة بالغرب. يعيد النظر من موقع النقد والرفض في عصر الواقعية التبريرية التي أسست لها فلسفة هيجل والتي تقود الشعوب الإسلامية نحو المذبحة الأمريكية. فالزهراء (ع) تُفعِّل حالة الواقع مع حالة المثال: ليس على أساس التجربة فحسب بل على أساس العصمة التي تؤطر وتقود التجربة.

ومن هنا فالاقتداء بالزهراء (ع) هو اقتداء يتخطى العصور لأنه اقتداء بالكونية الحقيقية ذات المصدر الغيبي، فالرجوع إلى كونية نموذجية الزهراء ينتج الوعي التاريخي الذي ينتج النقد الضروري لكل تغيير خاصة التغيرات الكبرى التي تتطلع إليها الشعوب الإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا شك أن هناك طموح تاريخي ملازم للمهدوية الإسلامية لمستقبل موعود عقائدياً، غير أن هذا الطموح ما زال معطلاً بسبب غياب الرجوع النقدي إلى الماضي: الرجوع الذي يميز بين خط الإمامة وخط الملك القاهر. فكل عملية تغييرية لا تنطلق من هذا الأساس معرضة للانحراف والارتماء في متاهات التبعية للغرب. وهذا ما نلاحظه اليوم خاصة وبأم أعيننا. وهنا يتجلى الدور الكوني للزهراء (ع).

فالرجوع إلى الزهراء (ع) يفتح المجال لنقد «الأصل» نقد الماضي، أي يفتح المجال لتحديد المرجعية الحقيقية، المرجعية الضرورية والكافية. فهذا الرجوع هو رجوع إلى القيم الكونية وإلى الفكر الكوني، وهذا ما يختلف عن الرجوع إلى «الزعامة»، الزعامة التي كشفت حركة التاريخ عن مآسيها في العالم الإسلامي، فالزهراء (ع) مرجعية كونية وليست مجرد زعامة أو مجرد نخبة، فعلاقة الأمة بالزهراء، لا يمكن أن تكون علاقة ظرفية وتوظيفية تابعة للمناسبات لأن علاقة الأمة بالزهراء (ع) علاقة عقائدية كما أن علاقة الأمة بالمستقبل علاقة عقائدية. لذلك لا يمكن التلاعب بماضي الأمة بحيث لا يمكن التمييز بين خط أهل البيت (ع) والخط الأموي، كما لا يمكن التلاعب بمستقبل الأمة في ذهنية إنسان العالم الإسلامي لأن هذا المستقبل موعود عقائدياً فلا يمكن للفلسفة الهيجلية أن تحتويه أو تزيفه، لا يمكن للدولة أن تكون تجسيداً للمطلق ولا يمكن للتاريخ أن يُنهى ويصبح مصير البشرية مصيراً أمريكياً. ❖

بلاغة الزهراء (ع) في كلمات الأعلام والدراسات العلمية

عبد الله حسن آل درويش القطيفي

تمهيد: بلاغة آل البيت (ع) وفصاحتهم:

هم سادة البلغاء والمتكلمين الذين لاتزال كلماتهم يرن صداها في مسامع الدهر إلى هذا اليوم، فالكل أذن لهم ومسمع، فلم يعرف التأريخ أهل بيت أبلغ وأفصح وأعلم من أهل بيت النبوة، فتلك جوامع كلمهم تعرب عن عظيم مقامهم، وسمو خطابهم، وعلمهم الجم، وتشهد أنها بلغت ذروة الفصاحة، وقمة البلاغة[1]، ومنتهى البيان، فجميع كلماتهم تأخذ بمجامع القلوب، وتهواها النفوس، إذ اتسمت بجزالة الألفاظ، وسلاسة التركيب، يألفها الذهن، وتتقاصر عنها درجات أعاظم البلغاء والمتكلمين، وتعجز عن مباراتها الفصحاء، فلا بدع في ذلك فهم أمراء الكلام، وأرباب الفصاحة.

ومن ذا الذي ينكر مالهم من الفضل على الأمة في جميع العلوم، ولهم قصب السبق في كل مكرمة، فهم الذين آتاهم الباري الحكمة، وفصل الخطاب، وفي المأثور، قال مولانا الإمام زين العابدين (عليه السلام): أعطينا ستاً وفضلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة..[2].

وقال عبد السلام بن صالح الهروي: سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول: رحم الله عبداً أحيا أمرنا فقلت له: وكيف يحيى أمركم ؟ قال: يتعلم علومنا، ويعلمها الناس فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا[3].

وكما قال الشاعر:

تلك آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا الى الآثار

وحسبك الرجوع إلى آثارهم العلمية، وكلماتهم الحكمية، لتقف على حقيقة ذلك (ولاينبئك مثل خبير) كنهج البلاغة لأمير المؤمنين (عليه السلام)، والصحيفة السجادية ورسالة الحقوق للإمام زين العابدين (عليه السلام)، وسائر ما أثر عنهم، فإنها شواهد حق على ما قدمناه.

خطباً دون محكم الذكر شأواً ... قصرت عن بلوغها البلغاءُ

---

(١) قال أرباب هذا الفن في هذا الباب: كلما ازداد شرف الألفاظ، ورونق المعاني، ومطابقة الدلالة كان الكلام أبلغ. (المواقف، الإيجي: ٣/ ٣٩٠).

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٤٥/ ١٣٨.

(٣) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، الشيخ الصدوق: ٢/ ٢٧٥ح٦٩. بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٢/ ٣٠ح١٢.

كلـــها حكمـــةٌ ونهـــجٌ قـــويمٌ ودليـــلٌ وبلـــسمٌ وشـــفاءُ[1]

هـذا ، وقد تتابعت كلمـات جملـة مـن الأعـلام يتلو بعضها بعضاً مفعمة بآيات الثناء والإطراء على بلاغة أهل البيت (عليهم السلام) والإعجاب بمنتهى فصاحتهم جميعاً ، فهي على نسق واحد ، لا نكاد أن تميز أو تفرّق بين كلماتهم ، فإليك هنا ما يلي:

١ ــ قـال ابـن أبـي الحديـد في بلاغـة أمـير المؤمنين (عليـه الـسلام) وفـصاحته: وأمـا الفصاحة : فهو (عليه السلام) إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين ، ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت.

وقال ابن نباتة: حفظت مـن الخطابة كنزاً لا يزيده الانفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب.

ولما قال محفن بن أبي محفن لمعاوية : جئتك من عند أعيا الناس! قال له: ويحك ! كيف يكون أعيا الناس ! فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره.

قال: ويكفي هذا الكتاب الذي نحن شارحوه دلالة على أنه لا يجارى في الفصاحة ، ولا يبارى في البلاغة ، وحسبك أنه لم يدون لأحد من فصحاء الصحابة العشر ، ولا نصف العشر مما دون له ، وكفاك في هذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ في مدحه في كتاب: البيان والتبيين ، وفي غيره من كتبه[2].

وقال ابن أبي الحديد في شرح كلام أمير المؤمنين (عليه السلام): (تكلموا تُعرفوا ، فإن المرء مخبوء تحت لسانه)[3]: هذه إحدى كلماته (عليه السلام) التي لا قيمة لها ، ولا يقدر قدرها ، والمعنى قد تداوله الناس[4].

وقال في شرحه كلمته (عليه السلام) الأخرى: (في كل شجرة نار ، واستمجد المرخ والعفار): من أراد أن يتعلم الفصاحة والبلاغة ، ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض ، فليتأمل هذه الخطبة ، فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام ـ عدا كلام الله ورسوله (ص) ـ نسبة الكواكب المنيرة الفلكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية.

ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء ، والجلالة والرواء ، والديباجة ، وما تحدثه من الروعة والرهبة ، والمخافة والخشية ، حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدّت قواه ، وأرعبت قلبه ، وأضعفت على نفسه ، وزلزلت ، اعتقاده ، فجزى الله

---

(١) للحاج عبد الحسين الأزري (ت ١٣٧٤ هـ) ، راجع: علي في الكتاب والسنة والأدب ، الحاج حسين الشاكري: ٥/ ١٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد: ١/ ٢٤- ٢٥.

(٣) نهج البلاغة ، خطب الإمام علي (عليه السلام): ٤/ ٩٣ ، رقم: ٣٩٢ ، بحار الأنوار ، العلامة المجلسي: ٦٨/ ٢٩١.

(٤) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد: ١٩/ ٣٤٠.

قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به ولياً من أوليائه! فما أبلغ نصرته له! تارة بيده وسيفه، وتارة بلسانه ونطقه، وتارة بقلبه وفكره!

إن قيل جهاد وحرب فهو سيد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل وعظ وتذكير، فهو أبلغ الواعظين والمذكرين، وإن قيل فقه وتفسير، فهو رئيس الفقهاء والمفسرين، وإن قيل عدل وتوحيد، فهو إمام أهل العدل والموحدين:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[1]

٢ ـ وقال محمد كرد علي في مقال له عنوانه: (الانشاء والمنشئون): إذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم، ورسائلهم، ومحاوراتهم، ومصنفاتهم، وبدأنا بأهل القرن الأول للإسلام، نرى على رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فإنه سيد البلغاء على الاطلاق، وواضع بنيان البيان العربي، وكلامه ـ كما قال العارفون: بعد كلام الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ـ أبلغ كلام.

ونهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي من كلامه، وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد...

وقال أيضاً في مقال آخر له: وإذا طلبت البلاغة في أتم مظاهرها، والفصاحة التي لم تشبها عجمة، فعليك بنهج البلاغة الذي فيه خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ورسائله إلى عماله...[2].

٣ ـ وقال خديم الأسدي في حقّ مولاتنا زينب (عليها السلام) لما سمعها تخطب في الكوفة: ورأيت زينب بنت علي (عليه السلام) فلم أر خفرة أنطق منها كأنما تفرغ عن لسان أبيها (ع)[3].

٤ ـ وجاء في تأريخ اليعقوبي: كتب ملك الروم إلى عبد الملك يتوعده، فضاق عليه الجواب، وكتب إلى الحجاج، وهو إذ ذاك على الحجاز: أن ابعث إلى علي بن الحسين فتوعده وتهدده وأغلظ له، ثم انظر ماذا يجيبك، فاكتب به إلي! ففعل الحجاج ذلك، فقال له علي بن الحسين: إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة، وأرجو أن يكفينك في أول لحظة من لحظاته، وكتب بذلك إلى عبد الملك، فكتب به إلى صاحب الروم كتاباً، فلما قرأه قال: ليس هذا من كلامه، هذا من كلام عترة نبويه[4].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٧/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام): ج ٣٤ ص ١٠٠، العدد الأول [٣٤] السنة التاسعة/ محرم ـ صفر ـ ربيع الأول ١٤١٤ هـ.

(٣) مثير الاحزان، ابن نما الحلي: ٦٦، الدر النظيم، ابن حاتم العاملي: ٥٦٠، بحار الانوار، العلامة المجلسي: ٤٥/ ١٦٢ح٧.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٠٤.

٥ ـ وحكى ابن شهر آشوب كتابه مناقب آل أبي طالب: أن بعض البلغاء بالبصرة ذكرت عنده الصحيفة الكاملة ـ للإمام زين العابدين (عليه السلام) ـ فقال: خذوا عنى حتى أملي عليكم مثلها، فأخذ القلم والقرطاس وأطرق رأسه، فما رفعه حتى مات[1].

زعم الغض من معاليه حتى فضحته المزاعم الفاسدات[2]

٦ ـ وقال جابر عبد عبد الله الأنصاري للإمام الباقر (عليه السلام) في كلام جرى بينه: والله لا دخلت في نهي رسول الله (ص)، لقد أخبرني أنكم الأئمة الهداة من أهل بيته بعده، أحكم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً. فقال: لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم[3].

. ٧ ـ وذكر النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، قال: وخطب عبد الملك بن مروان، فلما بلغ العظة قام إليه رجل من آل صوحان فقال: مهلاً مهلاً يا بنى مروان، تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنهون، وتعظون ولا تتعظون : أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم:

اقتدوا بسيرتنا، فأنّى وكيف، وما الحجّة، وما المصير من الله ؟ أنقتدي بسيرة الظلَمة الفسقة الجورة الخونة، الذين اتخذوا مال الله دولاً، وعبيده خولاً ؟ وإن قلتم:

اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره من يغشّ نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام وليّناكم أمرنا، وحكّمناكم في دمائنا وأموالنا ؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطق منكم باللغات، وأفصح بالعظات ؟!

فتخلّوا عنها، وأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، ينتدب إليها آل رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلّم الذين شرّدتموهم في البلاد، ومزّقتموهم في كل واد، بل تثبت في أيديكم لانتضاء المدّة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة: إنّ لكلّ قائم قدراً لا يعدوه، ويوماً لا يخطوه، وكتاباً بعده يتلوه، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[4] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[5] ثم التمس الرجل فلم يوجد[6]

٨ ـ ويقول ابن الدمشقي في مقدمة كتابه جواهر المطالب: أما بعد فإني ما زلت لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم محباً، وعلى إمداحهم مكباً، نتنزه في روض

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٣/ ٢٧٩، بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٤٦/ ٢٧ح٣٣.

(٢) موسوعة المصطفى والعترة (عليهم السلام)، الحاج حسين الشاكري: ١٣/ ٤٦١.

(٣) كفاية الأثر، الخزاز القمي: ٥٦.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٦) نهاية الارب في فنون الأدب، النويري: ٧/ ٢٥٠، الأمالي، الشيخ المفيد: ٢٨٠ح٦، الأمالي، الشيخ الطوسي: ١٠٨ ـ ١٠٩ح١٩، بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٤٦/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧ح٢.

بلاغتهم البديع، المزدهي بأزاهر الربيع، وأتروى من مناهله الضافية، فأجد به ما يجده العليل من العافية[١].

إلى غير ذلك من الشهادات الكثيرة التي جاءت في الثناء على عظيم بلاغتهم وفصاحتهم، وعدم إمكان مباراتهم ومجاراتهم في الحكم والكلم، وكلها شواهد حق تنبئ عن علو قدرهم وشأنهم، فهم أرباب البلاغة، ومعدن العلم والحكمة، وهم ذرية بعضها من بعض، ولله در الحافظ البرسي إذ يقول في حقهم (عليهم السلام):

إذا جلسوا للحكم فالكلُّ أبكمٌ	وإن نطقوا فالدهرُ أذنٌ ومسمعُ
وإن ذكروا فالكونُ ندٌّ ومندلٌ	له أرجٌ من طيبهم يتضوعُ
وإن بارزوا فالدهرُ يخفق قلبه	لسطوتهم والأسدُ في الغاب تفزعُ
وإن ذكر المعروف والجود في الورى	فبحر نداهم زاخرٌ يتدفعُ
أبوهم سماء المجد والأم شمسه	نجومٌ لها برجُ الجلالة مطلعُ
فيا نسباً كالشمس ابيض مشرقاً	ويا شرفاً من هامة النجم أرفعُ
فمن مثلهم أن عدّ في الناس مفخرٌ	أعد نظراً يا صاح إن كنت تسمعُ
ميامين قوامون عزّ نظيرهم	هداة ولاةٌ للرسالة منبعُ
فلا فضل إلا حين يذكر فضلهم	ولا علم إلا علمهم حين يرفعُ[٢]

بلاغة فاطمة وفصاحتها:

إن جميع ما أثر عن مولاتنا الزهراء (عليها السلام) من كلم وحكم يشهد على قمة بلاغتها الرصينة، وعلمها الجم، ومنتهى فصاحة خطابها، وما خطبتها العصماء في المهاجرين والأنصار إلا شاهد واحد من مئات الشواهد التي تدل على عظيم قدرتها البلاغية الفائقة على أتم وجه، بحيث يعجز عن مباراتها سائر البلغاء والفصحاء والمتكلمين، ولا عجب في ذلك! فهي ابنة أفصل من نطق بالضاد، وهي سيدة نساء العالمين أجمع، فهذا الفرع من ذلك الأصل الكريم الذي شرّفه الله تعالى، واصطفاه على جميع الخلائق.

يقول الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير: من نافلة القول التأكيد على مقدرة الزهراء البيانية... والتحدث عن بلاغتها في فصل الخطاب.. فهي ابنة أفصح من نطق بالضاد، وهي زوج من فتق البيان على ألسنة العرب... تمرّست بلاغة القول في البيت النبوي..[٣].

ويقول السيد محمد جمال الهاشمي معقباً على ندبة الزهراء (عليها السلام): (يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه من ربه

(١) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي (عليه السلام)، ابن الدمشقي: ١/ ١٣.

(٢) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ٦/ ٤٦٧، مشارق أنوار اليقين، الحافظ رجب البرسي: ٧٥.

(٣) الزهراء (عليها السلام) من الوجه الآخر، الدكتور محمد حسين الصغير: ١٠٣.

ما أدناه) أرأيت كيف وفّت المقام حقّه، وكيف أدت في كلمتها الوجيزة رسالة المعاني السامية، ولو رام البليغ أن يقول كلمته الفاصلة في الموضوع لما تمكن أن يتجاوز الأمد الذي بلغته بلاغة الزهراء (عليها السلام) في كلمتها الغالية[1].

ويقول الكاتب عامر سعيد الدليمي في سبب تاليف كتابه (أساليب الإنشاء في كلام السيدة الزهراء (عليها السلام)): فإن السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من أهل بيت عرفوا بالفصاحة والبيان، فهم كما قال سيد البلغاء أمير المؤمنين (عليه السلام): إنا لأمراء الكلام، وفينا تنشبت عروقه، وعلينا تهدّلت غصونه[2] لذا قال الإمام الصادق (عليه السلام): أعربوا حديثنا فإنا قوم فصحاء[3]، ومع تصريحهم هذا بأنهم أمراء الفصاحة والبيان أولاً، وأن كلامهم في عصر الاحتجاج اللغوي ثانياً، إلا أن كلمتهم ظُلمت كما ظُلم أصحابها! إذ لم تجد تلك الكلمة مراغاً لتشق طريقها في الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية.

لذا صار في نفسي وأنا في السنة التحضيرية أن تكون دراستي لبحث الماجستير في كلام أحد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فبعد اطلاعي على ما تيسر لي منه وقع اختياري على كلام السيدة فاطمة (عليها السلام) ذلك الكلام اللغوي الذي عليه مسحة من نور النبوة، وفيه عبقة من أرج الرسالة، إذ كانت عند كلامها كأنها تفرغ عن لسان رسول الله (ص).

وقد تضمن كلامها المعاني الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم، من عقائد ومكارم أخلاق، وبعض أحكام وغيرها، وتلك المعاني قد صيغت بأساليب نحوية وبلاغية، جاءت على سنن العرب في كلامها، لذا وسمت البحث بـ (أساليب الإنشاء في كلام الزهراء (عليها السلام) دراسة نحوية بلاغية)[4].

بلاغة خطبة فاطمة في كلمات الأعلام والمحققين:

إن خطبة فاطمة الزهراء (عليها السلام) آية من آيات البلاغة والفصاحة والبيان، ويتضح ذلك جيداً لكل من يقرأ هذه الخطبة الشريفة، ويتدبر مقاصدها ومعانيها، فسوف يجدها في قمه البلاغة وفي منتهى البيان، وروعة الاسلوب.

ومن الضروري جداً الوقوف على أساليب خطبة الزهراء (عليها السلام) البلاغية، وما حوته من بديع الكلام، فإن مثل هذا الخطاب لا يصدر إلا عن أهل بيت النبوة، ومعدن العلم والتنزيل. ومما لا جدال فيه أن خطبتها (عليها السلام) تعد من فرائد خطب أهل البيت (عليهم

---

(١) الزهراء (عليها السلام)، السيد محمد جمال الهاشمي: ١١٠.

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام علي (عليه السلام): ٢/ ٢٢٦، رقم: ٢٣٣، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣/ ١٢، بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٣١ ص ٢٤٥.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني: ١/ ٥٢ح١٣، بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١ح٢٨.

(٤) أساليب الإنشاء في كلام السيدة الزهراء (عليها السلام)، عامر سعيد نجم عبد الله الدليمي: ٧ ـ ٨.

السلام) ومن روائع دررهم المكنونة، وقد جاءت هذه الخطبة حينما جاءت تبثها الزهراء (عليها السلام) على أسماع المهاجرين والأنصار، والألم يعتصر قلبها، ونفس مكلومة مما جرى عليها من القوم!!![1].

وإليك هنا بعض كلمات الأعلام والمحققين والتي سجلوا فيها انطباعهم الخاص، وإعجابهم الشديد ببلاغة خطبة الزهراء (عليها السلام) وأفصحوا فيها عن روعة بيانها، وفصاحة خطابها، وحسن أساليبها، وقيمة هذه الخطبة في دنيا الأدب والبلاغة، ومحلها من هذا الفن. فمن تلك الكلمات ما يلي:

١ - الإربلي (ت ٦٩٣ هـ): وحيث انتهى بنا القول إلى هنا فلنذكر خطبة فاطمة (عليها السلام) فإنها من محاسن الخطب وبدايعها، عليها مسحة من نور النبوة، وفيها عبقة من أرج الرسالة، وقد أوردها المؤالف والمخالف[2].

٢ - الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١ هـ): تلك الخطبة الغراء الساطعة عن سيدة النساء صلوات الله عليها التي تحير من العجب منها والإعجاب بها أحلام الفصحاء والبلغاء[3].

٣ - الشيخ محمد علي التبريزي الأنصاري (ت١٣١٠ هـ): اعلم إن هذه الخطبة الغراء، والدرّة البيضاء، خطبة في نهاية الفصاحة، وغاية البلاغة، من حيث عذوبة ألفاظها الكافية، وغرابة مضامينها الشافية، وجزالة معانيها الوافية، مع ما عليها من البهاء والجلالة، والرواء والديباجة، بحيث لو خوطب بها الجبال الشامخة لرأيتها خاشعة متصدعة، وإن لم تؤثر في تلك القلوب القاسية التي كانت كالحجارة أو أشد قسوة.

وهي كلام دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق، وهي موضع المثل (في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار)[4] ونسبتها إلى سائر الكلمات الفصيحة نسبة الكواكب المنيرة الفلكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية، وعليها مسحة من نور النبوة، وعبقة من أرج الرسالة.

وحق لها أن تكون بهذه المثابة، فإن متاع البيت يشبه صاحبه، والأثر يشبه مؤثره، فإنها صادرة من بضعة الرسول (ص) سلالة النبوة، وعصارة الفتوة، الصديقة الكبرى،

---

(١) جاء في حديث الخطبة الشريفة: وأقبلت.. حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والانصار، فنيطت دونها ملاءة، ثمّ أنّت أنّة أجهش القوم لها بالبكاء، وارتجّ المجلس (راجع: بلاغات النساء، ابن طيفور: ١٢، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٦/ ٢١١).

(٢) كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي: ٢/ ١٠٨.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٢٩/ ٢٤٦.

(٤) المرخ والعفار: وهما شجران تتخذ الاعراب زنودها منها فبين سبحانه أن من قدر على أن يجعل في الشجر الأخضر الذي هو في غاية الرطوبة نارا حامية مع مضادة النار للرطوبة حتى إذا احتاج الانسان حك بعضه ببعض فخرج منه النار، وينقدح، قدر على الإعادة، وتقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. قال الكلبي: كل شجر تنقدح منه النار إلا العناب. (مجمع البيان: ٨ / ٢٩١)

والإنسية الحوراء، مشكاة الضياء، أمّ الأئمة النقباء النجباء. سيدة النساء فاطمة الزهراء صلوات الله عليها...

إن تلك الخطبة الشريفة من عين صافية غير كدرة. لا يشوبها شبهة عيب، ولا يعتريها وصمة ريب، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب[1].

٤ ـ الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٨٣ هـ): ولا ننسى خطبتها البليغة التي يرن صداها إلى اليوم [2].

٥ ـ السيد محسن الأمين العاملي (ت ١٣٧١ هـ): إن فاطمة (عليها السلام) لما منعت فدكاً خطبت خطبة طويلة عظيمة جليلة، غاية في الفصاحة والبلاغة والمتانة، وقوة الحجة بمحضر من المهاجرين والأنصار[3].

٦ ـ السيد عبد الرزاق الموسوي المقرم (ت ١٣٩١ هـ): من الواضح الجلي أن هذه الخطبة من ذخائر بيت الوحي ولم يفتء رجالات العلويين ومشائخهم نسباً ومذهباً يتحفظون عليها، ويحرصون على روايتها لما فيها من حجج دامغة تثبت ظلامة العترة الطاهرة عند مناوئيهم ومبلغ أعدائهم من القساوة ودؤوبهم على الباطل، وتهالكهم دون التافهات، واضطهادهم ذريّة نبيّهم وتماديهم على الضلالة، وقد طفحت الكتب بذكرها. واشتبكت الأسانيد على نقلها في القرون الخالية وهلم جرا.

ومن استشف حقائقها، وألم بها إلمامة صحيحة ممتعة لا يشك في أنها تنهدات الصديقة الحوراء، وأنها نفثة مصدور، وغضبة حليمة لا تجد ندحة من الإصحار بالحقيقة حيث بلغ السكين المذبح، فصبتها في بوتقة البيان لتبقى حجة بالغة مدى الأحقاب، تعريفاً للملأ الديني في الحاضر والغابر محل القوم من الفظاظة والحيف المفضيين إلى عدم جدارتهم لمنصب الخلافة! وبعدهم عن مستوى الإمامة، ومباينتهم للحق!

على أن جملها شاهد فذّ على إثبات نسبتها إلى ابنة الرسالة لما فيها من الماعة ضوء النبوة، ونشرة من عبق الإمامة، ونفحة من نفس الهاشميين مدارة الكلام، وأمراء البلاغة[4].

٧ ـ السيد محمد كاظم القزويني (ت ١٤١٥ هـ). خطبت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) خطبة ارتجالية، منظمة، منسقّة، بعيدة عن الاضطراب في الكلام، ومنزّهة عن المغالطة والمراوغة، والتهريج والتشنيع.

بل وعن كل ما لا يلائم عظمتها وشخصيتها الفذّة، ومكانتها السامية.

وتُعتبر هذه الخطبة معجزة خالدة للسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وآية باهرة تدل على جانب عظيم من الثقافة الدينية التي كانت تتمتع بها الصدّيقة فاطمة الزهراء.

---

(١) اللمعة البيضاء، التبريزي الأنصاري: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) السقيفة، الشيخ محمد رضا المظفر: ١٥٩.

(٣) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ١/ ٣١٥.

(٤) وفاة فاطمة (عليها السلام)، السيد عبد الرزاق المقرم: ٨٥.

وأما الفصاحة والبلاغة، وحلاوة البيان، وعذوبة المنطق، وقوة الحجة، ومتانة الدليل، وتنسيق الكلام، وإيراد أنواع الاستعارة بالكناية، وعلو المستوى، والتركيز على الهدف، وتنوّع البحث، فالقلم وحده لا يستطيع استيعاب الوصف، بل لا بدّ من الاستعانة بذهن القارئ.

كانت السيدة فاطمة مسلّحة بسلاح الحجة الواضحة والبرهان القاطع، والدليل القوي المقنع، وكان المسلمون الحاضرون في المسجد ينتظرون كلامها، ويتلهّفون إلى نتيجة ذلك الحوار والاحتجاج الذي لم يسبق له مثيل إلى ذلك اليوم[(١)].

٨ - الشيخ باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٤ هـ): خطبت (عليها السلام) في الجامع النبوي خطاباً خالداً، وضعت فيه النقاط على الحروف، وبرزت فيه أعظم سيدة خلقها الله تعالى في الأرض، وذلك في مواهبها وعبقرياتها، وبما أوتيت من روائع الحكمة، وفصل الخطاب.

ونظراً لأهميته البالغة فقد كان أهل البيت (عليهم السلام) يلزمون أبناءهم بحفظه كما يلزمونهم بحفظ القران الكريم.

لا أكاد أعرف أن سيدة بهذا السن وهو سن التاسعة عشرة تستطيع أن تخطب مثل هذا الخطاب الذي يعجز عن الإتيان بمثله أي خطيب بارع في العالم، ولكن ذلك ليس غريباً وبعيداً على بقية النبوة، ومعدن العلم والحكمة التي غذاها أبوها بمعارفه، وأفاض عليها بمكوناته النفسية حتى صارت صورة صادقة عنه كما دلت على ذلك كوكبة من الأخبار[(٢)].

٩ - آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني: هذا ما ظهر ارتجالاً من علمها وحكمتها وفصاحتها وبلاغتها (عليها السلام) في مجلس واحد، مع المصائب التي صبت عليها، من فقد أبيها، وتظاهر الزمان عليها، فهي المشكاة التي ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[(٣)]، فهي مع اتصالها بنور السماوات والأرض باستغراقها في معرفة الله وعبادته، وانقطاعها بزهدها عن الدنيا وما فيها، لا تحتاج إلى اقتباس العلم بالتعلم[(٤)].

١٠ - السيد علي مكي العاملي: والزهراء (عليها السلام) عالمة غير معلّمة، علمها من أبيها (ص) وفي خطبتها التي خطبتها عند وفاة أبيها (ص) وعند منع أبي بكر لها من استلام أرض فدك وأخذها منها، تنبىء تلك الخطبة عن فصاحة متناهية، وبلاغة عالية، وعلم وافر، وإحاطة تامة بأحكام الله وكتاب الله، مضافاً إلى ما فيها من قوة الحجة، والدليل القاطع، والبرهان الساطع فيما ألقته على أبي بكر ومن معه من حجة لها، مما هو من القرآن والسنة.

---

(١) فاطمة الزهراء (عليها السلام) من المهد إلى اللحد: ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٢) موسوعة سيرة أهل البيت (عليهم السلام) فاطمة الزهراء (عليها السلام)، الشيخ باقر شريف القرشي: ٣٣٥/٩.

(٣) سورة النور، الآية ٣٥.

(٤) منهاج الصالحين، الشيخ وحيد الخراساني: ١/ ٣٠٠.

وقد أظهرت في هذه الخطبة ظلامتها، وما جرى عليها من حيف وأذى، وأنها رجعت مغاضبة للقوم، ومتألمة منهم، والنبي (ص) يقول بصريح القول، ويعلن إعلاناً لا لبس فيه، ولا مجال للتأويل: فاطمة شعرة مني، فمن آذى شعرة مني فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله[1].

١١ ـ السيد محمد مهدي الخرسان: كانت (خطبة الزهراء (عليها السلام)): الوحيدة في شهرتها، وبليغ بيانها، وقوة برهانها، كما أنها الفريدة في طولها، وما جرى عليها، وفيها من كلام ونقض وإبرام، وهي مدرسة لمن يريد تعلم أساليب الكلام في الجدل والخصام، ووثيقة متكاملة في تسجيل أحداث تلك الحقبة العصيبة، وتعرف بالخطبة (الكبيرة) وخطبة (اللمة) لقول الراوي في أولها يصف خروجها (عليها السلام) (في لمة من حفدتها)[2].

وقال في موضع آخر: ذكرت آنفاً مثلاً (نهج البلاغة) والآن أعود إلى ذكر نمط آخر في روعة الجلال إسلوباً وحجة وبياناً هو ما ورد عن الصديقة الزهراء (عليها السلام) خصوصاً في خطبتها الكبيرة التي لا تزال رغم تمادي السنين الطويلة على إنشائها تنفض عنها غبار السنين حين تلاوتها، وتجلجل في الأسماع بصوت صاحبتها سيدة النساء، بتلك النبرات الحزينة، وهي تخطب في مجمع الصحابة في مسجد أبيها، وكذلك خطبتها الصغيرة في بيتها على مسامع نساء المهاجرين والأنصار.

ففي كلتا الخطبتين وحتى كلامها مع عائشة بنت طلحة التي رأتها تبكي عليه(عليها السلام) فسألتها عن سبب بكائها فانفجرت عن ذلك ببيان لا يقصر عما في الخطبتين فصاحة وبلاغة، فهي في جميع ذلك كانت هي بضعة رسول الله (ص) الذي أوتي جوامع الكلم، وهو أفصح من نطق بالضاد، فكأنما تفرغ عن لسان أبيها، وهي بعد حليلة وصي رسول الله (ص) الذي ما سنّ الفصاحة لقريش إلا هو، كما شهد بذلك عدوه اللدود معاوية بن أبي سفيان مع محفن ابن أبي محفن[3].

فلا عجب، ولا بدع إن امتازت الخطب الفاطمية في روعة الأسلوب، وجلال المعنى، وفصاحة البيان..[4].

١٢ ـ الشيخ محسن المعلم: ثم الخطاب الأروع الذي جمع فأوعى، وأحاط بأصول الاعتقاد، وأسرار التشريع، ومحاسن الإسلام، وتاريخ الجاهلية، والمواقف المشرقة، والبلاء الجميل لمن ساهم في رفع دعامة الدين الجديد.

---

(١) معتقدات الشيعة، السيد علي السيد حسين مكي العاملي: ١٦٢.

(٢) نهاية التحقيق فيما جرى في أمر فدك للصديقة والصديق، السيد محمد مهدي الخرسان: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) راجع: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/ ٢٤ ـ ٢٥، مناقب أهل البيت (عليهم السلام)، المولى حيدر الشيرواني: ٢٢٤، بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٤١/ ١٤٦.

(٤) نهاية التحقيق فيما جرى في أمر فدك للصديقة والصديق، السيد محمد مهدي الخرسان: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

واقرأ فيها فصلاً مثيراً، وجلادة ومحاجّة محكمة، الطرف الأول فيها السيدة بنت محمد (ص)، والآخر رأس الحكم والدولة، وقد اتسمت بطول المخاصمة وسعتها، ومقارعة الدعوى بحجج القرآن الدامغة، بأسلوب رصين، غاية في الإحكام. حاكت فيه صياغة (نهج البلاغة) ونهج أبيها الذي أوتي فصل الخطاب وجوامع الكلم.

تعظ القوم في أتمّ خطاب حكت المصطفى به وحكاها[1]

ومن يسبر غورَ الخطبة البكر، ويقف على البيان، وقوة الجنان، والاحاطة بالأسرار والمعارف، ويلاحظ الترسُّل في المقال، وجميل الارتجال، ونفاسة الأثر، هذا وهي محزونة القلب، وقد أخذ منها المصاب مأخذه، وهي أنذاك لم تتجاوز عقدين من عمرها القصير، فإنه لا محالة ينبهر ويندهش ويعجب! لولا أن ذلك كلّه ينكشف سرُّه حينما يلتفت إلى أن هذا النتاج الأروع من ذلكم المعدن والمنبع، معدن النبوة، ونبع الإمامة، ولو قدّر للزهراء عمرٌ مديدٌ، وحياةٌ هادئةٌ لجادت بسنخ (نهج البلاغة) ولأثرتْ وأمدّت ولكن....!![2].

١٣ ـ الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير: خطبة الزهراء (عليها السلام) الغراء.. ظاهرة بلاغية تغني عن الإطراء، فهي تفرغ عن فصاحة أبيها (ص) في البيان، وتفصح عن لغة بعلها في الأداء، ولها منها عليها شواهد في أرقى فنون البلاغة، وحسبها الشاهد القرآني في كل مقطع من مقاطعها ترصيناً للحجة، واستيعاباً للبرهان، والآيات القرآنية المترادفة في سياق الخطبة تتراصف نصفاً، وتتواءم انسجاماً حتى طبقت المفصل، وحققت الهدف.

وإني لأعجب حقاً، ولغيري أن يعجب أيضاً من تسلسل الأفكار في ثناياها فكراً أثر فكر، وطرح القضايا بتوءدة واستيعاب، والتنقل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة للمتكلم، وبالعكس مع صحة التعبير، ودقة الارادة، ووضع النقاط على الحروف.

ولا أطيل عليك في تقييم هذه الخطبة الغراء، ولست سادراً في استقصاء آراء القدامى والمحدثين من الكتاب، وأرباب الصناعة في قوة أسرها، ونصاعة بيانها، وجمال أسلوبها، وأصالة محتوياتها، وافتنانها بأساليب التعبير الأخاذ، فذلك أمر مفروغ عنه، واستقراؤها يثبت صحة ما نقول.

وما أكثر من علّق على هذه الخطبة، وما أكثر من شرحها، وما أكثر من تناول لغتها، وما أكثر من درس البلاغة العربية في ضوء فقراتها تطبيقاً...[3].

١٤ ـ السيد سلمان هادي آل طعمة: وحين تقرأ خطبها ترى الفصاحة تتدفق من معين لسانها، لا ينكر مالها من قوة الحجة في الكلام والشهرة والبيان، اتصفت الزهراء

---

(١) الأزرية، الشيخ الأزري: ١٤١.

(٢) فاطمة (عليها السلام) صوت الحق الإلهي، الشيخ محسن المعلم: ٥ ـ ٦.

(٣) الزهراء (عليها السلام) من الوجه الآخر، الدكتور محمد حسين الصغير: ١١٧ ـ ١١٨.

بالشجاعة الأدبية، فأخرجت للناس دفائن الحكمة، وآيات الحق الناصعة، وسحر البيان الرائع، وأن من يمعن النظر في أسلوب الزهراء الخطابي الرصين وبلاغتها البيانية، وما ترمز اليه يتضح له ما ينطوي عليه خطابها من معان واضحة وبصيرة نفاذة.

وقد استطاعت أن تسيطر على نفوس مستمعيها، وهم في أحرج موقف، ولعل هذا هو بعض السر في نجاحها، ولا شك أنها ترمي إلى الإصلاح الشامل، وبيان الواجب الملقى على عاتق كل مسلم يؤمن بالقيم الروحية والمبادئ السماوية، ويتبع إرشادات القرآن والسنة النبوية.

لنستمع إلى خطبتها الغراء نصاً وهي تشهد بقدرتها الفائقة، ومكانتها السامية في عصرها وما تلاه الى يومنا هذا، وهي هنا لا تلقي الكلام على عواهنه، بل تزن كل كلمة تقولها بميزان الحقيقة والانصاف، فتعجب بفهمها وذكائها كل الإعجاب[١].

١٥ - الدكتور السيد فاضل الميلاني: لايستعظم على الزهراء (ع) بلاغتها، بعد أن اتفق المؤرخون على أنها كانت أشبه الناس بأبيها، وفي ذلك قالت عائشة: ما رأيت أحداً كان أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله (ص) من فاطمة[٢] وكنموذج على بلاغتها نكتفي بهذه الخطبة.. الخ[٣].

وقال بعد أن ذكر الخطبة الثانية للزهراء (عليها السلام) في نساء المهاجرين والأنصار: هذه الخطبة نموذج واحد من بلاغة بضعة النبي 'فاطمة الزهراء (عليها السلام) وهي عند التحليل الأدبي ترقى إلى مصاف النماذج الفذة للنثر الفني في عصر صدر الإسلام، وإذا استثنينا بلاغة الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، فإن للناقد الأدبي أن يحكم بسهولة قصور كلّ من عاش في تلك الفترة، بل وحتى في الفترات اللاحقة لها، عن مسايرة الزهراء (عليها السلام) في مستواها البلاغي الشامخ[٤].

١٦ - الشيخ ضياء الجواهري: ومن يعرف مواضع الجودة في الكلام، ويلتمس بدائع الصنعة فيه يرى أن الزهراء صلوات الله وسلامه عليها التي لم تبلغ من العمر ما به تستطيع أن تغنيها التجارب، وتجري بين يديها الأمثال ثمانية عشر عاما هو كل عمرها المبارك، ومع هذا فقد امتطت ناصية الكلام، وجاءت بالعجب العجاب، وحيّرت العقول والألباب بما احتوى منطقها من حكمة وفصل الخطاب، وهي المثكولة بأبيها خاتم الأنبياء (ص) ولا عجب فهم

---

(١) فاطمة الزهراء، أم السبطين (عليها السلام)، السيد سلمان هادي آل طعمة: ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) الادب المفرد، البخاري: ٢٠٩ح١٠٠٠، السنن الكبرى، النسائي: ٥/ ٣٩٢ ح ٩٢٣٧، الآحاد والمثاني، الضحاك: ٥/ ٣٥٨ح٢٩٤٧، نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ١٨٠، الذرية الطاهرة النبوية، محمد بن احمد الدولابي: ١٣٩ - ١٤٠ح١٧٥.

(٣) **فاطمة الزهراء أم أبيها** (عليها السلام)، السيد فاضل الميلاني: ٩٩.

(٤) **نفس المصدر السابق**: ١٠٢.

أئمة الكلام، وأمراء البيان، ومن يتأمل خطبتها سلام الله عليها التي رددتها الأجيال، وتناولها المحققون والشراح يجد ما نرمي إليه جلياً واضحاً[١].

١٧ ـ الكاتب الأديب عبد الحسن علي حبيب شبيب الناصر: لقد مثلت السيدة الزهراء (عليها السلام) الأنموذج الأكمل الذي صاغته الرسالة المحمدية منهجاً وسلوكاً ومنطقاً، فقد امتاز خطابها بعمق المعاني، ودقة البيان، وفصاحة الألفاظ، وقوة التركيب، وجمال الأسلوب، وحسن الأداء، مفصحة عن بلاغة أبيها (ص) وفصاحته، ومنطق علي وخطابه، حتى عدت خطبتها الفدكية نهج البلاغة الصغير، فهي تلخص نهج البلاغة ومعارفه كما تلخص الفاتحة القران الكريم، فيقف البلغاء والفصحاء بإجلال وإعظام أمام فصاحتها، وجوهر منطقها[٢].

وقال: من خلال دراستنا للتركيب الجملي في خطابها (عليها السلام) نلاحظ البناء الرصين الذي تحقق من خلال تماسك النص وتلاحمه، ووحدة البناء، ودقة المعنى، وقوة التراكيب ومتانتها، يُظهر كل ذلك براعة أسلوب الخطيبة ومتانته، وقوة منطقها.. وتميّز خطابها بفصاحة الألفاظ وجزالتها، ودقة عمقها الدلالي، وجمالية انتقائها للألفاظ ووضعها في موضعها[٣].

١٨ ـ لجنة التأليف بإشراف السيد منذر الحكيم: ويكفيك دليلاً.. على سموّها فكراً، وكمالها علماً ما جادت به قريحتها من خطبتين ألقتهما بعد وفاة رسول الله (ص) إحداهما بحضور كبار الصحابة في مسجد الرسول (ص) والأخرى في بيتها، وقد تضمّنتا صورا رائعةً من عمق فكرها وأصالته، واتّساع ثقافتها، وقوّة منطقها، وصدق نبوءاتها فيما ستنتهي إليه الأمّة بعد انحراف القيادة، هذا فضلاً عن رفعة أدبها، وعظيم جهادها في ذات الله، وفي سبيل الحقّ تعالى.

لقد كانت الزهراء (عليها السلام) من أهل بيت اتقوا الله، وعلّمهم الله ـ كما صرح بذلك الذكر الحكيم ـ وهكذا فطمها الله بالعلم فسمّيت فاطمة، وانقطعت عن النظير فسمّيت بالبتول[٤].

١٩ ـ الدكتور عبد الحسين رزوقي الجبوري:: لقد شهدت حياة الزهراء (عليها السلام) في حديثها وخطبها بلاغة الأسلوب، وقوة العبارة، وكانت خطبتها بحقها في فدك وخيبر مثالاً للوصف الذي يعجز الفرد أن يصل كماله، وأن يشخص كيفيته.. ويتضح لمن يقرأ ويتدبر

---

(١) فاطمة الزهراء الحوراء الإنسية (عليها السلام)، الشيخ ضياء الجواهري: ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) خطاب الزهراء (عليها السلام) في ضوء منهج التحليل اللغوي، عبد الحسن علي الناصر: ١.

(٣) نفس المصدر: ٣٠٢.

(٤) فاطمة الزهراء سيدة النساء (عليها السلام) (أعلام الهداية)، تأليف المجمع العالمي لاهل البيت (عليهم السلام): ٣٥ ـ ٣٦.

خطب الزهراء (عليها السلام) سيجد أنها احتوت قوة البيان، ومسائل التوحيد، وصفات الخالق وأسمائه الحسنى، وأهمية القرآن الكريم، وفلسفة الأحكام وأسرارها [١].

٢٠ ـ السيد علي عباس الموسوي: كلامها يخرس كلَّ بليغ عن الكلام، بنت أفصح من نطق بالضاد، وزوجة إمام البيان هي فاطمة بنت محمد بن عبد الله، أمكنها بكلمات مختصرة أن توضح الموقف، وتجلي الحقيقة لتكون شهادة عيان على أمر اكتنفه الغموض والابهام لعوامل السياسة والغلبة فلم يعد الأمر من الوضوح بما يمكن استجلاؤه إلا من خطبة الزهراء (عليها السلام) التي لم يستطع أن يتجاهلها الكثيرون وإن حاولوا التقليل من أهميتها أو نسبة الأمر إلى ثورة عصفت بالزهراء (عليها السلام) فلما استقر بها الأمر لم يعد في نفسها شيء، وحاول بعضهم مناقضة الحقيقة بالمزيفات ولكن الحقيقة تبقى جارحة لكل تلك المزيفات [٢].

واستطاعت الزهراء (عليها السلام) بقوة بلاغتها أن توضح مفاصل الأمور، وتضع النقاط على الحروف لكي لا يتم التجاوز... [٣].

٢١ ـ الكاتب السوداني المستبصر عبد المنعم حسن: خطبة فاطمة (عليها السلام) شعلة الحق، إنها خطبة يعجز الإنسان عن وصفها، ويؤمن ويصدق بأنها معجزة احتجت بها أمام الخليفة الأول أبي بكر، ودقة معانيها، وقوة بيانها تؤكد صحة نسبتها للطاهرة المعصومة فاطمة بنت محمد (ص) [٤].

٢٢ ـ الكاتبة السيدة زينب عبد الله كاظم الموسوي: ليس من الغريب إذا قلنا أن السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) مدرسة في الفصاحة والبلاغة والإعجاز، فهي قد اغترفت من معين القرآن وعلومه التي لا تنضب، ومن أحاديث أبيها (ص) وكلامه المتّسم بالبيان الذي عجز الكثيرون عن مجاراته، لذلك اشتهرت بفصاحة اللسان وقوّة البلاغة والبيان، ولو أخذنا خطبها من دون كلامها لوجدناها تحمل في كلماتها وعباراتها مختلف الفنون البلاغية والموضوعات البيانية، حتى يمكن القول بأن خطبتيها تعدّان مدرسة مستقلة لفنّ الخطابة، ولو لم يكن لها إلا هاتين الخطبتين لكفى، ولما عدونا القول بأنها رائدة ومعلمة لأصول الخطابة، وليس هذا فحسب، بل امتازت بالأقوال المأثورة، والسيدة الزهراء (عليها السلام) قالت من الشعر ما قالت في رثاء أبيها (ص) وإن كانت لها شؤون تصرفها عن الشعر، إذ أن كلامها وفصاحتها أرفع مستوى وأدقّ معنى،

---

(١) بحث للدكتور عبد الحسين رزوقي الجبوري. (كلية التربية ابن رشد / جامعة بغداد) والباحث عبد الأمير حاووش رئيس جمعية الحكمة المشرقية/ الكاظمية بغداد.

(٢) فدك وفاطمة (قصة جهاد الزهراء (عليها السلام)) السيد علي عباس الموسوي: ٩٤.

(٣) نفس المصدر: ١٠٨.

(٤) سور فاطمة اهتديت، عبد المنعم حسن: ٢٤١.

وفي كل كلامها سواء كان نثراً أم شعراً نلاحظ قوّة البلاغة والفصاحة، وعذوبة الألفاظ ذات المحتوى، والمضمون الهادف[1].

ومن كلمات أعلام العامة في بلاغة خطبة الزهراء (عليها السلام) مايلي:

١ ـ الكاتب المصري عباس محمود العقاد (ت ١٣٨٣ هـ): ومما ذكره حول هذه الخطبة الشريفة، هو قوله: إن هذا النصيب من البلاغة إذا استكثر على السيدة فاطمة (عليها السلام) فما من أحد في عصرها لا يستكثر عليه! لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء وتحدث الناس... قالت عائشة: ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله (ص) من فاطمة[2].

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها ` قيل على ألسنة الثقات جميعاً، ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة أن امرأة في فضلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلاً على سائر النساء في حلمها ورصانتها، ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة إذا نسب إليها.

ولماذا تستعظم على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته في حديثه؟ ولماذا تستعظم على زوجة الإمام الذي اتفق المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته، وهي مضرب الأمثال؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللبّ الراجح؟[3].

٢ ـ الاستاذ توفيق ابو علم: أوتيت الزهراء رضي الله عنها كسائر أهل البيت حظاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة، فكلامها متناسب الفقر، متشاكل الأطراف، تملك القلوب بمعانيه، وتجذب النفوس بمحكم أدائه ومبانيه، فهي في البيان من أغزر القوم مادة، وأطولهم باعاً، وأمضاهم سليقة، وأسرعهم خاطراً، وأنه ليتبين ذلك خاصة في خطبتها وكلامها في بيعة أبي بكر، وخلافها معه بشأن فدك[4].

ثم نقل الخطبة من كتاب (بلاغات النساء لابن آبي طيفور) وقال بعد تمام الخطبة: والمشهور عن السيدة الزهراء رضي الله عنها إنها كانت قوية العارضة، خطيبة بارعه، إذا ما

---

(١) خطب سيدات البيت العلوي حتى نهاية القرن الأول الهجري (دراسة موضوعية)، زينب عبد الله كاظم الموسوي: ١٧.

(٢) راجع: العقد الفريد، الأندلسي: ٣/ ٢٣٠، صحيح ابن حبان: ١٥/ ٤٠٤، الأدب المفرد، البخاري: ٢٠٢، السنن الكبرى، النسائي: ٥/ ٣٩٢ح٩٢٣٧، المعجم الأوسط، الطبراني: ٤/ ٢٤٢، ذخائر العقبى، أحمد بن عبد الله الطبري: ٤١.

(٣) فاطمة الزهراء (عليها السلام) والفاطميون: عباس محمود العقاد: ٥٢، فاطمة الزهراء (عليها السلام)، موسوعة عباس محمود العقاد: ٣/ ٤٦.

(٤) أهل البيت (عليهم السلام)، توفيق أبو علم: ١٥٧.

انبرت المنابر هزّت القلوب والمشاعر، وإن خطبتها على جمهرة من المهاجرين والأنصار آية على ثبت بديهتها، وحضور ذهنها[1].

وقال أيضاً: وأخيراً لا غرابة في فصاحتها وبلاغتها، لأنها كما قدّمنا نشأت في بيت النبوة[2].

٣ ـ الكاتب محمد كامل حسن المحامي: كانت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من أبلغ نساء العرب، وبلاغة الزهراء ليست أمرا غريباً، بل الغريب في الأمر ألا تكون بليغة، إذ أن أباها الرسول صلى الله عليه (وآله) وسلم كانت أقواله الشريفة وما زالت أفصح ما قيل باللغة العربية بعد القرآن الكريم.

وبلاغة الإمام علي بن أبي طالب أمرٌ مسلّم به، وأقواله تعتبر من أثمن وأنفس الذخائر في اللغة العربية... [3].

٤ ـ الشيخ فارس الصليبي: ومالنا نتحدث عن فاطمة (عليها السلام) فلنستمع إلى بعض حديثها هي. فكلامها أحلى، ولسانها أفصح، وعلمها أغزر، كنت أعرف أن فاطمة (عليها السلام) بليغة وعليمة، ولكني قبل أن أقرأ ما سأعرض على القارئ الكريم لم أكن أعرف لها هذا القدر من البلاغة، ولا هذا القدر من الإحاطة بأصول الدين وفروعه، من خطابها للمهاجرين والأنصار: ابتدئ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد، الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر بما ألهم..الخ[4].

شرح خطبة فاطمة في المؤلفات والكتب:

هذا وقد أفرد جملة من العلماء والمحققين شروحاً لخطبة الزهراء (عليها السلام) من الخاصة والعامة، وقد استشهدت ببعض مفرداتها جملة من كتب اللغة والأدب لما لها من أصالة، وقيمة كبيرة في هذا الباب.

يقول الكاتب الأديب عبد الحسن الناصر: ولأهمية خطابها وعظمته، ودقة مضامينه، وغوامض مفرداته، فقد تناولت مجموعة كبيرة من الكتب والمؤلفات شرح خطابها، وتبيين غوامض ألفاظه، وإظهار دقائق معانيه، وكشف أسراره، فوفرت بذلك ثروة علمية ضخمة أثرت المكتبة الإسلامية...[5].

---

(١) نفس المصدر: ١٦٠.

(٢) نفس المصدر: ١٦٢.

(٣) **فاطمة الزهراء (عليها السلام)**، محمد كامل حسن المحامي: ١٢١.

(٤) **مجلة المرشد** العددان ٧ ـ ٨، السنة الرابعة ١٤١٨ هـ: ص١٥١.

(٥) **خطاب الزهراء (عليها السلام)** في ضوء منهج التحليل اللغوي، عبد الحسن علي الناصر: ٣.

ويقول الشيخ حسن أحمد العاملي: ونظراً للأهمية البالغة لهذه الخطبة فقد تناولها العلماء بالدراسة والشرح والتحليل إلى حد أن الشروح الخاصة بالخطبة تجاوزت العشرين شرحاً باللغة العربية، والثلاثين شرحاً باللغة الفارسية، هذا بالإضافة إلى خمسة شروح بلغات أخرى كالفرنسية والتركية والأردوية[1].

وإليك فيما يلي كشفاً بأسماء الكتب المؤلفة في شرح الخطبة الشريفة، وفيها يظهر أقدم شرح لها، وهي كما يلي:

١ ـ شرح خطبة فاطمة (عليها السلام):

في كتاب شرح الأخبار للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت ٣٦٣هـ).

٢ ـ تفسير خطبة فاطمة (عليها السلام) معربة

للشيخ ابن عبدون البزاز المعروف بابن الحاشر(ت ٤٢٣ هـ)، ذكره النجاشي ورواه عنه[2] وهو من مشايخ أبي العباس النجاشي والشيخ الطوسي[3].

٣ ـ شرح خطبة فاطمة (عليها السلام)

لابن الأثير مجد الدين المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٠٦ هـ) في كتابه منال الطالب في شرح طوال الغرائب.

تحقيق الدكتور الفاضل محمود محمد الطناحي (طبع في الصفحات) ٥٠١ ـ ٥٣٤، وهو الكتاب الثامن من سلسلة (من التراث الإسلامي) منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة، بالمملكة العربية السعودية.

٤ ـ شرح خطبة فاطمة (عليها السلام)

للعلامة الشيخ المجلسي (ت ١١١١ هـ) ذكرها في كتابه (بحار الأنوار: ج ٢٩ ص ٢٤٧ ـ ٣١١) وقد قام مشكوراً العلامة الشيخ عبد الزهراء العلوي بتحقيقها والتعليق عليها في كتاب اسماه (الفريدة في لوعة الشهيدة (عليها السلام) من موسوعة بحار الأنوار) ط الأولى سنة ١٤٢٦ هـ نشر دليل ما، قم ـ إيران.

٥ ـ كشف المحجة في شرح خطبة اللمة

للسيد عبد الله شبر (ت ١٢٤٢هـ)[4].

---

(١) فدك هبة النبوة، الشيخ حسن أحمد الهادي العاملي: ٢٢٧.

(٢) رجال النجاشي: ٨٧، رقم: ٢١١. أمل الآمل، الحر العاملي: ٢/ ١٦. رقم: ٣٥. الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ١٣/ ٢٢٤.

(٣) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: الذريعة: ٤/ ٣٤٨. رقم: ١٥٣٢.

(٤) تفسير شبر، السيد عبد الله شبر: ٣٥.

٦ - شرح خطبة اللمة

للشيخ المولى هادي البنابي صاحب (شرح الخطبة الزينبية) [١] وهو من الفقهاء المحدثين المعاصرين للعلامة الشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١ هـ[٢].

٧ - شرح خطبة اللمة[٣]

للمولى محمد نجف الكرماني المشهدي (ت ١٢٩٢هـ) [٤].

٨ - شرح خطبة اللمة.

للعلامة الميرزا خليل الكمرئي نزيل طهران، اسمه (ملكه‌ء اسلام) وهو فارسي مطبوع[٥].

٩ - اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء (عليها السلام)

للشيخ ميرزا محمد علي الأنصاري (ت ١٣١٠هـ) تحقيق السيد هاشم الميلاني نشر مؤسسة الهادي ط الأولى: سنة ١٤١٨ هـ ق إيران – قم.

١٠ - شرح خطبة اللمة

للسيد علي محمد تاج العلماء بن السيد محمد سلطان العلماء بن السيد دلدار علي النقوى المتوفى بلكنهو سنة ١٣١٢ هـ[٦].

١١ - الدرة البيضاء في شرح خطبة فاطمة الزهراء (عليها السلام)

للسيد محمد تقى بن السيد إسحاق القمى (ت ١٣٤٤ هـ) عناوينه (المتن - الشرح - اللغة - الإعراب - المعنى)[٧] طبع في إيران سنة ١٣٥٣هـ.

١٢ - شرح خطبة اللمة

للشيخ فضل علي بن المولى ولي الله القزويني (ت ١٣٦٧ هـ) [٨].

١٣ - شرح خطبة الزهراء (عليها السلام)

للسيد علي آكبر ابن الميرزا محمد جعفر الحسني الحسيني اليزدي [٩].

١٤ - الدرة البيضاء في شرح خطبة الزهراء (عليها السلام)

للسيد هادى بن حسين بن جواد الحسينى الصائغ البحرانى (ت ١٣٧٧ هـ) تحقيق محمد جواد نور الدين، نشر دار الجواد، بيروت – لبنان، بمساعي مكتبة السيد الحكيم العامة.

---

(١) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ١٣/ ٢٢٥، رقم: ٧٩٩.

(٢) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ١٣/ ٢٢١، رقم: ٧٨٥.

(٣) سميت باللمة لأن الزهراء (عليها السلام) خطبتها في لمة من النساء في المسجد.

(٤) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ٢٢٤/١٣، رقم: ٧٩٨.

(٥) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ٢٢٤/١٣، رقم: ٧٩٨.

(٦) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ١٣/ ٢٢٤.

(٧) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ٨/ ٩٣، رقم: ٣٣٨.

(٨) الذريعة، آقا بزرك الطهراني: ١٣/ ٢٢٤، رقم: ٧٩٦.

(٩) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ٨/ ١٧١.

١٥ - شرح خطبة الزهراء (عليها السلام)

للسيد محمد سعيد بن السيد ناصر حسين النقوي(ت ١٣٧٨ هـ)[١].

١٦ - شرح الخطبة الكبيرة للزهراء البتول (عليها السلام)

للشيخ مسلم بن محمد بن جاسم الجابري (ت ١٣٨٢ هـ) طبع في النجف الأشرف.

١٧ - شرح خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام)

للسيد عز الدين الحسيني الزنجاني، قم، نشر مكتب الإعلام الإسلامي.

١٨ - شرح خطبة فاطمة (عليها السلام) فارسي.

لأحمد بن عبد الرحيم.

١٩ - شرح خطبة الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام)

للشيخ محمد طاهر آل شبير الخاقاني (ت ١٤٠٦ هـ)، ط الأولى سنة ١٤١٢ هـ، نشر أنوار الهدى - قم المقدسة.

٢٠ - شرح خطبة فاطمة الزهراء (عليها السلام)

للشيخ نزيه قميحة. طبع في بيروت، نشر مؤسسة الوفاء، سنة ١٤٠٥ هـ

٢١ - فاطمة (عليها السلام) صوت الحق الإلهي

للشيخ محسن المعلم، ط الأولى سنة ١٤١٨ هـ نشر دار الهادي، بيروت - لبنان.

٢٢ - إشراقات فكرية من أنوار الخطبة الفدكية

للشيخ حبيب الهذيبي، نشر مؤسسة الهداية، ط الأولى سنة ١٤١٦ هـ، بيروت — لبنان.

٢٣ - شرح خطبة الزهراء (عليها السلام)

وهو كتاب يحوي على ثلاثة شروح لثلاثة من الأعلام، وهم العلامة المجلسي والقاضي النعمان، والأنصاري التبريزي، وهو من تحقيق وإعداد السيد باقر الكيشوان الموسوي، ط الأولى سنة ١٤٣٠ هـ نشر مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان.

أضف إلى ذلك أيضا ما ذكرناه في الجزء الحادي عشر من الشروح والدراسات الحديثة في البلاغة والأدب العربي.

بلاغة خطبة فاطمة (ع) في البحوث والدراسات الأكاديمية:

ومن المقاصد المهمة هنا أن نستعرض كشفا بأسماء بعض الدراسات العلمية الأكاديمية التي تناولت خطبة الزهراء (عليها السلام) بالبحث والدراسة في علم البلاغة واللغة العربية، ومن باب ما لايدرك كله لا يترك كله، لكي يقف القارئ الكريم على أسرار بلاغة الزهراء (عليها

(١) خلاصة عبقات الأنوار، السيد حامد النقوي: ١/ ١٥١.

السلام) وعلمها الجم، بقلم ذوي الاختصاص في الدراسات الحديثة، ومما لا شك فيه أن جميع خطب الزهراء (عليها السلام) وكلماتها الشريفة تستحق الدراسة والوقوف على مضامينها، ومقاصدها العالية، ونشير هنا إلى أن هذه الخطبة الشريفة قد استهوت جملة من الأعلام في هذا الفن وشرحوها ومنهم العلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ).

ومما يلوح في الأفق في هذا العصر هو اتجاه بعض الباحثين والدارسين من طلاب الجامعات الإسلامية وغيرها إلى دراسة خطبتي الزهراء (عليها السلام) بلاغياً وأدبياً، والوقوف على عطائها الجم في هذا الباب، وقد لمسنا حديثاً اهتمامهم في ذلك، بينما كان سابقاً مقتصراً على شرح معانيهما في اللغة فقط، مما نلمس تطوراً ملحوظاً في شمولية هذه الدراسات النافعة لتراث آهل البيت (عليهم السلام)[١].

وقد اتفقت كلمة جملة من الكتاب والمتخصصين في علم البلاغة والأدب العربي أن معظم الدراسات في شرح خطبة الزهراء (عليها السلام) لم تكن بهذه الشمولية والسعة كما عليه الآن، وأن الدراسات والبحوث الأكاديمية المطروقة في هذا الباب المهم تعد قليلة جداً بشكل ملحوظ، ولهذا طالبوا الدارسين والباحثين في هذا الاختصاص بالتوجه إلى دراسة خطبة الزهراء (عليها السلام) وأخذها بعين الإعتبار لأهميتها الدينية والعلمية.

يقول السيد محمد كاظم الحسيني الحكيم في تقديمه لكتاب (أدب فاطمة (عليها السلام) للدكتور محمود البستاني): ومن المؤسف أن المجتمع الإسلامي لم يتوفّر على أمثال هذه الكتابة إلا نشاطات معدودة مما يشير إلى مظلومية الصدّيقة الطاهرة (عليها السلام)[٢].

ويقول الدكتور: حسين لفته حافظ في بحثه (المعاني البلاغية في خطبة الزهراء (عليها السلام)): ولعل السبب الذي دفعني إلى دراسة هذه الخطبة من الجانب البلاغي هو إهمال أغلب الدارسين لهذا الجانب على الرغم من بروزه واضحاً في كلام الزهراء (عليها السلام) إذ أن اهتمام الدارسين السابقين كان ينصب على دراسة الجوانب الموضوعية والفقهية حصراً[٣].

ويقول الكاتب عامر سعيد نجم عبد الله الدليمي: إن السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من أهل بيت عرفوا بالفصاحة والبيان.. إلا أن كلمهم طلمت كما طلم أصحابها! إذ لم تجد تلك الكلمة مراغاً لتشق طريقها في الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية[٤].

---

(١) ومن هذه الدراسات الحديثة أيضاً حول بلاغة مولاتنا السيدة زينب (عليها السلام)، مايلي:

١ ـ (الجانب البلاغي في خطابات السيدة زينب (عليها السلام)) الدكتورة إنسية خزعلي، عضو الهيئة التعليمية ـ جامعة الزهراء (عليها السلام).

٢ ـ (أساليب الإنشاء الطلبي في خطبة السيدة زينب (عليها السلام) في الشام) إعداد م. م تماضر قائد راضي، جامعة الكوفة/كلية التربية/ قسم اللغة العربية.

(٢) ادب فاطمة (عليها السلام)، الدكتور محمود البستاني (المقدمة): ٥ ـ ٦.

(٣) موقع: مركز الدراسات الفاطمية في البصرة.

(٤) أساليب الإنشاء في كلام السيدة الزهراء (عليها السلام)، عامر سعيد نجم عبد الله الدليمي: ٧.

ويقول أيضاً في هذا السياق الكاتب محمد منصور حسن في دراسته: (الاتساق النحوي والمعنى/كلام الزهراء (عليها السلام) نموذجاً): ومع هذا كله تكاد الدراسات الأكاديمية اللغوية تكون خالية من تتبع كلام الزهراء (عليها السلام) الذي يمثل ثروة منقطة النظير [1].

ويقول الكاتب عبد الحسن علي حبيب شبيب الناصر في رسالته التي أعدها للماجستير (خطاب الزهراء (عليها السلام) في ضوء منهج التحليل اللغوي): تناول بعض الدارسين بيان خطابها في مؤلفاتهم منهم السيد محمد كاظم القزويني في كتابه (فاطمة (عليها السلام) من المهد إلى اللحد) والدكتور المرحوم محمود البستاني في كتابه (أدب الشريعة الإسلامية) في الفصل الثالث تحت عنوان (أدب فاطمة الزهراء (عليها السلام)) والمفكر الإسلامي المرحوم الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه (حياة سيدة النساء فاطمة الزهراء (عليها السلام)) تحت عنوان (الخطاب التاريخي الخالد لسيدة النساء) والشيخ فاضل الفراتي في كتابه (عظمة الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء (عليها السلام)) في الفصل السابع تحت عنوان (مقاطع من خطبة الزهراء (عليها السلام)).

ولم أجد دراسة لغوية أكاديمية تناولت خطاب السيدة الزهراء (عليها السلام) غير رسالتين:

الأولى: رسالة الماجستير للطالب عامر سعيد الدليمي في دراسته (أساليب الإنشاء في كلام السيدة الزهراء (عليها السلام)) فتطرّق إلى أساليب نحوية وبلاغية، والسياق الذي ضمّ ذلك الأسلوب مقتصراً بدراسته على ما ذكر دون التطرق إلى الجوانب التحليلية الأخرى للخطاب، فكانت دراسة وجهداً متميّزاً يستحق الثناء، وقد طبعت هذه الرسالة مؤخّراً.

ودراسة الباحثة زينب الموسوي في رسالتها للماجستير الموسومة بـ(خطب سيدات البيت العلوي حتى نهاية القرن الأول الهجري) فكانت دراستها موضوعية فنّية، شملت بدراستها سيدات البيت العلوي ومنهن السيدة الزهراء (عليها السلام) [2].

أقول: ونذكر هنا بعض ما عثرنا عليه من المؤلفات أو المحاضرات في خصوص بلاغة الزهراء (عليها السلام) وأدبها، وهي كالتالي:

١ - (البلاغة الفاطمية)

مجموعة خطب فاطمة الزهراء (عليها السلام). ط الغري ١٩٥٢ م ط الثالثة ٢٠ صفحة [3].

قال الشيخ آغا بزرك الطهراني: (البلاغة الفاطمية) في خطبها (عليها السلام) مع تعليقات عليها في بيان معانيها. طبع في النجف بمطبعة الغري الحديثة لعبد الرضا بن محمد علي المطبعي [4].

---

(١) الاتساق النحوي والمعنى (كلام الزهراء (عليها السلام) نموذجا): ١٢٠.

(٢) خطاب الزهراء (عليها السلام) في ضوء منهج التحليل اللغوي عبد الحسن علي حبيب شبيب الناصر: ٤.

(٣) راجع: معجم المطبوعات النجفية، الشيخ محمد هادي الأميني: ص ١٠٩، رقم: ٢٧٢.

(٤) الذريعة لآغا بزرك الطهراني: ٢٦/ ١٠٧ رقم: ٥١٢.

٢ - أدب فاطمة الزهراء (عليها السلام)
للسيد محمد جمال الهاشمي[١].
٣ - أدب فاطمة الزهراء (عليها السلام)
للدكتور محمود البستاني، نشر مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر، ط الأولى سنة ١٤٢٥هـ.
٤ - المعاني البلاغية في خطبة الزهراء (عليها السلام)
بقلم الأستاذ المساعد الدكتور: حسين لفته حافظ مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م.
٥ - أساليب الإنشاء في كلام السيدة الزهراء (عليها السلام) (دراسة نحوية بلاغية)
للكاتب عامر سعيد نجم عبد الله الدليمي، ط سنة ١٤٣٢ هـ نشر العتبة العلوية المقدسة. النجف الأشرف - العراق.
٦ - التقديم والتأخير في خطبة الزهراء (عليها السلام) (دراسة دلالية)
للكاتب ميثاق الصيمري.
٧ - خطاب الزهراء (عليها السلام) في ضوء الفدكية (خطبة تلخيص نهج البلاغة)
للسيد علي أكبر رشاد (بحث غير منشور ألقي في المؤتمر الدولي حول شخصية الزهراء (عليها السلام) في جامعة الكوفة سنة ١٤٣٣ هـ).
٨ - الاتساق النحوي والمعنى (كلام الزهراء نموذجاً)
(رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها)
للطالب محمد منصور حسن.
٩ - المثال في خطاب الزهراء (عليها السلام)
للدكتور عباس علي الفحام (بحث غير منشور ألقي في المؤتمر الدولي حول شخصية الزهراء (عليها السلام) في جامعة الكوفة سنة ١٤٣٣ هـ)
١٠ - خطاب الزهراء (عليها السلام) في ضوء منهج التحليل اللغوي
(رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها)
للطالب عبد الحسن علي حبيب شبيب الناصر
١١ - أسلوب الاستفهام في خطاب السيّدة الزهراء (عليها السلام) (دراسة بلاغية دلالية)
للطالب عبد الحسن علي حبيب الناصر
١٢ - خطب سيدات البيت العلوي حتى نهاية القرن الأول الهجري
(دراسة موضوعية) للباحثة زينب عبد الله كاظم الموسوي

---

(١) الزهراء (عليها السلام)، السيد محمد جمال الهاشمي: ٨١.

وهي رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها قدمتها الباحثة إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة.

بإشراف الدكتور رحيم خريبط عطية الساعدي

نسخة مصورة في مكتبة الروضة الحيدرية في النجف الأشرف، برقم: ٥٣٣١٣.

إلى غير ذلك مما ألف في هذا الباب.

خطبة فاطمة (ع) في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور (ت ٣٨٠ هـ):

قال أحمد بن أبي طاهر: حدّثني جعفر بن محمد ـ رجل من أهل ديار مصر لقيته بالرافقة. قال: حدّثني أبي، قال: أخبرنا موسى بن عيسى، قال: أخبرنا عبدالله بن يونس، قال: أخبرنا جعفر الأحمر، عن زيد بن علي رحمة الله عليه، عن عمّته زينب بنت الحسين قالت: لما بلغ فاطمة (عليها السلام) إجماع أبي بكر على منعها فدك لاثت خمارها، وخرجت في حشدة نسائها، ولمة من قومها، تجرُّ أدراعها، ما تخرم من مشية رسول الله (ص) شيئاً، حتى وقفت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فأنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء.

فلما سكنت فورتهم قالت: أبدأ بحمد الله، ثمّ أسبلت بينها وبينهم سجفاً، ثمّ قالت: الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وإحسان منن والاها، جمَّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن المجازاة أمدها، وتفاوت عن الإدراك آمالها، واستثنى الشكر بفضائلها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنّى بالندب إلى أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنار في الفكرة معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الأوهام الإحاطة به، ابتدع الأشياء لا من شيء قبله، واحتذاها بلا مثال لغير فائدة زادته، إلاّ إظهاراً لقدرته، وتعبُّداً لبريتّه، وإعزازاً لدعوته، ثمّ جعل الثواب على طاعته، والعقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته، وحياشاً لهم إلى جنته.

وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن يجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه، وسمّاه قبل أن استنجبه، إذ الخلائق بالغيوب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله عزّ وجلّ بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواضع المقدور.

ابتعثه الله تعالى عزّ وجلّ إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله عزّ وجلّ بمحمد (ص) ظلمها، وفرج عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، ثمّ قبض الله نبيّه (ص) قبض رأفة واختيار، ورغبة بأبي (ص) عن هذه الدار، موضوع عنه العبء والأوزار، محتف بالملائكة الأبرار، ومجاورة الملك الجبّار، ورضوان الربّ الغفّار.

صلّى الله على محمد نبيّ الرحمة، وأمينه على وحيه، وصفيِّه من الخلائق ورضيه (ص) ورحمة الله وبركاته، ثمّ أنتم عباد الله ـ تريد أهل المجلس ـ نصب أمر الله ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعمتم حقاً لكم، ألله فيكم عهد قدّمه إليكم؟ ونحن بقية استخلفنا عليكم، ومعنا كتاب الله بينة بصائره، وآي فينا منكشفة سرائره، وبرهان منجلية ظواهره، مديم البرية إسماعه، قائد إلى الرضوان اتباعه، مؤدٍّ إلى النجاة استماعه، فيه بيان حجج الله المنوّرة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذّرة، وتبيانه الجالية، وجمله الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة.

ففرض الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والزكاة تزييدا في الرزق، والحج تسلية للدين، والعدل تنسُّكاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً، وإمامتنا أمناً من الفرقة، وحبّنا عزّاً للإسلام، والصبر منجاة، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعرُّضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تعبيراً للنحسة[1]، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، وقذف المحصنات اجتناباً للعنة، وترك السرق إيجاباً للعفّة، وحرّم الله عزّ وجل الشرك إخلاصاً للربوبية، فاتقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون، وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، فـ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2].

ثمّ قالت (عليها السلام): أيها الناس، أنا فاطمة وأبي محمد (ص)، أقولها عوداً على بدء، لقد جاءكم رسول من أنفسكم..

ثم ساق الكلام على ما رواه زيد بن علي (عليه السلام) في رواية أبيه.

ثم قالت (عليها السلام) في متصل كلامها: أفعلى محمد[3] تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[4]، وقال الله عزّ وجل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[5] وقال عزّ ذكره: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[6] وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[7] وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ

---

(١) في رواية البحار عنه: تغييراً للبخسة.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) ورد في المصادر الأخرى: أفعلى عمد.

(٤) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٥) سورة مريم، الآية: ٦.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٧) سورة النساء، الآية: ١١.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١] وزعمتم أن لا حق ولا إرث لي من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج نبيه (ص) منها؟ أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثون؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟

لعلكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي (ص)؟ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢]، أأغلب على إرثي جوراً وظلماً ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٣].

وذكر أنها (عليها السلام) لما فرغت من كلام أبي بكر والمهاجرين عدلت إلى مجلس الأنصار فقالت (عليها السلام): معشر البقية، وأعضاد الملّة، وحصون الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي؟ أما قال رسول الله (ص): المرء يحفظ في ولده؟! سرعان ما أجدبتم فأكديتم، وعجلان ذا إهالة، تقولون مات رسول الله (ص) فخطب جليل، استوسع وهيه، واستنهر فتقه، وبعد وقته، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصيبته، وخشعت الجبال، وأكدت الآمال، وأضيع الحريم، وأذيلت الحرمة عند مماته (ص) وتلك نازل علينا بها كتاب الله في آفنيتكم في ممساكم ومصبحكم، يهتف بها في أسماعكم، وقبله حلّت بأنبياء الله عزّ وجل ورسله:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٤].

إيهاً بني قيلة! أأهضم تراث أبيه؟ وأنتم بمرأى ومسمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الحيرة، وفيكم العدّد والعدة، ولكم الدار، وعندكم الجنن، وأنتم الألى نخبة الله التي انتخب لدينه، وأنصار رسوله، وأهل الإسلام، والخيرة التي اختار لنا أهل البيت، فباديتم العرب، وناهضتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح نأمركم وتأتمرون، حتى دارت لكم بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأنام، وخضعت نعرة الشرك، وباخت نيران الحرب، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنّى حرتم بعد البيان، ونكصتم بعد الإقدام، وأسررتم بعد الإعلان؟ لقوم نكثوا أيمانهم، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٣.

ألا قد أرى أن أخلدتم إلى الخفض، وركنتم إلى الدعة، فعجتم عن الدين، وبحجتم الذي وعيتم، ودسعتم الذي سوغتم، فـ ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[١].

ألا وقد قلت الذي قلته على معرفة مني بالخذلان الذي خامر صدوركم، واستشعرته قلوبكم، ولكن قلته فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وبثة الصدر، ومعذرة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها مدبرة الظهر، ناكبة الحق، باقية العار، موسومة بشنار الأبد، موصولة بـ ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[٢] فبعين الله ما تفعلون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٣] وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون.

قال أبو الفضل: وقد ذكر قوم أن أبا العيناء ادّعى هذا الكلام، وقد رواه قوم وصحّحوه وكتبناه على ما فيه.

وحدّثني عبدالله بن أحمد العبدي، عن حسين بن علوان، عن عطية العوفي أنه سمع أبا بكر يومئذ يقول لفاطمة (عليها السلام): يا ابنة رسول الله، لقد كان (ص) بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وإذا عزوناه كان أباك دون النساء، وأخا ابن عمك دون الرجال، آثره على كل حميم، وساعده على الأمر العظيم، لا يحبكم إلا العظيم السعادة، ولا يبغضكم إلاّ الرديء الولادة، وأنتم عترة الله الطيبون، وخيرة الله المنتخبون، على الآخرة أدلّتنا، وباب الجنّة لسالكنا، وأما منعك ما سألت فلا ذلك لي، وأما فدك وما جعل لك أبوك فإن منعتك فأنا ظالم، وأما الميراث فقد تعلمين أنه (ص) قال: لا نورّث، ما أبقيناه صدقة.

قالت (عليها السلام): إن الله يقول عن نبي من أنبيائه: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٤] وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٥] فهذان نبيان، وقد علمت أن النبوة لا تورث! وإنما يورث ما دونها، فما لي أمنع إرث أبي؟ أأنزل الله في الكتاب: إلاّ فاطمة بنت محمد، فتدلّني عليه فأقنع به؟!

فقال: يا بنت رسول الله (ص) أنت عين الحجّة، ومنطق الرسالة، لا يدَ لي بجوابك، ولا أدفعك عن صوابك..[٦]. ❖

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٨.

(٢) سورة الهمزة، الآية: ٦ ـ ٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٤) سورة مريم، الآية: ٦.

(٥) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٦) بلاغات النساء، ابن طيفور: ١٥ ـ ١٩، وطبع العراق: ٢٦ ـ ٣٢، السقيفة وفدك، الجوهري: ١٠٠ ـ ١٠٣.

القديسة فاطمة سيدة السماء
نقطة للتلاقي الإسلامي - المسيحي

محمد سعيد الطريحي

حين تغلغلت مادية الغرب في نفوس العلميين وقفت بهم عن التقدم في بعض النواحي، وطغت المادية على بعضهم، فأنكروا حتى وجود الخالق جل شأنه، ورجعوا بالكون كله إلى أنه آلة تلقائية. حتى الإنسان نفسه ظنوه آلة أيضاً تخضع لنظم تخيلوها ووضعوها وهم في ذلك قد اتجهوا إلى الناحية المادية البحتة، ثم قصروا عليها حواسهم وتفكيرهم. وغاب عن هؤلاء أنه لابد لكل آلة من قائد يقودها، ثم ظهرت الكشوف الروحية، والظواهر الثابتة في علم الروح مما جعل رأي الكثير من المنكرين لقيمة التجارب الروحية التي مرّت بها الأمم أن يتغير، وطفق علماء (البراسيكولوجي) يكتبون في فنون هذا العلم، كما دخلت الكثير من مباحث العلوم الروحية في الجامعة الغربية المتقدمة، وتراجعت بذلك الأقلام التي كانت تنادي بسقوط (الروح والروحانيات) واعتبارها من أعمال السحر والشعوذة والأوهام، وجرى تمييزها واعتُرف بهيمنتها وحضورها لدى المجتمعات كافة. ولعل من أبرز الظواهر الروحية التي فرضت نفسها في العالم الغربي في بدايات القرن العشرين هي الرؤيا العجائبية التي تجسدت فيها إحدى أهم المعجزات الروحية التي ظهرت في القرن الماضي، بظهور السيدة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام بقرية في البرتغال تحمل اسم CUVADA IRA كوفادا ايرا - لاحظ التشابه بين اسم الموضع وبين اسم الكوفة عاصمة الإمام علي وزوج الزهراء البتول (ع) - هذا الموضع اليوم يُعتبر من أهم المشاهد المقدسة لدى المسيحيين في أوروبا، ويزوره كل عام الملايين بقصد الاستشفاء ونيل البركة من (سيدة السماء) كما يسمونها هناك، التي هبطت ذات مرة في هذا المكان الطاهر الذي هو اليوم قطعة لا تتجزأ من التراب الأوروبي. حتى لا يقال أن هذا الموضوع له شأن في تفلسف الشرقيين وإيمانهم الغيبي، أو ما يتصل بهذا الموضوع من تقديسات الصوفيين والقبوريين.

نحن إذن في هذا الموضع الشهير في (FATIMA) شمال لشبونة LISBONA، واليوم هو الثالث عشر من سبتمبر ذكرى تاريخ الظهور الثاني للسيدة الزهراء وجموع المصلين والمبتهلين تضج بها أنحاء تلك القرية الجميلة الوادعة، فلنبدأ بسرد حكايتها منذ البداية:

ظهرت السيدة فاطمة - سيدة السماء - على ثلاثة من الرعاة وكانوا يومذاك في سن الطفولة، وينتمون إلى عائلة فلاحية فقيرة، وهم: لوسي دوس سانتوس LUCIE DOS SANTOS البالغة من العمر يومذاك ١٠ سنوات، بالإضافة إلى فرانسو FRANCOIS وأخته جاسينت JAICNT أولاد خالها مانويل مارتو MANUEL MARTO من زوجته أولمبيا دي جيسس

Olimpia de jesus اللذان توفيا في وقت متقارب، فالخال توفي في شباط ١٩٥٧ وزوجته توفيت في نيسان ١٩٥٧.

أما الظهور الأول للسيدة فاطمة فقد كان في الثالث عشر من أيار، والثاني: في الثالث عشر من أيلول، والثالث في الثالث عشر من تشرين الأول وجميع هذه الظهورات في CUVA DA IRA حيث أقيمت اليوم كنيسة كبرى تعد من أهم المعالم المسيحية في المنطقة. ولدى ظهور السيدة فاطمة للأطفال الرعاة كان عمر لوسي ١٠ سنوات وفرانسو ٩ سنوات أما جاسينت فكانت في السابعة من عمرها، وقد تغيرت حياة الجميع بعد تلك الرؤيا.

فبالنسبة إلى فرانسو فإنه قد شاهد الزهراء وأحد الملائكة برفقتها، وكانت لوسي قد سألته في حينها فيما إذا كان يرغب بالذهاب إلى المدرسة حتى توفي بعد سنتين تقريباً من تلك الرؤى الفاطمية ولدى احتضاره حكى لأمة عن شعوره بالاقتراب من السماء، وقُبيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة نوه لأهله بدخول ضوء جميل جداً يقترب منه، وفي حوالي الساعة العاشرة من مساء يوم الرابع من نيسان ١٩١٩ توفاه الله من دون أن يظهر عليه أي أثر من معاناة لسكرات الموت، وعلى وجهه علامات الفرح والنشوة، قالت لوسي، وقد رأته في تلك اللحظات «لقد طار بعيداً إلى الجنة بين ذراعي الأم الجليلة».

أما شقيقته جاسنيت JACENT فقد أحلتها رؤية السيدة العظيمة إلى حالة عجيبة من السمو الروحي فإنها رغم صغرها فقد اعتكفت على أداء الصلوات والتفكير بالرب سائلة إياه باللحاق في موكب الزهراء، ولكثرة سهرها وتفكيرها فقد وقعت مريضة سائلة إياه باللحاق في موكب الزهراء، ولكثرة سهرها وتفكيرها فقد وقعت مريضة وقضت عدة أشهر في مستشفى ليشبونه، وقد زارتها الزهراء ثلاثة مرات خلال مرضها، وفي آخر هذه الزيارات أخبرتها الزهراء بأنها ستكون متلألئة كالشمس وبأنها ستلتحق بالركب الملائكي في الفردوس، وفي ليلة العشرين من نيسان ١٩٢٠ وبينما كانت في المستشفى توفيت على سريرها هادئة مطمئنة دون أن يشعر أحد من أهلها وعزَّ ذلك على مواطنيها فحُملت على الأكف في تشييع مهيب ورقدت عند قبر أخيها فرانسو.

لوسي دوس سانتوس:

أما لوسي دوس سانتوس فهي من مواليد ٢٢ آذار ١٩٠٧ للأب أنطونيو والأم روسا دوس سانتوس وهي أصغر أخوانها وأخواتها، وأكبر الأطفال الثلاثة الذين شاهدوا السيدة الزهراء وقد ترهبت بعد الحادثة وبحسب رؤيتها فإن السيدة الزهراء قد أخبرتها بأن فرانسو وجاسينت سيلتحقان قبلها إلى السماء وأنها ستبقى الوحيدة لكي تنشر سرَّ هذه الرؤية المباركة والإفاضة في تكريس قلب (ماري) وأبلغتها بأن طهارة القلب هي الطريق الوحيد الذي يرضي الرب، وفي سنة ١٩٢١ كانت لوسي قد غادرت قريتها إلى بورتو PORTO DE MOS، وفي تلك السن المبكرة من حياتها ألهمت التحدث في كثير من المواضيع الدينية التي تحث على الزهد

وعمل الخير، وفي سنة ١٩٢٨ أصبحت أخت في سانت دوروثي، وأصبح اسمها حديث الناس في البرتغال وتنامى صيتها فخصّها (الفاتيكان) عام ١٩٤٦ بالبراءة البابوية في فاتيما FATIMA ودخلت مع الأخوات الراهبات في دير الكرمل في كومبرا.

ويعتقد القائمون على مشهد (فاتيما) أن أصل هذه الكنيسة FATIMA يرتبط بذكريات أسبانية قادمة من قرون مضت حين سيطر الأسبان على البلاد وطردوا العرب وبقيت مجاميع من القبائل العربية المسلمة وهم الذين عرفوا باسم (المورسكيين Moriscos) وهي لفظة قشتالية الأصل تعني النصارى الجدد أو النصارى الصغار، وأن فاطمة أميرة عربية من القرن الثاني عشر وهي ابنة والي (ALCAZAR DO SAL) وفي ذلك الحين احتجزها أحد الأمراء الأسبان وهو دون غونسلو هومنغيز DON GON CALO HERMENGUEZ سيد OUREM، ثم عاد وتزوجها بعد أن أجبرها على التعميد (المسيحي).

فاطمة مركز التلاقي الإسلامي المسيحي:

وفي رأي (لويس ماسنيون) أن هذا التوافق والتطابق الاسمي بين مكان حدوث المعجزة واسم السيدة الزهراء هو دليل على التلاقي الإسلامي المسيحي ويمكننا اليوم أن نتأمل هذه التسمية الغربية التي انتشرت في العالم المسيحي (السيدة فاطمة NOTREDAME DE FATIMA). أضف إلى أن ظهور الشمس العجيب ودورانها في السماء خلال فترة الرؤى التي ظهرت للأولاد الثلاثة تصلح أن تكون تعبيراً قرآنياً مستعاراً من إحدى علامات القيامة الواردة في الآية الكريمة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ٩﴾ (سورة التكوير).

وقد ظهرت حينها صورة امرأة تتوسط الشمس كما حكى (أهل القرية) وأن القمر قد سَجَدَ على ركبتيها، وأنها متوَّجة اثنتا عشرة نجمة في رأسها وهذا النص الغامض من الرؤية قد يلمح إلى الأئمة الاثني عشر لدى الشيعة الإمامية من نسل الزهراء كما هو رقم مقدس في العهد القديم (وهذا دليل في رأي - ماسينون - يدل على المعنى القيامي للمعجزة بما لا يمكن فصله عن اسم من كانت ابنة نبي الإسلام).

بين مريم وفاطمة:

رأى المؤمنون المسيحيون وجه مريم العذراء في هذه المعجزة بينما تنبه المسلمون. ولو بعد حين - إلى أن السيدة الزهراء هي من أطلّت بإشراقة وجهها عام ١٩١٧ ومهما كان الموضوع فإن الاعتقاد السائد لدى الشيعة اليوم ويتفق معهم جمهور كبير من السنة بأن الزهراء كانت هناك في CUVA DA IRA وهذه (الكوفا) البرتغالية لإسمها حظ من (الكوفة) العلوية حيث عاش علي بن أبي طالب والحسن والحسين وزينب (ع) نحو أربعة سنين، كان هذا التطابق الثاني بعد تشابه الاسم فالقديسة فاطمة هي فاطمة البتول لدى المسلمين، وهي اسم عربي صميم، وإنما سُميت السيدة الزهراء لأنها فطمت شيعتها من النار وفطم أعداؤها عن حبها

(كما ورد في حديث للنبي الكريم - ص -) ومما قيل في ذلك أيضاً: بأن الله فطمها بالعلم، ومن الطمث، وهنا موضع التشابه بين فاطمة ومريم، حتى الإمام الثاني عشر محمد المهدي المنتظر الذي يعتبره الشيعة رمزاً للقاء بين مريم وفاطمة لكونه والدته ترتقي بنسبها إلى مريم، وحين يظهر المسيح في آخر الزمان سيصلي وراء المهدي المنتظر فهما باعتبار هذا النسب القريب ابنا خالة، والشيعة يسمون فاطمة بفاطر ويجمع التأمل الشيعي بين الاسمين جمعاً حسابياً يوازي بين الشخصيتين ليظهر أن فاطمة هي مريم ومريم هي فاطمة، ففاطر هي الاسم الرمزي لفاطمة، وهذا هو التطابق التالي حيث أن المجموع العددي لأحرف اسم فاطر (فاء + ألف + ط + راء = ٢٩٠) يساوي المجموع العددي (لحساب الجُمل) لاسم مريم (ميم + راء + ياء + ميم = ٢٩٠).

وقد اعتمد الفاطميون على هذا التفسير الرمزي فقاموا بثوراتهم عام ٢٩٠ للهجرة وانتصروا في خراسان مع غياث وفي اليمن مع منصور وفي الجزائر وهكذا بدأ نجم الدولة الفاطمية بالظهور والانتشار تفاؤلاً بالمجموع العددي لفاطمة، وفسّروا انتصاراتهم ببركة هذا الاسم الشريف.

وفي العودة إلى ماسينون الذي يجد بين فاطمة ومريم ثمة روابط لا تنتهي ففاطمة في (درة محمد) تشبه مريم في (درة المسيح) إنها تمثل صورة المرأة الكاملة، حواء الذي تتوافق على الصعيد النفساني مع البنية الدائمة للأوعي الجمعي والمثال النموذجي للأنثى الخالدة، الأم، الأخت، والزوجة كما بيّن يونك YUNG تستعمل العقيدة الدينية لغة الأساطير الرمزية، الأمر الذي لا يعني مطلقاً إمكان تخفيض ما هو إلهي إلى محتوى علم النفس الجمعي، ولا إمكانية تفسير التجاوز بالظاهرية.

ويؤكد ميشيل الحايك (MICHEL HAYEK) في مسيح الإسلام (LE CHRIST DE L'ISLAM) على أن مريم تبرزُ كصورة من أجل صور التاريخ الإسلامي. فقد ولدت بأمر من الله، ووضعت وكل خلفها بحمايته، وأبعدت عن كل اتصال بالرجال. وقد خضع جبرائيل لإرادته وحقق المعجزة الوحيدة، معجزة الحبل بلا دنس. لقد غابت مريم واختفت خلف هضبة من السلام لتُصبح بعد أن كانت سيدة نساء عصرها، واحدة من سيدات الجنة (آسيا زوجة فرعون، وخديجة بنت خويلد وابنتها فاطمة).

وعلى هذا فالظهور العجائبي لسيدة السماء وحي من فاطمة ونفحة من مريم، اسم على مسمى وذرية الأنبياء بعضها من بعض، وهذا من أسرار الروح ٦ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء ٨٥) ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (سورة النساء ١٧١). ❖

فاطمة الزهراء

د. محمد إقبال (مفكر الباكستان)
وترجمة أ. محمد حسن الأعظمي
وأ. الصاوي شعلان

المجدُ يشرق من ثلاث مطالع ... في مهد فاطمةٍ. فما أعلاها!!

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أمُّ من؟ ... من ذا يداني في الفخار أباها؟

هي ومضةٌ من نور عين المصطفى ... هادي الشعوب إذا تروم هُداها

هو رحمةٌ للعالمين. وكعبةُ الآ ... مال في الدنيا. وفي أخراها

من أيقظ الفطَر النيام بروحه ... وكأنه بعد البلى أحياها

وأعاد تاريخ الحياة جديدة ... مثلَ العرائس في جديد حُلاها

ولزوج فاطمة بسورة «هل أتى» ... تاجٌ يفوق الشمس عند ضحاها

أسدٌ بحصن الله يرمي المشكلا ... ت بصيقلٍ يمحو سطورَ دُجاها

إيوانه كوخٌ. وكنز ثرائه ... سيفٌ. غدا بيمينه تيّاها

في روض فاطمة نما غصنان لم ... ينجبْهما في النيِّرات سواها

فأميرُ قافلة الجهاد. وقطب دا ... ئرة الوئام والاتحاد ابْناها

حسنُ الذي صان الجماعةَ بعدما ... أمسى تفرُّقها يحل عُراها

ترك الخلافة ثم أصبح في الديا ... ر إمام ألفتها. وحسنُ عُلاها

وحسينُ في لأبرار. والأحرار. ما ... أزكى شمائله وما أنداها!!

فتعلموا دين اليقين من الحسي ... ن إذا الحوادث أظمأت بلظاها

وتعلموا حرية الإيمان من ... صبر الحسين، وقد أجاب نداها

الأمهات يلدن للشمس الضيا ... ءَ: وللجواهر حسنَها وصَفاها

ماسيرةُ الأبناء. إلا الأمها ... ت، فهم إذا بلغوا الرقيَّ صداها

هي أسوة للأمهات. وقدوةٌ ... يترسم القمرُ المنير خُطاها

لما شكا المحتاجُ خلف رحابها ... رقَّت لتلك النفس في شكواها

جــادت لتنقــذه بــرهن خمارهــا ... يــا سـحب أيــن نــداك مــن جــدواها

نــور تهــاب النــارُ قُــدسَ جلالــه ... ومُنــى الكواكــب أن تنــال ضــياها

جعلــت مــن الــصبر الجميــل غــذاءها ... وراْت رضــا الــزوج الكــريم رضــاها

فمُهـــا يرتـــل آي ربــك: بينمـــا ... يــدها تــدير علــى الــشعير رَحاهــا

بلـــت وســـادتها لآلـــئ دمعهـــا ... مــن طــول خــشيتها. ومــن تقواهــا

جبريــلُ نحــو العــرش يرفــع دمعَهــا ... كالطـــلِّ يَـــروي في الجنـــان رُباهـــا

لـــولا وقـــوفي عنـــد أمـــر المـــصطفى ... وحـــدود شـــرعته. ونحـــن فـــداها

لمضيت للتطــواف حــولَ ضــريحها ... وغمـــرت بـــالقُبلات طيـــب ثراهـــا

الزهراء

✍ خليل شقير

تـــألقي في سمـــاءِ الطُهـــرِ وانْتَقِبِـــي

لــن يــبخس الــشمس مــا تلقــاهُ مــن حُجُــب

تجلّلـــي بجـــلالِ الفَـــضْلِ وارتَفِعِـــي

يـــا كعبـــةَ العلـــمِ يـــا إشـــراقَةَ الأدَبِ

عـــينُ الزمـــانِ إذا مـــا فـــاهَ مُفْتَخِـــرٌ

مـــا زادَ في فَـــضْلِها وَسْـــمٌ ببنْـــت نَبِـــي

جَلالـــةُ القـــدرِ أن تَنْـــدى براعِمُـــهُ

مُجـــرَّداتٍ عـــن الاحـــسابِ والنـــسبِ

أمثولَـــةُ الأدَبِ النـــسويِّ نقرأُهـــا

إذا الأديـــبُ وعاهـــا بالجنـــان سُـــبي

أنمـــوذجُ العفَّـــة البيـــضاءِ نرمُقُهـــا

وســـطَ الدجنَّـــةِ لألاءً مـــن الـــشُهبِ

القـــى النقـــاءُ عـــصا التَّرحـــال مُغتبطـــاً

فمـــا تـــراهُ عـــن الزهـــرا بمغْتَـــرِذب

إن تُلــف(١) اخــتَ بــني حمــدانَ قيــلَ بهــا

يــا أخــتَ خــيرِ أخٍ يــا بنــتَ خــير أب

فــأينَ تُــصبِحُ إنْ صــكَّت مــسامعها

يــا زوجَ خــيرِ أخٍ يُنمــي لِخــير نَبِــي

الزهراء

هاشم أبو الحسن الأمين

آل الرســـول وعـــترة الزهـــراء ... في العـــالمين مـــدار كـــل رجـــاء

ومـــلاذ أهـــل الأرض إن حلــت بهــم ... نـــوب الزمـــان تنـــوء بـــالأدواء

والـــصفوة المثلـــى إذا نـــاديتهم ... لبـــوا النـــداء بهمـــة ومـــضاء

والقـــدوة الحـــسنى لكـــل مـــضلل.. ... قـــد تـــاه في لجـــج مـــن الظلمـــاء

هـــم كالـــسفينة أشـــرعت أبوابهـــا ... للـــضائعين بغـــرة الأنـــواء

وهـــم العطـــاء إذا دعـــاهم راغـــب ... للخـــير يجـــزى مـــن نعـــيم عطـــاء

وهـــم الـــدعاة إلى الحقيقـــة والهـــدى ... إن تـــاه ركـــب النـــاس في البيـــداء

وهـــم الـــشفاء لأمـــة حلـــت بهـــا ... آلاف آفـــات وألـــف بـــلاء

وهـــم الغيـــاث لكـــل أرض أجـــدبت ... مـــن خـــير مـــا يرجـــى مـــن النعمـــاء

وهـــم النجـــاة إذا المـــت محنـــة ... بـــذلوا لهـــا أرواحهـــم بـــسخاء

أهـــل الـــشفاعة مـــن توســـل فـــيهم ... بلـــغ الثـــواب ونـــال خـــير جـــزاء

الكـــاظمون الغـــيظ إن جـــاءتهم ... الأحقـــاد في حـــم مـــن البغـــضاء

والمجزلـــون الخـــير مـــن راحـــاتهم ... للغـــارقين بحمـــأة الباســـاء

والمطعمـــون الجـــائعين إذا هـــم ... ضـــاقت علـــيهم رحبـــة الأرجـــاء

وإذا تـــردى اليـــتم في مأســـاته ... كـــانوا لـــه رحمـــا مـــن الرحمـــاء

الخـــيرون الطيبـــون تنزهـــوا ... عـــن كـــل مـــا يـــدعو إلى الفحـــشاء

---

(١) ابن المتنبي أخت سيف الدولة، قائلاً يا أخت أخٍ...

طهروا من الرجس الخبيث وحلقوا ... بالحق فوق القبة الزرقاء

ولهم ينابيع البيان تفجرت ... بالعلم تبلغ قمة العلياء

أهل البلاغة والفصاحة دونهم ... يثوون عند الصخرة الصماء

قد أكرم التنزيل في ساحاتهم ... وكذا تمجد مهبط الإيحاء

آل الرسول هم وهذا نهجهم ... والابن يتبع خطة الآباء

رسموا طريق الدين في دنياهم ... وبنوا سبيل الرشد للأبناء

قد عظم الرحمن شأن محمد ... حين اصطفاه بليلة الإسراء

وأراد دوماً أن يخلد ذكره ... من فاطم بالبضعة الغراء

سرت البشائر في الحجاز ورددت ... كثبان نجد أكرم الأنبياء

بش الرسول لمولد الزهراء ... فبدت تنير الكون بالأضواء

والفجر هلل للوليدة ضاحكاً ... والنور يغمر سائر الأنحاء

في يوم مولدها العظيم تألقت ... شمس الضحى بجبينها الوضاء

طلعت على الديجور في لألائها ... كالشهب تثقب داجي الظلماء

نشأت بأحضان النبوة طفلة ... وتعهد الديان بالإنشاء

رضعت لبان الطهر من أثدائها ... وعصارة التوحيد في الأثداء

هي والرسالة توأمان كأنها ... جاءت تزين سورة الإهداء

يا بنت أشرف سيد أوحت له ... آي الكتاب ببواطن الأشياء

ورفيقة المختار تحت كسائه ... أكرم بصحبة أعظم الرفقاء

وشريكة الكرار شطر حياته ... حمداً على السراء والضراء

أعددت للحسن الزكي مناقبا ... أعرافها فاضت على الأجواء

وغرست في صور الحسين مآثراً ... كالطيب يعبق في الربى الشماء

أحكمت هديها فقادا جحفل ... الأحرار بين جحافل الشهداء

❖ ❖ ❖

فاطمة الزهراء

✍ علي محمد الحائري

اقضك في ليل الضنى حر مضجع — وشغل دمع ليس يرقى بمدمعي

وليل تغشاني كأن نجومه — شددن حبال الرزء قيداً بأضلعي

طوال ليالي الحزن من بعد فاطم — ونار تشظى جمرها من توجع

فيا قلب لا أبللت من هاجس الأسى — ويا جفن لا أطبقت عينٌ تفجع

ويا طارقات من هموم تأوّبت — وسادي وانسلت ثقالاً لمخدعي

نفاراً إلى الطرح الذي لا أسيغه — خفافاً إلى السيف الذي حزَّ أخدعي

ولست أرى الدنيا خلال طماعة — ولكن طماح النفس دون التطلع

بلوتُ بها صبر للحليم فأحجمت — خطاي على نوارها المتبرع

وذقت مذاق المرّ من قبراتها — وعللت من سُم القليب المنقع

فلا أنا موكول إلى الغير مقودي — ولا أنا من أرضى الخطام بمجدع

ولست أبالي إن جفتني قلوفها — بكيئات من در الرغاب المشعشع

ولي أسوة بالطيبين تقارعوا — كؤوس فضيلات دهاق التضوع

ولي أسوة بالمصغرات أكفهم — من المال حسرى من حطام التبضع

تزم بأكمام العفاف وتدّري الخصاصة بالأخلاق مثلي وترتعي

وتعطي الندى لا من حلال تمصّل — وتصعير خدٍ بالتكبّر مترع

ولكن ترى أن الزكاة فريضة — وأن احتجام المال آل التصارع

وأن وشيج الآدميّة جمعت — بأعياصها جذر الأخاء المقطع

وأن بني الدنيا سواء أرومُه — وأن ضربوا في كل عرقٍ موّزع

أولئك آل المصطفى أهل بيته — تربوا على هذا الخلاق المرفع

وقد آثروا ان لا تبيت على الطوى — حشاشة محروم وعان وموجع

وأعطوا وأن كانت بهم من خصاصة — مساغب لم ترفع حداهم وتمنع

وشاركت الزهراء الأم أمة ... أبوها تولاها على كل مهيع
فلن آثروا أن يحجبوا حُرَّ إرثها ... وأن يولجوا أبناءها كلَّ بلقع
أتلك التي أوصى الرسول بثقلها ... تصار إلى هذا الصعيد المصدَّع؟
وتلك التي لزَّ الرسول دثارها ... تُراع فلا بوركت إيدي المروع
ولا أبَ في عين الدنى وسن الكرى ... ولا لز في حر الصدى برد مشرع
ولا باهلت عليا قريش خصومها ... بأنَّ لها صدر الندي الموسع
وقد شُجَّ من رأس البناء عموده ... فعيب ولم ينهض نصوح ويهرع

❖ ❖ ❖

القصيدة الفاطمية(١)

هي فاطم كم للمصائب صابها ... جرعتْ وكم قد كابدت أو صابها
نثل الزمان لها كنانة نبله ... ورمى وفي كل السهام أصابها
أحنى أضالعها على جمر الغضا ... أجرى مدامعها أمرَّ شرابها
أعدى عليها من أراع جنابها ... وجناب خير الرسل كان جنابها
هي بنت أحمد من حماه حمى لها ... وهي التي من هاب أحمد هابها
هي بضعة الهادي ومن إغضابه ... في النص منه ملازم إغضابها
هي أم أشبال ولبوة ضيغم ... من جاء مجترئا وهاجم غابها
من حول بيت القدس جاء مجمعاً ... حطبا ليحرق للزكية بابها
من عنوة ولج الحجاب على التي ... أرخى عليها ذو الجلال حجابها
من هاج زفرتها وأجرى دمعها ... وابتز نحلتها وشق كتابها
من رد حجتها وأبطل ارثها ... عمدا واغلظ في الجدال خطابها
اوه لبنت محمد مال نابها ... والحادثات لها احدت نابها
هي كالضلال من الرمال تدافعت ... وثابها ستتبع منسابها

---

(١) هذه القصيدة وردت في أعيان الشيعة ولم أعد أتخطر قائلها.

ذلت عزيزة أحمد من بعد أن جاءته دعوة ربه فأجابها

وخيام ذاك العز قد عصفت بها ريح الخطوب وزعزعت أطنانها

حتى مضت متفقداً محرابها تلك التي كم لازمت محرابها

وتفقدت منها الدجنة غرة كانت إذا الشهب انطمس شهابها

هي نجمة سطعت قصيراً عمرها فحكت بأسحار الدجى أترابها

وحبيبة عجلت لوصل حبيبها والنفس تطلب دائماً أحبابها

لاقت رسول الله فاجتمعا على نجوى تفت من الصخور صلابها

أبناء بعدك هل علمت بما جرى والبوم بعدك أكثرت تنعابها

والطائر الميمون اخفت صوته ومضى يوم من الفلاة شعابها

ولدفتها والناس هجّع نوّم في ليلة سدل الظلام نقابها

أدى وصيتها وصي محمد والله يعلم والورى أسبابها

وعلى ثرى قبر الزكية أرخصت عيناه دمعهما قبل ترابها

هاجت به الزفزات حرى لوبها خضراء تلفح أحرقت أعشابها

ما ريع من خير الورى بغيابه حتى على عجل انيل غيابها

وبهاله كان العزاء لنفسه فمضت وجرع الحزن أصبح دابها

❖ ❖ ❖

الزهراء

✍ محمد رضا القزويني

أصبوا لذكراك ضمآناً تورينى واليوم أسقي بها من كان يسقيني

أصبو لذكراك والدنيا تناقلها بشرى السعادة للدنيا وللدين

فمذ ولدت ويامن ساعة عظمت قد شع وجه رسول الله في الحين

وصاح مستبشراً والفخر يملؤه إن يقطعوا رحمي فالله يُعطيني

أين التواريخ عن أقوال شانئه وحكمة الله في نسل الميامين

ابناء حرب سلطانها انقرضت اما بنو فاطم عدُ الملايين

لقد أطلت على الدنيا فكان بها حفظ الكرامة للأنثى بمقرون
وبدلت شرعة الغاب التي حكمت دنيا الأعاريب في شكل ومضمون
بينا يبرّو عليج قبح فعلته واد البنات بأعراف وقانون
يصيح أحمد هذي بضعتي ولها قلبي فمن كان يؤذيها فيؤذيني
حكم من الله لا من نزوةٍ طفحت لكنه الوحي في قولٍ وتعيين
فذاك قال أبوك.. أنت سيدة النسا ما كانت الدنيا إلى الدين
نمت وشبّت وكان الطهر شيمتها أنقى من الطهر بين الحور والعين
هذا علي لها كفوءٌ فزوجها الباري من العرش في لوم وتدوين
وقال مهرك أنهار فاصدقها خمساً وما حزم من ماءٍ ومن طين
قالت وأكرم به زوجاً ولي أملٌ إن الشفاعة يوم الحشر ترضيني
فقال أن الذي ترضاه فاطمةٌ لكل ما أنا أرضاه بمرهون
فاستبشرت أمه الهادي بفاطم في أمور لا هوال يوم الحشر مضمون
يا أسرة الخير للدنيا بما نذرت وما وفت في ثلاث باسم سبطين
قد أطعمت زادها المسكين وابتدرت إلى اليتيم لمأسور ومسجون
فأنزلت (هل أتى) فيهم تبشرهم بجنّة الخلد بالأنهار والتين
إلا نظرتم لأسرنا وقد حجبت بهم عجاف سنين مثل ذي النون
إلا رغيف نبقّى من موائدكم إلى الاسارى وإفراح المساكين
وشيبة الخير فيهم زاد غيبتُه شيباً على هامتي مثل الثمانين
غدوت (يعقوب) في همي لفرقته ووالدي (يوسفاً) في سجن فرعون
أأفقد الأمل المعقود نحوكم وأنتم لأماني كل محزون
لا.. كيف أفقد آمالاً شببتُ بها وليس تفقدها ليلى بمجنون

❖❖❖

مناجاة الزهراء

السيد محمد الشحومي الحسني الإدريسي

سر الحقيقة مورد الإمداد ... بنت الرسول الهاشمي الهادي

سَرَت بها الدنيا وطاب أديمها ... والفخر بالأمجاد والإسناد

سادت جميع الواصلين بفضلها ... أم الحقائق كعبة الزهاد

سبحان من فطر الوجود لوجدها ... ووجودها هو رحمة الأشهاد

قد طهّر المولى جواها واصطفى ... فيها التقى بالإرث والإسعاد

فزكت أرومتها الكريمة منبتاً ... بالذات والأجداد والأولاد

عقم الزمان أن يجود بمثلها ... فخر النساء وقدوة العُبّاد

قوّامة صوّامة أوّابة ... أوّاهة الأذكار والأوراد

حاكت رسول الله في أوصافها ... هي بضعة بل فلذة الأكباد

هي حبّه الصافي المنقى المجتبى ... يا فخرها في سيرة الأمجاد

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟ ... عَزّت محامدها عن التعداد

هي خيرة الدنيا ونعمة ربها ... ملأ الفضا في نورها الوقاد

ورعت أزاهير التقاة بمهجتي ... وطوت دثار السوء والأحقاد

وسرى الوفا من روحها بسريرتي ... يسري فيحيي خاطري وفؤادي

مهما نأيت عن الطريق تسوقني ... منها العناية كي أحوز مرادي

أنعم بها من جَدةٍ وأكرم بها ... فكّت قيودي أذهبت أنكادي

فطفقت أرفل في معية فيضها ... تعلو جبيني هيبة الإرشاد

القلب ينهل من عظيم عطائها ... ببشارة غرّاء ذات قياد

(أم الحسين) وأم ربات الحجا ... لي فيك قلب هائم ومناد

يزهو بحبّك في الحياة وينتشي ... إن صيغ مدحك يطرب الإنشاد

زهراء فاطمة البتول وسيلتي ... حصن النجاة إذا طغى حسادي

أقسمت بالنور المبين وسرد ... والشوق بالأحشاء والأوجاد

مالي مجير إن عتت أيامنا   إلا أبو الزهراء والأحفاد

سر حباه الله في آل العبا   بسريرة التمكين والإنجاد

ولذا لجأت بذلتي وتخشعي   لله يقضي حاجتي ومرادي

قد عِيل صبري في المقام وحيلتي   وَعَدَت عليَّ طلائع الأوغاد

وتزاحمتْ حلك البلاء برجلها   وبخيلها في ساحة الإفساد

فتحيّر الصب المعنى في الندا   أربيب صدق أم عوي صادي

والله لو غضب الأنام بأسرهم   ورضاك يبقى ما خشيت معاد

فرضاك ذخري ما حييت وإن أمت   هو عدتي وسعادتي وعتادي

مني السلام على أبيك وبعلك   الكرار والأسباط والأحفاد

في الميلاد الفاطمي

عندما تخلع الصمت الحروف

✍ عباس الشيخ مرتضى عياد

مزّقي صمت أحرفي والمساء   واسكبي الشعر في دمي والضياءَ

وانثري غابة الجراح بقلبي   واحيليه دوحةً خضراءَ

لك حرف القصيد ينشر فرعيه فيكسى نضارة وبهاءَ

يتغاوى على ضفاف المعاني   وهي نشوى ويغمز العلياءَ

ويشفّ الحرف الحرون لنجواك ولاءٌ يسيل فيه صفاءَ

فيرق الإله في جام روحي   لأغني الصدّيقة الزهراء

❖❖❖

هفهفي يا أميرة العفّة السمحاء في مرتع الجلال انتشاءَ

ما عفاف النساء أنت مدى للعفَ يكسو عري الزمان حياءَ

القداسات أنت صغت هداها   فهي أدنى ظلاً وأبهى سناءَ

أنت فيض الوجود يأتلق الطهر ببرديك مشرقاً وضّاءَ

انت أم الوقار بل أم طه   ذاب فيها حباً وذابت وفاءَ

غاب عن مولل الحنان طويلاً   فجلوتِ الأمومة الشمّاءَ

وحباد الإله نعمى البنوّات   فكنت الريحانة الحوراءَ

***

هاكِ ميلادك السنيّ فيا قلب دع الشمس تحجب اللألاءَ

إن ثغر الرسول يبتسم الله به بعد هل ترى ظلماءَ

هاكِ ميلادك الزهيّ تهادى فيه حواء مريم العذراءَ

هاكِ ميلادك الندي يمد الغيب ظلاً بربعه كيف شاءَ

يستبيح الخيال سحراً ندياً   فيذيب القصائد العصماءَ

لك وعد السماء ينبض بالصمت رهيباً ليعكس الإخفاء

ورايت الزمان يجثو على أعتاب ذكراكِ . منذ تراءت . حياء

لك هذي القلوب رقرقها الحب لتنساب في يديك فناء

فأتيناك والعيون شظايا   فاحضنينا نلملم الأشلاء

وأتيناك والدروب ضياع   فاحضنينا إنا مللنا التواء

ودعينا على ثرى النجف الأعلى نناغي المودة الغنّاء

فدعينا هنا تراب عليّ   كم تباهي المهاد فيه السماء

نتفيّا ظلال أنفاس طه   في رباه ليخصب الإيحاء

يورق العشق في مداه وللحقد جديب الأصنام فيه تراءى

فأتيناك والنفوس رجاء   لنشظّي تمزقاً واستياء

لترينا وجه النبوة بساماً   مما يرتضي الإله إخاء

***

يا ابنة المصطفى وعيدك ناداني فحلّقت كي أبثّ النداءَ

أتحدى به خطوب الليالي   وأضيء الخواطر السوداءَ

فعلى الأفق مشرقات الأماني   تستميل المواهب الغرّاءَ

سكبتها من مقلتيك سحاب الغيب   فاستمطرت جراحي الشفاءَ

حملتني إليك أجنحة الحلم ليستاف مدمعي الأشذاءَ

أتعبتني مسالك العمر حتى   جئتك اليوم أغسل الإعياءَ

فاطمُ بضعتي

عبد الحسين حمد

يا ابنةَ الطُّهْرِ ما يقولُ الأديبُ ... وحشاهُ يعيثُ فيه اللهيبُ؟

إن ظلماً كابَدْتِه لَخطوبٌ ... فوقَها الظُّلْمُ قد رسا والخَطوبُ

وأساساً أمَّهُ مَكْرُ قومٍ ... قد بنى ثَعلبٌ عليه وذيبُ

أثقلَتْهُمْ (يومَ السقيفةِ) أوزاراً ... بثقلِ الجبالِ فيها الذنوبُ

كم حديثٍ لسيِّد الرُّسْلِ طه ... فاطمٌ بَضعتي وضوعي الحبيبُ

سَخَطَ اللهِ سَخْطُها، ورضاها ... مِن رضا الله فاسمعوا واستجيبوا

لكن القومُ أخلدوا لارتدادٍ ... بعدَ فَقْدِ الهدى ولَما يثوبوا

سلبوا حقها وإرثَ أبيها ... فإذا إرثها غصيبٌ سليب

وأتَوا بيتها مثابةَ وحي ... كي يُوارى السَّنابةِ والطِّيوب

ولِجوا بابَها بِذحلٍ ونارٍ ... فإذا ضلعُها كسيرٌ خضيبُ

وَعَدَوا جاحدين حقَّ عليَّ ... وَهْوَ قَطْبُ الرَّحى الوصيُّ الأريبُ

أنكروا خُطبةَ النبيِّ (بخُمّ) ... وكأنْ لم يَقُمْ هناكَ الخطيبُ!

زفاف الشمسِ للقمرِ

حسين صادق

الكون أشرق بالنورين يبتشرُ ... في ليلةٍ زُف فيها الشمسُ والقمرُ

فذا عليٌّ وذي الزهراء قد جُمعا ... في خير بيتٍ فطاب الغرسُ والثمرُ

مرَتْ أمامهُمُ الدنيا بزينتِها ... وقدَّمَتْ لَهُمُ التيجانُ والسُّرُرْ

وزُخرفَتْ ساحةُ الإغراءِ عارضةً ... شتّى الملذّاتِ منها العَينُ تنبهرُ

فألزَموا النفسَ فانصاعَتْ لأمرهِمْ ... وقيَّدُوها بحبْلِ الصبرِ فانتصَروا

وطمْأنوها لتَحيى العُمْرَ راضيةً ... حتى إذا رجعَتْ للحقّ تبْتَشِرُ

لهمْ نفوسٌ تَسامَتْ من طهارتِها ... تزكو وترقى بتقوى كلّما اختُبِروا

فما غزاها الهوى يوماً بجانحةٍ ... وإنْ رَمَتْها سهامُ الغيّ تنكَسِرُ

ولا عيونُهُمُ رفَّتْ لِبارِقةٍ ... وما تَرَدَّدَ في أسماعِهِم وَتَرُ

قالوا لدنياهُمُ والحقُّ يَسْمَعُهُمْ ... لنْ تَخدعينا بِزَيْفٍ إثْرَهُ سَقَرُ

إنّا خَبِرْناكِ والواعونَ لو رَجَعُوا ... لَطلَّقوكِ ثلاثاً بعدَما خَبِروا

أم
السيدة الزهراء (ع)
السيدة
خديجة الكبرى (رض)



خديجة بنت خويلد
الصِّدِّيقة الكبرى

محمد خليفة التونسي

السيدة خديجة بنت خويلد.. هيأتها الأقدار الإلهية لتكون الزوجة الأولى للنبي الكريم (ص)، فهي احتضنت الدعوة، وشدت أزر النبي مادياً ونفسياً فقال عنها: (آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها).. رضي الله عنها.

لا نعرف في سير المشاهير زيجة لأحد منهم كانت أسعد له وأعظم توفيقاً في جميع مطالبه ومختلف جوانبه، كما كانت زيجة النبي محمد بزوجته الأولى خديجة عليهما السلام.

لم يحمل همّاً خلال حياته معها إلا شَارَكَتْهُ حمْلَهُ عن محبة وإخلاص، وقد بدأت همومه تتزايد منذ شغل فكره وشعوره ما عليه أحوال قومه من خلل في العقيدة والأخلاق والمعاملات، ورغب في استدراك هذا الخلل، فاضطر قبل بعثته بسنوات إلى التوحد في غار حراء، للتنسك واستلهام الغيب وسائل الإصلاح، فوقفت خديجة معه تخفف عنه وتؤازره بكل أناة وصبر وشجاعة وحكمة، فكان يرضيها كل ما يرضيه، كما كان يرضيه كل ما فيه رضاها كأنهما إنسان واحد.

كانت على حظ واف من الجمال ومن ضلاعة البنية، وكانت على حظ أوفى من الأخلاق العالية، ومن البصيرة النافذة في أمور الحياة والناس، لا سيما بعد أن بلغت أشدها واستوت شخصيتها، وكانت حريصة على مواصلة ذوي رحمها، حسنة العشرة لجيرتها وكل من يعاملونها، عطوفة على المحتاجين محسنة إليهم، وكانت في أهلها معظمة محببة لطهارة قلبها، ونبل سيرتها، حتى كانت في الجاهلية تلقب «الطاهرة»، كما تلقب «سيدة قريش».

خديجة بنت أسرتها في الشمائل:

وقد جمعت إلى هذه الشمائل ثراءً وافراً من تجارتها الواسعة، حتى كانت قافلتها التجارية تفوق قافلة أعظم تجار قريش ثراءً، وكانت ذات نسب رفيع لا يعلوه نسب في قريش، أو في الجزيرة العربية، حتى رغب في زواجها كثير من عِلْيَة قومها. يقول ابن هشام حين عرض لزواج النبي منها «كانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه».

أما هذا النسب الأوسط أو اللباب في قريش فقد اجتمع لها من جهة أبيها وأمها معاً، فأبوها هو خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وقصي هذا - أحد أجداد النبي عليه السلام - هو أول من استطاع من قريش أن يملك مَكة، ويُسكنها قومه قريشاً، بعضهم في بطاحها (داخلها) وبعضهم في ظواهرها، ونسبه ينتهي إلى جد أكبر هو لؤي بن غالب بن فهر، وفهر هذا هو الأصل الذي يجمع كل قريش. وأما أم خديجة فهي فاطمة بنت زائدة، ونسبها ينتهي أيضا إلى هذا الجد الأكبر، وأم فاطمة هذه هي هالة بنت عبد مناف، وأم هالة هذه قلابة بنت سعيد بن سعد، وهالة وقلابة تنتهيان نسباً إلى هذا الجد الأكبر، وكانت قلابة هذه - كما جاء في «الروض الأنف» - مشهورة بلقب «العرقة» لطيب رائحتها، وكان أبناؤها يفخرون بنسبتهم إليها كما يفخر الناس بأعز نسب وأشرفه[1].

وهناك ابن أخيها وهو الزبير بن العوام بن خويلد الذي كان هو وسبعة نفر من أوائل السابقين إلى الإسلام، وكان إسلامهم بعد أبي بكر الصديق وعلى يده، وقيل أنه أول رجل سل سيفه في الإسلام، وكان ابن صفية عمة النبي عليه السلام، وكان هو وذريته مثلاً في صلابة العقيدة والشجاعة في الحرب وقوة البنية.

حكيم بن حزام بن خويلد:

وهناك أيضاً ابن أخيها، وهو حكيم بن حزام ابن خويلد، وكان من كبار سادات قريش في مكة وأصحاب الرأي والمشورة فيها سلماً وحرباً، وكان من أجوادها والمطعمين فيها، وفي الفترة التي قاطعت قريش فيها بني هاشم وبني المطلب حتى ألجأتهم إلى الإنزواء في شعب أبي طالب - لمناصرتهم النبي مسلمين ووثنيين بحكم القرابة - كان حكيم بن حزام يحمل الغلال سراً إلى خالته خديجة في الشعب، ليخفف عنها البلاء، مع أن حكيماً بقي على وثنيته لشدة تدينه بها، إلى أن أسلم مع أشراف قريش حين فتح النبي مكة، فأعطاه النبي ما كان يعطى كلَّ شريف مثله من المؤلفة قلوبهم.

أبو العاص بن الربيع:

وهناك أيضاً ابن أخت خديجة، وهو أبو العاص بن الربيع، يقول فيه ابن أسحق في سيرته: كان أبو العاص من رجال مكة المعدودين، مالاً وأمانة وتجارةً، وكان لهالة بنت خويلد، وكانت خديجة خالته، فسألت خديجة رسول الله (ص) أن يزوجه، وكان رسول

---

(١) ومنهم حفيدها حيان بن قيس الذي كان مع المشركين في غزوة الخندق ورمى بسهمه الصحابي الجليل سعد بن معاذ سيد الأوس، فقطع أكحله، وقال له وهو يرميه: «خذها مني وأنا ابن العرفة» فقال له سعد: «عرق الله وجهك في النار، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه...» وقد مات سعد من هذه الرمية، عليه رحمة الله.

الله (ص) لا يخالفها، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي، فزوجه، وكانت تعده بمنزلة ولدها، ومن المواقف التي تدل على مروءته ورعايته لرحمه أن قريشاً لما ناصبت النبي العداء بلغ من صغار بعضهم أن سعوا في تطليق بناته ممن تزوجوهن، على أن يزوجوهم من شاءوا غيرهن من نساء قريش، وعرضوا ذلك على عتبة وعتيبة ابني أبي لهب عم النبي، وخصمه الألد، فطلقا رقيا وأم كلثوم بنتي النبي، وكانا لم يدخلا بهما، وعرضوا ذلك أيضاً على أبي العاص فأبى قائلاً: «لا والله إي لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأةٌ من قريش» وكان النبي يثني عليه في صهره خيراً.

ولا ينسى في هذا المقام. للدلالة على تدين أسرة السيدة خديجة وشجاعتهم. ابن عمها ورقة ابن نوفل أحد الحنفاء الذين رفضوا دين قريش وعبادتها للأوثان وعاداتها الفاسدة، وكان له اطلاعه على كتب اليهود والنصارى رغبة في الوصول إلى دين أكرم وعادات أفضل. ويقال إنه دخل في النصرانية، وورقة هذا هو الذي لجأت إليه السيدة خديجة حين جاءها النبي مضطرباً لمفاجأة الوحي له، وهو الذي فسر الموقف تفسيراً صحيحاً وبشره بالنبوة وطلب منه الثبات واحتمال البلاء.

بداية التعارف بين محمد وخديجة:

وتختلف الروايات في بدء التعارف بين خديجة ومحمد، ولكن ينبغي أن نذكر أن مكة لم تكن مستبحرة العمران، مزدحمة بالسكان، حتى تغيب أحوال أشرافها بعضهم عن بعض، وأن معظم سكانها من قريش كانوا تجاراً. وكانت كل أسرة محمد من كبار التجار معروفين لأمثالهم في مكة، وكذلك كانت خديجة، فلا بد أن تكون عارفة بأسرة محمد معروفة منهم قبل الزواج. وكان محمد قد اشتهر يومئذ بلقبه «الأمين»، فسواءً أخذنا برواية الواقدي التي تشير إلى أن أبا طالب هو الذي اقترح على محمد أن يأتي خديجة ويعرض عليها نفسه ليخرج في تجارتها إلى الشام، أو أخذنا بالرواية التي تشير إلى أن أبا طالب هو الذي اقترح على خديجة أن تدعو محمداً للخروج في تجارتها، أو أخذنا برواية إسحق التي تدل على أن خديجة علمت من حسن صفات محمد ما أغراها بأن تكل إليه أمر تجارتها. أيا كان هذا أو ذاك، فقد اتفق الاثنان على هذه المهمة، ونحن نرجح رواية ابن إسحق لأنها أشبه بأخلاق محمد، وأقرب إلى مسلك خديجة صاحبة التجارة الواسعة، قال ابن إسحق: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم (تقارضهم) إياه بشيء تجعله لهم، **وكانت قريش** قوماً تجاراً فلما بلغها عن رسول الله (ص) ما بلغها من صدق حديثه وعظم **أمانته، وكرم** أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً،

وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة. فقبله رسول الله (ص) منها. وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام».

ويقول ابن سعد في طبقاته: إن قافلتها كانت تعادل قافلة قريش، وإنها وعدت النبي أن تعطيه ضعف ما تعطي قومه، وأنه لما رجع من رحلته بربح عظيم ضاعفت له ما وعدته به، وقبل عودته أرسل إليها غلامها ميسرة ليبشرها بعودة القافلة وضخامة أرباحها، ولا ريب أنه قد أعجبها بهذه الالتفافة، وسرها منه أمانته وبراعته وكرم أخلاقه، ولا ريب أن غلامها ميسرة حدثها بشيء من دلائل هذه الشمائل، كما أن محمداً أكبر منها مروءتها وكرم أخلاقها في معاملتها له، فمال كلاهما إلى الآخر، وقد عزز هذا الميل أن النبي كان في نضرة شبابه واستحكام عقله مع محيا وسيم، وسماحة كريمة، وأنها هي كانت ذات وجه صبيح وخلق نبيل، وعطف سَرِيّ، إلى جانب ما أكسبتها السن وطول العهد بالتجارة، ومعاملة الناس، من خبرة واسعة ورأي راجح، فلا غرابة أن يرغب محمد في زاوجها وترغب في زواجه.

لم يكن محمد حتى ذلك الوقت قد تزوج، وربما كان لضيق ذات يده يومئذ أثر كبير في تأخر زواجه كما تدل كتب السيرة، وأما هي فقد كانت قد تزوجت قبله مرتين: تزوجت أول أمرها - وهي صبية - أبا هالة بن زرارة التميمي، فولدت له هالة التي كانت تكنّى به أولاً. كما ولدت له هنداً فصارت تُكنى به أيضاً، وقد مات أبو هالة في الجاهلية، فتزوجها بعده عتيق بن عابد المخزومي، فولدت له ابناً، ثم تزوجت بعده محمداً وهو الذي شاركها في تربية أولادها هؤلاء.

كيف تم الزواج؟

أثبتت التجربة لخديجة أن محمداً فوق ما كانت تنتظر منه توفيقاً في التجارة، بالإضافة إلى شرف نسبه الرفيع في قريش. وجمال رجولته. فمالت إليه بإعجابها ومحبتها. وتمنت لو تقدم إليها ليخطبها، فترضاه وتستأثر به في تجارتها وحياتها جميعاً، بل قيل إنها شجعته على خطبتها في حديثه معها تعريضاً لا تصريحاً، أو أوعزت إلى صديقة لها عاقلة لتسأله عما يمنعه من الزواج، فلما أجابها معتذراً بقلة المال فقالت له: «فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة؟» فسألها: «ومن تكون؟» قالت: «خديجة» قال: «فاذهبي فاخطبيها».

كما أثبتت التجربة لمحمد أن خديجة فوق ما كان ينتظر منها في سماحتها وحسن تقديرها له ولكفايته، بالإضافة إلى شرف نسبها ونضج شخصيتها واكتمال أنوثتها، وتأيمها الذي يجعلها في حاجة إلى رجل بجانبها يكفيها أعباء تجارتها، ويسعد بيتها، فنالت

إعجابه وعطفه، ولكنه رأى فاصل الثراء بينها وبينه وهو الشاب الوقور العزوف القنوع، فانتظر بادرة تقرب ما بينها وبينه.

وأياً كان الأمر فقد كان كلاهما مقتنعاً بالآخر، والأرجح أن النبي فاتح في أمر خطبتها عمه ومربيه أبا طالب وكان على رأس أسرته فوافقه، وكان خويلد والد خديجة قد مات قبل ذلك بخمس سنوات في حرب الفجار، وكان عمها «عمرو بن أسد» أقرب الناس إليها، فتقدم إليه أبو طالب فخطبها لابن أخيه، وكان مما قاله: «أن محمداً مما لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قُلُّ (قلة) فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، فوافق عمها، ولا شك أن الموافقة قد تمت قبل ذلك بيتياً، كما هو الشأن غالباً أو دائماً في كل زواج قبل أن يتم المسعى علانية، فالرجال يظهرون غالباً في الخطبة بعد أن يمهد لها النساء فيما بينهن.

وقد قيل أن حمزة عم النبي هو الذي سعى في هذا العقد، ويمنع ذلك أن حمزة كان في سن النبي، فلا يتقدم في هذا على شيخ الأسرة أبي طالب، وهو الذي كفل النبي منذ صباه وأيده بعد ذلك في دعوته إلى الإسلام بكل وسعه، كما قيل إن الذي زوج خديجة هو ابن عمها ورقة بن نوفل، وليس هو أولى من عمها عمرو بن أسد في ذلك إن كان يومئذ حياً.

كان محمد يومئذ في سن الخامسة والعشرين، واختلف في سن خديجة، والمشهور أنها كانت في الأربعين، وقيل إنها في الخامسة والأربعين. وفي رواية أخرى عن ابن عباس - أوردها ابن سعد في طبقاته - أنها كانت في الثامنة والعشرين، ونحن نستبعد أن تكون سنها يومئذ أربعين فضلاً عن خمس وأربعين، لأنها ولدت للنبي ستة أولاد فرادى، والغالب أن المرأة لا تلد في مثل هذه السن مثل هذا العدد، ونحن نرى أن تقدير ابن عباس - وهو ابن عم النبي - أقرب إلى المعقول، وإن كانت السيدة خديجة يومئذ قد تجاوزت الثامنة والعشرين إلى ما بعد الثلاثين بقليل، لأن ضبط سنها تاريخياً أمر متعسر بل متعذر، ويرجح ذلك من ولدتهم لزوجيها السابقين وهم ثلاثة أولاد ومثل ذلك لا يكون إلا في بضع سنوات، وقد عرض على خديجة الزواج بعد زوجيها السابقين فأبته، ولا بد أن مثل هذا العرض قد كان قبل زواجها بأي رجل، لشرفها وغناها مع شدة عفافها ونصونها حتى لقبت «الطاهرة»، وشدة العفاف والتصون لا تستحدث بعد الزواج ما لم تكن خلقاً أصيلاً.

محمد في بيت خديجة:

وبزواج محمد من خديجة انتقل إلى بيتها وشاركها في كل أعباء حياتها وتجارتها، ثم عاشا كأسعد زوجين وأبوين، فقد ولدت له ابنه «القاسم» وبه كان يكنى بقية حياته، ثم

عبد الله باسم أبيه وقد لقبه «الطيب» و«الطاهر»، كما ولدت له زينب ورقية وأم كلثوم، وأخيراً صغراهم فاطمة.

ولقد وجدت خديجة فيه نفسها من جميع الجوانب بكل ما لها من مواهب، كما وجد فيها السكن الأمثل الذي يشاركه همومه الخاصة حتى كانت تتعلق بالبيت، وهمومه العامة حين أنعم الله عليه بالنبوة. ولا ريب أن النبي لإيمانه برجاحة عقلها وقرب روحها من روحه، كان يحدثها قبل النبوة بما وقف عليه في رحلاته إلى الشام وبيئته في مكة من معارف دنيوية ودينية، وبما عليه الناس حوله من فساد في العقائد والأخلاق والمعاملات، وهموم الإصلاح التي تكربه، والتي كانت خديجة أعرف الناس بها، إذ كان يتوسل إلى استبانة طريقة بالتحنت في غار حراء للخلوة بنفسه في رمضان كل سنة، كما جرت عادة أمثاله من الحنفاء كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان ابن الحويرث، وكانت خديجة توسع له في هذه الخلوات وتمده بحاجته من الزاد، وترسل إليه من يحمل إليه من الدار زاده ويطمئنها عليه في وحدته كأنها الأم الرءوم، لا الزوجة الوفية فحسب.

موقف خديجة من الوحي:

ومضت خمس عشرة سنة وإذا هما يفاجآن بال رسالة التي لم تخطر لهما على بال، ففي غار حراء فاجأ الوحي محمداً يطلب منه أن يقرأ ما لا يعرف، لأنه ليس بقارئ، فيعلمه إياه «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

ويعود إلى بيته مضطرباً مكروباً، ويأتي خديجة فيلتصق بها مذعوراً، فتسأله: «يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي» فحدثها بما رأى، وما كان في لقاء ذلك الروح وهو يلقنه فيحبس نفسه حتى ظن أنه الموت، وأنه يخشى أن يكون ذلك عارضاً من الجنة. فوجد إلى جانبها ما يخفف عنه كربه وسكن بلابله.

ويستوقف النظر هنا حسن تصرف خديجة بما لا يستطيع أعظم النفسانيين والفلاسفة تصرفاً خيراً منه، مما يدل على سلامة فطرتها وعمق بديهتها، ولولا ذلك ما اهتدت إلى الاختيارين الآتيين في كشف الموقف له بما يطمئن على نفسه.

أول الاختبارين أخلاقي، فقد عرفت من طول عشرة محمد طهارته ومروءته وما في نفسه من الخير للناس جميعاً، فقالت له بعد أن حدثها بما رأى: «والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الْكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق،

وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة» وهذا جوهر الدين عند أشد المتصمين به، فلا بد أن يكون ما رآه ملكاً من الله.

وثاني الاختبارين نفسي أو نفساني، إذ طلبت منه إذا استطاع أن يخبرها بصاحبه الذي يأتيه إذا آتاه، فلما أتاه أخبرها فطلبت منه أن يجلس على فخذها اليسرى، فلما جلس سألته: «هل تراه؟» قال: «نعم»، فطلبت أن يتحرك فيجلس على فخذها اليمنى ففعل، وسألته: «هل تراه؟» قال: «نعم»، فطلبت منه أن يتحول ويجلس في حجرها، ففعل، وسألته هل تراه، قال نعم، فألقت خمارها ـ وهو في حجرها ـ ثم سألته: «أتراه؟» قال: «لا» فقالت له: «يا ابن عم أثبت وأبشر والله إنه لملك، وما هذا بشيطان».

فما تفسير الموقف؟ إن نفس النبي بقيت مشغولة بقداسة الوحي في هذه التنقلات فلما حسرت خديجة خمارها اشتغل بها هي، ولا يجتمع في النفس الشعور بالقداسة والشعور بالمرأة معاً.

وقيل لما عاد إليها ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، لأنه كان واسع الاطلاع على المعارف الدينية، وأخبرته بقصة الوحي فقال: «قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت».

وإذا كانت خديجة قد فوجئت بالوحي كما فوجئ به النبي حين أخبرها بما أفزعه فيما رأى، وأنه يخشى أن يكون ما رآه شيطاناً، فإنها كما رأينا قد قابلت الأمر بثبات، سواءً من جانب البداهة أو من جانب الفهم، فمن عادة الإنسان ـ حين يسمع بخبر يسيئه في نفسه أو في عزيز عليه ـ أن يسرع إلى دفعه وإنكاره، ولا يقبل الاطمئنان إليه، وهذا ما فعلته السيدة خديجة حين أنكرت بداية أن ما رآه النبي كان شيطاناً، ثم تثبتت من ذلك بالمقياس الأخلاقي والمقياس النفسي كما قدمنا، فزاد اطمئنانها إلى أن هذا ملك، ثم تابعت أسباب الاطمئنان والتثبت بسؤالها ورقة الذي بشرها بأنه نبي، ثم كانت أول المؤمنين به، وتلاها من كانوا يعيشون فيبيتها تحت كنف النبي، ومنهم ربيبه وابن عمه علي بن أبي طالب ومولاه وحبُه زيد بن حارثة.

الزوجة المثلى:

ولم تملأ زوجة من قلب النبي ما ملأته خديجة، وكما ملأته، وذلك بفضل شخصيتها العظيمة، وعشرتها الكريمة، فقد ربطت بينهما محبة كل منهما للآخر، وتعظيمه له، لمعرفته بفضله في نفسه وفضله عليه، وقد كانت خديجة رفيقة حياة مُثلى منذ زواجها بالنبي، وقد صارت بعد نبوته وزير صدق له في كل ما قاساه من الشدائد، إذ تحاول بكل ما

تملك من حول وطول أن تشاركه في حمل أثقال النبوة، وأن تسري عنه وعن نفسها ضيقة بهذه الأثقال، إذ لا شك في أنها كانت تغم بما يغمه، ويثير لواعجها ما يثير لواعجه، فكانت مثله في حاجة إلى التجلد والتسرية.

ولا ريب أن النبي كان قبل بعثته يعاشر قومه ويعاشرونه بالمودة وكانوا يثقون بأمانته فيلقبونه «الأمين»، ولكن المتاعب بينهم وبينه إنما نشأت بعد أن بادأهم بدعوته إلى التوحيد جهاراً، ثم تفاقمت الأزمات بينهم وبينه بعد استعلائها، واكتساب مؤيدين لها، حتى صارت صراعاً عنيفاً لدوداً، وكان أعظم إسناده في جهاده عمه ومربيه أبو طالب، وزوجته البارة خديجة، فأما أبو طالب فقد كان كما قال ابن إسحاق: «عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه»، فهو يحول بينهم وبين أن يصلوا إلى شخصه، وهذا حسبه في حياته العامة، وإن كان لا يستطيع أن يحميه من صغائر خصومه ومنغصاتها التي يلقاه بها الغمازون والمستهزئون.

وأما في حياته الخاصة البيتية فكانت زوجته خديجة هي سنده الأعظم، ولم تكن مساندتها إياه في نفسه ومعيشته بأقل أثراً من مساندة عمه له، ولم تنشأ مساندتها كمساندة عمه منذ بدء دعوته، وإنما كانت قبل ذلك بسنوات، إذ كان يقلق ضميره وعقله ما صار يحسه ويراه في قومه من ضلال وفساد في الآراء والأخلاق والسير، كما أقلق ذلك آخرين ممن يسمون «الحنفاء»، وكان هو يحب قومه ويغار عليهم ويألم لما هم فيه من عوج، ويرجو لهم الهداية والصلاح، ومن أجل هذا القلق المقعد المقيم، الذي كان يساور قلبه الكبير قبل البعثة، كما يساور قلب كل مصلح محب لخير الناس - كان يخرج إلى غار حراء للتحنث ويقيم فيه الليالي ذوات العدد كلما جاء شهر رمضان، فيراجع أحوال قومه، ويحاول أن يصل إلى وسيلة لتقويم عوجهم، والنهوض بهم في طريق قويم.

في كل هذه المدة قبل البعثة لم يكن لأبي طالب مكان في مشاركة هموم النبي والتسرية عنه، وإنما كانت أعباء المشاركة كلها من عمل خديجة التي كانت تفرغه لما يريد من التحنث، وتمده بزاده خلال انفراده في غار حراء، وتتفقده برسلها إليه «فلما جاءه الوحي وصدع بأمر ربه في تبلغ الرسالة وقعت المصادمات بينه وبين قومه، فحمى شخصه منهم أبو طالب، وقامت خديجة وحدها تهون عليه منغصاتهم له وحسرته على خيبة أمله فيهم مرة بعد مرة، وتثبت عزمه للمضي في دعوته مهما يحاولوا أن ينغصوه ويخذلوه».

شخصية خديجة:

وقد قدمنا أن السيدة خديجة كانت في الجاهلية تسمى الطاهرة لشدة عفافها وتصونها، ولا يظهر هذا الفضل إلا إذا كانت المرأة برزة تقابل الرجال من أقرباء وغرباء

وتعاملهم، وقد كانت السيدة خديجة امرأة غنية تاجرة تباشر أمور تجارتها في بيتها بنفسها فلا بد لها من مخالطة التجار، ولو لم يكونوا من ذوي الأرحام، ولو كانت خديجة حبيسة خدرها ما ظهر لها أو منها هذا الفضل، فالأسد لا يقال أنه داجن أو أليف وهو حبيس قفصه، ولكنه يستحق هذا الوصف إذا كان مطلقاً دون أن يؤذي أحداً، وعن طريق هذه الخلطة كما تقتضيها تجارتها ومعاملاتها لم تكن أقل من التجار معرفة بأحوال الناس وأحوال الاقتصاد والسياسة في بلدها، فيما وراءها من أقطار وإن لم تشترك في رحلة إليها كالرجال.

وكان لها من فطرتها السليمة بديهة ثاقبة تنفذ إلى طوايا النفس البشرية، وإلى طوايا العلاقات الاجتماعية وطوايا الأحوال المعيشية، فتعرف دخائلها . وقد أعانها على ذلك معاملاتها التجارية، وما كانت تخبره بنفسها منهم على اختلاف طباعهم وأخلاقهم، وما كانت تسمعه خلال مجتمعها التجاري الواسع من أخبار المكيين وغير المكيين حتى الأقطار المجاورة، فاكتسبت من ذلك خبرة واسعة وفطنة عميقة بالناس والحياة ربما فاتت يومئذ كثيراً من علية الرجال.

أمومة خديجة:

وكان لها حظ من الطبائع القوية التي تمكنها من مغالبة صروف الحياة، وحظ مثله من الأخلاق الإنسانية الرفيعة التي تجعلها تألف الناس ويألفونها، بل تودهم ويودونها، وهكذا كانت علاقتها بسائر من كانوا يعيشون في كنفها، ويبدو لنا أن أقوى ما في شخصيتها العظيمة شعورها الغامر بالأمومة بكل ما تذخر به من حنان وبر واستعداد للفداء في سبيل من يتعلق بها أو تتعلق به، ولم يكن هذا شعورها نحو أولادها فحسب، بل نحو كل من عاشوا في كنفها، أو اتصلت حياتهم بحياتها، ومن هؤلاء أخوتها وأولادهم كأبي العاص ابن اختها وزوج ابنتها زينب. وحكيم بن حزام ابن أخيها.

ومنذ بدأت دعوة النبي احتضنتها وليدة كأنها وليدتها هي، ولم تبال ما تكلفها في نفسها وما لها من جهود، وكذلك احتضنت النبي من قبل فكانت له كأنسب ما تكون زوجة، ولا نعدم أن نجد في سيرتها ما يدل على أنها كانت تمده بأمومتها أيضاً كما يدلنا على ذلك خبر فزعه حين فوجئ بالوحي، ولكي تطمئن وتطمئنه طلبت إليه أن يجلس على فخذها الأيسر ثم الأيمن ثم في حجرها.

ومع أن خديجة كانت تاجرة وكان شأنها - شأن التجار - طلب الزيادة أو الربح، لم تكن ككثير منهم في الحرص على المال أو إنفاقه في البذخ، بل كانت تتقي به الحاجة إلى الآخرين، وتقصد التمتع بالعيش الكريم، وصلة الأرحام، ومعونة المحتاجين،

كما تدلنا أخبارها في توصيتها للنبي ببعض المحتاجات، فكان يصلهن ويقول أنها أوصته بهن، فيتفقدهن وفاء لها، إلى جانب ما فطرت عليه نفسه الكريمة من عطف سابغ، وقد يكون للمرأة مال، وقد يكون كله أو أكثره مما أكسبها الزوج، فإذا احتاج إلى شيء منها - لأمر - لجأت إلى البخل أو المماطلة أو أعطت القليل، ونحن نعلم أن النبي كان فقيراً حين تزوج خديجة، وكانت هي غنية، وكل ما يستفاد من السيرة أنه لم يكن لها مال له مال، بل كل مالها تحت تصرف النبي وكانت تحمد له اجتهاده في تنميته ولا تنازعه في شيء منه، حتى بعد الدعوة وأثر الخلاف بينه وبين قومه في تجارتها أو تجارته.

الزواج الأمثل:

ومما يلفت النظر ويدعو إلى التأمل في زواج النبي بخديجة أنهما لم يكونا يعرفان الزواج كما يعرفه معظم الأزواج والزوجات، مجرد علاقة بين فردين: رجل وامرأة تُحصنُه ويحصنها، ويكونان معاً أسرة واحدة لكل منهما فيها تجاه الآخر وحده حقوق وواجبات على وجه من الوجوه، بل كانا يدركان ويشعران أن الزواج وظيفة أو رسالة أعلى وأوسع من هذا الأفق الضيق، فهو علاقة بين أسرتين توجب على كل من الزوجين أن يلتزم نحو الآخر ما يلتزم هذا الآخر من واجبات في صلاته بأسرته الكبرى، لتكون الأسرتان معاً أسرة واحدة، لا لتنفرد الزوجة بالزوج دون نظر إلى علاقاته بأسرته، ولا لينفرد الزوج بالزوجة دون علاقة بمسئولياتها الأسرية، فقد تزوج النبي بخديجة ولها أولاد من زوجين آخرين كانا لها قبله، فاحتضن النبي أولادها من غيره كأنهم أولاده، وكان بعضهم يفخر بأبوة النبي له، دون والده الحقيقي، كما واصل النبي كل من كانت خديجة تواصلهم من قرابتها ومن تعايشها في بيتها وسائر صواحبها، وكذلك كانت خديجة تواصل كل من يواصلهم هو من أهل بيته، فلما افتقر أبو طالب وسعى النبي مع أعمامه في أن يأخذ كل منهم أحد أبناء أبي طالب، وأخذ النبي علياً كانت خديجة أماً بارة لعلي، كأنه من ولدها وكانت تواصل كل من يواصلهم النبي من أهله وأتباعه.

ومما يدعو إلى النظر والتأمل في زواجهما أيضاً أن كثيراً من التعاليم الكريمة التي جاء بها الإسلام كانت في هذا البيت الكريم من التعاليم السائدة واقعياً في نبل ومحبة، وهي تعاليم (المروءة) الإنسانية التي اصطلح عليها سادات العرب في الجاهلية كاحترام المرأة زوجة وأماً وبنتاً، ومشاركتها في الميراث، ومشاورتها في الأمور البيتية ثم في غيرها أحياناً، ومن الأمور الزوجية التي استحبها الإسلام أن تكون للرجل زوجة واحدة، وكذلك كانت خديجة في حياتها مع النبي، فلم يتزوج غيرها، وإن كان قد احتاج بعدها إلى تزوج عدة نساء، ليجبر

خواطر بعضهن، وليمكن صلاته بعشائر بعضهن، كما زوج بناته لبعض صحابته تقوية لهذه الصلات.

مكان خديجة:

وحسناً في تقدير خديجة ما كان من تعظيم النبي لها في حياتها، ووفائه العميق لها بعد وفاتها، ومن ذلك أن أختا لخديجة (وهي هالة) زارته يوماً في المدينة فاحتفى بها وفرش لها مجلساً، وكان يتبع صواحب خديجة بهداياه، وكل هذا مما أثار غيرة السيدة عائشة أحب زوجاته إليه بعدها، فقد كان يذكر خديجة حيث تمملى ذلك المناسبة، فكانت عائشة تضيق بذكرها، ومن ذلك ما كان من النبي في تفقده لبعض العجائز بالبر والسؤال، فتسأله عائشة عن ذلك فيقول: «إن خديجة أوصتني بهن، فقالت له مرة وهي غاضبة: خديجة، خديجة، فكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة».

ومع ما عرف عن النبي من حلمه الواسع، ولا سيما في مثل هذه الصغائر الأنثوية، كان أحياناً يغضب من السيدة عائشة لهذه الغيرة من خديجة، وقد تركها فترة في إحدى غضباته، ثم عاد وعندها أمها (أم رومان) فقالت له أنها: «يا رسول الله، مالك ولعائشة؟ إنها حديثة السن، وأنت أحق من يتجاوز عنها، فلم يترك عائشة حتى أمسك بخدها معاتباً، وهو يعيد عليها قبلتها التي أغضبته: «ألست القائلة: كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة».

وربما كان أشد غضباته في هذا الصدد حين سألته عائشة وهي تقصد خديجة: «ما نذكر من عجوز حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها» فأسكتها قائلاً: «والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحُرمتُه من غيرها».

وقد تتجاوز المرأة لزوجها بسهولة حين يذكر لضرتها إيمانها به، ومواساتها له بمالها وهو في أشد الحاجة لذلك، ولكنه حين يذكر ألمه من المفارقة بين رزقه، الولد منها وحرمانه من غيرها. وهو في أشد الحاجة إلى الذرية من صلبه مع أبوته الغامرة لكل الناس. حينئذ يكون قد نكأ جرحاً عميقاً تحسه المرأة التي حرمت الذرية من زوجها الذي تحبه ويحبها، ويصعب عليها أن تنسى ذلك، وإن تجاوزت عنه حرصاً على المحبة، إذ ليس هناك حيلة في أمر الذرية.

ومن هنا نعرف أن الفراغ الذي تركه موت خديجة في قلب النبي لم تملأه زوجة للنبي أو جميع زوجاته بمن فيهن عائشة رضي الله عنهن جميعاً، إذ روى أنه حزن لموتها حتى خشي عليه، وقد سمى عام موتها وموت أبي طالب «عام الحزن» وكانت المدة بين موت كل من هذين النصيرين والآخر عدة أيام.

ومما تذكره كتب السيرة النبوية مناضبات بعض زوجاته له أحياناً ومغاضبتهن له مجتمعات - لمعيشة الكفاف في بيوتهن معه، فمن الأخبار المتواترة - وهو معهن في المدينة - أنه كان أحياناً لا يجد سبعةً من خبز البر أو الشعير ثلاث ليال متوالية، وأنه لم يجد شبعة من خبز وزيت مرتين في يوم واحد ولم يكن له ولأهله مطعم إلا ما يمنع غائلة الجوع، فلما طلبن منه زيادة النفقة لم يوافقهن لضيق ذات يده، وخيرهن بين البقاء معه على المعيشة الضنك التي هو فيها وبين تسريحهن سراحاً جميلاً، وأمهلهن شهراً ليخترن أحد الأمرين، فآثرن البقاء معه، وإلى ذلك أشارت سورة الأحزاب: {يا أيها النبي، قل لأزوجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمنعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن نردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً}.

ومثل هذه الأزمات البيتية لم يحدث في مكة خلال حياة النبي مع خديجة لسعة النفقة يومئذ بسعة مالها، ولأن رضاه كان رضاها في كل سعة وضيق، وكل سراء وضراء، ولم يكن النبي ليرضى معيشة الضنك مع زوجاته في المدينة إلا لشعوره بمسؤليته العظمى، وهي أنه قدوة حسنة للفقراء والأغنياء في المعيشة كما هو قدوة حسنة لهم في كل أحوالهم.

ولقد كان من التوفيقات العظيمة السعيدة في حياة النبي أن كانت خديجة أولى زوجاته، وحالها يومئذ حالها، وحاله حاله، «ألم يجدك يتيماً فآوى..... ووجدك عائلاً فأغنى».

ولعل أهم ما في هذا الزواج بالنسبة للنبي ليس هو غنى خديجة، بل هو ما كانت عليه خديجة في نفسها إلى جانب غناها، فلم يكن أصلح له - وقد تيتم وحرم حنان أمه في بداية طفولته - من زوجة ناضجة في حكمة خديجة وكرمها ونبل أخلاقها جملة، ولقد غمرته بحنان أمومتها منذ تزوجها، وأدركته بفيض عطفها وبرها حتى بعد ذلك، إلى أن خالجت سريرته بواعث الإصلاح لتهيئته للنبوة، وتباشيرها تقبل عليه فتثير لواعجه بين الأمل في الفلاح والخشية من الفشل، فلا يجد من خديجة إلا كل رعاية في تثبيت قلبه، وحفزه على المضي في طريقه، ومواساته في همومه، مهما تشتد حوله الأزمات، وتعترضه العقبات، وكان إيمانها به وبرسالته قوة له إلى جانب قوته لا تعد لها أي قوة في كل ما أراد الله له، أنها كانت أكبر من امرأة، إذ لا نعدم في شخصيتها بعض خصال الرجولة، فكانت له الصديقة الأولى والصديقة الكبرى عليه وعليها السلام.

❖ ❖ ❖

أم الزهراء.. أعظم النساء خديجة (رض)

✍ عبد المقصود حبيب (مصر)

ماذا يقول كاتب في واحدة هي أم للمؤمنين والمؤمنات، وهي أول من أسلم من النساء وعلى الإطلاق، وهي أول من احتضن الدعوة وداعيها، وبذلت في سبيلها من مالها ونفسها.. كرمها الله.. وكرمها رسول الله (ص) واقسم أن لا بديل لها ولا يعدلها عنده أحد «والله ما ابدلني الله خيراً منها».

ماذا يقول هذا الكاتب أو ذاك في هذه السيدة العظيمة بعد تكريم الله ورسوله لها.. أنه - مهما بلغ - لن يستطيع أن يشتمل بفكرة وقلمه على كل الروعة في تلك السيرة العطرة.. كما لن يستطيع أن يحيط بعظمة هذه الشخصية الفذة.

ولكن حسبه من كتابته شيئان:

أولهما: أنه يرضى نفسه ومشاعره بالاقتراب من ذلك النور الباهر يستجليه قدر ما يستطيع ويملأ منه قلبه رضاً وإجلالاً.

وأما ثانيهما: فليس المقصود بالكتابة في سير عظماء الإسلام وأعلامه أننا نسرد وقائع التاريخ المتصلة بهم فحسب.. بل المقصود أن نأخذ العبرة من سيرهم لنستضئ بها في حياتنا وننتفع بتجاربهم في أمورنا الدنيوية والآخروية.. «فقد هلك خزان المال وهم أحياء.. والعظماء باقون ما بقي الدهر.. أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة».. وقد بين الله سبحانه حكمة القصص فقال لا صفى أصفيائه (ص) «**لقد كان من قصصهم عبرة لأولى الألباب**» كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وأن كنا معشر المسلمين نساءً ورجالاً في حاجة دائمة لاستجلاء العبر واستنهاض الأمثال من سير عظماء الشخصيات الإسلامية والتأسي بما كانوا يقدمون للدنيا من خير وفضل.. **فما أحوجنا الآن إلى مثل سيرة سيدة هي أعظم النساء العالمين.. ليست لأنها فقط كانت زوجة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم.. ولكن أيضاً لأنها ضربت أروع الأمثلة في مساندة الزوجة لزوجها في دعوته عندما أكد لها قلبها الملهم انها دعوة الحق من عند الله..** وقفت بجانبه تقويه وتزكيه وتبذل من راحتها وطمأنينتها ونفسها لكي يسير الداعي بدعوته حتى تشق الدنيا وتملأها بالنور والمحبة والسلام... وليس هذا أيضاً فحسب ولكن لأنها أنجبت ذرية صالحة طاهرة سامقة تضئ للمسلمين أركان الأرض إلى اليوم.. وإلى يوم الدين.

كانت حياتها منذ يومها الأول حياة النبل والترفع حتى لقبتها قريش من قبل الإسلام بالطاهرة لما كانت عليه من خلق عظيم وفضل سابغ ومجد عريق وسمعة يحفها الطيب في كل مكان وفي كل مجلس.

«خديجة بنت خويلد»: ولدت لأبوين كريمين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهي نسبة إلى **«لؤي بن غالب بن فهر».. وكان نسباً معرقاً في النبل والسيادة**.. وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة واليسار الظاهر فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام.. كما كان لهذه الأسرة نزعة فطرية للروحية والتدين، ولأبي خديجة في ذلك حادث مشهور.. كما نزع بعض أفرادها إلى العزلة والاعتكاف بحثاً عن دين أقوم مما عليه القوم... مثل ابن عمها **«ورقة بن نوفل»** الذي ما فعل ذلك لنفع مادي أو كسب شخصي.. .إنما كان عكوفه على دراسة الدين لطبيعة فيه توحي إليه بالشك في عبادة **الأوثان** وتجنح به إلى البحث والمراجعة عسى أن يهتدي إلى عقيدة أفضل مما يمارسها قومه.

درجت خديجة بنت خويلد في هذه الأسرة العظيمة من الطفولة إلى الشباب حتى تزوجت «ابا هالة بن زرارة التميمي» الذي كان من علية الناس في مكة وقد مات في الجاهلية بعد أن قضت معه أعواماً قليلة وقد ولدت له «هندا» الذي صار في الإسلام صحابياً وقد شهد غزوة بدر وقيل غزوة أحد.. وكان يقول: أنا أكرم الناس أبا وأخا وأختا.. أبي رسول الله (ص) وأخي القاسم واختى فاطمة وامي خديجة رضي الله عنها».

وكذلك أنجبت من هذا الزوج «هالة» أيضاً.

وبعد أن مات عنها زوجها «أبو هالة» تزوجها «عتيق بن عامر المخزومي الذي ولدت له بنتا أسمتها «هندا» وقد أسلمت وصحبت.

عاشت مع الزوجين عيشة راضية.. قامت فيها خديجة بأعظم ما تقوم به زوجة.. وقدمت لزوجيها خير ما تقدم زوجه لروجها.. كان مبدؤها الذي سارت عليه أن الزواج تعاون بين الزوج والزوجة، وحرص من الزوجة على رضاء زوجها وأن تحفظه في ماله وفي أهله وفي غيابه.. من هذه القاعدة العظيمة لكل زواج ناجح مثمر منحت خديجة كلا من زوجيها المتواليين كل ما يمكن أن تمنحه المرأة العاقلة الفاهمة: أطاعته واحترمته وشجعته.. ووجد في قلبها عطفاً أنس به وارتاح إليه أحسَّ عندها بسعادة كان يرجوها فاطمأن إليها ومنحها من قلبه مثلما منحته من قلبها...

لخلقها العظيم... أحبها كل من الزوجين على التوالي..

ولسمعتها العطرة.. ما أن مر وقت قصير على موت زوجها الأول.. حتى تقدم لها أشخاص عديدون إلى أن استقر الرأي على من كان لها **الزوج الثاني** لكن الموت لم يمهله أيضاً..

فضلت من بعده أن تبقى بلا زواج.. وحسبها من الحياة الزوجية ما قضت وتعيش لثروتها التي ورثتها عن أبيها وزوجيها.. ولأبنائها منهما.. فأخذت تدبر أموالها أحسن تدبير.. وترسل القافلة بالتجارة الكبيرة إلى الشام صيفاً وإلى اليمن شتاء مثلما يرسلها الرجال.. وعليها عمال أمناء أحسنت اختيارهم.. فتعود القافلة بالربح الجميل الذي يجعلها محط أنظار القوم إعجاباً وتقديراً.. وتفيض منه على المحتاجين والفقراء من أهل مكة فضلاً وعطاء يزيد من حولها القلوب المحبة.

ولكن الرجال في مكة أفكروا في شرف الزواج من خديجة.. صاحبة الفضل والفطنة، والذكاء والثراء فطلبها كثير منهم.. ورغم ذلك لم تستجب إلى هذه الرغبة إذ وجدت في نفسها عزوفاً كبيراً يمنعها.

وظلت على هذا الرأي.. كما ظل الرجال على طلبهم.. والأيام تمر..

وفي ذات يوم منها.. بعد أن أنهت ما تطلبه المعيشة من أعمال منزلية.. أوت إلى فراشها وليس في ذهنها ما يشغله غير أبنائها الأيتام والقافلة التي ستذهب في رحلة الشتاء إلى اليمن بعد أيام.

وما ان مر وقت قليل حتى استغرقها النوم ورات فيه رؤيا كالحقيقة الناصعة جلاء ووضوحاً... رأت فيها شمساً عظيمة القدر مضيئة أشد ما يكون الضوء جمالاً وجلالاً تهبط إلى دارها من سماء مكة فيغمر ضوؤها ما يحيط بالدار من دور ومنازل وتدرج الضوء حتى غمر الدنيا حيثما تتوجه بناظريها.. فقامت من فورها ولم يعاودها النوم في تلك الليلة حتى الصباح وهي تفكر طويلاً في أمر تلك الرؤية ماذا تعني؟ وإلى أي شيء تهدف؟ وماذا يكون تأويلها؟

ومع دبيب الحياة في مكة ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان من أهل العلم والحكمة الذين نبذوا عبادة الأوثان واعتزلوا عبادها في انتظار نبي آخر الزمان الذي بشرت به التوراة كما بشر به الإنجيل... ورأى لقرب مجيئه تباشير وارهاصات كثيرة نطق بها العلم الذي يعرفه والكتب التي يختزنها ويعب منها.. وكان ورقة قد عاب على أهل مكة ما يعبدون والتزم في عبادته دين إبراهيم عليه السلام فأجتنب الخمر والميسر ورجم الموءودة من وأدها وافتداها بماله.

ذهبت إليه خديجة متلهفة لسماع تفسيره لرؤياها التي رأتها في أول الليل وشغلتها عن النوم حتى الصباح.

رآها ورقة فاستفسر عن سر مجيئها الباكر فقصت عليه ما رأت فاستبشر وضحك وقال لها مبشراً:

- «لك البشرى يا خديجة يا ابنة العم.. فهذه الشمس المضيئة علامة على قرب ظهور النبي الذي أظل زمانه ودخولها دارك دليل على أنك أنت التي ستتزوجين منه».

دهشت خديجة لذلك التفسير.. ورغم أنها لم تعلق عليه فقد رسب في أعماقها.. وشيئاً فشيئاً كان يسدل عليه ستار من النسيان تكثفه مشاغل الحياة وأحداث الأيام.

كان «محمد» غلاماً يورق صباه ويينع ويبين شبابه نحو الاكتمال والازدهار ويتردد في أرجاء مكة صدى الحديث عن صفاته وأخلاقه وعفافه وأمانته... تلك الصفات التي لم يعهدها القوم في شاب من شباب مكة غيره... ولقب بالأمين... وقدم على شباب مكة بل وفي بعض الأحيان على مسنّيها وهو لا يزال في ميعة الصبا.. توفي عنه جده عبد المطلب، وكفله من بعده عمه أبو طالب وكان كثير العيال كثير الأعباء. فما أن بلغ «محمد» العشرين من عمره حتى قال له عمه:

- يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مال ولا تجارة وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك وأن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك يهود. وقد بلغني أن خديجة استأجرت رجلاً ببكرين ولسنا نرضى بمثل ما أعطته فهل لك في أن أكلمها.

.. فقال محمد في لطفه ووداعته:

- ما احببت يا عمي.

فذهب ابو طالب إلى خديجة وقال لها:

- هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً.

فأجابت بالهام فوري:

- لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا فكيف وقد سألته للقريب الأمين.

وقابلها محمد فقالت له:

- دعاني إلى أن أبعث إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم خلقك وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلاً آخر من قومك.

فانبسطت اسارير أبي طالب وقد غضنت الأعباء مع السنين ملامحه وقال لابن أخيه:

- يا محمد.. هذا رزق ساقه الله إليك.

ذهبت القافلة بتجارة خديجة في أمانة الأمين محمد إلى الشام وعادت بخير لم يسبق أن جنته قافلة لها من قبل واستقبلته خديجة في سرور بالغ وامتنان عظيم.. ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام وأنصتت إليه شبه مأخوذة حتى إذا ودعها ومضى ظلت واقفة حيث هي تتبعه عيناها إلى أن توارى في منعطف الطريق».

أي شيء حدث لخديجة.. وماذا دار في خاطرها؟.. «لقد بلت وعرفت الرجال وتزوجت مرتين باثنين من سادات العرب وأشرافهم.. واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان على تجارتها فما رأت فيمن عرفت ذلك النمط الغريب من الرجال واستغرقت في تفكيرها تستعيد

صوته العميق الساحر وهو يحدثها عن رحلته ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والجلال».

شيء ما.. آخذ يدوي صداه في أعماق خديجة.. وتلحُّ عليها صورهُ.. شيء غامض التي عليها الحيرة والتساؤل.. فأخذت تستمع إلى ميسرة الذي رافق «محمداً» في قافلتها إلى الشام.. سمعت منه أعجب ما يسمع إنسان عن إنسان سمعت من ميسرة حديث الراهب «نسطور» الذي قال فيه بعد آن رأى محمداً يجلس تحت شجرة بذاتها في بصرى من أرض الشام:

- «يا ميسرة.. أن من يجلس بجوار هذه الشجرة وتظله هذه الغمامة المنخفضة وصفاته كما تصف ليس إلا نبياً.. فو الذي رفع السموات بغير عمد اني لأجد في صحفي أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين يبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا ومن عصاه فقد غوى!

وأيدته خديجة فقد كانت ترقب الشاب الأمين «محمداً» وهو قادم على مشارف مكة من رحلة الشام فرأت بعينيها هي الأخرى عجاباً وقالت:

- صدقت يا ميسرة.. فلقد رأيت اليوم بعيني عجاباً.. رأيت مع القافلة سحابة بيضاء تصحب هذه الأمين حتى دارنا.

بدأت الأحداث والرؤى تترابط في مخيلة خديجة بنت خويلد..

في أعطائها شيء ينبض بالحنان والتقدير والتعظيم لهذا الفتى الأمين..

وفي طيات ذكرياتها رؤيا تكاد تكون كالشمس في قبة السماء..

وفي أحاديث القوم أسرار مشرقة وانبعاثات إلهية تفيض على ألسنتهم نوراً وهم يذكرون هذا الفتى...

فذهبت إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» تلقي عنده بعبء حيرتها بين كل ذلك.. وقصت عليه كل ما سمعت.. وكل ما شهدت.. فقال لها ورقة:

- «أن كان هذا حقاً يا خديجة،، فإن محمداً نبي هذه الأمة.. فلقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبي منتظر وهذا هو زمانه الذي فيه يبعث.. عشت طوال حياتي أرقب هذه النذر.. ثم جاءت أنباء ميسرة فزادتني يقيناً وإيماناً.. وجاء حديثك ليكون زكاة جديدة لإيماني بأن محمداً هو دعوة إبراهيم الخليل ليكون رحمة للعالمين.. أقدمي يا ابنة العم على ما تريدين في نفسك لا تحجمي ولا تترددي فانت أسعد نساء قريش».

تبلور الأمر في فكر خديجة.. وأدركته صديقة لها هي «نفيسة بنت منبه» فاعتزمت أمراً..

ثمَّ زواج محمد من خديجة وهو في نحو الخامسة والعشرين وهي أغلب الأقوال في نحو الأربعين.. فكانت أول زوجة لأكرم إنسان... تهيئ له بيتاً سعيداً، وتنجب له زينة الحياة الدنيا بنين وبنات وتشاركه آماله وتقاسمه تبعاته ومسئولياته.. وتلين له حياته في وداعة وفي رقة وفي حنان وفي شجاعة. ✦

مدرسة الرسول
السيدة خديجة «أم المؤمنين (رض)»

✍ عبد المنعم حمادة (مصر)

تميزت قبيلة قريش عن سائر قبائل العرب الأخرى بحسن معاملة المرأة ورعايتها، فقد كان لها بعض الحقوق، وعليها بعض الواجبات التي تشعر معها بأنها كالرجل كائن حي.. كائن له ما لسائر البشر الذين أراد لهم الله العزة والكرامة في ظل التمتع بما هيأة سبحانه من خيرات ونعم.. وتميزت قريش عن سائر القبائل بأن المرأة شعرت فيها بشيء من كيانها ووجودها اللذين أعطياها حرية التصرف في بعض الأمور التي تتصل بشئونها الخاصة، واللذين مكناها من المشورة وإبداء الراي في بعض المسائل التي تتصل بالشئون العامة.

ويخيل إليّ أن الله سبحانه وتعالى كان بقدرته وحكمته يعد من نساء هذه القبيلة واحدة منهن لأمر جلل، ويدربها على مسئولية خطيرة لتكون آهلاً للقيام بهذا الأمر، جديرة بتحميل هذه المسئولية.. وإذا كانت قدرته وحكمته، وإذا كانت مشيئته قضت بأن يختار من بين رجال تلك القبيلة نبي الدعوة الإسلامية، والرسول الكريم الذي حمل على أكتافه أعباء نشر هذه الدعوة، والنبي الإنسان القوي النفس والإرادة، الذي تحمّل العنت والإرهاق، وتحمل الأذى والآلام المبرحة، والشدائد التي تهز الجبال دون أن يصيبه أدنى شك فيما يدعو إليه، أو يأس من تبليغ الرسالة فإن هذه الحكمة الإلهية، وهذه المشيئة السماوية قد أرادتا أن تكون من بين نساء قريش المرأة التي تشارك هذا النبي في جهوده، وتعاونه في نشر دعوته، وتواسيه في الشدة وعند اليأس، وكذلك أرادت حكمته ومشيئته سبحانه أن تعد هذه المرأة الإعداد الذي يجعلها جديرة بهذا النبي الكريم، فتكون أولى زوجاته، وأم أبنائه، والوحيدة التي تملأ عليه حياته وتبقى إلى جواره لا تزلزلها شده ولا تبطرها نعمة حتى تلقى ربها راضية مرضية. تلك هي خديجة أم المؤمنين رضوان الله عليها ورحمته.

لقد عاشت خديجة طوال حياتها ومنذ يومها الأول حياة العزة، والترفع عن الدنايا، والبعد عن مواطن الشبهات، ولذلك أطلقت عليها قريش «الطاهرة» تقديراً لأخلاقها، واعترافاً بفضلها، وهي بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وأمها فاطمة بنت زائد بن الأصم بن رواحه بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر.. وكانت كما يقول ابن اسحق: «امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم»، فهي إذا من بيت كريم ينتمي إلى قبيلة عظيمة، أصيلة كشجرة وارفة أصلها ثابت وفرعها في السماء، نالت

المكانة والحظوة عند الناس من قديم فأسندوا إلى أبنائها أمور مكة، ومن أجل ذلك بني قصي بالقرب من البيت الحرام دارا أطلق عليها دار الندوة ليجتمع فيها كبار أهلها وأصحاب الرأي فيها ليتشاوروا في أمورهم، وليبحثوا مشاكلهم، وليتخذوا من القرارات ما يصلح أحوالهم، ويقوم شئونهم .وهي إذا من القبيلة التي اصطفاها رب العزة من بني كنانة، التي اصطفاها من بني إسماعيل عليه السلام.

وكانت خديجة إلى جانب ما حباها الله من الخير والكرامة وإلى جانب مكانتها في قريش . وما نالت من وفرة المال، امرأة عاقلة حصيفة، وفي ذلك تقول السيدة نفيسة بنت منبه: «كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي امرأة حازمة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً»[1].

ويعقب الأستاذ العقاد على نسبها فيقول:

«ولدت السيدة خديجة لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية وكلاهما ينتهي نسبة إلى لؤي بن غالب بن فهر بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى النسب المعرق في النبل والسيادة، وقد اجتمع لها مع النبل والسيادة مكانة الثروة الوافرة، فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام.

وأهم من هذا جميعاً بالنسبة إلى زوجة نبي، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة، أنها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية، فأبوها هو الذي نازع تبعاً الأخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه إلى اليمن، فتصدى له ولم يرهب بأسه، غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه. وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل[2] الذي رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبي (عليه السلام) عند مفاجأته بالوحي ما أزعجها[3].

ويستطرد الأستاذ العقاد فيقول:

«وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة لا يعنينا أن نستقصيها لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بني عم السيدة خديجة الأقربين، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين ومن تحول عنها إلى النصرانية»[4].

---

(١) المنتخب من السنة: الجزء الأول، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، صفحة ٦٩.. وللحديث بقية، وقد رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، الجزء الثاني، صفحة ١٣١.

(٢) ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة: تنصر وألم بالتوراة والإنجيل، بشر بنبوة محمد، وقال لخديجة حين أخبرته بقصة الوحي: أن هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى، وأن محمداً لنبي هذه الأمة. توفى في السنة الثالثة للبعثة دون أن يعلن إسلامه. «الموسوعة العربية الميسرة».

(٣) **فاطمة الزهراء**: للأستاذ عباس محمود العقاد.

(٤) **نفس المصدر السابق.**

ومنذ بلغت السيدة خديجة السن التي تؤهلها للزواج، كانت موضع أعجاب كثير من الراغبين فيه، ولكنها كانت دائماً تلجأ إلى التفكير الصحيح، وإلى المنطق السليم، وإلى التبصر: ولذلك كانت تتمهل في قبول العروض التي تتقدم إليها، وأخيراً تزوجت قبل محمد - صلوات الله وسلامه عليه - من عقيق المخزومي الذي توفى تاركاً لها بنتا ومالاً، ثم تزوجت من بعده أبا هالة التميمي الذي مات بعد أن ترك لها طفلين.. وهكذا جربت حظها في الزواج مرتين، «ولم يدم زواج السيدة خديجة إلا بضعة أعوام، فعاشت ترعى بنيها الصبية الأيتام، متسلية بهم عن الزوجين اللذين فقدتهما واحداً بعد واحد، ورأت ألاّ تدع مالها عاطلاً حتى لا ينفذ في نفقات المعيشة، فتاجرت فيه وهي محتجبة في بيتها، فكانت تستأجر رجالاً يعملون في التجارة لحسابها لقاء أجر، فيكون لها ربح التجارة، وللأجراء آجر العمل»[1].

وهكذا لم ترض السيدة خديجة بعد وفاة زوجها الثاني أن تلبي نداء أحد من قومها، وما كان احرص كل واحد منهم على أن ينال الحظوة، ويسعد بالقبول، وما كان احرص كل واحد منهم على بذل المال في سبيل الجمال والمكانة، والحصافة، والمال.. غير أن الله سبحانه وتعالى بحكمته وعلمه، كان يدخر لها من هو أعظم من كل من عرض ويعرض عليها، وكان يدخر لها مكانة أعلى وأشرف من كل ما حصلت عليه، أو يمكن أن تحصل عليه امرأة في الوجود، فأعرضت عن الزواج، وأصمت أذنيها عن نداء القوم، وأغلقت بابها دون الطارقين الراغبين في يدها، واكتفت، كما يقول الأستاذ الملطاوي: بتربية صغارها، وتنمية مالها حتى تجد ما يعينها على تنشئة هؤلاء الصغار النشأة الصالحة، واحتجبت في دارها راضية بحظها من الزواج، وكأنما كانت تنتظر قدرها المحتوم في دار أشرف الخلق محمد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه.

كان هذا اليتيم الذي لم تكتحل عيناه برؤية والده، والذي لم يشبع من حنان أمه ورعايتها له، والذي لم تسعده الفرصة للاستمتاع بمزيد مما لدى الأبوّة والأمومة من حنان وعطف يحسهما الأطفال عادة في وجودهم بالقرب من الأبوة والأمومة، وفي كنفهما، وفي ظل الرعاية التي يسبغانها عليهم.. كان هذا اليتيم يشق طريقه لما يعده له ربنا سبحانه، ويسير إلى ما اختاره عزّ وجلّ له وللإنسانية عامة من خير، وكان هذا الفقير الذي لم يترك له أبوه من ميراث شيئاً يمكن أن يعده من ناحية الغنى، حتى في مرتبة أوسط الناس، وكان هذا المفكر المتمعن في ملكوت السماوات والأرض، الباحث عن الحقيقة، الساهر الليل يقلب البصر في بديع صنع الله، الراغب في الوحدة والعزلة ليهتدي إلى الطريق الذي يسلكه وصولاً إلى الحقيقة التي تتحدث بها نفسه، ويمتلئ بها قلبه.. كان هذا الإنسان الكريم يحس هذه

---

(١) أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى: للأستاذ حسن كامل الملطاوي، صفحة ٢٩، ويختلف المؤرخون في أي من الزوجين كان أسبق من الآخر.

الأحاسيس التي تتفاعل بين جنبيه ولا يستطيع ان يدرك سر أفكاره وتأملاته، وما سوف ينتهي إليه هذا التفكير وهذه التأملات.

كان محمد يعيش هذه الحياة.. حياة الألم الداخلي الذي يعصر نفسه، وحياة السخط على ما يرى عليه أهله من فساد وضلال، وحياة التفكير والقلق بحثاً عن الحقيقة.. وكان الله بحكمته وقدرته يهيئ له الطريق الذي يسلكه ليسمو بنفسه هما يحط من شأن الإنسان، وإلى ما يملأ قلبه بالخير، وينجو بروحه من هذا الضلال.. كان الله يعد له كل شيء، فآواه عمه أبو طالب إلى بيته فضمن له الرعاية أبيه وأمه وحبهما وحنانهما وأعد له خديجة بنت خويلد: أحد سيدات قريش، فضمنت له حياة لا يحس فيها شظف العيش وبؤس الحال، وهيأ له نور البصيرة والاهتداء إلى الحق فأنزل عليه رسالته الخالدة تفتح له أبواب السماوات والأرض. والله عز وجل يقول في محكم آياته:

«والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث».

ونحن لا نريد أن نتحدث هنا عن محمد في صدر شبابه، ولا عن محمد المبعوث من السماء برسالة الهدى ودين الحق . وأن كان الحديث عن ذلك يحلو في كل وقت، ويملأ النفس بالغبطة والسعادة، وإنما نريد أن نخصص هذا الجزء من البحث عن شيء واحد، عن محمد الزوج، وعن خديجة الزوجة، عن محمد الزوج الإنسان، وعن خديجة الزوجة المخلصة الطاهرة وأثر مدرسة الرسول وتعاليمها في حياة المرأة عامة، والسيدة خديجة خاصة.

والواقع أن محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان في حياته الخاصة إنساناً ككل الناس من ناحية أنه يأكل الطعام، ويمشي في الطرقات، ويفعل ما يفعله كل البشر، شيء واحد كان يأباه وتتصرف عنه نفسه، ويتحاشى أن يقوم به وأن أحاطت به جميع مغريات الدنيا، ذلك هو ممارسة المنكر، والرضوخ للشهوات والانقياد لمتع الحياة وزخرفها.. ولما شب عن الطوق، وبدأ يمارس بعض الأعمال كرعي الغنم، ثم الاشتغال بالتجارة، كان يريد أن يعيش من كسب يدهِ، ومن مال حلال يريد أن يأتيه من طريق حلال، فلما بلغ مبلغ الشباب، وعرض عليه الزواج تقبله كما يتقبله أي شاب يريد أن يؤسس البيت الذي يستقر فيه. ويجد الصدر الحنون لذلك ما أن عرض عليه الزواج من السيدة خديجة حتى تهللت أسارير وجهه، وكأنما أحس بقوة خفية وراء هذا الأمن تهيئ له العش الهادئ، والبيت الأمن، والصدر الحنون، والحياة التي ينعم في ظلها.. وكان الزواج.. وكان الخير، وكانت النعمة من الله العلي القدير.

والحديث عن الزواج من السيدة خديجة يدعونا إلى أن ترجع قليلاً إلى تاريخ الرسول منذ بدايته لنتعرف على دوافعه وملابساته فقد توفى عبد الله بن عبد المطلب ومحمد لا يزال

جنينا في بطن أمه آمنة بنت وهب ثم ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب، وأغدق عليه كل حبّه وأسبغ عليه رعايته، ثم كفله بعد جده عمه أبو طالب «وأن لم يكن أكثرهم يساراً ، وكان العباس أكثرهم مالاً ، ولكنه كان على حاله حريصاً ، لذلك أحتفظ بالسقاية وحدها دون الرفادة، فلا عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم في قريش مكانة واحتراماً ، ولا عجب أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده»[1].

ورعي محمد الغنم لأهله وأهل مكة في سنوات صباه مما زاده انصرافاً إلى التفكير والتأمل، ورغبة من كسب بعض المال الحلال يساعد به عمه كثير العيال قليل المال، وكان . صلوات الله وسلامه عليه . يذكر رعي الغنم مغتبطاً ويقول: «ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم، ويقول: بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي باجياد».. ورعى الغنم وأن كان يدرب صاحبه على الصبر . والانتباه والحرص، واليقظة، والتدرب على رعاية الخلائق فيما بعد ولكنه لما لم يكن يدر دخلاً كافياً لذلك رأى عمه أن يجد لابن أخيه يوماً سبباً للرزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم التي يرعي، فبلغه يوماً أن خديجة بنت خويلد تستأجر رجالاً من قريش في تجارتها.. وإذ علم أبو طالب انها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام مع القافلة نادي ابن أخيه، وكان يومئذ في الخامسة والعشرين من سنة، وقال له: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغني ان خديجة استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى ثم بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلمها! فقال محمد: ما أحببت! فخرج أبو طالب إليها فقال: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببكرين؟ ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة أبكار ... وكان جواب خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا: فكيف وقد سألته لحبيب قريب، وعاد العم إلى ابن أخيه يذكر له الأمر ويقول هذا رزق ساقه الله إليك[2].. ولو علم هذا العم ما يخبئه الغد لقال هذا رزق ساقه الله إلى خديجة، غير أن أحداً لم يكن يدري ما وراء هذا من خير ... وما كان احد يدري أن هذا العمل كان أول خطوة لخطوات كثيرة بعدها فيها التشجيع، والتثبيت والتصديق، والإيمان الذي ملأ الدنيا نوراً فأخرج الناس من ضلال الجهل والفساد إلى حقيقة العلم والمعرفة.

وقبلت خديجة ما عرضه عليها أبو طالب، وكان هذا القبول أول التعارف بين محمد وخديجة.. ولقد قبلته دون تردد ، فقد سبق أن تناقلت مكة أخبار محمد ، وأشادت بأخلاقه ، وامتدحت صفاته ، وأكبرت أعماله ، ولقد ترددت هذه الأخبار ودوى رنينها في كل مكان حتى بلغ خديجة ما بلغها من هذه الأخلاق، ومن صدق حديثه ، وعظيم أمانته ، مما كان

---

(١) حياة محمد: للدكتور محمد حسين هيكل، صفحة ١١٢.

(٢) حياة محمد: للدكتور محمد حسين هيكل، صفحة ١١٨ . ١١٩.

مشجعاً لها على التردد في هذا القبول وخروجه مع غلام لها يقال له ميسرة.. وخرج رسول الله(ص) في هذا المال مع ميسرة حتى قدم الشام، وحدث أن نزل في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، ونظر الراهب إلى ميسرة وسأل عن هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة، وأجابه ميسرة.. هذا رجل من قريش من أهل الحرم.. قال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي[1].

وكتب الله لمحمد التوفيق والنجاح في هذه الرحلة، فباع واشترى أضعاف ما كان يحدث عادة، ورأى ميسرة علامات وشواهد، أن دلت على شيء، فإنما تدل على بركة هذا الإنسان الذي يصاحبه لأول مرة وعلى أن الخير قد جرى على يديه بأكثر مما كان يقدر، وتقدر صاحبة التجارة نفسها، وعلى أنه إنسان يفوق كل الناس في حين معاملته، وطيب عشرته، وسمو أخلاقه، وسماحة نفسه ولين جانبه، وحبه للناس. ولقد دعا هذا كله ميسرة إلى أن يقص على سيدته ما كان من أمر هذا الرفيق الذي يصاحبه لأول مرة، ومقدار ما أحسه نحوه من حب وإكبار، وما شعر به كل من قابله من هيبة وجلال.. وكان ميسرة في حديثه مندفعاً بكل عواطفه وأحاسيسه مما زاد قلب السيدة خديجة أكباراً له، وحباً لأخلاقه، وميلاً إلى أن تحادثه فتختبر بنفسها كل هذه الصفات التي يتحدث عنها غلامها ميسرة، والتي تناقلتها الألسنة في كل أرجاء مكة.

وبعثت السيدة خديجة إلى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم، أني قد رغبت فيك لقرابتك، وسلطتك من قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك.. ثم عرضت عليه نفسها، وكانت يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه.

«فلما قالت ذلك لرسول الله (ص) ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه أبو طالب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها فتزوجها رسول الله (ص) ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها»[2].

وهكذا كانت السيدة خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله فارتبط وإياها بهذا الرباط المقدس، وكانت أول من أظلها والنبي المصطفى سقف واحد، وهكذا كانت السيدة خديجة

---

(١) سيرة ابن هشام: الجزء الأول، صفحة ١٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام: الجزء الأول، صفحة ١٧٨، ١٧٩، وهناك رواية أخرى تقول أن السيدة، خديجة ـ بعد أن أعجبت بأخلاق محمد، وصفاته، وأمانته ـ أرسلت أحدى قريباتها وتدعى السيدة نفيسة بنت منبه إلى محمد لتذكرها عنده، وتحدثت السيدة نفيسة في ذلك إلى محمد ـ صلوات الله وسلامة عليه ـ وانتهى الحديث بأن طلب منها هو الآخر أن تذكره عندها، ثم كانت الخطبة فالزواج أخرجه الترمذي، وأخرجه الشيخان وقالا: «وأن كان ليذبح الشاة ثم يهدي حلتها منه» السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين للطبري، صفحة ٣٠.

الوحيدة التي عاشرها رسول الله حباً وحناناً وإخاء وعطفا، وتعاوناً دون أن يشرك معها غيرها.. لقد كان حبه، وقلبه، وإحاسيسه، وعواطفه كلها لها وحدها، ولقد بادلته هي الأخرى حباً بحب، وإخلاصاً بإخلاص فأعطته قلبها، ومنحته احاسيسها وعواطفها، وكانت له - إلى جانب كونها زوجته، بمثابة الأم، والأخت، والصديق.. خففت عنه اليتم الذي أحسه في السنوات الأولى عن عمره وعاونته على شئون الحياة، وساعدته في الشدة والضيق، ولهذا حفظ لها كل ما قدمته له، ولم ينسها بعد وفاتها أبداً، وإنما كان دائم الحديث عنها والدعاء لها: وتقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - في ذلك: «ما غرت على خديجة، وما بي أن أكون أدركتها، وما ذاك إلا لكثرة ذكر رسول الله (ص) وأن كان ليذبح الشاة فيتبع بها صدايق خديجة فيهديها لهن»[1].

وعلى الرغم مما كانت تتحلى به السيدة خديجة من طهر، ونبل، وحصافة، فإن ذلك كله تضاءل أمام ما صقلها به الإسلام، وما تعلمته في مدرسة الرسول الذي بعثه ربه رحمة للعالمين. والذي كان المثل الأعلى للخلق الكريم لأنه خلق القرآن.. لقد تعلمت منه السيدة خديجة ما دعا إليه هذا القرآن من سماحة لا تدانيها سماحة. وبر لا يتطاول له بر، ونبل لا يسمو إليه نبل، وعدالة فاقت كل عدالة، وتعلمت منه العفو عند المقدرة، ولين الجانب للضعيف، والإحسان للمحتاج والبائس والمحروم، وتعلمت منه طيب العشرة، فالمسلمون أخوة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وتعلمت منه فوق هذا وذاك الصبر على الشدائد، ومغالبة الآلام، والتضحية في سبيل الحق.. لم تعترض يوما على خروجه وتغيبه الأيام والليالي في غار للعبادة والحنث رغبة في الوصول إلى الحقيقة التي حارت من أجلها نفسه، وبذلك مهدت له الفرصة لاستجلاء هذه الحقيقة، ولصفاء نفسه، والتفكير في هذا الكون وخالقه.. وهي التي استقبلته عند عودته من الغار فزعاً بعد أن تنزّل عليه الوحي لأول مرة هاشة باشة تهدئ من روعه. وتضفي عليه السكينة وتثبت فؤاده، وتطمئنه على نفسه. وتبشره بما أعده الله له من خير عظيم، وهي التي لجأت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تستوضحه أمر هذا الحدث الذي قصّه عليها الرسول ثم تعود لتلقي زوجها عند ضحوة بين ذراعيها وتنبئه بما قاله ورقة بن نوفل من أن ما جاء محمداً إنما هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، وأنه لنبي هذه الأمة.. وعندما أنهى محمد إليها أن عهد النوم والراحة قد انتهى، وأن جبريل يدعوه إلى أن ينذر الناس ويدعوهم إلى الله وعبادته ويسألها عمن يدعو وعمن يستجيب، كانت هي أول من هتفت في بشر وفرح: «أنا استجيب يا

---

(١) أخرجه الترمذي. وأخرجه الشيخان وقالا: «وأن كان ليذبح الشاة ثم يهدي خلتها منه» السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين للطبري، صفحة ٣٠.

محمد، فأدعني قبل أن تدعو أي إنسان، وأني مسلمة لك، ومصدقة برسالتك، ومؤمنة بربك»[١].

ولقد **«وقفت الزوجة المحبة المؤمنة إلى جانب زوجها النبي المصطفى، تنصره وتشد أزره. وتعينه على احتمال أقصى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عدداً: فلما قضى على بني هاشم وعبد المطلب ان يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبي طالب، بعد أن اعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا ترحم، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة علقت في جوف الكعبة، لم تتردد خديجة في الخروج مع زوجها، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة، مغنى صباها، ومجمع هواها، ومثابة ذكرياتها: وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن، وناءت بأثقال الشيخوخة، والثكل، والاضطهاد».**

«واقامت هناك في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، تذوق مع الرسول ومن تبعه من قومه اهوال الحصار المنهك، وتكافح الوهن الذي أخذ يدب إلى جسدها منذ جاوزت الستين، متشبثة بالحياة في نضال رائع، كيما تظل إلى جانب رجلها في معركته الفذة، التي يلقى فيها بقله مؤمنة عزلاء، جبروت الوثنية العريفة المتأصلة: وجموع القرشيين ذوي العدد والعدة والمال».

ثم فشل الحصار أمام ذلك الإيمان الراسخ الصامد، وأن لمحمد (ص) أن يعود إلى بيته في مكة، فتحاملت خديجة حتى بلغت فراشها وقد نال منها الإعياء: واستنفد الاضطهاد والعذاب ما أبقي لها الزمن من قوة في عاملها الخامس والستين..

«ورقدت هناك ثلاثة أيام، وزوجها الرسول لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار: ثم أسلمت الروح بين يدي الرجل الذي أحبته منذ اليوم الأول الذي لقيته فيه، والذي صدقته وأمنت به منذ سمعت برسالته حتى الرمق الأخير»[٢].

ولقد جذبت أخلاق السيدة خديجة، وصفاتها، وطيب عشرتها مع الرسول الأعظم أعجاب أحد كتاب الغرب المستشرقين الذي ابدوا بعض الأنصاف في كتاباتهم عن محمد، وهو الكاتب الفرنسي «أميل درمنحم».. حذبته هذه الأخلاق التي كانت عليها خديجة فكتب عنها يقول: «جاءها زوجها من غار حراء خائفاً مقروراً، غريب النظرات، فإذا هي ترد إليه السكينة والأمن، وتسبغ عليه ود الحبيبة، وإخلاص الزوجة، وحنان الأمهات، وتضمه إلى صدرها فيجد فيها حنان الأم الذي يحمي به من كل عدوان في الدنيا»..

«ولقد فقد محمد بوفاة خديجة تلك التي كانت أول من علم أمره فصدقته، تلك التي ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات»[٣].

---

(١) نساء النبي: للدكتورة بنت الشاطئ، صفحة ٤١.

(٢) نساء النبي: للدكتورة بنت الشاطئ، صفحة ٤٢، ٤٣.

(٣) ام المؤمنين السيدة خديجة الكبرى: للأستاذ حسن كامل الملطاوي، صفحة ٨٣.

وتناولت الكاتبة الفاضلة الدكتورة بنت الشاطئ الحديث عن السيدة خديجة بقلمها السيال فقالت: لقد كانت خديجة ملء حياة الرسول حية وميتة، وما جاوزت عائشة الحق حين قالت لزوجها الرسول: كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها..

«وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه؟»..

«هل كان لأنثى غيرها، أن تهيئ له الجو المسعف على التأمل؛ وأن تبذل له من نفسها، في إيثار نادر - ما أعده لتلقي رسالة السماء؟».

«هل كان لزوجة عداها: أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء، بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار، وعطف فياض، وإيمان قوي، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يعينها في أن الله غير مخزيه أبداً؟»...

«هل كان في طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة، ورخاء، ونعمة، لتقف إلى جانب رجلها في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟».

«كلا، بل هي وحدها - ولا امرأة إلا مثلها - التي أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة، وتكون لليتيم أمّاً، وللبطل ملهمة، وللمناضل ملاذاً وسكناً، وللنبي المبعوث نبع ثقة، وطمأنينة، وسلام»[1].

فما أعظم خديجة بين نساء العالمين: وما أعظم ما استطاعت أن تقدمه للرسول الكريم.. أن هذا الذي قدمته لا يمكن أن يحصى، لأنها قدمت حياتها بكل ما فيها راضية قريرة العين.. قدمت مالها، ثم قدمت نفسها: حبها: وقتها كله، حنانها كله، لقد كانت أنفاسها، ضربات قلبها، خلجات نفسها، نظراتها كلها معلقة به وحده، فقد تمثل لها فيه الوجود كله.. وفي اعتقادي أن ذلك يرجع إلى عوامل ثلاثة هي كل ما نريد أن نتحدث به:

أولها: أنها كانت مفطورة على التدين، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وقد غرس فيها هذا الميل الطبيعي التدين حب التخلق بالصفات الحميدة، والترفع عن الدنايا، والرغبة في عمل الخير، والميل إلى من يتصف بمثل هذه الصفات ولذلك ما أن سمعت بما يتناقله الناس عن محمد وصدقه وأمانته واعتزازه بكل ما هو حسن من فعل وقول حتى أعجبت به، وتحينت الفرصة للتعرف عليه والحديث معه، وما أن لقيته وحادثته حتى هفا قلبها إليه.

ثانياً: هذه الأخلاق الفاضلة، والشمائل الكريمة، والصفات الحميدة التي تحلى بها النبي المصطفى فجعلته المثل الأعلى للبشرية إذا هي أرادت لنفسها السمو، والرفعة، وحسن

---

(١) نساء النبي: للدكتورة بنت الشاطئ، صفحة ٤٩.

الثواب في الدنيا والآخرة.. لقد كان الله سبحانه وتعالى يعده ليكون هذا المثل، وكان هو يتزيد من فضل الله عليه فيقول في دعائه: **«اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي، اللهم جنبني منكرات الأخلاق، اللهم اهدني لأحسن الأخلاق ولا يهدى لأحسنها إلا أنت»**[1]. وليس من شك في أن مثل هذا الإنسان الذي حسن خَلقه وحسن خُلقه يكون موضع الإعجاب من النساء اللاتي يقدرن مثل هذه الصفات والأخلاق، خاصة أن كان صاحبها من أصل عريق، ينتمي إلى أباء كرام كآباء النبي.. فلا عجب بعد أن يهفو إلى هذا الإنسان الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، قلب خديجة التي تزاحم حولها الراغبون في الزواج فلم تجد فيهم من يسمو بأخلاقه وصفاته إلى أن تربط مصيرها به، إلى أن وجدته في محمد الذي ترددت على لسانه الطاهر الدعوة إلى مكارم الأخلاق في مثل **«أن احبكم إلي: واقربكم مني مجالس يوم القيامة. احسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً. الذين يألفوا ويؤلفون»**.

وثالثها: هذه التعاليم والأحكام والتوجيهات السامية التي جاء بها القرآن الكريم، والتي كان يرددها الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بعد كل زيارة من جبريل - عليه السلام - وكانت خديجة أول من يتلقاها، وأول من يعيدها بعده. يضاف إلى هذا تلك المعاملة الكريمة، والحب العميق، والود الصافي، والعشرة الطيبة من جانب النبي.. كل هذا علمها - رضوان الله عليها - أن تكون صورة طيبة كريمة لما يدعو إليه الإسلام ونبي الإسلام في مدرسته التي نشرت أصول التوحيد، والإيمان، وبعثت النور إلى كل مكان يهدي إلى طريق الحق والصواب.

رحم الله السيدة خديجة فقد كانت ملء حياة الرسول حية وميتة، رحم الله تلك السيدة الفاضلة الجليلة التي أنزل الله بسببها سورة الضحى حتى يهدئ من روع النبي - صلوات الله وسلامه عليه - وحتى لا يظن أن الله قد قلاه حين فتر نزول الوحي لفترة من الزمن.

رحم الله أمنا خديجة - رضوان اله عليها - فقد أقرأها جبريل السلام من الله عزّ وجلّ ومنه، **وبشرها ببيت الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**[2].

رحم الله أمنا خديجة بقدر ما فرّجت عن الرسول كربه وبقدر ما ثبتت على الإيمان قلبه، وبقدر ما خففت عنه آلامه، وبقدر ما صدقته وهونت عليه أمر الناس.

رحمها الله وجعل لنسائنا وبناتنا من حياتها الطاهرة وسيرتها العطرة نوراً يهتدين به. ❖

---

(١) **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية**، الجزء الرابع، صفحة ٢٤٤.

(٢) **السمط السمين في مناقب أمهات المؤمنين**: للإمام محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، صفحة ٢٦، ٢٧.

من مناقب السيدة خديجة الكبرى

✍ عبد المنعم محمد عمر (مصر)

إن أول ما ينبغي أن نبدأ بالحديث عنه هو ذكر بعض النواحي التي شملتها بها العناية الإلهية من رعاية، وما خصتها به طوال حياتها من عناية.

إن العناية الربانية وحدها هي التي اختارتها لتكون شريكة حياة «محمد بن عبدالله» خاتم الأنبياء والمرسلين (ص) وهيأتها لأن تكون وزيرة مخلصة تقف بجواره عند الشدائد، وتقوي من عزيمته، وتشحذ من همته، منحتها العناية الإلهية رجاحة العقل، ونبل الأخلاص، وطهرت سيرتها طوال الأربعين عاماً التي سبقت زواجها منه حتى أعجب بها مكة كلها، ولقبها الناس بـ «الطاهرة». وأرادت لها السماء أن تمارس بنفسها الإشراف على تجارتها الواسعة، فتعلمت منها الصبر والقدرة على الصمود، والحزم عند اتخاذ القرار، ولذلك وقفت بجوار زوجها لم تهن لحظة، ولم يفتر حماسها في الدفاع عن دين: الوحدانية، ولم تبخل في سبيل ذلك بجهد أو مال، صمدت عندما هبت العاصفة التي آثارتها الأرستقراطية الوثنية على هذا الدين وعلى النبي (ص) الذي كان يبشر به، ولم يتأثر إيمانها عندما زلزل الطغاة بتعسفهم وجبروتهم إيمان بعض من دخل في هذا الدين، فكانت تتقي كيدهم بعقلها الراجح حيناً، وبحنان الأم الملهمة حيناً آخر، وبحب الزوجة المؤمنة العفيفة إذا ادلهم الحطب، وازداد الكرب، كانت تواجه إسراف الطغاة، ولم تنحن أمام عنفهم.

والعناية الإلهية هي التي جعلتها بادئ ذي بدء ترفض كل من تقدم من أشراف قريش وأغنيائها للزواج منها، ثم قضت العناية الربانية أن تختار، محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام ليتاجر بها في أموالها، ويشرف على قافلتها الذاهبة إلى الشام. والقضاء والقدر وحده هو الذي جعل الإعجاب بأمانة «محمد» (ص) وخلقه الكريم يتسربان إلى نفسها رويداً رويداً حتى دفعها الإعجاب والتقدير إلى عدم التقيد بعادات الجاهلية وتقاليدها، فتختاره زوجاً لا يمتاز بالمال الوفير، ولا يعتز بكثرة الأتباع، ولكنه كان يمتاز بالخلق الكريم حتى عرفه أهل مكة جميعاً بلقب «الأمين».

قادها التفكير السليم إلى أن أصبحت رائدة من رواد تقرير حق المرأة كاملاً في اختيار شريك حياتها.

والعناية الإلهية وحدها هي التي ألهمتها عدم الوقوف في سبيله عندما أراد أن يذهب إلى غار حراء حيث يبقى هناك شهراً كاملاً كل عام ليخلو فيه لنفسه، ويتعبد فيه لربه خالق

كل شيء، بعيداً عن أصنام مكة وما كان منتشراً فيها من لهو ومجون وعبث وفجور، بل لم تكتف بذلك، بل إن بعد نظرها جعلها تشجعه عليه، وتنهض بنفسها لإعداد كل ما يلزم له أثناء غيابه عنها من مأكل ومشرب.

والعناية الإلهية وحدها هي التي جعلتها تترك لزوجها أمر العناية بأموالها، وتصريف أمور تجارتها بعقله الراجح وأمانته المعروفة.

فقد كان المال في يده يربو كلما أنفق منه في وجوه الخير والبر.

وقد أراد الله الذي لا يضيع أجر المحسنين، أن يكرم هذه الزوجة النبيلة المخلصة فأمر كبير ملائكته أن يقول لخاتم الأنبياء والمرسلين (ص): «يا محمد هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ (ع) من ربها ومني». وهو إكرام قابلته بالشكر والعرفان، فردت على الفور بقولها: «والله هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام»، وهو رد على البديهة يدل على ما حباها الله به من ذكاء وفطنة، وما وهبها من لباقة ألهمتها أن تعظم الله في ردها بما هو أهله، وأن تسأله السلام والأمان، وأن تشكر جبريل لتبليغها ما أفاء الله عليها من نعمة وفضل.

والله سبحانه، هو الذي هداها إلى أن تنشر في بيتها جواً من الهدوء والحنان والمحبة، فوجد فيه النبي الكريم وآل بيته راحة النفس، وهناء العيش بجانب الاستقرار الذي ينشده كل زوج مكافح، فلم يقابله فيه يوماً ما ينغص عليه عيشه، ولم يجد فيه ما يعوق تأدية رسالته الإلهية، بل وجد فيه كل ما يعينه عن تبليغها، وما يشد من إزره ويقوي من عزيمته على الدعوة إليها، كما وجد بجواره من يعاونه على تذليل العقبات التي تعترض شبيل نشرها، ولذلك فقد أعلى الله منزلتها، فأمر رسوله (ص) أن يبشرها ببيت في الجنة من لؤلؤ، يسوده الهدوء، تجد في ربوعه راحة البال، وهناءة العيش، وسعادة النفس، فقد ورد عن نبي الله (ص) قوله: «أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصبَ لا صخب فيه ولا نصب»[١].

وكان من إكرام الله لها أن وهبها من رسول الله (ص) الذرية الصالحة، وبارك لهما فيها، فامتدت جذورها، واستطالت فوق الأرض جذوعها، وامتدت في الأقطار الإسلامية فروعها، وظلت تتوالد جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن حتى عصرنا هذا تحمل اسم نبي الله «محمد بن عبد الله» (ص) واسم زوجته الأولى، «أم المؤمنين خديجة بنت خويلد» رضوان الله الكريم عليها.

---

(١) ورد في كثير من كتب الحديث. وانظر المرجع السابق السمط الثمين ص ٢٧ ـ ٢٨. والبخاري جـ ٦ ص ١٦٢ ـ ١٦٤ الحديثيم رقم ٣٣٩٨ ـ ٣٨٩٩.

ولا بد لنا أن نتذكر أن خاتم الأنبياء والمرسلين ولد يتيم الأب، ثم فقد أمه «آمنة بنت وهب» وهو ما يزال في السادسة[1] من باكورة طفولته، ففقد رعاية الأب وحنان الأم وعطفها، وقد عوضه عطف جده «عبد المطلب»، ورعاية «عمه أبي طالب» ما فقد من رعاية أبيه، وظل «أبو طالب» ينشر عليه مظلة حمايته حتى وفاته عندما جاوز «محمد» عليه الصلاة والسلام الخمسين من عمره، ولكن «محمداً» (ص) ظل طوال حياته يذكر أمه، ولم يجد من الحنان والرعاية في طفولته وبداية شبابه إلا ما كانت توليه إياه «فاطمة بنت أسد» الهاشمية زوجة عمه وأم «علي بن أبي طالب» فقد ألقى الله في قلبها حب النبي العظيم فعوّضته بعض ما فقد من حنان الأم، وقد ظل النبي الوفي يذكر لها ذلك فقال عنها: «إنه لم يكن بعد (أبي طالب) أبرَّ بي منها»، ولكنها كانت تنوء بالنهوض بإدارة بيت زوجها سيد بني هاشم، وبما كانت تحمل من أعباء رعاية العدد الكبير من عيالها، وعندما بلغ «محمد» الحلم وبدأ يكتسب رزقه عاش فقيرا يكد ويتعب ليكسب قوته في رعاية الغنم لأغنياء أهله عند أحياد بالقراريط[2]، وكان كثيراً ما يتغذى بثمار شجر الأراك، فكان يجتني ما طاب واسود منها، في حين كان أنداده من أغنياء شباب قريش يبكرون بالزواج من زهرات قريش بعد تقديم الصداق المناسب، وقد ظل حتى الخامسة والعشرين من عمره لا يملك ما يقدمه مهراً لواحدة منهن إلى أن قبض الله له «خديجة بنت خويلد»، وقد أدركت بذكائها وفطنتها وشفافية روحها ما «لمحمد بن عبد الله» من كرامة بشر بها الكهان وأحبار اليهود ورهبان النصارى مما جعلها تؤمن أن السماء توشك أن ترسل إلى الناس من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويهديهم صراطاً مستقيماً، وذلك ما أكده بعد ذلك «ورقة بن نوفل» فالبشائر تدل على أن «محمداً» هو النبي العربي المنتظر، ولذلك فقد ضربت بعادات الجاهلية الموروثة عرض الحائط، وتقدمت فخطبته لنفسها وكفته بذلك مؤونة البحث عن رفيقة حياته، ثم أخلصت له بعد الزواج فكانت زوجة وفية، وأنيسة رقيقة، وأماً عطوفاً، فعاشا - قبل النبوة - خمسة عشر عاماً، ذاقا خلالها حلاوة العيشة الهنية، يسودها الإخلاص والاحترام المتبادل، ونعما فيها برغد العيش، مما أنعم الله به عليه، وذكره به في القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى ٨).

ووهبه الله منها في تلك الفترة الكريمة التي أصبحت لهما منبعاً من منابع السعادة طوال حياتهما.

---

(١) متفق عليه وانظر ابن سعد: الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ٧٣.

(٢) ابن سعد: الطبقات عند ذكر رعية الغنم. (ص). بمكة جـ ١، القسم الأول، ص ٨٠.

كان «محمد» (ص) في شبابه عف النفس، طاهر الذيل لم يعرف قبل «خديجة» امرأة أخرى، فتزوجها وهو في عنفوان شبابه في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي في الأربعين، فلما كان في الأربعين، اختاره الله للناس نبياً هادياً ومبشراً ونذيراً، فسارعت خديجة إلى مساندته، وأزالت بحكمتها وحنانها ما لقيه من جهد، وأذهبت عن نفسه ما خل بها من أذى، وصدقته وآمنت بما جاء به من ربه، فكانت بذلك أول من آمن به، وأول من صلى خلفه. وعندما عصفت عاصفة الحقد والكراهية التي أثارها زعماء الأرستقراطية الوثنية وقفت إلى جواره تتلقى معه كيدهم في جلد وصبر، ويتغلبان بحكمتهما وعزيمتهما على دسائسهم وحماقاتهم، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها. فكانت تثنيه وتصدقه وتخفف عنه وتهون عليه ما يلقى من قومه[1]، فخفف الله بذلك عنه حمل بعض أعباء الرسالة، ومضى في سبيله وهي تشد من أزره طوال عشر سنوات كاملة، كانت في بدايتها قد بلغت الخامسة والخمسين، واستمرت في كفاحها بجانبه حتى الخامسة والستين، ممتعة بجمال الروح، وقد زانها الإيمان بالله والثقة برسوله، فزاد حبه لها، ولم يفكر برهة في أن يطلب السعادة عن طريق الزواج من غيرها ولم يسمح له وفاؤه أن يتسرى حتى لا يشرك في حبه «لخديجة» امرأة أخرى.

ولما انتقلت أم المؤمنين «خديجة» إلى جوار ربها كان رسول الله (ص) قد جاوز الخمسين من عمره، وعاش بعدها حوالي أكثر من عشر سنوات تزوج في خلالها خمس سيدات قرشيات، وأربع عربيات، وواحدة من بني إسرائيل[2]، وقد زفت إليه منهم واحدة فقط بكراً، بينما كانت الأخريات ثيبات، وكذلك قبل الرسول الكريم «مارية» القبطية هدية من «المقوقس» عظيم أقباط مصر ورزق منها بابنه «إبراهيم». وكان من بين العشر من نسائه من عرفت بالذكاء، والجمال، والفطنة، وأصالة الرأي، وكمال الدين. وكانت «أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر» رضي الله عنها من أحبهن إلى نفسه، وكانت تساميها في الحظوة عنده «أم المؤمنين زينب جحش» رضي الله عنها ابنة عمته «أميمة» وقد وصفتها «عائشة» بذلك فقالت: «هي التي كانت تساميني من أزواج النبي (ص) في المنزلة عند رسول الله (ص) ولن أر امرأة في الدين خيراً من «زينب» وأتقى عند الله ـ عز وجل ـ وأصدق حديثاً، وأوصل للحرم، وأعظم صدقة..»[3]، ولكن النبي (ص) كان لا يفتأ

(١) ابن هشام: السيرة. وابن عبد البر: الاستيعاب في ترجمة خديجة وكذلك ترجمتها عند ابن حجر: الإصابة.

(٢) **متفق عليه** وانظر محب الدين الطبري: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ٥ ـ ٦.

(٣) **المرجع السابق ص ٤٣ ـ ٤٤.**

يذكر أم المؤمنين الأولى «خديجة بنت خويلد»، ولا يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها[1] حتى إن «أم المؤمنين عائشة» - رضي الله عنها - وهي الزوجة الوحيدة التي زفت إليه وهي بكر بعد وفاة خديجة بحوالي خمس سنوات[2]، كانت تغار من كثرة ثنائه وشدة وفائه «لخديجة» وذلك برغم أنها كانت من أحب نسائه إليه فقد روى عنها قولها: «ما غرت على امرأة ما غرت على «خديجة»، وما بي أن أكون أدركتها»، ولكن كان ذلك لكثرة ذكر رسول الله (ص) إياها، وإن كان ليذبح الشاة فيتبع بذلك صدائق خديجة يهديها لهن[3]. وروي عنها كذلك قولها: «ما غرب على أحد من نساء النبي (ص) ما غرت على «خديجة»، وما رأيتها، ولكن كان رسول الله (ص) يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة: وربما قلت: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا «خديجة». فيقول إنها كانت وكانت، وكان لي منها الولد[4]. وقالت في مناسبة أخرى: إن رسول الله (ص) قال لها عندما غارت على خديجة فأغضبته: «إلي رُزقت حبها»[5]. وكان نبي الله (ص) دائم الذكر «لخديجة» والثناء عليها، فقد روت ذلك «عائشة» قائلة: «كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فحسن الثناء عليها، فأدركتني الغيرة فقلت: وهل كانت إلا امرأة عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها؟» فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: «لا، والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد إذ حرمني أولاد النساء». فقالت عائشة: «فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً»[6].

وكان النبي الوفي بجانب حبه لها، يحترمها، ويقدر لها الدور الكبير الذي نهضت به في خدمة الإسلام، وقد وصفها للكثير من أصحابه أنها من خير نساء العالمين ومن أفضلهن، فقد روى «علي بن أبي طالب» أنه سمع رسول الله (ص) يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة»[7]. وروى «ابن عباس» أن رسول الله (ص) قال: «سيدة

(١) متفق عليه وانظر المرجع السابق ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) متفق عليه وانظر المرجع السابق ص ٣٩.

(٣) المرجع السابق ص ٣٠.

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٠. وانظر البخاري جـ ٦ الحديث ٣٤٠٠ ص ١٦٣.

(٥) السمط الثمين: ص ٣٠.

(٦) ابن عبد البر: الاستيعاب: ترجمة خديجة وكذلك ابن حجر في الإصابة والسمط الثمين.

(٧) محب الدين الطبري: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ٣١ عن الشيخين وصححه الترمذي.

نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية»[١] وعن «أنس» أن النبي الكريم قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[٢].

ومن أمثلة الوفاء لذكرى أم المؤمنين «خديجة»، أن ماشطتها، وكانت تدعى «أم زفر»، وفدت على نبي الله (ص) وهو في «المدينة المنورة»، فأكرم وفادتها ثم قال: «هذه كانت تغشانا في عهد «خديجة»، وإن حسن العهد من الإيمان»[٣].

ومن أروع للأمثلة التي ضربها الرسول الكريم وفاء لذكرى أم المؤمنين «خديجة» أنه في العام الثامن للهجرة، وبعد وفاتها بنحو إحدى عشرة سنة، حين ولى «الزبير بن العوام»[٤] قيادة خيل المهاجرين والأنصار القادمين لفتح مكة، أعطاه رايته، وأمره أن يغرزها بأعلى «مكة بالحجون»، وقال له: «لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتي حتى آتيك»[٥]، فلما وصلت خيل «الزبير» إلى الحجون قال له «العباس بن عبد المطلب»: «يا أبا عبد الله. ها هنا أمرك رسول الله أن تركز الراية»[٦]، وهناك بالحجون حيث كانت ترقد أم المؤمنين «خديجة» في قبرها، ارتفع علم رسول الله (ص)، ضربت للرسول الأعظم قبته حيث اتخذ له مكاناً للقيادة يدير منه معركة الفتح الأعظم[٧]، ويشرف وهو بالقرب من قبرها على سير الحوادث. ومن هنا دخل أم القرى يوم نصر الله عبده، وأعز جنده، وهزم مشركي الأرستقراطية الوثنية - وحده - ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتصر دين التوحيد بالله على كل أنواع الشرك، وكُسِرت الأوثان، وطهر البيت الحرام وما حول الكعبة المشرفة من الأصنام، وتلا رسول الله (ص) قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء/ ٨١).



---

(١) المحب الطبري المرجع السابق ص ٣١ - ٣٢.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ وقد ذكر محب الدين الطبري أنه استقى الأحاديث السابق ذكرها من كتب الصحاح المختلفة.

(٣) الوفاء بأحوال المصطفى، جـ ٢، ص ٦٤٦.

(٤) الزبير بن العوام هو ابن أخي السيد خديجة.

(٥) الطبري: التاريخ عند ذكر أحداث السنة الثامنة جـ ٣ ص ٥٥ - ٥٧.

(٦) صحيح البخاري نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية جـ ٧ ص ٧ - ٩. الحديث ٢٧٢٥، والطبري: المرجع السابق.

(٧) الطبري: التاريخ، المرجع السابق.

أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد

أ. عبد الحميد العبادي

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعراً وثاب الخيال، مطلق العاطفة، جزل الألفاظ، سرى المعاني! إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال، وطهر، وعفاف، وزوجية بارة، وأمومة صحيحة، ومواساة في آشرف معانيها.

ولكن صاحب هذا المقال، واأسفاهربة منزل ليس شيئاً من ذلك الشاعر الذي يتمنى أن يكونه. إن هو إلا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها الوضعية جهد طاقته، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق: ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنكب سبيل المؤرخ الذي همه البحث والتحقيق، ثم العرض البسيط للأشياء: فليقنع القارئ الكريم بالصورة المجملة التي أرسمها في هذا المقال، حتى يتأذن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الألياذة العربية، فيطالع فيها إذ ذاك فصلاً عن تلك السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه.

كانت جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي قد أخذت تتهيأ للأحداث الجسام التي تمخض عنها القرن السابع، وقد بدا ذلك التهيؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامة، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية. ونحن إنما تهمنا في هذا المقام الناحية الاجتماعيه، ويهمنا منها بصفه خاصه نظام الأسره، كان نظام الأسره قد أخذ يتحول في حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة في النحو الذي أقره في جملته الإسلام فيما بعد، فأخذت تتلاشى ضروب الازدواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحاً، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضي والتعاقد وصاحب هذا التطور الخطير في بناء الأسرة تطور خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية: فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الارث، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف في مالها، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملاً فعالاً في الحياة المكية العامة قبيل الإسلام وفي عصر النبوة.

ولدت خديجة بمكة حوالي منتصف القرن السادس المذكور، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وكان خويلد ممن قاد قريشاً في حرب الفجار، ثم هي ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤي، ولا تعرف عن فاطمة شيئاً، غير أن الذهبي يقول في جدهما عمرو بن خنثر المزني أنه كان من أبطال الجاهلية، فنسب خديجة لأبيها وأمها يدل على أنها تنتمي إلى بيت من أعز قبائل مضر هي عامر بن لؤي. واكتنفت عمود هذا النسب الجليل فروع وحواش زاهية زاهرة، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيداً من سادات قريش، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل. فأما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى في صنيعه لبني هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش في الشعب، وأما ورقة بن نوفل فكان معدوداً في تلك العصبة المستنيرة التي يعرف آحادها باسم (المتحنفين) قد ترك الوثنية، وتنصر وقرأ التوراة والإنجيل، وكتب العبرانية، وشاركته أخته قتيلة في ميوله الأدبية والدينية، فكانت «ممن ينظر في الكتب» على حد تعبير القدماء: ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد، وكان من رجالات قريش، وهو والد الزبير بن العوام حواري رسول الله.

فخديجة من أوسط نساء قريش نسباً، كما يقول مؤرخو العرب، وإذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة في هذا المقام، فأنا نقول إنها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربي، من نبل وكرم خلق وفاء وشجاعة: كما لقفت عن عمومتها تلك الاستنارة العقلية، وذلك السمو الروحاني الذي أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر.

تزوجت خديجة مرتين في مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله. تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده آبا هالة هند بن زرارة التميمي. ثم توفي أبو هالة فغدت أيماً. وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثاً فيما رأت أ تقوم على استغلاله في التجارة التي كانت مرتزق قريش في الزمان. فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال في الاتجار لها بما لها لقاء نصيب تسهمه لهم من الربح.

لكن خديجة الحسيبة النسيبة، الثرية الوسيمة، لم تزل بعد نصفاً في النساء، عواناً بين الشباب والكهولة، وقد شارفت الأربعين ولما تعدها، وهي سن لها عند بعض النساء جمال وروعة، وملاحة وأخذة، وكان غير واحد من كبار قريش حريصاً على خطبتها، ولكن **خديجة كانت تتأبى على الخطاب، لا رغبة منها في العزوبة، فهي أعمر قلباً وأنضر شباباً من أن ترغب فيها، ولكن لأن الأيدي التي كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذي يعجبها.**

لقد نضج عقلها، وكبر قلبها، وأصبح كل منهما ينشد الكفء والمثيل، ومن لها بالعقل الراجح. والقلب الكبير في مجتمع خشن، كثيف غليظ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربي الجاهلي بما ينطوي عليه في واقع الأمر من بداوة وإعرابية، لا يمكن أن تفئ منهما إلى ظل ظليل.

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة إذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق في أفق المجتمع المكي، ويوشك أن يتكشف عن كوكب وقاد يملأ الكون نوراً هادياً، وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبقَ له منها إلا الذماء. لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال. إنها كانت صورة فتى لا يزال مغموراً، ولكن كل مخايله كانت تؤذن في نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة جديدة. ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله.

كان محمد إذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره، سوي الخلقة، مشرق الطلعة نبيل المظهر، كريم المخبر، وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها بمكة أحد غيره. كان زاهداً في الناس، عزوفاً عنهم، إلا ما اقتضته ضرورة المعايشة والمساكنة، نزوعاً إلى التفكير، محباً للعزلة، قادعاً للشهوة رادعاً للنفس، فأوشك بذلك أن يستغني بنفسه عن غيره. وغدا أنسه في وحشته وانبساطه في انقباضه، وغناه في إقلاله. قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح المعالم. ثم لم يأذن لعلاقته بهم أن تتجاوز هذا الحد فتنغص عليه نعمة باله، وتفسد عليه هدوء سر به.

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقاناً شديداً عندما كانت تلمح هذا الفتى العجيب، يروح لطيته ويغدو في طرق مكة وأسواقها وأنديتها، وأدركت من فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها. ولكن كيف تفضي إليه بدخيلة نفسها، وتبثه لاعج حبها؟ إن الحسب، والنسب، والخفر والحياء، كل ذلك كان يمنعها أن تكون هي التي تخطو في الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى. لقد كان الموقف دقيقاً كل الدقة، حرجاً كل الحرج. فلتسر في الأمر بحذر واحتياط محافظة على نسبها وحسبها، وتوفيراً لخفرها وقنية لحيائها.

إنها كانت تستأجر الرجال في الاتجار لها بما لها وتساهمهم بنصيب مسمى من الربح، فلم لا تستأجر محمداً وتضاعف له الجعل الذي كانت تجعله لغيره؟ وأنشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال: فوسطت إلى محمد من عرض عليه رغبتها. فقبل محمد ما عرض عليه، وسافر إلى الشام في صيف عام ٥٩٤ متجراً في مال السيدة، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهى إلى السيدة عند عودته جملة حاله في السفر، فتلم بجملة حاله في السفر والحضر. وباع محمد، واشترى، ولقي الرهبان ببادية الشام، وتحدث إليهم، وتحدثوا

إليه، ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحاً وفيراً، وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد في السفر من رقة الشمائل، وسهولة الخلق، وصدق المعاملة: فعلمت السيدة عند ذلك أن قلبها لم يكذبها: فقطعت كل تردد: وأجمعت أن تخطو هي الخطوة الأولى، وتقول هي الكلمة الأولى. وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه، فدستها إلى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه:

نفيسة: يا محمد! ما يمنعك أن تزوج؟.

محمد: ما بيدي ما أتزوج به!.

نفيسة: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال، والمال، والشرف، والكفاءة، ألا تجيب.

محمد: فمن هي؟.

نفيسة: خديجة!.

محمد: وكيف لي بذلك؟.

نفيسة: علي!.

محمد: فأنا أفعل!.

لاشك أن محمداً لم يقل مقالته الأخيرة إلا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه، وبعد أن أصبح يبادلها عطفاً بعطف، وتقديراً بتقدير. نعم إنها أسن منه، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى محاسنها وفضائلها الكثيرة التي جعلته يرى فيها رغيبة نفسه وطلبة قلبه، وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها، فكل وافق. وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون.

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأروعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير. كانت خديجة تقدر في محمد كرم الخلق ورقة القلب، وروحانية النفس، وكان هو يقدر فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه، والإعجاب به، والتوفير لأسباب راحته في منزله، ومطابقته فيما يحب وما لا يحب، ولا ننسَ أن محمداً لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق، فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه، ليس كل الطعام يطعم، ولا كل الشراب يشرب، ولا كل الملبس يلبس، ولا بكل الزينة يزدان، ثم هو ميال بطبعه إلى العزلة، مؤثر للصمت، مطيل للفكر، فعلى جليسه وعشيره أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له، وقد عرفت خديجة ذلك ورعته له أتم رعاته، فلاشك أنها كانت تعد له ما يستطيبه من الدباء والعسل، والتمر المنقوع في اللبن أو المخلوط بالقثاء أحياناً، ولاشك أنها كانت تقل في طعامه من البصل والثوم اللذين كانت تعاف كثرتهما نفسه، كما كانت

تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه، فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم، نظيف الملبس، ولاشك أنها كانت توفر له الهدوء في المنزل، وإذا جنح إلى الخلوة أو التحنث في الغار لم تقطع عليه سكونه؛ بل أعانته على ذلك بأعداد الزاد الذي يحتاج إليه، فإذا طالت غيبته افتقدته في غير إزعاج له، ولا تكدير لصفو نفسه.

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الخفية بزوجها، فإنها كانت مثال الأم المعنية بأولادها. لقد رزق محمد منها كل أولاده غير إبراهيم. رزق منها القاسم وبه كان يكنى، ثم ولدت له زينب ورقية، وفاطمة وأم كلثوم، وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة، ثم ولد له في الإسلام عبد الله الذي عرف بالطيب والطاهر، وقد مات الغلامان صغيرين، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام وتزوجن وهاجرن، وقد انضم إلى هؤلاء علي بن أبي طالب، ضمه النبي إلى أولاده تخفيفاً عن عمه أبي طالب الذي كان فقيراً كثير العيال، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم: غير أن ما ورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة فيما نحن بصدده. روى ابن سعد عن الواقدي قال: «وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين، وعن الجارية بشاة، وكان بين كل ولدين لها سنة، وكانت تسترضع لهم، وتعد ذلك قبل ولادها»، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها، ورضاعتهم، وتنشئتهم، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها، فهي التي أشارت على النبي بأن يزوج سعد بن الربيع من بنتها زينب: فلما زفت إليها أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن بعد سيرد ذكره. ثم إن كل من أصهر إلى محمد سعد بزواجه، فسعد بن الربيع أبى أن يفارق زينب عندما أرادت قريش حمله على طلاقها نكاية في محمد مع أن سعداً لم يكن قد أسلم بعد. وقد تزوج عثمان بن عفان رقية، فلما توفيت ورآه النبي حزيناً مهموماً لهفان زوجه أختها أم كلثوم، وكانت فاطمة عند زوجها علي بن أبي طالب بالمحل الرفيع. والمكان الممتاز.

لكن فضل خديجة الأكبر، وفخرها الألد خلود الزمن: إنما هو في موقفها من زوجها عندما نبئ، ومن الدعوة الإسلامية التي أخذ يدعو إليها، بعد خمس عشرة سنة من زواجه منها.

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادئ السرب، ناعم البال، وأصبح له منزل وأهل يسكن إليهما فانصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر، فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى في مسلكه بأساً. فلما فجئ الوحي محمداً، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والحيرة، ورجع إلى منزله رعباً حائراً وقال لها: «لقد

خشيت أن يكون بي جن!» لم يكن منها إلا أن ثبتت فؤاده، وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. إلخ» ثم إنها انطلقت من فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وقصت عليه خبر زوجها، فبشرها ورقة بأن الذي رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذي نزل على عيسى وموسى، وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها، فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به، روى الطبري بإسناده إلى عفيف الكندي أنه قال: «كنت امرأ تاجراً، فقدمت أيام الحج، فأتيت العباس، فبينا نحن عنده إذ خرج رجل يصلي: فقام تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلي، وخرج غلام فقام يصلي معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ قال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به، قال عفيف: فليتني كنت آمنت يومئذ، فكنت أكون ثالثاً».

ولم يزدد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخاً، ولا يقينها إلا قوة، ولا تعلقها بزوجها إلا شدة، فكانت في السنوات العشر الأولى للبعثة، وهي السنوات التي توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد، كانت خديجة في تلك السنوات إلى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه، وتأسو بعطفها جراحه. روى ابن الأثير بإسناده فقال: «وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء به فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عن بها، إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس».

ولم تتردد خديجة عندما جد الجد، أن تشرك زوجها في محنته، وتقاسمه مر العيش كما قاسمته حلوه. وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة. فعندما اشتدت قريش على بني هاشم والمطلب وحصرتهم في الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد، كانت خديجة في الشعب تقاسي ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها، فلما فاءت قريش إلى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين، كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش إلا قليلاً، وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة، بالغة من العمر خمسة وستين عاماً، وقد دفنها الرسول بالحجون، وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة.

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفي نفس العام عمه أبا طالب، وهو الذي كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه، فاجتمع على محمد في وقت واحد خطبان

فادحان، ورزآن بالغان، ولكن لاشك في أن داخل رزئيه كان الأفدح، وباطن جرحيه كان الأدمى: لقد تهدم صرح سعادته المنزلية، وغدت الحياة مشغلة له في الداخل والخارج، على كثرة ما أعطاه الله في الداخل والخارج.

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه، وأكرم من ألا يفي لحبيب صدقه الحب، وأصفاه الود، ولو باعدت بينه وبينه أطباق الثرى، وكذلك كان شأنه مع خديجة بنت خويلد، لقد وفى لها في حالي الحياة والموت، آحبها ولم يتزوج عليها في حياته، فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره، ولا فارق تذكرها لسانه، وهم يروون في ثنائه عليها ودوام تذكره لها أخباراً كثيرة. يرون أنه فضلها هي ومريم بنت عمران على نساء العالمين، وأنه بشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب، وأنه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بقلادة قلدتها إياها خديجة، لتفتدي بها زوجها سعد بن الربيع وكان قد أسر ببدر، رقَّ النبي لذلك رقة شديدة، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها وما لها ففعلوا، وأنه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدي إليهن منها، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثني عليها، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهي بعد آثر نسائه لديه، وأجملهن، وأصغرهن سناً. روى ابن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت: «كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها. فذكرها يوماً من الأيام، فأدركتني الغيرة، فقلت له: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها. فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت إذ كفر الناس: وصدقتني وكذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء، قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً».

تلك بالاختصار سيرة أول امرأة مسلمة. وخير امرأة مسلمة يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة زوجة، وأماً، وعوناً على جلائل الأمور في غير خروج على طبيعة الجنس ومواضعات الناس منذ صار الإنسان إنساناً.

❖ ❖ ❖

خديجة بنت خويلد

✍ نعمت عامر (مصر)

هاتي عيونك يا سماء وأمطري ... دُرَراً.. أقدِّمها بِذَوْبِ مشاعري

وتخيَّري ما تُفطرين.. واكثري ... فاليوم شعري كالخضم الثائر

إذ قد تبدت في سماء خواطري ... فُضْلَى نساء الأرض.. دون نظائر

❖❖❖

كانت بجاه العز ناعمة.. وما ... علمت بتدبير الإله القادر

يرعى تجارتها (الأمين) بسَفْرةٍ ... من بعد أخرى.. باقتدار باهر

وحديث (ميسرة) يرن بسمعها ... عما تجلّى من نقاء نادر

❖❖❖

هشت لما سمعت.. وتاقت للذي ... تبدو مآثره كصبح سافر

وتلطفت للأمر.. بعد رويَّةٍ ... تبغيه زوجا.. بانعطاف قاهر

والله قدَّرَ أن يتمَّ تمامها ... بالمصطفى.. خير البرايا الطاهر

❖❖❖

ربحت تجارتها بفضل (محمد) ... في الدين والدنيا... بسعد غامر

والكون ماج بأسره.. مترنماً: ... خير الحرائر.. لليتيم الصابر

.. كم زمّلته ودثّرته.. بحبها ... وحنانها.. في وم روْعٍ زاخر

❖❖❖

لله قولتها . وقد بُعث الرسو ... ل - «الله لا يخزيك في الأمصار»

«فلأنت للأرحام خير مواصل ... .. للضيف تزجي الخير، أو للجار

«وَالكَلَّ تحمله بغير غضاضة ... وتُعين عند نوائب الأقدار»

❖❖❖

والمجد، كل المجد، حين تضافرت ... معه تردُّ عوادِي الكفار

بالمال تُرفده، ليرفد دعوة ... الله كللها بتاج الغار

وتود لو تفديه بالروح التي ... هَزأتْ بهوج الشرك والأخطار

❖❖❖

يا شعر حسبك أنّ دمعي قد سرى | هذا مجال الوجد .. لا الأشعار
هذي (خديجة) قُدوتي وذخيرتي | (أستاذة) الأحرار والأبرار
ما دمت أقبس من ضياء جلالها | فالقلب في حرز من الأكدار

على قبر خديجة
أم المؤمنين

عزيز أباظة (مصر)

هَذا الجَلالُ لَهُ، وهَذا الرَّوْنَقُ | وَهُو المَسوَّى بالصَّعيدِ الْمُلْصَقُ
قَبرٌ تَراهُ فَلاَ تَكادُ .. وَرُبَّمَا | ضَوِيَ الفَتَى وَهُو الأعزُّ الأعْرَق
إن لم يَرُقْ للعَينِ فهْو مهابةٌ | تعنُو لَهَا نَفْسٌ ويخشَع مَفْرِق
جَمعَ الخلائقَ في سموْ طِرازِهَا | وفريدِه، هذا الحفيرُ الضيِّقُ[1]
يَكْفيهِ مِنْ عُلْيَا المَنازِلِ انهُ | يَسْنَى بِامِّ المؤمنينَ ويَسمُقُ[2]
ولَقدْ وقفْتُ بهِ وقَدْ وقَبَ[3] الدُّجى | فتَعاظمتْني روْعةٌ تَتَدفَّقُ
والنَّفْسُ بالصُّوَرِ الوسامِ حَفيلَةٌ | تُجْلَى لأمِّ المؤمنينَ وتُمْشَقُ[4]
والكابرُونَ الخالِدُونَ حيالَهَا | يكْسُو مضاجِعَهم جَلالٌ مُغْدِقُ[5]
وَحِراءُ وضَاءُ المَتَالع والرُّبَى | عالٍ على لَحظِ العيوُنِ مُحلِّق
مُتفرِّدٌ بمَهابةٍ وجَلاَلةٍ | شمَّاءَ لا تُشْأى ولا هِيَ تُلْحَقُ[6]
قدْ كُلِّلَتْ هامَاتُه وشِعَابُهُ | سنىً يرفُّ الكونُ فيه ويُشْرِق
شَهِدَ الزَّمانُ عليْه وَحدانيَّةً | غمرَ الزَّمانَ ضِياؤُها المتألِّق
ورأى الوجُودُ عَلَى عتيقِ تُرابِه | عِتْقاً مِن الرِّقِّ الَّذي يَتذَوَّقُ[7]

---

(١) الحفير: القبر.
(٢) يسنى: يضيء، يسمق: يطول ويعلو.
(٣) وقب الدجى: حل الظلام.
(٤) الوسام: جمع وسيم وهو الجميل. تمشق هنا بمعنى تصور.
(٥) هم عبد المطلب جد النبي وأبو طالب عمه وغيرهم وقبورهم في جوارها.
(٦) لا تشأى: لا تتطاول ولا تفضلها منزلة.
(٧) العتيق هنا بمعنى الشريف.

اِقْرأْ. فلمْ يقْرأ. ولكنْ شعْه ... دِيناً هُو الفنُّ الجميلُ المُونِقُ

ارسَى على الأخلاقِ سمْحُ آساسهِ ... العقلُ من إعْجازِه والمنطقُ

يا أمّ سيِّدَةِ العقائلِ[1] لم يُتَحْ ... لكريمَةٍ فَضْلٌ كفضْلِكِ مُعْرِق

قد ثبَتَ الإسْلامَ انكِ كهْفُهُ ... يوم النِّضالِ. وَحِضْنُه المترفّق

أرأيْتِهِ يسْعَى إليكِ وقلبُهُ ... ممَّا رأى بحراءَ عَانٍ مُقْلَق

حَيرانَ مضْطَرِبَ الخُطَى متجهِّماً ... يرْنو بحيْرتهِ إليك ويَرْمُق

هل كانَ نهْبَ الوهْمِ فهو مُكَذَّبٌ ... أو راءَ عيْنَ الحقِّ فهْو مُصدَّق[2]

زمّلْتِه وكفَفْتِ ثورَةَ نفْسِه ... وأسَاه سانحُ عطفِكِ المترقرق

مَا أمُّه أحْنَى عليْه جوانحاً ... لو مُلأتُهُ ولا أبُوهُ أشْفَق[3]

وَسَكبْتِ في أوْصَالهِ ثقةً فلا ... وهْمٌ يُطِلُّ ولا وسَاوسُ تَطْرُقُ

فمضَى بعينكِ يُبْلِغُ الكوْنَ الهُدَى ... ثبْتَ الفُؤَادِ، عن الهَوى لا يَنْطِق

بيمينهِ التَّنْزيلُ تَخلُقُ جِدَّةُ الـ ... دُّنيا وَغَضٌّ جَديده لا يَخْلُق

يَطْوِي الدُّهُورَ إلى الدُّهُورِ وهدْيُهُ ... بلْهُ البَيانِ بكلِّ دهْرٍ اخْلَق

انْتِ التي كفَلَ النبوَّةَ حبُّها ... وحُنُوُّها وَذيَادُها المسْتوسِق[4]

امنْتِ أوّلَ مؤمنٍ مُسْتوثقٍ ... للّهِ ذاكَ المُؤْمِنُ المستوثِقُ

❖❖❖

في بيتكِ استقبلْتِه أغنَى الورَى ... وهْوَ المقِلُّ كما عهدْتِ المملِق

لَيْسَ الغِنَى مالاً يُفادُ ويُقْتَنى ... إنَّ الغِنَى خُلُقٌ يعِزُّ ويسْمُق

زوْجٌ يُراح بزوْجِهِ ويحوطُها ... بهوىً وعَاطِفَةٍ تضيءُ وتُشْرق[5]

---

(١) فاطمة الزهراء.

(٢) راء: رأى.

(٣) ملأته: نعمت به.

(٤) المجتمع أو التين.

(٥) يراح: يرتاح ويأنس.

يُنمـــي عقائـــلَ مالهـــا ويَـــصُونُه طَبّـــا بمـــا يُنميـــه أوْ مـــا يُنْفِـــقُ[1]

تَهْنيـــكِ أنَّـــكِ قـــد ظفـــرْتِ بواحـــدٍ هُـــو في الوجُـــودِ الواحـــدُ المتَفـــوِّق

مَـــا في الـــورَى منْـــذُ الخليقـــةِ ســـابقٌ لكريمـــةٍ إلاَّ وزوْجُـــكِ أسْـــبَق

أوْ بَاحـــثٌ متأمّـــلٌ مُتعَمِّـــقٌ إلاَّ شَـــآهُ الملْهَـــمُ المتعمِّـــق[2]

أو مُعْـــوِقٌ متحـــدِّرٌ عـــنْ مُعْـــرِقٍ إلاَّ وأحَمـــدُ يـــا خديجـــةُ أعْـــرَق

الكامـــلُ المتَوقـــدُ المتَهجِّـــدُ الـــ ـــعفُ الأمـــينُ، الـــصّادِقُ، المتـــصدِّق

قـــدْ عـــشْتُما قَبْـــل النبـــوَّةِ حِقْبـــةً بِـــسَنائها جيـــدُ الزَّمـــانِ مُطَـــوَّق

كـــان الـــنبيَّ وإن تـــأخَّرَ بعثُـــه تَزْكُـــو النبـــوَّةُ في حمـــاهُ وتُـــورق

ردَتْ لـــو انْـــدفَعتْ لَـــه قَبْـــلَ المـــدَى ســـبَّاقةً تَطْـــوِي الزَّمـــانَ وتـــسبق

يـــا روْضَ أمِّ المـــؤمنينَ مُطَهـــراً يَهفُـــو لـــهُ غـــرْبٌ ويَنْـــزعُ مَـــشْرِق

ذَكَّـــرتِني «بالرُّبعمَايـــة» مَـــضْجعاً بخديجـــةٍ أخْـــرَى يـــرفُ ويعْبَـــق[3]

فيهـــا مـــشَابهُ مِـــن خديجـــة جمـــةٌ والقـــدْوةُ العلْيَـــا تُـــرامُ فتُلْحَـــق[4]

فَـــضْلٌ، وإيثـــارٌ، وتـــضحيةٌ، وإعتـــا بٌ، ومعْـــروفٌ يَـــصُوبُ فيُغْـــدِق

وَتمـــسُّكٌ بـــالعروةِ الـــوثْقَى علـــى علـــمٍ بهَـــا، وتجمُّـــلٌ وتَرفُّـــق

ونبالـــةٌ مكـــسُوبةٌ، مورُوثـــةٌ أرْسَـــى وطآئـــدهَا نِـــصَابٌ مُعْـــرِق[5]

❖❖❖

يـــا قلْـــبُ قـــدْ لقَـــى الأحبـــةُ مـــا لَقـــوا إن تَـــسْلُ بعْـــدَهُمو فمـــا لَـــك مَوْثِـــق

ذهبُـــوا كمـــا ذهبَـــتْ بـــشَاشةُ نعمـــةٍ ومَـــضوا كمـــا يمْـــضِي الـــسّنَى المتـــألق

كـــانُوا هَـــواكَ فمَـــا خفقْـــتَ بغيْـــرهِمْ مُـــذْ آتـــتْ لا تَـــدْرِي لمـــاذَا تَخْفِـــق

---

(١) الطب: الخبير.

(٢) شآه: سبقه وبذه.

(٣) الربعماية: بلد المؤلف وبها قبر زوجه.

(٤) مشابه: جمع شبه.

(٥) النصاب: الأصل.

أنسْتَها مِلْءَ النَّواظِرِ طِفْلَةً الحسنُ في قسمَاتِها والرَّوْنَق
تخْتالُ في حُلَلِ النَّعيمِ وتنْثَني وتَرِفُ في وشْي الشَّبابِ وتبْرُق[1]
تُجري الوِشاحَ على بَتيلٍ مُخْطَفٍ كالغُصْنِ كادَ من النَّضارةِ يُورِق[2]
مدَّتْ عليْك الرُّفْه رقْراقَ الجَنى فإذا حَياتُك بسْمَةٌ تَتألَّق
العيْشُ يَنْدَى والبشَاشَةُ تَزْدَهي والأُنسُ سكْبٌ والمُنَى تَتحقَّق
والدَّارُ حاليةُ الجوانب طَلْقةٌ حتَّى لكادَتْ بالرَّفاغَةِ تَفْهَق
سَعِدَتْ بمسعُودِينِ يجمَعُ شمْلَهُمْ حَدَبٌ، وعَاطِفَةٌ، وحبٌّ غَيْدَقِ
دَانَتْ لهمْ نِعمُ الدُّنَا فتَنَعَّمُوا ودَنَا لهمْ وِرْدُ الهناءَةِ فاسْتَقُوا[3]
وتآلفَتْ أرْواحُهم وميولُهم كالرَّاحِ بالعذْبِ الفُراتِ يُصفَّق
حتَّى إذا أوفَى نعيمُهُم على غاياته فتملأوا وتذَوَّقُوا
... عَصَفَ الزَّمانُ بركْنِهم فتصدَّعُوا وهَوَى الرَّدَى بملاذِهم فتفرَّقُوا
وانْجابَ أُنسهمُوا فعيْنٌ ثرَّةٌ وجَوانحٌ هَدْمَى، وقلْبٌ مُحرق[4]

❖❖❖

أَبُنيَّ قد حُمَّ القَضاءُ، وحلَّ بي وبكمْ مُلِمٌّ في الكَوارثِ مُطبِق
لمْ انسكُمْ باكين صَرْعَى حوْلَها وقلوبُكمْ من حسْرَةٍ تَتَشَقَّق
هَدي تُفَدِّيها، وذاكَ يَضُمُّها وأبوكُمو المُلْقَى هناك المصْعَق
وتنفَّستْ فمَضى إلى عَلْيائه سرُّ الحياة الرَّائعُ المسْتَغلِق
فإذَا الحيَاةُ على سُموِّ مكانِهَا في مزْقةٍ من ومْضةٍ تَتمزَّق[5]
أبُنيَّ عُوجِلْتُم بيُتْمٍ دَاهمٍ واليُتْمُ لا يحْنُو ولاَ يترفَّق

---

(١) ترف: تضيء أو تهتز.

(٢) بتيل: نحيل.

(٣) دانت: ذلت.

(٤) ثرة: كثيرة البكاء.

(٥) مزقة: جزء.

سَنعيشُ ما عِشْنَا يلجُ بنَا الجوَى ... عانينَ تصبحُنا الهمومُ وتَطرُق

في أضلُعِي وشِعَابِ نفسِي تَلْتقِي ... أشجانُكمْ وأسَاكمُو المتفرِّق

فإذا اختلافُ الدَّهْرِ كفْكَفَ دمعَكم ... والدّهْرُ يُنْسى والشَّبابُ الرَّيِّق

فأنَا الَّذي لا ينْثنِي يَعْتادُه ... همٌّ يؤرِّقُه، وبثٌّ مُوبِق

الذاكِرُ، الوافِي، الوليُّ على المدَى ... والأيِّمُ البَاكِي الحزينُ المُطرِق

مكة المكرمة

في ديسمبر سنة ١٩٤٢

خديجة الكبرى

الشيخ سلمان الانباري (بغداد)

هو الصبح وافانا بطلعته الغرا ... فانشقنا الكافور والشيح والنشرا

وللبلبل الصداح شدٌ وبوكرِهِ ... ولم يتخذ إلا من الغصن الوكرا

وللروض زهو في الربيع كأنه ... مليك بجند الورد قد أدرك النصرا

له نسجت كف الربيع ملابساً ... وها هو أضحى يرتدي الحلة الخضرا

كما رفعت أيدي الغصون لواءه ... وشارته فيها غدت وردة حمرا

وفي الفلك الدوار في الكون حكمة ... يدبرها من أشرق الشمس والبدرا

ومن جعل الإنسان أشرف خلقه ... وأودع فيه الحسّ والعقل والفكرا

وما المرا لولا العقل إلا بعوضة ... وأحقر لولا العقل من قدرها قدرا

وما شرف الإنسان إلا بعلمه ... وفي غير فضل العلم لم يدرك الفخرا

ولا يستحق الذكر في الناس جاهل ... ولا يدفع المأمون عن نفسه الضرا

فكن حذراً ما عشت غير مغفل ... ولا تتخذ إلا من الزمن الحذرا

لأنك في عصر مقاييس أهله ... تلاشت فأمسى الليل يستهجن الفجرا

فضاعت حقوق واستبيحت كرامة ... وأضحت بغاث الطير تحتقر النسرا

ترى العبقري الألمعي مضيعاً ... وتنظر مافوناً يمس بها كبرا

وذاك أديب علل النفس بالمها ... ووصف ديار بعد سكانها قفرا

فيكثره نحو العذارى لأنه ... بغير الهوى العذري لا يقبل العذرا

وما قال في شرقية عربية ... قريضاً ليرضى هاشم الجود أو فهرا

وعن مضر الحمراء أعرض جانباً ... كأن لم ينل من بحر نائلها اليسرا

ولو قال في ذات العفاف مدائحاً ... لأنه منها في محاسنها أدرى؟

كريمة قوم لا يضام حليفهم ... وليس يخاف الدهر جارهم الدهرا

نمتها إلى دنيا العفاف قبيلة ... بسمر العوالي والضبا نالت الفخرا

يعرفنا مستقبل الحال ما مضى ... لها من فعال خلدت أحسن الذكرا

بنظم القوافي، والقوافي بمدحها ... تروق لمن يستعذب النظم والنثرا

وما رقّ شعر في سواها لأنها ... سمت فتسامت عفة وعلت قدرا

وما الشعر إلا فكرة وخواطر ... يصورها للناس أوسعهم فكرا

وأن يراع العبقري بكفه ... حسام به يلقي شبا البيض والسمرا

وريشة رسام بكف مصور ... متى شاء فيها صور الكوخ والقصرا

فيعطي مقاييس الرجال بفكرة ... مركزة لم يخش زيداً ولا عمرا

وإلا فإسفاف وأن وضعوا الدمى ... كما وصفوا الأقداح والراح والخمرا

وقد أسرفوا في ذكر سلع وحاجر ... ونادى منادي الحي، حي على المسرى

وللملك الضليل بين رفاقه ... على طلل بال (قفا نبك من ذكرى)

لقد ملكت منه مشاعر لبه ... فتاة محياها يذكرنا البدرا

دعوه بذات الخدر صباً متيما ... فواجبنا إصلاح من تسكن الخدرا

فإصلاحها فرض على كل ماجد ... إلى يعرب ينمي وفيها سما قدرا

ولا تيأسوا فالقيد يأس مكبل ... وداء عضال يذهل اللب والفكرا

فلا تقعدوا عن مجدكم وحفاظكم ... ففي الشعب لو ابصرتموا تجدوا النمرا

وفي الشرق تيار من الغرب جارف ... أتى فطمى الوديان والبر البحرا

وذاك دخيل في البلاد منعم ... ومنها ابنها يشكو المجاعة والفقرا

أيؤمل إصلاح ويرجى تعاضد ... وهاتيك بنت الشرق لاهية سكرى

فما شربت في الراح راحاً وإنما ... سقتها فتاة الغرب من ريقها خمرا

لذلك القيت اليراعة من يدي ... وآليت ان لا أكتب النظم والنثرا

وحرمت مدح الأثرياء تطاولا عليهم ولا أخشى من الناس من أثرى
وعاديت من حابى وخان ضميره ليدرك ما يبغي ويصبح مسترا
ولي أدب سام ونفس أبيه ترى الفخر بالماضي إذا افتخرت كفرا
ومن أدبي إني علمت بأنني مدين ودياني (خديجة الكبرى)
وأن لها حق الأمومة والولا على كل إنسان يسير على الغبرا
نظمت بنات الفكر فيها قصائداً حساناً دعت (حسان) لا يجهل الشعرا
قصائد راقت في مديح خديجة حليلة طه المصطفى والد الزهرا
فها أنا لا أنفك فيها مفاخراً مدى العمر حتى أدرك الحشر والنشرا
فمن مثلها والدين في بيتها نشا وفي بيتها طه دعى قومه جهرا
وفي بيتها الإسلام مدّ رواقه على الأرض من أم القرى فأتى مصرا
وفي بيتها كان النبي محمد من الله يستوحي الرسالة والذكرا
فكانت لطه ساعداً ومساعداً تساعده طوراً وتؤنسه طورا
وكانت على أسراره قبل بعثه محافظة والحرّ يحتفظ السرّا
إلى أن أتاه الوحي جهراً تجاهرت بإسلامها لم ترهب الشرك والكفرا
فصلت وراء المصطفى بصلاته ونادت بأعلى الصوت يا قومنا البشرى
أطيعوا رسول الله يا قوم واتركوا وراءكم العزى ولا تعبدوا نسرا
فضاقت نفوس المشركين واصبحوا حيارى كما ضاقت بهم سعة الغبرا
فكانت على الجُلّى وكل بلية أمام رسول الله تدّرع الصبرا
أيا قومنا هيا ننادي إلى الهدى فأنتم بدين الله يا قومنا أحرى
لأنكم أبناء فهر ويعرب وأحمد منكم وهو أشرفكم قدرا
وأصدقكم قولا وأرجحكم حجى وأسخاكم كفاً وأوسعكم صدرا
سيملك شرق الأرض من بعد غربها ويصبح كسرى لا يقال له كسرى
فكان كما قالته بنت خويلد وأصبح طه المصطفى باسماً ثغرا
غداة به أسرى الأله إلى السما وانزل فيه الله (سبحانه من أسرى)
وأصبح سيف الحق في كف صنوه علي وفيه أدرك الفتح والنصرا

فلولا علي واللواء بكفه ... لما ربح الإسلام أحداً ولا بدرا

ولولا أبوه شيخ بطحاء مكة ... أبو طالب فهر العلى ما غدت فهرا

هما نصرا طه بعزم ويقظة ... وشدَّ لطه فيهما ربه الأزرا

كما بذلت في الله بنت خويلد ... على فقراء الناس منذ أسلموا الوفرا

فاعطت لبنت الشرق درسا بفعلها ... وقد أدركت في فعلها العز والفخرا

فلو أن بنت الشرق تنصف أمها ... خديجة الكبرى لما اعترضت كبرا

وما نظرت للغرب نظرة معجب ... به وفتاة الغرب تنظرها شزرا

فما أضمرت للشرق حبا بقلبها ... نعم أضمرت في صدرها الحقد والمكرا

تخادعها جاءت لتسلب روحها ... وقد فعلت فيها الذي يقصم الظهرا

وما شهرت سيفاً لسفك دمائنا ... ولكن دلالا هزت العطف والخصرا

لها فتحت باب الخلاعة مذ أنت ... تجاذبها عن وجهها السجف والسترا

وفي شفتيها من دم الشرق حمرة ... تسيل لها عيني غدت أدمعا حمرا

فأغرت شباباً واستمالت أوانسا ... ولم ترضى حتى تفسد الصالح البرا

فقل لفتاة الرافدين تيقظي ... ومنها خذي أن كنت عالمة حذرا

وما برحت في مكرها وخداعها ... بشعبك تغري الفذ وإلا فن الغرا

مبادؤها هدامة وشعارها ... يخالف ناموس الشريعة والذكرا

لتبني قصوراً شامخات إلى السما ... فياليتها لم تبن في قطرنا قصرا

ويا ليتها لم ترو عذب فراته ... ويا ليتها لم تأكل السمن والبرا

ويا ليت بنت الشرق تشعر مثلها ... لتدفع عن أوطانها الشر والضرا

وتعلم أن العلم عزٌ ورفعة ... وفيه الفتى يستعبد العبد والحرا

وليس ينال المجد في الناس جاهل ... فكن عالماً تلقى الذي يشرح الصدرا

ولا تتخذ غير المعارف سلماً ... إذا كنت ممن يعشق المجد والفخرا

وطاول من الناس الذين تهابهم ... بعلمك لا بالجهل واستعمل الصبرا

❖ ❖ ❖

دار خديجة بنت خويلد
أو مولد فاطمة (رض)

✍إبراهيم رفعت باشا
امير الحج سنة ١٩٠٨

هذه الدار بزقاق الحجر بمكة ويقال له أيضاً: زقاق العطارين على ما ذكره الأزرقي وتعرف بمولد فاطمة (رض) لكونها ولدت فيها هي وإخوتها أولاد خديجة من النبي (ص). وذكر الأزرقي: أن النبي (ص) بنى بخديجة فيها وأنها توفيت فيها، ولم يزل النبي (ص) ساكناً بها حتى هاجر إلى المدينة فأخذها عقيل بن أبي طالب ثم اشتراها منه معاوية وهو خليفة فجعلها مسجداً يصلي فيه، ولكن ذكر في موضع آخر أن معتباً بن أبي لهب أخذ بيت خديجة فباعه من معاوية بمائة ألف درهم وهذا يخالف ما ذكره من أن عقيلاً أخذ بيتها وباعه من معاوية والله أعلم بالصواب، وهذه الدار الآن قد ارتفع عنها الطريق فينزل إليها بجملة درجات توصل إلى طرقه على يسارها مسطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ٣٠ سم ومسطحها نحو عشرة أمتار طولاً في أربعة عرضاً، وفيها مكتب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صغير يصعد إليه بدرجتين يدخل منه إلى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين، وفيها ثلاثة أبواب الذي على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولاً في أقل منها عرضاً، وهذا المكان كان معدّاً لعبادته (ص)، وفيه كان ينزل الوحي عليه، وعلى يمين الداخل إليه مكان منخفض عن الأرض يقال: إنه كان محل وضوئه (ص)، والباب الذي في قبالة الداخل إلى الطرقة يفتح على مكان أوسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة وهو المكان الذي كان يسكنه النبي (ص) مع زوجته خديجة (رض)، أما الباب الذي على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف، وفي وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة (رض)، وفي جدار هذه الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون: إنها من رحى السيد فاطمة التي كانت تستعملها في حياتها، وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمسطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً، وعرضه سبعة أمتار، وأظن أنه المكان الذي كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها.

انظر هذا وصف الدار على ما جاء برحلة البنانوني (ص ٥٣) وهو ما شاهدناه ثم قال البنانوني بعد ذلك هذه الدار التي كانت مقرّاً له (ص) ومحل إقامته في مكة ومبعثه إلى الخلق كافة إذا أنعمت بها نظرك وأمعنت فيها فكرك لا تراها إلا «البساطة» بنفسها، دار تحتوي على أربع غرف: ثلاث داخلية منها: واحدة لبناته، والثانية له ولزوجه، والثالثة له ولربه، والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس: بالله ما هذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع!

وقد جاء في كتاب شفاء الغرام للفاسي وصفه لدار خديجة عن مشاهدته وهو مخالف للشكل الذي نراها عليه الآن قال: غالب هذه الدار الآن على صفة المسجد لأن فيها رواقاً فيه سبعة عقود على ثماني أساطين ـ أعمدة ـ في وسط جدره القبلي ثلاثة محاريب وفيه ست وعشرون سلسلة في صفين وأمامه رواق فيه أربعة عقود على خمس أسطوانات، وبين هذين الرواقين صحن، والرواق الثاني أخصر من الرواق المقدّم لأن بقربه بعض المواضع التي يقصدها الناس بالزيارة في هذه الدار وهي ثلاثة مواضع، الموضع الذي يقال له: مولد فاطمة (رض)، والموضع الذي يقال له: قبّة الوحي وهو ملاصق لمولد فاطمة، والموضع الذي يقال له: المختبأ وهو ملاصق لقبة الوحي، زعموا أن النبي (ص) كان يختبئ فيه من الحجارة التي يرميه بها المشركون والله أعلم بحقيقة ذلك، وذرع الموضع الذي يقال له: المختبأ أربعة أذرع وثلث ذراع، وذلك من الجدار الذي فيه المحراب إلى الجدر المقابل له وهو طرف جدار قبّة الوحي الغربي هذا ذرعه طولاً، وذرعه عرضاً ثلاثة أذرع وثلثا ذراع، وذلك من الجدار الذي فيه بابه إلى الجدار المقابل له، وذرع الموضع الذي يقال له: قبّة الوحي من الجدار الذي فيه بابه إلى الجدار المقابل له ثمانية أذرع وثلثا ذراع: هذا ذرعه طولاً، وأما ذرعه عرضاً فثمانية أذرع ونصف بذراع الحديد المقدّم ذكره، والموضع الذي يقاله له مولد فاطمة طوله خمسة أذرع إلا ثمن، وعرضه من وسط جدره ثلاثة أذرع وثلاثة أثمان الذراع، وفي هذا الموضع موضع صغير يشبه بركة مدوّرة، وسعتها طولاً من داخل البناء المحوط عليها ذراع وعرضها كذلك، وفي وسطها حجر أسود يقال: أنه مسقط رأسها، وذرع الرواق المقدّم من هذه الدار من وسط جدرية على الاستواء ثمانية وثلاثون ذراعاً هذا ذرعه طولاً، وذرعه عرضاً سبعة أذرع وربع، وذرع ما بين كل أسطوانتين منه خمسة أذرع وربع، وذرع الرواق المؤخر من هذا الدار من جدر قبة الوحي إلى الجدر المقابلة له ثلاثة وعشرون ذراعاً، هذا ذرعه طولاً، وذرعه عرضاً عشرة أذرع وكان تحرير ما ذكرنا من ذرع المواضع بذراع الحديد (٥٧ سنتياً تقريباً) كله بحضوري.

وعلى باب هذه الدار مكتوب أنها عمرت في خلافة الناصر العباسي وفي زمن الملك الأشرف ابن شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون صاحب مصر، وفي الرواق المقدّم من هذه الدار أن المقتدي العباسي أمر بعمله، وعمر بعض هذه الدار في أوّل دولة الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق من المال الذي أنفذه أبوه لعمارة المسجد الحرام وغيره، ولم يعمر ذلك إلا بعد موته في آخر سنة إحدى وثمانمائة أو في التي بعدهات، ومما عمر في هذا التاريخ من هذه الدار الموضع المعروف بقبة الوحي بعد سقوطه، وبلغني أن القبة الساقطة كانت من عمارة الملك المظفر صاحب اليمن رحمهم الله تعالى، وإلى جانب هذه الدار حوش كبير على بابه حجر مكتوب فيه: إن هذا الموضع مريد مولد فاطمة (رض): وأن الناصر العباسي عمره ووقفه على مصالح دار خديجة التي إلى جانبه.

وهذا الوصف في العقد الثاني من المائة التاسعة بعد الهجرة. هذا وتجد مكتوباً بالحروف البارزة على لوح من الرخام وضع في حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل أحدهما فوق الآخر مكتوب في أعلاهما بالحرف البارز:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾.

هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الإسلام، أمر بتجديده الفقير إلى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين، ومكتوب في الثاني بسم الله الرحمن الرحيم: (هذا مختبأ رسول الله المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وإنشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي. ابن أبي منصور الأصفهاني وزير الشام والموصل الطالب الوصول إلى الله تعالى الراجي لرحمته أطال الله في الطاعة بقاه وأناله في الدارين مناه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة) «رحلة البتانوني ص ٥٥». وقد جاء في شفاء الغرام للفاسي: أن طول المسجد (الحجرة التي على اليمين) الذي في هذه الدار ثمانية أذرع إلا قراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلث وأنه مكتوب فيه:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾.

هذا مختبأ رسول الله (ص) دار الخيزران وفيه مبتدأ الإسلام أمر بتجديده الفقيرة إلى الله مولاة أمير الملك مفلح سنة ست وذهب بقية التاريخ) فنجد فرقاً في هذه العبارة والعبارة السابقة، وقال بعد ذلك: وعمره أيضاً الوزير الجواد. وعمرته مجاورة يقال لها: مرة العصمة، وعُمر أيضاً في سنة ٨٢١ هـ. والذي أمر بهذه العمارة ما عرفته. والمتولى لصرف النفقة فيها علاء الدين على بن ناصر محمد بن الصارم المعروف بالقائد. ❖

السيدة خديجة
أم سيدة نساء العالمين (عليهما السلام)

عبد العزيز كاظم البهادلي

اسمها: هي السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد[١] بن عبد العزى بن قصي بن كلاب[٢][٣].

أبوها: خويلد، وهو الرجل الذي لا ينسى له التاريخ ذلك الموقف النبيل حينما وقف في وجه تُبّع، ذلك الملك الطاغية الذي جاء من اليمن حاجا لبيت الله الحرام، ثمّ سوّلت له نفسه أن ينتزع الحجر الأسود ويأخذه معه إلى اليمن، فتصدّى له خويلد وجماعة من أفراد عشيرته حتى امتلأت نفسه بالرهبة والخوف من المغامرة بهذا الفعل المشين، وقد ذكر أصحاب السير تلك القصة بتفاصيلها[٤].

جدّها: أسد بن عبد العزى، وقد كان واحدا من أعضاء حلف الفضول، ومن مؤسسيه والدعاة إليه، والجدير ذكره أن حلف الفضول قد مدحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث قال: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أُحبّ أنّ لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبتُ**»[٥].

أمّها: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ابن عامر بن لؤي.

جدّتها: هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي[٦]، وعلى هذا فان السيدة خديجة نشأت وترعرعت في بيت من بيوتات قريش الكريمة الحسب والنسب، فكان من أعرق وأعظم تلك البيوت نسباً وأعلاها حسباً، لقد نبتت السيدة خديجة في بيت واسع الثراء ملتزم بالأخلاق العالية، ومعروفا بالتديّن، والعفة، والبعد عن الانغماس في الملاهي والموبقات التي كانت بعض بيوتات قريش غارقة فيها.

كنيتها: أم هند[٧].

ألقابها: الطاهرة[٨]. سيدة نساء قريش. سيدة نساء مكّة. سيدة نساء العالمين، وقد ورد اللقب الأخير بخبر مرفوع[٩] والمقصود به: في زمانها، وإلاّ فإنّ ابنتها الزهراء البتول صلوات الله عليها هي سيدة نساء العالمين بلا منازع.

---

(١) مصباح الزائر / ابن طاووس: ٥٨. زيارة السيدة فاطمة بنت أسد (عليها السلام).
(٢) الأمالي/ الطوسي: ١٦١/ ٢٦٧ المجلس السادس.
(٣) السيرة النبوية / ابن هشام ١: ١٦٢ نسب السيدة خديجة (عليها السلام).
(٤) الروض الأنف/ السهيلي ١: ٢٧.
(٥) السيرة النبوية / ابن هشام ١: ١٢٠.
(٦) السيرة النبوية / ابن هشام ١: ١٦٣ نسب السيدة خديجة (عليها السلام).
(٧) بحار الأنوار/ المجلسي ١٦: ١٢، الإصابة ٤: ٢٨٢ في ترجمة خديجة بنت خويلد (عليه السلام).
(٨) السيرة النبوية/ ابن هشام ١: ١٦٣ هامش/ ١.
(٩) مقتل الحسين (عليه السلام)/ الخوارزمي ١: ٢٨.

فضلها وكرامتها:

كانت خديجة صدّيقة هذه الأُمة، وأوّلها إيمانا بالله، وتصديقا بكتابه، ومواساة لرسوله (صلى الله عليه وآله)، انفردت برسول الله (صلى الله عليه وآله) مدّة خمس وعشرين سنة لم تشاركها فيه امرأة ثانية، ولو بقيت ما شاركتها فيه أُخرى، وكانت شريكته في محنته طيلة أيامها معه، تقوّيه بمالها، وتدافع عنه بكل ما لديها من قول وفعل، وتعزّيه بما يفاجئه به الكفار في سبيل الله، وكانت هي وعلي (عليه السلام) معه في غار حراء حين نزل عليه الوحي أوّل مرّة[1].

ومن العوامل الأساسية التي ثبتت دعائم الإسلام هي أموال السيدة خديجة، فمنذ اليوم الأوّل لزواجها المبارك من النبي (صلى الله عليه وآله) وقفت السيدة خديجة بجنب زوجها العظيم (صلى الله عليه وآله) موقف المدافع والمحامي، ووضعت كل أموالها في تصرّفه لنصرة الرسالة المحمدية، كما كانت توفّر له الملجأ والمأوى والقلب الحنون، ولذلك أوعزت إلى ابن عمّها حين زواجها من النبي (صلى الله عليه وآله) بأن يعلن أمام الملأ: إنّ جميع ما تحت يدي خديجة من مال وعبيد، قد وهبته لمحمّد (صلى الله عليه وآله) يتصرّف به كيف يشاء. ولذا وقف ورقة بن نوفل بين زمزم والمقام ونادى بأعلى صوته قائلاً: يا معشر العرب، إنّ خديجة وهبت لمحمّد (صلى الله عليه وآله) نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه بيمينها إجلالاً له وإعظاما لمقامه ورغبة فيه.

ومنها: رأت السيدة خديجة ميله إلى غلامها (زيد بن حارثة) قبل بعثته المباركة فوهبته له، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد في السبق إلى الإسلام.

ومنها: وكما نقله الزهري: أنّ خديجة أنفقت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أربعين ألفا وأربعين ألفاً[2].

وذكر الزرقاني في شرح كلام القسطلاني: قال ابن إسحاق: كانت خديجة أوّل امرأة آمنت بالله ورسوله، وصدقت بما جاء من الله عزّ وجلّ، ووازرته على أمره، فخفّف الله بذلك عن رسوله (صلى الله عليه وآله)، وكان لا يسمع شيئا يكرهه ولا تكذيب له فيحزنه إلاّ فرّج الله ذلك عن رسوله بها إذا رجع إليها تثبّته وتخفّف عنه وتهوّن عليه أمر الناس حتى ماتت سلام الله عليها[3]

تلتقي عن طريق جدها (عبد العزى) مع جد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) (عبد مناف) في الجد الرابع (قصي بن كلاب) وبهذا النسب تكون أقرب أزواج النبي (صلى الله عليه وآله) إليه نسبا، باستثناء ابنة عمته أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

اتفقت الروايات على أنّ السيدة خديجة هي أوّل زوجات النبي (صلى الله عليه وآله)، وهي في زمانها أفضل نساء قريش ومكّة في خَلقها وخُلقها وجميع مواهبها، كما

---

(١) عقيلة الوحي/ السيد عبد الحسين شرف الدين: ٢٠.

(٢) تذكرة الخواص/ سبط ابن الجوزي: ٣١٤.

(٣) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١: ٢٣٨.

كانت أفضل أزواج النبي (صلى الله عليه وآله) قاطبة، وقد كانت سيدة حازمة، شريفة، لبيبة، جليلة، ديّنة، كريمة، وصدّيقة هذه الأُمة في شرف النسب، وكرم المحتد، وسؤدد القبيلة، وعز العشيرة، والغنى الأوفر، وكانت مثالاً للزوجة المخلصة الصالحة، والمرأة الرزينة العاقلة، ولا توجد شبيهة لها في نساء النبي على الإطلاق حيث عقلها الكبير، وشخصيتها العظيمة.

وقد أدركت الجاهلية والإسلام، وكان لها في كليهما مركزاً ممتازاً، ولشدّة عفافها وصيانتها سميت بالطاهرة[1]، فجمعت بين المال والجمال والكمال. فهذه الصفات إذا اجتمعت - وقلّما تجتمع - فإنها تضفي على المرأة ألوانا من السمو والرفعة، وعندما كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يبشّر قومها بالإسلام، فلا ينال منهم إلاّ التكذيب، فيرجع إلى بيته حزينا يائسا، فتلقاه السيدة خديجة (عليها السلام) فتزيل حزنه، وتهوّن عليه الأمر.

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يودّها، ويحترمها، ويثني عليها، ويفضلها على سائر نسائه، بل على سائر النساء المؤمنات، ويعظمها، ويشاورها في أموره، وقد صدّقته في دعوته، وآمنت به، وكانت تستقبل آلام الجهاد الذي خاضه وخاضته معه صابرة محتسبة، لا ينبض لها عرق بلين أو تخوّف، بل تقطع قناطر الدموع والخطوب المشغولة في بسمة كبرياء، لم يُعهد مثلها في نساء النبي(صلى الله عليه وآله)، لقد كانت (عليها السلام) تستقبل العاصفة وشظاياها المشتعلة وتحوّلها إلى بردٍ وسلام على قلب زوجها الحبيب محمّد (صلى الله عليه وآله).

وهي أوّل امرأة صدّقت الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) ودخلت الإسلام، وقامت بخدمات جليلة حتى آخر لحظة من حياتها المباركة، وكان الحبّ والاحترام والعمل والتضحية لهذا الدين القويم ملء حياتها.

هذا ويمكن الحديث عن فضلها وكراماتها ضمن النقاط الآتية:

١ - السبق إلى الإسلام:

الثابت تاريخيّاً أنّ خديجة الكبرى (عليها السلام) أوّل امرأة دخلت الإسلام، ولهذا عدّها الرسول (صلى الله عليه وآله) من سابقات النساء إلى الإيمان بقوله: «**خديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وبمحمّد** (صلى الله عليه وآله)»[2].

وقد صرح أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذه الكرامة، في فقرة من خطبته المسماة بالقاصعة إذ جاء فيها: «... **لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **وخديجة** (عليها السلام) **وأنا ثالثهما**»[3].

وهي أوّل امرأة صلّت للّه عزّ وجلّ، وقد أجاد شاعر أهل البيت (عليهم السلام) في ملحمته المشهورة منشداً:

---

(١) مجمع الزوائد/ الهيثمي ٩: ٢١٨، تنقيح المقال/ المامقاني ٣: ٧٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين/ الحاكم النيسابوري ٣: ٢٠٣/ ٤٨٤٦.

(٣) نهج البلاغة/ تحقيق الدكتور صبحي الصالح/ الخطبة القاصعة: ٩٤، ط جماعة المدرسين، قم.

واقـــام الرســـول أول فـــرض	فاقتـــدت فيـــه أحـــسن الاقتـــداءِ
وهـــي كانـــت لكـــل مـــا يتجلّـــى	مـــن رســـول الهـــدى مـــن الرُقبـــاءِ
فـــترى بالعيـــان مـــا لا تـــراه	مـــن عظـــيم الأيـــات مقلـــة راءِ

٢ - حبّ الرسول لها:

إنها أحبّ نساء النبي (صلى الله عليه وآله) إلى نفسه الشريفة، فقد ورد عن عائشة: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلاّ عجوزاً، فقد أبدلك الله خيراً منها! فغضب حتى اهتزّ مُقدّم شعره من الغضب، ثم قال: **«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدّقتني وكذّبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء». قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً»**[1].

وعن عائشة أيضاً: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا ذبح الشاة يقول: **«أرسلوا إلى أصدقاء خديجة»**، فذكرت له يوما، فقال: «إني لأحبّ حبيبها»[2].

ولهذا لم يتزوّج (صلى الله عليه وآله) غيرها في حياتها، إكراما لها، وتعظيما لشأنها (عليها السلام).

٣ - كمالها وجلالها:

إنها من الكاملات على لسان المصطفى (صلى الله عليه وآله)، إذ قال (صلى الله عليه وآله) بشأنها: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ أربع: مريم بنت عمران، آسية بنت مزاحم، خديجة بنت خويلد، فاطمة بنت محمّد بن عبد الله»**[3].

ووصفها أبو طالب (عليه السلام) ذات يوم قائلاً: إنّ خديجة (عليها السلام) امرأة كاملة ميمونة خطبها ملوك العرب، ورؤساؤهم، وصناديد قريش، وسادات بني هاشم، وملوك اليمن، وأكابر الطائف، وبذلوا لها الأموال، فلم ترغب في أحد منهم، ورأت أنها أكبر منهم[4].

٤ - تبشيرها بالجنّة:

إنها من المبشّرات بالجنّة، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): **«أتى جبريل فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه أدام - أو طعام أو شراب - فإذا هي أتتك**

---

(١) أسد الغابة ٥: ٤٣٨، الافصاح في الإمامة/ المفيد: ٢١٧.

(٢) الاصابة/ ابن حجر العسقلاني ٤: ٢٨٣ طبعة دار الفكر - بيروت.

(٣) الفصول المهمة/ ابن الصباغ المالكي: ١٢٩.

(٤) بحار الأنوار/ المجلسي ١٦: ٥٦.

فاقرأ (عليها السلام) **من ربّها، ومنّي، وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب**[١]**، لا صخب فيه ولا نصب**»[٢].

وبهذه الكرامات فإن التاريخ ليحني رأسه أمام عظمة أم المؤمنين خديجة (عليها السلام)، ويقف أمامها خاشعاً مبهوتاً لدورها الإسلامي الكبير وتضحياتها الجمّة الجسيمة في سبيل العقيدة والمبدأ، وها نحن نذكر اليسير مما يشير إلى ذلك من خلال سيرتها وتاريخها.

تكامل المسيرة الإيمانية للسيدة خديجة (عليها السلام):

لقد كان بيت السيدة خديجة من بيوتات قريش المعروفة بالعفّة والمحافظة وسموّ الأخلاق الفاضلة.

وحفظ لنا التاريخ أنّ قبيلتها هي القدوة والمثل الأعلى في نصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وحماية المستجير، وتربّت السيدة خديجة منذ نعومة أظفارها على تلك السجايا الرفيعة، وكانت مؤمنة بالله العظيم منذ أوّل لحظات حياتها، ومرّت مسيرتها الإيمانية وتكاملت في مرحلتين:

الأولى: منذ نعومة أظفارها حتى معرفتها بشخص محمّد (صلى الله عليه وآله) حيث تاجر بأموالها.

الثانية: زواجها منه (صلى الله عليه وآله) حتى بعثته المباركة.

أمّا المرحلة الأولى فقد اتّسمت بتضافر عنصرين هامّين لبناء إيمانها وهما:

١ . وجود بقايا الديانة الحنيفية الإبراهيمية التي غمرت الجزيرة والتي ورثتها مدينة مكّة المكرمة وقبيلة قريش بالذات حيث انهم ينحدرون من سلالة إبراهيم الخليل (عليه السلام) وولده إسماعيل الذبيح (عليه السلام)، وكان لهذه التعاليم المباركة الأثر الواضح في بناء شخصيتها.

٢ . تطلّع السيدة خديجة بنفسها لبقايا الكتب المقدّسة كالتوراة والإنجيل ولو بشكل محدود.

تلك هي اللبنات الأوّلية لبناء إيمانها، وقد ساعدها على ذلك ابن عمّها ورقة بن نوفل، المعروف بالإيمان والأخلاق الفاضلة، وهو أحد الرجال الأربعة الذين تنسّكوا واعتزلوا عبادة الأوثان وهجروا قومهم وتفرّقوا في البلدان يلتمسون الديانة الحقّة الخاتمة، لأنّهم اطّلعوا من خلال متابعاتهم الكتب المقدّسة على قرب بعثة الخاتم محمّد (صلى الله عليه وآله)، كما تأثرت خديجة (عليها السلام) بشخصية ابن أخيها حكيم بن حزام الذي كان من ذوي الأموال الطائلة وأحد أعضاء دار الندوة البارزين في قريش.

وهكذا توفّرت لخديجة (عليها السلام) أسباب الرفعة والسمو المتوافرة في أسرتها من الإيمان وسداد الرأي. لقد أثرت أسرتها على مسيرتها الاجتماعية فصقلتها بمواصفات لطيفة،

---

(١) القصب: الزبرجد الأخضر المُرصّع بالياقوت الأحمر.

(٢) أسد الغابة/ ابن الأثير ٥: ٤٣٨، تاريخ اليعقوبي ١: ٣٥٤، الاصابة ٤: ٢٨٢.

ومن هذه المواصفات أنها لم تلهُ أبدا مع النساء اللاهيات، فإن الشائع عن بعض بيوتات مكّة في الجاهلية أنها كثيراً ما كانت تقام فيها ليالي المرح واللهو والغناء. وكانت السيدة تمرّ على تلك البيوت وما فيها من مرح وغناء ولهو دون أن تطرق بابها يوماً أو تؤثر على نفسيتها الطاهرة كقريناتها من بنات قريش!

وحفظ تاريخ مكّة تلك المنزلة العظيمة لهذه السيدة الجليلة - خديجة (عليها السلام) - حيث كانت نساء مكّة يذهبن إليها زائرات فتشملهن بكرمها وألطافها، وكانت إذا خرجت إلى البيت العتيق لتطوف به خرجن معها وأحطن بها فلا تلغو واحدة منهن ولا تتكلم إلاّ بالجدّ وكُنّ حريصات أن لا يُسمعن خديجة ما يؤذيها منهن من ألفاظ!

لقد امتازت قبيلة قريش بوجود عدد كبير من النساء الكريمات من ذوات العقل والفكر والأدب والأخلاق، لكن السيدة خديجة حازت قصب السبق بعقلها وشرفها وطهارتها وترفّعها عن زبارج الحياة وزخرفها، كانت تكرم الجميع وتصلهم بخيرها وبرّها حتى غبطها أهل مكة لمكارم أخلاقها، فمنحوها الألقاب والأوصاف الكريمة ما لم يمنحوها لأي امرأة أُخرى، فقد لقّبوها بالطاهرة، ولقّبت كذلك بسيدة نساء قريش، وسيدة نساء أهل مكّة، لما لها من مكارم أخلاق وجمال وكمال.

وكانت السيدة خديجة دائمة الحديث مع ابن عمّها ورقة بن نوفل عن الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله) وكيف سيُرسَل لهداية البشر؟ كانت دائمة الأسئلة مع نفسها دائمة التفكير بذلك النبي المنتظر! هل قرب زمان هذا النبي؟ هل ستراه؟ ومتى؟[1] وهكذا خُتمت المرحلة الأُولى من حياتها الإيمانية ولم تسجد لصنم، ولم تقدّم أيّ قربان، ولا نذرت نذرا للأصنام.

أمّا المرحلة الثانية في حياة خديجة الكبرى (عليها السلام) فقد تسارعت بها مراتب الكمال حتى وصلت إلى منتهاه، بعد اقترانها بالنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه الإصابة موضحا إيمان السيدة خديجة بمحمّد (صلى الله عليه وآله) بقوله: ما زالت خديجة تعظّم النبي (صلى الله عليه وآله) وتصدّق حديثه قبل البعثة وبعدها[2]. ولذلك عندما بعث النبي (صلى الله عليه وآله) لم تناجا، بل أيّدته بكل ما تملك، وصارت نفسها نفسه وروحها روحه، وأصبحا جسدا واحدا وروحا واحدة لبناء الإسلام، فهما بحقّ أبٌ للإسلام والمسلمين وأُمٌّ للإسلام والمسلمين، ولهذا منّ الله عليها وقرنها بمحمّد (صلى الله عليه وآله) وحفظ في نسلها ذرّية الرسول المصطفى، فهي أُم آل البيت الكبرى الذين كانوا نفحة من عطر شذاه وقبسا من سنا نوره، إذ انحصرت في ابنتها الصدّيقة فاطمة (عليها السلام) نسبة كل منتسب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فأعظم بها من مفخرة، وقد أجاد الشاعر في مدحها حيث قال:

---

(١) رياحين الشريعة/ ذبيح الله محلاتي ٢: ٢١١ - ٢١٢ (فارسي)

(٢) الاصابة ٤: ٢٨٢.

طـوبى لبنـت خويلـد قـد أفلحـت فلـها الخلـود بعـزّة وفخـارِ

فاقـت نـساء العـالمين بمجـدها هـي أمّ أمّ العـترة الأطهـارِ

تجارة السيدة خديجة (عليها السلام):

اشتهرت خديجة (عليها السلام) بتجارتها قبل زواجها من النبي (صلى الله عليه وآله)، ولعفافها المنقطع النظير في المجتمع القرشي يومذاك فإنها لم تتّخذ من التجارة ذريعة للاتصال بالرجال الأجانب، وإنما اتّخذت لنفسها طرقا جادة بعيدة عن الأهواء والنوازع والرغبات، فقد كانت تجارتها كثيرة ومتنوّعة، ورغم هذا فانها لم تكن تتّصل بالتجّار ولم تشترك معهم في اجتماع خاص أو عام، بل كان ينوب عنها في ذلك مواليها وعلى رأسهم مولاها المخلص ميسرة. وكانت تلقي إليهم الأوامر فينفذونها، وكانت عن طريق مواليها تستأجر الرجال وتضاربهم بشيء من المال تجعله لهم.

ولم تشتهر تجارتها (عليها السلام) في أوساط مكّة فحسب، بل في أوساط ديار العرب. فكان للسيدة خديجة في كلّ ناحية عبيد ومواشي حتى قيل: إنّ لها أكثر من ثمانين ألف جمل متفرّقة في أصقاع الجزيرة، وقيل: إنها تمتلك مائة ألف جمل، فكانت تصدّر البضائع من جزيرة العرب إلى الأردن وفلسطين والشام والروم وفارس، وتستورد الأقمشة والعسل والأواني النحاسية والأسلحة والأطعمة من تلك الأقاليم إلى الحجاز. فكانت تؤدّي خدمة اقتصادية لأهل مكّة ويثرب[1].

وكان أبو طالب (عليه السلام) يمارس التجارة لكنّه كبُر وضعف، وفي يوم ما دخل عليه النبي (صلى الله عليه وآله) فرآه مهموما فقال له: «يا عمّ ما لي أراك مهموما!»، فقال له أبو طالب (عليه السلام): يا محمّد، إني قد كبرت وضعفت عن التجارة! فقال له محمّد (صلى الله عليه وآله): «إذن يا عمّ ما هو الرأي؟»، فقال أبو طالب (عليه السلام): اعلم يا محمّد أن خديجة قد انتفع بمالها أكثر الناس، وهي تعطي مالها سائر من يسألها التجارة. فهل لك يا ابن أخي أن نمضي معا ونسألها أن تعطيك مالاً فتتّجر به![2] فرحّب بعرض عمّه أبي طالب، وكانت السيدة خديجة قد بلغها أن محمّدا (صلى الله عليه وآله) يمتاز بصدق الحديث وأداء الأمانة وسمو الأخلاق، فلذا وافقت من فورها وأرسلت إليه ليخرج في تجارتها إلى الشام، فوافق محمّد (صلى الله عليه وآله) على ذلك، ثمّ انها قد هيأت له ملابس السفر والتي كانت عبارة عن ثوبين من قباطي مصر: جُبّة عدنية وبُرْدَة يمانية، وعمامة عراقية، وخفّين من الأديم، وقضيب خيزران، فلبسها. وعندها ظهر النبي (صلى الله عليه وآله) كأنّه البدر في ليلة تمامه.

ثمّ أنّ محمّداً (صلى الله عليه وآله) ودّع السيدة خديجة وركب راحلته وخرج معه خادمها ميسرة، وبدأت رحلة التجارة التي قادها لأوّل مرّة محمّد (صلى الله عليه وآله) حتى

---

(١) قديسة الإسلام/ الحسيني الميلاني: ٣٣.

(٢) رياحين الشريعة/ ذبيح الله محلاتي ٢: ٢١٤ (فارسي).

قدم الشام، ثمّ باع واشترى، وعادت القافلة واستقبلها أهل مكّة، ونظرت السيدة خديجة إلى جمالها وقد أقبلت كالعرائس، وكانت معتادة في كل مرّة أن يموت بعضها ويجرب بعضها إلاّ تلك السفرة فإنها لم ينقص منها شيء!

فوقفت قبيلة قريش معجبين من تلك الجمال، فأخذوا يردّدون: إنّ هذا ما أفاده محمّد (صلى الله عليه وآله) لخديجة من رحلته إلى الشام، فذهبت عقول قريش لهذه البركات.

وأخيراً حطّت القافلة ركاب جمالها، ففكّوا رحالها وعرضوا ما فيها من بضاعة وأموال ونفائس على خديجة، وكانت عندهم جالسة خلف الستار، ومحمّد (صلى الله عليه وآله) جالس وسط الدار، وميسرة يعرض عليها الأمتعة شيئا فشيئا، فنظرت خديجة إلى ما قد أدهشها فأخبرت أباها قائلة له: يا أبت هذا كلّه ببركة محمّد (صلى الله عليه وآله)، والله يا أبتاه إنه مبارك ميمون الغرّة، فما ربحتُ ربحا أغنم وأعظم من سفرة محمّد هذه!

زواجها من النبي (صلى الله عليه وآله):

لمّا رأت السيدة خديجة من مكارم أخلاق محمّد (صلى الله عليه وآله) وبركاته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر!، أحبته (صلى الله عليه وآله) حبّاً شديداً نابعا من صفاء نفسها وقدسية قلبها، وهنا فكّرت أن تتّخذه زوجا وقرينا لها، ولهذا استشارت ابن عمّها ورقة بن نوفل في ذلك، فشجّعها على الزواج من محمّد (صلى الله عليه وآله) مبيّناً لها بأنه النبى المرتقب، عندها طلبت خديجة (عليها السلام) من صديقتها نفيسة بنت أُمية أُخت يعلى أن تفاتح محمّداً (صلى الله عليه وآله) بالزواج، ثمّ وصل الأمر إلى أن خاطبت خديجة (عليها السلام)محمّداً (صلى الله عليه وآله) بقولها: يا بن العم، إنّى قد رغبت فيك لقرابتك منّى، وشرفك في قومك، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك، فقم إلى عمومتك وقل لهم أن يخطبونى لك من أبى، ولا تخف من كثرة المهر فهو عندى، وأنا أقوم لك بالهدايا والمصانعات، فسِرْ وأحسن الظنّ فيمن أحسن الظنّ بك[1].

فعندها وافق محمّد (صلى الله عليه وآله)، فخرج من عندها وذهب إلى منزل عمّه أبي طالب وقد ملأ السرور وجهه، فوجد أعمامه مجتمعين بانتظاره، فلمحه عمّه أبو طالب قائلاً له: يا ابن أخى، ما أعطتك خديجة؟ أظنّها قد غمرتك في عطاياها! قال: «**يا عمّ لى إليك حاجة**»، قال أبو طالب (عليه السلام): وما هى يا محمّد؟ قال محمّد (صلى الله عليه وآله): «**تنهض أنت وأعمامى في هذه الساعة، وتخطب لى السيدة خديجة**».

فقام أعمام محمّد (صلى الله عليه وآله) بزعامة أبى طالب (عليه السلام) متوجهين إلى خويلد أبى خديجة (عليها السلام) لطلب يد كريمته إلى ابنهم الأمين محمّد (صلى الله عليه وآله)، وعلى أثر ذلك اجتمعت وجوه قبيلة خديجة، فتقدّم أبو طالب رافعاً صوته بهذه الكلمات:

---

(١) بحار الانوار ١٦: ٩ و ٥٦.

الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذريّة إسماعيل، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً. وجعلنا الحكّام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه.

ثمّ إنّ ابن أخي محمّد بن عبدالله لا يُوزن برجل من قريش إلاّ رجح، ولا يُقاس بأحد إلاّ عظم عنه، وإن كان في المال قلّ فإنّ المال رزق حائل وظلّ زائل. وله في خديجة رغبة. ولها فيه رغبة. وصداق ما سألتموه عاجله من مالي، وله والله خطب عظيم ونبأ شائع[1].

وبعد أن انتهى أبو طالب من خطبته، أجاب عمّها الأكبر عمرو بن أسد قائلاً: هو الفحل لا يقدع أنفه[2]، ثمّ قام ابن عمّها ورقة بن نوفل خطيباً، فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضّلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، فاشهدوا على معاشر قريش بأني قد زوّجتُ ابنة عمّي خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبدالله، على أربعمائة دينار.

ثمّ سكت ورقة، وتكلّم أبو طالب، وقال: قد أحببت أن يشركك عمّها، فقال عمّها: اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمّد بن عبدالله، خديجة بنت خويلد، وشهد عليّ بذلك صناديد قريش.

وتذكر روايات السيرة أنه سمع الناس مناديا ينادي من السماء: ان الله تعالى قد زوّج بالطاهر الطاهرة وبالصادق الصادقة ثمّ رفع الحجاب، وخرجت منه جوار بأيديهم نثار ينثرنه على الناس، وأمر الباري عزّ وجلّ جبريل أن يرسل الطيب على الناس على البرّ والفاجر، فكان الرجل يقول لصاحبه: من أين لك هذا الطّيب؟ فيقول: هذا من طيب خديجة ومحمّد (صلى الله عليه وآله)[3].

ثمّ نهض الناس إلى منازلهم، ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحفّه بنو هاشم إلى منزل أبي طالب وهو كالقمر يتوسّط النجوم، فاجتمعت نساء قريش ونسوان بني عبد المطلب وبني هاشم في دار السيدة خديجة وأُقيمت مجالس الفرح والسرور.

ثمّ إنّ خديجة قالت لابن عمها ورقة بن نوفل: يا ابن عمّ، خذ هذه الأموال وأعطها محمّدا. وقل له إن هذه الأموال هدية له وهي ملكه يتصرّف بها كيف يشاء! وعند ذلك أولم محمّد (صلى الله عليه وآله) ونحر جزورا وقيل جزورين. وأطعم الناس، وعندها فرح بنو هاشم فرحا شديدا ومنهم عمّه أبو طالب حيث قال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب، ودفع الغموم. وكانت تلك الوليمة أول وليمة يولمها محمّد (صلى الله عليه وآله).

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠. الفقيه ٣: ٢٥١/ ١١٩٨ باب الولي والشهود والخطبة والصداق.

(٢) عيون الأثر/ ابن سيد الناس ١: ٧٢. مؤسّسة عز الدين. ١٤٠٦ هـ.

(٣) بحار الأنوار/ المجلسي ١٦: ١٩ و ٧٧.

وبعد تهيئة بيت الزواج ومستلزماته جاءت عمّات النبي (صلى الله عليه وآله)، واجتمع السادات والأكابر، ثمّ أقبل أبو طالب وبنو هاشم وفي وسطهم محمّد (صلى الله عليه وآله) بين أعمامه وعليه ثياب من قباطي مصر وعمامة حمراء وعبيد بني هاشم بأيديهم الشموع والمصابيح، فلما وصلوا دار خديجة دخل محمّد(صلى الله عليه وآله) وكأنه القمر في تمامه وأعمامه محدقون به كأنهم أسود الثرى في أحسن زينة يكبّرون الله ويحمدونه، فدخلوا جميعا إلى دارها، وجلس محمّد (صلى الله عليه وآله) في المجلس الذي هيئ له ونوره قد علا نور المصابيح، فذهلت النساء مما رأين من حسنه وجماله، ثمّ بعدها تهيّأت النساء لاستقبال السيدة خديجة، فخرجت تحفّها نساء بني هاشم، وأنشدت صفية بنت عبد المطّلب:

جاء السرور مع الفرح	ومضى النحوس مع الترح
أنوارنا قد أقبلت	والحال فيها قد نجح
بمحمّد المذكور في	كل المفاوز والبطح
لو أن يوازن أحمد	بالخلق كلّهم رجح
ولقد بدا من فضله	لقريش أمر قد وضح
ثمّ السعود لأحمد	والسعد عنه ما برح
بخديجة بنت الكمال	وبحر نائلها طفح
يا حسنها في حليها	والحلم منها ما برح[1]

ثمّ أوقفنها بين يدي محمّد (صلى الله عليه وآله)، ثمّ بعد ذلك أجلسوها مع عريسها محمّد (صلى الله عليه وآله)، وخرج الجميع عنها وانفرد العريسان في أحسن حال وأرخى بال.

وأقام أبو طالب لأهل مكّة وليمة عظيمة ولمدّة ثلاثة أيام حضرها الحاضر والبادي، وكان من الذين جاءوا ليباركوا العريسين بعرسهما أم محمّد (صلى الله عليه وآله) في الرضاعة السيدة حليمة السعدية، ثمّ لتعود ومعها أربعون رأسا من الغنم هبة وهديّة من عروس ولدها الكريمة إعظاماً لها لأنّها أرضعت زوجها الحبيب محمّد (صلى الله عليه وآله)، وهنا تندّت عينا محمّد (صلى الله عليه وآله) وهو يتفقّد أُمه سيدة الأمهات - آمنة - بين الحاضرات في عرسه ولكن دون جدوى! وإذا باليد اللطيفة الرقيقة تأسو الجرح القديم في حنان غامر حيث أنه يجد في عروسه المباركة عوضاً جميلاً عما قاساه من طول الحرمان. وكان عمره

---

(١) رياحين الشريعة/ ذبيح الله محلاتي ٢: ٢٤٨ (فارسي).

الشريف خمساً وعشرين سنة، أمّا عمرها فقد قيل إنه أربعون سنة، وتذكر روايات أُخرى أن عمرها كان ثمان وعشرين سنة، وليس ذلك على قدر من الأهمّية[1]: لأن الإرادة الإلهيّة شاءت أن تكون السيدة خديجة قرينة للنبي محمّد (صلى الله عليه وآله) وتصبح أم المؤمنين الأُولى، وهي فضيلة سبقت بها نساء الأولين والآخرين!

قال ابن شهرآشوب: «روى البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والسيد المرتضى في كتابه الشافي وأبو جعفر في التلخيص: إن النبي (صلى الله عليه وآله) تزوّج بها وكانت عذراء»[2].

وقد ذكر ابن هشام وغيره، أنّ السيدة أُم المؤمنين خديجة كانت قد تزوّجت في الجاهلية من أبي هالة التميمي، ثمّ مات أبو هالة وقد ولدت له السيدة خديجة الصحابي الجليل (هند)[3] راوي حديث صفة النبي (صلى الله عليه وآله).

ولادتها الصدّيقة فاطمة (عليها السلام):

لقد أثمرت شجرة النبوّة، وأذنَ الله لدوحة الرسول أن تمتدّ فروعها وتستطيل آفاقها بميلاد فاطمة في أجيال هذه الأُمّة، لقد ولدت فاطمة (عليها السلام) في مكّة المكرمة في جمادى الآخرة يوم العشرين منه بعد البعثة بخمس سنين[4]، فاستقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ابنته الحبيبة بالفرح وسمّاها فاطمة (عليها السلام)[5].

فكانت صلوات الله عليها تحمل روح رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصفاته وأخلاقه، وهي الوارث والشبيه. إذ لم يكن في الدنيا أحد يماثل الرسول (صلى الله عليه وآله) في صفته وشمائله كفاطمة.

لقد غمرت البهجة والسرور بيت الأبوين، رسول الله (صلى الله عليه وآله) والسيدة خديجة، بمجيء فاطمة: إذ أنّها ملتقى الحبّ بينهما، وثمرة العلاقة الوديّة في حياتهما، وفرع النبوة الشامخ وظلّه المستطيل، ومستودع نور النبوة المتقلّب في أصلاب الساجدين، فحقّ لهذا البيت النبوي أن يزهو بمناغاة فاطمة، ويمتلئ سروراً بابتساماتها المشرقة الوليدة، لقد ولدت

---

(١) قال الاربلي عن ابن حماد: انّ عمرها ثمان وعشرون. وأيّده صاحب البحار نقلاً عن ابن عباس ١٦: ١٢. ومثله ذكر البلاذري في أنساب الأشراف ١: ١٠٨.

(٢) المناقب/ ابن شهر آشوب ١: ١٣٨ باب ذكر سيّدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله). فصل في أقربائه وخدّامه.

(٣) السيرة النبوية/ ابن هشام ١: ١٦٣، معاني الأخبار/ الصدوق: ٨٠.

(٤) دلائل الإمامة/ الطبري الإمامي: ٧٩/ ١٨، الكافي/ الكليني ١: ٤٥٨ باب مولد الزهراء فاطمة (عليها السلام).

(٥) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)/ الصدوق ٢: ٤٦، قال (صلى الله عليه وآله): «إنّي سمّيتها فاطمة لأنّ الله عزّ وجلّ فطمها وفطم من أحبّها من النار». ذخائر العقبى/ المحبّ الطبري: ٢٦.

فاطمة ودرجت في بيت النبوة، وترعرعت في ظلال الوحي، ورضعت من لبن أمّها خديجة حبّ الإيمان ومكارم الأخلاق وحنان خاتم الأنبياء والرسل[١]، وقد وردت عدة روايات تشير إلى عظمة البتول وهي جنين في بطن أمّها خديجة (عليها السلام)[٢].

وفاتها (عليها السلام):

لمّا رأت قريش أن الإسلام بدأ يتّسع ويزيد، وأن أموال السيدة خديجة أصبحت كلّها في يدي رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) ومساعده عمّه أبي طالب (عليه السلام) ووزيره ابن عمّه وتلميذه علي (عليه السلام)، اجتمعت على مقاطعة ومنابذة بني هاشم رضوان اللّه عليهم والتضييق عليهم بمنعهم حضور الأسواق فلا يبايعونهم ولا يشارونهم، ولا يقبلوا لهم صلحا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلّموا محمّدا (صلى الله عليه وآله) للقتل أو ترك الدعوة إلى اللّه عزّ وجلّ.

فحوصر بنو هاشم وبنو عبد المطلب في شعب أبي طالب، وبقي المسلمون ثلاث سنوات متتالية حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً، ونتيجة لذلك الحصار فقد مرضت السيدة خديجة الكبرى مرضاً شديداً، ودخل عليها رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) وهي تجود بنفسها ووقف ينظر إليها والألم يعتصر قلبه الشريف ثمّ قال: «بالكُره منّي ما أرى».

ولمّا توفّيت خديجة (عليها السلام) جعلت ابنتها الصدّيقة فاطمة (عليه السلام) تتعلّق بأبيها رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) وهي تبكي بكاءً شديداً وتقول له: «أين أُمي؟ أين أُمي؟» فنزل جبرائيل بالحال قائلاً لرسول اللّه: «قل لفاطمة: إنّ اللّه بنى لأُمّك خديجة بيتا في الجنّة من قصب[٣]، لا نصب فيه ولا صخب»[٤].

كانت وفاة السيدة أم المؤمنين خديجة في اليوم العاشر من شهر رمضان، وفي العام العاشر لمبعثه الشريف عن عمر ناهز الخامسة والستّين سنة، وتزامنت وفاتها مع فقدان رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) الدعامة الثانية له والمدافع الأوّل عنه وهو عمّه أبو طالب، وكانت وفاته في اليوم السادس من شهر رمضان، فسمّاه عام الحزن[٥] وكان ذلك قبل الهجرة

(١) الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام)/ مؤسسة البلاغ: ٢٠.

(٢) دلائل الإمامة/ الطبري: ٧٧/ ١٧ باب ولادة فاطمة (عليها السلام).

(٣) القصب: الزبرجد الأخضر المرصّع بالياقوت الأحمر.

(٤) سيرة ابن إسحاق: ٢٤٣ باب وفاة خديجة بنت خويلد (عليها السلام).

(٥) لما فقد رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) كُلاً من عمّه أبو طالب وزوجته الوفية خديجة شنأ المقام بمكّة ودخله حزن شديد وشكا ذلك إلى جبرئيل (عليه السلام) فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليه أن اخرج من القرية الظالم أهلها، فليس لك بمكّة ناصر بعد أبي طالب وأمره بالهجرة. الكافي/ الكليني ١: ٤٤٠.

المباركة بثلاث سنين. ثمّ أنّه لمّا جهّزها نزل بقبرها، ودفنها في منطقة الحجون[1] (وهو جبل بأعلى مكّة محيط بها) بجنب قبر أُمّه آمنة (عليهما السلام) وقبور أهل بيتها وأرحامها، وقد شرّف الله عزّ وجلّ الحجون بها كما شرّف البقيع بأجساد أولادها أئمة أهل البيت سلام الله عليهم وبهذا ورد الحديث الشريف الواصف عظمة مقبرة الحجون: «**الحجون والبقيع يؤخذان بأطرافهما وينثران في الجنّة**»[2].

ولذا ابّنهما أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث ذكرها وذكر أباه أبا طالب (عليه السلام) منشداً:

أعَيْنَيَّ جودا بارك اللّه فيكما	**على هالكَيْنِ ما ترى لهما مثلا**
على سيّد البطحاء وابن رئيسها	**وسيّدة النسوان أوّل من صلّى**
مهذّبة قد طيّب اللّه خيمها	**مباركة واللّه ساق لها الفضلا**
مصابهما أدجى لها الجو والهوا	**فبتُّ أقاسي منهما الهمّ والثكلا**
لقد نصرا في اللّه دين أحمد	**على من بغى فيالدين قد رعيا إلاّ**[3]

وهكذا قضت أمّ المؤمنين خديجة (عليها السلام) نحبها بعد جهاد مرير في خدمة الدين الحنيف، وتركت من المآثر الخالدة ما تنوء به الجبال، فهي المرأة التي آثرها اللّه عزّ وجلّ بالدور العظيم في بناء الإسلام رمزا للوفاء والمحبّة والإيثار لزوجها الحبيب محمّد (صلى الله عليه وآله)، وهي أوّل امرأة صدقت به (صلى اللّه عليه وآله) وآمنت به، وبذلت مالها ونفسها، وهان كل شيء عندها في سبيله، مُطْلِقةً كلمتها الأخيرة وهي على فراش الموت قائلة له وظلال الموت ترفرف عليها: (يا رسول اللّه... إني قاصرة في حقّك فاعفني، ولم أكن قد أدّيت حقّك، إن كان لي شيء أطلبه منك فهو رضاك)[4]. فسلامٌ عليك يا أُمّ المؤمنين يوم ولدت ويوم تبعثين، وقد أسكنك اللّه في الجنة في بيت من قصب لا نصب فيه ولا صخب، وعند زوجك محمّد (صلى الله عليه وآله) شفاعة الأوّلين والآخرين. ❖

(١) يومئذ لم تكن قد شرعت صلاة الميت كما ذكر الاربلي في كشف الغمّة ١: ٥١٣.

(٢) سفينة البحار/ عباس القمي ١: ٢٢١/ باب حَجَنَ.

(٣) منتهى الآمال/ عباس القمي ١: ١١٩.

(٤) بين يديّ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)/ د. السيد محمّد بحر العلوم ٢: ٢٨.

البقيع

في الشعر العربي

أثر فاجعة

تهديم الأضرحة في مقبرة البقيع

ومهاجمة العتبات المقدسة

إعداد

محمد سعيد الطريحي



تـقـديـم

تعتبر مقبرة البقيع، المقبرة الرئيسة لأهل المدينة المنورة منذ عهد رسول الله (ص)، ويتاخم موقعها المسجد النبوي الشريف، امام القسم الجنوبي من سوره، وتسمى أيضاً بمقبرة بقيع الغرقد، نسبة إلى شجرة الغرقد التي كانت تنبت فيه، وقد دفن فيها أربعة من الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام) وهم: الإمام الحسن، والإمام علي زين العابدين، والإمام الباقر، والإمام الصادق، وقبورهم متجاورة، وعلى بعد نحو مترين قبر العباس عم النبي (ع) وقبر فاطمة بنت أسد (رض)، وفي موضع بجوار البقيع حسب إحدى الروايات "حذوَ زاوية دار عقيل وأنه إلى دار عقيل (ابن أبي طالب) أقرب".

والمشهور أن أول من دُفن في البقيع من الأنصار: أسعد بن زرارة، ومن المهاجرين: عثمان بن مظعون، ودفن فيها إبراهيم ابن رسول الله (ص) وبعد دفنه رغب أهل المدينة في الدفن فيها حتى ذكر السمهوري عن الإمام مالك أن عشرة آلاف من أصحاب رسول الله (ص) قد توفوا في المدينة، ودفن أكثرهم في البقيع.

وكانت أضرحة الأئمة وزوجات النبي (ص) وبعض الأصحاب معروفة منذ قرون، أما قبر الزهراء (عليها السلام) ففي بعض الروايات أنها دفنت في البقيع والذي عليه المعول، أنها دُفنت في بيتها بجوار مدفن رسول الله (ص).

وتبلغ مساحة مقبرة البقيع الحالية نحو مائة وثمانين ألف متر مربع، وبالرغم من أنها تضم رفات أئمة آل البيت والصحابة والتابعين الكبار وغيرهم من أعيان المدينة المنورة، ولكن لا توجد الآن أية شواهد تدل عليهم بعد أن هدمها الوهابيون حين استولوا على المدينة المنورة سنة ١٢٢١هـ فلم يبقوا في البقيع ولا خارجه حجراً على حجر حتى المساجد هدموها وانقطع الحج آنذاك. ثم أنهم خرّبوا قبور شهداء أُحد والمسجد المقام على قبر حمزة (رض)، وبعد هزيمة الوهابيين على يد العثمانيين سنة ١٨١٨، جددت الأضرحة كما أعيدت عمارة الحرم المدني.

وبعد أن قويت شوكة الوهابيين، بدأوا الهجوم ثانية على المدينة المنورة، وألحقوا اضرارا بالغة بقبة الرسول (ص) ثم هدموا كافة الأضرحة وخرّبوا جميع شواهد القبور في مقبرة البقيع ومنها قبور أئمة آل البيت (عليهم السلام)، وذلك يوم نفذ الوهابيون أكبر

عملية إزالة للآثار النبوية والشواهد القديمة التي ترجع إلى صدر الإسلام وبضمنها أضرحة الأئمة وكبار الصحابة، وكان ذلك بناءً على فتوى شيخهم عبد الله بن بلهيد، يوم الثامن من شهر شوال ١٣٤٤هـ.

وقد ثارت ثائرة العالم الإسلامي لأجل ذلك، وأسست جمعية خدام الكعبة من قبل علماء الهند المسلمين للتحقيق في تلك الهجمات والانتهاكات، واستمر الاحتجاج على أفعال الوهابة تلك العقود من السنين، ولا يزال صدى لتلك الاحتجاجات عند جماهير عريضة من المسلمين الذين يطالبون بإعادة بناء الأماكن المقدسة في الحجاز.

وفي هذه القصائد التي التقطناها من مصادر شتى قديمة وحديثة، بعض أصداء فاجعة البقيع وغيرها من الأمكنة المقدسة التي دُمرت بسبب الفتاوى التكفيرية، وفيها تقرير شامل لما حدث في تلك البقاع الطاهرة من العبث بتراث الإسلام وإهانة مقدساته، وتهييج للمشاعر الدينية والحماسة واستنهاض الضمائر الحية، من أجل لفت الأنظار لهذه المأساة التي تعرضت لها المقدسات الإسلامية.

ولا يزال يوم ٤ شوال ١٣٤٤هـ يوم حزن لدى أتباع آل البيت خاصة تقام فيه المجالس التذكارية، وتتجدد فيه الدعوة لإعادة إعمار البقيع وسواد من آثار النبي (ص) وصحابته[1].

❖ ❖ ❖

(١) إن تهديم قبور البقيع أحدث ضجة كبرى في العالم الاسلامي حينها، ومن أنشط الجمعيات الإسلامية التي كرست جهودها لفضح هذه الممارسات الاجرامية بحق النبي (ص) وآله وصحابته. كانت جمعية خدام الكعبة المؤسسة في الهند مطلع القرن العشرين والتي نشرت نظامها عام ١٩١٣م، وأهم أهدافها هو الحفاظ على الأماكن الإسلامية المقدسة ومنها البقيع الطاهر، انظر موسوعة الموسم، المجلد (٥) لعام ١٩٩٠، ص١٩١ ـ ٢٠٢.

فاجعة البقيع

الشيخ محمد حسين ابن الشيخ محمد المظفر

لمن أبقيت وكاف الدموع أما تبكيك فاجعة البقيع؟

بفيض الدمع نقنع عن تراث حقيق دونها فيض الدموع

إذا أغمدت عضبك وهو آس فمن لوريد شرعتنا القطيع

مضت سنة لها والكل منا تساور طرفه سنة الهجوع

وكيف مثقف الإسلام يحني وما ثقفت محني الضلوع

وأوجبت السكوت وقد أبيحت جهارا حرمة الدين المنيع

انـنهض ثائرين وأنت حلس تفضل عيشة الرجل الوديع

وهل يرجى إذا جفت أصول من الأشجار إيراق الفروع

وينصدع الهدى وأراك خلوا كأنك لست تعلم بالصدوع

وترقد آمناً أو لست تدري يبيت الدين في قلب مروع

وتشمخ بالأنوف لئام عرب وأنت تعود في أنف جديع

وتهدم قُبة رفعت مناراً فدتها قبة الفلك الرفيع

❖❖❖

حماة الدين مالك عدت شتى وإنك كنت ذا شمل جميع

تفرقك الحوادث نازلات وتؤذن شمل عزك بالصدوع

فرادى لا أرى لك من زعيم أما لك في القوارع من قريع

ومالك في الوغى فرسان حرب تفيض قلوبها فوق الدروع

اتخطف منك ذؤبان الفيافي عيانا أشبل الأسد المريع

اضاعت حق آل الله جهرا فيا لله للحق المضيع

وذي أهل الضلالة زاحفات جموع منهم إثر الجموع

قد اكتسحت بلاد الله ظلماً وما كفت عن الفتك الذريع

قساة لا ترق لهم قلوب إذا ظفرت على الطفل الرضيع

تطيب لها لحوم الناس أكلا وتستمري الشراب من النجيع

وتنهى عن شنيع الفعل قولاً وما ارتكبت سوى الفعل الشنيع

وقفة على البقيع

الشيخ جعفر الهلالي

هنا قد ثوت للحق صيد أماجد | تهاوت لها من أوجهن الفراقد
أئمة عدل من سلالة أحمد | لها من سمات الفضل لاحت شواهد
هم الحسن الزاكي وزين عبادها | وباقر أهل العلم إن ضل جاحد
وجعفر ذاك الصادق البر من له | مواقف تسمو عندهن فوائد
علت باسمها أرض البقيع مكانة | فراحت بها تسمو هناك المحامد
وليس عجيباً أن تسامت بفضلهم | فكلهم للدين عضد وساعد

❖❖❖

الا يا بني الإسلام أي عظيمة | بنو المصطفى تجفى وتدنو الأباعد
وتلك القبور الطيبات دوارس | يهدمها حقد فهن هوامد
عجبت لقوم يدّعون بأنهم | لأحمد حماة هناك العقائد
وقد هدموا تلك القباب لآله | وعز عليهم أن تُشاد ومراقد
فأين مضى القرآن والآي فيهم | وفي جدهم هلا تيقظ حاقد
وتعظيم أهل البيت تعظيم جدهم | ولم يأب ذا إلا عدو وجاحد
إلهي فزدنا في الوداد محبة | فحبهم الإيمان والحق شاهد
ومنّ علينا في شفاعتهم غداً | إذا عزّ في ذاك المقام المساعد

وقال أيضاً:

وقفت على أرض البقيع فهالني | قبور هداة مقفرات رسومها
قبور لآل الله من غدا بها | يفيض على هذي الحياة نعيمها
حوت خير أهل الأرض من آل أحمد | لها طأطأت حتى السماء نجومها
جنت تلكم الأيدي الأثيمة عنوة | عليها بظلم فأستبيح حريمها

❖❖❖

سلاماً أبا الزهراء

جابر الجابري

وقفت على قبر النبي وأعيني … تكاد بأن تأبى عليها دموعها

وأرخيت أجفاني لتسكب عبرة … تفجر من أرض العراق نقيعها

بكيت بها حزناً لآل محمد … وقد راعني في كل أرض مضيعها

لماذا عفت منهم قبور وغيرهم … تلألأ نورا بالنعيم شموعها

لماذا خبت منهم شموس وغيبت … بدور مع القرآن كان طلوعها

وقفت وفي حلقي شجى يستفزني … وقد هد من تلك العماد رفيعها

أسائلها الزهراء كيف تهشمت … عشية خلف الباب عمدا ضلوعها

أسائل عن نار ببابك لم تزل … تحرق أكباداً تضرى صديعها

فما راعني إلا صدى جاوب الصدى … وقد صم من تلك القلوب سميعها

هي الآن قاعاً صفصفاً غير أنها … تحشد أملاك السماء ربوعها

***

سلاماً أبا الزهراء إن عصابة … توالت على إيذاك ساء صنيعها

وإن يدا أعفت قبوراً بطيبة … وباسمك بعد الله زال خنوعها

لها من أكف سالفات وراثة … غداة أحاطت بالحسين جموعها

وإن أكفاً أضرمت باب حيدر … بنار وللزهراء راحت تروعها

هي الآن تمري الضرع سما تدوفه … فتقطر من حقد علينا ضروعها

تبادلنا كأساً بكأس نقيعة … فنسكرها حباً ويطغى نقيعها

لقد رويت منا دماء ولم يزل … يطارد أشلاء الملايين جوعها

وقد قطعت منا رؤوساً كريمة … وقد اضرمت نارا ترامى وسيعها

فمنا بكوفان أبيحت حرائر … وبغداد ما زالت تسيل صدوعها

وفي كربلا حيث الزمان تفصمت … عراه وقد جلى السماء صريعها

وفي أرض فخ لا تزال جماجم … معلقة مالت عليها جذوعها

وقد حسبت إنا إذا السيف حكمت قواعد فينا تطول قطوعها

وقد حسبت إنا إذا غاب بعضنا وأخلى لها دربا يسود جميعها

وما علمت إنا بقية صرخة تردد في صم الزمان رجيعها

وإنا غراس ثابتات بأصلها وقد ناطحت هام السماء فروعها

❖❖❖

عزاءُ أبا الزهراء لست معزيا سواك بمن يوم الحساب شفيعها

بأمة ظلم أجمعت فيك رأيها وعنك تخلى جلفها ومطيعها

وطال بوجه الله عمداً وقوفها وفي حضرة الشيطان دام ركوعها

غداة ازاحت عن علاها عليها ورفع من جهل عليها وضيعها

وارجت تكافيك الصنيع فتارة بنار وأخرى سمها ونقيعها

وفي كربلا لم تبق منك بقية ليفنى عليها شيخها ورضيعها

وأخرى وقد لاحت لك قبة يلامس أبراج السماء سطوعها

عفتها لتعفي نورها وسموها وقد خاب، إلا أن تطول صنيعها

عزاء أبا الزهراء في كل بقعة تساوى عليها طفها وبقيعها

غدير دم

الحاج هاشم بن حردان الكعبي المتوفى سنة ١٢٣١هـ

انت الملوم فمن يكن الألوما فلك الظما هيهات معسول اللمى

ما طال ليلك بعد ليلي حيرة إلا وكنت بها كمثلي مغرما

لك في الظعائن سلوة لو امهلوا انى وقد ساق الركاب وهوما

أنى وقد ساق الركاب وأعجل الحا دي وانجد بالفريق وأتهما

افأنت طالب سلوة من بعدهم وتكون أنت كما زعمت متيما

يا سعد قف بي في المنازل ساعة نبكي فربة عبرة تشفي ظما

نبكي نفوس تقي تراق على الظبى ظلماً وأجساداً تغسلها الدما

نبكي لصرعى في التراب تخالها في الليل من فوق البسيطة أنجما

نبكي حرائر هتكت أستارها ... بعد الحجاب فأصبحت مثل الأما

نبكي على النفر الذين تتابعوا ... نحو المنون معظماً فمعظما

نبكي البدور الكاسفات بنورها ... ليل الضلال إذا ضلال أبهما

نفست بهم أرض الطفوف فلم تزل ... تجنى العظيم وتستفيد الأعظما

ولعت بكسف النيرات فاكسبت ... شرفا عليه الدهر تحسدها السما

قد كنت أحسب أن غاية كربها ... يوم قضى ابن محمد فيه ظما

فإذا الرزايا لا تزال بربعها ... فذا تطرق وبالخطوب وتوأما

بأبي غريب محمد وحبيبه ... بأبي وقل أبي وجملة من وما

لم تفت قارعة تحل بربعه ... حيا وتزعجه رميما أعظما

كتب البلاء على علاه كأنما ... فرض البلاء على علاه وحتما

حيا وميتاً لا يزال مجرعاً ... بأكف أهل البغي صابا علقما

يرمى كذبح الشاة يذبح بالعرى ... بل رب شاة منه كانت أكرما

ذبحا على ظمأ الفؤاد من القفا ... أرايت شاة ويك تذبح بالظما

ويروح يوما صدره متحطما ... فيهم ويوما قبره متهدما

خلقا توارثه البغاة وسيرة ... يقفو بها المتأخر المتقدما

أوما سمعت مصابها الثاني فقد ... جاءت بواحدة المصائب صيلما

تركت رجال الله قتلى حيثما ... وحريم آل الله ثكلى أينما

لعبت بهم أيدي الخطوب فأصبحوا ... نهباً بأيدي الظالمين مقسما

فتراهم فيها كما شاء العدى ... للسمر ريا والصوارم مطعما

يا للرجال ولا رجال لهذه ... الطخيا التي أقوت من الدين الحمى

لمغسلين بما تفيض نحورهم ... لمكفنين مدارعا لم تلحما

لمطرحين بغير دفن بالعرا ... تغذو السيوف لحومهم والأعظما

لموحدين الاههم لم يجعلوا ... معه سواه ولا أتوا ما حرما

للصائمين نهارهم لم يبرحوا ... للقائمين بليلهم أن اعتما

للواصلين هناك رحم نبيهم ... تركوا تنعمهم وعافوا الأنعما

لمهــــاجرين إلى المهـــيمن حــــسبة ... جعلـــوا الـــشهادة للـــسعادة ســـلما
صـرعى تنـوش جـسومهم وحـش الفـلا ... والطـــير تغـــدو مـــن عليهـــا حومـــا
تـــرد الـــسباع لحومهـــا وجـــسومها ... فينـــازع الـــسرحان فيهـــا القـــشعما
للـــراكعين الـــساجدين العابـــدين ... الحامـــدين لـــربهم رب الـــسما
يـا ليـت شـعري مـن أنـوح لـه ومـن ... أبكـــي ومـــن أغـــدو لـــه متألمـــا
لـــدعائم الإســـلام ســـاعة ضعـــضعت ... أركانـــه للـــدين ســـاعة هـــدما
لـــشعار أهـــل الحـــق يمحـــق نورهـــا ... بغـــضا لقـــبر ابـــن الـــنبي مهـــدما
لرجـــال ديـــن الله والقـــوم الأولى ... بـــضياء نـــور بيـــانهم يجلـــى العمـــى
لمحمـــد علـــم العلـــوم بأســـرها ... لأخـــي التقـــى الفيـــاض غيثـــا إن همـــى
للحـــبر عـــين علـــي مـــصباح الـــدجى ... في ليلـــة يتلـــو المـــبين المحكمـــا
لأخـــي النهـــى والفـــضل غـــير مـــدافع ... علـــم الكـــلام العـــارف المتوســـما
أم للفتـــى العلـــوي صـــادق قولـــه ... بالـــسيف جـــسده النجيـــع وعنـــدما
أم للفتـــى الـــسامي علـــي إذ غـــدا ... ينحـــو الـــردى بـــادي الـــشجاعة معلمـــا
مـــازال يخطـــر بالحـــسام مجاهـــدا ... حتـــى غـــدا بالمـــشرفي معممـــا
بـــأبي وأمـــي عـــافرون علـــى الثـــرى ... يقـــضي وتحـــسبهم هنالـــك نومـــا
ظفـــروا بقـــصدهم وبـــت معلـــلا ... مـــا بـــين ربتمـــا وبـــين لعلمـــا
ســـبقوا إلى الجنـــات في غايـــاتهم ... ســـبق الوفـــود لمـــنعم لـــن يـــسأما
غنمـــوا الجنـــان وظلـــت بعـــد فـــراقهم ... حلـــف المذلـــة مرغمـــاً أو مغرمـــا
ربحـــوا ببـــيعهم الـــذي قـــد بـــايعوا ... فـــاعرف مقامـــك أيـــن أنـــت مـــن النمـــا
أفـــردت نفـــسك عـــن ســـلوك طـــريقهم ... ورجـــوت تعـــدلهم فتـــأتي توامـــا
هيهـــات منتـــك الأمـــاني ضـــلة ... وأراك فيمـــا خلتـــه متوهمـــا
فـــارجع فلـــست أراك إلا خابطـــا ... فيمـــا تركـــب تاليـــا ومقـــدما
شـــأن الغـــواني صـــار شـــأنك لم تكـــن ... ألا تقـــيم عـــزاً وتنـــصب مأتمـــا
إن كـــان همـــك لـــيس إلا بالبكـــا ... فتكـــون نائحـــة وتـــسمع مغرمـــا
فلـــم ادخـــرت مـــن الـــسيوف مـــصمما ... لكريهـــة ومـــن الرمـــاح مقومـــا

ضعفا لرأيك حيث رأيك في البكا ... لا مقدما تلفي ولا مستقدما

ضلت أدلة معشر سودتهم ... إن كنت متخذا حياتك مغنما

يا للرجال ألا تقي عاطف ... يحنو على دين الإله ويرحما

يا للرجال ألا ابن منجية يرى ... أم كلكم يا قوم أبناء الاما

يا للرجال ألا ابن منجية يرى ... دينا فيغضب للإله فيقدما

يا للرجال ألا معود شيمة ... إن صح قول (سعود) ألا مسلما

إن صح ما منكم لرب مسلم ... أفلم يكن فيكم فتى يحمي الحمى

أفلم يكن فيكم مراع حرمة ... إن كنتم من ليس يخشى محرما

إن صح أن ولاء آل محمد ... وهواهم قد كان شركا أعظما

إن صح أن الواصلين نبيهم ... في آله يستوجبون جهنما

إن صح أن المسلمين بأسرهم ... ما فيهم لله من يحمي حمى

إن صح لا خلفاء بعد نبيهم ... أو لا أئمة حرموا ما حرما

بل كلهم باغ مضل مبدع ... إلا سعود فنوره يجلو العمى

وزمان الفي عام لم يك فيهم ... أحد لوجه آلهه قد أسلما

ويقول طه لم يزل في أمتي ... بالحق طائفة تقول المحكما

فمن المحقق أ أحمد في قوله ... أم جاهل ومن المصدق منهما

يا ناصر الإسلام يا بن محمد ... أكرم به نسبا وأعظم منتمى

يا بن الكرام أما تمن بلفتة ... عظم البلا وتجاوز الماء الفما

وترى حسام البغي كيف قد اغتدى ... برقابنا متمكنا متحكما

لا أشيبا تركوا ولا مستضعفا ... كلا ولا متضرعا متسلما

كم حرة مسحوبة مضروبة ... سلب اللئيم قناعها سلب الأما

مسلوبة الأطمار لم تر ساترا ... في الناس إلا كفها والمعصما

تختشى النهار من العيون إذا بدت ... إذ كان يسترها الدجى إن أظلما

كم ذات خدر أخرجوها عنوة ... من خدرها فغدا حريقا مضرما

قتل الرجال لشركهم في زعمه ... فالطفل أية جرمة قد اجرما

فبمسمع منك الذي قد عاينوا ... وكفاهم يا سيدي أن تعلما
قرت عيون الكاشحين شماتة ... وافتر ثغر الشامتين تبسما
فالى متى يا بن النبي إلى متى ... صلى الإله على النبي وسلما

تأريخ

وللحاج محمد رضا[1] بن محمد بن مهدي بن مراد الأزري البغدادي يؤرخ الواقعة بكل شطر منها:

أريحا فقد لاحت طلائع كربلا ... لنقبر أشلاء ونسعد مرملا
لنبكي دورا راعها قارع الردى ... فأوجف منها ما استقر وما علا
لعمري لقد عبت عليها مصائب ... وجلى عليها الرعب للحتف قسطلا
مبان محا أياتها الويل فانمحت ... وكلل ساريها الردى فتكللا
فكيف وحرف البين عاب بناؤه ... وفل برسميه ونوخ كلكلا
وهب بجو الدين يخفق برقه ... مصاب بجون الحزن أضحى مجلجلا
يقل بثجاج يزمجر برقه ... بوحف فيثني الدو بالدم أشكلا
وكيف وقد مدت صواعق رعده ... على طول ربع المصطفى فتزلزلا
فتلكم ربوع الدين قل بها الصدى ... وتلكم بيوت الوحي قد جاشها البلا
نوائب قد فاءت فهاجت نوائبا ... أمدت قنا العلياء في زمن خلا
ليبك التقى يوما أهب التقى ... ويا لك بينا زاد جسمي ضنى على
فوالهف قلبي لو شفي له ما عرا ... إذا ابن سعود جار أنجد كربلا
وقتل أطفالا وروح حسرا ... وجدل أشياخاً وبعد منزلا
وباكر من رأس ابن بنت محمد ... يبارز منه ما استنار وما علا
فما للورى في حيرة من يبابها ... وأعظم ببؤس ما أجل وأطولا
وهل عاد رزء الطف في الطف ثانيا ... أجل جل ثان تابع اليوم أولا

---

(١) ولد سنة ألف ومائة ونيف وثلثين وتوفي سنة ١٢٤٠ ودفن في الكاظمية مع شقيقه الشيخ الكاظم الشهير صاحب القصيدة الهائية المتوفي سنة ١٢١١ والشيخ يوسف المتوفي سنة ١٢١٣ ومقبرتهم معروفة عند المرقد المنسوب للسيد الشريف المرتضى.

ويـا لقـديم الملـك للفـادح الـذي — علـى تلعـات الـدين طـال وجلـلا
لأم شـهيد دونهـا متـشحط — وسـلوتها بعـد العزيـز تولـولا
لأصـبيبة قـد قلـد السـف نحرهـا — ومـسترجع قـد حـن يـدعو محـوقلا
لهانفـة مـا إن تجـد بركبهـا — يـرى الركـب منهـا كـل زبـراء مقـتلا
لحائمـة قـد زعـزع الـبين شملـها — وأوردهـا حـر الخطـوب وأنهـلا
لبارحـة لم يـبرح النـسك حلفهـا — دهاهـا القـضا فيمـا دهاهـا واجفـلا
لبانيـة صـاح الـنفير بعيرهـا — ومعولـة أودت هنالـك معـولا
لحـائرة بـالقفر جـد بهـا الجـوى — تـأن علـى حـزن وتنـدب منـزلا
لوالـدة عـادت لفقـد وليـدها — تحـن حـنين الملويـات إلى الطـلا
لعاريـة قـد قمـص الـدم فودهـا — ومجليـة أمـسى حـشاها مقلقـلا
لـسائلة مـن دورهـا في وعودهـا — وإن هـدأت عـج الـبلاء ممـثلا
لأبنيـة تبكـي لهـا نعـم النـدى — إذا العـام أمـسى صـاحب الـدوح ممحـلا
لـذبح رجـال بالمـساجد سـاجلوا — بمحكمـة التنزيـل مـن أمهـا إلى
لخـسف بـدور في منـازل أوجهـا — هـوت بعـد أن سـادت محـلا ومنـزلا
وحـاموا ببـذل الـنفس جـوداً لـدى العلـى — ألا هكـذا فليعـل بـالجود مـن عـلا
لكـل عزيـز قمـص الـذل واجمـا — ويـسمح أن يمـسي العزيـز مـذللا
وإن هـي إلا لـو تعطـف عزمـة — بنهلتهـا أحيـت فـؤادي المعلـلا
فمـا للـورى في دهـشة جـد جـدها — أفي كـربلا عـادت مـصائب كـربلا
فيـا قائـد الجـيش العرمـرم سـحبه — تزاهـر عـن ليـل مـن النقـع ألـيلا
بحيـث لـواء النـصر أسـدل فوقهـا — ونـص خطيـب الـسيف بـالوحي فيـصلا
كتائـب دلـت بالجبـال سـوانرا — إذا أنمـاط عنهـا جحفـل مـدجحفلا
طحـون متـى مـا الـروع جلجـل رعـده — تطلبهـا الفـتح الإلهـي مقـبلا
تحـج بـه الأمـلاك مثنـى وموحـدا — ويـسعى لهـا ريـح الفتـوح مهـرولا
إلام وهـا ضـاق الزمـان بوافـد — يـضج ولا سـاح يجـير ولا ولا
فمـن لـي وهـل مـن لـي يعـود بـشأوهم — ويرجـع صـرحى بالتـداني مكلـلا

وأسموا بها في حلبة المجد نزلة تكاد بها تهوي الزواهر آفلا
واسحبها في روقي الملك بردة تكاد بمعناها تمد السجنجلا
وفي طرف القرآن في قصص الأولى لنا دارس ما إن لها قارئ تلا
ويا مرقلا من فوق تلعاء حائل تجد هوادي الدو مرقى ومرقلا
متى يلمع البرق اليماني ساطعا تحوم على أم المتالع أجدلا
من البد ذات الفتل لو زج عمها على متلف حاكى الدمقس المفتلا
تدين لها الأعواد من عهد شد قم فاحبب به خيماً غريفاً و موئلا لك الله
فقف بإزاء القبر من منكب الحمى وناد بناديه الكمي المفضلا
ألا يا علي القدر دعوة مرهج يرد بصدر بالهموم قد امتلا
وأد له مني التحيات زائراً ومن بعد ما تبدي أساك تململا
وتعلو بهاتيك المعاهد نانحا حنانا فأنفاسا تجيش إلى الطلى
وكيف وقد زال الهدى بمضلل لمنزل حكم الدين أضحى مبدلا
ملاذا فقد طال المدى وجلى الندى وقام العدى مستسنمى سبق العلا
وكيف ترى مستعصماً دون طودكم وملجا سواكم إن بدت أزمة فلا
وساح بنا بين وحالت مسافة ألم يأن أن يسقي الحيا ذاوي الكلا
وجاء لارض الطف شر عصابة أذلاء زموا بالمدانس معقلا
فثم ابن سعد سن أفعال حقدد ونجل (سعود) قد توطاه لا تلا
فيا صاحبي رحلي أريحا سويعة لنبكي بها ظلي حبيب ومنزلا
أنيخا بها عقد النياق لتسألا مرابع عفو قد عفتها يد البلا
فيا لك من يوم تحدى بشره وآب على الأيام أنكب معضلا
وكيف وعامت في الليالي صروفه وزاد عناد في البلاء مضللا
ونادى به ناعي الصلاح مؤرخا ((لقد عاودتنا اليوم أرزاء كربلا))

وله أيضاً يخاطب ابن سعود في هذه الواقعة ويجادله:

ألم يأن أن يصغي إلى الحق غافل ويسلك نهج الاستقامة مائل
ويصحو ذو سكر ويبصر ذو عمى ويبرأ ذو سقم ويعلم جاهل

فهاتيك سبل المسلمين تفرقت   وشطت برأي المبدعين المحامل

وجاؤا بها نكراء مجهولة السرى   سوام بها سيد الغواية عاسل

فقل للأولى حادوا عن الدين ضلة   وبدر الهدى في هالة الدين كامل

تعالوا إلى قول سواء فبيننا   وبينكم ما فيه خلف وباطل

نراجع بما فيه اختلفنا من الهدى   مذاهبنا اللاتي بها الحق شامل

فإن تجنحوا للسلم نجنح لها وإن   أبيتم فحد السيف بالحق فاصل

ترى هل عسيتم إن توليتم بأن   تسنوا سبيلا تقتفيه الأراذل

ولم أدر ذا وحي عن الله جاءكم   حديثا فلم تدرك مداه الأوائل

أم الأمر ممن قد حكمتم بشركهم   أتاكم وكل في الشريعة باطل

ويا ليت شعري حيث قام زعيمكم   إذا لم يك الإسلام والدين زائل

فإن قال ابراهيم قد كان أمة   فذاك له الوحي السماوي نازل

وإن يدع بالبعض والبعض فليقل   لنا من أولاك البعض إن هو قائل

وإلا فكل مثل دعواه يدعي   إذا لم يصح نقل فما هو ناقل

وإن يزعموا ان الكتاب دليله   فكل فريق بالكتاب يجادل

على أنه ما نال في العلم شأوهم   ولا كان في أقرانهم لو تنازلوا

ولا نال ما نالوه من قرب عهدهم   وشتان ما منه غريب وآهل

ومن ير أهل الاعتزال وعلمهم   فنسبتهم منه إياس وباقل

على أنه لا نمتري بضلالة   فماذا عسى بالذكر يغني المجادل

وإن تسئلوا عن بعض ما اقترف الورى   من الإثم فالرحمن للتوب قابل

هبوا أنهم جاؤوا بكل كبيرة   فما ذاك كفر بل فسوق وباطل

بل الكفر تحليل الدماء التي أتى   بتحريمها الأجماع والذكر نازل

ولا خلف فيما ذلكم لو علمتم   وإن كنتم لا تعلمون فسائلوا

وتلكم زيارات القبور تواترت   نصوص بها مشهورة ودلائل

وجاءت إلينا عن يد بيد إلى   صحابة طه منهج متواصل

وقد دفن الهادي النبي بحجرة   محجبة تزجى إليها الرواحل

ومن بعد حلى صاحباد أزاءه … وبضعته والدين إذ ذاك كامل

وحلف بغير الله لم يجز عندنا … بحد ولا فيه لدى الشرع قائل

وإن جاء أحيانا ففيه كراهة … به نص أهل الاجتهاد الأفاضل

ونحن أمرنا باتباع سبيلهم … ومن حاد عن تلك السبيل فجاهل

ومن حرم التتن الذي لم يرد لنا … بتحريمه نص من الشرع فاصل

وما لم يحرمه الإله فعندنا … مباح وفيما ذلكم لا مجادل

وإن يستدل الشيخ في كل مسكر … حرام فقول الشيخ بالسكر باطل

فتعساً لشيخ خاض في الجهل لجة … غطامط لا يلفي لها الدهر ساحل

وصير امر الدين أحبولة الدنا … وما تلك للشيطان إلا حبائل

وإن غركم إن أجل الله نصرنا … فما ذاك إلا للفتوح دلائل

وهيهات يوم الغار من فتح مكة … الا إن نصر المسلمين لأجل

وإن قتل العبد المزنم سيدا … فليس ببدع ذاك حيث الأفاضل

فقد قتل الرجس ابن ملجم حيدرا … وأردى حسينا أخبث الناس جاهل

ومن فوقت أيدي القضا سهم حتفه … فكل الذي يلقاه في الدهر قاتل

وغير عجيب إن نبا بك صارم … وليس ببدع إن كبا بك صاهل

فما لأولاء القوم لم يسمعوا ندا … إذا ما دعوا للحق والحق فاصل

وإن أبصروا رشدا تناهوا بغيهم … وعند التناهي يقصر المتطاول

ولم أدر في الأبصار عن غيهم عمى … فلم يبصروا أم أبصروا وتغافلوا

أفي أي شرع أن تباع هجينة … بها لولي الأمر في الحق طائل

وسيان أن تسرق مها وجمالة … إذا ما أقام الحد قاض وعامل

وهل جائز ذبح الرضيع بسرعة … فهاتيكم الأديان طرا فسائلوا

وكان رسول الله في كل حربه … للإسلام أخل الشرك في الحرب قابل

فإن قلتم في ردة بعد فطرة … ففي الشرك من أبائنا لا نجادل

وفي الأمس انتم حاكمون بشركهم … بناء لعمر الله بالنقض هائل

وإن قستم لما راوا بأسنا بها … فذاك قياس فارق ومزائل

ولو جاز هذا جاز بالعين حلفنا ... كما حلف الباري قياس مماثل

وقد أورد الله الردى أولياءه ... فهل أحد ما يفعل الله فاعل

فيا قوم هبوا من مضاجع جهلكم ... ولبوا لداعي الله فالأمر هائل

ولا تعبثوا في الأرض فالله غالب ... على أمره سبحانه لا يناضل

وكلمته العليا تعالى بشأنه ... مدمر عاد إذ عتوا وتطاولوا

ومن قبلكم فيها مسيلمة عتا ... فدارت عليه الدائرات القواتل

ومن قبل أهل (الرس) باؤا ببغيهم ... وغالت بهاتيك القرون الغوائل

فتلك ديار القوم ينعى بها الصدى ... خلاء بها تعوى الذباب العواسل

كأنهم لم يلبثوا غير ساعة ... بلاغ فهل يبغي بها اليوم عاقل

وسرعان نزجيها إليكم سحائبا ... صواعقها بيض الظبى والعوامل

عليها من الفتيان كل موحد ... أشم طويل الساعدين حلاحل

يذب بها عن بيضة الدين قائلا ... (ألا في سبيل الله ما أنا فاعل)

من القوم لم يرضوا سوى الصعب مركبا ... وليس لهم إلا السيوف وسائل

غطاريف طلاعون كل ثنية ... تناذر في الأقطار منها القبائل

واساد غيل غيلها حومة الوغى ... ولا مخلب إلا القنا والمناصل

إذا ما الملوك الصيد طالوا بمفخر ... فما منهم إلا سنام وكاهل

ولو خفقت تحت العجاج بنودهم ... لكانت لها الشم الرعان تهايل

صواد إلى شرب الدماء كأنهم ... من البزل هيم عارضتها المناهل

يقرون أن الأمر لله وحده ... وكل له داع وإياه سائل

ولم ينكروا للأنبياء مزية ... ولا لرجال الله والله فاعل

أولئك هم حزب الإله وجنده ... إذا ما دهى الإسلام أفظع نازل

ومن قبل دعوى الصيد كادت تغيظها ... فلم تكترث هولا بهم أو تطاولوا

بلى منذ وافتنا رسائل من لدى ... صعاليك نجد أضحكتنا الرسائل

واغلب من جادلت من ليس يرعوي ... واقتل من حاولت من لا يماثل

واعلمنا في الدين من هو عالم ... واجهلنا بالدين من هو جاهل

يمينا برب البدن تنحر في منى ... صباح منى والحج هاد وغافل

وأول بيت قام في الناس للذي ... ببكة فيه للعصاة معاقل

ومختلف الأملاك في ملكوتها ... لهم عارج بالأمر منه ونازل

لذاك اعتقادي قد امطت حجابه ... ولا منه بُد لي ولا عنه حائل

ورثناه عن آباء صدق افاضل ... حبتهم به آباء صدق افاضل

بهذا تواصت قبلنا قدماؤنا ... ونحن على آثارهم نتناسل

إلى مثل ذا فليسع من كان ساعياً ... منازله منه عليه دلائل

فإن كان قدحي لم يطش وهو لم يطش ... ستكثر في تلك العراص الثواكل

ويصبح في ايدي القبائل فيئهم ... تقاسمه أيمانهم والشمائل

وهل أمنوا اهل القرى أن نزورهم ... بغاشية قد ظللتها القاطل

وهل أمنوا أهل القرى أن نحلهم ... بياتا وكل راقد الطرف غافل

وهل أمنوا اهل القرى أن نشلهم ... صباحا وكل في الضلال يجادل

بجلجلة مبراقة الجو حشوها ... شفار المواضي والعتاق الصواهل

إذا طالعت نجدا أقلت بشمه ... جحافل حين أردفتها جحافل

تدور بمرداة طحون عليهم ... لها لهوات للجيوش أواكل

وتعرك روقى كل أرعن شاهق ... تكاد تحك السحب منه الأباطل

إذا الحرب عن أنيابها العضل كشرت ... وحطت على الأفاق منها كلاكل

أقلت بها سوداء ضر يحوقها ... لفيف من الجند السماوي نازل

تعوم بثجاج من الدم واطف ... إذا غاب منه هاطل عب هاطل

تنوء بأعباء الردى أحمدية ... لها صاعد تحت السماء وتنزل

لها شرر لو طار عن قبساتها ... لكادت لها تحكي الجمال البوازل

ويا قوم سمعا ما أقول فإنها ... لتذكرة فيها هدى ودلائل

حذار فقد أنذرتكم بزواجر ... تناشد غطفانا فتسمع وائل

فإن تنتهوا يغفر لكم ما مضى وإن ... تعودوا فما غير البنود رسائل

وساء صباح المنذرين إذا هوت ... صواعقها في أرضكم والزلازل

وله في ذكر الواقعة أيضاً ورثاء قتلاها وتاريخها والقصيدة طويلة تشتمل على ١٠٣ بيت نذكر منها:

خطب على الطف قد غشى بطوفان ... فجل عن جانبيه كل بنيان
فما انجلت عن ضواحيه غياهبها ... حتى التقى الدم غدرانا بغدران
الله أكبر أي القارعات رمت ... جرثومة الدين فانثلت باركان
قتلى ترى الدم يجري حولهم دفعا ... كأنهم كثب من حول نهران

❖❖❖

وارحتما لروعات ضمائرها ... على مصارع أشياخ وولدان
لم ندر أي الرزايا نشتكي ولما ... نعج هتك حمى ام جر أذقان
من كل عاثرة بالذيل من دهش ... حسرى تحوقل عن سر وإعلان

❖❖❖

يا ليت شعري وما ليت بنافعتي ... لو يحضر المصطفى في ذلك الأن
وينظر الحائر القدسي مسلخ جز ... ار وأولاده جاثين كالضان
كأن أجسامهم قد ضرجت بدم ... در يناط عليه سمط مرجان

❖❖❖

رزء تحار له الرهبان لو سمعت ... من دير سمعان لا بل دير سمعان
أو طاق كسرى بن ساسان يعيه إذن ... لصدع الطاق من كسرى بن ساسان
يا غيرة الله للأرحام جانحة ... لرضع ما أتوا يوما بعصيان
لنبش قبر ابن بنت المصطفى لدم ... يجري عليه بتشريق وتهتان
لشيبة خضبت بالدم وهي على ... محرابها بين مصباح وقرآن
لفتية دفنوا من غير ما غسلوا ... ولا تزود كافور واكفان

❖❖❖

للمرضعات اللواتي كلما هدأت ... ترى مصارع أشياخ وولدان
للعاريات اللواتي بعدما سلبت ... ظلت تواري بأحقاف وجدران
لكل عشر سليبات تستر في ... عباءة بين اخفاء وإعلان

لمعشر محضوا الإيمان واعتصموا … بالصبر والصبر مرسى كل إيمان
لقتل خمسة آلاف بآونة … من النهار سوى المستشرف الفاني
لثار خامس أصحاب الكساء ومن … به المباهل طاها ركب نجران
لثار ريحانة الهادي وسيد شبا … ن الجنان من الإنسان والجان
من العزيز على سبط النبي به … أن يستجار ولا يرعى لجيران
تا الله لا (بخت نصر) إذا عتا وبغى … بمثلها جاء في كفر وطغيان
كلا ولا فعلت أجناد (ابرهة) … معشار ما فعلوا من هدم أركان

❖❖❖

لم أدر أي رزاياهم أعج لها … لذبح أصبية أم هتك نسوان؟
مصائب لو أراد الفكر يردفها … زيادة لانثنى عنها بنقصان
ومن راى يوم تشريق بغير منى … وهديه الغر من أبناء عدنان
سن (ابن سعد) سبيلا واقتدى (ابن … سعود) الشقي به ضل الشقيان
يقول في رزها الأدهى مؤرخه … ((في كربلاء دهانا رزؤها الثاني))

الغزو الوهابي للنجف

✍ أبو الحسن بن الشاد كوثر النجفي سنة ١٢٢١هـ

بشرى لمن سكنوا كوفان والنجفا … وجاوروا المرتضى أعلى الورى شرفا
مولى مناقبه عن عدها قصرت … كل البرايا ولم تعلم لها طرفا
منها (سعود) كساه الذل خالقه … ولم يزل بنكال دائم وجفا
أراد تهديم ما الباري يشيده … من قبة لسقام العالمين شفا
وجمع الجيش من آل الحجاز ومن … سكان نجد ومن للظالمين قفا
وقد أتى الناس قبل الفجر في صفر … بتاسع الشهر نحو السور قد زحفا
مقسما جيشه أقسام اربعة … كل له سائق يعنيه أن وقفا
حتى اتى السور قوم منهم فرقوا … ففاجئوا حتفهم في الحال قد صدفا
وصف بالباب قوم مكثرين لها … من المعاول في حزب قد ارتدفا

والنـاس في غفلـة حتـى إذا انتبهـوا ... أعطـوا الثبـات وباريهم بهـم رؤفـا
فهزمـوا الجنـد نـصرا مـن إلاههـم ... والـسوء عـنهم بعـون الله قـد صـرفا
ورد سـلطان نجـد مـلء أعينـه ... حزنـا وقـد بـاء بالخـسران وانـصرفا
فـلا الـسلالم والأدراج نافعـة ... بـل ربنـا قـد كفانـا شـرها وكفـى
وقـد طـوى الله وقـت الحـرب في عجـل ... لأنـه لم يكـن مـا كـان قـد وصـفا
ولم ينـل غـير قتـل في جماعتـه ... والكـل في عـدد القتلـى قـد اختلفـا
وكـان قـد بـان نجـم الـصبح اولـه ... ومنتهـاه طلـوع الفجـر حـين صـفا
وثـم معجـزة أخـرى لـسيدنا ... في ذلـك اليـوم مـن بعـض الـذي سـلفا
قد كـان في حجـرة في الـصحن مـا ادخـروا ... وجمعـوه مـن البـارود قـد جرفـا
أصـابه بعـض نـار ثـم بردهـا ... مـبرد نـار إبـراهيم إذ قـذفا
فـلا تخـف بعـدما عاينـت مـن عجـب ... ولا تكـونن ممـن قلبـه رجفـا
وقـر عينـا وطـب نفـسا فإنـك في ... جـوار حـامي الحمـى قـد صـرت مكتنفـا
وقـال في خـبر: كوفـان في حـرم ... مـا امهـا مـن بغـى إلا وقـد قـصفا
ومـذ تقطـع قلـب الجـور أرخـه ... ((نحـس بـدا لـسعود إذ دنـا النجفـا))[1]

إصدار الفتوى في هدم قبور الهاشميين

✍ الشيخ علي البازي

احتـل الـسعودي الحجـاز لمـا ... عنـه انجلـى مليكـه الوقـور
وسـار نحـو يثـرب بجـيش ... معظـم قـد عمـه الحبـور
قاضـي القـضاة في البقيـع أودى ... بأهلـه وهـزه الغـرور
وسـاءه وضـع قبـور فيـه ... فيهـا يـشع للأنـام نـور
افتـى كمـا شـاء هـواه آن لا ... يبقـى علـى الأرض لهـا ظهـور
إن تحـذف (الفـرد) يجبـك أرخ ... ((تهـدمت مـن أسـها القبـور))

---

(١) يشير في صدر البيت إلى زيادة الواو في كلمة الجور لأنه قلب الكلمة وهو بحساب الجمل ستة.

إعادة بناء البقيع

اعـــلام افــــراح المـــوالين قـــد تنـــشرت والبـــشر عـــم الجميـــع
هـــل ظهـــر الحجـــة أرخــــت ام ((أعيـــد تـــشييد قبـــور البقيـــع))
مع الأسف لم ينفذ كابر العلماء والملوك

هدم قبور أئمة البقيع

الشيخ عبد الكريم الممتن

لعمـــرك مـــا شـــاقني ربـــرب طفقـــت لتـــذكاره أنحـــب
ولا ســـح مـــن مقلـــتي العقيـــق علـــى جـــيرة فيـــه قـــد طنبـــوا
ولكـــن شـــجاني وفـــت الحـــشا أعاجيـــب دهـــر بنـــا يلعـــب
وحـــسبك مـــن ذاك هـــدم القبـــاب فـــذلك عـــن جـــوره يعـــرب
قبـــاب بـــرغم العلـــى هـــدمت وهيهـــات ثاراتهـــا تـــذهب
إلام معاشـــــر أهـــــل الإبـــــا يـــصول علـــى الأســـد الثعلـــب
وإن صـــعب الأمـــر في دركهـــا فـــترك الطـــلاب بهـــا اصـــعب
الـــيس كمـــا قـــال تاريخـــه ((بتهـــديمها انهـــدم المـــذهب))

١٣٤٥هـ

وقال أيضاً:

يـــا دهـــر اف لـــك كـــم ابـــديت في تقلبـــك
لـــيس يكـــاد ينقـــضي تعجـــبي مـــن عجبـــك
رفعـــت مـــن خفـــضت مـــن خلبـــت مـــن بمخلبـــك؟
حـــسبك يـــا دهـــر الخنـــا مـــا نابنـــا مـــن نوبـــك
اقمـــت أعـــلام التقـــى بـــين يـــدي مناصـــبك
في موقـــف اظهـــرت مـــا اضـــمرته مـــن نـــصبك
دعـــوت أربـــاب الهـــدى إلى اتبـــاع مـــذهبك
يـــا أيهـــا الـــرجس الـــذي افرطـــت في تغلبـــك

خفـــض عليـــك أيهـــا ... الخـــؤون في تعـــصبك
فقـــد دنـــى بـــوار مـــن ... منحـــت صـــا في مـــشربك
إنـــي لأرجـــو الله أن ... تؤخـــذ في تقلبـــك
بـــأبيض مـــن لمعـــه ... جـــلاء داجـــي غيهبـــك
فتخـــسر الـــدنيا كمـــا ... خـــسرت في منقلبـــك
حتـــى م ياغيـــث الـــورى ... تلبـــث في تحجبـــك
حلمـــت حتـــى آمنـــت ... أعـــدائكم مـــن غـــضبك
فكـــان مـــا آن بـــه ... ظهـــور نـــور كوكبـــك
مـــن نـــوب تنبـــأ عـــن ... قـــرب قـــدوم موكبـــك
كأنهـــا تاريخهـــا ... ((تبـــشر الـــشيعي بـــك))

١٣٤٥هـ

وله أيضا مؤرخاً هدم قبور أئمة البقيع عليهم السلام:

غـــيرة الله إلى م الاصـــطبار ... ورحـى الكفـر علـى الـدين تـدار
اقعـــوداً وذه شـــيعتكم ... نالهـا فـيكم هـوان وصـغار
لـــيس إلاك لهـــا مـــن ناصـــر ... قـم فقـد طـال علينـا الانتظـار
معـــضل هـــد بـــه ركـــن الهـــدى ... وورت في مهجـة الإيمـان نـار
يـــا لـــه مـــن فـــادح تاريخـــه ... ((قـد دهـى الإسـلام ذل وانكسار))

١٣٤٥هـ

وقال أيضاً:

خليلـي أهجـراً طيـب الهجـوع ... وتـذكار الأحبـة والربـوع
وجـدا في المـسير بـيعملات ... بـرئن مـن البرى ومـن النسوع
يجـوب مديـد اربعهـا طـويلاً ... خفيفـاً عـاد بالـسير الـسريع
إلى نـادي الـذين إذا ينـادي ... بهـم لبـسوا القلـوب علـى الـدروع
هـم الفـرس الفـوارس يـوم روع ... إذا التقـت الجمـوع مـع الجمـوع
فقـولا يـا حمـاة الـدين هبـوا ... أصـيب الـدين بالخطـب الفـضيع
دهـا الإسـلام رزء قـام يـدعو ... مؤرخـه ((لثـارات البقيـع))

١٣٤٥هـ

شكوى وعتاب بعد أحداث البقيع

الشيخ هادي الشيخ عباس كاشف الغطاء

عجباً لقوم مسلمين بزعمهم ... تاهوا وفي بحر الجهالة عاموا

قد أوجبوا هدم القبور وحللوا ... سفك الدماء وسفكهن حرام

وتمسكوا لهواهم بوسائل ... عن مثلها لا تصدر الأحكام

ما راجعوا فيها أئمة عصرهم ... حتى يزول الشك والابهام

لم تأت في هذي المقابر بآية ... تتلى ولا نص ولا اعلام

أما حديث ابي الهياج فلم يكن ... نصاً وفيه النقض والإبرام

والهدم من بعض الفروع ومثله ... قدماً كم اختلفت به الأعلام

لو كان اصلا كالمعاد لكان في ... إنكاره التنكيل والإعدام

قد بان دين الله جل جلاله ... مضت الشهور عليه والأعوام

لا فرق بين كتابه ووليه ... كل له التبجيل والإعظام

الكل فيه يهتدي وبنوره ... يسعى ومنه تؤخذ الأحكام

ما ضم جسم وليه وكتابه ... صنوان كل حقه الأكرام

لو أن تعظيم البنية موجب ... للهدم هدم معبد ومقام

ولكل مرء ما نواه ومن نوى ... تعظيم خالقه فليس يلام

إن السجود لآدم لو لم يكن ... لله لم يك منهم أقدام

لو كان تهديم المقابر سنة ... يدعو إليها الدين والإسلام

لاستحسنته المسلمون ولم يكن ... منهم لذلك منكر أو ذام

ولما غدا من هوله ووقوعه ... في كل قلب موجد إيلام

ولما شكت مصر وناحت فارس ... وبكى العراق لوقعه والشام

الله يا ملك الحجاز ومن به ... يحمي الحمى والجار ليس يضام

ايهون عندك أن تهان مراقد ... للآل فيها منزل ومقام؟

ويباح سفك دم لقوم بينهم ... تتلى العزائم والصلاة تقام

ويرون أن الحج فرض واجب — والصوم حتم والزكاة لزام
اتقلد الشذاذ أمرك طائعاً — وتسيم سرح الرأي حيث أساموا
فارجع إلى وجدان نفسك إنه — حكم إذا ما زلت الحكام
وانهض لتمحي عنك وصمة جائر — باغ تسجل عارها الأيام
وتلاف هذا الأمر قبل فواته — من قبل أن يردى النفوس حمام
واستدرك الخطأ الجلي بعزمة — منها تدكدك يذبل وشمام
ما العذر والقدر الخطير مساعد — والدهر عبد والزمان غلام
حاشا لمثلك أن يميل به الهوى — وتصده الشبهات والأوهام

استنهاض العرب بعد واقعة البقيع

الشيخ حسن بن الشيخ كاظم سبتي

ماذا التقاعد نهضا يا بني العرب — دعوا تخاذلكم واجثوا على الركب
وجردوا البيض لا شلت أكفكم — وفلقوا البيض بالهندية القضب
وقوموا السمر لا كلت سواعدكم — عن هزها كي تنالوا أعظم الغلب
شنوا المغار لأخذ الثار وانتشطوا — قب المهار تنالوا أرفع الرتب
ما بالكم قد قعدتم والعدى ثبتوا — نهضاً بني يعرب بالجد والطلب
قد جد أعداؤكم في محو ذكركم — وأنتم في الغنى لاهون والطرب
آل النحوس أتت تترى جيوشهم — على سلاهبهم في سيرها الخبب
لم يرقدوا ليلهم يا ليتهم رقدوا — ولم يفيقوا ولم يعلو على النجب
سروج خيلهم صارت مهادهم — عن الوسادة يعتاضون بالقتب
وأنتم قد رقدتم لم تثر لكم — جرد عتاق إلى حرب ولم تثب

جبل الدورز والريفيين

إن الدروز وأهل الريف لا عدموا — عداهم اللوم كم قاسوا من الكرب
جثوا وقد صبروا صبر الكرام على — حر الجلاد بأنواع من النوب
وقاوموا عصباً حفظاً لدينهم — تباً لها كفرت بالله من عصب

وانـــتم يـــا بـــني قحطـــان في ســـنة ... وغفلـــة عـــنهم باللـــهو واللعـــب

كـــأنكم خـــشب تلقـــى مـــسندة ... فـــلا حـــراك ولا أرواح في الخـــشب

العراق

أيـــن الأفـــاعي العراقيـــون مـــن قطـــرت ... أنيـــابهم في الـــوغى سمـــا لـــدى الغـــضب

واحـــسرتاه علـــى تلـــك الأســـود مـــضت ... عنـــا وكنـــا نظـــن الخـــير في العقـــب

لم تبـــق غـــير رمـــاد بعـــد مـــا خمـــدت ... نـــار الـــوغى بعـــد ذاك الوقـــد واللـــهب

أوهـــى لهـــم كـــم بهـــم قـــد ســـد ثغـــرهم ... فكـــم وكـــم شـــيدوا للعـــز مـــن طنـــب

مـــاذا القعـــود وقـــبر المجتبـــى هـــدمت ... أركانـــه بـــين أهـــل الـــشك والريـــب

نخوة العرب

والـــدين في عـــصركم أعلامـــه طمـــست ... ولم يـــضق بكـــم صـــدر الفـــضا الرحـــب

يـــدعو أســـيرا ولا فـــاد فينقـــذه ... مـــن الأســـار ببـــذل الـــنفس والنـــشب

إن لم تقيمـــوا لقـــبر المـــصطفى علمـــا ... لم يـــستقم علـــم للعـــالم العربـــي

أولم تـــشيدوا إلى ســـاداتكم قببـــا ... تظـــل أشـــباح ســـر الـــسبعة الحجـــب

لم ترتفـــع لكـــم بـــين المـــلا قبـــب ... ولا عـــذاراكم يحجـــبن في قبـــب

يـــا للحمييـــة يـــا للمـــسلمين أمـــا ... مـــن ثـــائر صـــابر في الحـــرب محتـــسب

إن لم تحـــاموا عـــن الـــدين الحنيـــف فمـــا ... دراتم بعـــد ذا في الـــدهر عـــن حـــسب

وإذ بمكـــة يـــسري بيـــنكم ابـــدا ... لأمنـــا محمـــل يختـــال بالـــذهب

ولا نـــرى هودجـــاً في الحـــج بيـــنكم ... لـــسيد الرســـل محمـــولا علـــى قتـــب

دعـــوا تباغـــضكم خلـــوا تـــشاحنكم ... تقـــضوا بهـــا كلمـــا تبغـــون مـــن أرب

حـــان اتحـــادكم حـــان ائـــتلافكم ... حـــان اتفـــاقكم يـــا معـــشر العـــرب

حانـــت مـــساواتكم حانـــت اخـــوتكم ... حانـــت مواســـاتكم في البعـــد والقـــرب

قومـــوا غـــضابا لنـــصر الـــدين إنكـــم ... لنـــصرة الـــدين أحـــرى اليـــوم بالغـــضب

حوادث مكة بعد الشريف حسين

أم القـرى أصبحت بعـد الحسين فيـا | لله مسلوبة الأستار والحجب

بهتكهـا اليـوم كـم مـن حرمـة هتكـوا | وأصبح الـرأس مرؤسـا إلى الـذنب

عـز الحجـاز قفـا إثـر الحسين فـلا | ينفـك منـه وعنـه قـط لم يغب

مـا غـاب عنـا حسين لا ونجوتـه | ففيصل والخـير في العقب

الملك فيصل الأول

صح بـالعراق أبـا الغـازي ونـاد بهـم | يجبـك كـل غيـور حاسـر وأبـي

فيـه رجـال قـرى فيـه ليـوث شـرى | فيـه كمـاة وغـى تجثـوا علـى الركـب

فاصـدع لـك الأمـر واسـتنقذ خلافـتكم | إن الخلافـة فـيكم يـا ذوي الرتـب

تنام عينك والأعداء قد خفقت | اعلامهم عنها ظعنتم بعز البيت

عـزت وجلـت بكـم دهـرا فحـق بـأن | تكسى حـداد مـدى الأزمـان والحقب

أبـوكم الحجـر ينعـاكم ويندبكم | والبيـت يبكـي بـشكل منـه منـشعب

أوحـشتم الحجـر الـسامي ببعـدكم | والـركن حـن بقلـب منـه مكتئـب

فـانهض لثـاراتكم يـا بـن الحسين وهـج | مـن أكثـر الرمـي في الهيجـاء لم يخب

وسـل للثـار مـصقول الغـرار تنـل | مـا رمـت بالـسيف واكسر جفنـه تـصب

سلطان اليمن الإمام يحيى

يـا مـدلج الـسير في مـشبوبة[1] قطعـت | بيـد القفـار طـوت سـهلا علـى حـدب

تعمـى نهـارا وطـول الليـل مبـصرة | زمنـى بـلا ارجـل خفـت ولا ركـب

تمـوت إن بـردت تحيـي إذا حميـت | رعاؤهـا الزيـت لا بالنبـت والعـشب

رعـد إذا زارت بـرق إذا خطفـت | لـدى المسير تلـف البعـد بـالقرب

دهمـاء لم يعلـها فحـل وقـد حملـت | خمـسا وإن وضـعت تلقـى بـلا تعـب

غريبـة صـبحها تمـسي بمـشرقها | لم تعيـا مـن كلـل كـلا ولا لغـب

---

(١) يقصد بالمشبوبة: السيارة.

تطوي المفاوز ما زلت لها قدم … تظمى ولكنها لم تشك من سغب

تسير من كرخ بغداد صبيحتها … وإن دجى الليل باتت في ربى حلب

قد كونتها لنا الأفكار فاخترعت … من غير روح فمهما حركت تثب

من عالم الكون حقا بيننا برزت … بجودة العلم لا باللهو واللعب

هذي العلوم وهذا فضل نائلها … عليك طالبها بالجد والطلب

فأدب النفس واجهد في العلوم لكي … تنال حظا فترقى غاية الرتب

فسر بها لا ترح في بلدة أبدا … واحبس بصنعا بدمع منك منسكب

ولا تجزها ولح أعلى مناسمها … واهتف بحامية الإسلام ذي النسب

العالم الماجد القرم الذي اضطربت … منه الأعادي شريف الإسم واللقب

يحيى الإمام من إنقاد الأنام له … يحيي نفوس الورى ذكر اسمه العذب

فانزل وحي حماة واخضعن كرما … واصرخ ونح واندبن غوثاه وانتحب

وقل اتيتك محزون الفؤاد فقم … وانثر بسيفك وانظم بالقنا السلب

واهتف بقومك يا بن الأكرمين ترى … تترى الغلب فوق الضمر العرب

تجبك يا بن حميد الدين طائعة … وما لها غير نصر الله من ارب

أدر رحى حربها يا قطب دارتها … فلا تدور رحى إلا على قطب

فأنت من معشر غر سيوفهم … قد حليت بدم الأبطال لا الذهب

أبوهم السيف والهيجاء أمهم … لم يخش واحدهم حربا ولم يهب

اما ترى قصرت أعمالهم ففنوا … لم يكتهل أحد منهم ولم يشب

نماهم حيدر فالحرب عادتهم … والضرب عندهم أحلى من الضرب

أسد إذ أغضبوا عند الوغى ارتجزوا … أما الكراسي وأما اللحد في الترب

فانهض معافى رعاك الله انت لنا … حقا عميداً فترعانا وخير أب

لا نبتغي غير آل الله تراسنا … يا آل هاشم أنتم نخوة العرب

إنا بنو يعرب لا نرتضي أبدا … مليك سوء لئيم الأصل والحسب

فسر بجيشك مرفوع اللواء إلى ... خفض العدو رماه الله بالتبب[١]
وناد ثم ملوك المسلمين يجب ... كل بثاقب عزم منه ملتهب

السلطان رضا شاه

البهلوي الرضا يا من بجحفله ... وبالمدافع يرمي القوم بالعطب
ترى خوافقه مثل النسور لها ... من فوقهم رجل كالرعد في السحب
أكرم به ملكا للمسلمين سمت ... إيران فيه فدانت دارة الشهب

أمان الله ملك الأفغان

وملك افغان أرعى للهدى ذمما ... فكيف وهو أمان الله في الرعب
ملك عظيم علي القدر ذو شرف ... فكل ملك عظيم منه في رهب
لسوف يقصد بيت الله منتقما ... ممن أباح له سرا ولم يهب

ملك مصر

وملك مصر فؤاد من قد اعترفت ... له الملوك بسامي الفضل والأدب
هو الغيور يقود الجيش منتحيا ... لطيبة ثائرا فيها بخير نبي
نعماهم كم بهم قد عز جانبنا ... فدام سلطانهم يقوي مدى الحقب

ما جرى في مكة المشرفة

وأمّ أم القرى بابن الزكي به ... حتى توافيها في جحفل لجب
وسل بمكة عما أوقعوه بها ... كم من قتيل عفير في الثرى ترب
ومن جليل علي الشان ذي خطر ... قد بعدوه بريئا غير مرتكب
وسيد ذي علا سام وذي شرف ... ومن أسير ومسجون بلا سبب
ومن ربائب خدر بينهم هتكت ... استارهن واخرى في يد السلب
فما الجواب لحوا أمكم وغدت ... ما بين أولادها في مرقد خرب
وما جنت أمنا ذنبا خديجة إذ ... أمسى ثرى قدسها نهبا لمنتهب

---

(١) التبب: النقص.

الطائف

وسل عن الطائف السكان ما رحموا   شيخاً وكهلا ولا طفلا لهم وصبي
فكم ببستانها أجروا سيول دم   ما بين منجدل في جنب مختضب
وكم ذوات خدور قد برزن بها   مهتكات بلا ستر ولا حجب

المدينة المنورة

لا أنتم للمعالي بعد كعبتكم   إذ بعدها هتكوا قبرا لخير نبي
ماذا التقاعس والأعداء قد درسوا   من البقيع قبور السادة النجب
ما كان ذنب رسول الله قد كشفوا   حجابه ظله بغيا بلا سبب
ما ذنب بضعته الزهراء فاطمة   وقبرها ضاع يا لله في الترب
سل طيبة عنهم لا طاب عيشهم   فكم بها هدموا قبرا لكل أبي
من عالم أو صحابي وذي شرف   وهاشمي مناف ومطلبي
أهكذا حرمة الصديق قد هتكت   أليس في قبر خير المسلمين خبي
أهكذا عمر الفاروق قد هتكوا   محله إن ذا من أعجب العجب
ما ذنب عثمان ذو النورين قد درسوا   مقامه إن ذا من أعظم الكرب
فيا له حادثا قد عم فادحه   كل البرية من عجم ومن عرب
وفجعة دابت الصم الصلاد لها   فأي قلب بهذا الرزء لم يذب
ونكبة عمت الأقطار قاطبة   ما مثلها نكبة في سالف الحقب
قد شاب راس الهدى من عظم موقعها   فأي فود لدين فلم يشب
يا صاحب الأمر ضاق الأمر قم عجلا   بمثلها الدين قبل اليوم لم يصب
أدرك فداؤك كل الخلق دينكم   واكشف كروبهم يا كاشف الكرب
وأحي ذكر علي في الحروب فكم   سقى عداه كؤوس الروع والرهب
وناج سيفك سرا خوف ذي جنف   فليتبع الرأس عند القطع بالذنب

أئمة البقيع

الشيخ عبد المنعم الفرطوسي

سقتك من العيون الداميات مآقيا قبور بني الزهراء منا الغواديا
وما قيمة الدمع السفوح تذيبه عيون من الآلام أضحت دواميا
وليس عويل النائحات بنافع وإن ملأت سمع الزمان نواعيا
إذا الثار لم يطلب فتخمد ناره بفيض دم كالنار يذكي المذاكيا[1]
وتنسخ في بيض الصفاح من العدى صحائف عار سودتها مخازيا
فلا هدأت عين وللثار جمرة محرقة تذكي العيون البواكيا

❖❖❖

هو الظلم باسم الدين تبني أساسه من المكر أضغان تزيل الرواسيا
بسيف بها النصب الدفين فتعتلي على قبة الدين الحنيف خوافيا[2]
أتهدم في شرع النبي محمد قبور بنيه الطاهرين مبانيا
على حين تبني كل حين شواهق من البغي في أيد تشيد المباغيا
تدر أباريق الخمور لذائذا بها ومزامير الفجور أغانيا
تمثل فيها الموبقات مخازيا وتعرض فيها المغريات ملاهيا
لو أن رسول الله يبعث فيهم ويبصر في عينيه تلك المساويا
لقال لهم عودوا إلى الكفر مثلما بدأتم به قدما وهابوا كتابيا

❖❖❖

مناظر حزن مثلتها فظائع من الظلم ما أبقت من البغي باقيا
لقد سودوا التأريخ فيها فجائعاً وخطوا على وجه الزمان المآسيا
وقد نشروا المنصور فيها مساوياً وأحيوا بهاتيك المساوي معاويا

---

(١) المذاكي: الخيل التي كملت قوتها.

(٢) النصب: العداء. الخوافي: الريش في مؤخرة الجناح.

هم القوم أبناء الأوائل مثلوا بحمزة في أُحد أعادوا الأمانيا

أرادوا بها إطفاء نور مقدس أبى الله أن يُطفى فأشرق عاليا

وقد خسئوا لا يهدم البيت فيهم إذا كان رب البيت للبيت بانيا

وإن هدموا بالبغي منهم قبورهم فما هدموا مجدا من الحق ساميا

وفي كل قلب مفعم من ولائهم ضريح من الإخلاص يسمو الدراريا

❖❖❖

فيا غيرة الله انشرى العدل راية على طلعة غراء تمحو الدياجيا

ومدي على الدنيا ظلالاً من الهدى ولفي لواء للعمى متهاديا

وهدي عروش الظالمين بصرخة من العدل لا تبقى من الظلم باقيا

خذيهم قصاصاً بالذي قد جنوا به ولا تذري منهم على الأرض جانيا

فكم غصبوا حقاً وكم هدروا دماً وكم هتكوا خدراً لأحمد ضافيا

ولم يبق خير في زمان مذمم به الشر قد اضحى على الخير طاغيا

أعز ابن هند واستضام ابن فاطم وساوى عليا في العلى ومعاويا

❖❖❖

أثرها عواناً تقعد الدهر صرخة بها وتقيم الحشر فيها نواعيا[1]

فما تركت جمرا من الحقد خامدا نفوسهم إلا واذكته واريا

همو جردوا بالبغي سيف ابن ملجم وجروا على الزهراء تلك الدواهيا

وللحسن الزاكي أبانت نفوسهم كوامن أحقاد ظهرن بواديا

وقد طلبوا من أحمد ثار عتبة بأحد فنالوا بالحسين الأمانيا

وقد جرعوا السجاد كأسا من الردى بنوه بها قد جرعوا الحتف قاسيا

كوامن حقد فيه كادوا محمدا فلم يشفهم غيضاً فكادوا الذراريا

وقد ورث الابناء أبناؤهم بها وزادوا بتهديم القبور مساويا

---

(١) العوان: الحرب التي قوتل بها مرة بعد أخرى.

قبور الأئمة في البقيع

السيد رضا الموسوي الهندي (١٢٩٠ - ١٣٦٢هـ)

أعز اصطباري وأجرى دموعي وقوفي ضحى في بقاع البقيع

على عترة المصطفى الأقربين وأمهم بنت طه الشفيع

هم أمنوا الناس من كل خوف وهم أطعموا الناس من كل جوع

وهم روعوا الكفر في بأسهم على أن فيهم أمان المروع

وقفت على رسمهم والدموع تسيل ونار الجوى في ضلوعي

وكان من الحزم حبس البكاء لو أن هنالك صبري مطيعي

وهل يملك الصبر من مقلتاه ترى مهبط الوحي عافي الربوع

وقيمه يمنع الزائرين من لثم ذاك المقام المنيع

إذا هم زواره بالدنو يذودونهم عنه ذود القطيع

وهذا مقام يذم الصبور عليه ويحمد حال الجزوع

ويا ليت شعري ولا تبرح الليالي تجيء بخطب فظيع

أكان إليهم أساء النبي فيجزونه بالفعال الشنيع

لئن كان في مكة صنعهم بحجاجها نحو هذا الصنيع

فلست أرى الحج بالمستطاع ولا واجد المال بالمستطيع

ذكرى البقيع

الشيخ محمد علي بن الشيخ أبي القاسم الأوردبادي (١٣١٢)

بعينكم كل خطب ألم أما آن للحرب أن تضطرم

خبت نار نجدتكم لا خبت أم انثلم العزم يا لا انثلم

فماذا التواني وما هذا الـ ـغميزة في خطبنا المدلهم

سئمنا الحياة بعصر به تسود الذنابى وشاو الخدم
فيا لذة العز أعني الردى هلم فقد ساغ كاس العدم
ألستم إذا مسكم طائف حصدتم له كل قرن نجم
فهلا زهى الشرق فيكم كما زهت ريف في ندبها المصطلم[1]
ويا يمن اليمن فيك المنى ومنك الرجاء إذا الخطب عم
إذا اقبلت قاصمات الخطوب وليل الكروب علينا ادلهم
فمنك لها مثل ليل البهيم كرائم خيل عليها بهم
فمن مخجل وثبات الأسود ومستنزر قطرات الديم
أثرها فدتك نفوس العدى امام النهى والندى والكرم
ولا ترع لابن الخنا ذمة فلم يرع للمصطفى من ذمم
ففي مطلع الأكم منك الحجاز وما شيد فيها وماذا انهدم
ومن كثب انت ترنو لها وتبصر نكبتها من أمم

البقيع

تشطير للأستاذ إسماعيل بن محمد تقي بن باقر بن محمد حسن آل ياسين الكاظمي (١٣٢٣ - ١٣٧٣هـ) والأصل للسيد محمد علي شرف الدين، وقد نظمت سنة ١٩٢٦:

لعمري ان فاجعة البقيع تدك جوانب الدين المنيع
فيا لله من غصص دهتنا يشيب لهولها فود الرضيع
فهل من مسلم لله يرعى عمادا هده شر الهجوع
وهل من ناصر للحق يحمي حقوق رسوله الهادي المنيع

❖❖❖

(١) يشير إلى واقعة الريف في المغرب العربي وبطلها عبد الكريم الخطابي.

ساعة في البقيع

✍ **عزيز أباظة** (مصر)

يا تراب البقيع: راوحك القطر ... ووالاك يا تراب البقيع

روضة آنست للكرام الميامين ... من الكابرين صحب الشفيع

المباجيل من بناة المعالي ... والمصابيح من هداة الجموع

رضي الله عنهم واجتباهم ... من قيام وسجد وركوع

قهروا الدهر بالشهادة والأخلاق ... والنفس بالهدى والقنوع[١]

يوم جزنا باب النساء إلى البطحاء ... نسعى في روعة وخشوع[٢]

رجف القلب رهبة وتهاوت ... من مآقي سافحات الدموع

قيل هذا عثمان فامتلت النفس ... بذكرى هذا الإمام الصريع

قلت: يا جامع الكتاب وما كان ... إلى ان رأيت بالجموع

يا مذل الألاف في عزة الإسلام ... تبغي وجه البصير السميع

لنت للناس جانبا فاستخف الناس ... باللين الرفيق الوديع

عمر ساسهم بعدل عصي ... وتداولتهم بعدل مطيع

حين اردوك ظالمين فبل الأرض ... زاك من فيض ذاك النجيع

غضب الله واستعاذ رسول الله ... بالله من اثام فظيع

❖❖❖

ودلفنا بين القبور فجئنا ... آخر الأمر دار قوم رتوع[٣]

يا بيوت النبي من كل فضلى ... كرم الله بالسنى المرفوع

الإمام الموهوب والعاقب المروى ... عنه والمصلح المطبوع[٤]

الذي خص قبل مبعثه الحق ... بأسمى مواهب المتبوع

---

(١) الشهادة: التضحية بالنفس التماسا للجنة.

(٢) باب النساء: باب الحرم النبوي الشريف الموصل للبقيع.

(٣) رتوع: مستقرون في خفض ونعيم

(٤) العاقب من ألقابه صلوات الله عليه وسلامه، ومعناه الذي لا نبي بعده.

قد شهدتنه يفصل للكون فنونا من محكم التشريع
في نظام من البيان فريد وطراز من السمو بديع
فأخذتن هديه فأذعتن فكنتن أنهر الينبوع

❖❖❖

ثم ملنا إلى فروع رسول الله عزت على الورى من فروع
الكريمات من كريم مصفى والرفيعات من فراش رفيع
معطيات المضطر في يوم ضيق مطعمات المعتر في يوم جوع[1]
رضي الله عنكم واصطفاكم آل بيت المبرأ المشفوع[2]
بسمة الدهر للخليقة انتم واقتبال الدنا ونور الربيع
وازدهار المنى وإشراقة الجد وسكب السنى وحسن الصنيع
فسلام بين المقاصير في الخلد عليكم وفي الرحاب الوسيع

❖❖❖

أجهش القلب جهشة بالبقيع وتنزى في ركنه المصدوع[3]
ذكر العهد: عهد إلف عزيز عند عيش سمح وشمل جميع
فتلاقى حنينه وحنيني وتبارت دموعه ودموعي
قال لي صاحبي: رجعت إلى البث وشيكا ولات حين رجوع
قلت: دعني الا ترى العيش اقوى يوم أقوت ممن ألفت ربوعي
الصروح التى انقضضن صروحى والضلوع التى احترقن ضلوعي
نبهت هذه القبور جوى الوجد وهاجت تبارح المفجوع[4]

مدينة رسول الله - يناير سنة ١٩٤٣

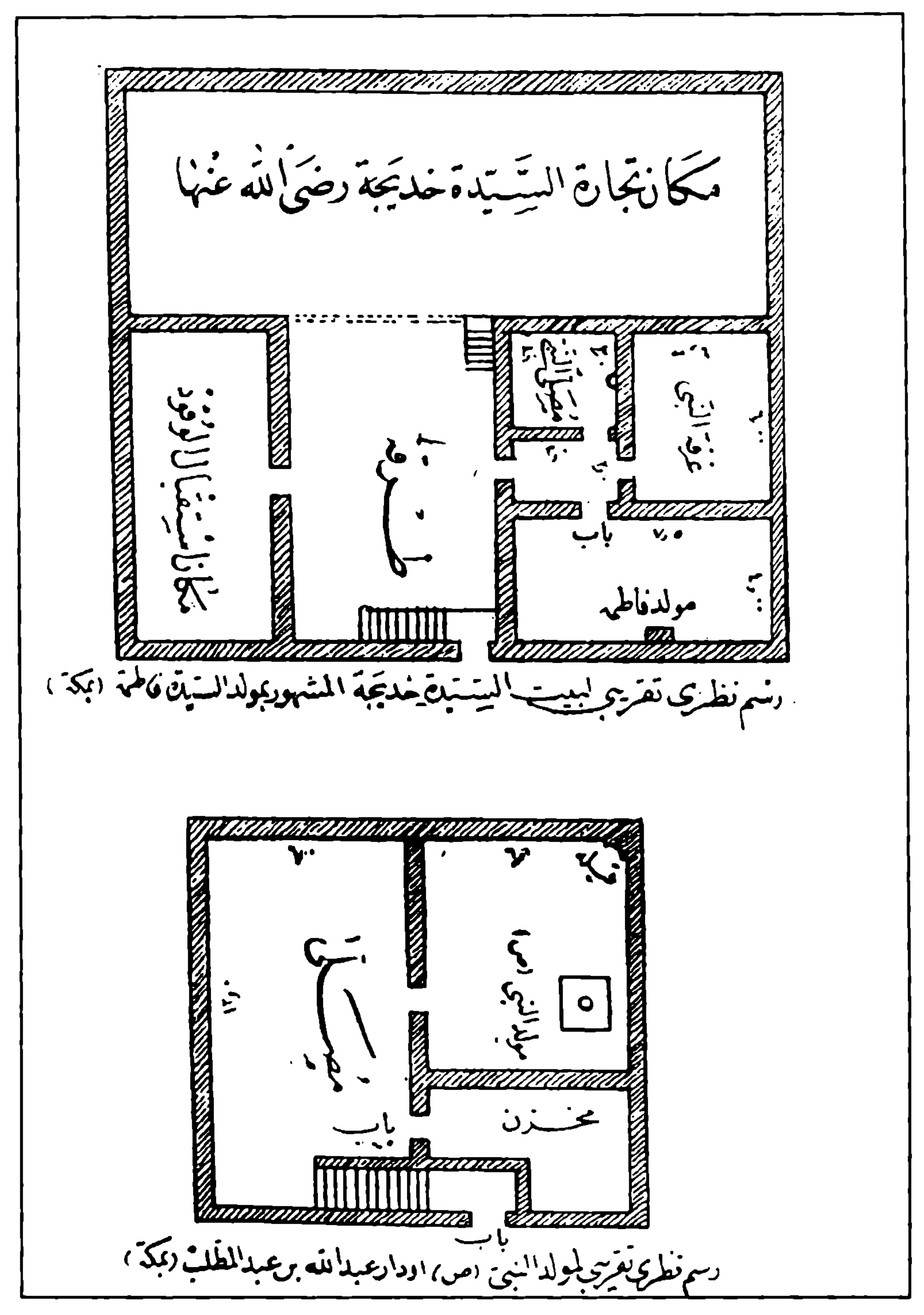
---

(١) المعتر: الذي يتعرض ليعطي ولا يسأل.

(٢) المبرأ المشفوع: من ألقابه صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) تنزى: تحرك وتواثب.

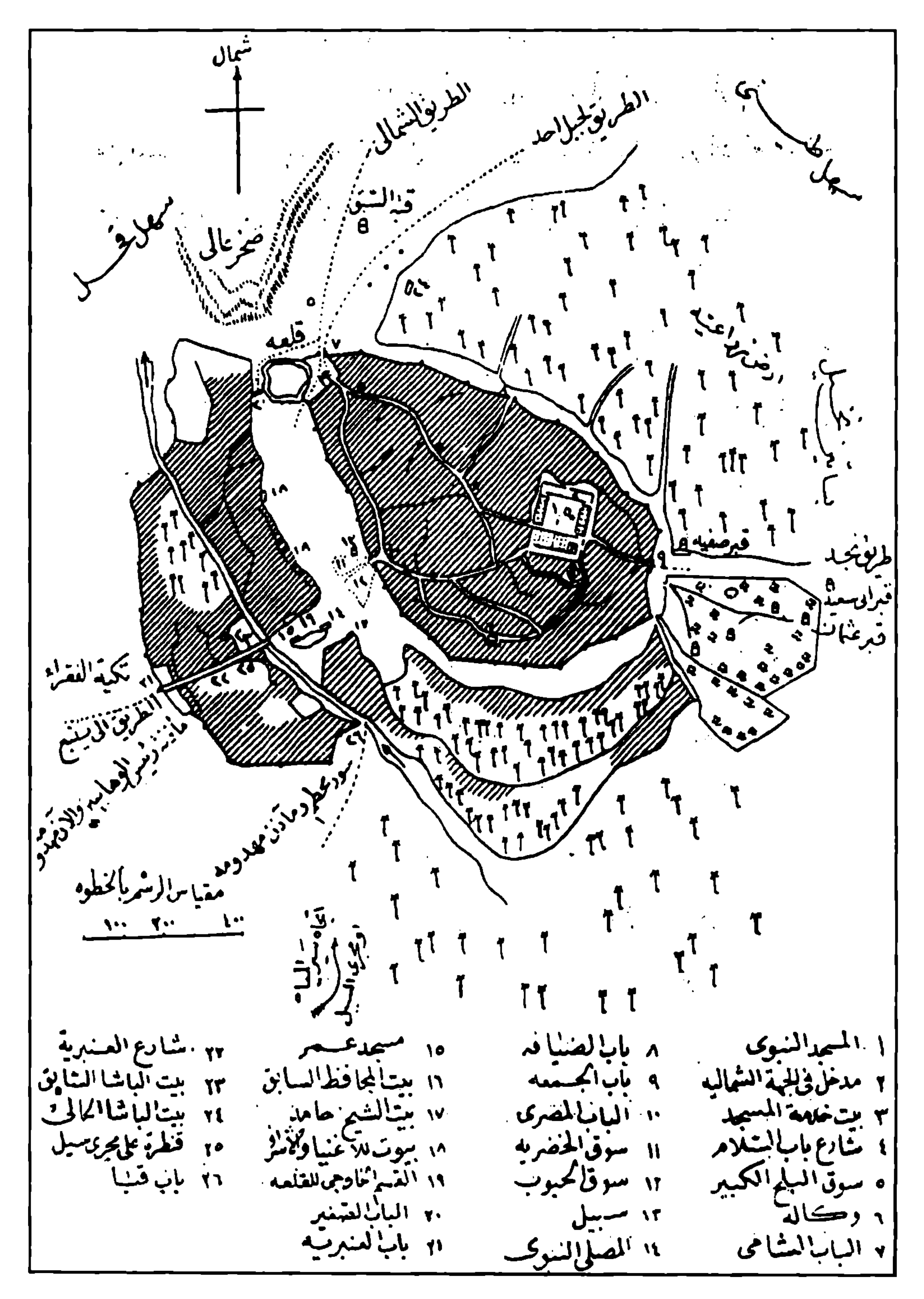
(٤) التبارح والتباريح: بمعنى واحد وهي الآلام.



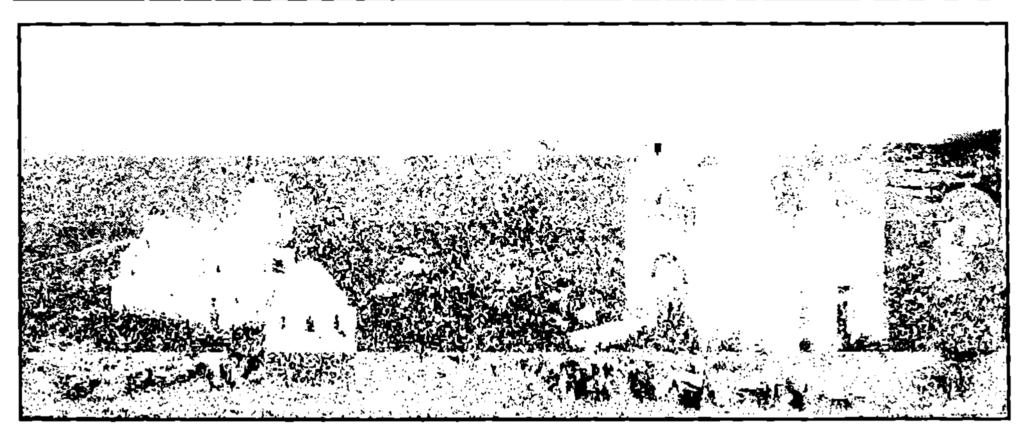
رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)

رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) او دار عبدالله بن عبد المطلب (بمكة)

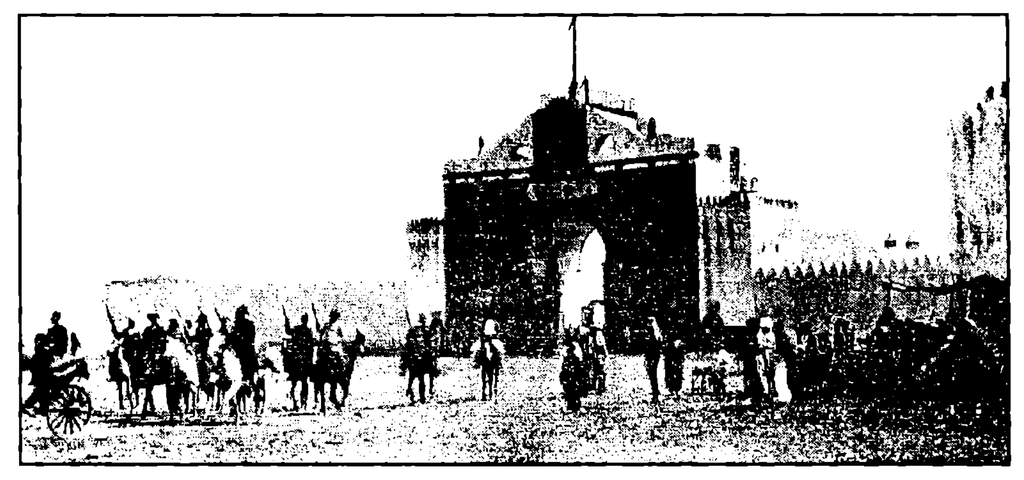
بيت السيدة خديجة ومولد النبي (ص) وفاطمة (ع)



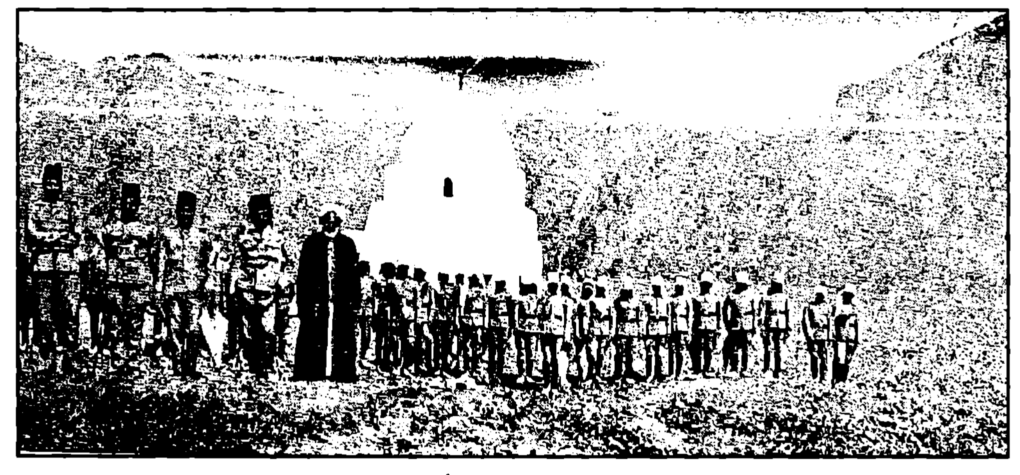
خريطة المدينة المنورة.



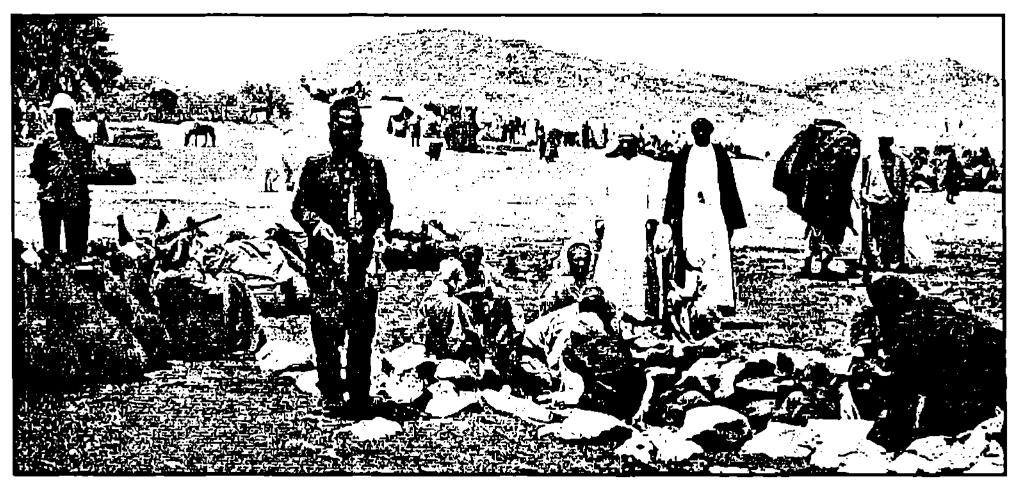
صورة البقيع.



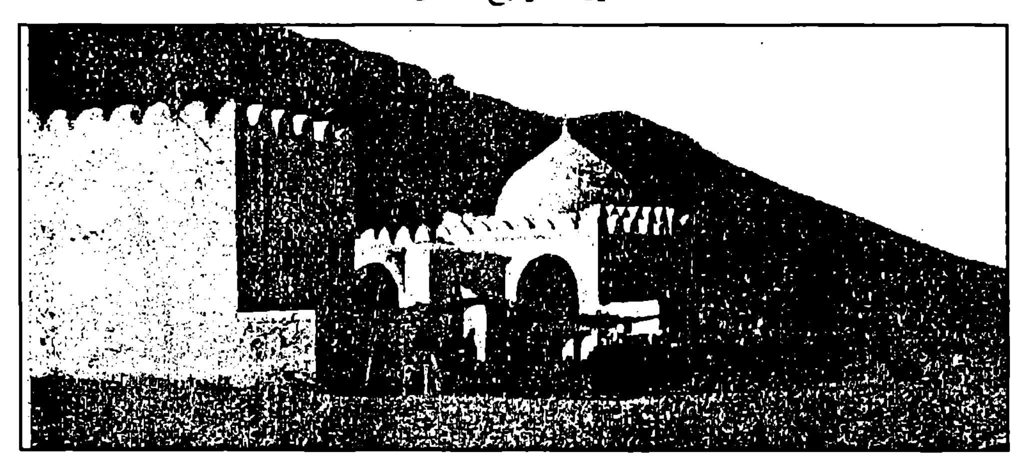
باب العنبرية بالمدينة المنورة.



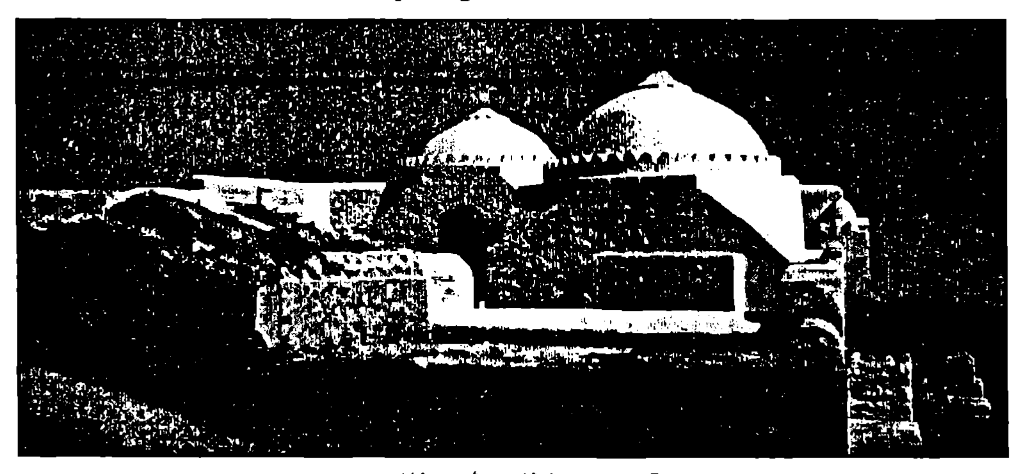
قبة الثنايا بجبل أحد.



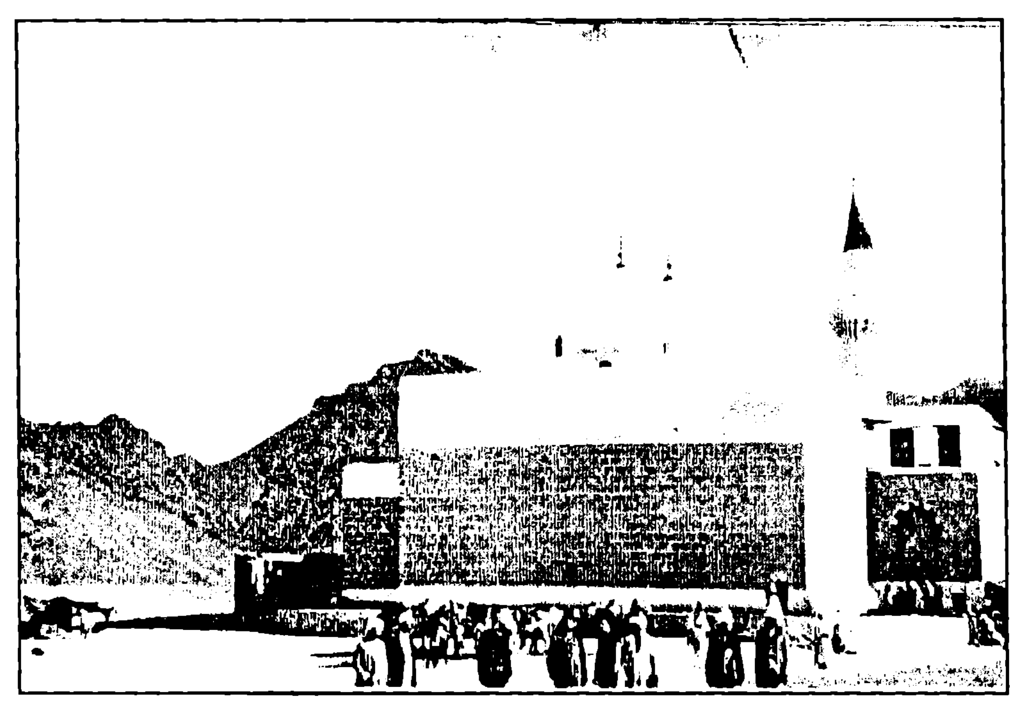
عين ماء ينبع النخل.



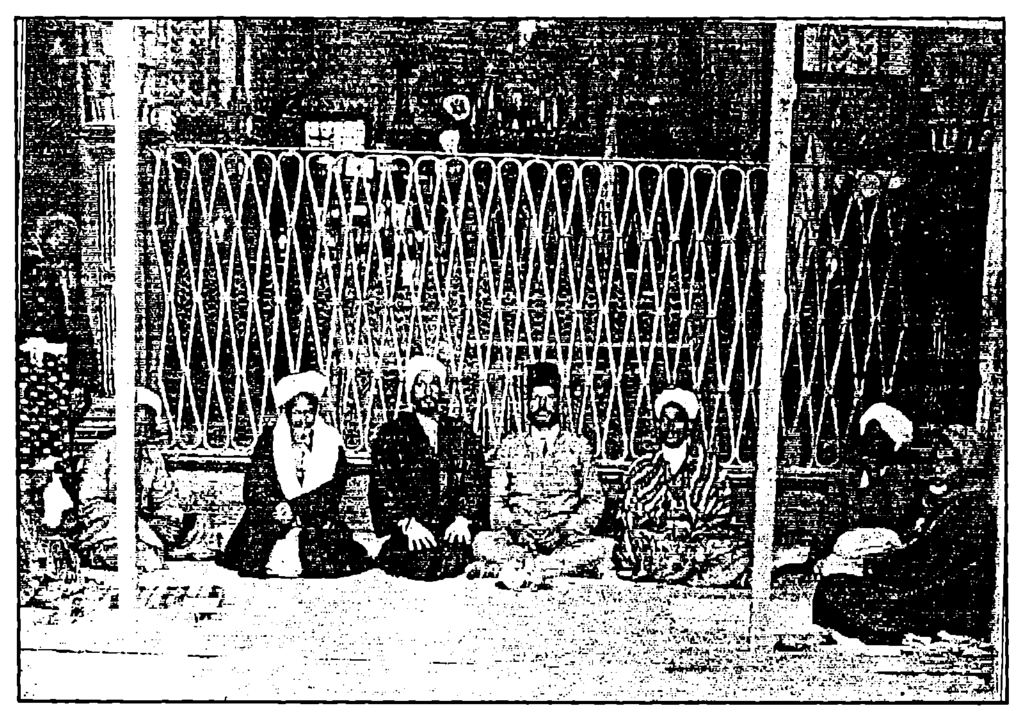
قبر السيدة ميمونة زوج النبي (ص).



قبر عبد المطلب وأبو طالب.



مسجد حمزة (رض)



مسجد حمزة من الداخل.

البقيع
ومشاهد المدينة المنورة

عبد الرحيم بن حسن بن حربي

البقيع في اللغة: الموقع فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبقيع الغرقد لأنه كان منبته، وبقيع النخيل وبقيع الخبخبة كلهن بالمدينة[١].

وفي (عمدة الأخبار في مدينة المختار) ص ١٤٨ أن البقيع في اللغة المكان، وقال قوم: لا يكون بقيعاً إلا وفيه شجر، وبقيع الغرقد كان ذا شجر وذهب الشجر وبقي الاسم وهو مقبرة المدينة الشريفة من شرقها ويقال له كتفه بفتح أوله وإسكان ثانيه وبعدها تاء معجمه باثنين من فوقها: اسم لبقيع الغرقد، وفي مقبرة، وهذا الاسم مشتق من قوله جل وعلا (ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياءً وأمواتاً) سميت بذلك لأنها تكفت الموتى، أي تحفظهم وتحرزهم. وذكرها ياقوت الحموي فقال: أصل البقيع في اللغة الموضع الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى وبه سمي بقيع الغرقد - والغرقد - كبار العوسج.

قال الراجز: أيقن ضالاً ناعماً وغرقداً. وقال الخطيم العكلي:

أواعس من برث من الأرض طيب واودية ينبتن سدراً وغردقاً

وقد أُطلق لفظ البقيع على عدة أماكن في المدينة وغيرها.. منها بقيع الزبير في المدينة في دور ومنازل وبقيع الخيل بالمدينة عند دار زيد بن ثابت[٢] وسوق قرب البقيع عرفت ببقيع الخيل، كان بنو سليم يجلبون إليها الخيل والإبل والغنم والسمن وكان أكثر ما يباع في هذا السوق الحيوانات[٣].

مقبرة البقيع:

يقع البقيع شرقي المسجد النبوي الشريف خارج سور المدينة الأول، أما اليوم فإنه يقع داخل المدينة، وتحيط به الشوارع من جهاته الأربع وكان البقيع قبل الإسلام حديقة من

---

(١) القاموس المحيط ج٣، ص١١ باب العين فصل الباء وأروم الشجر أصوله. والغرقد قيل كبار العوسج، وهو جمع عوسجة وهو شجيرات من فضيلة الباذنجيات أغصانه شائكة وأزهاره مختلفة الألوان وأهل المدينة يسمونه بالعامية (عاقول).

(٢) معجم البلدان، المجلد ص ٢٥٣.

(٣) تاريخ المدينة المنورة - ابن شيبة ص ٣٠٦.

الحدائق الواقعة شرق يثرب[1]، وأما شهرته وما أضفى عليه صفة القداسة في نفوس المسلمين هو ما آل إليه أمره فيما بعد عندما أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بدفن عثمان بن مظعون وهو أخو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الرضاعة ـ كما هو مشهور ـ ثم دفن فيه ابن الرسول إبراهيم.

عن ابن زبالة عن قدامة بن موسى أن أول من دفن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالبقيع عثمان بن مظعون، قال وروى أبو غسان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه لما توفي إبراهيم ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بأن يدفن عند عثمان بن مظعون فرغب الناس في البقيع وقطعوا الشجر فاختارت كل قبيلة ناحية، فمن هنالك عرفت كل قبيلة مقابرها[2].

وهكذا فقد اتجه الناس آنذاك إلى الدفن في البقيع للتبرك بمن دفن فيه خاصة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يزور البقيع ويدعو لأهلها، فقد ورد في سنن البيهقي: عن عائشة قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخرج إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم المؤمنين وأتاكم ما توعدون، وإنا بكم إنشاء الله لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد[3].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلما كانت ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: سلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، وإنا إنشاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد، وأخرجه في الموطأ بلفظ: قالت عائشة قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات ليلة، فلبس ثيابه، ثم خرج فأمرت جاريتي بريرة تتبعه فتبعته حتى جاء البقيع، فوقف في أدناه ما شاء الله أن يقف، ثم انصرف فسبقته فأخبرتني، فلما أذكر شيئاً حتى أصبح، ثم ذكرت له، فقال: إني بعثت إلى أهل البقيع لأصلي عليهم[4].

---

(١) (مرآة الحرمين) ج٢، ص ٤٢٥.

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي، وحتى عام ١٤٠٠ هجري وكان غرب البقيع ملاصق قبة أهل البيت (ع) مقابر الأشراف الحسينيين الشيعة، وجنوباً ملاصقاً لقبول الأئمة قبور النخاولة. وشرقاً قبور السادة السنة، وباقي البقيع لسائر المسلمين تفصل بين القبة والقبور ممرات للمشاة. واللطيف في هذا أن شيعة المدينة حتى من لم يدرك القباب قائمة على القبور في البقيع لا تقول إلا قبة أهل البيت، ولا يجري على ألسنتنا لفظ آخر.

(٣) سنن البيهقي ـ ج٤ ص، ٧٩.

(٤) وفاء الوفاء: الجزء٢، ص ٨٨٣ ـ ٨٨٤.

مشروعية الزيارة:

كما رأيت في الفصل السابق أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يزور البقيع ويسلم على الموتى، فزيارة القبور مستحبة وزيارة قبر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) مستحبة استحباباً مؤكداً، فقد ثبت أنه قال: من زارني بعد موتي كمن هاجر إلي في حياتي.

وقال إن الصلاة في مسجدي كألف صلاة في غيره إلا المسجد، فإن الصلاة فيه كألف صلاة في مسجدي ويتأكد استحباب الصلاة في مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثر أن تقع بين البيت والمنبر لأنها روضة من رياض الجنة كما ثبت في الحديث، ويستحب أيضاً إتيان المساجد كلها التي ثبت أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى فيها، مثل مسجد قباء ومشربة أم إبراهيم ومسجد الفضيخ ومسجد الأحزاب وغيرها.

كما تستحب زيارة قبور الشهداء كلهم وخاصة الحمزة عم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأحد، وتستحب زيارة أئمة البقيع من أهل البيت (ع) وهم الإمام الحسن بن علي والإمام زين العابدين علي بن الحسين والإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق عليهم الصلاة السلام، وسائر المدفونين في البقيع من الصحابة والشهداء، ويسلم على جميع الموتى من المسلمين.

المدفونون في البقيع:

إن المدفونين في البقيع فيهم كوكبة عظيمة من أهل البيت الكرام (ع) وأجلاء الصحابة وأول من دفن في البقيع هو الصحابي الجليل عثمان بن مظعون أخو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجاء في (وفاء الوفاء) إنه لما مات عثمان بن مظعون ودفن أمير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلاً أن يأتي بحجر فلم يستطع حمله فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحسر عن ذراعيه قال الراوي: كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين حسر عنهما ثم حمله فوضعه عند رأسه فوضعه عند رأسه وقال أتعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي[1].

هو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو ابن هصيبص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي الجمحي، يكنى أبا السائد أسلم قديماً، وكان إسلامه بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلى الحبشة هو وابنه الهجرة الأولى، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً

---

(١) وفاء الوفاء: ج٣ ث ٨٩٤.

وكان من أشد الناس اجتهاداً في العبادة يصوم النهار ويقوم الليل، ويجتنب الشهوات ويعتزل النساء، واستأذن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في التبتل والاختصاء فنهاه عن ذلك، وهو ممن حرم الخمر على نفسه وقال: لا أشرب شراباً يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني[١].

- إبراهيم ابن النبي (ص):

روى ابن شبة بإسناد جيد عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: مات إبراهيم - يعني ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - وهو ابن ستة عشر شهراً، فقال رسوال الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ادفنوه في البقيع فإنه له مرضعة في الجنة تتم رضاعه. وروى الشافعي عن جعفر بت محمد عن أبيه مرسلاً أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رش قبر ابنه إبراهيم ووضع عليه الحصى[٢].

- رقية بنت الرسول (ص):

يختلف المؤرخون فيمن أكبر سناً رقية أم أم كلثوم كما يختلفون في أزواجهما عتبة وعتيبة، ولكن طلقها بعد ذلك بطلب من أبيه أبي لهب، وقد تزوجت من عثمان بن عفان بعد ذلك وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم عادت إلى المدينة، وولدت له ولداً في الحبشة أسمياه عبد الله ولكن توفي في السنة الرابعة من الهجرة.

قال السمهودي: روى الطبراني برجال ثقات، وفي بعضهم خلاف، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في حديث قال فيه: فلما ماتت رقية بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: الحقي بسلفنا عثمان بن مظعون[٣].

- زينب بنت الرسول (ص):

ولدت زينب بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل البعثة، أي قبل وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بثلاثين عاماً، تزوجها أبو العاص بن ربيع، وربيع هذا من أبناء عم العزى بن عبد شمس صهر الرسول (صلى الله عليه واله وسلم).

- ام كلثوم بنت الرسول (ص):

هي أم كلثوم: زوجة عتبة ابن أبي لهب وقيل عتيبة على اختلاف بينها، وبين أختها رقية حيث أن ابني أبي لهب تزوجا بنتي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعندما طلقها، زوجها عثمان بن عفان بعد وفاة أختها رقية التي كانت زوجته، وتوفيت في السنة

(١) تأريخ المدينة المنورة: ابن شيبة ص ١٠٠.

(٢) وفاء الوفاء: الجزء ٣ ص ٨٩١.

(٣) وفاء الوفاء للسمهودي: ج٣، ص ٨٩٤.

التاسعة للهجرة، وأنجبت ولداً لعثمان وتوفي في المدينة وقد دفنت في البقيع بجوار أختيها زينب ورقية.

- فاطمة بنت اسد (رض):

هي فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وقد ولدته في داخل الكعبة المشرفة، وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يكن لها الحب الكثير وقد تأثر كثيراً لوفاتها في السنة الرابعة للهجرة ودفنت في داخل قبة أهل البيت (ع) وهو البناء الثماني الشكل جنوب غرب قبور الأئمة (ع) وجنوب قبر العباس عم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وجنوب قبرها بيت الأحزان خارج سور القبة الشريفة، وبينهما ممر سعة خمسة أمتار تقريباً.

وأسمع ما يقوله السمهودي في مكان دفنها، وهو ما عليه أهل المدينة بقول: روى ابن زبالة عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قال: دفن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكانت مهاجرة مبايعة بالروحاء مقابل حساما أبي قطيفة قال: وثم قبر إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقبر عثمان بن مظعون وسيأتي ما نقله ابن شبة في قبر العباس من قول عبد العزيز بن عمران: أنه دفن عند قبر فاطمة بن أسد بن هاشم في أول مقابل بني هاشم التي في دار عقيل.. وفي حديث يطول يرد في على ابن النجار الذي قال: قبر فاطمة بنت أسد وعليها قبة في آخر البقيع[1].

- العباس بن عبد المطلب:

هو عم الرسول (ص) أمه نتيلة بنت خباب، وقد ولد قبل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بسنتين أو ثلاثة، وتوفي عام ثلاث للهجرة ودفن في البقيع عند قبر فاطمة بنت أسد في أول بني هاشم التي في دار عقيل.

- عمتا الرسول (ص):

الأولى: هي صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زوجها هو عوام بن خويلد، خرجت لبعض المعارك مع المسلمين. وفي أحد كانت على رأس النساء اللاتي خرجن للدفاع عن الإسلام يسقين الماء ويضمدن الجرحى ويكون خط دفاع أخير يحرضن الرجال على الحرب.

والثانية: هي عاتكة بنت عبد المطلب عمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زوجها أبي أمية ابن المغيرة بن عبد الله وأمها فاطمة بنت عمر بن عايد بن عمران.

- عقيل بن أبي طالب.

- حليمة السعدية مرضعة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) وفاء الوفاء: ج٢، ص ٨٩٥- ٨٩٧.

أهل البيت

١ ـ **فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):** أبوها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، أمها خديجة بنت خويلد.

ولدت بعد بعثة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بخمس سنين، في العشرين من جمادى الآخرة، وقيل غيره فكما اختلف في ولادتها ـ عليها السلام ـ اختلف في تأريخ وفاتها، واختلف في موضع قبرها الشريف، ولذا تقام ذكرى ولادتها ووفاتها، وتزار في أكثر من مكان وزمان وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مكانتها ـ سلام الله عليها ـ فمن قائل بأن قبرها عليها السلام في بيتها منهم ابن بابويه، والرأي المعول عليها هو أن قبرها عليها السلام إما في البقيع في القبر الذي فيه فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام أو داخل الدرابزين المحيط بالقبر النبوي الشريف، أي في بيتها، ولو أريد لقبرها أن يعرف عليه أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام كما دل على قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الإمام الصادق عليه السلام وكذا الحال بالنسبة لسائل الأئمة حيث عرفت مواضع قبورهم باستثناء الزهراء، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ويغضبني ما يغضبها)..

أولادها الحسن المجتبى، الحسين السبط، المحسن، زينب الكبرى، أم كلثوم.

توفيت عليها السلام وهي في الثامنة عشر من عمرها الشريف، فكان عمرها (عليها السلام) كعُمر الورد.

٢ ـ **الحسن بن علي عليه السلام:** اسمه الحسن **سماه** جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

أبوه: علي أمير المؤمنين عليه السلام

أمه: فاطمة الزهراء عليها السلام

جده لأمة: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

جده لأبيه أبو طالب بن عبد المطلب

جدته لأمه: خديجة بنت خويلد.

جدته لأبيه: فاطمة بنت أسد بن هاشم.

أخوه لأمة وأبيه: الإمام الحسين عليه السلام.

أخواته لأمه وأبيه: زينب - أم كلثوم عليهما السلام.

ولادته: ولد بالمدينة المنورة ليلة النصف من شهر رمضان سنة ثلاث للهجرة وجيء به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: اللهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم، وأذن في أذنه اليمنى وقام في اليسرى، وسماه حسناً، وعق عنه كبشاً.

صفته: كان عليه السلام أبيض، مشرب بحمرة، أدعج العينين، سهل الخدين، رقيق المشربة، كث اللحية، ذا وفرة، وكأن عنقه ابريق فضة، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، ربعة ليس بالطويل ولا القصير، مليحاً، من أحسن الناس وجهاً، وكان يخضب بالسواد، وكان جعد الشعر، حسن البدن.

حياته مع أبيه: لازم أباه أمير المؤمنين عليه السلام طيلة حياته، وشهد معه حروبه الثلاثة: الجمل، صفين، النهروان.

كنيته: أبو محمد كناه بها رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم)).

ألقابه: التقي، الزكي، السبط. نقش خاتمه: العزة لله وحده.

أشهر زوجاته: خولة بنت منظور الفزازية، ام اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي، أم بشر بنت أبي مسعود الأنصار، جعدة بنت الأشعث، هند بنت عبد الرحمن بن أبي بكر.

أولاده: زيد، الحسن، عمرو، القاسم، عبد الله، عبد الرحمن، الحسن، طلحة.

بناته: أم الحسن، أم الحسين، فاطمة، أم عبد الله، فاطمة أمن سلمة، رقية.

بيعته: بويع بالخلافة في الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة.

بوابه: سفينة مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

كاتبه: عبد الله بن أبي رافع

صلحه: صالح معاوية في النصف من جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين للهجرة بعد أن تبين الوهن في أصحابه.

وفاته: توفي عليه السلام في السابع من شهر صفر سنة خمسين للهجرة.

قبره: دفنه الحسين عليه السلام في البقيع عند جدته فاطمة بنت أسد بوصية منه.

وقال دعبل بن علي الخزاعي:

قبور بكوفان وأخرى بطيبة ... وأخرى بفخ نالها صلوات

مدة إمامته: كانت مدة إمامته عليه السلام عشر سنين[1].

---

(١) كتاب (مجموعتي) المؤلف علي محمد علي دخيل من صفحة ١٠٢- ١٠٣.

٣ - **الإمام علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب(ع).**

٤ - **الإمام محمد الباقر:**

أبوه: الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

أمه: فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، فهو عليه السلام هاشمي من هاشميين، وعلوي من علويين، وفاطمي من فاطميين، وأول من اجتمعت له ولادة الحسين والحسين عليهما السلام.

جده: الإمام الحسين الشهيد عليه السلام.

ولادته: ولد عليه السلام يوم الجمعة - أو الاثنين - غرة رجب سنة ٥٧ هجري وروي في الثالث من صفر.

صفاته: كان يشبه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لذا لقب بالشبيه، كان ربع القامة، رقيق البشرة، جعد الشعر، أسر، له خال على جسده، ضامر الكشح، حسن الصوت، مطرق الرأس.

عاش مع جده الحسين عليه السلام أربع سنوات، وشهد وقعة كربلاء.

كنيته: أبو جعفر.

ألقابه: الباقر، الشاكر لله، الهادي، الأمين، الشبيه.

نقش خاتمه: العزة لله جميعاً.

أشهر زوجاته: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، أم حكيم بنت أسد بن المغيرة الثقفية.

أولاده: الإمام جعفر الصادق، عبد الله إبراهيم، عبيد الله، علي.

بناته: زينب، أم سلمة.

شعراؤه: كثير عزة، الكميت، الورد الأسدي، أخو الكميت، السيد الحميري.

بوابه: جابر الجعفي.

ملأ الدنيا بعلمه وحديثه حتى قال جابر الجعفي حدثني أبو جعفر: سبعين ألف حديث وقال محمد بن مسلم: سألته عن ثلاثين ألف حديث.

مؤلفاته: كتاب التفسير، ذكر ابن النديم، رسالة إلى سعد الخير من بني أمية، رسالة ثانية منه إليه، كتاب الهداية.

ملوك عصره: زمن إمامته: الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك. أشار على عبد الملك بن مروان بأن يضرب الدراهم والدنانير، وعلمه كيفية ذلك.

وفاته: توفي عليه السلام يوم الاثنين سابع ذي الحجة سنة مائة وأربعة عشر للهجرة وعمره سبع وخمسون سنة، ومدة إمامته (١٩) تسع عشرة سنة.

قبره: دفن في البقيع مع أبيه الإمام زين العابدين وعمه الحسن بن علي السبط عليهم السلام[١].

٥ - **الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر عليه السلام.**

جده: الإمام زين العابدين عليه السلام.

أمه: أم فروة (فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر).

ولادته: ولد في المدينة يوم الجمعة - أو الاثنين - عند طلوع الفجر في السابع عشر من ربيع الأول - يوم ميلاد جده الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) سنة ٨٠ ه، أو ثلاث وثمانين للهجرة.

صفته: ربعة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أبيض الوجه، أزهر له لمعان كأنه السراج، أسود الشعر، جعده[٢]، أشم الأنف[٣] قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهراً، وعلى خده خال أسود.

كناه: أبو عبد الله، أبو اسماعيل، أبو موسى، وأولها أشهرها.

ألقابه: الصادق، الفاضل، الطاهر، القائم الكافل، المنجي، الصابر، وأولها أشهرها.

نقش خاتمه: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، أستغفر الله.

أشهر زوجاته: حميدة بنت صاعد المغربي، فاطمة بنت الحسين بن عليه ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

أولاده: اسماعيل، عبد الله، موسى الكاظم، اسحاق، محمد الديباج، العباس، علي.

بناته: أم فروة، أسماء، فاطمة.

شعراؤه: السيد الحميري، أشجع السلمي، الكميت، أبو هريرة، الأبار العبدي، جعفر بن عفان.

بوابه: المفضل بن عمر.

مؤلفاته: قال الشيخ المظفري: ما روي عنه بلا واسطة ثمانون كتاباً وبواسطة سبعين كتاباً.

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٥- ٢٣٦.

(٢) الجعد من الشعر خلاف السبط.

(٣) الشمم: ارتفاع قصبة الأنف وحسنها، وارتفاعها من أعلاها، وانتصاب الأرنبة طرف الأنف ويكنى به الإباء.

تلاميذه: أخذ عنه العلم والحديث أكثر من اربعة آلاف رجل.

المصنفون من تلاميذه: صنف المئات من تلاميذه في مختلف العلوم والفنون.

ملوك عصره: من بني أمية: هشام بن عبد الملك، يزيد بن عبد الملك الملقب بالناقص، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد الملقب بالحمار. ومن بني العباس: السفاح، المنصور.

مدة إمامته: أربع وثلاثون سنة.

أوصياؤه: أوصى عليه السلام إلى ولديه: عبد الله، وموسى، وإلى زوجته حميدة، وإلى محمد بن سليمان، والي المدينة، والي المنصور العباسي.

وفاته: توفي عليه السلام في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة مائة وثمان وأربعين هجري.

قبره: دفن عليه السلام في البقيع، مع أبيه الباقر، وجده زين العابدين وعمه الحسن السبط صلوات الله عليهم أجمعين. عمره: هو أكبر الأئمة عليهم السلام سناً، فعمره الشريف على الرواية الأولى من مولده: ٦٨ سنة، وعلى الثانية ٦٥ سنة.

٦ - **عثمان بن عفان:** هو الخليفة الثالث، تزوج بابنتي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مات مقتولاً، ودفن في بستان له يسمى (حش كوكب) وفي مرحلة من مراحل توسعة البقيع أُدخل القبر في البقيع من الجهة الشرقية، توفي عام ٣٥ هجري.

٧ - **عقيل بن ابي طالب.**

٨ - **زوجات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):**

- أم المؤمنين أم سلمة وهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم توفيت سنة ٦٠ للهجرة وقيل ٦١ هجري.
- أم المؤمنين مارية القبطية أهداها حاكم مصر هي وأختها سيرين إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فوهب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سيرين لحسان بن ثابت توفيت في عام ١٦ هجري في خلافة عمر بن الخطاب.
- أم المؤمنين أم حبيبة وهي رملة بنت أبي سفيان كان زوجها عبيد الله بن جحش الذي هاجر إلى الحبشة ولكنه ارتد عن الإسلام واعتنق المسحية، ولكن زوجته بقيت مسلمة وعندما توفي زوجها في الحبشة عادت فتزوجها النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).. توفيت عام ٤٢ وقيل ٤٤ للهجرة ودفنت بالبقيع.
- أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف بن هلال، اختلف حول سنة وفاته.

- أم المؤمنين جويرية بنت الحارث أسرت مع أبيها في غزوة بني المصطلق وتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتوفيت عام ٥٠ للهجرة وقيل ٥٦ للهجرة ودفنت في البقيع.
- أم المؤمنين صفية بنت حي بن أخطب الإسرائيلية.. تزوجت اثنان قبل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم تزوجها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتوفيت عام ٥٠ للهجرة ودفنت بالبقيع.
- أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس كانت زوجة لسكران ابن عرد الذي هاجر إلى الحبشة وعندما عاد إلى مكة توفي هناك وقيل في الحبشة فتزوجها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).. توفيت عام ٥٠ أو ٥٤ للهجرة ودفنت بالبقيع.
- أم المؤمنين ريحانة بنت زيد ، تزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في السنة السادسة للهجرة توفيت في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).
- أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب توفيت سنة ٤٥ للهجرة.
- أم المؤمنين زينب بنت جحش: أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتوفيت عام ٢٠ للهجرة عن عمر يناهز الخمسين.
- أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الخليفة الأول.

٩. **محمد بن الحنفية:** من أبناء الإمام علي عليه السلام توفي عام ٨٣ هجري.

١٠. **عبد الله بن جعفر الطيار:** وهو زوج زينب بنت الإمام علي عليه السلام.

١١. **الحسين بن الحسن المجتبى:** زوج فاطمة بنت الحسين عليه السلام الذي مات عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين.

١٢. **عبد الله بن محمد بن يوسف بن موسى بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن المجتبى.**

١٣. **أم البنين:** هي فاطمة بنت حزام بن خالد زوجة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) ولدت له أربعة أولاد ، وتكنى أم الكملة وهم: العباس ، وجعفر ، وعثمان، وعبد الله ، وقد قتلوا جميعاً في واقعة كربلاء مع الإمام الحسين (عليه السلام) وقد دفنت أم البنين في البقيع قرب مقابر عمات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

١٤. **اسعد بن زرارة الخزرجي:** قيل أنه توفي في شوال في السنة الأولى من الهجرة قبل بدر وكان أول من دفن في البقيع من الأنصار ، ولكن يقال أن المهاجرين يعارضون هذا

الخبر ويقولون أنه أول من دفن بالبقيع هو عثمان بن مظعون، ويقع قبره في وسط البقيع[1].

١٥ - **ابو سعيد الخدري**: كان قبره خارج البقيع من الجهة الشرقية وأدخل في التوسعة قبل الأخير، وبجواره قبر سعد بن معاذ.

١٦ - **اسيد بن الحضير**.

١٧ - **زيد بن ثابت**: من الصحابة توفي عام ٤٥ وقيل ٥٠ للهجرة.

١٨ - **نافع شيخ القراء**.

١٩ - **أبو هريرة**.

٢٠ - **سفيان بن الحارث**.

٢١ - **عبد الله بن مسعود**.

٢٢ - **حكيم بن حزام بن خويلد**: هو ابن أخ أم المؤمنين خديجة عليها السلام توفي عام ٥٤ هجري.

٢٣ - **سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب**: وهو من التابعين.

٢٤ - **نوفل بن الحارث بن عبد المطلب**.

٢٥ - **سهل بن سعد الساعدي**: من الأنصار المخلصين توفي سنة ٨٨ للهجرة عن عمر يناهز المائة.

٢٦ - **ارقم بن ابي الأرقم**.

٢٧ - **سعد بن زيد بن عمر بن الخطاب** وأخته عاتكة زوجة عمر، توفي عام ٥١ هجري عن عمر يناهز الرابعة والسبعين.

٢٨ - **مالك بن أنس بن مالك**.

٢٩ - **اسامة بن زيد**.

٣٠ - **حاطب بن ابي بلتعة**.

٣١ - **عبد الرحمن بن عوف**: توفي سنة ٣٢ هجري عن عمر يناهز اثنان وسبعين عاماً.

٣٢ - **سعد بن ابي وقاص**.

٣٣ - **أم رومان**: هي بنت عامر بن عويمر، زوجة أبو بكر، وأم عائشة توفيت في السنة السادسة للهجرة.

٣٤ - **اروى**: هي أم عثمان بنت عفان. وكثير غيرهم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين.

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ص ٩٦.

البقيع عبر التاريخ

كان البقيع قبل الإسلام حديقة كإحدى الحدائق الكثيرة في يثرب، يكثر فيه شجر الفرقد. فاختاره رسول الله فدفن فيه أخاه من الرضاعة عثمان بن مظعون، ووضع على قبره حجرين شاهدين يدلان على القبر، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا نعرف صاحبنا، ففعل ذلك كل من دفن موتاه من الصحابة، أو من جاء بعدهم، فصار الناس يضعون شواهد على قبور موتاهم، وأحياناً يكتبون اسم صاحب القبر وتاريخ وفاته، وهذا هو الطور الثاني للقبور. فالطور الأول هو تسوية القبر ووضع حجرين عليه أحدهما عند رأس الميت والآخر عند قدميه، ثم صار فيما بعد يكتب على هذه الحجارة، ثم اختارت كل قبيلة موضعاً من البقيع وجعلته مدفناً لموتاهم، ثم شيدت القباب على بعض القبور.

القبة:

القبة معلم معماري قديم تميزت به العمارات الإسلامية بصورة خاصة. وتطورت في ظل العصور الإسلامية إلى أشكال وطرز متعددة.

جاء في التاريخ أن القبر النبوي الشريف كان تحت السماء مباشرة، ثم سقف فيما بعد بجذوع النخل والجريد على شكل مسطح، ثم وقع السقف الذي كان على الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة وبقي على حاله، وفي العصر العباسي سنة ٥١٩هجري بنيت قبة على القبر الشريف. وبقيت القبة حتى سنة ٦٧٨ هجري أمر السلطان المنصور قلاوون ببناء قبة على القبر الشريف عوضاً عن المحترق في حريق عام ٦٥٤ هجري وفي سنة ٨٨٦ هجري وسع السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي القبة الشريفة وصبغها باللون الأزرق وجعلها على الدرابزين الذي على الحجرة كلها، ثم جاء السلطان محمود خان فبنى على الحجرة قبة أخرى ودهنها باللون الأخضر فوق القبة الزرقاء، وذلك عام ١٢٣٣ هجرى[1]

أما قبة أهل البيت النبوي صلوات الله وسلامه عليهم وباقي القباب في البقيع فقد بناها الخليفة الناصر أبو العباس أحمد بن المستضئ[2]، وبنيت سنة ٥١٩ هجرية، بناها الخلفاء

(١) الوفاء بما يجب لحضرة المصطفى للسمهودي ص ١١٤، ١١٢.

(٢) المرجع: التعريف لما آنست به الهجرة للمطري ص ٤٣، وأول محاولة لبناء قبة آل البيت (ع) كانت سنة ٤٩٥ هجري على يد أمير المدينة المنورة: منظور بن عمارة المهنا الحسيني فقد نفذه (مجد الملك البلاساني) أحد المعماريين لعمارة القبة على قبري الحسن بن علي، والعباس رضي الله عنهما، وكان من أهل قم وكان البلاسان قد فرّ إلى مكة وأمنه، وأرسل إليه بأمانة ثم قتله، وقد وصف بأنه كان فاضلا، وذا حزم وشجاعة (تاريخ أمراء المدينة المنورة)يقول الدكتور إبراهيم الشريفي في كتابه: التاريخ الإسلامي ص١٨٠: وتطور فن العمارة في عصر الفاطميين الذين اهتموا ببناء المساجد والقصور الفخمة المزخرفة بالنقوش البديعة.

العباسيون[١]، وفي سنة ١٢٢٠ هجرية هدمت قبة آل البيت (ع) وقبة الحمزة (ع) عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكل القباب التي بالبقيع وخارج البقيع في المدينة المنورة ومكة..[٢].

ثم أعيد بناؤها سنة ١٢٢٢ هجري بناها إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر وكتب اسمه واسم أبيه واسم السلطان محمود في دائرة القبة الشريفة لحضرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقبة آل البيت العظام[٣]. وفي سنة ١٣٤٣ هجري هدمت قبة الحمزة (ع) وقبة آل البيت (ع) وقبة زوجات وعمات وبنات الرسول، وعثمان بن عفان وكل القباب التي بداخل وخارج البقيع.

الهدم الأول للقباب:

يقول ابن بشر: (وفي أول هذه السنة قبل مبايعة غالب بايع أهل المدينة المنورة سعود على دين الله ورسوله والسمع والطاعة، وهدمت جميع القباب التي وضعت على القبور والمشاهد وذلك أن آل مضيان رؤساء حرب وهما بادي وبداي ابني بدوي بن مضيان ومن تبعهم من عربانهم أحبوا المسلمين ووفدوا على عبد العزيز وبايعوه، وأرسل معهم عثمان بن عبد المحسن أبا حسين يعلمهم فرائض الدين ويقرر لهم التوحيد.. فأجمعوا على حرب المدينة ونزلوا عواليها، ثم أمر عبد العزيز ببناء قصر فيها فبنوه وأحكموه واستوطنوه، وتبعهم أهل قباء ومن حولهم وضيقوا على أهل المدينة وقطعوا عنهم السوابل وأقاموا على ذلك سنين. وأرسل عليهم سعود وهم في موضعهم ذلك الشيخ العالم قرناس بن عبد الرحمن صاحب بلد الرس المعروف بالقصيم. فأقام عندهم قاضياً ومعلماً كل سنة يأتي إليهم في موضعهم ذلك، فلما طال الحصار على أهل المدينة وقعت المكاتبات بينهم وبين سعود من حسن قلعي وأحمد الطيار والأعيان والقضاة وبايعوا في هذه السنة[٤] سنة ١٢٢١هـ.

الهدم الثاني للقباب:

في المرة الأولى هاجم جيش ابن سعود المدينة من جنوبها، ودخلها من العوالي وقباء (الإخوان) وواصلوا زحفهم حتى اقتحموا السور، كما سمعنا من ابن بشر أما هذه المرة وهي الثانية، فقد دخل الملك عبد العزيز المدينة المنورة مستلماً لها من الشريف من شمالها، حيث كان (العرضى) التاريخ للإخوان معسكراً في الجرف والعيون، وحاصر المدينة مدة ستة أشهر، ويقول الأستاذ محمد حسين زيدان في معرض حديثه عن دراسته وذكرياته: (نركض على الدرج نجد

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة لجعفر الخليلي ص ٣٣٩.

(٢) وسائل في وصف المدينة المنورة ص ٦٥.

(٣) المصدر السابق ص ٦٦.

(٤) عنوان المجد في تاريخ نجد الجزء الأول ص ١٣٧.

الأستاذ قد جلس، كنا نحيا ذلك والمدينة محاصرة، والدرويش في قبا، والغرم في العوالي، والنشمي في العيون، والمدينة محكومة بحكام أربعة كل على حاله[١] انتهى.

كانت رحى الحرب دائرة بين الشريف، وابن سعود على المدينة، حتى انهزم الشريف وسلمت المدينة لأميرها محمد بن عبد العزيز، ووضع الناس السلاح، وعادت الحياة لسابق وضعها. وفي الرابع من شهر شوال عام ١٣٤٣ هجري من ضحى ذلك اليوم صارت فرق العساكر تطوف شوارع المدينة وتدخل الأزقة والحارات ومعهم مساعد شيخ طائفة البنائين من بيت (عصر) وكان شيخ الحرفة هو المعلم (خضر شيحة) كانوا يأخذون المعلمين وعمالهم إلى البقيع، وأحد حيث مقام سيد الشهداء الحمزة عم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويأمرونهم بهدم القباب، فباشر المعلمون الهدم مرغمين على ذلك لأن فرقة من (الإخوان) تركب الخيل، وتحمل معها حزماً من جريد النخل، تستحث بذلك المعلمين على الهدم[٢] حتى اذا ما مضيت أيام قلائل إلا وكل القباب هدمت وأزيلت أنقاضها من البقيع ومقامات سيد الشهداء وإسماعيل والنفس الذكية، وقد روى هذه القصة كثير من المعلمين الذين عاصروا هذا الحدث، ورواية أخرى يرويها أحد المعمرين من أهل المدينة يقول: إن الشيخ عبد الله بن بليهد ـ قدم المدينة ودعا علماءها وتحاور معهم حتى برهن ـ وفقاً لقناعته ـ أن زيارة القبور محرمة، وأنها بدعة في الدين، وشرك بالله، وأنه يجب أن يتفق جميع علماء المذاهب الأربعة على تخريب القبب وهدمها ومنع الزيارة، ونظراً لذلك فقد منعت زيارة جميع المراقد، والمشاهد، وأغلقت أبواب البقيع، ومقبرة سيد الشهداء وكل المراقد، وصار الناس لا يجرؤون على زيارة البقيع وغيره، حتى تمكن القاضي ابن بليهد من موافقة علماء المذاهب الأربعة على ذلك، فصدر الأمر بهدم جميع القباب وتخريبها، وما ذلك إلا اجتهاد شخصي من هذا الشيخ[٣].

---

(١) ذكريات العهود الثلاثة. محمد حسين زيدان. ص ٦٥ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

(٢) منهم والدي حسن حربي ومعه اثنان جزاء عبد الحفيظ وحسن فواز الشيمي وقد أمروا بهدم قبة سيدنا حمزة — رضي الله عنه- فصعدوا على ظهر المسجد وبدأوا في إحداث درج للصعود به لانزال الهلال. فصاروا ينقرون في ظهر القبة المشرفة طيلة يومهم حتى وصلوا إلى الهلال وانزلوه وأشرفت الشمس على المغيب فأرادوا النزول ومنعوهم (المتدية) إلا أن يخرقوا صحن القبة المقدسة فصاروا يتناوبون مرغمين على الضرب على القبة إلى أن سقطت طوبة واحدة على القبر وسقطت معها العتلى التي يعملون بها وصاح كل من كان بالحرم الشريف من الزوار والمصلين. وقد اصيب من سقطت من يده العتلة بالإسهال فانزلوه من على ظهر القبة وأدخلوه إلى العين فاغتسل. وتعاهدوا الثلاثة على ألا يقيمون في المدينة ولا يوماً واحداً فسافروا إلى مكة ومن فجر اليوم الثاني بعد أن تعاهدوا وتواعدوا على الالتقاء في (أبار علي) وذهبوا إلى مكة سيراً على الأقدام، وعند وصولهم إلى مكة وجدوا الحال فيها مثل المدينة هدم في جميع القباب والمقامات، غير أنهم مجهولون لا يعرفهم أحد فمنهم من اشتغل عاملاً في مخبز، وآخر اشتغل عاملاً عند أحد الحجارين. وثالث اشتغل بسقي الماء. وظلوا بمة ست سنوات لا يأتون إلى المدينة، ثم رجعوا إليها بعد ذلك.

(٣) إنني أعتقد ذلك لاسيما أنني وجدت ما يزيد ما ذهبت اليه من كتاب الثامن من شوال للسيد عبد الرزاق بن محمد بن عباس الموسوي آل المقرم قوله: إن هدم القبور من البقيع بأمر من ابن بلهيد وفتواه نقلاً عن (الذريعة).

وراوي آخر يحدث بأن القاضي واجه معارضة شديدة من الشيخ محمد علي بن تركي، الذي كان من العلماء الورعين الزاهدين المقيمين في المدينة كان متواضعاً في سمته، وهندامه، وقوراً في مشيه جذاباً في حديثه[1]، وقد عرفت من سيرته التي يتناقلها الناس، أنه كان لا يأخذ راتبه إلا من إيراد البريد بزعمه أنه الإيراد الحلال الذي لا تشوبه شائبة، وقد وصفه الرحالة رتز بقوله: وها هم يدرسون الآن على ابن تركي في الحرم الشريف، وابن تركي هذا نجدي سلفي معتدل[2].

البقيع في كتب الرحالة والمؤرخين:

زار أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي المدينة في القرن السادس الهجري، فوصف البقيع بقوله:

وبقيع الغرقد شرقي المدينة تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع، وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أم الزبير بن العوام رضي الله عنه، وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدني رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء، وأمامه قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط وهو المعروف بأبي شحمة وهو الذي جلده أبوه الحد فمرض ومات رضي الله عنهما، وبإزائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وعبد الله بن جعفر الطيار رضي الله عنه وبإزائه روضة فيها أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبإزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي رضي الله عنهما وفي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلي العباس رضي الله عنهما وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح لاصقة أبدع إلصاق مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم بن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ويلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويعرف ببيت الأحزان يقال أنه الذي أوت إليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين رضي الله عنه وعليه قبة مختصرة وعلى مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما وعن بنيها. ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة

---

(١) قد أدركته وعرفته عن كثب.

(٢) موسوعة العتبات المقدسة الجزء الثالث ص ٣٢٥.

والمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوبة ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضي الله عنهما وعن بنيها[١].

أما ابن بطوطة فقد زار المدينة بعد ابن جبير بقرن ونصف فكان وصفه للبقيع مشابهاً لوصف ابن جبير، فهذا هو البقيع في القرن السابع الهجري.

أما البقيع في القرن الثامن الهجري، فقد جاء وصفه في كتاب (المطري) يقول:

ذكر الشيخ محب الدين الطبري في كتابه ذخائر العقبى في فضائل ذوي القربى قال: أخبرني أخ لي في الله تعالى أن الشيخ أبا العباس المرسي كان إذا زار البقيع وقف أمام قبلة العباس وسلم على فاطمة رضي الله عنها، ويذكر أنه كشف له قبرها هناك والله أعلم، ومع الحسن رضي الله عنه ابن أخيه علي بن الحسين زين العابدين وابنه الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم، وعليهم قبة عالية البناء بناها الخليفة الناصر أبو العباس أحمد بن المستضيء ثم قبر عقيل بن أبي طالب ومعه في القبر ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وعليهم قبة. والمنقول أن قبر عقيل في داره ثم قبر إبراهيم ابن سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليه قبة فيها شباك من جهة القبلة وهو مدفون عن جنب عثمان بن مظعون رضي الله عنه كما ورد في الصحيح أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين مات إبراهيم (ع) أنهم قالوا آين نحفر له قال عند فرطنا[٢] عثمان، وورد أيضاً عن عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت أرسلت إليه عائشة رضي الله عنهما فقال: لست بمضيق عليك بيتك إني كنت قد عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه ادفنوني إلى جنب عثمان فدفن إلى جنبه.

فعلى هذا يزار مع إبراهيم (ع) وفي قبة عقيل رضي الله عنه حظر مبنى بالحجارة فيه قبور أزواج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيسلم عليهن هناك، ثم قبر أمير المؤمنين أبي عمرو عثمان بن عفان رضي الله عنه شرقي البقيع في موضع يعرف بحش كوكب وعليه قبة عالية بناها أسامة بن سنان الصلاحي أحد أمراء صلاحي الدين يوسف بن أيوب سنة إحدى وستمائة، ثم قبر أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهي فاطمة بنت أسد بنت هاشم ابن عبد مناف رضي الله عنه وعنها في آخر البقيع[٣] شمالي قبة عثمان رضي الله عنه في موضع يعرف بالحمام وعليها قبة

---

(١) رحلة ابن جبير أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي: ص ١٥٣- ١٥٤.

(٢) فرطنا: الفرط الذي تقدمه الجماعة ليهيء منزلهم ولوازمهم. عن عمدة الأخبار في مدينة المختار ص ١٠٥.

(٣) هذه رواية شاذة انفرد بها المطري لأن المشهور عند أهل المدينة وغيرهم أن قبر فاطمة بنت أسد -رحمها الله- داخل البقيع جنوب قبر العباس عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء في هامش صفحة ٢٥٤ من كتاب: تأريخ آثار مكة المدينة، لمؤلفه: أصغر قاندان تأكيده على أن قبر فاطمة بنت أسد في أول البقيع لأنها من بني هاشم وقبور بني هاشم كلها في أول البقيع. ولنرط كعب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لها كعبه لأمه لا يعقل أن يكون قبرها في آخر البقيع.

صغيرة ثم قبر أم الزبير صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها على يسار الخارج من باب المدينة ويقال أنها دفنت عند موضع الوضوء عند دار المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وعليها بناء من الحجارة أرادوا أن يعقدوا عليه قبة صغيرة فلم يتفق ذلك لقربها من السور والباب، ثم القبر الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة في قبة صغيرة إذا خرج الإنسان من باب المدينة كان مواجهاً له من جهة الشرق، ثم قبر إسماعيل بن جعفر الصادق في مشهد كبير مبيض غربي قبة العباس رضي الله عنه هو ركن سور المدينة من جهة القبلة والشرقي.

وباب من داخل المدينة بناه بعض ملوك مصر العبيديين[١].

أما في القرن العاشر، فقد وصف البقيع السمهودي عبر الروايات التي ينقلها عن سابقيه من المؤرخين يحدد فيها مواقع القبور في الفصل السادس تحت عنوان: في تعيين قبور بعض من دفن بالبقيع من الصحابة وأهل البيت، والمشاهد المعروفة في المدينة[٢].

وفي القرن الحادي عشر زار المدينة المنورة، ووصف البقيع الرحالة أبو سالم العياشي[٣] فقال تحت عنوان: ذكر المشاهد التي تزار بمدينته عليه السلام فذكر وصفاً طويلاً أسهب في الحديث فيه عن البقيع يبدأ من صفحة ٨٧ وينتهي بصفحة ٩٥.

وفي القرن الثاني عشر الهجري زار المدينة المنورة الرحالة المستشرق بورخارت وزيارته كانت في الفترة التي غيرت فيها معالم البقيع[٤] وفي أول القرن الرابع عشر الهجري وصف البقيع علي بن موسى[٥] فقال: ثم البقيع الشريف خارج السور الجواني مقابل لباب الجمعة المذكور آنفاً وفي من القباب عشرة وطاجن ومسجد مأثور يعرف بمسجد الصحابي الجليل سيدنا أبي بن كعب (رضي الله تعالى عنه) ومن قبليه قبة آل البيت العظام وهي أكبر القباب عند عتبة بابها الشامي فسقية يدفن بعض السادة العلوية.

وعند بابها الغربي طاجن فيه مدافن لبعض أمراء المدينة المنورة من أشراف بني حسين وفيها على الصحيح مرقد السيدة فاطمة الزهراء البتول بنت سيدنا الرسول ومرقد سيدنا العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - ومرقد سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الإمام الحسين السبط رضي الله عنه، ومرقد سيدنا محمد الباقر ومرقد سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنهما، ومن قبليتها قبة لا شيء فيها وتعرف بقبة الأحزان لا يزورها إلا الشيعة من الأعجام وغيرهم في زمن الموسم، ومن شرقي مسجد أبي بن كعب المذكور

---

(١) التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة من ص ٤٦- ٤٧.

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي من ص ٨٩١ – ٩٢٠.

(٣) المرجع: المدينة المنورة في رحلة العياشي وهو: عبد الله بن أبي بكر العياشي زار المدينة المنورة ليلة الخميس ١٠٧٣/١/٢ هجري.

(٤) موسوعة العتبات المقدسة قسم المدينة المنورة: ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٥) رسالة في وصف المدينة.

ومقابر كثيرة فيهم مراقد صاحب الطريقة السمان المدني وأولاده ومن شرقيتهم قبة أمهات المؤمنين المدفونين بالمدينة المنورة منهم سيدتنا عائشة الصديقة رضي الله عنها وعنهن أجمعين وجملتهم سبعة في قبة واحدة وأما السيدة ميمونة من الزوجات الطاهرات فهي مدفونة في حدود الحرم المكي بالحديبية، والسيدة خديجة بنت خويلد جدة الأشراف مدفونة في بشبعة النور بمكة المشرفة، ومن شرقي قبة الأزواج قبة بنات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهن زينب ورقية وأم كلثوم، وشامي قبة الزوجات الطاهرات قبة سيدنا عقيل بن أبي طالب وفيها مرقد سفيان بن الحارث وسيدنا عبد الله ابن جعفر الطيار وعن باب القبة بجوار ركناها الشامي مرقد سيدنا سعد بن أبي وقاص المهاجري من العشرة المبشرين بالجنة وشامي قبة سيدنا عقيل قبة الإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه) ومن شرقيتها باتصالها؟ قبة سيدنا نافع القرا مولى سيدكنا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه ومن شرقيها قبة سيدنا عثمان بن مظعون المهاجري رضي الله عنه وهو أول ميت دفن بالبقيع الشريف ولحده سيدنا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بيده الشريفة في قبره ثم حط الحجر المنصيل على رأس القبر بيده ثم دفن ابنه إبراهيم عنده ومعهما على أصح الروايات سيدنا عبد الرحمن بن عوف المهاجري من العشرة المبشرين بالجنة وقيل إن أبي هريرة رضي الله عنه معهم ومن شرقيها في وسط البقيع بالجهة الشامية منه بجوار الباب الشامي الغربي مراقد الشهداء المنقولين يوم أحد قبل صدور الأمر من المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) بدفن الشهداء في مصارعهم، وعند مراقد الشهداء المذكورين فساقي كبار للدفن العام في أيام وقوع الموت الذريع وفي آخر البقيع الشريف من جهته الشرقية قبة عظيمة دون قباب آل البيت في الجسامة وفيها مرقد ذي النورين سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله تعالى عنه)، ومن شاميتها بملاصقتها الجدار الشامي قبة كقباب الزوجات والبنات الطاهرات فيها مرقد السيدة حليمة السعدية مرضعة سيدنا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن خلفها خوخة صغيرة ومن شرقيتها خارج جدار البقيع الشريف قبة سيدنا أبي سعيد الخدري وقبة سيدتنا فاطمة بنت أسد أمرأة أمير المؤمنين المذكورتان أنفاً.

وإن للبقيع الشريف سور مجصص حائط[1] به وله أربعة أبواب ثلاثة غربية وبابان شاميان فواحد من الثلاثة الغربية تجاه باب قبة آل البيت العظام، والغربي هو المخصوص لتدخيل جنائز

---

(١) في عام ١٣٧٣ هجري جدد سور البقيع وكان المقاول الذي نفذ المشروع هو والدي حسن بن محمد حربي، وكان يعطيني بعد الظهر أجر المعلمين والعمال. وبعد العصر أذهب إلى مكان العمل لتسليم العاملين أجورهم وفي أثناء تواجدي أنظر من بعض الفتحات والنوافذ إلى مرقد إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في ذلك البناء الضخم الجميل التصميم. ولم يكن فيه من الخراب إلا أعلى القبة أي موضع الهلال وبجواره دار الإمام زين العابدين عليه السلام ومسجده ومضيفه والبئر التي وقع فيها ابن الإمام وهو يصلي.

النخاولة التي لا يصلي عليها في الحرم الشريف، والباب الثاني الغربي هو المقابل لباب الجمعة ومنه دخول جنائز الأهالي والمجاورين والحجاج والزوار وهو المفتوح على الدوام.

أما الباب الثالث الغربي هو في الركن الأوسط من الجهة الشتمية عند مراقد الشهداء لا يفتح إلا في زمن وقوع الموت الذريع فقط لقربه من الفساقي الكبار، وأما الشاميين فأحدهما عند الفساقي والثاني تجاه قبة سيدنا مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه، ويفتح في أيام الأعياد لازدحام الناس لزيارة أهل البقيع بغد فراقهم من صلاة العيد في كل سنة، ومن بين البقيع وبقيع العمات الطيبات السيدة صفية والسيدة عاتكة أخوات سيدنا حمزة رضي الله عنهم الطريق النافذ إلى جزع باب الجمعة وإلى مسجد الإجابة وإلى زرب هتيم الذي فوق طرف الحرة الشرقية[1].

مسجد المائدة = مسجد البغلة= مسجد بني ظفر[2]:

المائدة: هي البقعة من الأرض التي نزلت فيها سورة المائدة المدنية على رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقع شرقي الحرم النبوي الشريف يفصلها عنه البقيع الغرقد والشارع الداثري المسمى بشارع الستين وهي في طرف الحرة الشرقية المعروفة تاريخياً بحرة (دشم).

كانت بالمائدة ثلاث قباب، الأولى مكان مصلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)ركعتي الشكر، وثانية مدفن الدلدل بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والثالثة مكان (خيمة الزهراء) عليها السلام كان في صخرة في الموقع نفسه نقرة يقال أنها موضع حافر بغلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن حافر البغلة غاص في الحجر لأن السورة نزلت على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو على ظهرها يقول أمير المؤمنين وسيد الموحدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: لقد نزلت عليه وهو على بغلة شهباء، وثقل عليه الوحي حتى وقفت وتدلى بطنها حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض، وأغمي على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى وضع يده على رأس شيبة بن وهب الجمحي ثم رفع ذلك عن رسول الله فقرأ علينا سورة المائدة فعمل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعملنا[3].

(١) رسالة في وصف المدينة المنورة في سنة ١٣٠٣ هجري.

(٢) بنو ظفر: بطن من بطون قبيلة الأوس الأنصارية.

(٣) المرجع كتاب: مجمع البيان في تفسير القرآن المؤلف الشيخ أبو علي الفضل ابن الحسن الطبرسي المجلد الثاني الجزء السادس ص ٦ وممن ذكر مسجد المائدة محمد بن أحمد المطري ص ٤٩ ووفاء الوفاء ج٣ ص ٨٢٨ ورحلة العياشي ص ١١٢ ومعالم دار الهجرة ليوسف عبد الرزاق ص ٢٧٧ وموسوعة العتبات المقدسة قسم المدينة ص ٢٨٦ ومرآة الحرمين ص ٤١٩ والمدينة بين الماضي والحاضر ص ٣١٦. وصف المدينة ص ١١. وتاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ص ١٢٣ وغيرها كثير.

مسجد بني معاوية[1] = مسجد المباهلة = مسجد الإجابة:

يعرف هذا المسجد بمسجد الإجابة وهو شمالي البقيع على يسار طريق السالك إلى العريض وسط تلول وهي آثار قرية بني معاوية وهو اليوم خراب[2].

يروي بعض المؤرخين قصة حدثت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا المسجد، وملخصها، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا الله بدعوات ثلاث، فأجابه الله تعالى باثنتين ومنعه الثالثة وهنّ: لأن لا يظهر على أمة محمد عدو من غيرهم، وأن لا يهلكهم بالسنين، وأن يجعل بأسهم بينهم فأجابه الله سبحانه وتعالى على الاثنين الأوليين، ومنعه الثالثة.

إن الحديث الذي ينقله المطري يتعارض مع ما أجمع عليه كتاب السيرة النبوة المعطرة من أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مستجاب الدعوة.

جاء في مستدرك الصحيحين ما روى بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكر، قال: كان فلان يجلس إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا تكلم النبي بشيء اختلج بوجهه، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): كن كذلك، فلم يزل يختلج حتى مات[3].

وفي الطبقات لابن سعد، قال: كان خروج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول، فقام يوم الثلاثاء بقديد، فلما راحوا منها عرض لهم سراقة بن مالك بن جعشم وهو على فرس له فدعا عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرسخت قوائم فرسه فقال: يا محمد ادعوا الله أن يطلق فرسي وأرجع عنك وأرد ما ورائي ففعل، فأطلق ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ارجعوا فقد استبرئت لهم ما هاهنا وقد عرفتم بصري بالأثر فرجعوا عنه[4] وقصة أبي لهب[5] وقصة شيبة[6].

---

(١) بنو معاوية: هم بنو مالك بن النجار من الخزرج من الأنصار.

(٢) كتاب: التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، تأليف: محمد بن أحمد المطري ص ٥٠، وقد ذكره السمهودي في الجزء الثالث ص ٨٢٨ - ٨٢٩، وابو سالم عبد الله بن محمد أبو بكر العياشي في رحلته ص ١١٣، ومعالم دار الهجرة ووصف المدينة لعلي بن موسى ص ١٠، ١٣ والموسعة للعتبات المقدية ص٢٨٧، ومرآة الحرمين، والمدينة بين الماضي والحاضر، وتأريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ص١٢٣، ومفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي ص ٣٣٥، ذكره باسم مسجد المباهلة.

(٣) مستدرك الصحيحين، المجلد الثاني ص ٦٢١.

(٤) طبقات ابن سعد: ج ١، القسم ١، ص ١٥٧.

(٥) أسد الغابة ج٤، ص ٣٦٣.

(٦) مجمع الزوائد للهيثمي ج٦، ص ١٨٣.

مكان المباهلة:

وقعت المباهلة في المدينة المنورة في العام التاسع الهجري، وهو عام الوفود فقد خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لمقابلة وفد نجران، وعليه مرط أخضر وكان بين يديه علي بن أبي طالب والحسن عن يمينه والحسين عن يساره وفاطمة الزهراء خلفه صلوات الله وسلامة عليهم، فجلس جاثياً على ركبتيه في المكان والزمان الذي اتفقوا عليه، ويستدل من الروايات أن المكان كان قريباً من المسجد النبوي لأنها تصف الهيئة التي كان عليها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعه من يباهل بهم، ومن المعلوم أن المسافة بين المسجد النبوي الشريف ومسجد بني معاوية نصف كيلو على ما ذكر العياشي. وما عليه شيعة المدينة المنورة يتناقلونه بالرواية الشفهية جيلاً بعد جيل، وكذلك بعض الحجاج والزوار يأتون إلى هذا المسجد بهذا الاعتقاد.

القصة مجملة:

عن ابن عباس قال: إن رهطاً من نجران قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن قال فسكت عنهم فنزل الوحي:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾[1].

ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم): (أيم الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أباهلكم).

ثم إنهم وعدوه إلى الغد فلما أصبح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أقبل ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة، وعند ذلك قال لهم الأسقف: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل الجبل لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني، فقالوا له (صلى الله عليه وآله وسلم) (لا نباهلك) وكان ممن وفد عليه أبو حارثة أسقف نجران في ثلاثين رجلاً من النصارى منهم: العاقب، والسيد، وعبد المسيح، فقدموا المدينة وقت صلاة العصر وعليهم لباس الديباج، والصلب، فصار إليهم اليهود وتساءلوا بينهم فقالت النصارى لهم: لستم على شيء، وقالت اليهود: لستم على شيء، وفي ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾[2].[3].

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٦١.

(٢) سورة البقرة: ١١٣.

(٣) كان مقر إقامة وفد نجران في طرف من أطراف المسجد النبوي.

فلما صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العصر توجهوا إليه يقدمهم الأسقف فقال له: يا محمد ما تقول في السيد المسيح؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (عبد اصطفاه الله وانتجبه) فقال له الأسقف: أتعرف يا محمد له أبا ولده؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لم يكن عن نكاح فيكون له والد) قال: فكيف قلت: (إنه عبد مخلوق وأنت لم تر عبداً مخلوقاً إلى عن نكاح وله والد)، فأنزل الله سبحانه وتعالى من سورة آل عمران إلى قوله:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

فتلاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على النصارى ودعاهم إلى المباهلة وقال: (إن الله أخبرني أن العذاب ينزل على المبطل عقب المباهلة ويبين الحق من الباطل بذلك).

فاجتمع الأسقف مع عبد المسيح والعاقب على المشورة واتفق رأيهم على استنظاره إلى صبيحة غد من يومهم ذلك، فلما رجعوا إلى رحالهم قال لهم الأسقف: انظرا محمداً في غد فإن بولده وأهله فاحذروا مباهلته، وإن غداً بأصحابه فباهلوه، فإنه على غير شيء.

فلما كان من الغد جاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) آخذاً بيد علي بن أبي طالب عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام يمشيان بين يد فاطمة عليهما السلام تمشي خلفه، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم.

فلما رأى الأسقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أقبل بمن معه سأل عنهم؟ فقيل له: هذا ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام وهو صهره وأبو ولديه وأحب الخلق إليه وهذان الطفلان ولدا ابنته من علي عليهم السلام وهم من أحب الخلق إليه، وهذه الجارية ابنته فاطمة عليها السلام أعز النار عليه وأقربهم إلى قلبه فنظر الأسقف إلى العاقب، والسيد وعبد المسيح.

وقال لهم: انظروا إليه فقد جاء بخاصته من ولده وأهله ليباهل بهم واثقاً بحقه، والله ما جاء بهم وهو يتخوف الحجة عليه فاحذروا مباهلته، والله لولا مكان قيصر لأسلمت له ولكن صالحوه على ما يتفق بينكم وبينه وارجعوا إلى بلادكم وارتأوا لأنفسكم، فقالوا له: رأينا لرأيك تبع.

قال الأسقف: يا أبا القاسم إنا نباهلك ولكنا نصالحك على ما ننهض به، فصالحهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على ألفي حلة من حلل الأواقي قيمة كل حلة أربعون درهم

---

(١) سورة آل عمران ٥٩ – ٦١.

جياداً فما زاد أو نقص كان بحساب ذلك، وكتب لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كتاباً على ما صالحهم عليه[١].

والمعروف عند أهل المدينة المنورة الشيعة أن هذا المسجد هو مسجد المباهلة.

مسجد ونخل الصيحاني:

الموقع والمكان: جنوب منطقة العوالي امتداداً لها بعد الإشارة الضوئية للمرور التي تقع في شارع الحزام وامتداد شارع قربان، الموصل إلى سند بطحان شمال مصنع مياه المدينة المنورة (طيبة) يحده من الجنوب البستان المسمى (الحينة) المملوك للمرحوم موسى أو عيفة النخلي أحد الوجهاء في زمانه[٢] ومن الشمال بستان المرحوم جيدة السمان. وفي طرف بستان أبو عيفة يقع مسجد ونخيل الصيحاني.

توجد كتابة على الصخور قديمة بخط عربي يقرأ.

وممن ذكر الصيحاني السمهودي[٣] ما نصه: وأنواع تمر المدينة كثيرة استقصيناها في الأصلي والأول بلغت مائة وبضعاً وثلاثين نوعاً منها الصيحاني، وفي فضل أهل البيت لابن المؤيد عن جابر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً في بعض حيطان المدينة ويد علي في يده، قال: فمررنا بنخل، فصاح النخل هذا محمد سيد الأنبياء وهذا علي سيد الأوصياء أبو الأئمة الطاهرين، فم مررنا بنخل فصاح النخل: هذا محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا علي سيف الله، فالتفت النبي (صلى الله عليه

---

(١) كتاب: اللؤلؤة البيضاء في فضائل الزهراء نقلاً عن كتاب: أرجح المطالب للهندي ص ٥٥، ووردت هذه القصة مع اختلاف في اللفظ عن مسلم في كتاب فضائل الصحابة، في باب فضائل علي بن أبي طالب، والترمذي أيضاً في صحيحه ج٢، ص ٣٠٠ ومسند أحمد بن حنبل أيضاً ج١ ص ١٨٥ والسيوطي أيضاً في الدر المنثور، والحاكم والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ج٣، ص ١٥٠ وقال هذا الحديث صحيح عرى شرط الشيخين والزمخشري في الكاشف والفخر الرازي وتفسير ابن جرير والطبري ج٣ ص ٢١٣ وأبو نعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي طالح عن ابن عباس، والواقدي في أسباب النزول ص ٧٥، والصواعق المحرقة ص ٩٢. انظر كتاب: التاريخ الأمين لمدينة سيد المرسلين صفحة ٤٣٤، ٢٧٦وراجع موسوعة الموسم، الجزء ٩٦ الموسوم (مسيحيون و شيعة) ص ١٠١- ١٢١سنة٢٠١٢ اكاديمية الكوفة في هولندا.

(٢) كان صديقاً لرئيس المحاكم الشرعية في المدينة، وهو الشيخ عبد الله الزاحم الأول كان يزوره في بستانه كل عصر جمعة، وكان الأستاذ محمد حسين زيدان يكثر الثناء على موسى أو عيفة في برنامجه في الإذاعة وفي كتابه: العهود الثلاثة (المؤلف).

(٣) وفاء الوفاء: الباب الثاني، الفصل السادس الجزء الأول ص ٧٢- ٧٣ وكتاب: خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى باب الأول الفصل الخامس ص ٣٠ ذكر الخبر (ابن شاذان في كتابه: فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الجزء ١/ ٨٨ وذكر القصة مع اختلاف في اللفظ صاحب كتاب: ينابيع المودة للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي من علماء القرن الثالث عشر ط٦، ص ١٦٠ وورد ذكر الخل الصيحاني في كتاب: موسوعة العتبات المقدسة، قسم المدينة المنورة.

وآله وسلم) إلى علي فقال له: سمه الصيحاني، فسمي من ذلك اليوم الصيحاني، فكان سبب تسمية هذا النوع بذلك أو المراد فضل ذلك الحائط انتهى.

مسجد الشمس = مسجد الفضيخ:

الموقع: يقع في الجهة الشرقية من مسجد قبا على نحو كيلو متر واحد. فهو على يمين القادم من مسجد قبا، عند منتهى شارع قربان يتوسط مباني القرية وفي جنوبه تقع مقبرة صغيرة قديمة للأطفال لا يدفن فيها الآن، وهذا المسجد معروف ومشهور عند كثير من سكان المدينة المنورة وبعض الحجاج والزوار، كانوا يتعاهدونه بالصلاة والدعاء فيه، وكان صغير المساحة مبني بالحجارة السوداء غير مسقوف كما وصفه المطري[1] وحدد ذرعته السمهودي[2] ومع مرور السنين أخذ منه الجزء الشمالي الذي فيه الباب وصار الشارع الموصل بين قبا والعوالي عبر قربان. وأدخل جزء من مقبرة الأطفال من جهة الجنوب في المسجد وأعيد بناؤه بالطوب والإسمنت.

تاريخ المسجد:

إنه من المساجد التي صلى فيها أو مكانه قبل أن يبني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة بني النضير[3].

شبهة وتصحيحها:

كان من الأمور المتسالم عليها عند سكان، والزوار وحتى بعض المؤرخين أن مسجد الشمس غير مسجد الفضيخ غير مسجد بني قريظة ومما يؤيد هذا الاعتقاد السائد وجود أعيان ثلاثة قائمة لهذه المساجد الثلاثة، ولكن الثابت عن طريق العترة الطاهرة عليهم السلام، وأهل البيت أدرى بما فيه - كما يقول العرب -.

إن مسجد الشمس هو مسجد الفضيخ. وقد روى حادثة رد الشمس لأمير المؤمنين عليه السلام في المدينة في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) محدث الطائفة الكليني عن عدة من أصحابه، عن سهل بن زياد عن موسى بن جعفر عن عمرو بن سعيد، عن الحسين بن صدقة، عن عمار بن موسى قال: دخلت أنا وأبو عبد الله عليه السلام مسجد الفضيخ (الحديث) وفيه قصة رد الشمس لأمير المؤمنين عليه السلام وأنه كان في مسجد الفضيخ وذكر الحديث صاحب كتاب الوسائل الحر العاملي[4].

---

(١) مسجد الفضيخ بفتح الفاء، وكسر المعجمة وهو شرقي مسجد قبا على شفير الوادي على نشز من الأرض مرضوم بحجارة سود وهو مسجد صغير.

(٢) هذا المسجد مربع وذرعه من المشرق إلى المغرب أحد عشر ذرعاً ومن القبلة إلى الشام نحوها.

(٣) المساجد الأثرية في المدينة، المؤلف: محمد إلياس عبد الغني، ص ١٦٤ - ١٦٨.

(٤) الوسائل ج ١٤ ص ٣٥٥.

وقال صاحب كتاب الجواهر محمد حسن النجفي ص ١١٠ ج٢ فالظاهر أن هذا المسجد - أي الفضيخ - هو الذي ردت فيه الشمس لأمير المؤمنين حتى صلى العصر حين فاته الوقت بسبب نوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجره، فلما فرغ من الصلة انقضت انقضاض الكوكب.

وقال صاحب الحدائق في باب استحباب الصلاة في المساجد حول المدينة: ومنها مسجد الفضيخ بفتح الفاء وكسر الضاد المعجمة بعدها مثناة تحية وخاء معجمة، وهذا المسجد يعرف بمسجد الشمس وهو شرق مسجد قباء على شفير الوادي، مرضوم بحجارة سود وهو مسجد صغير[١].

مسجد الشمس هو مسجد الفضيخ وهو غير مسجد بني قريظة قسم المدينة المنورة من موسوعة العتبات المقدسة لجعفر الخليلي ص ٢٨٦.

وقال السخاوي في كتابه: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ص ٤٠، ٤١ (مسجد الشمس، وهو مسجد الفضيخ شرقي قباء مسجد الفضيخ: لشرب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه فضيخاً بنش، وهو صغير جداً شرقي مسجد قباء على شفير الوادي، ويعرف اليوم بمسجد الشمس لردها فيه لعلي بدعائه (صلى الله عليه وآله وسلم) - إن ثبت انتهى.

وذكر المشهدي في مزاره: مسجد الفضيخ روي أنه ردت فيه الشمس لأمير المؤمنين عليه السلام لما نام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجره[٢].

ومثل هذا ذكر فخر الدين الطريحي وأكد هذا جمال الدين أبي عبد الله بن محمد المطري في تاريخه عن المدينة[٣] ومحمد إلياس عبد الغني الذي أعد دراسة مقارنة بين المسجدين الفضيخ، وبني قريظة وكانت خلاصة الدراسة أن مسجد الشمس هو مسجد الفضيخ وما يعرف عند العامة بمسجد الفضيخ هو مسجد بني قريظة[٤].

رد الشمس للإمام علي في الزمان والمكان

تواترت الأخبار أن الشمس ردت للإمام أمير المؤمنين عليه السلام مراراً ومنها: يوم البساط ويوم الخندق[٥] ويوم حنين ويوم خيبر[٦] ويوم قريقاء، ويوم براثا، ويوم الغاضرية، ويوم النهروان، ويوم بيعة الرضوان، ويوم صفين، وفي النجف، وفي بني مازن[٧] وفي وادي العقيق[٨]، وبعد أحد..

---

(١) التاريخ الأمين لمدينة سيد المرسلين: تأليف الشيخ عبد العزيز بن صالح المدينة ص ٢٤٣ - ٢٨٩ - ٢٩٠.
(٢) كتاب: رد الشمس، تأليف محمد سعيد الطريحي ص ٩٤.
(٣) هامش ص ٦٤..
(٤) المساجد الأثرية في المدينة المنورة المؤلف محمد الياس عبد الغني ص ١٧٩- ١٨٣
(٥) كتاب الحاج في مكة والمدينة محمد المهدي الحسيني الشيرازي ص ٣٢٦.
(٦) وفاء الوفاء للسمهودي ص ٨٢٢ - ٨٢٣ الجزء الثالث.
(٧) موقع مسجد الشمس وما جاوره هي ديار بني مازن بني النجار الأنصاريين ذكره صاحب كتاب: تأريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، تأليف: الخياري ص ٣٧.
(٨) العقيق: وادي من أودية المدينة المنورة الجبارة يقع شمال المدينة، المصدر السابق ص ١٩٩.

وأما المعروف مرتان، الأولى في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الحديث الذي نقله طائفة من المحدثين الثقات، عن أسماء بنت عميس وبعض الصحابة ونص الحديث الذي أجمعوا عليه هو: (عن أسماء بنت عميس أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)صلى الظهر ثم أرسل علياً في حاجة فجاء وقد صلى (صلى الله عليه وآله وسلم) العصر فوضع رأسه في حجر علي، ولم يحركه حتى غربت الشمس فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (اللهم إن عبدك احتسب نفسه على نبيه فرد عليها شرقها)، قالت أسماء: فطلعت الشمس حتى رفعت على الجبال فقام علي فتوضأ فصلى العصر ثم غابت الشمس) والمرة الثانية كانت زمن خلافة الإمام علي وذلك بعد رجوعه من قتال الخوارج وكان ذلك في أرض بابل وقد دعا الإمام عليه السلام الله سبحانه وتعالى فردها عليه[1].

رد الشمس للإمام علي في الكتب والرسائل

إن مسألة رد الشمس للإمام علي (ع) استرعت انتباه كثير من المسلمين حتى انبرى بعض الباحثين والمؤلفين، وأفردوا لها كتباً ورسائل، صنفوها في الموضوع ومن أعلامهم:

١. أبو بكر الوراق: من روى رد الشمس.
٢. أبو الحسن شاذان الفضيلي له رسالة في طرق الحديث، ذكر شطراً منها السيوطي وقال: أورد طرقه بأسانيد كثيرة وصحيحة بما لا مزيد عليهم، ونازع ابن الجوزي في بعض من طعن فيه من رجاله.
٣. أبو الفتح محمد بن الحسن الأزدي الموصلي المتوفى سنة ٢٧٧ هجري.
٤. أبو القاسم الحاكم بن الحداد الحسكاني النيسابوري الحنفي له كتاب (مسالة في تصحيح رد الشمس وترغيم النواصب الشمس).
٥. أبو عبد الله الجعل الحسين بن علي البصري ثم البغدادي المتوفي سنة ٣٩٩ هجر له كتاب (جواز رد الشمس).
٦. أخطب خوارزم أبو المؤيد بن أحمد المتوفى سنة ٥٦٨ هجري له كتاب: رد الشمس لأمير المؤمنين.
٧. أبو علي الشريف محمد بن أسعد بن علي بن المعمر الحسني النقيب النسابة المتوفى سنة ٥٨٨ هجري: جزء في جمع طرق حديث رد الشمس لعلي.
٨. أبو عبد الله محمد بن الشيخ جمال الدين يوسف الدمشقي تلميذ ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هجري له كتاب: مزيل اللبس في حديث رد الشمس.

---

(١) كتاب: رد الشمس للطريحي ص ١٠ ـ ١١.

٩. جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجري له كتاب: كشف اللبس عن حديث رد الشمس.

١٠. برهان شق القمر ورد النير الأكبر للسيد أبي القاسم بن الحسين بن النقي الرضوي اللاهوري صاحب لوامع التنزيل، وحجج العروج على أهل اللجوج، وغيرها مخطوط.

١١. الشيخ كاظم نوح (معاصر) ١٨٨٥ ـ ١٩٥٩ م له: رد الشمس على أمير المؤمنين عليه السلام في موطنين في حياة الرسول وبعده من طرق إخواننا أهل السنة.

١٢. أبو الحسن السنجاري نصر بن عامر بن وهب[1].

وقد أورد الطريحي نماذج ممن أخرج الحديث من الحفاظ والأعلام بين من ذكره بغيره غمز فيه وبين من تكلم حوله وصححه[2] ولو أننا ذكرنا هذه النماذج لخرجنا عن غرض الكتاب، وتشعبت بنا الطرق، وحسبنا أن نذكر مثالاً واحداً فقط من عشرات الأمثلة التي احتوتها بطون الكتب، وقد ذكر الطريحي ثمانية وستين ناقلاً للحديث، مع الرد على كل شبهة وجهت على الحديث، أو رواية وانظر أيضاً كتاب: فضائل الخمسة من الصحاح الستة[3].

رد الشمس للإمام علي في الحديث:

إن الأحاديث الواردة في قصة رد الشمس للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) كثيرة، فلو أوردتها لخرج بنا الحديث عن موضوع الكتاب والغرض الذي ألف من أجله، ومن يريد الاستزادة، فما عليه إلا أن يرجع إلى الكتب المؤلفة لهذا الغرض.

الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجري[4] ذكر الحديث في كثير من كتبه وخصه ببحث مستقل (مزيل اللبس) المذكور آنفاً ومن كتبه التي ذكر فيها الحديث (جمع الجوامع) كما في ترتيبه ٥/ ٢٧٧ عن علي في عد معجزات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وذكره في كتابه: كفاية الطالب اللبيب، قال: أخرج ابن منده وابن شاهين والطبراني بأسانيد بعضها على شرط الصحيح عن أسماء بنت عميس قالت: كان رسول الله (صلى الله

---

(١) المرجع السابق من صفحة ١١ – ١٢.

(٢) انظر كتاب: رد الشمس لمحمد سعيد الطريحي من صفحة ١٤ – ٧٧.

(٣) كتاب: فضائل الخمسة من الصحاح الستة المؤلف السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي الجزء الثاني صفحة ١١٩، وما بعدها.

(٤) الجلال السيوطي، إمام حافظ مؤرخ أديب شهير له نحو ٦٠٠ مصنف أنظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ٤/ ٧١ - ٧٣ (الطبعة الثانية).

عليه وآله وسلم) يوحي إليه في حجر علي فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت، وفي لفظ للطبراني فطلعت عليه الشمس حتى وقفت على الجبال وعلى الأرض وقام علي فتوضا وصلى العصر ثم غابت وذلك بالصهباء[1].

وفي كتاب (اللئالي المصنوعة) توجه السيوطي لنقد ابن الجوزي لجعله هذا الحديث في الموضوعات، وليس هذا الحديث فقط وإنما الكثير من الأحاديث الصحيحة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جعلها في عداد الموضوعات وكتاب السيوطي هذا كله للرد على موضوعات ابن الجوزي كما ذكر في مقدمة كتابه اللئالي:

جمع الحافظ أبو الفرج بن الجوزي كتاباً فأكثر فيه من إخراج الضعيف الذي لم يخط إلى رتبة الوضع بل ومن الحسن ومن الصحيح كما نبه على ذلك الأئمة الحفاظ ومنهم ابن الصلاح في علوم الحديث وأتباعه، وفي معرض رد السيوطي لابن الجوزي وثق الحديث بتوثيق رواته الذين زعم ابن الجوزي ضعفهم قال: فضيل بن مرزوق الذي أعلى به الطريق الأول ثقة صدوق احتج به مسلم في صحيحه وأخرج له الأربعة، وعبد الرحمن بن شريك وإن وهنه أبو حاتم فقد وثقه غيره.

وروى عنه البخاري في الأدب، وابن عقدة من كبار الحفاظ والناس مختلفون في مدحه وذمه، قال الدار قطني: كذب من اتهمه بالوضع، وقال حمزة السهمي: ما يتهمه أحد بوضع الأباطيل، وقال أبو علي: الحافظ أبو العباس إمام حافظ محله من يسأله عن التابعين وأتباعهم، ثم الحديث صرح جماعة من الأئمة والحفاظ بأنه صحيح، قال القاضي عياض في الشفاء: أخرج الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عميس من طريقين أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي فذكر هذا الحديث قال الطحاوي: وهذا الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات وحكي الطحاوي أن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء ومما يشهد بصحه (الحديث) قول الإمام الشافعي وغيره.

ما أوتى نبي معجزة إلا أوتي نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) نظيرها أو أبلغ منها وقد صح أن الشمس حبست على يوشع فلابد أن لنبينا نظير هذه القصة[2].

---

(١) كتاب: رد الشمس لمحمد سعيد الطريحي نقلاً عن كتاب كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب ٨٢/٢ ويسمى الكتاب بالخصائص الكبرى ـ أيضاً ـ الطبعة الأولى ـ الهند ـ ١٣١٩ هجري.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧ وما بعدها.

آثار أهل البيت (ع)

امير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع)

مساجد تنسب للإمام علي (ع):

١ - مسجد المناخة[1] = مسجد الإمام علي = مصلى العيد للإمام علي

يقع هذا المسجد غرب مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى العيد في أكثر من موضع، قال ابن فرحون: وكان الإمامية يصلون صلاة العيد في المسجد الذي في المصلى المنسوب بزعمهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. حتى سنة ٧٦٣ هجري فمنعهم القاضي السني شرف الدين من الصلاة فيه وألزمهم بالدخول مع أهل السنة في المسجد الموجود[2].

صلى الإمام علي العيد وخطب في مكان هذا المسجد وحج بالناس ابن عباس أيام كان عثمان محصوراً، ذكر ذلك ابن قتيبة في المعارف ص ١٩٦، والسمهودي ص ٧٨٤.

٢ - مسجد الإمام علي بمنطقة الخندق:

مسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يقع في منطقة الخندق، وهو أحد المساجد الستة جدد بناءه بعدما تهدم الحسين بن أبي الهيجاء أحد وزراء الفاطميين ملوك مصر سنة ٧٧ هجري[3].

٣ - مسجد الإمام علي بقباء[4]:

يقع على مسافة قصيرة من مسجد قباء وبقربه بئر عميقة تسمى العين الزرقاء ذكر هذا المسجد الرحالة المستشرق بورخارت والحاوي في التحفة اللطيفة ص ٤٠.

٤ - مجلس الإمام علي (ع):

لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، مكان مخصص كان يجلس فيه ينتظر الصلاة تحت حائط المسجد النبوي الشريف من جهة الغرب توضع له فيه طنفسة يوم الجمعة[5].

---

(١) المناخة: هي الساحة الواسعة الواقعة غرب المسجد النبوي الشريف، وسميت بالمناخة لأنها كانت مناخاً لإبل الصدقة، وركوب الحجاج وقوافل الزوار من كل الأمصار.

(٢) تأريخ المدينة المنورة المسمى: نصيحة المشاور وتعزية المجاور المؤلف: عبد الله بن محمد بن فرخون المالكي ص ٢١٩ وذكره المطري (المطري) في كتابه. بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة ص ٨٢، وكتاب: تحقيق النضرة ص ١٤٣، والسمهودي ص ٨١٢، ورحلة العياشي ص ١٠٨، ومرآة الحرمين ص ٤٢٢، كتاب: الحاج في مكة والمدينة، لمحمد بن المهدي الحسيني الشيرازي ص ٩٣.

(٣) التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة تأليف محمد بن أحمد المطري ص ٥١، تحقيق النضرة ص ١٤٠، السمهودي ص ٨٦٧، الحاج في مكة والمدينة تأليف محمد بن المهدي الحسني الشيرازي ص ٩٢، والعلامة المجلسي في البحار ص ٢٢٥ ج ٩٧، والشيخ عباس القمي في كتاب مفاتيح الجنان، وابن بطوطة في رحلته ص ١٤٥، وابن جبير في رحلته ص ١٥٧، وقسم المدينة المنورة من موسوعة العتبات المقدسة لجعفر الخليلي ص ٢٤٦، ٢٨٨.

(٤) المصدر كتاب: موسوعة العتبات المقدسة، قسم المدينة المنورة ص ٢٥٦، تحت عنوان: أماكن الزيارة الأخرى.

(٥) كتاب: نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون ص ١٧، نقلاً عن موطأ مالك بن أنس.

٥ - مسجد الإمام علي في العوالي:

يقع هذا المسجد وسط حي سكني لبني علي من قبيلة حرب في منطقة في العوالي تعرف باسم (زرب دغميان) في طرف الحرة الشرقية من جهة الغرب، وشمال هذا المسجد تقع المزرعة المعروفة باسم (سريا) ويقال أنها من أملاك الإمام الباقر (ع) وقيل الإمام الصادق، وقيل ولد فيها الإمام الكاظم، وقيل هي للإمام الجواد عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، وعلى حدها الجنوبي تقع مقبرة صغيرة قديمة مهجورة لا يدفن فيها، يقال آن أم الإمام علي بن موسى الرضا عليهم السلام مدفونة في هذه المقبرة، هكذا حكاه سكان العوالي ممن أدركتهم من المعمرين، وإلى اليوم يرى الحجاج والزوار من الإيرانيين والهنود وغيرهم يأتون إلى هذه المنطقة بحثاً عن قبر أم الإمام علي بن موسى الرضا عليهم السلام، وهي ليست ببعيدة عن مشربة أم إبراهيم مارية القبطية الواقعة في جنوبها، والله أعلم.

مسجد للإمام علي (ع) في منطقة احد:

يذكر الشيخ الحاج عباس القمي مؤلف كتاب (مفاتيح الجنان) مسجداً للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام محاذي قبر الحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[١].

مصحف بخط الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

في الحجرة المعطرة من جهة الغرب عند رأس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يوجد صندوق عليه كسوة من القطيفة الحرير الأخضر مزركشة بالجر عند شمعدان الذهب، يوجد في خذا الصندوق مصحفان أحدهما لسيدنا عثمان بن عفان (رض) عليه دمع مكتوب بالخط الكوفي على رق غزال، يخرج هذا المصحف ويقرأ فيه عند المهام كطلب النصر للدولة العلية..

وقد قرأ فيه في زمان المؤلف. الخطيب محمد علي بالي، ونسخة ثانية أدق خطاً من الأولى مكتوبة على رق غزال يقال أنها بخط سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[٢].

صدقات أمير المؤمنين الإمام علي (ع):

١ - حديقة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) تقع في شمال المسجد النبوي الشريف بجوار ما يسمى (بالاتريك) أي محطة توليد الكهرباء للمسجد النبوي، وشمال المحطة يقع مضيف الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) كان سور الحديقة قريباً من باب بصرى باشا العثماني، ومساحتها تقرب ثمانمائة متر ٨٠٠ متر تقريباً عليها سور من اللبن والطين، وهو من جهة الغرب، فيما يبدو، ويخبرني الوالد حسن بن محمد حربي أنه أدركها مفتوحة الباب، وعليها باب

---

(١) المصدر كتاب: مفاتيح الجنان، تأليف: الحاج الشيخ عباس القمي ص ٣٢٥.

(٢) انظر كتاب: رسائل في تاريخ المدينة، تقديم وإشراف حمد الجاسر رسالة (وصف المدينة المنورة) ص٩.

من خشب السدر، وكان مسؤلوا النظافة في المسجد النبوي يضعون فيها كناسة المسجد النبوي الشريف، وكانت مستودعاً لأدوات النظافة الخاصة بالمسجد النبوي الشريف[1].

الفقيرين:

٢ ـ الفقير ضد الغني: اسم لموضعين قرب المدينة، يقال لها الفقيران، وعن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما قال: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أقطع علياً رضي الله عنه، أربع أرضين، الفقيرين، وبئر قيس، والشجرة[2].

من حدائق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مزرعة (الفقيرين) بالعالية، ذكرها ابن شبة في تأريخه، ونقل عن السمهودي وأن أهل المدينة لا يعرفون عنها شيئاً[3]. غير أن السمهودي يقول: إن من صدقات علي رضي الله عنه الفقيرين مثنى فقير، حيث قال: وكان لي صدقات بالمدينة، الفقيرين بالعالية وبئر المالك بقناة.

ويعلق السمهودي على هذا الخبر بقوله: وأهل المدينة اليوم ينطقون مفرداً تصغيراً لفقير ضد الغنى، وهو اسم الحديقة العالية قرب بني قريظة، وكان الفقير لعمر بن سعد، وصار لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[4].

أما المعروف عند أهل المدينة اليوم وما هو شائع على ألسنتهم أن مزرعة (فقير) تصغير مفرد الفقير، وهي نفس المكان الذي يصفه السمهودي أنها من أملاك (سلمان الفارسي) صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان إلى عام ١٤٠٠ هجري في أيدي نسله المعروفين بالفوارس، وكان الحجاج والزوار يأتون إليها ويشترون من تمرها، ثم نزعت ملكيتها، وقطع نخلها وأقيم مكانه مدرسة ثانوية للبنين.

صدقات أمير المؤمنين في قرى المدينة:

لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من العيون والمزارع خارج المدينة الشيء الكثير، ففي ينبع له، البغيبغة، و(عين البحير)، (عين أبي نيزر)، و(عين الحدث) و(عين العصيبة) و(عين ناقة) و(عين نولة) و(خفيف الأراك) و(خيف ليلة) و(خيف بطاس).

وبوادي القرى يقال له (عين حسن) بالبيرة من العلا.

وله بوادي القرى أيضاً (عين الموات) و(عين سكر) و(بحره الرجلاء).

---

(١) أن خبر هذه الحديقة، وما أثبته من آثار أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مما تواترت به الأخبار وأجمعت عليه الروايات الشفهية من المعمرين من شيعة المدينة المنورة ممن أدرك هذه الآثار الشريفة وأجمعوا على أنها تمت لآل البيت النبوي الشريف بصلة، ومستحيل على العقل أن يتواطئ الناس على الكذب، وإن مزيداً من التتبع لحياتهم سيكشف المزيد من آثارهم الشريفة سلام الله عليهم أجمعين وعلى جدهم رسول الله، وجدتهم خديجة.

(٢) المصدر كتاب: المغانم المطابة في معالم صابة، تأليف مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ص ٣١٨.

(٣) تأريخ المدينة المنورة: لابن شبة أبو زيد عمر بن شبة ٢٢٣. والسمهودي ص ١٢٨٢.

(٤) تأريخ: وفاء الوفاء للسمهودي الجزء الثاني ص ١٥٥.

وله بناحية فدك - أي الحائط والحويط - وادي بين لابيّ حرة يدعى (رعية) وله ايضاً بفدك واد يقال له (الأسحق) و(القضيبة)[١].

قال الشاعر أبو فراس الحمداني:

الــدين مخــترم والحــق مهتــضم وفي آل رســـول الله مقتــسم

النــاس عنــدك لا نــاس فــيحفظهم ســوء الرعــاة ولا شــاء ولا نعــم

قال دعبل بن علي الخزاعي:

أرى فيــئهم في غيرهــم متقــسماً وآيــديهم مــن فيــئهم صــفرات

آبار علي = ذو الحليفة[٢]:

في القسم الجنوبي من وادي العقيق الذي هو أحد وديان المدينة المنورة، مجموعة من الآبار بعضها ردم والبعض الآخر لا يزال موجوداً ماثلاً للعيان، وماؤها عذب فرات حفرها أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وعددها ثلاث وعشرون بئراً[٣] وفيها مسجد ينسب للإمام علي (ع).

سويقة:

سويقة: تصغير ساق: موضع قرب المدينة المنورة يسكنه آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم خرج علي المتوكل، فانفذ إليه أبا الساج، في جيش ضخم فظفر به، وبجماعة من أهله، فأخذهم وقيدهم وقتل بعضهم، وأخرب سويقة وعقر بها نخلها وخرب منازلهم وحمل محمد بن صالح إلى سمراء وما أفلحت سويقة بعد ذلك وكانت من جملة صدقات علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٤].

دكة قضاء الإمام علي بالمدينة المنورة:

الدكة: هي المكان المرتفع الذي يجلس عليه والجمع دكك كغرفة وغرب، ورد أن الدكة تستعمل لجلوس الشيوخ للتعليم، فقد جاء أن عبد الله بن محمد البغوي (المتوفي عام ٣١٧ هجري) اجتاز فسمع صوت مستملي فسأل عنه فقيل ابن صاعد فقال: (والله لا أبرح من

---

(١) انظر كتاب: تاريخ المدينة لابن شبة من ص ٢١٩ - ٢٢٥.

(٢) آبار علي (ع) سميت بهذا الاسم لأن الأرض المسماة (الشجرة) إحدى قطائع الإمام علي (ع) التي أقطعها رسول الله (ص) له في المدينة وهي النقيرتين وبئر قيس والشجرة روى هذا عن الإمام جعفر الصادق (ع) انظر السمهودي ص ١٢٨٢.

(٣) تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً تأليف السيد أحمد ياسين الخياري تحقيق الأستاذ عبيد الله محمد أمين كردي ص ١٩٩.

(٤) المغانم النطابة في أخبار طابة، المؤلف: الفيروز أبادي ص ١٩٢.

موضعي حتى أملي من ها هنا، فصعد الدكة، وجلس وراء أصحاب الحديث، فأملى ستة عشر حديثاً من ستة عشر شيخاً)[١].

ومن الدكك المشهورة دكة القضاء التي كان يجلس عليها الإمام علي ليقضي بين الناس - يعني في الكوفة - ودكة المعراج قرب مقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ودكة الإمام علي ذكرها ابن شهرآشوب في مناقبه[٢].

دكة قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالمدينة المنورة: هي بناء شبه مربع يرتفع عن مستوى سطح الأرض بنصف متر تقريباً وفي جهة القبلة منها محراب، وتقع الدكة شرقي البقيع والمسافة بينها وبين القبور الطاهرة لأهل البيت عليهم السلام عرض شارع الستين وطول البقيع من السور الشرقي حتى القبور الطاهرة، وكلمة دكة لا تزال شائعة الاستعمال في المدينة المنورة، وقد أوقفني كثير من إخواني المؤمنين فما استطعت أن أتبين المعالم التي ذكروها لي والله أعلم.

اسطوانة امير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام):

خلف المصلى في مقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من جهة الشمال اسطوانة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتعرف بالحرب لأنه رضي الله عنه كان يجلس إليها لحراسة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي مقابل الخوخة التي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخرج منها من بيت عائشة رضي الله عنها إلى الروضة الشريفة للصلاة، وخلفها من جهة الشمال اسطوانة الوفود[٣]، قسم المدينة المنورة صفحة ٢٦٨ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي ص ٢٥.

خوخة الإمام علي:

الخوخة: كوة في البيت توصل إليه الضوء، والخوخة مخترق ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب، بلغة الحجاز، وقيل أنها مخترق ما بين شيئين وفي الحديث (لم تبق خوخة في المسجد إلا سدت غير خوخة علي).

وهي باب صغير كالنافذة تكون بين بيتين ينصب عليها باب[٤] وكان للحمزة والعباس عمي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولأبي بكر وعمر خوخات على المسجد النبوي، فنزل الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسد جميع الأبواب إلا باب علي بن أبي طالب عليه السلام.

---

(١) كتاب العتبات المقدسة في الكوفة تأليف محمد سعيد الطريحي ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ٨٥.

(٣) كتاب التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة ص ٣١، سميت اسطوانة علي -عليه السلام- لأن مصلاه كان إليها، وكان يجلس في صفحتها التي تلي القبر مما يلي باب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحرس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).. من كتاب المسجد النبوي الشريف، لمحمد إلياس عبد الغني ص ١٣٠ - ١٣١ نقلاً عن المطري.

(٤) الطريحي :العتبات المقدسة في الكوفة ص ٨٦.

قال السيوطي في تفسيره الدر المنثور في ذيل تفسير قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى) في سورة النجم قال: وأخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء وحبة العرني قالا: أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن تسد الأبواب التي في المسجد فشق عليهم، قال حبة، إني لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وقد التحف قطيفة حمراء وعيناه تذرفان وهو يقول: أخرجت عمك وأبا بكر وعمر والعباس وأسكنت ابن عمك، فقال رجل: ما يألو يرفع ابن عمه، قال فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه شق عليهم فدعا الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول لله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً، فلما فرغ قال: (يا أيها الناس: ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته، ثم قرأ(صلى الله عليه وآله وسلم): والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى)[1].

محراب الإمام علي بن أبي طالب:

المحراب: اصطلح على النقطة التي تحدد اتجاه المسلمين إلى القبلة[2] حين يجتمعون للصلاة بلفظة محراب وهي كوة في الحائط تعلوها نصف قبة وفوق الكل قبة المحراب، فالمحراب دائماً يكون دائماً متجهاً نحو القبلة وهو محل الإمام من المسجد وتكبيره وركوعه وسجوده ليأتم به المصلون، فاهتمام المصلين وتركيز ذهنهم وانصراف قلبهم أثناء الصلاة مركز على المحراب وأمامه المتجهين إلى القبلة.

ويعتقد أن لفظة المحراب مأخوذه من شبه الجزيرة العربية ووردت في أبيات من الشعر الجاهلي قال وضاح اليمن:

ربة محراب إذا جئتها لم القها او ارتقي سلماً

كما ورد ذكرها غير مرة في القرآن الكريم، وقيل سمي بالمحراب لانفراد الإمام فيه وبعده المصلين ومنه يقال: فلان حرب لفلانة أي بينهما بعد وتباغض والمحراب صدر البيت أو المجلس وأكرم مواضعه ومقام الأمن من المسجد. والموضع الذي ينفرد فيه الملك، فيتباعد عن الناس[3] وجاء ذكر محراب الإمام علي بن أبي طالب (ع) فيما كتبه القاضي الميرزا عبد الله أفندي على هامش البحار (في باب فضل الكوفة) قال نقلاً عن كتاب محمد بن المثنى عن جعفر بن ذريع المحاربي قال: سألت أبا عبد الله - الإمام الصادق - عن حد المسجد، إلى أن قال

---

(١) وانظر أيضاً (صحيح الترمذي ج٢ ص٣٠١) و(مستدرك الصحيحين ج٣ ص ١٢٥)، و(مسند الإمام أحمد بن حنبل ج١ ص ١٧٥)، و(مسند أحمد بن حنبل ج١ ص ٣٣٠) و(حلية الأولياء لأبي نعيم ج٤ ص ١٥٣)، و(خصائص النسائي وغيره).

(٢) القبة لغة (ناحية الصلاة ووجهة المسجد وهي التي يصلي نحوها واصطلاحاً هي الاتجاه الذي يأخذه المصلي في صلاته في المسجد أبو البيت أو أي مكان مكشوف أو مغلق وقبلة المسمين هي المسجد الحرام بمكة قال تعالى:(قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولنيك قبلة ترضاها. فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره..) البقرة ١٤٤، نقلاً عن هامش العتبات المقدسة في الكوفة ص ٩.

(٣) العتبات المقدسة في الكوفة تاليف محمد سعيد الطريحي ص ٥٩.

وسألته عن بيت عليّ، فقال: إذا دخلت فهو من عضادته اليمنى إلى ساحة المسجد الماثل الآن والملاصق لمحراب الإمام علي[١].

وقد ذكر المطري محراب أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو إلى الآن معروف عند كثير من الناس قال المطري: وأدخل عمر بن عبد العزيز بعض بيت فاطمة رضي الله عنها من جهة الشمال في الحائط الذي بناه محرفاً على الحجرة الشريفة يلتقي على ركن واحد لئلا تكون الحجرة الشريفة مربعة كالكعبة فيتصور جهال العامة الصلاة إليها كالصلاة إلى الكعبة، وبقي بقية البيت من جهة الشمال وفيه اليوم صندوق مربع من خشب فيه اسطوانة وخلفه محراب[٢].

والمحراب الذي اشير إليه هو في الركن الجنوبي الغربي من الدكة الملاصقة للشباك من جهة الشمال مقابلة لما تسمى اليوم بدكة الأغوات (خدام الحرم).

يقول صاحب كتاب: تأريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً: محراب التهجد هو المحراب الشريف داخل الحجرة الشريفة النبوية وكانت تتهجد عنده ليلاً سيدتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقابله من الخارج محراب آخر يسمى باسمه تخليداً لذكره أمام الناس وهو في محيط الدرابزين المحيط بالحجرة النبوية الشريفة من جهة الشمال أمام دكة الأغوات[٣].

خيبر:

خيبر: اسم ولاية مشتملة على حصون ومزارع ونخل كثيرة، والخيبر بلسان اليهود، الحصن ولكون هذه البقعة تشتمل على حصون، سموه خيابر[٤] فتحها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كلها في ذي الحجة سنة ست وذكر الواقدي أنها كانت أول سنة سبع من الهجرة، وكان كلما أخذ الراية واحداً من الصحابة رجع مهزوماً، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يشتكي الرمد في عينيه، فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ومسحها بريقه فشفيتا، وقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.. فأعطى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الراية لعلي (عليه السلام) قال أبان: وحدثني زرارة قال: الباقر عليه السلام: انتهى إلى باب الحصن وقد أغلق في وجهه فاجتذبه اجتذاباً وتترس به، ثم حمله على ظهره، واقتحم الحصن اقتحاماً واقتحم المسلمون الباب على ظهره قال: فو الله ما لقي علي عليه السلام من الناس تحت الباب أشد مما لقي من الباب ثم رمى بالباب رمياً وخرج البشير إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن علياً دخل الحصن فأقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرج علي يتلقاه[٥].

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧.

(٢) التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة، لمحمد بن أحمد المطري المتوفي سنة ٧٤١ هجري ص ٣٥.

(٣) المرجع كتاب: تأريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً تأليف السيد أحمد ياسين الخياري من علماء القرن الرابع عشر الهجري ص ٧١.

(٤) المغانم المطابة في أخبار طابة، للفيروز آبادي ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٥) أعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ص ١٣٠- ١٣١.

وعندما وصل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ركز الراية قريباً من الحصن فخرج إليه مرحب في عادية باليهود فبارزه فضرب رجله فقطعها وسقط وحمل علي والمسلمون فانهزم اليهود[1].

والشائع على ألسنة الناس أن ضربة الإمام علي (عليه السلام) لمرحب أصابت رجله، ثم هوى السيف إلى الأرض وشق بها أخدوداً ينبع منها الماء، وهو يجري إلى اليوم ويسمى (عين علي) وفي المدينة القديمة مسجدان أحدهما كبير بجوار العين وفيه المحراب الذي صلى فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومنبر كان يخطب فيه أمير المؤمنين ومسجد آخر داخل قصر (مرحب) على الجبل بنى في المكان الذي صلى فيه.

وعن إبراهيم عن أبيه قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (ميلان في ميل من خيبر مقدس).

وعن سعيد بن المسيب يرفع: (خيبر مقدسة والسوارقية مؤتفكة).

وعن سليمان بن صخر يرفعه: (نعم كالقرية في سنيات المسيح خيبر) يعني زمان الدجال[2].

اسم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مكتوب على جبل سلع:

جبل سلع: شمالي المدينة تحت سفحه قبر النفس الزكية من جهة الشرق، ومن غربه وشماله يقع الخندق الذي أشار به سلمان الفارسي - رحمه الله - في غزوة الأحزاب قال الشاعر يصف سلعاً:

لعمرك إنني لأحب سلعاً	لرؤيته ومن أكناف سلع
تقر بقربه عيني وإني	لأخشى أن يكون يريد فجعي[3]

ذكر الشيخ جعفر السبحاني في كتابه: سيد المرسلين ج ١ ص ٦١٠ قال: وجدت في جبل سلع سنة ١٣٥٨ هجري في المدينة المنورة في الكتابة القديمة (أنا علي بن أبي طالب)[4].

موقعة خوخة الإمام علي (عليه السلام):

إن عمر بن عبد العزيز لما فتح عشرين باباً للمسجد سنة ٩١ هجري أدخل بيت علي وفاطمة عليها السلام داخل المقصورة وصار موقع هذا البيت في محاذاة الباب الثاني في الحائط الشرقي ولذا عرف هذا الباب بباب علي رضي الله عنه، ولما سد الباب أثناء تجديد الحائط الشرقي في فترة مبكرة جعل مكانه شباك وكلما جدد هذا الحائط جعل الشباك في موضعه الأول، وهو الآن أول شباك على يمين الخارج من باب جبريل[5].

---

(١) المصدر السابق ص ١٣١.

(٢) المغانم المطابة في معالم طابة، للفيروز آبادي ص ١٣٧.

(٣) السمهودي ص ١٢٣٥ ج ٢.

(٤) التاريخ الأمين لمدينة سيد المرسلين للمدني.

(٥) كتاب: بيوت الصحابة حول المسجد النبوي الشريف، المؤلف: محمد إلياس عبد الغني ص ٩٤.

أثر قدمي الإمام علي (ع) على البحر:

في منطقة العوالي شمال شرق مشربة أم إبراهيم في مزرعة تسمى (الهجير) يوجد على صخور الحرة الشرقية أثر لقدمي شخص، والناس يعتقدون أن هذا الأثر يخص أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) ويتعهدونه بالزيارة والمشاهدة، وقد تعرض هذا الأثر للسرقة فكسرت الصخرة، فأعاد صاحب البستان الجزء المكسور وثبته بالخرسانة المسلحة والله أعلم.

أثر آخر لقدم أمير المؤمنين:

في مسجد بني قريظة الذي قال في حقه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة) يقع شرف مسجد الفضيخ بجوار المزرعة المعروفة (حاجزة) يقول أهل العوالي إن في محرابه أثر قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم سد هذا الأثر بالخرسانة المسلحة، ثم هدم هذا المسجد ويقال أنه سوف يعاد بناءه من جديد.

آثار الإمام زين العابدين (عليه السلام):

١ ـ دار زين العابدين ومسجده ومضيفه:

تقع في الجهة الغربية الشمالية من مدفن اسماعيل هذا بنحو عشرين متراً وكان يسكن الدار أحد أبناء أبو ربعية، وكان للدار تقدمة في الطابق الثاني ظاهرة في الشارع، وقد كنت أبحث ذات يوم ودخلت الدار وهو معي فكان على يمين المدخل داخل الدار بئر[1] عليه حلق حجري بديع الصنع، كخرزة وبجانب البئر على يمين المدخل أيضاً مقعد دختله فوجدت المحراب على يسار الداخل وسقفه مقبب والمسجد منقوش بألوان نقشاً جميلاً[2].. وتقع الدار داخل سور المدينة بين الحرم والبقيع.

٢ ـ مسجد أخر للإمام زين العابدين:

سبب بناء هذا المسجد هو: أن الإمام زين العابدين عليه السلام عندما وصل مشارف المدينة المنورة في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول عام ٦١ للهجرة قادماً من الشام معرجاً على العراق بعد وقعة كربلاء جلس في موضع المسجد المسمى باسمه الآن. يؤدي ورده، ويحتال لإيصال خبر مقتل الإمام الحسين عليه السلام إلى الهاشميات الآرامل والأيتام كي لا يفجعهم

---

(١) البئر التي وردت في الأخبار وكتب التراجم أن أحد أبناء الإمام عليه السلام سقط فيها وهو طفل وأبوه يصلي. ولم يقطع الصلاة فقالت له زوجته: ما أقسى قلوبكم يا بني هاشم.. فظل الطفل في البئر حتى فرغ الإمام من صلاته فدعا الله بكلمات فزم الماء حتى وصل إلى سطح الأرض فقال الإمام زين العابدين عليه السلام خذيه يا ضعيفة اليقين. كتاب مجموعتي صفحة ٢٦٤ المؤلف علي محمد دخيل.

(٢) هذا الوصف لإبراهيم بن علي العياشي في كتابه: المدينة بين الحاضر والماضي ص ١٧٨ . وممن ذكر دار الإمام زين العابدين ومسجده، المطري في كتابه: التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة ص ٤٦ ـ ٤٧. وهامش المغانم المطابة في معالم طابة للفيروز آبادي ص ٦٠ وذكره السمهودي في وفاء الوفاء من ٩٢٠ ـ ٩٢١ وذكره ابو سالم عبد الله بن محمد العياشي المدينة المنورة في رحلت العياشي ص ٩٥. وصاحب كتاب مفاتيح الجنان الشيخ عباس القمي ص ٣٣٥. وكتاب الحاج في مكة والمدينة للسيد محمدمهدي الشيرازي ص ٩٣.

وكان معه أحد أصحابه واسمه (بشر بن حذلم) فالتفت إليه الإمام زين العابدين عليه السلام قائلاً له: يا بشر - رحم الله أباك - قد كان شاعراً، هل تحسن شيئاً من الشعر؟ فقال بشر: نعم يا مولاي قال له الإمام: ادخل المدينة وانع أبي الحسين، فاقبل بشر إلى المدينة مولياً وجهه صوب مسجد الرسول قائلاً:

(يا أهل يثرب لا مقام لكم بها - الأبيات) فاجتمع الناس حوله يسألونه ما الخبر يا بشر، يقول: الخبر عند قبر رسول الله، حتى وصل ووقف أمام القبر الشريف قائلاً:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرج ... والرأس منه على القناة يدار

والمسجد كما وصفه شهود عيان ممن كانوا يرتادونه للصلاة فيه والعبادة، يبعد عن المسجد النبوي الشريف كيلو ونصف تقريباً ويقع شمال المدينة بالقرب من محطة القطار خلف سور محطة بنزين وذرعته كما أخبرني الوالد خمسة عشر متراً في خمسة أمتار تقريباً، نصفه المشتمل على المحراب مسقوف والنصف الآخر مكشوف، وآخر كان يتعهده للصلاة فيه هو الشيخ محمد عبد الله باشا أحد النخليين المتشرعين من أهل الصلاح يقصد هذا المسجد كل يوم جمعة بعد أن يدخل المزرعة المجاورة له المسماة (زمزم) ويغتسل في بركتها غسل الجمعة ويغسل ملابسه التي نزعها ويلبس ملابس نظيفة ويدخل المسجد ويظل فيه راكع وساجد ومبتهل ومتضرع إلى الله، حتى العصر ثم يكرر راجعاً إلى داره، حتى توفي رحمه الله ثم أهمل المسجد حتى صار مستودعاً لأحد بائعي الفحم في سوق الفحم المجاور له ثم زربة للأغنام التي كان يجلبها بائعي الأغنام من البر لبيعها في سوق الأغنام المجاور للمسجد، ثم تداعى البناء حتى سوي المسجد بالأرض.

بيوت فاطمة الزهراء (عليها السلام)[1]:

١ - البيت الأول:

هو البيت الذي يقع شمال بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) داخل الدرابزين المحيط بالقبر الشريف، وهي دار فاطمة وعلي التي نزل فيها الوحي على رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بأمره بسد جميع الأبواب إلا باب علي (عليه السلام) قال. ابن النجار . وبيت فاطمة اليوم حوله مقصورة وفيها محراب وهو خلف حجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)[2].

---

(١) في تفسير السيوطي المسمى بالدر المنثور في تفسير قوله تعالى: (في بيوت أذن الله أن ترفع وذكر اسمه فيها) في سورة النور قال: واخرج ابن مردويه وبريدة قال: قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية: (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء. فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها بيت علي وفاطمة؟ قال: نعم من أفاضلها.

(٢) صحيح الترمذي ج٢ ص ٣٠١، روى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بسد الأبواب إلا باب علي عليه السلام ومستدرك الصحيحين ج٢ ص ١٢٥ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ص ١٧٥ ص ٣٣٠، وج٢ ص ٢٦، وحلية الأولياء لأبي نعيم ج ٤ ص ١٥٣، وتاريخ بغداد وخصائص النسائي وكنز العمال ج ٣ ص ١٥٥.

٢ - بيت فاطمة الزهراء الثاني (عليها السلام):

هي الدار التي نزل بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) عندما قدم المدينة المنورة من مكة بالفواطم، وتقع هذه الدار ملاصقة لجدار مسجد قباء من الجهة الجنوبية، وهي مجاورة لدار سعد بن خيثمة التي نزل بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عند مقدمه من مكة إلى المدينة المنورة[1].

٣ - بيت فاطمة الزهراء (عليها السلام):

ينقل السمهودي عن ابن جبير قوله: إن لفاطمة الزهراء داراً عند بئر أريس[2].

محراب فاطمة الزهراء (عليها السلام):

محراب فاطمة، ويقع داخل الحجرة النبوية الشريفة مشهور عند مؤرخي المدينة المنورة بأنه محراب الزهراء (عليه السلام) كانت تصلي فيه الليل. ويقع في القسم الذي اشتمل عليه بالضريح من بيت الزهراء (عليه السلام)[3].

وأما المحراب الخارج عن الشباك المحيط بالقبور، ويسمى بمحراب التهجد، مشهور عند شيعة المدينة المنورة بأنه محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السام) كما في رواية الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) والعرب تقول: أهل البيت أدرى بما فيه، وفي الأخبار أنه يوجد في القسم الذي دخل ضمن الدرابزين من بيت الزهراء (عليها السلام) توجد رخامة بيضاء ختن عليها الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وتعبير المطري بأن المحراب خلف البيت يدل على أنه خارج حدود البيت، إذاً فالموجود محرابان أحدهما داخل البيت هو محراب الزهراء (عليها السلام) والآخر خارج البيت، خلفه أي بيت الزهراء (عليها السلام) فهو محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)[4].

جزيرة فاطمة (عليها السلام):

كان في المسجد النبوي عند الروضة جذعة تسمى جزيرة فاطمة، وكانت عالية يتطاول الزائرون ليلمسوها ويتبركوا بها[5].

بيت الأحزان:

هو المكان الذي كانت تجلس فيه فاطمة الزهراء (عليها السلام) ترثي أباها النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن تأذى منها بعض سكان المدينة، فكانت تخرج كل يوم صباحاً من دارها وبيدها الحسنان (عليهم السلام) إلى البقيع مقابر الشهداء، وتجلس

---

(١) المدينة المنورة في رحلة العياشي ص ١٠٨. الحاج في مكة والمدينة لمحمد بن المهدي الحسيني الشيرازي ص٣٢١.

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي الجزء ٣ ص ٨١٣ بئر أريس وتسمى بئر الخاتم أو بئر النبي أمام المسجد وهي أمام مسجد قباء من جهة الغرب.

(٣) تأريخ معالم المدينة المنورة للخياري ص ٧١.

(٤) التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، ص ٣٥ وتاريخ المسجد النبوي الشريف. المؤلف محمد إلياس عبد الغني صفحة ١٠٩. نقلاً عن مرآة الحرمين ١/ ٤٧٠، وأخبار مدينة الرسول (ص) صفحة ٧٦.

(٥) المرجع كتاب: نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون، والتحفة اللطيفة المجلد الأول صفحة ٢٤١.

تبكي أباها (صلى الله عليه وآله وسلم) في المكان الذي عرف فيما بعد (بيت الأحزان) ثم بنيت عليه قبة صغيرة بناها أحد الولاة الفاطميين.

ويقع بيت الأحزان داخل بقيع الغرقد، جنوب قبة أهل البيت (عليهم السلام) بينهما ممر للمشاة عرض أربعة أمتار تقريباً، والمشهور بيت الحزن إنما هو الموضع المعروف بمسجد فاطمة في قبلة مشهد الحسن والعباس وإليه أشار ابن جبير[1].

فدك:

مما فاضت به الأخبار عند المؤرخين وكتاب السير والتراجم، إن من أملاك الزهراء (عليه السلام) فدك[2] والعوالي وأن لها سبعة حوائط بالمدينة المنورة.

أم العيال سبيل فاطمة:

أم العيال: عين ماء تخر من جبل قرب المدينة يسمى آره يقابل قدساً من أشمخ ما يكون من الجبال أحمر تخر جوانبه عيون، على كل عين قرية، فمنها، الفرع وأم العيال والمضيق..[3]

وسميت القرية باسم العين ام العيال: عن عزام أنها صدقة فاطمة الزهراء رضي الله عنها قال ابن حزم: هي عين لجعفر ابن طلحة بن عبيد التميمي[4].

نخلات فاطمة (عليها السلام):

في صحن المسجد النبوي الشرقي المجاور لباب النساء كانت بئر، ونخلتان أو ثلاث موجودة إلى عهد قريب عاصرت بعض من شاهدها من سكن المدينة، ذكرها المستشرق بور خارت قائلاً: أنها مقدسة وتنسب إلى الزهراء (عليها السلام) لأن غرستها بيديها الشريفة صفحة ٢٥٠ من كتاب: قسم المدينة المنورة موسوعة العتبات المقدسة لجعفر الخليلي. وذكرها ابن فرحون، ولكنه ينفي نسبتها إلى الزهراء (عليها السلام).

صدقات وأوقاف الزهراء (عليها السلام):

كان لها سبعة بساتين وقفتها على بني هاشم وبني المطلب وجعلت النظر فيها والولاية لعلي (عليها السلام) مدة حياته وبعده للحسن وبعده للحسين وبعده للأكبر من ولدها: وهي (العواف. والدلال، والرقة، والمبيت. والحسني، والصافية[5] وما لأم إبراهيم[6].

---

(١) كتاب وفاء الوفاء للسمهودي الجزء ٣ ص ٩١٨ وكتاب: رسائل في وصف المدينة المنورة ص ١٠، ١١، ١٢ وص ٦٦ كتاب: موسوعة العتبات المقدسة قسم المدينة المنورة لجعفر الخليلي ص ٢٨٥.

(٢) فدك: بفتح الفاء والدال المهملة بعدها كاف: هي قرية على يومين من المدينة، أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحاً، المرجع كتاب/ المغانم المطابة في معالم طابة تأليف مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ص ٣١١، ٣١٢.

(٣) المغانم المطابة، للفيروز آبادي ص ٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢٣، تأريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً تحقيق الأستاذ عبيد الله أمين كردي صفحة ٢٤٧.

(٥) الصافية معروف موقعها حتى الآن.

(٦) أعيان الشيعة للإمام السيد محسن الأمين (المجلد الأول) ص ٣٢٠.

مضيف الإمام الحسن بن علي (عليه السلام):

الضيافة جبلة عربية باركتها السماء، وهتفت بها الأرض ولهذا تجد أن ظاهرة دور الضيافة ملموسة في المدينة المنورة منذ عصر الرسول الأعظم (ص) بل في كل الأعصار والأمصار الإسلامية، يقول صاحب كتاب: المظاهر الحضارية للمدينة في عصر النبوة: يبدو لنا من الروايات، أن هناك دوراً في المدينة خصصت للضيافة واستقبال الوفود في عهد النبوة.

ومن أهم هذه الدور، دار رملة بنت الحارث الأنصارية من بني النجار، وتقع هذه الدار قرب دار أنس بن مالك، وكان رسول الله ينزل فيها الوفود القادمة إليه: ومن أشهر الوفود التي نزلت هذه، وفد غسان، ووفد بني ثعلبة، ووفد عبد القيس، ووفد بني فزارة، ووفد عذرة، ووفد بني حنيفة، وفي هذه الدار حبس رسول الله رجال بني قريظة قبل إعدامهم في السوق وتوصف هذه الدار بالسعة وهناك دار عبد الرحمن بن عوف المسماة بالدار الكبرى، وتسمى دار الضيفان[1].

ودار الضيافة للإمام الحسن بن علي عليه السلام هي إحدى هذه الدور التي اشتهرت بها المدينة وحسبه عليه السلام أنه كريم أهل البيت، قاسم الله ماله ثلاث مرات، حتى كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً[2] وخرج من ماله لله تعالى مرتين[3].

كرم الإمام الحسن بن علي (عليه السلام):

أ ـ عن المبرد وابن عائشة قالا: إن شامياً رآه راكباً وجعل يلعنه والحسن لا يرد فلما فرغ، أقبل الحسن عليه وضحك، وقال: أيها الشيخ أظنك غريباً ولعلك شبهت فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كنت لك حاجة قضيناها لك، ولو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً[4] وجاهاً عريضاً، ومالاً كبيراً.

فلما سمع الرجل كلامه بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إلي، والآن أنت أحب خلق الله إلي، وحول رحله إليهم، وكان ضيفه إلى أن ارتحل وصار معتقداً لمحبتهم[5]

---

(١) كتاب: المظاهر الحضارية في المدينة المنورة في عصر النبوة ص ٧٣ – ٧٤، للدكتور خليل إبراهيم السامرائي وتامر حامد محمد.

(٢) كتاب الاستبصار ج ٢ / ١٤٢.

(٣) كتاب: أعيان الشيعة ٤ق ١/ ٢٦ أسد الغابة ج٢ / ١٢. طبقات ابن سعد. الشرف المؤبد لآل محمد صفحة ٦٨.

(٤) إن قول الإمام عليه السلام في هذا النص لأن لنا موضعاً رحباً.. فيه إشارة إلى المضيف الذي تذكر الروايات أنها كانت داراً واسعة رحبة الأرجاء، وقد ورد ذكر مضيق الإمام الحسن عليه السلام في وثيقة نسب كتبت عام ١٠٠١ هجري أنها كتبت في دار مجاورة لمضيف الإمام الحسن (عليه السلام).

(٥) كتاب: مجموعتي تأليف علي محمد علي دخيل صفحة ١١٤، ١١٥.

ب - أن رجلاً جاء إليه وسأله حاجة فقال له: يا هذا حق سؤالك إياي يعظم لديّ ومعرفتي بما يجب تكبر علي، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله عز وجل قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت مني الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتيال والاهتمام لما أتكلفه من واجبك فعلت.

فقال: يا ابن رسول الله أقبل القليل، وأشكر العطية، وأعذر من المنع، فدعا الحسن عليه السلام بوكيله، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفاضل من الثلاثمائة فأحضر خمسين ألفاً قال: فما فعلت بالخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي قال: أحضرها فأحضرها فدفع الدراهم والدنانير إلى الرجل وقال: هات من يحملها فأتاه بحمالين فدفع الحسين إليهم رداءه لكراء الحمل.

فقال له مواليه: والله ما عندنا درهم.

فقال: لكني أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم[1].

ج - اشترى عليه السلام حائطاً من قوم من الأنصار بأربعمائة ألف، بلغه أنهم احتاجوا ما في أيدي الناس فرده إليهم[2].

د - جاء بعض الأعراب فقال: أعطوه ما في الخزانة، فوجد فيها عشرون ألف درهم فدفعها إليه.

فقال الأعرابي: يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشر مدحتي فأنشأ الحسن عليه السلام:

نحن أناس نوالنا خضل	يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال انفسنا	خوفاً على ماء وجه من يسال[3]

الموقع والوصف:

مضيف الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام هي دار واسعة كانت تقع في الركن الغربي الشمالي للمسجد النبوي وقد دخلت في التوسعة السعودية للمسجد الشريف وقد ورد ذكر مضيف الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في إحدى الوثائق النسبية لإحدى قبائل النحليين، وهم الأصابعة، وقد جدد نسخ هذه الوثيقة من وثيقة سابقة في تاريخ ٢٦ رجل عام ٨٦٠ هجري وتقول الوثيقة: (ملحوظة: لقد تم الاتفاق وتوثيق الوثيقة في الدار الذي مجاور دار المضيف للإمام الحسن بن علي).

وجاء ذكر دار الضيافة في كتاب: مرآة الحرمين في معرض وصف ما حول الحرم النبوي، قال: ويلي هذا الباب من الشمال باب محدث يسمى الباب المجيدي عند دار الضيافة[4].

---

(١) المرجع السابق ص ١١٦، ١١٧.

(٢) المصدر السابق ١١٧.

(٣) المصدر السابق ١١٧.

(٤) كتاب: مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا الجزء الأول ص ٤١١.

فالمؤلف لم ينسب الدار لأحد إلا أن الوصف للموقع يدل على ان المراد هـي دار الضيافة المشهورة والمنسوبة للإمام الحسن بن علي، ورواية أخرى أن دار ضيافة الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) تقع في حارة الأغوات بجوار الرستمية، وأنه عند هدم هذه الدار رأى العمال آنية من النحاس مكتوب عليها أوقاف الحسن بن علي، وهذه الرواية أرجح إذا أخذنا بعين الاعتبار، رواية صاحب كتاب نزهة الناظرين في تأريخ مسجد الأولين والآخرين التي تقول: أن دار الضيافة التي تقع بشامي المسجد الشريف كان ينزل بها ضيفان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكانت خارج جدار المسجد الشريف ص ٧٦.

زقاق البدور:

الزقاق: هو الطريق الضيقة بين المنازل.

البدور: جمع مفرده بدر، وهو القمر ليلة النصف من كل شهر، وبعض شباب بني هاشم لقبو بالبدور.

زقاق البدور طريق غير نافذ يقع في حارة الأغوات شرقي الحرم النبوي وغربي البقيع على يمين الداخل من باب الجمعة، وعلى يسار الخارج من المسجد النبوي قاصداً البقيع، يشتمل على بيوت لبعض بني هاشم: علي الأكبر ابن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام والقاسم بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وعبد الله بن جعفر الطيار، وقد تعاقد على سكنى هذه الدور عقبهم الشريف يقول ابن فرحون: وكانت المدينة محشوة بالأشراف منهم المداعبة في حارة الخدم ساكنين معهم مخالطين لهم وكذلك البدور في حوش الحسن وما حوله والوحاحدة في السويقة وما حولها، والمنايفة عند المدرسة الشهابية[١] وآل منصور في البلاط[٢].

وقال علي بن موسى في معرض وصفه للمدينة وما حول المسجد النبوي:

ومنه إلى حيث أردت من الأزقة التي حول الحرم الشريف كزقاق البدور في الجهة الشرقية من البلد الطاهرة يعني شرقي الحرم الشريف وإلى طريق الحارة المتقدم ذكره[٣].

وقال إبراهيم باشا: وزقاق عنقيني وزقاق السميدي، وزقاق البدور، وزقاق الأغوات، وحارة البقيع[٤].

---

(١) المدرسه الشهابيه تقع جنوب الحرم في دار الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب. اما البلاد الذي ذكرد فهو غربي الحرم وهو الطريق الموصل بين باب السلام إلى مصلى العيد.

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور. المؤلف ابن فرحون صفحة ٢٠١.

(٣) رسالة في وصف المدينة المنورة المؤلف علي بن موسى ص ٥١ – ٥٣.

(٤) مرآة الحرمين. المؤلف رفعت باشا ج١ ص ٤١٠. وقسم المدينة المنورة. موسوعة العتبات المقدسة ص ٢٤٥.

أما زقاق المناصع الذي توهمه عبد القدوس الأنصاري أنه هو زقاق البدور فقد وصفه صاحب كتاب المغانم المطابة في أخبار طابة في هامش صفحة ٣٩٢، فقال: في شمال المدينة المنورة مما يلي الشرق خارج سور المدينة يقع زقاق المناصع وليست نافذة طريق بين رباط الفاضل ورباط السبيل.

أو قل أن زقاق البدور داخل سور المدينة وشرقي الحرم النبوي وجاء وصف إبراهيم العياشي للمناصع والطريق إليها قوله: وخرجت ذات ليلة مع بريرة لقضاء حاجتها في المناصع وكان طريقها من الحجرة النبوية فهي بيت عائشة عن طريق زقاق المناصع وهو اليوم شارع الملك عبد العزيز. واتجهت شرقاً إلى المناصع الفضاء الذي شمال بقيع العمات. المدينة بين الماضي والحاضر، لإبراهيم العياشي ص ١٥١.

الحسين بن علي (عليه السلام):

جده - لأمه - رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جده لأبيه - أبو طالب، جدته لأمه خديجة بنت خويلد، جدته لأبيه فاطمة بنت أسد أبوه علي بن أمير المؤمنين (عليه السلام).

أمه فاطمة الزهراء عليها السلام.

أخوه لأمه وأبيه: الإمام الحسن عليه السلام.

إخوته لأمه وأبيه: زينب الكبرى، أم كلثوم عليها السلام.

مولده: ولد في المدينة في الثالث من شعبان سنة أربع للهجرة، ولما ولد جيء به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاستبشر به، وأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، فحكنه بريقه، لما كان اليوم السابع سماه حسينا وعق عنه بكبش وأمر أمه عليها السلام أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة.

كان أشبه الناس برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير واسع الجبين، كث اللحية، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، رحب الكفين والقدمين، رجل الشعر، متماسك البدن، أبيض مشرب بحمرة.

نشأ في ظل جده الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان هو الذي يتولى تربيته ورعايته.

ألقابه: الرشيد - الوفي - الطيب - السيد - الزكي - المبارك - التابع لمرضات الله - الدليل على ذات الله - السبط - سيد شباب أهل الجنة.

لازم أباه أمير المؤمنين (عليه السلام) وحضر مدرسته الكبرى ما يناهز ربع قرن.

اشترك في حروب أبيه الثلاث: الجمل - صفين - النهروان.

زوجاته: ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي - أم اسحاق بنت طلحة بن الله التيمي - شاه زنان بنت كسرى بزدجرد (ملك الفرس) - الرباب بنت أمرؤ القيس بن عدي.

أولاده: الإمام زين العابدين - علي الأكبر - جعفر - عبد الله.

بناته: سكينة - فاطمة - رقية.

نقش خاتمه: حسبي الله

شاعره: يحيى بن الحكم وجماعة.

بوابه: أسعد الهجري.

بايع لأخيه الحسن عليه الحسن بعد مقتل أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام) سنة ٤٠ للهجرة وبلغ به الاحترام لمقام الإمامة والأخوة ما ذكر الطبرسي عن الإمام الصادق عليه السلام ما مشى الحسين بين يدي الحسن عليه السلام قط ولا بدره بمنطق إذا اجتمعا تعظيماً له.

عاش بعد أخيه الحسن عليه السلام عشرة سنين كان فيها الإمام المفترض الطاعة - على رأي طائفة عظيمة من المسلمين - وسبط الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وريحانته وثاني الثقلين اللذين خلفهما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الأمة - الكتاب والعترة - وسيد شباب أهل الجنة بإجماع المسلمين.

استشهد هو وأهل بيته وأصحابه في اليوم العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة.

دفنه ابنه الإمام زين العابدين عليه السلام في اليوم الثالث عشر من المحرم.

قبره في كربلاء ينافس السماء علواً وازدهاراً، عليه قبة ذهبية من عشرات الأميال، ويزدحم المسلمون من شرق الأرض وغربها لزيارته. والصلاة في حرمه، والدعاء عند رأسه الشريف[1].

مقعد بني الحسين:

المقعد والمقعدة: مكان الجلوس والمقعد هو القياس والجلوس من الضجعة ومن السجود[2].

مقعد بني حسين أشبه بحوش[3] يشمل عدة منازل يسكنها بنو هاشم، وفيه منزلان أحدهما للإمام الحسن بن علي عليهما السلام يوجد في صدر الدار محراب. وعند بوابته دكة كان يجلس عليها الإمام الحسن بن علي عليهما السلام والأخرى للإمام الحسين بن علي عليهما السلام وبها محراب أيضاً، والدور الأخرى لبعض بني هاشم.

ورد ذكر هذه الدور في رسالة علي بن موسى يصفها بقوله: وينقسم - أي مقعد بني حسين - إلى طريقين أحدهما غير نافذ إلى كشك المرحوم المذكور المطل على المناخة والثاني إلى زقاق الشونة الميرية، وفيهما بيوت منتظمة كثير[4].

ويقول زيدان: إن السيد - يعني جمل الليل له البيت الكبير قصراً فخماً في مقعد بني حسين حافة السور الغربي للمدينة بمحاذاة باب المصري وهو من القصور التي تعد..

إني أسأل كيف استطاع جمل الليل الجد الأعلى لهذا البيت أن يملك هذا في مقعد بين حسين، هل اشتراه من مالكه الأول الحسيني. ولعله كان قصر الأمير هل ملكه بالوراثة؟ لأنه نمى إلى علمي أن جدته (من بيت سبتي)[5] الذين هم كبيت النحاس والمشيخ من أقدم بيوت الشيعة[6].

مزرعة الإمام الباقر (عليه السلام)[7]:

"سريا، أو صريا، أو صرباً" بسين مهملة، وباء بنقطة واحدة أو نقطتين.

---

(١) النقل من كتاب مجموعتي مع التصرف. الجزء الأول ص ١٧٧ - ١٧٩.

(٢) القاموس المحيط.

(٣) الحوش: هو الساحة الكبيرة التي قد تشتمل على آبار للماء وميضاة للرجال والنساء وللحوش غالباً بابان يغلقان وقد الليل خوفاً من اللصوص وكل منازل الحوش تطل على هذه الساحة ويكون الحوش عادة مستديراً أو مستطيلاً.

(٤) كتاب: وصف المدينة المنورة لعلي بن موسى ص ٤٣.

(٥) بيت سبتي: من قبيلة الشرمة من النخليين منهم االخطيب (حسن بن عباس جادي النخلي الخويلدي).

(٦) كتاب: العهود الثلاث، محمد حسين زيدان ص ٦٧- ٦٧، الطبعة الأولى عام ١٤٠٨هـ. وذكر ابن فرحون حوش الحسن بن علي في معرض حديثه عن تعداد أماكن تواجد أو سكنى الأشراف الحسينيين فوصف المقعد يدل على أنه يقصد (مقعد بني حسين) ولعل هذه التسمية الأخيرة جاءت بعد ابن فرحون والله أعلم.

(٧) تقع في العوالي شمال مشربة أم إبراهيم مسافة نصف كيلو متر تقريباً، وجنوب المسجد النبوي تبعد عنه بألفي متر تقريباً.

وقع تصحيف في الاسم، والتصحيف معروف ومألوف في لغة العرب منذ نشأتها وقد أحصى المشتغلون بالنقد الأدبي أسباب التصحيف، فوجدوها بلغت أحد عشر سبباً، ونظائر هذه الكلمة في تاريخ المدينة المنورة كثيرة، فعلى سبيل المثال: الماجشونية يقول الناس: المادشونية، و"البصة"قالوا البوصة، هما من مزارع المدينة المعروفة حتى اليوم.

كما اختلف في اسم هذه المزرعة، أو الحائط. اختلف أيضاً في اسم مالكها، روى أن الإمام الباقر (ع) كان يفلح هذه المزرعة، ويعمل بالمسحاة بيديه الكريمتين، وله من الغلمان العدد الكبير، وكان بديناً يتصبب عرقاً، فقال له رجل: أما تخشى أن يأتيك أجلك وأنت على هذه الحالة؟

فقال له الإمام (ع): أحب أن ألقى الله عز وجل وأنا أعمل بيدي أصون بها وجهي، وروى أنها للإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) وكان يكثر من زراعة القطن فيها، فسئل مرة، فقال عليه السلام: إننا أهل بيت نحب أن تكون أكفاننا من صنع أيدينا.

"صربا" بصاد مهملة وبباء بنقطة واحدة: وهي ضاحية من ضواحي المدينة لا تبعد عن المدينة إلا قليلاً، ويستدل مما ورد في الأخبار أن الإمام موسى بن جعفر هو الذي أنشأها وبني فيها قصراً[1]، وورد أيضاً في كتاب (مجموعتي) أن الإمام الهادي (عليه السلام) ولد بصرياً قرية في نواحي المدينة[2].

وورد في قصة في سيرة الإمام الرضا (عليه السلام) تدل على أنه كان يسكن (صربا) قال البزنطي: بعث إلى الرضا عليه السلام بحمار فجئت إلى (صربا) فمكث عامة الليل معه، ثم أتيت بعشاء ثم قال: أفرشوا له ثم أتيت بوسادة طرية، وبرداع وكساء قياصري وملحفة مروي أصبحت من العشاء قال لي: ما تريد أن تنام قلت بلى جعلت فداك فطرح علي الملحفة والكساء، ثم قال: بيتك الله في عافية[3].

آثار الإمام جعفر الصادق (عليه السلام):

دار الإمام الصادق:

ثم إلى جنب منزل أبي أيوب دار جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم التي يسقى فيها الماء التي تصدق بها

---

(١) موسوعة العتبات القمدسة قسم المدينة المنورة لجعفر الخليلي ص ٦٤.

(٢) كتاب مجموعتي - علي دخيل الجزء، ص ٢١٣.

(٣) نفس المصدر ج٢ ص٨٨ ضرية: صقع واسع بنجد ينسب إليها حمى ضرية يليه أمراء المدينة، وينزل به حجاج البصرة وقال أبو عبيدة السكوني. ضرية إلى عامل المدينة ومن ورائها رملية اللواء.. وقال بعضهم: ضرية قرية عامرة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرى وهي إلى مكة أقرب من كتاب: المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزي آبادي ص ٢٢٨.

أقول ولعل (ضرية) مصحفة عن صربا والله.

جعفر وكانت لحارثة بن النعمان الأنصاري قلت: وفي موضعها اليوم العرصة الكبرى التي في قبلها المدرسة الشهابية، وفيها محراب قبلة مسجد جعفر الصادق وأثر محاريب[1].

مقتنيات الإمام الصادق:

في مطلع القرن الخامس الهجري قدم وفد من مصر أرسله الحاكم بأمر الله الفاطمي ليبحث عن آثار بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام وكان الوفد برئاسة ختكين العضدي أحد قادة الفاطميين آنئذ فقصدوا دار الإمام جعفر الصادق عليه السلام وكانت مغلقة منذ مدة طويلة ففتحوها ووجدوا فيها مصحفاً وقدحاً ضخماً من خشب له إطار حديد، ودرقة وخيزران وحربة وسريراً[2].

مسجد الإمام الصادق:

ذكره السيد محمد بن مهدي الحسيني الشيرازي في كتابه: الحاج في مكة والمدينة صفحة ٩٣.

ولعله يعني مسجداً خاصاً غير دار الإمام التي وصفها بعض المؤرخين أن فيها أكثر من محراب، وقد اعتمدت النقل عن السيد الشيرازي لأن له اهتمامات بالمدينة، له كتاب مخطوط بعنوان تلخيص تاريخ المدينة المنورة.

مدرسة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام):

كانت المدينة المنورة هي مقر مدرسة جعفر الصادق واتخذ من المسجد النبوي الشريف مكاناً للتدريس فأقبلت الوفود إليها من كل مكان يذكر الرواة أن عدد المنتسبين إليها بلغ الأربعة آلاف من تلامذته من أهل الحجاز والعراق والشام وخراسان، وفيهم من كبار العلماء والفقهاء والمحدثين كما عكف طلابه على التأليف وتدوين العلوم وجعفر الصادق جمع إلى العلوم الدينية علم الكيمياء[3].

---

(١) كتاب وفاء الوفاء للسمهودي ج ٢ ص ٧٢٣ وكتاب مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمي ص ٣٢٥، وكتاب معالم دار الهجرة المؤلف يوسف عبد الرزاق ص ١٩٩، وكتاب المدينة بين الماضي والحاضر المؤلف إبراهيم بن علي العياشي ص ١٤٠، ١٤١.

دار جعفر الصادق رضي الله عنه هذه الدار في الجنوب الجنوب الشرقي للمسجد النبوي ملاصقة لدار أبي أيوب الأنصاري وتعرف اليوم بدار نائب الحرم، وكان يقيم فيها إلى عهد قريب. فلما ألغيت وظيفة نائب الحرم آلت الدار إلى الاستغلال بطريق الإيجار عن طريق الأوقاف وكانت هذه الدار في عهدها لحارثة بن النعمان الأنصاري ثم انتقلت إلى جعفر الصادق والآن دخلت في التوسعة الشرقية للمسجد النبوي المرجع كتاب تأريخ معالم المدينة قديماً وحديثاً تحقيق فضيلة الأستاذ عبيد الله بن محمد أمين كردي ص ١٧٠.

(٢) كتاب التأريخ الشامل للمدينة المنورة تأليف الدكتور عبد الباسط بدر ص ١٥٠ نقلاً عن الكامل ٧ / ٢٤٩، والبداية ١١/ ٣٦٥.

(٣) كتاب التعليم في المدينة المنورة من العام الهجري الأول إلى عام ١٤١٢ هـ تأليف ناجي محمد حسن عبد القادر الأنصاري الطبعة الأولى ص ١٣٧، نقلاً عن مجلة العربي الكويتية العدد ١٣٤ شوال عام ١٣٨٩ من مقال: لحسن الأمين.

ومما يؤكد ما ذهب إليه الباحث المعاصر، حسن الأمين ما ذكره ابن فرحون من أن الشيعة الإمامية اتخذوا المقصورة التي بناها عمر بن عبد العزيز بأمر الخليفة الأموي الوليد، الكائنة شمال بيت الزهراء عليها السلام بالمسجد النبوي، ثم وسع فيها الخليفة العباسي المهدي سنة ١٦١ ـ ١٦٥ هجري كانت مقراً ومدرسة لتدريس علوم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلوة لعلمائهم، ومما لاشك فيه أنها كانت الامتداد الطبيعي لمدرسة الإمام الصادق عليه السلام موقعاً ومنهجاً.

يقول ابن فرحون: وقد تساهل من كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة عملت وقاية من الشمس إذا غربت، فكانت بدعة وضلالة يصلي فيها الإمامية من الشيعة لأنها قطعت الصفوف، واتسمت بمن ذكر من الصنوف، فغلبت المفسدة بها، وندم على ذلك من وضعها ولقد كنت أسمع الشريف عزاز يقف على بابها، ويؤذن بأعلى صوته من غير خوف ولا خجل، حي على خير العمل، وكانت مواطن تدريسهم وخلوة علمائهم[١].

مزرعة الإمام الصادق (عليه السلام):

روى الطبري: أن أبا جعفر المنصور رد على الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) مزرعته التي كانت ضمن أموالي بني الحسن التي صودرت بعد مقتل النفس الزكية كما أورد رواية أخرى، أن الذي ردها ابنه المهدي[٢].

الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام):

جده: الإمام جعفر الصادق عليه السلام

أمه: تكتم ـ أو الطاهرة ـ وتكنى بأم البنين.

ولادته: ولد في المدينة المنورة يوم الخميس الحادي عشر من ذي القعدة سنة ١٤٨ هجري.

كنيته: أبو الحسن. ألقابه: الرضا، الصابر، الرضي، الوفي، الصادق، الفاضل. نقش خاتمه: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

زوجاته: سبيكة، من أهل بيت مارية زوجة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أم ولده إبراهيم، أم حبيبة بنت المأمون العباسي. ولده: الإمام محمد الجواد عليه السلام.

شعراؤه: دعبل الخزاعي، أبو نواس، إبراهيم بن العباس الصولي. بوابه: محمد بن الفرات.

ولاية العهد: بويع له بولاية العهد في الخامس من شهر رمضان سنة ٢٠١ للهجرة.

السكة الرضوية: بعد البيعة للإمام عليه السلام بولاية العهد ضربت باسمه الدراهم والدنانير.

---

(١) كتاب: نصيحة المشاور وتعزية المجاور ص ٣٢ وما بعدها وكتاب التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة والسمهودي وفاء الوفاء نقلاً عن ابن فرحون وقال صاحب كتاب: التاريخ الأمين، إن مدرسة الإمام الصادق (ع) في المسجد النبوي وفي داره وكذلك مدرسة ابنه الإمام موسى بن جعفر (ع) في داره وفي المسجد النبوي.

(٢) الطبري: ٨ / ٥٢١.

ملوك عصره: هارون الرشيد، الأمين، المأمون.

وفاته: توفي يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة ٢٠٣ للهجرة متأثراً بسم المأمون.

مدة إمامته: عشرون عاماً. عمره: خمس وخمسون سنة. قبره: في خراسان ينافس السماء علواً وازدهاراً على أعتابه يتكدس الذهب، ويزدحم المسلمون من شرق الأرض وغربها لزيارته، والصلاة عنده، والتطواف حول ضريحه الأقدس[1].

قرية الأبواء من مزارع الإمام الصادق (عليه السلام):

مما هو شائع على ألسنة شيعة المدينة المنورة أن (الابواء) وتسمى الآن بالخريبة، وهي قرية تقع بين مكة والمدينة كانت على طريق القوافل فيها كان مولد الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام لأن الطلق طرق أمه والإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) عائداً من الحج إلى أرض الوطن المدينة المنورة[2].

المزين:

المزين: هي قرية زراعية خصبة التربة تقع جنوب المدينة يمر الذهب إليها بسد بطحان، يقال أنها من أملاك الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).

مرقد أم الإمام الرضا (ع):

في جزع العوالي شمال مشربة أم إبراهيم زوجة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وملاصقة من جهة الشمال للمزرعة المعروفة (بسريا) توجد مقبرة صغيرة قديمة مهجورة، وشيعة المدينة المنورة وخاصة سكان العوالي يتناقلون هذا الخبر جيلاً بعد جيل، وعندما يطلب منهم الدليل يقولون: أن الزوار من عهد الأتراك يأتون إلى هذه المقبرة للزيارة وقراءة الفاتحة، وحتى الساعة نرى الإيرانيين يحومون حول هذه المقبرة ويجلسون خلال هذه البقعة باحثين ومنقبين (على حد زعمهم) عن قبر أم الإمام علي بن موسى الرضا (عليهم السلام). ويروي سائقوا سيارات الأجرة أن في مسجد السيد علي العريضي قبرين أحدهما للسيد والآخر لأم الإمام الرضا (ع) والله أعلم

دار الإمام علي بن موسى الرضا (ع):

عُريض:

تصغير عِرض أو عُرض: واد بالمدينة قال أبو بكر الهمداني وله ذكر في المغازي، خرج أبو سفيان من مكة حتى بلغ العريض وادي المدينة[3].

---

(١) مجموعتي: مرجع سابق من ص ٧٦ – ٧٧ مع الاختصار.

(٢) المرجع كتاب (حياة الإمام موسى بن جعفر) المؤلف باقر شريف القرشي ص ٤٣، ٤٤.

(٣) المغانم المطابة في معالم طابة تاليف مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ص ٢٦٠.

وقد وصف صاحب كتاب رسالة في وصف المدينة قائلا: وفي الجهة الشرقية العريض خراب وعلى أعلى الحرة مقابل لخشم جبل أحد مرقد سيدنا علي العريضي بن سيدنا جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه وله مسجد معقود وبجانب القبة منارة ومن غربي المقام مزارع كثيرة بآبار تعرف بمزارع أبي الرشيد بينه وبين المدينة من طريق الحرة الشرقية ساعة واحدة للماشي وأقل للراكب[1].

والمشهور أن قرية العريض أنشأها الإمام موسى جعفر عليهما السلام، وأنه كان يسكنها الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام، وإليك هذه القصة:

كان لرجل من آل أبي رافع موسى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقال له فلان، له علي فتقاضاني، وألح عليّ فلما رأيت ذلك صليت الصبح في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم توجهت نحو الرضا عليه السلام وهو يومئذ بالعريض، فلما قربت من بابه وإذا هو قد طلع على حمار وعليه قميص ورداء، فلما نظرت إليه استحييت منه، فلما لحقني وقف ونظر إليّ. فسلمت عليه وكان شهر رمضان فقلت: جعلت فداك، لمولاك فلان علي حقاً وقد والله شهرني، وأنا أظن في نفسي أنه يأمره بالكف عني، والله ما قلت له كم له علي: ولا سميت له شيئاً فأمرني بالجلوس إلى رجوعه، فلم أزل حتى صليت المغرب وأنا صائم فضاق صدري وأردت أن انصرف فإذا هو قد طلع علي وحوله الناس، وقعد له السؤال وهو يتصدق عليهم فمضى فدخل بيته ثم خرج ودعاني، فقمت إليه ودخلت معه فجلس وجلست فجعلت أحدثه عن ابن المسيب وكان كثيراً ما أحدثه عنه، فلما فرغت قال: ما فطرت بعد قلت: لا.

فدعا لي بطعام فوضع بين يدي، وأمر الغلام أن يأكل معي، فأصبت والغلام من الطعام فلما فرغنا قال: ارفع الوسادة وخذ ما تحتها، فرفعتها فإذا هي دنانير فأخذتها ووضعتها في كمي وأمر بأربعة من عبيده أن يكونوا معي حتى يبلغوني منزلي.... إلخ[2].

دار الإمام الحسن بن علي العسكري (ع)[3]

إن دار الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) تقع شرق المدينة المنورة مكانها اليوم أبواب النساء الجديدة للمسجد النبوي الشريف. ❖

---

(١) رسالة في وصف المدينة المنورة المؤلف علي بن موسى. صفحة ١٠. ولا يزال المبنى قائماً كما وصف المؤلف إلا أن القبة مهدومة، والجدير بالذكر أنه بجوار قبر علي العريض يوجد قبر آخر يدعى أنه قبر ام الإمام علي بن موسى الرضا (عليهم السلام) وقد جعلته وزارة الصحة السعودية منطقة حجر وعزل صحي.

(٢) كتاب: مجموعتي لعلي محمد علي دخيل الجزء الثاني ص ٩٢.

(٣) التعريف ص ٣٢.

من موسم إلى موسم

القبس الروحي الفاطمي

القاضي الشيخ سليمان غانم

بسم الله، والصلاة على من اصطفاه، وعلى أصحابه وآله، والسلام على وليه، اللهم والي من والاه، وعادي من عاداه.

أما بعد.

جناب أخي الفاضل الدكتور محمد سعيد الطريحي أعزك الله.

كتابي هذا إليكم للتعبير عن شعورين يختلجان في قلبي، منذ أن وطأت قدماي أرض العتبات المقدسة المباركة، في النجف الأشرف وما جاورها من الكوفة وكربلاء، حيث مراقد أسياد الشهداء، الأئمة المعصومين، أدام الله عزهم وبركاتهم علينا إلى يوم الدين، وعجل فرجهم ليملأوا الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً.

أما شعوري الأول، فهو هذا القبس الروحي الذي أشرق علينا من زيارتهم، ليروي أرواحنا بماء الحياة ويطفئ غلها وغليلها، ويشحن نفوسنا ببركاته وقتل ما فيها من طبع الشيطان الذي نعوذ بالله منه في كل رمشة عين. وما الفضل الأكبر، في ذلك، إلا لسماحة السيد مقتدى الصدر، هذا الشاب المؤمن الواعد، الذي جمع في شخصيته عزم الشباب وحكمة الشيوخ، عسى الله أن يستمر في إمداده بالقوة - صحةً وديناً وفقهاً وعلماً - ليستمر في قيادة هذه الأمة الإسلامية، بفرقها وأطيافها، إلى حيث وعدنا به الله سبحانه وتعالى، وحاشى أن يخلف الميعاد.

وأما شعوري الثاني، فهو هذه الرعاية الكريمة من جناب أخينا سماحة الشيخ الدكتور علي سميسم، بارك الله فيه، ومن جناب حضرتكم، يا أخي الفاضل الدكتور محمد سعيد الطريحي، وفقك الله دنيا وديناً، مع كريمتيك الفاليتين الدكتورة زينب وشقيقتها صفية، اللتين كانتا تلعبان الدور الإيجابي المتمم من خلف الكواليس، في حسن استقبال الضيوف الزملاء الكرام، وفي إنجاح هذا المؤتمر الذي أقل ما يمكن القول فيه - على حد علمي - إنه المؤتمر الأجدى والأقوى في جمع شمل كل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن علياً ولي الله، وخير أداة لهذا التوحيد، هو سيدتنا فاطمة الزهراء، التي لا يجرؤ مسلم على نكران دورها في كونها عنوان الوحدة الإسلامية، فلا يخلو

مذهب من الثلاث وسبعين فرقة التي ذكرها الرسول (ص)، إلا وله صلة في سيدة نساء العالمين، بشكل مباشر، فصح فيها القول: إنها ليست القاسم المشترك في وحدة المسلمين، بل هي الجامع المشترك، نفعنا الله ببركاتها، وسدد خطانا على دربها، وأهدانا بفضلها الصراط المستقيم.

إنه مؤتمر دولي كبير، رعاه سيد جليل كبير، ونظمته هيكلية راعية واعية بتوجيهات حضرتكم، سماحة الشيخ علي سميسم، وجنابك أخي الدكتور محمد سعيد الطريحي، أعزكم الله، وأثابكم عنا دنيا وآخرة. سيما، وأننا لن ننسى أنك جاهدت فوق طاقتك لإنجاح هذا المؤتمر، وأنت مصاب بوعكة صحية شفاك الله.

أخي الحبيب.

أرجو أن تنقل تحياتي وشكري وتقديري إلى من ذكرت، من سماحة السيد مقتدى الصدر، إلى فضيلة الشيخ الدكتور علي سميسم. إلى جنابكم الذي نكن له، ولهما كل تقدير واحترام.

ولا أخفي عليك سراً، أنني - من شدة تأثري بهذا المؤتمر، ولقطف بعض ثمراته - بدأت فوراً بتشكيل جمعية اسمها (جمعية السيدة فاطمة الزهراء التوحيدية)، غايتها دينية تثقيفية تربوية أخلاقية اجتماعية وصحية، لتقديم الخدمات في هذا المجال لكل المسلمين، وللتآلف فيما بينهم، راجياً من حضرتكم، ومن سماحة السيد الدعاء لنا بالتوفيق، سيما وأنني سأضع وثائقها بعد إنجازها بين أيديكم، ولن آلو جهداً، في العمل على شراء أرض لأشيد عليه " مجمع السيدة فاطمة الزهراء (ع)، مؤلف من عدة طبقات، إحداها مصلى، والثانية مكتبة، والثالثة مركز صحي، والرابعة لتعليم القرآن والأحاديث للنساء وللرجال، وخامسة لاستقبال الضيوف، فضلاً عن المطعم، ومواقف السيارات، والخدمات.

أكرر شكري لكم ولكل من ساهم في إنجاح هذا المؤتمر، الذي أشهد أنه من أهم المؤتمرات التي حضرتها وقرأت عنها، متمسكاً بالتوصيات التي صدرت عنه، وآملاً اللقاء في مجالات أخرى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

باتر - الشوف - لبنان

الداعي لكم بالتوفيق

الفقير لله تعالى

مستشار المحكمة الاستئنافية الدرزية العليا في لبنان

القاضي الشيخ سليمان غانم

محمد سعيد الطريحي



(أكاديمية الكوفة ـ هولندا)

بعض الأعمال المنشورة

١. حنين بن اسحق ـ مطبعة دار النعمان ١٩٧٣، النجف الأشرف.

٢. الديارات النصرانية في الكوفة وضواحيها، الطبعة الأولى ـ روما ـ ١٩٧٨ الطبعة الثانية، بيروت مطبعة المَثنِي ١٩٨١. الطبعة الثالثة ـ أكاديمية الكوفة في هولندا ٢٠١٠.

٣. فضل الكوفة ومساجدها لابن المشهدي (القرن ٥ هـ) بيروت ـ دار المرتضى ١٩٨٠

٤. فضل الكوفة وفضل أهلها ـ لمحمد بن علي الحسني الشجري مسند الكوفة (٣٦٧ ـ ٤٤٥هـ) بيروت ـ مؤسسة أهل البيت١٩٨١ والطبعة الثانية، أمانة مسجد الكوفة٢٠١٠ والطبعة الثالثة ـ أكاديمية الكوفة ـ ٢٠١٢.

٥. رد الشمس للإمام علي ـ مؤسسة اهل البيت ـ بيروت ١٩٨١هـ ـ ١٤٠١م.

٦. النبي حزقيال (ذو الكفل) سيرته ومشهده في بابل، دمشق ١٩٨١، الطبعة التانية بيروت ١٩٨٩.

٧. أعلام النساء في الكوفة الغرّاء،دمشق ١٩٨١، الطبعة الثانية ـ هولندا ـ ٢٠١٠.

٨. سورة يس ـ دراسة قرآنية ـ باللغة الكجراتية، أحمد آباد (الهند) ١٩٨٢.

٩. روزه اسلام مه، باللغة الأوردية ـ كراتشي (الباكستان) ١٩٨٢.

١٠. آل صندوق وتراجم اعلامهم، دمشق ١٩٨١.

١١. تاريخ مساجد الكوفة، حيدر آباد الدكن (الهند) مطبعة مجلس أنوار المعارف ١٩٨٢.

١٢. الدرة اليتيمة في فضائل السيدة العظيمة لعبد الله المير غني الحنفي المكي (ت١١٩٣هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٣. المواهب والمنن في مناقب الإمام الحسن - لمحمد الجفري (ت ١١٨٦ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٤. قرة كل عين في مناقب الإمام الحسين - لمحمد الجفري (ت ١١٨٦ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٥. المواهب الغزار في مناقب حيدرة الكرار - لمحمد الجفري، بيروت ١٩٨٥.

١٦. الفتح والبشرى في مناقب الزهراء - للجفري - بيروت ١٩٨٥.

١٧. طيف الإنشاء أو رسالة الطيف لأبي الحسن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٣ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٨. جُنة الأسماء الممتازة في الأرض والسماء - شرح:ابي حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) بيروت ١٩٨٥.

١٩. فضائل فاطمة الزهراء عليها السلام - للحافظ عمر بن أحمد ابن شاهين (٢٩٧ - ٣٨٥هـ) بيروت، ١٩٨٥، والطبعة الثانية - بغداد٢٠١٢، وترجمه للفارسية: إحسان قدس، دار نشر نيلو برك سنة ١٣٨٣ هـ . ش.

٢٠. غرر الحكم ودرر الكلم للإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) جمع القاضي ناصح الدين عبد الواحد التميمي الآمدي (ت ٥٥٠ هـ) قدم له الرئيس اليمني القاضي عبد الرحمن الأرياني . بيروت - دار القارئ ١٩٨٦.

٢١. الإيضاح في أسرار النكاح للشيزري (ت ٧٧٤ هـ) بيروت ١٩٨٦.

٢٢. الفخرية في فقه الحنفية - للشيخ فخر الدين الطريحي (٩٧٩ - ١٠٨٥ هـ) بيروت - دار البلاغ ١٩٨٦.

٢٣. الضياء اللامع في شرح المختصر النافع - للشيخ فخر الدين الطريحي - ١٩٨٦.

٢٤. الأربعون حديثاً - للشيخ فخر الدين الطريحي - بيروت - دار البلاغ ١٩٨٦.

٢٥. جامعة الفوائد في إثبات حجية الظن - للشيخ فخر الدين الطريحي - دمشق ١٩٨٦.

٢٦. حسن المقصد في إثبات عمل المولد - للسيوطي - بيروت ١٩٨٦.

٢٧. الثغور الباسمة في فضائل فاطمة عليها السلام - للسيوطي - بيروت ١٩٨٧، وفي بغداد ٢٠١٣.

٢٨. إحياء الميت بفضائل أهل البيت - للسيوطي - بيروت ١٩٨٧وأعيد طبعه مع ترجمه إلى اللغة الأوردية إيران، طهران، المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام). كما ترجمه للفارسية: إحسان قدس، ونشرته دار نيلو برك سنة ١٣٨٣ هـ. ش.

٢٩. دليل معجم رجال الحديث للإمام الخوئي - بومباي ١٩٨٣ - بيروت ١٩٨٦ - إيران ١٩٨٦.

٣٠. خزائن الكتب القديمة في الكوفة - بغداد ١٩٧٩ (تُرجم ونشر بالفارسية في قم - إيران ١٩٩٠/ دار مجلة آئينه بزوهش).

٣١. المخطوطات العربية في مكتبة الوزيري (يزد - إيران) بيروت ١٩٨٩.

٣٢. العتبات المقدسة في الكوفة - بيروت ١٩٨٦، الطبعة الثانية - هولندا ٢٠١٠.

٣٣. تاريخ الأحمدي للأمير أحمد حسين بهادر خان الهندي - بيروت ١٩٨٨.

٣٤. الملحمة العلوية للشيخ جعفر عبد الحميد الهلالي - بيروت - مؤسسة الوفاء ١٩٨٨.

٣٥. مختصر جواهر الكلام في الحكم والأحكام - للآمدي (ت ٥٥٠ هـ) بيروت ١٩٩٠ دار العلوم.

٣٦. تحية القاري لصحيح البخاري لمحمد علي عز الدين (ت ١٣٠٠هـ) بيروت ١٩٩٧، دار المرتضى، والطبعة الثانية دار الكتاب الإسلامي، إيران، قم.

٣٧. دولة النجف - دار الموسم هولندا ٢٠٠٤، الطبعة الثانية، النجف، دار النبراس ٢٠٠٤.

٣٨. أجراس كربلاء (المجموعة الأولى) بيروت - دار البلاغ ١٩٨٩.

٣٩. صوت الولاء في مدح الرسول وآله الأولياء لأحمد رشيد مندو - دمشق ١٩٩٠.

٤٠. الهيام بين العراق والشام (دمشق في الشعر العراقي) - الدار العالمية - دمشق ٢٠٠٥. الطبعة الثانية - هولندا - ٢٠١١.

٤١. المسيحية في بلاد الشام مع عناية خاصة بحريق دمشق سنة ٧٤٠هـ - ليدن - هولندا ٢٠٠٢. الطبعة الثانية - دار التكوين، دمشق ٢٠٠٨.

٤٢. تاريخ الأديان قديماً وحديثاً - روتردام - هولندا ١٩٩٩.

٤٣. مسلمون لا طوائف (الطائفية في العالم الاسلامي : جذورها التأريخية وأبعادها الاجتماعية) - بلجيكا ٢٠٠٥. الطبعة الثانية بيروت، مؤسسة البلاغ ٢٠٠٧.

٤٤. تحفة الراغب في سيرة جماعة من أعيان أهل البيت الأطائب لشهاب الدين القليوبي (ت ١٠٦٩هـ) بلجيكا ١٩٩٥. الطبعة الثانية بيروت ٢٠٠٨.

٤٥. النخبة العلية في السادة العلوية لمحمود أنسي ابن السيد محمد الحجازي الدمياطي (ت بعد ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م). بيروت ٢٠٠٨.

٤٦. المآثر النفيسة في مناقب السيدة نفيسة - القاهرة ١٩٨٥. بيروت ٢٠٠٨.

٤٧. مزاج التسنيم من الروض البسيم للسيد محمد ابو الهدى الصيادي الرفاعي (١٢٦٦ - ١٣٢٨هـ) أمريكا - مشيغان ١٩٩٧.

٤٨. الرسالة لذوي الألباب ليعلموا حقوق العترة والكتاب لأحمد بن زين العابدين الجعفري - أندونيسيا (جاوة الوسطى) ١٩٩٧.

٤٩. هؤلاء الرجال من العراق - لندن ٢٠٠٠.

٥٠. من آفاق الثقافة التركمانية - ألمانيا (١٩٩٩ - ٢٠٠٠م).

٥١. الشيعة في أفريقيا (تنزانيا ٢٠٠٣).

٥٢. تاريخ العلاقات العربية - الهولندية - لاهاي (هولندا) ١٩٩٤.

٥٣. خريدة عقد اللآل في التوسل للنبي بالآل للشيخ أبي الثناء سيدي محمود قابادو الشريف الأندلسي - بروكسل ١٩٩٩، بيروت ٢٠٠٨.

٥٤. الفوز بالمراد في تاريخ بغداد للأب أنستاس ماري الكرملي - هولندا ٢٠٠٢م.

٥٥. أعلام الهند (مجلدان) - هولندا ١٩٩٥. بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٥، القاهرة، مكتبة مدبولي ٢٠٠٨.

٥٦. ملحمة الرامايانا الهندية - بومباي ١٩٨٥. دمشق - دار نينوى ٢٠٠٨.

٥٧. تحية الهند - دمشق ١٩٨٨ - طبعة ثانية ١٩٨٩ تقديم الشاعر: عمر أبو ريشة.

٥٨. أوراق الذهب (المعادن اللجينية في المحاسن الوهبية الحسينية) تأليف: السيد محمد عباس التستري الجزائري اللكهنوي - بومباي ١٩٨٩، بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٧.

٥٩. الشيعة في العصر المغولي - بومباي ١٩٨٩. هولندا ٢٠٠٥.

٦٠. تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين - لزين الدين المليباري المعبري (ت بعد ٩٩١ هـ) دار الوفاء، بيروت ١٩٨٥.

٦١. عجائب الهند بره وبحره وجزائره - لبزرك بن شهريار الرامهرمُزي (صنفه حدود ٢٢٩ هـ) بيروت ١٩٨٦.

٦٢. مصادر الدراسات الهندية - ليدن - هولندا ١٩٩١. مؤسسة البلاغ، بيروت ٢٠٠٧.

٦٣. أسد الله غالب شاعر الهند - هولندا ٢٠٠٥

٦٤. ملوك حيدر أباد (تاريخ المملكة القطب شاهية) - هولندا ٢٠٠٥ .

٦٥. طمأنينة النفس (سكمني صاحب) - نص سيخي مقدس - بيروت ١٩٩٦.

٦٦. الهندوسية تاريخها وتقاليدها - هولندا ١٩٩٥

٦٧. تيبو سلطان أسد ميسور - هولندا ١٩٩٥.

٦٨. طاغور شاعر الهند الملهم (دراسة - مختارات) هولندا ١٩٩٥

٦٩. تاريخ مملكة أوده - هولندا ١٩٩٤.

٧٠. الكتابات الإسلامية في الهند (مجلدان) - هولندا ١٩٩٢. هولندا ٢٠٠٩.

٧١. المملكة البهمنية (٧٤٨ - ٩٣٢ هـ) - ليدن - هولندا ١٩٩٨

٧٢. المملكة النظام شاهية (وأسرار الإسماعيلية المستترة في الهند) - ليدن - هولندا ١٩٩٨.

٧٣. المملكة العادل شاهية - ليدن - هولندا ١٩٩٨.

٧٤. مملكة كجرات الإسلامية - ليدن - هولندا ١٩٩٧.

٧٥. أوصاف الأشراف للشيخ نصير الدين الطوسي - الهند ١٩٨١. هولندا ٢٠٠٤.

٧٦. أخبار أمير المؤمنين وزهده لأحمد بن حنبل - بلجيكا ١٩٩٣.

٧٧. اليهودية والمسيحية في المراجع العربية - هولندا ١٩٩٩.

٧٨. الشيخ أحمد الوائلي أمير المنبر الحسيني - دار المرتضى، بيروت، ٢٠٠٦، الطبعة الثانية دار مدين، قُم ٢٠٠٧.

٧٩. وسيلة المولم المرفوعة إلى سيد ولد آدم محمد المبعوث إلى كافة العرب والعجم للشيخ عبد الله بن علي الأنف الاسماعيلي (المتوفى ٨٨٢ هـ) بلجيكا ١٩٩٦.

٨٠. المخطوطات العربية في مكتبة المدرسة الفيضية - إيران. هولندا.

٨١. المخطوطات العربية في مكتبة السيد الكلبايكاني - إيران. هولندا.

٨٢. المخطوطات العربية في مكتبة مسجد أعظم - إيران. هولندا.

٨٣. المخطوطات العربية في مكتبة السيد المرعشي (تلخيص) - ايران . هولندا

٨٤. مخطوطات المدرسة الشبرية في النجف الاشرف. ١٩٧٩، ونشر في الجزء الأول من موسوعة الموسم ١٩٨٩م.

٨٥. المنتخب للطريحي (كلمات وقصائد عاشورية) (مجلدان)، بيروت، دار المرتضى، ١٩٩٢.

٨٦. فضل أمير المؤمنين للحافظ تقي الدين علي بن الحسن ابن عساكر الشافعي، بيروت ٢٠٠٨.

٨٧. الأحمدية القاديانية في ميزان الحق. هولندا ٢٠٠٨، الطبعة الثانية، دار نينوى، دمشق٢٠١٢.

٨٨. أساطير أفريقية (مراجعة)، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٧.

٨٩. السيخ تاريخهم وعقائدهم، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٩.

٩٠. حكم النبي محمد (ص) لتولستوي (مراجعة وتقديم)، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٩.

٩١. منشآت السلاطين، (الرسائل العربية) هولندا ٢٠٠٨.

٩٢. فلوس الهند (تاريخ العلاقات العربية الهندية وقصة وقف أودة : الوقف الملكي الشيعي للعتبات المقدسة في النجف وكربلاء). لندن ١٩٩٩.

٩٣. كنوز العلويين ومآثر الفاطميين (كرامات آل محمد)، دار المرتضى، بيروت ٢٠٠٨.

٩٤. موسوعة الديوان (في التراث العراقي)، (٤ أجزاء) لاهاي ٢٠٠٠.

٩٥. النسيج والسجاد الصفوي في مرقد الإمام علي (ع) في النجف الأشرف، هولندا ٢٠٠٩.

٩٦. إمارة رامبور، هولندا ٢٠٠٩.

٩٧. التنبؤات البابلية، دار نينوى ٢٠٠٩.

٩٨. السحر المصري، دار نينوى ٢٠٠٩.

٩٩. ألحان الإيمان وأناشيد أمناء الرحمن، بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٩.

١٠٠. تاريخ الاسرة الاريانية في اليمن وسير اعلامها - أكاديمية الكوفة - ٢٠١٢. والطبعة الثانية، دار الرافدين - بيروت٢٠١٤.

١٠١. سبحة المرجان في اثار هندستان - للشيخ غلام علي ازاد الحسيني البلكرامي (١١١٦ - ١٢٢٠ هـ) هولندا ٢٠١٢ . ط ٢ - بيروت - دار الرافدين ٢٠١٤.

١٠٢. علي امام الامم - مجلدان - ٢٠١٣.

١٠٣. ذكرى الشيخ محمد كاظم الطريحي - هولندا ٢٠٠٤.

١٠٤. هكذا عرفوا جعفر الخليلي - هولندا - ٢٠٠٧.

١٠٥. اللواتية الحيدرابادية في سلطنة عمان - هولندا ٢٠٠٨.

١٠٦. الرحلات الهندية - هولندا - ٢٠١٣.

١٠٧. الشيعة الأكراد (الكورد فيلية) - هولندا ٢٠١٣، ط ٢ دار نينوى - دمشق ٢٠١٣.

١٠٨. الحساب الهندي - مومباي ٢٠١٠.

١٠٩. الفاطميون والعالم - ٣ اجزاء - هولندا (١٩٩٩ - ٢٠٠٨).

١١٠. مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي - هولندا ٢٠٠٧.

١١١. مسيحيون وشيعة - مقاربات في اللاهوت والميثولوجيا -، تقديم : ميشال جحا، بيرو ت - هولندا ٢٠١٢.

١١٢. المساجد التاريخية في الكوفة - نشر أمانة مسجد الكوفة ٢٠١٢ .

١١٣. الانساب الفاطمية - بيروت - هولندا - ٢٠١٢.

١١٤. عوالم السحر وعلم الحروف والتنبؤات - بيروت - هولندا ٢٠١٢.

١١٥. غوته شاعر المانيا الاعظم - دار نينوى - دمشق - ٢٠٠٩.

١١٦. معالم الشام وأعلامها (الشيعة في بلاد الشام) ٣ مجلدات، هولندا ٢٠١٠.

١١٧. الملكية العراقية - هولندا ٢٠١٤.

١١٨. جمهورية الزعيم (عبد الكريم قاسم) هولندا ٢٠١٤ .

١١٩. بغداد (مدينة الحضارة وعاصمة الثقافة والعمران) هولندا ١٠١٤ .

١٢٠. شيعة الكويت، مع وثائق نادرة عن تاريخ الكويت، هولندا ٢٠١٥ .

١٢١. مواسم الحسين، هولندا ٢٠١٤ .

١٢٢. كربلاء مدينة الفداء، مجلدان. هولندا، ٢٠١٥ .

١٢٣. مصطفى جمال الدين (الكتاب التذكاري) هولندا .

١٢٤. السيدة فاطمةالزهراء سيدة النساء، مجلدان - هولندا ٢٠١٥.

١٢٥. شرح الشافية لأبي فراس الحمداني - القاضي ابن ابي جرادة الحلبي (ت ٥٦٥هـ).

١٢٦. الامام علي بين العلم والاسطورة والتعاليم.

١٢٧. الزرادشتية - هولندا.

١٢٨. سلامة الروح وراحة الجسد - التجارب الصحية والغذائية للمهاتما غاندي - هولندا - ٢٠١٢. ط٢، دار الرافدين - بيروت ٢٠١٤.

١٢٩. الدكتور محمد حسين علي الصغير - عالماً ومفكراً واديباً - هولندا ٢٠١٢.

١٣٠. اليوغا - هولندا.

١٣١. الديانة الجينية - هولندا

١٣٢. مناقب الامام علي (ع) لأحمد بن موسى بن مردويه الاصفهاني المتوفى ٤١٠ هـ - تقديم ونشر - المجمع العلمي الفاطمي - ٢٠١٤ (باللغة الفرنسية).

١٣٣. الانسكلوبيديا العلوية : ١٤مجلد، ٢٠١٥، ويليها مجلدات أخرى..

١٣٤. الآلهة الهندوسية - هولندا.

١٣٥. مخطوطات مكتبة آل الطريحي - دار بريل - هولندا، ٢٠١٤.

